فِقهُ الدَّعوة إلى الله

و

فِقهُ النُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم

فقه الدعوة إلى الله

و

فقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

دراسة استنباطية تشتمل على:

بيان وجوبها، وأسسها، ومناهجها، وسبلها، ووسائلها وآدابها، ونماذج من تطبيقاتها.

الجزء الأول

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

فقه
الدعوة إلى الله
و
فقه
النصح والإرشاد
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الطّبْعَة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

تُطلب جميع كتُبنا مِنْ :
دَارُ القَلم - دمَشق : صَ.بُ : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشّاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
صَ.بُ : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعُوديّة عن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله ربّ العالمين الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليُظْهِرَه على الدين كلّه، وأنزل عليه قوله في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

والصلاة والسلام الأَتَمَّان الأَكْمَلاَنِ على خاتم أنبيائه ورُسُلِه محمّد بن عبد الله، الّذِي بلّغ الرسالة، وأدّىٰ الأمَانَةَ، ونصَحَ الأُمَّة، وجاهدَ في اللَّهِ حقَّ جهاده، لتبليغ رسالة ربّه، وقام بكُلّ وظائفِ رسالته على أحسن وَجْهٍ وأكملِه يُمْكِن أن يقوم به إنْسَانٌ في حدود طاقاته البشريّة، فدعا إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، وعلّم الناس ما أُنْزِلَ إليهم، واتّخذ كلّ وسِيلَةٍ أُتيحتْ له لتزكية من آمن به واتَّبَعَهُ، واستجاب لما يحييه حياةً سعيدةً طيّبة.

فتحقّقَتْ مِنَّةُ الله عزّ وجلّ على المؤمنين، برسوله الرؤوف الرحيم، ذي الخلق العظيم، محمّد ﷺ، إذْ بذَلَ غايَةَ جَهْدِهِ واجتهادِه لتزكيتهم وتعليمهم الكتابَ والحكمة، كما قال الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾.

والسلام على سائر الأنبياء والمرسلين وآلِ كُلٍّ وصحبِ كُلٍّ أجمعين، وبعد:

فهذا كتاب استَجَبْتُ في كتابته لطلَبِ عدد من أهل العِلْم والفضل والغيرة على قضايا الأمّة الإسلاميّة، إذْ رغبوا إليَّ بإلحاح في أنْ أكتُبَ كتاباً جامعاً لأسُسِ الدَّعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، وجامعاً لأُصولها ومناهجها ووسائلها وآدابها، استنباطاً من مصادر الشريعة الإسلاميّة، فاجْتَهَدْتُ بمعونةٍ من الله وفضلٍ وفَتْحٍ ومَدَدٍ أَنْ أشرح فيه فِقْهَ الدعوة إلى الله وصراطِه المستقيم، وفِقْهَ النُّصْحِ والإرشاد والأَمْرِ بالمعروف والنّهي عن المنكر، بالتأمُّل المباشر، في دلالات النصوص القرآنيّة، والأحاديث والسّيرة النبويّة، وتاريخ دُعاة المسلمين وأعْلَام أئمّتِهم، مع ملاحظة موازين الحكمة العقليّة والتجريبيَّة، والقواعد والأصول الصحيحة الّتي توصّلتْ إليها التجربات الإنسانيّة، وسألْتُ الله، وبَرِئْتُ إليه من حولي وقوتي، وشَرَعْتُ مُتوكّلاً عليه.

وقد عَمدْتُ إلى استخراج الأُصُول العامة، والقواعد والوصايا والمناهج والسُّبُل والوسائل والآداب الّتي تُسَاعِدُ حامل الرسالة من أتباع محمّد ﷺ على أن يتَعَرَّف على ما ينبغي له اتّخاذه في أداء رسالته، حتّىٰ يؤدّي وظائفها أداءً رشيداً مفيداً، مُهْتَدِياً فيه بهدّي كتاب اللَّهِ وسنَّةِ رسُوله القوليَّة والعملية، ومُتَأَسِّياً فيه بالراشدين من دعاة المسلمين في التاريخ، الناصحين المرشدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وقد تتبَّعْتُ النُّصوص القرآنيّة المتعلّقة بموضوع هذا الكتاب، فجمعتها، واستشهدْتُ بها في مواضعها، مع نظرات تدبريَّةٍ مفصّلَةٍ إليها،

أخذتْ حجماً كبيراً من صفحات الكتاب.

واجتهدْتُ أَنْ أكون مستقصياً كلَّ النُّصوص الّتي وجَدْتُها ذوات دلالاتٍ نافعاتٍ في موضوع هذا البحث الواسع، ومُتَّصِلاتٍ به، ليكون الاستخراج والاستنباطُ أصَحَّ وأشْمَلَ وَأكْثَر تَكاملاً.

وقد اشتمل هذا الكتاب على خمسة أبواب:

● **أمّا الباب الأول:** فقد اشتمل على مقدماتٍ عامّات مُقَسّماتٍ إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تناول بيان وظيفة الأمّة الإسلاميّة في حملها رسالة الرسول محمد ﷺ، في الدعوة إلى الله، وإلى سبيله، وفي النُّصْحِ والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفصل الثاني: تناول بيان أثر النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في الإصلاح، وحمايةِ المجتمع الإسلاميّ وصيانته.

الفصل الثالث: تناول بيان أصناف النّاس الذين تُوَجَّه لهم وظائف الرسالة.

● **وأمّا الباب الثاني:** فقد اشتمل على بيان الصفات الّتي يجب أن يتحلّىٰ بها حَمَلَةُ الرسالة، وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: يتناول بيان وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة الصَّبْر.

الفصل الثاني: يتناول بيان وجوب تجرّد حامل الرسالة عن المصالح الشخصيّة لدىٰ من يُوجّه لهم رسالته.

الفصل الثالث: يتناول بيان وجوب تحلّي حامل الرسالة بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه من فضائل.

الفصل الرابع: يتناول بيان وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفات عباد الرحمن، الذين هم أئمة المتقين.

الفصل الخامس: يتناول بيان الأهليّة البيانية لحامل الرسالة.

الفصل السادس: يتناول بيان الأهليّة العلميّة لحامل الرسالة.

● **وأمّا الباب الثالث**: فقد اشتمل على بيان قواعد ووصايا كليّة عامة لحَمَلَةِ الرسالة، وبيان طائفةٍ من آفات حَمَلة الرسالة، وفيه فصلان:

الفصل الأول: يتناول بيان القواعد والوصايا الكليّة العامة.

الفصل الثاني: يتناول بيان الآفات.

● **وأمّا الباب الرابع**: فقد اشتمل على بيان مناهج ومسالك ووسائل الهداية والإصلاح والحمايةِ بالقول والعمل، وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول: يتناول بيان التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر.

الفصل الثاني: يتناول بيان العقبات الصادَّاتِ للتوجيه، وأساليب معالجتها.

الفصل الثالث: يتناول بيان المنهاج البياني ومسالكه: (الحكمة ـ والموعظة الحسنة ـ والجدال بالتي هي أحسن).

الفصل الرابع: يتناول بيان وسائل الأداء البياني.

الفصل الخامس: يتناول بيان أدوات التوصيل الإعلامي، ومسؤولية حملَة الرسالة بالنسبة إليها.

الفصل السادس: يتناول بيان المنهج الربّاني للسياسة الحكيمة الموجهة للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمّته.

الفصل السابع: يتناول بيان المجتمع الإسلاميّ والمنكرات حمايةً وتغييراً.

● **وأمّا الباب الخامس**: فقد اشتمل على استعراض نماذج تطبيقيّة من هَدْي الرُّسُل عليهم السلام، ثم من سار على هديهم، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: صور من سياسة الرُّسُل في أدائهم رسالات ربّهم.

الفصل الثاني: نماذجُ دُعاةٍ من غَير الرُّسُل عرض القرآن الكريم دعوتهم ونصرتَهُمْ لدينه.

الفصل الثالث: نماذج من وصايا الآباء للأبناء.

الفصل الرابع: صورٌ ونماذِجُ عامّة.

ومع اهتمامي بالاستخراج والاستنباط المباشرين من نُصُوصِ القرآن والسُّنَّةِ القوليّة والعمليّة، فإنّني قَدْ نَظَرْتُ في كُلِّ ما وقَعَ تَحْتَ يَدَيَّ من كتُبٍ قديمة وحديثةٍ، أُلِّفَتْ في موضوعات هذا الكتاب، وأَفَدْتُ ممَّا وجَدْتُ فيها من مُفيد داخلٍ في الشجرة الفكريّة الكليّة لموضوعات الْعِلْم الّذِي تُعالج بَيَانَ عَنَاصِرِهِ وتَشْرَحُها بُحُوثُ هذا الكتاب.

غير أنّ الخطّة العامّة الشاملة، الّتي قَصَدْتُ أن تشتمل عليها الدّراسة الاستنباطيّة الّتي تصوّرْتُها لهذا الْعِلْم، لم أجِدْها فيما سبق من مؤلّفات، ولم أستَفِدْها من كتابٍ سابق، بل هي ممّا فتح اللّهُ به عليَّ بِمَنِّهِ وجودِه وفَيْضِ عطائه، وقد كانت تتوارَدُ عليَّ توارُداً تكامُلِيّاً خلال الْبَحْثِ والكتابة، ولم تكن جاهزة عندي مُنْذُ البداية.

وأرجو أَنْ أكُونَ قَدْ وُفِّقْتُ في هٰذِهِ الدّراسة الّتِي اشْتَمَلَ عليها هذا الكتاب، لتَأسِيس عِلْم لَمْ يَسْبِقْ لَهُ تَدْوِينٌ يَشْمَلُ كُلَّ عناصر شجرته الفكريَّة، لكنِ اشتَمَلَت المكتوبات السابقات على متفرّقات متناثرات نافعات، غير متكاملاتٍ في نظامٍ واحد.

وأسْأَلُ الله الْعَلِيّ القديرَ الْمَنَّانَ، ذا الجود والفضل والإحسان، أنْ ينفع

بـه المسلميـن، وأن يَجْعَـلَهُ بمثابـة بناءِ تأسِيسيٍّ قَابـلٍ للتكمـيل والإضافة والتحسين، من قِبَلِ الباحثين ذوي الاهتمام المجتهدين في البحث والتنقيب، ومنْ قِبَلِ الدُّعاةِ الناصحين المرشدين الغيورين المجرِّبينَ، حتّىٰ يكون هذا الْعِلْمُ صَرْحاً من صروح العلوم الإسلاميّة الراسخة الرصينة.

وفي ختام هذه المقدمة أُهْدِي جَزِيلَ شكري، وعظيم امتناني، إلى مَنْ يُهْدِي إليَّ تَصْوِيباً، أو تَعْدِيلاً، أَوْ إضافةً، أَوْ نُصْحاً.

وآخِرُ دَعَوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وسَلامٌ على عباده الذين اصْطفىٰ.

مكة المكرمة في يوم الجمعة
١٨ من شهر محرّم لعام ١٤١٦ هجرية
و ١٦/٦/١٩٩٥ ميلادية

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني
أستاذ بجامعة أمّ القرىٰ
في مكة المكرمة

البَابُ الأوّل

مُقَدّمَاتٌ عَامَّات

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: الأمة الإسلامية حَمَلةُ رسالَةِ هدايةٍ وإصلاح:

- بالدعوة إلى الإيمان بالله، وإلى سلوك صراطه المستقيم، بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، مع المتابعة بالتذكير إنْ نفعت الذكرى.
- وبالنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفصل الثاني: أثَرُ النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإصلاح وحماية المجتمع الإسلامي وصيانته.

الفصل الثالث: نظرةٌ عامَّةٌ إِلَىٰ أصناف النّاس الذين تُوجَّهُ لهم وظائفُ الرسالة.

الفصل الأوّل

الأمّة الإسلامية حملة رسالة هداية وإصلاح

- بالدعوة إلى الإيمان بالله، وإلى سلوك صراطه المستقيم، بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، مع المتابعة بالتذكير إن نفعت الذكرى.
- وبالنُّصْح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفيه ثماني مقولات:

المقولة الأولى: تعريفات عامّات.
المقولة الثانية: الدعوة والتبليغ.
المقولة الثالثة: الشهادة يوم الدّين على الّذين تلَقَّوا البلاغ.
المقولة الرابعة: حكم تبليغ دين الله للناس.
المقولة الخامسة: التذكير والنُّصْحُ والإرشاد.
المقولة السادسة: وظيفتا الهداية، والإصلاح.
المقولة السابعة: منزلة الدعوة إلى دين الله في سلّم الأولويّات الجهاديّة.
المقولة الثامنة: أقسام الدُّعَاةِ الْهُداة، والْمُصْلِحين الْحُمَاة.

المقولـة الأولى

تعريفـات عامـات

للدعوة، والتبليغ، والتذكير، والنُّصْح، والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١ ـ الدّعـوة:

الدّعوة إلى الشيء أو الأمرِ لُغَةً: هي الطلبُ بشدّةٍ وحَثٍّ إلى الاستجابة لما تكون الدعوة إليه، أخذاً أَوْ تركاً، من اعتقاد أو قولٍ أو عَمَل.

وممّا ينطبق عليه هذا التعريف اللّغوي ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ... ﴿٢٤﴾ ﴾.

وتكون دعوة القريب بنداءٍ منخفضٍ مُسْمِع، وتكون دعوة البعيد حسّيّاً أو معنويّاً بنداءٍ عالٍ وصياح.

وتكونُ الدّعوة بالمقال ملفوظاً، وقد تكون بالكلام مكتوباً، وقد تكون الدّعوةُ بالحال عن طريق عَرْضِ النموذج لتقليده والاقتداء به، وقد تكون بوسائلَ مُبَاشرة وبوسائلَ غير مباشرة، وقد تكون بوسائل إغرائية أو تَحْذِيريّة مثيرة لدوافع النفوس ورغباتها في الإقبال أو النفور.

وإطلاقُ عنْوان الدعوة على ما يتضمّن معناها بغير الكلام إطلاقٌ مجازيٌّ على سبيل المجاز المرسل، وهو من إطلاق اللّفظ على أيّ دليل آخر يؤدّي معناه.

ومن هذا التعريف العامّ للدعوة نستطيع أن نستخلص تعريفاً منضبطاً للدعوة إلى الإسلام.

فالدعوة إلى الإسلام: هي الطلب بشدَّةٍ وحثٍّ علىٰ الدخول في دين الإسلام اعتقاداً وقولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً.

وعِلْمُ الَّدعْوة إلى الإسلام: هو العِلْمُ الذي تُعْرَفُ به مناهجُ ومسالكُ ووسائلُ وآدابُ الدَّعَوةِ إلى الدخول في دين الإسلام اعتقاداً وقولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً.

والأصْلُ في الدّعوة إلى الإسلام أن تكون لغير المسلمين، وقَدْ تكون لبعض المسلمين حينما يكون حالُهُمْ مِثْلَ حال غير المسلمين.

٢ ـ التبليـغ:

يُقال لغةً: بلَّغَ الرجلُ الشيءَ تَبلِيغاً إلى كذا، وأبْلغَهُ إبلاغاً وبلاغاً إلى كذا، إذا أوصله إليه.

وعليه نقول: بلَّغَ أو أبْلَغَ الدّاعي إلى الله نُصُوصَ الدّين وبياناته وتعليماته أو شيئاً منها إلى الناس تبليغاً وإبلاغاً وبلاغاً إذا أوصلها إليهم، قولاً مسموعاً، أو كلاماً مكتوباً.

فتَبْليغ نُصُوصِ الدّين وبياناته وتعليماته، تبليغاً يُوصل المعاني إلى فَهْمِ المُبَلَّغِين فَهْماً صَحِيحاً وافياً، أَوَّلُ واجباتِ حملَةِ رسالة الدّعوة إلى الله، وإلى صِراطِهِ المستقيم، مع دَعْوَتِهم إيَّاهم إلى الدخول في دين الإسلام، وإشْعَارِهِمْ بأنَّهم بَعْدَ البلاغ يحملون هُمْ مسؤوليّاتهم تُجَاهَ رَبّهم، وعليهم أَنْ

يتحمَّلُوا نتائج ما يختارون هُمْ لأنفسهم من استجابة وطاعة، أو رَفْضٍ ومعصية.

فإذا استجابوا فَعَلَيْهِمْ أن يتعلّمُوا أحكام الإسلام وشرائِعَهُ ومطلوبات الله منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وأَنْ يضعوا أَنْفُسَهُمْ مستسلمين لوسائل التربية والتأديب والتزكيَة التي يُوجِّهُهَا لَهُمُ الدُّعَاةُ إلى الله وإلى صراطه المستقيم، المؤهَّلُون لحمل هذهِ الرسالة الرّبانية العظيمة.

٣ ـ التـذكير:

التذكير هو إعادةُ ما سَبَقَ تبليغُهُ وبيانُهُ وشرحُه، ليذكُرَهُ مَنْ كان قد تَبَلَّغَهُ حتّى مُسْتَوىٰ الْفَهْم الصحيح الوافي، بأنْ يَجْعَلَهُ حاضراً في ذاكرته، ويَسْتَخْرِجه من مطويّاتِ نفسه، رجاءَ أنْ ينْتَفِـعَ به اعتقاداً، أو قولاً، أو عملاً ظاهراً أو باطناً.

يُقالُ لغة: ذَكَرَ الشيءَ ذِكْراً وَذُكْراً وَذِكْرَىٰ وَتَذْكاراً، إذا استحضَرَهُ في ذَاكِرَته، من محفوظاته السابقات، واستخرجَهُ من الْمَطْوِيَّاتِ في نفسه.

فالذِّكْرُ والذُّكْرُ والذِّكْرَىٰ والتَّذْكارُ ضِدُّ الطَّيّ في النَّفْسِ بعيداً عن ساحة الحضور الآنيّ في الذّاكِرَة، وضدُّ النسيانِ الْكلِّيّ إهمالاً وتَرْكاً، أو عجْزاً عن حفظه في مَطْوِّياتِ النفس ومحفوظاتها.

والتّذْكِرَةُ: ما يَحْصُلُ به تَذَكُّرُ الشَّيْءِ، حتّى لاَ يَطْوِيَهُ أو يستَبْعِدَهُ النسيانُ عن الحفظ. ومن هذا أُطْلِقَ على القُرْآنِ وآياته، وسائرِ النصوصِ الدينيّةِ المدوّنَةِ المطلوب حفظُها لفظ «تَذْكِرَةَ» لأنّ تلاوتها وإعادة قراءتها تُذَكِّرُ بمفهومات الدّين وتعليماته وأحكامه وشرائعه، وسائر مطلوبات الله من عباده.

قال الله عزّ وجل بشأن القرآن في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول):

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

وقال أيضاً بشأنه في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: ما أنزلْنَا عليك القرآن إلاّ ليكون تذكرةً لِمَنْ يَخْشَى.

وقال أيضاً بشأنه في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

لمن يكون التذكير؟:

ويكون التذكير لِمَنْ تَبَلَّغَ سَابقاً، ممَّن لم يستَجِبْ للإسلام، أو ممّن استجاب له، وهو بحاجة إلى استذكار ما عَلِمَ سابقاً من نصوصه وتعليماته وشرائعه وأحكامه ووصاياه.

٤ ـ النّصْح:

نُصْحُ الإنْسَانِ للإنسان بالبيان، أن يَدُلّهُ على ما هو خير لَهُ، ويُرَغِّبَهُ فيه، ويَحُثَّه عليه، ويُبَيّنَ لَه ما يُحِبُّ من عاقبةٍ حسنة، إذا أخذ بما نصحه به، ومَا يكْرَه من عاقبة سيّئة إذا لم يستجب لنُصْحِه، بشرط أن يكون هذا البيان خالياً من الْغِشّ والخديعة والتوريط فيما لا خير فيه.

فالنصيحة: هي المقالة الهادية إلى خير المنصوح، الخاليةُ الخالصة من دَخَلٍ وغشٍّ له.

وأصلُ النُّصْح الخُلُوصُ من الشوائب، يقال: نَصَح الْمَعْدِنُ كالذهب إذا خلص من الشوائب المخالفة لجوهره.

وتُوجَّهُ النّصيحةُ لكلّ من يُدْرِكُها ويُمْكِنُ أن ينتفِع بها، ولو كان كافراً رافضاً الاستجابة للدّعوة إلى الإيمان والإسلام، فالنصيحةُ تكون لغير

المسلمين، بدعوتهم إلى الدخول في الإسلام، وتكون للمسلمين بحثّهم على التزام صراط الله المستقيم، وأداء واجبات الإسلام، واجتنابِ مُحَرّماته، والعَمَلِ بما رغَّبَ بفِعْلِه، وتَرْكِ الْعَمَلِ بما رغَّبَ بتركه.

ومن شواهد استعمال النصيحة في هداية غير المسلمين، قول الله عزّ وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لما قال نوح لقومه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وكذلك ما جاء فيها بشأن صالح وشُعَيْبٍ عليهما السلام.

ولمّا كانت النّصيحة شامِلَةً عامَّةً، جاء في الحديث الصحيح قول الرسول ﷺ: «الدِّينُ النصيحة».

روى مسلمٌ عن تميم بن أوْسٍ الدارِيِّ، أنّ النبـي ﷺ قال:

«الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ».

قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال:

«لِلَّهِ، ولِكِتَابِهِ، ولِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وعَامَّتَهِمْ».

وكان الرسول ﷺ يُبَايِـعُ أَصْحَابَهُ على النُّصْحِ لِكُلِّ مسلم.

روى البخاريُّ ومسلم عن جَرير بن عبد الله، قال: «بَايَعْتُ النبـيّ ﷺ على إِقَامِ الصلاة، وإيتَاءِ الزَّكَاةِ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

وروى مسلم عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلاثاً: يَرْضَىٰ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ».

٥ ـ الإرشـاد:

الإرشاد في اللّغة: الهداية، يقال لغةً: أرشَدَهُ إلى الأَمْرِ إرشاداً، ورَشَّدَهُ تَرْشيداً، أي: هداه إليه.

وإرشاد الضّال: هدايتُه الطريق، وتعريفُه به.

الرُّشْدُ والرَّشَدُ والرَّشَادُ: هو السُّلُوكُ الفكريّ والنفسيّ والخُلُقيّ والعمليُّ الموافق للحق والصواب، أو لما هو الأفضل والأحسن والأكْثَرُ نفعاً، والأَبْعَدُ عَن الضرر.

ويقال لغةً: رَشَدَ يَرْشُدُ فهو راشِد، ورَشِدَ يَرشُدُ رَشَداً ورَشاداً فَهُو رَشِيدٌ، إذا اهتدى إلى الحقّ والصواب، أو لمَا هو الأَحْسَنُ والأفضل.

٦ ـ الأمْرُ بالمعروف والنهي عن المنكر:

المعروف لغة: هو الْمَعْلُوم، يقال لغة: عَرَفَ الشيءَ يَعْرِفُه مَعْرِفَةً وعِرْفَاناً، إذا عَلِمَه.

ويقال: عَرَّفَهُ الأَمْرَ، إذا أعْلَمَهُ إيّاه، وعَرَّفَهُ بَيْتَهُ إذا أعْلَمَهُ بمكانه.

فالأَمْرُ الْمَعْرُوفُ هُوَ الأمْرُ المعلوم، والْمَعْرُوفُ ضِدُّ الْمُنْكَر بمعنى المجهول.

ويُطْلَقُ الْمَعْرُوفُ والْعَرْفُ علَى الْجُودُ والإحْسَان، يقالُ: فُلَانٌ صاحِبُ مَعْرُوف أو عُرْفٍ، أيْ: جوادٌ مُحْسِنٌ.

ويُطْلَقُ المعروفُ لغةً على ما يُسْتَحْسَنُ من الأفعال.

أمّا المعروف في الاصطلاح الإسلامي: فهو يُطْلَقُ على كلّ ما أمَرَ الشارع بفعله إلزاماً أو ترغيباً، فهو كلُّ ما يُسْتَحْسَنُ فِعْلُهُ في الإسلام، ويَدْخُل فيما هو مُسْتَحْسَنٌ في الإسلام كُلُّ ما هو حَسنٌ في العقول السليمة الصحيحة الرّشيدة.

وأمّا المنكر في الاصطلاح الإسلامي: فهو يُطْلَقُ على كُلِّ مَا نَهَىٰ الشَّارِعُ عَنْ فِعْلِه نَهْياً إلزاميّاً تحريميّاً، فهو كل مُسْتَقْبَحٍ في الإسلام، ويدخُلُ فيما هو مستقْبَحٌ في الإسلام ما هو قبيحٌ في العقول السليمة الصحيحة الرشيدة.

ولا يَدْخُلُ في المنكر ما يُسْتَحْسَنُ تَرْكُهُ وَلا يَنْبَغِي إنكاره، بل يقال فيه: من المعروف تركه، لأنّ الشارع أمر بتَرْكِه ترغيباً لا إلزاماً.

ولا يَعْرِفُ مفرداتِ المعروفِ ومفرداتِ المنكرِ في الاصطلاح الإسلاميّ إلاَّ مُسْلِمٌ تَعَلَّمَ أحكامَ الإسلام وشرائِعَهُ، وعَرَفَ أنَّه مُطَالَبٌ شرعاً بتطبيقها، واتّباع ما جاء فيها، فهو الذي يُوجّه له الأَمْرُ بالمعروف والنهْيُ عن المنكر وفق الاصطلاح الإسلامي.

وعلى هذا فلا يُوجَّه الأمْرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المنْكر وفْقَ الاصطلاح الإسلاميّ إلاّ لمن أَسْلَمَ، وتعلَّمَ أحْكَام الإسلام وشرائِعَه، فَعَرَفَ المعروفَ وعَرَفَ المنكر في اصْطلاحِهِ.

ويُمْكِنُ توجيهُ الأمر بالعُرْفِ وبالمعروف لغير المسلمين بمعنى الجود والإحسان للنّاس، وبمعنى ما يُسْتَحْسَنُ من الأَفْعَالِ في أعرافِ الناس بوَجْهٍ عامٍّ، لأنّ هذه الأمور لا تَخْتَصُّ بمن أَسْلَمَ والْتَزَمَ العمل بأحكام الإسلام، بل تَعُمُّ الناس جميعاً، ويُدْرِكُهَا الناس جميعاً بمفاهِيمِهِمُ العامّة، بشرط أَن يكونَ مَا يُوَجَّهُ لَهُ مِمّا هو مُسْتَحْسَنٌ مَأْمُورٌ بِهِ في الإسلام.

ويُمْكِنُ نَهْيُ غيرِ المسلمين عن المنكر من الأفعال في أعراف النّاسِ إذا كان ممّا هو قبيحٌ منهيٌّ عنه في الإسلام.

* * *

المقـولة الثـانية

الدعـوة والتبـليغ

١ ـ مرّت البشريّةُ في مراحل كثيرةٍ مُنْذُ نشأَتِهَا، وكانَتْ تَرْتَقِي قَرْناً بَعْدَ قرْنٍ في معارجِ الفكْرِ والْعَلْمِ والْخُلُقِ، وفي مُخْتَلِف الظّواهرِ الحضاريّة، والْعَلاَقَاتِ الإنسانيّة الاجتماعيّة السلْمِيَّةِ والْحَرْبية، الأُسْرِية والقبليّة والقومية والشّعوبيّة بوجْهٍ عامٍّ، وتَتَشَابَكُ فيها العلاقات الاقتصاديّة والسّياسية والإداريّة والحقوقيّة على اختلاف أجناسها وأنواعها وأصنافها.

٢ ـ وكان الله عزّ وجلّ يصطفي منهم أنبياءَ لوَحْيِهِ، ويُرْسلُ منْهم إليهم رُسُلاً بحسب مقتضىٰ حاجةِ الأُمَم والشعوب والأقوام المتباعدة التي ليْسَ بَيْنَهَا خُطُوط مُواصلاتٍ، وكَانَ يُنْزِلُ على الرسُلِ كتباً ليُبَلّغوها مَنْ أُرْسِلُوا إليهم، وليُبَلّغُوهم مَعَها رِسَالاتِ ربّهم الأخرىٰ الّتي يأْمُرُهُمْ بتبليغها وَلوْ لم يُنْزِلْ بَيَانَهَا في كُتُبه، وليقومَ الّذينَ آمَنُوا بالرُّسُلِ بتعلُّمِ ودِرَاسةِ رِسَالاتِ رَبّهمْ، والمحافَظَةِ عليها، واتّبَاع ما جاء فيها، والْعَمَلِ بما أوجب الله عمَلَه، واجتناب ما نَهىٰ الله عَنْهُ نهياً جازماً، ولتكون رسالات الله في ذاكرات أهل الذكْرِ مِنْهُمْ للتذكير بها عند المناسبات الداعيات، فوجود أهل الذكْرِ فيهم على مقادير الحاجات من فروض الكفاية.

وكان على الّذِين آمنوا برُسُلِ رَبِّهِم أَنْ يقُوموا بدعوة أقوامِهِمْ إلى دين

رَبِّهِمْ، واتّباع رسُلِه، على مقدار ما يستطيعُ كُلُّ واحدٍ مِنْهُم من دعْوَةٍ بعلمٍ وحكمةٍ، وموعظةٍ حسنةٍ، ومجادلَةٍ بالّتي هي أحسن، أو مناصرةٍ وتأييد للرّسول، أو للدُّعاةِ من أمّته.

٣ ـ وكان الرُّسُل يَخْتَارون من أَتْباعهم مَنْ يَرَوْنَهُمْ مؤهّلين لحمل الدين والدّعوة إليه، والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكرِ، فيكلّفونهم القيامَ بهذه الرّسالة، مع تكليف جميع الذين آمنوا بهم بمناصرة دين الله ومناصرة رسوله، ومناصرة الدُّعاة من المؤمنين، وأن يَدْعُوَ كُلُّ واحدٍ منهم على مقدار عِلْمِهِ وإمكاناته.

فكان من خاصة موسى عليه السلام: «يوشع بن نون» و «كَالِبُ بْنُ يَفُنَّة» و «أَلِعَازَار الْكَاهن بن هارون» وغيرهم، ويمكن أن يكون منهم بقيّةُ السبعين الذين اختارهم عليه السلام للقاء الاعتذار، فهؤلاء كانوا مؤهلين للقيام بالدعوة إلى دين الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان من خاصَّةِ عيسى عليه السلام الحواريُّون، ثم الرُّسُل السبعون الذين كلَّفهم أَنْ يكونوا دُعاةً إلى دين الله، وأن ينشروه في الأرض، وقد فعلوا، وبهم انتشر دِينُ اللّهِ في مساحاتٍ واسعاتٍ من الأرضِ، وفي أُمَمٍ كثيرة مختلفة الأعراق والأقوام.

٤ ـ لكنَّ الأُمَم السابقَةَ لم تكن بحسبِ أوضاعها الفكريَّةِ والحضاريَّةِ والنفسيَّةِ مُؤَهَّلَةً لحفظِ كتاب الله وحِفْظِ دِينِه من التحريف والتغيير، ولا أمينةً عليه، ولا قائمةً بنشر دين الله صافياً من الشّوائبِ والتحرِيفات والمفاهيم والأحكام والعبادات الدخيلة عليه، فلم يصْطفِها اللّهُ لتكونَ وارثةَ كتابِهِ الخاتم، ولا أمينةً على نشر رسالته التي أنزلها على رُسُلِه بالتَّتابع والتكامل حتَّىٰ درجة التَّمَام.

٥ ـ ولمّا وصَلَتِ البشريّة إلى مرحلةٍ من الارتقاء الفكريّ والْعِلْمِيّ

والنَّفْسِيّ والحضاري، وإمكاناتِ التواصُل بين الشعوب، صالحةٍ لأنْ تتقبّلَ رسالةً عامةً واحدةً، كانَ من حكمة الله عزّ وجلّ أنْ يصطفي للناسِ جميعاً رسالتَه الخاتِمَة، والكتابَ الخاتم، والرّسولَ الخاتم، والأُمَّةَ الخاتمة.

● فاصطفى الله للناس جميعاً الدّينَ كاملاً تامّاً، وأتمَّ به نِعْمَتَه على عباده، وجعلَه الدّين الخاتم، وجعل رسالته فيه الرِّسالة الخاتمة.

● واصطفى لهم القرآن كتاباً هو آيةٌ أنّه كتاب الله لا كتابٌ من بشر، بما فيه من وجوه إعجازٍ تجعل أولي الألباب يؤمنون بأنّه تنزيل العزيز الحميد، وجعله هو الكتاب الرّبّاني الخاتم.

● واصطفَىٰ مِنَ النّاس لتلقّي الوحْي بهذا الدّين الخاتم محمّدَ بْنَ عبد الله ﷺ من عرب قريش، الذين هم من سلالة إسماعيل بن إبراهيم[١] عليهما السلام من زوجته هاجر المصرية، الّتي أهداها فرعون مصر إلى زوجته سارة، التي استمرّت عقيماً حتى كَبِرَت سِنُّها، فأهدتها إلى زوجها إبراهيم، فولدت له إسماعيل عليه السلام، وأمره الله بأن يسكنهما في مكّةَ عند بيته المحرّم، إذ كانت وادياً غير ذي زرع ولا ماءٍ ولا ساكِنين، ثم أصلح الله لإبراهيم زوجَتَه سارة، فولدت له إسحٰق عليه السلام، وكان من ذرّيته أنبياءُ ورُسُلُ بني إسرائيل.

● واصطفى الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ جمهوراً من الصادقين الأطهار المجاهدين الذين آمنوا به واتّبَعُوهُ منْ قومه وبَعْضِ غَيْرِ قومه، فَكانوا أصحابه وأنصاره، فحملوا رسالته عامِلِينَ بها، وداعين إليها، وناشرين لها، ومجاهدين في سبيل الله حقّ جهاده، مُعْلِين كلمته، وحَافِظِينَ لكتابه، وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

---

(١) إبراهيم عليه السلام عراقي المولد والنشأة، شامي المُهَاجَر، ناشر ذُرّيته في الشامِ والحجاز وسيناء.

● واصطفى الله عزّ وجلّ لحفظ كتابه وسُنَّةِ رسوله، ولنشر هذا الدين في الناس أجمعين أمَّةَ الإجابَةِ لدَعْوةِ الرّسول الخاتم، فأورثَهُمُ الكتابَ، وحمَّلهُمْ وظيفة تبليغ هذا الدين للناس أَجْمَعِين، وجعل منهم طَائفَةً ظاهرةً علَىٰ الحق، تُمَسِّكُ بالكِتَاب، وتدعو إلى هذا الدين بصِدْق، وهٰذهِ الطائفة لا تزال تتجدّد وتتوارث حمْلَ رسالةِ الإسلام خلفاً عن سلَفٍ حتّى انتهاء مدّة امتحان الناس في الحياة الدّنيا.

ونظراً إلى فضل الدّعوة إلى الله وهداية الخلق إلى الحق قال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر فيما رواه البخاري ومسلم ـ من حديث طويل ـ:

«. . . فوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً واحداً خَيْرٌ لَكَ من أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»(١).

وأُمّة الإجابة هذه هم كلُّ مَنْ آمن بهذا الدّين الخاتم، من كلّ شعوب الأرض، ويبرُزُ منهم مُرْتَفِعاً أئمة المتقين، الموصوفون بأنّهم عباد الرحمن، فيتسلَّمُ رَايَةَ الدّعْوة إلى دين الله خلفٌ عن سلَفٍ، حتَّىٰ تَنْتَهِيَ ظروفُ امتحانِ الناس في الحياة الدنيا.

فالأمّة الإسلاميّةُ هي الأمّة الوارثة لكتاب الله الخاتم، وقد أدَّتْ وظيفتها بحفظه والحَمْدُ لله، وبحفظ سنّةِ رسوله ﷺ.

وقام السابقون بتأدية وظيفة تبليغ الإسلام ونَشْرِهِ في الأرض، مع تقصيراتٍ في بعض القرون، مسَّهُمْ بسببها ظُلْمٌ وعدوانٌ عليهم من الأُمَم، وبَعْضُ ذُلٍّ وَهَوَانٍ.

---

(١) البخاريّ: كتاب فضائل الصحابة (٩ باب مناقب علي). مسلم: (فضائل علي بن أبـي طالب رضي الله عنه).

وعلى كلّ جِيلٍ من هذه الأمّة أن يقوم بوظيفة تبليغ الإسلام ونشره في الأرض، مَعَ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر داخل جماعات المسلمين، لصيانتهم وحمايتهم عن انتشار الفساد فيهم، الّذي يَقْذِفُ بهم في أودية الضّلالِ والْغَيِّ فالمهالك.

وفيما يلي طائفة من النصوص الكاشفة لعناصر هذه الفِقَرة الأَخيرة:

النـص الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/٣٥ مصحف/٤٣ نزول) خطاباً لرسوله بشأن القرآن، فَبَيَاناً لوارثيه المصطفَيْن من أُمَّةِ الإجابة:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

فالأمَّةُ الإسلاميّة الخاتمةُ هي الأمَّةُ الّتي اصطفاهَا الله عزّ وجلّ بحكْمَتِهِ لِورَاثَةِ كِتَابِهِ الخاتم القرآن، إذْ عَلِمَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهَا مُؤَهَّلَةٌ لِحِفْظِ هَذا الكِتَابِ، ونَشْرِهِ في الناس، عَلَىٰ الرّغم مِنْ وُجُودِ قِسْمٍ مِنْهُمْ هو ظالم لنفسه بالمعاصي والمخالفاتِ على اختلاف دركاتها من دونِ الشرك بالله، وأمّا القسم الثاني منهم فَهُو مُقْتَصدٌ يكْتَفِي بحدود التَّقْوَىٰ، فلا يتْرُكُ الفرائض وَالواجبات، ولا يَرْتَكِبُ المُحرَّمَاتِ، وأَمّا الْقِسْمُ الثّالث الّذي جعل هذه الأمّة بمجموعها أَهْلاً لهذا الاصطفاء الرّبّانيّ، فَهُمُ السّابِقُونَ بالخيراتِ بإذْنِ اللَّهِ، الّذِين يَتَوسَّعُون في مرتبة الْبِرّ بفِعْلِ الصالحاتِ من غير الواجباتِ، وتَرْكِ مَا دُونَ المحرَّمَاتِ من المكروهاتِ ونَحْوِهَا، ويَتَوَسَّعُونَ في مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ كمًّا وكَيْفاً، فَيَعْبُدُون اللَّهَ كأنّهم يَرَوْنَه، ويصْبِرونَ ويُصَابرونَ، ويُجَاهِدُونَ في اللَّهِ حقَّ جهاده.

ولمَّا كانَ قَضَاءُ اللَّهِ بتوريثِ الأمّة المحمديّة الكتابَ قضاءً مُبْرَماً

حَكِيماً، مستنداً إلى عِلْمِهِ بما ستكون عليه هذه الأمّة، حَسُنَ التعبيرُ عَنْه بالفعل الماضي المعطوفِ بحرف العطفِ «ثُمَّ» الّذي يُشِيرُ إلَىٰ حَدَثٍ سيَحْصُلُ، فقال تعالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ مع أنّ هذا التوريث لم يحصُل بَعْدُ، لأنّ رسول الله يومئذٍ ما زال حيًّا يَتَنَزَّلُ عليه الكتاب، ولم يَنْزِلْ عليه منْهُ إلاّ بعضُه، فسورة (فاطر) من أواسط التنزيل المكّيّ، لكنَّ قضاءَ الله السابِقَ لَهُ حُكْمُ الأمْرِ النافذِ الذي يَصِحُّ أَنْ يُعَبَّرَ عنه بلاغيًّا بالفعل الماضي، إشارةً إلى أنَّهُ لا بُدَّ أن يتحقَّق حتماً، فَهُو أمرٌ واقعٌ لا محالة.

النـص الثانـي:

لقد عَلِم الله عزّ وجلّ أَنَّ أُمّـة الإجابة لدعوة الرسـول مُحمَّدٍ ﷺ من مختلف شُعُوبِ الأرض، وفي مقدّمتهم المؤمنون المسلمون من الأمّة العربيّة، هي خَيْرُ أُمَّةٍ أخرجَها بالتكليف للقيام بنشر رسالته، والدّعوة إلى دينه الخاتم، وتبليغِ كتابه، وإعلاء كلمته، فحمَّلَهَا وظيفة الدعوة إلى دين الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأَثْنَىٰ عَلَيْهَا بِالأخْيَرِيَّةِ على سائر الأمم السابقة لها، فقال تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) مخاطباً الذين آمنوا بمحمَّدٍ وبما أَنْزَلَ اللَّهُ عليه:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

فحمَّلَ اللَّهُ هذه الأُمّة واجب الدّعوة إلى الخير، نظراً إلَىٰ أنّ هَٰذَا الدّينَ قد اشتملَ علَىٰ الخيْرِ الّذِي تُدْرِكه العقولُ السّليمة، وتَشْعُرُ بِهِ النُّفُوسُ والوِجْدَانَاتُ الّتِي لم تَفْسُدْ فِطَرُهَا التي فَطَرَها الله عليها، وحَمَّلَها أيضاً واجب الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر دَاخِلَ جماعات المسلمين الّذِينَ عَرَفوا أوامر الدّين وعرفوا حُسْنها، فهي عندهم تندرج تحت عنوان «المعروف»

وعرفوا نواهي الدين وعرفوا قُبْحَها، فهي عندهم تندرج تحت عنوان «المنكر».

فإذا قام بهذا الواجب فريقٌ مِنْهُم كان على سائر المسلمين أن يُظَاهِرُوهُمْ وَيُمِدُّوهم بما يحتاجُون إليه إذا احتاجوا مدداً، كشأن سَائرِ فروضِ الكفايَةِ الّتي فَرَضَهَا الله على عامَّةِ المسلمين، وإذا لَمْ يَقُمْ بهذا الواجب فريقٌ منهم يكفي لتبليغ الناس دينَ اللّهِ، ولِحمَايَةِ المجتمع الإسلاميّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الانحرافِ الخطير، كانوا جميعاً آثمين.

علَىٰ أَنَّ كُلَّ قادِرٍ علَىٰ الدَّعْوةِ والأَمْرِ بالمعروف وَالنَّهْي عن المنكر مكلَّفٌ أَنْ يُؤَدّي من هذا الواجب في حُدُودِ مَجَالاَت عَملِه بَدْءاً من أسْرَتِهِ فأصحابِه فرِفاقِ عمَله فمن يتيَسَّرُ لَهُ أَنْ يدعُوَهُ إلى الدّين، أَو يَنْصَحَهُ أو يأمُرَه بِالمعروف وَينهاه عن المنكر.

النـص الثالـث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران) أيضاً بعد بضعِ آيَاتٍ مِن النصّ السابقِ مخاطباً هذه الأُمّة ومُثْنياً عليها:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس: أي: أَنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ حُمِّلَت وظيفةَ الخروجِ لتبليغِ الناسِ دينَ الله لهم، وهٰذِهِ الأخيريّة قد عَلِمَهَا الله فيكم قبلَ أن يُخرجكُمْ لأنّ عِلْمَه يشمَلُ ما كان وَما هو كائنٌ وما سيكون، فأثْنَىٰ عليكم بها.

أُخْرِجَتْ للنَّاس: أي: أُمِرَتْ بالخروج للناس لتبليغ دين الله.

وسبب بقاء هذه الأَخْيَريّة فيكُمْ إلى أنْ تقوم السَّاعة أنّكُمْ ستظلُّونَ داخلَ

مجتمعكم الإسلاميّ تأمُرُونَ بالمعروف وتنهوْنَ عن المنكر، فتَحْمُونَ مجتمَعَكُمْ بهذا مِنَ الانحراف الخطير والانهيار إلى الحضيض الذي بلَغَتْهُ الأُمَم قبلكم، وأنَكُمْ سَتَظلُّونَ تُؤْمِنُون باللَّهِ مَهْما اشتَدَّتْ عليكم النكَبَاتُ من الأُمَمِ الأُخْرَىٰ بغْيَةَ إخراجكم من الإيمان إلى الكفر.

ولو آمَنَ أهْلُ الكتَاب من اليهود والنصارى بهذا الدِّينِ لكَان خيراً لهم، ولَدَخلُوا مَعَكُمْ في هذه الأَخيريّة، لكِنَّ الْقَلِيلَ مِنْهُمُ الّذِين استجابوا لدعوة هَذا الدين فآمَنُوا، أمّا أكْثَرُهُمْ فلَمْ يُؤْمِنُوا إذْ منَعَهُمْ فِسقُهُمْ من الإيمان حتّىٰ لا يلتزموا بشرائع الإسلام وأحكامه، فيمْتَنِعوا عمّا هُمْ فيه من فِسْقٍ وعصيانٍ وكبائرَ فاجرة.

فالأمّة الإسلاميّة مسؤولةٌ عن تبليغ دينِ اللَّهِ الخاتِمِ للناس أجمعين، بمختلِفِ وسائلِ التبليغِ الحكيمةِ المُؤَثِّرَةِ، الّتي أرشد اللَّهُ إليها في كتابِهِ، أو أبانَها الرَّسُولُ في سُنّته، أو توصّلَ إليها الناس بتجاربهم وخِبْرَاتهم في حقول الدَّعْوةِ، والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

النصّ الرابـع:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لهَذِهِ الأُمّة الإسلاميّةِ المحمّديّةِ بالنظر إلى مجموعها لا إلى كلّ فرْدٍ منها:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... ﴿١٤٣﴾ ﴾.

أُمّةً وَسَطاً: أي: أُمّةً ذاتَ عدالة، وهٰذهِ العدالة الّتي جعلها الله عزّ وجلّ لهذه الأمّة هي الّتي جعلَتْها مُؤَهّلةً لتقديمِ شهادتها يوم الدّينِ، وقبولِ هذهِ الشهادة منها.

فالوظيفة الأولى للأمّة الإسلاميّة المحمّديّة بالنسبة إلى غيرها من

شعوب الأرض هي تبليغ دين الله، على ما أَنْزَلَهُ الله وبلّغَهُ رَسُولُهُ، وتعليمُ كتابِ الله وسُنَّةِ رَسُوله.

النـص الخامـس:

روى البخاري ومسلم عن المغيرة أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حتّى يأتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

وروى مسلم والترمذيُّ وغيرهما عن ثوبان، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلىٰ الْحَقِّ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وهُمْ كَذٰلِكَ».

وروى البخاريُّ ومسلم والإمام أحمد عن معاوية، أنّ النبـي ﷺ قال:

«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ولاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاسِ».

هذه الرّواياتُ وأشباهُهَا أبانَتْ أَنَّ أَخيَرِيَّةَ هٰذِهِ الأمّةِ الْخَاتِمة قد اكْتَسَبَتْها بسبب وجود طَائفةٍ منْهَا فِي كُلِّ جيلٍ تكونُ ظاهرةً ظُهُورَ بَيانٍ ودَعْوَةٍ وأَمْرٍ بالمَعْروفِ ونَهْي عن المنكر، فتؤدِّي على مقدار استطاعتها ما أوجب اللَّهُ علَىٰ هٰذِهِ الأُمَّةِ من تبليغ دينه، ودَعْوَةِ النّاس إليه، وتقومُ في داخل جماعات المسلمين بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه الطائفة لا يضُرُّها من خالَفَها أَوْ خَذَلَها فَيَصْرِفُها عن القيام بهذه الوظيفة العظيمة الَّتي حمَّلَها اللَّهُ الأُمَّةَ الإسلاميّة المحمّديّة.

النـصّ السـادس:

جاء في خطبة النبـيّ ﷺ في حجّةِ الوداع قولُه:

«ألاَ فَلْيُبَلِّغِ الشّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ».

فحمَّل الحاضِرين واجِبَ تَبْلِيغِ الْغَائِبين، ويُفْهم مِنْ هذا تَسَلْسُلُ وظيفة التبليغ، فكُلُّ من تَبلَّغَ من دين الله شيئاً فعَلَيْه أنْ يُبَلِّغَه.

النـصّ السابـع:

روى الإمام الشافعيّ أنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «نَضَّرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَبْداً سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَها، وَوَعَاها، وأدّاهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلَىٰ مَنْ هُوَ أفْقَهُ مِنْهُ..». وأخرجه أحمد وأبو داود وابْنُ ماجه.

فحثّ الرسول ﷺ بهذا كُلَّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ يَسْمَعُ من كلامِهِ شيئاً على أن يَحْفَظَهُ، ويَعِيَهُ، ويُؤَدِّيَهُ بَلاغاً إلى غيره، ليَعُمّ في الناس عِلْمُ هذا الدين.

وأبان الرسول أنّ سامع القول قد لا يكون قادراً على أن يفقه معناه فِقهاً عميقاً، فإذا بلَّغه كما سَمِعه فقد يتلقّاهُ منه من هو أقْدَرُ على فهمه فهماً عميقاً واستنباطِ الأحكام منه.

النـص الثامـن:

وروى مسلم والإمام أحمد عن أبـي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ دَعَا إلَىٰ هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إلَىٰ ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الآثَامِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً»(١).

فأبان هذا الحديث فَضْلَ مَنْ دعا إلى هدى، وأنَّه يُكْتَبُ له من الأجر مثلُ أُجور من تَبِعَه من بعده، وظاهِرٌ أنَّه يَدْخُلُ فيمن تَبعَهُ من استفاد من دعوته ولو بعد وفاته إلَىٰ آخرِ حياةِ النَّاسِ في الأرض.

ويشْهَد لهذا المعنى ما رواه البخاري في الأدب المفرد ومُسْلِمٌ عن أبـي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

---

(١) مسلم: «كتاب العلم ـ باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة... دعا إلى هدى».

«إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدَ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[1].

والعِلْمُ الّذي يُنْتَفَع به يَدْخُلُ في عموم الدّعوة إلى هُدىَ، والمدوَّنُ المقروءُ منْهُ الّذي تَتَوارثُهُ الأجْيَالُ بالانتفاعِ بِهِ أَكْثَرُ دواماً، وأبْقَى بَيْنَ النَّاس، ولا سيما طلابُ العلم الذين يَقْرَؤُون الكتُبَ الإسلاميّة الداعية إلى هدى.

النـصّ التاسـع:

ولمّا كانت وظيفة الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدخلُ ضمن المسؤولية الفردية تجاه الآخرين، كانت هذه الوظيفة داخلة في عموم الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبـي ﷺ قال:

«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإمَامُ راعٍ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمرْأَةُ راعيةٌ فِي بيتِ زَوْجِها ومَسْؤُولةٌ عَنْ رَعِيَّتها، والْخادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِه ومَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، فكُلُّكُمْ راعٍ وهوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

* * *

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير وزياداته ح ٧٩٣».

المقـولة الثالثـة

الشهادة يوم الدين على الّذين تلقَّوا البلاغ

إن وظيفة التبليغ تستلزم شهادة المبلِّغ يومَ الدّين علَىٰ مَنْ تلَقَّوْا بلاغَه، بكلّ ما بلَّغهم إيّاه من الدين، ولم يستجيبوا له، ويكونُ ذلك حين يُحْضِرُ الله الناسَ يوم الدين ليحاسبهم ويقضي لهم أو عليهم بما قدّموا في الحياة الدنيا حياةِ الابتلاء، من إيمانٍ أو كفر، أو عمل صالحٍ أو عمل سَيِّىءٍ، وبما أَخَّرُوا فلم يعملوا من واجبات.

ومن حكمة الله عزّ وجلّ أنّه جعَلَ محكمة العدل الّتي يُقِيمُها لعباده يوْمَ الدّين مستجمعةً كلَّ الشروط التي تقتضيها محاكم العدل بين الْعِباد.

ومن هذه الشروط سُؤال من يُحْضَرُ لمحكمة العدل الربَّانيّة، وتسليمُه كتابَ أعماله الّتي عملها في الحياة الدنيا مطابقةً مطابقةً تامّةً لما كان منه، وعرضُ صحُفِ كتابِ أعمالِهِ عليه، وإشهادُ الشهودِ عليه من الملائكة الذين كانوا يرصدون أعمال العباد ويدوِّنُونها، وإشهادُ جوارحِ الإنسان عليه إذا جحد ما نُسِبَ إليه بلسانه المعبِّر عمّا يُريد التعبير عنه.

فإذا ادّعَىٰ أنّه لم يَتَلَقَّ بلاغاً عن الله بما هُو مطلوبٌ منه في الحياة الدنيا إيماناً وعملاً أَحْضَرَ الله الّذين تلَقَّىٰ عَنْهُم البلاغَ فَشَهِدُوا علَيْهِ بأنّهم بلَّغُوهُ، وفي مقدّمَة هؤلاَءِ الشهودِ الْمُرسَلُون والنَّبِيُّونَ الّذِين بلَّغُوا أَقْوامَهُم ما أَنْزَل الله

عزّ وجلّ وأمَرَ بتبليغه، ويأتي بعدهُم الدّعاة إلى دين الله، الّذين بلّغُوا أقوامَهُم عن الرُّسُلِ ما تلقَّوْهُ مِنهُمْ، من كتابٍ مُنزَّلٍ أو سُنَّةٍ مبيِّنَةٍ لشرائع الله وأحكامه ووصاياه.

ويأتي في خاتمة الأُمَم الرّسُولُ محمَّد ﷺ، فيشْهَدُ على من عاصره وسَمِـعَ منه، بأنَّه قد بلَّغَهم ما أَمَرَهُ الله عزّ وجلّ بتبليغه للناس.

ويأتي الدُّعاةُ من أُمَّةِ الرّسُول الخاتم فيشهدونَ على الناس بما بلّغُوهم مِنْ دين اللَّهِ الّذي أنزله على خاتم رُسُله محمد ﷺ، في حدود ما بلَّغُوهم منه.

وبيان هذه الشهادة في النصوص القرآنيّة يستلزم أنّهم مُكَلَّفُون أنْ يُبَلِّغُوا، فإذا لَمْ يَفْعَلُوا كانُوا غير قائمين بما أوْجَبَ الله عليهم من تبليغ، ويكونُ للَّذينَ لم يتبلَّغُوا دين الله من مختلِفِ الأمم والشعوبِ بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ عُذْرٌ بأنَّ أَتْبَاعَه لم يُبَلِّغُوهم، وحِينئذٍ يُحَاسِبُ اللَّهُ عزّ وجلّ المقصِّرين بواجِبِ البلاغ.

ومن أجل تحقيق هذا البلاغ شَرَعَ الله عزّ وجلّ الجهاد في سبيله، بدءاً من جهاد إصلاح النفس، فالدَّعْوةِ اللّسانيّة حينما تَتيسَّرُ هذه الدعوة، فبذل المالِ والنفسِ في خدمة الدّعوة اللّسانية، فَعَرْضِ الدَّعْوَةِ الدينيّة على حُكّام الأُمَمِ والشّعوب وذوي سُلْطانها بالتدرّج الحكيم، فمواجهتهم بهذِهِ الدّعوة مدعومةً بالقوة القتاليّة المسلّحة بالأَسْلِحَة الْعَسْكَرِيّة، فالقتال الفعلي عند استيفاء شروطه إذا لم تَحْصُلِ الاستجابة للدّعْوَةِ، ويشارك في هذا الجهاد كُلُّ مُسْلمٍ ومُسْلمَةٍ بما يستطِيعُ مما يلائم فِطْرَتَهُ مِنْ مُشَارَكَةٍ بالنَّفْسِ أو بالمال، أو بالْعِلْمِ والرأي والفكر والْخِطط، وأدناها المشاركة بالدُّعاء والذكر والمشاعر النفسيّة.

والغرض الأعظم من الجهاد بالقتال إزاحةُ العقبات البشريّة من طريق

الدّعوةِ إلى دين الله وتبليغِ رسالة الإسلام للنّاسِ، وتأمينُ توصيلِ الدَّعْوَةِ الإسلاميَّةِ إلى جماهيرِ الشعوب التي حَجَبَها حُكّامُها وذوو السلطانِ فيها عن أنْ تتلَقَّىٰ بلاَغَ دين الله للناس أجمعين.

فجهادُ التبليغ أوَّلُ دَرجات الجهاد في سبيل الله بعد جهاد النفس وتقويمها، وإلزامها بأحكام الإسلام.

إنَّ واجب التبليغ لا يتحقَّقُ في الواقع الإنساني إلاّ بالجهاد، وهو بذل غاية الجهد ضمن حدود الاستطاعة والصّبر، وبه يتحَمَّل المجاهدُ المبلّغ لدين الله متاعب جسدية ونفسيّة، وبعضَ مشقاتٍ وأذًى من الذين يدعوهم، موجّهاً لهم دعوته التبليغيَّة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدالِ بالّتي هي أحسن.

فإذا أراد المجاهدُ أنْ يكون من الأبرار فالمحسنين في جهاده، لاغتنام مراتِبَ رفيعةٍ في الجنَّةِ حتَّى منازلِ الفردوس، ضاعف جهاده وصَبْرَه، وضحَّىٰ بماله ونفسه ومحابّه من الحيَاة الدّنيا، وربما ضحَّىٰ بحياته كلِّها في سبيل تبليغِ دينِ اللَّهِ للنّاس.

لكنّ الأمر الواجبَ هو القيامُ بالتبليغ ضمْنَ حُدود الاستطاعة، فهذا هو الذي تأمرُ به أوامر التَّقْوَىٰ، كقول الله تعالى في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول):

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ... ﴿١٦﴾ ﴾.

أمّا أَوامِرُ البرِّ والإحسان فتَنْدُبُ إلى أكثر من ذلك.

وإنّ اجتباءَ الأُمَّةِ المحمّديّةِ من كلّ الشعوب والأقوام على اختلاف ألوانهم وصُوَرِهم ولغاتهم، واصطفاءَها وجَعْلَها أمَّةً وسطاً عُدُولاً، تفضيلٌ من اللَّهِ يُوجب عليها أن تجاهِدَ في سبيل الله بالقيام بتبليغ دينه الذي وَرِثَتْهُ عن الرسول محمّد ﷺ، ويتحقّق هذا الواجب بإيصال بَلاَغَاتِ هذا الدّين إلى

الناس أجمعين، بالوسائل الحكيمة التي تقتضيها ظروف الحياة الإنسانيّة المتطوّرة.

هذه المفاهيم قد دلّت عليها نصوصٌ متعدّدة من القرآن ومن السنة.

● **فمن القرآن المجيد النصوص التالية:**

النـص الأول:

قول الله عزّ وجل في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) خطاباً لرسول الله ﷺ:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

أي: ويوم نَبْعَثُ من كُلِّ أمَّةٍ شَهيداً عليهم من أنْفُسِهم، وهُو الرَّسُولُ الذي أُرْسِلَ إليهم مِنْهُمْ نَسَباً ولُغَةً، أو منهم لُغَةً أو انتماءً أو نحو ذلك ممّا يُهَيّىءُ لَهُ تَبْلِيغاً مُنَاسباً لدين الله.

وجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلاَءِ: أي: وجئنا بِك يَا مُحَمَّدُ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ تُبَلِّغُهُمْ دينَ الله الذي يُنَزِّلُه عليك.

وأَشَارَتِ الآيةُ إلى شُمولِ هذه الرّسالة الرَّبّانِيّةِ التي بعث الله بها محمّداً ﷺ، واشتِمَالِها علَىٰ تبيانِ كلِّ شيءٍ يَحْسُنُ أَنْ تشتمل عليه رسالةٌ عَامَّةٌ للناسِ أَجْمَعِين، وَخاتِمَةٌ لرسالات الله للناس، وفيها هُدىً ورحْمَةٌ وَبُشْرَىٰ لكلِّ المسلمين الَّذِينَ يؤمنون بالله ورسوله وكتابِهِ، ويُعْلِنُون اسْتِسْلامَهُمْ لشرائع هذا الدين وَأَحْكَامِه وتكاليفه ووصاياه، فقال الله عزّ وجلَّ فيها خطاباً لرسوله:

﴿ .. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

فكونُ القرآنِ مشتملاً على تِبْيَانِ كلِّ شيءٍ من مسائل أصول الدّين الذي اصطفاه الله للناس، وعَلَىٰ الآيات الّتي فيها هُدًى عظيمٌ دلالةً وإقناعاً، وفيها رحمةٌ وبشرى لكل المسلمين، من كلّ الأمم والشعوب، هو بمثابةِ التَّمْهِيدِ لإعلان أنَّهُ الدّينُ الخَاتِمُ الَّذي قضَىٰ اللَّهُ أَنْ يَخْتِمَ بِهِ رسالاته للناسِ أجمعين.

النـص الثـاني:

وخاطب الله عزّ وجلّ أُمَّةَ محمّد ﷺ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بقوله تعالى لهم:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ . . . ﴿١٤٣﴾ ﴾.

أُمَّةً وَسَطًا: أي: أمَّةً عُدُولاً في الدَّعوة إلى سبيل ربكم، وفي الشهادةِ على الناس يوم الدين.

وتشير عبارة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ خطاباً لأُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، إلَىٰ مَا جَاءَ في الآية (١١٩) السّابقة في سُورة (البقرة) الّتي يخاطِبُ الله فيها رسولَهُ بقوله:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ . . . ﴿١١٩﴾ ﴾.

أي: وكذلِكَ الإرسالِ الَّذي أَرْسَلْنَا رسولكم به بشيراً للنَّاسِ ونَذِيراً، جَعَلْنَاكُمْ يا مَنِ اتّبَعْتُمْ محمّداً مؤمنين صادقين مُسْلِمين قَائِمِينَ بما فرَضَ اللَّهُ عليكم أُمَّةً عُدُولاً لتكُونُوا حامِلي رسالَةِ رسُولكم كما بلّغكُمْ إيّاها، مُبَشِّرين ومُنْذِرِين، ولتكونوا شُهَدَاءَ على الناس يوْمَ الدين، بأنّكم قد أَدَّيْتُمُ الرّسالة وبلَّغْتُمُ الأمانة، وليكُونَ الرّسُولُ علَىٰ مَنْ بلّغَه مِنكُمْ شهيداً.

وتَسَلْسَلُ حلقاتُ التَّبْليغ، وحلقَاتُ الشَّهَادَةِ عَلىٰ المبلَّغين من الأُمَم

والشُّعُوبِ وأجيالِهِمْ، زَمَناً بَعْدَ زَمَنٍ، حتَّىٰ تنتهي مُدَّةُ امتحانِ النَّاس في الحياة الدُّنيا.

النـص الثـالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بعد بيان أنَّه سبحانه لا يظلم مثقالَ ذرَّةٍ:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾.

فدلّتْ هذه الآية علَىٰ أنّ رسُولَ كلّ أُمَّةٍ سلَفَتْ في تاريخ البشريّة يكون هو الشهيدَ علَيْهَا بأَنَّهُ قَدْ بلّغَها ما أمر الله بتبليغهم إيَّاهُ، وأنّ الرسول محمّداً ﷺ يكون شهيداً على الذين بلَّغَهُمْ من الَّذين عاصروه.

ويفهم من هذا أنَّ المبلِّغين من أتباع الرُّسُلِ يكونُونَ يوْمَ الدّين شُهداءَ على من بلّغوهم من الناس.

النـص الـرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لأمّة محمّد ﷺ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

لقد أبان هذا النصّ ما يجب على الذين آمنوا بمحمّد ﷺ وبما أَنْزَلَ الله عليه في سلوكهم الخاصّ فقال الله عزَّ وجل لهم:

﴿ .. ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ ﴾.

وبعد هذا التكليف حمَّلَهُمْ وظيفة الجهاد في سبيل الله بصِدْقٍ، لتبليغ دينِ الله الذي بَلَّغَهُمْ إيّاهُ الرسول ﷺ، فقال تعالى لهم:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾.

حَقَّ جِهَادِهِ: أي: الجهاد الحقّ في سبيله، والمعنى: وجاهدوا في سبيل الله بتبليغ دينه للناس الجهادَ الحقّ، الّذي لا نفاق فيه، ولا رياء، ولا تقصير.

وبعد ذلك أبان الله لهم أَنَّهُ تبارك وتعالىٰ قد اجْتَباهم، أي: اصْطَفَاهُمْ واختارهم من دون سائر الأمم السابقَةِ لحمل الرسالة الخاتمة، وتبليغها للنّاس أجمعين، كما تبلّغُوها من الرسول ﷺ، فقال تعالى مخاطباً لهم:

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾.

وإذِ اجتباهُمُ الله وحمَّلَهم وظيفةَ تبليغِ الدِّين الخاتم للناس أجمعين، وجَعَلَهُ جزءاً من تكاليف الدّين الّتي كلَّفَهُمْ إيّاها، فإنّه لم يَجْعَلْ عليهم في الدّين مِنْ حرَجٍ، وإذْ كان التّبليغ جزءاً من هذا الدّين فإنّه لم يجعل عليهم من حرجٍ في هذا التبليغ، فلم يحمِّلْهُمْ مسؤولية تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان، ولا من العصيان إلى الطّاعة، ولكنْ عليهم أن يُبَلّغوا ويُعلّموا وينصحوا للناس، ولم يجعلْ عليهم أيضاً من حرجٍ في أنْ يتحمَّلُوا في سبيل الدَّعوة التبليغيّة ما لا يُطِيقُون، أوْ أن يُدخِلُوا أنفسهم في مَضايقَ شاقّةٍ عليهم، من أجْلِ دعوة الناس إلى دين الله، لكِنَّ هذا لا يقتضي مَنْعَ من شاء من الدُّعاةِ أن يتَوسَّع في أعمال البرّ والإحسان بالمجاهدة الشّاقّة الّتي قد يكون فيها تضحيةٌ بالأموال أو بالأنفس، إذا كانت هذه التضحية تخدُمُ قضية انتشار الدّعْوَةِ وتبليغها للناس.

هذا التوسُّع في أعمال البرّ والإحسان في سبيل الدعوة إلى دينِ الله لَيْسَ

واجباً، بلْ هو تطوُّعٌ قد يختارُه لنفسه بعضُ المجاهدين، فلا يُمْنَعُ منه إذا ترَجّح أنّه مما يخدم قضيَّةَ الدّعْوَةِ، وَلا يُؤثّر عليها تأثيراً سلبيّاً.

وهذا البيان المتعلّق بدعوة الدّعاة من المؤمنين، نَجدُه مفصّلاً تفصيلاً واسعاً في البيانات التي خاطب الله بها رسولَهُ محمّداً ﷺ، إذْ لم يكلّفْه الله عزّ وجلّ إلاّ التّبليغَ، فَلَمْ يحمّلْه مسؤوليّة تحويل من بلّغَهُمْ من الكفر أو النفاق إلى الإيمان، وطلَبَ منه أن لا يُشْقِي نفسه من أَجْلَهم، وأن لا يكون في صَدْرِه حرجٌ ممّا أُنزل إليه، فحدودُ البلاغ هي وظيفة جميع المرسلين وسائر الدُّعاةِ إلى سبيل ربّهم، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ . . . ﴿٤٨﴾﴾.

أي: فإنْ أَعْرَضُوا فلم يستجيبوا لدعوتك فدعْهُمْ وإعراضَهم، فما أَرسلْنَاك عليهم حفيظاً، مكلّفاً أن تحفظَهُمْ فتُكْرِهَهُم على الإيمان والإسلام والطاعة، كما يُكلَّفُ راعي الغنم أن يحفظ غَنَمَهُ فيحميَها من الذئابِ والمُهْلِكات، لأنّهم مطالبون بأن يؤمنوا ويُسْلموا ويطيعوا عن طريق اختيارهم الحرّ، لا بالإكراه والإجبارِ القَسْرِيّ.

إن عَلَيْكَ إلاّ البَلاَغَ: أي: ما يجب عليك بالنسبة إلى دعوتهم إلى سبيل ربّك إلاّ أن تبلّغَهُمْ ما تُؤْمَرُ بتبليغه.

وقال الله عز وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) بشأن جميع الرُّسُل:

﴿. . فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: فما عَلَيْهم إلاّ البَلاَغُ المبينُ الواضحُ الذي يعرِفُ به المدعُوُّونَ قضايا دين الله لهم.

وقال فيها أيضاً خطاباً لرسوله بشأن الذين يَتَوَلَّوْنَ عَنْ دَعْوَتِهِ أي: يُدْبِرُونَ ويَنْصَرِفُونَ، ولا يقتصرون على مُجَرَّدِ الإعراض:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وأكد الله عزّ وجل هذا البيان في مناسبات ودواعي مختلفات:

في الآية (١٨) من سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) وفي الآية (٢٠) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٩٢ نزول) وفي الآية (٤٠) من سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) وفي الآية (٥٤) من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) وفي الآية (١٢) من سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف ١٠٨ نزول) وفي الآية (٩٢) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول).

وقال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

وقال تعالى أيضاً في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾.

فنهىٰ الله رسولَه نهيَ إرْشادٍ ووصِيَّةٍ ونُصْحٍ أنْ لا يشتدَّ حُزْنُه على الذين لم يستجيبوا لدعوته من قومه، وهو شَدِيدُ الحرصِ على نجاتهم من النار بالإيمان والإسلام والطاعة، فالحزْنُ الشديدُ من أجْلِهم قد يُؤَثِّرُ على جَسَدِهِ ونَفْسِهِ، فتذهبُ نَفْسُه عليهم ذهابَ حَسَراتٍ من تلَهُّفٍ وأحزانٍ وكُرُوب.

وأبان له في سورة (طه) أنّه ما أنزلَ عليه القرآنَ ليشْقَىٰ ببلاغه لقومه، بتحمُّل ما لا يُطيقُ من كدٍّ ومُجَاهَدَةٍ وحُزْنٍ وكرْب، بل ليُبَلِّغَه، وليذَكِّرَ بِهِ مَنْ يَخْشَىٰ اللَّهَ وعذابَهُ يوْمَ الدين.

ونعود بعد هذا إلى استكمال النظرات في فقرات النصّ الرابع الذي من سورة (الحج) فبعد أن قال الله عزّ وجلّ لأُمّة محمّدٍ فيه:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ . . . ﴿٧٨﴾﴾.

أَبَانَ لَهُمْ أنّ هذا الدّين هو ملّة أبيهم إبراهيم عليه السلام، وفي هذا تذكير لهم بجهاد إبراهيم عليه السلام في دعوته قومه إلى دين الله، ومجادلته لهم، وتكسيرِه أصنامَهُمْ، وإقامَتِه الحجّةَ عليهم، حتّىٰ وصل به الأمر إلى أن اشتدّ غضب مَلِك قومه عليه النُّمرود، فأمرَ بإيقادِ نار عظيمة وقذفه فيها، ليذوق عذاب مخالفته دينَ قوْمِه ودينَ مَلِكِهم، وقد فعَلَ واتّخذ كلّ أسْبابه، إلاّ أنّ الله أَنْقَذَ إبْرَاهيم عليه السلام من نارِهم، بآيَةٍ عظيمَةٍ، إذْ قال للنار: كُوني بَرْداً وسَلاماً عَلَىٰ إبراهيم، فكَانت برداً وسلاماً عليه فقط مع أنّها كانت تُحْرِقُ كلَّ ما تمسُّه.

وأبان لهم أَيْضاً أنّ إبراهيم عليه السلام قد بشّر برسُولهم الخاتم، وسمّى من آمَنَ به واتَّبَعَهُ المسلمين، فاسْمُهم المسلمون من قَبْلِ وجود رسُولهم محمّد ﷺ وبعثته للناس أجمعين، إذْ أعْلَمَه الله بذلِكَ، فكلٌّ من البشارة والتسميةِ من الله عزّ وجلّ، فقال تعالى:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾.

وبعد ذلك أَبَانَ الله لهم أنّه جلّ جلالُهُ سَمَّاهُمُ المسلمين فِي هذا الدين الخاتم، والمسلمون هم المستسلمون السامعون المطيعون لأوامر الله ورسوله، ومن عناصر هذه الطاعة القيامُ بواجب تبليغ دين الله للناس أجمعين، ويقع علَىٰ كلّ مسلم من هذا الواجب بمقدار مَوْقِعه وإمكاناته واستطاعته في المجتمع البشري، بدءاً من أُسْرته، ثم توسُّعاً في دوائر حركة حياته، فقال تعالى:

﴿ وَفِى هَٰذَا ﴾ .

أي: وفي هذا الدّين أنتم المسلمون.

وبعد هذا التكليف بالتّبليغ، وقيام المسلمين بواجب البلاغ على الوجه المطلوب منهم، يكُونُونَ مؤهّلين لأداء شهادتهم على الناس يوم الدّين، كما يشْهَدُ الرَّسُولُ علَىٰ الّذينَ بلَّغَهُمْ منهم، وتَشْهدُ كُلُّ دائرةِ تبليغٍ من بعد الرسول على الدائرة الأَوْسَعِ الّتي بلَّغتْها، وهكذا تتسلسل الدوائر، فقال الله عزّ وجلّ في النصّ بياناً لهذا:

﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ .

ولِكَيْ يُحافِظَ عُمُومُ المسلمين على هذا الاجتباء الرّبّاني الْمُشَرِّفِ لَهُمْ، الذي جعلهم فيه حَمَلةَ رسالةِ رسُولِهِ ومُبَلِّغيها للناس أجمعين، وعُدُولاً في التّبليغ وفي الشهادة على الناس يَوْمَ الدِّين، فإنّ عليهم أَنْ يُقيموا الصلاةَ فلا يضيِّعُوها ولا يَتَهَاوَنُوا بشيءٍ منها، وأن يؤتوا الزكاة كما أمر الله ورسولُهُ فَلا يَمْنَعُوا شيئاً مما أَوْجَب الله عليهم في أموالهم، وأَنْ يَعْتَصِمُوا مُحْتَمِينَ بالله العزيز الذي لَهُ القوةُ الغالبة، مُجْتَمِعينَ غَيْرَ مُتَفَرِّقين ولا مُتنازَعين، ولا مُتبعين أهواءَ ومصالحَ دنيويّةً خاصةً ووساوسَ شياطين، فقال الله تعالى في النصّ:

﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ .

أي: وانْتَشِرُوا مبلِّغين دين الله في الأرض وأنتم محافظون على وصايا الله لكم.

فإذا فعل المسلمون ذلك الذي أمرهم اللّهُ به، كانَ اللّهُ مَوْلاَهم، أي: حَافِظهُم، ومُعِينَهُم، ومُسَدِّدَ خطاهم، ومُمِدَّهم بعطاءاته، وناصرَهم، ومُزيلَ العقباتِ من طُرق انسياحهم في الأرض مُبَلِّغين، فقال تعالى لهم في خاتمة النص:

﴿ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

● **ومن السُّنّة ما يلي:**

النص الأول:

روى البخاريّ بسنده عن عبد الله بن عَمْرٍو رضي الله عنه، أَنَّ النبيّ ﷺ قال:

«بَلِّغُوا عَنِّي ولَوْ آيَةً، وحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّار»[1].

فأَمَرَ الرَّسُولُ أَصْحَابَهُ بأَنْ يُبَلِّغُوا عَنْهُ، ولَوْ كَانَ مَا سَمِعُوهُ آيَةً وَاحِدَةً.

النص الثاني:

وروى البخاري ومسلم عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لأُعْطِيَنَّ الرّايَةَ غَداً رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ».

قَالَ: فباتَ الناسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ (أي: يتحدّثون ليلتهم) أيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فلمّا أصبح النّاس غَدَوْا على رسول الله ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فقال:

«أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟».

فَقَالُوا: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ يَا رَسُولَ الله» فقال:

«فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأْتُونِي بِهِ».

فَلَمَّا جَاءَ بَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعا لَهُ، فَبَرَأَ حتّىٰ كَأَنْ لَمْ يكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فأَعْطَاهُ الرّايةَ، فقال عليٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّىٰ يكونوا مِثْلَنَا؟. فقال:

«انْفُذْ عَلىٰ رِسْلِكَ، حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَام، وأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً

---

(١) فتح الباري، الحديث ٣٤٦١.

وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَم»[1].

وجاء في رواية عند البخاري عن سَلَمَةَ أنّ هذه الحادثة كانت في غزوة خيبر.

فأبان الرسول ﷺ كما جاء في هذا الحديث أنّ الغرض من الغزو الدعوةُ إلى الإسلام.

النص الثالث:

قال البخاري في «كتاب أخبار الآحاد» باب وَصَاةِ النبيّ ﷺ وفود العرب أَنْ يُبَلِّغُوا مَنْ ورَاءَهُمْ، قالَهُ مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِث.

وروى حديثاً بشأن وفْدِ عَبْد الْقَيْسِ لمّا أَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ.

قال: «مَنِ الْوَفْدُ؟».

قالوا: رَبيعَة.

قال: «مَرْحَباً بالْوَفْدِ وَالْقَوْمِ غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ نَدَامىٰ».

قالوا: يا رسُول الله، إنَّ بَيْنَنَا وبَيْنَكَ كُفّارَ مُضَر، فَمُرْنا بأمْرٍ نَدْخُلُ بِهِ الجنَّةَ، ونُخْبِرُ به مَنْ ورَاءَنَا.

فنهاهم عن أَرْبَعٍ وأمَرَهُمْ بِأَرْبَع.. وجاء في آخر الحديث أن الرسول ﷺ قال لهم:

«احْفَظُوهُنَّ وَأَبْلِغُوهُنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ»[2].

النص الرابع:

وجاء في خطبةٍ للنبيّ ﷺ في حجّة الوداع على ما رواه البخاريُّ ومسلم:

---

(١) حُمْرُ النَّعم: أي: الإبل الحمراء، وهي أعظم الأموال عند العرب وأَنْفَسُها.

(٢) انظر الحديث (٧٢٦٦) في فتح الباري لابن حجر.

«فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ».

أي: فربَّ مُبَلَّغٍ حديثَ الرسول ﷺ من بَعْدِه، يُعْطِيهِ الله من الْوَعْي في فهم قولِ الرَّسُولِ أكثر ممّا أَعْطَىٰ الَّذِي سَمِعَ قَوْلَ الرسُولِ مِنْ فَمِه مباشرة، وكَأَنَّ الرسول ﷺ قد بَشَّرَ في هذا بظهور الأئمة المجتهدين من بعده، والْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَسْتَنبطون معاني النّصوص ودلالاتها الدقيقة، ويستخرجون منها ما لم يكن قد أدركه الذين من قبلهم.

* * *

المقـولة الـرابعة

حكْمُ تبليغ دين الله للناس

ممّا سبق يتبيَّنُ لنَا أنّ تَبْلِيغَ دين الله للناس واجبُ الأُمَّةِ المحمّديّة التي اجتباها الله، وجَعَلَها أُمّةً وَسَطاً عُدولاً.

وهذا الواجبُ تَتَحمَّلُ الأُمَّةُ الإسلاميّةُ جميعُهَا مسؤوليّةَ تهيئة ما يلزم للقيام به على الوجه المطلوب، ومن ذلك تهْيئةُ وإعْدادُ مَنْ يقوم بالدّعوة الرّصِينَةِ الحكيمة إلى دين الله، وتبليغِه الناسَ مهما اختلفت أجناسهم ولغاتُهُمْ، وتباعَدَتْ مَواطِنُهُمْ ومَسَاكِنُهُمْ ومنازِلُهم، وتهيئةُ وإعداد الوسائلِ المادِّيّة والمعنويّة للقيام به.

وبالعملِ الحكيمِ وَالصَّبْرِ يُفْرِزُ المجتمع الإسْلاميُّ للقيام بواجب الدّعوة إلى سبيل الله، وتَبْليغ دينِه، مَنْ يَتَحلَّوْن بالمؤهّلات العلميّة والنفسيّة والدّعَوِيّة والسلوكيّة لأن يكونوا أئمَّةً للمتقين من جِهَةٍ، وقُدْوةً حسنَةً للمدعوّين من جهةٍ أُخْرى.

وهؤلاء يَتَحمَّلون مسؤوليَّةَ القيام الفعليّ بهذا الواجب، سواءٌ أكان الواحِدُ منهم متفرغاً له أَمْ غير متفرّغ، كطبيبٍ داعية، ومهندسٍ داعية، وتاجرٍ داعية، وأستاذ علوم داعية، ونحو هؤلاء من مختلف الاختصاصات العلميّة والعمليّة.

وعلى كلِّ داعٍ إلى سبيلِ ربِّهِ يُفرِزُه المجتمعُ الإسلاميّ للقيام بهذا الواجب، متفرّغاً له أو غَيْرَ متفرّغ، أنْ يقوم به علىٰ مقدار استطاعته وإمكاناته الفكريّةِ والْعِلْمِيّة والبيانيّة والنَّفْسِيَّة والْجَسَدِيَّة الجهاديّة..

ولا يجوز للواحد منهم أن يَقُومَ بما ليس مؤهّلاً لَهُ، لئلاّ يُفْتِي بغير علم، أو يَدْعُو بغير الأسلوب الحكيم، فيكونَ في الدِّينِ محرّفاً، أوْ مِنَ الإسلام منفّراً.

وعلى كلّ مُسْلم بَعْد فئة الدُّعاة المتخصّصين، وفئة أئمة المتقين الذين يحملون رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتخصص، أن يقوم بالدعوة إلى دين الله والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، بالمقدار الّذي يَعْلَمه من الدّين علْماً صحيحاً واضحاً، وبالمقدار الذي يُحْسِنُه من الدَّعْوَةِ والأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْي عن المنكر.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للذين آمَنُوا:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

فأمر الله عزّ وجلّ في هذا النصّ جميع المؤمنين بأَنْ يَكُونَ منهم أُمَّةٌ يدعُونَ إلى الخير ويأمرونَ بالمعروف وينهون عن المنكر.

ويُلاحَظُ أنّهُ جاء التعبير عن الدّعْوة إلى دين الله بأنّها دَعْوةٌ إلى الخير، إذْ كُلُّ مَا في دينِ الله من عِلْمٍ واعتقادٍ وخُلُقٍ وسُلُوكٍ نفسيٍّ وجَسَدِيّ، فردِيٍّ واجتماعِيّ يدخُلُ تحت عنوانِ الخير، وكلُّ ما نَاقَضَهُ وضَادَّه هو شرٌّ لاَ محالة.

وقد دلَّ هذا النصّ على أنّ المؤمنين جميعاً مكلّفُونَ أَنْ يُعِدُّوا أُمَّةَ الدَّعْوَة والأَمْرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكر، وأن يُهَيِّئُوا ما يلزم لذلك من وسائلَ وأسباب.

وسمَّىٰ اللَّهُ فئةَ الدُّعَاةِ والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أُمَّةً، للإيماء إلى وُجُوب كونهم مجتمعين على صفاتٍ وخصائصَ وروابطَ متميِّزة، تجعَلُهُمْ ظاهرين في الناس كأُمَّةٍ واحدَةٍ لا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَفْرَادِها ولا اختلاف، ولاَ تصدُّعَ وَلاَ تَشْقِيق بَيْنَ صفوفها، ولا تنازُعَ فيما بينها على المصالح الدّنيويّة الّتي تُغَذِّيها الأَهْوَاءُ والشهوات.

وأكَّدَ هذا المعنى الذي أوْمأَ إليه لفظُ «أُمَّة» بنهي المؤمنين جميعاً عن التفرُّق والاختلاف، فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

أمّا الذين تفرَّقُوا واختلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البيّنَاتُ فَهُمْ أَهْلُ الكتاب الأوّل: اليهودُ والنصارَى.

ومعلومٌ أنّ التفرُّقَ والاختلافَ لا يكونان في المجتمع البشريّ إلاّ بأسبابٍ مِن الأَهْوَاء والشهواتِ ومَطَالِبِ الحياة الدنيا.

أمّا مطالبُ الآخرة، ونُشْدَانُ الظفرِ برِضْوَانِ الله فأمورٌ لاَ تُحْدِثُ تَفَرُّقاً وَلا اختلافاً.

* * *

المقـولة الخـامسة

التذكير والنصح والإرشاد

روى الإمـام مُسْلِـمٌ عَـنْ تميـمِ بْـنِ أَوْسٍ الـداريّ رضـي الله عنـه، أن النبـي ﷺ قال:

«الدِّينُ النَّصِيحَةُ».

قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قال:

«لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

يُلْحَقُ بالدعوة إلى دين الله التذكيرُ والنُّصْحُ والإرشادُ، فبَعْد البلاغ والبيان وشرحِ الحقيقةِ الدينيّةِ شرحاً كافياً مقنعاً لمَنْ شاء أن يقتنع بالحق، تأتي وظيفةُ التذكيرِ بما سَبَق تبليغُه وبيانُه وشَرْحُ حقيقَتِه، مع النُّصْحِ الحَسنِ، والإرشادِ برِفْقٍ إلى التَّغَلُّب على عقبات النفس، لسلوكِ طريقِ النور الْمُسْعِد لسالكيه، وهو صراط الله المستقيم.

والتذكيرُ المصحوبُ بالنُّصْحِ والإرشادِ إلى التغلُّب على عقبات النفس، يُساعد بعض النفوس الّتي لم تَصِلْ إلى مستوى الكُفْر العناديّ، والإصرار على الباطل.

فمن طبيعة كثيرٍ من الناسِ أنَّ الْبَلاَغَ الأوّل لاَ يَكْفِيه حتَّىٰ يتخلَّصُوا من عقائدهم الباطلة، وسلوكهم الجائر عن صراط الله المستقيم، وحتَّىٰ تتغَلَّبَ إراداتُهُمْ الواعياتُ على أهوائهم وشهواتهم وعصبيَّاتِهم وتقاليدهم العمياء،

فهم بحاجةٍ قويّةٍ إلى التذكير مرّاتٍ متعدّداتٍ مَصْحُوبَاتٍ بالنُّصْح والإرشاد، حتَّىٰ يَقْوَوْا على دوافع اسْتِمْسَاكهم بالباطل، وانحرافهم عن صراط الله، وتَتَحطّم العقبات التي في نفوسهم، الحاجزاتُ لهم عن الاستجابة للحقّ الّذي دُعُوا إليه، واسْتَبَان لهم أنّه الحقّ.

فلتكرار التذكير أَثَرُهُ البالِغُ في النفوس، ولا سيما إذا وَصَلَ إلى المتلَقِّي من مصادِرَ شتَّىٰ، والمفروضُ في حامل الرسالة أن يُساعد النفوسَ الجافيةَ حتى تستأنِسَ، وتَميلَ إلى الاستجابة.

ونلاحظُ دواماً ما لتكرار الإعلاناتِ التجاريّة والدّعايات السياسيّة من تأثير على النفوس، حتى تُصَدِّق الأَخْبَارَ الكواذِبَ، فما بالُكَ بالحقّ الجليّ الذي تُؤيّده البراهين الساطعة، والحجج الدامغَةُ، وتستميل إليه النصائحُ الحسَنَةُ، والإرشاداتُ المقدَّمةُ برفْقٍ وتكريم.

ولكن يَجِبُ أنْ لا يكون تكريرُ التذكير متلاحقاً بصورة مُنَفِّرَة.

يضافُ إلى الأثر النّافع لتكرار التذكير بصورة ليس فيها تنفير، أنّ منْ طبيعة الناس أنْ يَنْسَوْا بسُرْعةٍ ما لا يحبُّون الالتزام به من عقيدة تخالفُ سَوَابِقَ عقيدتهم، أو عَمَلٍ يخالفُ عاداتهم وتقاليدهم، ومطالبَ أهوائهم وشهواتهم، ونزعَاتِهم ومُيُولاتهم النفسيّة، فهُمْ بحاجةٍ إلى من يُسَاعِدُهُمْ على نفوسِهِمْ بالتذكير حيناً ثُمَّ حيناً.

من أجل هذا الذي سبق بيانُه كان من العناصر التابعة للدَّعْوَةِ إلى سبيل الله، التَّذكيرُ بما سَبَقَ به البلاغُ مصحوباً بالنُّصحِ والإرشاد.

والتذكيرُ يُطْلبُ فيه التكرير بحكمةٍ ما دام احتمالُ الاستجابة أمراً قائماً، بالنسبة إلى الفرد، أو إلى بعض أفرادِ الجماعة، وما دامَتِ الجماعةُ يخرجُ منها كلَّ حينٍ مستجيب أو مستجيبةٌ لدعوة الحقّ، فالتذكيرُ في هذه الأحوال نافع، وتجبُ متابعتُه، ولا يصحُّ معه اليأس.

لكِنْ إذا مرّت مُدّةٌ طويلةٌ جدًّا من الزمن على شخص من الناس أو جماعةٍ منهم، وهؤلاء قد سَبَقَ تبليغُهم ودعوتُهم إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وبُشِّرُوا وأنْذِرُوا، وتَتَابَعَ عليهم التذكير الحكيم المصحوبُ بالنُّصح والإرشاد، دون أن تتحرّكَ قلوبُهم ولا نفوسُهُم بأقَلِّ درجةٍ من درجات الميل والاستجابة، بل كانوا يزدَادُون بالتذكير نفوراً، عناداً وإصراراً على ما هم عليه من باطلٍ وانحراف عن طراط الله، فمن الخير إذن الإعراضُ عن تذكيرهم إذا تَوَلَّوْا، والتّولّي عَنْهُمْ إذا طَغَوْا.

الإعراض: حالةٌ وسْطَىٰ بين الإقْبال والإدبار.

التولّي: الإدبار ويَصْحبُه غالباً الابتعاد.

والسبب في هذا أنّهم قد وصلوا إلى حالةٍ مَيْئُوسٍ منها، فمن الخير إنفاقُ الْجَهْدِ في آخرين مطموعٍ في اسْتِجَابتهم لدعوة الحقّ، أو آخرين لَمْ يُجَرَّبوا بعْدُ، فَهُمْ بمثابة الأرض الْبِكْر التي لم تُعَالَجْ بالحرث والزرع.

هذا هو الأمْرُ الذي يقضي به منطق العقل السليم، وهو ما دعَتْ إليه نُصُوصُ القرآن الكريم، في تربية الله رسولَه ﷺ وحَمَلَةَ رسالَتِهِ من أمّته.

ومنهج القرآن في التذكير بما سبق تبليغُه والدعوةُ إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وسَبَقَ شرحُهُ شرحاً وافياً من أصول الدّين، له نظامٌ حركيٌّ تَطَوُّرِيٌّ بَحَسَبِ المواقف التي يَتَطَوَّرُ إليها الذين يُوجَّهُ لَهُم البلاغ، ثُمَّ التذكير من بعده.

وهذا النظامُ الحركِيُّ تكْشِفُه النصوصُ التالية، الْمُرَتَّبة بحسب ترتيب نُزُولِ السُّور التي هي منها، والّتي جرىٰ تَدَبُّرُها ضمْنَ مُلَاحظة أَطْوَارِ الّذينَ كان الرَّسُولُ ﷺ يُعَالجهم بالبلاغ، والْبَيَانِ الكافي، ثم بالتذكير آناً ثمّ آناً وفق الحكمة.

النـصّ الأول:

بعد البلاغات الأولى والبيانات الشارحات لها ومع أوائل التنزيل القرآني، خاطب الله رسوله محمّداً ﷺ، ويُلْحَقُ به كلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمته، بقوله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾.

الذِّكْرَىٰ: اسم للتذكير، وتأتي بمعنىٰ التَّذَكُّر، وتأتي اسْماً للتَّذْكِرَة (أي: للوسيلة الّتي تُذَكِّر، كبطاقةٍ، أو رتيمةٍ، وهي الخيط الّذي يُدار على الإصْبع للتذكير بشيءٍ ما).

أي: فذكّر بما سبق أنْ بلَّغْتَه وَبيَّنْتَه ولو كان احتمال نفع الذكرى احتمالاً مشكوكاً فيه، باعتباره من أدنى درجات الظّنّ الضعيف، وقد دلَّ على هذا استعمال حرف الشرط (إنْ) الّذي يُستعمل كثيراً فيما يكونُ احتمال تحقُّقه ضعيفاً، وكثيراً ما يأتي لمطلَقِ الربط الشرطي.

وأطمع الله عزّ وجلّ بأنَّ تَحقُّقَ نفع التذكير سيكون حتماً، لَدَىٰ من يخشىٰ عَذَابَ ربّه، الذي جَاءَ به الإنذارُ ضِمْنَ فِقَراتِ البلاغ.

وأيأسَ الله عزّ وجلّ من استجابَةِ الأشْقَىٰ، مُبَيِّناً أنّه سيَصْلَىٰ حتماً النّار الكبرىٰ يَوْمَ الدّين. والأشقىٰ هو من بلَغَتْ شِقْوَتُه مبلَغَها الأَقْصَىٰ، ويُمْكِنُ اكتشافُه من سلوكِه وعناده وجبروتِه وإصراره على باطله وإجرامه، وطغيانه في الأرض.

النـصّ الثانـي:

ثمّ أمَرَ الله عزّ وجلّ بالإعراض عن تذكير من تَوَلَّىٰ عن ذكْرِ ربّه جلّ وعلا، أي: أدْبَر ونأىٰ، ولم يكْتَفِ بمجرّد الإعراض.

الإعراض: حالة وُسْطَىٰ بين الإقبال والتولّي، وهو من إعطاء عارض الوجه، وهو جانِبُهُ، فعارضا الإنسان: صفحتا خدّيه.

التَّوَلِّي: يأتي بمعنىٰ الإدبار، وبمعنىٰ النَّأيِ.

فأنزل قولَه تعالى خطاباً لرسوله ﷺ ويُلْحَقُ به كلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمّته، في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

النـصّ الثالـث:

تمّ أمر الله عزّ وجلّ بالتَّذكير بالقرآن، وَبأن يُوجَّه هذا التذكيرُ لِمَنْ يُسْتَشْعَرُ منه أنَّه يخافُ من وعيد ربّه خوفاً ما، فأنزلَ قوله تعالى في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: فذكّر بمَا جاء في القرآن من أصول الدّين مَنْ يخافُ وعِيدِي الذي أنذرْتُ به الكافرين من عبادي.

النـصّ الرابـع:

ثم أمر الله عزّ وجلّ بتَرْكِ الذين اتَّخذوا دينَهُمْ لَعِباً ولَهْواً فلم يعبؤوا ببلاغات رسولِ ربّهم، وغرَّتْهُم الحياة الدنيا، أي: بترك الاهتمام بتذكيرهم، وأمَرَ بتذكيرِ غيرِهم ممّن لم يَصِلُوا إلى مستوى اليأس من انْتِفاعهم بالتذكير، لإعطائهم أقصىٰ ما يمكن من وسائلَ لهدايتهم، واستجابتهم استجابة طوعيّةً لدعوة داعيهم إلى دين الله، فأنزلَ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) قوله تعالى:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن

تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

فالذين اتَّخذوا دينهم لَعِباً ولهواً فجعلوا يستهزئون به وبالرسول الذي بلّغهم إيّاه، وأصرّوا بعنادٍ على كفرهم، على الرُّغم من وصول البلاغِ إليهم، ومتابعتهم بالتذكير، هؤلاء ينبغي تركُهُمْ، ومعامَلَتُهُم بسياسة الإعْراض، إذْ حالَتُهُمْ قاربت أن يكون ميئوساً منها، فيكفي الإعراض عَنْ مُواجهتهم، وتَذْكِيرُ غيرهم وهم يسمعون.

أمّا مَنْ لم تَصِلْ حالتهم إلى هذا المستوىٰ فَذَكِّرْهُمْ بالقرآن وجهاً لوَجْهٍ، واهْتَمَّ بنُصْحِهِمْ وإرشادهم، وتَكْرِيرِ عَرْضِ البلاغ والْبَيَان عليهم.

وَذَكِّرْ به: أي: وَذَكِّر بالقرآن غَيْرَ الذين تركتهم لأَنَّهُمْ اتخذوا دينهم لَعِباً ولهواً وغرَّتْهُم الحياة الدنيا.

أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ: أي: مُبَادِراً بالتذكير بالقرآن وقُوعَ هذا الإِبْسَال، فعَسَىٰ أن يَتَدَارَكَ من تُذَكِّرُه أمْرَهُ، فيحْمِيَ نَفْسَهُ من عذابِ الله بالاستجابةِ والتوبة والإيمانِ والإسلام.

الإبْسال: يَأْتي بمعنى إسْلامِ المجرم ليد العدالة، وبمعنى الارتهان، وبمعنى إنزال العذاب، وتجتمع هذه المعاني هنا.

فمعنى ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: مبادرَةَ أَنْ تُسْلَمَ نفس بجريرتها، وتُرْتَهَنَ بها، في انتظار الحكم عليها بالعذاب يوم الدين، مع احتمال الحكم عليها بالعذاب والهلاك في الدنيا.

والارتهانُ جاء مصرّحاً به في قوله تعالى في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

ويكون الإبْسَالُ بالموت، أو مع بَدْءِ نزول العذاب المعجّل.

أي: فذكِّرْ بالقرآن من لَدَيْكَ أمَلٌ ما باستجابته، تَدَارُكَ أن تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ، مُرْتَهَنَةً سجينَةً، صائرَةً إلى عذابها، حالَةَ كَوْنها ليس لها من دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ يحميها من عذاب الله، ولا شفيعٌ يشفعُ لها، وإنْ تَمْلِكْ فِدَاءً ما مُعَادِلاً لجُرْمِها لا يُقْبَلْ منها، على أنّها لنْ تَمْلِكَ فداءً مَا.

وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ: أي: وإنْ تَفْدِ كلَّ فِدَاءٍ بالعدل لا يُؤْخَذْ منها.

وقد جاء التمهيدُ في هذه السّورة نفسها ببيان ما حَصَلَ لأمم سابقةٍ ذُكِّرُوا بالمذكِّراتِ الْمُتَتَابعات، فتَرَكُوا ما ذُكِّرُوا به حتَّىٰ لم يَبْقَ له في ذاكِرَاتهم آثارٌ فاعلة، فاستحقُّوا العذاب والهلاكَ فَأُهْلِكوا، وهو ما جاء في قول الله عزّ وجلّ فيها: (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

مُبْلِسُون: أي: ساكتون يَائِسُون نادمون. يُقالُ: أبْلَسَ من رحْمَةِ الله، إذَا يئس وندم.

النـصّ الخامـس:

ولمّا ظهر في المشركين جماعاتٌ عاندوا عناداً شديداً، ولم تُلَيِّنِ المذكِّرات والإنْذاراتُ بالصاعقة المهلكة شيئاً من قَسْوَةِ قلوبهم، لإصرارهم على ما هُمْ فيه من كُفْر، وإعدادِهمُ الوسائل لقمع دعوةِ الرسول بالقوة الماديّة

المسلّحة، أمَرَ الله رسُولَهُ بأن يتولّى عنهم، أي: بأن يُدِيرَ إليهم ظَهْرَهُ، ويتركَهُمْ إلى ربّهم، وما يُجْريه فيهم بحكْمَتِه، فأنزل عليه قوله تعالى في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

في هذا النصّ إشعارٌ بأنّ حكْمةَ الله قَضَتْ بأَنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ والذين آمنوا معه على طُغَاةِ المشركين بمعاركَ قتالية، لا بمُهْلكاتٍ يُنْزِلُها عليهم من السّماء، دَلَّ على هذا قولُهُ تعالى فيه: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

وفيه دلالَةٌ علَىٰ أنَّهُمْ تَحَدَّوُا الرَّسُولَ بأن يَسْأَلَ رَبَّهُ أن يُنْزِل عليهم ما سَبَقَ أن أنذرهم به.

ومع أمْرِ الله رسُولَه بأن يتولّىٰ عنهم، أمره بأن يُبْصِرَهُمْ ليكونَ على عِلْمٍ وحَذَرٍ ممّا يَمْكُرون، وطلبَ منه ـ ويُلْحَقُ به المؤمنُون ـ أن يتريّث ويتربّص حتّىٰ حِين.

وفيه أيضاً وَعِيدٌ لهؤلاء المشركين الطُّغاةِ الذين ناصبوا الرسولَ والذين آمنوا العداء، وهذا الوعيدُ جاء في النصّ مكرّراً مرّتين بقوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾.

فالأولَىٰ وعيدٌ بإهلاكٍ سَمَاوِيٍّ، والثانيةُ وعيدٌ بالهزيمة والْقَتْلِ على أيدي المؤمنين.

النـصّ السـادس:

ثُمَّ أمَرَ الله عزّ وجلّ رسولَهُ أَنْ يُوَجّه لِمُعَانِدِي قَوْمِه الْمُصِرِّينَ على الكفر، المعرضين عمّا يُوجَّه لهم من تَذْكِيرٍ بعد البلاغ والبيان، إِنْذاراً بعقابٍ

مُعجَّلٍ مُهْلِكٍ في الدُّنيا، فأَنْزَل قولَهُ تعالى في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾.

«إنْ» هنا لمطلق الربط الشرطي، ولا تفيد تقليلاً ولا تشكيكاً.

النصّ السابع:

ثمّ أبان الله عزّ وجلّ لرسوله أنّه ليْسَ مسؤولاً عن تَحْويلِ من دعاهُمْ وبيّن لَهُمْ وتابَعَهُمْ بالتّذْكير، من الكُفْرِ إلى الإيمان، وأنَّهُ لَيْسَ حَفِيظاً عليهم، كما يُعْتَبر رَاعِي القطيع مسؤولاً عن حِفْظِ قطيعه من الافتراس والشرود أو الهلاك، فَهُمْ ذَوُو إراداتٍ حُرَّة، وهم مُمْتَحَنُون من خلال إراداتهم، لا من خلال إلزامهم بالإكراه والإجبار القَسْري، فأنزلَ قولَهُ تعالى في سورة (الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ . . . ﴿٤٨﴾ ﴾.

«إن» الأولى لمطلق الربط الشرطي، و «إنْ» الثانية نافية مثل «ما» النافية.

النصّ الثامن:

وأخذ طغاة المشركين يُطْلِقُون أسْلحةَ التشهير الإعلاميّ باتّهام الرسول بأنّه ساحرٌ أو مجنون، فأَمَرَ الله رسوله بأنْ يتوَلّىٰ عنهم، وأبَانَ له أنّه إذا تولّىٰ عن تذكير هؤلاء الطغاة، فإنّ عليه أنْ يُتابع تَذْكيرَ من يَجِدُ لَدَيْهِمُ استعداداً ما لِأَنْ يُؤْمنوا، فعَسَىٰ أن ينتفعوا بالتذكير، فأنْزَلَ الله عزّ وجلّ على رسوله قَوْلَهُ في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

فَتَوَلَّ عَنْهم: أي: فأدِرْ ظهرَكَ لهؤلاء الّذين هم قَوْمٌ طَاغون، ولا تهتمَّ بهم ولا بتذكيرهم، فقد بلَغُوا إلى حالةٍ مَيْئُوسٍ منها.

فمَا أَنْتَ بملوم: أي: فإنَّكَ إذا تولَّيْتَ عن تذكيرهم وأدَرْتَ لهم ظهْرَكَ بعد أن وصلوا إلى مُسْتَوى الطغيان، فَلا يُوَجَّه لكَ لَوْمٌ ما، إذْ قد بلَغْتَ منهم غَايَةَ الْعُذْر.

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِين[1]: أي: وذكّر آخرين لم يَزَلِ الأمَلُ بإيمانهم قائماً، ولو باستجابة بعض أفرادٍ منهم، فإنّ الذّكْرىٰ تنفَعُ مَنْ لديهم استعدادٌ ما مستَقْبلاً لأن يُؤْمِنُوا.

النـصّ التاسـع:

ولئلاَّ يتَصَوّر الرسولُ ﷺ أو أحدٌ من أُمّته، أنّه إذا ملَكَ قُوَّةً مُسَيْطِرَةً، فإنّ له أنْ يُجْبِرَ المعاندين بإصرارٍ على أنْ يؤمنوا بالقوّة، أبان الله عزّ وجلّ لرسوله أنّه بعد التبليغ والبيان والشَّرْح لأصول الدين، ليس إلاّ مُذَكّراً، وأنّه ليس مأذوناً بأن يُكرِهَ أحداً على الإيمان، فأنزلَ اللّهُ عزّ وجلّ قوله في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾.

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ: أي: ما أَنْتَ بالنسبة إلى مَنْ بلَّغْتَه بلاغاً تامّاً، وَبَيّنْتَ لَهُ بَيَاناً شافِياً، إلاّ مُذَكّر، فَلَسْتَ مُجْبِراً أَوْ مُكْرِهاً أو مُسَيْطِراً.

إلاّ من تولّىٰ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللّهُ العذابَ الأكْبَرَ: أي: لَكِنْ مَنْ تولّىٰ مُدْبراً

---

(١) وجَدْتُ اسم الفاعل في كثير من النصوص القرآنيّة مستعملاً في الاستقبال، كقوله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧) في معرض قصّة هود عليه السلام وقومه عاد الذين أهلكوا: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَالَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي: وما كان لديهم الاستعداد لأنْ يؤمنوا مستقبلاً.

مُبْتَعِداً، وأصرّ على كفره بعناد، فإنّ الله هو الذي يتولّىٰ أمْرَه، وهو الذي يُعذّبُه يوم الدّين العذابَ الأكبر في نارِ جهنّم، فالعذابُ الأكبر هو عذابُ يوم الدين.

«إلاّ» هنا هي بمعنى «لَكِنْ» حرف استدراك، وهكذا كلُّ ما يُقَال فيه: استثناء منقطع.

النـصّ العاشـر:

ثمّ أبان الله عزّ وجلّ أنّه لا يُوجَدُ أظْلَمُ ممَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبّه فَواجَهَها مباشرةً بالإعراضِ، غَيْرَ مكترث لها، فأنزل قوله تعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا . . . ﴿٥٧﴾﴾.

فدلّ هذا النّصّ على مَبْلَغ الظلم العظيم الذي يتّصِفُ به من يُقابِلُ بالإعراض الْمُباشِرِ ما يُذَكَّرُ بِهِ من آيات الله، مُشْعِراً بعدم استعداده للتفكّر فيها.

النصّ الحادي عشر:

ثم أبان الله عزّ وجلّ أنّه لا يُوجَدُ أيْضاً أظْلَمُ ممَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبّه ونَظَرَ فيها وأدْرَكَ دلالاتها، ثُمَّ واجَهها بالإعراضِ عنها، فأنزل تعالى قوله في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ . . . ﴿٢٢﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على مبلغ الظلم العظيم الذي يتّصفُ به مَنْ يُصْغي لآيات الله التي يُذَكَّرُ بها، ثم بعد ذلك يُعْرِضُ عنها، ولا يستجيب لدعوة الحق.

وقدْ دَلَّ هذا النّصّ والنّص الذي قبله على التساوي في دركة الظلم العظيم بين من يُعْرِضُ ابتداءً وبصورة مباشرةٍ عن الاستجابة لما يُذَكَّرُ به من

آيات رَبّه، وبَيْنَ من يُعْرِض عن الاستجابة له بعد أن يُصْغِي له، ويُدْرِكَ ما فيه من دلاَلات وبيانات وعِظَاتٍ، فالأول بسبب الرفض دون محاولة الإصغاء والتفهم، والثاني بسبب الرفض بعد الإصغاء والتفهم، إذْ رفضَ الحقَّ الّذي وضَحَ لَه، دون أن يكون له عُذْرٌ بالرفض.

النصّ الثاني عشر:

وأخيراً أمر الله عزّ وجلّ الرسول بأن يُتَابِـعَ تذكيرهُ للّذين لم يَصِلُوا إلى حالة مَيْئُوسٍ مِنْها، غَيْرَ مكترث للطاغين، الذين يُشيعُونَ في قومه أنه كاهِنٌ، أو مجنونٌ، أو شَاعِرٌ، وأنّهم يتربَّصُونَ مَوْتَهُ ليتخلَّصُوا مِنْهُ ومن دعوته الّتي أزعجتهم، وهزّت منازلهم الرفيعة في قومهم، فأنزل تعالى قوله في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ: أي: فما أنت بنعمة النبوة والرسالة، ونعمةِ القرآن وتعليمات الدّين، الّتي تفضّل الله بإنْزَالها عليكَ بمجنون.

وما أنت بشاعرٍ كمَا اتَّهمُوك، وما أنت بمُتَقَوِّلٍ على رَبّكَ قولاً لم يُنْزِلْهُ عليكَ بالوحي، ولو كان القرآن من عندك لاستطاعوا أن يأتوا بحديثٍ مثله، فلْيَأْتُوا بحديثٍ مِثْلِه إنْ كانوا صادقين في ادِّعَاءِ أنّكَ تَتَقَوّلُ القرآن على ربّك تقوُّلاً من عنْدِ نَفْسِك.

فتابع تذكيرك لمن تَأْمُلُ أن يستجيب لدعوتك ولو أملاً يسيراً.

خـاتـمـة:

وهكذا ظهر لنا منهج القرآن في التذكير، ونظامُهُ الحركيُّ المتطوِّرُ بحسب مقتضيات الحكمة.

وظهر لنا أن المدعوَّ بالحكمة والموعظة الحسنة الذي لم يستجب للدّعوة، فإنّه ما دام في منزلة الإعراض فالمطلوب متابعة تذكيره تذكيراً مصحوباً بالنُّصْحِ والإرشاد.

فإذا هبط إلى دَرَكَةِ التولّي، فقد صار ميئوساً منه، وعندئذٍ يُكْتَفَىٰ بالإعراض عن تذكيره بصورة مباشرة وبالمواجهة، وتُتْرَكُ لَهُ فُرَصُ استماع التذكير الذي يُوجَّهُ لِغَيْرِهِ بحضوره.

فإذا تَسَفَّلَ إلى قاع الطغيان، ومُنَاصبةِ الدَّعْوَة والدُّعاة العداء، وتَدْبِير أنواع المكر والكَيْدِ ضدّهما، فينبغي معاملته بسياسة التولّي بالإدْبارِ عنه تَمَاماً، والاشتغال بغيره من المطموع باستجابتهم، ولو في حدودِ طَمعٍ يسير هو من الآمال..

وهؤلاء المتسفِّلُون إلى قَاعِ الطغيان تُتْرَكُ مصائِرهم إلى بارئهم.

أمّا أعمال المكرِ والكَيْد التي يُدَبّرونها فلَها سياساتٌ أُخْرَىٰ غَيْرُ دَعَويَّة، وهي بَعْد الصّبْرِ تَدُورُ حولَ الهجرَةِ، والدِّفاع، وإعدادِ القوّة الْمُرْهِبَةِ، ومُنَاجَزَةِ القتال إذا لَزِمَ الأَمْرُ، وتهيّأَتِ الأَسْبَاب.

* * *

وظيـفــتـا

● الهداية بالدّعوة والتذكير والنصح والإرشاد

● والإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

- ١ -

الفرق بين الوظيفتين:

يُوجد فَرْقٌ بين وظيفة: «الهداية بالدعوة إلى الله وإلى سبيله» بوصفها خُطَّةً من خطط العمل لخدمة الناس جميعاً بغيةَ إنقاذهم من الضلال والكفر والشقاء، وعذابِ الله الأبديّ في دار العذاب يوم الدين، وخِدْمةِ الإسلام بنشره، وخدمةِ جماعة المسلمين بتوسيع قاعدتهم البشريّة.

وبين وظيفة: «الإصلاح والحماية بالنُّصح والإرشاد والأمر والنهي» بوصفها خُطَّةً من خُطط العمل لخدمة أَفْراد المسلمين وجماعتهم بُغْيَة إصلاحهم وحمايَتِهِمْ من الانحراف عن صراط الله، إلَىٰ سبُلِ الضلال والغيّ والْفِسْقِ والفجور فالرِّدَّةِ وَالكُفْرِ، والشقاء العاجل والآجل، وبغيةَ حماية المجتمع الإسلامي من التَّفكُّكِ والانهيارِ بعوامل الفساد، التي قد تظهر فيه من قِبَلِ ذوي الانحراف فيه عن صراط الله، وما يكون من نتيجة انحرافهم من عَدْوَىٰ وتأثيرِ علَىٰ هيكَلِ المجتمع الإسلامي بوجه عامّ.

● وبما أنّ الإسلام هو صراط الله المستقيم اعتقاداً وخلقاً وسُلُوكاً

نفسيّاً وجسديّاً، فمن كان خارجاً عنه غَيْر سَالِكٍ فيه مع المسلمين، فإنّه يُدْعَىٰ دَعْوةً إلَىٰ دُخُوله، والانتماء إلى الأمّة الإسلاميّة، وسُلوكه مع السالكين فيه، على ما يختار من مراتبهم ودرجاتهم في هذه المراتب.

فالمرتبة العليا: هي مرتبة المحسنين، وفيها درجات كثيرات.

والمرتبة الوسطى: هي مرتبة الأبرار، وفيها درجات كثيرات. وأصحاب هاتين المرتَبَتَيْن سَابقون في الخيرات بإذن الله.

والمرتبةُ الدنيا: هي مرتبة المتقين، وفيها درجات كثيرات. ولمرتبة المتقين درجَةٌ عليا تبدأ بعدها مرتبة الأبرار، وأصحابُ الدرجة العليا من مرتبة المتقين هم المقتصدون، الّذين اقتصروا على فِعْلِ الواجبات وتَرْكِ المحرّمات ومَنْ يُلْحَقُ بهم.

وتأتي دونها درجاتُ الّذِين خلطوا عملاً صالحاً وآخَرَ سيّئاً، ولم تَزِدْ سيّئاتهم على حسناتهم زيادةً فاحشة. وتأتي دون هذه الدرجات درجات الذي أسْرَفُوا على أنفسهم بكثرة المعاصي والمخالفات، وزادَتْ سيئاتهم على حسناتهم زيادات فاحشات.

وأصحابُ هذَيْنِ المستويَيْن الْهَابِطَيْن: (الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، والذين أسرفوا على أنفسهم) يشتركون بأنَّهُمْ ظالِمُون لأنفسهم.

هذا ما دلّت عليه التعبيرات القرآنيّة في عدّة نصوصٍ متكاملة الدّلاَلاَتِ فيما بَيْنَها.

ومن كان داخلاً في الإسلام، وسالكاً في صراط الله المستقيم مع المسلمين، ضِمْنَ درجة من درجات مراتبهم، ومنتمياً إلى جماعةِ المسلمين، فالمفروضُ فيه أن يجتهد ليتعلّم شرائع الإسلام، وما أمر الله به من خير، وما نهى الله عنه من شرّ.

فما أمر الله به في الإسلام من خَيْر، يدخل تحت عنوان «المعروف».

وما نهى الله عنه في الإسلام من شرّ، يدخل تحت عنوان «المنكر».

والأصلُ أن تكون وظيفَةُ عَمَلِ إصلاح المجتمع الإسلاميّ وحمايته من الانحراف والانهيار بالبيان، نصْحاً وإرشاداً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، إذ المفروض في المسلمين أن يكونوا قد عَلِمُوا أوامر الدّين ونواهِيَه، فعلموا ما يدخل تحت عنوان «المعروف» وعَلِمُوا ما يدخل تحت عنوان «المنكر».

ولكنّ انتشار الجهل بين المسلمين، وانتشارَ الانحرافات الفكريّة والمفهومات الباطلات، والبدعِ والخرافاتِ، ووافداتِ الغزْوِ الفكري ممّا صدَّرَهُ أعداءُ الإسلام إلى شعوبَ الأُمَّةِ الإسلاميّة، أدّىٰ إلَىٰ أَنْ يكون كثيرٌ جدّاً من المسلمين لا يعلم «المعروفَ» في الدّين، حتَّىٰ يَعْمَلَ به، ويَحُثَّ عليه أهله وذَوِيه، ولا يَعْلَمُ «المنكر» في الدّين، حتّى يجتنبه ويحثَّ على اجتنابه أهْلَهُ وذَوِيه.

فهؤلاَء لا يُلاَئِمُهُم أنْ يُوجَّه لهم الأَمْرُ بالمعروف الذي لاَ يَعْلَمُونَ أنّه يدخل تحت عنوان «المعروف».

ولا يُلائمهم أنْ يُوجَّه لهم النهي عن المنكر الذي لا يَعلمون أنّه يدخل تحت عنوان «المنكر».

بل ينبغي أن تُوَجَّهَ لهم الدَّعْوَةُ بغاية الرّفْقِ والحكْمةِ ليعلموا ما يجهلون أنّه يَدْخُل تَحْتَ عنوان «المعروف» وأنّه يجب عليهم أن يعملوا به، وليعلموا مَا يَجْهَلُون أنّه يدخل تحت عنوان «المنكر» وأنّه يَحْرُمُ عليهم أن يفعلوه ويرتكبوا إثمه، فإذا عَلِمُوا وأعْلَنُوا استجابتهم وطاعتهم صار من المناسب أن يُوجَّه لهم بالنسبة إليه الأمْرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المنكر.

يضافُ إلى ما سبَقَ أنّ الأعمال الّتي تَدْخُل في درجات مرتبة الْبِرّ، أو درجاتِ مَرْتَبَةِ الإحْسَان، من الأعمال الصَّالِحَةِ الّتي يَنْبغي أنْ يُنْدَبَ المسلمونَ إليها ندباً تَطوُّعِيّاً، لا تَصْلَحُ معها سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل تُلائمها الدّعْوَةُ بغايةِ الرّفْقِ، والتشجيع على الأخذ بها بأسلوب النَّدْب التطوّعيّ، فمن وجَدَ في نَفْسِه استعداداً وهمَّةً لأن يرتقي في درجات السّابقين في الخيراتِ بإذن الله، توسَّعَ في أعمال الْبرّ لِيَرْتَقِي فِي درجات الأبرار، وزادَ في إحْسَانِ عَمَلِهِ حتَّىٰ كأنّه يرىٰ رَبَّه وهو بين يَدَيْه يَعْبُدُهُ، لِيَرْتَقِيَ فِي درجات المحسنين.

إنّ ترك المندوباتِ والسُّنَنِ والآداب، وارتكابَ المكروهات وما هو خلاف الأولىٰ ليس من المنكرات حتّىٰ تستعمل فيها عباراتُ النهي الإلزامِيّ التي تستعمل في النهي عن المنكر، واتّخاذُ سياسة الأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر بالنسبة إلى هذه الأمور سياسةٌ سيئة منفّرة.

وإذا وُجد في بعض هذه الأمور خلافٌ عند أهل الاجتهاد من علماء المسلمين بين الوجوب والندب، أو بين التحريم والكراهة، فمن الخير في الإرشاد إليها الابتعادُ عن سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاقتصارُ على الدعوة بالرّفق والحكمة والتشجيع.

لكن ينبغي للدّاعي والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يأخُذَ نفسه بالأكمل دواماً، ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً، ليكون أُسْوَةً حَسَنَةً للمتّقِين، وإماماً صالحاً يُقْتدىٰ به، علىٰ أَنّه قَدْ يكون لبعض هؤلاء ظروفٌ خاصةٌ بيئيّةٌ في مجالاتِ أنشطتهم يحسُنُ مَعَها الأخذُ بسياسة الترخُّصِ بعدم الالتزام بما هو الأفضل والأكمل دواماً، كمن يقوم بالدّعوةِ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضِمْن أقلياتٍ مُسْلِمةٍ، في بلدان أهل الكفر، أو في بلدانٍ كثيرةِ الانحرافِ من بلدان العالم الإسلامي.

الخــلاصــة:

● فسياسة الدعوة إلى سبيل الله وظيفةٌ من وظائف الأمّة الإسلاميّة، الّتي يضطلع بمهماتها المؤهَّلُونَ علميّاً وفكرِيّاً ونفسيّاً وبيانيّاً وخلقيّاً وسلوكيّاً، للقيام بها، على مقادير معرفتهم الصحيحة الثابتة من الدين مع التزامهم بواجبات الدعوة وآدابها، وهي توجّه:

١ ـ لمن هم خارج صراط الإسلام الذي يُدْعَوْنَ إلى الدخول فيه، وسلوكه مع المؤمنين المسلمين، على وفق مراضي الله فيه، وإلى الانتماء الإراديّ إلى الأمّة الإسلاميّة الربّانية الواحدة.

٢ ـ وللمسلمين الذين هم بسبب جهلهم بشرائع الإسلام وأحكامه، وبسبب انتشار الأفكار الباطلة والانحرافاتِ والخرافات والبدعِ لديهم، بمثابة غير الداخلين في صراط الإسلام.

٣ ـ وللمسلمين الذين يُنْدَبُون نَدْباً تطوُّعيّاً للارتقاء في درجات الأبرار ودَرَجاتِ المحسنين.

● وسياسة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وظيفةٌ من وظائف الأُمَّة الإسلاميّة التي يضطلع بمهمّاتها المؤهلون علميّاً وفكريّاً ونفسيّاً وبيانيّاً وَخُلُقيّاً وسلوكيّاً، للقيام بها على مقادير معرفتهم الصحيحة الثابتة من الدّين، مع الْتِزَامِهم بواجبات هذه الوظيفة وآدابها، وهي تُوجّه:

للمسلميـن العالميـن بالفروضِ والواجبـات الإسلامية، فهم يَعْلَمُونَ دخولها تحت عنوان «المعروف» والعالمين بالمحرّمات الإسلامية، فهم يَعْلَمُونَ دخولها تحت عنوان «المنكر».

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عملٌ إرْشاديٌّ تذكيريٌّ، يُوجَّهُ لكلّ مسلم في حدود ما يَعْلَم عامّةُ المسلمين من الواجبات والمحرّمات الدينيّة.

فما هو واجبٌ معلومُ الوجوب عند جماهير المسلمين يُطْلق عليه عنوان «المعروف» كما سبق بيانه في التعريفات.

وما هو حرامٌ معلومُ الْحُرْمَةِ عند جماهير المسلمين يُطْلَق عليه عنوان «المنكر» كما سبق بيانه في التعريفات.

فالتذكيرُ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يوجّه للّذين عرفوا الواجب في الدِّين فهو «معروف» لديهم، وعرفوا المحرَّم في الدِّين فهو «منكر» لديهم.

والمذكِّرُ إذا رأى شخصاً مُسْلِماً جاهلاً ببعض الواجبات أو المحرَّمَات الدينيّة فعليه أن يُعَلِّمه، ويكون بالنسبة إليه في ذلك داعِياً هادياً مُرْشداً، ولاَ يَصِحُّ أن يقف منه موقف الآمر بالمعروف النّاهِي عن المنكر، لأنّ الأمر الذي يُرِيدُ أن يُقَدِّم له النُّصحَ حوله لم يَصِرْ بعْدُ لَدَيْهِ معروفاً إذا كان من الواجبات، ولا مُنْكراً إذا كان من المحرّمات.

* * *

- ٢ -

مادة فعل «دعا» في اللغة وفي النصوص الدينية

جاء في كتب اللّغة أنّ الدّعوةَ، والدُّعاءَ، والدَّعْوَ، والدَّعْوىٰ، والدِّعَاية، والدّاعيَة، بعضُها مصادر وبعضها بمثابة المصادر لفعل «دعا ـ يَدْعو» بمعنى: نادىٰ يُنادي، وَطَلَبَ يطلب، وشأن النّداءِ لأمر ما، أو طلَبِ أمْرٍ ما، أن يكون برفق ولِينٍ وتَلَطُّفٍ، وقد يُصَاحِبُه أحياناً استعطافٌ واستجداءٌ واستغاثة واستثارَةٌ للعواطف الدافعة للاستجابة.

يقالُ لغة: دَعَا الرَّسُولُ قومَه إلى دينِ الله دعْوَةً، ودُعاءً، ودَعْوا، ودَعْوىٰ، ودِعَايَةً، ودَاعِيَةً، إذا ناداهم، وطلب منهم الدخول فيه، وحثّهم على الإيمان بما جاء فيه، وعلى الإسلام والطاعةِ لله عزّ وجلّ، والانتماء إلَىٰ الأمَّة الْمُؤْمِنَةِ المسلمة.

ويقال: دعا فلانٌ إلى مذهبه غير الداخلين فيه، إذا ناداهم وطَلَبَ منهم اعتقادَ صِحَّتِه، والدخولَ فيه وسلوكه.

ويقال: دَعَا الشيطانُ حِزْبَهُ ليكونوا من أصحاب السعير، أي: ناداهم وطلَبَ منهم أن يتّبعوه، فيكْفُروا بربّهم، واستخدم لإغْرَائهم وإغوائهم وسَائِلَ الاستهواءِ، والإطماع بالباطل، وإرضاءِ الشهوات، وغَرَضُه أن تكونَ عاقبةُ أمرهم العذابَ في النارِ يوْمَ الدّين.

ويقال: دعا أَئِمَّةُ الضلال أَقْوامهم إلى اتّباع طرائقهم الضالّة، وإلى نُصْرَتهم على من خالفهم.

وجاء في كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل:

«أدعوكَ بدِعَاية الإسلام، أسْلِمْ تَسْلَمْ...» وفي روايةٍ: «أَدْعُوكَ بدَاعِيَةِ الإسلام...» أي: بدعوة الإسلام.

والدَّعوةُ إلى شيءٍ ما تُقابَلُ بأحد أمرين:

- إمّا بالاستجابة والاتّباع.
- وإمّا بالرفْضِ والامتناع.

وتُسْتَعْمَلُ هذه المادّة بمعنى طَلَبِ مرغوبٍ فيه، ممَّن تُرجَىٰ منه استجابته، كدُعَاءِ المؤمن ربَّه أن يَهَبَهُ ما يرغَبُ فيه من خَيْرِ الدّنيا، أو خَيْرِ الآخرة، وهذا المعنى لا يخرج عن أصل المعنى اللُّغَوي.

وبما أنّ هذا الدّعاء الموجَّهَ لمدعُوٍّ غائبٍ عن الحواسِّ يدخُل في عموم العبادة، فقد حصَلَ توسُّعٌ في معنى الدُّعاء، فصار بمعنى العبادة، فَيُقَالُ: دعا المؤمِنُ رَبَّهُ بمعنى عبَدَهُ.

ومن عبادة الله ذكْرُهُ بالأذكار التي يحبُّ من عباده أن يذكروهُ بها، ولهذا جاء في قول الرسول ﷺ الذي رواه الترمذي عن عمرو بن شُعَيْبٍ عن أَبِيه عن جدِّه، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَة، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا والنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ، لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ ولَهُ الْحَمْدُ، وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ». قال الترمذي: حديث حسن.

فجعلَ الرسولُ ﷺ هذا الذكْرَ دُعَاءً، لأنه لون من ألوان عبادة الله عزّ وجلّ، مع ما في الاشتغال بذكر الله من تعويضٍ يُعادِلُ أفضلَ ما يَسْألُ السائلون، كما جاء في بعض الأحاديث.

ومن عبادة اللَّهِ الدَّعْوَةُ إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى هذا يمكن أن نفهم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: لمّا قام رسُولُ الله محمد ﷺ يَعْبُد رَبَّهُ بالدّعْوَةِ إلى سبِيلِهِ في قومِهِ، عَادَاه قَوْمُه، واجتمعُوا ضِدَّه، وأحَاطُوا بِهِ ليتخلَّصُوا مِنْهُ وَمِنْ دعْوَتِه، حتَّىٰ كادُوا يكونُون علَيْه في حَرْبِهِم له ومُقَاوَمَتِهم لدَعْوَتِهِ مجتمعين كاجتماع الشَّعَرِ والصُّوفِ المتلَبِّد، الذي ضغط بعضُه على بعض.

وحول هذه المعاني التي سبق بيانها جاء استعمالُ مادّة «دَعَا» ومشتقَّاتِها في النُّصوصِ القرآنيّةِ والحديثيّة، ونلاحظ فيها كلِّها أنّ الدّعْوة شيءٌ غَيْرُ الأَمْرِ

بالمعْرُوفِ والنهي عن المنكر حتماً، وأنّها تكونُ نداءً وتَرْغيباً في قبولِ أمْرٍ غَيْرِ مُلْتزَمٍ بِهِ سَابقاً، ولمْ يُؤْخَذْ بالتزامِهِ عَهْدٌ وَلا بَيْعَة.

أمّا وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتُوَجَّهُ لِمَنْ بايَعَ على الإسلام، وأعلن الالتزام بأحكامه وشرائعه، وعرَفَ تَفْصِيلاً أحكامَ ما يؤمَرُ بِهِ فيه، وما يُنْهَىٰ عنه فيه، مما هو معلومٌ لدى عامّةِ المسلمين.

فمن النصوص التي جاء فيها استعمال مادّة «دَعَا ـ يَدْعُو» ما يلي:

١ ـ قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) بشأن المشركين من قومه:

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وادْعُ إِلَى رَبِّكَ: أي: وادْعُ إِلَىٰ الإيمانِ به واتّباع صراطه المستقيم الكافرينَ وَالمشركين.

ولاَ تَدْعُ مع اللَّهِ إلَهاً آخَرَ: أي: ولا تَعْبُدْ مع اللَّهِ في عباداتِكَ الخاصَّة، وفي عِبَادَتِك بدعوتِكَ إلى ربّك إلَهاً آخر، إذ الحقُّ في الوجود أنه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وكيف يكون معه إلَه غَيْرُهُ؟ فـ ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلاّ ذَاتَه.

٢ ـ وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: لا يُوجَدُ قائل مِن النَّاسِ يقولُ قولاً ويكونُ قَوْلُهُ أحْسَنَ ممَّنْ دَعَا إِلَىٰ الله بمقالِهِ، فهذا القائل إمّا أنْ يكُونَ داعياً إِلَىٰ اللَّهِ مِثْلَه، أو غَيْرَ داعٍ إلى

الله، فإنْ كان داعياً إلى الله فقد اشتركا في جنْسِ أحْسَنِ الْقَوْلِ، وإنْ كَانَ غَيْرَ داعٍ إلَى الله، فلَنْ يَرْقَىٰ قولُه إلى قولُ الداعي إلى اللَّهِ في سُموِّ الغاية، والآثارِ الحميدة، مَهْما كان ذَا جَمالٍ أدبِيٍّ زُخْرُفِيٍّ رائع.

لكِنَّ أفضليَّة قَوْلِ الداعي إلى الله مشروطَةٌ بأن يكونَ الداعي في سلوكه الخاصّ ملتزماً بالعمل الصّالح مِنْ قَبْلِ دعوته إلى الله، ليكون قُدْوةً حسَنةً لِمَنْ يَدعوهم، وبأنْ يُعْلِنَ للجميع بأنَّه واحِدٌ من المسلمين، فلَيْسَ له ميزَةٌ خَاصَّةٌ على سائرِ المسلمين بإعفاءاتَ خاصَّةٍ أو تسهيلاتٍ، أو تقليلِ واجباتٍ، أو إباحَةِ محرّماتٍ أو نحو ذلك، وهكذا كان الرسُلُ والأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام، باستثناء بعض خصوصيات تقتضيها رسالتُهم، وأمّا التكاليفُ فَهُمْ أكثر الناس أعباءً وواجبات، وأكثرهم بلاءً.

٣ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) يحكي مقالة نوحٍ عليه السلام في شكواه لربِّه من عدم استجابة قومه لدعوته:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ ﴾.

فجاء في هذا النّصّ استعمالُ: «دَعَوْتُ ـ دُعَائي ـ دَعْوَتُهم» بمعنَىٰ ناديتُهمْ وَطلبْتُ منهم أن يؤمنوا بِكَ ربّـي، ويَنْبذُوا الشّرك، ويتّبعوا سبيل الهدىٰ الذي أنزلتَهُ، فلم يستجيبوا.

٤ ـ ولمّا كان المنافقون خارجين عن سبيل الله في حقيقة الأَمر، كان المناسِبُ في توجيههم ليحكم اللَّهُ ورسولُه بينهم أن تُسْتَعْمَلَ سِيَاسَة الدَّعْوَة، لا سياسة الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، لأنّ المعروفَ لدى المسلمين ليس معروفاً في اعتقادهم، ولأنّ المنكر لدى المسلمين ليس منكراً في اعتقادهم، ولهذا جاء في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بشأنهم:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

فجاء في هذا النَّصّ بشأنِ الْمُنَافِقين استعمالُ عبارة ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ لأنَّ حالَهُمْ في حقيقة الأَمْرِ حالُ الكافرين الّذينَ يُدْعَوْن دَعْـوَةً، لا حَالُ المؤمنين العالِمينَ الذين يُؤْمَرُونَ بالمعروف ويُنْهَوْنَ عن المنكر.

٥ ـ ولمّا كان القتالُ في سبيلِ الله عَمَلاً من أعمال البرِّ والإحْسَانِ وليس أَمْراً واجباً وتَكْلِيفاً لازماً تقتضيه مَرْتَبَةُ التقوى، كان المناسب في توجيه المؤمنين له أن تُسْتَعْمَل سياسةُ الدّعْوَةِ لا سياسةُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهكذا كان حال القتال في سبيلِ اللّهِ إبّانَ غَزْوَةِ بَدْرٍ، فقال الله عزّ وجلْ خطاباً للذين آمنوا في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ . . ﴿٢٤﴾ ﴾.

لَقَدْ كانت الدّعْوَةُ يوْمَئِذٍ إلىٰ قتال المشركين وكانَ نَدْباً، وأبَانَ الله عَزَّ وجلَّ أنّ استجابتهم لهذه الدعوة ستكون سبَبَ حياتِهِمْ.

أمّا الذين يُسْتَشْهَدُونَ فهم أحْيَاءُ عند ربهم يُرْزقون، وأمّا الآخرون فإنّ الله يمنحهم النَّصْرَ علىٰ عدوّهم فيكون ذلك حياةً عزيزة سعيدة لهم، بعد ما كانوا فيه من حياةِ الذّلِ والاضطهاد والخوف، ويكونُ حياةً للدّعوةِ الإسلامية إذْ تمتدّ وتنتشر بسبب الظفر الّذي يُحقِّقُه الله لهم على مُشْركي مكّة.

٦ ـ ولمّا كان الإنفاق في سبيل الله لإعدادِ المستطاع من القوة، بُغْيَةَ مُوَاجَهةِ الأعداء بالقتال، أو بُغْيَة نشْرِ الإسلام، عَمَلاً تطوُّعياً مِنْ أعْمَالِ البرّ والإحْسَانِ، ولم يكن فريضةً واجبةً كالزكاة، كانَ المناسِبُ في توجيه

المؤمنين له أنْ تُسْتَعْمَل سياسةُ الدَّعوة، لا سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال الله عزّ وجلّ خطاباً للذين آمنوا في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.

إنّه لمّا كان الإنفاق في سبيل الله الذي جاء في هذه الآيةِ أمْراً تَطَوّعيّاً لا أمْراً واجباً مفروضاً، كان المناسب أنْ يَجِيء فيها عبارة: ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

٧ ـ ويقابل الدّعوةَ إلى سبيل الله لِمَنْ كانَ خارجاً عنه، الدَّعْوةُ إلى سبيل الطّاغوت لدخولِه والسيرِ في متاهاته، والدَّعْوَةُ إلى سُبُلُ الشياطين وأئمة الضلال في الأرض، والدّعْوَةُ إلى مذاهبهم وكفريّاتهم.

وقد جاءت عدّة نصوص قرآنيّة تُبيِّنُ هذا:

● فقال الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً للناس أجمعين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾.

فالشّيطانُ يَدْعُو الناسَ، ليستجيب له منهم من يكونون حِزْبَه، فإذا صاروا حِزْبه قَادَهُمْ أو ساقَهُمْ فكانوا من أصحاب السعير يوم الدّين.

● وقال الله عزّ وجلّ بشأن فرعون وجنوده في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: وجعلناهم بمقتضىٰ النظام العامّ الذي فَطَرنا الناسَ عَلَيْهِ، إذْ جعلناهم ذوي خصائص قيادية ومخَيّرين مُمْتَحنين في الحياة الدنيا، أَئِمَّةً يَدْعُون إلى مذْهَبهم الكفريّ الباطل، فمن استجابَ لهم كان مصيره إلى عذاب النار، وكلٌّ من الدّاعين والمستجيبين يعملون أعمالهم باختيارهم الحرّ، بمقتضى النظامْ التكوينيّ العامّ الذي جعلَهُ اللَّهُ في فطرته الّتي فطر الناس عليها.

● وقال تعالى في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) مبيّناً ما يقول الشيطان يوم القيامة للّذين استجابوا له بعد أَنْ يقضي الله بين العباد:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فبيّن الشيطان أنّه لم يكُنْ مِنْهُ إلاّ أنْ دَعَاهم فاستجابُوا له، فلم يكن منه إكراهٌ ولا تكليفٌ إلزاميّ.

ما أنا بمصرخكم: أي: ما أنا بمُغيثكم.

● فمن استجاب وانتظم في حزب الشيطان، أو في حِزْب إمامٍ من أئمةِ الكفرِ والضلال، وجَدَ نفسه خاضعاً للأوامر والنواهي التي تُوجّه له مِنْ قِبَلِ مَنْ جعلَهُ لنفسه إماماً.

وقد أبان الله أنّ الأَتْبَاع يخاصمون أئمتهم يوم الدين، بأنّهم كانوا يمكُرُونَ بهم لَيْلاً ونهاراً، فيأمُرونهم بأن يكْفُروا بالله وأنْ يَجعلوا له أنداداً، فقال جلّ وعلا في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿ . . وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

لقد كانوا يوجّهون لهم الأوامر والنواهي لأنّهم استجابوا لدعوتهم، وانتظموا في حزبهم.

* * *

منزلة الدَّعوة إلى دين الله في سلّم الأوْلَوِيَّات الجهاديّة

على المسلمين جميعاً ولا سيما الدعاة إلى الله أن يضعوا نُصْبَ أعينهم دواماً أن الدعوة إلى دين الله بين الناس، بعد مجاهدة النفس لإصلاحها، تحتل منزلة الدرجة الأولى في مُدَرَّج الأولويَّاتِ الجهادية لإعلاء دين الله ونشره في العالمين.

إنّ الوضْعَ الذي يتهيّأ به انتشار الإسلام عن طريق الدّعوة إلى الله هو الفتح الحقيقيُّ الأعظم عند الله، أمّا نَصْرُ المسلمين على أعدائهم، وسُقُوطُ بُلْدان الكفرِ في أيدي المسلمين بالقوة المسلّحة، فهو فَتحْ من الدرجة الثانية، إلاّ أن يكون سبباً لانتشار الإسلام ودُخُولِ النّاس فيه أفواجاً.

فقد وصف الله عزّ وجلّ في أوّل سورة (الفتح/٤٨ مصحف/١١١ نزول) صُلْحَ الحديبية الذي جَرَى بين الرسول ﷺ ومشركي مكّة بأنّه فتح مبين، فقال تعالىٰ خطاباً لرسوله:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾.

أي: إنّا فتحنا لك فتحاً واضحاً جَليّاً لانتشار الإسلام وامتداده عن طريق الدَّعْوة إلى دين الله، وصراطه المستقيم.

وذلك لأَنَّ الدَّعْوةَ إلى الله قد انطلقت بسببه دون أَنْ تَقِفَ في وجهها

عوائقُ من ألدّ أعدائها يومئذٍ، وهم مشركو قُريش، لقد انطلقت الدّعوة إلى الإسلام بعد صلح الحديبية في مكة، وفيما حولها، وفي قبائل العرب، وأخذ الإسلام ينتشر بحريّة، وسعَىٰ الدعاة المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ يدعون إلى الإسلام آمنين مطمئنين، في أهل مكة وفي مختلف قبائل العرب، ودخل في الإسلام بالدعوة بعد صُلْح الحديبية خَلْقٌ كثير.

قال الزهري: فما فُتِحَ في الإسلام فَتْحٌ قَبْلَه كانَ أعْظَمَ مِنْهُ، إنّما كان القتالُ حيْثُ الْتَقَىٰ النَّاسُ، فلَمَّا كانَتِ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وأَمِنَ النّاسُ بَعْضُهُم بعضاً، والْتَقَوْا فتفاوضوا في الحديثِ والْمُنَازَعة، فلَمْ يُكَلَّمْ أَحَدٌ بالإسلام يَعْقِلُ شيئاً إلاّ دخَلَ فيه، ولَقَدْ دخَلَ في تَيْنِكَ السَّنَتَيْن (أي: من صُلْحِ الحديبية الذي كان في شهر ذي القعدة من سنة ستٍّ للهجرة حتى فتح مكة) مثْلُ مَنْ كانَ في الإسلام قبْلَ ذَلِكَ أو أكْثَر»[1].

قال ابن هشام: والدّليلُ على قول الزهري أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة، في قول جابر بن عبد الله، ثُمَّ خَرَجَ عامَ فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

أقـول:

ويغلط كثير من حاملي راية الجهاد في سبيل اللهِ، فيَقْفِزُون عن إدْراك هذه الحقيقة، ولا يَضَعُونَ من صُور الجهاد في سبيل الله نُصْبَ أعْيُنِهم إلاّ الجهادَ بالقتال الذي هو بمنزلة ذروة السَّنَام من الجمل، ومعلومٌ أنّ ذروة السّنام تقع في الحاشية المرتفعة من جسم الجمل، فلا يُبْدأ بها قبل أن يَسْتَوفي الجمل مطالبَه، حتَّى ينهض ويقوم على قوائمه الأربع، ويصير قادراً على حمل الأثقال، واجتياز الصحاري والوديان، وارتقاء الجبال.

* * *

(١) انظر سيرة ابن هشام (في أخبار صلح الحديبية).

المقـولة الثـامنة

أقسام الدعاة إلى دين الله والآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر

فريق حَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى دين الله، وفريقُ حَمَلةِ رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلٌّ منهما ينقسم إلى فئتين كُبْرَيَيْن، وكلٌّ فئة من هاتين الفئتين الكُبْرَيَيْن ينقسمون إلى أقسام ذوات مستوياتٍ ودَرَجاتٍ متفاضلات، على حسب تفاضل المؤهلات والقدرات والمواهب لدى الأفراد.

وأَقْتَصِرُ على ذكر الفئتين الكبريين، وهما الفئة العامة، والفئة الخاصة.

أما الفئة العامّة: فهي فئة غير المتخصصين، ويدْخُلُ فيها كلُّ مؤمن مسلم يَعْلَمُ شيئاً من دين الله علماً يقينيّاً، شهد له به عالم متخصّص من علماء الدّين الموثوقِ بهم لدى جماهير علماء الدين الإسلاميّ المتخصّصين.

وأَفْرادُ هذه الفئة العامة يتحمَّلُون من مسؤولية دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ومن مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مقادير ما يعلمون بيقين من أمور الدّين.

ويؤدّي هؤلاء رِسالاتهم ما وجدوا لأدائها سبيلاً، خلالَ أعمالهم، وأنْشِطَتِهِمْ، وفي أوقات فراغهم، ويتحرّون أداءها متلطفين بالتوجيه والتبليغ

والتعليم والنُّصْحِ لمن يأنَسُونَ أنهم ذَوُو حَاجَةٍ لها، تعليماً أو تذكيراً أو موعظةً بالترغيب والترهيب، ومن الخير دائماً أن يكون أداؤهم لرسالاتهم بصورة غير مباشرة، وأن تُنْتَهَزَ فيها المناسبات العارضات، والمحادثات والمذاكرات والمداولات في مختَلِف أُمُورِ الحياة، التي لا يَشْعُرُ معها المقصودُ بالتوجيه والتعليم والنُّصْحِ والموعظةِ، أنَّ الحديث موجَّهٌ له قصداً.

ويكون هذا في مجال الأسرة، وفي مجالات الأعمال والأنشطة الّتي تكتسبُ بها معايش الحياة، وفي مجالس التسلية، ومجالس السّمر، وعند كلّ لقاء مع إنسان مُسْتَعِدٍّ لأن يستمع حديثاً، في إقامةٍ أو سفر.

ويكون هذا أَيْضاً في مختلفات الأحوال، في الصحة والمرض، والسِّلْم والحرب، والنِّعْمةِ والمصيبة، والعُسْر واليسر، والاستمتاع والبؤس، والمسرَّات والأحزان، والجدِّ والهزْلِ، إلى غير ذلك من أحوال.

ومن صُوَر الأنشطة التي يمكن ويَحْسُن أن يؤدّي أفراد هذه الفئة العامّة رسالتهم بها ما يلي:

● بيان إتقان صَنْعَةِ الخالق في كونه ـ بيان أنّ الله واحدٌ لا شريك له في ربوبيته فلا يصحّ عقلاً أن يُشْرِكَ الناس بعبادته شيئاً ـ حديثٌ حَوْلَ عَدْل الله وحِكْمَتِه في خَلْقِه ـ حَدِيثٌ حول أن الله قد خلق الناس ليمتحنهم في هذه الحياة الدنيا فلا بُدَّ أن يُحَاسِبَهُمْ على أعمالهم ويجازيهم ـ حديث حَوْلَ الدار الآخرة والجنّةِ والنار ـ حديث حَوْلَ إعجاز القرآن وأنّه حقٌّ لا رَيْبَ فيه، وأنّ الْمُنْصِفين من علماء العلوم الكونيّة من غير المسلمين يَدْخُلُون في الإسلام كلّما اكتشفوا ما جاء في القرآن من حقائق علميّة ـ إلى غير ذلك مما يَصْلُح في الدعوة.

● تعليمُ آيةٍ أو سورة من القرآن ـ تَعْليمُ حديثٍ صحيح من أحاديث الرسولِ تلقّاهُ حَامِلُ الرسالة بالضَّبْطِ التام عن عالمٍ بالدّين متخصّص ـ نَصِيحَةٌ

حول خلق من أخلاق الإسلام كالصدق، والأمانة، والعفة، والوفاء بالعهد والْوَعْدِ، ورِعَايَةِ حقوق الجار، ورعايَةِ حقوق الفقراء والمساكين والْيَتامىٰ والضعفاء، ومن الخيْرِ أن تكون هذه النصيحة بأسلوبٍ غير مُبَاشر، كعرض قصّةٍ فيها تحقيقُ المقصودِ والإقناعُ بالمراد ـ نصيحةٌ بشأن وجوب اجتناب رذيلة خلقيّة أو سلوكية، كالظلم، والْعُدْوان على حقوق الناس أو أعْراضهم وكراماتهم، والقتل، وأكل أموال النَّاس بالباطل، والسّرقةِ، والرّبا، والزّنا، وغَيْرِها من كبائِرِ الإثم، ومن الخير دائماً أن تكون النصيحةُ بأسلوب غير مباشر.

● عَرْضُ حدَثٍ من أحداث سيرةِ الرسول ﷺ، أو قصَّةٍ من قصص الأنبياء، أَوْ قصصِ الصحابة وفضلاء التابعين وعُلَمَاء المسلمين، أو قصّةٍ من قصص المجرمين الّذين أهلكهم الله أو عَاقَبَهُمْ بعذابٍ معجّلٍ في الدنيا قبْلَ عذاب الآخرة.

قراءةُ بحث من كتاب من كتب أحاديث الرسول ﷺ، أو من كتب الأخلاق، أو قراءَةُ تفسيرِ آية، أو سُورَةٍ من كتاب مُعْتَمَدٍ لدَىٰ العلماء المتخصِّصين بعلوم الدين ـ قراءةُ قِطْعَةٍ أدبيّة من شعر أو نثر تتَضَمَّنُ معانيَ دينيّةً صحيحة.

إلى غير ذلك من أُمُورٍ كثيرةٍ جدّاً يتفَتَّقُ عنها ذهن حامل الرسالة، لتَوْصِيلِ الفكرةِ أو النصيحة أو الموعظة لمن يُقْصَد تبليغُهُ أَوْ تَوْجِيهُه، كإسماعِ شريط مسجّل لأحد العلماء المتخصصين، وكعَرْضِ شريطِ فديو قَدْ سُجِّل عليه حديث دينيّ أو حوارٌ ديني بين كبار العلماء من أَهْلِ الفكر والرأي.

وقد دلّ على هذه الفئة العامّة بالنسبة إلى رسالة الأمر بالمعروفِ والنَّهْي عن المنكر، قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

ودَلَّ عليها بالنسبة إلى رِسَالَةِ الدعوة إلى دين الله، ذِكْرُ اللَّهِ عزّ وجلّ قِصّةَ مُؤْمِنِ آل فرعونَ وَدَعْوَتِه لقومه، وقد كان من آحاد الناس غير المتخصصين، ونظيرُهَا قصةُ مؤمِنِ أصحاب القرية الّتي جاءها المرسلون والتي جاء بيانها في سورة (يّس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) ونصوصٌ من أقوال الرسول ﷺ سبق بيانها في هذا الباب.

الفئة الخاصّة: وهي فئةُ المتخصِّصِين من حملة رسالة الدعوة إلى دين الله، أو من حملة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه الفئة يَجبُ أن يَتحقّق فِي كُلِّ فردٍ من أفرادها المؤهلاتُ الملائمات للمستوى التخصّصي الذي يقوم به، ومنها المؤهلاتُ العلمية، والمؤهلات الفِكْرِيّة، والمؤهلاتُ البيانيّة، والمؤهلاتُ النفسيّة والْخُلُقِيَّة، مع الأوصاف الإيمانيّة والسلوكيّة التي تُرشِّحُ صَاحِبَها لأَنْ يكون من عباد الرحمن وإماماً للمتقين، ومع الالْتِزَام بواجباتِ وآدابِ الدَّعْوَةِ إلى الله، إذا كان يحمل رسالة الدعوة إلى الله، والالتزام بواجبات وآداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان يَحْمِلُ بين المسلمين هذه الرسالة.

وسيأتي إن شاء الله تفصيل كل ذلك.

* * *

الفصـل الثانـي

أثر النّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إصلاح المجتمع الإسلامي وحمايَتِهِ وصيانته

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى: نظرات تحليليّـة

وفيها خمس فقرات.

١ ـ ظاهرة تعاونيّة.

٢ ـ الجسدية الواحدة للمجتمع الإسلامي ومقتضياتها من الحماية والإصلاح.

٣ ـ من شروط بقاء التمكين للمؤمنين في الأرض.

٤ ـ حماية سَفِينَةِ المجتمع الإسلامي من الْغَرق.

٥ ـ ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها، وما يجب على من تُوَجَّهُ له الرسالة.

المقولة الثانية: استعراضُ طائفة من النصوص.

المقولة الأولى

نظرات تحليليّة

- ١ -
ظاهرة تعاونيّة

قال الله عزّ وجلّ في سورةِ (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿. . وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

بالتأمّل المتأنّي والتفكُّرِ الدقيق، نُلاحظُ أنّ النُّصْحَ والإرْشادَ والأمْرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر بالرّفْق واللّين والموعظة الحسنة، ظاهرةٌ اجتماعيّة تعاوُنيّة علىٰ البِرِّ والتَّقْوىٰ بين أفراد وجماعات المجتمع الإسلاميّ المثالي.

فالإنْسَان الفردُ ضَعِيفٌ عن السّيطرة على أهواء نفسه وشَهَواتِها، وكَبْحِ جماحِها، ولا سِيَّما إذا نَزَغَه من الشيطان نَزَغاتٌ، وتَواتَرَتْ عليه وَسَاوِسُه وتسْوِيلاته[1]، وأحاط به قُرناءُ السُّوء.

---

(١) التسويل: هو الإطماع بالباطل.

فهو مع الاستعاذَةِ بربّه في هذه الحالة يحتاج إلى مُسَاعَدَةٍ من أَخٍ مؤمنٍ أو أكثر، لتَقْوَىٰ بهم إرادته، وتَنْجَلِيَ بهم بَصِيرتُه، وعندئذٍ يستطيع أن يتغلَّب على نوازع نفسه، التي تَدْفَعُهُ إلى تلبيةِ رغباتِ أهوائها وشهواتِها الجانحات عن سَوَاءِ الصراط.

فنفسُ الإِنسان متىٰ انطلقت مُطْلَقَةَ العِنَان، دُونَ قيادةٍ حكيمة من عَقْلٍ رشيد، وإرادةٍ حازمةٍ، جارَتْ ذاتَ اليمن أو ذات الشمال، وخرجت عن غاية حدَّي الصراط المستقيم، وتوغَّلَتْ في متاهات السُّبُل والمسالك، التي تستدرج سَالِكَها إلى المهالك، إذْ تَسْتَهْوِيه لارتكاب كبائرِ الإِثم والعصيان، من الفِسْقِ إلى الفجور، فالكُفْرِ والطغيان.

لكن المجتمع الذي يكونُ أفرادُهُ بعضُهم على بعضٍ رُقباءَ، رجالاً ونساءً، يكونُ له ضَغْطٌ اجتماعيٌّ يمْنَعُ الأفراد من الانحراف العلَنِيّ، ويكونُ لَهُ قُوَّةُ انتظام تَسْري في الأفراد، فتُحبِّبُ إلى نفوسهم الانسجامَ مع حركته وعاداته وتقاليده، وتُكَرِّهُ إليها الشُّذُوذَ والخروجَ عن نظام مسيرتِه المشهودَةِ للْعُمُوم، في حركَتِهِ وعَادَاتِهِ وتقاليده ومَحَابِّه ومَكَارِهِهِ.

على أنّ الانحراف السّريّ الَّذِي قد يحدُثُ من بعض الأفراد لا بُدَّ أن ينْكَشِف يوماً ما، وعندئذٍ يَخْضَعُ المنحرف للمراقبة الزائدة والمتابعة، وتَتَوجَّهُ له الضواغط الاجتماعيَّةُ القويَّةُ المقوِّمة لاعوجاجه، والمعدِّلَةُ لانحرافه.

وهذا من شأنه أن يُخَفِّفَ الانحرافَ في المجتمع إلى أدنى الحدود الْمُمْكِنَة في واقعِ مجتمعاتٍ بشريّةٍ سَوِيَّة.

وإذْ جَعَلَ اللّهُ عزّ وجلّ المؤمنين إخْوَةً، برابطة الإيمان والإِسلام، مع رابطة الاشتراك في الإِنسانيّة المنْحَدِرَة من أصل واحد، في حِينِ أنّ الأُخوَّةَ تَسْتَدْعي التوادَّ والتحابُبَ والتعاوُنَ والتناصُرَ والموالاةَ بكلّ معانيها، فالإِخْوَةُ المؤمنون بعضُهُم أولياء بعض، وهذا يوجب أن يكونَ بعضُهُمْ رقباءَ على

بعض فيما يظهر من أمورهم، وأنْ يكونَ بعضُهُمْ لبعضٍ أَعْواناً وأَنْصاراً على كُلِّ عدُوٍّ لهم، حتَّى نفوسِهم ووساوسِ شياطينهم، وما يُوحُونَ إليهم من تسويلات، وأنْ يكونَ بعضُهُمْ لبعضٍ نَصَحَة مُرْشِدين، ثُمَّ آمِرين بالمعروف وناهين عن المنكر، يُرِيدُونَ لهُمُ الخيرَ، ويكرهون لهم الشرَّ، ويخافون عليهم من الانزلاق إلى مهالكهم بالمعاصي وكبائِرِ الإثم، ويخافُونَ عليهم أن يكونوا من أهل النار، يُعَذَّبُون فيها مع المعذَّبين.

فَبِدَافِع الأخُوّةِ الإيمانيّة، والمحبَّةِ النابعة منها، وبدافع ابتغاء رِضْوانِ الله والظفر بالمنازل الرفيعة بجنّاتِ النعيم، وبمشاعر الرحمة بإخوانهم في الدّين، يَنْصُرون كلَّ فرْدٍ منهم على نفسه، إذا نزعَتْ به إلى مَعْصِيَةِ رَبِّه، مُتَأَثِّرةً بوساوس الشياطين ونزغاتهم وتَسْوِيلاتهم، فَيُقَدِّمُون له النُّصْحَ بسدادٍ في الرأي، وإخلاصٍ في القول، واسْتِعْطَافٍ بالمودّة، ويُرْشدونه إلى الّتي هي أقوم، ويَأْخُذُون بِيَده برفق ولُطْفٍ ومساعدةٍ جَمِيلَةٍ، لالتزام صراط الله المستقيم، ويَحْمُونَهُ من الانزلاق، ومن العثرات، ويُنْهِضُونَهُ إذا عَثَر، ويُخْرِجُونه من المزالقِ إذا انْزَلَق فيها.

فإذا تعَنَّتَ عليهم، مُسْتَحِبّاً ما هو فيه من لَذَّاتٍ محرَّمات، أَمَرُوه بالمعروف، ونَهَوْهُ عن المنكر، بشيء من الحزم، وأعانوه على الاستمتاع بِمَا أَبَاحَ الله من لذّاتٍ، عسَىٰ أن يَغْلِبَ صَوْتُ الحقّ النافذُ من أُذُنَيْهِ إلى قَلْبه، صوتَ نَفْسِه الأمَّارة بالسُّوء، وصوْتَ الشيطان الموسوسِ داخل نفسه، يدعوه إلى الاستمتاع باللّذاتِ المحرّمات، فيَسْتَجِيبَ لهم ويُطيعَ، ويستقيمَ على صراط الْهُدَى، في سلوكه الظّاهر والباطن.

وبهذا يَتَبادل المؤمنون مُسَاعَدَةَ بعضِهِمْ بعضاً، ونُصْرَةَ بعضِهم بعْضاً على نفسه، بِرَدْعِه عن ظُلْمِ نفسه، وعن ظُلْم غَيْرِه، وهنا يأتي مَوْقِعُ القول الحكيم ذي المعنى الدقيق الذي قاله سَيِّدُنا رسولُ الله ﷺ، فيما رواه البخاريّ

والإمام أحمد والترمذيُّ عن أنَسٍ رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً».

قيل: كيْفَ أنْصُرُهُ ظالماً؟!!.

قال: «تَحْجُزُهُ عَنِ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».

- ٢ -

الجسديّة الواحدة للمجتمع الإسلامي ومقتضياتها من الحماية والإصلاح

وبهذا التعاون التَّناصُرِيّ بين المؤمنين المسلمين لحماية بعضهم بعضاً من الوقوع في مَعْصِية الله عزّ وجلّ، تَظْهَرُ ذِرْوَةُ مَعانِي كونهم بمثابة الجسد الواحد، الذي إذا اشتكىٰ منه عضو تداعَىٰ له سائر الجسد بالسَّهَرِ والْحُمَّىٰ، كما أبان الرسولُ ﷺ فيما رواه مُسْلمٌ والإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وتَرَاحُمِهِمْ، وتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ والْحُمَّىٰ».

أي: تسارَعَتْ بقيَّةُ الأعضاءِ لنُصْرَتِه ومؤازَرته وحمايته، ومشاركَتِه الآلام، وللسَّهَرِ من أجله، وارْتفاعِ درجة حرارتها لإمداده بالمعونة، وإنقاذِه من ورطته.

فَبِنُصْرَةِ المؤمنين بعضِهم بعضاً على أنفسهم بالنُّصْحِ والإرشاد والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر برفقٍ وتَلَطُّفٍ وحُسْنِ عبارة، وبراعَةِ أسلوب، يَظْهَرُ حقّاً أنَّ بعضهم أولِياءُ بعضٍ، إذْ إنَّ من أبْرَزِ عناصر الْوِلاَية النُّصْرَة.

فمن معاني الولي: الناصرُ، والمحبُّ، والتّابع، والْحَلِيفُ، والمنْعِم، والْمُنْعَمُ عليه.

ومن أهمّ عناصر النُّصْرَةِ نُصْرَةُ الإنسان على نوازعِ نفسه، ونوازع شياطينِ الإِنْسِ والجنّ، الذين يَسْتَهْوُونه إلى معصية الله، الّتي تجرُّه إلى عَذابٍ أليم.

ومن أجْلِ هَذا قال الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) يَصِفُ المؤمِنِينَ والمؤمنات:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾.

فأبَانَ الله تعالى في هذه الآية أنَّ من أهَمّ عناصر الْوِلاَية بين المؤمنين والمؤمنات أن يَأْمُرَ بعضُهم بعضاً بالمعروف، ويَنْهَىٰ بعضُهم بعضاً عن المنكر، وقَبْلَ هذا يأتي في سلَّم الإِصْلاح النُّصْحُ والإرشاد، بمقتضىٰ الترتيب الطبيعيّ للأمور، وبمقتضَىٰ اتّباع السياسة التربويّة القرآنيّة.

وأبان الله عزّ وجلّ في سورة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) أنّ من صفات النّاجين من الْخُسْرِ بَعْدَ الإيمان والعمل الصالح أنّهم يتواصَوْنَ بالحقِّ ويَتَواصَوْنَ بالصَّبْرِ، فهم يَتَعَاوَنُون فيما بينهم على أنْ يُوصِيَ بعضُهم بعضاً بِالحقّ، وأنْ يوصِيَ بعضُهم بعضاً بالصَّبْر، فهذا التواصي هو من أَهَمِّ عناصِرِ كونِ بَعْضِهِمْ أولياءَ بعض.

- ٣ -
من شروط بقاء التمكين للمؤمنين في الأرض

حتَّىٰ الوعْدُ باستخلافِ المؤمنين في الأرض بالحكم والسلطان الْمُعَانِ بالْمَعُونَةِ الرَّبّانيّة، المستتبَعُ بالوعد بأن يُمَكِّنَ الله لَهُمْ في الأرضِ ويجعلهم ذَوِي قُوَّةٍ وسلطانٍ، مشروطٌ بِاتّصافهم بصفاتٍ، مِنْها أَنْ يُواظبُوا على الأَمْرِ

بالمعروفِ والنهي عن المنكر، وَأن يَكُونَ هذا ظاهرة اجتماعيّةً فيهم.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وأنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ بَعْدَهُ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

فجعل الله من الصفات الدائمة للمؤمنين سواءٌ أكان لهم تمكينٌ في الأرض أم لم يكُنْ لَهُمْ تمكينٌ أَنْ يَعْمَلُوا الصَّالحاتِ، وذلك بأَنْ يَعْبُدوه لا يشركون به شيئاً، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويطيعوا الله ورسوله.

أمّا الَّذِين يُمَكِّنُ الله لهم في الأَرْضِ بالقوّة والسلطان فشرطُ بقاء هذا التمكين مع الصفات السّابقات أنْ تكُونَ لهم ثلاث صفات ظاهرات:

- إقامةُ الصّلاة.
- وإيتاءُ الزّكاة.
- والأمْرُ بالمعروفُ والنهيُ عن المنكر.

فالأَمْرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر مع ما يسبقه من وسائل تربوية منها النُّصْحُ والإرشاد إحْدَىٰ الظواهر اللاّزمة للمجتمع الإسلاميّ الذي يُمَكَّنُ له في الأرض، ويَبْقَىٰ له هذا التمكين.

فإذا اختلَّتْ شروطُ بقاء التمكين لهم في الأرض لم يكُنْ لهم عنْدَ الله

وعَدٌ بأنْ يُبْقِيَ لهم هذا التمكينَ الْمُعَانَ بمعوناتٍ غيبيّةٍ مِنْ لَدُنهُ، بَلْ يَكِلُهُمْ إلَىٰ أَنْفُسِهم، وإلى أَسْبَابهم.

- ٤ -

حماية سفينة المجتمع الإسلامي من الغرق

وبقيام أفراد وجماعات المجتمع الإسلامي بوظيفة النُّصْح والإرشاد، والأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر وَفْقَ المنهج التربويّ القرآنيّ، تسيرُ سفينةُ المجتمَعِ الْمُؤْمِنِ المسلم في بَحْرِ الزّمن آمنَةً من التعرّض للغَرَقِ، لأنّ رُكَّابَها يَسِيرُون بها وفق منهج الله لهم، فيحميها الله لهم، بسبب قيامهم بحمايتها وحراستها المستمرَّة، متعاونين مُتَناصرين، متناصحين، مُتَوادِّينَ، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، وآخِذين على أَيْدِي المفسدين يمنعونهم من خَرْقِ السَّفِينَة باسم حرّياتِهم الفرديّة، وذرائعهم المضَلِّلَة.

فكُلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ رقيبٌ وحارسٌ وقَائمٌ بواجبه ضِمْنَ مجال حركتِه في مجتمعه، فإذا ضعُفَتْ إرادَةُ أَحَدِهم في صراعِه مع نفسه، ومالَ إلى الانحراف أعانَهُ أَخُوهُ المؤمِنُ القريبُ مِنْهُ، فنَصَحَهُ وأرْشَده وأنْهَضَهُ من كَبْوَتِه، ثم أَمَرَهُ بالمعروف ونهاه عن المنكر بحزمٍ إذا لم يَسْتَجب بالرِّفق، فإذا تَمادىٰ أخذ عَلَىٰ يَدِه بقوّة إنْ تيسّر له ذلك، وإلاّ استعان بمؤمنينَ آخَرِين في دائرَةِ حَرَكَةِ المنحرف، فإذا عَظُمَ الانحراف في المجتمع تَدَخَّلَتْ دائرةٌ أَوْسَعُ من دائرة حركة المنحرفين، وهكذا حتَّىٰ يَهُبَّ أَهْلُ الْبَلَدِ لتقويم الانحراف وتغيير المنكر، وتتَّسِعُ الدوائر كُلَّمَا تمادَىٰ الانحرافُ في الاتّساع، وتتدخّل الدوائر الكبرى للقمع إذا كان المنكر ممَّا يخشىٰ منه غرق سفينة المجتمع.

ويبدأ تغييرُ المنكر بالإنكار القلبيّ، الَّذي يظهر له آثارٌ في قسمات الوَجْهِ، وحَرَكَاتِ الجسم، وأَبْرَزُها مفارقَةُ مجلس المنكر، ثمّ بالإنْكار

اللّسانيّ، نصحاً وإرشاداً فأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، ثُمَّ بالتَّغْيير العمليّ بالْيَدِ إذا كان القائمُ بهذا التغيير أو القائمون به يَمْلِكُون ذلك، دُون أن يتسبب عملهم بشرٍّ أكبر من وقوع المنكر، هذا هو المنهج القرآني الإصْلاَحيّ الذي يُسْتَفادُ من قواعده التربويّة العـامّة، وعَلَيْهِ ينبغي أنّ يُحْمَل قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ الذي رواه مُسْلِمٌ عن أبـي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ رَأَىٰ مِنكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فإنْ لم يَسْتَطِـعْ فَبِلِسَانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِـعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ».

إنّ دلالةَ الترتيب في هذا الحديث تتعلّق بحالة وصول فاعلي المنكر إلى إصرارهم علىٰ عَدَمِ الاستجابةِ لوَسَائِلِ النُّصْح والإرْشاد، والأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر برفق وموعظة حسنة، فإذا استجابوا فلا دَاعِيَ لمباشرةِ عمليّة التغيير، لأنّ فاعلي المنكر هم الذين يُحَقِّقُون المطلوبَ منهم بأنفسهم.

لكن إذا أَصَرُّوا على فعل المنكر على الرُّغْم من نصيحتهم وإرشادهم، وأمرهم بالمعروف ونَهْيِهِمْ عن المنكر برفق وموعظةٍ حسنة، ثم بحزم وشيء من العنف القولي، فإنّه عندئذٍ يأتي دَوْرُ التغيير الْقَسْرِيّ، ووسيلتُه التغييرُ باليد، إذا أَمْكَنَ ذلك دون حدوث فتنةٍ وشرٍّ أكْبَر من المنكر.

لكنْ إذا كان التغيير بالْيَد غَيْرَ مُمْكِنٍ، أو كان يُحْدِثُ فتنةً وشراً أكْبَر من المنكر، فإنّه يجب الاقتصارُ على الإنكار باللّسان، وهو أحد عناصر المرحلة السابقة، وإذا كان الإنكارُ باللّسان يُحْدِثُ فتنة وشرّاً أكْبَر من المنكر، فإنّه يجب الاقتصار على الإنكار بالْقَلْب، مع اتّخَاذِ ما يَدُلُّ عليه في قسمات الوجه، وحركات الجسم، ومفارقةِ مَجْلِسِ المنكر إنْ أمكن ذلك، وللضعيف أن يَتَّخِذ ذرائع لمفارقَةِ المجلس.

لكن المجتمع الإسلاميّ إذا كان مجتمعاً قائماً بوظيفته دواماً فإنَّ حالة الضعف هذه لا تُوجَدُ فيه، إذْ تكون قُوَّةُ جمهور المسلمين هي الدّرع الواقي لحُمَاةِ سَفِينَةِ المجتمع وَحُرَّاسِهَا، الناصِحِينَ المرشدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وعليهم تَنْطَبِقُ صورةُ المثل الذي ضربَهُ الرَّسُول ﷺ للمجتمع الإسلاميّ المثاليّ الذي يملك أن يأخذ على أيدي المفسدين الذين يَتَذَرَّعُونَ بذرائع شتَّىٰ لِتَزْيِين إفسادهم، الذي له صفة التأثير على سفينة المجتمع الإسلاميّ.

فقد روى البخاريّ بسنده عن النُّعْمَان بْنِ بشير رضي الله عنهما، عن النبـيّ ﷺ قال:

«مَثَلُ الْقَائِمِ في حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِـعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَىٰ سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً ولَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا.

فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً».

القائم في حُدود الله: هو العامل بما هو واجب عليه، التارك لما هو محرّم عليه، فحدود الله أوامرُهُ ونَواهيه الإلزاميّة، وأحكامُ شريعته لعباده.

اسْتَهَمُوا على سَفِينَة: أي: اقترعوا على مكانِ كُلٍّ منْهم فيها.

أمّا المجتمع الإسلاميّ الّذي كثر الفساد فيه فَسَفينَتُه غرقَىٰ، وأهلها يتخبطونَ أفراداً وجماعاتٍ على أمواج البحر، أو في زوارقَ، وعلى خشبات متفرقات متكسراتٍ من سفينتهم، وبعضُهُمْ غَرِقَ وأمْسَىٰ من غير أهلها، أمّا أهلُها فَهُمْ في شتات.

اللهم أجمع شتات المسلمين بفضلك ومَنِّكَ وكرمك، وأَعِدْ لَهم مُجْتَمَعَهُمْ الإسلاميّ السّويّ، وأَصْلِحْ لهم سفينتهم.

وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان وشرح لموضوع تغيير المنكر باليد في الفصل السابع من الباب الرابع.

* * *

ـ ٥ ـ

ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها، وما يجب على مَنْ تُوَجَّهُ لَهُ الرسالة

أولاً ـ ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها:

على المسلم حينما يَحْمِلُ الرِّسَالة ويُرِيدُ تأديَةَ وظائِفها، أَنْ يَضَعَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ دَوَاماً، أَنَّهُ يَحْمِلِ رسالَةً رَبَّانِيَّةً، وأَنَّهُ مُكَلَّفٌ أن يُؤَدِّيَها ضِمْنَ الْحُدُودِ الَّتِي أَوْصَىٰ اللَّهُ ورَسُولُهُ بها، فلا يتجاوزَها، متأثّراً بعواملَ نفسيَّة تجْعَلُهُ يَخْرُج عن آداب أداءِ الرسالة؛ وإلاَّ كان ضَرَرُهُ أَكْثَرَ منْ نَفعه، وكَانَ خَارجاً عن منهاج المرسلين.

فعليه إذا أرادَ أنْ يُؤَدّيَ وظائفَ رسالته أنْ يَلتزم بآداب التبليغ والنُّصْحِ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الّتي سيأتي في أثناءِ الكتاب تَفْصِيلُها مع أدِلَّتِهَا إنْ شَاءَ الله، أَخْذاً ممّا جاء في القرآن والسنة.

وممّا ينبغي هُنَا بيانه ما يلي:

أن يلتزم حاملُ الرسالة بالحكمةِ، وتكريمِ مَنْ يُوجِّه له رسالته، والرفْقِ به، ومخاطبتِهِ بليِّنِ الْقَوْلِ مع حُسْنِ بيان، وأن يَهْتَبِلَ الْفُرَصَ المناسبة الملائمة لاجتياز عقباتِ نفسه، وأَنْ يُشْعِرَهُ ببالغ حِرْصِهِ على صَلاحِ حاله، ونَجَاتِه من

عذاب الله، وظفَرِه بالسعادَةِ العاجلة والآجلة يَوْمَ الدين، وأن لا يُشَهِّرَ به فاضحاً.

وأن لا يُوَاجِهَهُ باسْتِعْلاَءِ واسْتِكْبَارٍ وتَرَفُّع، وأن لا يُشْعِرَهُ بأنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَفْضَل، وأنْ لا يَسْتَثِيرَ غَضَبَهُ بما يَجْرَحُ مَشاعرَهُ تُجَاهَ شَخْصِه، أو ذَوِيه الأقربين، أوْ آبائه وأجداده الموتى، أوْ عَشِيرَتِه، أو قبيلته، أَوْ قَوْمِه، أو لُغَتِه، أَوْ لوْنِهِ، أَوْ بلَدِه، أو غير ذلك مما يمكن أن يثير في نفسه غضباً، أو كراهيَةً، أو نفوراً.

وأن لا يَقْسُو عَلَيْهِ، ما لَمْ يَجِدْهُ مُجَاهراً مكابراً معانداً متحدّياً لأحكام الدّين وشرائِعِه، مع ادّعائه أنّه مُسْلِمٌ.

وقد يُؤْذَنُ لعالم ذي مكانةٍ في مجتمعه، بأنْ يَقْسُوَ بالْعِبَارة أحياناً على سُلْطَانٍ مُسْتَهِينٍ بتطبيقِ أحكام الإسلام في إدارته وحُكمِهِ، لا في سلوكِهِ الشَّخْصِيّ الخاصّ الّذي لا يُجاهِرُ بِهِ أمام العامّة، فقد تكونُ هذه الْقَسْوَةُ في بَعْضِ الأحيانِ جُرْأَةً حكيمة نافعةً تَرْدعُ السُّلْطانَ عَنْ غيِّه، إذْ يَخْشَىٰ أَنْ يَنْقَلِبَ عليه جمهورُ الناسِ انتصاراً لعَالِمِهم الموقَّرِ المحبوب لَدَيْهِم.

● روى الحاكم في مستدركه بسنده إلى جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْر، أنَّ عِيَاضَ بنَ غنم الأشرى وَقَعَ على صاحِبِ دَارَا حِينَ فُتِحَتْ (أي: عذَّبَهُ بالضَّرْب والْجَلْدِ) فَأَتَاهُ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ فَأَغْلَظَ لَهُ الْقَوْلَ، ومَكَثَ هِشَامٌ لَيَالِيَ فَأَتَاهُ هشامٌ مُعْتَذِراً فقالَ لعياض:

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً لِلنَّاسِ»؟

فقال له عياضٌ: يَا هِشَامُ إِنَّا قَدْ سَمِعْنَا الَّذِي قَدْ سَمِعْتَ، وَرَأَيْنَا الذي قَدْ رأَيْتَ، وصَحِبْنَا مَنْ صَحِبْتَ، أَلَمْ تَسْمَعْ يَا هِشَامُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول:

«مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ نَصِيحَةٌ لِذِي سُلْطَانٍ فَلاَ يُكَلِّمْهُ بِهَا عَلاَنِيَة، وَلْيَأْخُذْ بِيَدِهِ، وَلْيَخْلُ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَهَا قَبِلَهَا، وَإِلاَّ كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ والَّذِي لَهُ».

وإنَّكَ يَا هِشَامُ لأَنْتَ الْمُجْتَرِىءُ إنْ تَجْتَرِىءْ عَلَىٰ سلطانِ الله، فهَلاَّ خَشِيتَ أَنْ يَقتُلَكَ سُلْطَانُ الله، فتكونَ قتيلَ سلطان الله؟!».

قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد، ولم يُخَرِّجاه[1].

● وروى الإمام أحمد في مسنده عن عامر بن واثل، أنَّ رجُلاً مَرَّ عَلَىٰ قَوْمٍ في حياةِ رسول الله ﷺ، فسلَّمَ عليهم، فردّوا عليه السَّلام، فلَمَّا جاوَزَهُمْ قال رجُلٌ منْهُمْ:

إنّي لأبْغضُ هذا في اللَّهِ.

فقال أهل المجلس: لَبِئْسَ مَا قُلْتَ، واللَّهِ لَنُنَبِّئَنَّهُ، ثمّ قَالُوا: يا فُلاَنُ - لِرَجُلٍ مِنْهُمْ - قُمْ فأدْرِكْهُ وَأَخْبِرْهُ بما قَال.

فأدْرَكَهُ رَسُولُهُمْ فأَخْبَرَهُ، فأتَىٰ الرَّجُلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وذَكَرَ لَهُ ما قال، وطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَسْتَدْعِيَ الرَّجُلَ، فدعاه الرسُول لَهُ، وسأَلَهُ، فقال الرَّجُل: قَدْ قُلْتُ ذلك.

فقال الرسولُ ﷺ: «لِمَ تُبْغِضُهُ؟».

فقال الرجلُ: أَنَا جَارُهُ، وأَنَا بِهِ خَابِرٌ، واللَّهِ مَا رَأَيْته يُصَلِّي صَلاَةً قَطُّ إلاَّ هٰذِهِ المكْتُوبَة.

قال: فاسأَلْهُ يا رَسُولَ الله، هَلْ رَآنِي أَخَّرْتُهَا عَنْ وَقْتِهَا؟ أو أسأْتُ الوضوءَ لَهَا؟ أو الركُوعَ والسُّجُودَ فيها؟

فسأَلَهُ الرَّسُولُ، فقال الرجُلُ: لا، واللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يَصُومُ شهراً قَطُّ إلاَّ هٰذَا

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٣ ص ٢٩٠.

الشَّهْرَ الَّذِي يَصُومُهُ الْبَرُّ والفاجِرُ.

قال: فاسْأَلهُ يا رسُولَ الله، هلْ رآني أفْطَرْتُ فيه؟ أو نَقَصْتُ مِنْ حَقِّهِ شيئاً؟

فقال الرجل: لا، واللَّهِ مَا رَأَيْته يُعْطي سَائِلاً ولا مِسْكِيناً قَطُّ، ولا رأيْتُهُ يُنْفِقُ شيئاً من ماله في سبيل الله إلاَّ هذه الزّكاة الَّتي يُؤَدِّيهَا البَرُّ والفاجر.

قال: فاسْأَلْهُ يا رسول الله، هل رَآنِي نَقَصْتُ منها؟ أو مَاكَسْتُ في طالبِها الَّذي يَسْأَلُهَا؟

فسأَلَهُ، فقال الرَّجُلُ: لاَ، فقال رسول الله ﷺ: «قُمْ فَلَعَلَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ».

● وروى الإمام مسلم بسنده، أنَّ رجلاً قال: واللَّهِ لا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلاَن.

فقال رسول الله ﷺ، يُحَدِّثُ عن ربّه أنّ الله عزّ وجلّ قال:

«مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَلاَّ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ، إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وأَحْبَطتُ عَمَلَكَ».

● وروى أبـو داود أنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ بقَبْرٍ وهو في طريقه إلى الطائف، فسأل أبا بكر عَنْ صاحِبِ هذا الْقَبْرِ، فقال: هذا قَبْرُ رجُلٍ كانَ عاتِياً علَىٰ اللَّهِ ورسُولِهِ، وهو سعيدُ بْنُ العاص.

فغضبَ ابْنُهُ عَمْرُو بْنُ سعيدٍ، وقال: يا رسول الله، هذا قَبْرُ رَجُلٍ كانَ أَطْعَمَ للطَّعَامِ، وأضْرَبَ للسِّهَامِ، من أَبـي قُحَافَةَ.

فقال أبو بكر: يُكَلِّمُني هذا يا رسُول الله بمثل هذا الكلام؟!.

فقال الرسول ﷺ: اكْفُفْ عَنْ أَبـي بَكْرٍ. فانصرف الرجل. ثمّ أَقْبَلَ الرسول ﷺ على أبـي بكْرٍ فقال:

«يَا أَبَا بَكْرٍ، إِذَا ذكَرْتُمُ الكُفَّار فَعَمِّمُوا، فإِنَّكُمْ إِذَا خَصَصْتُمْ غَضِبَ الأَبْنَاءُ لِلآبَاءِ».

فكَفَّ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ.

ثانياً ـ ما يجب على من تُوجّه له الرسالة:

على الْمُسْلِم الذي تُوَجَّهُ لَهُ رِسَالَةُ النُّصْحِ والإرشادِ، أو الأَمْر بالمعروف والنهي عن المنكر، أَنْ لاَ يأنفَ ولا يَسْتكْبِرَ ولاَ يَغْضَبَ، ولا تَأْخُذُهُ الْعِزَّةُ بالإِثْمِ، إذا كان من ذوي القوّةِ أو المالِ، أو الجاه، أو السُّلْطانِ.

بل عليه أن يتقبَّلَ ما يُوَجَّهُ له حامداً شاكراً، وأنْ يسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يُلْهِمه السَّدَادَ والرُّشْدَ في أَمْرِهِ كُلّه، وأن يَصْرِفَ عنه نَزَغَاتِ الشيطان، وأن يُقْدِرَهُ على أن يَتَغَلَّبَ على أهواء نفسه وشهواتها الجانحاتِ الجامحات.

وقد ذم اللَّهُ عزّ وجلّ الذي تأخُذُهُ العِزَّةُ بالإِثْم إذا قيل له: اتّقِ الله، وتوعَّدَهُ بعذابٍ في جَهَنَّمَ على استكبارِهِ عن تَقَبّلِ الأَمْرِ بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، والتخويفِ من عذاب الله، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

وهُوَ أَلَدُّ الْخِصَام: أي: وهو أشدُّ الْخُصُومَة بالباطل من غيره، وأكثر المخاصمين جَدَلاً، وأغْلَبُهم لأقرانه بغير حقّ.

الخِصَام: مَصْدَرُ خَاصَمَ، يقال: خاصم يخاصم مخاصمةً وخصاماً.

وإذا تَوَلَّىٰ: أي: إذا أَدْبَرَ، وإذا صار ذا وِلاَيَةٍ عامّة.

أخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثم: أي: هو يغْتَرُّ بقوّتهِ، فتَأْخُذُهُ مشاعر اعتزازه بنفسه مُكبّلاً بسلاسل الإثْمِ بعيداً عن مواطنِ تقوَىٰ الله، فتوقعُهُ في جهنّم يوم الدّين،

بجريرة الإثم الذي ارتكبه.

لهذا لم يكن السَّلَفُ الصالح يستكبِرُونَ عن الاستجابة للأمْرِ بتقوىٰ الله عزّ وجلّ، ولَوْ كان من وجَّهَهُ لهم مخطئاً في اجتهاده وفي وِجْهَةِ نظره.

رُوِي أنَّ رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أمير للمؤمنين، في حوارٍ بينهما: اتَّقِ اللَّهَ.

فأنكرَ على الرَّجُلِ بعض الحاضرين، وقال له: أَتَقُولُ لأمير المؤمنين: اتّقِ اللَّهَ؟!

فقال عمر رضي الله عنه: دَعْهُ فَلْيَقُلْهَا لي، نِعْمَ مَا قَالَ، لاَ خَيْرَ فيكُمْ إذا لم تَقُولُوهَا، ولا خَيْرَ فِينَا إِذَا لَمْ نَسْمَعْهَا.

وجاء في خُطْبَةِ عُمَر رضي الله عنهُ لمَّا ولِيَ الْخِلاَفَةَ فيما رُوي عَنْ سَعِيدِ بن المسيّب قولُهُ:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَأَعِينُوني عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ بِكَفِّهَا عَنِّي، وأَعِينُونِي عَلَىٰ نَفْسِي بالأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْي عن المنْكرِ، وإحْضَارِي النَّصِيحَةَ فِيما وَلاَّنِي اللَّهُ من أَمْرِكُمْ»[1].

* * *

(١) انظر كنز العمال، الحديث ١٤١٨٤.

المقـولة الثانيـة

استِعْرَاضُ طائفة من النّصـوص

من غَيْر النصوص التي سبق الاستشهاد بها حوْلَ هذا الموضوع أسْتَعْرِضُ طائفةً أخرىٰ، تُفيد الدارس المتدبّر، وتُعِينُه على الاستبصار إن شاء الله عزّ وجل.

١ ـ سياسة الأنبياء والمرسلين في أقوامهم كانَتْ سياسةَ نُصْحٍ وإرشادٍ إلى طريق الْهُدَىٰ بصِدْقٍ وأمانة.

دلّ على هذا قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّـي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وقوْلُ هُودٍ عليه السلام لقومه كما جاء في (الأعراف) أيضاً:

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

وقولُ صالح عليه السلام كما جاء فيها أيضاً يخاطبُ قومه بَعْدَ أَنْ أُهْلِكُوا:

﴿... يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾.

وقولُ شُعَيْبٍ عليه السلام كما جاء فيها أيْضاً يخاطب قومه بَعْدَ أَنْ أُهْلِكُوا:

﴿... يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٩٣﴾.

والنُّصْحُ في البيان الدَّعَوِيّ والإرشاديّ والإصلاحيّ هو أنْ يدُلَّ الناصح مَنْ يَنْصَحُه على ما هو خيرٌ لَهُ في عاجل أمره أو آجله، ويُرَغِّبَهُ فيه، ويَحُثَّهُ عليه، ويُبَيّن له عاقبةَ الأخذ بما نصحه به من خير، وعاقبةَ ما حَذَّرَه منه من شرّ إذا لم يجتَنِبْهُ.

٢ ـ وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ خطبهم في سَفَرٍ عِنْدَ مَنْزِلٍ نَزَلُوهُ، فقال:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِـيٌّ قَبْلِي إِلاَّ دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ مَا يَعْلَمُهُ خَيْراً لهم، ويُحَذِّرُهُمْ مَا يَعْلَمُهُ شَرّاً لَهُمْ...».

هذا أوّلُ الخطبة ولها في الْمُسْنَدِ تَتِمّة(١).

أي: ما من نبـيٍّ إلاّ نَصَحَ أُمته بالْتِزام كلِّ ما يَعْلَمُهُ خيراً لهم، واجتناب كلّ ما يعلَمُه شرّاً لهم.

٣ ـ وروى البخاريُّ ومسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايَعْتُ رسُولَ الله ﷺ على إقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

ومن النصح لكلّ مُسْلِمٍ إرْشادُهُ وتَعْلِيمُه، وترغيبُه في الخير، وتحذيرُه

(١) انظر المجلد الثاني ص ١٦١.

من الشرّ، والأخْذُ بيَدِه إلى الاستقامة على صراط الله، وأمْرُهُ بالمعروف ونهيه عن المنكر.

٤ ـ وروىٰ أبو داود عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَىٰ الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعْ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وهُوَ عَلَىٰ حَالِهِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ.

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ».

ثُمَّ قال من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

ثُمَّ قَال:

«كَلاَّ وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأخُذُنَّ عَلَىٰ يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ أَطْراً، وَلَتقْصُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ قَصْراً، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»(١).

والأمر بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر مرحلةٌ تأتي بعد النُّصْحِ والإرشاد. والأَخْذُ عَلَىٰ يَدِ الظَّالم يكونُ من قِبلِ مَنْ بأيديهم سُلْطَةُ الأخْذِ على أَيْدِي

(١) وروى الترمذي نحوه وقال: حديث حسنٌ، انظر «رياض الصالحين» الحديث (١٩٦).

المجرمين، كما سيأتي إن شاء الله تفصيله.

ولَتَأطِرُنَّهُ عَلَىٰ الحقِّ أطْراً: أي: ولَتعْطِفُنَّهُ عطفاً بوسائل مُلَيِّنَةٍ، كَمَا تُعْطَفُ الخشبةُ أو الحديدة حَتَّىٰ تَكُونَ إطَاراً.

وهٰذِهِ وظيفةُ الجماعةِ المؤمنة الّتي تَضْغَطُ على المنحرف بقُوَّةِ الضغط الجماعي، وبدوام مراقبتها، ودوام نُصْحِها، وحَرَارَة عاطفتها ومودّتها، وخوفها عليه من عذاب الله المعجّل والمؤجّل.

ولَتَقْصُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ قَصْراً: أي: ولَتُحِيطُنَّهُ بِما يَحْبِسُهُ عن التفَلُّتِ والْخُروج عن دائرة رقابة جماعته المسؤولين عن الإحاطة به وحِرَاسَتِه.

فبَعْضُ النَّاس إذا لَمْ يُحَطْ هذه الإحاطة من جماعةٍ حريصةٍ عليه، حارِسَةٍ له، تفَلَّتَ وخرَجَ عن منهج الاستقامة، وعندئذٍ تجتالُهُ الشياطين من كلِّ جهة.

٥ ـ وروى أبو داودَ والترمذيُّ عن أبـي سَعيدٍ الخدري رضي الله عنه، أَنَّ النبـيّ ﷺ قال:

«أفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ».

قال الترمذي: حديث حسن.

٦ ـ وروى الترمذيُّ عن حُذَيفةَ بْنِ اليمان رضي الله عنه عن النبـيّ ﷺ قال:

«والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بالْمَعْرُوفِ، ولَتَنْهُونَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أو لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُم».

قال الترمذي: حديث حسن.

٧ ـ وروى مُسْلِمٌ عَنْ أُمّ سَلَمَةَ زوْجِ النبـيّ ﷺ أنّه قَالَ:

«إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِىءَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ».

قالوا: يا رسول الله ألاَ نُقَاتِلُهُمْ؟ قال:

«لاَ ما صَلَّوا».

فَتَعْرِفُونَ وتُنْكِرُونَ: أي: فتَرَوْنَ بعض أعمالهم مَعْرُوفَةً مطابقةً لأحكام الدّين، وتَرَوْنَ بَعْضَ أعمالهم مُنْكَرةً مخالفةً لأحكام الدِّين.

فمَنْ كرِهَ فقد برىء: أي: فمن كَرِهَ المنكر بقلبه فقد برىء.

ومَنْ أنكر فَقد سَلِم: أي: ومَنْ أنكر بلِسَانه أوْ بقلْبه، ولم يُتابع ولم يُداهِنْ ولم يُساير، فقد سَلِم، والسّلامَةُ أحْسَنُ حالاً من البُرْءِ.

ولكِنْ مَنْ رضِيَ وتابَع: أَيْ: ولكِنَّ الّذِي لا يَبْرأُ ولا يَسْلَمُ هو من رضي بقلبه ولم يُنْكر بل تابَعَ ووافق.

٨ ـ وروى الحاكم في مُسْتَدْرَكِه بإسنادٍ حسن أنّ النبـي ﷺ قال: «سَيِّدُ الشُّهَداءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْـدِ المطّلـب، ورجُلٌ قَامَ إِلَىٰ إمَامٍ جَائرٍ فَأَمَرَهُ ونَهَاهُ، فَقَتَلَهُ».

فأَمَرَهُ ونَهَاهُ: أي: أمَرَهُ بالمعروف، ونَهَاهُ عن المنكر، فغضب من توجيه الأمر والنهي له فقتله، إذْ أخَذَتْهُ العزَّة بالإثْم.

* * *

الفصل الثالث

نظرة عامة
إلىٰ أصناف الناس الّذين تُوجّه لهم وظائف الرسالة

وفيه بيان ثمانية أصناف:

الصنف الأول: صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة الإسلاميّة، وهو منفتح النفس لها، لا يَرْفُضُ عرضها عليه، بل لديه استعداد لتقبّلِها.

الصنف الثاني: صنفٌ جاهلٌ خالِي الذّهْنِ من المعرفَةِ الدِّينيّة، إلاَّ أنَّه مُغْلَقُ النفس دُونَهَا، لاستغراقه بمطالب دُنْيَاه ولَذَّاتِهِ وأهوائه والْجَمْعِ والْمَنْعِ، فَلاَ همَّ له إلاّ متاعُ الحياة الدنيا وزينَتُها.

الصنف الثالث: صنف جاهلٌ خالي الذهن من المعرفة بالإسلام، إلاّ أنَّهُ مُغْلَقُ النفس عن تقبُّل شيء يتعلّق به، تعصُّباً لما هو عليه من دِينٍ أو مذهب. أو حرصاً على مصالِحِهِ مما هو فيه من دينٍ أو كفرٍ بكلِّ دين.

الصنف الرابع: صنف عالِمٌ بالعقائد الإسلاميّة، مستيقِنٌ متابع، إلاّ أنه ناقص المعرفة، وتَغْلِبه أهواؤه وشهواته فهو عُرْضَةٌ دواماً لارتكاب المعاصي والمخالفات.

الصنف الخامس: صنفٌ عالمٌ بأسس الإسلام وعقائده، إلاَّ أن عِلْمَهُ لمْ يَقْتَرِنْ باعتقاد وإيمان جازم، وقد أعلن إسلامه منتسباً للأمّة الإسلاميّة، ولمَّا

يدْخُلِ الإيمانُ في قلبه، وليس منافقاً في إعلانه.

الصنف السادس: صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده، مستيقنٌ مؤمنٌ بها، إلاّ أنه غافل عن مُقْتَضَيات إيمانه، قد استحوذَتْ عليه أهواؤُه وشهواتُه.

الصنف السابع: صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده، وعالم بأنّها حقٌّ، إلاّ أنه جاحِدٌ لها ظلْماً وعدواناً، غير راغب في الإيمان بها والعمل بأحكامها، فهم مغضوبٌ عليهم.

الصنف الثامن: هو كالصنف السابع عالم بأسس الإسلام وعقائده، وعالمٌ بأنها حقٌّ، وجاحدٌ لها ظلماً وعدواناً، وزادَ بأنّه شيطانٌ مُضِلٌّ فتّانٌ، فاسِدٌ مُفْسِدٌ في الأرض، ومن هذا الصنف الْجَبَابِرَة الطغاة.

مـقـدمـة:

إنّ حَمَلَةَ رسالةِ الدعوة إلى الله، ورسالةِ النُّصْح والإرشاد والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، يُواجهون ثمانية أصنافٍ من الناسِ، ولكلّ صنفٍ مِنْهُمْ أُسْلُوبٌ يلائمه، وفيما يلي بيانهم:

الصنـف الأول:

صنفٌ جاهلٌ خالي الذهن من المعرفة الإسلامية، وهو مُنْفَتِحُ النَّفْسِ لها، لا يَرْفُضُ عَرْضَها عليه، بل لديه استعداد لتقبُّلِها.

وهذا الصنف من الناس هو الحقْلُ الممتاز ذو الأرض الخصبة الصالحة للحَرْثِ والْبَذْرِ، والإنتاج الوفير، والْعَطاءِ الكثير، بعَمَلٍ قليلٍ، وجَهْدٍ غَيْرِ مُضْنٍ، وزمَنٍ غير طويل.

فعلَىٰ حامل الرسالة أن يكون شديد العناية والاهتمام بالبحث عن هذا الصِّنْف من النّاس، والتعرُّفِ عليه، والظَّفَرِ به، واستثماره استثماراً مُمْتَازاً، ليكُونَ عطاؤُه غزيراً، وإنتاجُهُ وفيراً، مع اقتصادٍ في الْجَهْدِ والْجِهاد، والإنفاقِ والإمداد.

ويكْثُرُ وجُودُ هذا الصنف من الناس في الفقراء والكادِحين، والمكْتَوِين بنيرَانِ ظُلْمِ مجتمعهم لهم.

وفي طليعة هذا الصنف من النّاس الناشِئُونَ والناشئات من الفتيان

والفتيات، ممَّنْ لَمْ تَزَلْ صَفَحاتُ أفكارهم ونفوسهم بيضاء قابلة لملئها بالمعارف الصحيحة، والحقائق الثابتة، وقابلةً لإذاقتها لذّاتِ جَمالِ فضائلِ الأخلاق، ومكارِمِ الشّيم، ومَحاسِن السلوك.

إنّ عَمَل حملة الرسالة الإسلاميّة في هذا الصِّنْف من الناس، كَعَمَلِ الزّارِع في جنَّةٍ بِرَبْوةٍ، إذا أصابها وابل آتت أُكُلَها ضعفين، وإنْ لم يُصِبْهَا وابلٌ كفاها طَلٌّ، واللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ نَتَائِجَ عَمَلِهِ، ومشيئَتُهُ جلَّ جلالُهُ لا تُفارِقُ حكْمَتَهُ، فهو تباركَ وتعالَىٰ يَمْنَحُ العاملين الصّادقين المخلصين مدداً منْهُ عظيماً، يُضَاعِفُ به ثمراتِ أعمالهم أضعافاً مضاعَفَةً بغير حسابٍ ثُمَّ يُثِيبُهُم عَلىٰ أعمالهم وعلى ثمراتِها ونَتَائجها وآثارها أضعافاً مضاعفةً بغَيْرِ حساب.

وهذا الصنف من الناس هو الْحَقْلُ الذي توافد منه إلى الإسلام بدعوة الرسولِ الأولىٰ ﷺ الْقِسْمُ الأعظمُ من الذين آمَنُوا بِهِ مِن قَوْمه واتّبعوه.

ومن الأدلة ما جاء في قصة لقاء أبـي سفيان لهرقل عظيم الروم في الشام، ومعه رَكْبٌ من تجار قريش، وسؤالِ هرقلَ له عن الرسول ﷺ وجوابِ أبـي سفيان له، وكانَ هذا بَعْدَ صُلْحِ الحديبية، وقَبْلَ نَقْضِ قُرَيشٍ له، في حديث طويل أخرجه البخاريُّ ومُسْلِمْ عن عبد الله بن عبَّاسٍ رضي اللَّهُ عنه، عن أبـي سفيان:

فقد جاء فيه أنّ هرقل سأل أبا سفيان أسئلةً متعدّدة، عن الرسول ﷺ، منها ما يلي:

قال هرقل: فَهَلْ أَشْرافُ النَّاسِ يتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفاؤُهم؟.

فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤُهم.

قال هرقل: أَيَزِيدُون أَمْ يَنْقصونَ؟.

فقال أبو سفيان: بل يزيدون.

قال هرقل: فَهَلْ يَرتَدُّ أَحَدٌ منْهُمْ سَخْطَةً لدينِهِ بَعْدَ أَنْ يدخل فيه؟.

قال أبو سفيان: لا.

ثم قال هرقل في تعليقه على الأسئلة وأجوبتها لأبـي سفيان: وسألْتُكَ: أَشْرافُ النّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضعفاؤهم، فذكرت أَنْ ضعفاؤُهم اتَّبَعُوه، وهم أَتْبَاعُ الرُّسُل.

وسألْتُكَ: أَيَزِيدُون أم ينقُصُونَ؟ فذكرتَ أَنَّهُمْ يزيدون، وكذلك أَمْرُ الإيمان حتَّىٰ يَتِمَّ.

وسألْتُكَ: أَيَرتَدُّ أحَدٌ سخُطَةً لِدينِهِ بَعْدَ أنْ يَدْخُل فيه؟ فذكَرْتَ أَنْ لاَ، وكذلِكَ الإِيمانُ حِينَ تُخَالِطُ بشاشَتُهُ القُلُوبَ.

وسأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدُرُ؟ فذكَرْتَ أنْ لا، وكذلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدُرَ.

وسألْتُكَ: بما يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّه يَأْمُرُكم أَنْ تَعْبُدوا اللَّهَ ولاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، ويَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأوثان، ويأمُرُكُمْ بالصَّلاَةِ والصِّدْقِ والعفاف، فإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقّاً، فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ.

إلى آخر ما جاء في الحديث.

الصنـف الثانـي:

صنف جاهل خالي الذِّهْنِ من المعرفة الدّينيَّة، إلاَّ أنَّه مُغْلَقُ النَّفْسِ دُونَها، لا يُريد أن يَتَعلَّم من مسائل الدِّينِ شيئاً، إذْ هُو منْصَرِفٌ لأُمُورِ دُنْيَاه، غَارِقٌ فيها، لا يُحِبُّ إلاَّ العَاجِلَةَ، ولا هَمَّ لَهُ إلاَّ متَاعُ الحياة الدنيا وزِينَتِها، فهو لا يُفَكِّر بخالقه، ولا يَلْتَفِتُ إلى شؤون الآخرة، ولا يُحِبُّ أن يُوجِّهَ انتباهَهُ ولا شيئاً من تفكيره لها، ومَنْ حاول أَنْ يَلْفِتَ نظره إليها ضاقَ به صَدْرُه، واشْمَأَزَّتْ منْهُ نَفْسُه.

إنَّ حال هذا الصنْفِ من الناس كحال الأنعام بل هو أضلُّ سبيلاً، لأنَّ لديْهِ أدَوَاتِ التفكير والتأمُّلِ والعقل، وهو لا يستَعْمِلُها فيما خُلِقَتْ له، وينْطَبِقُ عَلَىٰ أَهْلِ هذا الصنّف قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

أفأنْتَ تكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً: أي: كَشَأنِ الوكيلِ على قُطْعَانِ الأنْعَامِ، المسْؤُولِ عن حمايتها وحِراسَتِها وغِذائها وشرابها ومنامها، فإذَا افترسَ الذئْبُ شيئاً منها أُدِينَ بتقصيره.

إنَّكَ لَسْتَ يا مُحَمَّدُ وَيا كُلَّ حامِلٍ لرسالته من أمَّتِهِ وكيلاً عَلَيْهِمْ، بل هُمُ المسؤولون عن أنفسهم، لأنّ لهم إراداتٍ خاصَّةً حُرَّةً مسؤولةً عن الإيمان والإسلام، أمّا أنْتَ فما عَلَيْكَ إلاَّ البلاغُ المبين.

إنَّهُمْ لا يَسْمَعُونَ وَلاَ يَعْقِلُونَ، لأنَّهُم عَلَّقُوا كُلَّ هُمُومِ أَنْفُسِهِمْ بشؤون الحياةِ الدُّنيا، فلا تَنْقُلُ آذانُهُمْ إلى مراكز السَّمْعِ في أدمغتهم شيئاً من بلاغات الدّين وبياناته، ولا تَعْقِلُ عُقُولُهُمْ شيئاً منها، لا فَهْماً، ولا حِفْظاً، ولا عملاً.

إنَّهم كالأنْعَامِ في الظَّاهِرِ أكْلاً وشُرْباً وسِفَاداً، وأَضَلُّ من الأنعام في الباطن لتعطيلهم أدواتِ التفكير والفهم والتأمُّلِ والْعَقْلِ، التي وَهَبَهُمُ اللَّهُ إيَّاهَا لِيَبْلُوَهُمْ أيُّهُم أحْسَنُ عملاً، فلَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِيما خُلِقَتْ له.

ومعالجةُ هذا الصنف من الناس تكون باسْتِغْلالِ حالَةِ فراغِ نفوسِهِمْ من شَوَاغِلِ دنياهم، وبَثِّ بَلاَغات الدّين إليهم، ولا سيَّما أمورُ الآخرة بدْءاً بِمَا بَعْدَ الموت، فالْبَعْثِ والحسابِ والجزاء بالجنة وما فيها من نعيم، والنارِ وما فيها من عذابٍ أليم.

ويَحْسُنُ في معالجة هذا الصِّنْف من الناس، اسْتِغْلالُ الأزمات النفسيّة التي يقَعُ فيها أحَدُهُمْ، والَّتي تُسَبِّبُها المصائبُ الماليّة، أو المصائب البدنيَّة، كالأمراض والأوجاع، وأنْوَاعِ الظُّلْم التي تأتي من قِبَلِ قُوىً سُلْطَانِيَّةٍ غَاشِمَةٍ قَاهرة، وكذلك المصائبُ في الأهل والأقربين، ومنها مُصِيبَةُ الْمَوْتِ، والآلامُ النفسيَّةُ الّتي يُسَبِّبُهَا الْحِرْمَانُ من مطلوبٍ مَعْشُوقٍ، كجاهٍ أوْ سلطانٍ أو زَوْجَةٍ، أَوْ نَحْو ذلِكَ.

فالمصائبُ والحرماناتُ تُوقِظُ النُّفُوسَ من سَكَراتها، وتُنَبِّهُهَا عَلىٰ مَرْئِيَّاتٍ كانَتْ محجوبَةً عنها، بسَبَبِ ما هي مفتونَةٌ فيه من شُؤُونِ الحياة الدنيا وزينَتِها، أو بسبب انشغالها بتَهْيِئَةِ الوسائل الَّتي تَتَصَوَّرُ أَنَّهَا تَجْلُبُ لَهَا ما تَشْتَهِي من مُتَعِ الْحَيَاةِ الدنيا وَلَذَّاتِها.

فهي في هذه الأحوال قد تكونُ نُفُوسُها مفتوحةَ الأَبْوَاب لدخول المعارف التي تَحْمِلُ إلَيْهَا شَيْئاً من النُّورِ وَالهداية، ولا سيما إذا أُعْطِيَتْ مَعَها جرعَاتِ تَهْدِئَةٍ تُبَرِّدُ حَرَارَةَ مطالِبِهَا وَأَشْوَاقِهَا.

ومن سُنَنِ الله في تَرْبِيَةِ عِبَادِهِ أَنْ يُنْزِلَ بهم البأساءَ والضَّرَاء، رغبة في أن تَنْفَتِحَ أَبْوَابُ قُلُوبهم لوَارِدَاتِ الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّة، فيتضَرَّعُوا للَّهِ مُنْكَسِرين داعِينَ، فإذَا تَضرَّعُوا له اسْتَقْبَلُوا بسِكِينةٍ بلاغاتِ الدُّعَاةِ المبلّغين، ونُصْحَ الناصحين، وإرشادَ المرشدين، ومواعظَ الواعظين.

قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

ففي حالة انفتاحِ النُّفوس للتَّضَرُّعِ لله عزّ وجلّ، ينبغي بثُّ أَنْوَار الهدايَةِ الدَّعَوِيَّةِ أو الإرشاديّة إِلَيْهَا، فعَسىٰ أَنْ تَجِدَ هذه الأنوار قابليَّةً داخليَّةً

للاستجابَةِ لِلْحَقِّ والْهُدَىٰ، أو لقبول النُّصْحِ والإرْشَادِ والأَمْر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنَّ بَعْضَ الناس قد يَكدُّ في جَمْع الأموال من كلّ الوجوه حلالِها وحرامِها، ذاهلاً فيما هو فيه عن الله وعنِ اليوم الآخِرِ، وغايتُه إسعادُ ولَدِه الوحيد، بأن يُهَيِّءَ له ثَرْوَةً عظيمَةً تكُون سببَ سعادته في الحياة الدنيا، ثُمَّ يَقْضِي اللَّهُ العزيز الجبّارُ القهّار بأن يأخُذَ لَهُ وَلَدَهُ بحادثٍ مفاجىءٍ، أو بمرضٍ ما، أو بمَوْتٍ عادِيّ كما يموت كلُّ من انتهىٰ أجله، وعندئذٍ يُصَابُ الرجلُ جامع المال الْوَفير لولده بخَيْبَةِ أَمَلٍ تُسْلِمُهُ إلى حُزْنٍ شديدٍ عَمِيق، فيَزْهَدُ بكلّ الأموال التي جَمَعَها لولده، ويُعْرِض عنها.

إنْه في هذه الحالة تكون أَبْواب نَفْسِه مفتَّحَةً تماماً لبثّ أنوار الهدايةِ التي تدخُلُ إلَىٰ أعماقها.

وهنا يكون على حامل الرسالة أن يَنْتَهِز الفرصَة المواتية للتوجيه الرشيد، دعوة إلى الله، أو نُصْحاً وإرشاداً، أو أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

الصنـف الثـالث:

صنف جاهل خَالي الذهن من المعرفة بالإسلام، إلاَّ أَنَّهُ مُغْلق النفس عَن تَقَبُّل أيَّةِ معرفة تتعلّق بحقائق الإسلام وأحكامه وشرائعه، لأنَّ له عَقَائِدَ ثَابتةً راسخةً مضادَّةً لما يُرادُ إعلامُه به، وتوصيلُهُ إليه، وهو لا يَقْبَلُ بها بَدِيلاً، تعصّباً لتقاليده، ومواريثِه وعاداته الّتي هِيَ جُزْءٌ من ذاتِه، ولَوْ كانت باطلةً وضارَّةً وفاسدَةً، أَوْ حِرْصاً على تحقيقِ أهوائه وشهواتِه ومصالِحه التي يحصل عليها ما دام مستمسكاً بملّتِه الباطلة، أو استجابةً لنوازعِ كبْرِه ورغْبَتِه في الفجور المنافية للإيمان بالله والإسلام له.

ومن هذا الصنف من الناس أَتْبَاع الأديان والملَل والمذاهب الفكريّة الباطلة، كعامّة الْيَهُودِ والنصارىٰ والصابئين والمجوس والْبُوذِيّين والهندوس والوثنيّين والملاحدة.

فهم ضالُّونَ بسبَب العصائب والسُّتُورِ الكثيفة الَّتي وضعوها على بصائرهم، فهي لا تستقبل عَنْ طريق مداركهم أيَّة معارف مضادَّةٍ لما هم عليه، وعلى حامل الرسالة أن يَحْتَال على مَنْ يتفرَّسُ لديه استعداداً لتقبل الهداية، حتى يفتح بعض أبواب نفسه ويدخل إليها بالمعرفة الحقّ.

إنّ مواريثهم الدينيّة الباطلة، واعتقاداتِهم لها بطريقةٍ عَمْيَاءَ، تَجْعَلُ على أبصارهم وأسْمَاعِهم وبصائِرهم غشاواتٍ من الْعَسِيرِ جدّاً إزالَتُها لرُؤْيَةِ الحقّ، إلاّ عَنْ طريق مَنْ يصْحُو منهم من أهلِ بصيرة ورُشْدٍ عِلْمِيّ، إذْ يُعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ إعْمَالاً هادئاً رَشِيداً، فَيَسْتَبْصِرون الحق، ويرشدون بَعْضَ أتباع مِلَلِهم إلى أنَّ ما هُمْ فيه باطلٌ، وأنَّهُمْ على ضلالة، وأَنَّ ما جاء بِهِ الإسلام هو الحقُّ المبين.

وهذه الظاهرةُ قَد بدأَتْ فِعْلاً في كثيرٍ من الشعوب غير المسلمة، فمع ضَعْفِ تَعَصُّب هذه الشعوب لأدْيَانِهَا ومِلَلِهَا الموروثة، وشُيُوعِ الحريّة الفكريّة بين أفرادها، والدّفاعِ عن هذه الحرّية، وانتشار المذاهب الفكريّة المعاصرة المعارِضَةِ للمواريث الاعتقاديّة السابقة، دون اعتراض المجتمع على الفرد فيما يختار لنفسه من مذهب يدين به، بدأ يظهر في الْغَرْب مُفَكِّرُون كثيرون، يدرسون الإسلام دراساتٍ مُتَجَرِّدَة، ويتعرَّفُونَ عَلَيْهِ مِنْ مصادِرِه، أو من مكتوبات بعض الكتَّاب المسلمين.

ومن هؤلاء علماءُ من مختلف التخصُّصات العلميّة، وباحثون متفكّرون مُتَحَرِّرونَ من موروثاتهم الاعتقاديّة السابقة.

وبعضُ هؤلاء توجَّهُوا ضمن أسُسٍ علميّة صحيحة، يدرسون القرآن

الكريم، وأرْكَانَ الإيمان، وأركانَ الإسلام وشرائعه وأحكامه دراساتٍ جادّات، غير مقيّدات بِحِبالِ عَصَبِيّاتٍ مُضَادّات، وغير مشحونات بركاماتِ عداءٍ للإسلام والمسلمين.

وقد بدأ هؤلاء يُعَرِّفُونَ مَنْ حولهم بأنّ الإسلام هو الدِّين الحقّ الذي لم يَدْخُلْهُ تحريفٌ ولا تَبْدِيلٌ، في أسسه ومفاهيمه ومَصَادِرِهِ المتفق عليها.

وقد بدأ يتوافد من فئاتِ مثقفي الغرب وعلمائه أفْواجٌ إلى الإسلام، وهذه الأفواج تُبَشِّرُ بمستقْبَلٍ زاهرٍ للإسلام في الغرب.

فعلَىٰ حَمَلَةِ الرسالة الإسلاميّة الصَّادِقين المخلصين أن يتصَيَّدوا من هذا الصنْفِ علماء وعقلاء وأهْلَ أناةٍ وبصيرة، ويصادقوهم ويُعَرِّفُوهم بالإسلام تعريفاً هادئاً، عن طريق الحوار النَّزِيه المتجرِّد، أو عن طريق نشر الكتب التي تُعَرِّفُ بالإسلام تعريفاً علميّاً وعَقْلِيّاً، وبالأسلُوبِ الذي يَقْتَنِـع به الْمُثقَّفُ الْغَرْبِـيُّ، مع الاهتمام بأسس الإسلام وعقائِدِهِ، وأَرْكَانه، وأخلاقه، وكَبَائِرِ المحرّمات فيه.

فمن استبصر الحقَّ منهم وآمَنَ به، طُولِبَ بأن يتحمّل مسؤوليّة تبليغ ما آمن به إلى مَنْ حَوْلَهُ من ذَوِيه وقَوْمِهِ، ثمَّ انتقالاً إلَىٰ آخرين، على اتّساع الدوائر الاجتماعيّة.

إنَّ البيئات التي لها أديانٌ سابقاتٌ كانَتْ تَتَعَصَّبُ لها، وكانَتْ تُوصِدُ أَبْوَابَ نُفُوسِهَا عن التعرُّفِ على غير أديانها، قد أصبح كثيرٌ من شعوبها مُتَحَرِّراً من قُيُودِ هذا التعصُّب الأعمى، ولم يَبْقَ لدَيْها إلاّ وَلاَءَاتٌ اسميَّةٌ لأقوامها، ولأَدْيَانِهَا الَّتي فَرَغَتْ من محتواها.

وهذه فُرْصَةٌ مُواتية جدّاً لِنَشْرِ الإسلام بين أفرادها عَنْ طريق مَنْ يؤْمِنُ ويُسْلِمُ من مُثَقَّفِي شُعُوبها، فينبغي إمْدادُ هؤلاء بما يَحْتَاجُون إليه، حتَّىٰ يكونُوا حَمَلَةَ رسالةِ الدعوة إلى اللّهِ في أقوامهم.

ومن الحاجات الأساسيّة، التعليمُ الصحيحُ السَّلِيم، والكتُبُ الملائمة، والأموال.

وباستطاعتنا أنْ نَقُولَ: إنَّ كثيراً من بيئات هذا الصنف الثالث، قد تَحَوَّل فصار من بيئاتِ الصنف الأول، الخالي الذهن من المعرفة الإسلامية، وهو مُنْفَتِـح النَّفْسِ لها، لا يَرْفُضُ عَرْضَها، بل لدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ لتقبُّلِها، وهٰذِهِ غَنِيمة مُعَاصِرَةٌ للفكر الإسلامي الحقّ، وقابليَّة امتداده في الشعوب بوسيلة الفتح الفكريّ العلميّ.

الصنـف الـرابع:

صنفٌ عالم بالعقائد الإسلاميّة مُسْتَيْقِنٌ متابِـعٌ، إلاَّ أنه ناقص المعرفة، وتَغْلِبُه أهواؤه وشهَوَاتُه، فهو عُرْضَةٌ دواماً لارتكاب المعاصي والمخالفات.

وأصْحَابُ هذا الصِّنْفِ على درجاتٍ متفاوتات، وكلُّهم من المؤمنين الملتزمين ببعض حقوق مَرْتَبَةِ التقوىٰ، إلاَّ أنهم غَيْرَ مُسْتَوفين لكلّ حقوق هذه المرتبة، وهُمُ الغالبيّة العظمىٰ من المسلمين.

ووظيفةُ حَمَلَةِ الرِّسالةِ بالنسبة إلى هذا الصنف تثبيتُ عقائدِ أفراده وتعميقُها، وتكميلُ معارفهم بمفهوماتِ الإسلام وأحكامه وشرائعه، والأخْذ بأيديهم برفْقٍ، ومساعدتهم على نفوسهم بالتعليم والموعظةِ والتَّدْرِيبَاتِ التطبيقيَّةِ العمليّة ارتقاءً بهمْ عِلْماً وعَمَلاً، في دَرَجَاتِ مرتبة التقوىٰ، فدرجات مرتبة الْبِرِّ، فَدَرَجَاتِ مرتبة الإحسان.

ولا بُدَّ في التدريب على السلوك الإسلاميّ من العناية دواماً بنَوْعَيِ السلوكِ الباطِن والظاهرِ معاً، لئلاَّ يكونَ الظاهِرُ عامراً والباطِنُ خَرِباً.

ومن الباطنِ الصِّدْقُ والإخلاصُ للَّهِ في العمل، وابْتِغَاءُ مرضاةِ الله، والبراءَةُ من الشرك والرِّياء والحقْدِ والْحَسَدِ، ومن الاعتراض على أحكام الله

عزّ وجلّ، وعلىٰ مجاري قضائه وقدره في عَطَائِه ومنْعِهِ، ونِعَمِهِ ومصائبه، إلى غير ذلك من أَعْمَالِ القلوب والنفوس.

وهذه الوظيفة قد كَانَ الْعُلَمَاءُ المسلمون الْمُرَبُّون الْمُسَلِّكُونَ لتلاميذهم يُقُومُونَ بها قِياماً حسناً، اتباعاً لمنهج مدرسة رسول الله ﷺ في تَرْبِيَتِهِ لأصحابه رضوانُ الله عليهم.

الصنـف الخـامس:

صنف عالمٌ بأسس الإسلام وعقائده، إلاَّ أنَّ عِلْمَهُ لم يقترن باعتقاد وإيمان جازم، وقد أعْلَنَ إسْلامه منتسباً للأمة الإسلاميّة، ولمّا يَدْخُلِ الإيمان في قلبه، وليس منافقاً في إعلانه.

هذا الصنف من الناس قد جاء بيانه في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾.

لاَ يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً: أي: لا يَنْقُصْكم من ثواب أعمالكم شيئاً. يقالُ لُغَةً: لاَتَ فَلاَناً حقَّهُ، إذَا نَقَصَهُ إيّاهُ.

ومُعَالجة هذا الصنف من الناس تكون بالصَّبْرِ على تزويد أفراده يوماً فيوماً بالْبَرَاهِينِ الإيمانيّة القرآنيّة، والْعَقْلِيّة، والكونِيَّةِ، والتجريبيّة من أحداثِ الجزاء الرّبّاني بالثواب المعجّلِ للمحسنين، والعقابِ المعجّل للمسيئين، ويكونُ أيضاً بإذاقَةِ أفراده حلاوةَ السُّلوك الإسلامي، النابع من صِدْقِ الإيمان، وهذِهِ تكُونُ بأنواعٍ مِنَ التجاربِ الْوِجْدَانيّة الّتي تُذِيقُ القلوبَ والنفوسَ هذِهِ الحلاوة، بعبادة الله عبادة خاشِعَةً تفيض مَعَها الدموع، وبِحُسْنِ الصِّلة بالله دواماً عن طريق الذّكر والدُّعاء، والمراقبة لله في السّرِّ والْعَلَنِ، وفعلِ الخيْر، والمشاركة في الأعمال الاجتماعيَّة ذاتِ الآثار الإصلاحيَّة، ولا سِيَّما الّتي

تـرفَـعُ البـؤْسَ عـن البـائِسِيـنَ، والظُّلْـمَ عـن المظلـوميـن، وتُسْعِـد الصِّغَـار والضعفاء، بالطعام والكِساء، والْمَسْكَنِ والدّواء، فهذه الأعمال ترافقها في القلوب غالباً مشاعر لَذَّةٍ إيمانيَّـةٍ حُلْوَةٍ، مصحوبةٌ بسكينَةٍ وطمأنينة، وهي تُشْبِهُ مشاعر الأم الحنون حين تُرْضِـعُ طِفْلَها الجائع.

الصنـف السـادس:

صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده، مستيقِنٌ مؤمِنٌ بها، إلاَّ أنَّهُ غافِلٌ عن مقتَضَيَات إيمانه، قد استحوذت عليه أهواؤه وشهواتُه، فهو مُنْدَفِـعٌ لتحقيق مطالِبِ حياته العاجلة وزينتها، والاستكثار من الأموال والأنصار والعقار والمراكب الفارهة والْجَاهِ والسلطان، ونحو ذلك، وفي الغالِبِ يكون من أهل المعاصي بِسَبَبِ غفلته واستغراقه في أمور دنياه.

ومعالجةُ هذا الصنف من الناس تكُونُ بإيقاظِه من غفلاته وسكراته، بتذكيره بما يَعْلَمُهُ ممّا هو مُؤْمِنٌ به، وباستخراج عناصر إيمانه من مَكامِنها، وإحضارِها في ساحة تصوّراته المتحرّكة العاملة الموجِّهَة لإرادته، حتَّىٰ تُوجّهَ أَوَامِرَها في داخله للاجتهاد في مُمَارَسَات السلوكِ الإسلاميّ الباطن والظاهر.

وتكونُ أَيْضاً بتحريك مِحْوَري الطمع والخوف في نفسه بالترغيب فيما عند الله من أجْرٍ عظيم، وبالترهيب ممّا عند الله من جزاءٍ بعذاب أليم.

وتكون باستصحابه إلى مجالس الْعِلْمِ والذّكرِ والعِبَادَةِ، وبغَمْسِه في البيئات الصالحاتِ، الّتي يجدُ فيها مُتْعَةً لقلْبِه ونفسه، مع أَصْحَابٍ ورفاقٍ صالحين، مؤنسين، أَوْفياء، ودُودِين، يؤثِّرون على نَفْسِهِ.

وتكون بترقيق قَلْبه بالمواعظ النافعة، والمشاركات الوجدانيّة المثيرة للعواطف النبيلة، وباستخراجه ممّا هو منغمسٌ فيه من أُمُورِ دُنْيَاه، ببدائل يجد فيها لذَّةَ نَفْسِه ومُتْعَتَها ضمن حدود طاعة الله عزّ وجلّ، وهذه البدائل

مصحوبةٌ بدروسِ علمٍ وموعظة وذكرٍ ومجاهدةٍ في نشر الإسلام، وخدمَةِ قضايا المسلمين العامّة.

الصنـف السـابع:

صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده، مستيقن في قلبه بصدق محمّد رسول الله ﷺ وبما جاء به عن ربّه، إلاَّ أنَّه جاحدٌ لها بَغْياً أَوْ كِبْراً أَوْ حَسَداً أو رَغْبَةً في الفجور، أو غير ذلك من دوافع نفسيَّة خبيثة، فهو لا يريد أن يُؤْمِنَ بالحقّ لهوىً في نفسه وعصبيّةٍ عمياء، ويتعَلَّلُ بالمعاذير، ويصطنع لنفسه ما يُزَيِّنُ لها جحود الحقّ.

وأهل هذا الصنف مغضوبٌ عليهم، لأنَّهُمْ عَرَفُوا الحقّ وجحدوه ظُلماً وعدواناً.

ويَدْخُلُ في هذا الصنّفِ عُلَماءُ اليهود الذين عرفوا صِدْقَ الرَّسول ﷺ وجَحَدُوا رسالته بَغْياً وحسداً من عند أنفسهم، ويُلْحَقُ بهم كُلُّ مَنْ عَرَفَ أنَّ الإسـلام حـقٌّ وجَحَـدَهُ ظُلْمـاً وبغيـاً، مـن نصـارى ومـلاحـدةٍ، وبُـوذِيّيـن، وهندوسيين، ووثنيين.

وفي شأن علماء اليهود الجاحدين للحقّ مع معرفتهم له، قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

وأهْلُ هذا الصنف تَصْعُبُ مُعَالجتُهُمْ، لأنَّهُمْ لَمْ يكْفُرُوا عَن جَهْلٍ بالْحَقِّ، أو عَنْ غَفْلَةٍ عَنه، بَلْ كَفَرُوا بغياً وظُلْماً وعِنَاداً، فلا يُجْدِي فيهم إلاَّ العقابُ الذي يَجدونَ آلامَهُ، حتَّىٰ الإنْذَارُ بالعقاب المؤَجَّلِ لا يُغَيِّرُ فيهم شيئاً، وبشأن هذا الصنف من الكافرين قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

ومع أنّ أهْلَ هذا الصنف لا يُجْدِي فيهم الإنْذار، فيَنْبَغِي الإعْذَارُ إليهم بإنْذَارِهِمْ بعذاب اللّهِ المؤجَّلِ إلى يوم الدين، مع مَا قَدْ يُنْزِل الله بهم من عذابٍ معجَّلٍ في الحياة الدنيا.

الصـنف الثـامن:

هو كالصنف السابع عالم بأُسُس الإسلام وعقائده، وعالم بأنها حقٌّ، وجاحدٌ لَها ظُلْماً وعُدْواناً، وزَادَ بأنَّه شَيْطانٌ مُضِلٌّ فَتَّانٌ فاسِدٌ مَفْسِدُ في الأرض، ومن هذا الصنف الجبابرةُ الطُّغَاة.

هذا صنف من الناس قد جعل نَفْسَهُ من جنودِ إبليس مغوياً مُضِلاً فاسداً مُفْسِداً.

وهذا الصِّنْفُ من المتعذّر بحسب العادة إصْلاَحُه، والتّعاملُ معه يكونُ بدَرْءِ شَرِّه، وكفِّ ضُرِّه، وإبعادِه عن التأثير في الناس، ومكافَحَةِ وَسَائِله المضلَّةِ قَدْرَ المستطاع، ومُقَاوَمَةِ اضطهادِه وإكراهه وإجبارِه الناسَ على الكُفر والفسوقِ والعصيان، ولو بالقتال عند الاستطاعة.

أمّا المنافقونَ فهم كافرون، أو مُتَرَدّدونَ في الباطن، متظاهرون كذباً بالإسلام والإيمان، فيدخلون في بعض الأصناف الثمانية السّابقة، بحَسَبِ أحوالهم الباطنة، ولا قِيمَةَ لأحوالهم الظاهرة.

* * *

البَابُ الثاني

الصِّفَاتُ
الّتي يَجبُ أن يَتحلّى بهَا حَمَلَةَ الرّسَالةِ

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة الصبر وعدم التضجر، وعدم اليأس، مهما اشتدّ عليه الأذىٰ، وضعفت آثار أعماله الرشيدة.

الفصل الثاني: وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة التجرّدِ عن المصالح الشخصيّة، لدى من يُؤَدِّي بينهم رسالته.

الفصل الثالث: وجوبُ تحلّي حامل الرسالة بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه من فضائل الإسلام وأحكامه.

الفصل الرابع: وجوب تحلّي حامل الرسالة بالصفات الّتي ذكر اللَّهُ عزّ وجلّ أنّها صفاتُ عباد الرحمن، ليكون أسْوَةً حَسَنَةً.

الفصل الخامس: وجوب تحلّي حامل الرّسالة بالأهليّةِ البيانيّة.

الفصل السادس: وجوب تحلّي حامل الرّسالة بالأهليّةِ العِلْميّة.

الفصل الأول

وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة الصّبر وعدم التضجر واليأس مهما اشتدّ عليه الأذى وضعُفَتْ آثار أعماله الرشيدة

وفيه أربع مقولات:

المقولة الأولى: قيمة خُلُق الصبر ووجوبُ تحلّي حامل الرسالة به.

المقولة الثانية: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصَّبْر لحاملي الرسالة من أمّة محمد ﷺ.

المقولة الثالثة: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصَّبْر للرسول ﷺ، ويلحق به حاملو رسالته من أمته.

المقولة الرابعة: نماذج من سيرة الرسول ﷺ في الصبر.

المقولـة الأولـى

قيمة خلق الصبر ووجوب تحلّي حامل الرسالة به

الصبر: خلُقٌ نفسيٌّ فطريٌّ أو مكتسب، من آثاره القدرة على الدأب في الأعمال الظاهرة أو الباطنة، وعلى تحمُّل المشقَّات النفسيّة والجسديّة، ممّا يُخالفُ أهواءَ النفس وشهواتِها ورغباتها في فعل ما تكرَهُ فِعْلَهُ، أو تَرْكِ ما تُحِبُّ فِعْلَه.

وهو خلُقٌ يُمَكّنُ مَنْ يَتَحلَّىٰ به ويضعه في المواضع الملائمة له من الظفر بأفضل النتائج التي يُرِيدُ الحصول عليها، ممَّا يقوم به من أعمال ظاهرة أو باطنة.

والصّبْرُ من أَجَلِّ الصّفات النفسيّة ذواتِ الأثر في السلوك الباطن والظاهر، وذواتِ القيمة الثمينة، ممّا يتحلَّىٰ به العقلاءُ ذَوُو الإرادات الْقَوِيّات، والأنْفُسِ العاليات الزاكيات.

وهو من صفات الله جلّ جَلاَلُه، فمن أسمائه تباركَ وتعالَىٰ: «الصَّبُور» وهو يُحبّ الصّابرين، وهو مع الصّابرين، وهو يُبَشّر الصابرين بالنتائج الّتي يُحِبُّونها، وبالأَجْرِ العظيم عنْدَهُ يوم الدين، فقد جاء في النصوص القرآنية: **﴿واللّهُ يحبُّ الصّابِرين ـ إنَّ اللَّهَ مَعَ الصّابرين ـ إنَّمَا يُوَفَّىٰ الصَّابِرُون أجْرَهُمْ بغَيْرِ حساب ـ وبَشّرِ الصَّابِرِينَ﴾** إلى غيرها من نصوص.

وأكثر الخصمين أو المتنافسين ذوي القوّة المتكافئة أو المتقاربة حظّاً من الظفر بما يُرِيدُ أكْثَرُهُمَا صَبْراً.

والْمَحْرومُ من خلُق الصَّبْر يُصَابُ بالسَّأم والملَلِ، فالتضجُّر، وأخيراً يُصَابُ بداء اليأس وتَرْكِ مَا هو فيه من عَمَلٍ، وكثيرٌ ممّن أُصِيبَ بدَاءِ اليأس فتركَ العمل، لو صَبَرَ صبراً قليلاً لظفر بما يُرِيدُ الوصول إليه، أو بأكثر ممّا يريد الوصول إليه.

وأكْثَرُ النَّاسِ حاجةً إلى التحلّي بخلُق الصَّبْرِ مَنْ يَحْمِلُ رِسالَةَ الدّعْوَةِ إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، والنُّصْح والإرشاد، والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، والاضْطِلاع بِمَهَامِّها.

فالسّأمِ والملَلُ والتضجّر يَجْعلُ حاملَ الرسالة ييأس من فائدة قيامِه برسالتِه، فيكُفُّ عن أدائها، أو يتهاونُ في القيام بها، وقد يلجأ إلى اعتزال النّاس والانكفاء على نَفْسِه، ورُبّما يَجِدُ نفسه مع أسرته الخاصّة بعد حين يطولُ أو يَقْصُر منساقاً مع مؤثرات البيئة الّتي يعيش فيها، ومُتَنَازلاً عَنْ بَعْضِ مبادئه التي دَعَا إليها، أو عن التزامه السُّلوكِيِّ بما كَانَ يدعو إليه، أو بما كان يأمُرُ بِهِ وينهىٰ عنه.

فصاحبُ الرّسالة إذا لم يكن حاملاً لرسالته بصورة عمليّة نشيطة، قائماً بوظائفها ومهمّاتها، مناضلاً من أجلها، مهتمّاً بأن يبلّغ رسالته، مبيّناً، شارحاً، داعياً، أو مذكّراً، أو آمراً ناهياً، رجاءَ التأثير في الآخرين، وتقويم المنحرفين، وتحقيق الإصلاح المنشود، فإنّه يتحوّل تلقائيّاً إلى مُدَافع، ثمّ إلى مراقبٍ غَيْرِ مُدافع، ثمّ إلى متأثِّرٍ شيئاً فشيئاً، وقَدْ يَصِلُ إلى مُسَايِرٍ مُتابعٍ، تأثُّراً بضواغط البيئة الّتي لم يستَطِعْ أن يكون فيها صَامِداً صابراً على القيام بوظائف رسالته في الدعوة، والتقويم والإصلاح.

وهنا نُلاحظ أنّ حكمة الله العليّ الجليل اقتضت أن يأمُرَ رُسُلَه عليهم

الصَّلاةُ والسَّلامُ، والدُّعَاةَ إليه والآمرين بالمعروف النّاهين عن المنكر من ورائهم، بالصَّبْرِ في قيامهم بوظائفِ رِسالاتهم ومَهَامِّها في الدّعوة إلى سبيل ربّهم، وفي الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنكر.

وجاء في القرآن المجيد الأمْرُ بالصَّبْر في مناسباتٍ متعدّدات، تشْمَلُ جوانب مختلفاتٍ مِنْ مُشْكلاتٍ يتعرّضُ لها الدُّعاة، وكلُّ مشكلةٍ منها تحتاج من حامل الرسالة الصَّبْر، وتقتضي الحكمةُ الرَّبّانيّة أَنْ يُوَجَّهُ له الأَمرُ بالصَّبْر معها، لئلاَّ يَتَصرَّف تصرّفاً يتنافَىٰ مع مقتَضَياتِ رسالته.

* * *

المقـولة الثانيـة

نصوصٌ قرآنيّة يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصَّبْرِ لحاملي الرسالة من أُمَّة محمد ﷺ

ظهر لدى استقراء نُصُوصِ الأمر بالصّبر في القرآن المجيد وجودُ خمسة نصوص أُنْزِلَتْ في المرحلة المدنيّة من تاريخ دعوة الرسول محمّد ﷺ، وضُمَّتْ هذه النصوص إلى سُوَرٍ أنزلت في المرحلة المكيَّة، وَوُضِعَتْ منها في مواضعَ ملائمةٍ لَهَا فكرياً، وجاء الخطاب فيها موجّهاً للرسول ﷺ، باعتباره أوَّل المؤمنين والمسلمين من هذه الأمّة.

ويَلْحَظُ المتدبّر في هذا الإجراء الْبَدِيع أنّ الغرض منه الإشْعَارُ بأنّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ قد كان متحقِّقاً بالصَّبْرِ المأمور به في هٰذه النصوص، إلاَّ أنّ حاملي رسالته من أُمَّته يحتاجون إلى هذا التوجيه في مِثْلِ المراحلِ الَّتي مَرَّ بِهَا الرسول ﷺ، وكان فيها مُتَحَلِّياً بفضيلة خلق الصَّبْرِ.

فنفهم من هذا الإجراء أنّ الْمَقْصُودَ بالتّوجيه في هذه النصوص هُمْ حمَلَةُ رِسَالَةِ الرسول من أمّته.

وهذا من لطائفِ الإجراءات في القرآن المجيد الَّتي يُلاحَظُ فيها اقتضاءان؛ اقتضاءٌ فكريّ واقتضاءٌ زَمنِي، ويَحْسُن بالمتدبّر التأنّي في تدبُّر القرآن، والنظرُ إلى إجراءاته بإمعان، ليكتشف المقاصد الدقيقة من أساليب البيان.

فلننظر في تدبّر النصوص الخمسة الَّتي كشفها الاستقراء، ممَّا أُنْزِل في العهد المدني، وضُمَّ إلىٰ سُورِ مكيّة التنزيل:

النـصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القلم/٦٨ مصحف/٢ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ، والمقصودُ به كلُّ داعٍ إلى سبيل ربّه وآمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر من أمّته، وناصح مُرْشد:

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

كصاحبِ الْحُوت: أي: كيونُسَ عليه السّلام، إذْ تَرَكَ قومَه أَهْلَ نِينَوَىٰ مُغاضِباً، لمّا كذَّبوه ورفضوا الاستجابة لدعوته، قبل أن يأذَنَ اللَّهُ لَهُ بذلك، ولم يَصْبِر على مُتَابعة دعوته لهم حتَّىٰ يأتيه من الله أمْرٌ بما يَعْمَلُ.

إِذْ نَادَىٰ وهُوَ مَكْظُومٌ: أي: اذكُرْ إذْ نادَىٰ داعياً ربَّه وهو في فم الحوتِ قائلاً: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١).

وهو مَكْظُومٌ: أي: حابسٌ غَيْظَهُ من قومِه الّذِينَ رفَضُوا دعوته، ومعترفٌ بذَنْبِه إذ تركهم قبل أَنْ يأْذَنَ الله له.

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ كَما جَاءَ في سورة (الصافات/ ٣٧).

ولولا أنْ تداركَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِهِ لَنُبِذَ بالْعَرَاءِ وهُوَ مَذْمُوم، لكن تدارَكَتْهُ هٰذِهِ النِّعْمَةُ فَنُبِذَ بالعَرَاءِ سَقِيماً غَيْرَ مذموم، وأنبت الله عليه شجَرةً منْ يَقْطِين، وشفاه، واجتباه وجعله من الصالحين، وأرسله إلى قومه فآمنوا به.

وفي هذا النّصّ تلويحٌ بتهديد حامل رسالة الدّعوةِ إلى الله والآمِرِ بالمعروف والناهي عن المنكر، إذا تضجّر ويَئِسَ وتَرَكَ وظيفته، أن يُعاقبه الله على ذلك بما يشاءُ من عقابٍ ملائم.

وقد علمنا أنّ الرسول ﷺ قد كان متحقّقاً بالصَّبْرِ المطلوب في هذا النّصّ، خلال المرحلة الدَّعَويّة الّتي نزلت فيها سورة (القلم) وقد وصفه الله فيها بأنَّه على خلُقٍ عظيم، فالصَّبْرُ لحكم الله أحَدُ عناصر هذا الْخُلُق العظيم.

إنّ حاملَ رسالة الرسول من أُمَّته المؤهلَ لحملها، مُطَالبٌ بأن يَصْبِر مستمرّاً في القيام بوظائفها، دون أن يتضجَّر أو ييأس ويكُفَّ عَنِ القيام بالدَّعوة إلى الله والأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْي عن المنكر مُتَسَرّعاً مغاضباً، بَلْ كُلَّما يَئِسَ فِعلاً من مَدْعُوٍّ مُعَانِدٍ استبانَ لَهُ الحقّ وأَصَرَّ عَلَىٰ الكُفْرِ، تَحوَّلَ إلى آخرِين لم يَبْلُغُوا بَعْد إلى دَرَكَةِ العناد والإصرار على الكُفْرِ، فهذا التحوّل هو من عناصر الاستمرار على القيام بوظائف هذه الرسالة الرّبّانيّة.

وعلى هذا الفهم يكون معنى: ﴿**فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾ فاصْبرْ مُتَابعاً القيام بوظائف رسالتك انتظاراً لِحُكْم رَبّك فيمَنْ عانَدُوا وأَصَرُّوا على الكفر، مع استبانة الحقّ لَهُمْ، فللّهِ حِكْمَتُه في حُكْمه بعباده، أو فاصْبِرْ مُسْتَسْلِماً لحكم رَبِّكَ.

لكنّ متابَعةَ توجيه الدَّعْوة لأشخاصٍ بأعيانهم تخضع لقاعدة: ﴿**فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ**﴾ أي: فإذَا وصَلَ بعض أفراد الناس إلى حالةِ مَيْؤُوسٍ منها كُلّيّاً، فلا تنفعه الذكرى بدلالة التجربة الطويلة، فمن الخير تَوْجِيهُ جُهودِ الدعوة والتذكير لغيره من الذين لم يصلوا بَعْدُ إلى حالةِ ميئوسٍ منها، وسيأتي إنْ شاء الله مزيد تفصيل لهذه القاعدة.

* * *

النـصّ الثانـي:

قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (المزمّل/٧٣ مصحف/٣ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ، والمقصودُ بِهِ كلُّ داعٍ إلى سبيل ربّه وآمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر من أُمّته:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

لقد كان الرّسول ﷺ متحقّقاً بمضمون هذا التوجيه الرّبّاني إبّان نزول سورة (المزّمل) فأخَّرَ اللَّهُ إنزالَهُ إِلَىٰ الْعَهْدِ المدني، للإشعار بأنّ المقصودَ به كلُّ حامِلٍ لرسالة الرسول من أمّته.

وذلك لأنّ كلَّ داعٍ إلى سبيلِ ربِّه وآمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر، لا بُدَّ أَنْ يَتعرَّض مُنْذُ أوائل قيامه بوظائف رسالته لأقوالٍ جارحات واتّهاماتٍ بَاطِلَاتٍ من بعض الّذين يُوَجِّه لهم دعوتَه أو تذكيره، والمطلوبُ منه في هٰذهِ الحالة أن يَصْبِرَ على ما يَقُولون فيه من أقوال مُؤْلِمَةٍ لنفسه، وأن لا يُقَابِلهم عليها بمثلها.

وحين لا يستطيع تَحمُّلَ مواجهتهم وهم يقولون فيه ما يقولون ممّا يُؤْلِمُه، فباستطاعته أن يَهْجُرَهُمْ هجراً جميلاً.

الهجْرُ الجميل يكون بالتواري عنهم بصورةٍ مؤقتة، وعَدَم مقابلتهم على أقوالهم بأمثالها، والاشتغالِ بغيرهم مدّةً من الزّمن، حتّىٰ إذا شَعَرَ بأنّهم كَفُّوا عن أقوالهم عادَ إلى دَعْوَتِهم وتوجيهِ النُّصْحِ والتذكير لهم، لإشعارهم بأنّه قَدْ هجرهم هجراً مؤقّتاً لئلاّ يُجَرِّئَهُم على إهانته، ولئلاّ يَرُدّ علَىٰ إساءاتهم بأمثالها.

فالهجْرُ الجميل المؤقت لا يَحْمِلُ أكثر من إشعارٍ بأنّهم قد أساؤوا إليه،

ولم يقابلهم على إساءاتهم بأمثالها، وهذا الأسلوب من التَّعامُلِ يَجْعَلُ ذوي الفطر السليمة السويّة تَشْعُر بإكبارِه، وحُسْنِ خُلُقِه، وسمُوِّ سَجَاياه.

وأمر الله عزّ وجلّ حاملَ رسالة الرسول من أمّته بأَنْ يَتْرُكَ لرَبِّه الكفرةَ المكذّبين بالدّين أولي النِّعْمَة (أي: أولي الرفاهية وطيب العيش لكثرة ما لديهم من أموال) فَلاَ يَتَّخذَ معهم وسائل مُوَاجهاتٍ عنيفةٍ ومصادمات، بل يجب عليه أن يزيد في معاملتهم بالإمْهَالِ والمطاولة والصَّبْرِ وسعَةِ الصَّدْر.

لقد أمر الله حاملَ رِسَالة الرَّسُول من أمّته بالصَّبْرِ على ما يُقال فيه، والهجرِ الجميل إذا اقتضىٰ الحال ذلك، وبالإمْهَالِ والمطاوَلةِ وسعَةِ الصدْر، لأنَّ هذه السياسة هي الأجدَىٰ والأَنْفَعُ لإقامة الحجّة، ولانتشار الدّعوة، ولتحقيق الإصلاح المنشود، وتبليغِ دينِ الله للناس على أكمل وجْهٍ وأَتَمّه.

* * *

النـصّ الثالـث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ، والمقصودُ به كلُّ داعٍ إلى سبيل ربّه، وآمرٍ بالمعروف نَاهٍ عن المنكر من أمّته:

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾.

لقد كان الرسول ﷺ متحلّياً بالمطلوب منه في هذا النّصّ، إذْ أنزل الله عليه قبل سورة (طٰه) أربعة نصوص أَمَرَهُ الله فيها بالصّبر، أُولاها في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول) ثم في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) وأَمَرَهُ فيها بالتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن اللّيل وأدبار السجود، ثم في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) ثمّ في سورة

(الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

ولم يكن الرسول ﷺ إبّان نزول سورة (طـٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بحاجة إلى أن يُوجَّهَ لَهُ الأَمْر بالصَّبْر، والتسبيح بحمد ربّه، وأنْ لا يَمُدَّ عينيه إلى زهرة الحياة الدنيا الّتي أتاها بعض عباده، لكنّ الدُّعاة من أمّته في مثل المرحلة الّتي نزلت فيها سورة (طـٰه) يحتاجون إلى هذا التوجيه، فأنزله الله عزّ وجلّ في المرحلة المدنيّة، وضَمَّه إلى سورة (طـٰه) الّتي أنزلت في أواسط المرحلة المكيّة.

فكلّ داع إلى سبيل ربّه مطالبٌ بالصَّبْرِ كلّما تعرّض لما يُؤْلِمُه ويؤذيه من الذين يدعوهم، ومطالَبٌ باستعمالِ الدواء الذي يَسْتَعِين به، حتى يصرف اللَّهُ بِهِ عنه الضواغِطَ النفسيَّة الّتي قد تستنفد لَدَيْهِ طاقات الصّبْر، وهو أَنْ يُسَبِّحَ بحمد ربّه:

- قبل طلوع الشمس.
- وقبل غروب الشمس.
- ومن آناءِ اللّيل، أي: من ساعات الليل، آناء: أي: ساعات، مفردُهُ: «أَنْيٌ» و «إِنْيٌ».
- وأطرافَ النهار، أي: وفي أوقات صلاتي الظهر والعصر، اللّتين تقعان في مفصلين من النّهار لهما طرفان.

وكلُّ داع إلى سبيل ربّه مُطَالَبٌ بأنْ لا يَمُدّ عينَيْهِ متطلّعاً بهَوىً أو شهوةٍ أو رغْبةٍ قَوِيّةٍ إلى شيءٍ مِنْ زهرة الحياة الدّنيا، ممّا متَّعَ الله به أصنافاً من عباده.

وقد كان الرسول ﷺ مُتَحَلِّياً بهذا الْخُلُق الرّفِيع، فلم يكن مقصوداً بالتوجيه، إذْ أُخِّرَ تنزيلُ النّص إلى المرحلة المدنية، للإشعار بأنّ المقصود به حملَةُ رسالته من أمّته.

فقال لكل حامل رسالة الرسول من أمته:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾.

مَدُّ الْعَيْنِ كنايَةٌ عن تَطَلُّعِ النَّفْسِ وَتَشَهّيها، وهو أَمْر يُفْسِدُ نفْسَ الداعي إلى سبيل رَبّه، ويَجْعَلُهُ مِنْ طلاَّبِ الدّنيا، وقد تُغْرِيه زينةُ الحياة الدنيا فيزيغ عن الحقّ في فكره أو في سلوكه.

إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا به أَزْواجاً مِنْهُمْ: أي: إلى شيْءٍ من زينة الحياة الدنيا متّعنا به متاعاً مؤقّتاً عاجلاً، أصنافاً من الناس، والمتاعُ ما ينتفع به مؤقّتاً والزوالُ يلحقه.

وسمَّىٰ الله كُلَّ زيناتِ الحياة الدنيا زهرةً لأَنَّها بمثابة الزهرة المغْرِية السريعةِ الذبول.

لِنَفْتِنَهُمْ فيه: أي: لنمتحنهم فيه خلالَ رحلة ابتلائهم في الحياة الدنيا. لكنّ رزق ربّكَ الدائمَ في الآخرة أيّها الداعي إلى سبيله خَيْرٌ وأبقى.

النـصّ الرابـع:

قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً لرسوله والمقصودُ به كلُّ داع إلى سبيل ربّه وآمِرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر من أمّته:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

لقد كان الرسول ﷺ متحققاً بمضمون هذا التوجيه الرَّبّاني إبّان نزول

سورة (النحل) فأخَرَ الله عزّ وجلّ إنْزالَهُ إلى العهد المدني، للإشعار بأن المقصود به كلّ حاملٍ لرسالة الرسول من أمّته.

إنّ الدّاعي إلى سبيل ربّه قد يتعرَّضُ لأذىً عَمَليٍّ من بعض الّذِين يدعوهم إلى الحقّ والخير والهدى، وإلَى تَرْكِ ما هم فيه من باطل وشرٍّ وضلالٍ، وقد يجد في نفسه القدرة على الانتقام.

وهنا يكْبَحُ الله عزّ وجلّ نفس الداعي القادِرَ على الانتقام، ويقيّدُهُ بحدود مُقَابَلَةِ الأذى بمثله فقط دون زيادة، ويُبيّن أنّ الأفضل من ذلك الصَّبْرُ والصَّفْحُ والْمُسَامَحة، فقال تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

جَاءَ فِي هذه الآية استعمالُ حَرْف (إنْ) الّتي تفيد التشكيك بِحدُوثِ ما دخلت عليه، أو تقليلَه، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ للدلالة على أنَّ هذه المعاقبة مأذونٌ بها ضمن مبدأ العدل، لكنّ السياسة الرشيدة في الدعوة إلى دين الله تقتضي استبعادَ المعاقبة، أو تقليل حدوثها جدّاً، وأنّ المسامحة والصَّفْح والصَّبْرَ على الأذى خيْرٌ للصّابرين، إذ إنّ هذه السياسة أنْفَعُ وأجْدَىٰ لتحقيق أهْدَافِ الدّعوة إلى الله.

فالمعنى: وإنْ عاقبتم على سبيل الاحتمال الذي نُفَضِّل لكم اسْتِبْعَادَه، فعاقبوا بمِثْل ما عُوقبتُمْ به من الّذين تدعونهم، وسمّىٰ الله الأذىٰ الّذي يُوجّهُهُ رافضو دعوة الحقّ للدعاة إلى سبيل ربهم عقاباً مجاراةً لَهم في مفهوماتهم الباطلات، لأنّهم يَرَوْنَ أَنَّ ما يُنْزِلُونَهُ بالدّعاة من أذًى أو تعذيبٍ، إنّما هو عقابٌ لهم على مخالفةِ ما عليه قومُهُمْ، من عقيدةٍ أو نُظُمٍ أو قوانينَ معمولٍ بها من أوضاعِ الناس، أو عاداتٍ وتقاليدَ موروثة.

بعد هذا أَبَانَ الله عزّ وجلّ أنّ الصَّبْرَ على الأذىٰ خَيْرٌ من المعاقبة، فقال

تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾.

أي: ولَئِنْ صَبَرْتُمْ على الأذى، فصفَحْتُمْ عنه، ولم تعاقبوا عليه مع قدرتكم على المعاقبة، لهو خير لكم.

وجاء في الآية وضع الاسم الظاهر وهو لفظ ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ موضع الضمير، للإشعار بأنّ الخير الذي يأتيهم إنما يأتي بسبب الصَّبْر.

وبعد هذا التوجيه الْعَامّ لكلّ الدّعاة إلى سبيل ربّهم، وجّهَ اللَّهُ عزّ وجلّ لكلّ واحد منهم بأسلوب التوجيه الإفرادي فقال تعالى له:

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

في هذا التوجيه الإفرادي لحامل رسالة الدّعْوَةِ إلى الله، والأمْرِ بالمعروف والنهْيِ عن المنكر أربع قضايا:

القضية الأولى: الأمر الإرشاديّ الترغيبي بالصَّبْر على الأذىٰ وعَدَمِ اللُّجوء إلى المعاقبة بالعدل، مع بيان أنّ هذا الصَّبْرَ لا يمكن تحقيقه إلاّ بالاستعانة بالله عزّ وجلّ، دلَّ على هذه القضيّة قول الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾.

القضية الثانية: النَّهْيُ الإرشاديُّ الترغيبيُّ لحامل الرسالة عن أن يَحْزَنَ عَلَىٰ مَنْ يَرْفُضُ دعوتَه ويختارُ لنفسه سُبُل الضلال والشّرّ.

وهذه القضيّة تُعالج ما يعتري أنْفُسَ بَعْضِ الدُّعَاةِ من حرصٍ وشفَقةٍ على أرحامهم وأقاربهم أو أصدقائهم أو قومهم، فإذا وَجَدُوهُمْ قد رفَضُوا الحقّ بإصرارٍ ومعاندةٍ وإيثارٍ للباطلِ علَىٰ الحقّ حَزِنُوا عليهم، لأنّهم يؤمنون بأنَّهُمْ إلىٰ عذاب اللَّهِ في جَهَنَّمَ صائرون، وأنَّهُمْ علَىٰ النَّارِ يَتَهافتون، فقال الله للداعي إلى سبيل ربّه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: إنَّهُم بسبب ما اختاروه لأنفسهم من الشرّ والإثم والضلال يسْتَحِقُّون عقابَ الله بالعدل، فالله يُعَاقِبُهم على ما اختاروه لأنفسهم، وهو أرحم الرّاحمين، فلا يستحقون أن يَحْزَن عليهم أحَدٌ من عباد الله، ولو كانوا أقْرَبَ الأقربين إليهم.

وقد خاطب الله الداعي بهذا كما خاطب بمثله رسُولَهُ في الآية (٧٠) من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

القضيّـة الثالثة: النَّهْيُ الإرشاديّ الترغيبـي لحامل الرسالة عَنْ أَنْ يكون في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُ أعداءُ رسالَتِهِ لصَدِّه عَنْها، أو منعه من القيام بها، أو تحويله واجتذابه إلى طريقتهم، أو التَّخلُّصِ منه ومن أتباعِهِ الْمُنَاصِرين له بالقتل أو السجن أو غير ذلك، فقال الله تعالى للداعي إلى سبيلِ ربّه: ﴿وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ ممَّا يَمْكُرُونَ﴾.

الضَّيْقُ: والضِّيقُ: يأتي بمعنى الألَمِ النفسيّ الّذي يَضْغَطُ عليها فيضَيِّقُ عليها مجارِيَها، وهو المراد هنا، ويأتي بمعنى الشِّدَّة والفقر.

وشعورُ الإنسان بمكر أعدائه لإيقاع الضُّرِّ به يُوَلِّدُ لَدَيْهِ هذا الضَّيْقَ في نفسه.

وفي نهي الله الداعي عن أن يكُونَ في ضَيْقٍ ممّا يَمْكُرُ أعداءُ دَعْوَته، إشعارٌ ضِمْنِيٌّ بأنّه جلَّ وعَلاَ سَيُحْبِطُ مكرهم، ويرُدُّهُ إلى نحورهم، وينصُرُ أولياءَه، كما قال تعالى في سورة (الأنفال/ ٨): ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ وهو من التنزيل المكيّ المضافِ إلى سورة مدنية.

وقد خاطب الله الداعيَ بهذا النهي الإرشاديّ الترغيبـي كما خاطب بمثله رسوله في الآية (٧٠) من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

القضيّـة الرابعة: بيان أنّ الله عزّ وجلّ مَعَ أوليائه معيناً وَناصراً، سواءٌ أكانوا من المتقين الذين يُعَاقِبُونَ بمِثْلِ مَا عُوقِبُوا به، أَمْ كانوا من المحسنين الصابرين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

ومَعِيَّةُ اللّهِ لهم هي معيَّةُ إعانةٍ وحِفْظٍ ونَصْرٍ وإحْباطٍ لمكرِ أعدائهم الكافرين المجرمين.

ونلاحظ أنّ هذا النصّ المدنيّ التنزيل قد وضع عَقِبَ الآية المكيّة التي يُبيّن الله فيها لرسوله ولحاملي رسالته من بعده القواعد الرئيسة العامّة لمنهاج الدعوة إلى سبيل الله، وهي قولُه عزّ وجلّ فيها:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

والحكمةُ في هذا أنّ الدّاعيَ إلى سبيل ربّهِ في مجتمعات كافرة معاندة لا بُدَّ أنْ يتعَرَّض لأحوال مختلفة تستدعي إرشاده إلى ما ينبغي أن يفعله حِيالَهَا، فجاء النصّ المدنيّ التنزيل مُرْشِداً معلّماً.

أمّا تحليل ما جاء في هذه الآية (١٢٥) فله موضع آخر من هذا الكتاب.

وهكذا وضَحَ لنا من هذه النصوص الأربعة ذاتِ التنزيل المدني، والموضوعَةِ في سُوَرٍ مكيّة أنّها موجّهة لحاملي رسالة الدعوة إلَىٰ سبيل ربّهم، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، من أمّةِ محمّد ﷺ، وإنْ كان ظاهِرُ الخطاب مُوجّهاً للرّسول، إذ التوجيه له ملاحظٌ فيه أنّه أوّلُ المؤمنين والمسلمين، وأوّلُ الدّعاة إلى سبيل الله، وأوّل الآمرينَ بالمعروفِ والناهين عن المُنكر، وإمامُهُم جميعاً، والخطابُ للإمام هو خطابٌ لكلّ المؤتمّين به.

* * *

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

هذه الآية أُنْزِلَتْ في المرحلة المدنيّة وضُمَّتْ إِلَىٰ سُورَةٍ هي من أواخِرِ التَّنْزِيل المكيّ، للإشعار بأنّ المقصودَ بالخطاب فيها قادةُ الدّعوة الّذين يُشْرِفُونَ على تربية الدُّعَاةِ وتعليمهم وتزكيتهم بغية إعدادهم وتأهيلهم للقيام برسالة الدّعوة إلى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذْ كان الرسول ﷺ متحقّقاً بما جاء فيها من توجيه، لكنّ المرحلة الّتي أُنْزِلَتْ فيها سورة الكهف مَرْحَلَةٌ قد تَهيأ فيها قادَةٌ مُرَبُّونَ مِنْ أصْحاب الرّسولِ ﷺ، وهُمْ مُحْتَاجُونَ للتوجيه الذي جاء فيها، وكذلك كلُّ مَنْ وصَلَ إلى مثل هذا المستوى من بعدهم، وقد كان هؤلاء الأصحاب يتأسَّوْنَ بالرَّسُولِ ﷺ، إلاّ أنّ أهَمِّيَّةَ الموضوع تَسْتَدْعِي إنزال قُرْآنٍ يُتْلَىٰ به، فحصل هذا الإجراء البديع.

إنّ الْعَالِم الديني ينبغي أن يكون عالماً وداعياً وهادياً ومُرَبياً اقتداءً بالرّسول ﷺ، فَهُوَ مسؤول عن تربيةِ الدّعاة إلى الله والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهٰذِهِ التربية تتطلّبُ منه الإشراف على من يُعَلِّمُهُمْ ويزكيهم إشرافاً متتابعاً بالْغَداةِ والعشيّ، حتّىٰ يكونُوا مؤهّلين لأَدَاء هٰذِهِ الوظيفة الجليلة.

ولمّا كان هذا الإشراف التعليميُ التربويُّ المتتابع يتطلّبُ بذل جَهْدٍ كبير، بدَأَبٍ منتظم لا ينقطع، وهذا لا يتحقّق إلاّ بصَبْرٍ عظيم، أنزلَ الله هذه الآية يخاطبُ فيها رسُولَه، والمقصودُ أئمة الدّعاة المربُّونَ المعلِّمُون من أمّته، وجاء فيها الخطاب بأسلوب الخطاب الإفرادي، لإشعار كلّ فردٍ منهم بأنه

مُطَالبٌ بخطابٍ خاصٍّ به أنّ يتحقَّق بما جاء في التوجيهِ الّذِي اشتملت عليه الآيَة.

واصْبِرْ نَفْسَك: أي: واصْبِرْ يا أيها العالم بما أنزل اللّهُ على رسُولِه، المسؤولُ عن إعداد الدّعاة إلى الله والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، حاملاً نفسَكَ على تحمُّلِ مَشَقَّات التَّعليم والتربية والتزكية، مع الذين يَعْبُدونَ رَبَّهُمْ بإعْدادِ أنفسهم، ليكونوا دعاةً إلى دين الله، وآمرين بالمعروف ناهين عن المنكر.

مع الذين يدعون ربّهم: أي: مع الذين يعبدون رَبّهم بتعلّم علوم الدّين، وإعداد أنفسهم ليكونوا دعاةً مؤهلين.

فالدعاء يأتي بمعنى العبادة، وأفضل العبادات تَعَلُّم علوم الدين، والقيامُ برسالة الدعوة إلى الله، وإعْدَادُ النفس لهذه الوظيفة العظيمة.

بالغداة والعشي: أي: في أوّل النهار وآخره.

ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ: أي: ولا تَتَجاوَزْ عيناك مُراقَبَتَهُمْ والإشرافَ عليهم، لئلاَّ يفْلَت زِمَامُ قيادتهم مِنْ يَدِك، بغفلتك عنهم، وإهمالك مراقبتَهُمْ.

تُريدُ زينةَ الحياةِ الدّنيا: أي: تريدُ بِتَجاوُزِ عينيك مراقبتَهم والإشراف عليهم، وبغفلتك عنهم زِينَةَ الحياةِ الدنيا من مالٍ أو جاهٍ أو شهواتٍ ونحوها.

ولاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا: أي: ولا تُطِعْ مُثَبِّطاً لك عن عملك، أو مستدرجاً إياك إلى مزالِقِ الأهواء والشهواتِ، فهذا قد وَجَدْنَا قلبه غافلاً عَنْ ذِكرنا، وإذْ غفل عن ذكر الله فهو داعيةُ تثبيط عن تربية الدُّعَاة وتعليمِهِم وتزكيتهم.

واتَّبَعَ هَوَاهُ وكان أمْرُهُ فُرُطاً: أي: ومن علامات كَوْنِه غافلاً عن

ذكر الله، أنَّه اتَّبَعَ هَواهُ في أقواله وأعماله. وكانَ أمرُهُ في حياته وسلوكه النفسيّ والظاهر مُجَاوِزاً حدَّ أوامر الله ونواهيه بالمعاصي والمخالفات.

الفُرُط: هو ما كان من الأمور مجاوزاً حدَّ الحقّ والخيرِ والْهُدَى.

* * *

المقـولة الثالثـة

نصوص قرآنية يُلاحظُ فيها توجيه الأمْرِ بالصّبْر للرسول ويُلْحَقُ به حاملو رسالته من أمّتِه ﷺ

مـقـدمـة:

اشتمل القرآن المجيد على نحو عشرين نصّاً فيها توجيه الأمْرِ بالصَّبْر في مجال الدعوة إلى سبيل الله، للرسول ﷺ، ويُلْحق به حاملو رسالته من بعده.

وقد وردت هذه النصوص في مناسباتٍ شتَّى تشمل جوانب مختلفة من مشكلات يتعرّض لها حامل رسالة الدّعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلّ مُشْكِلَةٍ منها تحتاجُ من حامل الرسالة الصّبْر.

وقد اقتضت الحكمة الرّبّانيّة أَنْ يُوَجَّه لَهُ الأَمْرُ بالصَّبْر معها لئلاّ يتصرَّفَ تصرُّفاً يتنافَىٰ مع مقتضَيَات رسالته.

ونظراً إلى واجب تربية الدّعاة إلى سبيل الله، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر على فضيلة خُلُقِ الصَّبْرِ في مختلف المشكلات الّتي يتعرّضون لها، ومختلف المواقف الَّتي أمَرَ الله فيها رسولَهُ بالصَّبْر، ويُلْحَقُ به كُلّ حَاملٍ لرسالته من بَعْده، فقد وجَدْتُ من الْخَيْرِ تَتَبُّعَ هذه النصوص بحسَبِ ترتيب نزولها، مصحوبةً بنظرات تدبُّريَّة تَهْدِي حاملي رسالة الرسول ﷺ، إلى مـا يَنْبَغـي لهـم الالتـزام بـه مـن الصَّبْـر، فـي المـواقـف المختلفـة

الَّتي يتعرَّضون لها في مسيرتهم الّتي يؤدّون فيها مَهَامَّ رسالتهم.

نظرات تدبّريّة للنصوص مع مراحل الدعوة:

١ ـ بدأ الله عزّ وجلّ نُبُوّة رسوله فأوحىٰ إليه أوائل سورة (العلق) أولِ سُورَةٍ أنزلت من القرآن المجيد، ولم يُؤْمَرْ فيها بأن يدعو الناس إلى الإيمان والإسلام.

بل كان إنزالُها وقيامُ الرسول بمقتضىٰ إيمانه وإسلامه في صلاته، وتلاوته ما أُنْزل عليه منها، بمثابة البيان التمهيدي بأنّه نبـيٌّ يُوحِي اللَّهُ إليه بقرآن يُتْلَىٰ.

فتعرّض من بعض قومه للأذىٰ، بُغْيَةَ مَنْعِه عن صلاته الخاصّة، إذْ صَارَ يُصَلِّي لربّه منفرداً، علىٰ خلاف طريقة قومه، فأنزل الله عليه بقية السورة.

* * *

٢ ـ وتذاكر ملأ قريشٍ بنُبُوّته، فاستنكر بعضهم أن يكون نبيّاً يُوحَىٰ إليه، فاتّهَمَهُ بالْجُنُون، فأنزلَ الله عليه سورة (القلم/ ٦٨) ثَاني سورة أنْزِلَتْ عليه.

وأنْزَلَ عليه فيها ما فيه تَثْبِيتٌ لَهُ، وثناءٌ عليه بأنّه لعلى خلُقٍ عظيم، وأبان له فيها أنّ من عارضه من قومه واتَّهَمَهُ بالجنون قد فعل ذلك بدافع الحسد، ووجَّه الله فيها النكير الشديد مُنْصَبّاً على من تولَّىٰ كِبْر ذلك، مع سَوْقِ أدلّة إقناعيّة، تعتمد على حجج عقلية برهانية، وتقديم إنْذارٍ بعذابٍ أليم يوم الدين.

* * *

٣ ـ واقتضت الحكمة التربويّة أنْ يُعِدّ الله رسوله للقيام بوظيفة الدَّعوة والإنذار إعداداً نفسيّاً ملائماً للمهمة العظيمة الّتي سيكلّف القيامَ بها، فأنزل عليه سورة (المزّمل/ ٧٣) ثالث سورة أُنْزِلت من القرآن المجيد، فكلَّفه فيها

أن يقوم اللَّيلَ إلاّ قليلاً، عابداً ربّه، وكلّفه أن يذكر اسم ربّه، ويتبتّلَ إليه تبتيلاً، أي: يتفرّغ تَفَرُّغاً كاملاً لعبادة ربه، وكلَّفه أن يتخذه وكيلاً في أمْرِه كلّه.

ولم يأمُرْهُ في هذه المرحلة بأنْ يقول لقومه: إني رسول الله إليكم.

لكنَّ الله عزّ وجلّ حذّر فيها النّاس من عذابه، وخاطبهم فيها خطاباً مباشراً بقوله:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾.

فأبان لهم عاقبة فرعون إذْ كذّب رسُول رَبّه، وأنذرهم فيها إنْ كَفروا بعذابٍ أليم يوم الدّين.

والإعدادُ النفسيّ الّذي أعَدّ الله به رسوله جعله يَحْمِلُ همّاً عظيماً، ومع الهمّ العظيم للقيام بأمر عظيم يُصَابُ جسد الإنسان بعوارض برْدٍ يحتاجُ معها إلى أن يَتَدَثَّر بأغطيَةٍ تعطيه دِفْأً، وَهذا هو الذي شعر به الرّسُولُ ﷺ، فصار يقولُ دَثِّرُوني دَثِّروني، كما جاء في روايات السِّيْرة.

* * *

٤ ـ وبعد أنْ أعدّ الله رسُولَه للقيام بمهمَّتِه العظيمة إعداداً نفسيّاً مُلاَئماً أَنْزَلَ عليه سورة (المدّثر/ ٧٤) رابع سورة أنزلت من القرآن المجيد، فقال له:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾.

أي: نَحِّ عَنْكَ دِثَارَك فقد انتهتْ مرحَلَةُ الإعداد، وقم بالدّعوة إلى سبيل رَبّك وَفْقَ مراحلها، تبليغاً وَإقناعاً وتبشيراً بثواب الله العظيم يوم الدّين، حتّى آخِرِ مراحلها وهي الإنذارُ بعذاب الله المعجّل والمؤجل إلى يوم الدين، دلّ

على هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾.

وعلّمه ربُّهُ الأسس العَامَة الكُبْرى للدّين الذي يلتزم به ويدعو إليه، وهي:

(أ) تكبيرُ الله وحده، فلا شريك له في ذاته ولا في صفاته، وهذا يلزم منه توحيد الله في ربُوبيّته وفي إلهيّته، فقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ وتَوْحيدُ الله في إلَهِيّته يلزم منه إفراده في العبادة، وهذا تندرج تحته كلّ أحكام الدين.

(ب) التَّطَهُّر من الأرجاسِ والأدران، فقال له: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ وهذا يلزم منه تَطْهيرُ جَسَدِه، وتطهيرُ الثيابِ والْبَدَنِ من الأرجاس والأنجاس والأدران المادّية، يدُلُّ على وجوب تَطْهِيرِ النفس من النجاسات المعنوية من باب أولى.

(جـ) الابْتِعَادُ عن كلِّ الوثنياتِ والشركيات ولوازم الاقتراب منها في الاعتقاد والسلوك، فقال له: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ أي: واخصُص الرُّجْزَ (وهو الشرك) بالْهَجْرِ الكامل، فلا تَقْترِبْ من شيءٍ مِنْهُ مُطْلقاً، وادْعُ إلى هَجْرِهِ في رسالتك.

وأرْشَدَهُ رَبّهُ إلَى مَا يَجْذِبُ به قلوب من يدعوهم في مسيرته الدّعوية، وإلى ما يَحْمِي به نفسَهُ من التّخَاذُلِ والضَّجَر، فأبَانَ له فضيلتين خُلُقِيَّتَيْنِ:

الفضيلة الأولى: الْعَطَاءُ ابتغاء مرضاة الله فقط، دون ابتغاء الفوائد الدُّنيويَّة من الناس، فقال الله له: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾.

المنّ: التفضُّل بالعطاء الحسَن.

أي: وأنْعِمْ بالعطاء الحسَنِ ممّا تَمْلِكُ من جَسَدِك ونَفْسك ومالكَ عطاءً لا يُرادُ منه الربحُ من الناس، والمعنى: فامْنُنْ بعطاءَاتِك غَيْرَ مستكْثِرٍ بها أعواضاً من الناس.

وهذا يدُلُّ على أنَّ الدَّاعِي إلى سبيل ربّه ينبغي له أن يكون ذا بَذْلٍ وعَطَاءٍ، حتّىٰ يَمْلِكَ مشاعِرَ النُّفُوس بالمحبّة، وأنْ لا يكون عطاؤُهُ وَسِيلَةً لتحصيل العطايا من الناس مستكثراً، فمن استكْثَر من عطاءاتِ الناس بعطاءاتِهِ لَهُمْ، زهد به الناس، إذْ يَرَوْنَهُ تَاجِراً طالباً للرّبْحِ ممّا يبذُلُه.

الفضيلة الثانية: الصَّبْرُ ابتغاءَ مرضاةِ الله، فقال الله له: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾.

أي: ولابتغاء مرضاةِ ربِّكَ وثوابِهِ الجزيل فاصْبِرْ على ما تَلْقَاهُ من الذين تدعوهم إلى سبيل ربّكَ، من إعراضٍ أو إدْبارٍ، أو أذًى بأقوالهم أو بأعمالهم.

وكان هذا أوَّلَ توجيه من الله لرسوله بأن يَصْبِرَ على ما سَيَلْقَىٰ من قَوْمِهِ من مؤلماتٍ له، وهُوَ يَقومُ بأداء رسالته التي حمَّله اللَّهُ أَعْبَاءَهَا.

* * *

٥ ـ وقام الرسول ﷺ بِمُهِمَّاتِ رسالته كما أمَرَهُ الله، وتعرَّضَ فِعْلاً لاتّهَامَاتٍ وَأقوالٍ جارحاتٍ أَثّرتْ في نفسه صلواتُ الله عليه، فأنْزَلَ الله عليه قوله في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠ ﴾.

فأمر الله رسوله بالصَّبْر، ووصفَ لَهُ الدَّوَاء الَّذِي يستعين به، حتَّىٰ يَصْرِفَ الله به عنه الضَّوَاغِطَ النفسيَّة الّتي تستنفد طاقاتِ الصَّبْر عادةً في نفوس الناس، وهو أن ينقطع متبتّلاً لذكر ربّه مُسبِّحاً بحمْدِه في الأوقات التاليات:

● قبل طلوع الشمس، وهذا الوقت يستمر حتى طلوعها.

● وقبل غروب الشمس، وهذا الوقت يكون من بدء اصفرار الشمس حتى غروبها.

● وأثناء الليل، وهذا يكون في وقت أو أوقاتٍ ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء، وما بين صلاةِ العشاء وطلوع الفجر.

● وعقب كلّ صلاة.

وهذا التعليم الموجّه للرسول ﷺ تَعْليمٌ موجّه أيضاً لكلّ الدُّعاةِ إلى الله من أُمّتِه، الّذين سيتَعَرَّضُون في مَسِيرتهم الدعوية لما قد يَسْتَهْلِكُ طاقاتِ الصَّبْر لَدَيهم، فالتسبيح بحمد الله بعِبَارة: «سبحان الله وبحمده» ونَحْوِهَا في الأوقات التي أَرْشَدَ الله إلى التسبيح فيها يُمِدُّ طَاقَاتِ الصَّبْر في النفس بفيوضٍ من مَعُونَةِ الله ومَدَدِه.

* * *

٦ ـ ثمّ تَعَرَّضَ الرسولُ ﷺ لاتّهَامه بأنّه ساحرٌ كذّابٌ وبأنّه صاحبُ غرضٍ دنيويّ خاصٍّ من دعوته، وبأنَّ التوحيد الذي يدعو إليه قضيّةٌ يختَلِقُها من عنده اختلاقاً، فالْمِلَّةُ الآخرة وهي النّصرانيّة مِلّةٌ فيها عقيدةُ التثليث، وفيها تعظيمٌ للأوثان فأنزل الله عليه في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) قوله:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ . . . ﴿١٧﴾﴾.

وأشعر الله رسوله فيها ضمناً بأنّ الرسُلَ من قبله قد امْتُحِنُوا امتحانات شديدات فصبَرُوا على ما ابتلاهُمُ الله به، فذكر له داود وسليمان وأيّوب، مبيّناً ما امْتُحِنُوا به، وذكر له: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذا الكفل، في إشارة ضمنيّة إلى أنهم امتحنوا فصَبَرُوا، دون التَّصْرِيح بهذا.

* * *

٧ ـ ثمّ تعرّض الرسول ﷺ لاتّهامه بأنه يَفْتَري القرآن على ربّه، وبأنّه يُعِينُه عليه قومٌ آخرون، وبأنّه ينْقُلُه من أساطير الأوَّلين.

وشكّك كُبَراءُ مشركي مكةَ في أن يكون رسولاً بسبب أنّه يأكُلُ الطعامَ ويَمْشي في الأسواق لكسب رزقه.

واقترحوا أَنْ يُنَزَّلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ مِنَ السماء فيكونَ معه نذيراً، حتّىٰ يشهد له بأنّه صادِقٌ فِي رسالته.

واقْتَرَحُوا أَنْ يُلْقَىٰ إليه كَنْزٌ من السماء، أو أنْ تكون له في مكةَ جنَّةٌ يأكُلُ منها، فالله الّذي اصطفاه بالنبوّة والرسالة كما يدّعي قادر على أن يَجْعَلَ له ذلك.

وقالوا للّذين آمنوا به إنْ تَتّبعُون إلاّ رجلاً مسحوراً.

ويظهر أنَّ بعض أصحابِ الرسول ﷺ رغِبَتْ نفوسهم في إجابَةِ الكافرين إلى بعض مطالبهم رجاءَ إيمانهم، لكنّ الله يَعْلَمُ أنَّهم مُتَعنِّتُون مُتَشهُّون، فلو أجابهم إلى مقترحاتهم لما آمنوا، فأنزل على رسوله قوله في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ . . وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ .

فأبانَ الله لرسوله ولكلِّ أمّته أنّ من سُنَنِه في الحياة الدنيا ضمن قانون الخلق العامّ، أن يكُونَ بعض الناس فِتْنَةً لبعض، أي: يَمْتَحِنُ الله الناس بعضَهُم ببعض من خلال مَجْرىٰ سننه في كونه، فإيذاءُ الكافرين للرَّسُول وللذين آمنوا معه أحَدُ موادّ الامتحان الرّبّاني لعباده.

وأبان لهم أنَّ اجتياز هذا الامتحان الرّبّانيّ لهم بنجاح إنّما يكون بالصَّبْر، فقال تعالى على سبيل الاستفهام الترغيبيّ: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾؟! أي: إذا صَبَرْتُمْ ظَفِرْتُمْ وفُزْتُمْ، وإنْ لم تصْبِروا فإنَّكُمْ لَنْ تغيّروا من الواقع شيئاً، وستخسرون ثوابَ الصابرين، وتُصابُونَ بآلام المتضجرين.

* * *

٨ ـ واسْتَمَرَّ قادةُ المشركين على مواقفهم في اتّهام الرسول بأنّه ساحر مبين، نظراً إلى تأثيره بالقرآن وبدعوته الحكيمة، وتزايُد الّذين يُؤْمنون به وبما جاء به عن ربّه.

وفي أواسط المرحلة المكيّة عرَض قادَةُ المشركين عليه أن يأتي بقرآن غير القرآن الذي أَنْزَلَه الله عليه، أو أن يُبَدّله تبديلاً يوافق أهواءَهم.

ولعلَّ الرسولَ تحدَّثت نَفْسُهُ بأن يسأل ربّه إنهاء مدّة إمهالهم، والحكمَ بمعاقبتهم، فأنْزَلَ الله عليه قوله في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

فأمر الله بهذا رسوله أن يخاطب الناس جميعاً بأَنَّهُ قد جاءهم الحقُّ مِنْ ربّهم، وأنّ من اهتدى فإنّه هو وحْدَهُ المستفيد من هدايته، وأنّ من ضلّ فإنّه هوَ وَحْدَه الذي يتضرّر من ضلالته.

وأَمَرَهُ أن يبيّن لهم أنّه ليس وكيلاً عليهم، بمعنى أنَّه ليس مكلّفاً أن يهديهم بالإِكْراه والإجبار، كالوكيل على قطيع من الغنم.

وأَمَرَهُ بأَنْ يتَّبع ما يوحَىٰ إليه، فلا يكترثَ لِقَوْلِ المشركين له: ائت بقرآن غير هذا أو بَدِّلْه.

وأَمَرَهُ أخيراً بأَنْ يَصْبِرَ حتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بشأنِ المصرِّين على كُفْرهم، وهو خير الحاكمين، فلا يسأل ربّه التعجيل بإهلاكهم، إنّه هو أعلم بعباده.

❊ ❊ ❊

٩ ـ ثم عرض الله على رَسُولِه لَقْطَةً من قصَّة نوح عليه السلام وصَبْرِهِ على قومه، في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) وقال له بعدها:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: فتأَسَّ بنوح، واصْبِرْ كما صَبَرَ على قومه.

والصَّبْرُ هنا هو من مستوى الصَّبْر الْوَاجب، لقوله تعالى بعده: ﴿ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فمرتبةُ التقوى تقتضي فعل الواجبات وتَرْكَ المحرّمات.

وقال له فيها أيضاً:

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

والصبْرُ المأمور به في هذه الآية هو من الصبر المندوب إليه، لقوله تعالى بعد: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ فمرتبةُ الإحْسان مرتبةٌ يَصل إليها مَنْ يتوسعون في فعل مراضي الله من نوافلِ الصالحات.

* * *

١٠ - ثمّ اشتدَّتْ لهجةُ تربية الله عزّ وجل لرسوله ﷺ في توجيهه لأنْ يَصْبِر على ما يُلاَقِي من كُبَرَاءِ قومه من تكذيب وإيذاء واضطهادٍ لأَصْحَابِه، وضمَّنَهُ وَعْداً بالنصر، وأبان له أنّ كثيراً من الرُّسل من قبله قَدْ كُذِّبوا وأُوذُوا فصَبَرُوا حَتَّىٰ أتاهم نَصْر اللَّهِ لَهُمْ، فأنْزَلَ عليه قوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ولا مُبَدّل لِكَلِمَاتِ الله: أي: ولا مُبَدِّلَ لكلماتِ اللَّهِ التكوينيَّة ومنها سُنَنُه في ابتلاء بعضِ عباده ببعض، الّتي مِنْهَا ابتلاءُ رُسُلِهِ بتكذيب الكافرين

وإيذائهم لهم، لاختبارِ مقدار صَبْرِهِمْ، ولا مُبَدِّل لكلماتِ اللَّهِ التكليفيّة والْجَزَائِيّة.

ويظْهَرُ أنّ الرّسُول ﷺ رغبت نفْسُه في أَنْ يُجْرِيَ الله له بَعْضَ الآيَاتِ الخوارِقِ الّتِي طَلَبَهَا كُبَرَاءُ مشركي قومه، رجاء أن يؤمنوا، لكنْ عَلِم اللَّهُ أَنَّهُم مُعَانِدُون مُتَعَنِّتُون، وأنَّ إجراءَ الخوارق التي يطلبونها لا يُغَيِّر من مواقفهم شيئاً، بل يزيدُهُمْ إصراراً وعناداً وتشهّيَاتٍ في طَلَبِ المعجزات، وحِينَئِذٍ تقتضي الحكمةُ إهلاكهم إهلاكاً شاملاً، فقال اللَّهُ له:

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾.

أي: فإن استطَعْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ، لَكنه لَنْ يستطيع ذلك ما لَمْ يُقْدِرْهُ الله عليه. وفي هذا تأديبٌ له بأسْلُوبِ التعجيز، والغرض تربيةُ حاملي رسالته من بَعْدِه.

وفي عبارة ﴿ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ إشْعَارٌ بأنّهم في مجموعهم مَا زَالُوا في مرحلة الإعراضِ الذي يُرْجَىٰ معه استجابَةُ فئاتٍ منهم حيناً فحيناً، ولم يَصِلُوا بعد إلى مرحلة الإدبار والتولّي التي تكُونُ حالُهُمْ معها حالةَ ميئوساً منها.

ولَوْ شَاءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى: أي: ولو شاء الله هدايتَهُمْ هدايةً إجباريّةً لسَلَبَهُمْ إراداتِهِم الحرَّةَ فجمَعَهُمْ على الهدَى، لكنَّ الله أراد اختبارَهُمْ فأعطاهم إراداتٍ حُرَّةً، فالمطلوبُ منهم أن يَهْتَدُوا باختيارهم الْحُرِّ لا بالْجَبْرِ.

فاعلم هذه الحقيقة واعْمَلْ بمقتضاها دواماً.

* * *

١١ ـ ثم تطلّعَتْ نُفُوسُ أصْحَابِ الرسول ﷺ بقُوّةٍ لطلب نَصْرِ الله،

فأنْزَلَ الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) قوله:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾.

وبعد ثلاثِ آيات قال تعالى خطاباً لرسوله فلِكُلّ حامل رسالتِهِ من أمّته:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

فوعد الله رسوله والذين آمنوا بالنصر في الدنيا وفي الآخرة يوم يقوم الأشهاد، وهم الذين يَشْهَدُون للعباد أو يشهدون عليهم بما كان منهم، مُبيّناً أنَّ النَّصْرَ حقٌّ لا ريب فيه.

وأمر أمراً إفرادياً الرسُول ﷺ وكلَّ حاملٍ لرسالته من أُمَّته بالصَّبْر، وبأنْ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ لذَنْبِه، وبأن يُسَبِّح بِحَمْدِ رَبّه بالْعَشِيّ والإبكار.

ويظهر أنّ المقصود بهذا التوجيه حامل رسالة الرسول من أمته، وجاء الخطاب بصورة الخطاب الإفرادي بدءاً بالرسول ﷺ نظراً إلى أنه أوّل المؤمنين المسلمين الدّعاة، وقائدهم، وينتقل تَوْجيه الخطاب تِلْقَائياً إلى كلِّ حاملٍ لرسالة الرسول من أمَّتِه، فحال أصْحَابِ الرسول ﷺ في الثلث الأخير من المرحلة المكيّة تستدعي هذا التوجيه الحازم.

وبعد عشرين آية من السورة نفسها قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

ويَظْهَرُ أنَّ نَفْسَ الرسول ﷺ تطَلّعَتْ إلى أن يُجْرِيَ الله له آيَةً إعْجَازِيَّةً كُبْرَى تكُونُ سبباً في هداية كثيرٍ من كبراء قومه، فقال الله عزّ وجلّ له فيها:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ

عَلَيْكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: إذا آتىٰ اللّهُ رَسُولَهُ آيَةً كُبْرَى اسْتِجَابةً لطلب قومه، ثُمَّ أصَرَّ قومُهُ علىٰ الْعِنَادِ والكفرِ، قَضَتْ إرادة الله الحكيمة بإهلاكِ القوم كما حَصَلَ لثمود إذْ أصَرُّوا على الكفر بعد آية الناقة.

* * *

١٢ ـ وبعد أن أبان الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ أنّ الحكمة تقتضي عَدَمَ إجراء آيةٍ إعجازيّةٍ كُبْرَىٰ له، لئلاَّ يتعرّض قومه للإهلاك الشامل إذا أَصَرُّوا على الكفر بعد إجرائها، يظهر أَنَّ الرسول خطرت له خَوَاطِرُ تعجيل مُعَاقبة مستحقّي العقاب من قَوْمِهِ، دون أن يسأل ربّه شيئاً من ذلك، فأنزل الله عليه قوله في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ولا تَسْتَعجِلْ لَهُمُ الإهلاكَ المعجَّلَ في الدّنيا، فالعذابُ الذي وُعِدُوا بِهِ يوم الدّين آتٍ لاَ مَحَالَة، وحين يَرَوْنَ يوم القيامة الْعَذَابَ يشعرون أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا بين الموت والْبَعْثِ إلاَّ ساعة من نهار.

وأَعْلَنَ اللّهُ عزّ وجلّ في آخر الآية بلاغاً عاماً لكلّ المؤمنين لِقَطْعِ تطَلُّعَاتِ نُفُوسِهِم لإهلاك جماعاتِ الكافرين، فأبان في هذا البلاغ أَنَّ الإهلاك الشامل لقومٍ من الأقوام إنما يكون حينما يكون فِسْقُهُمْ أمراً عاماً شاملاً، ويُمْسِي إصلاح أفرادٍ منهم ميئوساً منه، فقال تعالى: ﴿بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: فما داموا لم يَصِلُوا إلى هَذَا الحضيض فإنَّهم لاَ يُهْلَكُون إهْلاَكاً عاماً شاملاً.

* * *

١٣ ـ ثم أبان الله عزّ وجلّ دعْوَةَ الرسُل السابقين لأقوامهم، وحوارَهُم لهم، وإعلانَهُمْ صَبْرَهُمْ على إيذاء قومهم لهم، ليتأسَّىٰ الدُّعاةُ إلى الله من أمّة محمّد ﷺ بهم، فقال تعالى: في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

في هذا النصّ عَرْضٌ شامل، لمنهاج الرسل في دعوةِ أقوامِهم إلى سبيل ربّهم، ولمجادلتهم لهم بالتي هي أحسن، وصَبْرِهم على أذاهم الذي آذَوْهُمْ به من أجْلِ قيامهم برسالةِ ربّهم بينهم، وبيان أنّ الطغاة من الأقوام يوجّهون التهديد لرسُل ربّهم بالإخراج من بلادهم، إذا لم يعودوا إلى دين قومهم.

وأخيراً يتدارَكُ اللّهُ رُسُلَهُ بالنّصر، وبإهلاكِ أَعدائِهِمْ الكافرين الطغاة.

وظاهر من هذا النصّ التوجيه للاقتداء بالرُّسُل السابقين في دعوتهم، وفي حوارهم وجدالهم، وفي إعلان الصَّبْر على أذى كلِّ جبّارٍ عنيد.

وهذا من أساليب التربية بالأُسْوَةِ الحسنة، ومعلومٌ أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصلاةُ والسلام هُمْ أكْمل مَنْ يُقْتَدَىٰ بهم في مُهِمَّاتِ رسالاتهم.

* * *

١٤ ـ ثمّ أبان الله عزّ وجلّ أنّه جعل من بني إسرائيل أُمَّةً من الدُّعاةِ إلى سبيل ربّهم، يَهْدُونَ الناس بأمْرِهِ، لمَّا صَبَروا صَبْراً مَبْنياً على قاعدة اليقين بآيات الله.

وفي هذا تشجيعٌ لنُخْبَةٍ من أمّة محمّد ﷺ أن يوقنوا بآيات الله، ويَصْبروا حتىٰ يجعلَ الله منهم أَئِمَّةً يهدون الناس ملتزمين بأمْرِ الله في منهاج دعوتهم إلَى سبيل ربّهم، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ولقدْ آتينا موسَىٰ كتابَ التوراة، فلا تكنْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ موسى، وقد حصل هذا ليلة الإسراء والمعراج، وجعلْنَا موسَىٰ والتوارة هُدىً لبني إسرائيل، وجَعَلْنَا من بني إسرائيل أَئِمَّةَ دعوةٍ إلى دين الله يَهْدُونَ بأمْرِ رَبِّهم، لمّا صَبَروا علَىٰ ما أصابهم في سبيل الله، وكانوا بآياتِ ربّهم يُوقنون.

والمعنى: فاصْبرُوا يا أُمَّة مُحَمَّدٍ، وكونوا بآياتِ رَبّكُمْ موقنين، حتى يجعل الله منكم أئمة يَهْدُونَ بأمر ربّهم.

* * *

١٥ ـ ثم وجّه الله رسوله لأن يَصْبِر لحكم ربّه، وأبان له أنّه مَحْفُوظٌ بحفظه، محروسٌ بأعْيُنِه، وأكّدَ لَهُ لُزُومَ استعمال دواء التسبيح بحمد ربّه عند

كلّ حَرَكة قيام يَفْعَله، كقيام من نومٍ أو قعودٍ أو اضطجاع أو توقُّفٍ عن متابعة سير، وآناء اللّيل وهي ساعاته، وعند السَّحَر إذْ تُدْبِرُ النجوم آخِذَةً إلى المغيب، وطلَبَ منه أن يَذَر الكفَرَةَ المعاندين حتَّىٰ يُلاقُوا يومَهُمُ الذي فيه يُصْعَقُون، بموتٍ في آجالهم حَتْفَ أنُوفِهم، أو بِقَتْلٍ بأيدي المؤمنين، أو بِغَيْرِ ذلك، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

أضاف دواء التسبيح في هذا النَّصّ أوقاتاً لم تُذْكَرْ في النّصوص الّتي نزلَتْ قبْلَه، وهي عند حركة كلِّ قيام، وعند السَّحَرِ في وقت إدْبار النجوم.

والتوجِيهُ الذي اشتمل عليه هذا النّص مُوَجَّهٌ أيضاً لقادة الدّعوة من أمّة محمد ﷺ، فعلىٰ حَامِلِ رِسَالَةِ الرسول ﷺ في الدعوة إلى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يَصْبر قَائِماً بِمُهِمَّاتِ رسالته تاركاً أمْرَ المدعوِّين المعاندين لحُكْمِ ربّه، وأن يَذَرَهُمْ حتَّىٰ يُلاقُوا يومهم الَّذي فيه يُصْعَقُون، فيومَ القيامة لا يُغْنِي عنهم كيدُهُمْ شيئاً ولا هُمْ يُنْصَرُون، على أنَّ لَهُمْ دُونَ ذَلِكَ العذابِ عذاباً آخرَ في الحياة الدنيا سيأتيهم، وأكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنّه من عقاب الله لهم.

* * *

١٦ ـ ثمّ أرشد الله رسوله وكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أُمّته أن يصبر صَبْراً جميلاً على الّذين يَرَوْنَ عذاب الله يوم الدّين أمراً بعيداً.

والصَّبْرُ الجميل هو الصَّبْر الذي يكونُ مَصْحُوباً بالتلطُّف وحُسْنِ مقابلة أذى المدعوِّين بالصَّفْح والعَفْوِ والإحسان بالعطاء وبالكلمة الطيّبة، وسيلةً إلى تأليف القلوب.

ففي معرض الحديث عن سؤال سائلٍ بعذاب واقع، للكافرين ليْسَ له دافع، وهذا السائل يَسْتَبْعِدُه إذْ يَرَاه وعيداً مؤجّل التنفيذ إلى يوم القيامة، قال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠﴾.

كالْمُهْل: كالْمَعْدِنِ الْمُذَاب، ويَظْهَر أنّه كالنُّحَاسِ المذاب إذ جاء أنّ السماء تكُونُ يومئذٍ كالوردة الحمراء.

كالْعِهْنِ: كالصوف المنفوش ذي الألوان المختلفة.

حَمِيمٌ حَمِياً: الحميم هو القريب الذي تودُّهُ ويَوَدُّكَ.

* * *

١٧ ـ ثم أشار الله عزّ وجلّ إلى أنّ المشركين تَابَعُوا مطالبَتَهُمُ الرسولَ ﷺ بأنْ يأتيَهُمْ بآية مادِّيَّة من الآياتِ ذواتِ الإعجاز الماديّ الخارق للعادات، ويظهر أنّ طائفة من أصحاب الرسول ﷺ تمنَّوْا لو يجري اللّه لرسوله ما يطالبُ به المشركون من آيات مادّية معجزة، رغبةً منهم في أن يستجيب الْمُصِرُّون على كفرهم لدعوة الرسول ﷺ، فأبانَ الله لهم أنّ حال هؤلاء المطالبين بالآيات المادّية المعجزة متشهُّون، ليسوا على استعدادٍ لأن يؤمنوا ولَوْ جَاءَهُمْ الرسول بما يطلبون، لأنّ قلوبهم مقفلة مطبوعٌ عليها بسبب عنادهم وإصرارهم على الكفر، واتباعِهِم أهواءهم وشهواتِهم من زينة الحياة الدنيا، فهي لا تقبل الحقّ، ولا تقنعها الآيات الخارقات.

فما على الرسول والذين آمنوا معه إلاّ أَنْ يَصْبِرُوا حَتَّىٰ يحقّق الله وعده بنصرهم، وإنزالِ الهزيمة أو القتل بأعدائهم، فأنزل عزّ وجلّ قوله في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿... وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: ولئن جئتَ هؤلاء المعاندين المتعَنِّتين بآيةٍ ماديَّةٍ معجزة على حسب طَلَبِهِمْ ليَقُولَنَّ الّذين كفروا منهم للرَّسُول وللذين آمنوا معه ما أنتم إلاّ مُبْطلون، فما هذه الآية التي جاء بها محمّد إلاَّ عَمَلٌ من أعمال السِّحْر.

إنَّهم لا يُطَالِبُونَ بالآية ليستفيدوا منها الاقتناع بالحقّ، فقد دَمَغَتْهُمُ الحجج البرهانيّة، وكَشَفَتْ لهم وجْهَ الحقّ المشرق، لكنَّهُمْ مُصِرُّون على رفضهم وعَدَمِ استجابتهم لدعوة الحق، غَيْرُ مُسْتَعِدِّين لأن يفتحوا أقفال قلوبهم للإيمان بالحقِّ الدامغ لأفْكَارِهِمْ بالبراهين العقليّة.

إنّ من ظواهر السُّنَنِ الرَّبَّانِيَّة التكوينيّة التي فطر اللَّهُ عليها النفوسَ الإنْسَانِيَّة، أنّ مَنْ رفض الحق اتّباعاً لأهوائه وشهواته ورغباته من الحياة الدنيا، وأَصَرَّ على أن يُقِيم السُّتُرَ والْحُجُبَ بين براهين الحقّ، وبين ما لَدَيْهِ من مراكز تفكيرٍ سليم، ومستقبلاتِ عِلْمٍ صحيح، في أجهزة المعرفة التي وهبه الله إيَّاها، فلا بُدَّ أنْ يَظَلَّ قَلْبُه مُقْفلاً عن دخول واردات الخيرِ إليه، وأَنْ يُطْبَعَ على خَتْم أَقْفَالها، إشعاراً بعدم استعدادها للاستجابة لدعوة الحقّ، وعَدَمِ تقبُّلِهَا لِوَارداتِ المعارف والعلوم التي تُخَالف أهواءَها وشهواتها ورغباتها الدنيوية.

إنهم بِرَغْبَةٍ داخليّة عميقة مُسَيْطِرةٍ على إرادَاتهم لا يُريدُون أن يَعْلَمُوا الحقائق التي تُخَالِفُ هذه الأهواءَ والشهواتِ والرَّغبات الدنيوية، وبِسَبَبِ ذلك أُقْفِلَتْ قُلُوبُهم، وخُتِمَ علَىٰ أقْفالها، وطُبِعَ على أَخْتَام الأقفال، إيذاناً بِأَنَّهَا صَارَتْ غير قابلة للفتح، وكلُّ هذا على سبيل الاستعارة القائمة على تشبيه القلوب بالْبُيُوتِ ذات الأبواب التي تقفل ويوضع الطين على القفل، ثم يضرب الختم على الطين.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النص:

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

أي: فالذين لا يُرِيدُون أن يعلموا بَعْضَ الحقائق لمخالفتها لأهوائهم وشهواتهم ورغبات نفوسهم من الحياة الدنيا، تجري فيهم من سنن الله السببيّة أنْ تُقْفل قُلُوبُهم ويُطْبَعَ على أختام أقفالها، فهي لا تستقبل الحقّ، ولا تستجيب له، ويكونُ حالها كحال من عصىٰ فأدخلَ يده في النّارِ، فإنّ الله عزّ وجلّ يحرقها له، وكحالِ من عصىٰ فشرب الخمر بإرادته، فإنّ الله يُجْري في جسده سُنَّة الإدمان عليها، مع إصابته بالأمراض التي تُسَبِّبُها، وكذلك حال متعاطي المخدّرات بإرَادَتِه.

* * *

١٨ ـ وأخيراً أنزل الله عزّ وجل في أواسط المرحلة المدنية من تاريخ دعوة الرسول ﷺ قوله في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) خطاباً لرسُولِه ويُلْحَقُ به كلُّ حَاملٍ لرسالته من أمته:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

لقد كان هذا النصّ هو النّصَّ الختامِيَّ في توجيه الله ِرسولَه لفضيلة خُلُقِ الصَّبْرِ في مجال نُهُوضِه بالدَّعوة إلى سبيل ربِّه.

وأبان الله فيه أن تعرّض الرسول وحملة رسالته من أمَّته لأنواع الامتحان في الحياة الدنيا من الأحكام المبرَمَةِ في قضاء الله وقدره، والمطلوبُ في هذا المجال الامتحانيّ الصبرُ في القيام بمهمّاتِ الرسالة لغاية تحقُّق حُكْمِ الله في المدعوّين.

وحذّر الله فيه من طاعة أيّ آثمٍ يدعو إلى تَرْكِ مهمات الرسالة أو

الخروج فيها عمّا أمر الله به، أو الاستجابة لمطالبه التي لم يأذن الله بها، كإباحة ما حرّم الله، أو تحريم ما أحلَّ الله، أو الاستهانة ببعض شرائع الإسلام وأحكامه.

وحذّر الله فيه أيضاً من طاعة أيّ كَفُورٍ، وهو الآثم الذي بلغت آثامه مَبْلَغَ الكُفْرِ بما يجب الإيمان به، فهذا الكفور خارج خروجاً كُلِّيّاً عن الإيمان والإسلام.

وأكّدَ الله فيه لزوم استعمال دواء ذكر الله وتسبيحه والسجود له في أوقات من النهار والليل، فقال تعالى:

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

ومن اللَّيل فاسجد له: أي: واجعل لك مواظبة على الصلاة في جوف اللَّيلِ.

* * *

المقولة الرابعة

نماذج من سيرة الرسول ﷺ في الصبر

١ ـ أخرج البخاريُّ وغيره عن خَبَّابٍ رضي الله عنه قال: أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَهُ في ظِلِّ الكَعْبَة، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِر لَنَا؟! أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟! فَجَلَسَ مُحْمَرّاً وَجْهُهُ فقال:

«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ يُؤْتَىٰ بالْمِنْشَارِ فَيُجْعَلُ عَلَىٰ رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، ويُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ما دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَـٰذَا الأَمْرَ، حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَحَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ والذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُون».

٢ ـ وثبت في الصحيحين البخاري ومسلم، عن عُرْوَةَ بن الزبير، أنّ عائشة رضي الله عنها حدَّثَتْهُ أنّها قالت لرسول الله ﷺ: هلْ أتىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْكَ مِنْ يَوْمِ أُحُد؟ قَالَ:

«لَقَدْ لَقِيتُ من قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فنَادَاني فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِـعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا

محَمَّدُ، قَدْ بَعَثَنِي اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، قَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، لِتَأْمُرَنِي مَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ[1]؟» .

فقال النبيُّ ﷺ:

«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً» .

٣ ـ مَا لَقِيَ الرسُولُ ﷺ مِنْ أَذَى شَدِيدٍ حِينَ خَرَجَ إِلَىٰ الطائِفِ يَلْتَمِسُ مِنْ ثَقِيفٍ النُّصْرَةَ والْمَنَعَةَ بِهِمْ مِنْ قومه.

وقد خرج إليهم وحْدَهُ، فلمَّا انْتَهَىٰ إلى الطائفِ، توجَّه إلى سادة ثَقِيفٍ وأَشرافِهِم، فجَلَسَ إليهم فدعاهم إلى الله، وكلَّمَهُمْ فيما جاءهم لَهُ من نُصْرَتِه عَلَىٰ الإسْلَامِ، والْقِيَامِ مَعه على من خالفه من قَوْمِه، فَلَمْ يَسْتَجِيبوا له، فطَلَبَ منهم أَنْ يكْتموا أَمْرَهُ إِذْ يَئِسَ منهم فَلَمْ يفْعَلُوا، بَلْ أَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ يَسُبُّونَه، ويَصيحُونَ به، حَتَّىٰ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، وأَلْجَؤُوه إلى حائطٍ[2] لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَة وشيبةَ بنِ رَبيعة وهما فيه لا يَنْصُرانِه، ورَجع عنه من كان يَتْبَعُهُ من سُفَهَاء ثقيف.

فلمَّا اطْمَأَنَّ قَالَ يَدْعُو رَبَّه:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَهَوَانِي عَلَىٰ النَّاس يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وأَنْتَ رَبِّـي، إِلَىٰ مَنْ تَكِلُنِي، إِلَىٰ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إِلَى عَدُوّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبالِي، ولَكِنْ عَافِيَتُكَ هِيَ أَوْسَعُ لي، أَعُوذُ بِنُور وَجْهِكَ الَّذِي أَشرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيا والآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِـي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّىٰ تَرْضَى، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ» .

---

(١) الأخشبان: جَبَلاَ مَكَّة.

(٢) حائط: أي: بستان.

الفصل الثاني

وجوب تَحَلّي حاملِ الرسالة بصفة التجرد من المصالح الشخصيّة لدى من يُوجّه لهم رسالته

وفيه ثلاث مقولات:

المقولة الأولى: نظرةٌ تحليليّة.

المقولة الثانية: البيانات القرآنية حول تَجْرِيد الرّسُل من المصالح الشخصيّة الدنيوية لدى أقوامهم، ويُلْحَقُ بهم سَائِر حَمَلَةِ رسالاتهم.

المقولة الثالثة: مَعَايش حَمَلةِ الرسالة المتفرغين لها.

المقولة الأولى

نظرةٌ تحليليّة

● من أُولَيَاتِ ما يُطْلَب من حامل رسالة الدّعوة إلى سبيل ربّه، والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنْ يكون متجرّداً من المصالح الشخصيّة لدى من يُوَجِّهُ لهم رسالته، كأجْرٍ ماليٍّ يَطْلُبُه منهم على ما يقوم به من أداء رسالته، أو زواجٍ هو راغِبٌ فيه، أو زعَامةٍ، أو جَاهٍ، أو رياسة أو سلطانٍ أو مُلْكٍ، أو رغبةٍ في الاستعلاء على الأتباع والاستنصار بهم للاستعلاء في الأرض على الناس، أو أيّ شيءٍ من مطالب الحياة الدنيا يرجو الوصول إليه، والظّفَر به، والاستمتاع بلذائذه وطيّباته الجسديّة أو النفسيّة.

● وإنّ الدعوة إلى سبيل الله عزّ وجلّ دعوةٌ إلى تبديل المعتقدات السّابقات الّتي رسَخَت في أعماق المدعوّين بالتقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد، وبالممارسات العملية الطويلة الأمد لمقتضَيَاتها من السلوك النفسي والجسديّ الظاهر، حتّى صارت بمثابة جُزْءٍ من كيان نفس كلِّ واحدٍ منهم، فهم يُدافعون عنها كما يُدافعون عن ذواتهم، ويَرْفُضُون تَبْديلها كما يرفضون تبديل ذواتهم.

ورسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتضمّن المطالبةَ بالكفّ عن شهوات النفوس ومَحَابِّها، والقيامَ بما يَشُقّ عليها وتحمُّل ما تكره.

ومتىٰ أَحَسَّ المدعوُّون أو الّذين يُوجَّه لهم الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر أَنَّ حامل الرسالة ومُبَلِّغَها ذو مصلحة شخصيّةٍ لدَيْهم من قيامِه بوظائفِ رسالته ـ ولو بَعْدَ حينٍ ـ فإنّهم يَرْفُضُون مَا يُوجِّههم له بتلقائيّة غير واعيةٍ، وغَيْرِ مقترنةٍ بمناقشة فكرية ولا محاكمة لما يَنْصَحُهم به، ويصدّون عنه مهما كانت الأدلة التي يُقَدّمها لهم صحيحةً سليمة، وواضحةً وُضُوحَ الشَّمْس في رائعة النهار.

● وإنّ اقتران دعْوَةِ الداعي إلى سبيل ربه بمصلحة شخصيّة يسْعَىٰ للحصول عليها لدى من يدعوهم، وكذلك أيضاً رسالة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، يُقِيمُ عقبةً صُلْبَةً كثيفةً بينه وبَيْن من يُوجِّه لهم رسالته.

وهذه العقبة الصُّلبة الكثيفة تَحْجُبُ عن قُلوبهم ونفوسهم ما يُوَجّهه لهم من بيان، ولو كان حقّاً جَليّاً، وما ينصحهم به ولو كان فيه خيرُهُمْ وهدايَتُهم وصلاحُ دُنْياهم وأُخْراهم، وتحجب عنهم ما يأمرهم به من معروف وما ينهاهم عنه من منكر.

ولهذا نَجِدُ الدّعاة السّاعين إلى مصالح شخصيّة دنيويّةٍ من خلال دعوتهم لدَىٰ من يدعُونَهم إلى سبيل ربّهم، ذوي آثارٍ ضعيفةٍ جدّاً، وذلك لأنّ المدعُوِّين يُلاحظون أنَّ هؤلاء الدّعاة غَيْرُ مخلصين في دعَواتهم، ويعتقدون أنَّهم يريدون تحقيقَ مصالح شخصيّة دنيوية من وراء دعواتهم التي يقومون بها.

ونظير حال الدعاة حال الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، كلّما كان قيامهم برسالاتهم مقترناً بتحقيق مصالح شخصيّة دنيوية لدى من يوجّهون لهم أوامرهم ونواهيهم ونصائحهم، ولو زيَّنوا سعيهم لهذه المصالح الشخصيّة الدنيوية بأنّها حقوق لهم على المسلمين، مُقَابلَ تفرُّغِهِمْ لتعلّم علوم الدين، وقيامهم بواجبات تعليم المسلمين أُمُور دينهم، وصيانة المجتمع

الإسلاميّ من الانْحِراف عن صراط الله، وانتشار الفساد فيه، إذ يُؤدُّون وظيفةَ تذكير أفراده وجماعاته بواجباتهم الدّينيّة، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

فالنفوس البشريّة قلّما تثق بنصائح ذوي المصالح الشخصيّة الذين ترتبط مصالحهم هذه بتوجيه نصائحهم، ما لم يكونوا أساساً مُسْتَشارين بالأجر لتقديم هذه النّصائح، كما يستشار الطبيب بالأجر ليُقَدِّم للمريض مشورَتَه الصحيّة أو الدوائية.

على أنّ إرادَةَ حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تضْعُفُ عن القيام بأداءِ رسالته على الوجه المطلوب منه في الدين، متى كانت حاجاتُ معيشته أو مصالحُ دنياه مرتبطةً بمن يؤدّي فيهم رسالة ربّه، إنّه قلّما يَجِدُ الجرأة الكافية لنُصْحِهم بما يُخَالف أهواء نفوسهم، أو لأمرهم بالمعروف الذي لا يراهم مستعدّين لأدائه، أو لنهيهم عن منكر لا يَراهُمْ مستعدين لاجتنابه أو لتركه، ويخشَىٰ إذا وجَّه لهم نصائِحَهُ وأوامره ونواهيه وأَظْهَر استنكارَه لأعمالهم أن يُغْضبهم فيمنعوا عنه حاجات حياته، أو يحجُبُوا عنه مَصَالح دنياه التي يحققونها له بأنفسهم أو بسلطانهم.

وكم سقط حاملو رسالة الدعوة إلى دين الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في أَوْحال مُدَاراةِ فمجاراةِ الذين ارتبطَتْ مصالحُ دنياهُمْ بهم، من الذين يؤدّون رسالاتهم بينهم، فأَغْضَوْا عن مُوبقاتِهِمْ وكبائِرِ معاصيهم، وربّما شاركُوهُمْ فيها، ورُبَّما تجرّأ بعضُهُمْ على الفتوى بغير ما أنزل الله استرضاءً وتَزَلُّفاً لسُلْطانٍ فاسقٍ أو جائرٍ أو كافرٍ ليحتفظ لنفسه بمصالحِ دنياه التي تتحقّق له عن طريقه، أو ليستزيد منها.

● وإنّ مَنْ تُوَجَّه له الدعوة إلى سبيل ربّه، أو يُوجَّهُ له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متىٰ استقَرَّ في نفسه اتّهام حَامِلِ الرسالة بأنه ذو مصلحة شخصيّة لدى من يُوجِّه له مضمونَ رسالته، تولَّدتْ في نفسه غالباً عقبةٌ صلبةٌ

كثيفة من ردود أفعالها التِّلْقائية رفْضُ النُّصْح الذي يوجّهه له، دون تفكُّرٍ في صحَّتِه أو عَدَمِ صحته، ودُون بَحْثٍ في عناصره، ولو كان حقّاً وخيراً وجالباً لنفع عظيم.

لكنَّ هذه العقبة الصلبة تتحطّم وتَصِير كثيباً مهيلاً حينما يُدْرِكُ من تُوجَّه له الرسالَةُ أنّ حامل الرسالة مُخْلِصٌ في نُصْحِه، ليْسَ له مصلحةٌ خاصَّةٌ لدى من يُوجِّه لهم نصائحه أو أوامره الّتي يأمرهم فيها بالمعروف، ونواهيَهُ التي ينهاهم فيها عن المنكر، وأنّ الباعث له رضوانُ الله عزّ وجلّ، وإرادة الخير للناس بعاطفة الرحمة بهم، والشفقة عليهم، والحرص على نجاتهم من شقاءِ الدنيا وعذابِ الآخرة، وعلى ظفرهم بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

● ومن أجل تبرئة الرُسُل عليهم الصلاة والسلام من أن يكونوا عُرْضةً للاتّهام بالمصالح الشخصيّة لدى من يدعونهم إلى دين الله الحق، حتّى لا يكون هذا الاتّهَامُ ذريعةً لرفض دعوتهم إلى سبيل ربهم، كلَّف الله رسُله عليهم الصلاة والسلام أَنْ يتجرّدوا من المصالح الشخصيّة الدنيويّة لدى أقوامهم، وأنْ يُعْلِنُوا إعلاناً صريحاً واضحاً بين الناس أنهم لا يسألون أقوامَهُمْ على ما يقومون به من تبليغ رسَالاَتِ ربهم أجراً ما، قليلاً أو كثيراً، مادّيّاً أو معنويّاً.

ويُلْحق بالرُسُل في هذا كلّ الدعاة إلى الله من الذين اتّبعوهم بإحسان، وكلُّ الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والناصحين المرشدين.

● فَمِنْ أَخْطَرِ آفَات الدعوة إلى سبيل الله، والأمْر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وسَائِرِ الأعمال الإسلاميّة، استخدامُهَا وسيلةً للحصول على الأموال، أو الْجاهِ والسُلْطَان والْمَناصِب الرفيعة، أو غيرِ هذه الرغائب من مطالب الحياة الدنيا ولذّاتها وشهواتها، كحُبّ السيطرة على الأتباع والأنصار والطلاب والمريدين والمحبِّين، وتَسْخِيرهم لمطالِب النَّفْسِ وإرضاء شهوةِ الْعَظَمة والاستعلاء في الأرض.

المقـولة الثانيـة

البيانـات القرآنيـة
حول تجريد الرّسل من المصالح الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم
ويلحق بالرسل سائر حَمَلَةِ رِسَالاتهم

أظهر استقراء ما جاء في القرآن المجيد حول تجريد الله رُسُله وتجرُّدِهم عليهم السلام من المصالح الشخصيّة الدنيويّة لدى من يُوجِّهُون لهم رسالات ربّهم اثني عشر نصّاً، نزلَتْ جميعها خلال المرحلة المكيّة لدعوة الرسول محمد ﷺ، بدءاً مِنْ أوائلها، وهو ما نَـزَلَ منها في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول) ثم في مناسبات ملائماتٍ أثْنَاء هذه المرحلة، وحتى قبيل أواخرها، وهو ما نزل منها في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول).

ويحْسُن بنا أن نتدبّر هذه النصوص وفْقَ مراحل تنزيلها، لنُدْرِك مبلَغَ الاهتمام في سياسة الدَّعْوَة إلى سبيل الله، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر بوجوب تجرّد الدّاعي إلى سبيل ربّه من كلّ مصْلَحَةٍ شخصيّة دنيوية لدى من يدعوهم، لئلا يكُون الاتهام بالمصلحة الشخصيّة عَقَبةً صادَّةً لنفوس الناس عن الاستجابة لبيانات الدَّعوة، والاهتداء بأنوار الهداية الربّانية، ولئلا يتخذوا من مصالح رسُلِ الله لديهم ذرائع يتذرّعون بها لرَفْضِ دعواتهم، ومعاذيرَ يعتذرون بها لعدم استجابتهم لهم فيما دعوهم إليه من حقٍّ وخَيْرٍ وهُدىً.

وفيما يلي تدبُّرٌ موجَزٌ لهذه النصوص:

النـصّ الأوّل:

في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول) عرض الله عزّ وجلّ على طريقة الاستفهام الإنكاري طائفة من الاحتمالات الّتي لو وُجد واحدٌ منها في الواقع لكان لمشركي مكّة عُذْرٌ ما في عَدم استجابتهم لدعوة الرسول محمّد ﷺ، لكنّ أيّ واحدٍ منها غير موجودٍ في الواقع، فلا عُذْرَ لهم في عَدَمِ استجابتهم لدعوته التي هي دعوة إلى الحق والخير وفضائل الأخلاق ومحاسن السلوك، ومن هذه الاحتمالات كون الرسول محمد ﷺ يسألهم أجراً على ما يقوم به من مجاهدة في دعوتهم، ونصحهم، وتعليمهم، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فقال الله تعالى فيها خطاباً لرسوله في تعريضٍ باستفهامٍ إنكارِيٍّ عليهم إذْ لم يستجيبوا لدعوته:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً: أي: بل أتسألهم أجراً ما من الأجور المادّية أو المعنويّة؟!!.

فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ: أي: فهم مُثْقَلُونَ بتحميلهم ثِقَلِ أجْرٍ هو عليهم غُرْمٌ، أي: خسارةٌ. **المغْرَم، والْغَرَامَةُ**: الخسارة في الأموال أو الأنفس أو غيرهما ممّا للإنسان فيه حظٌّ ما كالأَهْل والولد والأنصار.

فكان هذا النصّ أوّل ما أُنْزِل في هذا الموضوع، وقد جاء بأسلوب التعجيب من إعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ وهي دعوة حقٍّ وخير، مع أنّه لم يسألهم أجراً على ما يُقدِّم لهم من نصح وهداية إلى سبيل الله، فهو ليس له مصلحة شخصيّة من هذا عندهم مادّية ولا معنوية، وفي هذا الأسلوب الاستفهاميّ التعجيبي من إعراضهم إنكارٌ عليهم.

* * *

النـصّ الثانـي:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) توجيهاً للرسول محمد ﷺ أَمَرَهُ فيه بأن يقول لقومه: ما أسألكم عليه من أَجْر، مُعْلِناً لهم هذا المقال، لطمأنتهم بأنّه لا يبتغي لنفسه مصالحَ دنيويّةً لدى الذين يستجيبون لدعوته، ولقطع تعلُّلاتهم بأنّه طالبُ مصالح دنيوية لديهم، من مالٍ، أو زعامة أو مُلْكٍ، أو غير ذلك، وليرُدَّ على عروضهم التي عرضوها عليه من أمور الدنيا بشرط أن يترك دعوته، فقال الله تعالى فيها لرسوله:

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ: أي: قُلْ يا محمّد ما أَسْأَلُكُمُ على دعوتي لكم ومجاهدتي في نصحكم أيَّ أجْرٍ مادّيٍّ أو معنويٍّ مهما كان قليلاً، إذْ أَجْري آخذه عند ربّـي الّذي أَرْسَلَنِي.

وهذا التوجيه يُطَالَبُ به كلُّ الدعاة إلى سبيل الله من أمّة الرسول ﷺ، إذْ هو ليس من خصوصيّات الرسول، بل هو من مطلوبات الدّعوة إلى دين الله.

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكلِّفِينَ: أي: وما أنا من الّذين يتصَنَّعُون الأمور فيما تَعْهَدُون من شأني، حتَّىٰ أكون عندكم مُتَّهماً بالتقوّلِ على الله، وباختراع ما لم يُنَزِّل الله عليّ، فخلُقي عندكم معروف، وحالي لديكم غير خافٍ، فقد لبثت فيكم مدّةً علمتم بها صدقي ونزاهتي وأمانتي وحرصي على الالتزام بالحقّ وعدم مجافاة فضائل الأخلاق ومحاسن السلوك.

إِنْ هُوَ إلاّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين: أي: ما الذي أُبلّغُكُمْ إيّاه وأدْعوكم إلى اتّباعه هو لكم وحدكم من دون سائر الناس، إنّما هو بلاغ للعالمين كُلِّ العالمين، وعلَيْهِمْ أن يَعُوهُ ويتدبّروا معانيَه، وأن يكونَ لهم ذِكْراً دواماً، يذكُرُونه عند كلّ مناسبة داعيةٍ ليَعْمَلُوا بما فيه من أوامر ونواهي ووصايا، وليتفَهَّموا ما اشتمل عليه من علوم.

وبما أنّه ذكر لكلِّ الناس فليس من المناسب أن تَشُكُّوا في غاية رسولكم، وتتهموه بأنّ له مصلحة خاصّة لنفسه فيما يدعوكم إليه.

* * *

النـصّ الثالـث:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) تأكيداً لما جاء في سورة (صّ) مع إضافة استثناء من شاء من المؤمنين أن يتخذ إلى مرضاة ربّه سبيلاً، فيقدِّمَ هديّة أو خدمة أو مصلحةً دنيويّة للرسول ﷺ، لا على أنّها أجْرٌ على ما يقومُ به من وظائف رسالته، بل يريد بها التقرّب إلى الله بما يحبُّ من عبده من وجوه العطاء المقصودِ به وَجْهُه تعالى، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧ ﴾.

قُلْ: مَا أسألُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ: أي: قُلْ يا مُحمَّدُ مَا أسْأَلُكُمْ أيُّها المؤمنون على تعليمي ونُصْحِي لكم وحِرْصِي عليكم ورحمتي بكم ومجاهدتي من أجلكم، من أجْرٍ مادّي أو معنويٍّ مهما كان قليلاً، فأجْرِي على ربّـي الّذي أرسلني وحَمَّلني وظائفَ رسالتي ومُهِمّاتِ قيادتي لكم.

ويُلْحَقُ بالرسول كلُّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمته.

إلاّ من شاء أن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً: أي: ولا أقبل منكم شيئاً من أمور الدنيا إلاّ شيئاً أراد مقدِّمه لي أَنْ يتخذ به إلى مرضاة ربّه سبيلاً، فهو يبذله لوجه الله وابتغاءَ مرضاته، لا على سبيل أنّه أجْرٌ يَبْذُله لي، فأجري على رَبّـي، وثوابُكُم على ما تقدّمون عند ربكم، أو نعتبر «إلاّ» بمنزلة «لَكِنْ» حرفَ استدراك كشأن كلّ ما يُقَالُ فيه: استثناء منقطع، والمعنى: لَكِنْ من شَاء أن يتّخِذَ إلى مرضاة رَبّه سَبيلاً فللرّسول أن يَقْبلَ منه ما يقدّم له من إكرام أو خِدْمة.

النـص الرابـع:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) ما يفيد أنّ سياسة تجريد الداعي إلى سبيل الله من المصالح الشخصيّة الدنيوية لدى المدعوّين إحدى المبادىء الرئيسة التي ألزم الله عزّ وجلّ بها رُسُلَه السابقين، فكلٌّ من نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيب عليهم السلام قد قال لقومه:

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

وقد جاء بيان هذا في الآيات (١٠٩ ـ ١٢٧ ـ ١٤٥ ـ ١٦٤ ـ ١٨٠) من السورة.

فعلىٰ الدّعاة إلى سبيل الله أن يقتدوا في هذا برسُلِ الله عليهم السلام.

* * *

النـصّ الخامـس:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) بيان مقالَةٍ قالها نُوحٌ عليه السلام لقومه بعد أن لَبِثَ فيهم زمناً يدعوهم إلى سبيل الله، فأوضح لهم فيها أنّه ما سألهم من أجرٍ ماديٍّ أو معنويّ حتى يكون هذا الطَّلَبُ ذريعةً لتوليهم عن دعوته وعدم استجابتهم لها، وأوضح لهم فيها أنّه بالنسبة إلى التطبيقات الإسلامية التي هي ظواهر سلوكيّة للإيمان بالقاعدة الإيمانية في دين الله، أحَدُ المطبقين لها، فقد أمره الله بأن يكون واحداً من المسلمين المطَبِّقِين لأحكام الإسلام في سلوكه الباطِنِ والظاهر، فقال الله عزّ وجلّ فيها حكاية لما قاله نوح عليه السلام لقومه:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

فإِنْ تَوَلَّيْتُمْ: أي: فَإِنْ أَدْبَرْتُمْ مُبْتَعِدِين عن الاسْتِجابَةِ لدعوتي.

فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ: أي: فما كان مِنّي مَا يُمْكن أن تتذرَّعوا به لرفض دعوتي، لأنّني مَا سبَقَ أَنْ سألتكم لنفسي من أجْرٍ مادّيٍّ أو معنويّ، بل كنت مُجَرّدَ مبلّغٍ إيَاكُمْ رسالات رَبّـي، وداعٍ لكم إلى الحقّ والْهُدى وما فيه نجاتكم وسعادتكم.

إنْ أَجْرِيَ إلاّ عَلَىٰ اللَّهِ: أي: ما أجري على قيامي بوظائف رسالتي فيكم إلاّ على الله الذي أرسلني لأبلّغكم رسالاته، وأدعوكم إلى نجاتكم وسعادتكم، وأُبيّن لكم الحقّ والخير والهدى وصراط الله المستقيم.

وأُمِرْتُ أَنْ أكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِين: أي: وحالي بالنسبة إلى مضمون رسالتي كحال واحد من المسلمين المؤمنين، مُطَالَبٌ بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه، وليس له إعفاءات خاصة مراعاةً لكوني حامل رسالة ربِّـي إليكم.

* * *

النـصّ السـادس:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بيانَ مقالةٍ ثالثة قالها نوح عليه السلام لقومه أوْضَحَ لهم فيها أنّه لا يَسْأَلَهم على تبليغهم رسالات ربّهم، وتعليمهم أُمُورَ دينهم، ومتابعة تذكيرهـم .. مَالاً، فخصّص نوع الأجر المالي، إذْ رآهم بُخَلاَء ذوي حرْصٍ على أموالهم يحذرون إذا آمنوا به واتّبعوه أن يُحَمِّلَهُمْ أعباءً ماليّةً لنفسه، فقال الله تعالى فيها حكاية لهذه المقالة التي قالها نوح عليه السلام لقومه:

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٩﴾.

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو ربّهم: دلّ هذا علَىٰ أنّ الملأ الذين كفروا من قومه طالبوهُ بأن يَطْرُدَ عنه من آمن به من طبقة الفقراء الضعفاء المنبوذين، إذْ يُسَمّونَهُم أراذلهم، فأجابهم بالرّفض، وأبان لهم أنّهم بشَرٌ

مثلهم، مطالبون بالإيمان والإسلام، وسَيُلاقونَ رَبَّهُمْ ليحاسِبَهُمْ ويجازيهم على ما قدّموا في الحياة الدّنيا من إيمانٍ وعمل، فهو مرسَلٌ إليهم كما هو مُرسَلٌ إلى غيرهم من مختلف طبقات الناس.

ولكنّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ: أي: وعلى طول العهد بكم، وكثرة تعليمي وتذكيري إيّاكم، ومُحَاجَّتي لكم بالأدلة البرهانية الْمُقْنِعَة، ما أراكم تتعلّمون ولا تَقْتَنِعُون ولا تستجيبون، ولكنّي أراكم تُتَابِعُونَ إِضافَةَ جَهْلٍ إِلَىٰ جهلٍ، بإضافة مَفْهُومات باطلات جَدِيدَات، إلى مفهومات باطلات سابقات، هذا ما دلّ عليه الفعل المضارع: «تَجْهَلُون» الذي يَدُلُّ على التكرار والتجديد.

* * *

النـصّ السابـع:

وفي سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) أيضاً أنزل الله عزّ وجلّ بيان مقالة قالها هود عليه السلام لقومه، فقال تعالى فيها حكاية لمقالته لقومه:

﴿.. يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

وهذه ثاني مقالة قالها هود عليه السلام لقومه عادٍ حول هذا الموضوع، إلاّ أنّه أضاف في هذه المقالة قولَهُ لَهُمْ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مستنكراً عدم عقلهم عقلاً عِلْميّاً، وعَقْلاً إراديّاً، وأضافَ أيضاً بيانَ أنَّ أجْرَهُ على الذي فَطَرَهُ، وهو الله الذي أرْسَلَهُ.

إنْ أنْتُمْ إلاّ مُفْتَرُون: أي: **ما** أَنْتُمْ إلاّ تَفْتَرونَ الكذب على الحقيقة، إذْ تَتّخِذُون مع الله آلهةً تَعْبُدونها من دونه.

إنْ أَجْرِيَ إلاّ على الّذِي فَطَرَنِي: أيْ: ما أَجْري على ما أقوم به من تَبْلِيغِكُم رسالات ربّـي، ودعوتكم ومجاهدتكم هادياً معلماً ناصحاً، إلاّ على الذي أوجدني من العدم وخلقني.

أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟!!: استفهام إنكاريٌّ وجَّهه هود عليه السلام لقومه عاد، لأنّهم لم يعقلوا الحقائق بأدوات التفكير التي لديهم عقلاً علميّاً، ولم يعقلوا نفوسهم عن اتّباع أهوائهم وشهواتهم عقلاً إراديّاً.

إنّه عَلَيْه السلام قد أنكر عليهم إنكاراً بشدّة كَوْنَهم لا يعقلون، إذْ لا يتخذون ما يلزم حتى يعقلوا ما يُبَيِّن لهم، وحتى يعقلوا نُفُوسَهُم عن اتّباع أهوائهم وشهواتهم التي تَقُودُهم إلى شقائهم.

* * *

النـصّ الثامـن:

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ شَهِدَ لَهُ فيه بأنّه قد التزم بوَصِيَّة الله له الّتِي أوصاه فيها أن لا يسألَ قومه أجراً على ما يقوم به من أجْلِ نجاتهم وسعادتهم بهدايتهم إلى الحقّ والخير والفضيلة، وأبان له فيه أن أكْثَر النَّاسِ لَنْ يختاروا لأنفسهم سبيل الإيمان ولو حَرَص على إيمانهم رحمةً بهم، ورجاء نجاتِهم وسعادتهم، فَعَلَيْهِ أن يَقْصُر مطامعه على هذا الواقع مع مُجَاهَدَتِه جميع المدعوّين إلى سبيل ربّه، وعليه أن لاَ يُعَلِّقَ مطامعه بإيمان الناس جميعاً، أو إيمان أكثرهم أو إيمان نصفهم، إذْ أكثرهم سوف يختارون لأنفسهم سبيل الكفر الذي يجدون فيه تحقيق أهوائهم وشهواتهم ورغباتهم من زينة الحياة الدنيا، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ ﴾.

فعلَىٰ الدُّعَاةِ إلى دِينِ اللَّهِ أَنْ يذكروا دواماً هذه الحقيقة من حقائق المجتمع الْبَشَرِيّ، وأنّ لا يُعَلِّقوا مطامعهم بأن يتحوّل أكثر الناس ولا نصفهم إلى الإيمان والْعَمَلِ الصالح، وعَلَيْهِمْ أن يُلاَحِظُوا دواماً أنّ الإيمان عَمَلٌ

إراديّ اختياري مَرْكَزُهُ الرئيسيُّ الْقَلْبُ، ولَيْسَ جبريّاً، وأنّ وظيفة الداعي إلى سبيل ربّه إنَّما هي التَّبْليغُ والتعليم والتذكير والإقناع والتبْشِير والإنْذَار والمجاهَدَةُ في كلّ ذلك.

فمن اسْتَجاب فقد اختارَ لنفسه سَبِيلَ النجاة والسعادة الأبديّة، ومن أَبَىٰ فقد آثَر متاعَ الحياة الدنيا القصيرَ الفانيَ على النعيم الخالد، جاحداً الدار الآخرة أو مُعْرِضاً عن التفكير فيها، والتبصُّر بأدِلّتِها، وأَدِلَّة الإيمان بالله وصفاته.

* * *

النـصّ التاسـع:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بياناً أمر فيه رسوله بأنّ يَهْتَدِي بهَدْيِ الرُّسُلِ السابقين، في التجرّد من المصالح الشخصيّة لدى من يدعوهم، والمقصودُ الدُّعَاةُ من أمّته، فقد سبق أن شهد الله له بأنّه لم يَسْأَلْ قومه على دعوته ومُجَاهَدَتِهِ من أجلهم أجراً، فقال الله عزّ وجلّ مشيراً إلى الرسل السابقين:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

فأضاف هذا النّصّ بيان أَنّ جميع الرسل السابقين لمحمد ﷺ قد كان من هَدْيِهم التجرّدُ من المصالح الشخصيّة الدنيويّة لدى أقوامهم، وأنْ يَقُولَ كلُّ واحد منهم لقومه: لا أسألُكُمْ عليه أجراً.

وإذْ قد شهد الله لرسوله محمد في النصّ السابق الذي جاء في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) بأنّه مُتَحقّقٌ بمضمون هذا التكليف، فلا بُدَّ أن نَفْهَم أنّ المقصودَ بهذا التوجيه الذي في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) هم الدّعاة إلى سبيل الله من أُمَّةِ محمّد ﷺ، لإعْلاَمهم بأنّ جميع الرُّسُلِ

السابقين قد كان هذا من هَدْيِهِم، وأَنَّهُمْ مكلّفون تبعاً لتكليف الرسول محمد ﷺ أَنْ يَتَجَرَّدوا في دعوتهم إلى دين الله من كلّ مصلحة شخصيّة لدَىٰ من يدعونهم.

فعلى الدعاة إذا كانوا صادقين في دعوتهم أن لا يسألوا النّاس أجراً على دعوتهم إلى سبيل الله، وأن لا تتعلّق مطامعهم بمنافعَ ماديّةٍ دنيويّة يَنَالُونَهَا من مُجَاهَدَتِهِم في تبليغ الناس دِينَ الله، وإِقْنَاعِهِمْ به، وتعليمهم شرائِعَهُ وأَحكامه، وتذكيرهم به على مقدار حاجات التذكير.

فمن تعلَّقَتْ مطامِعُه بأجورٍ ومنافعَ ومصالح دنيويّة من دعوته لم يكن مخلصاً لله فيها، وكان من طُلَّاب الدّنيا الذي يتخذون الدّين سُلَّماً للوصول إلى مصالحهم الدنيويّة.

* * *

النـص العاشـر:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) بياناً أرشده فيه إلى محاجّة قومه بأنه ليس صاحب مصلحة شخصيّة عندهم، إذْ يدعوهم إلى دين الله، فهو لم يطلب منهم أيّ أجرٍ على دعوته وتبليغه وتعليمه ونُصْحِه، فقال الله تعالى فيها خطاباً لرسوله:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾.

مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُو لَكُمْ: أي: إن كنْتُم تزعمون أَنِّي أريد من دعوتي أجراً لنفسي عندكم من مطالب الحياة الدّنيا، أو تزعمون أنّي سألتكم أجراً على ما أَقُوم به من مُجَاهَدَةٍ لنجاتكم وسعادتكم فاذكروه، حتَّىٰ أُبيِّن لكم أنه لكم، وليس لي منه شيء، وإنّ وجدتموه عندي فخُذُوه فهو لكم، وهذا بمثابة التَّعْجيز الذي يتَضَمَّنُ نَفْيَ وجود الأجرِ بأَبلغ صورة.

وهذا نظير قولِ مُتَّهَمٍ بحيازة مالٍ لغيره في داره: فتشوا داري، فإن وجدتم فيها شيْئاً ممّا تزعمون أنه موجود فيها فَخُذُوه، يقول هذا على سبيل التحدِّي لهم، إذْ يعلَمُ أنّه لا يوجد في داره شَيْءٌ ممّا يزعمون.

أو: ما سألتكُمْ من إيمان وعمل صالح يحقّق أجراً عند الله فهو لكم، وليس لي منه شيء، أمّا أجري على مجاهدتي من أجلكم فعلَىٰ الله، وليس عليكم منه شيء، وأجري عند رَبّي لا ينقص شيئاً من أُجُورِ الذين يؤمنون ويعملون الصالحات استجابة لدعوتي.

وهو على كلّ شيء شهيد: أي: والله عزّ وجلّ شهيد حاضرٌ يعلم حالي وحالكم لا تخفىٰ عليه خافِيَةٌ من أُمورنا، وهو جلّ وعلا يَعْلَمُ أَنّي ما سألتكم أجراً، ولا أُحقِّقُ لنفسي لدى الذين آمنوا بي أجْراً، إنْ أجري إلاّ على الله.

شهيد: أي: حَاضرٌ عليم مُدْرِكٌ إدراكاً تامّاً كلّ شيء.

* * *

النص الحادي عشر:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) على رسولِه قَولَهُ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ... ﴿٢٣﴾﴾.

فأرشد الله عزّ وجلّ بهذا البيان رسوله إلى أن يستثني من عموم ما يُتوَهَّمُ أنّه أجْرٌ خُصوصَ المودّة في القُرْبَىٰ.

هذا نص مدنيّ التنزيل أضيف إلى سورة مكية للإشعار بأن المعنيّ به مشركو مكة أهلُ قرابة الرسول الذين عادوه وأخرجوه من بَلَدِه وقاتلوه، فيعتبر ترتيبه الفكري مع ترتيب السورة التي ضُمَّ إليها.

ويظهر أن الله أرشد رسوله إلى أن يقول هذا القول لكبراء مشركي مكة

بعد أن عَادَوْه أشد العداء وأخرجوه وقاتلوه، فهو بهذا يستعطفهم إلى أن يكفُّوا عن معاداته ومقاتلته.

والمعنى: كافئوني على نُصْحِي، ومجاهدتي من أجل نجاتكم وسعادتكم، وحسن معاملتي لكم، وصَبْرِي على أذاكم، بالمودّة الّتي تقتضيها قرابتي فيكم، إذْ أَنْتُم أهلي وعشيرتي وأَهْلُ قرابتي، فإنْ كنتم تعتبرون أنّ معاملتكم لي بالمودّة التي تقتضيها قرابتي لكم أجراً، فمن محاسن الشّيم أن تكافئوني بهذه المودَّة، مع أنّها في الحقيقة ليست من قبيل الأجر على دعوتي ومجاهدتي فيها، بل هي إحدى مقتضَيَاتِ القرابة بين ذوي القربىٰ، أَفَيَليقُ بمحاسن الشيم التي تؤمنون بها أن تُعَادُوني، وتخرجوني من بلدي وتقاتلوني وأنتم أهْلُ قرابتي.

إنّني حريص على نجاتكم وسعادتكم رحمةً بكم بدافع إنسانيّ عامّ، ولأنَّكُمْ عشيرتي وأهل قرابتي، فلا أقلّ منْ أن تقابلوني بالمودّة في القربَىٰ، فتكُفُّوا عَنّي أذاكم، وتتركوني أسْعَىٰ في نشر دعوتي بين الناس، فإذا بلَغْتُ مأمولي كان هذا خيراً لكم وعِزّاً، وإلاّ فَحَسْبُكُمْ أنّكم حفظتم المودة في القُرْبَىٰ، ولَمْ تُفْسِدُوها بإيذائي ومُقَاتلتي واضطهاد من آمن بـي.

هذا المعنى هو مضمون ما رُوي عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه في تفسيره لهذه الآية.

وهذا المعنى هو المعنى الأرجح لهذا النصّ فيما ظهر لي، لأنَّهُ نصٌّ مدنيٌّ أُضِيفَ إلى سُورَة مكّيّة، فما تَضَمَّنه إرشادٌ للرسول ﷺ إلى أَنْ يستعطف مَلأَ قومه المشركين في مكة، باستثارة عاطفة القرابة التي بَيْنَه وبينهم، ليؤمنوا به، أَوْ ليكفّوا أذاهم عنه، وحَرْبَهُم لَهُ، واضطهادَهم للذين آمنوا به. ولا يبدو منه فيما أرى ـ والله أعلم ـ تكليفُ الرّسول أن يقول هذا القول للذين آمنوا به، حتى يُحْمَل على مَودّة قرابته من أهل بيته، فموقع هذا النَّصِّ الفكري هو

ما جاء في سورة (الشورىٰ) وتأخّر إنزاله ليكونَ عرضه على مشركي مكة في الوقت الذي وصل فيه الرسول إلى بناء الدَّوْلة الإسلامية، ذاتِ الأرض المحصنة، والجيشِ ذي البأس.

* * *

النصّ الثاني عشر:

وأخيراً أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله حول هذا الموضوع في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) قوله تعالى خطاباً لرسوله:

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

فختم الله عزّ وجلّ عِقْدَ هذا الموضوع مع اقتراب انتهاء المرحلة المكيّة من حياة دَعْوَةِ الرسول ﷺ بمثل العبارة التي بدأ بها هذا الموضوع في أوائل المرحلة المكيّة في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول).

وكان هذا الختام بمثابة القُفْل الّذي انْطَبق على نظيره الذي كان به البَدْءُ، واكتمل بجملة هذه النصوص عِقْدُ الموضوع من كلِّ أَطْرافه، وظهرت حركيَّةُ التَّوْجِيه التربويّ في مراحله الزمنية خلال المدّة المكيّة من دعوة الرسول ﷺ، وفي النص المدني المضاف إلى سورة (الشورىٰ) المكيّة.

والحمد لله على توفيقه وفتحه.

* * *

المقـولة الثالثـة

معايش حملة الرسالة المتفرِّغين لها

بعد كفِّ حَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى دين الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عَنْ أن يكون لهم أجرٌ ما لدى الذين يقومون برسالاتهم بَيْنَهُم، لا بُدَّ من النظر في الوسائل الأخرى الّتي يكتسبون بها أرزاقهم ومعايشهم من مطالب حياتهم وحياة أُسَرهم.

وبالنظر في مفاهيم الإسلام وتعاليمه وأحكامه نلاحظ ما يلي:

أوّلاً: كلّ مؤمن مسلم مؤهّل للقيام بمستوًى ما من مستويات رسالة الدعوة إلى الله، والنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجب عليه أن يقوم بهذا المستوى الذي هو مؤهل للقيام به أثناء قيامه بأعماله الخاصة الّتي يكتسب بها معايِشَه، ومعايش أسرته، ضمن الذين يتعامل معهم، وفي وَقْتٍ أو أوقاتٍ يخصّصها من كلّ يوم، أو من كلّ أسبوعٍ للقيام برسالته التي هو مُؤَهَّلٌ للقيام بها في مجتمعه.

كما يجب عليه أن يقتطع أوقاتاً لصلاته المفروضة، ولطعامه وشرابه ومَنَامِهِ وحَاجَاته الطبيعيّة، ولإيناسِ أَهْلِه، ورعاية أسرته بالتربية والتعليم والإيناس.

وهكذا كان كثير من الفقهاء في الدّينِ وعلماء الشريعة الإسلامية على

اختلاف تخصُّصاتهم، لهم أعمال يكتسبون بها معايشهم كالتجارة والصناعة والزراعة، وهُمْ مع ذلك يَقُومون برسالاتهم أثناء أعمالهم، وفي أوقاتٍ يخصِّصُونها لها، صباحاً، وبعد صلاة العصر، وما بين المغرب والعشاء، ورُبّما في أكثر من ذلك، وكان لهؤلاء نَفْعٌ عظيم في كثير من حواضر العالم الإسلاميّ وقُراه.

وهذا القسم من حَمَلَة الرسالة قسم غَيْرُ مُتَفَرّغ لها، وهو يكسب معايشه من أعماله كسائر الناس، وتنطبق عليه الأحكام العامة الّتي تشمل جميع أفراد المجتمع، فإن كانت أعمالُ اكتساب المعايش الّتي يقوم بها الواحد من أفراد هذا القسم لا تكْفِي حاجاته وحَاجَات أُسْرَته، فإنّ له حقّاً في صندوق الزكاة كما للفقراء والمساكين بوجه عامّ، ويُعطَىٰ منه ما يَفِي بمطالب حياته وحياة من يَعُولُهُمْ.

ثانياً: أمّا حملة الرسالة المؤهلون والمتفرغون للقيام بها، ولَيْسَ لهم أَعْمالٌ يكتسبون بها معايشهم، فحكْمُهُمْ هو حكم المجاهدين في سبيل الله، لأن رسالة الدعوة إلى دين الله والنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رسالةٌ داخلة في عموم الجهاد في سبيل الله.

أمّا الدَّعْوةُ إلى دين الله فهي جهاد بالنفس لِتَبْليغ الدّين والإقناع به، وإعلاءِ كلمة الله في الأرض، وهي في مفاهيم النصوص القرآنيّة أوّلُ مراحل الجهاد في سبيل الله بالنَّفْس.

وأمّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو الوظيفة الدائمة لصيانة المجتمع الإسلامي من الانحراف عن دين الله، والْبُعْد عن التزام حدوده، وهو بهذا المعنى جهادٌ في سبيل الله، فتَبْليغُ الدّين والتذكيرُ به، وصيانَةُ المجتمع الإسلاميّ عن الانحراف عنه، كُلُّ ذلك مشمول بعنوان «في سبيل الله» ويدخل في عموم «الجهاد» فكلُّ ذلك من الجهاد في سبيل الله.

ولمّا كان المجاهدون في سبيل الله داخِلِينَ في أحد الأصناف الثمانية المستَحِقِّين للزكاة، كان المتفرغون لرسالةٍ من هاتين الرسالتين أوْ لِكِلَيْهما داخِلين حتماً في صنف «في سبيل الله» من الأصناف الثمانية المُبيَّنِينَ في قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦٠ ﴾.

فعلى صندوق الزّكاة أن يكفل لهؤلاء معايشهم في الحياة على حسب مستوياتهم، حتّىٰ لا تكون مطالِبُ حياتهم مرتبطةً بالذين يُوَجِّهُون لهم رسالاتهم.

وأفضل هؤلاء هم الذين تكون لهم مَوَارِدُ ماليّة يعيشون منها، ثم يقومون متبرّعين برسالة الدَّعْوَة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإذا لم تَقُم السلطة الإدارية بكَفَالَةِ معايش هؤلاء من صندوق الزكاة، أو من بيت مال المسلمين بحسب مستوياتهم، لفساد الأوضاع العامَّة، أو فساد الأوضاع الإدارية، أو انحراف السلطة عن صراط الله، فعلى جماعات المسلمين أن ينظموا جمعيّات أو مؤسسات خاصة لكفالة حَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، ولإعداد من يُرْجَىٰ أن يكونوا مؤهلين لحمل هاتين الرسالتين أو لإحداهما، من الذين يُتوسَّمُ فيهم الاستِعْدادُ، وتَبْدُو عليهم أماراتُ أن يصيروا في المستقبل ذوي أهليّة مناسبة لذلك العمل الجليل، ويجب أن تصل نسبة حملة هاتين الرسالتين إلى المقدار الذي يفي بأداء مهمّاتهما.

ولهذه الجمعيات أو المؤسسات الخاصّة أن تُمِدَّ صناديقها بأموالٍ من أموال الزكاة، وأموال الصدقات العامة، وأموال الأوقاف، والمساعدات من

الدولة، والاستثمارات المشروعة المختلفة، وشأنُها في هذا كشأن تمويل المقاتلين في سبيل الله إذا اقتضى الأَمْرُ ذلك.

وحين تُرْسِل داعياً مؤهلاً من الدّعاة إلى دين الله، وتكلّفه أن يتفرغ لهذه الدعوة، فإنّ عليها أن تكْفُل معيشته ومعيشة أسرته بحسب حالته الاجتماعيّة، وبحسَب حالة الْبَلد الذي تبعثه إليه.

وحين تُكَلِّفُ مؤهّلاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتفرّغ للقيام بهذه الرسالة الشريفة في بلد أو ناحية، فعليها أن تكْفُل معيشتَهُ ومعيشة أسرته، بحسب حالته الاجتماعيّة، وبحسب حالَةِ البلد أو الناحية الّتي يؤدي فيها رسالته.

ويُرَاعَىٰ في هؤلاء وهؤلاء نظراؤُهم من عُمّال الدولة وموظفيها.

وعندئذٍ فليس لحامل رسالة الدعوة إلى دين الله، أو لحامل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يمدّ يدَهُ إلى صدقات المحسنين، وعطاءات ذوي الهبات، بغية تجميع ثروة يجاري بها الأغنياء، لكن لا يمنع من أن تكون له أعْمالُ كسب مشروع من زراعة أو تجارة أوصناعة أو غَيْرِها بشَرْط أن لا يكون ذلك على حساب الأوقات التي يجب عليه فيها أن يقوم برسالته الّتي كُلّف القيام بها من قبل الجمعية، أو المؤسسة الخاصة باعتباره متفرغاً لحمل رسالته.

وينبغي أن لا ننسىٰ ما تقوم به جمعيّات ومؤسسات التنصير (= التكفير) في العالم من جهود جبّارة، وما تجمعه من أموال ضخمة جداً، من الدّول والبنوك والشعوب النصرانيّة، وما تفرضه الكنيسة من ضريبة على كلّ فرد لتمويل مشروعاتها التنصيريّة، وإعداد المبشرين الكثيرين جدّاً، الذين ينشرونهم في العالم، ولا سيما بلدانِ الشعوب الإسلامية، ويمدّونهم بكلّ ما يحتاجون إليه من أموال للقيام بِمُهِمَّاتهم.

أليس عجيباً أن يكون المبطلون حملَةُ رسالاتِ التكفير في العالم أكثر بَذْلاً، وأَحْسَن تنظيماً، وأكثر تجميعاً وتحمّساً، للقيام بمهمّاتهم التضليليّة، من المنتسبين إلى الإسلام الحقّ؟!!.

بلىٰ إنّه لعجيب حقّاً فيما يظهر، إلاّ أنَّهُ ظاهرة طبيعيّة للاضطراب الفكري، والْخَلَلِ والشتات النفسيّ الذي يعيشه المسلمون، وظاهرةٌ طبيعيّة لأنّ إسلامَ أكثرهم إسلامٌ تقليديٌّ نَسَبِـيّ، وليْسَ انتماءً إراديّاً قائماً على بصيرة واعية بالإسلام في نظرة شاملة، والسبب في هذا فَقْدُ المؤهلين من حَمَلَةِ الرّسالتين بنسبة كافية، رسالةِ الدعوة إلى الله، ورسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع النُّصح والإرشاد في كلٍّ منهما.

* * *

الفصل الثالث

وجوب تحلّي حامل الرسالة
بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى: تحليل وتفصيل.

المقولة الثانية: أمثلة من أخلاق الرسول وسيرته العظيمة.

المقولـة الأولـى

تحليـل وتفصيـل

ـ ١ ـ
بيان تحليلي عام

كلُّ مؤمن مسلم مطالبٌ بأن يتحلّىٰ بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فخير المسلمين أحاسنهم أخلاقاً، الموطّؤون أكنافاً، الّذين يألفون ويؤلفون، كما جاء في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ.

غير أنّ التحلّي بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم يبدو أمراً ضروريّاً جدّاً لحمَلَةِ رسالة الدّعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنُّصْح والإرشاد.

فالإنسان الذي لا يكون من ذوي الأخلاق الفاضلة والشّيَم الحميدة لا يصْلُح لحمل هاتين الرسالتين أو إحداهما، ولا يصْلُح لأن يواجه الناس ويخالطهم لأداء رسالته بينهم.

إنّ حامل رسالةٍ غايتُها إصلاح الفساد، وتقويم الانحراف في الناس، وتحويلُهم عن عاداتهم السيئة، ومفاهيمهم الباطلة، وما يَهْوَوْنَ وما يشتهون من مضارّ وشرور، لا بدّ أنْ تتوافر لديه الصفات الخُلقِيَّة الحميدة الّتي من شأنها أن تَمْلِك النفوس والقلوب، وتقبض على أعنتها، وتقودها إلى الحقّ

والخير والفضيلة، ومخالفة أهوائها وشهواتها الضارة، وتقاليدها العمياء، وترك سائر الأخلاق والأعمال التي فيها معصيةٌ لله ولرسوله.

إنّ حامل الرسالة المتخصّص ينبغي أن يتحلّى بنسبة رفيعة من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، كالصدق، والأمانة، والحلْم، وسَعَةِ الصَّدْر، والعفّة، وعَدَمِ التَّطَلُّع إلى ما آتىٰ الله عباده من زينة الحياة الدنيا، والكَرَم، والتواضع، ولين الجانب، وحُسْنِ المجاملة والمعاشرة للناس والرفق بهم، والشجاعة الحكيمة، وعواطف المحبّة والتودُّد للناس صغارهم وكبارهم، ضعفائهم وذوي المكانة فيهم، فقرائهم وأغنيائهم.

ولستُ هنا في صدد شرح مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وبيان فَضْلِها، وبيان خِسَّة أضدادِها، فقد كتبت في موضوع الأخلاق كتاباً موسّعاً يقع في مجلّديْن، بعنوان: «الأخلاق الإسلامية وأسسها» ويحسُنُ بحامل الرسالة أن يرجع إليه، وإلى ما كُتِبَ حول الأخلاق الإسلاميّة من كتب نفيسة اعتمدت على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إلاّ أنّ ما ينبغي التوجيه له هنا هو ضرورة التحلّي بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بالنسبة إلى حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنُّصْح والإرشاد.

فممّا لا شكّ فيه أنّ من يتحلّى بنسبة رفيعة من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم الّتي سبق ذكر طائفة منها، يَمْلِكُ من أدوات التأثير في الناس وتأليف قلوبهم للتلقّي منه والاستجابة له، ما لا يملكه مَنْ تنخفض لديه النسبة التي يتحلّى بها من هذه المكارم والمحاسن.

* * *

أمّا المحروم من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم فتأثيره في الناس تأثير مضادٌّ تماماً، إنّه بسوء خلقه يجعل الناس تنفر منه، وتتباعد عنه، وتَجْفُو

مجالِسَه، ولا تكترث لأقواله ونصائحه، وإنْ كانَ من أكثر الناس علماً وفصاحةً وحُسْنَ بيان، ومثل هذا لا يصلُح لمخالطة الناس ومعاشرتهم ودعوتهم إلى دين الله، أو أَمْرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فإن كان لديه علْمٌ نافع، وكلام صالح، وبيان مؤثر، فعلىٰ القيادة الإدارية الْمنَسِّقَة للأعمال، والموزعة لها على الأكْفاءِ من النّساء والرجال، بحسب كفاءَاتهم وتخصّصاتهم ومواهبهم الفطريّة الّتي وهبهم الله إيّاها، أن تستفيد منه في كلامٍ يكْتُبُه، أو خُطْبَةٍ يخطُبُها ويَنْصَرِف عن الجماهير عقبها إلى عزلته، أو حديث من وراء مِذْيَاع، حتّىٰ لا يَحْتَكَّ مع الذين يُوَجّه لهم حديثه، ويَحْسُن أن لا يتّصل به الناس إلاّ عن طريق الرسائل المكتوبة، وبوساطة مُنَقِّحٍ يُصفّي الوارد إليه والصادر عنه.

كيف يقبل الناس نُصْح كذابٍ معروف لديهم بالكذب، أو ينكشف لهم كذبه في تَعَامُلِه معهم، وفيما يخبرهم به من أخبارٍ يسْهُلُ عليهم معرفةُ حقيقتها؟!!.

كيف يستجيب الناس لإرشادِ وتوجيهِ خائنٍ لا أمانة عنده؟!!.

كيف يصبر الناس على التلقّي من غضوب ضيّق الصدر نَفُور يخاطبهم بلسان الْمُغَاضِب المشاتم المؤذي بأقواله؟!!.

كيف يَثِقُ الناس بدنيء النفس غير عفيف، فيقبلون منه دعوته، أو نصائحه، أو أوامره ونواهيه؟!!.

كيف يقبل الناس نُصْح حَسُودٍ يتَطَلّعُ إلى ما آتاهم الله ممّا يحبون من زينة الحياة الدنيا من أموال أو نساء أو ذرّيّة أو جاه أو سلطان أو غير ذلك؟!!

كيف يصبر الناس على ملازمة فظٍّ غليظ القلب تَنْفِر النفوس من ملاقاته، والاجتماع به، والاستماع لأحاديثه؟!!

* * *

لكن، كم نشاهد داعياً إلى الله، أو آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ذا علم قليل، وبيانٍ ضعيف، تجتمع عليه الجماهير وتُحبُّه، وتتأثر بنصائحه ومواعظه، لأنّه صدوق، أمين وَدُودٌ حليم، واسع الصدر، عفيفٌ، كريمٌ، متواضعٌ، لين الجانب، حسن المجاملة والمعاشرة، شجاع بحكمة في مرضاة الله عزّ وجلّ، بريء من داء الحسَدِ والتطلّع إلى ما آتى الله بَعْض عباده من زينة الحياة الدنيا، لا يَحْمِلُ الحقدَ والضغينة لسَمَاحَةِ نفسه، ونقاء سريرته.

* * *

فحامل رسالة إصلاحية يجب أن تتفوَّق فيه الصفات الخلقية الكريمة، الّتي تُؤَثّر في النفوس أثراً حسناً، وتُؤلّف القلوب على الحقّ والخير والهدى، مع أهليّته العلميّة والفكرية المناسبة للقيام بالمستوىٰ الذي يضطلع بمهماته من رسالته التي يقوم بأدائها بين الناس..

* * *

ـ ٢ ـ
بيـان تفصيـلي

أولاً ـ أهميّة البراءة من التطلع إلى ما وهب الله الناس:

ونظراً إلى خفاء وأَهَمِيَّة براءة حامل إحدى الرسالتين أو كليهما من التطلع إلى ما آتى الله الناس من زينة الحياة الدنيا، لئلا تتفاعل في نفسه رغباتُ التَّشَهّي والتمني التي تُصِيبُ النفوسَ بداء الحسد، خاطب الله عزّ وجلّ رسوله بخطاب يظهر أنّ المقصود به أُمَّتُه، ولا سيما الدعاةُ إلى الله منهم، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، فقال تعالى له كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ .

هذه الآية مع آيَةٍ قبلها أنزلتا في المدينة وأضيفتا إلى سورة (طَه) التي هي من أواسط التنزيل المكّي، للإشعار بأن المقصود توجيه أمة الرسول ﷺ ولا سيّما حَمَلَةُ رسالةِ الدعوة إلى الله منهم أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حينما يكونون في أحوال مثل الحالة الّتي كان فيها الرسول صلوات الله عليه في أواسط المرحلة المكيّة الّتي أنزلت فيها سورة (طَه) فقد كان الرسول ﷺ حينئذٍ في حالة ضعف وفقر واضطهاد من قبل كُبَراءِ قومه في مكة، وكان هؤلاء الكبراء فيها سادةً أقوياء ذوي سلطان فيها وغَلَبَة، لكن الرسول ﷺ لم يتطلّع إلى ما هم فيه من زينة الحياة الدنيا، فقد عرضت عليه أن تكون له جبال مكّةَ ذهباً فأبَىٰ ولو قَبِلَ هذا العرض لكان أكثر الناس عزّاً وسلطاناً وقوّةً في الأرض، ولملَك من زينة الحياة الدنيا ما لم يملك أحدٌ سواه، لكنّه لم يَخْتَر لنفسه هذا من الدنيا.

أمّا في المدينة فقد كان السيّد المطاع فيها، وذا السلطان المفدَّى بالأموال والأَنْفُس، ولو شاء الاستمتاع بما يشاء لفعل، فلم يكن شأنه فيها ممّا يُتَوَهَّمُ معه أن يَمُدَّ عينيه إلى شيءٍ من زينة الحياة حينئذٍ.

فإنزال هذا التوجيه له وهو في العهد المدنيّ ظاهرٌ منه تماماً أنّ المقصود به أُمَّتُه، ولا سيما حاملو رسالته منهم.

وبما أنّ الرسول هو قائد أُمّتِه، والممثّلُ لهم في تَلَقّي أوامر الله ونواهيه وتوجيهاته، خاطَبَهُ الله بالإفراد، لِيَشْعُر كلُّ حاملٍ لرسالته من أمته أنّه مخاطبٌ به على طريقة الخطاب الإفرادي، كما خاطب الله به الرسول، لكنّ الرسول ﷺ قد كان متحقّقاً بمضمون الخطاب في النصّ من قبل أن يُنَزَّل عليه، فدلّ هذا على أنّ المقصود به كلّ فرد من أمته، ولا سيما حملَةُ رسالته

في الدعوة إلى دين الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي النّصح والإرشاد.

ولاَ تمدَّنّ عَيْنَيْكَ: التعبير بمدّ العين كناية عن تشهّي النفس وتمنّيها، وذلك لأنّ من نظر إلى شيءٍ فاستحسنه واشتهاه وتمنّاه لنفسه، ثبّت نظره فيه، ومع تثبيت النظر تتوالَىٰ رغباتُ التشهّي والتمنّي النفسيّة، وتندفع هذه الرغبات مع توالي النظرات وتُطْلِقُ طاقاتٍ خَفِيَّةً على خطوط النظر بالعينين، حتَّىٰ كأنّ العينَيْن أنفسهما تمتدان إلى الشيء الذي استحْسَنَتْهُ النفس، فاشتهته، فتمنَّتْهُ، وهنا يتفاعل في النفس داء الحسد، ومن هنا قد تكون الإصابة بالعين، إذا كان لدى المتمنِّي إرادَةُ حسد، وكانت لديه قوةٌ خفيّة تؤثِّرُ في المحسود أو في أشيائه التي يمتلكها.

فعلى المؤمن أن يغضّ بصَرَه عمّا آتَىٰ الله بعض عباده من زينة الحياة الدنيا، لئلا تتعلّق نفسه به، فيتمنّاه لنفسه، فيتفاعل فيها داء الحسد الخبيث، وإذا تَفَاعَلَ في النفس هذا الداء بحرارة التشهّي والتمنّي، كانَ من آثارِهِ خُدُوشٌ تُدْمي وجه الإيمان السَّلِيم في القلب، فيشكُّ الحاسِدُ بحكْمَةِ الله عزّ وجلّ في عَطَائِه ومنعه، ويَسْتَغِلُّ شيطانُ النفس هذا الشك، فَيُحَرِّكُ قوىً خبيثةً ضارّةً مؤذية فيها، فَتَنْطِلق منها بعض هذه القوى الكامنة فيها، ورُبَّما انطلق هو معها، فتحدُث بإذن الله وعِلْمِه الإصابَةُ بالْعَيْن على درجات متفاوتات.

إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم: أي: إلى شيءٍ متّعنا به أصنافاً وجماعات وأفراداً من الناس من متاع الحياة الدنيا، فما في الحياة الدنيا كلُّه متاع، والمتاعُ كلُّ ما يُنْتَفَعُ به مؤقّتاً وهو إلى فناء وزوال.

زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: أي: حالة كون ما متّعناهم به زهرة الحياة الدنيا، شبّه الله عزّ وجلّ كلّ ما في الحياة الدنيا من زينتها المحبَّبَةِ للنفوس بالزَّهْرَة، لأنّ الزهرة التي تَتَفَتَّحُ في الشجر قبل أن تنعقد منها الثمرةُ ذاتُ زينة ورونق

وجمال وإغراء، إلاّ أنّها قصيرةُ العمر جدّاً يُسْرِعُ إليها الذبول، ونظيرها كلّ ما في الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما في الدار الآخرة.

لِنَفْتِنَهُمْ فيه: أي: لنختبرهم أو لنعذّب كفارهم في هذا الذي متعناهم به من زينة الحياة الدنيا الذي هو كالزهرة السريعة الذبول والقصيرة العمر.

وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأبْقَىٰ: أي: ورزق ربّك الّذي أعدّه في دار النعيم يوم الدين لمن آمن وعمل صالحاً ولم يَتَطَلَّعْ إلى ما آتَىٰ بعض عِبَادِهِ من زهرة الحياة الدنيا خيرٌ من كلّ ما في هذه الحياة من متاعٍ وزينة، وأبقى أنواعاً وأصنافاً وأفراداً، لأنّ دار النعيم هي دار البقاء، أمّا الحياة الدنيا فهي دار الفناء، ودَارُ الأكدار.

فعلى كلّ من يحمل رسالَةَ الدَّعْوة إلى الله أو رسالة النُّصْح والإرشاد والأمر بالمعْروف والنّهي عن المنكر أن يكون شديد الحذر، من مدّ النظر إلى ما متّع الله به غَيْرَه من زهرة الحياة الدنيا بِتَشَةٍّ وطَلَبٍ وتَمَنٍّ، لأنّ هذا يكدِّر صَفَاء نَفْسِهِ ويُفْسِدُها ويُحوِّلُ طريقه من ابتغاء مرضاة الله في أداء رسالته، إلى ساعٍ لتحصيلِ ما يشتهي من زهرة الحياة الدنيا، ويجعله مستعدّاً للتنازل عن رسالته أو تسخيرها في غير ما هي له، إذا عرضت عليه المغريات مما يشتهي ويتمنَّىٰ، وعندئذٍ يَسْتَغِلُّه شياطين الإنس والجنّ لتحريف الدِّين، والتلاعب في مفاهيمه، وتحسين أعمال المفسدين والمجرمين والفاسقين في الأرض، ثم مشاركتهم فيما هم فيه.

وكم ابتُلي أناسٌ من حاملي رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذا الداء، فكانوا شرّاً وضُرّاً ونقمةً على الرسالة التي حملوها.

* * *

ثانياً ـ أهميّة البراءة من الفظاظة وغلظ القلب:

ونظراً إلى أهميّة براءة حامل إحدى الرسالتين أو كليهما من أن يكون فظّاً، أي: خشن الكلام سيّىء الخلق شَرِساً، ومن أن يكون غليظ القلب، أي: قاسياً لا رَحْمَةَ عنده، مع عدم توجيه الكثيرين أنظارهم لمراعاةِ البراءة منهما.. أثنَىٰ الله عزّ وجلّ على رسوله محمّد ﷺ بأنّه لعلَىٰ خُلُقٍ عظيم، وكان هذا في أوائل المرحلة المكيّة، ثم أثنىٰ عليه في أوائل المرحلة المدنيّة بأنّه ليس فظّاً ولا غليظ القلب، لتوجيه أمّته ولا سيما حملةُ رسالته لأن يقتدوا به، ويتحلّوا بمثل أخلاقه وسيرته في دعوته إلى دين ربّه، وفي قيادته لأمته.

أمّا ثناؤه عليه بالخلُق العظيم في أوائل المرحلة المكية فنجده في قوله تعالى له في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول):

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

أي: وَإِنّكَ لمتمكّنٌ بعلوٍّ من خُلقٍ عظيم تسير به في حياتك، وقد عرضَتْ لنَا السنة النبوية أمْثِلَةً رائعة كثيرة جدًّا من سيرته العظيمة وشمائله الفذَّة، التي تكشف عن خلُقه العظيم الذي ملك به قلوب أصْحابه، وملك به إعجاب خصومه والكافرين به وبرسالته.

وأمّا ثناءُ الله على رسوله بأنّه ليس فظّاً ولا غليظ القلب، وأنّه لو كان فظّاً غليظ القلب لانفضّ أصحابه من حوله نافرين، فنجدُهُ في قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول)[1] خطاباً لرسوله:

---

(١) سورة آل عمران ثالث سورة نزلت في المرحلة المدنية: (البقرة ـ الأنفال ـ آل عمران).

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

● ففي هذه الآية ثناءٌ من الله على رسوله بأنه ليس فظّاً ولاَ غليظ القلب، وبيَانُ أنّه لو كان فَظّاً غَلِيظ القلب لانفضَّ أصحابه من حوله نافرين.

وفي هذا توجيه بصورةٍ غير مباشرة لكلّ من يضطلع بمهمات إمامة المتقين آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، أسوةً حسنة لهم، أن لا يكون فَظّاً سَيِّءَ الخُلُق شَرِساً، وأن لا يكون غليظ القلب قاسياً لا رحمةَ عنده، فمن كان كذلك نَفَرَ عَنْهُ المتأثرون ببياناته الدينيّة، وانْفَضُّوا من حوله، وصار مزهوداً فيه، وغير ذي تأثير في دعوته، ولا في أمره بالمعروف، ولا في نهيه عن المنكر، ولا في نُصْحِه وإرشاده.

وما يجب أن يتحلَّى به إمام المؤمنين المتقين من صفات تجعلهم ينضمُّون إليه، ويلْتَفُّون حوله، ويقتدون به محبّين مُقَدِّرين ومناصرين، ويستجيبون له إذا أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، يجب من باب أولىٰ أن يتحلّىٰ به الداعي إلى دين الله الذي يدعو غير المسلمين إلى الدخول في الإسلام بصدْقٍ والتزامٍ وحسن اتّباع وعمل.

فالفظّ السَّيِّء الْخُلُقِ، أو الغليظ القلب، لا يصلُح ابتداءً لأن يكون داعياً لأحد من غير المسلمين إلى دين الله، لأنه سيُنَفِّرُه من الدّين لأوّل بادرة سوء خلُق وفظاظة يلاحظها فيه، ويجفوه إذا أدرك أنه غليظ القلب عديم الرحمة جافُّ العواطف النبيلة، فلا يَسْتَمِعُ إليه، ولا يُصْغِي إلى أقواله ونصائحه.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتُ لَهُمْ: أي: فبِسبب رَحْمَةٍ عظيمة فُطِرتَ عليها بفطرةٍ من الله، لِنْتَ يا مُحمَّد لمن اتّبعَكَ في أقوالِكَ وأعمالك، وكُنْتَ رؤوفاً بهم، رفيقاً في سياسَتِهم، عطوفاً عليهم.

أُضِيفَ حَرْفُ (ما) بين الجار والمجرور للتأكيد ، وللدّلالة على عظمة خُلُق الرحمة التي فَطَرَهُ الله عليها، فهي في قلبه رحمةٌ عظيمةٌ جليلة المقدار.

ولَوْ كُنْتَ فظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ: أي: لم تكن يا مُحَمَّد فظّاً ولاَ غَلِيظاً ولذلك لم يَنْفَضَّ عَنْكَ الّذين آمنوا بك واتّبعُوك، بل اسْتَمَرُّوا حافِّين بك، مجتمعين عليك، محبّين معظمين مُوَقِّرين ناصرين لك ولكل ماجئتهم به، مطيعين لأوامرك ونواهيك.

الْفَظُّ: هو ذو الكلام الخشن المؤذي المنفّر، يقال لغة: رجلٌ فظ ذو فَظَاظة، إذا كان جافياً خشن القول يخاطب الناس بما يقسو على نفوسهم. **والفظُّ** أيضاً من الناس: من كان سَيِّىء الْخُلُق شَرِساً في طَبْعِه وتَـعَامُلِـهِ.

الغليظ: هو من لا رِقَّة في خلقه وطبعه، أو في قوله أو فعله. وغِلَظُ الْقَلْب كناية عن كونه خالياً من عاطفة الرحمة، أو كون رحمته قليلة بالنسبة إلى ما يُطلَبُ من أمثاله.

وأصل الْغِلَظِ في الأشياء تكاثُفُ ذرّاتها وعِظَمُ سُمْكِهَا وثَخَانَتُها، فتكونُ بذلك صُلْبَةً قاسِيةً لاَ تَلِينُ، والصُّلْبُ القاسي من الأشياء تنعدم رطوبته أو تَقِلُّ، فهو لا يرشَحُ ولا يُعْتَصَر، أو يكون رشْحُه قليلاً جداً.

فالقلبُ الغليظ لا يَرْشَحُ برحمة، أو يكون رشْحُه قليلاً ضئيلاً.

والله عزّ وجلّ أثنى على رسوله محمد ﷺ بأنّه عظيم الرحمة، وهذا قد ظهر في مُعَامَلَتِه لمن اتّبعه من المؤمنين باللِّين في أقواله، وأعماله، ومشاعره، رفقاً ورأفة بهم، وشفقةً عليهم، فقال له موجّهاً بأسلوبٍ غير مباشرٍ كلَّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمته أو آمرٍ بالمعروف وناهٍ عن المنكر وناصحٍ مُرْشد:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

أي: إنَّك لسْتَ فظّاً ولو من أدنىٰ مستويَاتِ الفظاظة، ولسْتَ غَلِيظَ الْقَلْب ولو من أدنَىٰ مستويَاتِ الغِلاَظَة، بل أنت ليّنٌ حسَنُ المعاشرة، رفيقٌ رقِيقٌ في أقوالك وأعمالك، ذو خُلُق عظيم. وذو قلْبٍ رحيم، يفيضُ برغبات العطاء والمعونة، ويَفِيضُ بالشفقة على عباد الله، ولو كنت فظّاً غليظ القلب، لما اجتمع عليك هذا الجمّ الغفير من أصحابك الذين يُحِبُّونَك ويعظِّمُونَك ويُوَقِّرونَك وينصرونك ويَفْدُونك بأموالهم وأنفسهم، ولو أنّهم اجتمعوا عليك ابتداءً لإعجابهم ببيانك وصحّة مبادئك، ومصانعتك لهم باللّين والخُلُق الكريم على خلاف الخلُق الحقيقي لنفسك وقلبك، لانفضّوا من حولك متى طال بهم الْعَهْدُ، إذْ لا بُدَّ أن تَنْهَارَ يوماً ما مُصَانَعَتُك لهم بما يؤلّف قلوبهم، فالمصانَعَةُ الْمُتَكَلَّفة على خلاف خُلُق النفس لا تدوم طويلاً.

ويلْزَمُ من هذا الخطاب للرسول خطابُ حَمَلَةِ رسالته، فالمعنى: ويا أيّها الدعاة إلى الله، ويا أيّها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، اقتدوا برسولكم محمّد، فَلِينُوا للناس في أقوالكم وفي أعمالكم، ولا يكُنْ واحدٌ منكم فَظّاً ولاَ غليظاً في مواجهة عِبادِ الله ومخاطبتهم ومُعَامَلَتِهِمْ، وإنْ أنكرتم عليهم انحرافَهُمْ عن الحقّ وصِراطِ الله في أفكارهم أو أقوالهم أو أعمالهم.

ولمّا كان اللّين بالقول من واجبات الدعوة إلى دين الله، إذْ هو من وسائلها النافعة غير المنفّرة، أوصَىٰ الله عزّ وجلّ موسَىٰ وهارون عليهما السلام بأن يقولاَ لفرعون قولاً ليّناً، راجيين بأسلوب القول اللّين في عرض الحقّ عليه وتخويفه من عذاب الله أنْ يتأثر، فيتذَكّر أُصول الحقّ الَّتي فطر الله عليها العُقول فيؤمن، أو يخشىٰ عقاب الله وعذابه بما في نفسه من مشاعر الرَّهب على مصيره عنده، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في حكايةِ خطابٍ خاطبَ به موسَىٰ عليه السَّلام إذْ ناداه بالوادي المقدّس طُوى، وأبَانَ له فيه أنه اجتباه رسولاً، وجعل له أخاه هارُونَ وزيراً:

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾.

اذْهَبْ أَنْتَ وأَخُوكَ بِآيَاتِي: أي: مصحوبَيْن بآيَاتي البيانيّةِ والإعجازيّةِ والجزائيّة.

ولاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي: أي: ولا تَفْتُرا في الاشتغال بذكري في أنفسكما وقلوبكما وأفكاركم وأَلْسِنَتِكُمَا، ولا تَضْعُفَا ولا تَكِلاَّ، وذكر الله يشمل تسبيحه وحمده، والتفكر في صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، والتفكّر في آلائه وآياته الكونيّة، وآياته المنزّلة وتدبّر دلالاتها ومعانيها، والدّعْوةَ إلى الإيمان به وبما أَنْزَلَ على رسوله مع الشرح والبيان.

يقال لغة: «وَنَى يَنِي» إذا فَتَرَ وضَعُفَ وَكَلَّ.

إِنَّهُ طَغَىٰ: أي: إنّه تجاوز الحدَّ ظُلْماً وتكبُّراً، وكفراً وفجوراً.

فَقُولا لَهُ قَوْلاً لِيِّناً: أي: فقولا له في دعوتكما له إلى الإيمان، وتركِ ما هو فيه من ادِّعَاءِ الربوبيّة، واتّخاذِ أوثانٍ من دون الله قولاً ليّناً.

لعلّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يخْشَىٰ: أي: راجيين من دعوته بالْقَوْلِ اللّيّن أن يتذكر ما هو كامِنٌ فِي فِطْرَة عَقْلِه من أصول الحقّ والإيمان، أو يَتَّعِظَ فيخشَىٰ عِقَابَ الله وعذَابَهُ، بما في نفسه من مشاعر الخوف على مصيره من الرّبِّ الخالق، وبما في ذاكِرَتِهِ مِنْ قِصَصِ الجبابرة الأوّلين الذين أهلكهم الله، كعادٍ وثمود وقوم نوح عليه السلام.

● وبعد أن أثنىٰ الله على رسوله محمد ﷺ بأنّه رحيم بالمؤمنين، فبهذه الرحمة لاَنَ لهم في أقواله وأعماله وعواطفه، وبعد أن أبان له أنّه لو كان فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حوله، توجيهاً للمؤمنين ولا سيما حَمَلَةُ رسالته أن لا يكون أَحَدٌ منهم فظّاً ولا غليظ القلب، أمر الله رسوله بأن يعفو

عن الْمُسِيءِ من المؤمنين، وأن يستغفر للمذنبين منهم، وأن يُشْعِرَهم بأنّهم شركاؤه في أمور الدولة الإسلامية ومصالح المسلمين العامة، فيشاورهم في الأمر، ويبني عزمه على ما ظهر له من مصلحة للمسلمين بعد المشاورة، فإذا عزم على أَمْرٍ فلْيَتَوكَّلْ على الله في تنفيذه، فالله يُحِبُّ من يتوكَّلُ عليه فَيُمِدُّهُ بمعونته، فقال الله عزّ وجلّ له في الآية التي نتدبّرُها من سورة (آل عمران):

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

أي: فبما أنَّك يا مُحمّد رحيمٌ بالمؤمنين برحمةٍ فطريّة رشيدة من ربّك، وهذه الرحمة جَعَلَتْكَ تلين لهم، وبرئت بها من أن تكُونَ فَظّاً غليظَ القلب، فاجعل من مظاهر رحمتك بهم في معامَلَتِكَ لهم، ثلاثَ خصالٍ مُهِمَّةٍ لازمةٍ للقائد الحكيم الرشيد في قيادته وسياسته:

الخصلة الأولى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي: إذا أساء إلَيْكَ مُسِيءُ منهم في مقاله أو في عمله فاعفُ عنه، فلا تُعَاقِبْهُ على إساءته، ولا تُعَاتِبْهُ عليها، واجْعَلْهَا غَيْرَ ظَاهِرَةِ الأثر في معاملتك له، ومن شأن هذه الخصلة أَنْ تَمْلِكَ القلوب.

العَفْوُ: أعلى درجةً من الْغُفْران، لأنّ الغفران ستر الذنب مع بقاء الأثر الدَّالِّ عليه، أمّا الْعَفْو فهو مَحْوٌ للأثر من بَعْد السَّتْر، فالزَّارِعُ يدفن البزور ويغطيها بالتراب، لكن تبقى الآثار، والرّياح تسوّي الأرض فتعفو هذه الآثار.

الخصلة الثانية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: واسأل الله أن يغفر لهم ذنوبهم ومعاصيهم التي تتعلّق به، وإذا جاءك مذنب منهم بذنب وسألك أن تستغفر له، فاستغفر له، فدعاء الرسول لأمته مستجاب، ومن شأن هذا الاستغفار أن يزيد في امتلاك القلوب، ويُشْعِرَ المؤمن من أصحاب الرسول أن خطيئته مع ربّه قد مُحِيَتْ فلم يبقَ لها أثَرٌ، لأنّ الرسول قد سأل ربّه أن يغفر له.

الخصلة الثالثة: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ أي: وشاورهم في قضايا ولايتك للأمر، فوليّ أمْرِ الأمّة هو الذي يدير ويسوس شؤونها العامّة، باعتباره قائداً ذا سلطان، يقضي في شؤونهم ويحكم ويُصْدِر الأوامر والقرارات في السِّلْمِ والْحَرْب.

ومع كون الرسول ﷺ هو قائد أمّته ووليّ أمورها العامّة، ومع كونه مؤيَّداً ومُسَدَّداً بالوحي، فقد أَمَرَه الله بأنْ يُشاوِرَ أَهْلَ المشورة من أمّته، ليكون أسوة في هـٰذا لِمَنْ بَعْدَه من أئمة المسلمين وقادتهم وأولياء أمورهم.

فالمشاورة أدْعَىٰ لِصِحَّةِ رُؤْيَة الْقَضِيَّة المهمّة من كلّ جوانبها، وتُقَلِّلُ نسبة احتمالات الخطأ في الأمر الذي يتجه له العزم، وتُعْطِي المستشارين تكْرِيماً واحتراماً وشعوراً بأنهم شركاء في الأمر، وأنّ قرارَ قائدهم صدَرَ بعد مشاورتهم، ولم يكُنْ مستقلاًّ في الأمر ولا مستبدًّا ولا مُتَّبِعاً لمزاجه ولأهوائه الخاصة.

وبعد المشاورة واستعراض مختلف الآراء وترجيح الرأي الأكْثَر نفعاً وسداداً لعامّة المسلمين، يَعْزِمُ الرسول على بتّ القرار المناسب، فيُصْدِرُه، ويُوَجّه فيه أَمْرَهُ للتنفيذ، وعليه عندئذٍ أن يتوكَّلَ علىٰ الله ويقوم بما يلزم لتنفيذ ما أصدره من قرارات وأوامر.

وبياناً لهذا قال الله لرسوله:

﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾.

أي: فإذا عزمْتَ بعد المشاورة على تنفيذ أمْرٍ من أمور المسلمين في السِّلْم والْحَرْب فاعمل على تنفيذه متوكّلاً على الله، والله سَيُمِدُّك بمعونته وتسديده، لأنه يحبُّ المتوكلين عليه مَعَ قيامهم بكلّ ما تقتضيه حاجات التنفيذ من أسباب.

وما أمر الله به رسُولَهُ بوصفه قائدَ أمَّتِهِ ووليّ أمورهم، مطالبٌ بمثله كلّ إمامٍ من أئمة المتقين، الذين يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر، ومطالب بمثله كلُّ إمامٍ من أئمة المسلمين الذين يتولّون قيادة وسياسة أمورهم العامّة، إلاّ أَنّ رأي الأكثريّة في الْمَشُورَةِ ملزمةٌ لغير الرسول فيما ظهر لي[1] لقول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

فعلى حامل رسالة الدعوة إلى الله أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتحلّىٰ بالأخلاق والخصال الّتي أثنىٰ الله بها على رسوله، والّتي أمره بها، فمن تحلّىٰ بها كان أكثر توفيقاً ونجاحاً، وأكْثَرَ سداداً في رسالته التي يضطلع بمهمّاتها.

وعليه أن يكون هاشًّا باشًّا مع كلّ الناس، وأن لا ينظر إلى المخالفين مهما كان شأنهم بتقطيب وعُبُوسٍ واشمئزاز.

وعليه أن يكون حسن المحادثة، حكيم المجاملة، جَميلَ المعاشرة، خدوماً، ينهض بمصالح الآخرين كأنها مصالِحُهُ الشخصيّة، تأليفاً لقلوب الناس على حبّ الالتزام الإسلاميّ والْعَمَلِ الإسلامي، وحبّ الدعاة إلى الله والآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الناصحين المرشدين.

* * *

(١) انظر ما كتبته حول هذا في كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» بمبحث نظام الحكم في الإسلام.

المقـولة الثانيـة

أمثلة من أخلاق الرسول ﷺ وسيرته العظيمة

أعرض في هذه المقولة طائفةً مما ورد في السّنة حول السيرة الْعَطِرَة والأخلاق العظيمة، التي كان الرسول محمّد ﷺ يتحلّىٰ بها، ليتَّخِذَها حملةُ رسالة الدعوة إلى دين الله، ورسالةِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمثلةً يحتذون حذوها تأسّياً برسولهم العظيم، حتَّىٰ يكونوا مُؤَهَّلِين لإمَامة المتقين، في أخلاقهم ومحاسِنِ سلوكهم.

المثـال الأول:

روى البخاريّ ومسلم عن جابر رضي الله عنه، أنّه غزا مع النبـيّ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فلمَّا قَفَل رسولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ معهم، فأدركَتْهُمُ الْقَائِلَةُ في وادٍ كثير الْعِضَاه[1]، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرَّقَ النّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بالشجر، ونَزَل رسول الله ﷺ تحت سَمُرَةٍ[2]، فعلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، ونِمْنَا نَوْمةً، فإذا رسولُ الله يَدْعُونا وإذا عنْدَه أَعْرابـيٌّ فقال:

«إنَّ هَـٰذَا اخْتَرَط[3] عليَّ سَيْفِي وأَنا نَائم، فاستيقظتُ وهو فِي يده صلْتاً[4]، قال: مَنْ يَمْنَعُكَ مني؟ قُلْتُ: الله ثلاثاً» ولم يُعَاقِبْهُ وجَلَسَ ﷺ.

---

(١) القائلة: وقت الظهيرة. والْعِضَاه: الشجر الذي له شوك.
(٢) تحت سَمُرة: أي: تحت شجرة كبيرة من هذه الأشجار.
(٣) اخترط السيف: أي: سَلَّه من غِمْده.
(٤) صلْتاً: أي: مجرّداً جاهزاً للضربَ به.

وفي رواية عن جابر، أنّ المشرك قال للرَّسُول ﷺ: تَخَافُنِي؟ قال رسول الله ﷺ: «لا» فقال: فَمَنْ يَمْنَعُكَ مني؟ قال: «الله».

وجاء في رواية أخرى: فسقط السيفُ مِنْ يَدِه، فأخذ رسول الله ﷺ السَّيْفَ، فقال للأعرابي: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنّي» فَقَالَ: كن خَيْرَ آخِذٍ، فقال: «تَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلاَّ الله وَأَنّي رَسُولُ اللَّهِ» قال: لا، ولَكِنّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لاَ أُقَاتِلَكَ، ولا أكون معَ قَوْمٍ يقاتِلُونَكَ، فخلَّىٰ سبيله، فأتَىٰ الرَّجُلُ أصحابَهُ فقال لهم: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ الناس!!.

المثـال الثانـي:

روىٰ البخاريُّ عن سهل بن سعد، أَنَّ امرأَةً جاءَتْ إلى النبـيّ ﷺ بِبُرْدَةٍ منسوجة[1]، فقالَتْ: نَسَجْتُها بيَدَيَّ لأَكْسُوَكَها، فأخذها النَّبِـيُّ ﷺ مُحْتَاجاً إليها، فَخَرَجَ إلَيْنَا وَإِنَّها إِزَارُه، فقال فُلاَنٌ: اكْسُنِيهَا، مَا أَحْسَنَها!، فقال: «نعم» فجَلَسَ النبـيّ ﷺ في الْمَجْلِسِ، ثمّ رجَعَ فَطَواهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ بها إليه، فقالَ لَهُ القومُ: ما أحسنْتَ، لبِسَها النبـيُّ ﷺ مُحْتَاجاً إليها، ثمّ سَأَلْتَهُ وَعَلِمْتَ أنّه لا يَرُدُّ سائلاً، فقال: إنّي واللَّهِ مَا سَأَلْتُه لأَلْبَسَها، إنّما سأَلْتُه لتكون كفني، قال سَهْلٌ: فكانت كفَنَه.

المثـال الثالـث:

روى البخاريّ ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنْتُ أَمْشِي مع رسول الله ﷺ، وعليه بُرْدٌ[2] نَجْرانيٌّ غَلِيظُ الحاشية، فأدركه أعرابـيٌّ فَجَبَذَه بردائه جبْذَةً شديدةً، فنَظَرْتُ إلَىٰ صَفْحَةِ عَاتِقِ[3] النبـي ﷺ وقَدْ أَثَّرَتْ بها حاشية الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِه، ثمّ قَالَ: يا مُحَمّد مُرْ لي من مال الله الَّذِي

---

(١) بَبردة منسوجة: أي: بكساء مُوَشّىٰ له هُدْبٌ.

(٢) الْبُرْدُ: كِسَاءٌ مخطَّط يُلْتَحفُ به.

(٣) العاتق: ما بين المنكب والعنق، والمنكِب: مجتمع رأس العضد والكتف.

عِنْدَك، فالتَفَتَ إلَيْهِ فضحك، ثم أمَرَ لَهُ بعطاء!!.

المثـال الرابـع:

روى مسلم عن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: ما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَلَىٰ الإسلام شيئاً إلاّ أعطاه، ولقد جاءه رجلٌ فأعطاه غَنَماً بين جبلَيْنِ، فرَجَعَ إلى قومه فقال: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فإنّ مُحمّداً يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لا يَخْشَى الفقر.

وإنْ كان الرجل ليُسْلِم ما يُريد إلاّ الدّنيا، فمَا يَلْبَثُ إلاّ يسيراً، حتَّىٰ يكون الإسلامُ أَحَبَّ إليه من الدُّنيا وما فيها.

المثـال الخامـس:

روى البخاري عن جبير بن مطعم: بينما هو يسير مع رَسُولِ الله ﷺ مَقْفَلَهُ من حُنَيْن، فَعَلِقَتِ الأعرابُ يسألونه، حتى اضْطَرُّوهُ إِلَىٰ سَمُرَةٍ، فَخَطَفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ النبـيُّ ﷺ فقال:

«أَعْطُونِي رِدَائي، لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هٰذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمٌ لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بخيلاً ولاَ كَذُوباً ولاَ جَبَاناً».

سَمُرة: أي: شجرةٌ من شجر الطَّلْح.

العِضَاه: الشجر الذي له شوكٌ.

المثـال السـادس:

روى مسلم عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قِيلَ: يا رسولَ الله، ادْعُ على المشركين، قال:

«إنّي لَمْ أُبْعَثْ لعَّاناً، وَإنَّما بُعِثْتُ رَحْمةً».

المثـال السابـع:

روى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن عائشة رضي الله عنها، أَنَّها قالت: يا رسول الله، هَلْ أتَىٰ علَيْكَ يَوْمٌ كانَ أشدَّ مِنْ يَوْم أُحُد؟ فقال:

«لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، فكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَة، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِب[1]، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَاداني، فقال: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِم».

قال: «فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ».

فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً».

أَنْ أطبقَ عليهم الأخشبين: الأَخْشَبَان هما جبلا مكّة.

المثـال الثامـن:

رُوِيَ أنّ أعرابيًّا جاء إلى رسُول الله ﷺ يَطْلُبُ منه عطاءً، فأعطاهُ الرسولُ، ثمّ قال: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟» قال الأعرابـي: لا، ولا أَجْمَلْتَ.

فَغَضِبَ المسلمونَ وقَامُوا إليه، وقد هَمُّوا أن يُؤَدِّبُوه بالْعُنْفِ، فأشارَ إليهم الرسولُ ﷺ أَنْ كُفُّوا، ثُمَّ قَامَ ودَخَلَ مَنْزِلَه، فأرسَلَ إليه وزاده شيئاً، ثم قال له: «أَحْسَنْتُ إليك؟» قال: نَعَمْ، فجَزَاكَ اللَّهُ من أَهْلٍ وعَشِيرَةٍ خيراً، فقال له النبيُّ ﷺ: «إِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ، وفي نَفْسِ أَصْحَابِـي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيّ، حَتَّىٰ يَذْهَبَ مَا فِي صُدُورِهِمْ عَنْكَ» قال: نعم.

---

(١) قرْنُ الثعالب: ميقات الإحرام للقادم إلى مكة من الطائف، ويسمّىٰ أيضاً قَرْنَ المنازل.

فلَمَّا كَانَ الْغَدُ جَاءَ، فقال النبيّ ﷺ: «إنَّ هَـٰذا الأَعْرَابِيَّ قَالَ مَا قَالَ فَزِدْنَاهُ، فَزَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ، أَكَذَلِكَ؟» قالَ: نَعَمْ، فَجزاكَ اللَّهُ من أَهْلٍ وعَشِيرَةٍ خيراً.

فقال الرسولُ ﷺ:

«مَثَلِي وَمَثَلُ هَـٰذَا كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ، فاتَّبَعَهَا النَّاسُ، فَلَمْ يَزِيدُوهَا إلاَّ نُفُوراً، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا، فَقَالَ لَهُمْ: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي، فَإِنِّي أَرْفَقُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ، فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَأَخَذَ مِنْ قُمَامِ[1] الأَرْضِ، فَرَدَّهَا، حَتَّىٰ جَاءَتْ واسْتَنَاخَتْ، وشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، واسْتَوَىٰ عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ».

وفي سيرة الرسول من نظائر هذه الأمثلة روائعُ تُحْتَذَىٰ، صلوات الله وسلاماته عليه.

* * *

(١) قُمَام: جَمْعُ قُمامَة، وهي الكُناسة التي تجمع من البيوت والطرق.

الفصل الرابع

وجوبُ تَحلّي حامل الرسالة بالصفات التي ذكر الله عزّ وجلّ أنَّها صفات عباد الرّحمٰن ليكون أسوة حسنة

وفيه مقولتان:

المقولة الأولىٰ: مقدمة تحليليّة عامة مع بيان الشروط التي هي بمنزلة الأسس الأولى لكلّ داعٍ لأمر أو ناصحٍ به.

المقولة الثانية: صفات المرشَّحِ لأن يكون إماماً للمتقين.

المقولـة الأولـى

ـ ١ ـ
مقدمة تحليليّـة عامة

كلّ من يحمل مسؤولية رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنّصح والإرشاد، أو رسالة الدعوة إلى دين الله، من مستوى الفئة الخاصة فئة المتخصّصين لحمل إحدى هاتين الرسالتين أو كليهما، يجب أن يكون أُسوةً حسنةً لمن يُؤَدِّي رسالته بينهم، ويجب أن يتحلّى بصفاتٍ تؤهّله لأن يكون إماماً للمتقين.

فحامل رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فئة المتخصصين يَضَعُ نفسَهُ إماماً لمن يَحْمِل بينهم رسالَتَه، وكلُّ مؤمن مسلم داخلٌ في عموم المتقين، إذْ له درجةٌ ما من درجات مرتبة التقوى، ومن يَضَعُ نَفْسَه إماماً للمتقين آمراً بينهم بالمعروف ناهياً عن المنكر ناصحاً مرشداً، لا بُدَّ أن يَرْتَقي في صفاته السلوكية حتى يتجاوز أعْلَىٰ درجات المتقين، ويَكُونَ ولو ببعض أعماله من الأبرار، ليكون أسوةً حسنة للمتقين، وأن يجتهد أيضاً حتى يكون ولو ببَعْض أعماله من المحسنين.

وكذلك الداعيةُ المتخصص الذي يَحْمِل رسالةَ الدعوة إلى دين الله بين غير المسلمين، أو من هم بحكم غير المسلمين، ويضَعُ نفسَهُ في منزلة داعٍ متخصّص، لا بدّ أن يكون في أخلاقه وسلوكه ودعوته مثَلاً صالحاً للاقتداء

به، ولا أقلّ من أنْ يكونَ إماماً للمتقين، مع زيادة أهليَّةٍ فكريّة، ونفسيّة، وعلميّة، وبيانيّة، تَتَطَلَّبُها رسالةُ دعوة غير المسلمين إلى الإسلام بصفةٍ تخصّصيّة.

- ٢ -

الشروط الأساسية الأولى لكلّ داع لأمْرٍ أو ناصح به مُرْشِدٍ إليه

لا يكون حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أُسْوَةً حسنَةً، ما لم يكن مؤمناً بما يدعو إليه، أو ينصح به، ومطبّقاً بسلوكه النفسيّ وسلوكه الْجَسَدِيّ ما يدعو إليه أو ينصح به، وعلى بصيرةٍ بما يدعو إليه أو ينصَحُ به، أو يرشِدُ إليه.

فهي ثلاثةُ شروطٍ أساسيّة أُولَىٰ لكلّ داعٍ إلى أمر، أو ناصح به ومُرْشِدٍ إليه:

١ - شرط الإيمان بما يدعو إليه أو ينصح به ويرشد إليه.

٢ - شرط الأداء الفعليّ لما يدعو إليه أو ينصح به ويرشد إليه.

٣ - شرط البصيرة بما يدعو إليه أو ينصح به ويُرشد إليه.

وفميا يلي شرحُ هذه الشروط:

الشرط الأول: الإيمان بما يدعو إليه أو ينصح به ويرشد إليه.

من البَدهيِّ أنّ هذا الشرط شَرْطٌ طبيعيٌ لا بُدَّ من تحقُّقه في كلِّ داعٍ إلى قضيّةٍ ما، أو مبدأ من المبادىء، وإلاّ فهو منافِقٌ كذّابٌ، أو صاحبُ مَصْلَحَةٍ خَاصَّةٍ من قيامه بدعوته، ويكونُ حالُهُ كَحَالَ أَهْلِ بلْدةٍ ماتَ مؤذّن جامعها الكبير الذي كان نديَّ الصوت وَحَسَنَه، فلم يجدوا في المسلمين ذا صوت نديّ حسنٍ يؤذّن لهم، فاستأجروا رجُلاً غير مسلم أعجبهم صوتُهُ ليُؤَذِّن لهم،

فما استطاع أن يقول في أذانه: «أشهد أن لا إلَه إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله» لأنّه غير مؤمن بمضمون هاتين الشهادتين، فصار ينادي: أشهد أن مسلمي هذا البلد يشهدون أن لا إلَه إلاّ الله، وأشهد أنهم يشهدونَ أَنَّ محمدًا رسول الله.

وبما أنَّه شرطٌ عقليٌّ بدهيٌّ كان من الحكمة أن يُبيّن الله تعالى أنّ رُسُلَهُ من المؤمنين بما دعوا إلى الإيمان به، أو من أوّل المؤمنين إذا كانوا في الواقع أوَّلَ من آمن بما دَعَوْا إلى الإيمان به، إذْ قَدْ يُوجَدُ من أقوامهم من سَبَقَهم إلى الإيمان، باعتبار أن ما يَدْعُون إليه مبنيٌّ على رسالةٍ سابقةٍ، يُوجَدُ في القوم بَقِيَّةٌ يؤمنون بها، أو هو رسولٌ تابعٌ كهارُونَ مع موسىٰ عليهما السلام.

ونجد في القرآن المجيد أدلّةً على هذه الحقيقة، فمنها ما يلي:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾.

٢ ـ ولمّا كان موسىٰ عليه السلام أوَّل مَنْ آمَنَ إيماناً غيبيًّا كاملاً من قومه قال بعد أن أفاق من صعقته الّتي صعقها في مُناجاتِهِ لِرَبّه: ﴿ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كما أبانَ الله عزّ وجلّ هذا بقوله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

٣ ـ وَلَمَّا سَأَل إبراهيم عليه السلامُ ربَّه قائلاً: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَىٰ» قال الله عزّ وجلّ له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ فقال إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. «انظر الآية (٢٦٠) من سورة (البقرة)».

فكلُّ داعٍ إلى الله سواءٌ أكان رسولاً أمْ تابعاً من أتباع الرسول لا بُدَّ أن يكون من المؤمنين المستوفين للإيمان الصحيح الصادق، وهذا أوّلُ شرط من الشروط اللازمة له.

الشرط الثاني: الأداء الفعلي لما يدعوإليه أو ينصح به ويُرْشد إليه.

إن التزام الداعي في سلوكه بأداء ما يدعو إليه، والتزام الناصح المرشد الآمِرِ بالمعروف والنّاهي عن المنكر بفعل ما يأمر بفعله، وترك ما ينهى الناس عن فعله شرط أساسيٌّ في مفاهيم الناس لتَقَبُّلِهِمْ ما يدعوهم إليه، أو يأمرهم به، أو ينهاهم عنه، وقليلٌ جدًّا من الناس الذين يَفْصِلُونَ بَيْنَ دَعْوَةِ الداعي، أو نُصْحِ الناصح، وبَيْنَ سلوكه الخاصّ.

إنّ المخالف في سلوكه لما يدعو إليه أو يأْمُرُ به أو ينهىٰ عنه بمثابة من يقول للنّاس بلسان حاله: إنّ ما أنصحُكُمْ به ليس ذا قيمة حقيقيّة، ولو كان ذا قيمةٍ حقيقية لكُنْتُ من الملتزمين بتطبيق ما أنْصَحُكُمْ به.

● ولهذا خاطب الله عزّ وجلّ رسولَه بقوله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

● وخاطب الله عزّ وجلّ رسولَه في سُورَة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) بعد أن ذَكَر له أنَّه شرَع لهذه الأمّة من الدّين ما وصّىٰ به الرُّسُلَ

السابقين، وما أوصَىٰ به إليه، فقال تعالَىٰ له:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ . . . ﴿١٥﴾﴾.

● ولمّا كان الالتزام بالصراط المستقيم في التطبيق الْعَمَلِيّ هو الإسلام التَّنْفِيذيّ، لإعلان الطاعة والإسلام لله في أوامره ونواهيه، قال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

وأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ: أي: وأنا أَوَّلُ الَّذِينَ يُعْلِنُون إسلامهم وطاعَتَهُمْ لله عزّ وجلّ، وأوَّلُ المنفّذين لأحكام الإسلام، وتطبيقِ أوامرِ الله ونواهيه في سلوكي النَّفْسِيّ والْجَسَدِي.

وقال نوحٌ عليه السَّلامُ لقومه كما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿. . . وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: من المطبقين لأحكام الدِّين، فليس لي استثناءٌ خاصٌّ من التطبيق.

● وأبانَ الله عزّ وجلّ مِيزَةَ من يأمُرُ بالعدل وهو على صراط مستقيم في سلوكِه العمليّ الظاهر والباطن، وأنّه خير أقسام الناس، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

ونفهم من هذا أنّ الأبكم الّذي لا يقدر على شيءٍ هو أعْلَى منزلةً ممَّن

يَدْعُو إلى ضلالةٍ أو يأمر بالظلم والجور، وأعْلَىٰ منزلةً من الذي يأمر بالعدل بلسانه فقط، وهو متنكّب الصراط المستقيم في عمله، فأقسام الناس أربعة:

١ ـ داعٍ إلى ضلالة يأمر بالظلم والجور.

٢ ـ داعٍ إلى هدى يأمُرُ بالعدل ولا يعمل به.

٣ ـ أبْكم لا يقدر على شيء، وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجّهه لا يأت بخير، فهو معذورٌ لأنّه ناقص الأهلية بالخلقة التي خُلِقَ عليها، وهو أعلى منزلةً من القسمين السابقين.

٤ ـ داعٍ إلى هُدًى يأمُرُ بالعدل وهو على صراط مستقيم، وهو كامل الأهليّة، وهذا أشْرَفُ الأقسام.

وإيجازاً في التعبير القرآنيّ عُرِضَتِ القسمةُ فيه ثَنَائِيَّةً، لأن القسمين الأولَيْن ساقطان ببداهة الفكر، ويمكن إدراكهما بالتأمّل.

فينبغي أن يكون حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متحقّقاً في سلوكه بما يدعو إليه، أو ينصح به.

● وقد ذمّ الله عزّ وجلّ علماء اليهود الذين يأمرون الناس بالبرّ وينْسَوْنَ أَنْفُسَهم، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) مخاطباً عُلَمَاءَ بني إسْرَائيل:

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أفلا تَعْقِلُونَ؟: استفهامٌ إنكاريٌّ فيه تَلْويمٌ وتَوْبيخ.

● وكتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى مَلِكَيْ عُمان، بعثه مع عَمْرو بْنِ العاص رضي الله عنه، جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد بن عبد الله إلى جَيْفَرَ وعبْدٍ ابْنَيْ الجَلنْدىٰ، سَلاَمٌ عَلَىٰ مَنِ اتّبَع الْهُدَىٰ، أمَّا بعدُ: فإنّي أَدْعُوكُمَا بِدِعَايَةِ الإِسْلاَم، أسْلِمَا تَسْلَمَا، فإنّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَىٰ النّاسِ كَافَّةً، لِأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ، فَإِنَّكُمَا إِنْ أَقَرَرْتُمَا بالإِسْلاَم وَلَّيْتُكُمَا، وَإِنْ أَبَيْتُمَا أَنْ تُقِرَّا بالإِسْلاَمِ فَإِنَّ مُلْكَكُمَا زَائِلٌ عَنْكُمَا، وَخَيْلٌ تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمَا، وتَظْهَرُ نُبُوَّتِي عَلَىٰ مُلْكِكُمَا».

وكَتَبَ أُبَـيُّ بْنُ كَعْبٍ وخَتَمَ الكِتَابَ.

وبعد حوارٍ طويلٍ بيْنَ عَمْرو بن الْعَاصِ والْمِلِكَيْنِ الأَخَوَيْنِ أَسْلَمَا، وجاء في بعض أخبار إسلام مَلِكِ عُمَانَ «جَيْفَر» أنَّهُ قَالَ:

«إِنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ دَلَّنِي عَلَىٰ هَـٰذَا النَّبِـيّ الأُمِيّ أَنَّهُ لاَ يَأْمُرُ بِخَيْرٍ إلاَّ كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَخَذَ بِهِ، وَلاَ يَنْهَىٰ عَنْ شَرٍّ إِلاَّ كَانَ أَوَّلَ تَارِكٍ لَهُ، وَأَنَّهُ يَغْلِبُ فَلاَ يَبْطَرُ، ويُغْلَبُ فَلاَ يَضْجَرُ، وَأَنَّهُ يَفِي بالْعَهْدِ، وَيُنْجِزُ الْمَوْعُودَ».

فاستَدَلّ مَلِكُ عُمانَ على صِدْق الرسول ﷺ بِتَحْلِّيه بما يَدْعُو إليه، فاسْتَجَابَ لدعوته، كما جاء في هذه الرواية.

الشرط الثالث: البصيرة بما يدعو إليه أو ينصح به.

البصيرة هي العلم الْجَلِيُّ الواضح بما يدعو إليه أو ينصح به، وهي في القلب والفكر بمثابةِ الْبَصَرِ بالنسبة إلى المرئيّات الحسيّة،

وهذا الشرط شرطٌ طبيعيّ عَقْلِيٌّ بَدَهِيٌّ أيضاً، فمَنْ لم تكن لديه بصيرة، بما يدعو إليه أو يَنْصَحُ به، فقد يَدْعُو إلى باطل وهو يحسبُه حقًّا، وقد يأمر بالمنكر وهو يحسَبُ أنه يأمر بالمعروف، وقد ينهىٰ عن المعروف وهو يحسبُ أَنَّهُ يَنْهَى عن المنكر.

● وتنبيهاً على هذا الشرط قال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

فدلّت هذه الآيَةُ على أنْ الرَّسُولَ ﷺ يدعو إلى الله وهو على بصيرةٍ تامَّةٍ بما يَدْعُو إليه، أي: على عِلْمٍ جليٍّ وَاضح لاَ شُبْهَةَ فِيهِ، فهو مُتَمَكِّنٌ من هذهِ البصيرة بمقتَضَىٰ عُلُوِّه عليها: ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾.

ودلَّت عَلَىٰ أنَّ من اتَّبَعَ الرَّسُولَ مُشَارِكٌ له في الدعوة إلى الله على بصيرة، وهذا يَدُلُّ على قضيَّتين:

الأولى: أنّ كُلَّ قادِرٍ على أنْ يمتلك البصيرة بأسُسِ أركان الإيمان فإنّ عليه أن يَسْعَىٰ آخذاً بأسباب العلم حتَّىٰ يَمْتَلِكها.

الثانية: أنْ من كانت لديه هذه البصيرة، فإنّ عليه أنّ يُسَاهم بنَصِيبٍ ما في الدعوة إلى الله، في أيّ مجالٍ من مجالات أنشطته في الحياة.

* * *

- ١ -

نظـرة إجمـالية
إلى صفات المرشّح لأن يكون إماماً للمتقين

جاء في القرآن المجيد بيان صفات المرشح لأنْ يكون إماماً للمتَّقِين، بأنّه ينبغي أن يكون من عباد الرَّحمٰن، وأن يتحلّىٰ بصفات عباد الرحمٰن، الّتي من ضمنها دُعاؤه ربّه أنْ يجْعَلَهُ للمتقين إماماً.

وعباد الرحمٰن المرشحون لأن يكونوا أئمّةً للمتقين يجب أن يتحقَّقُوا بأمرين:

الأمر الأول: أن يكونوا مُسْتَوْفين لكلّ حقوق مرتبة التقوىٰ، ويكونُ استيفاء هذه الحقوق بالتزامهم بأداء الواجبات وترك المحرّمات، وإذا وقعت منهم خطايا فعليهم أن يتداركوا أنفسهم بما يُكفِّرها أو يَمْحُوها، وذلك بإتْباع السيئات بالحسنات، وبالتعويض بنوافل الطاعات والقُرُبَات، وبالاستغفار والتوبة والندم.

والتزامُهُمْ بحقوق مرتبة التقوىٰ يُوصِلُهم إلى أعْلَىٰ درجات مَرْتَبة المتقين.

الأمر الثاني: أن يرتقوا فوق مرتبة التقوى بالقيام بأعمال صالحة هي من مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان.

فأعمال البرّ هي من قبيل التوسُّع في الصالحات من السُّنَن والمندوبات ونوافل القُرُبات من أفعال الخير التي تُطْلَبُ من المتقين على سبيل التطوُّع، لا على سبيل الإلزام.

وأعمال الإحسان هي من قبيل زيادة إتقان الأعمال الصالحة بسبب شِدَّةِ مُرَاقبة الله عزّ وجلّ عند أداء العمل الصالح، حتّى كأنّ العامل يرىٰ الله عزّ وجلّ وهو يؤدّي من أجله عمَلَه، إذْ يَسْتَصْحِبُ مع عمله الصالح الشُّعُورَ في داخل نفسه بأنّ الله عزّ وجلّ يَرَاهُ دواماً، وهو حاضرٌ معه دواماً، لا تغيبُ عنه حَرَكَةٌ ظاهرة ولا حركةٌ باطنة، حتّىٰ ما يمُرُّ في خواطر الفكر وحركات النفس ومشاعرها.

وقد جاء في القرآن المجيد لدى بيان صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين، ذِكْرُ الصفات المطلوبة التي هي من حقوق مرتبة البرّ، أو مرتبة الإحسان، وذِكْرُ بعض الصفات المهمّة التي هي من حقوق مرتبة التقوىٰ، للإشعار بأنّ الارتقاء إلى منزلة عباد الرحمن بأعمال البرّ والإحسان التي يرتقي بها العبد المؤمن في درجات الأبرار والمحسنين، لا بُدَّ أن يكون بعد الارتقاء في درجات مرتبة التقوىٰ، فاستيفاء حقّ المرتبة الأدْنَى شَرْطٌ طبيعيٌّ للارتقاء إلى المَرْتَبة التي فَوْقَها.

إنّ مرتبة المتقين ذاتُ درجاتٍ كثيرات، تبدأ بالإيمان الصحيح، وترتقي الدرجات حتى درجة أداء كلِّ الواجبات، وتركِ كلّ المحرمات، ولا يهبط عن أعلى درجاتها من أَخَلّ ببعض حقوقها أحياناً إلاّ أنّه تداركَ نفسه بالتكفير أو المحو أو التعويض كما سبق بيانه.

ومرتبةُ الأَبْرَار ذات درجات كثيرات أيضاً، ويكون الارتقاء في درجاتها بالتوسّع في أعمال الخير المشروعة التطوعيّة، التي يتقرّب بها العبد إلى ربّه بمراضيه.

ومرتَبَةُ المحسنين ذات درجات كثيرات أيضاً، ويكون الارتقاء في درجاتها بمقدار تحقيق الإحسانِ في الأعمال التي هي من مرتبة المتقين، والأعمال التي هي من مرتبة الأبرار، والإحْسَانُ في العمل قد شرحه الرسول ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» وقد سبق آنفاً تحليله.

فكلّ ما يُطْلَب على وجه الإلزام من المتقين مطلوبٌ من عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين.

ثم عليهم بعد ذلك أن يتحقّقُوا بصفاتٍ أخرى ذكرها الله عزّ وجل أوصافاً لعباد الرحمٰن، وهي من مرتبة البرّ، أو مرتبة الإحسان.

- ٢ -
نظـرة تفصيـليّة
إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين

الصفات التي ذكرها الله عزّ وجلّ لعباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمّةً للمتقين تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: صفاتٌ مُتَغَلْغِلَةٌ في عُمْق النفس.

القسم الثاني: صفاتٌ في السلوك الظاهر.

- أمّا الصفات المتغلغلة في عُمْقِ النفس فهي ثلاث:

الصفة الأولى: الإيمان بالرحمن إيماناً صحيحاً صادقاً متنامياً، ومعلوم أَن مقداراً من هذه الصفة هو من مطلوبات مرتبة التقوى، أمّا المقادير الزائدة فوق حدود حقوقها فهو من مرتبة البرّ، أو من مرتبة الإحسان، والمطلوب من المرشح لأن يكون من عباد الرحمن وإماماً للمتقين أن يكون إيمانه زائداً على مطلوبات مرتبة التقوى.

والمذهب الحق أن الإيمان يزيد وينقص، وله مقدارٌ هو من مطلوبات مرتبة التقوى، فإذا زاد دخل في درجات مرتبة البرّ، فدَرَجاتِ مرتبة الإحسان.

الصفة الثانية: صدق التوكل على الرحمٰن، مع القيام بالأسباب التي أمر الله عزّ وجلّ باتخاذها.

ولهذه الصفة درجات دنيا هي من حقوق مرتبة التقوى، أمّا الدرجات العليا فهي من حقوق مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، والمطلوب من المرشّح لأن يكون من عباد الرحمن وإماماً للمتقين، أن يكون توكُّلُه على الرحْمٰنِ من مستوىٰ الدرجات العليا.

وقد دلّ على هاتَيْنِ الصفتين قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الْمُلْك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول) خطاباً للرسول فلكلّ داعٍ إلى الله من أمّته، في تعليم جدليّ يجادل به الداعي إلى الله الكافرين المعاندين:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: آمنّا به إيماناً عظيماً متنامياً، وتوكّلْنا عليه توكلاً عظيماً لا يتزلزل.

الصفة الثالثة: خشيةُ الرحمٰن بالغيب، وهذه الصفة ثمرةٌ من ثمرات الإيمان القويّ الماثل في التصوّراتِ ذاتِ الأثر في حركة النفس ومَشَاعِرِ القلب.

ومن آثار خشية الرحْمٰن بالغيب، أن يكون العبد المؤمن أوّاباً إلى الله بالتوبة والنَّدَم، واتْبَاعِ السيئةِ الحسنةَ، عند كلّ معصية أو مخالفة، حَفِيظاً على الْتزَامِ حُدود الله وفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

وقد دلّ على هذه الصفة قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

والأوّاب الحفيظ لا تنزل درجته عن أعْلَىٰ درجات المتقين، ولا بدّ أن يكون من المتطوّعين بالنوافل ومن المحسنين أحياناً، فَهُو سالِكٌ في أعمال عباد الرحمن من مرتبتي الأبرار والمحسنين.

* * *

● وأمّا صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمّة للمتقين في السلوك الظّاهر، فهي اثنتا عشرة صفة جاء بيانها في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وبعض هذه الصفات هيَ مِنْ حقوق مرتبة التقوىٰ، وقد ذكرت ضمن الصفات التي هي من حقوق مرتبة البرّ، أو من حقوق مرتبة الإحسان للإشعار كما سبق بيانه بأن حقّ المرتبة الأدنىٰ شرط طبيعيٌّ للارتقاء إلى المرتبة الّتي فَوْقَها.

وفيما يلي ذكر مفصل لهذه الصفات دون شرح موسّع، لأنّني شرحتها في رسالة مفردة بعنوان: «صفات عباد الرحمن في القرآن ـ دراسة في طريق التفسير الموضوعيّ» وفي كتابي: «تدبّر سورة الفرقان في وحدة موضوع» فأحيل عليهما، ولا داعي إلى إعادة الشرح في هذا الكتاب.

الصفة الأولى: أنّهم يَمْشُون على الأرض هَوْناً، أي: يمشون على الأرض لتحقيق مطالبهم من الحياة بخفّةٍ ورِفْقٍ وسكينة ووقار، فهم لا يمشون بعُنْفٍ، ومَرَحٍ، وبطَرٍ، وتَبَخْتُرٍ، وتعاظم، وضربٍ على الأرض، وتَطاوُلٍ في السماء، ولا يَسْعَوْن في الأرض فساداً، أو طلباً للعلوّ فيها، والاستئثار بحظوظها الفانية، ولا يطلبون معايشهم بالسعي الحثيث، بل بالْمَشْي هَوْناً برفق.

ولدى التحليل نلاحظ أن بعض ما يخالف هذه الصفة هو من منافيات

حقوق مرتبة التقوى، كمشية المستكبرين الْبَطِرين، وكمشية الساعين في الأرض فساداً، وكمشية أهل الفسق والفجور، فهي مِشْيَاتٌ محرّمات تنافي التقوى.

ونلاحظ أنّ بعض ما يخالف هذه الصفة هو من منافيات حقوق مرتبة البرّ، فالْخَفْقُ في الأسواق بسَعْيٍ حثيث وهمّة مُجْهِدَةٍ لطلب معايش الحياة الدنيا لا ينافي أحوال المتقين، لكنّه ينافي أحوالَ الأبرار والمحسنين.

فاستكمال صور هذه الصفة هو من حقوق مرتبة البرّ، أو من حقوق مرتبة الإحسان، وهذا الاستكمال هو من صفات عباد الرحمن المرشَّحِين لأن يكونوا أئمةً للمتقين.

الصفة الثانية: أنّهم إِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً، أي: إذا خاطبهم الجاهلون بجهالةٍ وسَفَهٍ مستثيرين غضَبَهُمْ، قالوا لهم: سلاماً، أي: نُسَلِّمُ سلاماً، ويفارقون بإعلان السلام مجلس الجاهلين، ولا يردّون على الجهالة بمثلها، بل يضبطون أنفسهم بالصبر والحلم وسعة الصدر.

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة البرّ، أو مرتبة الإحسان، لأنّ ردّ الأذى بمثله لا يُنَافي حقوق مرتبة التقوى، إذْ هو من العدل، ولكنّه لا يكون من صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمّةً للمتقين.

إنّهم يقطعون على الجاهلين طريق الفتنة والشَّرّ، ويُطْفئون الشرارة الأولى الّتي لو قُوبِلَتْ بمثْلِها لكانت ناراً متأجّجةً قد تجرُّ إلى قتالٍ كبير، وشرٍّ مُسْتطير.

الصفة الثالثة: أنَهُمْ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجّداً وَقياماً، أي: يجعلون قسماً من ليلهم لعبادة ربّهم، يتهجّدون بكثرة السجود لله وحده، وكثرة القيام لله وحده، ذاكرين الله عزّ وجلّ بألسنتهم، وقلوبهم، وأفكارهم، يُمجّدونه، ويَحْمَدُونه، ويُسَبّحونه، ويقدّسون له، ويسألونه خوفاً وطمعاً، يخشون عذابه، ويرجون ثوابه.

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، لأنّ قيام اللّيل وإحياءَهُ بعبادة الله في الصلاة والذكر هو من نوافل القُرُبات، وليس من الواجبات، فهو من صفات عباد الرحمن المرشَّحِين لأن يكون أئمّةً للمتقين.

الصفة الرابعة: أنّهم يقولون في دعائهم لربّهم الذي يكرّرونه: رَبَّنَا اصْرِفْ عنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، أيْ: وَفِّقْنَا لأداء الواجبات وترك المحرّمـات، واغفِرْ لَنَا خطايانا وذُنُوبنا حتّىٰ تَحْمِيَنَا بذلك من عذاب جهنّم.

ويظهر أنّ هذه الصفة هي من حقوق مرتبة التقوىٰ، إذْ يكفي للحماية من عذاب جهنم أن يَسْتَوْفِيَ المؤمن حقوق هذه المرتبة، وقد علمنا أنّ كلّ حقوق هذه المرتبة هي من صفات عباد الرحمٰن، لأن حق المرتبة الأدْنَىٰ شرط طبيعيٌّ للارْتقاء إلىٰ المرتبة التي فوقها.

الصفة الخامسة: أَنَّهُمْ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُروا وكان بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً، أي: إنهم يُنْفِقُون باعتدال فلا يُسْرِفُون في الإنفاق على أنفسهم وأهليهم، ولا يُضَيِّقون مع استطاعتهم أن يوسّعوا على أنفسهم وأهليهم، وهذا من عقلهم وإدارتهم الاقتصادية الحكيمة.

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة البرِّ أو مرتبة الإحسان، لأن الإسراف في المباحات بمقدارٍ لا يَصِلُ إلى حدِّ التبذير الذي هو سِمَةُ إخوان الشياطين قد لا يتنافى في كثير من صوره مع واجبات التقوى، فالحكمةُ الاقتصادية في الإنفاق هي من صفات عباد الرحمن المرشَّحِين لأن يكونوا أئمةً للمتقين.

الصفة السادسة: أَنَّهُمْ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهاً آخر، أي: لا يسألون في دعائهم غير الله، ولا يَعْبُدون في عباداتهم إلاّ الله وحده، فلا يشركون بعبادته شيئاً.

وهذه الصفة هي أولَىٰ حقوق مرتبة التقوى، والإخلال بها ينقض

الإيمان، ويُدْخل في الكفر، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وقد سبق أن علمنا أن كلّ حقوق مرتبة التقوى هي من صفات عباد الرحمٰن المرشحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين، وذكْرُ هذه الصفة يُشْعِرُ بأن أئمة المتقين قد يتعرّضون لضغوط سُلْطانية أو غيرها تجعلهم يُخِلّون بمقتضيات هذه الصّفة مداراةً أو خوفاً على مناصبهم، فكان من الحكمة التَّنْبيهُ عليها.

الصفة السابعة: أَنَّهُمْ لاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاّ بالْحَقِّ.

ومعلومٌ أنّ هذه الصفة هي من كبريات حقوق مرتبة التقوى، فقتل النفس التي حرّم الله قتْلَها من الكبائر العظمىٰ، وقد علمنا أنّ كلّ حقّ من حقوق مرتبة التقوى هو من صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين.

وذكر هذه الصفة ضمن صفات عباد الرحمن يُشْعِر بأن أئمة المتقين قد يتعرّضون لضغوطٍ سلطانية أو غيرها تجعلهم يخلّون بمقتضياتِ هذه الصفة، كأن يُفْتُوا بإهدار دَم مُعَارِضٍ للسلطانِ معارضةً لا تقتضي إهدار دمه، فتكون فَتْوَاهُمْ مشارَكةً في القتل الذي حرّمه الله، وإنّما أَفْتَوْا مداراةً للسلطان أو خوفاً على مناصبهم.

وقد يَفْتِنُهُمْ ما هم فيه من سلطان فَيَقْتُلُون منافسيهم فيه بغير حقّ، ليسْلَمَ لهم سُلْطَانُهم.

الصفة الثامنة: أَنَّهُمْ لاَ يَزْنُونَ، ومعلومٌ أنّ هذه الصفة هي من كبريات حقوق مرتبة التقوى، وكلّ حقٍّ من حقوق مرتبةِ التقوى هو من صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين.

وذكر هذه الصفة ضمن صفات عباد الرحمن، يُشْعِرُ بأنّ أئمة المتقين

وهم في مناصبهم قد يَتَعَرَّضون لفتنة قويّة من قبل بعض النساء، فتَنْهَارُ مَعَها مقاومتهم، فيزنون، فكان من الحكمة التَّنْبيه عليها.

ونحن نعلم أنّ لأئمة الضلال مكراً كُبّاراً يتَّخِذُونَه لإغواء أئمة المتقين، حتّى يُسَايِرُوهم أَوْ يُغْضُوا الأنظار عنهم.

الصفة التاسعة: أَنَّهم لاَ يَشْهَدُونَ الزُّور، أي: لا يشهدون شهادةً كاذبة، فالزّورُ الكذب والباطل، ولا يَحْضُرون في مجلسٍ يَتِمُّ فيه أَمْرٌ باطِلٌ غَيْرُ مَشْرُوعٍ ليكونوا شهداء عليه، كعَقْد رِبا، وكقِسْمَةٍ جَائِرَةٍ.

وهذه الصفة هي من كبريات حُقُوقِ مرتبة التقوى، وَذِكْرُها ضمن صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين، يُشْعر بأن أئمة المتقين وهم في مَنَاصِبهم في القضاء أو في الإفتاء قد يتعرّضون لفتنةٍ قويّة تجعلُهُمْ ينزلقون فيشهدون شهادة زور، أو يَقْبَلُونَ شهادة زور وهم يعلمون بطلانَها، أو يحضرون مجلساً يتم فيه أمْرٌ باطلٌ غير مشروع ليكونوا شهداء عليه، فكان من الحكمة التنبيه على هذه الصفة.

الصفة العاشرة: أَنَّهُمْ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً.

اللّغْوُ كُلُّ ما ينبغي أَنْ يُلْغَىٰ ويُتْرَكُ، لعدم تحصيل فائدة منه دنيوية أو أُخرويّة.

إنّ عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين إذا مرّوا باللَّغْوِ مَرُّوا وهم كِرَامٌ في نفوسهم، يكرِّمُونَها عن أن تضيع أوقاتُهُمْ في اللّغو، سواءٌ أكان قولاً أَمْ عملاً، إنّهم يُدْركُون قِيمةَ الْوَقْتِ، ويَعْلَمونَ أنّ الزمن الذي يمرُّ عليهم هو رأسُ مالهم في هذه الحياة، مع ما وهبهم الله من طاقات جسدية وفكريّة ونفسيّة، فإذا سَمَحُوا لأوقاتهم أن تضيع في اللّغْو الذي لا فائدة منه لدنياهم أو أخراهم، فقد بَدَّدُوا من رؤوس أموالهم بمقدار الزَّمَنِ الذي أنفقوه في اللّغو، وهم يعلمون أنّ الخسارة الّتي يخْسَرُونها بذلك لا تُعوَّض.

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة الْبِرّ أو مرتبة الإحسان، إذِ اللّغْوُ الذي لا تُتْرَكُ بسببه واجبات، ولا تُرْتَكَبُ بسببه مُحرّماتٌ، لا يَتَنَافَىٰ مع حقوق مرتبة التقوى، لكنّ عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين يتَرَفَّعُون عن إضاعة أوقاتهم في اللّغو، وإذا مَرُّوا به مَرُّوا كِرَاماً، أي: مرّوا مُروراً عارضاً وسريعاً، فهم لا يطيلون المقام فيه، لأنهم حريصون على أوقاتهم أن تضيع بلا فائدة لآخرتهم أو لدنياهم.

الصفة الحادية عشرة: أَنَّهُمْ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لم يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وعُمْيَاناً.

أي: هم إذا ذُكِّرُوا بآياتِ ربّهم تذكَّروا وتَدَبَّرُوا، وخَرُّوا لله سُجّداً، وسَبّحوا بحمد ربهم، غيْرَ مُسْتَكْبرين، مع حضورٍ فكريّ بمعاني آياتِ الله التي ذُكِّرُوا بها، ولا يَخرُّون عليها كما يفْعَلُ الغافلون والمنافقون خُروراً شكليًا، لا من أعماق قلوبهم ونفوسهم، إذْ تَكُونُ أفكارهم وتصوّراتهم منصرفةً عن آيات الله وما فيها من دلالات، منشغلة لاهيةً بشؤون الحياة الدنيا ومتاعها ولذّاتها ومطامعها، فهم عن آيات الله المشهودَة بمثابة الْعُمْي، وعن آيات الله المتلُوَّة بمثابة الصُّمّ.

أمّا عباد الرحمن المرشحون لأن يكونوا أئمةً للمتقين فإنّهم إذا ذُكِّرُوا بآيات الله خَرُّوا ساجدين لله سامَعين واعين، مبصرين متفكرين.

وهذه الصفة في مستوياتها المرتفعة هي من حقوق مرتبة البرّ، أو مرتبة الإحسان.

الصفة الثانية عشرة: أنّهم يدعون ربّهم بقولهم: ربَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إمَاماً.

فعبادُ الرحمٰن المرشحون لأنْ يَكُونُوا أئمّةً للمتقين يَهْتَمُّونَ بأن يدعوا

ربّهم بدعاءٍ ذي شقّين:

الشقّ الأول: أَنْ يَهَبَهُمُ اللَّهُ قُرَّةَ أَعْيُنٍ من أَزْواجهم وذُرِّيَّاتهم، وهذا لِدُنْيَاهم، ثمّ يكون له امتداد إلى أُخْرَاهم، وإنما يكونون قُرَّةَ أعْيُنٍ لهم في أخراهم إذا كانوا متقين أو أبراراً أو محسنين.

الشقّ الثاني: أن يجعلهم الله للمتقين إماماً، وهذا لأخراهم، أي: أن يُعِينَهُمْ ويوفّقهم للقيام باستيفاء حقوق مرتبة التقوى، والقيام بأعمالِ البرّ والإحسان، حتَّىٰ يكونوا أئمةً للمتقين، يُقْتَدَىٰ بهم في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم، وأن يُوفِّقهم للإخلاص في أعمالهم حتىٰ تكون مقبولةً عنده.

فعلى فئة المتخصصين للقيام برسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو للقيام برسالة الدعوة إلى دين الله، أن يتحلَّوْا بالصفات التي ذكرها الله عزّ وجلّ لعباد الرحمن، إذْ وَضَعُوا أنفسهم في موضع أئمة المتقين النّاصحين المرشدين بأقوالهم وأعمالهم.

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس

وجوب تحلّي حامل الرسالة بالأهليّة البيانيّة

وفيه ثلاث فقرات:

١ ـ وظيفة البيان في حياة الإنسان.

٢ ـ الكلام ذو وجوه كثيرة مختلفة وأساليب شتّىٰ.

٣ ـ البيان المطلوب من حامل الرسالة. وهو يشتمل على ذكر الصفات الّتي ينبغي أن يتحلّىٰ بها الداعي، ليكون ذا بيان مؤثر نافع.

- ١ -
وظيفة البيان في حياة الإنسان

البيان بالكلمة الّتي ينطق بها اللّسان، أو يكتبُهَا القلم، وقد شاع عند أهل اللّغة دلالَتُهَا الاصطلاحيّة على المعنى المراد بها، هو من نِعَم الله الْجَلِيلَةِ على الناس، إذ جَعَلَهُ أيْسَرَ وأوسَعَ وَسَائِلِ التعبيرِ عن الأفكار، وعن صُورِ الأشياء في الذهن، وعن المعاني المجرّدة، وعن الإحساسات والمشاعر الظاهرة والباطنة.

فالبيان بالكلمة بمَثَابَةِ الْجِسْرِ الذي يُوصِلُ ما تدلُّ عليه في ذهن أو نفس الْمُعَبِّر إلَىٰ ذهن أو نفس المتَلَقِّي، ولَوْ تباعَدَتْ بينهما المسافات المكانية والزّمانية، فيُدْرِكُ المتلقِّي المرادَ من كلام متكلّم يَعْلَمُ لُغَتَهُ الّتي عبَّر بها، ولو كان في أبْعَدِ الأرض عنه، أو فِي أبْعَدِ الأَزْمَانِ الخوالي عَنْه، إذَا سَمِعَ مَا نَطَق به، أو قَرأَ ما كتبَه.

هذه الوسيلَةُ التّعبيريَّةُ سواءٌ أكانت منْطُوقَةً أمْ مكتوبة هي من أهم وأوسع وسَائِلِ تبليغ رسالةِ الدَّاعي، إلى مَنْ يُرادُ تبليغُه إيَّاهَا، وتَبْلِيغ رسالة الأمر بالمعروف والنّهْي عن المنكر والنصحِ والإرشاد إلَىٰ مَنْ هي مُوجّهَةٌ له.

وقد امْتَنَّ الله عزّ وجلّ على الإنسان بأنّه علّمه البيان، لما يُؤَدِّيه الْبَيَانُ المنطوقُ والمكْتُوبُ من نَشْرِ العلومِ والمعارف وتدوينها، وتَعْبِير الناس عما يختلج في نفوسهم وأفكارهم وأذهانهم وإحساساتهم ومشاعرهم مما يريدون

إعلام الآخرين به، لغرض من أغراضهم في الحياة، فقال الله عزّ وجلّ في أوّل سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾.

وامتنَّ الله عزّ وجلّ على الإنْسَان بأنّه هداه إلى كتابة الرّموز الدالّة على الكلام المنطوق بالقلم، فكان الْقَلَمُ من أَجَلِّ وسائل تدوينِ العلوم وتَنَاقُلِهَا عَبْرَ الأجيال، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) خطاباً للرسول محمّد ﷺ ولكُلّ فَرْدٍ من أمّته:

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾.

والبيانُ الكلاميُّ هو وسيلة خطاب الله لعبادِه عن طريق المبلِّغين من رُسُلِه، وهذا الخطابُ قد اشتملَ على الإقناع والنُّصْح والموعظة الحسنة بالترغيب تبشيراً، والترهيب إنذاراً، وقد جاءت هذه العناصر البيانية بأسلوب الحديث من مُحَدِّثٍ هو الرَّبُّ جلَّ وعَلاَ، ومُتَحَدَّثٍ إليه هو الْعَبْدُ الذي أوجَدَهُ ربُّه وهو يحيا بهباتِ ربّه له، وإمدادِه إيّاه لحظةً فلحظةً بالحياة وأسبابها، ولو كان هذا العبد جاحداً كافراً بربّه آبقاً عن طاعته.

ولمَّا كانَتْ هذه العناصِرُ البيانيّة قد جاءت بأسلوب الحديثِ الذي هو خَيْرُ وسائل التبليغ وأكرمُهَا لمخلوق وضعه خالقه في الحياة الدنيا موضع الامتحان، ومنَحَهُ الحريّة في أن يؤمن أو يكْفُر، ويُطِيعَ أو يَعْصي، كان من دقّة البيان أن يُعَبّر الله عزّ وجلّ عن كلامه الذي تضمّن الدّلالة عليها بأنّه حديثٌ منه لعبادِه، وقد جاء هذا في قُرابة عشرة نصوص قرآنيّة، فمنها ما يلي:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾.

أي: فدَعْني مَعَ مَنْ يُكَذِّبُ الآن ومستقبلاً، بهذا القرآن الذي أُنَزِّلهُ بأُسْلوب حديثِ الداعي المعلّم الناصح المرشد الذي يُقَدِّم الإقناع بالحكمة، والاستعطاف بالموعظةِ الحسنة المشتملة على الأَخْبَارِ التبشيرية، والأخبار الإنذاريّة.

سنستدرجهم فيما هم فيه من مالٍ ونعمةٍ وقوّةٍ، من حَيْثُ لا يعلَمُون أَنَّهُم مُسْتَدْرَجُون.

وأمْلِي لهم بتطويلِ مُدَّة اختبارهم حتَّىٰ لا يَبْقَىٰ لَهُمْ عُذْرٌ يَعْتَذِرون به يوْمَ الحساب والجزاء.

إنّ كيدي الذي أُنْزِلُه بهم يَوْمَ أَصُبُّ عليهم سوطَ عذابي متينٌ قويٌّ لا يستطيعون مُقَاومته.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول) خطاباً لمنكري أنَّ القرآن كلامُ الله، الذين قدّموا إنكارهم بأسلوب التعجُّب الذي يَسْتَثِير ضَحِكَهُمْ:

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

أي: إنّ الذي يُثِيرُ التعجّبَ والضَّحِكَ حقًّا هو حَالُكُمْ، إذْ تعجبون وتضحكون من هذا الحديثِ الموجَّهِ لكم في آيات القرآن، وهو يشتمل على حقائق وإقناعاتٍ وإرشاداتٍ ونصائحَ وبشاراتٍ وإنذاراتٍ فيها الخير العظيم لكم في دنياكم وأُخْراكُمْ.

سامدون: لَاهُونَ لاعبون ـ ساهون غافلون ـ مشتغلون بالغناء ـ متكبّرون بَطِرُون أشِرُون ـ قائمون جامدون لا تتأثّرون ـ أغبياء ـ مُتَحَيّرون.

وكلّ هذه المعاني مرادة، لأنّ المخاطبين كانوا جماعات ذوات أحوال مختلفات، وكُلٌّ واحدٍ منهم له وصْفٌ من هذه الأوْصَاف.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في آخرِ سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) التي اشْتَمَلَتْ على بيانات إقناعيّة إنذاريّة تخلَعُ قُلوبَ أولي الألباب:

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

وقد جاءت هذه العبارة في الآية (١٨٥) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً.

٤ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فوصف الله عزّ وجلّ كتابَهُ القرآن بأنّه أَحْسَنُ الحديث.

إلى سائر النصوص التي جاء فيها وصف خطاب الله لعباده بالقرآن بأنَّه من نوع الحديث، إذ أنزله الله عزّ وجلّ بأسلوب الحديث، لا بأسلوب قراراتٍ سُلْطَانِيَّة، أو بلاغات عسكرية، أو شتائم عدوانية، أو إنذاراتٍ حربيّة، أو نحو ذلك، وفي الحديث تكريم عظيم لمن يُوجَّه له من ربّ كريم.

ـ ٢ ـ

الكلام ذو وجوه كثيرة مختلفة وأساليبَ شتّى

المعنى الواحد ولَوْ كان حقًّا لا شكَّ فيه، يُمكن التَّعبيرُ عنه بوجوه مختلفةٍ وأساليبَ من القولِ شَتَّىٰ، منها الحسَنُ اللّين المقبول، ومنْها دون ذلك، حتى دركة أقبح القبيح المنفّر المذموم.

فيمكن أن تقول عن ذي العين الواحدة: هو أعور، أو إحدى عينيه عمياء.

ويمكن أن تقولَ عنّه: هو يرى بعين واحدة، وأن تخاطبه بقولك: سلّم الله عينَك المبصرة. أو بقولك: إنّك ترى بعينك المبصرة ما لا يراه ذو عينين مبصرتين. أو بقولك: حافِظْ على عينِك السليمة فهي ميراثُكَ من البصر. أو بقولك: لو سَلِمَتْ عيناك لأريتنا الأعاجيب.

ويأتي أديب فيقول له: وجهك كالسماء في النهار، أي: ليس فيها إلاّ عين واحدة قويّة الإبصار فهي كالشمس.

إلى غير ذلك من تَعْبِيرَاتٍ لا حصر لها.

● ويمكنُ أن تقولَ: جاءني السّاقي بكأس نصفها فارغ، فتَلْفِتُ النظرَ إلى النصفِ الفارغ منها.

يمكن أن تقول: جاءني بكأسٍ قد ملأ لي نصْفَها، فتلفت النظر إلى النصف الممتلىء منها.

● وقدّم أحَدُ طلاَّبِ الداسات العليا بحثاً قرأه لأستاذه بحضور الزملاء، فلم يشأ الأستاذ الحكيم أن يصدم مشاعر كاتب البحث بما يجرحه بعنف، فقال له: لك أجرٌ واحد، مشيراً ضمناً إلى قول الرسول ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْمُجْتَهِدُ فأصابَ فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجرٌ واحد».

● واستدعى أحد الملوك معبِّرَ أَحْلاَمٍ فقال له الملك: رأيت في حُلْمي أنّ أَسْنَانِي كلّها قد سقطت من فمي، فما تأويل هذا الحلم عندك؟!

قال المعبر بسذاجة: يموتُ كلُّ أهلِك الذين يجمعهم بيتُكَ، فالأسنانُ: الأهلُ والأقارب، والفم: البيت الجامع لهم.

فغضب الملك وأمر بأخذه إلى السّجْن وضربه، واستدعىٰ معبِّراً آخَرَ، فقصّ عليه رؤياه، وسأله عن تعبيرها.

فقال هذا المعبّر: يا سيّدي يطولُ عُمْرُكَ في حياتك أكثر من كلِّ أهلك الَّذين يجمعهم بَيْتُك.

فابتهج الملك ومنحه كيساً من الذهب، وأذن له بالانصراف، ثم قال لحاشيته: تعبير هذا للرؤيا لا يختلف عن تعبير المعبّر الأول، إلاّ أنّ أسلوب عبارتيهما هو الذي اختلف، فالأوّل ساءني إذْ أخبرني بموت أهلي، فاستحق السجن والضرب، وهذا قد سرّني إذْ بشّرني بطول عمري أكثر من كلِّ أهل بيتي، فاستحقَّ الثناء والمكافأة.

● والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، يمكن أن يخاطب الفسّاق العصاة المسرفين على أنفسهم فيقول لهم:

يا معشر الْفَسَقَةِ الزُّناة الكذّابين الْخَوَنَةِ الآكلين لأموال النّاسِ بالباطل، إنَّكُمْ ستَلْقَوْنَ عَذَابَ الله في هذه الحياة الدُّنْيَا وفي الآخرة، ما لم تتوبوا إلى بارئكم وتُكَفِّروا عن معاصيكم.

ويمكن أن يخاطبهم بقوله:

يا أيها الذين آمنوا وبايَعُوا على الإسلام لله عزّ وجلّ في أوامره ونواهيه، إيّاكم والزنا والكذب والخيانة وأكل أموال الناس بالباطل، فإنّها مَهَالِكُ، وما بالُ أقوامٍ يفعلون هذه الكبائر، أَلا يَخشون عذاب الله المعجّل في الدنيا وعَذَابَه الأليم المؤجّل إلى يوم الدين؟!!

فالأسلوب الأول منفّر، والأسلوب الثاني جذّابٌ مؤثر.

من هذه الأمثلة نُدْرك أن الكلام ذو وُجُوهٍ مختلفة، وأساليب من البيان شتىٰ.

١ ـ فمنه ما هو سَهْلُ الفهم مُبِينٌ، ومنه ما هو صَعْبٌ شديدُ الكثافة غير مُبِين، ومنه ما هو وسط بينهما، وهو في هذا على درجات متفاوتات.

٢ ـ ومنه ما هو جميلٌ محبَّبٌ للنفوس، ومنه ما هو دُون ذلك، حتى دركة الكلام القبيح المنفّر الذي تشمئزّ منه النفوس، وتتقزَّزُ منه الطباع

وللكلام في مستويات الجمال والقبح درجات ودَرَكات متفاوتاتٌ كثيرات.

٣ ـ ومن الكلام ما هو ليّنٌ، رفيقٌ، رقيقٌ، لطيفٌ، يَسْتَعْطِفُ القلوب والنفوس، وله في هذا درجات متفاضلات.

ومنه ما هو خَشِنٌ جافٍ جارحٌ يؤذي ويثير الغضب، وله في هذا دركاتٌ متنازلات.

٤ ـ ومن الكلام ما هو مُزَيَّن بعناصر جماليّة أدبيّة، وله في هذا درجات متفاضلات.

ومنه ما هو خالٍ من أيّ عنصر جمالي.

٥ ـ ومن الكلام ما هو مُعَقَّد ركيكٌ ممجوج، ومنه ما هو سويُّ البناء والتركيب، ملتزِمٌ بضوابط الكلام الفصيح البليغ.

٦ ـ ومن الكلام ما يُؤدّي المعنى بصورة مباشرة، ومنْهُ ما يؤدِّيه بصورةٍ غير مباشرة، كأن يُساق المعنى مُغطًّى بستور رقيقة أو كثيفة، أو يُساقَ بصُورةٍ متوارية، وقد يصل إلى حدِّ الغموض، أو الرَّمْزِيَّةِ إذا كثرت السُّتُورُ الفكريّة، أو كثُرَ التواري وابْتَعَدَتِ المسافة[1].

ومن الخيْرِ دواماً أَنْ يُخْتَارَ من وجوه الكلام ما هو أكثر تأثيرات، ونافعاً ومُفِيداً في نَفْسِ من يُوجَّهُ له الخطاب، أو يكونُ هو المقصود به، ولو لَم يُوَجَّه له بصُورَةٍ مباشرة.

وحامل رسالة الدعوة إلى الله، أوْ رِسَالَةِ النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مُطَالَبٌ إلزاماً بهذا، حتَّىٰ تُؤدِّي رسالتَه

(١) يحسن بالقارىء الرجوع إلى كتابي «مبادىء في الأدب والدعوة» فقد بسطت فيه وجوه الكلام بَسْطاً يُفِيدُ حاملَ رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والرجوع أيضاً إلى كتابي: «البلاغة العربية».

وظيفتها النّافعة، وحتىٰ لا يكون في أدائه لها مُنَفِّراً، وذا تأثيرٍ ضارٌ مُضَادٌّ لما هو مَرْجُوٌّ من أدائه رسالتَه.

- ٣ -
البيان المطلوب من حامل الرسالة

حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالةِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح والإرشاد يُطْلَبُ منه في بيانه أن يكون مُتَحَلِّياً بعِدَّة صفات:

الصفة الأولى: أن يكون حريصاً على التّأثير النافع في نفس وفكر من يُوجِّه له رسالته، فلا يختار من البيان ما يَعْسُر عليه فهمُه، ولا يَسْتَطيعُ استيعابَ معناه، ولا يَخْتار من أساليب البيان ما يُنَفِّره ويُبْعدُه عن دينِ الله وصراطِه المستقيم، بل يختار من البيان ما يسْهُلُ عليه فهْمُه، ويَسْتَطِيع استيعابَ معناه، ويختار من أساليب البيان ما يجذبه ويملك قلْبَه ونفسه ويُمْتع فكْرَه ويحْلُو لديه، ومن ذلك اختيار القول اللّين، والموعظة الحسنة، التي تبلغ إلى أعماق النفس، والقولُ الذي يبلغ إلى أعمال النفس هو المستجمع للرقة والجمال والحكمة ورعاية كرامة المخاطب به، أمّا القول الخشن القبيح المهين المجافي لشروط الحكمة فلا يمكن أن يكون بليغاً.

الصفة الثانية: أن يُؤَدِّي رسالته وهو مشحونٌ بمشاعرِ الرَّحْمَةِ بمَنْ يُوَجِّه له رسالته، والشفقةِ عليه، والحرصِ على سعادته ونجاته من عذاب الله المعجَّل والمؤجّل، والحرصِ على ظفره بجنّات النعيم يوم الدِّين، اقتداءً بالرَّسُول الرحيم ﷺ.

وعليه أنْ يضع في تصوُّرِه دواماً أنّه يَحْمِلُ الرِّسالة الّتي كان الرّسول ﷺ يضطلع بعبئها الأعظم، وأنّ الله عزّ وجلّ قد بعثه رحمة للعالمين، فقال له في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾.

الصفة الثالثة: أن يضع في تصوّره دواماً أنه مكلّف أن يقتدي بالرسول في تأدية رسالته، وأنّ الرسول ﷺ لم يكن يؤدّي رسالته بدوافع نفسه وأهوائه، بل كان يؤدّيها بالأسلوب البياني الذي أَمَرَهُ الله به، أو أذن له به.

فالأسلوب البيانيُّ الذي أَمَرَهُ الله به نجده في النصوص القرآنية التعليميّة المصدَّرَةِ بقول الله له: ﴿قُلْ﴾ ونحوه.

والأسلوب البياني الذي أذن الله له به، تدلُّ عليه سيرتُه ﷺ في دعوته، وفي أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فهذه السيرة تكشف ما أذن الله له به في قوله له في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ ﴾.

والشاهد في هذا النصّ قولُه تعالى فيه: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾.

أمّا أصل قيام الرسول بالدّعوة إلى الله فقد أمر الله به على سبيل الوجوب، في عدّة نصوص، مثل: **﴿قُمْ فَأَنْذِرْ ـ وادْعُ إلى ربّك ـ فَلِذَلِكَ فادْعُ واسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ـ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾**.

وأمّا ما عَلَّمَ الله رسُوله أنْ يقولَهُ لقومه في المعنى والأسلوب فهو مأمورٌ به على سبيل الوجوب أيضاً أو النذب أو الإرشاد. ثم أذن الله لرسوله بعد ذلك بأن يجتهد في اختيار الأسلوب البيانيّ الذي يراه مُحَقِّقاً للحكمة والموعظة الحسنة، في دعوةٍ ليس فيها تكليفٌ خاصٌّ من اللَّهِ بأسلُوبٍ خاصّ.

وتَتَبُّع دعوة الرسول ﷺ في سيرته وفي السنّة الثابتة عنه، يكْشِفُ وجُوهَ الحكمة والموعظة الحسنة الّتي أذن الله له بها، ليقتَدِيَ بها حَمَلَةُ رسالَتِهِ من بعده.

فالدعاة إلى الله من بعده مُلْزَمُون بالتقيُّدِ بمنهاج الدعوة الرّباني، وبما أذن الله به لرسوله، وكشفته سيرته وسنّته صلوات الله وسلاماته عليه.

الصفة الرابعة: أن يضع في تصوُّره دواماً أنّه بمثابة الأب المربّي الحكيم في معاملة من يؤدّي بينهم رسالته، فَعَلَيْه أنْ يُعَالِجَهُمْ بدافع الأبُوّةِ الحانية، لا بدافع الغضب للنّفس، والانتقام لها، إذا لم يُسْتَجَبْ له.

إنّ المربِّيَ لا يَصِحُّ بحالٍ من الأحوال وهو يُؤدِّي وظيفته التربوية أن يغضب لنفسه، مهما استعصىٰ عليه من يُشْرِفُ على تربيته، فمن يَغْضَبُ لنفسه يسْعَىٰ للانتقام متشفّياً لا مؤدّباً، ومن يغضب لله في دعوته وتربيته ونُصْحِه وأمره ونهيه يتقيّد بما أذن الله به، لأنّه لا يعمل من أجل نفسه، بل يعمل ابتغاء مرضاة ربّه وطاعةً له.

ومنذ اللحظَةِ التي يتجاوز فيها حامل الرسالة حدود ما أذن الله به، يكون تصرّفه من أجل نفسه، غضباً وثأراً لكرامته، أو انتقاماً وتَشَفّياً، أو يكون جاهلاً أو غافلاً عن واجبات رسالته الّتي يؤدّيها.

الصفة الخامسة: أن يضع في تصوُّرِه دواماً أنّه بمثابة الطبيب الذي يعالج مرضاه بالشفقة والنُّصْحِ والحكمة، والحذر عليهم من الهلاك، والحذر على المجتمع من سَرَيَانِ الداء إليه.

إنّ من شأن الطبيب أن يستعطف المريضَ الذي يُعَالِجُه، وأن يَصْبِرَ عليه، ولو نفر منه وآذاه، وأن لا يعتبره عدوّاً فَيُقَاتِلَهُ ويُشَاتمه، بل يُشْعِرُه دواماً بأنّه يعمل لمصلحته رحمةً به، وشفقَةً عليه لتَخْلِيصه من الدّاءِ النازل به، وحماية المجتمع من سريان الداء إليه.

وإذا اقتضت حالةُ المريض معالجَتَهُ بالإكراه في بعض الأحيان، فعلى الطبيب أن يُشْعِرَه بأن استخدام هذه الوسيلة الإكراهية إنّما اقتضتها حالتُه

النفسيَّة، مع وجوب استعماله الدواء الذي يَرْفُضُه، لأنّ صحته متوقفة على استعماله، ومن هذا القبيل معالَجَةُ مدمني المخدراتِ بالقوَّة، وهُمْ كارهون لوسَائِلِ العلاج.

فحامل رسالة الدعوة إلى الله أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طبيب معالج للمنحرفين عن دين الله وصراطه المستقيم، فعليه أن يسير في معالجته على صراط الله، ويعمل بما أمر الله به أو أذن به، وينتهي عمّا نهى الله عنه، وأن يكون همّه دواماً الإصلاحَ والتقويم وإعلاءَ كَلِمَةِ الله، وأن يُرَاقب نَفْسَهُ حتى لا تَدْخُلَها شوائب الانتصار للنفس، وحبّ الاستعلاء والتفوّقِ على الناس برسالته التي يضطلع بمُهِمَّاتها.

الصفة السادسة: أن يكون على علم بأساليب البيان البليغ المهذَّب المؤثر، وأن يتَعلَّم كيْفَ يُواجه الناس برسالته، وكيف يخاطبهم أفراداً وجماعات، بحسب مُسْتَوَياتهم الفكرية، والثقافية، والاجتماعيّة، وبحسب أحوالهم النفسية، في السِّلْم والحرب، والصحّة والمرض، والْغِنَىٰ والفقر، والنَّشَاط والكسل، إلى غير ذلك من أحوال.

فمن المعلوم المشاهد في كلّ مجتمع أنّ الناس على مستويات مختلفات متفاضلات، من العلم، والفهم، والذكاء، والمكانة الاجتماعية، وأنّ كلَّ مستوىً من مُسْتَوياتهم لَهُ أسلوبٌ ومستوىً من الْخِطَاب يلائمه، وأنّه لا يَصِحُّ أنْ يُخَاطب الناس جميعاً بأسلوبٍ واحدٍ، ولا بمضمونٍ فكريٍّ واحد.

إنّ خطاب العلماء يختلف عن خطاب العامّة، وخطابَ الأذكياء الفطناء يختلف عن خطاب متوسطي الذكاء والأغبياء، وخطاب الملوك والرؤساء والقادَةِ يختلف عن خطاب من دونهم من الناس، وخطابَ المرضىٰ يختلف عن خطاب الأصحّاء.

وللأغنياء خطابٌ يخُصُّهم، وللفقراء خطابٌ يلائم أحوالهم، والخطابُ في السِّلْم يختلف عن الخطاب في حالة الحرب، وهكذا إلى سائر أحوال النّاس المختلفة.

فعلى حامل الرسالة أن يُدَرِّبَ نفسه تدريباً طويلاً على استخدام وجوه الخطاب المختلفة، وعلى وضع كلٍّ منها في الموضع الملائم له، وعلى اختيار الأسلوب البيانيِّ الأكثرِ نفعاً للموقف التوجيهي الّذي يؤدّي رسالته فيه، وينبغي أن يكون هذا التدريب قبل أن يحمل رسالته التخصّصية في الدعوى إلى دين الله، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكونَ تدَرُّبُه وهو في طريق التخصُّص.

ومن الخير أن يكون أديباً بليغاً رَقِيقَ الحاشية مُهَذَّباً، مع شجاعة أدبيّة حكيمة، ويَتَهَيأُ له هذا إذا كان لديه الاستعداد الفطري، بكثرة اطّلاعه على النفيس من كلام الأدباء، والنفيس من شِعْر الشعراء، وممارسته الكتابة والمحادثة والخطابة والمحاضرة من مُرْتَجَلٍ ومَكْتُوب، وبكثرة تدبُّره لآيات القرآن المجيد، وتفهُّمه لأقوال الرسول العظيم ﷺ.

ولا بدّ أن يكون لديه قَدْرٌ مناسبٌ من المحفوظات القرآنيّة التي تُنَاسب موضوعاته الّتي يطْرَحُهَا لدى أدائه رسالته، وقدْرٌ وافِرٌ من أحاديث الرسول ﷺ الصالحة للاستشهاد بها عند المناسبات الدّاعيات لها، فهذه المحفوظات تُسَاعده على أن يكونَ بيانُه أكثرَ ارتقاءً في معارج البلاغة الرفيعة، وأكْثَرَ تأثيراً، ولا سيّما إذا استطاع أن يستنبط منها نفائس المعاني، ويَعْرِضَها بتناسق فكري حَوْلَ موضوعٍ متشابك العناصر، في نظرةٍ تكامليّة من الموضوعات التي يُقَدِّمُها لدى أدائه رسالته.

وقد يكون من المفيد جدًّا أنْ تكون لديه ثروة من المحفوظات الشعرية، ذاتِ الأدب الرفيع والبيان البليغ لكبار الشعراء، ممّا يصْلُح

للاستشهاد به في موضوعاته التي يُقَدِّمُها لدى أدائه رسالته، وثروةٌ من المحفوظات النثريّة لكبار العلماء والمفكرين عَبْر التاريخ البشري، ومن الحكم والأقوال المأثورة، ممّا يَصْلُح للاستشهاد به، مع اطلاع واسعٍ على مُسْتَجدات العلوم الكونيّة الثابتة الصحيحة، لأنّها تخدم رسالته التي يقوم بها، وترفع من قيمة بيانه.

وسيأتي إن شاء الله تفصيل بعض هذه المطلوبات من حامل الرسالة، لدى بيان أهليته العلميّة، فذكرها هنا قد جاء في معرض الأهلية البيانية إذْ دعَتِ المناسبة لذكرها.

ومن المفيد جدًّا لاكتساب الملكة البيانيّة، أن يُمَارِسَ كتابة الموضوعات الّتي تَصلُح لمضمون رسالته، ممّا يُعِدُّ نفسه لمخاطبة الناس به، وأنْ يَعْرِضَهُ على ذوي خبرة، وأن يُصْغِي إلى انتقاداتهم، كما ينبغي أن يُصْغِي إلى انتقادات الزُّمَلاء المنافسين، ولا يغضب منها، وأن يفرح بالنَّقْدِ أكثر من فَرحِهِ بالمدح والثناء، وأن يُعدِّل ويصلح ويُحَسِّن فيما سَبَق أن كتبه، ليُدْرِك الْفُروق بين مستويات الكلام حول موضوع واحد.

وينبغي أن يبتعد فيما يقولُ أو يكتب عن التعقيد، وعن الركاكة في التعبير، وعن التكرار والإسْهاب المملّ، وأن يستخدم في كثيرٍ من توجيهاته الأساليب غير المباشرة، وأن يستخدم الإيجاز في البدايات والخواتيم، وعليه أن يلاحظ دواماً أنّ الحقّ المخالف لشهوات النفوس وأهوائها مُرُّ المذاق، وهو يحتاج تغليفاً بما يجمّله ويُحَسّنُه ويجعل مذاقه في الظاهر حلواً.

وقد شرحتُ وظيفةَ البيان البليغ ووجوب أن يكون مطابقاً لمقتضىٰ حال المخاطب في كتابي «مبادىء في الأدب والدعوة» وكتابي «البلاغة العربية» فيَحْسُنُ الرجوع إليهما.

الصفة السابعة: أن يكون على علم بخصائص النفوس الإنسانية،

واختلاف الصفات النفسيّة بين الناس، واختلاف أحوال هذه الصفات، وأن يكون ذا دراية بالفروق الفرديّة، وذا دراية بما يلائم كلَّ صفةٍ نفسيّة وكلّ حالة من أحوالها من خطاب، ليختار نوع البيان الملائم للحالة النفسيّة الّتي يتّصفُ بها مَنْ يوجّه له البيان، أو يكونُ هو المقصود به.

خـاتـمـة:

ولتحقيق الأهليّة البيانيّة المناسبة لا بُدّ من تدريب من يُعَدُّ لِحَمْل الرّسالة على الخطابة، والمحاضرة، والمحادثة، والمحاورة، وكلّ وسائل التأثير والإقناع البيانية.

* * *

الفصل السادس

وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهليّة العلميّة

وفيه مقدمة، وفقرتان:

١ ـ بيان وجوب تحقّق الأهلية العلميّة لدىٰ حامل الرسالة.

٢ ـ عناصر الأهلية العلمية المطلوبة للمستوىٰ التّخصّصي.

مقدمة:

ليست الأهليّة العلمية المطلوبة في هذا الفصل من الفئة القيادية ذات التخصص في حمل رسالة الدعوة إلى دين الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خطةً لدراسةٍ جامعيّة محدّدة بأربع سنوات أو حتى ستّ سنوات، حتّىٰ يتخرّج بها داعٍ إلى دين الله، أو آمرٌ بالمعروف ناهٍ عن المنكر من مستوىً تخصّصي ومؤهل تأهيلاً علميًّا وافياً بالمطلوب.

فقد أصبحتُ لا أُومن بأنّ الدراسات الجامعيّة التي تخضع لأنظمة الجامعات صالحة لإعداد مؤهّلين لأن يكونوا حَمَلَةً لأحدىٰ الرسالَتَيْن بصورة قياديّةٍ صحيحة، باستثناء أفرادٍ لهم دراسات خاصّة على علماء المسلمين وفق طرائقهم القديمة، واهتماماتٌ خاصّة تؤهلهم بالصَّبْر الطويل حتّى يكونوا مؤهلين حقًّا بصورة جيدة أو أكثر من جيدة.

بل ما في هذا الفصل هو بمثابة مخطّط عام يُوَجّهُ للراغبين من ذوي الاختصاصات الجامعية المختلفة، في أن يؤهّلوا أنفسهم بدراساتٍ حُرَّة مقارنةٍ لدراساتهم الأخرى، أو لأعمالهم في الحياة، حتّىٰ يكونوا حَمَلَةَ إحدى الرسالتين من فئة القياديين، ذوي التخصص العالي.

- ١ -
بيان وجوب تحقق الأهليّة العلميّة

كلّ داعٍ إلى قضيّةٍ ما أو مُوَجِّهٍ لنَصيحةٍ حول قضيّةٍ ما، سواء أكانت

أنشطته من مستويات دنيا، أم مستويات متوسطات، أم من مستويات تخصّصيّةٍ عُلْيا، لا بُدّ أن يكون على علْمٍ بما يدعو إليه، أو ينصح به، وعلْمٍ بما يخالفه، لتكون لديه قدرةٌ ما على الإقناع بالقضيّة الّتي يدعو إليها، أو ينصحُ بها.

والداعي إلى دين الله، والآمرُ بالمعروف الناهي عن المنكر، ولو لم يكن من الفئة القياديّة ذاتِ التخصص في حمل إحدى الرسالتين أو كليهما، لا بُدَّ أن يكون عالماً علماً يقينيًّا بما يدعو إليه، أو يأمر به من معروف أو ينهىٰ عنه من منكر، ولا بُدَّ أن يكون عالماً بالأسلوب الّذي ينبغي له أن يستخدمه، وذلك للأسباب التالية:

السبب الأول: الحذرُ من أَنْ يدعو إلى باطل وهو يَحْسَبُه حقًّا، فيكونَ ضرره على الدين أشدّ من ضرر الصامتين، وأشد من ضرر أعداء الدين، ولا سيما إذا اتُّخِذَ قُدْوةً فيما يدعو إليه من باطل في سلوكه الخاصّ.

السبب الثاني: الحذر من أن يَتّخِذ أسلوباً مُنَفّراً، وهذا أيضاً ضرره أكثر من نفعه.

السبب الثالث: الحذر من أَنْ يَستَدِلّ للقضية التي يدعو إليها أو ينصح بها ويُوَجّه لها بأدلَّةٍ باطلَةٍ، فيكونَ ضرَرُه أكثر من نفعه، لأنّ المدْعُوَّ أو الموجَّه له النُّصح متىٰ اكتشف أنّ الدليل باطل سقَطَتِ القضيَّةُ كلُّها من نظره أو اعتباره، ولو كانت في واقعِ أَمْرِها حقًّا، إذْ يكون غَيْرَ مُستَعدٍّ لِيَبْحَث عن دليلٍ صحيحٍ لها، نظراً إلى أنّه لم يؤمن بها بَعْدُ، وقليلٌ من الناس من يَتْرُكُ دليلَ الداعيْ إلى القضية، إذا كان دلِيلُه باطلاً، ويَهْتَمُّ بالبحث ليَصِلَ إلى دليلٍ صحيحٍ لها.

السبب الرابع: الحذر من أن يُسْأَل عن مسألة فيُفْتِيَ فيها بغير علْمٍ، فيَضِلَّ وَيُضِلَّ.

وأسْوأُ جهلة الدُّعاة إلى الله والآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، هُمُ الَّذين يتَّخِذُهم النَّاس رؤساء قياديِّين للقيام برسالة الدّعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهؤلاءِ هم الذين ذكَرَهُمُ الرسول ﷺ في الحديث الصحيح.

فقد روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعتُ النبـيّ ﷺ يقول:

«إنَّ اللَّهَ لاَ يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أعْطَاكُمُوهُ انْتِزَاعاً، ولَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَبْقَىٰ نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيَضِلُّونَ ويُضِلُّونَ»[1].

وفي رواية أخرىٰ عند البخاريّ ومسلم وغيرهما، أنّ النبـيّ ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ من الْعِبَادِ، ولكنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا».

- ٢ -
عناصر الأهليّة العلميّة المطلوبة للمستوى التخصُّصِيّ

● **نظرة إجمالية:**

حاملُ رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الْمُسْتَوىٰ التخصُّصيّ، لا بُدّ أن يكون مؤهَّلاً علميًّا بثمانية أقسامٍ من العلوم:

القسم الأول: الموادّ العلميّة التي تشتمل على أدوات البحث والفهم

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري الحديث رقم ٧٣٠٧.

والإفهام والقدرةِ على الإقناع، والقدرة على التأثير التربوي.

القسم الثاني: الموادّ العلمية التي تشتمل على أصول الدين وما يناقضها وتشتمل على فروع الدين.

القسم الثالث: مقدارٌ مناسبٌ من الموادّ العلميّة الكونية المشتملة على معارفَ ثابتةٍ أو مؤكَّدة برُجْحان، ممّا يُسَاعِدُ منها على فهم الدّين، وما جاء في نصوصه من حقائق عن الكون، ويُسَاعد على الإقناع بأنَّ الدّين حقٌّ من عند الله عزّ وجلّ، وأنَّ صراط الله فيه هو الصراط المستقيم، وأنّ أحكام السُّلوك التي جاء بها هي الأَقْوَمُ من كلّ ما يَضَعُ الناسُ ويبتدعون من أحكامٍ لسلوكهم النفسيّ والظاهر في الحياة الدنيا.

القسم الرابع: البحوث التي تكشف زيوف المذاهب الفكرية المعاصرة الوافدة إلى العالم الإسلامي من الغرب والشرق، وتكْشِفُ انحرافاتها عن الحقّ وعن صراط الله المستقيم، وعمّا هو خيرٌ للإنسانيّة وسعادتها وأمنها واستقرارها وحضارتها الرشيدة.

القسم الخامس: البحوث الّتي تكشف وسائل الغزو الفكري الّذي تَعرّض له المسلمونَ، وأساليبَ وحبائل شياطين الإنس والجنّ، لصدّ الناس، أو إخراجهم عن الحقّ، وصراطِ الله المستقيم، وعن العمل بشرائعه وأحكام دينه الذي اصطفاه لعباده، في رحلة امتحانهم في الحياة الدّنيا، وتكْشِفُ ما يتّخِذُونَه من طرائق شديدة المكر والكَيْد والْخُبْثِ للْعَبَث بالأفكار والأهواء والشهوات، والإغراء بزينات الحياة الدنْيا الخادعات، بُغْيَةَ تحقيق مصالحهم الخاصة، عن طريق فتنة الناس عن دين الله، لاستغلال جماهيرهم واستعبادهم وإذْلالهم وتسخيرهم عبيداً لهم بالقوّة أو بالحيلة.

القسم السادس: التمكّن من التّحدُّثِ بِلِسَان القوم الّذين يُؤَدِّي رسالتَه بيْنَهم، إذا كان لسانُهُمْ مخالفاً للُغَةِ الأم الّتي تَعلَّمها مُنْذُ نشأته.

القسم السابع: متابعةُ العلومِ والثقافاتِ المعاصرة في مستجدّاتها، والأحداثِ الإنسانية، وواقع المسلمين المعاصر، ليستفيد منها حامل الرسالة في أَداءِ رسالته على أحسن وجْهٍ يستطيعه بحسب إمكاناته واستعداداته الفِطْريّة.

القسم الثامن: أن يكون لديه إلمام مناسب بالتاريخ البشري، وإلمامٌ بجغرافية العالم القديم والحديث، ولا سيما تاريخ الأمّة الإسلامية بدءاً من سيرة الرسول ﷺ وحياة النخبة الرائدة من أصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان، ولا سيما أيضاً جغرافية العالم الإسلامي بحسب أطوارها امتداداً وانحساراً.

● **البيان التفصيلي لهذه الأقسام**:

ـ **أمّا القسم الأوّل**: وهو قسم المواد العلميّة الّتي تشتمل على أدوات البحث، والفهم، والإفهام، والقدرة على الإقناع والتأثير، فهو يشتمل على الموادّ العلمية التالية:

أوّلاً ـ علوم اللّغة العربية:

القرآن الكريم قد أنزله الله عزّ وجلّ باللّغة العربيّة الفصحى، وأحاديثُ الرسول الخاتم ﷺ قد نطق بها الرسول ورواها عنه أَصْحابُهُ والتابعون من بعدهم باللّغة العربية الفصحى، وقد دُوِّنَتْ في كتُب السُّنَةِ كما رُوِيَتْ باللّغة العربية الفصحى.

والقرآن والسنّة هما مصدرا الإسلام، ووعاؤُهما اللُّغَوِيُّ اللّغةُ العربيّة الفصحىٰ، ولا يستطيع الباحث تدبُّرَ القرآن الكريم تدبُّراً سليماً، وتفهُّم معاني أحاديث الرسول ﷺ تفهُّماً صَحِيحاً، ما لم يكن عالماً باللّغة العربيّة الفصحى، على مستوىً يكفي لسلامة التدبُّرِ والفهم.

وقَدْ بَذَل علماء المسلمين جهوداً عظيمةً وجَلِيلةً، لاستخراج واستنباطِ

قَوَاعِدِ نَحْوِ هذه اللّغة، وقواعدِ صَرْفِها، ودلالات صِيَغِها، وتراكيبها، وأساليبها البيانيّة الحقيقية والمجازيّة، وتَصْنيفها في عدّة علوم.

وبذلوا جهوداً عظيمةً وجليلةً لجمع ما أحصَوْهُ من كلماتها وتدوينها مع بيان معانيها في مُعْجَمات مُوَسَّعَات.

وقد أنتجت هذه الجهود العظيمة الجليلة أرْبَعة علوم:

١ ـ علم النحو الذي نضج بجهود كبار أئمة اللّغة العربية.

٢ ـ علم الصرف الذي نضج أيضاً مع علم النحو.

٣ ـ علم البلاغة الذي شقّ طريقاً مهمًّا جدًّا لِحُسْنِ تدبُّر النصوص القرآنية والحديثيّة.

٤ ـ علم معاني مفردات اللغة العربيّة المدوَّنُ في المعاجم اللّغوية.

والتمكن من هذه العلوم ولو عن طريق مراجعة مسائلها في مُدَوَّنَاتها الكبرى، مع حفظ مقدارٍ كافٍ منها للفهم المعتاد، أَحَدُ الشروط الأساسيّة الّتي لا يَسْتَغْنِي عنها حامل الرِّسالة من مستوىً تخصُّصِيّ.

فلا بُدَّ أنْ يشتمل إعداد المؤهل لذلك على منهاج تدريسيّ جادّ يُحقِّقُ هذا الشرط مع تطبيقاتٍ يكون بها لِسَانُه منضبطاً انضباطاً يَنْدُرُ معه اللَّحن والخطأ.

ثانياً ـ علم أصول الفقه:

لقد وجد علماء المسلمين عبر تاريخ البحث التدبّري لكتاب الله وسنّة رسوله، ولا سيما الفقهاءُ المستنبطون للأحكام الفقهيّة منهما أنّ الحاجة الشّديدة تدعو لاستخراج قواعد كلّيّة تهدي الباحثين المتدبّرين لاستنباط المعاني الّتي يدُلّانِ عليها، بصورةٍ مباشرة، أو بصورة غير مباشرة، كالمعاني والأحكام الّتي يُسْتَدَلُّ عليها باللّزوم العقلي، والمعاني والأحكام التي يُسْتَدَلُّ

عليها بقياس الأمثال غير المدلول عليها بطريقة مباشرة في نصوص القرآن والسُّنَّة، على أمثالها المدلولِ عليها بطريقة مباشرة.

وقد دوّنوا هذه القواعد في علم اصطلحوا على تسميته: «علم أصول الفقه» وهو علم يُسَاعِدُ على تَفَهُّم النصوص، واستنباط أحكام الدّين كلّه منها، بفهم مُتَعَمِّق من مستوى الفقه[1]، وليس خاصًّا في استنباط الأحكام التي اصْطُلِحَ على تَسْمِيَتِها فِقهاً، ودُوِّنَتْ فيها كتب الفقه.

فعلْمُ أُصول الفقه يُسَاعِدُ على فهم النصوص المشتملة على العقائد التي هي أصول الدين، والنصوص المشتملة على الأخلاق، والمشتملة على الآداب، والمشتملة على مسائلَ تصنّف في علم النفس، ومسائلَ تُصَنَّف في علم الاجتماع، ومسائل تَصَنُّفُ في العلوم الكونيّة أو الطبيعيّة أو المنطقية أو الفلسفة أو غير ذلك.

وحامل الرسالة المتخصّص لا بُدَّ أن يكون لديه مقدارٌ كافٍ من هذا العلم، باعتباره أحد أدوات البحث السليم، لفهم كتاب الله عزّ وجلّ، وفهم سنَّة نبيّه ﷺ، ولاستخراج المعاني والأحكام المدلول عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ثالثاً ـ علم المنطق:

استطاع الفكر الإنساني عبر تاريخه الطويل أن يتوصّل إلى اكتشاف ضوابط عقليّة تُساعد المتفكّر على حماية فكره من الخطأ في فهم كثيرٍ من حقائق الأمور الّتي هي من جذور الفكر وأُصوله الكليّة العامة، وأن يُدوِّنها في علم اصطلح العلماء على تسميته «علم المنطق» وهو مقدمات عقليّة تتّفِق عليها العقول مما كان يُسَمَّىٰ قديماً بعلم الفلسفة، الذي اختلطت فيه حقائق فكريّة ورياضيّة، بنظرات تكَهُّنِيَّة نفسيّة وكونيّة وإنسانيّة فيها باطل كثير، وغثٌّ

---

(١) الفقه في اللغة: الفهم المتعمّق الدقيق.

كثير، وآراءٌ بعضها حقٌّ، وبعضها مقبولٌ في بحثٍ علميّ متطوّر، وبعضها مردود، كشأن بدايات كلّ البحوث الإنسانية، الّتي تختلط فيها منتجات الفكر بمنتجات الأهواء والشهوات ورغباتِ النّفوس وخرافات المنحرفين.

أمّا علم المنطق الذي عزله علماء المسلمين عن سائر ما جاء في الفلسفات القديمة، فهو موازين وضوابط عقليّة فطريّة فطر الله عقول الناس عليها.

وأرى أنّ الفكر الإنسانيّ قد توصّل إليها قبل الإسلام بهَدْيٍ ممَّا أنزلَ الله على رُسُله السابقين.

وقد تحقّق من صحة السليم منها بعد الإسلام جمٌّ غفير من علماء المسلمين الباحثين في مجالات الفكر بهدي ممّا جاء في القرآن المجيد من أصول عقلية، ومناظراتٍ ومجادلات تستند إلى أصولٍ وموازين وضوابطَ عقلية، وقد فتح الله عزّ وجلّ علي في تيسير هذا العلم، وتزويد كثير من مسائله بأمثلة متعدّدة، ومنها أمثلة قرآنية وحديثيّة، في كتاب بعنوان: «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة».

وحامل الرسالة المتخصص ينبغي له أن يكون على علم بمقدار مُنَاسب مِنْ هذه الضوابط والموازين العقليّة الّتي اشتمل عليها علم المنطق، لأنها تُسَاعدُه على الحماية من الخطأ في الفكر، في كُلِّ ما يُعِدُّه أو يُقَدّمُه من بحوث، وما يتعرض له من مناظرات ومجالات ومناقشات.

فمن لا يملك هذه الحماية يكْثُر لديه التعرّض للخطأ في أفكاره، وهو يحسب الخطأ صواباً، والباطلَ حقًّا، وربما اشتدّ في نصرة خطئه والدفاع عنه بكلّ قوّة.

فإذا اكتشف الّذين يؤدي رسالته بينهم أنّه مخطىء بيِّنُ الخطأ، وأنّه متناقض في فهمه مع أصول الفكر الصحيح وموازينه وضوابطه التي تتفق

عليها العقول، ولو في بعض القضايا، وهو مع ذلك يُصِرُّ على تصويب مفاهيمِهِ الخاطئة، سَقَطَ احترامُه من نُفُوسهم، ولم يَبْقَ لكلامه أثَرٌ فيها، وزَهِدُوا فيه، وعزَفُوا عنه، وعزَلُوه في نفوسهم عن المكانة التي وَضَعَ نفسه فيها، قائداً من قادةِ الدّعوة إلى دين الله، أو من قادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنُّصح والإرشاد.

رابعاً ـ علم آداب البحث والمناظرة:

وضع علماء المسلمين قواعد للمناظرة والجدل، ضبطوا بها الآداب والخطوات والمراحل التي يجب أن يلتزم بها المتناظران أو المتجادلان، حتّى لا يخرج كلٌّ منهما عن موضوع البحث الذي تجري حوله المناظرة، فتتحوّل إلى مهاترة ومشاتمة، أو مشاغبة ومغالطات، وهذه لا يمكن أن تخدُمَ قضيّةً فكريّة، أو تُوصِل إلى الإقناع بحقيقة يُرادُ الإقناع بها.

وسمّى علماءُ المسلمين هذه القواعد: «آداب البحث والمناظرة.

فعلى حامل الرسالة المتخصص أن يكون على علم بهذه القواعد، لأنه قد يتعرض وهو يؤدّي رسالته إلى مجادلين حول القضايا التي يطرحها، فلا يُحْسِنُ مناظرتهم بضوابط جدليّة، وقد يسْتَدْرِجُه شياطين المناظرين المضلّين بخطوات مُزْلِقَةٍ، فيخرجونه عن أصل الموضوع إلى مواطن تكْثُر فيها الشُّبُهات ومتاهات الأفكار ويُسْقِطُونه في أغاليط يُسَلّم بها مع بطلانها، وخلاصة هذا الفن مُيَسَّرة في كتابي «ضوابط المعرفة وأصول استدلال والمناظرة» بتوفيق الله ومعونته.

خامساً ـ علوم النفس والاجتماع والتربية:

توصَّلَتْ الدراسات النفسية النظريّة والتجريبيّة الإنسانية التي قام بها طائفة من الباحثين في علم النفس، إلى اكتشاف أشياء مُهمَّةٍ من صفات النفس ودوافعها وطرُقِ التأثير عليها.

وبعض ما توصّلوا إليه لا يتعارض ولا يتنافى مع تعاليم الإسلام وعقائده وشرائعه وأحكامه، ويجد الباحث المنقّب في النصوص الإسلاميّة ما يُشِير إلى طائفة كثيرة ومُهمَّةٍ منه.

ومعرفة هذه الأمور مما يفيدُ حامل الرسالة المتخصص، ويُسَهّل عليه أداءَه لرسالته أداءً حسناً، إذْ هو يتعامل في أداء رسالته مع نفوسٍ بشريَّة متنوّعةِ الصفات، وذوات فروق فرديّة، فينبغي له أن يَعْرِفَها فيُحْسِنَ التعامل معها، والتأثير عليها.

إلاّ أنّ علم النفس المعاصر عِلْمٌ موجّه بصفةٍ عامّة بوجهات نظر باحثين لا يعرفون تعاليم الإسلام، ولا يُؤْمنون بها، حتّىٰ يَهْتَدوا بهَدْيِها إلى السلوك الأقوم في الحياة، وحتّىٰ لا يتَّخذوا من الوسائل ما لا تُجيزه هذه التعاليم. وبعض الباحثين فيه ذَوُو أَغْراض تدميريَّة للبشريّة تعتمد على الإلحاد ونشر الإباحيّة، وتفكيك المجتمعات الإنسانية، وإقامة الصراعات فيما بينها، كدراسات فرويد ومدرسته، ومَنْ تأثّر بالشعارات الْيَهُوديَّة، لإطلاق دوافع النفس من قيود الدّين والأخلاق والسُلْطَاتِ الأُسْرِيّة والاجتماعية.

فينبغي لحامل الرسالة المتخصّص أن يكون على معرفةٍ بما هو صحيح من صفات النفس الإنسانية وخصائص أنواعها وفئاتها ودوافعها وكيفيّة التأثير عليها، وما يَجْذِبُها وما يُنَفّرها، بغيةَ الاستفادة من هذه المعرفة في التوجيه الأقوم نحو الخير والفضيلة ومرضاة الله عزّ وجلّ، وتأليف قلوب الناس والإصلاح بينهم.

ويجب أن تُقَدَّمَ له لدى إعداده للقيام برسالته مُصَفَّاةً من كلّ ما يتعارض مع تعليمات الإسلام ومبادئه وشرائعه وأحكامه، ممّا يتعلّق بالفكر، أو بالسُّلوك الظاهر والباطن.

ونظير علم النفس علم الاجتماع وعلم التربية، لأنّ فيهما قَدْراً مناسباً

مما يفيد حامل الرسالة في التأثير الفردي والجماعي، بشرط أنّ تُقَدَّمَ له لدى إعداده مُصَفَّاةً من كلّ ما يتعارض مع الإسلام فكراً وسلوكاً ظاهراً وباطناً.

* * *

ـ **وأمّا القسم الثاني**: وهو قسم العلوم التي تتناول بيان أصول الدين وفروعه، فهو يَشْتَمِلُ على الموادّ العلمية التالية:

أوّلاً ـ علم العقيدة الإسلاميّة:

إنّ أساس الدّين وقاعدته العظمىٰ الإيمانُ بالله وملائكته وكتُبه ورُسُله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه من الله عزّ وجلّ.

وهذه الأركان الستّة ذواتُ أُسُس فكريّة ثم خبريَّة عن الله عزّ وجلّ، وذواتُ تفصيلاتٍ كثيرات.

وقد أفرد علماء المسلمين للبحوث المتعلّقة بأركان الإيمان مؤلفات متخصّصة اهتمَّتْ ببيان أدلّة أركان الإيمان، وببيان أقوال المخالفين وشُبُهاتهم والرّدّ عليها، واهتمَّتْ ببيان كثير من عناصرها التفصيليّة، وأدخلوا هذه المؤلّفات تحت اسم «علم التوحيد» لأنّ مسألة توحيد الله كانت أهمّ المسائل التي دارت حوْلَها العقيدة الإسلامية في مقابل عقائد المشركين.

ثم اختار كُتاب المؤلفات المعاصرة وواضعو المناهج التدريسيّة المعاصرة لهذا العلم اسم «العقيدة الإسلاميّة» لشموله كلّ بحوث هذا العلم.

وبما أنّ هذا الْعِلْمَ قد اختصّ بالبحوث المتعلّقة بأركات الإيمان التي هي أَصْلُ الدّين، وبالبحوث المتصلة بها سواءٌ أكانت مشتقَّةً منها أمْ معارضةً لها، كالملل والنِّحَل والأديان والمذاهب الاعتقاديَّة الباطلة، فلا بُدَّ أن يكون هذا العلم من أوّل العلوم التي يَجبُ أن يتمكّن منها حامل رسالةِ الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنُّصْح والإرشاد المتخصّص، وأن يكون على علم بها بصورةٍ إجمالية كلُّ مسلم، لأنّها أساس الدين.

ثانياً ـ علم الأخلاق الإسلاميّة:

من الملاحظ في مراحل تنزيل القرآن الأولى، والبيانات النبويّة الأولىٰ، اهتمامُ الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الشّيم الفرديّة والاجتماعية، فعلَيْها تعتمد الانطلاقة الأولىٰ إلى الإيمان الصحيح الصادق، والسُّلوكِ الفاضل الذي تتَّفِقُ عليه العقول والنفوس، وعلَيْها تَعْتَمِد مصالح الحياة الإنسانية الاجتماعيّة السعيدة، باعتبارها معاقد الترابط الاجتماعي بين الناس.

فمنزِلَةُ الأخلاق الفاضلة في الإسلام تَقَعُ في المرتبة الثانية بعد منزلة الإيمان.

ولهذا كان على حامل الرسالة المتخصص، أن يكون لديه زادٌ واسِعٌ من علم الأخلاق الإسلاميّة، ليوجّه اهتمامه للدعوة إليها مع الدعوة إلى الإيمان، وليكون قدوةً حسنَةً فيها، وليُرَبِّـيَ مَنْ يَسْتَجِيبُ له عليها بوسائل التربية المؤثّرة النافعة.

ثالثاً ـ عِلْمُ فقه أحكام العبادات والمعاملات:

كان عامة المسلمين في بداية الأمر بعد عصر الرسول ﷺ يسأَلُونَ علماء الصحابة والتابعين وفُقَاءَهُمْ عن أحكام دينهم، المتعلّقة بعبادات الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والعمرة، وبالمعاملات الشاملة لكلّ النظم الإسلامية، مع ملاحظة أن العمل بكلّ حكم إسلاميّ عبادة.

ثمّ ظهر أئِمَّةٌ متخصّصون في استنباط هذه الأحكام، وبدأت اجتهاداتُهم في فقة العبادات والمعاملات تُدوَّن في مؤلفات، وبَرَز من هؤلاء الفقهاء الأئمة الأربعة المجتهدون من أئمة أهل السُّنَّة والجماعة، أبو حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدْريس الشافعيّ، وأحمد بن حنبل، الَّذين دُوِّنت آراؤهم الاجتهادية تدويناً كاملاً، وكان لهم أتباعٌ من كبار العلماء صنفوا في مذاهبهم كتُباً محرّرةً على أبواب فقه العبادات والمعاملات.

ووُجِد آخرون لم تُدَوَّن ولم تحرَّرْ مذاهبهم تحريراً كاملاً، كالأوزاعي، وسفيانَ الثوري، وأبـي ثور.

وظهر للزيدية الشيعة المنتسبين إلى زيد بن عليّ (زين العابدين) بـن الحسين بن عليّ بن أبـي طالب مذهبٌ مدوّن، وظهر غيرهم.

وحامل الرسالة المتخصّص لا بُدّ أن يكون متمكّناً من مهمّات أحكام فقه العبادات والمعاملات الّتي يَنْبغي أن يُبَيِّنَها لمن يؤدّي رسالَتَهُ بينهم، وأن تكون لدَيْه الْمَلَكَةُ لمراجعة أيَّةِ مسألةٍ فقهيّة يُسْأَلُ عنها في أيّ بابٍ منْ أبواب الفقه.

ولا مانع من أن تكون دراستُه للفقه من خلال مذهب من المذاهب المعتمدة لدى جمهور عُلَماء المسلمين، بشرط إطلاعه على الأدلّة وعلى اجتهادات فقهاء المذاهب الأخرى وأدلّتها، لئلا يُصابَ بِدَاءِ التعصُّبِ المذهبـي، الذي يُحْدِثُ الشِّقَاق بين المسلمين، ويجعلُهم فِرَقاً وأَحزاباً.

والأفضل أن يَدْرُسَ حملة الرسالة المتخصّصون فقه الكتاب والسُّنَّة دراسةً تقترن الأحكام فيها بأدلّتها الشرعيّة، وتُعْرَضُ فيها اجتهادات أصحاب المذاهب، مَتَى تهيّأت الأسباب لهذه الدراسة بشكل منظَّم على أبواب الفقه التي حرَّر فقهاء المذاهب بمقتضاها مذاهبهم الفقهيّة.

رابعاً ـ دراسات قرآنية:

وتشمل هذه الدراسات ما يلي:

١ ـ ضبط تلاوة القرآن كلّه مجوَّداً.

٢ ـ حفظ ما لا يقلُّ عن خمسة أجزاء، ومنها الجزء الثلاثون، والأفضل حفظ القرآن كلّه.

٣ ـ تفسير القرآن كلّه في حدود شرح المفردات والجمل. وتفسير ما

لا يقلّ عن خمسة أجزاءٍ منه تفسيراً موسّعاً، ضمن منهج وحدة موضوع السّورة القرآنيّة[١].

ودراسة عدّة موضوعات قرآنيّة ضمن منهج التفسير الموضوعي الذي تُجْمَعُ فيه الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع واحدٍ من القرآن كُلّه، وتُدْرَسُ دراسةً متكاملة، كموضوع الإيمان والمؤمنين، والكفر والكافرين، والنفاق والمنافقين، والتقوىٰ والمتقين، وكقصّة من قصص الأنبياء وأقوامهم، مثل قصة نوح عليه السلام وقومه[٢].

٤ ـ دراسة كتاب موسع معتمد من كتب علوم القرآن مثل كتاب «البرهان في علوم القرآن» للعلاّمة بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٤٥ ـ ٧٩٤هـ).

٥ ـ دراسة كتاب معتمد تناول بيان شبهات المستشرقين حول القرآن وكشف زيوفها كشفاً محكماً.

٦ ـ دراسة كتاب اهتمّ بإبراز الجوانب الأدبية في القرآن، ويمكن الاستفادة من كتابـي: «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع».

خامساً ـ دراسات حديثيّة:

وتشمل هذه الدراسات ما يلي:

١ ـ الاطلاع على أمّهات المصنفات التي دُوِّنَتْ فيها الأَحادِيث النبويّة، ومنها: «صحيح الإمام البخاري ـ صحيح الإمام مسلم ـ سنن أبـي داود ـ سنن الترمذي ـ سنن النسائي ـ سنن ابن ماجة ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل

---

(١) مثل تدبر سورة (الفرقان) في وحدة موضوع. وتدبر سورة (الرعد) في وحدة موضوع، للمؤلف.

(٢) يمكن الاستفادة من منهج كتاب (ظاهرة النفاق) وكتاب (نوح عليه السلام وقومه في القرآن) للمؤلف.

ـ مستدرك الحاكم ـ صحيح ابن حِبّان ـ معاجم الطبراني الثلاثة الكبير والأوسط والصغير ـ مصنف عبد الرزاق الصنعاني) مع التعرّف على خصائص كلٍّ منها، وترجمة مؤلّفة.

٢ ـ دراسة «علوم الحديث» مع ما يتعلّق بتدوينه، ومع بيان شبهات المستشرقين حول الحديث الشريف، وكشف زيوفها كشفاً محكماً.

٣ ـ حفظ ما لا يقلّ عن مِئَتَي حديثٍ مختارات في موضوعات مختلفات دعويّة وأخلاقية، من الأحاديث الصحيحة أو الحسنة، مع شرحها شرحاً موسّعاً.

٤ ـ دراسة ما لا يقلّ عن الجزء الأوّل من «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر.

٥ ـ دراسة ما لا يقلّ عن جزء مختار من شرح النووي على صحيح مسلم، وينبغي أن يكون من أبواب لم يتعرّض لها الجزء الأول من «فتح الباري شرح صحيح البخاري».

٦ ـ معرفة كتب تراجم رواة الحديث، وكيفيّة مراجعة الأسماء فيها.

٧ ـ دراسة أدبية لنخبة مختارة من أحاديث الرسول ﷺ[١].

* * *

ـ **وأمّا القسم الثالث**: وهو قسم الموادّ العلميّة الكونية الطبيعيّة، فهو قسم يشتمل على ما لا يقلّ عن مستوى مناهج الدراسة الثانويّة في القسم العلمي، وهي علوم «الفيزياء ـ الكيمياء ـ الرياضيات ـ الأحياء ـ الجيولوجيا ـ الفلك ـ الحاسب الآلي».

---

(١) يمكن الاستفادة من كتاب «روائع من أقوال الرسول ﷺ» للمؤلف، وكتاب «أمثال الحديث» للدكتور عبد المجيد محمود.

إنّ حامل الرسالة المتخصص للقيام بأداء وظائفها، لا يصحّ أن يكون بعيداً عن معرفة علوم عصره الكونيّة الطبيعيّة، وأن يعزل نفسه في العلوم الدينيّة، وعلوم اللّغة العربيّة والعلوم المساعدة لفهم نصوص الكتاب والسّنة، لما يلي:

١ ـ لأنّ كلمات الله البيانيّة المنزَّلَة على رسُله، وكلماتِه التكوينيَّة التي تحققت فيما خلق الله، وتتحقق فيما يخلق من شيء في الكون، وفيما يُجْري فيه من تصاريف، لا يمكن أن يتناقض بعضُها مع بعض، ولا يمكن أن يُصادِمَ بعضُها بعضاً، ولا بُدَّ أن تُفْهَمَ مُتَطابقة فيما يتوارد منها على قضايا واحدة، أَوْ متكاملةً فيما لا يتوارد منها على قضايا واحدة، ولا بُدَّ أَنْ يُؤَيِّد الحقُّ من كلّ منها الحقَّ من القسم الآخر، إذا كانا يتعلقان بموضوع واحد، أو قضيّةٍ واحدة.

٢ ـ ولأنّ حامل الرسالة يتعامل مع مجموعات إنسانيّة مختلفة، وفيهم متعلّمون على المناهج الدراسيَّة الّتي عُزِلَتْ قصداً، وبتخطيط كَيْدِيٍّ من الدول العلمانيّة، والمؤسسات المعادية للإسلام، عن علوم الدين الحقّ، ودُسَّتْ فيها أفْكار وآراء تعليليّة فلسفيّة مناقضة لأسس الدّين، وقُدّمَتْ فيها على أنَّها حقائق كسائر الحقائق التجريبيّة التي اشتملت عليها هذه العلوم، والحقائق النظرية ذات البراهين العقليّة الصحيحة، أو الأدلة المقبولة برجحان.

والجاهل بهذه العلوم لا يستطيع المحاورة حول المقرّرات فيها ولو كانت مقرّرات باطلات، ولا يستطيع الإقناع بأنّ ما اندسّ فيها من تعليلات فلسفيّة ليس له قيمة علميّة، إذْ لا يعتمد على براهين عقليّة، ولا على أدلّة تجريبيّة.

فينبغي له أن يكون ذا معرفة ما بهذه العلوم، وكبريات مقرّراتها، في الحدود الّتي لا تقلّ عن مستوىٰ مناهج الدراسة الثانوية العامّة، في قسمها

العلمي، ولكن يجب لدى دراسته هذه العلوم أن يكون على بصيرة بما هو مندسٌّ فيها من تعليلات وتفسيرات فلسفيّة لا تستند إلى براهين عقلية، وما هو مندسٌّ فيها من أفكارٍ مناقضة لأسس الدّين ومفهوماته وأحكامه ووصاياه، وأن تكون لديه الحجج البرهانيّة، أو الأدلّة الكافية للإقناع، الّتي تكشف أنّها باطلة، أو منحرفة عن الصراط المستقيم الذي يُحَقِّق لمن سلكه السعادة في الدنيا والآخرة، وتكشف أنّها آراء لا علاقة لها أصْلاً بالعناصر الأَساسيّة لهذه العلوم.

وعليه أن يُتابع تطوّراتِ حركة العلم في العالم، لأنّ كثيراً ممّا كان يُدَرَّسُ في المؤسّساتِ التعليميّة في كلّ الدُّول الغربيّة والشرقية على أنّه من الحقائق العلميّة، صار في مقرّرات العلم المعاصر نظريات قابلة للتعديل والتبديل، أو فرضياتٍ لا يَصِحُّ الاعتماد عليها أصلاً، كالآراء الداروينيّة في التطوّر الذاتي للأشياء والأحياء.

* * *

ـ **وأمّا القسم الرابع**: وهو قسم البحوث الّتي تكشف زيوف المذاهب الفكريّة المعاصرة الوافدة إلى شعوب العالم الإسلاميّ من دول الكفر وشعوبها، ففيما يلي بيان موجزٌ حوله.

نتيجة أسباب كثيرة داخليّة وخارجيّة تخلّف المسلمون في مختلف مجالات الحياة، وانتشرت الأميَّة في مختلف علوم الدين وعلوم الكون الطبيعيّة.

بينما كانت شعوبٌ غير مسلمة في الغرب ثمّ في الشرق تتقدّم في العلوم الكونيّة، الّتي ترتقي بها الحضارة المادّيّة، مستفيدين ممّا كان قد وصل إليه المسلمون في عصورهم الذهبيّة العلميّة الحضاريّة، قبل مرحلة الانحطاط الذي نزل بهم.

ومع تقدّم هذه الشعوب غير المسلمة في العلوم الكونيّة الطبيعيّة، ظهرت لديهم مذاهب فكريّة معاصرة كثيرة، قائمة على إنكار الخالق عزّ وجلّ وعدم الإيمان به، أو على عزل الدّين وتعليماته في شؤون الكون والسلوك الإنساني، وعزْلِ ما جاء به الرُّسُل عليهم السلام بالنسبة إلى شؤون الحياة الدُّنيا كلّها، وكان وراء ظهور هذه المذاهب المعاصرة المكر اليهوديُّ، ومخطّطاته الرّامِيَة إلى محاربة الدين، والأخلاق، والنظم الاجتماعية التي تربط الجماعات الإنسانية برباط وحدة متماسكة.

ولمّا زحف الاستعمار الغربـيُّ إلى بُلْدان العالم الإسلاميّ، الذي أضعفه وفكَّكَهُ بُعْدهُ عن أسس الإسلام وصراطه المستقيم، زحفت معه العلوم الكونيّة الطبيعيّة وما هو مندسٌّ فيها من باطل، وزحفت معه المذاهب الفكريّة المعاصرة الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والسياسيّة والنفسيّة والأدبيّة وغيرها.

لقد كان المسلمون يعانون من عُقْدة التخلّف والانحطاط الذي نزل بهم، فَفُتِنُوا بما جاءهم من الغرب، ثمّ بما جاءهم من الشرق، فابتلع كثيرون من المتطلعين إلى العلوم الكونيّة الطبيعيّة التي ترتقي بها الحضارة المادّية، ما وَفَدَ معها من زيوف، وما وَفَدَ معها من مذاهب فكرية معاصرة، فمنها ما يَهْدِمُ الدّين من جذوره، ومنها ما يهدم نُظُمَهُ وشرائعه وأحكامه ووصاياه.

ثمّ بدأت الصّحوة الإسلاميّة ترجع إلى رؤوس كثير من مفكري المسلمين، من دارسين على المناهج الغربيّة، ومن دارسين لعلوم الدّين وأسسه الفكريّة والعلميّة، فتوجّه هؤلاء للتَّنْبيه على وجوب فَصْل الْمُنْدَسَّات الباطلات في العلوم عنها، وللتحذير من المذاهب الفكريّة المعاصرة، ونَقْدِها وكَشْفِ زيوفها[1].

---

(١) يمكن الاستفادة في هذا الموضوع من كتاب: «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية =

فعلى حامل الرسالة المتخصص أن تكون لَدَيْهِ معرفة ما بهذه المذاهب، وقُدْرةٌ على بيان ما فيها من زيوف، وعلى إقناع المفتونين بها من المسلمين وغيرهم بالحقّ الذي جاء به الإسلام، وبأنّه هو الخير لإسعاد الناس، ولتَقَدُّمِهِم الحضاريِّ السليم.

* * *

ـ **وأمّا القسم الخامس**: وهو قسم البحوث التي تكشف وسائل وأساليب الغزو الفكريّ الذي تعرّضَ له المسلمون من قِبَلِ أعداء الإسلام، ففيما يلي بيانٌ موجزٌ حوله.

على الرغم من وصول المسلمين إلى حالةِ التَّخَلّف الّتي سبق بيانُها آنفاً، وانتشارِ الأمّيّة بينهم، فقد كان اعتزازهم بماضيهم، وارتباطُهُمْ بالإيمان بالله وبرسوله محمّد ﷺ، وارتباطهم بالقرآن، وإيمانُهُمْ بأنّه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قد جعلهم في حِصْنٍ نَفْسِيٍّ حَصِينٍ يَصْعُبُ جدًّا اختراقُهُ وتهديمه من داخله إلاّ بأسباب شَتَّىٰ ووسائل شيطانيّة ماكرة، تَعْتَمِدُ على الحيلة وارْتِدَاءِ الأقنعة الخادعة المزورة الكثيرة.

وهذا ما اتّخذه أعداء الإسلام لينشروا في المسلمين مفاهيمهم الباطلة، والقوانين الموضعيّة بدل أحكام الفقه الإسلامي، والسلوك المنحرف عن صراط الله المستقيم، وقد دخلوا بها إلى بُلْدانِ العالم الإسلاميّ مع دخول جيوشهم الاستعمارية الغازية، في استعمار مادّيٍّ سافرٍ، أو في استعمار مُسْتَخْفٍ غير ظاهر.

وقد هيّأ الله عزّ وجلّ طائفة من أهل الفكر الإسلاميّ، لكشف حِيَلِ أعداء الإسلام، ووسائلهم الكثيرة، وأساليبهم الرامية إلى إخراج المسلمين

= المعاصرة» للمؤلف. وكتاب «المذاهب الفكرية المعاصرة» للأستاذ محمد قطب.

عن دينهم إخراجاً كُلِّيًّا أو جزئيًّا، وإبعادهم عن حصونهم الفكريّة والاعتقادية والنفسيّة والسلوكيّة، وتطويعهم حتى يتقبّلوا أن يكونوا خاضعين لاستعمار الغرب الكافر بدين الإسلام لهم.

وكان هذا الكشف محدوداً في مقالات متناثراتٍ في صُحَفٍ ودَوْرِيَّاتٍ وبعض فصُولٍ من كُتُب، ولم تكن قد دُوِّنَتْ به كتُبٌ محرّرة تُبَيّن أسس هذا الغزو الفكري، وتُبَيِّن مناهجه ومُخَطَّطاته وخطواته، ومراحله، ووسائله وأساليبَهُ وحِيَلَهُ وعناصِرَه، كما لم يكن لدى المسلمين تأريخ له مُتَابعٌ لتحركاته، سواءٌ ما كان منه بالمساعي الكيدية الّتي تولّىٰ كِبْرَها اليهودُ، أو قام بها المبشرون بالنصرانية، أو المستشرقون، أو المستعمرون، أو الملاحدة الشيوعيون، أو غيرهم.

ثم أَلْهَمَ الله ذوي غَيْرَةٍ منَ المسلمين الذين جعل في أيديهم بعضَ سُلْطاتٍ إداريّة، فاستجابوا لمطالب أهل الفكر والرأي والقلم من أساتذة بعض الجامعات، فأدخلوا في الموادّ الدراسيّة ببعض الكليات الجامعيّة مادة دراسيّة باسم «الغزو الفكري».

وكنْتُ أحد الذين اشتركوا في هذا بجامعة أمّ القرى بمكة المكرمة، وأُسْنِدَ إليَّ فيها تَدريسُ هذه المادّة الّتي سبَقَ أنْ كَتَبتُ فيها أكثر من ألْفِ حديثٍ يَوْمِيّ كَانَ يُذَاع من إذاعة الرِّياض عقب نشرة الأخبار الّتي كانت تُذَاع في الساعة العاشرة والربع ليلاً، باسم «برنامج أعداء الإسلام» الّذي استمر أكثر من ثلاث سنوات متتابعات.

ثم دُوِّنت هذه البحوث وغيرُها في كتُبٍ خاضعةٍ لأُسُس التصنيف والتقعيد والتنظيم الشجري(١)، وكَتَبَ كاتبون آخرون كُتُباً في الغزو الفكري صالحةً للتدريس والدراسة، وغَدَتْ المادة علماً يدرس بحمد الله وتوفيقه.

---

(١) انظر مجموعة الكتب المتدرجة تحت عنوان «أعداء الإسلام» للمؤلف.

فعلى حامل الرسالة المتخصص وعلى كلّ مؤمن مُسْلِم متعلّم أن يكون على علم بما تشتمل عليه هذه المادة من بحوث، ليُحَذِّر جماهيرَ المسلمين من مكايد أعداء الإسلام في كلّ مجالٍ من مجالات الحياة.

- **وأمّا القسم السادس**: وهو التمكّن من التحدّث بلسان القوم الّذين يؤدّي حامل الرسالة رسالته بينهم، إذا كان لسانهم مخالفاً لِلُغَتِهِ الأمّ التي تعلّمها منذ نشأته، ففيما يلي بيان موجز عنه:

الإسلام دين أنزلَهُ الله عزّ وجلّ في خاتمة رسالاته للناس، وجعلَهُ ديناً للناس أجمعين حتّىٰ آخرِ حياة الناس في الأرض، وبعثَ به رسولَهُ محمّداً ﷺ للناس كافّة، وأمَرَهُ أنْ يُعْلِمَ النّاسَ جميعاً بهذه الحقيقة، فقال له في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ . . . ﴿١٥٨﴾﴾.

وخاطب الله عزّ وجلّ في تتمّةِ هٰذِه الآيَة النّاس أجمعين بقوله تعالى:

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ولمّا كان المسلمون مسؤولين عند الله عن تبليغ هذا الدّين للناس أجمعين، كما سَبَق به البيان في الباب الأول من هذا الكتاب، فإنّ حَمَلَةَ رسالة الدعوة إلى هذا الدين وتبليغه للناس، مكلَّفون أنْ يُبَلِّغُوه على وجْهٍ يَفْهَمُه كُلُّ قَوْم بلُغَتِهم، ولا يتحقَّق هذا التّبْليغ ما لم يتعلّم مُبَلِّغُ كُلِّ قَوْمٍ لُغَتَهُمُ الخاصةَ إذا لم يكن على علم بها، وقُدْرَةٍ على أن يخَاطِبَهُمْ ويُفْهِمَهم ويُقْنِعَهُم بها.

ويمكن تحقيق هذه الغاية باستقدام جماعات من كلّ قوم، وتعليمهم

العربيّة، فإذا أسلموا واستقاموا اختير منهم صَفْوَةٌ ليكُونوا دعاة إلى دين الله من المستوى التخصصي، وليقوموا بين أهل لُغَاتهم بتَبليغهم هذا الدين ودعوتهم إليه.

فما لا يتحقّق الواجب إلاّ به فهو واجب بالبديهة العقليّة.

* * *

- **وأمّا القسم السابع**: وهو متابعة العلوم والثقافات المعاصرة في مُسْتَجدّاتها، ومتابعة الأحداث الإنسانيّة وصفات مجتمعاتها، ومتابعة واقع المسلمين المعاصر، في مختلف بلدان العالم، ليستفيد منها حامل الرسالة في أداء رسالته على أحسن وجْهٍ يستطيعه، بحسب إمكاناته واستعداداته الفطريّة، ففيما يلي بيان موجز حوله.

إنّ ممّا هو ملاحظٌ لكلّ الناس أنّ العلوم والثقافات في حركة تَطَوُّرٍ مُسْتَمِرّ، وفيها دائماً مُسْتَجِدّاتٌ ينفع العلم بها حامل رسالة الدّعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح والإرشاد.

وكذلك الأحداث الإنسانيّة، وتطوّراتُ المجتمعات البشريّة تأتي دائماً بجديد يفيد حامل الرسالة لدى أدائه رسالته.

وقد سهّلت وسائل الإعلام المعاصرة هذه المتابعة المفيدة، علَىٰ أنّ من أهمّ الأحداث الإنسانيّة ما يتّصل بواقع حال المسلمين المعاصر، سواء أكانوا أكثريّة في بلدان إقامتهم أم أقليّات، ولا يَلِيقُ بحامل الرسالة أن يكون جاهلاً بها.

وهذا القسم ليس مادّة دراسيّة تُدْرَسُ في كتب، إلاَّ أنّه يَتطَلَّبُ متابعةً دائمة مع رحلة الحياة.

وينبغي أن تُوجَدُ مؤسّسةٌ إسلاميّة، أو فصيلة من فصائلها، تقدّم

خلاصات موجوات شهريًّا أو أسبوعيًّا، لأهمّ الْمُسْتَجِدَّات والأحداث الإنسانيّة، بما فيها واقع حال المسلمين المعاصر، ليطلع عليها المسلمون، ولا سيّما حملة الرسالة منهم، بأقلّ جَهْدٍ وزمن، ليوفّروا على أنفسهم ساعاتٍ كثيرات في متابعة ما تنشره وسائل الإعلام المملوءةُ بغثٍّ كثير، وسمين قليل لا يُنْتَقىٰ إلاّ بجهد جهيد وصبر مديد، وتمييز للحقّ من الباطل.

* * *

ـ **وأمّا القسم الثامن**: وهو الإلمام المناسب بالتاريخ البشري، والإلمام المناسب بجغرافية العالم القديم والحديث، ولا سيّما تاريخ الأمّة الإسلاميَّة بدءاً من سيرة الرسول ﷺ، وحياة النُّخبة الرائدة من أصحابه الكرام، ولا سيما أيضاً جغرافيّة العالم الإسلامي بحسب أطوارها امتداداً وانحساراً، ففيما يلي بيان موجز عنه:

إنّ الدّاعيَ إلى دين الله يحتاج في دعوته إلى علمٍ ما بالتاريخ البشري، وما تعرّضت له الأقوام والأمم من إهلاك وتدمير بسبب تكذيبها رُسُل ربّها، وبسبب فِسْقِها وفجورها وظلمها وطغيانها.

وقصصُ الأنبياء مع أقوامهم في مقدّمة هذه الدراسة التاريخيّة لما فيها من العظات الّتي تَصْلُح في مجال الدعوة إلى دين الله، وفي بيان أنّ الرسالات الرّبّانية واحدةٌ في أُصولها الاعتقادية والأخلاقيّة والتّعَبُّديّة.

ويحتاج أيضاً إلى علم بجغرافيّة العالم القديم لتحديد أماكن الأقوام الّذين أُهْلِكُوا بسبب كفرهم وظُلْمهم وطغيانهم، والتعرّف عليها، فالعلم بها والتعرّف عليها بالمباشرة، أو عن طريق الصُّوَر والرسوم يفيد في تعميق الاتعاظ بالمهلكين الأَوّلين.

ولأهميّة معرفة تاريخ المهلكين الأولين من أهل القرون الأولى، ومشاهدةِ آثار مواطنهم الّتي أهلكوا فيها، جاء في القرآن المجيد خمسة

نصوص قرآنيّة تتضمَّنُ التوجيه للسَّيْر في الأرض بغيةَ مشاهدة آثارهم، وكيف كانت عاقبة إجرامهم وتكذيبهم رسُلَ ربّهم، وأوّل هذه النصوص بحسب ترتيب النزول قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) خطاباً لرسوله فلكل داعٍ إلى الله من أُمّته:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لرسوله أيضاً فلكل داع إلى الله من أمته:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ فكرتين:

الأولى: فكرة البحث والتنقيب للتوصّل بعد حين إلى النظر في آثار الْمُهْلَكِين الأولين، دلّ عليها العطف بحرف العطف «ثم» بخلاف مَا جاء في سورة (النمل) فقد جاء العطف فيه بالفاء: ﴿فَانظُرُوا﴾ فدلّت على الآثار الظاهرة التي لا تحتاج إلى بحث وتنقيب وحفريات.

الثانية: فكرة التكذيب لرسل الله، والتكذيب بما جاءوا به عن الله، فهم مجرمون بلغوا دَرَكة الإجرام بسبب تكذيبهم بما أتاهم عن الله على ألسنة رُسُله، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم خاطب الله المكذبين خطاباً مباشراً منه، فأنزل قوله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

ثم أضاف النصّ الذي أُنْزِل في الآية (٤٢) من سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) فكرةَ أن أكثر المهلكين الأوّلين كانوا مشركين.

ثم أضاف النّص الذي أنزل في الآية (١٣٧) من سورة (آل عمران/ ٣

مصحف/ ٨٩ نزول) فكرة أنّ إهلاك المكذبين سُنّةٌ من سُنَنِ الله في عباده. فتكاملت النصوص في دلالاتها.

والعلم بتاريخ الأمّة الإسلاميّة بدءاً من سيرة الرّسول ﷺ والعلم بحياة النخبة الرائدة من أصحابه الكرام فالتابعين لهم بإحسان، يفيد حامل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في تقديم نماذج الأُسْوَة الحسنة لدى تأديته رسالته، ومن الْمُشَاهد أن للتاريخ تأثيراً عظيماً في النفوس، فقِصَصُ الأُسْوَة الحسنة في العلم والخلُقِ والتقوىٰ والورع والجهاد من شأنها أن تحرّك النفوس الصالحة للاقتداء بها، ولتَرَسُّمِ خُطواتِها في حياتها.

مع ما في عرض تاريخ أمجاد الأمّة الإسلاميّة من شَحْنِ نُفُوسِ الأحفاد، بالاعتزازِ والافتخارِ بأمجاد وبُطُولات الأجداد، وهذا يُوَلّد في النّفوس شِدَّةَ الارتباط بهذه الأمّة المجيدة، وعَدَمَ التخلّي عن الانتماء إليها وإلى مبادئها، التي كانت سَبَب تَحْقِيقِ أمجادها في التاريخ.

ويرتبط بدراسة التاريخ البشري معرفةُ جغرافيّة الأرض التي عاشت فيها الأقوام والشعوب السالفة، وتعيش فيها الأقوام والشعوب المعاصرة، فهذه الدراسة ذات فائدة جدًّا للدُّعاة إلى دين الله، وللآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والناصحين المرشدين.

ومن المهمّ جدًّا دراسة جغرافية بلدان الدُّوَل والشعوب الإسلامية في أطوارها، امتداداً وتوسُّعاً بالفتوح وإسلام الشعوب، وانحساراً بالانحطاط والتخلُّف وما جرّه ذلك من هزائم في المعارك الحربيّة التي واجه بها المسلمون الغزاةَ من الصليبيين والوثنيّين والملاحدة.

* * *

الباب الثالث

قواعد ووصايا كُلّيّة عامّة

وبيان لطائفةٍ من آفات حملة الرّسالة

وفيه مقدمة وفصلان:

الفصل الأول: قواعد ووصايا كليّة عامّة.

الفصل الثاني: آفاتُ حملةِ الرسالة.

مقـدّمة

فتح الله عزّ وجلّ في هذا الباب باستخراج قواعد كليّة، ووصايا عامّة، تنفع حامل الرسالة المتخصّص وغَيْرَ المتخصّص.

ولكنّ بعض هذه القواعد والوصايا ليست بمثابة الأختام التي تُطْبَعُ عند كلّ حالة، وفي كلِّ الظروف، إنما هي بمثابة العلاجات والمستحضرات الصيْدَلانيّة، التي يَنْتَقِي منها الطبيب الحكيم ما يلائم الشخص الذي يُعالِجُه، والحالَةَ المرضيّة التي يُعَانِي منها.

فرُبَّ عِلاجٍ يَصْلُحُ لبعض الناس، وهو نفسه لا يصلُح لبعض آخر من النّاس، لاختلاف البيئة، واختلافِ العادات والمآكل والمشارب، ورُبّ علاج يصلُحُ لحالةِ مريضٍ من المرضىٰ، في حين يكون هذا العلاج نفسه ضارًّا جدًّا بالنسبة إلى مريضٍ آخر.

وكما يجب على الطبيب أَنْ يلاحظ المقادير والأوقات لاستعمال العلاج الملائم، ملاحظاً أنّه إذا زاد في المقادير، أو أساءَ في تحديد الأوقات، كان علاجُه ضاراً، وربمّا كان قاتلاً، فعلَىٰ حامل الرّسالة أنْ يكون حكيماً في الانتقاء من هذه القواعد والوصايا، وحكيماً في تحديد المقادير، وتحديد الأوقات، واختيار الأسلوب الذي يؤدّي به رسالته أداءً ناجحاً موفّقاً، يعطي النتائج الحسنة المرجوّة من عَمَلِه إن شاء الله.

إنّ حامل الرسالة لا يتعامل مع جامدات، ولا مع نباتات ولا مع بهائِمَ

ذواتِ طبائع متماثلة، إنّما يتعامل مع بشرٍ ذوي إراداتٍ حُرَّة، وطبائع مختلفة، ونفوسٍ ذواتِ صفاتٍ مُعَقَّدة متشابكة، تحتاج فراسةً، وحُسْنَ بَصِيرَة، وتجرباتٍ تُكْتَسَبُ بها خبراتٌ واسعات.

فما يصْلُح لبعض طبائع الناس لا يصْلُح لآخرين مخالفين لأُولَئِكَ في الطّباع، وما يَصْلُح لصفاتِ بعضِ النَّاس لا يَصْلُح لصفاتِ آخرين مخالفين لهم في صفاتهم، فالحليم مثلاً يُلائمه أُسلوب علاجيّ، وحادُّ الطّبع الغضوبُ يلائمه أسلوبٌ علاجيٌّ آخر.

وما يَصْلُح توجيهُهُ لمؤمن لا يصلُح توجيهه لشاكٍّ في الدين، أو كافرٍ بالإسلام، أو مُلْحدٍ لا يُؤْمِنَ بالله ولا بالدَّينونة والجزاء.

وما ينفَعُ في إنسان لدَيْهِ خَوْفٌ مَامن الله ونِقْمَتِه، لا يَنْفَعُ في إنسانٍ عاصٍ مُسْرفٍ علىٰ نفسه، مُسْتَغْرِقٍ في الغفلات، منغمس في الشهوات.

ولليهودِيّ الّذي نَبَتَ في مَنَابتِ المكر والكَذِب والْحِيلَةِ والحرص على أن يكون الْيَهُودُ سادةَ النَّاسِ أجمعين، أسلوبٌ دَعَوِيٌّ يُلائمه.

وللنّصرانيّ أسلوبٌ آخر يُلَائمه، ولمَنْ يستحلُّ الكذب أو يُوجبُه تقيَّةً أُسْلوبٌ يَتَّفِقُ مَعَ مَا يَعْتَقِده، وللوثنيِّ أسلوبٌ يلائمه، ولِمَنْ يَرَىٰ تقديسَ العقل والوسائلِ والأدلّةِ العلمية الماديّة أسلوبٌ يلائمه، وهكذا إلى سائر أصناف الناس وسائرِ طبائعهم، وعَلىٰ الحكيم أن ينتقي ويَخْتَار ويَسْتَفِيد من التجربات.

إلاَّ أنَّ بعض هذه القواعد يجب الالتزام بها دواماً لأنّها بمثابة التنفُّس لحامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وقد يجد مُطَالِـعُ هذا الكتاب تفصيلاً موسعاً، وشرحاً مستفيضاً لكثير

من هذه القواعد والوصايا، في أبوابِ وفصولِ هذا الكتاب، إلّا أنني رأيْتُ الحاجة داعيةً إلى جَمْعِهَا موجزةً في هذا الباب على شكل قواعد، تيسيراً لاستيعابِهَا وحِفْظِها واسْتِذْكَارِها.

ورأيتُ أن أجْعَلَ هذا الباب سابقاً لمعظم الأبواب التي تشتمل على التفصيلات الموسَّعَةِ والشُّروحِ المستفيضة، ليكون بمثابة الْمَتْنِ المختصر الذي يستتبِـعُ الشَّرْحَ الموسَّعَ بالأدلة والشواهد من القرآن والسنة، على أن بعض هذه القواعد قد سبق في الباب الثاني شرح له وتفصيل.

وبالله التوفيق والسداد.

* * *

الفصـل الأول

قواعد كليّة بوصايا لحامل الرسالة

وفيه إحدى وخمسون قاعدة:

القاعدة الأولى: على حامل الرسالة أن يكون مؤهّلاً تأهيلاً علميّاً وتأهيلاً بيانيًا، للمستوىٰ الذي يُرِيدُ أن يضطلع بمهمّاته لدى أدائه رسالته، وأن يكون متمكّناً تمكّناً كافياً من الموضوع الذي يُرِيد أن يُعَرِّفَ به، ويَشْرَحَهُ لِلْمُتَلَقِّين، وقادراً على عرض أفكارِهِ حَوْله، ورَدِّ الشُّبُهَاتِ الَّتي يُمْكِنُ أن تَرِدَ على عناصر مَوْضُوعِهِ الّذي يُرِيد بَيَانَهُ وشرحه.

القاعدة الثانية: على حامل الرسالة أن يكون مخلصاً لله في أدائه رسالته، متجرّداً من المصالح الشخصيّة الدنيويّة لدى من يُوَجِّهُ لهم رسالته، ليكون أَداؤه لها بيْنَهُمْ مَرْجُوَّ التأثير.

القاعدة الثالثة: ينبغي لحامل الرسالة أنْ يكون قويّ الإرادة، واثقاً من نفسه، ثابتاً رَابِطَ الْجَأْشِ، جواداً بَوَقْتِهِ ومَالِهِ ونَفْسِه، وهذه الصفات قد يَكْتَسِبُهَا من التمكُّن العلميّ، والتمكُّن البيانيّ، والإخلاص لله عزّ وجلّ في أدائِهِ رسالَتَهُ، ومن الممارسة الطويلة، مع التوكُّل على اللّهِ والاعتمادِ عليه والثِّقة به.

القاعدة الرابعة: ينبغي لحامل الرسالة إذا أراد أَنْ يُؤَدِّيَ بعض وظائف

رسالته البيانيّة، أَنْ يُحْسِنَ اختيارَ الموضوع الذي يريد بيانه لجمهوره مراعياً في اختياره واقع حالهم، وأن يُحْسِنَ تناولَهُ من أسسه وجُذُورِهِ الْفَكْرِيَّةِ إلى سُوقِهِ ففروعه، وأن يكون حكيماً في بَيَان ترابُطِ الأفكار تَرَابُطاً مَنْطِقياً، وأَنْ يَكْشِف ما استطاع شَرَايينَ وأوردَةَ وأَعْصَابَ الترابط، وأن يُحْسِن اختيارَ الزمان والمكان الملائمَيْنِ لاسْتِمَاعِ الْجُمْهُورِ وتَقَبُّلِهم.

القاعدة الخامسة: يَحْسُن بحامل الرسالة المعلِّم أَنْ يَسْتَثِيرَ في نفوس المتَلَقِّينَ عنه ما يَجْعَلُهُمْ يسألون عمّا يُرِيد أن يُعَرّفهم به، أو يَهْدِيَهم إلَيْهِ، حتّىٰ يكون مَا يُلْقِيه إليهم جواباً على مطلوبٍ لهم، أو تَسَاؤُلَاتٍ يَطْرَحُونَهَا أو يَرْغَبون في طرحها.

وينبغي لَهُ أَنْ يَتْرُكَ لهم فُرْصَةً لطرْحِ بعض التساؤلات حول الموضوع الذي يُريد إعلامَهُمْ به، وشرحَهُ لهم، ليكون البيان جواباً لسُؤَالٍ مطروح، أو حَلاًّ لإشْكالٍ قائم.

القاعدة السَّادسة: على حامل الرّسالةِ أنْ يَبْدأ مع من يَدْعُوه من نُقْطَةِ الخلاف الرئيسَة، بالإستناد إلى المسلَّمَاتِ بينه وبَيْنَ مَنْ يدعوه.

القاعدة السابعة: علىٰ حَامِلِ الرسالة أن يَتَقَيَّدَ بالاستدلال بالحقّ، وأن يَجْتَنِب الاستدلال بالأباطيل والأكاذيب والموضوعات المفتريات، فالحقّ لا يُنْصَرُ إلاَّ بالحقّ.

القاعدة الثامنة: لا يُحْتَجُّ على المخالِفِ بِحُجَّةٍ لَا يُؤْمِنُ بها، فالَّذِي يجحد النُّصُوص الدِّينيَّة لا يُسْتَدَلُّ لإقناعه بها.

القاعدة التَّاسعة: مَنْ رَأَيْتَهُ يُغَالِطُ في دَلِيلكَ فانقُلْه إلىٰ دليلٍ لا يستطيع أنْ يُغَالِطَ فيه.

القاعدة العاشرة: على حامل الرسالة أن يكُونَ في مقدّمة المؤمنين بما

يَدْعُو إليه، والملتزمين بأحكامه، حتى يكون قُدْوة حسنةً، ومؤثراً بحاله أكثر من تأثيره بمقاله، وأنْ يَبْدأ بدعوةِ وإصلاحِ عشيرته الأقربين.

القاعدة الحادية عشرة: على حامل الرسالة الثَّباتُ عَلَىٰ الحقّ، والاستقامَةُ على صراط الله، مَهْمَا واجَهَ من عقبات وصعوبات ومُغْرِيَات.

القاعدة الثَّانيَة عشرة: على حامل الرسالة أن يدأب في القيام بأداء وظائف رِسالتِه بصَبْرٍ وحِلْمٍ وتحمُّلٍ للأذى، وكلّما يئس من فردٍ أو جماعة انتقل إلى آخَرِينَ غَيْرِ ميئوسٍ منهم.

القاعدة الثالثة عشرة: على حامل الرسالة أن لا يُمَيّزَ طبقةً اجتماعيَّةً من الناس على طبقة لدى قيامه بأداء وظائف رسالته، فالطبقات الاجتماعية أمام الدِّين وتعاليمه سواء.

القاعدة الرابعة عشرة: على حامل الرسالة أن يَتَلَطَّفَ ويَرْفُق بمن يُوَجِّهُ له بعض مضامين رسالته، وأنْ يكون حَسَنَ المجاملة والْمُعَامَلَةِ بمكارم الأخلاق، وأن يتحلَّىٰ بالإغْضَاءِ عن السَّيئة التي تُوَجَّهُ ضِدَّه، وبِالْعَفْوِ والصَّفْحِ، وأن يَكُونَ هَاشًّا باشًّا لا عَبُوساً قَمْطَرِيراً[١]، وأن يكون هَمُّهُ الإصلاحَ والنصيحة، لا التشهير بالناس والفضيحة.

القاعدة الخامسة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يكونَ دواماً هيِّناً لِيِّناً حَسَنَ العلاقات الاجتماعيّة بجميع أفراد مجتمعه، لتأليف القلوب، وعَقْد الْمَودَّاتِ، واكتسابِ حُبِّ النَّاس وتقديرهم له.

القاعدة السَّادِسَة عشرة: من وسائل تأليف القلوب وإزالة عَقَباتِ النفوس، الإحْسَانُ إلى الناس وصُنْعُ المعروف، فعلَىٰ حامل الرسالة أن يَسْتَخْدِم ذلك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) القمطرير: المجتمع المتقبّض، وهو عكس المنبسط المنفرج الأسارير.

القاعدة السابعة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يُثِيرَ شُكُوكاً وجَدَلِيَّاتٍ افتراضيّة بُغْيَة الإجابة عليها.

فإذا طُرِحَتْ مِنْ قِبَلِ المدعُوِّينَ أو المتلقّين لبيانات مسائل الدِّين أجابَ عليها بمقاديرها، ولا يَزِيدُ مِنْ عنده شيئاً، ثُمَّ إذا طُرِحَ غَيْرُهَا مِنْ قِبَلِهم أجابَ عليه، وهكذا، تأسِّياً بالمنهج القرآني.

القاعدة الثامنة عشرة: على حامل الرسالة أن يكون مقْتَنِعاً اقتناعاً تامًّا، ومنفعلاً انفعالاً حقيقياً بما يُرِيدُ توصيلَهُ إلى غَيْرِه من عناصر رسالته.

القاعدة التاسعة عشرة: على حامل الرسالة أن لا يُبَذِّر بجُهُودِهِ وبوَقْتِهِ الثمينِ في الّذين دلّت التجربات على أنَّ قابليَّتهم للاستجابة غير مطموعٍ فيها.

القاعدة العشرون: إذا دَعَتْ حالُ مُتَلَقِّي الرّسالة لإقناعه مُجَادَلَتَه حول قضيّة من قضايا الدِّين، فعَلَىٰ حامل الرسالة أن يُجَادِلَهُ بالتي هي أَحْسن.

القاعدة الحادية والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أنْ يكون يقظاً دائم التنبُّهِ للأحداث الطارئة، وأن يكون حَسَنَ الْمُعَالَجَة لكلِّ حَدَثٍ طارىءٍ بما يلائمه، مع رجاحة عقل ورَوِيَّةٍ وحِكْمَةٍ، وبدون ثَوْرَة انفعالية ولاَ طَيْشٍ، وبدُون اندفاعٍ مع رُدُود الأفعالِ التّلْقَائيّة غير الواعية.

ويَنْبَغِي له أيْضاً أَنْ يتكَيّف مع المتغيّرات الطارئاتِ بوسائل المعالجة وأساليبها، دون أنْ يتنازل عن مبادئه وعن أيِّ شيءٍ ممّا يؤمن به.

القاعدة الثانية والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن يواجه الناس دواماً بزيٍّ حسن، ومَظْهَرٍ جميل، ونظافة تامّة، وأناقة جذّابة عاديَّةٍ تلائم وضعه، حتىٰ يكونِ لمظهره من الْحُسْنِ ما تميل إليه النفوس والحواسّ، ولا يكون في جَسَدِه أَوْ بِزَّتِهِ ما يُنَفِّرُهَا، أو يجعلها تتقَزَّزُ كراهية.

القاعدة الثالثة والعشرون: على حامل الرسالة أن يَتَّبعَ سياسة التَّدَرُّج

والتنمية المتصاعدة عِلْماً وعَمَلاً، فيَبْنِي الأَفْكَارَ بناءً تكامُلِيًّا صاعداً ويبدأ في التَّطبيقات العمليّةِ بالأهمّ فالمُهِمِّ فما دون ذلك بحسَب نظام الأَوْلَوِيَّات.

القاعدة الرابعة والعشرون: من الحكمة التربويّة في بياناتِ حامل الرسالة أن يُنَبِّه الْمُتَلَقِّين على ارتباط كُلِّ فَرْعٍ يشرحَهُ أو يُذَكِّر به بالجذر الاعتقاديّ الذي يَرْتَبِطُ به.

القاعدة الخامِسَة والعشرون: على حامل الرسالة أنْ يَهْتَمَّ في بَيَانَاتِه بمحاصرة من يوجّه له رسالَته من كلِّ أركانه الداخليّة: الفكريّة والوجدانية والنفسيّة.

القاعدة السادسة والعشرون: من الحكمة أن يتصيَّد حامل الرسالة الحريص على تأديتها في أحسن الظروف، المناسباتِ الملائماتِ للْبَثِّ والتوجيه، وأن يَحْتَال لإيجاد المناخِ المناسب الّذِي تنفتح فيه نفوس المتلقّين لتقبُّلِ ما يُوجِّهُه لها.

القاعدة السابعة والعشرون: على حامل الرسالة أَنْ لاَ يَتَّخِذ من الوسائل والأسباب إلاّ ما أَذِنَ به الإسلام.

القاعدة الثامِنةُ والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة الْمُهْتَمُّ بتربية الأجيال المؤمنة المسلمة أن يَسْتخدم أسلوبَ بَذْرِ البزور في الأرض بسَتْرِها، وتَعهُّدِها دواماً بَعْدَ نباتها حتَّىٰ تَصِيرَ أشجاراً قويّة سامِقَةً تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإذن ربِّها.

القاعدة التاسعة والعشرون: على حامل الرسالة أن يضع في حسابه دواماً أنّ الوضع الذي يتهيّأ به انتشار الإسلام عن طريق الدعوة إلى الله هو الفتْحُ الحقيقيّ الأعظم عند الله، وهو الأحقُّ بالاختيار من البدائل.

القاعدة الثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُجَزِّىء توجيهَهُ لجمهوره،

ويُبَاعِدَ بين مجالس موعظته، لئلا يَقَعَ المخاطَبُون والمتلقُّونَ بالسَّأم فيَنْفِروا.

القاعدة الحادية والثلاثون: على حامل الرسالة الثباتُ والتحلِّي بالشجاعة الأدبية الحكيمة في قول الحقِّ وَنُصْرَته بكلِّ الأحوال.

القاعدة الثانية والثلاثون: ليس على حامل الرسالة إلَّا البلاغُ المبين، ولا يُسْأَلُ عن عَدَد من استجابَ له واتّبعه، ولا يسأل عن التغيير بيده للمنكر ما لم تكن لديه سلطة هذا التغيير داخل المسلمين.

القاعدة الثالثة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يقدّم مضامين رسالته بأساليب بيانيّة أدبيّةٍ جميلة مشرقةٍ، تستثير الرغبة في الاستماع والمعرفة.

القاعدة الرابعة والثلاثون: على حامل الرسالة وسائر المسلمين أن يعاملوا غير المسلمين بكلّ فَضائل الإسلام وتعاليمه وأخلاقه وشرائعه، ليكونوا دعاة إلى الإسلام بأحوالهم مع أقوالهم.

القاعدة الخامسة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يغرس في المسلمين مشاعر الانتماء والولاء لله ولرسوله، ولكل ما ينتمي إليهما ومن ينتمي إليهما.

القاعدة السادسة والثلاثون: على حامل الرسالة الداعي إلى الله أن يَبْتَعِدَ عن مسائل الخلاف التي اخْتَلَفَ فيها علماء المسلمين، لدى دعوته لغير المسلمين، ولْيَحْذَرْ من التعصّب لمذهب أو رأي يَراهُ هو الصواب ما لم يكُنْ هو الأقربَ لإقناع المدعوّ والأبْعَدَ عن إثارة الشبهات في نفسه.

القاعدة السابعة والثلاثون: على الداعي إلى دين الله أن يُعْلِن لدى حِوَارِه لمن يدعوه تَجَرُّدَه عن التعصب لسوابق الأفكار الَّتِي يؤمن بها، وأَنَّه حريص أن يبحث الموضوع الذي يدعو إليه، على مائدة بحث مشتركة سواء.

القاعدة الثامنة والثلاثون: على حامل الرسالة أن لا يَسُبَّ ما يُؤْمن به

الكافرون من طواغيت لئلا يَسُبُّوا الله عَدْواً بغير علم، وعَلَيْهِ أن يُنَزِّهَ لسانه عن كلّ ما فيه إيذاءٌ لكلِّ مَنْ يُرِيدُ هدايتهم، وعن كلِّ ما فيه استثارةٌ لمشاعر الغضب في نفوسهم.

القاعدة التاسعة والثلاثون: من الحكمة التربويّة للاستفادة من التَّدْرِيبات العمليّة على السلوك الإسلاميّ، وغَرْسِه في أعماق النفس، جَعْلُهَا مقترنة بما تُحبُّهُ النفوسُ من مشاعر وجدانيّة سَعِيدَة، ومشاعر أخرى تَذُوقُ بها لذَّاتٍ مُبَاحَاتٍ مما تَرْغَبُ فيه من مَتَاعِ الحياةِ الدنيا.

القاعدة الأَرْبَعُون: حاملِ الرسالة الإسلاميّة الداعي إلى الله، هو بمثابة الطبيب الرحيم الناصح، لا يَنْظُر إلى المخالف على أنّه عَدُوٌّ ينبغي أن يَتَخَلَّصَ منه، إنما ينظر إليه على أنّه مَرِيضٌ يُرِيد أَنْ يُنْقذه من مرضه، ويمكن أن يكُونَ غنيمةً يَغْنَمُها للإسلام.

القاعدةُ الحادية والأَرْبَعُون: على حامل الرّسالة أنْ لا يَحْمِلَ منْ يَقْتَدُونَ به على الأخذ بأشَدِّ الأعمال وأَشَقِّها على نفوسهم، أو بأَشَدِّ الاجتهادات الفقهيّة، ما دام في الدِّينِ فُسْحَةٌ وسَعَة.

القاعـدة الثانيـةُ والأربعـون: حامل الرسالة الذي يُرَبِّي تَلَاميذَه والمستجيبين له، إذا وجّه اهتمامه البالغ للصغائر من أحكام الدّين، وحَمَلَهُمْ حملاً شديداً على الالتزام بها، جعَلَهُمْ من حيْثُ لا يشْعُرُ يسقُطُونَ في ارتكاب كبائر الإثم، نظراً إلى أَنَّ كلَّ بني آدم خطّاء، فَلَأَنْ تكون خطيئته في الصغائر خيرٌ من أن تكون خطيئته في الكبائر.

القاعـدة الثالثـة والأربعـون: على حامل الرسالة أن يُخَاطِبَ الناس على مقادير أفهامهم، وبما يُدْركون من مستوياتِ فكريّة، وبما يعجبهم من أساليب بيانيّةٍ، وبالأساليب المشوّقة الجذّابة.

القاعدة الرابعة والأربعون: على حامل الرسالة أن يَتَّخِذَ وسائل لتوصيل دعوته وبياناته للنساء، ولو بأَنْ يَعْقِدَ مجالس يخُصُّهُنَّ بها، على أن تكونَ مَحْفُوفة بما يجعل اللّقاء بِهِنَّ مَصُوناً لا تكون فيه خلوات.

القاعدة الخامسة والأربعون: على حامل الرسالة أن يكون حسَنَ الإصغاء والاستماع والإنصاتِ لمن يُوَجِّه لَهُ رسالته، إذا أراد أن يتكلّم، ليَعْرِف مَا لدَيْه من شُبُهَاتٍ، أو مُشْكلاتٍ، أو عروضٍ مزالق، أو غيرها، فيعالِجَها بما يُلائمها عِلاَجاً حكيماً.

القاعدة السادسة والأربعون: على حامل الرسالة أَنْ لا يتجسَّسَ على المسلمين مُتَتَبِّعاً عوراتهم في بيوتهم ومنازلهم، وأنْ لا يُواجهَ بمقالة التَّلْويم إلاَّ مَنْ كان مجاهراً بمعاصِيهِ، أمَّا الْمُتَسَتِّرُ بمعاصيه فبِحَسْبِه أن يقول في شأنه قولاً عامًّا: ما بالُ أقوامٍ يفْعَلُونَ كَذَا وكذا، دون أن يُعَيّن المقصود، لا بالاسم ولاَ بالوصْفِ المميّز، أو أنْ يَنْصَحَهُ بَيْنَه وبَيْنَه سِرًّا، وإلاَّ كان فاضحاً له لاَ ناصحاً، وقاصداً للتَّشْهيرِ به لا إصلاحه.

القاعدة السابعة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُنَزِّلَ النَّاسَ منازلهم، تأليفاً لقلوبهم، ومِنْهُ إعطاءُ ذي المكانة والْوَجَاهة في قومه ما تحتاجه نفسه من تمجيدٍ وتقدِيرٍ.

القاعدة الثامنة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يكون خبيراً بمُجْتَمَعِهِ الذي يَعِيشُ فيه، مُتَتَبِّعاً الاطلاع على أَحْدَاثه، حتَّىٰ يُحْسِنَ توجيهَهُ، ويُحْسِنَ معالجةَ كُلِّ حَدَثٍ بما يلائمه.

القاعدة التاسعةُ والأربعون: على حامل الرسالة أن يكون شديد الحذر من الانحياز إلى فئة دون أخرى، لأنّه يجب أن يكون للجميع مُعَلِّماً وناصحاً ومُرْشِداً وآمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وناصراً للحقّ حَيْثُ كان، وحاكماً على الباطل بأنه باطلٌ حيثُ كان.

القاعدة الخمسون: يَحْسُنُ بحَامِلِ الرسالة أن يكون جواداً سخيًّا، فالجود والسخاء من أعْظَم الصّفاتِ التي تُؤَلّف القلوب وتَمْتَلِكُ الْمَشَاعِر النَّبِيلَةَ، وتَعْقِدُ المودّات.

القاعدة الحادية والخمسون: علىٰ حاملِ الرسالَة الدَّاعي إلى الله، أَن يُقَدِّمُ في أكْثَر أَحْوالِه الْبِشارَةَ على الإنْذار، وأَنْ يَضْرِبَ على أَوْتَار الطَّمَع بثَوابِ الله الجزيل، قبل أَن يَضْرِب على أَوتار الخوفِ من عذاب الله في نفوس من يَدْعُوهم إلى الله وإلى سلوك صراطه المستقيم، حتَّىٰ إذا يَئِسَ من استجابة مَنْ يدعوه، وظهر له عنادُهُ وكُفْرُهُ وجَّهَ ثِقَلَ بيانه للإنْذَارَات والتَّحْذِيرات من عذاب الله ونِقْمَتِه في العاجلة والآجلة على مقدار ما يرىٰ من عناده وإصراره علىٰ الكُفْرِ والْجُحُودِ.

ومهما وجَدَ لدىٰ مَنْ يَدْعُوهُ، ولو قليلاً من لِينٍ نَحْوَ قبُولِ الحقّ، فَتَحَ لَهُ أَبْوابَ الطمع بغفرانِ الله وعَفْوِه، وقدَّمَ لَهُ الْبُشْرَيَاتِ المرتبطَاتِ بإيمانه واتّباعه الحقّ.

وفيما يلي شرح موجز لهذه القواعد إن شاء الله.

* * *

شـرح القواعـد

القـاعدة الأولـى:

«على حامل الرسالة أن يكون مؤهّلاً تأهيلاً عِلْميًّا وتأهيلاً بيانيًّا للمستوىٰ الذي يُريدُ أن يضطلع بمهمّاته لدى أدائِه رسالَتَهُ، وأن يكون متمكّناً تمكُّناً كافياً من الموضوع الّذِي يُريد أن يُعَرّف به ويَشْرَحَهُ للمتَلَقِّين، وقادراً على عَرْض أفكاره حوْلَهُ، وَرَدِّ الشبهات الّتي يمكن أن تَرِدَ عَلَىٰ عَناصِرِ موضوعه الّذِي يُريدُ بيانَهُ وشرحه».

الـشـرح:

إنَّ التأهُّلَ العلميَّ والتأهُّلَ البيانيَّ من الشروط الأساسيّة البدهيّة، الَّتي يجب على حامل الرسالة أن يتحلّىٰ بها، قبل أنْ يتصدّر للقيام بمهمّات أدائه وظائفَ رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النُّصْح والإرشاد العام، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للجماهير.

فالجاهِلُ لا يصلُح بداهةً لحمل الرسالة بصفةٍ عامة، وغير القادر على البيان لتوصيل المفهومات التي يُرِيدُ التعريف بها لا يصلح بداهة لحمل رسالةٍ للجماهير.

فإذا تصَدَّرَ الجاهِلُ، أو غَيْر القادر على البيان لحمل الرسالة بصفة عامَّةٍ قيادِيَّة، وأَخَذَ يَهْرِفُ بما لا يعرف، أضرَّ وأساءَ إلى دين الله، ونَفَّرَ منه الناسَ،

وجَلَبَ إلى نفسه المعرَّة بالجهل أو بالعجز[١].

* * *

القـاعدة الثانيـة:

«على حامل الرسالة أن يكون مخلصاً لله في أدائه رسالته، متجرّداً من المصالح الشخصيّة الدنيويّة لدى من يُوجّه لهم رسالته، ليكون أداؤه لها بينهم مرجوّ التأثير».

الـشـرح:

إنّ اتّهام الناس لحامل الرسالة بالمصلحة الشخصية الدنيوية من أدائه رسالته بينهم، يُولّد في نُفوسهم عَقَبَةً من رُدود أفعالها رفْضُ الاستجابة لدعوته، والإعراضُ عن قبول نصائِحِه وإرشاداته، قبل أن يتفكَّروا فيما يدعوهم إليه، ولا سيما إذَا رأوا لدَيْهِ دلائلَ أو أماراتٍ تُؤكّد صحّة ما يتّهمونه به.

لكنّهم إذا اقْتَنَعُوا بأنّه مُخْلِصٌ في تأدية رسالته، يبتغي رضوان الله وثوابه، ولا يبتغي لديهم مصلحة شخصيّةً دنيويّة، من مالٍ أو جاه أو سلطانٍ أو شهواتٍ أو نحو ذلك، فإنَّهُمْ ينظرون إليه بإكبار وتقدير، وتتفتح آذانهم غالباً لاستماع ما يقول، وتنفتح عقولُهُمْ لوعْيِ ما يُوجِّهُهُ لَهُمْ من دعوة إلى الحقّ، أو نُصْحٍ وإرشاد، أو أمر بالمعروف ونهيٍ عن المنكر.

فعلى حامل الرسالة أن يكون مخلصاً لله عزّ وجلّ في أدائه وظائف رسالته، وأن يُعْلِن تَجرُّدَهُ من كلّ مصلحة شخصيّة دنيويّة عند الناس، قائلاً

---

(١) انظر مزيد شرح لمضمون هذه القاعدة في الفصلين الخامس والسادس من الباب الثاني «الصفات التي يجب أن يتحلّىٰ بها حملة الرسالة».

كما قال كلّ رسول من رسُل الله لأمته: لا أسألكم عليه أجراً إنْ أجري إلاّ على ربّ العالمين[1].

* * *

القـاعدة الثالثـة:

«ينبغي لحامل الرسالة أنْ يكون قويّ الإرادة، واثقاً من نفسه، ثابتاً، رابط الجأش، جواداً بوقته وماله ونفسه، وهذه الصفات تأتيه من التمكّن العلميّ، والتمكّن البياني، ومن الإخلاص لله عزّ وجلّ في أداء الرسالة، ومن الممارسة الطويلة الأمد، في تجربات متكرّرات، مع التوكّل على الله، والاعتمادِ عليه، والثقةِ بمعونته، فإذا أضيفت إليها شجاعَةٌ فطريَّةٌ فيه ارتقت ارتقاءً مُدْهشاً».

الـشـرح:

إنّ مواجهة الجماهير بما يُخَالِفُ معتقداتِهم ومفهوماتهم في الحياة، وأنواعَ سلوكهم، بغية إقناعهم للتحوّلِ عن اتّجاهاتهم التي هم فيها، والسُّلوكِ في صراط الله المستقيم عقيدة وعملاً، هو بمثابةِ إعلانِ حربٍ فكريَّة على معتقداتهم ومفهوماتهم في الحياة، وحربٍ أُخْرى ضدّ أنواعِ سُلُوكهم.

ومعلومٌ أنّ مفهومات الإنسان وعقائدَهُ وأنواعَ سُلوكه جزْءٌ من ذاتيَّته، الّتي يمتلكُهَا وحده، فهو لا يتنازل عنها ما لم يقتنع بالبدائل الأَفْضل له، لِيَنْبِذَها ويَأْخُذَ الأفضل ويستمسك به.

والناس من طبيعتهم أنّهم حينما يجدون من يُعْلِن خلافَ مُعْتَقَدَاتهم

(١) انظر مزيد شرح لمضمون هذه القاعدة في فصل «العقبات الصادّة للتوجيه» العقبة الأولى: عقبة الاتهام بالمصلحة الشخصية، والفصل الثاني من الباب الثاني «وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة التجرّد من المصالح الشخصية لدى من يؤدي بينهم رسالته».

ومفهوماتهم في الحياة وأنواعِ سلوكهم، يَقِفُون منه موقف الْحَذِر، فالمدافع فالْمُحارب، ما لم يجدوا حامل الرسالة يتحلَّىٰ بقوّة الإرادة، والوثوقِ من نفسه بما يدعو إليه وينْصَحُ به، مَع الثباتِ ورباطة الجأش، ومع الحكمة في الاستدلال، والحكمة في أسلوب العرض والبيان، فإنّهم عندئذٍ يشعرون داخليًّا بأنّه قد يكونُ لهم ناصحاً، وعلى خيرهم وسعادتهم حريصاً، وقد يظهر فيهم من يُتابعه، لأنّه كان بينه وبين نَفْسِهِ مُسْتَنْكِراً ما عليه قومه، إلاَّ أنّه لم يكن يَمْلِكُ الجرأة ولا وُضُوحَ الرُّؤية، حتى يكون حاملاً لمثل هذه الرسالة بينهم.

ثمّ متى وُجِدَ الْعَدَدُ القليل من المستجيبين لحامل الرسالة، وتكونت حوْلَهُ حَلْقَةٌ من المتابعين المناصرين، تلاحَقَ من ورائهم مَنْ لَهُمْ شبَهٌ ما.

ثمَّ تَتَّسِعُ الحلقة، ويتكاثر الأتباع، حتّىٰ تتكوّن لحامل الرسالة جماعةٌ ذات قُوَّة يناصرونه ويؤازرونه، وينشرون ما تلقَّوْهُ عنه في النّاس.

ويستمرّ الاتّساع بحسب سُنَّةِ الله في الاجتماع البشري، ويَظْهَرُ حزب الله قَوِيًّا، وتنتشر فروعُهُ بحسب استعداد أفراد الناس للاستجابة، وتَغْيير ما هم فيه من شَرٍّ وفساد، إلى ما ينصحهم به حَامِلُ الرِّسَالَةِ من خيْرٍ وصلاح.

* * *

القاعدة الرابعة:

«ينبغي لحامل الرسالة إذا أرد أنْ يُؤَدّيَ بعض وظائف رسالته البيانية أن يُحْسِن اختيار الموضوع الذي يريد بيانه لجمهوره، وأن يُحْسِن تناوله من أسسه وجذوره الفكريّة، إلى سوقه، ففروعه، في درس هادىء، وأن يكون حكيماً في بيان ترابط الأفكار ترابطاً منطقيًّا، وفي كشف تسلسلها، سواءٌ بَدَأَ من جَذْرِ شَجَرَتِها، أمْ من ساقها، أم من بعض فروعها، وعليه أن يكشف ما استطاع شرايين الترابط وأوردَتَه، وأصولَ جملته العصبية وفُرُوعَها، وعليه أن

يُحْسِن اختيار الزمان والمكان الملائمين لاستماع الجمهور وتقبُّلهم ما يُلْقي إليهم».

الشـرح:

إنّ كلّ موضوع من الموضوعات الفكرية الصحيحة الّتي لا خلط فيها ولا تلفيق يخضع للنظام الشجريّ في الوجود.

فالشجرة لها جذور وشرايين وأوردة وساقٌ أوْ أكثر، وفروعٌ ثمّ فروع فروع وأوراق وثمرات، وكلّ جزء منها له ارتباط، إمّا بالذي فوقه أو بالذي تحته أو بالذي فوقه وبالذي تحته معاً.

والإنسان في تكوينه الجسدي كشجرة بأعضائه وأوردته وأعصابه وخلاياه وأعماله ووظائف كلّ جزء منه، وكذلك كل حيوان في الوجود.

والوجود كلُّه يخضع لهذا النظام الشَّجَرِيّ، حتّىٰ الموازين الفطرية الفكريّة تخضع أيضاً للنظام الشَّجريّ.

فإذا أراد حامل الرسالة الربّانيّة أن يبحث موضوعاً ما، أو يشرح لطلابه موضوعاً ما فعليه أوّلاً أن يتفكر فيه حتَّىٰ يكتشف شجرته الفكرية.

ثم من الأفضل والأكثر نفعاً أن يُقَدّمه للّذين يتلَقَّوْنه عنه في دَرْسٍ هادىءٍ، موضِّحاً لهم ترابط عناصره ضمن شجرته الفكريّة الّتي اكتشفها، إذَا كانت حالتهم الفكريّة تتحمَّلُ ذلك.

وبهذا تتمكَّنُ المعارف الإسلاميّة في قلوب المتلَقّين مقرونةً بالاقتناع التامّ، إذْ جاء العلْمُ بها مُنْسَجماً مع النظام الفكريّ الذي فطر الله عزّ وجلّ عقُولَ الناس عليه.

وينبغي أيضاً لحامل الرسالة إذا أراد شرح بعض الموضوعات الفكرية الإسـلاميـة لجمهـوره، أن يُحْسِـن اختيـارَ الـزَّمـان والمكـان المـلائميـن

لاجتماعهم، وللحالة النفسيّة التي يكونون معها مستعدّين لتقبُّل ما يَعْرِضُه عليهم ويُعَرِّفهم به، وللحالة الاجتماعيّة الّتي تحيط بهم، وتكونُ مؤثِّرَةً فيهم.

* * *

القـاعدة الخـامسة:

«يَحْسُن بحامل الرسالة الْمُعَلِّم أن يستثير في نفوس المتلقّين عنه ما يَجْعَلُهم يسْألُونَ عمّا يُرِيدُ أن يُعَرّفهم به، أو يَهْدِيَهُمْ إليه، حتَّىٰ يكونَ ما يلقيه إليهم جواباً على مطلوبٍ لهم، أو تساؤلات يطرحونها، أو يرغبون في طرحها.

ويَنْبَغِي له أن يَتْرُكَ لهم فُرْصَةً لطرح بعض التساؤلات حول الموضع الذي يُرِيدُ إعلامهم به وشرحه لهم، ليكون البيان جواباً لسؤالٍ مطروح، أو حلاًّ لإشكال قائم».

الشـرح:

إنَّ أرْسَخَ العلم وأثْبَتَه وأوضحه ما أشْبَعَ في الإنْسَان الرَّغبةَ في التّعرُّفِ عليه، والْحِرْصَ على إدْرَاكه إدراكاً صحيحاً واضحاً، وهو نظيرُ الطعام الذي يكون عَنْ جُوع، والشراب الذي يكون عن ظمأ.

وقد كان من الحكمة الرَّبّانيّة في تنزيل القرآن، أنّ كثيراً من آيَاتِه قد نزلت جواباً لسؤال، أو بياناً لحُكْمِ اسْتَدْعَتْهُ حادثة وقعت، أو نَازِلَةٌ نَزَلَتْ، أو ردّاً على اعتراضٍ وجَّهَهُ الكافرون، أو تعليقاً على حَادِثَةٍ جَرَتْ كحوادث الغزوات للتوجيه واستخلاص الْعِبَرِ، وبيان الأحكام.

● فممّا نزل جواباً على سؤال قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾.

● وممّا نزل بياناً لحكم استدعته حادثة وقَعَتْ، قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾.

ومنه ما نزل في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بشأن حادثة الإفكِ:

● وممّا نزل رَدًّا على اعتراضٍ قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ... ۝٢٠﴾.

رَدًّا على اعتراض المشتركين إذْ قَالُوا كما جاء فيها أيضاً:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ... ۝٧﴾.

● وممّا نزل تعليقاً على حَدَثٍ جرى، النصوصُ الكثيرة التّى نزلت بمناسبة الغزوات وما جَرَىٰ فيها.

إنّ هذا لَيَدُلُّنا على أنَّ من عناصر المنهج التعليميّ التربويّ الأمثل تَصَيُّدُ المناسبات، واستثارةُ الأسئلة، لتوجيه البيان الدّينيّ الملائم، فهو الأُسْلُوب الأكثر تأثيراً وتثبيتاً، والأعظم نفعاً، وبه تكون رؤيَةُ عناصر الموضوع رؤيةً أكثر وضوحاً وجلاءً.

* * *

القاعدة السادسة:

«يجب البدءُ من نقطة الخلاف الرئيسة بالاستناد إلى المسلمات بين الداعي والمدعوّ، وعلى حامل الرسالة أن يقدّم العقائد والمبادىء الإسلاميّة الأولى مقرونة بحججها العقلية المنطقية، أو براهينها وأدلتها الحسيّة، انطلاقاً

من أرضيّةٍ ومفهومات يُسَلِّمُ بها المدعوّ إلى دين الله».

الـشـرح:

ينبغي للداعي إلى الله أن يكون هو الآخذ بزمام المبادَرَة، فيَبْدَأ مع من يدعوه إلى دين الله الحقّ من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وأنْ يَبْنِي حواره معه على قاعدة من الْمُسَلَّماتِ الفكريّة والعلميّة الَّتي يُسَلّم بها كلا الطرفين: الداعي والمدعوُّ، وأن يقدّم له ما يدعوه إليه مقروناً بالأدلّة والبراهين الّتي يُسَلِّم بها.

هكذا كانت سياسة الرُّسل عليهم السلام في دعواتهم لأقوامهم، وهكذا يَنْبَغِي أن يكون عمل الدُّعاة إلى الله دواماً.

وعلى الداعي إلى الله أن يكون شديد الحذَرِ من أن يُسْتَدْرَجَ إلَىٰ جَدَلِيَّاتٍ فكريّة تتعلّق بالفروع قبْلَ تأسيس الأُصُول الّتي تَتَفَرَّعُ عنها.

إنْ البحث في الفروع دون النَّظَرِ إلى ارتباطها بأصولها، يجرُّ إلىٰ متاهاتٍ جدلّية لا نهاية لها، ولا خَلَاصَ منها، وعن طريقها يجد الشَّخْصُ المدعوّ منافِذَ وَمَسَارِبَ يروغُ فيها، ليَتَهَرَّبَ من أن يُلْزَمَ بِالحقّ، ويَعْتَرِفَ به.

إنّ الفروع ولا سيما البعيدةُ منها عن الأصول تختلف وجهات أنظار الناس إليها، فيجادلون فيها جدلاً طويلاً، وكثيراً ما لا يَصِلُ المتحاورون حَوْلَهَا إلى نتيجة مقنعة يُسَلِّم بها الطرفان المتنازعان المتحاوران، ولاَ تَكَادُ تتفق الأفكار على رأي ثابتٍ بشأنها ما دامت منقطعة الصلة بأصولها.

وقضايا الدِّين ترجع أصولها إلى الإيمان بالله رَبًّا خالقاً لا رَبَّ في الوجود غَيْرُه، وإلّهاً معبوداً لا إلّه في الوجود يُعْبَد بحَقّ سواه، وأنَّ الله خَلَقَ الناس ليمتحنهم في ظروفِ هذه الحياة الدنيا، وليحاسبهم بعد البعث يوم الدين، وليفصل القضاءَ بينهم، وليجزيهم علَىٰ ما قَدَّمُوا وأَخَّرُوا في الحياة الدنيا، والامتحان في الحياة الدنيا مادَّتُهُ أوامر الرّبّ جلّ وعلا ونواهيه

وشرائعه التي يُبَلِّغُها للناس رُسُلُه، والّتي تنزّلَتْ بها كتُبُه، وكان مُحَمَّدٌ ﷺ خاتمَ الأنبياء والمرسلين، وكان القرآن الذي أنزل عليه خاتمَ كتب الله للناس أجمعين، وقد حفظه الله من كلّ تحريف وتبديل وتغيير إذْ شاء أن يجعله خاتمة كتبه، والحاوي على الدين الذي اصطفاه للناس أجمعين إلى أن تقوم الساعة.

وحين لا يضع الناس هذه الأصول لدى بحث أيَّةِ قضية من قضايا فروع الدّين، فمن الصعب جدًّا أن يتّفِقوا على تَحْريم ما تشتهيه النفوس، وتميلُ إليه الأَهواء، وأنْ يَتّفِقُوا مثلاً على وجوب عبادة الله بالصَّلواتِ المفروضة، أو بصيام شهر رمضان، أو بالزكاةِ، أو بالحجّ، أو بغير ذلك من سائر أحكام فروع الدّين في كلِّ مجال من مجالات الحياة.

فحين يرى المؤمنون بالإسلام عُرْيَ النساء واختلاطَهم بالرجال وشيوعَ الفاحشة عملاً منكراً، ومُحَرَّماً يستحقُّ العقابَ مِنْ بَارِىء العباد، نَجدُ غير المؤمنين بالإسلام أو بدينٍ ربانيّ لا يحرّم هذه الأمور، يَرَوْنَ أنها ظاهرة طبيعيَّةٌ حَضَارِيَّة. وتعبيرٌ فطريٌّ ينبغي إطلاقُه، ويَرَوْنَ أن حَجْرَ حُرّيّة النّاس في هذا المجال كَبْتٌ يُوَلِّد أمراضاً نفسيّة سيئة، ومهما قدّم الداعي إلى الحشمة والعفة وتحريم الفاحشة من أدِلّة، فإنّ باستطاعةِ الداعي إلى إطلاق الحريّة الجنسيّة أدلةً كثيرة تُزَيِّنُ ما يدعو إليه، وتُحَسّنُه بزخرف القول، وتجد هذه الأدلة الزخرفيّة استجابةً لدى كثيرٍ من النفوس، لأنّها تدغدغ الشهوات والأهواء وتَسْتَثِيرُها وترضيها.

ومن الفروع الَّتي يَسْتَجرُّ الْمُضِلُّون إلى المحاورة حولها من أحكام الدِّين، ويَجُولون فيها بزخرف القول، ويؤثرون فيها على الذين لا علم لهم بالدّين وأصوله، ولا علم لهم بالهدف من رحلة الحياة الدنيا، حُكْمُ إباحة تعدُّدِ الزوجات في الإسلام، وجَعْلُ الإسلام القوامة والطلاقَ بيد الرجل،

ونُسُكُ رَمْيِ الجمرات في الحجّ، واستلام الحجر الأسْوَدِ في الطواف، وأَشْبَاهُ هذه الأمور.

فعلى الداعي إلى الله أن يأخذ هو زمامَ المبادرة في الحوار، ويَطْرَحَ أسئلته حول نقطة الخلاف الأولى بَيْنَه وبين من يحاوره، وأن لا يترك لمحاوِرِ مُراوغٍ مجالاً يستجرّه فيه إلى تشكيكات حول فروع أحكام الدّين، قَبْلَ استيفاءِ الكلامِ حول الأصول التي تتفرَّعُ عنها الفروع وفُرُوعُ الفروع.

فمثلاً: حين يكون المدعوُّ إلى دين الله الحقِّ مادّياً ملحداً، يعتقد بأنّ الوجود كلّه مادّةٌ لا حياة فيها، وهذه المادّة تطَوَّرَتْ ضمن حركةً آليّةٍ ذاتية، ولا تَزَال تَتَطَوَّر، وبسبب هذا التطور تولَّدت النباتات، ثم عالم الأحياء، في مُدَرَّجٍ هَرَمِيٍّ تصاعدي، ويظهر هذا الاعتقاد الباطل لدىٰ شيوعيٍّ مفتونٍ بالمادّيّة الجدليّة الماركسيّة.

فإنّ علىٰ الداعي إلىٰ دين الله الحقّ أَنْ يَعْرِف أوّلاً أصول الماديّة الجدليّةِ، ويعرف الحجج والأدلة التي تُسْقِطُها فكريًّا وعلميًّا، وأنْ يطرح أسئلته مُحَاصراً من يحاوره بالأدلّة البرهانيّة، وكاشفاً له أنّ المادّية الجدليّة فكرةٌ خياليّةٌ وهْمِيَّةٌ، لا تَدْعَمُها دلائل عقليّة، ولا شواهد علميّة، ومبيناً له أقْوَال كبارِ علماء الكون المحايدين بشأنها، التي يثبتون بها أنَّها لا تملك دليلاً صحيحاً يثبتها.

ومن أدلة سقوطها أنّ علماء الدَّوْلةِ الشيوعية الماركسيّة العظمى لم يستطيعوا طَوَالَ ستين عاماً من البحث والدرس والتجربات الكثيرات المختلفات، أن يولّدوا من المادة الميْتةِ خَلِيَّةً حيَّةً واحدة، نباتية أو حيوانية، وبذلك سَقَطَتْ فكرتهم القائلة بأنّ الحياة ظهرت نتيجةَ تطوُّرات ذاتيَّةٍ في المادّة.

وحين يكون المدعوُّ إلى دين الله الحقّ نصرانيًّا يؤمن بالتثليث، فإنّ

على الداعي أنْ يَبْدأَ معه من نقطة الخلاف، وهي قضية التثليث ويُبَيّنَ له أنّ الرّب الخالق للكون لا يمكن أن يكون متعدّداً، ولا يمكن أن ينفصل منه جزء فيكونَ له ابّناً، وأنَّ مَثَل عِيسَىٰ عليه السلام عند الله كمثل آدم وحواء.

فكما أن آدم خلقه الله عزّ وجلّ من التراب دون أب ولا أم، وكما أن الله عزّ وجلّ خلق حوّاء من ذكر بلا أنثى، خلق عيسَىٰ عليه السلام من أمّ هي مريم عليها السلام بلا أب.

فإذا استجاب النصراني إلى الإيمان بأنّ عيسى عَبْدُ الله ورسوله، تمكّن الداعي إلى الله من أن ينتقل به إلى عقائد الإسلام الأخرى حول الرسول ﷺ، وحول القرآن الذي أُنْزِلَ عليه، وهكذا ارتقاءً إلى سائر العقائد فالشرائع فأحكام الفروع.

وأنبّهُ هنا على أنّ المبشرين بالنصرانية قد امتحنوا طرح حواراتهم التبشيريّة بين المسلمين، بدءاً من أصول دينهم الباطلة الّتي يؤمنون بها، فأُصِيبُوا بالهزائم الفكريّة المنكرة.

إذْ كان عامّةُ المسلمين فضلاً عن طلّاب العلم فيهم يستطيعون إبطال أصولهم الاعتقاديّة القائمة على التثليث والتجسُّد بشخوصٍ إنْسَانيّة.

وحين تكاثرت عليهم الهزائم الفكريّة في هذا المجال، حتى في البلدان النائية عن قَلْب العالم الإسلاميّ، وجَّهَ قادَتُهُمْ للعاملين في أنشطة التبشير بالنصرانية، الوصايا بِإنْ يكُفُّوا نهائيًا عن إثارة جدلياتٍ وحواراتٍ ومناقشاتٍ حول أسس العقيدة النصرانيّة، وأن يقتصروا على توجيه الأسئلة التَّشْكِيكيّة الّتي تُثِير شبهاتٍ حول فروع الأحكام الشرعيّة الإسلامية، وأن يَنْشُروا بين المسلمين العلمانيّة، وظواهر الحضارة الغربيّة والشرقية الكافرة، وأسلوبَ الحياة القائمة على الحريّات الجنسيّة، وأن ينشروا بَيْنَهم المذاهب الفكريّة المعاصرة المضادّة لمبادىء الإسلام وشرائعه، فإذا تَركُوا الإسلام وأمْسَوْا بِلا

دِينٍ، أمْكَنَ يوماً ما جَلْبُ ذراريهم إلى النصرانيّة.

وأُنَبّهُ أخيراً على أنَّ من الخير لحامل الرسالة الإسلاميّة، أن يجتهد في استخراج الأدلَّةِ والبراهين لأصول الدين من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ثم يعرضها بلغة العصر وأسلوب بيانه، ممّا يَسْهُل على المعاصرين إدراكُهُ وتَفَهُّمه، ويُشْعِرهم بعد الاقتناع بها بأنّها أدلّة قُرْآنيّة، أو أدلّة نبويّة، والجديد فيها هو أسلوب العرض، والبيانُ الملائم لطرائق البيان المعاصرة وأدلّتِهِ وحُجَجه.

* * *

القـاعدة السـابعة:

«على حامل الرسالة أن يتقيّد بالاستدلال بالحقّ، وأن يجتنب الاستدلال بالأباطيل والأكاذيب والموضوعات المفتريات، فالحقّ لا يُنْصَرُ إلاّ بالحقّ.

إنَّه لا يَصِحُّ للدَّاعِي إلىٰ اللَّهِ أَوْ إِلَىٰ سَبِيلِهِ، أَنْ يَسْتَدِلَّ بِدَلِيلٍ بَاطِلٍ في ذَاتِهِ لِيؤَيِّدَ بِهِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَإِنْ قَبِلَهُ الْمَدْعُوُّ.

فكُلُّ خُرَافَةٍ، وَكُلُّ باطِلٍ وكُلُّ افْتِراءٍ، وَكلُّ كَذِبٍ، وَكُلُّ وَهْمٍ، أُمُورٌ مَرْفُوضَةٌ مَنْبُوذَةٌ فِي مَفَاهِيمِ الإِسْلاَمِ، وَلاَ يَجُوزُ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ اتِّخَاذُهَا وَسَائِلَ لِنُصْرَةِ الإِسْلاَمِ، فَالْحَقُّ الرَّبَّانِيُّ لاَ يُنْصَرُ إلاَّ بِالْحَقِّ».

الـشـرح:

إنّ الإسلام دينٌ حقٌّ، مُنزَّلٌ من الله الْحَقّ، بوساطَةِ الْوَحْي الّذي هو حقٌّ، على رسول الله المؤيّد من الله بآياتٍ هي حقٌّ في ذاتها.

وللعقائد الإيمانيّة في الإسلام، وللنصوص الإسلاميّة المنزلَةِ من عند الله، والثابتة بلاغاً عن الرسول محمّد ﷺ، أدلّةٌ برهانيّة، تعتمد على حقائقَ تُدْرِكُها العقولُ السّليمة وتُذْعِنُ لها القلوب المستعدَّةُ للاعتراف بالحق، وهي

القلوب الّتي لم تَطْمِسْ بَصِيرَتها الأهواءُ والشهوات، ونوازغ الجحود والإنكار، وعوامِلُ الاستعلاء والاستكبار، ورغباتُ الفجور في الأرض، دون إحساسٍ بمشاعر الإثم ووخز الضمير.

فعلى الداعي إلى الله، أو إلى سبيله، أن يبحث عن الأدلّة البرهانيّة والحجج الصحيحة الّتي هي حقائق في ذاتها، ثمّ يستَدِلّ بها لإقناع من يدعوهُ إلى دين الله، وعليه أن يختار منها ما يُلائم مَدَارِكَ من يدعوهُ، ومستواهُ الْعِلْمِيّ، وحالته النفسيّة.

فإذا احتاج إلى تبسيط الأدلة وتيسيرها، بَسَّطها له ويَسَّرها، وتسلسل معه فيها على وفق النظام العقليّ الذي فَطَرَ اللَّهُ عُقُولَ الناس عليه.

وإذا رأىٰ أنّ لدى فكر من يدعوه أغشيَةً لَا تَسْمَحُ له برُؤيَةِ الحقيقة حاول إزالتها برفْق، حتّىٰ تنجَلِيَ بَصِيرَةُ فكره.

وإذا وجَدَ لديه مُسَلَّمَاتٍ يراها حقائق، وهي تناقضُ ما يُرِيدُ إقناعَهُ به حاوَل برفْقٍ أَنْ يكْشِف له بطْلانَ هٰذِه المسلَّمَاتِ بالحجج الصحيحة الّتي يَقْبَلُها، أو تُلْجِئهُ إلى أَنْ يَبْهَتَ ولا يَجِدَ حُجَّةً تَدْفَعُهَا أوتدْعَمُ مسلّماته.

وبعْدَ أن يُزَلْزِل اعتقادَهُ بمُسلّماته يُقَدّم له الأدلّة الصحيحة الّتي تنتهي مراحلُها بإثبات القضيَّةِ التي يُرِيد أَنْ يَدْعُوَه إليها.

إنّه لا يجوز للدّاعي إلى دين الله الحقّ أن يحْتَجّ بأدلّة خرافيّةٍ سوفسطائية، أو أدلّة إيهاميّة، لإثبات القضية الّتي يدعو إليها من الدّين.

كأنْ يذْكُرَ مثلاً لمن يدعوه إلى الإيمان بالملائكة، مُدّعياً أنّ الشواهد العلميّة في معامل العلماء الفيزيائيّين في بَلَدٍ متقدّم كأمْريكا، قد أثبتت وُجُود كائنات روحانيّة خَيِّرَةٍ عُلْيا، ذَوَات أجْسادٍ شفّافَة لَا تراها أَعْيُنُ النّاس، وهذه الكائنات لَهَا طاقاتٌ عظيمات، وقدرات على اجْتِيَاز المسافات الكونية

الشاسعة بسرعةٍ تزيد على سرعة الضوء بمئة مرّة، أو بألف مرّة.

إنَّ أمثالَ هذه الشواهد لم تَصْدُرْ بَعْدُ عن مؤسّسةٍ علميّة مُعْتَرفٍ بها عالميًّا، فلَوْ أنّ أحَدَ الدُّعاة الإسلاميين ذكَرَ مثْلَ هذا لينصُر به وُجُود الملائكة، أمام جماعةٍ غير متعلّمة، وهي تُحَسِّنُ الظّنَّ به، وتعْتَقِدُ أنّه صادقٌ فيما يذكُرهُ لهم، لكان عَمَلُه هذا جريمةً كُبْرَىٰ في حقِّ الإسلام، لأنّه يُرِيدُ أن يَنْصُرَ الحقّ بما يَدَّعِيه من باطل، ولو قَبِلَهُ المتلقُّونَ عنه، وآمَنُوا بما يَدْعُوهم إليه.

إنَّ الحقَّ لاَ يُنْصَرُ إلاَّ بالْحَقِّ، ولكلِّ حقٍّ من الحجج والأدلَّةِ الصحيحة ما يكفي لإثباته، لدىٰ أهل العقول الصحيحة السليمة من الْخَلَلِ والْعِلَلِ، فهو لا يحتاجُ إلى أكاذيب وأباطيل حتَّىٰ يَسْتَنْصِر بها.

وقد سَدَّ الرسول ﷺ على الوضّاعين الكذَّابينَ باب الافتراء عليه، ولو كان ذلك لتأييده ونُصْرَةِ ما جاءَ به، فقد ثبت عنه في حديثٍ متواترٍ قطْعيٍّ قولُه:

«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

وراوي الكذب وناقِلُهُ والمستَدِلُّ به دون بيان أنّه كذبٌ مثْلُ مَنِ افتراه.

إنّ الكذب في مسائل الدين ولو في الأدلّة والحجج هو من الافتراء على الله عزّ وجلّ، لأنَّ الدّينَ كُلَّهُ لِلَّهِ، فلا يجوزُ الكذبُ في عناصر الدّين، ولا في أدلّة عناصره، ومن هانَ عليه أن يفتري الكَذِبَ لنُصْرَةِ الدّين، هان عليه أن يفتري في كلِّ شيءٍ حتَّىٰ في هدم الدِّينِ، وفي قضايا الإيمان الكبرىٰ، متَىٰ وجد لنفسه مصلحةً في ذلك.

وقد أبان القرآن المجيد في عدّة نصوص تناولت موضوعات مختلفات من الدين، أنّ من أظلم الظلم افتراءَ الكذب على الله، فمنها ما يلي:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ... (٣٧)﴾.

٢ ـ وقول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)﴾.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨)﴾.

يُضَافُ إلى ما سَبَقَ أنّ مناصرة الحقّ بالباطل تُضْعِفُ قيمةَ الحق، وقَدْ توحي بأنّه باطل إذا اكتشف أحَدُ المتلَقِّين أنّ الدليل الذي سيق لنصرته دليلٌ باطل، وربّما ارتدَّ عن الإيمان بالحق من آمن به بدليلٍ باطلٍ إذا اكتشف يوماً ما أنّ الدليل الذي كان السبب في إيمانه به دليل باطل.

وكثيرٌ من الجهلاء يحاولون نُصْرةَ الإسلام وحقائقه ومفاهيمه بالباطل، أو بأدلّة واهيَةٍ ضَعِيفَةٍ لا تقوىٰ في موازين العقول السليمة على نُصْرَةِ الحق، وضَرَرُ هؤلاء على الإسلام شديدٌ جدًّا، وربما كان أشدّ ضرراً من ضَرَر بعض أعْداءِ الإسلام، ويقال في شأنهم: عدُوٌّ عاقل خيرٌ من صديقٍ جاهل.

* * *

القـاعدة الثامنـة:

«لا يُحْتَجُّ عَلىٰ الْمُخَالِفِ بحُجَّةٍ لَا يُؤْمِنُ بها فلا يصحّ لحامل الرسالة الداعي إلى الله أو الداعي إلى سبيله أَنْ يُقَدِّمَ حُجَّةً لَيْسَتْ مِمَّا يُؤْمِنُ بِهِ الْمَدْعُوّ إِنَّمَا يَحْتَجُّ لَهُ بِمَا هُوَ مُسَلَّمٌ لَدَيْهِ مِنَ الْحَقّ».

الشرح:

ممّا هو ساقط مرفوضٌ عقلاً وشرعاً ومُنَافٍ لأساليب الأدلّة القرآنيّة، الاستدلالُ لمنكري الإسلام كُلّه أصُولِه وفُروعه، بِأَدِلَّةٍ نَصّيَّةٍ من القرآن أَوْ من السُّنَّة.

إنّ بعض الْجَهَلَةِ من المتحمِّسينَ لنُصْرَةِ الإسلام إذا اجتمعوا ببعض الملاحدة أو العلمانِيِّين، صَبُّوا عليهم أدلَّة لما يدعونهم إليه من محفوظاتهم من نُصُوص القرآن الكريم، والسنة النبويّة المطهَّرة، وهذه النصوص تشتمل على أوامرَ ونواهيَ وتحذيراتٍ وإنْذاراتٍ بعذابِ الله يوم الدّين، أو يذكرون لهم أقوالاً واجتهاداتٍ وآراءً لبعض علماء المسلمين.

مع أنّ الملاحدة أو العلمانيين غير مؤمنين أصْلاً بوجود الله عزّ وجلّ، أو غير مؤمنين بأنّ القرآن المجيد هو كلام الله المنزَّل من لَدُنْهُ، أو بأنّ محمّداً ﷺ رسولُ الله حقًّا وصِدْقاً، وغَيْرُ مُسَلِّمين بصحّة الأخْبار والتحذيراتِ والإنذاراتِ الّتي تشتمل عليها نُصُوصُ القرآن والسنّة، وغير معترفين بصحّة أقوال علماء المسلمين واجتهاداتهم.

فكيفَ يُسْتَدَلُّ لإنسانٍ بدليلٍ ما وهو لا يؤمن بهذا الدّليل، ولا يَعْتَرِفُ بصحَّتِه؟!.

إنّ هٰذا لأمْرٌ مرفوضٌ بالبديهة العقليّة.

فالأسلوب الحكيم الذي ينبغي للداعي إلى الله أو إلى سبيله أن يتّخذه، أن يطرح على المدعوّ الذي يَشْعُر بأنّه شاكٌّ في أصول الإسلام الكبرىٰ، ولو كانَ من ذراري المسلمين، أسئلة تتعلّق بأسس الحقائق الكبرىٰ في الإسلام.

كأن يقول له مثلاً:

- هل تؤمن بوجود الله عزّ وجلّ رَبًّا خالقاً لا رَبّ سواه في الوجود؟.

فإذا قال: لا، أقام له الأدلّة البرهانيّة على هذه الحقيقة حتّىٰ يُسَلِّم بها، ويُذْعِنَ لها.

وإذا قال: نعم، سأله السؤال التالي:

● هل تؤمن بأنّ الرّبّ الخالق الذي لا ربّ سواه في الوجود، هو المستحقّ للعبادة وحْدَه، وهو الذي يُدْعَىٰ، والّذي يُرْجَىٰ لَدَيْهِ كُلُّ مطلوبٍ من مطالب الحياة، وحْدَه لا شريك له، فلا يُدْعَىٰ، ولا يُرْجَىٰ مَلَكٌ ولا جِنّيٌّ ولاَ وثَنٌ ولاَ أَيُّ قوّةٍ غيبيّة، إنّما يُدْعَىٰ ويُرْجَىٰ الله الرّبُّ الخالقُ وحده؟.

فإذا قال: لا، أقام له الأدلة البرهانيّة على هذه الحقيقة حتّىٰ يُسَلِّم بها، ويُذْعِنَ لها.

وإذا قال: نعم، سأله السؤال التالي:

● هل تؤمن بأنّ الله الرّبّ الحكيم العليم القدير قد خلق الناس ليمتحنهم في هذه الحياة الدنيا، وبأنّه جعل الموتَ فاصلاً بين حياة الامتحان وحياةِ الحسابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء بالعدل أو بالفضل على ما قدّم الإنسانُ في رحلةِ الحياة الدنيا رحلة الامتحان، فإذا جاء يوم البعث أحيا الله الموتى وساقهم إلى المحاسبة على أعمالهم، وقضىٰ بينهم، ثُمّ يُسَاقُون بحسَبِ أحكام الله فيهم إلى مصائرهم، فيُسَاق الذي قُضِي عليه بالعذاب جزاءَ ما قدّم في الحياة الدنيا، إلى دار العذاب النارِ وبئسَ المصير، ويُسَاقُ الذي قُضِي له بالنعيم جزاء ما قدَّم في الحياة الدنيا من إيمانٍ وعمل صالح، إلى دار النعيم، جنَّةِ الخلد التي أعدّها الله عزّ وجلّ للمتقين ونِعْمَ المصير؟.

فإذا قال: لا، أقام له الأدلّة المستندة إلى حكمة الله الدّالّة على هذه الحقيقة، حتى يُسلِّمَ بها، ويُذْعِنَ لها.

وإذا قال: نعم، سأله السؤال التالي:

● هل تؤمِنُ بأنّ الله عزّ وجلّ قد أرسل إلى الناس رُسُلاً منهم، ليبلّغُوا عنه مطلوبَهُ منهم في رحلة امتحانهم؟.

فإذا قال: لا، أقام له الأدلّة على هذه الحقيقة حتَّىٰ يُسَلِّم بها ويُذعن لها.

وإذا قال: نعم، . سأله السؤال التالي:

● هل تؤمن بأنّ محمّداً خَاتم رُسُل الله أجمعين، وبأنّ القرآن الكريم منَزَّلٌ عليه من ربّه؟.

فإذا قال: لا، أقام له الأدلّة على هذه الحقيقة حتَّىٰ يُسَلِّم بها، ويُذْعِنَ لها.

وإذا قال: نعم، بدأ يسوقُ له الأدلّة من آيات القرآن المجيد، ومن أحاديث الرسول ﷺ الثابتة عنه بالأسانيد الصحيحة، ويشرح له دلالاتها على وفق اجتهادات كبار علماء المسلمين الموثوق بهم في تاريخ الأمّة الإسلاميّة، وضمن قواعد فهم النصوص.

وباستطاعة الداعي أن يتفرّس في حال المدعوّ، فإذا شَعَر بأنّه من المؤمنين ببعض الأصول الإسلاميّة الكبرى، اختصر على نفسه سلسلة الأسئلة الّتي يَلْحَقُ بعضُها بعضاً، فيأتي اللّاحق منها مبنيًّا على التسليم بالحقيقة الّتي يُتَوَصَّلُ إليها نتيجة السؤال السابق منها.

هكذا يجب أن تُبْنَىٰ السلاسل الفكريّةُ بعضُها على بعضٍ بناءً تدَرُّجيًّا، ولا يَصِحُّ بناءُ درجَةٍ عُلْيَا إلاّ بعد استكمال بناءِ الدّرجَةِ الّتي تَحْتَها بناءً صحيحاً سليماً، وكُلُّ ما بُنِيَ على باطلٍ فهو باطل، أَوْ لاَ يصحُّ الثقةُ به والاعتماد عليه، ولو كان هو في ذاته صحيحاً، لأنّ له أصلاً آخر صحيحاً هو مبنيٌّ

عليه، فالثِّقة به، والاعتماد عليه، لا يتحقَّقان إلاّ إذا بُنِيَ على الأصل الآخر الصحيح الذي يَقْضِي العقل بوجوب التسليم به.

إنّ إثبات هلالٍ ذهبيّ، على بُرْجِ قَصْرٍ عظيم، في جزيرة، وسط الْبَحْرِ الواقع في صحراء الرّبع الخالي، من شبه الجزيرة العربيّة، يتَطَلَّبُ سلسلةً فكريَّةً تتراجَعُ إلى الأصول.

فقبل إثباتِ وجود الهلال الذهبيّ، لا بُدَّ من إثبات وُجُودِ الْبُرْجِ، وقبل إثبات وجود الْبُرْج، لا بُدَّ من إثبات وجُود القصر؛ وقبل إثبات وجود القصر لا بُدّ من إثبات وجود الجزيرة التي هي وسط البحر، وقبل إثبات وجود الجزيرة لا بُدَّ من إثبات وجود البحر حولها.

لكن البحر المذكور في الادّعاء لا وُجودَ له مطلقاً، لأنّ الادّعاء يَجْعَلُهُ في الربع الخالي من شبه الجزيرة العربية.

فسلسلةُ هذه الادّعاءات ترجع إلى أمْرٍ لا وجود له مطلقاً، فجميع حلقات هذه السلسلة ساقطةٌ بداهة، بسبب سقوط الأصل الأوّل الذي بُنِيَتْ عليه.

والتزاماً بهذه القاعدة البدهيّة نجدُ الأدلّة القرآنيّة المسوقة لإثبات وجود الرَّب الخالق الواحد الأحد جلّ جلاله، تعتمد على أدِلَّةٍ كونيَّةٍ وفِكْريَّةٍ يُشَارِكُ في التسليم بها وبأصولها الكافرون والمشركون، وهي أدِلَّةُ الظَّوَاهِرِ الكونِيَّةِ المشهودة بالحسّ، والّتي تدلُّ صِفَاتُها بالبراهين العقليّة على أنَّ لَهَا رَبًّا خالقاً واحداً، ومن الأدلّة القرآنية أدلّة عقليّةٌ صِرْف يُدْركها العلماء المتفكرون، والفلاسفة المتعمّقون في التأمُّلاتِ الفلسفيَّة.

ثم تنتقل الأدلّة القرآنية إلى حُجَجٍ وبراهين عقليّة تُثْبِتُ أَنَّ من له الرُّبُوبيَّةَ وحْدَه هو الّذي يجب أنْ يكون وحْدَهُ الإلَه المعبود.

ثم تنتقل إلى إثبات حكمة الله في الخلق، وحكمته في إرسال الرسل، وهكذا حتّىٰ إثبات أنّ القرآن المجيد كلام الله المنزلُ على رسوله محمد ﷺ، بدليل أنه آيَةٌ مُعْجزَة. فإذا بلغ المدعوُّ إلى التسليم بما سبق وُجّهتْ له نصوص التكاليف المصدّرة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

* * *

القـاعدة التـاسعة:

«مَنْ رَأَيْتَهُ يُغَالِطُ في دَلِيلِكَ فَانْقُلْهُ إِلَىٰ دَلِيلٍ لاَ يَسْتَطِعُ أَنْ يُغَالِطَ فِيهِ».

الـشـرح:

من المدعوّين إلى الإيمان بالله أو إلى سلوك صراطه المستقيم من يكون مُرَاوِغاً قادراً على أنْ يُجَادل بالباطل، فإذا سُقْتَ له دليلاً صحيحاً يتضمَّنُ حُجَّةً دامغة، وجَدَ لَدَيْهِ القدرة على أنْ يُراوغَ فيحتالَ في حَمْلِ الألفاظ التي سُقْتَ بها دَلِيلَكَ عَلى غَيْرِ مُرادِكَ منها، وعلى أَنْ يَدُورَ بها مغالطاً.

فإذا وجَدْتَ إنساناً من هذا القبيل قادراً على المغالطة في الألفاظ، فاتْرُكْ دليلك الذي استطاع أن يُغَالِطَ فيه، ولا تشغَلْ نفسك مَعَهُ بتحرير مرادكَ من الألفاظ الّتي سُقْتَ بها دليلك، وانتقلْ إلى دليلٍ آخرَ لا يَسْتَطِيعُ أن يُغَالِطَ فيه، وتأسَّ فِي هذا بإبراهيم عليه السلام:

إذْ قال له «نمرود» الجبار: مَنْ رَبُّكَ؟.

قال إبراهيم: رَبِّـي الّذِي يُحْيِـي ويُمِيتُ.

قال «نمرود»: أَنَا أُحْيِـي وأُمِيتُ.

قال إبراهيم: فَإِنَّ اللَّهَ يَأتي بالشمس من المشرق فَأْتِ بها من المغرب.

فَبُهِتَ الّذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين(١).

(١) انظر شرح هذه المناظرة في الفصل الأول من الباب الخامس (الصورة الرابعة).

القاعدة العاشرة:

«على حامل الرسالة أن يكون في مقدّمة المؤمنين بما يدعو إليه، والملتزمين بأحكامه، وأنْ يَبْدأ بدَعْوةِ وإصْلاحِ عشيرته الأقربين».

الشرح:

● إن علىٰ كُلّ داعٍ إلى سَبِيلِ اللّهِ، وكلِّ نَاصِحٍ وَاعِظٍ آمِرٍ بالْمَعْرُوفِ نَاهٍ عَنِ الْمُنْكَرِ أَنْ يكون من المؤمنين بما يدعو إليه، وأن يكون في مقدّمة الّذين يطبقون ما يدعو إليه، أو ينصح به، أَوْ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ يَنْهَىٰ عَنْهُ.

إذْ لَا أَثَرَ لِحَامِلِ رِسالةٍ دِينِيَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ مَا لَمْ يَكُنْ أَوَّلَ الْمُؤْمِنينَ بِهَا، والْمُلْتَزِمينَ بِتَطْبِيقِ أَحْكَامِهَا وَتَكَالِيفِها.

وعليه أن يبدأ بدَعوة وإصلاح عشيرته الأقربين، فقد أمر الله رسوله في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقوله:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

إنّ إيمان الدعاة بما يدعون إليه والتزامهم به، من أولى الواجبات الّتي عليهم أن يَتَحَلَّوا بها، لأنّهم يَحْتَلُّون بحمْلِهِم رسالةَ الدعوة إلى الله، والنّصح والإرشاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مَنْصَبَ الإمامة، والإمَامُ يقدّم نفسَهُ ليأتمّ الناس به.

ولكون هذا من البدهيّات الأُولى وجَدْنا الأنبياء والمرسلين أوَّلَ المؤمنين والمسلمين في أقوامهم، بأقوالهم وبأعمالهم.

● وقد أمر الله رسوله محمّداً ﷺ بأن يُعْلِن لقومه بأنَّ الله عزّ وجلّ أمره بأن يكون أوّل المسلمين، جاء هذا في عدّة نصوص:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ له في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿... قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ... ﴿١٤﴾﴾.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ له فيها أيضاً:

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ له في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

وأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ: أي: وأُمِرْتُ بالأوامر والتكاليف الدّينيّة لأجل أنْ أكون أوّل المسلمين المستسلمين المطيعين لأوامر الله من أُمّتي.

● وأبان شعيبٌ عليه السلام لقَوْمِه أنّه من الملتزمين بطاعة ربّه، في اجتناب كلّ ما ينهاهُمْ عنه، فقال لهم كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ . . . وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عنه: أي: وَمَا أُريدُ أَنْ أَعْملَ شيئاً من الأعمال التي أنهاكم عنها. **يقال لغةً**: خالَفَكَ إلى كذا، إذا قَصَدَ الشيءَ وأَنْتَ مُنْصَرِفٌ عنه.

● وسَأَل موسى عليه السلام رَبَّهُ أن يُرِيَهُ ذَاتَه، وقال الله له: لن تراني، وأَجْرَىٰ الله عزّ وجلّ لَهُ تَجْرِبَةً تجلّي نوره للْجَبَلِ فانْدَكَّ الجبلُ وخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً، فلَمَّا أفاق قال لربِّه: سُبْحانَكَ تُبْتُ إليك وَأنا أَوَّلُ المؤمنين.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

* * *

القاعدة الحادية عشرة:

«على حامل الرسالة الثباتُ على الحقّ والاستقامة على صراط الله، مهما واجه من عقبات وصعوبات ومغريات».

الشرح:

«إنّ مما يجب على حامل الرسالة الرّبّانية أن يَثْبُت على الحقّ، ويستَقِيمَ على صراط الله الحق، وأن لا يتأثر بزيوف المبطلين، وبما يقدّمونه من زخرف القول، للفتنة والإغراء والتغرير، ولا يتأثّر بمغريات الحياة الدنيا وزينتها من مالٍ أو جاه أو سلطان أو شهوات أو تحقيق مصالح، فإنّه متى تأثّر بشيءٍ من ذلك اجتالته شياطين الإنسِ والجنّ، فسخّروه جُنْدِيًّا من جنودهم، ومُسَاهِماً في الإضلال والإفساد من حيث يشْعُرُ أو لا يَشْعُر، وهو يَرْتَدِي ألبسة المصلحين حاملي الرسالة الإسلاميّة، إذْ يُلْزِمونه بأن يحافظ على مظاهره وصُوَرِ أعماله الّتي تَدُلُّ على أنّه من حملة الرسالة الإسلامية، ومن الدّعاة إلى الله وإلى صراطه المستقيم، ويُوحُون لَه بالذرائع التي تُزَيِّنُ انحرافه ومسايَرَتَهُ للضّالين والمضلّين من ذوي السلطان في الأرض، أو ذوي المال والجاه.

إنّ وظيفة حمل الرسالة الرّبّانية بالدعوة إلى الله، أو إلى صراطه المستقيم وظيفةٌ جليلةٌ خطيرة، تُشْبِه وظيفة الأنبياء والمرسلين، باستثناء الوحي والْعِصْمَة.

فمن انحرف عن واجبات رسالته وهو مُتَصَدِّرٌ للإمامة فيها كان ضرره

أشدّ من ضرر المضلّين المفسدين في الأرض منذ نشأتهم الأولى، لأَنّ كثيراً من النّاس يَقْتَدُونَ به على أَنَّهُ حَامِلٌ رسالة إسلاميّة يُبَلّغها ويبيّنها بصِدْقٍ وأمانة، وأنّه في مقدمة المتلزمين بها، والمنفذين لأحكامها، المستقيمين على صراط الله، فيقعون في الضلالة، ويتنكّبُونَ صراط الله اقتداءً به، وهم يحسَبُونَ أنّهم مُهْتَدُون، ويُحْسِنُونَ صُنْعاً، إِذْ يتَّبِعُونَ إماماً هادياً مُرْشداً مُصْلحاً.

إنّ المتظاهر بحمل الرسالةِ الربّانيّة الّذي يكون سبباً في تضليل أفكار من يأتَمُّ به، وفي إفساد مفاهيمهم، وفي إخراجهم عن صراط الله المستقم بأقواله وأعماله، شيطانٌ خبيث، يَلْبَسُ ثِيَابَ قِدِّيس، ويُفْسِدُ إفْسَادَ إبليس، وهو شرٌّ وأَخْبَثُ من الّذي يأمُرُ بالْمَعْرُوفِ في ظاهِرِه، ولا يأتِيه في سِرّه، وينْهَىٰ عَنِ المنكر في ظاهره، ويأتيه في سِرّه، وقد جاء في أقوال الرسول ﷺ بشأن هذا الّذي تُخالِفُ أعمالُه أقوالَه وعِيدٌ شديد.

روى البخاريّ ومسلم عن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رسُول الله ﷺ يقول:

«يُؤْتَىٰ بالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَىٰ في النَّارِ، فتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِه، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَىٰ، فَيَجْتَمِـعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ؟!، أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ؟!. فَيَقُولُ: بَلَىٰ، كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ، وَأَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ وآتِيهِ».

أَقْتَابُ بَطْنِه: أي: أَمْعَاءُ بَطْنِه.

واهتماماً بمراعاة هذه القاعدة أمر الله رسولَهُ محمّداً ﷺ وأَمَرَ مَنْ تَابَ إلى ربّه معه بأنْ يَسْتَقِيموا كَما أُمِرُوا، ونَهَاهُمْ عن أن يَطْغَوْا، وحَذَّرَهم من أنْ يَرْكَنُوا إلى الَّذِين ظَلَمُوا، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

وبعد أَنْ أَبَانَ الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) أنّه شرع للناس في هذا الدّين الخاتم ما وصَّىٰ به الرُّسُلَ السَّابقين، خاطَبَ رسوله محمّداً ﷺ بقوله:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ... ﴿١٥﴾ ﴾.

ويُلْحَقُ بالرَّسُول كلُّ حَمَلَةِ رِسالته من أُمّته.

إنّ الثَّبات على الحقّ، والاستقامةَ على صراط الله، وعَدَم التأثر بأهواء المضلِّين، ومَزَالِقِ الْمُفْسِدِينَ، ومُغْرَيَاتِ الحياة الدُّنْيا وزينتها، من شواهد الصِّدْقِ مع الله، وابْتِغاءِ مرضاته، والحرص على طلب الآخرة، ومن المؤهّلات الواجبات لاحتلال المنصب الدينيِّ الرفيع، وهو مَنْصِبُ «إمام المتقين».

وإمام المتقين الصادقُ يَهْدِي بأقواله، وأعماله، وكُلِّ حالِهِ الظّاهِرِ والباطِنِ.

* * *

القـاعدة الثانية عشرة:

«على حامل الرسالة الإسلاميّة أنْ يدأب في القيام بأداء رسالته بصبْرٍ وحِلْمٍ وتحمُّلٍ لِلأذى، وكلّما يئس من فَرْدٍ أو جماعةٍ انتقل إلى آخرين غَيْرِ ميئوسٍ منهم، ويظلُّ طَوالَ عُمْرِهِ حاملاً رسالته مؤدّياً لها حَسْبَ استطاعته حتَّىٰ آخِرِ لحظة من عُمْرِهِ».

الشـرح:

إنّ رُسُل الله وأنبياءَهُ في التاريخ هم الأسوة الحسنة لكلّ من يَحْمِلُ رسالة الدّعْوةِ إلى دين الله وصراطه المستقيم، ورسالة النُّصْح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن تقوم السّاعة.

وقد دأبَ أنبياءُ اللّهِ ورُسُله على الدعوة إلى دين الله وصراطه المستقيم، والنُّصْحِ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بصَبْرٍ وحِلْمٍ وتَحَمُّلٍ للأذىٰ، ولمْ يكُفُّوا عن القيام بأداء رسالات ربّهم حتّى جاءَهُمْ اليقين وهو الموت، أو حَكَمَ اللّهُ بينهم وبين أقوامِهِمْ، فأهلك الكفرة المكذّبين.

وبعضُ الرسل لم يستجب لهم من أقوامهم إلاّ الأعداد القليلة، ، ومنهم من لم يُصَدِّقْه من أُمَّتهِ إلاّ رجلٌ واحد.

روى مسلم عن أنَس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أنَا أَوَّل شَفِيع في الْجَنَّةِ، لَمْ يُصَدَّقْ نَبِـيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ، وإنَّ مِنَ الأنبياءِ نَبِيًّا مَا صَدَّقَهُ مِنْ أُمَّتِهِ إلاَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ».

عن مشكاة المصابيح رقم ٥٧٤٤.

ونستطيع أن نفهم أنّ على حامل رسالة ربّه أنْ يَقُومَ بأداء وظائفها حتَّىٰ تُوَافيَهُ منيَّتُه، من قول الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

أي: واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ يَقِينٌ لاَ يَشُكُّ فيه أحد.

ومعلوم أنّ الْقِيَام بوظائف الدّعوة إلى الله والنّصح والإرشادِ والأمْرِ بالمعروف والني عن المنكر، من أعظم عَنَاصِرِ عِبَادَةِ الله عزّ وجلّ، وهو من الجهاد في سبيل الله، بلْ من أوائل واجباته.

وقد جاء قوله تعالى لرسوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ في سياقِ قوله له: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ للدلالة على أنّ صَدْعَهُ بما يُؤْمَرُ بِتَبْلِغِه هو من واجبات عِبَادَته لربّه.

* * *

القاعدة الثالثة عشرة:

«على حامل الرسالة أنْ لا يُمَيِّز طبقةً من الناس على طبقة لدى قيامه بوظائف رسالته، فيخُصّ مثلاً باهتمامه وعنايته، أو بمجالس دعوته ونصحه وإرشاده وأمْرِهِ بالمعروف ونهيه عن المنكر، طبقةَ ذوي المال والجاه والسُّلْطان وكُبَراءَ القوم، ويُعْرِض عن الفقراء والضعفاء والْمُسْتَضْعَفِين، غَيْرَ مُعْتنٍ بهم، ولا حريص على هدايتهم وتعليمهم وتزيكتهم ونصحهم».

الشرح:

إنّ دين الله عزّ وجلّ موجَّه للناس أجمعين على سواء، ويأْخُذُ كلُّ إنسانٍ من بلاغاته ما يناسبُ حاله، وما هو عليه من أوصاف، وليس دين الله موجهاً بتخصيصٍ لملأ القوم وكبرائهم وذوي المال والجاه فيهم، دون فقرائهم ومستضعفهيم، ولا للرجال فقط دون النساء، ولا للأقوياء فقط دون الضعفاء، ولا للأغنياء فقط دُونَ الفقراء، ولا لذوي السلطان والحكم والإدارة فقط دُونَ عامّة الناس.

وعلى حامل الرسالة أن يضع في تصوُّره دواماً أنّ الله عزّ وجلّ عاتَبَ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) عقب أَنْ بَدَرَتْ منه بادرة إعراضٍ عن إجابة الأعمى ابْن أُمّ مكتوم، إذْ جاءه سائلاً عن بعض

أمور دينه، بينما كان الرسول ﷺ مهتماً بدعوة بعض كبراء قومه إلى دين الله الحق.

ثمّ لم تتكرَّرْ منه هذه البادرة ولا أقلُّ منها، وقد كان ﷺ موجِّهاً اهتمامه لبعض كبراء قومه في تلك الساعة التي لم يَرَ فيها من المناسب الانصراف عنهم وإجابة السائل الأعمى ابْنِ أمّ مكتوم، لشدَّة حرصه على إيمان من يعتزُّ الإسلامُ بهم إذا أسْلَموا، وليس احتفاءً بهم من أجل أنّهم من كُبَراء قَوْمِه، وذَوِي المكانة والوجاهة فيهم.

وعلى حامل الرسالة أن يَذْكُرَ دواماً أنّ الله عزّ وجلّ قال لرسوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) إذْ طلبَ منه بعض كبراء قومه، ومنهم: (عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والمطعم بن عدِيّ، والحارث بن نوفل) إبعادَ الضعفاء والفقراء والمساكين عن مجالسه، كخبّاب، وبلال، وعمّار، وصُهَيْبٍ، حتّى يؤمنوا به ويتّبعوه:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: ما عَلَيْكَ يا مُحَمَّد من حساب الناس من شيءٍ إذا كَفَرُوا ولم يُؤْمِنُوا، بل كلُّ واحدٍ منهم يُحَاسَبُ عن نفسه، فلا تَطْرُدِ الفقراء والضعفاء طمعاً بإيمان الكبراء الأغنياء، فتتخلّص من مسؤولية محاسبتك على عدم إيمانهم، إذْ لا تتحمّل أنت من حسابهم شيئاً، وبما أنّكَ تقومُ بواجب التبليغ فإنّ عليهم أن يتبلّغوا، ويشاركوا في مجالس التبليغ سائر طالبي الهداية، والمستجيبين لدعوتها.

وأنت مسؤولٌ عن تبليغ دين الله لجميع طبقات الناس على سواء، فقرائهم وأغنيائهم، ضعفائهم وساداتهم، فإذا طرَدْت الفقراء والضعفاء

وابعدْتَهُمْ عن مَجَالِسِك استجابة لطلب الأغنياء والكبراء، فإنَّك تُعَرِّض نفسك للمحاسبة والمؤاخذة على إبعادهم عن مجالس العلم الدينيّ، الذي أمرك ربُّك بتبليغه للناس، دون تمييزٍ ولا تخصيص، وإنَّ أغنياء المشركين وكبراءهم الذين تُريد إرضاءهم والاستجابة لطلبهم ليُسْلموا لا يَحْمِلُونَ عنك من مسؤوليّة الحساب شيئاً، بلْ ستُدانُ وحْدَكَ بِطَرْدِ الفقراء والضعفاء، وعدم تبليغهم دين ربّهم، وبعَدَمِ تعليمهم وتزكيتهم.

وعلى هاتين القاعدتين من قَوَاعِدِ المسؤوليّة والمحاسبة جاء التفريعُ بقول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿... فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: فَطَرْدُ الفقراء والضعفاء عن مجالس العلم الديني، ومواطن الهداية والاستجابة لدعوة الحقّ ظُلْم، فإذا طردتهم كنْتَ من الظالمين.

والغَرض توجيه حملة رسالة الرسول من بعده باعتبار أنَّ خطاب الأمّة يُوجَّهُ لإمامِها وقائدها وهم تَبَعٌ له.

وعلى حامل الرسالة أنْ يَذْكر دواماً أنَّ نوحاً عليه السلام قال لقومه بتوجيه من ربّه إذْ طلبوا منه أن يطرُد عن مجالسة الضعفاء والفقراء والوَضِيعين، كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وقال لهم أيضاً كما جاء فيها:

﴿... وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

* * *

القـاعدة الرابعة عشرة:

«على حامل الرسالة أن يتلطّف ويرْفُقَ بمَنْ يوجّه له بعض مضامين رسالته، وأن يكون حسن المجاملة والتودّد والإيناس والمعامَلةِ بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأن يُعْرِضَ عَنْ مقابلة من يُسِيءُ إليه بمثل إساءته، وأَنْ يَعْفو عنه ويصفح، ويعتبرَهُ مريضاً يجب علاجُهُ وإنقاذُه مما هو فيه، ولْيَحْذر من أن يَعْتَبِرَه عَدُوّاً في معرَكةٍ قتَاليّة، فمجالاتُ تأديةِ الرسالة الدّعويّة مجالاتُ إصلاحٍ وهدايةٍ وعلاجٍ دوائي بحكمة، لا مجالاتُ قِتَالٍ غايتُه قتْلُ الْعَدوِّ أو أسْرُهُ والانتصار عليه، وسَلْبُه، وإبعادُه عن مواطن سُلْطَتِه في قومه، لتأمين تبليغ كلمة الله في جماهير قومه.

وعلى حامل الرسالة أن يكون هَمُّهُ الإصلاح والنصيحة، لا التشهير بالناس والفضيحة».

الـشـرح:

لقد أبانت لنا شمائل الرسول ﷺ، وما صحّ من شمائل الأنبياء والمرسلين من قبله، أنّهم كانُوا أَحْسَنَ الناس خُلُقاً، وأكملهم تَلَطُّفاً وَرِفقاً وحُسْنَ مُجَاملة ومعاملة وتسامحٍ وعَفْوٍ وصَفحٍ، في علاقاتهم مع كلّ الناس، سواءٌ مِنْهُمْ من استجاب لدعوتهم واتّبعهم أمْ من لم يستجب لها.

فقد كانوا يُقَابِلُون الشتائم بالإعراض والتجاهل، وإذا اتُّهِمُوا بما ليس فيهم أجابوا بالنفي الْمُجَرِّد، ولا يردّون الإساءة بمثلها.

لقد كانوا يحرصون أشدّ الحرص على امتلاك القلوب بالوسائل التي من شأنها أن تغرس فيها محبتهم وإكبارهم، مع المهابة منهم، ومن هذه الوسائل البِشْرُ، والْبَشَاشة، وطلاقَةُ الوجْهِ، وحُسْنُ الاستقبال، ولِينُ القول، والتكريمُ، والجودُ، والمعونة، والمؤانسة، والعفّةُ، والتواضُعُ معَ عِزَّة النفس والترفُّع عن الصغائر.

أمّا الذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهم فقد كانوا يغمرونهم بالرحمة، ويُحِيطُونَهُمْ بالعناية، ويُوَاسُونَهُم، ويجُودونَ عليهم جوداً عظيماً، ويتواضعون لهم، ويؤانسونهم، ويعطون كلاًّ منهم ممّا يُنَاسِبُ حالَهُ ما يجعل قلْبَهُ يَتدَفَّق بحبّهم وتقديرهم وتعظيمهم، حتى كان بعض أصحاب الرسول محمد ﷺ يَفْدُونَهُ بأنفسهم وأحبِّ الناسِ والأشياء إليهم من شدَّةِ مَحبّتِهم له.

وحملةُ الرسالة مأمورون بالتأسّي بالرسول ﷺ، وبالأنبياء والمرسلين من قبله.

أمّا من هو فظٌّ غليظُ القلْبِ سَيِّءُ الخلُق والمعاملة، سَيّء المعاشرة، فاحشُ القَوْل، فعَلَيْه أن يعتزل هذا الأَمْرَ، حتّى يُصْلِحَ من شأنه ويَسْتَقِيمَ، ويكونَ أهلاً لحمل الرسالة، مهما كان ذا عِلْم بعناصِرِ الرسالة التي يؤدّيها، ويُمْكِنُ الاستفادة منه في مجالات لا يواجِهُ فيها الناس، لئلا يُنَفِّرَهُمْ عن الدين بسبب نفرتهم منه.

وعلى حامل الرسالة أن يذكر دواماً ما كان عليه الرسول ﷺ، وفُضَلاَءُ أصحابه، ومن تَبِعهم بإحسان من علماء المسلمين ومرشديهم وهُداتهم.

وعليه أن يُراجِعَ دواماً ما كان عليه الرسول ﷺ من خُلُقٍ عظيم، فيما جاء من شمائله في السّنة والسِّيرة النبوية، وحَسْبُ الرسول القائد أنّ الله عزّ وجلّ أثنىٰ عليه بالخلُق العظيم فخاطبه بقوله في سورة (القلم/٦٨ مصحف/ ٢ نزول):

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

إنّ النفوذ إلى القلوب على جِسْرِ المحبَّةِ، والمؤاخاةِ، والمصافاةِ، والمعاملَةِ الحسنة، والْبَذْلِ، والعطاء، والتسامح، يجعل حامل الرسالةِ يَسْلُكُ إلى قُلُوبِ من يوجّه لهم رسالته من أسهل الطرق وأَيْسَرِها وأحبِّها إليهم.

فعليه أن يكون شديد الْبُعْدِ عن الفظاظة، والغِلاَظَةِ، والاستكبار، والعنجهيّة، والجفاء، وكلّ تعبيرٍ فيه إيذاءٌ للنَّاس، أو سوءُ أدبٍ معهم، وكلّ تَعْبِيرٍ فاحشٍ أو نابٍ تَنْفِرُ منه أذواقُ العقلاء والحكماءِ وأهلِ التهذيب.

إنّ حامل الرسالة يجب أن يكون حكيماً في كلّ تصرّفاته، وأن يكون قُدْوةً حسنةً فيها، وأن يَعْبُر إلى قلوب الناس على جِسْرِ المحبّة والرفق والتلطُّفِ والْحُسْنَىٰ.

ولْيَذْكُرْ دواماً ما جاء في بيانات الرسول ﷺ عن الرفق، ومنها ما يلي:

● روى البخاريّ عن عائشة رضي الله عنها: أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّهِ».

● وروى مسلم عن عائشة أيضاً، أنّ النبي ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي على الرِفْقَ مَا لاَ يُعْطِي عَلَىٰ الْعُنْفِ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَىٰ سِوَاهُ».

● وروى مسلم عن عائشة أيضاً. أن رسول الله ﷺ قال لها:

«عَلَيْكِ بالرِّفْقِ، وإيَاكِ والْعُنْفَ والْفُحْشَ، فإنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ».

● وروى مسلم عن جرير بن عبد الله البجليّ، أنّ النبي ﷺ قال:

«مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحَرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ».

وعلى حامل الرسالة أن يكون هَمُّهُ الإصلاحَ والنصيحة، لا التشهير بالناس والفضيحة.

إنّ الأصل في دعوةِ الأفراد ونُصْحهم، أن يكون على سبيل المناجاة في

خَلْوة وَسِرّ، رِعَايَةً لحالَةِ السِّتر الّتي يحرصون عليها، وليكون كلامُ الناصح مسموعاً من قِبَلهم.

فكثيرٌ من الناس يرفضون توجيه النصيحة العلنيّة لهم، لأنّهم يَعْتَبِرُون ذلك فضيحةً لهم، وتشهيراً بهم، وربّما أخذتْهُمُ الْعِزَّةُ الَّتي هم فيها بأسباب الإثْمِ الذي في نفوسهم، فدفعتْ بهم إلى الانتقام مِمَّنْ وجَّهَ لهم النصيحةَ علناً، وتحدثُ عندئذٍ ما لا تُحْمَدُ عقباه.

إنّ الناصح لشخص أو جماعة معيّنةٍ في السِّرّ صادقٌ مُخْلِصٌ يُريد الإصلاح، أمّا الناصح في العَلَنِ فهو فاضحٌ مُشَهِّرٌ، وهو بمنزلة المغتاب، وهو ليس حريصاً على الإصلاح والتقويم.

وكان عليه أن يقتدي بالرَّسول ﷺ، إذْ كان يقولُ عن ناس يَعْرِفُهُمْ ويريد نصيحتهم، ولا يُريد التشهير بهم: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذا وَكَذا».

لكنْ مَنْ أبَىٰ النصيحة في السِّرّ، وأصَرَّ على ما هو فيه من إثْمٍ وشرّ، أَو جَاهَرَ بمعصيته غَيْرَ عابىءٍ بدين الله وأحكام شريعته لعباده، وهو من المنتمين إلى الإسلام، فلا مانعَ من توجيه النصيحة والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر له عَلَناً وفي مَلأٍ من قومه.

وحامل الرسالة الحكيم، يختارُ دواماً الأَجْدَىٰ والأقربَ للإصلاحِ والتقويم.

* * *

القـاعدة الخامسة عشرة:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يكون حسن العلاقات الاجتماعية بجميع أفراد مجتمعه، ومن العلاقات الاجتماعيّة الحسنة التي تؤلف القلوب وتعقد المودّات وتُكْسِبُ حُبَّ الناس: الْبَدْءُ بالسلام، والزيارات، وحضور مناسبات الأفراح والتعازي ما أمكن، وزيارة المرضى، وإصلاح ذَاتِ الْبَيْنِ، وتقديم

الخدمات، ومؤانَسَةُ وملاطفة مختَلِف طبقات الشعب، ولا سيما الفقراء والضعفاء والمساكين والصغار، ومخاطَبَةُ كلّ إنسان بحسب ما يلائمه ويسرُّه، أسوةً بالرسول ﷺ».

الشـرح:

إنّ حُسْنَ العلاقات الاجتماعية من الوسائل التي تؤلف القلوب، وتَعْقِد المودّات بين الناس، وتربط بينهم بوشائج التّحابب، والتوادُد، فالترابط بهذه الوشائج يجعلُ التناصح بينهم والتواصِيَ بالحقّ والصَّبْرِ وعمـلِ الخير والمسارعةِ إلى الفضائل واجتنابِ الرذائل، من الأمور الّتي تُؤْخَذُ بقبول حسن.

فمن الخير لحامل الرسالة أن يَبْنِيَ بينه وبين الناس جُسُورَ المودّة والمحبّة، لتكون دَعْوتُه لهم، ونُصْحُه، وإرشادُه، وأمْرُه بالمعروف ونهيُهُ عن المنكر مقبولةً لديهم.

ولهذا أوصى الرسول ﷺ المسلمين بأنْ يتبادلوا فيما بينهم العلاقات الاجتماعيّة الحسنة.

وكان صلوات الله عليه وسلامه إمام الأئمة جميعاً في خُلُقه العظيم، وحُسْنِ علاقاته الاجتماعيّة بكلّ طبقات الناس، فتعلَّقت القلوب بحُبّه وتعظيمه والتأسّي به تعلُّقاً عظيماً.

ومن دعوته ﷺ إلى كثير من فضائل العلاقات هذه الطائفة التالية من النصوص:

١ ـ روى البخاري عن أبـي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «أَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وعُودُوا الْمرِيضَ، وَفُكُّوا الْعَانِي».

العاني: الأسير.

٢ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ خَمْسٌ، رَدُّ السَّلاَمِ، وعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، واتِّبَاعُ الْجَنائِزِ، وإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ».

٣ ـ وروى مسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِم عَلَىٰ الْمُسْلِمِ سِتٌّ».

قِيل: ما هُنَّ يَا رَسُول الله؟. قال:

«إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ له، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتْبَعْهُ».

ومن تطبيقاته الكثيرة ﷺ:

ما روى البخاريُّ عن أنَس قالَ: كانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النبـيّ ﷺ فمرض، فأتاه النبـي ﷺ يعودُه، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأسِهِ، فقالَ له: «أَسْلِمْ» فنَظَر إلى أبيه وهو عِنْدَهُ، فقال: أَطِعْ أَبَا الْقَاسم، فأسْلَم.

فخرَج النبـيّ ﷺ وهو يقول:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ».

والنُّصُوصُ في هَـٰذا كثيرة.

* * *

القـاعدة السادسة عشرة:

«من وسائل تأليف القلوب وإزالة عقبات النفوس الإحسان إلى الناس بالبذل من المال، وبالبذل من النفس في الخدمات والمساعدات والمعونات، فعلىٰ حامل الرسالة أن يستخدم هذه الوسيلة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً».

الشـرح:

جعل الله عزّ وجلّ أحَدَ مصارف الزكاة الثمانية مصرف «المؤلفة قلوبهم» وجعل للمسؤولين عن توزيع أموال الزكاة صلاحيّة بذل قسم منها لتأليف قلوب فريق من غير المسلمين بغية استمالتهم إلى التبصُّر بحقائق الإسلام، فعسَى أن يؤمنوا ويُسْلِموا أو يكفُّوا أذاهم وشرورهم عن الإسلام والمسلمين.

وربما يكون إسلام بعض المؤلفة قلوبهم سبباً في إسلام أتباع كثيرين لهم، أو سبباً في قوّة الإسلام وإعلاء كلمته.

وهذا البذل الّذي يُضَحِّي فيه المسلمون بالمال قد يخدم الدعوة إلى الله أكثر من القتال في سبيل الله الّذي تُقَدَّم فيه النفوس ضحايا لنَشْرِ الدّين، وإعلاء كلمة الله في الأرض.

وقد كان بذْلُ المالِ الوفير لتأليف القلوب، وجَذْبِها إلى قبول الإسلام، وإزالةِ ما في النفوس من عقبات ضدّه أو ضدّ المسلمين، من الوسائل العظيمة، ذات التأثير القويّ جدًّا، في سياسة الرسول الحكيمة صلوات الله وسلاماته عليه.

ويجد متتبع سيرة الرسول ﷺ أمثلة كثيرة من هذه السياسة الحكيمة.

* * *

القـاعدة السابعة عشرة:

«ينبغي لحامل الرسالة أنْ لا يثير شكوكاً وجدليّاتٍ افتراضيَّةً بغية الإجابة عليها، فإذا طرحت من قِبَلِ المدعوين أو المتلقين لبيانات الدين أجاب عليها بمقاديرها، ولا يزيد من عنده شيئاً، ثم إذا طُرِح غيرُها من قبلهم أجاب عليه وهكذا.

إنّ طرحها من قبل حامل الرسالة ليجيب عليها يقترن بخطورة تَمَكُّنِ الشكوك من نفوس المتلقِّين، وصعوبة إزالتها بعد، وربما يكونون غير محتاجين أصلاً إلى هذه الإجابات، لأن لديهم القناعة التامّة الكافية بالحق، فالمناسب بالنسبة إليهم عدم طرحها، وعدم شغل أفكارهم بها».

الشـرح:

إنّ مُتَابع تدبُّرِ كتابِ الله عزّ وجلّ بإمعان، يُلاحِظُ أنّ منهج القرآن التربوي أن لا يُقدِّم شكوكاً افتراضِية ليجيب عليها، وليبيّن وجه الحقّ فيها، بل يترقّب طَرْحَ الشكوك والجدليات من المشركين أو اليهود أو النصارى، ثم يُنْزل في كتابه ما يُجيب على هذه الشكوك والجدليّات بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، والأدلّة الساطعة.

إنّ طرح الشكوك للإجابة عليها فيه خطورةُ عُلُوقِ هذه الشكوك في نفوس المتلقِّين، وصعوبةِ إزالتها بعد ذلك منها.

أمّا عدم طرحها والإجابة عليها ففيه توفير للزمن والجهد الفكري، مع ما فيه من عَدَم تعرّضٍ للخطورة الآنفة الذكر.

فعلىٰ حامل الرسالة أن يتبع هذا المنهج القرآنيّ الربّانيّ، لأنّه هو الأحكم والأسلم، والأكثر نفعاً وتحقيقاً للأهداف الدعويّة وهداية الناس إلى الحقّ، وإبعادهم عن مزالق الشكوك التي إذا علقت في النفس احْتاجَتْ إزالتها إلى جهودٍ فكريّة عظيمة وبيانات واسعاتٍ ومحاوراتٍ جدَلِيَّة حكيمة.

* * *

القـاعدة الثامنة عشرة:

«على حامل الرسالة أن يكون مقتنعاً اقتناعاً تامًّا ومنفعلاً انفعالاً حقيقيًّا بما يريد توصيله إلى غيره من عناصر رسالته، حتّى يكون تبليغُه ونصحُه وإرشاده ممّا له أثَرٌ حقيقيٌّ فيمن يتلَقَّىٰ منه أو يَسْتَمع إليه، فما يَصْدُرُ من

القلب بانفعال حقيقيٍّ يصل إلى القلوب».

إنَّه كلما كانت مشاعر حامل الرسالة حول ما يريد توصيله إلى الآخرين أَصْدَقَ وأعمق، وكان إحساسُه بها أعْنَفَ وأوضح، كان تأثيره في المتلّقين منه أكثر وأعْمق، ولهذا نجد التأثير العظيم للمخلصين، فيما يقولون، أو يدعون له ويَهْدُون إليه، أو ينصحون به.

ويرتقي حامل الرسالة في قُدْرَاته على التأثير في غيره لدى أدائه وظائفَ رِسَالَتِه بمقدار ارتقاء تجاربه الإيمانيّة، وتجاربِه الوجدانية، ومشاعرِه النفسية الْحُلْوَة، في مجالات صلته بالله، وطاعته له، وتوبته له، وفي مجالات عطاءات الخير، والتطبيقات الإسلامية الْمُسْعِدَةِ للنفوس، والمريحة للضمائر، والممدّة للقلوب بالطمأنينة. وبمقدار ما في نفسه وقلبه من كراهيةٍ وبُغْضٍ للكُفر والفسوق والعصيان، والتَّنَكُّبِ لصراط الرحمن، مَعَ شهُودٍ داخليٍّ لما فيها من خبائث، ولما لآثارها من أضرار وأنواع أذىً، ثم لما لآثارها من عقوباتٍ بالْعَدْل لدَىٰ ربّ العباد.

* * *

القاعدة التاسعة عشرة:

«على حامل الرسالة أن يوفّر جهوده العظمىٰ من جهود أدائه وظائف رسالته، فلا ينفقها تبذيراً في الّذين دلّت التجربات المتكرّرات على أنَّ قابليتهم للاستجابة غير مطموع فيها، لبلوغهم إلى حالة ميئوس منها، وعليه أن يوجّه صرف طاقات أعماله الجهاديّة الدعويّة والإرشاديّة إلى آخرين مطموع باستجابتهم، أَوْ هُمْ في أُولَىٰ مَرَاحِلِ تلَقِّي البلاغات والبيانات وتوجيهات النُّصحِ والإرشاد».

الشـرح:

إنّ حامل الرسالة الحكيم ذا العقل والرُّشد، يتَّبع سياسة التاجِر الحكيم

الذي يعمل في السّوق الذي يكون ربحه فيه أكثر، وسياسةَ الزارع الحكيم الذي يبذر في الأرض الّتي يكون إنتاجُها أكثر وأنفع، فلا يُضَيِّع وقته وجهده في استصلاح أرض سبخة وعنده أرضٌ أخرى ذاتُ عطاءٍ وفير إذا زرَعها، مع العلم بأنّ الوقت في الحياة الدنيا محدود، وطاقات كلّ عاملٍ كادح فيها محدودة، فهو لا يستطيع أن يعمل معاً في الْمُنْتج النافعِ وفي غير المنتج.

إنّ الذين قد وصلوا إلى حدّ اليأس من أن يستجيبوا لدعوة الداعي الحكيم، ونُصْح الناصح الرشيد، بعد محاولات متعدّدات، في أزمانٍ كافياتٍ لاستجابة من لَدَيْه أدنى عقل ورُشد، وظَهَر تعنُّتُهم وعنادُهم، وعداؤهم للحقّ والخير، وحملةِ رسالتهما، ينبغي الإعراض عنهم، إذا كانت حالتهم تقتضي الإعراض، أو التولّي عَنْهُم، إذا كانت حالتهم تقتضي التولّي، حَسْبَ المنهج القرآني، لتوجيه جهود الأعمال الجهاديّة الدعويّة والإرشاديّة لآخرين مطموع في هدايتهم واستجابتهم بما ظهر من الأمارات، أو لآخرين ما زالوا في أُولَىٰ مراحل تلقّي جهود هذه الأعمال.

إنّ طاقات الأعمال الجهاديّة الدعويّة والإرشاديّة طاقاتٌ نادراتٌ في الناس، فينبغي استغلاَلُها أحْسَنَ استغلال، وهذا إنّما يكون بتوجيهها للّذين لم تَتَحجَّرْ قلوبُهُم بَعْدُ، ولم يَصِلُوا إلى حالَةٍ مَيْئُوسٍ منها.

ولهذا وجَّه الله عزّ وجلّ الّذين آمَنُوا بأن لا يطمعوا في إيمان يهود المدينة، ذوي الْعِلَلِ النفسية الكثيرة الّتي تصدُّهم عن الإيمان بمحمد ﷺ، فليس من الحكمة أن يَصْرِفوا جهودهم المحدودة في الإلحاح عليهم بالدعوة بغية هدايتهم إلى الحق، بل عليهم أن يوجّهوا جهودهم الدعويّة للّذِين يَرَوْن لديهم قابلياتٍ أفضل، وأرضاً أصْلَحَ لبَذْرِ بزور الهدى والخير فيها، وسُوقاً أفضل للتجارة الرابحة.

فقال الله عزّ وجلّ للمؤمنين في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

إنّ معرفة إمكان تحقّق غاية من الغايات في مجتمع ما من المجتمعات البشريّة تتوقف على دراسة واقع حال هذا المجتمع.

فإذا كانت ظاهراتُ هَـٰذا المجتمع بِفِرَقه وَأَقْسامه، تَدُلُّ بحسَبِ سُنَنِ الاجتماع البشريّ، على أَنَّهُ لا مَطْمَعَ في إصلاح النسبة الكبرى منه، كان الطمع بإصلاحه، واستجابة أفراده للهداية، تعليقاً لرغبات النفوس والقلوب بأمْرٍ غَيْرِ ذي جَدْوَىٰ سارّة.

فمن الحكمة السياسية في سير الدعْوَة ـ والحال كذلك ـ أَنْ تُصْرَفَ الجهودُ إلى مجالاتٍ ومجتمعاتٍ تكونُ الدَّعْوَةُ فيها ذات جَدْوىٰ سارّة، أَوْ جدواها أعظم وأكثر، وأَنْ يقتصر توجيه الاهتمام في المجتمعات الّتي تدلُّ ظاهراتها على أنَّها ميؤوسٌ من إصلاح جماهيرها وَلا مَطْمَع فيه، على تَصَيُّدِ الأَفراد الّذين يكون الأمل بهدايتهم قويًّا، أو تكونُ هدايتُهم أمراً غير ميؤوسٍ منه بَعْد.

ومجتمع اليهود في عصر الرسول ﷺ، ومنذ أوائل العهد المدنيّ قد دلّت ملاحظة واقع حالهم مع تكرار التجربات، على أنّ الطمع بهداية النسبة العظمىٰ منهم طَمَعٌ في غَيْرِ مَحَلِّه، وذلك لأنَّ الظاهرات الاجتماعية الَّتي تكْشِفُها الملاحظة في مختلف فرقهم وأقسامهم وطبقاتهم، وتُثْبِتُها التَّجْرِباتُ المتكرّراتُ لهم، تدُلُّ على أنّ هداية جمهورهم هي بمثابة الأمر الميؤوس منه، أو الذي لا مطمع فيه، فينبغي إذاً التعامُلُ معَهُمْ على هذا الأساس،

توفيراً لِلْجَهْدِ، واستغلالاً له فيما هو أجدىٰ.

ومن البدهيّات أنّ التعامل مع مطموعٍ بهدايته، غير التعامل مع ميْؤُوس من هدايته بحسب الظواهر الاجتماعيّة المعتادة، أو الطمع في هدايته ضعيفٌ جدًّا.

هذه قاعدةٌ من قواعد الدعوة إلى الله، علّمها الله عزّ وجلّ للمؤمنين، بقوله تعالى في معرض الكلام عن اليهود:

﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾؟!.

بصيغة الاستفهام التعجيبي.

أي: أفتطمعُون أيّها المؤمنون أن يؤمن جمهور اليهود، لأجل دعوتكم، وحرصكم على هدايتهم، واتِّخَاذ مختلف الأساليب لإقناعهم واسترضائهم؟!.

إنّ هذا الطّمع في غير مَحَلِّه، لأنّ الظاهرات الاجتماعيّة التي برزت في مجتمع اليهود تدُلُّ على أنّ هداية معظم أفرادهم أمْرٌ لا يَصِحُّ أنْ يكون مطموعاً فيه، فالتَّعَامُلُ معهم على أساس هذا الطمع يبدّد جُهُودَكُمْ، ويَصْرِفُها عمّا يَنْبَغي أن توجّه له، ومن ذلك توجيه الجهود لِدَعْوَة من يُرجَىٰ من أفرادِهم أن يَسْتَجِيبَ، وتوجيه الجهود لدعوةِ مجتمعاتٍ أُخرى يَكُونُ بَذْلُ الجهود فيها أنفع وأجدى، إذْ هي للهداية والاستجابة والإصلاح أَرْجَىٰ.

وخاطب الله عزّ وجلّ رسوله وكلّ داعٍ إلى دين الله من أُمّته بقوله في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: وما أنت بقادر على أن تَخْرِقَ سُنَّة اللّهِ فَتُسْمعَ الْمَوْتَىٰ وهم فِي

قُبُورِهم، أو تُسْمعَ أَشْبَاهَ الموتَىٰ وهم الّذين لم يُؤْمنوا بالله وحده لا شريك له عِنَاداً، ولم يؤمنوا باليوم الآخر، ولم يؤمنوا بآيات الله المنزّلات، وقطعوا صلةَ كلّ حواسِّهم بقضايا الدين، فكانوا بالنسبة إليها موتَىٰ مَقْبُورِين.

إنّ القادر على تغييرها هو الله واضِعُها، ومحدِّدُ حدودها، ومنظّم أنظمتها، وهو مع ذلك لا يغيّرها إلاّ في خارقة تقتضيها حكمته، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾.

ولكن لا تقتضي حكْمَتُه بالنسبة إلى الذين وضَعَهُمْ موضع الامتحان أنْ يُسْمع بعضَهُمْ بإرادَةٍ منه جَبْرِيّة، إذا رفَضُوا عَلَىٰ عِلْمٍ الاستماع باختيارهم، ضِمْنَ سُنَنِ اللَّهِ فيهم، قَاطِعينَ الصِّلَةَ بينهم وبين قضايا الدين، ولا تقتضي حكمتُه تعالى أن يُعَامِلَهُمْ معاملةً مخالفةً لمعاملة نظرائهم الذين استجابوا لدعوة الرسول، وسَمِعوا باختيارهم الحرّ، ضمن سُنَنِ الله وأنظمته فيهم، الّتي وضعها في النفوس الإنسانيّة على نِسْبَةٍ سواءٍ في الاستجابة والرفض.

وقد وصف الله الكافرين المعاندين المصرّين على الْتِزَام الباطل، والتَّوَلّي عن الحقّ، بوَصْفٍ مِنْ لَوازِمه أن يكونوا مقبورين، لأنَّهُمْ بالنسبة إلى دعوة الحقّ الرّبّانيّة موتى.

فحسْبُ الداعي إلى الله أن يُبَلِّغ ويُنْذر ويقطع بتذكيره العذر.

وخاطب الله عزّ وجلّ رسوله وكلّ داعٍ إلى الله من أمته في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بشأن منكري القرآن وما جاء فيه من حقٍّ حَوْلَ مختلف قضايا الدين بقوله تعالى:

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ .

أي: إنّك لا تُسْمعُ الذين هم موْتَىٰ بالنسبة إلى قضايا الدين، إذْ فقدوا كلَّ حواسّهم الّتي تَسْتَجيبُ لمثيرات دعوة القرآن، الّتي تَسْتَثير من كانت لدَيْهِمْ هذه الحواسّ، وظاهرٌ أنّ فَقْدَ كلِّ الحواسّ الظاهرة والباطنة الّتي تَستَثيرُها دعوةُ القرآن، هو نوعٌ من الموتِ لجانبٍ من جوانبِ الْمُحَسَّاتِ، وهو الجانب الذي كان لديه بالفطرة استعدادٌ لأنْ يُحِسَّ بالْمُثِيراتِ المتعلقة بقضايا الدّين الحقّ.

وقد سمَّاهُم الله موتى، لأن نفوسهم منصرفة عن كلّ القضايا الّتي تتّصل باللَّهِ والْيَوْمِ الآخر انصرافاً كُلّيًّا، فليس بينهم وبينها وسَائِلُ اتِّصَال، وبانقطاع الاتّصال ينْعَدِمُ التَّلَقِّي، وتَنْعَدِمُ الاستجابة، فهم بالنسبة إليها كالموتى، وقَدْ وُضِعَ الممثَّلُ به موضع الممّثلِ له تأكيداً للْمُمَاثلة.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ .

أي: وإنّكَ لَا تُسْمع الصُّمُّ الذين نزل بهم داءُ الصَّمَم بالنسبة إلى دعوة الدّين الحقّ، ففقدوا القدرة على استماع أيّ دُعَاءٍ أو نداءٍ يتعلّق بها، لأنّ كلَّ أجزاء أَسْمَاعِهِمْ مُتَّصلةٌ بأمور شهواتهم وأهوائهم ومطالِبِهِمْ من دُنْيَاهم، فليس فيها خَطٌّ استماعيٌّ يَسْتَجِيبُ لمثيرٍ يتعلَّقُ بالله واليوم الآخر والواجبات الدينيّة، فهم بالنسبة إلى النداءات الّتي تتعلَّقُ بهذه الموضوعات مصابُونَ بداءِ الصَّمم.

ولِفَرْزِ حالة الصمم هذه عن حالة الْعَمىٰ قَيَّدها الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ وذلك لأنّ الأصَمَّ البصير إذا كان يواجه بِبَصَرِه من يُنَاديه، فإنّه قد يَفْهَمُ من حركات شفاهه ووجهه بعض ما اشتمل عليه نداؤه، وبذلك لا تُكْشَفُ حالةُ الصَّمَم كشفاً تامًّا إلاّ إذا كانَ الأصَمُّ قَدْ وَلّى مُدْبراً.

وقد سمّاهم اللَّهُ صُمًّا لأنّ نفوسهم منصرفة عن استماع كلِّ نداءٍ يتعلّق

بقضايا الإيمان بالله واليوم الآخر وسائر قضايا الدين انصرافاً كليًّا، فليس بينهم وبينها وسائل اتّصالٍ سمعيّ، وبانعدام الاتّصال ينعدم التلقّي، وتنعدمُ الاستجابة، فهم بالنسبة إليها كالصُّمّ، وقد وُضِعَ الممثَّلُ به مَوْضِعَ الممثَّلِ له تأكيداً للمثالة.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾:

أي: وَإنّك لا تهدي الْعُمْيَ بأنوار مَعْرِفَةِ آيات الله مهما وجَّهْتَها لأبْصَارِ بَصِيرَتِهم.

إنّهم لا يَرَوْنها، فهم لا يَنْصَرِفُونَ عن ضلالتهم الّتي هم فيها، إذْ فَقَدوا القدرة على رؤية الحقّ الذي جاء في القرآن مَهْما كشفَتْهُ الأنوار، بسبب أنَّهم عُمْيٌ بالنّسبة إلى القضايا الّتي تتعلّق بالدّين، وإن كانوا حَدِيدي الأَبْصَار بالنسبة إلى شؤون دنياهم وأهوائهم وشهواتهم ولذّاتِهِمْ فيها.

وقد سمّاهم الله عزّ وجلّ عُمْياً، لأَنَّ نُفُوسَهم وبصائرهم منصرفةٌ عن رؤية كلّ ما يتَّصِلُ بقضايا الدّين انصرافاً كُلّيًّا، فليس بين بصائرهم وبينها وسائل اتّصالٍ بصري، وبانْعدام الاتّصال البصريّ تنعدمُ الاستجابة بالرُّؤية، فهم بالنسبة إليها كالْعُمْي، وقَدْ وُضِعَ الممثَّلُ به مَوْضع الممثَّلِ له تأكيداً للمماثلة.

وأبان الله عزّ وجلّ السبب الحقيقيّ الّذي جعلَهُم صُمًّا وعُمْياً وأشباه الموْتَىٰ، وهو أنّهم لم يؤمنوا بآياته، ومعلومٌ في طبائع النفوس أنّ من لا يُؤْمِنُ بالشيء فإنّه لا يهتَمُّ له، ولا يستجيبُ لدعوته، بخلاف الّذين آمنوا بآيات الله فإنّهم يَرَوْن سعادة أنفسهم منوطةً بالعمل بما جاء فيها، فهم يستمعون إليها، ويُسْلِمُونَ طائعين مجتهدين أن يعملوا بما جاء فيها، فقال تعالى:

﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾:

أي: لا تُسْمِعُ إلاّ الذين يُتابعُونَ الإيمان بكلّ ما يدركون من آياتنا استناداً إلى موازين فطرتهم، وهم حريصون على معرفة منهاج سعادتهم، مستسلمون، فمن استسلم وأسلم اجتهد في أن يعمل بما علم مما آمن به، وارتبطت بالعمل به سعادتُه.

إنّ الاستجابة للدّعوةِ تنحصر فيمن يؤمن بالآيات الربّانية الأولى، والأدلة الجذور، فمن اقتنع بها وآمَنَ صار بينه وبين الداعي أرضيّة مشتركة صالحة للبناء عليها، وإلاّ فهو أَعْمَى أو ميت تماماً بالنسبة إلى قضايا الدين.

وعلى هذا النمط ينبغي فهم كثير من النصوص القرآنية المؤكّدة لهَذا التوجيه الذي دلَّت عليه هذه النصوص، ومنها النصوص التالية:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

● وقوله الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ

ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن الذين كفروا معاندين بعد معرفة الحقّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً بشأن الذين كفروا معاندين بعد معرفة الحق:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ .

ويجد القارىء شرح هذه النصوص وتحليلها في كتابي: «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع».

* * *

بعد البيان الكافي يأتي التذكير:

ولا بُدَّ هنا من التنبيه على أنّ الوظيفة الأولى لحامل الرسالة هي التبليغ المقرون بالبيان الكافي الذي ينقطع به العذر، فمن أبىٰ أن يَسْتجيب بعد ذلك وُجِّه له الإنذارُ بعقاب الله وعذابه.

أمّا التذكير بما سبق به البلاغ والبيانُ الكافي والإنذار الأخير بعذاب الله وعقابه، فالأمْرُ به مشروط بوجود احتمال نفع الذكرى لدى من يُوَجَّه له التذكير.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) خطاباً لرسوله فكلِّ داعٍ إلى الله من أمته:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ .

الذِّكْرَى: اسمٌ للتذكير، وتكُونُ بمعنىٰ التذكُّر.

أي: إن رأَيْتَ أنَّ من تُوجِّه له خطابك غَيْرُ ميؤوس منه، إذْ ما زال لديك طَمَعٌ ما في أن يَنْفَعُهُ تَذْكيرُك فذكِّرْه بما سَبَقَ أن بيَّنْتَه له من أمور الدِّين.

أمّا إنْ رأيْتَ أنّ تذكيركَ له لا يُؤَثّر فيه أيَّ أثَر، فَلاَ تُضِع وَقْتَك وجَهْدَكَ في تذكيره.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: وَذكِّرْ من تجد لديه استعداداً ما لأن يُؤْمن في المستقبل، فإنّ الذكرى تنفع هؤلاء الّذِين لديهم استعدادٌ ما لأنْ يؤمِنُوا، أمّا الذين لا تجد لديهم مثل هذا الاستعداد فلا حرج عليك في أنْ تَتولّىٰ عنهم.

وقد جاءت هذه الآية عقب الحديث عن آخَرين تحجّرت قلوبهم فهم لم يستجيبوا للدعوة، وينفرون من التذكير بسبب طغيانهم، وقال الله لرسوله بشأنهم:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: فأدِرْ ظهرك إليهم، وانْصَرفْ عنهم، واشتغل بآخرين غير ميؤوسٍ منهم ممّن تدلُّ الآمارات على أن إيمانهم مطموع به.

* * *

أحوال الذين لم يستجيبوا والسياسة القرآنية في التعامل معهم:

دلّت النصوص القرآنية على أنّ عدم الاستجابة لدعوة مؤدّي الرسالة الرّبانيّة أو نصحهم وإرشادهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، له سبع دركات مُتَنازِلاً انحطاطاً بحسب شدّتها.

الدركة الأولى: «لَيُّ الرأس» وهي حركةُ عَدمِ استجابةٍ خفيفةٍ تُشْعِرُ برفقٍ بأنّ المدعوّ إليه لم يحْظَ باستجابةِ النفس إليه بَعْدُ، لكنّها لا تدُلُّ على الرفض الجازم، وهي أخفُّ من حركة الإعراض.

دلَّ على هذه الدَّرَكة قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

فأبانَ هذا النَّصُّ أَنَّ دَرَكَةَ اللَّيّ مخالفةٌ لدركة الإعراض، ولَيُّ الرؤوس في المفهوم اللّغوي أخف من الإعراض الذي هو إعطاء عارض الوجه وهو جانِبُه.

وعلى حامل الرّسالة بالنسبة إلى هذه الدركة أن يتجاهلها، ويُتابع وسائله في الدعوة والنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع استخدام الأساليب الملائمة لها.

فاللَّيُّ حركة ابتدائية قد تكون من المتريث ذي الشكوك الخفيفة، الذي يحتاج مَزِيدَ بيان أو استيثاق بالأدلة والحجج ليقتنع.

الدركة الثانية: «الإعراض» وهو إعطاء الجانب بعد المواجهة أو اللّيّ، والإعراض منزلة وسْطَىٰ بين الإقبال والإدْبار.

عُرْضُ الشيء في اللّغة جانِبُه، وعارضا الإنسان صفحتا خدَّيه.

والإعراضُ قد يدُلُّ على الرفض الجازم بأسلوب ليس فيه شدّةٌ ضدّ مبلّغ الرسالة ومؤدّي وظائفها، وقد يكون صاحب الإعراض راغباً نفسيًّا بمتابعة الاستماع والتلقّي دون مواجهة، فإذا وجَد ما يُقْنِعُه عاد إلى الإقبال والمواجهة.

وقد جاء في القرآن المجيد استعمال الإعراض في الحديث عن الرافضين بجزم، وفي الحديث عن الّذين لم يَرْفُضُوا بعْدُ رفضاً جازماً، وفي الأمر بالإعراض عن معاقبة المنافقين وبعض المذنبين، وفي الأمْر بالإعراض عن دعوة من تولّى من المشركين دون مواجهتهم بها، فهم يَسْمَعُون كلام الداعي دُون أَنْ يُشْعِرَهُم الداعي بأنّهم مقصودون بالتوجيه.

وعلى حامل الرسالة أن يتابع تذكيرَ من أعرض ولم يُظْهِرْ إدْبَارَهُ وتَوَلِّيَه، لأنّه لم يكْشِفْ من حاله ما يَدُلُّ على رفْضِه الجازم.

الدركة الثالثة: «الإعراضُ مع النَّأي بالجانب» وهذه دركةٌ أشدُّ من سابقتها، لأنّ الإعراض اقترن بالابتعاد عن مجلس حامل الرسالة ومؤدِّيها، وبالابتعاد عن قوّة تأثير صوته، مع بقاء الْمُعْرِض في الدائرة التي تصل إلى أطرافها بيانات حامل الرسالة.

دلَّ على هذه الدركة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) يتحدّث عن الإنسان الظالم لنفسه:

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

أي: ففي حالةٍ يكون يؤوساً إذا لم يكن له بالله صلة، أمّا من كان له صلةٌ ما بالله فذو دُعاءٍ عريض.

وعلى حامل الرسالة أن يتابع تذكيرَ من أعرض ونأىٰ بجانبه ولَمْ يَصِلْ بعْدُ إلى دركة الإدْبار، لكنّ نسبة الاهتمام به تكون أقلّ قليلاً من نسبة المعرض فقط دون أن ينأىٰ بجانبه.

الدركة الرابعة: «التَّولِّي» وهو يأتي بمعنى الإِدْبار، ويأتي بمعنى الابتعاد الكلّيّ، أمّا الإدبار فهو عكْسُ المقابلة بالوجه، ونظيره الابتعاد التامّ.

والتوجيه القرآنيُّ بالنسبة إلى من تولَّىٰ مُدْبراً عن التلقّي أو مُبْتَعِداً عن حامل الرسالة وبياناته، يُوصِي بمقابلته بالإعراض فقط، لا بالتولّي والإدْبار.

والاقتصارُ على الإعراض عمَّن تولّى يُقْصَدُ منه تَرَقُّبُهُ، وترصُّدُ احتمال عودته إلى الدركة الأخف لإسماعه بيانات رسالته.

وقد دلَّ على هذا الموقف قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) خطاباً لرسوله فكلِّ حاملٍ لرسالته من أمته:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩﴾.

الدركة الخامسة: «التولّي مع الانصراف الكامل والابتعاد» وقد نسمّيه «الْهَجْر» أخذاً من قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾.

والتّوجيهُ القرآنيّ بالنسبة إلى الهاجر الإعراض عنه كشأن صاحب الدركة الرابعة.

الدركة السادسة: «إعلان العداء والمشاقَّة وممارسةُ أنواع الأذى».

دلّ على هذه الدركة عدّة نصوص، منها ما يلي:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

- وقول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٣٢﴾.

والتوجيه القرآنيُّ بالنسبة إلى أصحاب هذه الدركة الصَّبْرُ على أَذاهم، ومراقبةُ خططهم دواماً، وترصُّدُ أعمالهم، والإعدادُ سِرًّا لِقتَالِهِمْ إذا أرادوا قمع الدَّعوة الإسلاميّة بالحرب.

الدركة السابعة: «إعلان حالة الحرب ضدّ الإسلام وجماعة المسلمين» والتوجيه القرآني بالنسبة إلى أصحاب هذه الدركة مُقَاوَمَتُهُمْ بالقوّة العسكريّة الحربيّة إذا تهيّأت أسْبَابُ قتالهم، فإن لم تتهيأ بعْدُ فينبغي دفْعُ شرورهم ما أمكن، والصّبْرُ على أذاهم، رَيْثما تتهيّأُ أسبابُ مُحَاربتهم مع سؤال الله الانتصار عليهم.

* * *

القـاعدة العشـرون:

«إذا دعت حالُ متَلقِّي الرسالة لإقناعِه مجادلَته حول قضية من قضايا الدّين، فعلَىّ حامل الرسالة أن يُجَادِلَهُ بالّتي هي أحسن، ولا يَحْسُن اللّجوءُ إلى المجادلة إلاّ بعد استنفاد الوسائل الإقناعيّة الحكيمة، ووسائل الموعظة الحسنة، بالترغيب والترهيب».

الـشـرح:

هذه القاعدة مستفادة من قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً لرسوله فلكل داعٍ إلى سبيل الله من أمّته بصورة إفرادية:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

ومن قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ

﴿لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾.

فالدعوة إلى سبيل اللّهِ بالحكمة تكون بالهداية الفكرية الإقناعيّةِ للّتي هيَ أقوم.

والموعظة الحسنة تكون بالترغيب عن طريق تبشير المؤمنين بأنَّ لهم عند الله أجراً كبيراً، وبالترهيب عن طريق إنذار الذين لا يؤمنون بأنّ الله أعتد لهم عذاباً أليماً.

والجدال بالتي هي أحسن يكون بالحوار الجميل الهادىء الّذي يأخذ بيد المدعوّ برفق حتى يدرك الحق ويهتدي إليه.

ويجد القارىء شرح وتفصيل هذه القاعدة في الفصل الثالث «المنهاج البياني ومسالكه» من الباب الرابع «مناهج ومسالك ووسائل الهداية والإصلاح والحماية بالقول والعمل».

* * *

القاعدة الحادية والعشرون:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يكون يَقِظاً دائم التنبُّهِ للأحداث الطارئة، وأَنْ يكونَ حسَنَ المعالجة لكلّ حدَثٍ طارىء بما يلائمه، مع عقل ورويّة، وبدون انفعال ولا طيش، وبدون اندفاع مع ردود الأفعال التلقائيّة غَيْرِ الواعية.

وينبغي له أيضاً أن يتكيَّفَ مع المتغيّرات الطارئات بوسائل المعالجة وأساليبها، دون أنْ يتنازل عن أيّ عنصر من عناصر المبدأ الذي يؤمن به، وعن أيّ عنصر مما يدعو إليه من فكر واعتقاد وخلُق وعَمَلٍ نَفْسِيٍّ أو ظاهر».

الشـرح:

إنّ شياطين الإنس والجنّ لا يفتؤون يُغَيّرُون في وسائلهم، مع الاستمساك بباطلهم وضَلاَلاتهم، كُلَّما قَلَّ أو ضَعُفَ تأثير وسائلهم السابقة،

ولا يَفْتَؤُون يَبْتكرون وسائل جديدة لإضلال عباد الله ومقاومة الحق والخير والهدى، ولنشر الْفَساد في الأرض وفي الأنفس.

فإذا بقي حَمَلَةُ رسالةِ الهدى لا يستخدمون إلاّ وسائلَهُم القديمة نفسها، كانوا كالأمم البدائية التي ما تزال تحارب بالحجارة والسيوف والرماح، في حين توصَّلَتِ الأمم المتقدمة في الصناعة إلى ابتكار الأسلحة الناريّة العظيمة، والطائرات ذوات الأنواع المختلفة، والصواريخ، وأشعة اللّيزر، والقنابل الذرية والهيدروجينيّة، وأسلحة الدّمار الشامل.

ومعلومٌ في سُنَن الله الكونيّة أنّ الْقُوىٰ لا تُقَاوَمُ إلاّ بأكْفَائها وأمثالها، أو بما هو أشدُّ منها وأقوى.

ومراعاةً لسُنَّةِ تطوُّر القوى في المجتمع البشري أمر الله الذين آمنوا بأنْ يُعِدُّوا لأعدائهم ما استطاعوا من قوّة حتىٰ يَصِلُوا بها إلى مستوى إرهاب عدو الله وعدوّهم وآخرين من دونهم، وأنْ تكون قواهم في الأرْض هي القوى المتفوقة السابقة دواماً، بحسب أنظمة الله السَّبَبِيَّة، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾.

وعلى مثل وجوب إعداد الوسائل الحربيّة الماديّة في سباقٍ تَطَوُّريّ، يكون فيه الذين آمنوا هم السابقين دواماً، يجب عليهم أيضاً أن يكونوا هم السابقين دواماً في وسائل التأثير الفكري والوجداني والنفسي في مجالات القوىٰ المعنوية، وهم السابقين في مجالات العلوم المختلفة، لأنّ السّبق في العلم أَحَدُ مجالات السَّبْق في القوّة الّتي أمر الله الذين آمَنُوا أنْ يُعِدّوا منها ما استطاعوا لمواجَهَة أعدائِهم الكثيرين في الأرض.

القـاعدة الثانية والعشرون:

«ينبغي لحامل الرسالة أنْ يواجه الناس دواماً بزيٍّ حَسَنٍ، ومظهر جميل، ونظافة تامّة، وأناقة جذابة عادية تلائم وضعه، حتّىٰ يَكُونَ لمظهره من الْحُسْنِ ما تميل إليه النفوس والحواسّ، ولا يكون في جَسَدِه أو بِزَّتِه ما يُنَفِّرُها، أو يجعلها تتقزّز كراهية».

الشـرح:

كان النبـيّ ﷺ كثير العناية بنظافة جسمه، ونظافة فَمِه بالسواك، ونظافة ثيابه، وترجيل شعره، وإزالة الشعور الأخرى من جَسَدِه، لئلَّا تتجمّع فيها الروائح غير المستحبَّة، مع أنّ عرَقَهُ صلوات الله عليه قد كان طيّبَ الرائحة، كما ثبت في شمائله.

وكان كثيرَ العناية بالطيب، فلا يَشَمُّ الناس منه إلا الرائحة الطيّبة.

واحتفاءً بأمر النظافة شرع الله في الإسلام الوضوء والاغتسال، وأبان الرسول ﷺ أنها مِنْ سُنَنِ الفطرة.

وجاء في الصحيح من كلام الرسول ﷺ قوله:

«الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَانِ».

وروى الإمام أحمد وأبو داود والبيهقيّ عن عمّار بن ياسر أنّ النبـيّ ﷺ قال:

«إنّ من الفطرة المضمضةَ، والاستِنْشَاقَ، والسّواك، وقَصَّ الشوارب، وتقليم الأظافر، ونَتْفَ الإبط، والاستحداد، وغَسْلَ البراجم، والانتضاحَ بالماء والاختتانَ».

وهذه كُلُّها من وسائل النظافة.

الاستحداد: حلْقُ شعر العانة.

البراجم: هي العقد في ظهور الأصابع، إذ تتجمع فيها الأوساخ.

الانتضاح بالماء: أي: غسْل الفرج بالماء.

* * *

القـاعدة الثالثة والعشرون:

«على حامل الرسالة أن يَتَّبِـع سياسة التدرّج والتنمية المتصاعدة، بدءاً بالأسس وارتقاءً إلى ما فوقها، ثمّ إلى الفروع الكبيرة، فالأصغر فالأصغر، فالأطراف، فالكَمَالِيَّات ذَواتِ التزيين والتحسين في السلوك الإسلامي.

وعليه أنْ يَبْنِيَ الأفكار بناءً تكامُليًّا صاعداً، وأن يَبْدأ في التطبيقات العمليّةِ بالأهم فالمهمّ، ثم ما يليها بالأهميّة وما يتفرّع عنها من فروع، حتّىٰ الأطراف من المندوبات والمستحبَّات والمكروهات وخلاف الأولى».

الـشـرح:

أنزل الله عزّ وجلّ الرسالة الإسلامية على سيدنا محمد ﷺ وفق أسلوب التدرّج التكامليّ الذي اقتضته حكمته في تربية الناس علماً وعملاً.

فبدأ بالعقائِدِ الأُصُول، وبكبريات الأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة، ثُمَّ تَرَقَّىٰ شيئاً فشيئاً في إنزال فروع العقائد وتفصيلاتها، وفروع الأخلاق، ثم تدرّج في تنزيل أحكام التكاليف التعبدّية فبدأ بالصلاة، ثمّ بالزكاة والصّيام، ثم فرض الحجّ.

وتدرَّج في تنزيل أحكام المحرّمات، فكان من أوائلها تحريم القتل والعدوان على الناس، والزنا والسّرقة وأكل أموال الناس بالباطل.

وتأخّر إنزال أحكام المعاملات وفي آخرها تحريم الربا.

وبعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن فعلَّمَهُ سُنَّةَ التّدرّج في تربية الناس على تطبيق أحكام الدين.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن:

«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْماً أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».

فتح الباري رقم الحديث ١٩٤٦ ج ٣

إنَّ أسلوب التدرّج التعليميّ والتطبيقي للإسلام لا يَقْتَضِي تغيير شيء من أحكامه، ولكنّ الحكمة التربويّة تقتضي عَدَمَ حَمْل الناس على الأخذ بالمهمّ مع حملهم على الأهمّ، أو قبل حملهم على الأهمّ، بل يَنْبَغِي الأخذ بأسلوب البناء التدريجيّ بدءاً بالعقائد وكبريات الأخلاق، وتدرجاً حكيماً إلى ما بعدها بحَسَب الأَوْلَوِيَّات.

وهذا ما كان عليه السَّلف رضوانُ اللَّهِ عليهم، فعن ميمون بن مهران، عن عبد الملك بن عُمَرِ بْنِ عَبْدِ العزيز، أنَّه قال لأبيه:

يا أَبَتِ، ما مَنَعَك أَنْ تَمْضِيَ لِمَا تُرِيدُ مِنَ العَدْلِ؟ فَواللَّهِ ما كُنْتُ أُبَالِي لَوْ غَلَتْ بِي وَبِكَ الْقُدُورُ في ذَلِكَ.

فقال له أَبُوهُ عُمَرُ بْنُ عبد العزيز: «يا بُنَيَّ إِنِّي إِنَّمَا أَرُوضُ النَّاسَ رِياضَةَ الصَّعْبِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْيِي الأَمْرَ مِنَ الْعَدْلِ، فَأُؤَخِّرُ ذلِكَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ مَعَهُ طَمَعاً من طَمَعِ الدُّنيا، فَيَنْفِرُوا مِنْ هذِهِ ويسْكُنُوا لِهٰذِهِ».

وقال له كما جاء في روايَةٍ أُخْرَى: «لَا تَعْجَلْ يَا بُنَيَّ، فإِنَّ اللَّهَ ذَمَّ الخمر

في القرآن مرّتَيْن وحرَّمَها في الثالثة، وإنّي أخَافُ أن أحمل الناس على الحقّ جملةً فَيَدَعُوهُ جُمْلَةً، فيكونُ مِنْ ذَا فِتْنَةٌ»[1].

* * *

القـاعدة الرابعة والعشرون:

«من الحكمة التربوية في بيانات حامل الرسالة أن يُنَبِّه المتلقّين على ارتباط كلّ فرع يَشْرَحُهُ أو يُذَكِّرُ به من فروع الإسلام بالجذر الاعتقاديّ الذي يرتبط به، تأصيلاً لهذا الفرع ببيان ارتباطه بالجذر الإيمانيّ، وتحريضاً للبواعث الإيمانيّة الدافِعَةِ بقوّة لتطبيق أنواع السُّلوك الإسلامي».

الـشـرح:

إنّ ربط الفرع الاعتقاديّ أو العمليّ بأصْلِهِ الذي تفرّع عنه يجعل له تمكُّناً في القلوب، ويستثير للالتزام به الدوافع العميقة الداخليّة الذاتيّة في الإنسان، فيُنَفِّذ الإنسانُ المطلوبَ منهم كما يُنَفِّذُ ماله فيه رغبةٌ ذاتيّة.

فمِنْهَا رَبْطُ وجوب طاعة الله في أوامره ونواهيه بأنّه الخالق المالك الذي له الحُكْمُ والأمْرُ المحاسبُ المجازي، وربطُ واجب الشكر لله بأنْ هو المتفضل المنعم على عباده بكلِ ما فيهم من نِعَم، وبأَنَّ شكره على نِعَمِهِ يستدعي بفضل الله زيادتَها، ورَبْطُ النهي عن المحرمات بأنّ الله خلَق الناس ليمتحنهم في ظروف الحياة الدنيا، ورتَّبَ على طاعتهم له الثواب الجزيل العظيم، وعلى معصيتهم له العقاب بالعدل.

إلى غير ذلك من أنواع الربط الحكيم بالأصول الاعتقاديّة.

ويُلَاحِظُ مُتَدَبّر كتاب الله عزّ وجلّ أنّ هَـٰذَا الربط أَحَدُ عناصر المنهج التربوي القرآنيّ للمؤمنين المسلمين.

---

(١) انظر «الأمر بالمعروف» للخلّال ص ٨٢.

فالتكاليف الشرعية التي تدلُّ عليها آيات أحكام السلوك النفسيّ والظاهر تشتمل غالباً على استثارة دوافع الإيمان في نفوس المؤمنين، لتكون الْقُوَىٰ الإيمانية محَرِّضاً ذاتياً للمؤمن المسلم على الطاعة والاستجابة لمطلوب الله من عباده.

هذا ما نلاحظه في النصوص القرآنية الكثيرة:

- فمنها نصوصٌ تخاطب الذين آمنوا بقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مستثيرةً فيهم دوافع الإيمان لتحقيق المطلوب منهم.

- ومنها نصوصٌ يأتي في آخرها مثل: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ - إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ - ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

- ومنها نصوصٌ يَقْتَرِنُ بيانُ الأحكام فيها بالتوجيه لتقوىٰ الله، مثل: ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ - خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ - لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ - وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

- ومنها نصوص تُطْمِـعُ بثوابِ الله أو تُحَذِّرُ من عقابه مع بيان الأحكام أو بعد بيانها.

- ومنها نصوص تُخْتَمُ بِبَيَانِ بعضِ صفاتِ الله أو أَسْمَائِه الْحُسْنَى.

إلى غير ذلك ممّا فيه ربط فروع الأحكام بالأصول الاعتقادية.

* * *

القـاعدة الخامسة والعشرون:

«على حامل الرسالة أن يهتمّ في بياناته بمحاصرة من يوجّه له رسالته من كلّ أركانه الداخلية الفكريّة والوجدانية والنفسيّة.

فالمحاصرةُ الفكريّة تكون عن طريق إقناعه بالبراهين والأدلّة الصحيحة الحسيّة أو العقليّة أو الخبريّة التي يؤمن بها، مع انتقاء ما يلائم حالته منها.

والمحاصرةُ الوجدانيّة تكونُ باستثارة ضميره المفطور على حبّ الحقّ والخير والفضيلة، والمفطور على كراهية الباطل والشرّ والرذيلة.

والمحاصرةُ النفسيّة تكون بتنبيه محورِ الطمع فيما يرغّبُه فيه من الأجر العظيم عند الله، ومِحْورِ الخوفِ ممّا يُحْذِّرُهُ منه من عذاب الله».

الـشـرح:

الإنسان له في أعماقه ثلاثة أركان رئيسة، إذا تلاقت على شيءٍ واحدٍ تولّدت في داخله قُوَّةٌ ذاتيَّةٌ عظيمة، تدفَعُهُ من عُمْقِ كيانِه لتحقق السُّلوكِ النفسِيّ أو الظاهر الذي يدعو إليه ذلك الشيء.

الركن الأوّل: فِكْرُهُ الْعِلْمِيُّ، والسبيل إليه البيان الإقناعيُّ المقترن بالحجّة والبرهان والأدلّة الصحيحة، من المدركات الحسّيّة، والمستنبطات العقليّة، والأخبار الصحيحة الثابتة الّتي يؤمن بها من يُوَجَّهُ له الإقناع.

الركن الثاني: وِجْدَانُه المفطور على حُبّ الخير والنزوع إليه، وكراهيه الشرّ والنفور منه، والسبيل إلى استثارته البيان العاطفي الذي يحرّك فيه حبّه الفطريّ للخير والفضيلة، وكراهيته الفطريّة للشرّ والرذيلة، واستثارتهما من مكامنهما في أعماقه.

الركن الثالث: حاشية نفسه التي تدور في ساحتها الأهواء والشهوات والرغبات واللّذات، والسبيل إلى استثارَتِها البيانُ الترغيبي الذي يحرّك فيها محور الطمع فيما تحبُّ وتهوى وتشتهي، والبيان الترهيبي الذي يحرّكُ فيها محور الخوف مما يُسَبِّبُ لها الآلام والأحزان والهموم والأكدار.

إن من يتَتَبَّعُ أساليب البيانِ القرآنيّ يدرك بوضوح أنها تهتَمُّ بمحاصرة الإنسان من هذه الأركان الثلاثة فيه بالأدلة الإقناعيّة، وبالاستثارات الوجدانية، وبالترغيب والترهيب.

وقد جاء في وصْفِ القرآن قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ .

إنّ هداية القرآن للّتي هي أقوم تشتمل على عنصر الحصار الفكري بالبيان الإقناعي، وهذه تستلزم استثارة وجدانه ومحاصرته.

أمّا المحاصرة النفسيّة فتكون بالتبشير بثواب الله وأجْرِه الكبير الذي يحرّك في النفس محور الطمع، وبالإنذار بالعذاب الأليم الذي يُحَرِّكُ محور الخوف.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

إنَّ الدعوة بالحكمة مع المجادلة بالّتي هي أحسن تَشْتَمِلُ على عنصري الحصار الفكري بالبيان الإقناعي، والحصار الوجداني بالبيان العاطفي.

أمّا الموعظة الحسنة فتؤدّي وظيفة الحصار النفسي بالترغيب الذي يُحرِّك في النفس مِحْورَ الطمع، وبالترهيب الذي يحرّك فيها محور الخوف.

وقد تُسْتَخدم الموعظة الحسنة في استثارة الوجدان والتأثير فيه ومحاصرته.

مدَىٰ جدوى الإثارات الانفعالية العاطفية:

يُلاحَظُ أنّ كثيراً من مؤدّي الرسالة يَلْجَؤُون إلى أسلوب الإثارة الانفعالية العاطفيّة، ويقتصرون عليها، وقد يَبْدَؤُون بها قبل الإقناع الفكريْ العلميّ الهادىء، وقبل الهادية للّتي هي أقوم.

وهذا الأسلوب قد غدا في الإنسان المثقّف المعاصر أسلوباً غير ذي تأثيرٍ فعّالٍ في بناء الأمّة بناءً راسخاً متراصًا، على الرغم من الحاجة إليه في كثير من المواقف، وفي تجميع الجماهير حول قضيّةٍ تحتاج إلى رأي عامٍّ تؤيّدهُ الجماهير وتنصره.

إنّ تحريك العواطف وتهييجها هو بمثابة تحريك البركة المملوءة بالأسماك، واستثارةِ ما في قاعها من طين ومُتَرَسِّبَات، فتهتاج المجموعة السمكيّة مختَلِطَةً في البركة، ثمّ تنتهي مرحلة التحريك وتعود الأسماك إلى مثل ما كانت عليه، فينبغي اقتران هذا بما يُصطادُ بِهِ الأفراد الصالحون للبناء.

هكذا الْخُطَب الانفعالية الحماسية، الّتي لا تُسْتَتْبَعُ مُبَاشَرةً باصطياد بعض الأفراد، ونَقْلِهِم إلى أحواض التعليم التأسِيسيّ الهادىء، الّذي لا إثارة فيه ولا انفعال، فالاقتصار عليها ضعيفُ الجدوىٰ في تأسيس الأفراد، وبناء الأمّة الصالحة.

والمجدي في بناء الناس هو مخاطبتهم بالفكر الصحيح المتسلسل تَسَلْسُلاً منطقيًّا رصيناً، حتى تتكوَّن لديهم العقائد والمفاهيم الراسخة.

ولقد غدت الأقوال المبالغ فيها، والقائمة على الوعظ والإثارة الانفعاليّة، أقوالاً مزهوداً فيها، وكثيرٌ من إحساسات الناس قد تبلَّدَتْ تُجَاهَها لكثرة تكرارها على أسماعهم دون أن تُسْتَتْبَع بما يؤسِّسُ تأسيساً يُوصِلُ إلى أعماق القلوب اعتقاداً راسخاً، وقد صار المثقفون يتصوّرونها مائدة كلاميّة تُقَدَّم لجمهور العامّة، لا لجمهور المثقفين، الباحثين عن المعرفة الصحيحة.

ومع اتّساع قاعدة المثقفين فقد غدا الوعظ المبالغ فيه أمراً غير مرغوب فيه لديهم، فهم يُعرضون عنه.

باستثناء نفحات تُتَصَيَّدُ حينما يَرَىٰ مؤدي الرسالة نفوس المتلقّين

مستعدّة لتقبّلها، فينبغي الاقتصار في الخطب الحماسية على مقدار حاجة الجماهير في المواقف المناسبة لها.

* * *

القـاعدة السّادسة والعشرون:

«من الحكمة أن يتصيَّد حامل الرسالة الإسلاميّة الحريصُ على تأديتها في أحسن الظروف المناسبات الملائمات للبثّ والتوجيه، وأنْ يحتال لإيجاد المناخ المناسب الّذي تنفتح فيه نفوس المتلقّين لتقَبُّلِ ما يُوجّهه لها، وعندئذٍ يتسلَّلُ من الأبواب النفسيّة المنفتحة، فيَدْخُل منها، ليَبْذُر بُزُورَه، ويَغْرِسَ غِراسه، ثُمّ يتعَهَّدُها بعد ذلك بما يُغَذِّيها ويُنَمّيها».

الـشـرح:

النفس الإنسانيّة بمثابة بَيْتٍ لصاحبه، ولهذا البيت أبوابٌ كثيرة مختلفة، وفي الحالة العاديّة تكون هذه الأبواب مقفلة، لأنّ الإنسان يُحِبُّ أن يكون بَيْتُه له، لا يُشاركه أحَدٌ فيه.

ومداهَمَةُ الإنسان وهو في داخل بيته دون استئذانٍ منه يثير لدَيْهِ قُوىٰ المدافعة والحماية لممتلكاته فيه.

وأفكار الإنسان ومفاهيمه وعقائده وعواطفه ورغباته هي ممتلكاته داخل نفسه، فلا يصحُّ مُهَاجَمَتُهُ وهو في داخل بيتِه، والدخولُ عليه عَنْوَةً، لأنَّه سَيُقَابل الداخل عليه بالْعِدَاء والْمُقَاومة، ولو كان المهاجِمُ يُرِيد أَنْ يَجْلُبَ له خيراً كثيراً.

والحكمة والرشد يَجْعَلانِ حَامِلَ الرسالة يتخذ ما يستطيع من وسائل ذكيّة تجْعَلُ من يُرِيد هدايته ونُصْحَه يفتح له بعض أبواب نفسه أو كُلَّها، ويَدْعُوَه إلى الدخول، وعندئذٍ يَدْخُل ضيفاً كريماً، ويَجْلِسُ داخل نفسه في أحْسَنِ المجالس، وعندئذٍ تتهيّأُ له الفرصة الملائمة العظيمة ليقول لربّ البيت

الذي استضافه ما يريد أن يقوله له.

فكما يقول الضيف لصاحب البيت المبنيّ من الطين:

أليس من الأفضل أن تَفْتَحَ نافذةً في الجدار الذي تمتَدُّ من جهته أشعَّةُ الشمس، لتدخل منها هذه الأشعة؟!.

أليس من الأفضل أن تفتح نافذةٍ أُخرىٰ في الجدار الذي تأتي من جهته الرّياح النظيفة النقيَّةُ، حتَّىٰ يتجدّد هواء البيت منها حيناً فحيناً؟!.

أليس من الأفضل أَنْ تُزِيلَ هذا الجدار التّرابيَّ الّذِي أكلَتْهُ الرطوبة، فهو يكاد يَسْقُط، فتَبْنِيَ مكانَه جداراً حَجَرِيًّا لا يَمْتَدُّ إليه رشْحُ الماء المجاور لأرض الدار؟!.

إنّ كلام هذا الضيف الناصح سَيَجِدُ عنْد صاحب البيت آذاناً مصغية، وفكراً واعياً، وقَلْباً مستجيباً.

وكذلك حامل الرسالة إذا دخل إلى نفس من يدعوه وَيُرْشده ويهديه، من بعض أبواب نفسه أَوْ كُلِّهَا، فإنَّهُ سَيَجِدُ لدَيْهِ الاستجابة التامّة لما يَنْصَحُه به.

فإذا وجد لديه أفكاراً باطلةً سَهُل عليه أن يُرِيَهُ بُطْلَانها، وأن يهديَهُ إلى الحقّ والصواب.

وإذا وجد نفسه مُتَعَلِّقَةً بما فيه معصيةٌ لله عزّ وجلّ، سَهُل عليه أن يَنْصَحَهُ، لِيُقْلِعَ عن المعصية ويَلْتَزِم الطاعة.

وإذا وجد نفسه مُتَعَلِّقَةً بالدُّنْيا وزينتها ومنصرفة عن الآخرة، سهُلَ عليه أن يأخُذَهُ برفق للتعلُّق بالآخرة وما فيها من نعيمٍ مقيم.

وهكذا إلى سائر مجالات الهداية والنُّصْحِ والإرشاد.

* * *

القـاعدة السابعة والعشرون:

«على حامل الرسالة أن لا يتّخِذ من الوسائل والأسباب لتحقيق أهدافه في الدعوة أو النُّصْح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلاّ ما أذن به الإسلام، فلا يجوز اتّخاذ وسيلة محرّمة لذاتها، أو سبب محرّم لذاته بحجّةِ تَحْقِيقِ تبليغ رسالة الإسلام أو هداية الخلْق إلى الحقّ».

الـشـرح:

يرى بعضُ المسلمين أنّ اليهود والنصارى وسَائر الكفرة قد يَتّخذون لنشر مبادئهم ومذاهبهم وأفكارهم وأنواع سلوكهم ومصالح أهل مِلَلِهم، وسائلَ محرّمة في أديانهم ووسائل غير أخلاقيّة، مما تتّفق عقولَ الناس جميعاً على تحريمه، كاستخدامهم النساء وبذلَ الفواحش المحرّمة، واستخدامهم المسكراتِ والمخدّرات ونقضَ العهود والمواثيق، فيخْطُر لهم أن يُقاوموا هذا السلاح بنظيره لنشر الإسلام وتقوية الأمّة الإسلاميّة.

لكنّ مثل هذا الأمر لا تَسْمَحُ به الشريعة الإسلاميّة، فلا يجوز للمسلم أنْ يتخذ أمراً مُحَرَّماً لذاته في الإسلام لنشر الإسلام، أَوْ خدمة مصالح المسلمين.

غَيْرَ أنّه لا يدخل في المحرّمات من الوسائل مثل الكذب المأذون به شرعاً لحماية المسلمين، أو نقضِ عَهْدِ مَنْ بدأ هو بنقض عهده، أو مُقاتَلَةِ من بدأ هو القتال في الشهر الحرام أو في البلد الحرام.

فعلىٰ المسلم ولا سيما حامِلُ الرسالة أن يسْتَفْتِي فقهاء المسلمين في كلّ أمرٍ كبيرٍ أَوْ صغير، ليعْلَمَ حُكْمَ الإسلام فيه، وعليه أن يتقيَّدَ بالحكم الشرعي ولا يتجاوزه في كلّ أمْرٍ من أُموره، وفي كلّ وسيلة من وسائله أو سَبَبٍ من أسبابه.

* * *

القـاعدة الثامنة والعشرون:

«ينبغي لحامل الرسالة الذي يهتَمُّ بتربية الأجيال المؤمنة المسلمة، الّتي تنطلق منها كتائب الجهاد الإسلاميّ، في الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنْ يَسْتَخْدِم أسلوب بَذْر البزور في الأرض بسترها، وتعهُّدِها دواماً بعد نباتها، حتَّىٰ تصير أشجاراً قويّة سامقة، لا تقتلعها الرياح الشديدة من مغارِسِها، بل تكون ثابتة تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإذْن رَبّها».

الشـرح:

يتعجّل كثيرٌ من الّذين يهتمّون بتكوين الجماعات الّتي يستخدمونها لنصرة الإسلام وقضايا المسلمين، فيكتفُون بالتجميع العاطفي المندفع المتحرّك، دون أن يَسْتَنْبِتُوا بزورهم في أَرْضٍ صالحة محميَّةٍ، ودون أَنْ يسلكوا لما يقصدون صراط التعليم الرصين الهادىء، والتربية الحكيمة الرشيدة، بالبدء بتأصيل الأصول، ثمّ الانتقال إلى ما فوقها من سوق، فما فوقها من فروع وأغصان، حتَّىٰ تكون بزورهم التي زرعوها وتعهَّدوها أشجاراً صالحة لأن تُنْقَلَ إلى مواطِنِ ثباتِهَا واستقرارها، وعطائها المتوالي من الثمرات الناضجات.

وبسبب تعجُّلهم المخالف لسنن الله في كونه تتعَرَّضُ أعمالُهُمُ الكثيرة المضنية، لعدَّةِ نتائج غير سارّة، مناقضة لما تقدّمَتْ به شعاراتُهُمْ ودعاياتهم، فمن هذه النتائج غير السارّة ما يلي:

١ ـ تعريض كثيرٍ من الذين جمعوهم من أنصار لم يُؤَصَّلُوا تأصيلاً إسلاميًّا رصيناً، لنَهْبِ أعداء الإسلام لهم، من مواطن الضعف في نفوسهم، التي لم تُسَدَّ بالتربية الإسلاميّة الصحيحة ثُغَراتُها.

٢ ـ إغراء بعضهم بالظهور والشُّهْرَةِ لاستقطاب المدح والثناء، والقفز

إلى القمم، طَلَباً لزينة الحياة الدنيا، من استعلاء في الأرض، وجَمْعٍ للثروات، وانتهابٍ للشهوات واللّذّات.

٣ ـ دفع بعضهم لاحتلال مراكز إسلاميّة قيادية، وهم جَهَلَةٌ بالإسلام، فيُصَدِّرون أحكاماً ومفهومات ينسبونها إلى الإسلام، وهي في الحقيقة مباينةٌ للإسلام مبايَنَةً كُلّيّة، ويُسْتَفْتَوْنَ، فيُفْتُونَ بغيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ ويُضِلُّونَ.

٤ ـ قيام كثيرٍ منهم بأعمالٍ يدّعون أنّها أعمالٌ إسلاميّة، مع أنَّ الإسلام لا يُوَافق عليها، فيُشَوِّهُون صُورةَ الإسلام بأعمالهم الّتي يقومون بها لدى جماهير المسلمين، ولدى عامّة الشعوب غير المسلمة.

٥ ـ تنافسهم على المصالح بسبب اختلاف الآراء والاجتهادات الخاصة، ثمّ تَصَارُعهم على حُطَام الدنيا، ثُمّ تدخل فيهم الانشقاقات والانشطارات إلى فِرَقٍ وأحزابٍ وجماعات، ويَنْدَفعُ كُلُّ فريق منهم باجتهاده الخاصّ الذي يَرَاهُ هو الإسلام وَحْدَه، ويَرَىٰ ما ذهب إليه غيره خارجاً عن الإسلام ومناقضاً له، ومعادياً لأنصار الحقّ، وتَحْدُثُ بذلك طامَّةٌ كبرى.

فعلى حامل الرسالة أن يتبصر بالمنهج الربّاني الّذي وصف الله به أُمّة محمّد في الإنجيل، بأنّ إنْشاءَهُمْ يكون كزَرْعٍ اسْتُنْبِتَتْ شجرته في أَرْضٍ صالحة، فَأَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ، فاستغلظ، فاستوىٰ على سُوقِهِ، فصار أشجاراً عظيمة وَارِفَةَ الظلال، تمتَدُّ أفياؤها في مشارق الأرض ومغاربها، فقال تعالى في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

والّذينَ مَعَهُ: أي: أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم.

أشدّاء: أي: أقوياء شجعانٌ كالأُسود.

رُكَّعاً: جمع راكع، وهو من رُكوع الصلاة المعروف.

سُجّداً: جمع ساجد، وهو من سجود الصلاة المعروف.

سيماهم: أي: علامَتُهُمُ الظاهرة، السِّيمَا في اللّغة العلامة.

ذلك مَثَلُهُم: أي: وصْفُهُمْ.

كَزَرْعٍ: أي: كنباتٍ، الزّرْعُ واحدِ الزروع.

أخْرَجَ شَطْأَهُ: شَطْءُ الزّرْع والنَّباتِ فراخُهُ.

فآزَرَهُ: أي: فقوّاه وأعانه.

فاستوى على سُوقِه: أي: فاعتدلَ ووصل إلى درجَةِ كماله قائماً على جذوعه.

ليَغِيظَ بهِمُ الكُفَّار: أي: ليغيظ اللَّهُ بهم الكُفَّارَ إِذْ يَرَوْنَهُمْ أشداء أقوياء.

لقد دلّ تشبيه أصحاب محمّد ﷺ في الإنجيل بزرع أخْرَجَ شطأه فآزره فاسْتَغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار، على أنّهم في تَناميهم وتكاثرهم واشتداد قوتهم والمظهر البهيج الذي يصيرون إليه قد ساروا وفق سنّة البناء التكاملي، المشبهة للزرع الذي ينبت نباتاً حسناً، وفْقَ نظام النبات، في أخصب أرض، وأَحْسَنِ شروط.

وهكذا ينبغي أن يكون استنبات الأمّة القياديّة الصالحة الّتي يحميها الله في مجاري سُنَنِهِ من عوارض الفساد[1].

---

(١) ينظر شرح النص باستيفاء في كتاب «الأمثال القرآنية وصور من أدبه الرفيع» للمؤلف ص (٣٦٦ ـ ٣٧٣).

القاعدة التاسعة والعشرون:

«على حامل الرسالة أنْ يضع في حسابه دواماً أنّ الوضع الّذي يتَهَيَّأُ به انتشار الإسلام عن طريق الدعوة إلى الله هو الفتح الحقيقيّ الأعظم عند الله، كما حصَلَ في صُلْحِ الحديبية.

وعليه أن يستبعد من نفسه ما أمكن رغباتها في الانتصار العسكري، وحميّاتها النَّزَّاعة إلى الْغَلَبَةِ والثَّأْرِ للكرامة.

فما يَنْتَشِرُ به الإسلام بنسبة أكبر وأعظم هو الأولى دائماً بالاعتبار، وهو الأحقّ من البدائل بالاختيار».

الشـرح:

إنّ القتال في سبيل الله إنّما شُرِعَ لنشر الإسلام، وإقامة أحكامه في الأرض، ورَدِّ عُدْوان المعتدين، فإذا تحقّق نشر الإسلام بغير القتال كان هو الذي يجب المصير إليه.

ولقد أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ سورة (الفتح) في طريق رجوعه مع من كان معه من المسلمين من صُلْح الحديبية، في شهر ذي القعدة من سنة ستٍّ من الهجرة، حين صَدَّهُ مشركو مكة عن الوصول إلى المسجد الحرام لأداء عُمْرَتِهِمْ فيه، وبعد مفاوضات تمَّ الصلح على أن يَرْجِع الرسول ﷺ والذين معه عامهم هذا، ثم يأتي في السنة القادمة إنْ شاء، وتحلّل الرسول ﷺ والمسلمون من عُمْرَتهم تَحَلُّلَ الْمُحْصَرِين، بعد أَنْ ذبحوا هديهم، وكان هذا التحلّل أمراً صعباً على كثيرٍ من الصحابة رضي الله عنهم، إلاّ أن إرادة الله الحكيمة شاءت ذلك.

وبينما هم قافلون ومتجهون للمدينة أنزل الله على رسوله سورة (الفتح) فأبان لهم فيها أنّه قد حصل بهذا الصُّلْح فتْحٌ مُبين، وذلك بسبب أنّ الدعوة إلى الدخول في الإسلام قد انطلقت بعد الصُّلح، دون أن تقف في وجهها

عوائق من أَلَدّ أعدائها، وهم مشركو قريش، سواء في مكة، أَمْ فيما حولها، أَمْ في قبائل العرب، فقد أخذ الإسلام بعد الصُلْح ينتشر بحرّيّة، وأخذ الدّعاة من أصحاب الرسول ﷺ يدعون إلى الإسلام آمنين مطمئنّين في أهل مكة، وفي مختلف قبائل العرب، ودخل في الإسلام بَعْدَه خَلْقٌ كثير.

قال الزُهْرِي: «فما فُتحَ في الإسلام فَتْحٌ قبلَه كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إنّما كان الْقِتَال حين الْتَقَىٰ الناس، فلَمَّا كانت الْهُدْنة، وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وأَمِنَ الناسُ بعضُهم بعضاً، والْتَقَوْا فتفاوَضُوا فِي الحديثِ والمنازَعة، فَلَمْ يُكَلَّمْ أَحَدٌ بالإسلام يَعْقِلُ شيئاً إلاّ دخل فيه، ولقد دخَلَ في تَيْنِكَ السَّنتين (أي: من صُلْح الحديبية حتى فَتْحِ مكّة عسكريًا) مِثْلُ من كان في الإسلام قَبْلَ ذَلِكَ أو أكثر»[1].

فعلى حامل الرسالة أَنْ يراعي هذه القاعدة بعناية في كلّ تحركاته الّتي يروم منها نَشْر الإسلام، وتبليغَ دين الله للناس، وإقامة الحكم الإسلاميّ في الأرض.

* * *

القاعدة الثلاثون:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يُجَزِّيء توجيهَهُ لجمهوره، ويُبَاعِدَ بَيْنَ مجالس موعظته، لئلا يقع المخاطبون بالسأم فينفروا».

الشرح:

من طبيعة النفوس البشرية أنّها تُصَابُ بالسَّأم والْمَلَلِ من طول مجالس الموعظة والنُّصْح والإرشاد والتوجيه الدِّيني، ومن تواليها صباحاً ومساءً، أو يوميًا، ومع السأم يتبلّد الإحساسُ، أو تنصرف الأذهان عن الاستماع، ويَدِبُّ النُّعَاسُ إلى العيون، إذا لم يَجِدِ المستمع الجرأةَ على مفارقة المجلس خوفاً أو حياءً.

(١) انظر سيرة ابن هشام (في أخبار صُلْح الحديبية).

وقد يُجَدِّد حياةَ المجلس السُّؤَالُ والجواب، والمناقشة المتبادلة، والحوار الذي يستحثُّ الأفكار للمشاركة والإدلاء بالرأي.

وقد يجدّد حياة المجلس طرح بعض الطرائف والمداعبات الظريفة، والنُّكَات الأَدَبيّة الْمُحْتَشِمة، الَّتِي لا تَجْرَحُ ولا تُؤْذِي جالساً.

فمن أساليب التربية النَّبَوِيَّة أنّ الرسولﷺ قد كان يَبُثُّ مواعظه بثًّا مُتفَرّقاً في أوقاتٍ متفاصلات، ولا يُكثِّفُها رصًّا في مجْلِسٍ واحدٍ، ولا يُتَابِعُها يومياً لئلا يَسْأَمَ الناس فينفروا.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان النبيُّ ﷺ يتخَوَّلُنا بالموعظة في الأَيَّامِ كراهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنا».

يتخوّلُنا بالموعظَة في الأيام: أي: يَتَعهَّدُنَا بالموعظة في الأيام ولا يجعلها كلَّ يوم، كراهةَ السآمة أن تَنْزِلَ علينا، أو أن تشُقَّ علينا.

يقال لغة: تخوَّل الشيءَ إذا تعهَّدَهُ بالإصلاح.

وروى البخاريُّ عن أبي وائل، قال: «كان عَبْدُ اللَّه (يعني ابن مسعود) يذكّر الناس في كلّ خميس، فقال له رجلٌ يا أبا عبد الرحمن، لوَدِدْت أنّك ذَكَّرْتنا كلَّ يوم، قال: أمّا إنّه يمنعني من ذلك أنّي أكرَهُ أن أُمِلَّكُمْ، وإنّي أتخوَّلُكُمْ بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخوَّلُنا بها مَخَافَةَ السّآمَةِ علينا».

* * *

القاعدة الحادية والثلاثون:

«ينبغي لحامل الرسالة أَنْ يتحلَّىٰ بالشَّجاعة الأدبيّة الحكمية الّتي لا شتيمة فيها ولا تطاولُ ولا استعلاء في قول الحقِّ ونُصْرَته، بالمواقف ذات الخطر، فهي تستعطف قُلوب معظم الناس للاستمساك بالحقّ، والأخذ به،

ومُنَاصَرَته، بسبب ما يظْفُرَ به الشُّجَاع من إعجاب الجماهير به، وتقديرهم لبَسَالَتِه وتضحيته.

فعلى حامل الرسالة أن يكون مع ثباته على الحقّ دواماً، شُجاعاً حكيماً في قول الحق ومناصرته، بعقلٍ وحُسْنِ تصرفٍ وأدَبٍ جمّ، إذْ هو يناضل من أجل الحقّ المنزَّلِ من لدن حكيم عليم، ويَنْصُرُ دين الله للناس أجمعين، أو يَنْصُر قضايا المسلمين لينالوا حقوقهم أوْ ليَرْفَعُوا الظلم عنهم».

الشـرح:

إنّ الثبات على الحقّ سِمَةُ كل مسلم مؤمن صادق تقيٍّ واثقٍ بالله متوكّل عليه، سواءٌ أكان من حملَة الرسالة أمْ من عامّة الناس.

لكن حامل الرسالة مُكَلَّف بشدّة أن يكون ثابتاً على عقائد الإسلام ومبادئه وأخلاقه وشرائعه، وأن يكون في بيان كلّ ذلك شجاعاً غير خوّارٍ ولا وجِلٍ ولا جبان، في الالتزام بما يؤمن به، وفي مناصرة ما يدعو إليه، مع اتّخاذ الحكمة في ثباته ودعوته ونُصْحه وإرشاده، وتصرّفاته الشجاعة، وبُعْدِه عمّا يشوِّه أداء الرسالة من سِبَابٍ وشتائمَ وتشهير بالأشخاص.

هذه السّمَة هي الّتي رفعت كثيراً من أعلام المسلمين في التاريخ إلى مراتب المجد العظيم، وكان لثباتهم على الحقّ، وشجاعتهم الأدبيّة الحكيمة في مناصرته أثرٌ عظيم في اتِّخَاذِ جماهير المسلمين لهم أئمةً يتأسّون بهم، وينصرونهم، ويتبعونهم في تمسكهم بالحقّ، وفي نصرتهم له، ودفاعهم عنه.

إنّ هذا الثبات النضاليّ الْمُعْجِبَ، المقرونَ بالشَّجَاعة الحكيمة الرَّشِيدَة الّتي تَحَلَّوْا بِهَا، قد كان من الوسائل النافعة جدّاً في دفع كثير من الناس للدُّخُول في الإسلام، أو للالتزام به ومُنَاصرته، وفي اتّخَاذ حامل الرسالة الثابتِ الشجاع الحكيم الرَّشيد إماماً لهم، يتأسَّوْنَ به.

ولابن تيميَّةَ مواقفُ شجَاعةٍ حكيمةٍ لَيَّنَتْ قلوبَ جبابرة أهلِ الكفر، ودفَعَتْ كثيراً من شرورهم، يُطَالعها القارىء في سيرته رحمه الله، وسيأتي إنشاء الله في النماذج بيان بعضها.

فعلى حامل الرسالة أن يقتدي بالأئمة الأعلام الدعاة الْهُدَاة الحكماء العلماء الفقهاءِ في الدين، الَّذِين يضعون الأُمور في مواضعها بثبات وشجاعة ورفق ولين، ويتّخذون لِمَقَاصِدِهم في الدعوة والنصح والإرشاد، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، أسبابَها الحكيمة ذات الجدوى والنفع في تحقيق المنشود.

وعلى حامل الرسالة أن يَذْكُرَ دواماً ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبـيّ ﷺ قال:

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ».

رواه أبو داود والترمذي وقال: حديثٌ حسن[١].

* * *

القـاعدة الثانية والثلاثون:

«حامل رسالة الدعوة إلى الله والنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس عليه إلاّ البلاغ الْمُبِينُ، أُسْوةٌ بالرسول ﷺ وسَائِرِ الرسُل والأنبياء من قبله، وليس مسؤولاً عن تحويل الناس وتغييرهم من الكفر إلى الإيمان، ومن العصيان إلى الطاعة، ولا يسأل عن عدد من استجاب له واتّبعه، ما لم تكن لديه سلطة التغيير بيده داخل المسلمين».

(١) عن رياض الصالحين (الباب الثالث والعشرون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» رقم الحديث ١٩٤.

الـشـرح:

إنّ خطة الامتحان الربّاني في الحياة الدنيا قائمةٌ على إعطاء الناس حرّياتهم في أن يؤمنوا أو يكفروا، وفي أن يطيعوا أو يعصوا، وفي أن يَسْلُكُوا صراط الله المستقيم، ويلتزموه عن طريق إراداتهم الحرّة، لا بالْقَسْر والْقَهْر والجبر، ولكنَّ عليهم بعد ذلك أن يتحمّلوا نتائج اختياراتهم عقاباً بالعدل إذا خالفوا أوامر الله ونواهيَهُ الإلزامية، وهم سيظفرون بثوابه الجزيل إذا أطاعوها وعملوا بمقتضاها.

والمَسُوقُ بالقسْرِ والقهر لا أَجْرَ له في صالح العمل، ولاعقاب عليه فِي سَيِّء العمل.

فحامل الرسالة ليس من شأنه أن يُكْره الناس أو يُلْزِمَهُم بالقهر، ولكن يتخذ ما يستطيع من وسائل للإقناع بما يدعو إليه وينصح به، ولتوليد الدافع الذاتي لدَىٰ من يَتَلَقَّوْنَ عنه أو يوجه لهم دعوته ونُصْحه.

ففي شأن الكافرين قال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وفي شأن المنافقين قال الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

إلى نصوص كثيرة حول هذه القضية جاء بيانُها في موضع آخر من هذا الكتاب[١].

---

(١) انظر العقبة الثامنة من العقبات الصادّة (الفصل الثاني من الباب الرابع).

وروى الإمام أحمد والبيهقيّ والنسائي عن أبـي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَجِيءُ النَّبِـيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ومَعَهُ الرَّجُلُ، والنبـيُّ ومَعَهُ الرَّجُلاَنِ، والنَّبِـيُّ وَمَعَهُ الثَّلاَثَةُ، وأَكْثَرُ مِنْ ذلِكَ، فيقال له: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ.... الحديث؟!.

أمّا تغيير المنكر داخل المسلمين بالقوّة فقد جاء تفصيله في موضع آخر من هذا الكتَاب، فَلْيُرْجع إليه[1].

* * *

القـاعدة الثالثة والثلاثون:

«على حامل الرسالة أن يقدّم مضامين دعوته إلى الله ونصحه وإرشاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بأساليب بيانيّة أدبية جميلة مشرقة، مُزَيَّنَةٍ بما يُمْتِـعُ الفكر والنفس من جمال في أدب الكلام، وبذلك يَجْمَعُ بَيْنَ المضمون الحقّ والْحُلَلِ البيانيّة الجميلة المزخرفة».

الـشـرح:

● علَّمنا القرآن بأسلوبه البيانيّ الرفيع المعجز أن نستخدم الجمال الأدبـيّ في دَعْوتِنَا إلى الله ونُصْحِنَا وإرشادنا وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، فعلى حامل الرّسالة أن يَتَّبِـعَ المنهج القرآني بشكل عامّ لدى أدائه وظائف رسالته، مراعياً المستوى الفكريّ للذين يُؤَدِّي بينهم رسالته، ويُوَجِّه لَهُم بيانه.

● ونلاحظ أيضاً أنَّ الإعلام الإسلاميَّ مضمونُهُ الحقُّ والْهُدَى، والخيرُ والفضيلَةُ والكمال، والدَّعوةُ إلى كلِّ خَيْرٍ وصَلاَح وإصلاح، وإلى مُقَاوَمَةِ الباطل والشرّ والفساد والإفساد في الأرض وفي الأنفس.

---

(١) انظر الفصل السابع «المجتمع الإسلامي والمنكرات حماية وتغييراً» من الباب الرابع.

أمّا الإعلامُ المضادُّ فمَضْمُونُه على النقيض من مضمون الإعلام الإسلاميّ غالباً، إلاّ أنه شَدِيدُ العناية والاهتمام بالأساليب الْمُؤثِّرَة في الأفكار والنفوس، فهو يستخدم زُخْرُفَ القول لنصرة الباطل، والترويج للخرافات والأكاذيب والشرور، والفساد والإفساد في الأرض وفي الأنفس، ويَسْتَرْضِي الشهوات، ويستهوي الأهواء، ويستعطف رغباتِ النّفوسِ ولذّاتها.

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ شياطينِ الإنسِ والجنِّ يُوحِي بعضهم إلى بعض زُخْرفَ القول غروراً، لإغراء وإغواء أفراد الناسِ وجماعاتهم وجماهيرهم الغوغائية، وهم يستخدمون زينات الحياة الدنيا لتَذْليلِ النُّفُوس وتطويعها، بغية أن تتنكَّبَ صِرَاطَ الله المستقيم، فيُصْغِي إلى زخرف أقوالهم الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبعد الإصغاء تميل قلوبهم، فيَرْضَوْنَ المضامين الفكرية التي يُزَيّنُونها لهم.

ثم تكون الممارسات التطبيقيّة الّتي يَقْتَرِفُ فيها الضالّون المعاصي والآثام، وينشرون الشرور وأنواع الفساد في الأرض وفي الأنفس.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

زُخْرفَ القول: أي: القول المزخرف، وهو المزين المحسّنُ.

ولتَصْغَى إليه: أي: ولتَمِيلَ إليه، يقال لغةً: صَغَا إليه يصْغُو إذا مال إليه.

والمراد من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾ الجعلُ القدريّ بالنظام العامّ الذي يَلْزَمُ منه وجُودُ مؤمنين وكافرين، وأئمةِ دعاةٍ إلى الحقّ، وأئمةِ آخرين

دعاةٍ إلىٰ الباطل والشرّ، لأنّ حكمةَ الامتحان في الحياة الدنيا تقتضي ذلك.

فإذاكان لأئمة الضَّلاَلِ أَسْلِحَةٌ بيانية تعتمد في إضلالها على زخرف القول، فلا بُدَّ لأَئمة الهدى من أن يقابلوا الأسلحة بمثلها، فعلى حامل الرسالة أن يكون شديد الاهتمام والعناية بأنْ يُقَدِّمَ مضامين رسالته بأساليب بيانيّة مُزَخْرَفة مؤثرة في الأفكار والنفوس والقلوب، حتى يَجْمَعَ إلى كمال وجمال المضمون وسَلاَمته، جمال الأسلوب البيانيّ المؤثر، وبذلك يكون له الظفر على الشياطين وجُنُودِهم، لأنّهم مهما زيّنوا وزخرفوا أقوالهم بزينات جميلاتٍ، فإنهم لَنْ يستطيعواأن يجعلوا الباطل حقًّا، والشرّ الذي يدعون إليه خيراً، والفسادَ الذي يُرِيدونَ نَشْرَهُ صلاحاً.

إنّ تأثير المضمون الحق ذي الأثر النافع الخيّر تأثير باقٍ ودائم على المَدىٰ الطويل، ولو كان في بداياته بطيءَ البناء.

أمّا تأثير زُخْرف القول لتصديق المضمون الباطل ذِي الأثر الضارّ، فهو تأثيرٌ ذو انتفاخٍ وزبَدٍ وقَتِيٍّ، لكنّه لا يَلْبَثُ أَنْ ينكشف زَيْفُه، فيسقط عندئذ المضمون، وتسقُط معه الوسيلة الْمُزَخْرَفَةُ.

ولذلك يحاول المضلّلون والمبطلون أن يُغَيِّرُوا وسائلهم ووجوههم دواماً حيناً بعد حين.

ونُلاحظُ من ذلك أنَّ التَّاجر النَّاصح الصَّدُوقَ الذي يقدّم دواماً النافع الجميل، هو الذي يكون شيخ السوق ورَئِيسَهُ.

أمّا صَاحِبُ الدعايات الزخرفية فإنّه يكون رائجاً لوقتٍ محدود، ثُمَّ يَضْمَحِلُّ زَبَدُه، ويَظْهَرُ غُثَاؤُه، فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وتَكْسَدُ بضاعته.

هذه سُنَّةٌ ربَّانيَّة أَبَانَها الله عزّ وجلّ بقوله في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ . . . فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

* * *

القاعدة الرابعة والثلاثون:

«على المسلمين جميعاً ولا سيما حملة الرسالة معاملة غير المسلمين بكلِّ فضائل الإسلام وتعاليمه، في الأخلاق والمعاملات والعهود والمواثيق، وتقديمُ التّطبيقات العمليّة دواماً لتعاليم الشريعة الإسلامية، لكيون ذلك صُورَةً عملية داعيةً للإسلام، ومُرَغِّبَةً فيه».

الشرح:

هذه القاعدة دلّت عليها نصوص قرآنية كثيرة، ودلّت عليها سيرة الرسول ﷺ في تعامله مع غير المسلمين.

ومن الأدلة القرآنية الآيات من (٩١ ـ ٩٦) من سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

يضربُ الله عزّ وجلّ في هذا النصّ مثلاً للذين يَنْقُضون عهودهم ومواثيقهم وأَيْمَانَهم بالمرأة الحمقاء التي من شأنها أن تَغْزِلَ غَزْلَها، حتَّىٰ إذا أَحْكَمَتْهُ وأبْرَمَتْهُ إبراماً مناسباً، عادتْ فنقَضَتْه وجعلَتْهُ أنكاثاً، أي: أعادته إلى مثل ما كان عليه سابقاً صُوفاً أو شعراً أوْ قُطْناً.

قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي: أَتَحْلِفُونَ الأيمانَ

لتخدعوا بها الناس، وتغشوهم بها، حتَّى يُصَدّقوكم في أيمانَاكُمْ ووعودكم، ثم تنْقُضُونَها بغيْرِ حقّ، إنّ هذا لأمر شنيعٌ جداً.

الدَّخَلَ: الغِشُّ والخيانة.

قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

أَرْبَىٰ: أي: أكثر، والمعنىٰ أَتَتَّخِذُونَ أيمانكم الكاذبة وسيلةَ خديعةٍ لتكونَ أُمَّتُكُمْ أَكْثَر وأقْوَىٰ من أُمَّةِ عَدُوِّكُمْ؟!

هذا أمرٌ شنيعٌ منافٍ لأحكام الإسلام، وغاياتِهِ النبيلة، فممَّا لا يَرْضَاهُ الله لكم أنْ تخادِعُوا الناس بالعهود والأيْمَانِ الموثَّقَةِ لها، ثم تَنْقُضُوها بغير حق، وتَتَذَرَّعُوا بأنكم اتّخذتم هذه الوسيلة المحرّمة عليكم لتُحَقِّقُوا تكثير أمّةِ الإسلام وتقويتها ضدّ أمّة الكفر والعصيان.

إنّ الله عزّ وجلّ يُحرِّم هذه الوسيلة وأمثالها، ولو كان الغرض منها تقوية أمّة الإسلام ضِدَّ أمّة الكفر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي: إنّكم أيّها المؤمنون المسلمون في موضع الامتحان، والامتحانُ يتطلَّبُ منكُمُ التِزَامَ حُدُودِ الله، ولو مع أعداء الله، ويُكَلِّفكُمْ أنْ تكونوا دعاةً هداةً صَابِرِين، ملتزمين أوامرَ الله ونواهيَه، مُمَثِّلينَ في أعمالكم شريعةَ اللَّهِ لعباده.

إنّكم أيها المؤمنون المسلمون أمّة تبليغٍ وإقامةٍ لحكم اللَّهِ في الأرض، ولشريعتِهِ في الناس ما استطعتُمْ إلى ذلِكَ سبيلاً، ضمن حُدُود أوامر الله ونواهيه، فإذا اتَّخَذْتُمْ أيمانكم باللَّهِ وسيلةً لمخادعة أعدائكم خالَفْتُمْ أُسُسَ رسالتكم للناس، وأَعْطَيْتُمْ مثلاً سيّئاً عنها بتصرفاتكم، وكان ذلك منكُمْ مَزَلّة قَدَمٍ، وصَدَّ عَمَلُكُمْ هذا الناسَ عن الدخول في الإسلام، فتأتي النتيجةُ علَىٰ عَكْسِ ما تُرِيدُونَ، إذْ تُمْسِي أُمَّةُ الكُفْرِ أَرْبَىٰ من أُمَّةِ الإيمان.

إنكم أيُّهَا المؤمنون المسلمون لم تُكَلَّفُوا أن تحوِّلُوا النّاس إلى الإيمان، حتّىٰ تَتَّخِذُوا لذلك أيّة وسيلة، كالإكراه، والمخادَعَةِ بالعهود والوعود والأيمانِ التي لا تَفُونَ بها، إنّ الله لو شاء تَحْوِيلَهُمْ إلى الإيمان بالإكراه لتولاّه بنفسه، فجعل الناس كلّهم أمّةً مؤمنةً واحدةً، فسَلَبَ الناسَ إراداتهم الحرّة وجعلَهُم مجبورين غَيْرَ مُخَيَّرِين، وإذا جعلهم مجبورين لم يجبرهم إلاّ على الإيمان بالحقّ، والإسلام الكامل له جلَّ جلاله، ولكن يَبْطُل بذلك الابتلاء، وما يترتَّبُ عليه من جزاء.

ولذلك قال الله تعالى عقب الآيتين السّابقتين:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

فنقض العهود مَزَلَّةُ قَدَمٍ عن صراط الله، والعقوبةُ المعجَّلَةُ أن يَذُوقَ ناقضو عهودهم السوءَ في الدنيا، بسبب عملهم الذي أعطى صورةً سَيِّئةً صدّتْ عن سبيلِ الله، ثمّ تكون العقوبة في الآخرة عذاباً عظيماً.

إنَّ نقض العهود أمْرٌ خطيرٌ وإثمٌ عظيمٌ في الإسلام، ولذلك كان حماقةً تشبه حماقةَ الّتي نقضت غَزْلها من بعد قُوَّةٍ أنْكاثاً، وهذه الحماقةُ مما ينفر مِنْهُ العقلاء.

فعلى حامل الرسالة أن يعامل من يؤدِّي بينهم رسالته بكلّ فضائل الإسلام وأخلاقه، ليكون بحالِهِ أشدّ تأثيراً منه في مقاله.

* * *

القـاعدة الخامسة والثلاثون:

«على حامل الرسالة أن يغرس في المسلمين مشاعر الانتماء والولاء لله ولرسوله ولصحابته وللتابعين لهم بإحسان، ولسائر الأمّة الإسلاميّة في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يستغل كلاًّ من الانتماء والولاء في تطبيقات أحكام الدين، وفي نُصْرَةِ الإسلام وقضايا المسلمين والتحمُّسِ لها».

الـشـرح:

الناس في طبيعتهم الّتي فطرهم الله عليها يحبون أن تكون لهم جهةٌ يَنْتَمُونَ إليها، ويَنْصُرُونها، ويُعْطُونَها ولاءهم، فهم يفرحون بانتصارها، ويحزنون لهزيمتها.

ويُحبّونَ أيضاً أن تكون لهم جهةٌ يُعادُونَها أو ينافسونها ويخذلونها، فهم يفرحون بهزيمتها، ويكرهون انتصارها على من يوالون، أو على من هم أقرب إلى ولائهم.

وهذا يُفَسِّرُ تعلُّقَ الجماهيرِ التي لا تمارس الرياضة البدنيّة بأنفسها بموالاتِ أحد الأندية الّتي تستأثر بإعجابهم، والفرح بانتصاره كأنَّهم هُمُ المنتصرون، والحزْن لهزيمته كأنّهم هم المنهزمون.

وهو الّذي يفسّر تعلُّق الجماهير أحياناً بحزبٍ سياسيّ استأثر بإعجابهم تأثُّراً ببعض أعماله أو بعض أفراده، أو بدعايته الإعلامية، أو تعلّقَ الجماهيرِ بقائد فاتحٍ، أو زعيمٍ مُكافح، أو أديب أو كاتب منافح، أوْ عالم مُرْشِدٍ ناصح، أو نحو هؤلاء.

فعلى حامل الرسالة أن لا يُهْمل غرْسَ الولاء الصحيح الصادق في المسلمين لله ولرسوله، ولكل ما يَنْتَمِي إليهما ومن ينتمي إليهما.

* * *

القـاعدة السادسة والثلاثون:

«على حامل الرسالة الداعي إلى الله أن يَبْتَعِدُ عن مسائل الخلاف الّتي اختلف فيها علماء المسلمين لدى دعوتِهِ غير المسلمين، وأن يَهْتَمَّ بالقضايا الأصول المجمع عليها، ولْيَحْذَرْ من التعصُّب لمذهب أو رأيٍ يَرَاهُ هو الصواب ما لم يكن هو الأقرب لإقناع المدعوّ والأبْعَدَ عَنْ إثارَةِ الشبهاتِ في نفسه، فله حينئذٍ أن يذكُرَ أنّه هو الصَّواب فيما يَرىٰ؛ دُونَ تعصُّب ولا غضب».

الـشـرح:

إنّ اشتغال الداعي إلى دين الله بالانتصار لرأي إمامٍ من أئمة المسلمين، في قضيّة من قضايا الخلاف الّتي اختلفت فيها آراءُ واجتهادات علماء المسلمين، من شأنه أن يُنَفّر المدعوّين إلى الإسلام، إذ يبْدَؤُهُمْ بما يغْرسُ في نفوسهم الشَّكَّ في الدّين الذي يعرضه عليهم، لأنّ أوَّل ما يَخْطُر ببالهم أنّ أئمة المسلمين غَيْرُ متفقين على الدِّين الذي يدعوهم الداعي إلى الدُّخُول فيه، وهم لا يُفَرِّقون في أوَّل الأمر بين الأصول المتّفق عليها التي لا شكَّ فيها، وبين مَفْهُومَاتٍ أخرىٰ هي من وراء الأصول، وهي التي اختلفت الآراء الاجتهادية فيها.

حتّىٰ إذا تمكّنَتِ الأُصُول الصحيحة المتفَقُ عليها بين جميع المسلمين، وقَبلَها المدعوُّ إلى الإسلام واسْتَجَابَ إليها، وأعْلَنَ دخوله في الإسلام، حَسُنَ عندئذٍ الأخْذُ بيدِهِ إلى التطبيقات الإسلامية المتَّفَقِ عليها بين عموم المسلمين، وهي أركان الإسلام الخمس، ثمّ يُوَجَّهُ له التحذير الشديدَ من ارتكاب الكبائر كالقتل والسرقة والزّنا والإضرارِ بالناس وإيذائهم، ثمّ يُوَجَّه له لزوم الامتناع عن شرب الخمر ولعب الميسر، وهكذا بالتدريج.

فإذا تمكّن في الإسلام تمكُّناً صحيحاً صادقاً، وأشرقت أنوارُهُ في قلبه،

ومارَسَ التطبيقات الإسلامية وذاقَ حلاوَتها، جاز عندئذٍ تعريفه ببَعْض مسائل الخلاف مقرونةً بالرأي الصواب أو الراجح مع الدليل الصحيح الواضح.

وهذا من الحكمة التي أمر اللَّهُ بهَا في الدعوة إلى سبيله.

* * *

القـاعدة السابعة والثلاثون:

«على حامل الرسالة الداعي إلى دين الله الحقّ أن يُعْلِنَ لدى حواره لمن يدعوه تجرُّدَه عن التعصُّب لسوابق الأفكار الّتي يؤمن بها، وأن يُعْلِن أنّه يَضَعُ موضوع البحث الذي يريد أن يُحَاوِرَ بشأنه من يدعوه، على مائدة بحثٍ مشتركة سواء تَبْدَأُ بإعلان كلّ فريق من المتحاورين تجرُّدَهُ عن مؤثرات انتمائه السابق، ليكون بحث الموضوع حُرًّا نزيهاً غير مَشْدُودٍ بسوابق قيود إلاّ الأسس العقليّة العلمية الصحيحة.

وبهذا تكون استجابة المدعوّ إلى الحقّ الرّبّانيّ أرجَىٰ».

الـشـرح:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) معلّماً رسوله ﷺ، فكُلّ داعٍ إلى دين الله من أمّته أن يقول لمن يحاور من الكافرين:

﴿ . . . وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾.

في هذا التعليم الرّبّاني إلزامٌ للداعي إلى الله بأن يُعْلِن عند حواره لغير المؤمنين تجرُّدَه عن سَوابِقِ أفكاره حَوْلَ ما يُؤْمن به، وَأنّه يُقدّم قضايا مَوْضُوعِه الذي يدعو إليه للبحث المتجرّد على مائدة سواء بين الفريقين، فعَلَىٰ كلٍّ منهما أنْ يَنْظُرَ بتجرُّدٍ نظراً فكريًّا عقليًّا علميًّا، ثُمَّ مَا يُوصِلُ إليه البحثُ العلميّ المتجرِّدُ، فعَلَىٰ كلٍّ من الفريقين المتحاوِرَيْن أن يَقْبَلَهُ، ويُذْعِن لَهُ، ويُؤْمِن به، ويلتزم بمطلوباته.

إنّ الدعوة إلى الإيمان بالله الرَّب الخالق الواحد الأحد الّذي لا شريك له، وإلى الإسلام له، دَعْوَةٌ إلى قضيّةٍ حقٍّ عقليّة، تَشْهَدُ لها قواطع البراهين، وسواطع الأدلّة، فهي حقٌّ لا شكّ فيه، والدعوة إليها دعوةٌ إلى الهدى بلا ريب، أمّا نَقَائِضُها فأُمُورٌ باطلة دون شكّ، والدّعوةُ إلى هذه النقائض دعوةٌ إلى ضلالٍ مبين بلا ريب.

وعلى الرغم من هذا فقد علَّم الله عزّ وجلّ الداعيَ المسلم أن يقول للمدعوّ الكافر المشرك:

أنا وإيّاك في أفكارنا ومعتقداتنا على طرفي نقيض، فلا بُدَّ أنْ يكون أحدهما حقًّا وهدىً بلا ريب، وأن يكون الآخر منهما باطلاً وضلالاً مبيناً بلا ريب.

وعلى هذا فإمّا أنْ نكون نَحْنُ أو أَنْتُم عَلَىٰ هُدىً أو في ضلالٍ مبين.

فإنْ كُنَّا نَحْنُ على هُدىً لالتزامنا جانب الحقّ، كنْتُمْ أنتم في ضلالٍ مبين، لهجركم جانب الحقّ.

وإنْ كنتم أنْتُم على هُدىً لالتزامكم جانب الحق، كُنَّا نَحْنُ في ضلالٍ مبين لهَجْرِنَا جانب الحقّ.

وهكذا يَضَعُ الداعي المسلم مَنْ يُحَاوِرُه على مائدةِ بحثٍ مشتركة سواءٍ، لا تَرْجِيحَ فيها ابتداءً لأحد الْمُتَحَاوِرَيْن.

ثمّ إنّ نَتِيجَةَ البحث العقليّ العلميّ المتجرِّدِ الخالي من تعصّب كلّ فريق من المتحاورين لسَوابق أَفْكارهما، ومعتقداتِهِما، هي الّتي تحدّد الفريقَ الذي هو على هُدىٰ، والفريقَ الّذي كان على ضلال مبين.

* * *

القـاعدة الثامنة والثلاثون:

«على حامل الرسالة الداعي إلى الله أن يكون شديد الحذر من أنْ يُسْتَثَارَ أو يُسْتَدْرَجَ إلى سَبٍّ وشتيمةٍ مَا يُؤْمِنُ به الكافرون من طواغيت.

وعليه أَنْ يُنَزِّهَ لِسَانَهُ عَنْ كلّ ما فيه إيذاءٌ لمن يريد هدايتهم، وعن كلّ ما فيه استثارة لمشاعِرِ الغضب في نفوسهم.

وعليه أن يَبْتَعِد جدًّا عن تَسْفِيه آراءِ ومعتقداتِ ومفهوماتِ من يَدْعُوهُ ويُحَاوِرُهُ قبل أن يَصِلَ إلى الاقتناع الكاملِ بالحقّ، فهو عندئذٍ سَيُسَفِّه ما كان عليه سابقاً من ذلك.

فإذا أفْحَمَهُ أو تغلّبَ عليه بالحجج البرهانيّة ثمّ وَجَدَهُ قد أصَرَّ على بَاطِلِه عناداً فله أن يُشْعِرَه من طَرْفٍ خفيٍّ بأنّ التزامه بما هو فيه وإصراره عليه سفاهةٌ وإصرارٌ على الباطل».

الـشـرح:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

قولُه تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: ولا تَسُبُّوا مَعْبُودَاتِ المشركين الّتي يدعُونَها ويَعْبُدونَها من دون الله.

قولُه تَعالى: ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: أي: فيردُّ المشركون علىٰ مَنْ سبَّ آلهتهم من المؤمنين بأن يسُبوا الله عزّ وجلَّ ظلماً وعُدْواناً وهُمْ في حالةِ غضبٍ أفقدتْهُم مُدْرَكَاتهم العلميّة، فجعلتهم يَسُبُّون من يعتقدون أنّه هو الذي خلَق السّمَاواتِ والأرض.

عَدْواً: أي: ظُلْماً وعُدْواناً.

وبذلك يتحوّل الخلافُ بين المؤمنين والكافرين من خلافٍ فكريٍّ عِلْمِيٍّ لَهُ أدلّته العقليّة العلميّة البرهانيّة، إلى معركةِ سبابٍ وشَتائم، ولا بُدَّ في هذه الحالة أن يكونَ أكثَرُ الفريقين انتصاراً أكثرَهُمْ سِبَاباً وشتائِمَ وسَفَاهةً ووقاحة، وهذه أمور يتنزَّه عنها المؤمنون المسلمون فهم عقلاءُ راشدون، غيْرُ سَبَّابين ولا طعَّانِينَ ولا شتَّامين ولا سُفهاء ولا أصحابَ جَهَالة.

وحين ينتصر المشركون لأوثانهم الّتي سَبَّها لهم المؤمنون فيسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بغير علم، فإنّهم يفعلون ذلك، لأن من طبيعةِ النفوس أنْ تُدَافِعَ عمّا تُؤْمِنُ بِهِ وتَنْتَصِرَ له، فترىٰ أنّ سَبَّ ومُقاتَلَةَ مَا يؤمِنُ به الخصْمُ أمْرٌ حَسَنٌ، إذْ يَصْنَعُ الْوَهْمُ لِمَنْ لم تُقَيِّدْهُ أحكامُ الدّين الحقّ ما يُزَيِّنُ له عَمَلَهُ الذي يُدافع به عمّا يؤمن به، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ وهذا التّزيينُ هو من عناصر نِظَامِ التكوين العامّ، الّذِي فَطَرَ الله عليه النفوس جميعاً.

فعلى المؤمنين أنْ يُرَاعوا حالةَ فِطَرِ النفوسِ وطبائِعِها التكوينيّة، فلا يَتَّخِذوا من الوسائل ما يَسْتَثِيرُها إلى مَا لا يَجُوزُ استثارتُها إليه، وسبُّ الأوثان يَسْتَثِيرُ المشركَ إلى أن يَسُبَّ اللَّهَ عَدْواً بغير عِلْم، فلا يجوز للمؤمن أن يستثيره إلى ذلك، لأنه يكون مشاركاً للمشرك في عمله الشنيع هذا.

* * *

القـاعدة التاسعة والثلاثون:

«من الحكمةِ التربويّة للاستفادةِ من التَّدْرِيبَات العملية على السلوك الإسلاميّ، وغَرْسِها في أَعْماق النفس، وجَعْلِها جزءاً من شخصيّة مُمَارِسِها، جَعْلُها مُقْتَرِنَةً بِما تُحِبُّهُ النفوسُ من مشاعر وجدانيّة سعيدةٍ، تَذُوق بها لذّاتِ فِعْلِ الخيرات والفضائل والصّالحات، ومشاعِرَ أُخْرَىٰ تَذُوق بها لذَّاتِ مُبَاحَاتٍ ممّا ترغَبُ فيه من مَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا».

الـشـرح:

حامل الرسالة الإسلاميّة يَحْمِل مُهِمَّة تَرْبية من يَسْتَجيب له علىٰ ممارساتِ السلوك الإسلامي.

إنّ كثيراً من أنواع السُّلوك الإسلامي فيه مَشَقَّةٌ على النفوس، وسِياسَةُ الإكراه والْقَسْرِ سِيَاسةٌ مُنَفِّرةٌ، لا تَغْرِسُ في الإنسان عادةَ سلوكٍ مُحبَّبٍ للنفس، بل تَجْعَلُ منه إنساناً يقوم بعمله وهو كارهٌ له، نافِرٌ منه.

بخلاف ما لو كان التوجيه للسُّلوك الإسلاميّ مقروناً بمشاعر تُحِبُّها النَّفْسُ، وتَرتاح لها، ومنها أنْ تكون مغموسة أو مشوبةً بمشاعر الإيمانِ، ومشاعرِ الأَمَلِ العظيم بالسّعادةِ الخالدة، مع مشاعرِ لذّةٍ تأتي بها بَعْضُ المتَعِ الجسديّة المباحة.

أمثـلـة:

١ ـ إذا أعْطَىٰ المربّـي تلميذَه مَبْلَغاً من المال، وقال له: خُذْ هذا المال وابْذُلْهُ إحساناً لبيْتِ فُلان، ولا تَقُل لهم: إنَّها من شيخي بعثني بها إليكم.

أو اشتر لهم طعاماً طيّباً لذيذاً، واذهب به إليهم، فَإنَّهُمْ أهْلُ بيت فقراء جياعٌ يشتهون الطعام الطيّب اللّذيذ الغنيّ باللّحم والدُّهْنِ، ويُحْسُن أَنْ تُطْعِم صغارهم بيَدِك.

فإذا ذهَبَ التلميذ، حاملاً لأهْلِ ذلك البيت الطعام الشهيّ اللّذيذ، وقدَّمَهُ إليهم بنَفْسِه، وأطْعَمَ صِغَارَهُمْ بيَدِه، وشاهد مَبْلَغَ فَرَحِهِمْ وسَعَادَتِهِم بتناول ما قَدَّم إليهم من طعام، وكَيْفَ فرحوا وابْتَهَجُوا، وكيْفَ تعلّقُوا به تعلّق الأولاد بأبيهم شاكرين ومُقَدِّرين ومُحِبّين، فإنّ هذا التلميذ سَيَشْعُر وهو يمارس هذا العمل بمشاعر إنسانيّة سَعِيدة يصْعُبُ وصْفُها.

وحين تتكرّر لَدَيْه هذه المشاعر السعيدة، تتولّد عنده عادَةُ العطاء

الجملية، فكلّما وجَدَ نفسه يَمْلِكُ شيئاً من المال اندفَعَتْ نَفْسُه لإطعام الجائعين، لأنّ نفسه اعْتَادَتْ أن تَشْعُر بمشاعر السّعادة بالعطاء وإطعامِ الجياع، مع ابتغاء رضوانِ الله، والأجر العظيم عنده.

٢ ـ التدريب على مساعدة الضعفاء والعجزة من الناس بالخدمات الجسَدِيّة يُفَجِّر في النَّفْسِ مَشاعِرَ سعادةٍ عظيمة، ثمّ تتكوّن في الإنسان الرَّغْبَةُ الدَّاخليَّةُ في تكْرِير السلوك، للإحساس بمشاعر السعادة الّتي سبق أنْ ذاقها، ثم تَتَكَوَّنُ الْعَادَةُ الّتي هي بمثابةِ الْخُلُقِ في السُّلُوك، وتَغْدو الممارسةُ جزءاً من كِيَانِ الذّات.

٣ ـ أنْ يَأْخُذَ حاملُ الرسالة الْمُرَبّـي تليمذَه إلى المسجد ليدرّبَه على المحافظة على صلاة الجماعة، فَيَخْتَارَ مَسْجِداً له إمام حسَنُ القراءة، جميلُ الصوت، خفيف الصلاة، ويُرَتّب بعد الصلاة جلْسَةً لطيفة خارج المسجد، أو في غرفةٍ ملحقة به، ويَجْمَعُه مع عَدَدٍ من أترابه الّذين يأْنَسُ بهم، ويستطيعُ أن يندمج معهم، ويُعِدّ لهم شيئاً من الطعام والشّراب اللّذِيذ ليتناوَلُوه في هذه الجلسة، ويُلْقِيَ عليهم فيها شيئاً خفيفاً من تعليمات الدّين، ويُرَوِّحَ عَنْهُمْ ببعض الطّرائف الّتي تُنَاسب أعمارهم.

إذا تكرَّر هذا ولَمْ يكن مصحوباً بما يُسْئِم ويُضْجِرُ أَوْ يُنَفّر، فإنّ التلميذ ورفاقه سَيجِدُون في أعماقهم ما يَدْفَعُهم دواماً إلى تأديَةِ الصلاةِ مع الجماعَةِ في أوّل وقتها، نظراً إلى أنَّ العادة قد استقرّتْ في نفوسهم مقرونةً ببعض ما تحبُّه، وتميلُ إليه، وتأنَسُ به، وصارت لديهم خُلُقاً مكتسباً.

٤ ـ أن يجمع حاملُ الرسالة المعلّم المربّـي عَدَداً من تلاميذه ليحفظوا كتاب الله، ويجعل لكل من يحفظ مقداراً منه جائزةً تَشْجِيعيَّة مالية، وجائزة تشجيعيّة تقديريّة، حتّىٰ يَشْعُر الحافظ بأنّه نَالَ ثناءً حسناً، ونالَ ثواباً مادّيًا

يُحِبُّه على ما حفظ من كتاب الله، وهكذا كُلَّما حفظ مقداراً آخر منه.

فهذه المكافآت التَّشْجيعيّة تجعلُ التلاميذ حريصين على متابعة حفظ القرآن، مع دَافِعِ التنافس فيما بينهم، حتّى تتكوّن لديهم عادةُ الحفظ، ثم تكونُ تلاوة القرآن جزءاً من سلوكهم الدّائم.

٥ ـ وكذلك في مجالس العلم، ومجالس الذكر، ورحْلاَتِ الحجّ والعمرة، وسائر أنواع السُّلُوك الإسلاميّ، فباستطاعة المربّي الحكيم الذي يؤدّي الرّسالة الإسلاميّة أَنْ يُدَرِّبَ تلاميذه عليها تدريباً مقروناً بما يُحِبُّون ويشعُرُونَ معه بلَذَّاتٍ وجدانيّة، ولذاتٍ مادّيّةٍ مباحة.

* * *

القاعدة الأربعون:

«حامل الرسالة الإسلاميّة الداعي إلى الله هو بمثابة الطبيب الرحيم الناصح، لا ينظر إلى المخالف على أنّه عدوّ ينبغي أن يتخلَّصَ منه، إنَّمَا يَنْظُر إليه على أنّه مريض يُريدُ أنْ يُنْقِذَه من مرضه، فالمؤمن المسلم يَدْعُو الناس إلى دين الله بدافع الرحمة بهم، لنجاتهم من عذاب الله، وظَفَرِهِمْ بالسعادة الخالدة».

الشرح:

إنّ الدعوة إلى دين الله يَجِبُ أَنْ تقترن بابتغاء إنقاذ المخالفين مما هُمْ فيه، لحمايتهم من عذاب الله، ورحمةً بهم، وحرصاً على سعادتهم في جنّاتِ النعيم، وحالُ الداعي إلى الله كحال الطبيب الرحيم الناصح الحريص على إنقاذ مرضاه مما هم فيه من أمراض.

وكما كانت الرسالة الإسلاميّة رحمةً من الله لعباده، وكان الرسول محمّد ﷺ رحمةً للعالمين، كان من واجب حامل الرسالة الإسلامية أن يملأ قلبه بمشاعر الرحمة بالمخالفين، لإنقاذهم، وكذلك كان الرسول ﷺ شديد

الرحمةِ والحرص على إنقاذ الكافرين من الكفر، والعاصين من العصيان، حتّىٰ كانت رحمته العظيمة بهم تؤثر عليه، فتُضْنِيه كلّما وجَدَ منهم عناداً وإعراضاً.

وكان القرآن ينزل على الرسول ﷺ ليخفّف من حُزْنِه على كُفّار قومه، فقد أنزل الله عليه قوله في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾.

وأنزل عليه قوله في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾.

وأنزل عليه قوله في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ: أي: قاتِلٌ نَفْسَك حُزْناً عليهم وحَذَر أنْ لا يكونُوا مؤمنين.

* * *

القـاعدة الحادية والأربعون:

«على حامل الرسالة أن لا يَحْمِلَ مَنْ يَقْتَدُونَ به على الأخذ بأشدّ الأعمال وأشقها على نفوسهم، أو بأشدّ الاجتهادات الفقهيّة ما دام في الدِّينِ سعَةٌ وفُسْحَة، بل يكون رفيقاً بهم، مُبَشِّراً غير مُنفّر، مُيَسِّراً غير مُعَسِّر، وإذا كان في الحكم الفقهي خلافٌ بين أئمة الاجتهاد من عُلَماءِ المسلمين فمن الحكمة أن يُبيّن لهم اختلاف الآراء الاجتهاديّة، ويَنْصَحُهُم بأن يأخذوا بما هو الأحوط لدينهم، ويترك لهم أن يختاروا لأنفسهم منها ما هو الأيْسَرُ لهم، ولا يَجُوزُ لَهُ أن يَشُقَّ عليهم بالنَّوَافل وفضائل الأعمال إذا كان إماماً لهم لئلاَّ يُنَفِّرهم ويَفْتِنَهُمْ عن دينهم».

الشـرح:

دلّت نصوص الكتاب والسُّنَّة على أنّ هذا الدِّين يُسْرٌ وليس بِعُسر، وأنّ الله ما جعل على النّاس في هذا الدّين من حرج، فقد ادّخَر الله لهذا الدّين الخاتم أحكام التيسير، ورفع فيه الإِصْرَ الّذِي كانَ في رسالاته السابقات، فليس من حَقّ أَحَدٍ أنْ يَغْلُو في هذا الدِّين غُلُوّاً يخرُجُ به عن حدود أحكامه وشرائعه.

ومن النصوص الكثيرة المبيِّنَة لهذه الخصيصة من خصائص الدين ما يلي:

١ - روىٰ البخاري عن أبـي هريرة رضي الله عنه عن النبـيّ ﷺ قال:

«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، واسْتَعِينُوا بالْغُدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشَيْءٍ من الدُّلْجَةِ».

الغُدْوَة: سَيْرُ أَوَّلِ النهار.

الرَّوْحَة: سَيْرُ آخِرِ النهار.

الدُّلْجَة: آخِرُ اللَّيْلِ عند السَّحَر.

والمعنى استعينوا على طاعة الله عزّ وجلّ بالأعمال في أوقات نشاطكم، وفراغ قلوبكم، حتّىٰ تَجِدُوا للعبادة لذّاتٍ في نفوسكم، ولا تسأموا.

٢ - وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنّ النبـي ﷺ قال:

«يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا».

٣ - وروى البخاريّ عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: بَالَ أعرابِـيٌّ في المسجد فقامَ الناسُ إِلَيْهِ لِيقَعُوا فيه، فقال النبـيُّ ﷺ:

«دَعُوهُ وَأَرِيقُوا عَلَىٰ بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوباً مِنْ ماءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ ولم تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ».

السَّجْلُ: الدَّلْوُ الْمُمْتَلِئَة ماءً.

٤ ـ وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ اخْتَارَ أَيْسَرَاهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْماً، فإِنْ كَانَ إِثْماً كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ منه، وما انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إلاَّ أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمُ للَّهِ تَعَالَىٰ».

٥ ـ وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال: أقبلَ رجُلٌ من الأنْصارِ ومَعَهُ ناضِحَانِ له[١]، وقَدْ جَنَحتِ الشمس[٢]، ومُعَاذٌ يُصَلِّي الْمَغْرِبَ، فَدَخَلَ مَعَهُ الصَّلاَةَ، فاسْتَفْتَحَ مُعَاذٌ الْبَقَرَةَ أو النِّسَاءَ، فَلَمَّا رَأىٰ الرَّجُلُ ذَلِكَ صَلَّىٰ ثُمَّ خَرَجَ[٣] فَبَلَغَهُ أنّ مُعَاذاً نَالَ منه.

فذُكِرَ ذَلِكَ للنبـيّ ﷺ فقال:

«أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ، فَلَوْلاَ قَرَأْتَ: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ، والشَّمْسِ وضُحَاهَا، فَصَلَّىٰ وَرَاءَكَ الكَبِيرُ وذُو الْحَاجَةِ والضَّعِيفُ».

فمن هذه الأحاديث نفهم أن قائد الجماعة وإمامهُم وداعيهم إلى دين الله ينبغي له أن لا يحمل عامَّتَهُمْ وأفْرَادهم حَمْلاً على ما يَشُقُّ عليهم، ما دام في أحكام الدّين مُتَّسَعٌ لما فيه يُسْرٌ وسُهُولة.

* * *

(١) الناضح: الدابة يُسْتقَىٰ عليها.

(٢) جنحت الشمس: أي: مالت غاربةً.

(٣) أي: صلّىٰ منفرداً ناوياً مفارقة الإمام كما يظهر والله أعلم.

القاعدة الثانية والأربعون:

«حامل الرسالة الذي يُرَبّي تَلَاميذَهُ والمستجيبين له إِذَا وَجَّهَ اهْتِمَامَهُ الْبَالِغَ للصَّغَائر من أحكام الدّين، وحمَلَهُمْ حملاً شديداً على الالتزام بها، جَعَلَهُمْ من حيْثُ لا يَشْعُرُ يَسْقُطون في ارتكاب كبائر الإثم.

فعَلَيْهِ أن يُوجّه اهتمامه الأقْصَىٰ للالتزام بالفرائض العظمىٰ كالصلاة والزَّكاة والصِّيام والحجّ، واجتناب الكبائر كالقتل والسّرقة والزنا وشرب الخمر والغيبة والنميمة والإضرار بالناس وأكل الرّبا وأكل أموال الناس بالباطل، ثمّ يتدَرَّجُ بهم شيئاً فشيئاً في دَرَجَاتِ الكمال».

الشـرح:

رَوىٰ الإمام أحمد والترمذي والبيهقي والحاكم عن أنس رضي الله عنه، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَابُونَ».

وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ كَتَبَ علَىٰ ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، والنَّفْسُ تَمَنَّىٰ وتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ».

تَمَنَّى: أي: تَتَمَنَّىٰ.

فمن الحكمة أن يضع حامل الرسالة المربّي في حسابه أنَّ كُلَّ إنْسَانَ عُرْضَةٌ للخطأ وارتكاب المعاصي، وأنَّهُ إذا وَجَّهَ عِنَايَتَهُ الْعُظْمَىٰ للإلزام بفعل صغائر الواجبات، والإلزام بترك صغائرِ المحرّمات، مع أنّ كُلَّ إنسان مفطورٌ على السقوط في الْخَطَايَا، فلا بُدَّ أَنْ تزِلَّ قَدَمُهُ فيقَعَ في الكبائر مُتَسَتِّراً بها،

ومُكْتَفِياً بما يَرَىٰ النَّاسُ منه من التزامٍ بفعل الواجباتِ الصغرى، واجْتِنَابِ المحرمات الصغرى.

لكِنَّ الأفضل عند الله والأحبَّ إليه جلَّ وعلا، أن يلْتَزِمَ الْعَبْدُ بأداء الفرائض العظمىٰ، وترك الكبائر من المحرّمات، فإذا نَزَعَتْ في داخله نوازع الخطيئة وكان لا بُدَّ فاعلاً فَلْيَكُنْ ذلِكَ بترك الواجبات الصغرى، وارتكاب المحرّمات الصغرى الّتي تكَفِّرُها الأعمال الصّالحة من النوافل، كإسباغ الوضوء على المكاره، وكَثْرَةِ الْخُطَا إلى المساجد، وقيامِ اللَّيل، وتِلاَوَةِ القرآنِ، وصِيامِ الأَيَّامِ التي يُسْتَحبّ الصيام فيها.

إنّ لأحكام الشريعة الإسلاميَّة نِسَباً، فمنها الفرائض العظمىٰ وكبائِرُ المحرَّمات، ومنها دون ذلك، ومنها الصُّغرىٰ، كرَدِّ السلام في الواجبات، والنظرةِ إلى عَوْرَةِ المرأة الأجنبيّة في المحرّمات.

وقد قال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

وروى الطَّبراني في الكبير بإسناد صحيح عن ابن عباسٍ أنّ النبـي ﷺ قال:

«مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إلاَّ وَلَهُ ذَنْبٌ، يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَة، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لاَ يُفَارِقُهُ حَتَّىٰ يُفَارِقَ الدُّنْيَا، إنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّناً، تَوَّاباً، نَسِيًّا، إذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ».

وروى مُسْلمٌ والترمذيُّ والإمام أحمد عن أبـي هريرة أن النبـي ﷺ قال:

«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، والْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، ورَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ».

وروى الإمام أحمد وابن حبّان في صحيحه عن أبي بكر، أنَّ النبي ﷺ قال:

«مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْباً فَيَتَوَضَّأُ، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ بِذَلِكَ الذَّنْبِ، إِلاَّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ».

إلى غير هذه النصوص من نُصُوص كثيرة.

* * *

القاعدة الثالثة والأربعون:

«على حامل الرسالة أنْ يُخَاطب الناس على مقادير أفهامهم، وبما يُدْرِكُونَ من مستوياتٍ فكريّة، وبما يُعْجِبُهم من أساليب بيانيّة، وبالوسائل الجذّابةِ المشوّقة.

فلكُلّ فئة من الناس خُطابٌ يَتَلاءَمُ مع نَوْعِ ثقافتهم ومستواها، وأسلوبُ بيانٍ يكون أكثر تأثيراً في نفوسهم».

الشرح:

إنّ الغرض من مخاطبة حامل الرسالة للنّاس توصيلُ المعاني المراد توصيلُها إلى أفكارهم فقلوبهم، والتأثيرُ في نفوسهم بأسلوب الخطاب الملائم لهم، ليتقبّلوا ما يُوجِّهه لهم من رسالة، في الدعوة إلى الله، أو في النّصح والإرشاد، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فعلى حامل الرسالة أن يتعرّف على أحوال من يخاطبُهم فكريّاً وثقافياً ونفسياً، وعلى ما يناسبُ أحوالهم من مستوىً فكريّ، وأساليب خطابٍ بيانيّة، ليختار في مخاطبته لهم ما يناسب أحوالهم، وبذلك يكون بليغاً في

بيانه، إذ البلاغة هي الكلام الفصيح المطابق لمقتضى حال المخاطَبِ به.

ومعلوم أنَّ كبراء القوم وأصحاب الجاه والسلطان لهم خطاب يلائمهم، والأذكياء لهم خطاب يلائمهم، وذوي المستويات العلميّة العالية لهم خطابٌ يلائمهم، وغيرُ المتعلّمين من عامة الناس لهم معاني وأساليب خطاب تلائم أحوالهم، والنساءُ لهنّ خطاب يلائم أحوالهنّ، وهكذا إلى سائر أصناف البشر.

والحكمة تقتضي من الحكيم أن يصطفي لكلّ فئة من الناس ذات صفاتٍ خاصّة، ما يلائم هذه الصفات فيهم من الكلام، حرصاً على أن يكون كلامُهُ لهم أكثر تأثيراً ونفعاً، وأكثر تحقيقاً للأغراض المقصودة من تأديته رسالته بينهم.

* * *

القاعدة الرابعة والأربعون:

«على حامل الرسالة أن يتخذ وسائل لتوصيل دعوته وبياناته للنساء، ولو بأنْ يَعْقِدَ مجالسَ يخُصُّهُنّ بها، على أن تكون محفوفة بما يجعل اللّقاء بهنّ مَصُوناً لا تكون فيه خَلَوَات».

الشرح:

النساء شقائق الرجال، وهنّ مطالباتٌ بالإيمان والعمل الصالح كالرجال، وعليهنّ أن يَعْرِفْنَ أُمُور دِينِهِنّ حتى يلتزمن بها، فلهُنَّ حقٌ على حملة الرسالة الإسلاميّة في أن يُوصِلُوا إليهِنّ مفهومات الدّين وتعليمات أصوله وفروعه كالرجال، ويزدْنَ بأنّ لهنّ حقَّ التعرف على أحكام الدّين الخاصَّة بهِنَّ، كأمور الحيض والنفاس والحمل والرضاع والسّتر والزينة، وحقوق الأزواج عليهن.

وقد كان النساء يستمعن إلى ما يُقَال في مجالس العلم والتذكير في عهد

الرسول ﷺ وعهود الخلفاء الراشدين والتابعين لهم بإحسان.

وصحّ أن الرسول ﷺ خصّص للنساء مجالس خاصّةً بهِنَّ ليتعرّفْنَ بها على أحكام الأمور الخاصّة بهن.

روى البخاريّ ومسلم عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: جاءت امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ذَهَبَ الرجالُ بِحَدِيثِكَ، فاجْعَلْ لنا من نَفْسِكَ يَوْماً نأتيكَ فيه تُعَلِّمُنَا ممّا عَلّمك الله، قال: «اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكذَا» فاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ النبيُّ ﷺ، فعَلَّمَهُنَّ ممَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ثم قال:

«مَا مِنْكُنَّ مِن امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ ثَلاَثَةً مِنَ الْوَلَدِ إلاَّ كَانُوا لَهَا حِجَاباً مِنَ النَّارِ».

فقالت امرأة: واثْنَيْن؟ فقال رسول الله ﷺ: «واثْنَيْن».

فعلى حامل الرسالة أن يتأسّىٰ برسولِ الله ﷺ في هذا، فيتخذ وسائل لتوصيل دعوته وبياناته ونُصْحِه وإرشاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر للنساء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

* * *

القاعدة الخامسة والأربعون:

«على حامل الرسالة أن يكون حَسَن الإصغاء والاستماع والإنصات لمن يُوجّه له رسالتَه، إذا أراد أنْ يَتكلَّم، ليعْرِفَ ما لديه من شُبُهَاتٍ، أوْ مُشْكلات، أو عُرُوضِ مزالق، أو غَيْرِهَا، فيُعَالجَها بما يُلائمها عِلَاجاً حكيماً».

الشـرح:

إذا لم يكن حامل الرسالة حَسَنَ الإصغاء والاستماع والإنْصَاتِ لمن يُوجَّهُ له رسالته، فإنّه لا يَستَطِيعُ أنْ يكتشف ما في نفسه من شُبُهات، أو مُشْكلات، أو عُرُوضِ مزَالق، أو غيرها، ليعالجَ كُلَّ حالةٍ بما يُلائمها، ورُبَّما يَتَّجهُ بِحَدِيثِهِ معه اتّجاهاً يكون الطريقُ منه إلى نَفْسِهِ مَسْدُوداً، وتكُونُ الأَبْوَابُ إليها موصودة.

بخلاف ما لو تَرَكَ له فُرْصَةً لِيَشْرَحَ ما في نَفْسِهِ، ويُعَبِّرَ عمّا في داخله، فإنَّهُ يكون بمثابة من يَسْتَخْرِج صَاحِبَ الْحِصْنِ من حِصْنه بما يُغْرِيه بالخروج، وهُوَ لاَ يَخْرُجُ إلاَّ إذا فتح باباً أَوْ أكثر من أبواب حِصْنِه باخْتِياره، فإذَا خَرَجَ تَلَقَّاه قاصِدُهُ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَا يُهِمّهُ أن يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ.

إنَّ نَفْسَ الإنسان الدّاخليّة تكونُ في العادة داخِلَ حصنها الخاصِّ بِهَا، ولا يستطيعُ قاصِدُ مُحَادَثَتِهَا من أَعْمَاقِهَا الدُّخُولَ إليها، إلاَّ إذا فَتَحَتْ لَهُ باباً أو أكثر من أبْوَابِ حِصْنها.

ومعلوم أنّ الإنسانَ لا يَتَكَلَّمُ مع غيره ممَّنْ هُمْ خارج حِصْنِه مَا لَمْ تَخْرُجْ نَفْسُه أو بَعْضُهَا مِنْ بابٍ أوْ نَافِذَةٍ من الْحِصْنِ، وعندئذٍ يكُونُ بالإمكان مُلامَسَةُ النَّفْسِ، ومَعْرِفَةُ بَعْضِ ما لَدَيْهَا، ومُحَاوَرتُهَا من المنفذ الذي فَتَحَتْهُ، لِمَنْ هو خارج حِصْنِها.

وعلى حامل الرسالة أن يتأسَّىٰ بالنبـي ﷺ، إذْ كان صلواتُ الله عليه حَسَنَ الاستماع والإصغاء والإنصاتِ لِمَنْ يُحَدِّثُهُ، حتَّىٰ يَكْتَشِفَ ما فِي نفسه، ويُعَالجَهُ بِما يُلائمه.

ومن الأمثلة النبويّة استماع الرسول ﷺ لعُتْبَةَ بن ربيعة، حين أرسلَتْهُ قُرَيْشٌ لمفاوضته، رغبةً مِنْهَا في أن يَكُفَّ عَنْ دَعْوَته.

جاء في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق، أنّ عُتْبَةَ بْنَ رَبيعةَ وكان سَيّداً في قومه، قالَ يَوْماً وَهُوَ جَالِسٌ في نادي قُرَيْشٍ، ورَسُولُ الله ﷺ جالِسٌ في الْمَسْجِدِ وحْدَهُ: يا مَعْشَر قُرَيشٍ، أَلاَ أَقُومُ إلى مُحَمَّدٍ، فَأُكلِّمَهُ، وأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُوراً، لعلَّه يقْبَلُ بَعْضَهَا، فَنُعْطِيَهُ أَيَّهَا شَاءَ، ويَكُفَّ عَنَّا؟

فقالُوا: بلَىٰ يَا أبا الْوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقَامَ إليه عُتْبَةُ، حتَّىٰ جَلَسَ إلى رسول الله ﷺ فَقَالَ:

«يا ابْنَ أخِي، إنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ الشَّرَفِ في العشيرة، والْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَد أَتَيْتَ قَوْمَك بأمْرٍ عَظيم، فرّقْتَ به جَمَاعَتَهُمْ، وسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلاَمَهُمْ، وعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَىٰ مِن آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أموراً تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ بَعْضَها.

فقال له رسولُ الله ﷺ: «قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ».

قال عُتْبَةُ: يا ابْنَ أخِي، إنْ كُنْتَ إنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هذَا الأمْرِ مَالاً جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا، حتَّىٰ تكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ به شَرَفاً سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّىٰ لا نَقْطَعَ أمراً دُونَكَ، وإنْ كُنْتَ تُريدُ بِهِ مُلْكاً ملَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يأتِيكَ رَئِيًّا[1] تَرَاهُ، لاَ تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ، وبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حتَّىٰ نُبْرِئَكَ مِنْهُ، فإنَّهُ رُبَّما غَلَبَ التَّابِعُ علىٰ الرَّجُل، حتىٰ يُداوَىٰ منه.

حتَّىٰ إذا فَرَغَ ورسولُ الله يَسْتَمِعُ إليه مُصْغِياً منْصِتاً، قال له: «أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيد؟».

قال عُتْبَةُ: نعم.

قال رسول الله ﷺ: «فاسْمَعْ مِنِّي».

قال عتبة: أفعل.

فتلىٰ الرسولُ ﷺ من سورة فُصِّلَتْ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ

(١) الرَّئِيّ: الجِنِّيُّ يَعْرِض للإنسان، ويُطْلعه على ما يَزْعُمُ من أمور الغيب.

مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾.

ومضَى رسولُ الله ﷺ يَتْلُو السُّورَة على عتبةَ بنِ ربيعة، وهو يَسْتَمع ويُنْصِتُ، وقد ألْقَىٰ يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ معتمداً عليهما، حتَّىٰ انتهىٰ رسولُ الله ﷺ إلىٰ السَّجْدَةِ منها، عِنْدَ قولِ الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾.

فَسَجَد الرسولُ ﷺ، ثم قال لعُتْبَةَ: قد سَمِعْتَ يا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ.

فَقَامَ عُتْبَةُ بْنُ رَبيعة إلى أصحابه، فقال بعضُهُمْ لبَعْضٍ: نَحْلِفُ بالله لَقَدْ جَاءَكُمْ أبو الوليد بغير الْوَجْهِ الّذِي ذهب به.

فلمَّا جلَسَ إلَيْهِم قالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الوليد؟.

قَال: ورَائي أنّي قد سَمِعْتُ قولاً واللَّهِ ما سَمِعْتُ مِثْلَهُ قطُّ، واللَّهِ ما هُو بالشِّعْر، ولا بالسِّحْرِ، ولا بالْكَهَانَة، يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي واجْعَلُوها بـي، وخَلُّوا بَيْنَ هَـٰذا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيه، فاعْتَزِلُوهُ، فواللَّهِ ليَكُونَنَّ لقَوْلِهِ الّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عظِيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُم، وإِنْ يَظْهَرْ عَلَىٰ الْعَرَبِ، فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ.

قالوا: سَحَرَكَ واللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بلسانه.

فقال لهم: هذا رَأْيِـي فيه، فاصْنَعُوا ما بَدا لَكُمْ.

* * *

القـاعدة السادسة والأربعون:

«على حامل الرسالة أَنْ لاَ يتجسَّسَ علىٰ المسلمين متتبّعاً عوراتهم في بيوتهم ومنازلهم، وأنْ لاَ يُواجه بمقالة التّلْويم إلاَّ مَنْ كان مجاهراً بمعاصيه، أمّا المتستّر بمعاصيه فبحسْبِهِ أن يقولَ في شأنِهِ قولاً عامًّا: ما بالُ أقوامٍ

يفْعَلُونَ كذا وكذا، دون أن يُعَيِّنَ المقصُود لا بالاسم، ولا بالوصف المميّز، أو أن ينصحه بينه وبينه سرًّا، وإلاّ كان فاضحاً له لا ناصحاً، وقاصداً للتشهير به لا إصلاحه».

الشرح:

من الوصايا النبويّة العظمىٰ تَحْذِيرُ الرسول ﷺ المسلمين المشدَّدُ من تَتَبُّع عوراتِ الناس الّتي يَسْتَتِرونَ بها ولا يجاهرون بارتكابها.

وقد خَاطبَ الرسولُ ﷺ مُتَتَبّعي عوراتِ الناس بأنَّهم آمَنُوا بألْسِنَتِهم ولَمْ يَدْخُلِ الإيمانُ قُلوبَهُمْ.

وحملةُ رسالةِ النُّصْحِ والإرشادِ والأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر أَوْلَىٰ المسلمين باجتناب هذا الذي حذّر منْهُ الرسول ﷺ.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن أَبي بَرْزَةَ الأسْلَمِيّ، أنّ رسولَ الله ﷺ قال:

«يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ ولم يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فإنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِه».

وعند الترمذي نظيره عن ابن عمر[1].

ولا يستثني من هذه القاعدة إلاّ الرُّعاةُ في حالةِ كَوْنِ المعاصي المستورة من بعض رعيَّتِهِمْ تُسَبِّب خطراً على المجتمع، أو ضرراً للأمَّةِ الإسلامية، كالخونةِ مع الأعداء.

* * *

(١) انظر صحيح الجامع الصغير، الحديث رقم ٧٩٨٤ والحديث ٧٩٨٥.

القاعدة السابعة والأربعون:

«ينبغي لحامل الرسالةِ أنْ يُنزِّلَ النَّاسَ مَنَازِلِهُمْ، تأليفاً لقلوبهمْ، ومنْهُ إعطاءُ ذِي المكانةِ والْوَجَاهَةِ في قومه ما تحتاجه نفسه من تمْجِيدٍ وتقدير».

ذوو المكانات الاجتماعيّة يتأصَّلُ في نفوسهم حُبُّ التمجيد والتعظيم بَيْنَ الناس، ويَنْمُو في دَاخِلهم حبُّ التقدير الموجودِ لدىٰ معظم النفوس الإنسانية بِنِسبٍ متفاضلة.

وينبغي لتأليف قلُوب هذا الصنف من الناس للدخولِ في الإسلام، أو للتمكُّن فيه إعطاؤُهُمْ شيئاً من هذا الّذي يُحِبُّونه من تقدير اجتماعيّ، رجَاءَ إزَالةِ العقبةِ النفسيّة الّتي تَمْنَعُهُمْ من اتّباع الحقّ، وتُحَبِّبُهُمْ بالاستجابة للدَّعْوةِ إلَىٰ الإسلام، أو للتمكُّن فيه، بعد إسلامهم ونُفُوسُهُمْ نَزَّاعَةٌ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ، أو كَبَحُوا جماحَ نفوسهم واستجابوا لدَعْوَةِ الحقّ، رَغْبَةً فيه، وطلباً لثواب اللَّهِ والآخرَة.

وقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب في المواضع الملائمة لاستخدامه.

● ففي فتح مكة، حين كان الرسولُ ﷺ وجيش المسلمين معَهُ في «مَرّ الظهران»(١) وقَدِمَ العبَّاسُ عَمُّ النبيّ ﷺ بأبي سفيان إلَيْهِ، وبَعْدَ مُحَادَثَةٍ بينهما، وحَثِّ العبَّاسِ له على أن يُسْلِمَ أعْلَنَ إسْلامه، عِنْدَئِذٍ قال العبّاسُ للنبيِّ ﷺ: يَا رسُولَ الله، إنَّ أبا سُفْيَانَ يُحِبُّ هذا الفخْرَ، فاجْعَلْ له شيئاً.

قال الرسول ﷺ: نعم، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، ومن أغْلَقَ بابَهُ فهو آمِنٌ، ومن دخَلَ المسجد فهو آمِنٌ.

فأعْجَبَ أبَا سفيَانَ أَنْ يُعْلَنَ بيْنَ أهْلِ مكَّةَ أنَّ مَنْ دَخَلَ دارَهُ فَهُو آمِنٌ.

● وروىٰ البخاريُّ عَنْ عَمْرو بْنِ تَغْلِبَ رَضِي الله عنه، أنَّ

---

(١) يعرف الآن بوادي فاطمة.

رسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِمَالٍ أَوْ سَبْيٍ فَقَسَّمَهُ، فَأَعْطَىٰ رِجَالاً وَتَرَكَ رِجَالاً، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللَّهَ ثُمَّ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:

«أَمَّا بَعْدُ: فَوَاللَّهِ إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ، والَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنِّي إِنَّمَا أُعْطِي أَقْوَاماً لِمَا أَرَىٰ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجزَعِ والْهَلَعِ، وَأُكِلُ أَقْوَاماً إِلَىٰ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَىٰ وَالْخَيْرِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ».

قال عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ: فَوَاللَّهِ ما أُحِبُّ أَنَّ لِي بكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ.

لقد كان ثَنَاءُ الرَّسُولِ ﷺ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا لَوْ كَانَ آثَرَهُ بالْعَطاء دون غَيْرِه، وقدْ عالَجَ الرسولُ نَفْسَهُ بِمَا يلائمها تماماً.

● وجاء عند ابْن كثير في «البداية والنهاية»[1] أَنّ «وَائِلَ بْنَ حُجْرٍ أَحَدَ أَقْيَالِ «حَضْرَمَوْت» قَدِمَ علىٰ رسول الله ﷺ مُسْلماً وكانَ قد بَشَّر به أصحابه قَبْلَ قُدُومِه، وقالَ: يأْتِيكُمْ بَقِيَّةُ أَبْنَاءِ الْمُلُوك، فلَمَّا دخَلَ عَلَيْهِ رحَّبَ بِه، وأَدْنَاهُ مِنْ نَفْسِه، وقَرَّبَ مَجْلِسَهُ، وَبَسَطَ لَهُ رِدَاءَهُ، وقال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي وَائِلٍ وَوَلَدِهِ وَوَلَدِ وَلَدِهِ» واستعملَهُ عَلَىٰ الأقْيَالِ مِن حضرموت»[2].

وروى مسلم في مقدمة صحيحِهِ تعليقاً بإسنادٍ حسن عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أَمَرَنَا رسُولُ الله ﷺ أَنْ نُنَزِّلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ».

* * *

القـاعدة الثامنة والأربعون:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يكون خبيراً بمجتَمَعِهِ الّذي يعيش فيه، متتَبّعاً

(١) انظر الجزء الرابع ص ٧١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الاطلاعَ على أحداثه، حتَّىٰ يُحْسِن تَوْجِيهَهُ، ويُحْسِنَ مُعَالَجَةَ كلِّ حَدَثٍ بما يُلاَئِمُهُ».

الشـرح:

كلُّ من يطالع أحداثَ السِّيرة النبويّة بوعْيٍ وتَدَبُّرٍ يُدْرِكُ أنّ رسُولَ الله ﷺ قد كان عَظِيمَ الخبرةِ بمجتَمَعِهِ الخاص، وبمجتمعاتِ قَبَائِل الْعَربِ على اختلافها في الصفاتِ والخصائصِ والعادات.

وكانَ صلواتُ الله عليه شديدَ الْيَقَظة والاطلاع على كلّ ما يجري من أحداثٍ، في بيئته، وفيما حولها.

وكان يُعَالج المشكلاتِ بأيْسَرِ الْحُلُولِ، وأرضاها لله عزّ وجلّ، وأكْثَرِهَا بُعْداً عن النزاعِ والخلاف، ويُعَالِجُ كلّ حدَثٍ بما يلائمه من رُشْدٍ، مع غاية الحكمة في المعالجة.

وكانَ صلواتُ الله عليه يتَّخِذ كُلّ وَسيلةٍ تُتاحُ له لتأليف القلوب، وتوحيد الصَّفِّ، وشدِّ الروابط المتينَةِ بين أفراد المسلمين، وإطفاء نار الفتنة، ووأْدِهَا في مَكَانها، ولو كان ذَلِكَ مخالفاً لما تَهْوَىٰ نفسُه.

وكان صلواتُ الله عليه يتجاهل كرامَةَ نفسه من أجْلِ تأْلِيفِ القلوب على الإسلام، ورَأْبِ الصَّدْعِ، ومَنْعِ وحْدَة الجماعة الْمُسْلِمة من أن يَحْدُث بين صفوفها انشقاقٌ أو انقسامٌ أو ثُغَراتٌ ينفذ منها أعداء الإسلام والمسلمين، أو تنافُرٌ أو تناحُرٌ بين أفرادهم أوْ فئاتهم.

فعلى حامل الرسالة أن يتأسَّىٰ بالرَّسول ﷺ في كلّ ذلك.

* * *

القـاعدة التاسعة والأربعون:

«على حامل الرسالة أنْ يكُونَ شَدِيدَ الْحَذَرِ من الانحياز إلى فئةٍ دُونَ

اخْرَىٰ، لأَنَّهُ يَجِبُ أن يكون للجميع مُعَلِّماً وناصحاً ومُرْشِداً، وآمراً بالمعروفِ ونَاهِياً عن المنكر، وناصراً للحقّ حيْثُ كان، وَحاكِماً على الباطل بأنّه باطِلٌ حيْثُ كان».

الشـرح:

لقد كان رسولُ الله ﷺ للمسلمين جميعاً، ولم يكن لفئةٍ دون أخرى، ولم يَكُنْ يَنْحَازُ إلى فريقٍ منهم دون فريق، بل كان يضَعُ كُلَّ إنْسَانٍ في الموقع الملائم لخصائصه وصفاته وما امتاز به من أفضليَّة.

فالسابق مثلاً في الإسلام والجهادِ والهجرةِ لهُ تفضيلٌ بسبب مالَهُ مِنْ ميزَةِ السَّبْق في ذلك.

والمتفوِّقُ في العلم والحكمة يمْنَحُهُ العملَ الملائم لتفوُّقِهِ هذا.

والمؤهّل للقيادة الإداريّة أو الحربيّة يضَعُه في الموضع الذي يلائم أهليّتَه.

وذَوُو الرأي الحصيفِ والتجربات ذواتِ الخبرات النافعاتِ يستشيرهم فيما هم مؤهَّلُون لإبْدَاءِ الرأي فيه.

وذوو الفضل بالتقوى والبرِّ والإِحْسَان بمنحهم تكريماً لتقواهم وبرّهم وإحسانهم.

والجميع أمام أحكام الدّين وحُدُودِهِ سواءٌ، فلو أنّ فاطمة بنْتَ مُحمَّدٍ سَرَقت وثبتت عليها السّرقة، لقَطَعَ محمد رسول الله ﷺ يَدها.

ولم يكن يَزِيدُ في عطائه من الأموال العامة ذا قُربَىٰ لقرابَتِهِ أو ذا رحم لرحمه.

ولم يكن ينحازُ لنصرةِ أحَدٍ بغَيْرِ حقّ، مهما كان ذا مكانةٍ اجتماعية عالية في قومه، أوْ ذا قَرابة، أوْ رَحِم، أو مَوَدَّةٍ خاصة.

فعلى حاملِ الرّسالة أنْ يتأَسَّىٰ في علاقاته الاجتماعيّة بما كان عليه

رسولُ الله ﷺ، وعلى حامل الرسالة أَنْ يكون مع الجميع ناظراً إلى خصائصهم وصفاتهم ومؤهّلاتِهم، لا إلى انتماءاتهم أو قراباتهم أو عواطفه الخاصة نَحْوَ كلٍّ منهم حبًّا أوْ كَراهية.

* * *

القـاعدة الخمسـون:

«يَحْسُنُ بحاملِ الرسالة أن يكون جواداً سخيًّا، فالجودُ والسَّخَاءُ من أعظم الصّفاتِ الّتي تُؤَلِّفُ القلوبَ، وتَمْتَلِكُ المشاعر النبيلة وتَعْقِدُ المودّات».

الـشـرح:

كان رسول الله ﷺ أجْوَدِ النَّاسِ، وأكثَرَهُمْ سخاءً وعطاءً من نفسه أو ماله، وكانَ يَتَأَلَّفُ بجُودِهِ قُلُوبَ الناس على الإسلام.

● روى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن ابْنِ عبَّاسٍ قال: كَانَ رسُولُ الله ﷺ أَجْودَ النَّاسِ بِالخير، وكانَ أجْوَدَ ما يكون في رمضان، وكانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ النبـيُّ ﷺ الْقُرآنَ، فإذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ أجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ.

● وروى مسلمٌ عن أنَسٍ، أنَّ رَجُلاً سألَ النبـيَّ ﷺ غَنَماً بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فأعْطَاهُ إيَّاهُ، فأتَىٰ قَوْمَهُ فقَالَ: أيْ قوم، أسْلِمُوا، فواللّهِ إنَّ مُحَمَّداً ليُعْطِي عَطَاءً ما يَخَافُ الفقر.

● وروى البخـاريُّ عَـنْ جُبَيْـرِ بْـنِ مُطْعِـم: بينمـا هـو يَسيـرُ مَـعَ رسُولِ الله ﷺ مَقْفَلَهُ مِنْ حُنَيْن، فَعَلِقَتِ الأَعْرَابُ يسألونَهُ، حتّىٰ اضطرُّوه إلى سَمُرَةٍ فَخَطَفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ النبـيُّ ﷺ فقال:

«أَعْطُونِي رِدَائِي، لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَـٰذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمٌ لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلاَ كَذُوباً وَلاَ جَبَاناً».

سَمُرَة: أي: شجرة من شَجَرِ الطَّلْح.

العضاه: الشجر الذي له شوك.

فيَحْسُن بحامل الرسالة أنْ يَتأسَّىٰ بالرَّسول ﷺ في جوده وسَخائه تَأْلِيفاً للقلُوبِ علىٰ الالتزام بالإسلام، أو قبولِ الدخولِ فيه.

القاعدة الحادية والخمسون: «عَلَىٰ حامل الرسالة الدّاعي إلى الله أَنْ يُقَدِّمَ في أكْثَرِأَحْوالِهِ الْبِشَارَةَ عَلَىٰ الإنْذار، وأَنْ يَضْرِبَ علىٰ أوتارِ الطَّمَع بثواب الله الجزيل، قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ عَلَىٰ أَوْتار الخوف مِنْ عذاب اللهِ في نفوسهم، حتَّىٰ إذا يَئِسَ من استجابة المدعوِّين وظهر له عنادُهم وكُفْرُهُم، رَكَّزَ على توجيه الإنْذارات والتحذيرات لهم من عذاب الله ونقمته في العاجلة والآجلة، على مقدار ما يَرَىٰ من عنادهم وإصرارهم على الكُفْر.

ومهما وجَدَ لديهم ولو قليلاً من لِينِ الجانب نحو قبول الحقّ، فتَحَ لهُمْ أبوابَ الطَّمَع بغفران الله وعَفْوِه، وقَدَّمَ لهم الْبُشْرَيَاتِ المرتبطَةَ بإيمانهم واتباعهم الحقّ».

الشرح:

من استقراء وسَبْر معاني النُّصُوص القرآنيّة الّتي جاء فيها استعمال مادّتي التبشير والإنْذارِ تبيَّنَ لي ما يلي:

الأول: جاء في القرآن المجيد «ثلاثة عشر نصّاً» قُدِّمَ فيها التبشير على الإنْذار، مثل: «بشيراً ونذيراً ـ مُبَشّراً ونذيراً ـ مُبَشِّرين ومُنْذِرين».

الثاني: جاء في نصّيْنِ فقَطْ تقديم الإنْذَارِ على البشارة، إذْ رُوعِيَ فيهما حَال أَكْثَر القوْمِ المخاطَبِينَ الَّذِين يَغْلِبُ فيهم الكَفَرَةُ.

الثالث: جاء في (٣١ نصاً) ذكرُ الإنْذَار دُونَ البشارة لأنَّ المتحدَّثَ عَنْهُمْ كَفَرَة ماتوا على الكُفْر، أو عانَدُوا وأصَرُّوا عَلَىٰ الكُفْرِ، وصَارَ إيمانُهُمْ ميئوساً منه، فلا يُلائِمُهُمْ من الرسالة إلاّ الإنْذَارُ.

من هذا الاستقراء مَع سَبْرِ المعاني يتبيَّنُ لنا أنَّ من الحكْمَةِ في الدعوة إلىٰ الله والنُّصْحِ والإرشاد والأمرِ بالمعروف والنهي عن المُنْكَرِ الْعَمَلُ بهذه القاعدة.

* * *

الفصل الثاني

آفات حملة الرسالة

وفيه مقدمةٌ وبيانُ إحدى وعشرين آفة خطيرة:

الآفة الأولى: استخدام حمل الرسالة لمطالب الحياة الدنيا.

الآفة الثانية: الاهتمام بمراءات الناس للدعاية للشخص أو الحزب والجماعة.

الآفة الثالثة: إلهاء الجماهير بالظواهر والشكليّاتِ ذات البهرج.

الآفة الرابعة: الارتقاء على سُلّم تحطيم الآخرين من العاملين في حقول العمل الإسلامي.

الآفة الخامسة: الاهتمام بالتجميع الغوغائي للجماهير، دون العناية بالتربية الصحيحة.

الآفة السادسة: التدرُّب على ألوان المكر السياسيّ العالمي المخالف للإسلام.

الآفة السابعة: تأسيس ما يحمل ألقاباً فخمة تجمَعُ المتهافتين من غير المؤهلين.

الآفة الثامنة: تولية الجهلة المتكَسِّبين الوظائف الدّينيّة.

الآفة التاسعة: المداهنة ومتابعة حامل الرسالة لأهواء ذوي السلطان أو غيرهم.

الآفة العاشرة: ابتداع بِدَعٍ في الدّين ما أنزل الله بها من سلطان.

الآفة الحادية عشرة: العناية والاهتمام بالتزام صغائر الظواهر.

الآفة الثانية عشرة: الاندفاع إلى الوقوع في تورُّطاتٍ غير رشيدة لا يأذن بها الإسلام.

الآفة الثالثة عشرة: الغلوّ في الدين بتحريم ما لا تقوىٰ الأدلّة على تحريمه.

الآفة الرابعة عشرة: التهاون في الدين بتتبع الأقوال الضعيفة دون اجتهاد صحيح.

الآفة الخامسة عشرة: اعتبار الارتحال لأداء الرسالة بمثابة رحلاتٍ سياحيّة ونزهات رفاهية.

الآفة السادسة عشرة: عدم اتخاذ الخطوات المتدرّجة في الدعوة والإصلاح.

الآفة السابعة عشرة: الولاء للأشخاص أو الجماعات والطاعة العمياء ولو بمخالفة أحكام الدين.

الآفة الثامنة عشرة: استهواءُ المكان العالي لمشاعر حُبِّ العلوّ في الأرض.

الآفة التاسعة عشرة: استخدام أسلوب الفظاظة والغلاظة والسّباب والشتائم.

الآفة العشرون: ضعْفُ الإرادة، وقلّةُ الصَّبْر على المكاره وأنواع الأذىٰ.

الآفة الحادية والعشرون: اتّباع الهوىٰ الذي يجرُّ إلى السكوت عن الآثام والجرائم.

مقدمة

لكلّ أمّة من الناس يجمعهم جامع فكريٌّ أو نفسيٌّ أو عمليّ آفاتٌ وأمراض قد يصابون بها، أو يصابُ بها أفرادٌ منهم، فيشوهون الصورةَ العامّةَ لهذه الأمة.

وحَمَلَةُ رسالة الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أُمّةٌ مُتَمِيِّزَةٌ من الناس، يجْمَعُهُمْ جامع الهدف الذي ينشدونه، وجامعُ القيامِ بأداء وظائفِ الرسالة الإسلاميّة الّتي حملوا أَعْبَاءَها، مع الوحدة الدّينيّةِ الّتي نظمت أفرادهم بنظامٍ واحد، وهم أيضاً أمّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ بمقتضَىٰ قول الله عزّ وجلّ للذين آمنوا في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

وقد عرفنا في الباب الثاني من هذا الكتاب الصِّفَاتِ الّتي يجب أنْ يتحلَّىٰ بها حامل الرسالة الإسلاميّة، وعرفنا في الفصل الأول من هذا الباب الثالث القواعد العامّة الّتي يُطالَبُ حامل الرسالة بأن يلتَزِمَ بمضامينها.

ولمّا كانت الآفات الْمَرَضيّةُ تأتي مضادّةً لعناصر الصحّة والسَّلاَمةِ، فإنّ بِاستطاعتنا أن نَسْتَخْرِجَ مِنْ كلٍّ وصف يجب أن يتحلّىٰ به حامل الرسالة، ومن

كلّ قاعدة يجب عليه أو ينبغي له أنْ يلتزم بمضمونها مضادًّا يعتبر من الآفات المرضيّة، الّتي قد يُصَابُ بها حامل الرسالة، وعليه أن يَتَخَلَّص منها، أو من العيوب والنواقص الّتي يَنْبَغِي أن يكُونَ بريئاً منها حتّىٰ يكونَ مؤهلاً للانخراط في سِلْكِ حملَةِ الرسالة، واكتساب شَرَفِ الانتماء لهذه الأمّة المتميِّزَة من عموم جَماعَةِ المسلمين.

والآفاتُ الْمَرَضِيَّةُ الّتي قد يُصَاب بها حامِلُ الرسالة الإسلاميّة المجيدة تجعلُه عُنْصُراً ضارّاً أو مُفْسِداً في مجتمعه وقُدْوةً سَيئةً، بدَلَ أنْ يكون عُنْصُراً نَافِعاً، وإمَاماً مُصْلِحاً، وداعِياً هَادِياً رَشِيداً، وقُدْوَةً حسَنَةً.

فعلىٰ الدَّارِس أن يعكس مِرْآة كلِّ وصفٍ سبَقَ بَيَانُه، وكلِّ قاعدة سبَقَ شرحها، ليَرَىٰ الآفة الْمَرَضِيَّةَ أو النَّقِيصَةَ التي هي عَكْسُ صورة الوصف، أو عَكْسُ مَضْمُونِ القاعدة، ونَخْتَصِرُ بهذا بيانَ وشَرْحَ الآفات والأمراض والنقائص.

لكنْ تُوجَدُ طائِفَةٌ من الآفات والأمراض المنْتَشِرَةِ البارزة في هذه الأمّة من النَّاس، فَيَجِبُ التنبيه عليها، والتحْذِيرُ منها على وجه الخصوص، ليَعْمَلَ المخلِصُون الصادقون الْغَيُورُون على الإسلام والأُمَّةِ الإسلاميَّة كُلِّها، على معالَجَتِها بمختلف وسائل العلاج، رجاءَ الْبَراءَةِ مِنْهَا، أوِ التخفيفِ منها إلَىٰ أدنَىٰ النِّسَب، ورجاءَ انطلاقِ الْعَمَلِ الإسلاميّ سَلِيماً معافَىٰ من الآفات والأمراض، حتَّىٰ يكتب الله له الامتداد في القارّات، والتوفيقَ والتأييد والنصر المبين.

وفيما يلي بَيَانُ طَائِفَةٍ مُهِمَّةٍ من آفاتِ حَمَلةِ الرسالة:

شرح الآفات الخطيرات

الآفة الأولى

اسْتِخْدَامُ الدَّعْوَة إلى الله والنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحَركَاتِ الجهادِ في سبيل الله، لِلْحُصُولِ على الأموال والمناصب والجاه العريض، أو الشهواتِ واللّذّات، أو نحوِها من مطالبِ الْحَيَاةِ الدنيا كالشُّهْرة والثناء.

وهذا داءٌ خطيرٌ قد يَقَعُ فيه الكثيرون من الأفراد، ومن المنظماتِ الإسْلاميّة، وبسَبَبِه تَفْسُدُ أعمالُهُم الكثيرة، ذاتُ الدَّعَاوىٰ الجهاديّة، ثم تكونُ أَعْمَالُهُمْ ضائِعةً في الهواء، وتكونُ ثمراتُها كرَمَادٍ اشتدَّت به الريحُ في يَوْمٍ عاصفٍ، إذْ لَمْ تكُنْ خالصةً لوجه الله عزّ وجلّ، بَلْ كانَتْ بمثَابةِ أقْنِعَةٍ وحُجُبٍ تَسْتُرُ الأَهْدافَ الْحَقِيقِيّة الْكَامنة في النُّفوس.

وهذا الداءُ الدويُّ الذي قد يُسَبِّبُه في الجماعة مُنْدَسُّون مَخْفِيُّون ذَوُو قِيادَةٍ سرّيّة وأَهْدافٍ سَوْدَاءَ، فيَقُودُونَ الجماعة الّتي تضُمُّ تحت لوائها جمهوراً عظيماً صَادِقاً مُخْلِصاً، ويَسْتَهْوُونها بالمنافع والْمَصَالح، ويَسْتَدْرِجُونها بالشعارات والعواطف والانْفِعَالات، ليُبَدِّدُوا جِهَادَ أفْرَادِها العظيم، ويَجْعَلُوهُ هَباءً مَنْثوراً، مع الدفع بهم إلى مَذَابِحِهِمْ، بأَيْدِي أعداء الإسلام، ويَنْطَلِقُ الضحايا بقوّة، وهم يَحْسَبُونَ أنَّهم مُجاهِدُون حقًّا، ويُحْسِنُون صنعاً، وسَيَنْتَصِرُ الإسلام بجهادهم.

ويتهافت بعضُ أَصْحابِ الضّمائر الْمَرِيضة، على حَمْلِ مِشْعَلِ الدَّعْوَة إلى الله والنُّصح والإرشادِ والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهادِ في سبيل الله، لأنّهم يَرَونَ في حَمْلِهم لهذا الْمِشْعَلِ ما يَطْمَعُونَ به من مَنَافعَ دُنْيويَّةٍ، مع جَاهٍ عَرِيضٍ، وتقديرٍ وتَمْجيدٍ مِنْ عَامَّةِ المسلمين لهم.

ولدَىٰ الامتحانِ الحقيقيِّ تَنْكَشِفُ سَرَائِرُهُمْ، ويفتضح أمرهم، وذَلِكَ حينما تكونُ لهم مصالحُ خاصَّةٌ لأنفسهم، أو لذويهم من الأقربين، أو لأصحابِهم وأنصارِهم، أو لِلْحِزْبِ الذي يَنْتَمُونَ إليه، أَوْ لِلْجَمَاعَةِ الّتي هُمْ أعضاءُ فيها، فَهُمْ عندئذٍ ينْصُرُونَ الباطلَ على الحقّ، والظُّلْمَ على الْعَدْلِ، والشرَّ علَىٰ الخير.

وقد تراهُمْ يَرْفَعُونَ عَقِيرَتَهُمْ بصِياحٍ مُدَوٍّ انتصاراً للحقّ، إذا رأَوْا في هذه المناصَرَة منفعةً لهم من مَغَانِمَ دنيويّة، أَوْ مَجْدٍ وذِكْرٍ حَسَنٍ، وفي موقفٍ آخَرَ مُمَاثِلٍ لا يَنْطِقُون بكلمةٍ لنُصْرَةِ الْحَقِّ، بَلْ رُبَّما دَاهَنُوا أصْحَابَ الْبَاطِلِ وناصَرُوهم، وكانوا شَيَاطِينَ خُرْساً، أَوْ نَاطِقين، خَوْفاً على منافعَ تفوتُهم، أو طمعاً في منافعَ يُصِيبُونَها، أو لاَ يَجِدُونَ في مُنَاصَرةِ الحقّ مغنماً، أو يكونُ لَهُمْ في نُصْرَةِ الْبَاطِلِ هوىً.

فهٰؤلاَءِ لَيْسُوا بحمَلَةِ رِسَالةٍ صادقين، وإنّما هم مُحْتَالونَ مُخَادِعُون، يَصْطَادُونَ مَنَافِعَهُم الدنيويّة تحْتَ قِناعِ حَمْلِهم لرسالة الدّين.

* * *

الآفـة الثانـية

الاهتمـام العظيـم بمـراءات النـاس، وتعظيـم الإعـلانـات الإعـلاميّـة الدعائية، بغيةَ الحصولِ على أثْمانِ العملِ من الذين تَخْدَعُهُم هذه الإعلانات الإعلاميّة، فيبْذُلُونَ للمرائين بها الأموال والْمَناصِبَ، ويَكيلُونَ لهم المدْحَ والثناء، ويمْنَحُونَهُمُ التَّعْظيمات والتبجيلات الوافرات، ويُرَوِّجُونَ لهم في وسائل الإعلام، وقد يُعْطُونَهُمُ الجوائز التَّقْديرِيَّةَ والماليَّة.

فبينما يكُونُ الْعَمَلُ الإسلاميّ لا يُسَاوِي في مَسَاحته الحقيقية مقدار أُنْمُلَة، يكونُ الإعلانُ عنه يملأُ عَرْضَ الأُفُق، بُغْيَةَ استثمارِ الْمَصَالح الدنيويّة علىٰ مِقْدَارِ مَسَاحة الإعلان الدعائي المالىء للأفق، لَا عَلَىٰ مقدارِ مَسَاحة العمل الحقيقي.

ومنْ وَسَائِل الْخِداع الدِّعائي تجميعُ أَنْصارِ الشخص أو الحزب على مُحَاضَرةٍ يُلْقيها الشخص، أو بَعْضُ قادَةِ الحزب في حيّ من أحياء البلد.

ثم تُكَرَّرُ هذه المحاضرة نفسها فِي حيٍّ آخر، ويَجْتَمِعُ عليه فيه الأنصارُ أَنْفُسُهُمْ، ثُمَّ في حيٍّ ثالث ورابع وخامس وهكذا.

وبهذا يَتَوهَّمُ النَّاسُ أَنَّ المنتفعين بالمحاضرة أُلُوفٌ مؤلّفةٌ في أَحْيَاءِ البلد، بينما أَنْصَارُ الشخص أو الحزب هم الّذين يكرّرون أَنْفُسَهُمْ فِي مُخْتَلِف الأحياء، وقد يُشَارِكُهُمْ من الحيِّ الجديد عَدَدٌ قَلِيلٌ.

* * *

الآفـة الثالثـة

إلْهَاءُ الجماهير بالظَّواهِر والشَّكْليّاتِ ذاتِ البهرج البَرّاق، والزُّخْرفِ المثير للدَّهْشَةِ، مع غَضِّ النظر عن البناء الجوهري الحقيقيّ للأفكار والنفوس والقلوب، بالتربية الصحيحة الّتي تَحْتَاجُ دَأَباً وصَبْراً وعملاً هادئاً صامتاً في الخفاء.

ومِنْ إلْهَاءِ الجماهير عَقْدُ المؤتمرات الإعلاميّة، وتأسِيسُ الدوائر الدِّعَائِيَّة، والْجَعْجَعَةُ الكبيرةُ الّتي لا تَنْتُجُ عنها نَتائِجُ نافعةٌ باقية، ولا تكُونُ لَهَا جَدْوَىٰ حقيقيّة، بَلْ تكُونُ لها أَصْوَاتٌ عظيمة تنطلق ضائعةً فِي الْهَواء، وتُبَرِّدُ حرارةَ أصحابِ الغيرة الصادقة على الإسلام والمسلمين.

وقد يَنْتُجُ عن المؤتمرات الإعلاميّة، والدَّوائرِ الدعائية، توْصِياتٌ تُسَجَّلُ على الأوراق، وتُوضَعُ في المصنَّفَاتِ، وتُوجَّه لِمَنْ لا يُريدُ العملَ بشَيْءٍ منها، فَيَرْمِيها في سلّة المهمَلات، ورُبَّما تكون هذه المؤتمرات من توجيهِهِ وصُنْعِه لإلْهَاءِ الجماهير بها.

وربّما تكُونُ المؤتمراتُ بمثابة حَقْلِ اختبارٍ لكَشْفِ أَصْحابِ العمل النافع، والرأي السّديد، والتخْطِيطِ الرشيد، بُغْيَةَ عَزْلِهِمْ عن كلِّ عمَلٍ قياديٍّ، أوْ إقامَةِ العقبات في طَرِيقهم، لئلا يصلوا إلى مَرْكَزٍ قيادِيٍّ تَنْتُجُ عَنْهُم فِيهِ أعمالٌ إسلاميّةٌ صحيحة صادقة، ذاتُ ثمراتٍ نافعاتٍ للإسلام والمسلمين.

ويَنْطَبِقُ على هٰذه المؤتمرات الإعلاميّة، والدوائِرِ الإعلاميّة، الْمَثَلُ العربيُّ القائل: تَسْمَعُ جَعْجَعَةً ولاَ تَرىٰ طِحْناً.

* * *

الآفـة الرابعـة

الارتقاء على سُلَّمِ تَحْطِيمِ الآخَرِين من العامِلِينَ في حقول العمل الإسلامي، والدَّعْوَةِ إلى الله والنُّصْحِ والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويَكُونُ تحطيمُ الآخَرِين منَ العاملين بنشر معايبهم ومثالبهم، أو بتعظيم صَغَائِرِهم، أو بالافتراء عليهم ظُلْماً وعُدْواناً، وبتحقير أعْمَالِهِمُ الإسلاميّة الصّالحة والاستِهَانة بها، وببَخْسِهِمْ أشياءهم، ويكُونُ بالإيقاعِ بينهم وبين

أتْبَاعِهِم وسَائِرِ الناس، لتخذيل الأتباع عنهم، وتَقْطِيع حِبَالِ وَلاَئهم لهم، والْغرَضُ سَرِقَتُهم وضَمُّهم إلى مُنَظَّمَتِهم، بعْدَ إفسادِهم على أَوْليائِهم وشَحْنهم بالْكَرَاهِيَةِ وَالبغض ضدَّهُمْ، ثمّ معاداتِهم ومحاربتهم.

وهذا الدّاء الخبيثُ عِمَادُهُ الكذِبُ والافتراءُ والْبُهْتَانُ، والغيبةُ والنّميمةُ، وإشَاعَةُ مَقَالَةِ السّوءِ ضدَّ ذَوِي المكانات الاجتماعيّة الدّينيّةِ الذين يَسْتَمِعُ الناسُ لنَصَائحهم وإرشاداتهم، وبياناتهم الدَّعَوِيَّة، وإلصاقُ التُّهَمِ بمَنْ لهم في أعْيُنِ الناس فَضْلٌ واحترام.

فإذا تدرَّبَتْ جَمَاعةُ عمَلٍ إسلاميٍّ على هذا الأسلوب الْقَذِر، بُغْيَةَ احتلالِ المناصِبِ والمراتب، وسَرِقة الأنصارِ من أوليائهم، والظفر بثقة الناس بهم، لِيَمْنَحُوهُمْ التعظيم والإجلالَ والإكبار، والمنافع والأموالَ، فإنَّهُمْ بذلك يَرْكبونَ مراكب كَبَائر الإثم، تحت سِتَارِ التزام ظواهر شعائرِ الإسلام.

ويمضي عَقْدٌ من الزمان أو أكثر فينقلب صِغَارُ الجماعة على قادتهم رغبةً في احتلال مراكز القيادة، فيَسْتَعْملونَ الوسائل السابقة نَفْسَها ضدَّ قادتهم، وعندئذٍ تقع الفرقة، ويَضْرِبُ الله قُلُوبَ بعضهم ببعض، لأنهم سلكوا ابْتِداءً مسالك معصية الله عزّ وجلّ، تَحْتَ أقنعة العمل لنَشْرِ الإسلام وإقامة الحكم الإسلاميّ، ابتغاءَ الحصول على مطالِبِ دُنياهم، ويُداسُ المخلصون من أفرادهم ضَحَايَا وهُمْ لاَ يَشْعُرون.

* * *

الآفـة الخامسـة

الاهتمام بالتجميع الغوغائِيّ للجماهير، باستثارة عواطفهم وانفعالاتهم، دون ترسيخِ العقائد، وتأصيلِ المعارف الإسلاميّة، ودُونَ تَزْكِيَةِ النفوس تزكيةً حقيقيَّةً، ودون تَقْوِيم الأعمال والأخلاق وفضائل السُّلوكِ الفرديّ والجماعي.

إنّ تجميع جَماهِيرِ الناس تجميعاً غوغائيًّا، باستثارة العواطف والانفعالات، دُونَ الاهتمام بالبناءِ الحقيقيّ لكلّ فَرْدٍ بناءً إسلاميًّا صَحِيحاً مُتكامِلاً، يُشْبِه تجميع ذرَّات بُرَادَةِ الحديد علَىٰ اللاقط المغناطيسيّ الكهربائي، ففي اللّحظة التي يتوقف فيها المدَدُ المغناطيسي تتساقط بُرادةُ الحديد عن اللاّقطِ، ويَكُونُ باستطاعة أيّ لاقط آخر ملائم لَهَا أنْ يَلْتَقِطَها، ويَنْقُلَها إلى حَقْلِه المعادي للإسلام والمسلمين.

أمّا التربية الإسلاميّة الصحيحة فهي تَهْتَمُّ ببناءِ الفرد بناءً إسْلاميًّا فِكْرِيًّا ونَفْسِيًّا وقَلْبِيًّا وسُلُوكيًّا، وضَمِّهِ في نظامِ جماعة المسلمين، وعِنْدَئِذٍ يَرْتَبِط بهم مِنْ كُلِّ أركانه الداخليّة والخارجيّة، ثمّ لا تَمْلِكُ قُوَّةٌ أُخْرىٰ شيْطَانيّة مَهْمَا كانَتْ حِيَلُها أَنْ تَنْزِعَهُ من ذاتيته، ولا من الجماعةِ المسلمة الّتي أصْبحَ مُتَشَابكاً بها تشابكاً متداخلاً، غَيْرَ قابل للشّقّ طُولاً ولاَ عَرْضاً.

إنَّ التجميع الغوغائيّ العاطفيّ والانفعالي لا يَمْلِكُ وشائج ارتباطٍ متين، فهو غَيْرُ مُؤهَّل للْبَقَاء والدوام، بَلْ قَدْ يُسْرِع إليه الانشقاقُ والتَّمزُّقُ بعْدَ زمن قد لا يكون طويلاً.

* * *

الآفـة السادسـة

التدرُّبُ على أَلْوَانِ المكْرِ السِّياسِي الدكتاتوري أو الديمقراطي ومُجَافاةِ تعليماتِ الإسلام، فكلٌّ مِنْ هٰذَيْن المكْرَيْنِ يقومُ علَىٰ الكذِب والغشِّ والنفاقِ والخِدَاع وقَلْبِ حقائق الأمور، ونقضِ العهود والمواثيق، والتَّزْوِيرِ والسَّطْو بغير حقّ، والْقَتْلِ ظُلْماً وعدواناً، واغتيالِ الآمِنين غَيْرِ المحاربين، للإرهاب، واتِّخَاذِ الأنصار مِنْ المنتفعين والطَّامَعِينَ والمنافِقِينَ وطُلاَّبِ الدّنيا، والتَّعاونِ مَعَ الكفَرَةِ والشياطين، ولَوْ ضِدَّ الْمُنَافِسِينَ من المسلمين، واتّباعِ مذهبِ

«مكيافلّي» الداعي إلى أنَّ الوصولَ إلى الغاية السياسيّة ظفراً بالحكم أو تَثْبِيتاً له، يُبَرِّرُ كلَّ وسيلةٍ مهما كانت حقيرة وسَيّئة، ومنافيةً لفضائل الأخلاق، وساقطةً في رذائلها.

فمذهب «مكيافلّي» في السياسة لا يعترف بالفضائل ولا بالأخلاق ولا بالأديان، ولا بالقوانين، وهو المذهب السائد المعمول به في عالم السياسة.

ومن تدرّب عليه ومارسَهُ صارَتِ الرَّذَائِلُ جُزْءاً من كيانه الخلُقِيّ والسُّلُوكِيّ النفسيّ والظاهر، واستَهْوَتْهُ الشياطين إلى كلّ شرٍّ وضُرٍّ وفساد، ثم يَخْلَعُ عنه بعد حين رداءه الإسْلَامِيَّ، لأنّ الرذائل الخلقيّة والسلوكيّة قَدْ تأَصَّلَتْ فيه، وارْتَبَطَتْ بها مصالِحُهُ ومنافِعُه ولذَّاتُه وشهواته وأهواؤُه الدنيوية، فلا بُدَّ أنْ يَجِدَ مَبْدأً آخر مُلاَئماً لها غير إسْلاميّ، حتَّىٰ يكونَ مُنْسَجِماً مع نفسه فِكْراً واعتقاداً وسلوكاً.

* * *

الآفـة السابعـة

تأسيسُ منظَّماتٍ ودوائرَ ذَواتِ ألقابٍ فخمة، تجمع المتهافتين من غير المؤهَّلِين، وغَيْرِ المؤمنين بالأهداف الإسلاميّة العظيمة المعلَنَة.

فَهِيَ لاَ تَلْبَثُ حَتَّىٰ تَتَحوَّلَ إلى أشباه تكايا تجمع في مكاتبها قابضي رواتب في آخر كلّ شهر، دُونَ أَنْ تكون لهم أعمالٌ تتّصِلُ بالأهداف الإسلاميّة العظيمة الْمُعْلَنَةِ، والّتي تتردّد شِعَارَاتُها كلَّ حين في وسائل الإعلام.

وفي المناسبات العامّة والتجمُّعَات والمؤتمرات يتهافَتُ عليها مَالِئُو كَرَاسِي موائدِ طَعَامٍ رَفِيهٍ، وشَرَابٍ لذيذٍ ثمين.

وتَمْتَلِىءُ كراسي اجتماعاتِ تبادلِ الرأي قبل موائد الطعام أو بَعْدَها،

بالْغَوْغَائِيِّينَ الّذين لا شُغْل لهم إلاّ الدّعاية لبعض الأفراد، والتوقيعُ على مَحَاضِر الجلساتِ إذا لزم الأمر، ورفع الأيدي عنْدَ التصويتِ الانتخابيّ، وهم يُعْطُونَ أصْوَاتهم دائماً للأحزب الّتي يَنْتَمُون إليها، أوْ لِمَنْ يَرْجُون عِنْدَهُ لأنفسهم أو لذَوِيهم منافعَ دنيويّةً أكْثَر، ومصالح مادّيّةً أوفر.

فكم من مُنَظَّمَاتٍ كبيرة تعلّقَتْ بها آمالٌ عظيمة لمجد الإسلام ونُصْرَةِ قضاياه، ونُصْرَةِ المسلمين، ثُمَّ لم تَلْبَثْ أَنْ تحوّلَتْ إلى تكايا يَتَقَوَّتُ فِيها الْعَجَزَةُ، وينْهَبُ ثَرَواتِها الشياطينُ اللُّصُوصُ وأَعْوَانُهُمْ.

* * *

الآفة الثامنة

تولية الجهلَةِ المتكَسِّبين وظائِفَ الفتوىٰ، والْخُطْبَة، والتدريس والإمامة، لتمرير ما يُرِيدُ فُسَّاقُ الحكام دُونَ اعتراض، أو ليكونوا الأصوات الناطقة بالتمجيد لهم وتثبيتِ سُلْطَانهم.

وحينَ يَتَصَدَّرُ الْجَهَلَةُ الصِّغَارُ والكِبَار، ويحتلُّون مراكز العمل الإسلاميّ في المجتمع، دُونَ محاسبةٍ ولا مُراقَبَةٍ لهم من أحدٍ، يَسْتنصرون بأتباع جاهلين أمثالهم، ويُكَوِّنُون دَاخِلَ المجتمع حزباً له قُوَّةٌ وصوتٌ يُدَوِّي، ويَغْتَرُّ بهم عامّة المسلمين، فَيَتَّخِذُونهم عن اقتناع رؤساءَ وأئمّةً في الدّين، وَيُصَابُ هؤلاء الرؤساءُ الجهلَةُ ـ استعلاءً بوظائفهم السلطانيّة، أو مراكِزهم الاجتماعيةِ ـ بعُقْدَةِ الْغُرور والاستكبار عن الأخذ من العلماء المتمكنين الّذين ليس لهم وظائفُ دينيَّةٌ ذواتُ مُرَتّباتٍ من الدولة، ومع عقدة الغرور الّتي يُصَابون بها، والحرصِ على المنافع التي يُصِيبُونها من الدولة، أو من المجتمع الذي وَثِقَ بهم غروراً، فرفعهم إلى مراتب الأئمة الذين يقتدىٰ بهم، يَتَورَّطُونَ، فيُفْتُونَ النَّاسَ بغير علم لجهلهم، فيَضِلُّونَ ويُضِلُّون، وهُنَا تَقَعُ

طامَّةٌ كبرىٰ يَنْجُم عنها تَحْرِيفٌ في الدّين بأَذْهَانِ العامَّة ومفهوماتهم.

إنّ الواحد من هؤلاء الأئمة الجهلة المصنوعين زوراً، قد يَعْتَمِدُ على حديثٍ قَرأَهُ في بعض كتب الحديث، لم يَفْهَمْ معناه فهماً صحيحاً، ولم يَجْمَعْ بيْنَه وبين ما في القرآن والسنّة منْ نصوص حول الموضوع نَفْسِه ليفهمها فهماً تكَامُليّا، فيُصْدِرُ برأيه الناقِصِ حُكْماً يَنْسُبُه إلى الدّين، على خلاف ما عليه أئمةُ فُقَهاءِ المسلمين المجتهدين وعلماؤُهم الكبار، مُدَّعِيًا أَنّه يَعْمَلُ بحَدِيثِ الرَّسُول ﷺ، ثُمَّ يَتَطاول على فقهاء المذاهب الإسلاميّة، فيَشْتُمُهُمْ، ويتّهمهم بالضلال عن الحقّ، وقد يكفّرهم، ويُلْحِقُ بهم في الكُفْر كُلَّ من يُقَلّدُهُمْ ويقولُ برأيهم، ويُضَلِّلُ كلَّ من يَعْمَلُ باجتهاداتهم.

ولو أنّه تَبَصَّر الأمْرَ بفَهْمٍ سَلِيم، وعِلْمٍ بأُصُولِ فهم النصوص، ورَجَعَ إلى مناقشة علماء المسلمين المجتهدين المؤهَّلِينَ للاجتهاد، حول موضوعه نفسه الّذي أَفْتَىٰ فيه برَأْيه الاجتهاديّ الناقص، لرأىٰ أنّه قَدِ ارْتكَبَ خطأً فاحشاً فِي الفهم، ولرأىٰ أَنّه قَدْ أفتى بغير عِلْمٍ، فضَلَّ وأضَلَّ، ولَعَلِمَ أنّه قد تَصَدَّرَ لأمْرٍ ليس هُوَ لَهُ بأهْلٍ.

ولْيَعْلَمْ أَنّ اللّهَ عزّ وجلّ لا يَعْذُرُهُ فيما اجتهد فيه اجتهاداً خاطئاً، لأنّه لم يكن يَمْلِك أهْلِيّةَ الاجتهاد ابتداءً، فليس من حَقِّهِ أن يجتهدَ أصلاً، حتّىٰ تكُونَ لَدَيهِ أهليّةُ الاجتهاد بحيازَةِ وسائله.

إنَّ شَأْن مَنْ يتصَدَّرُ للاجتهاد في الدّين والإفتاء فيه دون أن يكون أهلاً لذلك، كشأْنِ الْمُتَطَبِّبِ الّذي لا علْمَ له بالطبِّ، فيَصِفُ الأدوية للناس على جَهْلٍ، ويُدَاوِي المرضىٰ بغير علْمٍ ولا بصيرة.

إنّه إذا استعمل دواءً تَسَبَّبَ في قَتْلِ من يُعَالِجُهُ من المرضىٰ، كان بحكم الشرع مُجْرِماً قاتلاً، غيْرَ مَعْذُور عنْد الله ولا عند الناس بقَتْلِه للمريض.

على أنّ الْخطَرَ في الفتاوَىٰ الدينيّة بغير عِلْم قد يكون أشدّ من الفتاوى

الطبيّة، فبعْضُ الفتاوىٰ الدينيّة الضالّة قد تُسَبِّبُ الوقوعَ في الكُفْر والخلودَ في النار والعياذُ بالله، وهذا مِنَ الفتنة التي هي أشدُّ من القتل الّذِي تسببه بعض الفتاوى الطبيّة.

* * *

الآفـة التـاسعة

المداهنة ومتابعة حامل الرسالة لأهواء ذوي السلطان والمال والأقارب والأصحاب والأنصار وللولاءات الحزبيّة، والرغبةُ في إرضائهم بالسكوت أوْ بإصدار الفتاوىٰ المخالفة لحكم الله عزّ وجلّ.

ويستخدم حامل الرسالة المتَّبع للهوىٰ ليَّ أَعْنَاقِ النصوص، وتفسيرَها تَفْسِيرات باطلاتٍ لتزيين وتَدْعيمِ الفتاوَىٰ المخالفة لحكم الله عزّ وجلّ، حِينَ يُصْدِرُها.

فمن حملة الرّسَالة الّذين يَتَّبِعُونَ الْهَوَىٰ في فتاواهم، من يُبيح بعض الأعمال الربويّة المحرّمة بلا شكّ، ويُوجِدُ لها تخريجات باطلاتٍ، إرضاءً للحكّام الكفرة، أو الفاسقين، حتَّىٰ يظفر منهم بِمَنْصبٍ، أو يظفر بتثبيتٍ فيه، أو بتَيْسِيرِ مصالح مادّية له أو لِذَوِيه.

ومنهم من يتحايَلُ على نصوص حجاب المرأة للتهوين من أمره.

ومنهم من يَجْعَلُ الاشتراكيّة مِنَ الإسلام، ومنهم من يجعل الديمقراطيّة من الإسلام، مُتَحايلاً باستخدام النصوص الإسلاميّة الّتي تأْمُرُ بالشُّورىٰ.

ومنهم من يَنْقُضُ بعض أصول الدين أو بعض فروعه، ويُطْلِق عباراتٍ تُخْرِجُ من الإسلام إرضاءً للحكّام الكَفَرَةِ، واستجابةً لاستهواءاتهم له، ولِمَا يَبْذُلُونَه له من مالٍ أو مَنْصبٍ أَوْ جَاهٍ أو كلامٍ معسولٍ، أو تمجيدٍ وتبجيلٍ وتعظيم.

إلى غير ذلك منْ تَهَوُّكِ[1] في الضّلالة، وعَبَثٍ في أحكام الإسلام وشرائعه.

جاء في كتاب «الدعوة إلى الإصلاح» للإمام الشيخ «محمد الخضر حسين» شيخ الجامع الأزهر بشأن المداهنة قولُه:

«فَمِنْ أهْلِ العلم مَنْ يرَىٰ ذا جاهٍ أو رياسة يَهْتِكُ سِتْرَ الأَدب، أو يَعْثُو في الأَرْضِ فسَاداً، فيتغابىٰ عَنْ سَفَهِهِ أو بَغْيِه، ويَطْوِي دُونَهُ التَّذْكِرَةَ والْمَوْعظَة، ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، أوْ حِرْصاً على مكانَةٍ أوْ غنيمة ينالُها لدَيه.

ومِنَ الْبَلِيَّةِ أنّ المتْرَفِين ومَنْ يَنْحُو نَحْوَهُمْ في الزّيغ والغرور، لا يكْتَفُونَ ممَّنْ يَسُوقُهُمُ الزَّمَنُ إلَىٰ نوادِيهِمْ أن يَسْكُتَ عَنْ جهلهم، ويَتْرُكهُمْ وشَأْنَهُمْ، وإنَّمَا يُرْضِيهِمْ منْهُ أن يُزَيّن لهم سُوءَ عَمَلِهِمْ، أو يَرْمُقَهُمْ بِعَيْنٍ مَكْحُولَةٍ بتَبَسّم الاسْتِحْسَانِ، وهو أَقَلُّ شَيْءٍ يَسْتَحِقُّ به في نظرِهِمْ لَقَبَ: «كَيِّسٍ ظَرِيف».

والمداهنةُ خُلُقٌ قذِرٌ، لا يَنْحَطُّ فيه إلاَّ مَنْ خَفّ في الْعِلْمِ وزْنُهُ، أو مَنْ نَشأ نَشْأَةَ صَغَارٍ ومَهَانَة.

وهذا تاريخ الْعُلماء الراسخين ناطِقٌ بما كان لهم من الإِقْدَام على وَعْظِ الأُمَراء، والإنكار عليهم إذا أسَاءُوا التصرّف أو أَهْملوا.

قال عزّ الدين بن عبد السلام للملِكِ نجم الدّين أَيّوب، في مجلس حافلٍ برجال الدولة:

(يَا أَيُّوبُ، مَا حُجَّتُكَ عنْدَ الله إذا قال: أَلَمْ أُبَوِّىءْ لَكَ مُلْكَ مِصْرَ ثُمَّ تُبِيحُ الْخُمُور؟!!).

فقالَ: هَلْ جَرَىٰ هذا؟

---

(١) التهوّك: السقوط في الحفر.

فقال: (نعم، الحانَةُ الفلانيَّةُ يُبَاعُ فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنْتَ تَتَقلَّبُ في نِعْمَةِ هذِهِ المملكة).

فقال: هذا أنا مَا عَمِلْتُه، هذا من زَمَانِ أَبِـي.

فقال: (أَنْتَ مِنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّة؟!).

فَرسَمَ الملكُ بإبطال تلك الحانةِ.

* * *

الآفــة العاشــرة

ابتداعُ بدع في الدّين ما أنزل الله بها من سلطان، افتراءً على الله وكذباً، أو تحريفاً وتحويراً في العبادات أو في الأحكام أو في العقائد.

فمن البدع طقوسٌ وأشكالٌ من عبادات لم تَرِد في كتاب الله، ولا في سُنَّة رسوله، كبعض أشكالِ الرقص الذي تتمايل فيه الأجساد، وتتقدم وتتأخّر وتقفز، وتنثني إلى اليمين والشمال والأمام والوراء، وكالدّوران ضمْنَ ثوب يُشَكّل مع الـدوران صورة قمعٍ مقلوب. فهذه لم تُؤثَرْ عن الرسول ولا أصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

ومن البدع بعظيم أضرحة الموتى، وإقامة البنيان عليها، واتخاذها مزارات يُتبرَّك بزيارتها، وتقديم الصّدقاتِ والذبائح لها والطّواف حولها، والعودة إلى ما يُشْبهُ الوثنيّات الجاهليّة مع اعتقاد أنّ أرواح الموتىٰ تنفعهم بهذه الأعمال، وهذا من الشرك أو مدخلٌ إليه.

ومن البدع تعْظيم الشيوخ بالركوع والسجود لهم، ومراقبتهم في حال غيبتهم كمراقبة الله عزَّ وجلَّ، وينجم عن هذه البدع الدخلية ما يشبه العبادة أحياناً، أو يشبه ما كان الأعاجمُ قبل الإسلامِ يعاملونَ به ملوكهم من ركوع

وسجود ،وقد جاء الإسلامُ بمَنْع ذلك، تَحْرِيراً للعباد من عبادة العباد وربطهم بعبادة الله وَحدَهُ لا شريك له.

* * *

الآفـة الحادية عشرة

العنايةُ والاهتمام بالتزام صغائر الظواهر، فعلاً لما ينبغي فعله وتركاً لما ينبغي تركه، مع ارتكاب كبائر الإثم من وراء الظواهر، كأكْلِ أموال الناس بالباطل، وأكلِ أمْوال اليتامىٰ، وأخذِ الرَّشَاوَىٰ، والتعاملِ سرّاً بالرِّبَا، والوقوعِ في الفواحش، والغيبةِ والنميمة، والإضرارِ بالنّاس، والإفسادِ بين المتآخين في الله، وعَدَمِ القيام بواجباتِ العمل الوظيفي، والْجَوْرِ في الحُكْم، ومَنْعِ الزَّكاة، ونُصْرَةِ الأخِ في الحزب ولو كان ظالماً ضدَّ صَاحِبِ الحقّ، واختيارِ غَيْرِ الكُفْء للعملِ الوظيفي من أعمال الدولة، لقرابةٍ أو حِزْبيّةٍ، وإبعادِ الكُفْء ذي الدّين المناسِب للعمل، بالتلاعب بأوراق امْتِحَانِ الْمُسَابَقة، أو بترجيحه في المسابقة الشفهيّة بغير حقّ، أو نحو ذلك.

وهذه الكبائر الّتي تُرْتَكَبُ تقترن من أصحابها غالباً بالمبالغة في التَّشْدِيد على صغائر الذنوب، والتشنيع على مرتكبيها، مع اختلاف الفقهاء في تحريمها وعَدَمِه، كإطالة الثوب إلى ما دون الكعبين دُونَ كِبْر، وحَلْقِ اللّحية أو تقصيرها، وعدم تغطية المرأةِ دَائِرَةَ وَجْهِهَا أمام الرجال الأجانب، وغايتها أنّها من صغائر الذنوب.

وقد يتباهىٰ بَعْضُ الْمُعْتَنِينَ بالظواهر بِطُولِ لحيته، ويَمُنُّ بها على دين الله متفاخراً بالْتِزَامه بالسنة وبورَعِه، فإذا عاملته بالمال هَضَمَ حقَّكَ وسَرَقك، وتعلّل بفتاوىٰ ضَعِيفَةٍ ساقطة، أو تَذَرَّعَ بقانون الدولة، ورُبَّما يكون مع ذلك من مرتكبـي كبائر الإثم سِرًّا.

* * *

الآفة الثانية عشرة

اندفاع أصحابِ العواطف الإسلاميّة المتحمسين لحمل الرسالة الإسلامية، دُونَ قِيَادات إسلاميّة ذاتِ علْم وعَقْلٍ وحِكْمةٍ ورويّة، منطلقين في تورُّطَاتِ بأعمالٍ قَوْليّة وعمليّة غير رشيدةٍ تُوسَمُ بأنّها أعمالٌ إسْلاميّة جهاديّة، وتُطْلَقُ معها شعاراتٌ دَعَوِيَّة أو إعلاميَّة تُوسَمُ بأنّها إسلاميّة جهاديّة، وتَثُورُ ثورتُهُمْ غيرُ الواعية مَحْفُوفةً بحماقاتٍ كثيرات معانداتٍ لسُنَنِ الله في كونه، وتعليماته في كتابه.

ويَجُرُّونَ معهم مجموعاتٍ من الشُّبّان المسلمين، إلى رعونات قتاليّة تَنْتَهي بحصدهم، أو زَجّهم في السّجون، دون تحقيق ثمرة ما في خدمة الإسلام فكراً أو عملاً، ودون مدٍّ للدّعوة الإسلامية، بل الذي يحصل هو تشويهُ وإجهاضُ العمل الإسلاميّ، وأرجاعُ الانتشار الإسْلامِيّ إلى الوراء عشرات السنين.

ولا يَبْعُد أن يكون كثيرٌ من هذه الرعونات الّتي تحمل شعارات إسلاميّة مدْفُوعاً من قبل أَيْدٍ خفيّة من أيدي أعداء الإسلام وأعداءِ المسلمين المحلّيين أو الدَّوْلِيِّين، وتَغْرِير المندفعين المخلصين، وهم يَحْسَبُون أنّهم يُحْسِنُون صنعاً.

وكُلُّ من تَتَبّع الأحداث العظمى، وبحثَ عن أسبَابِها الخفيّة، علم أنّ وراءَها مكراً دَوْليًا كُبَّاراً، يُخَطِّطُ له دُهَاةُ أعداء الإسلام، وتتولّاه أيدي أُجرائهم المندسين.

* * *

الآفة الثالثة عشرة

الغلوّ في الدّين بتحريم ما لا تَقْوىٰ الأَدِلَّة الشرعيّة على تحريمه، مع التشدُّدِ الزائد في التحريم، كأنّه من الأمور الْمُجْمَعِ على تحريمها، على الرغم من وجود خلاف كبير بين الأئمة المجتهدين، ومنهم من لا يزيد على أن يعتبره مكروهاً أو خلافاً للأولى.

كالتشدُّد في تحريم ما كان من حُلِيّ الذَّهَبِ كالحلقة المفرغة على النساء، وكالتَّشَدُّدِ في تحريم النَّفْرِ من مزدلفة قبل أن يُصَلّي الفجر فيها، وكالتَّشَدُّدِ في تحريم كشف وجه المرأة أمام الرجال الأجانب على الرغم من أمْنِ الْفِتْنَةِ، وكالتشدُّدِ في تحريم استماع أيّ غناء، ولو كان خالياً من المعازف وَلُحون أهْلِ المعاصي.

إنّ هذا الغلوّ المتشدّد في بعض أحكام الدّين يُنَفِّرُ جماهير كثيرةً عن الدِّين، إذْ يُوقِعُهم في حَرَجِ ارتكاب المحرّمات، وهم بحسَبِ العادات السائداتِ في المجتمع لا يستطيعون اجتناب هذه الأمور، مع حرصهم الشديد على المحافظة على أركان الإسلام وفرائضه المجمع على فرضيّتها، وحرصهم الشّديد على اجتناب الكبائر والمحرّمات المجمع على تحريمها، ومع تحلّيهم بفضائل الأخلاق الإسلامية، واجتناب رذائلها، ومشاركتهم في كثير من النشاطات الإسلاميّة النافعة، كالجمعيات الخيرية التعليمية والتوجيهيّة والقائمة على مساعَدَة ومعونة الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وطُولِ أيديهم في فعل الخيرات والمبرّات، وكَثْرَةِ اجْتِهَادِهِمْ في الأعمال الصالحة.

* * *

الآفـة الرابعة عشرة

التهـاوُنُ في الدّين، بتَتبُّع الرُّخَصِ في المذاهب، دون النظر في الأدلّة باجتهادٍ صحيح سليم، مِمَّنْ هُوَ مؤهل للاجتهاد، وباعتماد أضْعَفِ الأَقْوَال الفقهيّة الاجْتِهَادِيَّة، لاستباحة ما يفتي معظم فقهاء المذاهب بتحريم فِعْلِهِ أو تركه.

وينشأ من هذا التهاون تتبُّع أضعف الأقوال المبيحة وأكثرها سقوطاً، من أيّ مذهب من المذاهب الاجتهاديّة، والذَّرِيعةُ لهذا التهاون الرغبةُ في التيسير على الناس ورفعِ الحرج عنهم، ولكن ليس من حقِّ أحدٍ أَنْ يُغَيِّر في أحْكَامِ التحليل والتحريم الشرعيّة بالْهَوَىٰ، أو بذريعة التيسير ورَفْعِ الحرج، فيحلّل ما حرّمه الإسلام بغير دليل يَقْوَىٰ على التحليل، كما أنه ليس من حقّ أحدٍ أن يَغْلُوَ في الدين فيُحَرِّم ما لا يقوى الدليلُ على تحريمه.

إنّ أحكام الإسلام الثابتة في القرآن مقرونةٌ بالْيُسْر ولا حرج فيها، فهي لا تحتاج إلى تدخُّلٍ من أحَدٍ.

إنّ الْغَرَضَ من التهاون في الدّين التهرُّبُ من التكاليف الإسلاميّة، مع اتّخَاذِ المعاذير والتَّعِلَّات، بالاستناد إلى أيّ قولٍ ضعيف يجده في أيّ مذهب، متَىٰ كان لَهُ هوًى في فعل العمل المحرّم، أو تَرْكِ العمل الواجب.

وتَبْدُو خُطُورَةُ هذه الآفة حينما يُفْتِي حامِلُ الرِّسَالة النّاسَ بأَضْعَفِ الأقوال، باعْتِبَارِه من حَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، فيَأْخُذُ المستفتون أقواله بالتسليم الكامل، والْعَمَلِ بها على أنّها من الدِّين حقًّا.

* * *

الآفـة الخامسة عشرة

اعتبـار العمل الإسلامي لتبليغ الدعوة إلى الله، أو لتعليم أحكام الإسلام في البلدان النائية عن عواصم العالم الإسلامي الكبرى، بمثابة رحلاتٍ سياحيّة، ونُزُهَاتِ رَفَاهِيَةٍ وتَسْلِية، فلا بُدّ أن تَتَحَقَّق فيها وسائل الرفاهية التامّة، كالنُّزولِ في فنادق الدّرجة الأولى، والفُسَحِ في الجبال والحدائق والمنتزهات، والاطّلاع على معالم المدُنِ وآثارِها، وحُضُورِ الموائد السخيّة الّتي تُقَدَّم فيها الأَطْعِمَةُ الشَّهِيَّة، والأَشْرِبَةُ اللّذيذة الفارهة، والتنقُّل بسيّارات تشبه سيّارات الوزراء والأمراء وأغنياء الشعوب.

ثمّ يكون للعمل الإسلاميّ من كلِّ الرِّحْلَةِ عدَدٌ من الخطب أو الدروس في بعض المساجد، الّتي لا يَجْتَمِـعُ عليهم فيها إلاّ أفرادٌ قَلِيلُونَ، أو أَحَادِيثُ في مجالس مع بعض وُعّاظِ أهل البلاد وطُلاّب العلم فيها.

وقد تُنْفَق في بعض هذه الرِّحلات أجورٌ وتعويضات وبدلات تكَفِي لأن تكون رواتبَ شَهْرِية لمئاتٍ من حملة الرسالة المجاهدين من أبناء البلادِ الذين يَنْشُرون الإسلام، ويُعَلِّمون شرائعه وأحكامه بِصِدْقٍ وإخلاص، لمدّة عامٍ كامل.

لكـن الرّغبة في المنافع الشخصيّة من العمل الإسلامي، مع تحقيقِ الأهـداف الإعلاميّة الدِّعَائية، مرضٌ يبدّد الأموال، ويُمِيتُ الجهود، ويُفْسد النـفوس، ثمّ لا يكون للعمـل الإسلاميّ إلاّ النزْرُ اليسير من النتائج المرجوّة.

* * *

الآفـة السادسة عشرة

عدَمُ اتّخاذ الخطواتِ المتدرّجة في الدّعوة إلى الدِّين، أو إصلاحِ البعيدين عنه، الذين لا يعرفون منه إلاّ كلمة لا إلّه إلا الله محمّد رسول الله، وقليلاً جدًّا من شعائر الإسلام، وقد انتشرت بينهم البِدَعُ والخرافات الَّتِي يَتَوَهَّمُونَ أنّها جزءٌ من الدّين.

وينْجُمُ عَنْ عَدَمِ اتّخَاذ الخطوات المتدرّجة الحكيمة مُوَاجَهَةُ أبناء البلاد بالشدّة والعنف، وصَبّ كل أحكام الإسلام وشرائعه صبّةً واحدة عليهم، فيكون ذلك سبباً في تنفيرهم.

وينجم أيضاً محاربةُ تقاليد أبناء هذه البلاد وعاداتهم وبِدَعِهِمْ وخرافاتهم، بشدَّةٍ وعُنْفٍ وقَسْوَةٍ في الخطاب، فيَنْفِرُونَ، ولا يَسْتَجِيبون، وقد يُقاومون ويُحَارِبُون، ويَنْظُرُون إلى الدُّعاة الهداة الوافدين إلَيْهم نظرات كراهية وعداء، واتّهامٍ بالانحراف عن الدّين الحقّ الذي وَرِثُوه عن آبائهم وأجدادهم، وتَقَعُ الخصومات، وإذا كان للوافدين إليهم بعضُ أنصارٍ من أبناء البلاد انشقت الصفوف، وتقَاتَلَ القوم، ونَجَمْ عن سُوء التصرّف بعدم اتّخاذ الخطوات المتدرجة عواقِبُ وخيمة جدّاً.

لكنْ لو اتُّخِذَتِ الخطواتُ المتدرجة الحكيمة الرشيدة، لتَحقّق بالصَّبْرِ الطويل، والحِلْمِ، والإقناعِ الهادىء الذي يبدأ من الجذور فالسُّوقِ فالفروع، مع تأليف القلوب بما تُحِبُّ الأنْفُسُ مما أباح الله، إصلاحٌ كثيرٌ، ولو طال الزمن، فالطريقُ الطويل الموصل إلى الهدف هو الطريق الأَقْصَرِ في الحقيقة، أمّا الطريق القصير الْمُنْقَطِعُ الذي لا يُوصِلُ إلى الهدف فهو أَطْوَلُ الطُّرُق وأَبْعَدُها في الحقيقة عن تحقيق المقصود.

* * *

الآفـة السابعة عشرة

بذْرُ بُزُور الولاءِ لشخصٍ قياديّ، أو لجماعةٍ منظّمةٍ، مع الإلزام بالطاعة العمياء لمقرَّرات القيادة وأوامرها ونواهيها، دون اعتراضٍ، ولوخالفت مَفْهُومات الإسلام الصحيحة الثابتة، وأوامرَ الله ورسوله.

ويَلْزَمُ من هذا الولاء الأعمى، الذي تُتَّخَذُ له ذرائعُ تُزَيِّنُهُ وتحسّنُهُ، أن يكون الولاءُ للشّخصِ القياديّ، أو للجماعة المنظَّمَة، مُقَدَّماً في مشاعرِ الأتباع وأعمالِهِمْ على الولاء لله ولرسوله، وللإسلام الحقّ، والولاء العام لجماعة المسلمين.

وينجم عن هذا الولاء الجانح عن الحقّ والجائر عن صراط الْهُدَىٰ انطماسُ البصيرة، وبانطِمَاسِها تَنْعَدِم الرُّؤْيَة، فلا يُفرِّقُ ذو الولاء لشخصٍ قياديّ، أو لجماعة مُنظّمةٍ ذاتِ قيادةٍ منتخبة انتخاباً ديمقراطيًّا على خلاف منهج الإسلام، بَيْنَ الحقّ والباطل، والخير والشرّ، والصواب والخطأ.

وينْجُمُ عنه أيضاً تَعْطِيلُ مُحَاسَبة القيادة المخطئة، على أسَاسٍ من حُكْمِ الله ورسوله، بالرجوع إلى فُقَهاءِ الأُمَّة الإسلاميّة وعلمائها.

وينجم عنه أيضاً التسلِيمُ الأَعْمَىٰ لكلّ ما تَأْمُرِ به القيادة، أَوْ تنهىٰ عنه، ولو كان فيه قَتْلُ الأبرياء بغيْر حقٍّ، ومخالَفَةُ أحكام الإسلام وشرائعه، ولو كان فيه إفسادٌ في الأرض واتِّهَامٌ للبرآء الصالحين، وتَجْرِيحٌ للعلماء العاملين.

ويَنْجُمُ عنه أيضاً الدِّفَاعُ الكامل عن كلّ تَصَرُّفٍ يَصْدُرُ عن القيادة، ولو كان منافياً لحكم الله ورسوله.

وبهذا الولاء الجائر عن صراط الحقّ والهدىٰ يتدَرّبُ الأَتْباع على أن لا تكون لهم مشاركة في رأي، أو اعتراضٌ على تَصَرُّف، وأن يكون كلُّ واحِدٍ منهم كالإمَّعةِ، مَقُوداً لتأييد قادَة الجماعة التي مَنَحَها ولاءَهُ الكامل من مِقْوَدِ وَلاَئِهِ، ولإِلْقَاء الغشاوات على الأبصار تُقَدِّم للسائرين وراء قادتهم بَعْضُ المطاعم والمشارب والمنافع الّتي يتناوَلُونَها من أيديهم.

ويَنْدَفع الأَتْباعُ بقوَّة، تُحرِّكُهم الآمال الّتي يترقبون حصولها، متى ظفرت القيادة بتحقيق أهْدافها، بناءً على ما تلقَّوْهُ من وعود، وما زادوا عليها من مطامع تطْمَحُ نفوسُهم للحصول عليها.

يضاف إلى كلّ ما سبق ما تُصاب به نُفوسُ جماعات التكتُّلِ النفعيّ عادةً من داءِ التعصُّبِ الذّميم، الذي أصيبت بمثله الشعوب البدائية القوميّة، والقبليّة والأُسَرِيّة، والتَّعصُّب الذي تصابُ به الأحزاب السّياسية، القائمةُ على الترابُطِ المصلَحِيّ الدُّنْيَوِيّ، والّتي تُخَادِعُ بشعارات المصلحة الْعَامَّة للشعب، والتي من شأنها أن تُعادي وتُحاربَ التَّكتُّلاتِ الأخْرىٰ، ظُلْماً وعُدْواناً، وتَفْتَرِي على أفرادها لتحطيمهم، وتُشَوِّهُ أَهْدافَها، لئلاّ تَصِلَ إلى مراكز الإدارة والحكم.

إنّ التّنَافُسَ غير الشريف هو المحرِّكُ الأعْظَمُ للأحزاب النفعيّة السياسية وغَيْرِها، وهي بأَبْنِيَتِها الدِّيمقراطيّة أو الدّيكْتَاتُوريَّة، وأعمالها غير الأخْلاَقية، مخالفةٌ للإسلام ومباينَةٌ لأحكامه وشرائعه وأهْدَافه، فالجماعاتُ الّتي تَبْنِي نَفْسَها على مناهج الأحزابِ الّتي عرفتها الشعوب غيْرُ المسلمة جماعاتٌ لا يُرجَىٰ منها أَنْ تُحَقِّقَ أهدافاً إسلاميّة صحيحة، لأنها قائمةٌ على أُسُسٍ غير إسلاميّة.

* * *

الآفة الثامنة عشرة

فساد نفس حامل الرسالة بسبب استهواء المكان العالي لمشاعر حُبِّ العلوّ في الأرضِ لدَيْها، إذْ يَرَىٰ أنّه صار ذا مكانة مرموقة بَيْنَ النّاس، يحتَرِمُونَهُ، ويعظِّمُونَه، ويقبِّلُونَ يديه ورأسه، ويُقَدِّمونه في المجالِس والموائد، ويَمْنَحُونَه الهدايا والأموال، فتتعاظم نَفْسُهُ، ويَنْتَفِخ صَدْرُهُ، ويتحوَّلُ عن ابتغاء الآخرة إلَىٰ طلَبِ الدنيا، نَاسِياً قولَ الله عزّ وجلّ في سورة

(القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

وبسبب سُقُوطِ حاملِ الرسالة في هذا الفساد النفسيّ يَجِدُ نَفْسه مستدرجاً إلى مزالق خطيرةٍ جِدًّا، ينغمس فيها بأَوْحَالِ ذوي السلطان، أو ذوي المال والجاه، ويَسْتَمْرِىءُ ما وصل إليه، وما يُصِيبُه من لَذَّةِ المكان الرفيع بين النّاس، وما يُصَاحِبُه من شهوات ولذّات جَسَدِيَّة، فيَسْكُتُ عن الحقّ، لئلا يُناصِبَهُ أولوا القوّة في المجتمع العداء، فيعملوا على إنزاله عن المكانة الرفيعة التي جَذَبُوه إليها، وحرمَانِه من كثير من الشهوات واللَّذّاتِ الَّتي يُصِيبُها وهو فيها.

ثُمَّ لا يَزَال الأَخْباثُ من شياطين الإنس يَسْتَدْرِجونَه، حتّىٰ يتغاضَىٰ عن كبائر المعاصي الّتي يرتكبها كُبَراءُ الناس، ثم يزيدُونَ في استدراجه حتّىٰ يخالطهم ويشاركهم مَعَاصِيَهُمْ في مجالسهم الخاصة.

ثم يستدرجونه إلى إصدار فتاوى باطلة، يفتريها على الدين، إرضاءً لهم، وهذا هو الشّرُّ العظيم الذي قد يصل إليه بعض حملة الرسالة، فبعض المسْتَدْرَجين الساقطين في هذه الأوحال، إذا لم يقْتَصِرْ على أن يكونَ مجرَّدَ شيطان أخرس، يرَىٰ الباطل ولا يشجُبُه، ويرى كبائر الإثم ولا يُنْكِرها، ويَرَىٰ حُرُمَات الله تنتهك فيَتغاضى عنها، فإنّه قد يتحوّل إلى أن يكون من جنود أعداء الإسلام، وهو يرتدي رداء حامل رسالة الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* * *

الآفة التاسعة عشرة

استخدام أسْلوب الفظاظة والغِلاظة والسّباب والشتائم، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنُّصح والإرشاد.

إنّ هذا الأسلوب من الأسَاليب المنفِّرَةِ المثيرة للغضب والكراهية والحقد والإصرار على الباطل والشّرّ، ومن شأنه أن يَبْذُر بزور الشقاق والعداء لحامل الرسالةِ وأتباعِه المناصرين له، وهو يَسْتَثِيرُ المقصُودين وأنصارهم، ليَقْذِفُوا الشتائم والاتّهامات الأشنع، وهُمْ الأَقْدَرُ على إطلاقِ أقْبَحِها وأرْذَلِها من حَمَلةِ الرسالة، ولا يُكَلّفُهُمْ ذَلِكَ مشقّةً عِلْميّةً، ولا تأَمُّلاتٍ فِكْرِيّة، ورُبّما دفَعَهُمْ لاتّخَاذ وسائل القمع بالقوَىٰ المسلّحة، ويَجِدُون مُعْظَم الجماهير تَعْذُرُهم في ذلك.

إنّ أسْلُوبَ السّبابِ والشتائم لا يَسْلُكُهُ إلاّ الأَحْمَقُ الْعَاجِزُ عن تقديم الْبَيَانِ السَّدِيدِ المقنع، والحجج الدامغة، وهو من وسائل مُقَاوِمي دُعَاةِ الْحَقِّ، المرسلين والأنبياء وتابعيهم بإحسان، ولَيْسَ من وسائل دُعاةِ الْحَقِّ والناصحين المرشدين، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وأقْرَبُ الأشياءِ شَبَهاً بالشَّتائِمِ والسِّبَابِ، عُوَاءُ الكلاب، فالْعَاقِلُ من الناس لا يَتّخِذُ الشتائم والسّبابَ من وسائله، ولا سيما لدىٰ حَمْلِهِ رسالةَ الدَّعْوَةِ والنُّصْحِ والإرشاد والأمْرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

أمّا الرِّفْقُ في الخطابِ مكتوباً أو مقولاً، فَهُو الأرْجَىٰ تأثيراً وقبولاً، ولا يَسْتَثِيرُ الغضب، بل قَدْ يَصِلُ إلى القارئين أو السامعين، آمناً من صولَة الباطل والمبطلين، وحماقَةِ الحمقىٰ وغضب الْغَاضِبين.

* * *

الآفة العشرون

ضعف الإرادة، وقلّةُ الصبر على المكاره، وتحاشي المواقف الّتي يُخْشَىٰ منها حُصُول الأذىٰ، في النفس، أو في المال، أو في الكرامة، أو في الأهل والأقربين، أو في الأنصار والأتباع.

فبعْضُ حَمَلةِ الرسالة يتقاعسون عن تَأْدِيَةِ وظائِف رسالتهم الواجبة عليهم، مخافةَ مُقَابَلَتِهِمْ بالاستهزاء والسخريَة، أو بالإعراض عنهم، أو بالشَّغَبِ عليهم، أو مَخَافَةَ إيذائهم في بعض أموالهم، ورواتبهم الّتي يتقاضَوْنَها من الدَّوْلَة، أو مخافَةَ حِرْمانهم أو حرمان ذويهم من تسهيل المصالح الّتي لهم في دوائر الدولة أو وظائفها.

ويَغْفُلُ هؤلاء عن أنّ رسالتهم عُنْصُرٌ من عناصر الجهاد في سبيل الله، والجهادُ لا بُدَّ أن يتعرَّضَ فيه المجاهد إلى أنواع من الأذى، فعليه أَنْ يُواجَهُ ذَلِكَ بالصَّبْر، وسعَةِ الصَّدْر، وتَحَمُّل الأذىٰ، واحْتِساب ذلك عند الله، وعليه أن يَضَعَ نُصْبَ عيْنَيْه الْقُدْوة الحسنة المثلَىٰ، وهُمْ رسُلُ الله عليهم السلام، وفي خاتمتهم إمامُهُمْ رسُولُ الله محمد ﷺ، فكَمْ واجَهَ من قومه من أذى في جَسَدِه ونَفْسِه، فتلَقَّىٰ ذَلِكَ بالصَّبْرِ الجميل، وكان لاَ تزيده جهالَتُهُمْ عليه إلاّ حِلْماً، وكَانَ يأمُرُ أصحابَهُ بالصَّبْر.

إنَّ الدَّاخِلَ في مَعْرَكةٍ من معارك الجهاد في سبيل الله، لا يَصِحُ له أَنْ يَتَصَوَّر أَنَّهُ دَاخِلٌ في حديقةٍ يَقْضِي فيها نُزْهَةً مُمْتِعَةً، وأنَّ سُبُلَهُ فيها مفروشةٌ بالورودِ والرَّيَاحِين، وأنّه سَيَسْتَمْتِع فيها بتغريد الطيور، وتَنَاوُلِ الثمار الطيبة اليانعة، والمطاعم اللّذيذة، والْجُلُوسِ على الأرائك الفارهة.

فعلى حامل الرسالة أن يُوَطّن نفسه ابتداءً على تحَمُّل أنْواعِ الأذى بالحلم والصَّبْر، وسعة الصدر، والعفو والصفح والتَّسَامُح.

* * *

الآفة الحادية والعشرون

اتّباع حامل الرسالة الهوىٰ، بسُكوتِه عن الآثام الّتي هو ساقِطٌ فيها، ومرتكِبٌ لها في سِرِّهِ أوْ جَهْرِه، وبالتغاضي عن جرائمِ وآثامِ الأَقَارِبِ والأرحام والأصحاب والأحباب وجَماعَةِ الحزب.

ومن اتّباع الهوى الشفقةُ على أوْلاده، وأَهْلِه، وعلى من يُحبُّ، ومن اتّباع الهوى الخوفُ على المنافعِ والمصالحِ الّتي قد تَفُوتُهُ إذَا قال الحقَّ، أو نَصَحَ به.

إنّ بعض حملة الرسالة تَجْعَلُهُ شَفَقَتُه على أبنائه وبَنَاتِه يتغاضَىٰ عن ارتكابهم لكبائر الإِثْمِ، فيُخْرِسُهُ تَغَاضِيهِ هَذا عَنْ إنكار المنكرات المماثلات الّتي يرتكِبُهَا الناس.

ويُحِبُّ بعْضُ حَمَلةِ الرّسالة زَوْجَتَهُ فيتغاضى عن سفورها وتبرُّجِها أمَامَ الرّجال الأجانب، لأنّه إذا مَنعها من ذلك، أو أمرها بالحجاب الإسلاميّ أمْرَ إلْزَام أَغْضَبَها، فتجافَتْ عن فراشه، وهو لا يتحمَّلُ أن يَجدها غاضبةً.

ويُحِبُّ بَعْضُ حَمَلَةِ الرسالة صَدِيقاً له، فيتغاضىٰ عن كبائره وقبائحهِ لئلا تَفْسُد علاقته به فيخْسَر صَدَاقته.

ويكونُ لبعض حَمَلة الرسالة شريكٌ في تجارة أو صناعة أَوْ زراعة، فيتغاضىٰ عن كبائره وقبائحه، لأنّ شراكته تحقق له أرباحاً ومنافع دنيوية.

ويكون لبعض حَمَلةِ الرّسالة رئيسٌ في عمَلٍ عامٍّ أو خاصّ، فيتغاضَىٰ عن كبائره وآثامه، لئلا يغْضَبَ منه إذا نصحه أو أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، فيُؤْذيَهُ في عَمَلِهِ، أو يصرفه عنه، وينسَىٰ أنّ الله هو الرزّاق ذو القوة المتين.

فعلى حامل الرسالة أن يحذر من هذه الآفة الشنيعة.

* * *

البَابُ الرّابع

مَنَاهِج تَوْصِيل الرّسَالة

وسبلها ووسائلها وأدواتها

وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول: التوجيه المباشر، والتوجيه غير المباشر.

الفصل الثاني: العقبات الصادّاتُ للتوجيه وأساليبُ معالجتها.

الفصل الثالث: المنهاج البياني ومسالكُه (الحكمة ـ والموعظة الحسنة ـ والجدال بالّتي هي أحْسَن).

الفصل الرابع: وسائل الأداء البياني (الخطبة ـ الدرس ـ المحاضرة ـ الحديث والمحادثة ـ مجالس السؤال والجواب ـ الكتاب ـ المقالة ـ الشعر ـ القصة ـ التمثيل).

الفصل الخامس: أدوات التوصيل الإعلامي، ومسؤولية حملة الرسالة بالنسبة إليها.

الفصل السادس: المنهج الرّبّانيّ للسياسة الحكيمة الموجّهة للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمّته.

الفصل السابع: المجتمع الإسلامي والمنكرات حمايةً وتغييراً.

الفصل الأول

التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر

وفيه مقدّماتٌ عامّات وثماني مقولات حول وسائل التوجيه غير المباشر:

المقدمات العامة: حول التعريف بالتوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر وبيان واجب حَمَلَةِ الرسالة بالنسبة إليهما.

المقولة الأولى: البيان الكلاميُّ غير المباشر.

المقولة الثانية: القدوة الحسنة.

المقولة الثالثة: البيئة والرفقة الصالحة.

المقولة الرابعة: القصّة النافعة والمشاهد التمثيليّة المفيدة.

المقولة الخامسة: القراءة الحرَّةُ وأثرها.

المقولة السادسة: الترنيم والنشيد بطريقة إسلاميّة شكلاً ومضموناً.

المقولة السابعة: إدخال البيان الإسلاميّ ضمن العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات.

المقولة الثامنة: البثّ العرضيّ المفيد عند المناسبات الملائمات.

حول التعريف بالتوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر وبيانِ واجبِ حَمَلَةِ الرسالة بالنسبة إليهما

التعـريـف:

يوجد طريقان رئيسان لتأدية الرسالتين:

● رسالةِ الهداية بالدعوة إلى الإيمان بالله والإسلام له، والدعوة إلى سلوك سبيله، مع المتابعة بالتذكير والنُّصح والإرشاد.

● ورسالة الإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر والنهي، مع المتابعة بالتذكير.

والطريقان الرئيسان هما:

١ ـ طريق التوجيه المباشر.

٢ ـ وطريق التوجيه غير المباشر.

أوّلاً ـ أمّا طريق التوجيه المباشر:

فيكون بمواجهة من يُرادُ دَعْوتُهم وتذكيرُهُم، أو إصلاحُهم وحمايتُهم، بالمقصود الرئيسيِّ مُبَاشرةً، دون أيِّ تَوْرِيَةٍ، أو استخفاء، أو تَسَتُّرٍ بأفكارٍ وحِيَلٍ كلاميَّةٍ تَدُلُّ بما فيها من تشبيهٍ، أو مجازٍ، أو لوازمَ فكريّةٍ، أو

إشاراتٍ، أو معاريضَ، أو أمثالٍ يُقَاسُ عليها، أو غير ذلك، علىٰ المقصُود الرئيسيّ.

فمن أمثلة التوجيه المباشر ما يلي:

١ ـ أنْ يقول الداعي إلى الإيمان بالله لمن يدعوه من غير المؤمنين: أدعوك يا أخي في الإنسانيّة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، إذْ هو الخالق الواحد، والرّبّ الواحد في الوجود كلّه، وهو الذي بيده الخلْقُ والأَمْر وهو على كلّ شيءٍ قدير.

وأدعوك إلى عبادته وحده، إذْ لا نافع في الوجود غيره، ولا ضارّ في الوجود غيره.

ثمّ يقيم له الأدلّة على ما دعاه إليه.

٢ ـ أن يقول الدّاعي إلى سلوك سبيل الله لمن يدعوه من غير المسلمين: أدعوك يا أخي في الإنسانيّة إلى الإسلام لله واتّباع ما جاء عنه، وسلوك صِراطه المستقيم لتظفر بالنجاة من عذابه، وبالسعادة الخالدة في جنّاتِ النعيم يوم الدين.

يا أخي في الإنْسانِيّة: إنّ الله عزّ وجلّ قد خلقنا في الحياة الدُّنيا ليمتحننا بالإيمان به وبما أنزل على رُسله، وبالإسلام له معلنين السَّمْعَ والطَّاعَة، وبالتزام سلوكِ صراطه المستقيم، الّذِي أنزله على رُسُله، وفي خاتمتهم محمّد بن عبد الله ﷺ عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أجمعين.

فمن آمن وأسْلَمَ لله، مُعْلِناً السَّمْع والطّاعة، وأثبت اهتمامه بالتزام صراط الله، نجا وسَعِد، وظفر بجنّات النعيم يوم الدين.

ومَنْ لم يُسْلِمْ ولم يُعْلِن السَّمْعَ والطّاعة عرَّضَ نفسه للخلود بالعذاب الأليم، في جهنَّمَ وبئْسَ المصير.

ومن أسْلَم وأعْلَنَ السَّمْع والطّاعَةَ بِصِدْقٍ، إلاَّ أنّه أسْرفَ على نَفْسِه بالمعاصي والمخالفات، استَحقَّ من العذاب على مقادير معاصيه ومخالفاته ثم يكون مصيره إلى الخلود في جنّات النعيم.

ثم يقيم له الأدلّة على ما دعاه إليه.

٣ ـ أن يقول حامل رسالة الإصلاح والحماية داخل المجتمع الإسلاميّ، لمن يُوجّه له نُصْحَه وإرشاده، أو أمْرَهُ ونَهْيَه:

يا أخي المسلم: اتّق الله، واحذر عقابه، واهْجُر ما أنت فيه من المعاصي، أَقِم الصّلاة، وآتِ الزّكَاةَ، وصُمْ رمضانَ، وحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً، ولا تَقْتُلِ النفس الّتي حرَّم الله إلاّ بالحقّ، ولا تظلم أحداً، ولا تأكلْ أموال الناس بالباطل، ولا تَسْرِق، ولا تَزْنِ، ولا تَفْعَلْ من الفواحشِ شيئاً.

وعلى هذه الطريقة يُوَجِّه نُصْحَه وإرْشادَه وأوامره ونواهيه، ويستدلُّ لما ينْصَحُ به، ويُرْشِد إليه، ويأمُر به، وينهىٰ عنه، بنصوص من القرآن والسُّنّة، ويستشهد ببشواهدَ ذاتِ عظةٍ من قصص التاريخ.

هذه الأمثلة ونظائرها هي من قَبيلِ التوجيه المباشر الذي لا تَوَارِيَ فيه، ولا تَسَتُّر.

* * *

مواطن وأحوال التوجيه المباشر:

والتوجيه المباشر في الكلام هو الأصل، وله النّسْبَةُ الكبرىٰ من كلّ كلام، وهو أحد طريقي التوجيه الكلاميّ اللّذين جاء في القرآن المجيد استخدامُهُما.

وطريقة التوجيه المباشر طريقة نافعةٌ في التعليم، وفي بعض الخطب

الوعظيّة العامّة، وحلقاتِ التدريس والوعظِ العام، وفي نُصْح الأب لابنه، والأستاذ المربّـي لتلميذه المطيع، ونُصْحِ كبير القوم لمن يَدِينُونَ له بالطاعة، ويَسْتَجيبُون لأوامره ونواهيه، ونحو ذلك.

ومن الأحوال الّتي يكون فيها الأسلوب المباشر السافر أوقع في النفوس، وأكثر تأثيراً فيها، وأنْفَع وأجْدَىٰ، أو أكثر ضَبطاً، الأحوال التالية:

١ ـ خطابُ الّذين يَصْعُبُ عليهم الْفَهْمُ بأُسلوبٍ غير مباشر، كالصّغار وضعفاء التفكير.

٢ ـ حينما يكون المخاطَبُ في حالةٍ انفعاليّة أفْقَدَتْه الْهُدوءَ والصفاء الفكريّ، فالإنسانُ في مِثْل هذه الحالة لا يَرُوقُ له إلاّ الكلامُ الّذي يَدُلُّ على المقصود بطريقةٍ مباشرة.

٣ ـ لدى بيان الحقائق الكبرى العقديّة، كالكلام الّذي يُحدِّدُ قضايا الإيمان، فهذه يجب فيها التصريح المباشر السافر، مثل: لَا إلَه إلاّ الله، مُحَمَّدٌ رسول الله ﷺ، آمِنُوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وبالقدر خَيْرِه وشَرِّهِ من الله عزّ وجلّ.

٤ ـ لدى بيان أركان الإسلام وأحكامه وشرائعه، فهذه يجب فيها التصريح المباشر السافر.

٥ ـ لدى بيان حقائق العلوم المختلفة، فهذه لا يَصِحُّ فيها إلاّ البيان الصريح.

٦ ـ لدى بيان المبادىء الّتي تُعْلِنُهَا الشعارات، فهذه ينبغي فيها التصريح الذي يَدُلُّ على المعاني دلالة مباشرة سافرة.

٧ ـ لدىٰ كتابة نصوص التشريع أو التقنين، فهذه يجب فيها التعبير

بالأسلوب المباشر السافر، لئلاَّ يكُونَ في الأفكار احتمالاتٌ تَسْمَحُ بصَرْفِ الكلام عن دلالته المقصودة.

٨ ـ لدىٰ التعبير عن الأحكام القضائيّة، فهذه يجب فيها أيضاً التعبير بالأسلوب المباشر السافر.

٩ ـ في معظم مواقف الدُّعاء لله عزّ وجلّ، مثل: ربِّ اغفر لي، وارْحَمْنِي، واهْدِني، وسَدِّدْني، وعَافِنِي، وارْزُقْني حَلالاً طيّباً مُبَاركاً فيه.

ومن هذا قول موسى عليه السلام كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿.. رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

١٠ ـ في معظم صور التعليم لمسائل العلوم.

١١ ـ في ذُرُوات التَّعْبيرات العاطفيّة.

ضرر التوجيه المباشر أحياناً:

وقد يكون التوجيه المباشر طريقة ضارَّةً مُنَفِّرَة، فيجب حينئذٍ تحاشيها، وعدمُ استخدامها، بل يجب اللُّجوء عندئذٍ إلى استخدام إحدىٰ البدائل من وسائل طريق التَّوجيه غير المباشر.

ومن الأحوال التي يَضُرُّ فيها التوجيه المباشر إلى ما يلي:

١ ـ أن تقول لمن تدعوه إلى الإيمان بالله وإلى الدخول في الإسلام: أَنْتَ كافِرٌ مُجْرِمٌ ضالٌّ مُضِلٌّ مَلْعُونٌ مطرودٌ من رحمة الله، في الدنيا والآخرة، وستظلُّ كذلك، إذا لم تُؤْمِنْ، ولم تَدْخُلْ في الإسلام، ولم تَهتَمَّ بالتزام صراط الله المستقيم.

٢ ـ أن تقول لمن تَعْلَمُ عنه أنّه من مرتكبي الكبائر في نُصْحِكَ لَهُ:

أنت زانٍ، أنت لِصٌّ، أنت مُجْرِم، أنت ضالٌّ مُضِلٌّ، فاتّقِ اللَّهَ واهْجُرْ ما أنت فيه، وإلاّ أنزل اللَّهُ بِكَ عقاباً أَلِيماً.

إنَّ مثل هذا التوجيه مخالف لمنهج الرسُول ﷺ في نُصْحه وإرشادِه، وأمْرِهِ ونَهْيِهِ، فلقد كان من أَدَبِهِ الرَّفيع إذا ساءَهُ من بعض القوم معاصٍ ارتكبوها أن يقول: ما بالُ أقوامٍ يفعلونُ كذا وكذا، ولا يُواجه من أذنب بإعلانِ ذنبه، لئلا يُحْرِجَه، فيُنَفِّره، بل يسْتُرُهُ، ويتحدَّثُ عن عُصَاةٍ ما بشكل عامٍّ، دون أن يَفْضَحَ المذنب أو المذنبين بأعيانهم.

٣ ـ أن تقول مثلاً لِمَنْ في جسمهِ عَيْبٌ خِلْقِيّ، وأنْتَ تُريد أن تَنْصَحَهُ بأنْ يَسْتُرَ عَيْبَهُ، بالكَرَم، وحُسْنِ الْخُلُق، والاستقامة في سلوكه الخاصّ، وفي تَعامُله مع الناس: أنْتَ أعْمَىٰ، أنْتَ أعْوَرُ. أنت أكْتَع. أنت أعرج. أنْتَ قبيح المنظر، فاسْتُرْ عَيْبَكَ بكَرَمِك، وحُسْنِ خُلُقِكَ، واستقامتكَ في سُلوكك.

٤ ـ أن تتَّخذ أُسْلُوب الأَمْرِ والنَّهْي دواماً، دون أنْ تُغلِّفه بمقدِّمات عامَّاتٍ، ونصائح غير مباشرة، تُحضِّرُ النفوسَ بها لتقبُّلِ الأَمْرِ والنَّهْيِ بقبولٍ حَسَنٍ.

* * *

ثانياً ـ وأمّا طريق التوجيه غير المباشر:

فيكون بهداية من يُرادُ دَعْوَتُهُم وتذكيرهم، أو يُرادُ إصْلاحُهُمْ وحمايتهم بوسائلٍ غَيْرِ صريحه، إذْ لا يبدو في ظاهرها المقصود الرئيسيُّ، وإنّما يأتي متوارياً، مستخفياً متستراً بأفكارٍ وحِيَلٍ كلاميّة، أو حكايات أو أعمالٍ، تَدُلُّ بما فيها من تشبيهٍ، أو لوازم فكريّة، أو إشارات، أو معاريض، أو أمثالٍ يُقاسُ عليها، على المقصود الرئيسِيّ، أو يستفادُ منها الدّلاَلَةُ على المقصود بالتوجيه له.

كالكنايات، ومعاريض الأقوال (إيَّاكِ أَعْنِي واسْمَعِي يا جارة) ورواية

القصص، أو التوجيه لقراءتها، أو عرض مشاهدها بالتمثيل إنّ أمْكن دون ارتكاب معصية، والقدوة الحسنة المثيرة للإعجاب، والْغَمْسِ في البيئة الصالحة، والصحبةِ والرفقة، وحديثِ المتكلّم عن نفسه، أو حديثه عن الغائب، والبثّ العرضيّ، وإدخال الفكرة المقصودة في ثنايا أفكار أخرى تَبْدُو أنَّها هي المقصودةُ بالذَّات، لا ما جاء مندسًّا فيها، أَوْ متقرناً بها.

وطريقُ التوجيه غير المباشر هو طريقُ التعليم، والنُّصْح والإرشاد، والتربية، والتذكير، والموعظة العملية، التي ملأ اللَّهُ الوجود الماديّ بها، ونبَّهَ عليها في كتابه المنزل على رسوله ﷺ.

● فمن التنبيه عليها تكليفُهُ عبادَه أن يتفكَّرُوا في خَلْقِ السماوات والأرض، وفي أنفسهم، لتدلّهم آيَاتُه الّتي لا يستطيعون حصرها، على صفاته الجليلة وأسمائه الحسنىٰ، وأنَّه واحدٌ في ربوبيّته، وفي إلَهيَّتِهِ.

● وأرسل الله عزّ وجلّ لقابيل بعد أن قتل أخاه هابيل، واحتار كيف يواري سوأته، غراباً يبحث في الأرض، ليدفن فيها فتعلَّمَ من الغراب دفن أخيه القتيل، قال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

● وأبانَ الله عزّ وجلّ أنّه تَرَكَ سَفِينَةَ نُوحٍ باقِيَةً مِنْ بَعْدِهِ، لتكونَ آيَةً لمن يَدَّكِر، فقال تعالى بشأنه في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

● وأبان الله عزّ وجلّ أنّ الرّياحَ التي يُرْسِلُها تَحْمِلُ للنّاسِ ذكراً، فيه إعذارٌ وفيه إنْذار، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بشأن الرياح:

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ ﴾.

وقد جعل الله عزّ وجلّ طريق التوجيه غير المباشر مُتَاحاً لجميع خلقه، الصغارِ منهم والكبار، الْقُرَّاءِ منهم والمتعلمين وغيرهم، حتّىٰ البهائم الّتي لم تُعْطَ الألْسِنة الناطقة، ولا العقول المفكّرة، بل أعطيت ما تهتدي به إلى سُبُلِ حياتها ومعاشها، قال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩ ﴾.

أي: وألهمها بوسائل التوجيه غير المباشر.

* * *

ميزات طريق التوجيه غير المباشر:

ولطريق التوجيه غير المباشر ميزاتٌ كثيرات، منها ما يلي:

١ ـ أنّه كما سبق بيانُه طريقٌ تستفيد منه الخلائق ذواتُ الحياة والإدراك كُلُّها، على مقادير ما لديها من قدرات إدْراك وذكاءٍ، ومنها الحيوانات الدنيا في سُلَّم الإدْراك.

٢ ـ شعور الإنسان بأنّ ما يتوصّل إليه به إنّما اكتَسَبَهُ بنفسه استخراجاً واستنباطاً، دون أن يُمْلِيَهُ عليه أحَدٌ، أو يُلْزِمَهُ بِهِ أَحَدٌ، أو يسْتَعْلِيَ عليه به أَحَدٌ، إذْ هو يفكّر وهو يستفيد معلوماته به بحُرّيّة، ويَعْمَلُ بحُرّيّة، ولاَ يَشْعُر بأنَّهُ مُكْرَهٌ، أو مكلَّفٌ، أو يأخُذُ ما يستَفيدُهُ من مُسْتَعْلٍ عليْه بفضلِ عَلِمْ أَوْ خِبْرَةٍ أو ذكاءٍ وفَهْم.

٣ ـ أن من شأن من يستخدم طريق التوجيه غير المباشر أن يتحاشَىٰ ويتفادى التصادُم مع كثير من العقبات النفسيّة المختلفة.

والسبب في هذا أنّ العقبات النفسيّة قد تكون شديدة الصلابة في نفوس بعض الناس، فلا تَسْمَحُ بمرور توجيه آتٍ من شخص آخر.

لكنّ هذه العقبات يمكنُ تحاشيها، والمرورُ إلى داخل النفس من طرقاتٍ ومساربَ أُخْرَىٰ لا تقف فيها هذه العقبات الصّادَات، ومن أهمّ هذه الطرقات والمسارب أنفاقٌ تدخلُ من خلالها المضامينُ الفكرية المقصودة بالتوجيه، دون أن تَعْتَرِضَها العقباتُ القائمات في طريق التوجيه المباشر، أو أن تدخل مغلَّفةً بأغلفة لا تَجدُ فيها العقباتُ ما يَتَنافىٰ مَعَها حتَّىٰ تعترِضها، أو أن تتسلَّل إلَىٰ داخل النّفس تَسَلُّلاً خفيًّا، يَشْعر الإنسان معه أنَّه هو الَّذِي فكّر بنفسه، وهو الذي اختار بإرادته الحرَّة، ولم يتلَقَّ الأفكار ولا الأوامر والنواهي من أحد، ولم يُلْزَمْ بالعمل من أحد.

إنّه بهذا ينخدعُ أو يخدَعُ نفسه بتجاهُلِه ليُرْضِي غروره، إذا كان من أهل الغرور، ثمّ يسير بكلّ قُوَّتِه واندفاعه في الطريق التي دفعه إليها منْ وجَّهه بأسلوبه غير المباشر، ويظَلُّ مع شدّة انْدِفَاعه يتوهَّمُ في قرارة نفسه أنّه يَسيرُ في طريقهِ بمحض اختياره، دُونَ أن يُؤَثِّر عليه مؤثِّرٌ خارجٌ عن كيان ذاته.

وقد استفاد شياطين الإنْسِ والجنّ من طريق التوجيه غير المباشر فأضلُّوا به خلائق كثيرين.

* * *

واجب حامل الرسالة:

فعلى حامل الرسالة أن يكون خبيراً بالنُّفوس الإنسانيّة، وأن يستخدم الطريق المباشر إذا كان هو الطريق الأجدى والأصلح لتحقيق المقصود، وأن يستخدم الطريق غير المباشر على اختلاف سُبُلِه، مُخْتاراً منها ما يراه أكثر

نفعاً، وأوصل إلى تحقيق المقصود، دون أن تَصُدَّهُ عقباتٌ نفسيّة، رجاء أن يكون أداؤه لرسالته ذا تأثير كبير ونفع عظيم.

* * *

وفي المقولات التاليات من هذا الفصل شرح لطائفة نافعة من سُبُل[(١)] التوجيه غير المباشر، وهي ما يلي:

١ ـ البيان الكلاميُّ غير المباشر.

٢ ـ القدوة الحسنة.

٣ ـ البيئة والرفقة الصالحة.

٤ ـ القصة النافعة والمشاهد التمثيليّة.

٥ ـ القراءة الحرَّة وأَثَرُها.

٦ ـ الترنيم والنشيد بطريقة إسلاميَّةٍ شكلاً ومضموناً.

٧ ـ ادخال البيان الإسلاميّ ضمن العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات.

٨ ـ البثُّ العرضيُّ المفيد عند المناسبات الملائمات.

* * *

(١) اخترت أن أعتبرها سُبُلاً تفريقاً بينها وبين المناهج لأنَّ المنهاج هو الطريق الواضح، أمّا السبيل فهو الطريق سواءٌ أكان ضيقاً أم واسعاً، ويطلق على الطريق في الأرض والجوّ والبحر والماديّ والمعنويّ، ومنه قول الله تعالى: ﴿وأوحى ربّك إلى النحل أن اتخذي سُبُل ربّك ذُلُلاً﴾.

المقـولة الأولـى
من سُبُل التوجيه غير المباشر

البيانُ الكلاميُّ غير المباشر

البيان الكلاميُّ المباشر هو البيان الذي تكون الدلالة فيه على المعنى المراد باللفظ الموضوع له لُغةً، أو باللفظ الدال عليه في الاستعمال العام الدارج، أو باللفظ الدال عليه اصطلاحاً، عند أهل علم من العلوم، أو فنٍّ من الفنون، أو الدّال عليه في الإصطلاح الشرعي.

أمَّا البيان الكلاميّ غير المباشر فهو البيان الذي يُستخدم فيه التشبيه والتمثيل، أو الاستعارة، أو المجاز، أو الكناية، أو الإلماح، أو التعريض، أو فَحْوَى الخطاب، بالمفهوم الموافق، أو المفهوم المخالف، إلى غير ذلك مما يُكْتَفَىٰ فيه بدلالة اللّوازم الفكريّة، ولا تكون فيه الدلالة على المعنى المراد بمنطوق اللّفظ.

فالبيان الكلاميُّ غير المباشر هو الذي يأتي متوارياً، أَوْ مُسْتَخْفياً بأقنعة كثيفة، أو بأقنعة متوسطة الكثافة، أو بأقنعة رقيقة، تعطي جمالاً، ولا تحجُبُ الرُّؤية عن قَاصِدِها ذي النظر العادي.

وبالبحث والمقارنة نلاحظ أنّ مقادير التواري، ومقادير طبقات السُّتور، والكثافات في البيان الكلاميّ غير المباشر، تختلف، ونلاحظ أيضاً

أنَّ ما يكون شديد الخفاء منه عند بعض الناس، لا يكون كذلك عند آخرين ذوي فطنة وذكاء.

ومن السُّتور الكلامية غير ذات الكثافة الشديدة، والّتي يُدرِكُ متوسطو الذكاء أو من دونهم ما وراءها بسُهُولة، سُتُورُ التشبيهِ، والتمثيل، وبعض الاستعارات، والمجازات التي يكْثُر تداولها بين الناس، والكنايات التي تَقِلُّ فيها اللّوازم الفكرية.

وتزيد طبقات السُّتُور كلَّما بَعُد التشبيه، وبَعُدَتْ الاستعارة، وبَعُد المجاز، وكثُرَتْ سِلْسَلةُ اللوازم الفكرية.

والمعنىٰ المدلول عليه بالبيان الكلاميّ غير المباشر له أربعة مستويات:

المستوى الأول: أن يكون معنًى قَرِيبَ التناول، لا يحتاج إلى متابعة لوازم عقلية متعدّدة، مثل قولنا للدّلالة على طول إنسان: لَا يدخُل الأبواب إلّا إذا خفض رأسه، أو تقاصر بجسمه.

ويمكن أن نمثل لهذا المستوىٰ بقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿. . . وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾.

أي: ويثيبُهُمْ على إحسانهم، ويُدْخِلُهم جنّاتِ النعيم، لأنَّ من أحبّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته، فهذه من لوازم المحبّة.

وبقول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) في بيان واجبات برّ الوالدين:

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾.

أي: ولا تَقُلْ لَهُمَا مَا هُوَ أشدُّ من كَلِمَةِ «أُفّ» ولا تفعل فِعْلاً هو أشدُّ منها، وهذا يُفْهم بداهةً باللّزوم الذهني، لأنّ من نُهِيَ عن القبيح الأخف فهو

مَنْهِيٌّ عن القبيح الشديد، والقبيح الأشدّ، بمقتضى اللّزوم العقلي.

المستوى الثاني: أن يكون معنًى متوسّط الْبُعْد، يُدْرِكه الذّهْنُ دون تأمّل عميق، وينتقل مع لوازم منطوق اللّفظ إليه بغير مشقّة فكريّة.

مثل الكناية عن كثرة إطعام الضيفان عند البدْوِ أن يقول قائلهم: «فلانٌ كثيرُ الرَّماد» أي: مضياف جواد، لأنّ كثرة الرّماد عندهم من كثرة إيقاد النار، وكثرة إيقاد النار من كثرة الطبخ عليها، وكثرة الطبخ تدلُّ على كثرة الضيوف بحسب العادة.

المستوىٰ الثالث: أن يكون معنًى بعيداً، بسبب كثرة لوازمه العقليّة، أو بسبب أنَّ هذه اللّوازم تحتاجُ إلى تعمُّقٍ في التفكير حتّى يُدْرِكَهَا الذّهن، وفي الغالب لا يُدرِكها إلّا الأذكياء والعلماء.

ويمكن أن نُمَثِّلَ لهذا المستوىٰ بقول إبراهيم عليه السلام حين رفض عبادة الأصنام وكلَّ ما في الأرض، وبدأ يبحث عن ربّه في السماء، كما أخبرنا الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: إنّ غياب الكوكب ظاهرةُ حدوث، وصفة الحدوث لا تكونُ من صفات الرّبّ الخالق جلّ وعلا، فالكوكبُ لا يصْلحُ لأنْ يكونَ رَبًّا، فأنَا لَا أحبُّ عبادَةَ الآفلين، الّذين ليس أَحَدٌ مِنْهُمْ يَصْلُحُ لأن يكون رَبًّا خالقاً، إنَّما أُحِبُّ عبادةَ رَبِّي الحقّ، الذي لا تَعْرِضُ له عوارضُ الحدوث.

فجملة ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ في معرض الحديث عن الرّبّ الخالق تستدعي لدىٰ أهل الفكر والنظر، وأذكياء التأمُّلِ كُلَّ هذه اللّوازم الذهنيّة العقلية المنطقيّة.

المستوى الرابع: أن يكون معنًى يُلْمَحُ لَمْحاً، أو يُشَمُّ شَمًّا، ويَتَطلَّبُ إدْرَاكُه حِسًّا مُرْهَفاً، ومُمَارَسةً لإدْراكِ مشاعر النفوس من وراء تعبيرات اللّسان.

وقد لا تظهر لوازم فكريّةٌ تَدُلُّ عليه، بل قد تكون الإشارة إليه من قرائن الأحوال، أوْ مِنَ التصريح بشيءٍ وعدم التصريح بقرينه أو مقابله، مع وجود الدواعي لهذا التصريح.

ويعْمَلُ الذكاءُ وقُوّةُ الحدْسِ في هذا المجال لاكتشاف ما يختلج في النفوس من معانٍ لم يُفْصِحْ عنْها اللّسان، لسَبَبٍ من الأسباب، كالاستحياء، أو الكبر، أو العفّة، أو الخوف، أو غير ذلك.

ونستطيع أن نمثّل لهذا المستوى الرابع بالأمثلة التالية:

١ ـ قول موسىٰ عليه السلام بعد أن سقى لابنتي الشيخ الصالح عند ماء مَدْيَنَ، ثم تولّى إلى الظّلّ، فيما حكاه الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

يبدو لي أن موسَىٰ عليه السلامُ يشير في دعائه باستحياءٍ إلى حاجتِه إلى الزوجة إشارةً خفيّةً لاَ تُعْرَفُ إلاّ من قرينَةِ الحال.

واستعمل الفعل الماضي «أنزلْت» ثقةً باستجابة ربّه لدعائه، وأنّ حاجته مقضيّة.

٢ ـ قول أيّوبٍ عليه السلام بعد أن طال به المرض ثمانية عشر عاماً: يا ربّ إنّي مسّنيَ الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب، قال الله عزّ وجلّ مبيناً دعاءه في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ: أيْ: بتعبٍ وبلاء ومؤلمات جسديّة ونفسيّة، فهو في دعائه هذا يشير باستحياء إشارة خفيَّة إلى طلب الشفاء، معلّلاً ذلك بأثر وساوس الشيطان في نفسه من جرَّاء طُوْلِ المَرض، فهذه الوساوس قد زادتْ متاعب جَسَدِه وآلاَمَهُ، وعذّبَتْ نَفْسَه.

٣ ـ قول امرأة عمران حين وضعت جنينها الّذي كانت قد نذرته مُحَرَّراً لبيت المقدس، وكانت تنتظر أن يكون ذكراً، فجاء أنثى، وأسْمَتْهَا مَرْيم: «رَبِّ إنّي وضَعْتُها أنثَىٰ» ـ «ولَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنْثَىٰ».

قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

فهي تشير بقولها مع مساعدة قرينة الحال إلى مشاعر التَّحسُّر الّتي تشغل قَلْبَهَا سَاعتئذٍ، وتَتَساءَل في نَفْسِها هل يقبَلُ الله عزّ وجلّ هذه الأنْثَىٰ في وفَاءِ نَذْرِها بَدَلَ الذَّكر الذي كان في تصوّرها دُونَ أَنْ تجعلَهُ قيداً فِي عبارة نذرها، فاستجاب الله دُعاءها:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا . . . ﴿٣٧﴾ ﴾.

٤ ـ قول ذي النون عليه السلام وهو مُلتَقَمٌ في بطن فَم الحوت في دُعائِهِ لربِّه: «لا إلَه إلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إنّيَ كُنْتُ من الظّالِمين» قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

لقد كان دعاء ذي النون توحيداً، وتسبيحاً، واعترافاً بالذَّنب، إلاّ أنّه يشير باستحياءٍ شديدٍ من طَرفٍ خَفِيٍّ إلى طلب النجاة.

* * *

أمثلـة عامـة:

١ ـ إنّ دلالة تشبيه الرجل بالأسد على أنه رجل شجاع دلالَةٌ غير مباشرة، لكنّ هذا التعبير يدلُّ على شجاعته إذا انتقلنا من التشبيه إلى الغَرَض منه، وفهمنا هذا الغرض فهماً ذهنياً.

٢ ـ وإذا قُلْنَا: إنّ فلاناً من الناس مكتبةٌ كبيرة، كان هذا القول دليلاً على أنّه كثير العلم واسع الاطلاع، ولكن بدلالة غير مباشرة، إذْ لا بُدَّ فيه من الانتقال من تشبيهه تشبيهاً بليغاً بمكتبة، إلى الغرض من هذا التشبيه البليغ، وبهذا الانتقال نفهم فَهْماً ذهنيّاً أَنَّهُ كثير العلم واسع الاطلاع.

وحين يكون التعبير بأسلوب الاستعارة تكون كثَافَة السُّتُور أكثر، وخطوات الانتقال أكثر.

٣ ـ وإذا قلنا: فلان ذو قصر عظيم، كان هذا القول دالاً دلالة غير مباشرة، على غِنَاه، أو أنّه ذو مكانةٍ رفيعة في قومه.

وهذه الدّلالة قد توصَّلْنا إليها بعد أن خطونا خطواتٍ ذهنيّة وراء اللّفظ، وأدركنا باللّوازم الذهنيّة أنّه لو لم يكن غنيًّا أو ذا مكانة رفيعة في قومه، لم يستطع أن يتخذ لنفسه قصراً عظيماً.

فجاء التعبيرُ كنايةً دالّةً على هذا المعنىٰ، دون أَنْ يكون اللّفظُ دالاً عليه دلالة مباشرة، وهكذا كلُّ الكنايات.

٤ ـ وقول الله عزّ وجلّ بأسلوب الاستعارة المكنيّة خطاباً للابْنِ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

فيه دلالة على وجوب أن يتذلَّل الابْنِ لوالِدَيْهِ، إلاّ أنّ هذه الدَّلالة لا تُدْرَكُ بصورة مباشرة، وإنّما تُدْرَكُ بَعْد التأمُّلِ التحليليّ في هذه الاستعارة المكنيّة، فالتعبير هو من قبيل البيان الكلامي غير المباشر، الْمَسُوقِ بأسلوبٍ جماليٍّ بديع.

٥ ـ وقول الله عزّ وجلّ بأسلوب المجاز المرسل، يصف صنفاً من أصناف المنافقين، في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ . . . يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

فيه دلالةٌ علىٰ شدّةِ الضَّغْط على منافذ الآذان برؤوس الأنامل، لحَجْبِ صوت الصواعق عنها حذَرَ الموت بالصّوت العظيم، بالتعبير بوضع الأصابع بدَلَ وضْعِ رؤوس الأنامل في الآذان، المشعر برغبة واضعيها في إدْخال كلّ أصابعهم في آذانهم لو استطاعوا ذلك، حتّىٰ يحجُبُوا عنها صوت الصواعق حجباً تامًّا.

لكنّ هذه الدلالة لا تُدْرَكُ من اللفظ بصورةٍ مباشرة، وإنّما تُدرَكُ بعد التأمّل التحليليّ في هذا المجاز المرسل، والانتقال من ظاهر اللّفظ، إلى الغرض من استخدامه بدلَ اللّفظ الدّالِ على حقيقة العمل، فهو إذن من قَبيل البيان الكلاميّ غير المباشر.

٦ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا . . . ﴿١٧﴾ ﴾.

فيه إسناد السيلان إلى الوادي، مع أنّ السّيلان إنما هو للماء في الوادي، وبالتأمل نُدْرِكُ أن الغرض الدّلالة على أنّ الّذي يُشَاهِدُ تَدَفُّقَ مَاءِ

السَّيْلِ المالىء للوادي يَشْعُرُ بأنّ الواديَ كُلَّهُ يَجْرِي مَعَ السَّيْل.

لكنّ هذه الدلالة لا تُدْرَكُ من اللّفظ بصورة مباشرة، وإنَّما تُدْرَكُ بعد التأمُّل التحليليّ في هذا المجاز الذي جرى في الإسناد، وبعد الانتقال من ظاهر اللّفظ، إلى الغرض من استخدامه بدل اللّفظ الذي يدُلُّ على سيلان ماء السيل في الوادي، فهو إذن من قبيل البيان الكلاميّ غير المباشر.

وعلى هذا النّمط يجري تحليلُ كلّ بيان كلاميّ غير مباشر، إذا كان جارياً ضمن الأساليب البيانيّة المحمودة عند البلغاء.

فالبيان الكلاميُّ غير المباشر، هو البيان الذي يكون بالتعبير عن فكرةٍ لتُفْهَمَ معها فكرةٌ أُخرى، أو ليُفْهَمَ منها توجيه التعبير لغير من وُجّه له في الظاهر، عن طريق اللوازم الفكريّة القريبة، أو متوسطة القرب، أو البعيدة، أو شديدة البعد.

وهذا المعنَىٰ الآخر إنما يريد المتكلم الإشارة إليه من طَرَفٍ غيْرِ ظاهر، ولا يريد التعبير عنه بأسلوبٍ مباشر، لغَرَضٍ بيانيّ جمالي، أو لغرضٍ تربويّ، أو لغرض إخفاء المراد عن غيْرِ من يُوجّه له، إلى غير ذلك من أَغْراض يَقْصِدُها المتكلمون.

* * *

أغراض استخدام البيان الكلاميّ غير المباشر:

مع ما في البيان الكلامي غير المباشر من دلالة على ذكاء من يستعمله، وقدرته على التصرّفِ بفنون التعبير، ومع ما فيه من مجالٍ واسع لتفنّن أَدَبِـيٍّ لا حصر له من قِبَلِ نوابغ الأدباء، وعباقرة البلغاء والشعراء، فهو مجالٌ لتحقيق أغْراضٍ كثيرة، منها الأغراض التالية:

الغرض الأول: أن يكون المقصود بتوجيه الكلام ذا مكانة رفيعة في قومه، فهو يَكْرَهُ أن يوجّه له الكلام ذو الدلالة المباشرة، في تعليمه، أو

دعوته إلى الحقّ والخير، أو نصحه وإرشاده، أو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

فالأرجىٰ لاستجابته أن يستخدم لهدايته أو إصلاحه وحمايته البيان الكلاميُّ غير المباشر.

الغرض الثاني: أن يكون المقصود بتوجيه الكلام من ذوي النفوس المصابة بداء الاستكبار والاستنكاف عن تَقَبُّلِ التعليم والدعوة المباشرة، والنُّصح والإرشاد والأمر والنهي.

فالأَرْجَىٰ لاستجابته أن يُسْتَخْدَم معه الْبَيَانُ الكلاميُّ غير المباشر، لعلّه ينتفع بما يستنبطه هو بنفسه من لوازمه، ودلَالاته البعيدة.

الغرض الثالث: إظهارُ الاحتفاءِ بذكاء من يُوجّه له الكلام، أو بارتفاع منزلته الاجتماعيّة، والإشعار بأنّه من الّذين تكفيهم إشارات الكلام، وكناياته، ورموزه البعيدة، وبأنّه لا يحتاج إلى كلامٍ ذي دَلالةٍ مباشرة.

الغرض الرابع: إرْضاءُ الحسّ الأدبيّ لدَىٰ من يُوجّه له الكلام، إذْ هو من الّذين يستمتعون بالكلام الأدبيّ الرفيع الذي له دلالات رائعات غير مباشرات، ويحلو في نفوسهم ويستعذبون أن يخاطبوا به، ولا يكترثون للكلام ذي الدلالات المباشرات الّتي لا تحمل مقاصد ذوات دلالاتٍ غير مباشرات.

الغرض الخامس: عدم مواجهة المخاطب بالنَّقْدِ الصريح، أو العتاب، أو التلويم.

الغرض السادس: إخفاء المراد عن جمهور المستمعين، وإشعار المخاطب وحده بالمراد عن طريق الرمز، لأغراضٍ سياسيّة، أو عسكريّة، أو تربويّة، أو غيرها.

كما وقع في غزوة الخندق إذْ بلغ الرسولَ ﷺ أنّ بني قُريظة نقضوا عَهْدَهُمْ، فأرسَلَ وفْداً من الأنصار فيه، سيّدا الأوس والخزرج إلى كعب بن أسد القرظيّ، سيّد يهود بني قُريظة ليستطلعوا الخبر، وقال لهم: انطلقوا حتّىٰ تنظروا، أَحَقٌّ ما بَلَغَنا عن هؤلاء القوم أمْ لا؟ فإنْ كان حقًّا فالْحَنُوا لي لَحْناً أَعْرِفُه، ولا تَفُتُّوا في أعضاء القوم[1].

وكذلك فعلوا لمّا عَلِمُوا أنّ بني قريظة قد نقضوا عهدهم حقًّا، إنّهم لمّا عادوا إلى رسول الله ﷺ، سلّمُوا عليه، ثم قالوا له: عضَلٌ والْقَارَةُ. ففهم الرسول ﷺ المراد، وعلم أنّ القوم قد غدروا كما غدرت عَضَلٌ والقارة بأصحاب الرجيع.

الغرض السابع: التوصُّل عن طريق اللّوازم العقلية إلى معانٍ قد لا يكون لها ألفاظٌ تدلُّ عليها دلالةً مباشرة.

الغرض الثامن: تزيين الكلام ليكون أكثر تأثيراً في نفوس المخاطبين.

الغرض التاسع: قد يكون الأسلوبُ غَيْرُ المباشر مُقرّباً للفكرة الغامضة، أو مقدّماً لها مقترنةً بحُجَّتها المقنعة بها.

الغرض العاشر: إمكان التهرُّب من إرادة المعنىٰ عند الإحراج، وذلك إذا كانت إرادَتُهُ تسوءُ المخاطبَ به، أو تَسُوءُ غَيْرَه من أَنْدادِه أو حُسَّاده أو غيرهم.

وفي كثيرٍ من الأحوال يكونُ خطابُ الناس بالبيان الكلاميّ غير المباشر هو الأجدىٰ أثراً، والأكثر نفعاً، لأنّه أوقع في نفوسهم، وأكثر إرضاءً لغُرُورهم، أو أَوْفَق لظروف الحال الّتي يكُونُون عليها.

ولكن لا يصحُّ أن يكون كلُّ الكلام جارياً وفْقَ أُسلوب البيان الكلاميّ

---

(١) أي: تكلّموا بالرمز ولا تتكلموا بصريح القول.

غير المباشر، إذ الأصْلُ في الكلام هو الأسلوبُ المباشر، وهو بمثابة الخبز الذي تُؤْكل معه ألوان الأطعمة.

إنّ السبيلَ غَيْرَ المباشر ينبغي أن لا يزيد في الكلام كثيراً، حتَّىٰ لا يفْقِد الكلامُ قواعده وأرْكانه الأساسيّة، وينبغي أن يكون في غضون الكلام الجاري على أصله، وبمقدار الأغراض منه، وبمقدار الحِلْيَاتِ التي تتزيّن بها الْحِسَانُ عادةً.

* * *

المقـولة الثانيـة

من سبل التوجيه غير المباشر

القُـدْوَةُ الحسنـة

- ١ -

فطـرة التقليـد

ينشأ النّاشىء مفطوراً على اكتساب حركاتِه وأَعْمالِه وتصرّفاته في الْحَياة بالمحاكاة والتقليد.

فالطّفلُ - ذكراً كان أَمْ أنْثَىٰ - يُقَلِّدُ في بَدْء حياته أَبَوَيْه في كلّ حركاتِهما وأعمالِهما وتصرّفاتهما، فهو يكتسب بتقليدهما ما يلزمه لحياته العاديّة، وكلَّ ما يُعْجِبُه من عِلْم وسُلُوك.

والتَّقْلِيدُ أَسْرَعُ وأَيْسَرُ وَسِيلَةٍ للتّعلُّم الْعَمَلِي.

فإذا بدأ الطفل أو الطفلة بالتمييز أخَذ الذكر يُقلِّدُ أباه، في حركاته ولباسه وتَصَرُّفَاته، وأخَذَتِ الأنْثَىٰ تُقلِّد أُمَّها في حركاتها ولباسِها وتَصَرُّفاتها.

ثمّ قد يلاحظ الناشىء الذكر في مجتمع الرجال من هو مثير لإعجابه أو إعجاب غيره في بيئته بحُسْنِ تصرّفاته أكثر من أبيه، كأستاذه أو مُدِيرِ المدرسة، أو إمامِ المسجد، أو غير هؤلاء، فيحاول أن يُقَلّدَهُ رجَاءَ أن يجتذب إعجاب الناس به.

وقد تُلاحظ الناشئة الأنثىٰ في مجتمع النساء من هي مثيرة للإعجاب في مظهرها وتصرّفاتها أكثر من أمِّها، كمعلِّمَتِها، أو مديرة المدرسة أو إحدى سيّدات بَيْتِها، فتحاول أن تقلّدها رجاء أن تنال إعجاب النّاس بها.

وإذا كانت البيئة من البيئات الَّتي يَرُوجُ فيها تمجيد المغنّين والمغنيّات، والراقصين والراقصات، والممثلين والممثّلات، والمنحرفين عن صراط الله السَّوِيّ والمنحرفات، وأشباه هذا الصنف من النّاس، فإنَّ الأجيال الناشئة فيها تحاول أن تتطلع إلىٰ هذا الصنف، ليختار كلُّ واحِدٍ منهم من يراه النموذجَ الأمثل لتقليده، واتّباع تَصرّفاته واختياراته، مهما كانت فاسدة ضالّةً مُضِلَّة.

ويستمرُّ الإنْسَان مُتَطلّعاً إلى تقليدِ المتفوّقين النابهين، الذين يجدُ في نفسه الاستعداد لتقليدهم ومحاكاتهم.

فذو مَيْلٍ لكتابة الشعر، يُعْجبه شعر بعض فُحُولِ الشعراء المحمودين على ألسنة الناس، فحياول أن يكتُب شعراً على منهجه وأسلوبه.

وذو مَيْلٍ لكتابة النثر، تُعْجبه كتابة بعض كبار الكتّابِ المحمودين على ألسنة النَّاسِ، فيحاول أن يمارس الكتابة على منهجه وطريقته.

وذو ميل لأن يكون خطيباً يعجبه بعضُ مصاقع الخطباء المحمودين على ألسنة الناس، فيحاول أن يمارس الخطابة على منهجه وطريقته.

وذو قدرات جسديّة رياضيّة يعجبُه بعضُ أبطال الرياضة المناسبة لاستعداده، فيُحَاوِل أنْ يُمَارس الرياضة على منهجه وطريقته، ويجتَهِدُ في التدرُّب المضني عسىٰ أن يكون بطلاً أوله سَبْقٌ ما.

وبعض الناشئين يقلّد عابداً يشار إليه بالبنان، وبعضهم يقلّد زعيماً في لباسه ومِشْيَتِه وقصّة شعره وطريقته في شكل شاربيه.

إلى تقليدات غريبات عجيبات، ومن هنا نشأ التقليد في الأزياء بين الشعوب.

أمّا مَيَادينُ التنافس والسّبق في الكمالات فالتقليد فيها محمود، لأنّه أيْسَر وأسْرَعُ وسِيلَةٍ للتعلّم العملي.

ويشْتَرِكُ مع دافع التقليد الفطري دافِـعُ الْغَيْرة من المقلَّد، والرغبة في منافسته وسَبْقه.

وقد يقلّد الإنسان عدداً من الناس في خصائصهم لتكون له ميزَةُ جَمْعِها إذا استطاع ذلك.

ـ ٢ ـ
أسباب تأثير القدوة

تأثيرُ الْقُدْوَة في الناس يرجع إلى عدّة أسباب يظهر منها الأسباب التالية:

السبـب الأول:

رغبة الإنسان في تعلّم ما ينفعه في الحياة بيُسْرٍ وسهولة وسُرْعَة، فما يتعلَّمُهُ الإنسان بالمشاهدة والتقليد في يوم واحد، قد لا يستطيع أن يتعلّمه ببيان كلامي طوال شهر كامل أو أكثر.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «خذوا عَنّي مناسِككم» وقال بشأن الصَّلاةِ: «صَلُّوا كما رأيتموني أُصَلِّي».

ونلاحظ أنّ الْمِهَن جميعاً تُكْتَسَبُ بتقليد ذوي الخبرة فيها، وكذلك اللُّغات تُكْتَسَبُ بالتقليد منذ الطفولة الأولى، وكذلك مختلف الظواهر

السلوكيّة والعادات للمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان.

وتتأصّل الأعمال والعادات والتقاليد وسائر أنواع السلوك التي يكتسبُها الإنسان بالتقليد من بيئته، حتَّىٰ تكون جزءاً من ذاته، فيَغْدُو من الصعب عليه جدًّا أن يتخلّىٰ عنها، ولو كانت عاداتٍ وتقاليدَ غيرَ صالحة.

ولهذا لمّا غلبتِ الحجّةُ العقليّة مشركي القرون الأولى بأنّ ماهم فيه من شِرْكٍ أمْرٌ باطِلٌ لا خَيْرَ فيه، ويُعَرّضهم لعذاب الله الخالد يوم الدّين، تذَرَّعوا لإصرارهم على الاستمرار بما هم فيه من شركٍ وأعمال غير صالحة بقولهم: «إنّا وَجَدْنَا آباءَنا على أمَّة وإنّا على آثارهم مقتدون».

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) بشأنهم خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

على أُمَّةٍ: أي: على دين، وسُنَّة، وطريقة، وملّةٍ، فكلمة «أمّة» تستعمل بهذه المعاني.

السبب الثاني:

فطريّة حبّ الإنسان تقليد غيره إذا قام بعملٍ هو لا يُحْسِنُه، وقد جاء شرح هذا في الفقرة الأولى.

السبب الثالث:

تفرض النماذج البشريّة المثيرةُ للإعجاب تأثيراً قويًّا على الجماهير من الناس، وهذا التأثير يُحرّك فيهم دوافع المحاكاة والتقليد، اقتداءً بالنماذج المتفوّقة الّتي أثارت إعجابَهُمْ، ولا سيّما إذا انطلقت ألسنة كثيرةٌ بالثناء على هذه النماذج، وتمجيد صفاتها، أو سلوكها، أو طرائق حياتها أو مفاهيمها وأفكارها.

ولهذا نجد الجماهير من الناس يتَّخِذون من ذوي المكانات الحقيقيّة أو المزوّرة فيهم قدوةً لهم، في أَعْمَالهم وأقوالهم ومفاهيمهم وعقائدهم، ويتصَوَّرُونَ الحقّ والخير ما هم عليه، ولا يقوّمون مكانتهم على أساس ما هم عليه من حقٍّ وخير.

ومن تقليدهم لذوي المكانة فيهم تسميتُهم أبناءهم بأسمائهم، شعوراً بمجد الاسم المكْتَسَبِ مِنْ مَجْدِ المسمّى، وتيمُّناً بأنْ يكون أبناؤهم في المستقبل مثْلَهم في مكانتهم.

ومن هُنَا كان تأثير الشعوب الغالبة بالشعوب المغلوبة، فالشُّعوبُ المغلوبة تنظر إلى الشعوب الغالبة نظرةَ إعجاب وإكبار، ولَوْ كانت تكْرَهُهَا وتمقُتُ تَسلُّطها عليها، وبَسَبِ نظرةِ الإعجاب والإكبار تُحَاوِل أن تقتدي بها، شعوراً منها بأنَّها إذا قلَّدتها استطاعت أن تُسَاويها في القوّة، فتكون لها نِدًّا، ثم تعمل على أن تتفوقَّ عليها، وتسبقها.

السبب الرابع:

التقليد محاكاةٌ فيها معنى المنافسة التي يُحبُّها الإنسان، إذْ تُرْضِي أَنَانِيَّتَه، بخلاف التعلُّم بالبيان الكلامي، والنصح والإرشاد والأمر والنهي.

- ٣ -

استغلال دعاة الشرّ دوافع التقليد في الناس

حين تكون القدوة أسوةً سيّئةً، فإنّ تأثير التقليد والمحاكاة يكون تأثيراً ضارًّا مُفْسداً، وطريقاً قريباً سهلاً لوصول المقلِّدين المقْتَدِين إلى دركات النقص الّتي انحدرت إليها أُسْوَتُهُمُ السُّيئة.

وقد عرف دعاة الشرّ وشياطين الإفساد في الأرض ما للنّماذج المحمودة

الممجَّدَةِ بين الناس من تأثير على نفوس الجماهير، وهذا التأثير يدفعهم إلى الاقتداء بهم، واتّخاذهم أُسْوَةً لهم.

من أجل هذا أخذوا يصطنعون أمثلة بشريَّةً ذات مفاهيم وعقائد باطلة، وأعمال ضالّة فاسِدَةٍ ومُفْسِدة، وأَحَاطُوا هذه الأمثلة البشريّة المصطنعة بالأصباغ والألوان الخادعة، وسَلَّطُوا عليها الأضواء الإعلاميَّة، ونشروا بين الناس حولها عباراتِ التمجيد والثناء، لإثارة الإعجاب بها في نفوس الجماهير، حتى تكون أسْوَتَهُمْ الّتي يقتدون بها.

ومن هذه الأمثلة البشريّة المصطنعة أعلامٌ علميّة ذاتُ مذاهب هدّامة، وآراء باطلة مزخرفة، فقد أحاطها المفسدون في الأرض بهالات التمجيد والإكبار، ليتخذها جماهير الناس أسوةً لهم، يقتَدُون بها في آرائها ومذاهبها.

ومن هذه الأمثلة المصطنعة نجومُ الفنّ والجمال والأناقة والغناء، من رجالٍ فاسقين، ونساءٍ فاسقاتٍ، ليكنوا أسْوةً لجماهير الناس، يقتدون بهم في مظاهرهم وأنواع سلوكهم، حتَّىٰ في تفاهاتهم الخاصّة.

إلى غير هؤلاء وهؤلاء من أمثلة تزخر بها وسائل الإعلام المختلفة، حتَّىٰ أمْسَتْ هذه الأمثلة هي الأسوة الّتي تقلّدها الأجيال الناشئة، مع كلٍّ ما فيها من سوء وشرٍّ وفسادَ وإفساد.

ولا يخفى أنَّ الترويج لهذه الأمثلة وعَرْضَها في أجهزة ووسائل الإعلام المختلفة، مقرونة بالثناء السّافر أو المقنّع، يضَعُ أَمَام جماهير الناس مادّةً خطيرة لفتنتهم وإثارة إعجابهم.

ومع الإعْجَاب تتولّد رغبات المحاكاة والتقليد، فتكون هذه الأمثلة هي الأُسْوَةَ المحبَّبَةَ الّتي يقتدون بها، ويترسَّمُونَ خُطَاها، من رجالٍ ونساءٍ، وفِتْيَانٍ وفتيات.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الإنسانَ قد يَسْهُلُ عليه التقليد، ولو كان فيه معنى الاتّباع، في الوقت الذي يصعبُ عليه تقبُّلُ النُّصْح والإرْشاد، وتقبُّلُ التكليفِ بالأمر والنهي، لأنَّ التقليد محاكاةٌ فيها معنى المنافسة التي يُحبُّها الإنسان، إذْ تُرْضِي أنانيّته.

ولا يخفىٰ أنّ النساء أكثرُ قابليّة للاستهواء من الرجال، فهُنَّ أسْرعُ استجابةً لدوافع التقليدِ ومتابعة مَنْ يُوضَعْنَ قُدْوَاتٍ لهنَّ، ومن هنا تنتشر بسُرْعَةَ بيْنَهن أَحْدثُ الأزْيَاء وأنواع السُّلوك التي تُقَدَّمُ لَهُنَّ في قُدواتٍ مشهوراتٍ في الفنّ والأناقة، أو في أيّ أمْرٍ تتردّدُ الألْسِنَة بالإعجاب به.

- ٤ -
واجب المسلمين عموماً وحَمَلَةِ الرسالة خصوصاً

وحين تكون القدوة أسوة حَسَنَةً فإنّ تأثير التقليد والمحاكاة يكون تأثيراً نافعاً مفيداً، وطريقاً قريباً سهلاً لوصول المقتدين المقلِّدين إلى مراتب الكمال الّتي ارتقعت إليها أُسْوَتُهم الحسنة، إذ كان لدىٰ المقلِّدين استعدادٌ بفطرتهم، وصِدْقٌ بإرادتهم لبلوغ هذه المراتب، وإلاّ فيكفيهم أن يجتهدوا ليرتَقُوا في سلّم الكمال الذي ينشدونه، والله يُعْطِي كُلاً منهم على مقدارِ اجتهاده واستعداده.

وقد بعث الله عزّ وجلّ في كلّ أُمّةٍ رسولاً، وجعله القدوة الصالحة لها، والأسوةَ الحسنة المثلَىٰ فيها، وجَعَلَ في الأمم السابقة بعد الرُّسُل أنبياءَ ليكونوا قدوة صالحة وأسوة حسنةً لها ولمن يأتي بعدها، إذْ جعلها نماذج بشريّة حيّة كاملةً، تُطبّق ما تَدْعُوا إليه من إيمان وخُلُق وعمل ظاهر وباطن، فكانت محمودةً في السماوات والأرض، ومُثِيرَةً في النفوس الإعجاب والإكبار.

واقتدى بهم واهتدىٰ بهديهم أصحابٌ لهم وحواريُّون، ومن اتَّبَعَهُمْ بإحسانٍ، فكانوا للناس أسوة حسنةً صالحين ونماذج حيَّةً يُقْتَدَىٰ بها.

ثمَّ اصطفى اللَّهُ عزّ وجلّ للرسالة الخاتمة أفضل الأنبياء والمرسلين، وأكملهم صفاتٍ وسلوكاً ظاهراً وباطناً، فكان النموذج الأمثل للإنسان الكامل، وكان القُدُوةَ الحسنة المثْلَىٰ للمقْتَدِين المؤمنين الصالحين المتقين والأبرار والمحسنين، من الناس أجمعين من بعده.

ولهذا أبان الله عزّ وجلّ للذين آمنوا أنّ رسولَهُ محمّداً أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لهم، يَقْتَدِي به من كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً، فقال تعالى في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

واصطفى الله عزّ وجلّ الأمَّةَ الإسلاميّة بعمومها لا بكلّ فَرْدٍ من أفرادِها، فجعَلَها خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس، وقد ظَهَرَ هذا في الصَّفْوَة الممتازة من أهل قَرْنِ الرَّسُولِ ﷺ، فكانت النُّخْبَةُ المختارةُ من أصحابه أمْثلةً حيّةً لمبادىء الإسلام وأحكامه وأخلاقه وآدابه، وكانت هذه النخبة أسْوَةً حسنة لغيرها ولمن وراءها.

ولا تزال طائفة قلّت أو كثرت من أمّة محمد ﷺ على توالي العصور، تتحلّى بالصّفات الإسلاميّة الّتي تجعلها قدوة حسنة للمتقين، وللناس أجمعين.

فالأمّةُ الإسلاميّة بمقتضىٰ الاصطفاء الربّانيّ لها مُكَلَّفَةٌ أن يكون مجتمَعُهَا على وجه العموم نموذجاً صالحاً وقُدْوةً حسنة للناس أجمعين، بالتزامها العمل بشرائع الإسلام وأحكامه، وبتخلُّقها بأخلاق الإسلام، فإذا

تحقّقَتْ بهذا كان حالُها أبْيَن من كل بيانٍ قَوْلِيٍّ يدعو إلى الدخول في الإسلام.

أمّا حَمَلَةُ رسالةِ الهداية، أو رسالة الإصطلاح والحماية، فهم مُكَلَّفون أنْ يكونَ كُلُّ واحدٍ منهم نموذجاً صالحاً وأسْوَةً حسنة لجميع المؤمنين المتّقين، وأن يكونوا من الَّذين ارتَقَوْا فوق مرتبة التقوى، وصاروا من أهل مرتبة البرّ، أو أهل مرتبة الإحسان، في إيمانهم، وأخلاقهم، وأعمالهم ومعاملاتهم للناس، وأن يَتَحَلَّوْا بصفاتِ عباد الرحمن بوصفهم أئمةً للمتقين[1].

ولا ينفع في هذا التظاهرُ ومراءاةُ الناس، فثَوْبُ الرّيَاء يَشِفُّ عمّا تحته، ولا بدّ أن يفتضح صاحبُه يوماً ما، وتنكشف للناس حقيقتُهُ، ويظهر أنه كان يخادع الناس بمظهره، لأغراضٍ دنيويّة، فمن أسَرَّ سريرةً ألْبَسَهُ الله منها رداءً، ومن أخفىٰ عن الناس معصيةً ستَرَهُ الله أوّلاً ليتوب، فإذا لم يَتُبْ واستمرّ على تكرير معصيته فضَحَهُ الله.

ومن المؤسف أن يكون واقع حال معظم المسلمين منفّراً من الإسلام، ومُبْعِداً عنه، لعدم التزامِهِمْ بشرائعه وأحكامه وأخلاقه وآدابه وهم ينتمون إليه.

ومن المؤسف أيضاً أن يكون معظم حال الدُّعاة والناصحين المرشدين، حملةِ رسالة الهداية أو رسالةِ الإصلاح والحماية، غَيْرَ مُلتزمين بما يَدْعُونَ الناس إليه، أو أن يكونَ كثيرٌ منهم مرائين طلابَ دُنْيَا يتظاهرون بحُسْنِ الحال، وبأزياء الكمال، وهم على خلاف ذلك فيما يُخفون عن أعين جماهير الناس من سلوكهم، فلا يتحقَّقُون بصفات المتقين، فضلاً عن أن يكونوا أبراراً أو محسنين.

---

(١) انظر ما يجب أن يتحلّوا به في باب الصفات التي يجب أن يتحلّى بها حملة الرسالة.

أهميّة التربية بالقدوة الحسنة

ونظراً إلى أهميّةِ التربية بالقدوة الحسنة أمر الله عزّ وجلّ رسولَهُ محمّداً ﷺ بأن يقتدي بهدي الرسُل السابقين له، فقال تعالى له في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٠ ﴾.

وقال له في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ . . . ۝٣٥ ﴾.

وخاطب رسوله والمؤمنين معه، بقوله في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ . . . ۝٤ ﴾.

وإذْ جَعَلَ اللّهُ عزّ وجلّ نساءَ النبيِّ ﷺ قُدْوَةً حسنَةً لنساء المسلمين، شدّد عليهنَّ ترتيبَ العقوبة بمضاعفتها إذا أتَتْ إحداهُنَّ بفاحشَةٍ مُبَيّنة ليَحْذَرْنَ فَيَحْتَرِزْنَ من الاقتراب من المواطن الْمُزْلِقة إلَىٰ الفاحِشَة، فَيُطَهِّرُهُنَّ الله بذلك تطهيراً عظيماً، كما جَعَلَ لَهُنَّ إذَا قَنَتْنَ (أي: أطَعْنَ وخَضَعْنَ وعَبَدْنَ الله) وعَمِلْنَ صَالحاً أجْراً مُضَاعفاً، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝٣٠ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ۝٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا

تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً: أي: ما يُريدُ الله بتوجيه هذه التكاليف المشدّدة، والوعيد المشدَّد، والإطْمَاع بالأجْرِ المضاعَفِ، إلاَّ الْعِنَايَةَ بكُنَّ، لتتَّقِينَ اللَّهَ باختياركُنَّ، فيُذْهِبَ عَنْكُنَّ بذلِكَ رِجْسَ المعاصِي والفواحشِ يَا أَهْلَ بيْتِ الرَّسُولِ، وليُطَهِّرَكُمْ بذلك تطهيراً زائداً عَنْ غَيْرِكُنَّ، حتَّىٰ تَكُنَّ قُدْوَاتٍ لنساءِ المسلمين، فَمِنْ شأنِ الْمُقْتَدَىٰ بِهِ أن يكون أعلَىٰ درجةً من المقتَدِي.

إنَّ الْقُدْوَةَ الحسنةَ وَظيفَةُ إمامَةٍ للمسلمين والمسلماتِ، ومَنِ احْتَلَّ مَرْتبةَ إمامٍ فَعَلَيْهِ أن يلْتَزِمَ بواجباتِ هذه المرتبةِ، وإذا أخَلَّ بها عُزِلَ عنها، وإذا عَصَىٰ معاصِيَ تُخِلُّ بحقُوق مرتبة المتقين ضُوعِفَ لَهُ الْعَذَابُ، كما جاء في تحذيرِ عبادِ الرحْمَٰنِ الذين هم أئمة المتقين، من أن يَقَعُوا في كبائر الشرك أو القتل أو الزّنا.

ونَفْهَمُ من هذا أنَّه ينبغي لنساء حمَلَةِ رسالةِ الهداية، أو رسالة النصح والإرشاد والأمْرِ بالمعروف والنّهي عن المنكر، أن يتأسَّيْنَ بنساء الرّسُولِ ﷺ، في شِدَّةِ التزامِهِنَّ، ليَكُنَّ قُدْوَةً صالحة لنساء المسلمين، ومن الأفضل أن يكُنَّ مثل أزواجهنّ في حمل الرسالة بين النساء ومؤهلاتٍ لها.

خـاتـمـة:

فالقدوة الحسنة المعجبة، تكون في صورة داعٍ ناصحٍ مرشد إمام، وفي صورة مجتمع يُقدِّم في ذاته النموذج الأمثل للمجتمع الفاضل.

والقدوة الحسنة المعجبة في كلتا الصورتين تجذب النفوس والقلوب للتقليد والاتّباع، بمحاسن سلوكها الفرديّ والاجتماعي، وَبِعَيْشِها عيشاً رَضِيًّا هانئاً مستقرًّا آمناً سعيداً، وتُهَيّءُ قُدْراتِ الآخرين التفكّريّة للاقتناع بصحّةِ وسلامَةِ المبادىء الّتي تُؤمِنُ بها هذه القدوة، وأقوميّة المنهج الذي تَسْلكه، فتؤثّر بحالها تأثيراً غير مُباشر.

* * *

المقـولة الثالثـة

من سبُل التوجيه غير المباشر

البيئة والرفقة الصالحة

- ١ -

مقـدّمـة

تُعتبَرُ البيئةُ من أخْطَر وأعْظَم وَسائِلِ التوجيه غير المباشر، فمفاهيم البيئة الاجتماعيّة، وعاداتُها، وتقاليدُها، ومحابُّها ومكارِهُهَا، ومثيراتُها، ومثبّطَاتُها، وتَطَلُّعاتُها تسري إلَىٰ كلّ الناشئين فيها، أو المخالطين لها، مُتَغَلْغِلَةً إلَىٰ أعماقهم، كما يَسْرِي الماءُ في التراب إذَا تجاورا، وهُمْ يَمْتَصُّونَهَا ويخْتَزِنُونها في ذَوَاتِهم، بتلقائيَّةٍ ذاتيّةٍ، دون أَنْ يشعرُوا بأنّهم يفعلون ذلك، ولا سيما إذا تلاقَىٰ أفرادُ الْبِيئَة في علاقات رُفْقَةٍ وصحبةٍ صالحة، متعاونة متآخية متوادّة.

باستثناء بعض أفرادٍ نادرين، لهم أحوال خاصّةٌ نادرة.

- ٢ -

أسباب تأثير البيئة الاجتماعيّة

ويرجع تأثير البيئة الاجتماعيّة فيمَنْ يَنْشأ فيها أو يُخالطها مخالطةً طويلةً

إلىٰ عِدَّة أسباب، نُلاحظ منها الأسبابَ التالية:

السبب الأوّل «الدافع الفطريّ في الإنسان إلى الاجتماع بأفراد نوعه».

إنّ الإنسان مطبوع منذُ أعطاهُ الله خلقه على أنّه مخلوقٌ اجتماعي، فهو يبدأ بمركّبٍ مزدوجٍ من أُمّه وأبيه، وهو سلالة انحدَرَتْ من مزدوجات، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾.

وهو وارثٌ للدافع الاجتماعيّ الموجود في أجداده، مُنْذُ أسْكَنَ الله عزّ وجلّ آدم وزَوْجَه الجنَّة، وجعل بين الصنفيّن الذّكَرِ والأنثى مشاعِرَ المودّة والرَّحْمة.

السبب الثاني: «الدافع المكْتَسَبُ من النشأة».

إنّ كلَّ فَرْدٍ من النَّاس ينشأ في بيئة أبوَيْن يمنَحَانِه العطف والحنان والحبَّ والعطاءَ وما يَحْتَاجُ لحياته في نشأته، ثم يجد نَفْسه في أُسْرةٍ أَوْسَع من أبوين، كإخوةٍ وأخَواتٍ وغَيْر ذَلِكَ، ويَجد فيها أُنْسَهُ وكثيراً مِمَّا يُحبُّ في حياته من لَعِبٍ ولهو وزينة وكثير من مُتَع الحياة.

ثمّ يَجدُ نفسه في مجتمع أوسع، فَيَنْمُو في نَفْسِه حبُّ الاجتماع البشريّ، والأُنس به، ويظلُّ كذلك يأنس بالاجتماع، ويحبُّه، ويكْرَهُ العزلة ويَسْتَوْحِش منها، لأنّه يجد في الاجتماع سكن نفسه، ومصالحها، وشعورها بالأمن، ولأنّه يُعبِّر بالاجتماع عن مشاعر المودّة والرحمة اللّتَيْنِ فُطِرَ عليهما، وتَنْزِعان فيه إلى التعبير عنهما، ولأنَّه يجِدُ في الاجتماع تحقيق كثير من رغباته، ومنها المشاركةُ في الأعمال، والتنافسُ، وحبُّ التقدير.

وقد بيّن الله عزّ وجلّ فطريَّةَ رغبة كلٍّ من الزوجين في أن يَسْكُنَ إلى

زوجه، وأنْ يتبادلا المودّة والرحمة، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ . . . ﴿١٨٩﴾ ﴾.

وبيَّنَ اللَّهُ عزّ وجلّ حُبَّ الإنسان للذّرّيّة، الّتي تكْتَمِلُ بها جماعَةُ الأسْرَةِ الّتي هيَ الخليّة المكتملة من خلايا المجتمع، فقال تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

السبب الثالث: «رَغْبَةُ الإنسان في اكتساب العلوم والمعارف والمهارات العمليّة والصّناعيّة، الّتي يتوصّل إليها الآخرون من الناس، وهٰذه لا تكونُ إلاّ بالاجتماع البشري».

إنّ من الأمور الظاهرة أنّ من فوائد الاجتماع البشريّ أن يكْتَسِبَ النّاسُ بعضُهُمْ من بعضٍ ما توصَّلُوا إليه من علوم ومعارف، وما اكْتَسَبُوهُ من خِبْراتِ ومَهاراتٍ عمليّةٍ حياتيّة، وخِبْرَاتٍ ومَهاراتٍ صِنَاعِيَّة، إلى غير ذلك من أنواع سُلُوكٍ حضاريّ.

وبما أنّ الإنسان مفطورٌ على حُبِّ معرفةِ ما ينفَعُهُ في حياته، وحُبِّ اكتساب الخبراتِ والمهاراتِ الّتي اكْتَسَبَهَا الآخرون من النّاس، فلا بُدَّ أنْ

تَدْفَعَهُ هٰذه الفطرة إلى الرَّغبةِ في الاجتماعِ بالّذين يَسْتَفيدُ منْهُم هذه المكتسباتِ، وأن يتبادل مَعَهُمْ لقَاءات الأخوة والصداقة والمودّة، وأنْ يتبادل معهم عطاءات الْعُلُومِ والمعارف والخِبْرات والمهارات.

السبب الرابع: «عَجْزُ الإنسان عن أن يقوم لنفسه بكلّ ما يحتاج إليه في حياته، لذلك فهو حريصٌ على أن ينخرِطَ في مجتمع بشَرِيٍّ يتبادَلُ أفرادُه مُنْتَجات تخصُّصَاتهم».

إنّ الإنسان بمفرده لا يستطيع أن يكون زرَّاعاً، وطحَّاناً، وخبازاً، وطبّاخاً، ونَسّاجًا، وخيّاطاً، وبنَّاءً، وطبيباً، ومُهَنْدِساً، إلى سائر تخصصات الحياة المختلفة، وأعمالها، أمّا عَمَلُه هو وتَخَصُّصُه فيكون واحداً من أعمالٍ وتخصُّصاتٍ كثيراتٍ يشتمل عليها المجتمع البشريُّ الذي يعيش فيه، فيُعْطي من تخصُّصِه ذوي الحاجات إليه، ويأخُذُ من تخصُّصاتهم ما يحتاج هو إليه، ويتمُّ في المجتمع البشريّ التبادُل بين الناس بحسب حاجاتِ كلٍّ منهم.

وهذا ما يجعل الفردَ مَدْفوعاً إلى أن يكون واحداً من أفراد مجتَمَعٍ لا غِنَى له عنْه، فهو يرتبطُ به ارْتباطَ مصالحَ متبادلة، تَنْشَأُ عنها علاقاتٌ ورَوَابِطُ اجتمَاعِيّةٌ وجدانيّةٌ وعَاطفيّة ومَصْلَحِيّة.

فالانعزاليّةُ شُذُوذٌ طارىء على الإنسان، ربَّما يُصَابُ بِها بعضُ الناسِ لأسبابٍ نفسيّةٍ مَرَضيّةٍ، وليست الانعزاليّةُ ظاهرةً صِحّيّةً.

- ٣ -

تكَيُّفُ الإنْسَان مع بيئته الاجتماعيّة

للأسباب الّتي سبق بيانُها نُلاحظ أَنَّ الإِنسان ـ ضمن سلوكه الطبيعيّ ـ إذا وُجِدَ في بيئةٍ اجتماعيَّةٍ ما، أَخَذَ بصفَةٍ تِلْقَائِيَّةٍ يُحَاوِلُ تكْيِيفَ نَفْسِه، وتَغْيير عَاداتِه وأنواعِ سُلوكه، ليسْتَطيع العيشَ بانسجام وتَوَاؤُمٍ، مع المجتمع البشري

الذي يَعِيشُ في وَسَطِه، هُرُوباً من مَشَاعر العزلة النفسيّة الّتي يَكْرَهُها بطَبْعِه، لو استمرّ على حالة عدم الانسجام والتواؤُم مع البيئة الّتي وُجِدَ فيها، ولئلاَّ يكونَ مَثَار استغرابِ واستنكارِ شركائه من البشر في هذه البيئة.

هذا ما لم يكن لدَيْه مُقَدَّماً إرادةٌ خاصّةٌ، مؤيَّدَةٌ بأفكارٍ وعقائِدَ راسخةٍ سابقةٍ، ضِدَّ البيئة الَّتي وُجِدَ فيها، وضِدَّ مفاهيمها وأنْماط سلوكها، أو ضدَّ أشخاصها، وهذا ما يُغَذِّي قادةُ اليهود عامّتهم به، حتّى لا ينْصَهِرُوا ولا يَذُوبُوا في البيئات التي يُوجَدُونَ فيها، ويُسَاعِدُهم على ذلك اتّخاذُ مجمَّعَاتٍ سكنيّة خاصّة بهم في أيِّ بلَدٍ يَنْتَقِلُونَ إلَيْهِ، وفي أيّةِ بيئةٍ يُوجَدُون فيها، ويُضْطَرُّون لِلْعَيْشِ ضِمْنَها.

ويُسَاعِدُ الناسَ على سُرْعَةِ التغيُّرِ للتلاؤُم ما فُطِرُوا علَيْهِ من دافع المحاكاةِ والتقليد للآخرين، عند أيِّ سبَبٍ يُحَسِّنُ في نفوسهم ذلك، كالاستحسان، والإعجاب، والرَّغْبَةِ أحياناً بهَمْزِ الآخرين ولَمْزِهِمْ وتَعْييرِهِمْ بعُيُوبٍ خِلْقِيَّةٍ أَوْ خُلُقِيَّةٍ، عن طريق مُحَاكاتهم، ثُمَّ تَلْزَمُهُمُ العادَةُ بالتكرار.

وقد تكونُ المحاكاةُ انعكاساً تلقائيًّا دون شُعورٍ ظاهر، كالصُّوَرِ المنعكسة في المرآة، ونُشَاهِدُ نظير هذا عند بعض الناس الّذين تتحرّك أَيْديهم وعضلاتُ وُجوهِهِمْ على مِثْلِ حَرَكَاتِ العاملينَ أمامهم، ببعض الأعمال الصناعيّة، أو الفنيَّةِ، كحدّادٍ، أو نجّارٍ، أو رَسَّامٍ، أوْ نَحْو هؤلاء، ورُبَّما كان الشعور الباطن يرجع إلى الاسْتِحْسَان، أو إلى الاسْتِهْجَان.

وباستطاعتنا أن نقول: إنّ التقليد والمحاكاةَ في الأعمال والأقوال من رُدُودِ الأفعال الطبيعيّة في الناس، تُجَاهَ ما يُشاهِدونَهُ ممّا ليس هو من ممارساتهم العاديّة.

وقد عرفنا فيما سبق أنّ فطرة التقليد والمحاكاة من الفطر النافعة في الإنسان، إذا كانت تتحرّك ضمن حدود دوائر الخير والفضيلة والأعمال

الصالحة، أو كانت موجّهةً لاقتباس ما هو نافع مفيد، لا ضَرَرَ مِنْه ولاَ إثْمَ ولا شرّ.

إنّ هذه الفطرة النافعة، إذا كانت موجَّهَةً توجيهاً حسناً، سهَّلَتْ على الإنسان عَمَلِيَّة تعلُّم الفضائل، والأعمال الصناعيَّة والفنّيّةِ بسُرْعَة، وسهَّلَتْ علَيْهِ الاقتباس السريع للأعمال الراقية، الّتي لم تَصِل الأجيالُ السابقة إلى اكتشافها ومعرفتها إلاَّ بَعْدَ تطويرٍ كثيرٍ، اعتمَدَ على اختباراتٍ وتجربات وتحسينات كثيرات، وقد انتهىٰ الناس بعْدَها إلى اختيار الأفضل والأحْسَن.

وهذه الفطرة تُيَسِّرُ على الإنسان القيامَ بالأعمال الصالحة الشاقَّة على نفسه، والمخالَفَةِ لأهوائه وشَهواتِه، إذْ يَجِدُ أَمْثالَهُ في بيئَتِه الّتي يَعِيشُ فيها يُمَارِسُونَها بيُسْرٍ وسُهولة، مَعَ رغبةٍ قلبيّة ونفسيّة يُوجِّهها الطَّمَعُ بما سيظفرون بِهِ من ثوابٍ جزيل، ونتائج وثمرات حميدات.

إنّ المحاكاة داخلَ البيئةِ الاجتماعيّةِ للعمل المشاهَدِ تُغْني المتعلّم خلال دقائق معدوداتٍ عن شرحٍ تعليميٍّ كلاميٍّ طويلٍ، قد يحتاج إلى ساعات وأيّام، أو إلى شهورٍ عَدِيدةٍ أحياناً. وشأن هذه الفطرة، كشَأْنِ سَائِرِ الْفِطَرِ الّتي فَطَرَ اللَّهُ النّاس عليها، يمكن الاستفادةُ منها في الخير، ويمكن أيضاً استغلالُها في الشرّ، وذُو البصيرَة الفكريّة، والهداية الدّينيَّةِ الرّبَّانيَّة، مع الإرادة الواعية العاقلة المسؤولة عن توجيه السلوك، هي الكفيلة بضبط الْفِطَر عَنِ الجنوح والانحراف، وتجاوز حدود الحقِّ والخير والفضيلة.

- ٤ -
وُجُوبُ تَهْيِئَةِ البيئة الإسلاميّة الصالحة

لمّا كانت البيئة الاجتماعيّة البشريّة من أخْطر وأعظم وأجدى وسائل التوجيه غير المباشر ذاتِ التأثير القويّ، فيمن يعيش فيها وهو يشعُر بأنّه فرْدٌ

من أفرادها، كان من واجب الأمّة الإسلاميّة ولا سيما حملَةُ الرسالة المتخصّصون وغير المتخصّصين أن يُوجّهوا اهتماماً بالغاً لتهيئَةِ البيئة الإسلاميّة الصالحة، أفراداً وأُسَراً وجماعات من صالحين وصالحات، حتّىٰ تكون هذه البيئة التي يُعِدُّونها ذاتَ ضواغط اجتماعيّة مُحِيطَةٍ بمن يعيشُ فيها، وهو مُنْتَمٍ إليها انتماءً حقيقيًّا.

فكلّما انْجَذَبَ مُهْتدٍ جديد إلى الإيمان بأسس العقيدة الإسلاميّة الحقّ، وانكشف له صراطُ الإسلام المستقيم، واستنارَ بمفاهيم دين الله المشرقة، وهَفَتْ نَفْسُه إلى محاسِنِ السُّلوك الإسلاميّ الجميل، أخَذَ الدُّعَاةُ الهداةُ، والنَّاصحونَ المرشدونَ الْحُمَاةُ بيَدِهِ فَغَمَسُوهُ في وَسَطٍ مُلاَئمٍ لحالته، ضِمْنَ البيئة الَّتي أعَدُّوها إعداداً إسْلاَميًّا واعِياً رَشيداً.

وقد اعتمدَتِ التَّرْبية الإسلاميّة المحمّديّة، في مَنْهجها التربويّ على إعداد البيئة الإسلاميّة الصالحة اعتماداً كبيراً، فاهتمَّتْ بتكوين المجتمع المسلم الأوّل عن طريق الهداية بالدعوة، فالنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن طريق الأسوة الحسنة، والتربية الحكيمة على الالتزام بأحكام الإسلام وشرائعه وأخلاقه وآدابه.

ثمّ كان هذا المجتمع المثالي هو النواةَ والبيئة الصالحة لإدارة كلّ داخل فيه ضِمْنَ دوّامَتِه، وصِنَاعَتِه صناعةً إسلاميّة، وتغييره عمّا كان عليه قبل الإسلام بسرعة فائقة، ويتدخل في صناعته الجديدة التَّقْلِيدُ والمحاكاة ورغباتُ التكيّفِ والتلاؤم، ووسائل التعليم والتوجيه والإقناعِ والترغيب والترهيب وسائر صنوف التربية الأخرى.

هكذا كان حال البيئة الإسلاميّة المحمّديّة الأولى، إذْ كان من يهتدي إلى الإيمان، وينْشَرِحُ صَدْرُه لتطبيقات الإسلام، يَجِدُ نَفْسَه يدُور مختلطاً ضِمْن دوّامَةِ مجتَمعٍ إسلاميٍّ يعْمَلُ متشابكاً مُتَعاوناً على الْبِرِّ والتقوى في

مراضـي اللّهِ، وعلى مِنْهَاجـه عزّ وجلّ، وبِهَدْي سُنَّةِ رسُـوله ﷺ، ويَجِـدُ نَفْسَهُ مقوداً ومَسُوقاً، وقائداً وسائقاً، مع حركة دوّامَة هذا المجتمع المنسجم فكراً وعقيدةً وسلوكاً ورغباتٍ وتطلُّعَاتٍ وآمالاً، إلاّ مَنْ دخل فيه مُنَافقاً، أو مُسْلِماً غَيْر مؤمن، فإنّه يَجِدُ نفسه متَعَرِّضاً لعثرات وعقباتٍ وتَصادُمَاتٍ، وتبايُنٍ بينه وبين المجتمع في الرّغبات، إذْ هومجاورٌ غَيْرُ مخالطٍ مُنْسَجِم، وغير متلائم مع سائر العناصر، فهو لا يمتزج فيها، ولا يكوِّن معها اتحاداً حقيقيًّا.

وعلى مثل المجتمع المثاليّ الأوّل، واقتداءً بمؤسسه المعصوم صلوات الله عليه، سار علماء المسلمين مع تلاميذهم، وكلّ الّذين يلتفّون حولهم، مُتَلَقِّين الدّين، أو متخلّقين بأخلاق الإسلام، ومتأدبين بإدابه، فقد كانوا يُهَيِّئون حولهم بيئة إسلاميّة لها تميُّزٌ خاصٌّ يُميّزُها في حركةَ حياتِها، وأخلاقها، وَسَمْتِها، ومعاملاتها المتَّسِمَة بالمحاسن والفضائل، والالتزام بالواجبات والابتعاد عن المحرّمات الإسلاميّة، وبالتعاوُنِ فيما بَيْنها، والتوادّ والتحابُب والتقارُبِ الاجتماعي، دُونَ أن يُؤَثّر عليها المجتمع الكبير الّذي تَعيشُ فيه، إذْ تتحرَّكُ في مُحِيطِه كما تتحرَّكُ أصنافُ الطيور في جماعات متلائماتٍ في الهواء، وأصنافُ الأسماك في جماعات متلائمات في الماء.

- ٥ -
الغزو الفكري عن طريق البيئة

ولقد عرف شياطين الإفساد في الأرض ما للبيئة من تأثيرات ذواتِ قُوَّةٍ في صِنَاعَةِ الإنْسَان فكريًّا وَنَفْسِياً وسلوكيًّا، فوجّهوا عناية فائقة لاستثمار البيئات الصغرى والكبرىٰ في تحقيق أهدافهم الرامية إلى صناعة أجيال

الشعوب الإسلاميّة التي يغزُونها صناعة على ما يُريدون، وتَنوَّعَ هذا الغزوّ تنوُّعاً كثيراً، وابتُكِرَتْ له صُوَرٌ شتَّىٰ، ودخَلَ في كلِّ موقعٍ صغير وكبير يُمْكِنُ أنْ تتكوَّن فيه بيئة ما، فلا بُدَّ من أعمال مضادَّةٍ على مثل أعمال الغزاة، في مختلف البيئات.

* * *

المقـولة الـرابعة

من سُبُل التوجيه غير المباشر

القصة النافعة والمشاهد التمثيلية المفيدة

- ١ -

القصـة النـافعة

القصّة: فنٌّ من فنون الأداء البيانيّ ذي التوجيه غير المباشر، عمادُهُ الحكايةُ القوليّةُ لجملةِ أحداثٍ متتابعةٍ مترابطة ذاتِ بداية ونهاية زمنيّة، مع مرافقاتها، وهذه الأحداث تَدُورُ حوْلَ مِحْوَرٍ واحدٍ (شخصٍ، أو أسْرَةٍ، أو جماعةٍ من الناس، أو أُمَّةٍ، أو قطعةٍ منْ أحداث الكون، صغيرةً كانت أو كبيرةً).

● وبما أنّ التوجيه فيها توجيهٌ غَيْرُ مُبَاشرٍ، فهي ذاتُ تأثيرٍ قَوِيٍّ بمضامينها في الفكر وفي النفس، وتَدْفَعُ إلى المحاكاة والتقليد في الأقوال والأعمال والأخلاق وسائر أنواع السُّلوك، إذا حرّكت هذه المحكيَّاتُ في القصّة إعجاباً بنفس سامعها أو قارئها، ولامَسَتْ عِظَاتُها انفعالاً إيجابيًّا معها.

والقصّةُ في الغالب تَدْخُل في أعماق النفوس دون استئذان، لأنَّها تحكي ـ ولو تَوَهُّماً ـ حدَثاً تَحَقَّقَ في الواقع، والنفوسُ مفطورةٌ على حُبِّ مَعْرِفَةِ الأحداث التي وقَعَتْ، وكيْفَ وقَعَتْ، وما هي النهاياتُ التي انْتَهَتْ

إليها، والنتائجُ التي كانت السبب في حصولها، لتأخُذَ منها العِبَر والعِظات، فتعمَلَ بمثل ما جرَّ نفعاً، وتجتَنِبَ فِعْلَ كلِّ ما جرَّ ضُرًّا وشرّاً، من أحْداث القصة.

● والقصّة تقدّم الأفكار والأعمال والأخلاق وسائر أنواع السلوك النّفْسيّ والظاهر مُجَسَّدَةً في صُورٍ تُشْعِرُ بأنّها أشياءُ واقعةٌ، وليسَتْ مجرّد نصائح تُقَدِّمُهَا رُؤًىٰ ونظراتٌ فكريّةٌ مُجَرَّدَةٌ عن واقعيّاتِ الحياة الإنسانيّة.

● والقصّةُ مُحَبَّبَةٌ للنفوس، لما فيها من انسجام مع حركة الخيال، ومُسَايَرَةٍ له، وهي أيضاً تُمِدُّهُ وتُغَذِّيه بما يتلاءَم مع رؤاهُ وطُمُوحَاتِهِ التخيُّليّة في الغالب إذا كانت من غرائب القصص ونوادرها.

● والقصّة في الغالب لا تُصَادف عقباتٍ نفسيّةً تصُدُّها، إلاّ إذا كانت لدى المقصود بالتوجيه مشاعِرُ نُفُورٍ خاصٌّ من مُقَدِّمِ القصّةِ أو المستهشد بها.

● ومن الملاحظ أنّ الناس جميعاً يُحِبُّون استماع القصّة، أو مشاهدة أحداثها في الواقع أو في التمثيل.

ولذلك نرى صغار الأطفال بفطرتهم يتعلّقُون تعلُّقاً شديداً بمن يحكي لهم القِصَص، ولو كانت خياليّة خرافيّة، ويتعلّقون بمشاهَدَةِ قِصَصِ أفلام الكرتون تعلُّقاً شديداً، ويتأثّرون بها، مع أنَّ معظمها خياليٌّ خرافيٌّ.

● ونظراً إلى تأثير القصّة في النفوس الإنسانيّة، وحُبِّ الناس على اختلاف مستوياتهم وأعْمَارِهم لها، وجَدْنا أنّ مختلف الشعوب، حتى البدائية منها، تعتَمِدُ على استخدام القصّة في التعليم والتربية، والتأديب، والتوجيه، ولو لم يكن لهذه الشعوب أدبٌ مكتوب.

● وقد توسّع النّاسُ في استخدام القصّة لمّا صار لهم أدبٌ مكتوبٌ مُتَوَارثٌ في الأجيال.

وزاد هذا في الناس حينما عرفوا قيمة تأثير التوجيه غير المباشر، ونما نُمُوّاً عظيماً، حين توصَّل الأدباء والنُّقّادُ إلى معرفة أدب القصة وفُنُونِها وأسَاليبها المؤثرة.

وربّما تَصِلُ القصّة المحبوكةُ حبكاً فنّياً جيّداً في قُوَّةِ تأثيرها، إلى جَعْلِ القارئين والسامعين لها، ولا سيما الأطفال والمراهقون وأشباههم، يَنْدَمِجون اندماجاً عظيماً في حوادثها، وينفعلون مع بعض أشخاصها وأبطالها في مشاركة وجدانيّة قويّة جداً، حتّىٰ قد يصلُ الحزْنُ فيها إلى مستوىً تَذْرِفُ منه الدموع السخيّة، وقد يصلُ الغضب فيها إلى مستوًى يُحَرِّضُ على المناصرة الوهميَّةِ في حركاتٍ غير واعياتٍ.

ورُبَّما تمثَّلَ قارىءُ القِصَّة أو سامعُها في نفسه بعض أشخاص القصّة، حتّىٰ كأنّ الأحداث تجري معه نَفْسِه، وقَدْ يَغْفُل عن واقعه تماماً، وينسَىٰ أنّه يقرأ قصَّةً من القصص الغابرة، أو القصص المصْنُوعة، وربّما كانت قصّةً خرافيَّةً تماماً لا تُمثِّل أيَّ واقع، وكثيراً ما يَعْلَم مُنْذُ بدْءِ قراءته للقصة أو سماعه لها أنه يقرأ أو يَسْمَعُ قصّةً وضَعَها كاتِبُها من نَسْجِ خياله.

● ونظراً إلى ما للقصّة من تأثير تعليميّ وتوجيهيّ تربويّ، وجدنا أساليب الدعوة إلى سبيل الله، والنُّصْحِ والإرْشاد قَدْ أولَتِ القصّةَ عنايةً فائقةً، واهتماماً كبيراً، مع إبراز ما فيها من مواطن عِبرٍ وعظاتٍ.

فالقرآن المجيد بإعجازِه البياني، والسُّنَّة النبويّة المطهّرة بروائعها، قد استخدما القصّة في الدعوة إلى سبيل الله، وفي النُّصْح والإرشاد، والتوجيه إلى فعل الخير وترك الشرّ بنسبة كبيرة، وبطرائق فنّيّةٍ أدبيّة مؤثّرةٍ جدّاً.

ولا يَخْفَىٰ على أيّ تَالٍ للقرآن ما يحويه هذا الكتاب المجيد من قصص رائعة رائدة، تشتمل على توجيهات غير مباشرة، إيمانيّة، وفكريّة وأخلاقية، وعمليّة، وعِظات نافعات، جليلاتِ الخطر، عظيماتِ الأثر.

ومُطَالِـعُ أحاديث الرسول ﷺ يجد فيها قصصاً بديعةً ذواتَ تَوْجيه لقضايا الإيمان والإخلاص والحبّ في الله والبغض في الله، والعمل الصالح، ابتغاءَ مرضاة الله، وجنّاتِ النعيم.

مسؤولية حامل الرسالة:

فعلى حامل رسالة الدعوة إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، أو رسالة النُّصْحِ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يَهْتَمَّ باستخدام فنّ القصّة من فنون الأداء البياني، ذي التوجيه غير المباشر، اقتداءً بمنهج القرآن الكريم، وسُنَّةِ الرسول العظيم، ولمَا للقصّة من تأثير عَميقٍ في النّفوس، إقناعيٍّ، وتربويٍّ، وتَوْجيهي، ولما فيها من عِبَرٍ وعظاتٍ جليلات.

ولكن يجب عليه أنْ يختار من القصص ما صَحَّ منها، وباستطاعته أن يستفيد من قصص الأنبياء والمرسلين وأقوامهم، الواردة في القرآن والسنة، ومن القصص الواردة في أحاديث الرسول ﷺ، ومن سِيَر الصحابةِ الكرام والتابعين لهم بإحسان، ومن سِيَرِ العلماء الصادقين الصالحين، والأبطال المؤمنين الفاتحين.

* * *

ـ ٢ ـ
المشاهد التمثيليّـةُ المفيدة

التمثيل: فنٌّ غير مباشر التوجيه قوليٌّ وحركي من فنون الأداء البياني القصصيّ، عمادُهُ عَرْضُ أحداثِ القصة أو مختاراتٍ منها، من خلالِ تقديم الأمثلة الإنسانيّة مع المرافقات المشابهات لما كان قد جَرَىٰ في القصّة في الواقع، بقيامِ أشخاصٍ يمثلون شخصياتِ القصة، ويَلْبَسُونَ مثْلَ ألبستها، ويتصرّفون مثل تصرُّفاتها، فيمثّلون الأعمال والحركات والأقوال والمشاعر

وسائر التصرُّفات الّتي كانت منهم في القصّة، مع تتبّعِ المراحل الزمنيّة لأحداثها، ضِمْنَ ظروفِ وبيئةِ وأحداثِ القصَّة، والأشياءِ التي كانت فيها، أو مرافقةً لها.

وللتمثيل شروطٌ فنيّة معروفة لدى المختصّين بهذا الفنّ، وهي تُدْرسُ في معاهد خاصّة، منها ما هو مقبولٌ لا نَجِدُ في الإسلام ما يدعو إلى تحريمه ومَنْعِه شرعاً، ومنها ما هو مرفوضٌ لا نَجِدُ في الإسلام ما يأذَنُ به، ولو على سبيل الأخذ بالرُّخص.

فإذا تهيّأت الشروط الفنيّة المباحة شَرْعاً، وَوُجِد الأشخاص القادرون على الأداء التمثيليّ الناجح دُونَ فجاجة ولا ركاكة، وتَوَافَرَتْ تمثيليّاتٌ مستكملَةٌ شُروطَها الفنيّةَ المؤثِّرَة، كانَ من المستَحْسَنِ استخدامُ التمثيل وسيلةً من وسائلِ أداءِ رسالةِ الدَّعوةِ إلى سبيل الله، أو رسالةِ النُّصْح والإرشاد.

لكن لم يظهر حتى الآن تمثيليّاتٌ إسلاميّةٌ صالحةٌ لمثل هذا الأداء، وحتّىٰ حينِ وجودِ الإمكانات الفنيّة الصالحةِ، وإعدادِ التمثيليّات الناجحات الموفّقاتِ ذواتِ التأثير الإيجابيّ النافع في المشاهدين، يمكن أن نقول حينئذٍ: يَحْسُن بحَمَلَةِ الرسالة أن يُدْخِلُوا التمثيلَ ضمن سُبُل أَدائِهِمُ البيانيّ في التوجيه غير المباشر

* * *

المقولة الخامسة

من سُبُل التوجيه غير المباشر

القراءةُ الحرَّةُ وأثَرُها

- ١ -

سبب تأثير القراءة الحرّة

حين يجلس الإنسان لنفسه، فيأخُذُ كتاباً أو صحيفةً أو مجلّةً أو أيّ مطبوع أو مخطوط، فإنّه يشْعُر بأنَّهُ يَمْلِكُ كامِلَ حُرِّيته في القراءة أو عَدَمِها، ويَمْلِكُ أيضاً كامل حرّيته في قَبُولِ ما يقرأُ من ذلك أو رَفْضِه. ولاَ يَشْعُر مع بدْءِ القراءة بدافع نفسيٍّ للمعارضة والمخالفة بسبب الاستكبار على من يتعلّمُ منه، أو الرغبة في التفوُّقِ علَيْه، أو الخوف من أنْ يظْهَر أمامه أو أمَامَ جلسائه بجهله، لكِنَّ هذه الأمور تحدُثُ كثيراً لدىٰ المواجهة الشخصيّة.

ثمّ إنّ الّذي يقرأ بنفسه من كتاب أو نحوه قراءةً حُرَّة، إذا لم يقْبَلْ بَعْضَ الأفكار الّتي مرَّتْ به في أوّل القراءة، فإنّ ذلك قد لا يمنَعُه من متابعة القراءة، ولا سِيّما إذا كان ما يقرؤُه حسَنَ الصّياغة، عذْبَ الأسلوب، سَهْل المتناوَل، مُتَسَلْسِلَ الأفكار تَسَلْسُلاً منطقيًّا.

والسبب في أنّه قد لا يمتنع عن متابعة القراءة مع معارضته لبعض الأفكار، هو أنّ دوافع المخاصمة إذا ارتفعت درجة حرارتها لم تَجِدْ أمامها

الخصْمَ الّذي تُصارعه وتقارعه، فتبرُدُ بسرعة، ورُبّما يقتصر تعبيرها على ضرباتٍ بقبضةِ الْيَدِ على الكتاب أو على الأرض، أو على تشطيباتٍ بالقلم على الكتاب، أو على بعض الشتائم اللّسانيّة.

ثم يتابع القراءة بدافع الفضول، أو تجذبه أفكار حسنة أثارَتْ إعْجَابه، ويُرِيدُ استكمال ما يتعلّق بها، أو تتولّد لديه رغبةٌ في أن يستكمل البحث ليُلِمَّ بجوانبه، وكثيراً ما تَنْحَلُّ لديه الإشكالات الّتي أثارت اعتراضَهُ أوّلاً، إذْ يجد جوابَ تساؤلاته لدى شرح الكاتب لجوانب الموضوع، وتقديمه الأدلّة على ما قدّمه من أفكارٍ ومعارف.

وبسبب ذلك يتمكّن القارىء من الانتفاع بالمعارف والنصائح، وأنواع التوجيه الرشيد، إذا كان الكتابُ يشتمل على هذه الأمور أو بعْضِها، ويعلَقُ بنفسه ممّا قرأ أمورٌ وأفكارٌ ومفاهيم لم يكُنْ ليقبلَها لو جاءتْ توجيهاً مُباشراً من لِسَانِ داعٍ يدعو إلى الهداية، أو ناصح مرشد، أو آمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر، إنَّه يَقْبَلُها ويَنْتَفِـعُ بها انتفاعاً عظيماً، إذْ لم تقُمْ في نفسه ضِدَّها مُنْذُ الْبَدْء عقبةٌ نفسيّةٌ صادَّةٌ.

وبهذه الطريقة نَفْسِها تستطيع ضلالاتٌ فكريَّة واعتقاديّة ونفسيّة، ومثيراتُ أهواءٍ وشهواتٍ جانحات عن الحقّ والخير والفضيلة، أن تتسلّل إلى النفوس وتؤثّر فيها، ولا سيما إذا كانت مُزَيَّنَةً مزخرفةً بالْفُنُونِ والآدابِ، وتَلْبَسُ بالزور والبهتانِ والدعاوىٰ الكاذباتِ أثوابَ الحقائقِ المؤيدة ببراهين العلوم النظريّة والتجريبيّة.

هذه هي طبيعةُ القراءةِ الحرّة، في حين أنّ الأمْرَ قد يختلِفُ كثيراً إذا أتىٰ صاحبُ الكتاب نَفْسُه، فقدّم بلسانه ما كتبه بقلمه، إنّه حين يتصدّي للقوْل يشْعُر بعْضُ من يُوجِّه لهم الخطابَ أنَّه يتصدَّرُ عليه، ويُحِلُّ نَفْسَه بيْنَ من يخاطِبُهُم مكانَةَ الأستاذِ المعلّم، المتَعَالي، الذي يَشْعُرُ بالْفوْقيَّة، أو مكانةَ

صاحبِ السُّلطةِ الذي يأمُرُ وينهىٰ ويوجِّه النصائح والإرشادات.

فمن شعر من المخاطبين بهذا الشعور وكان ذا نفسٍ متكبرةٍ، تحرّكت لديه عوامل الكِبْر، والأنفَةِ من الظهور بمظهر الْجَهْلِ، فقامَتْ في نفسه عَقَبةٌ صادّة، فحَجَبَتْ مراكزَ استقبال المعرفة لدَيْه، وجعلَتْهُ يَسْتَنْكفُ عن قبول ما يُوَجّهه حامِلِ رسالةِ الهداية الداعي إلى سبيل ربّه، أوحامل رسالة النصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر.

وقد تتولَّدُ عن هَذَا الاستنكافِ رَغَبَاتُ مُوَاجَهَةٍ لحامل الرّسالة، ومقاطعةٍ له، وتشويشٍ عليه، وتسْفيهٍ لآرائه، وانتقاداتٍ له، وتصيُّدٍ للهفوات، وإحراجٍ بالأسئلة، إلى غير ذلك من شغبٍ، ومحاولاتٍ إسْكاتٍ له.

- ٢ -

استغلال المفسدين لوسيلة القراءة الحرّة

عرَفَ المفسدون في الأرض ما للقراءة الحرَّةِ من تأثير قويّ، في توصيل ما يُريدُون بثَّه من أفكارٍ وتوجيهاتٍ ومذاهب ومفاهيم إلى داخل نفوسِ الْقُرّاءِ، دون أن تَعْتَرِضَهَا عَقَباتٌ صادَّاتٌ في معظم الأحوال.

من أجل هذا وجَّهُوا عنايَةً فائقةً لاستخدام هذه الوسيلة على أوسع نطاق، ولتذليل أدواتها وتحسينها وإيجادها بوفرة، وجَعْلِها في متناوَلِ كُلِّ قارىءٍ، وشَحَنُوا هذه الوسيلة المؤثرة بآلاف الحِيَلِ الزُّخْرفيّة الفنِّيَّةِ والأدبيّةِ والفكريّة الّتي تجذبُ النفوسَ، وتُرْضِي الأهواء والشهواتِ والأذْوَاقَ الجماليّة، وتُمْتع الحواسّ، وتُدَغْدغ الغرائز. وتُحَرِّكُ المطامع، وتَسْتَغِلُّ المخاوفَ، وتُجسِّمُ الأوهام وتَجْعَلُ منْها حقائق في نفوسِ القرّاء كذِباً وزُوراً.

وقَامَ جنودُهُمُ الكثيرون المنتشرون في طول الأرض وعرضها، من كُتّابِ القصص، وكتّابِ النَّثْر والشعر، في مختلفِ فنون الأدب والعلوم

الاجتماعيّة، ومن الصحفيين على اختلاف تخصُّصاتهم، وكُتَّابِ الأخبار السياسيّة والاجتماعيّة، وواضعي الدعايات المختلفة، وغيرهم، يدفعون بسُيُولِ إنتاجهم الموجَّه ضِمْنَ مخطّطاتهم الرامية إلى غزو أفكارِ الناس ونفوسِهِم وقلوبهم وعواطفهم الموجِّهةِ لإراداتهم.

ويأخُذُ هذا الإنتاجُ الوفير سبُلَهُ المختلفة إلى دور النشر في العالم، وتَقْذِف المطابع ملايين المطبوعاتِ منها، لتكون في متناوَلِ أيدي القرّاء، في مختلف شعوب الأرض.

وتسير هذه المطبوعاتُ مُؤَثِّرَةً في غزو الأفكار والعقول والقلوب والنُّفوس، إذْ تتهافَتُ عليها الأجيالُ الرّاغبَةُ في المعرفة، أو الاستمتاع بالفنون والآدابِ، وكانت سبب فسادَ عريضٍ في المجتمع البشريّ.

- ٣ -

واجب الأمّة الإسلاميّة

وهنا يظهر لكلّ ذي فكر إسلاميّ سليم، أنّ الأمّة الإسلاميّة مكلّفةٌ من أجل تَبْلِيغِ رسالةِ الرسول ﷺ للنّاس أجمعين، والقيامِ بوظائفها داخل المجتمعات الإسلاميّة، أن يَبْذُلوا ما يستطيعون من جَهْدٍ في اتّخاذ سبيل القراءة الحرَّةِ ضمْنَ سائر السُّبُل الّتي يجب عليهم اتّخَاذُها.

ويكون هذا بأمور كثيرة منها ما يلي:

١ - تَرْبيةُ الأجيالِ من أبناء المسلمين علىٰ حُبِّ القراءةِ إلىٰ دَرَجَةِ الشَّغَف بها، وإنفاقِ عدّة ساعاتٍ من كلِّ يوم فيها، دُون سأَمٍ ولا مَلَل، فَحُبُّ القراءةِ يُكْتَسَبُ بالتربية والتدريب، ومصاحَبَةِ الْقُرَّاء، ومُتَابَعةِ القارئين فيما قرؤوا، وتشجيعِهم على عَرْضِ مَا فهِمُوهُ ممّا قرؤوه.

٢ ـ تشجيع ذَوِي الْعِلْم والفكْرِ والقلَم من المسلمين، ماليًا ونفسيًّا واجتماعيًّا، على كتابة الرسائل، والبحوث، والمقالات، والنشرات، والمؤلَّفات، بمختلف وسائل التشجيع، لكَيْ ينبغ في المسلمين المؤهَّلون الكثيرون الّذين يستطيعون توصيل الكلمات النافعاتِ المؤثرات، والمفهومات الإسلاميّاتِ الصحيحات، إلى مختلف القرّاء، بحسَبِ ميولاتهم المختلفات.

٣ ـ تشجيع الكتُب والرسائلِ والصُّحُف والمجلات والنشراتِ ذوات المضامين الإْسلاميّة، والنافِعَاتِ الخالياتِ من التحريف والتزييف والأغاليط والتّعصُّبات، مع الترويج لها، ونشْرهَا، وتوزيعها في أوسع مجالٍ ممكن، وتيسير وصولها إلى القرّاءِ في كلّ موقعٍ من الأرض، ولا سيما البلادُ والأماكنُ الّتي لا يستطيع سُكَّانُها جَلْبَ الكتاب النافع لشدَّةِ فَقْرِهم وحاجتهم.

ومن الخير العظيم أن يَصِلَ قِسْمٌ من الرسائِلِ النافعة التي تَشْرَحُ أصُولَ الدّين، وأركانَ الإسلام، وشرائعه، وأحكامه، وأخلاقه وآدابه، مجاناً إلى مراكز إسلاميّة مُهِمَّة في جميع بلاد الدّنيا.

ولا يفوتني هنا أن أُبيّن أنَّ بَذْلَ المال في هذا السبيل هو من الجهاد في سبيل الله، لأنّ الجهاد بالكلمة الإسلاميّة النافِعَةِ هُو فِي مقدّمة أعمال الجهاد في سبيل الله.

٤ ـ تأسيسُ المكتبات العامّة، واجتذابُ الْقُرَاءِ إليها بما تميلُ نفوسهم إليه من المباحات، وتَيْسِيرُ سُبُلِ قراءتهم فيها، مع تزويدها بمرشدين يُحْسِنُونَ توجيه زائريها للقراءات النافعات الملائِمَاتِ لمستوياتهم، واستعداداتهم، مع تيسيرِ إعارة بعض الكتب لمدّةٍ مُحَدّدة.

٥ ـ تأسِيسُ المكتبات التجاريّة في كلّ شارع، وكلّ حيٍّ وقريَة، وجَعْلُها مراكز إشعاعٍ يتوارَدُ إليها طُلَّابُ المعرفة والأدَبِ، مع عناية أصحابها

بتوجيه زائريهم بالأساليب الرفيقة المؤثّرة، للكُتُبِ والرسائل والمنشورات ذوَاتِ المضامِين الإسلاميّة النافعة.

٦ ـ تزويدُ المؤسَّسَاتِ والمرافقِ العامّة والخاصَّة الّتي ترتادُها جماهير مختلفة، ويَطُولُ المكثُ فيها، كالمعابد، والمدارس وفصولها الدراسيّة، والنوادي الأدبيّة والرّياضية، والمستشفيات، والفنادق، بمكتباتٍ صُغْرىٰ تُنَاسِبُ أحْوالَ زُوّارِها ومُرْتادِيها، وهذه المكتبات تشتمل على كتُبٍ إسلاميَّةٍ نافعةٍ سَهْلَةِ التّنَاوُلِ، مُيَسَّرَةِ القراءة والانتفاع بما فيها.

٧ ـ طِبَاعةُ كتُبٍ ورسائلَ صُغْرىٰ مشتملة على الأفكار المراد بثّها والإقناع بها، بكمّيّاتٍ وفيرة، وأَسْعَارٍ زهيدة، وأحجامٍ توضع في الجيب، لتنتشر هذه المطبوعات وما فيها من أفكارٍ على أكبر عدد من الناس.

٨ ـ إجراء مسابقاتٍ ذَوَاتِ جوائز مالية حَوْلَ معلومات تُوجَدُ في كتُب معيّنة، وهذه الكتب تشتمل على أَفْكارٍ ومفهومات ومعارف إسلاميّة مهمّة، تهدف خطّة التوجيه الإسلامي إلى بثّها، وإقناع الناس بها.

إلى غير ذلك من أمور نافعة في نشر الفكر الإسلامي، قياماً بواجب الدعوة إلى الله، والنصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنّ باستطاعة حَمَلَةِ رسالة الهداية، أو رسالة الإصلاح والحماية، أن يستخدموا وسيلة القراءة الحرّة لبثّ المعارف الرّبّانيّة الحقّ، ولعرض تعاليم الإسلام ونُظُمه وأخلاقه ومفاهيمه، بمختلف الوسائل والأساليب العلميّة السَّهْلة القريبة المتناول بالنسبة إلى القاعدة الاجتماعيّة العريضة، والوسائل والأساليب الأدبيَّة الرّشيقة الأخّاذة الْمُؤَثّرَةِ في النفوس والأفكار، الّتي تقبلها الجماهير، وتتناسَبُ ألوانُها الأدبيّة، ومستوياتُها الفكرية، مع مختلِف مستويات الناس.

وفي معركة الصراع الفكريّ العالميّة سوْفَ يتنصر الفكر الإسلاميّ لا

محالة، لأنّه حقٌّ لا رَيْبَ فيه، ولأنّ الله عزّ وجلّ وعد المسلمين بإظهار دينه الحقّ على الدّين كُلّه، ولو كرِهَ المشركون وسائر الكافرين، فقال تبارك وتعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ولهذا الموضوع تتمّاتٌ في «الفصل الرابع ـ وسائل الأداء البياني» من هذا الباب تحت عنوان «الوسيلة السادسة: الكتاب» فيحسن الرجوع إليها، لاستكمال ما يتعلّق بهذا الموضوع.

* * *

المقـولة السادسـة
من سُبُل التوجيه غير المباشر

الترنيـم والنشيـد
بطريقة إسلاميّـة شكلاً ومضموناً

- ١ -
الميول والتأثيرات الفطريّة

فطر الله عزّ وجلّ النفوس الإنسانيّة على حبّ الترنيم والنشيد، والتغني بالصوت الرخيم، والتأثُّر السّعيد بالتعبير المريح للنفس، عن طريق الكلمة المقترنة بالصوت الجميل، واللّحْنِ الْحَسَن، والأداءِ الموسيقي(١) المتناسِقِ، الذي لا تَنَافُرَ فيه، والملائمِ لحالةِ النَّفْس ودلالةِ الكلمة.

وحين لا يَمْلِك الإنسانُ الصّوْتَ الحسَنَ النديَّ، ولا القدرةَ على اللَّحْنِ الغنائيّ الجميل، والأداء الموسيقيّ المتناسق، فإنّه يُسْعِدُهُ ويَسُرُّهُ أن يسْمَعَ من غيْرِهِ ما يَوَدُّ أن يكون هو المعبِّر عنه بنفسه، فإذا سَمع صوْتاً حسناً في غناءٍ جميلٍ، وموسيقَىٰ متناسقة ملائمةٍ لكلماتٍ معبّراتٍ عن حالة نفسه، تحرّكَتْ

---

(١) الموسيقى: علم يكشف أنواع الأصوات ونغماتها وطبقاتها ومسافات إيقاعاتها، وهو كعلم العروض للشعر، وليست الموسيقى هي المعازف، بل المعازف آلاتٌ لها، ويمكن تعلم علم الموسيقى بدون استخدام آلاتها المصنوعة المحرّمة.

عواطفُه، وانْفَعَلَتْ بذلك نَفْسُه انفعالاً كبيراً ملائماً لكوامنها.

وقد يتأثر بالصَّوْتِ فقط، ولو لم يكن مقترناً بكلماتٍ معبّراتٍ عن حالة نفسه، والسَّبَبُ في هذا أنَّ لنَغَمَاتِ الأصوات تأثيرات مختلفاتٍ في النفس، فبعضها يلائم حالة الحزن، وبعضُها يلائم حالة الفرح، وبعضُها يستثير البسالة والشجاعة، إلَىٰ غير ذلك من حالات النفوس، والأصواتِ المثيرات لها، والمؤثراتِ فيها.

إنّ معظم الناس في السّلم والحرب، والأفراح والأحزان، والمسرَّات والآلام، ولدى ذكر المآثر والمفاخر، ولدى تعبيرات التحسّر والتوجُّع، أو بثّ الأشواق والأشجان، أو غير ذلك من مشاعر نفسيّة، يردِّدُون ما يُناسبُ الحال الّتي هم عليها، ممّا حفظوا من الأغاني والأناشيد الّتي سبق لهم أن استحسنوا ألْحَانَها، وأنِسُوا إليها، ممّا ذاقوا فيه يوماً ما حلاوةَ تعبير مناسبٍ بالصَّوْتِ واللّحن والكلمات، عن أحوال نفوسهم الشخصيّة أو الدينيَّة أو القوميّة، أو نحو ذلك من أشواقٍ وأشجان، أو آلام وأحزان، أو أفراح ومسرّات، أو أمجاد وبطولات، أو شجاعاتٍ وتضحيات، أو فضائل ومكرماتٍ، أو غير ذلك.

والكلام الّذي يحمله إلى السّمْع صوْتٌ جميل، أو لحنٌ جميل في أداءٍ موسيقيٍّ متناسق، يمُرُّ من الآذانِ مَرًّا سعيداً إلى داخل أكثر النفوس دون محاكمة عقليّة، ولا سيّما إذا كانت فيه مفرداتٌ تتّصل في دلالاتها بما يشغل نفوسهم من عواطف أو انفعالات، أو رغبات ومطالب، أو مطامع أو مخاوف، أو مفاهيم أو عقائد، أو غير ذلك.

وكم من كلام عاطفيٍّ مبتذلٍ سخيفٍ لا وزن له ولا قيمة، حملَتْهُ إلى نفوس الجماهير أصواتٌ وألحانٌ وموسيقىٰ جميلة، فمَرَّ من الآذان إلى داخل نفوسهم دون نَقْدٍ فكريٍّ، فَعَلِقَ فيها، ثُمَّ غدا كلاماً تُردِّدُه الألسنة دون

اعتراض، وكأنَّهُ مِنْ بديعِ الكلام ومستحسنه.

- ٢ -

استغلال المفسدين للأغاني والموسيقى

عرف المفسدون في الأرض ما للموسيقى والأغاني والأناشيد من تأثيراتٍ على نفوسِ الجماهير، الّتي قد تَصِلُ إلى التلاعب في مداركهم الذهنيّة، ومفهوماتهم الفكريّة.

فأسرعوا إلى السيطرة على المغنّين والمغنيّات، وواضعي الألحان، ومؤلفي كلماتِ الأغاني والأناشيد العاطفيّة، والقوميّة، والوطنيّة، والنقديّة، والمضحكة (الكوميديا) والمثيرة للشهوات والأهواء المطلقة من الْقُيُود الدينيّة والخلقية، والمشجّعة على ترك ضوابط الفضيلة، والسقوط في أوحال الرذيلة.

وعملوا على تجنيد من يستطيعون تجنيده بالمغريات الماليّة وغيرها، لتوجيه ما يُقَدِّمُون من موسيقىٰ وأغانٍ وأناشيد وألحان توجيهاً يخدم أهداف الغزو الفكريّ والنفسيّ والسلوكي، الذي يقومون به ضدّ الإسلام، وضدّ الأمّة الإسلاميّة.

فكم من أغنية منتشرة تشجّع على الفسق والفجور، والتحلُّلِ من مكارم الأخلاق، وضوابط العفّة، وتستهين بشرائع الدّين، وأحكامه، وآدابه.

وكم من أغنية منتشرة تثير نُعَراتٍ إقليميّةً وقوميّةً ضدّ مبادىء الوحدة الإسلاميّة ومفهوماتها.

وكم من أُغْنِيَةٍ تردّدها أفواه المراهقين والمراهقات، ثمّ الراشدين أحياناً، وهي تتضمّن تمجيد مبادىء اجتماعيّة أو اقتصادية أو سياسيّة، أو

فلسفات تخالف مبادىء الإسلام وأحكامه وشرائعه وعقائده.

وكم انتشرت أغاني وأناشيدُ تمجّد زعماءَ مَصْنُوعين صُنْعاً، وهُمْ خائنون لأمّتهم وأوطانهم، وقد رفعهم إلى مرتبة الزعامة أعداء الإسلام بألاعيبهم وحِيَلِهم السّياسية والإعلاميّة، ثواباً لَهُمْ على خياناتهم الّتي باعوا فيها أنفسهم وشعوبهم وبلادهم لهم، وجَنَّدُوا كُلَّ قواهم في تَحْقيق أغراض أعدائهم.

وهذه الأغاني والأناشيد تُرَدِّدُها الأجيال ترديداً ببّغاويًّا، وتتصوّر أنّ مضموناتها الفكريّة من الأمور المسلّم بها، الَّتي لا تَقْبَلُ الاعتراض ولا النقد.

وقد حقّق المفسدون في الأرض كثيراً من أغراضهم بهذه الوسيلة من وسائل التوجيه غير المباشر.

- ٣ -

موقف الإسلام من استخدام هذا السبيل

فيما ظهر لي استنباطاً من إقرارات الرسول ﷺ، ومفهومات الشريعة الإسلاميّة بشكل عامٍّ، أرَىٰ أنَّه لا مانعَ إسلاميًّا من استخدام الأغاني والأناشيد لخدمة الدعوة إلى الإسلام، وتثبيت عقائده ومفهوماته، والنُّصْح والإرشاد، والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، والحثّ على الالتزام بشرائع الإسلام ونظمه وأحكامه وأخلاقه وآدابه، والافتخار بها، والاعتزاز بأمجاد المسلمين وتاريخهم المشرق، والدعوة إلى الاقتداء بالسَّلَفِ الصالح.

وكذلك أناشيدُ الدعاء والابتهال إلى الله، والصلاة والسلام على رسوله، وذكر أخلاقه وجهاده وما اختصه الله به من فضائل.

وكذلك أناشيد الحماسة حثًّا على الجهاد في سبيل الله، والتضحية

بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله، ونُصْرَةِ دينه، وإقامة الْعَدْل في الأرض، ومقاومة البغي والظُّلْم والفساد.

كُلُّ ذلك بشرط عدم الإفراط في الأغاني والأناشيد، حتّىٰ لا يكون الغناء مقصوداً لذاته، فيتحوّلَ عن الهدف منه، وبشرط سلامة هذه الأغاني والأناشيد من التكسّر والتخنُّث ولُحُونِ أهل المعاصي، وبشرط عدم مصاحبتها بالآلات المحرّمة، وسلامة ألفاظها من أيّة مخالفةٍ دينيَّة، وخلوّها من التعبيراتِ والشطحات المجازيّة التي توهم ما لا يليقُ بكمال الله عزّ وجلّ، أو بجناب الرسول ﷺ، أو بشرائع الإسلام وأحكامه.

ومن أمثلة ما هو ساقط لا يجوز استخدامه الكناية عن السعادة القلبيّة التي تملأُ قَلْبَ العابد الذاكر لربّه، بارتشاف الكؤوسِ الخمريّة المسكرة، وكذلك التغزُّل ذو الطابع الشهواني الجسدي، كناية عن الحبّ لله عزّ وجلّ، أو الحبّ للرسول ﷺ.

إلى غير ذلك ممّا تستّر به قديماً كثيرٌ من الْفُسَّاق، ثم انخدع به كثيرٌ من الجهلة، ثُمَّ صار تقليداً تافهاً سخيفاً مبتذلاً لدى طوائف أدخلت في دين الله ما ليس منه، وابتدعَتْ بِدَعاً ما أنزل اللَّهُ بها من سُلْطانٍ، وتَعصَّبَتْ لتقاليدها حتَّىٰ كأنَّهَا شرائع رَبّانيَّةٌ مأذونٌ بها.

نظرة إلى الأدلّة:

ويَحْسُن أن ننظر نظرةً ما إلى الأدلة الّتي تأذن بالغناء والترنيم، ضمن الشروط التي سبق بيانها.

١ ـ كان داوُد عليه السلام يتغَنَّى بمزاميره البديعة، وهذه المزامير تشتمل على كلمات مناجاةٍ لله عزّ وجلّ، ودعاءٍ له، وتمجيد لجلاله ولعظيم صفاته، وتسبيح بحمده، وثناءٍ على آلائه، وتذكيرٍ بآياته في كونه.

٢ ـ من المعروف أنّ العربيّ كان يتغنَّىٰ بالشِّعْرِ في حُدائه، وعند

إنشاده، ويطْرَبُ له، ويَجِدُ في ذلك أثراً محرِّكاً في نفسه.

وكان العرب يُردِّدُون الأهازيج والأراجيز عند العمل، تحريكاً للنفس، وتنشيطاً لِلْهِمَم، وكانوا يفعلون مثل ذلك عنْدَ الحرْب إثارةً للحماسة، وتشجيعاً على القتال.

وكانوا يفعلون نظير ذلك في الأفراح، وعند استقبال الوافدين ابتهاجاً بهم.

واستمرَّ كُلُّ هذا بعد بعثَة الرسول ﷺ، وبعد ظهور الإسلام، وأقرّ الرسول ﷺ المسلمين عليه، ولم ينكره.

٣ ـ وعند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة اسْتُقْبِلَ بالنشيد المعروف المشهور:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاع

واستقبلَتْهُ جوارٍ من بني النجّار بقولهِنَّ يغَنِّينَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ ... يَا حَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

ولم ينكر الرسول ﷺ شيئاً من ذلك.

٤ ـ وعند بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة، صار المسلمون يرتجزن وهم يَبْنُونَ بقولهم:

لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَة ... اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ والْمُهَاجِرَة

فيقول الرسول: لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخرة، فارْحِمِ المهاجرين والأنصار.

٥ ـ وروى مسلم عن أنس بن مالكَ رضي الله عنه، أنّ النبيَ ﷺ يَوْمَ الأحزاب قال:

اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَة　　فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ والْمُهَاجِرَة

وفي حُنَين جعل الرسول ﷺ يردِّد قولَهُ:

أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ　　أَنَ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ

وفي غزوة خيبر، نزل الشاعر الْمُسْلِمُ عامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ يَحْدُو بالمسلمين، فيقول:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ ما اهْتَدَيْنَا　　وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا　　وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
وثَبِّتِ الأَقْدَامَ إنْ لاَقَيْنَا　　إنَّا إذَا صِيحَ بِنَا أَبَيْنَا

وبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

وقد قُتِلَ عَامِرٌ بِضَرْبَةٍ جَاءَتْ عَلَىٰ رُكْبَتِه من سَيْفِه الَّذِي نَبَا فارْتَدَّ عليه.

٦ ـ وعند مسلم أيضاً أنّ النبي ﷺ لمّا قَفَل مِنْ خَيْبَرَ، قال سَلَمَةُ بن الأَكْوَع، أخو عامر: يا رسول الله ائْذَنْ لي أن أرْجُزَ لكَ، فأذن له رسول الله ﷺ، قال عُمَرُ بْن الخطاب: أعْلَمُ ما تقول. قالَ سَلَمَةُ فقُلْتُ:

وَاللَّهِ لَولاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا　　وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فقال رسول الله ﷺ:

وأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا　　وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إنْ لاَقَيْنَا

والْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا

٧ ـ وروى مسلم عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ يوم الأحزاب يَنْقُلُ مَعَنا التُّرابَ، ولَقَدْ وَارَىٰ الترابُ بياضَ بَطْنِهِ وهو يقولُ:

وَاللَّهِ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا　　وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا　　إنَّ الأُلَىٰ قَدْ أَبَوْا عَلَيْنَا

قال: ورُبَّمَا قال:

إِنَّ الْمَـلاَ قَـدْ أَبَـوْا عَلَيْنَـا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَـــةً أَبَيْنَـــا

٨ ـ وروَىٰ مسلـمٌ عـن جُنْـدُبِ بْـنِ سُفْيَـانَ قـال: دَمِيَـتْ إِصْبَـعُ رسول الله ﷺ في بعض تِلْكَ المشاهد، فقال:

هَـلْ أَنْـتِ إِلاَّ إِصْبَـعٌ دَمِيـتِ وفـي سَبِيـلِ اللَّـهِ مَـا لَقِيـتِ؟

إلى غير ما سبق من الشواهد.

● أمّا بالنسبة إلى تَحْسِين الصَّوتِ في تلاوة القرآن، فقد ثبَتَ في الصحيح أنّ الرسول ﷺ قد حثّ عليه.

٩ ـ روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارمي بإسنادٍ صحيح عن البراء بن عازب، أنّ النبـي ﷺ قال:

«زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ».

١٠ ـ وروى البخاري عن أبـي هريرة وغيرُه عن سَعْدٍ، وعن أبـي لُبابَةَ بن عبد المنذر، وعن ابن عباس، وعن عائشة، أنّ النبـي ﷺ قال:

«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بالْقُرْآنِ».

١١ ـ وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبـي هريرة، أنّ النبـي ﷺ قال:

«مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِـيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ، يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ».

أَذِنَ: أي: اسْتَمَعَ وأَصْغَىٰ.

١٢ ـ وكان الصحابـيّ أبو موسىٰ عبدُ الله بنُ قَيْسٍ الأشْعَرِيّ ـ رضي الله عنه ـ صاحِبَ صَوْتٍ حَسَنٍ، وكانَ ذا عِنَايَةٍ بتَرْتِيلِ القرآن وتَحْبِيرِه وتَحْسِينِ

الصَّوْتِ به، حتىٰ كان جَمْعٌ من أصحاب رسول الله ﷺ يَجْلِسُون إليه ويستمعون القرآنَ منه، وكان إذا رآه عُمَرُ رضي الله عنه قال له: «شَوِّقْنَا إِلَىٰ رَبِّنَا يَا أَبَا مُوسَىٰ» فيَجْلِسُ أبو موسَىٰ، فَيَتْلُو القرآن، ويَجْلِسُ عُمَرُ خاشعاً إلى جَنْبِه، ويَجْلِسُ معهما جَمْعٌ من المسلمين.

● وقام أبو موسىٰ يوماً يتهجَّد في المسْجد النبويّ ويتلُو القرآن في صلاته بصوته الجميل، فجلس الرسول ﷺ على باب حجرته، واسْتَمَع إليه وأنْصَتَ، ثمّ لمّا أصْبَح، قال لأبـي موسى:

«لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِـعُ إِلَىٰ قراءَتِكَ الْبَارِحَة!!، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاود».

وقال الرسول ﷺ لأصحابه:

«إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أُعْطِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آل داود».

● ومرّ النبـي ﷺ مَرَّةً هو وأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، بأبـي موسَىٰ وهو يقرأ القرآن في بيته ليلاً، فوقفا يَسْتَمِعَانِ لقراءته ساعةً، ثُمَّ مَضَيا، ثمّ قال رسول الله ﷺ لأبـي مُوسَىٰ:

«يَا أَبَا موسَىٰ، مَرَرْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ وَمَعِي عَائِشَةُ، وأَنْتَ تَقْرأُ فِي بَيْتِكَ، فَقُمْنَا فَاسْتَمَعْنَا».

فقال أبو موسى: أمَا إنّي يا رسُول الله لو عَلِمْتُ لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيراً.

لَحَبَّرْتُهُ: أي: لحسَّنْتُه، فتحبير القراءة تحسينُ الصوت بها، وتحبير الشِّعْر والكلام تحسينُه.

● وجاء رجُلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أُعَجِّبُكَ مِنْ أَبـي مُوسَىٰ؟!، فقد جَلَسَ في بيْتٍ واجْتَمَعَ إِلَيْهِ ناسٌ، فَأَنْشَأَ يَقْرَأُ عليهمُ القرآن.

فقال رسول الله ﷺ:

«أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُقْعِدَنِي حَيْثُ لاَ يَرَانِي أَحَدٌ مِنْهُمْ؟».

قال: نعم، فخرج رسول الله ﷺ فَأَقْعَدَهُ الرَّجُلُ حيْثُ لاَ يَرَاهُ أَحَدٌ، فَسَمِعَ قراءَة أبي مُوسَىٰ فقال:

«إِنَّهُ يَقْرَأُ عَلَىٰ مِزْمَارٍ مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاودِ».

خاتمة:

ولمّا كان للصَّوْتِ الْحَسَنِ تأْثيرُهُ الفعَّالُ في النفوس، كان لاَ بُدَّ من الاهتمام به، واتّخَاذه وسيلةً من وسائل التأثير الْخَيِّرِ النافع، ما دام الدّين قد أباح الاستماع إليه، وأباح اسْتِخْدَامَهُ في كلّ وجْهٍ لا مَعْصِيَةَ للَّهِ فيه، بشرط أن لا يصير غايةً في ذاته، ويخرج عن كونه سبيلاً لأمر مبرور، أو فيه طاعةٌ لله عزّ وجلّ، بل قد يكونُ استخدام الصوت الحسَنِ الذي يُبَاحُ الاستماعُ إليه عملاً مبروراً يُؤْجَرُ عليه مُسْتَخْدِمه.

* * *

المقـولة السـابعة
من سُبل التوجيه غير المباشر

إدخال البيان الإسلامي
ضِمْنَ العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات

- ١ -
المطلوب في الفُرَص المتاحة

حاملُ الرّسالة ينبغي أن يكون همُّه الأعظم في حياته تأدية وظائف رسالته ما استطاع إليها سبيلاً.

فهو مطالَبٌ بأن يَنْتَهِزَ كلَّ سانحة، وكلَّ فرصةٍ تَمُرُّ به في حياته، يرى أنّ باستطاعته أن يؤدّي فيها شيئاً من رسالته أداءً مَرْجُوًّا منه النَّفْعُ، بطريقة حكيمةٍ مَصْحوبةٍ بالرّفْقِ، وبأُسْلُوبٍ تَسلُّلِيٍّ تِلْقَائِيٍّ غَيْرِ منفِّرٍ ولا نَابٍ ولا جَافٍ.

وأَفْضَلُ الطُّرُق ما كان منها بأسلوبٍ غَيْرِ مُبَاشر، وغَيْرِ مُخَصَّصٍ بعنوانٍ من عنوانات الدَّعوة إلى الله، أو النُّصْح والإرشاد، أو الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر.

- ٢ -
انتهاز المناسبات التي تُتَاح في مختلف العلوم

والمناسباتُ الّتي تُتَاح لحامل الرسالة خلالَ بُحُوثِ العلوم ذواتِ

التخصُّصَات المختلفات، حتَّىٰ ما كان منها علميًا بَحْتاً، كثيرةٌ جدًّا، لأنّه ما من علْم من العلوم إلاّ لَهُ صِلَةٌ ما بالخالِقِ جلّ جلاله، إذْ لا بُدَّ أن يشتمل على مظهرٍ أو أثرٍ من آثار صفاته، أو أنظمته، أو عِلْمِهِ وقُدْرَته وحكمته، أو مفهومٍ أو قضيّةٍ ممَّا يتّصِل بمفهومات الدّين الذي اصطفاه الله لعباده.

وباستطاعة حامل الرسالة أن يستفيد من المناسبات المتاحاتِ في مختلف العلوم، وأنْ يُقَدِّم شيئاً من مضمونات رسالته، وهو يشرح مسائل العلم الذي يبحثُه، لكنّ هذا يحتاج في بعض العلوم ذاتِ التخصُّص البحت مَهَارَةً فائقة، وذكاءً متوقّداً، وبديهةً حاضرة.

أمثلة:

١ ـ ففي علْم الرياضيات الصِّرْف مثلاً، يمكِنُ الاستفادة من الأعْداد، لبيان أنّ الموجود الأزليَّ واحدٌ في ذاته، وفي صفاته، وعنه صدرت المتعدّدات في الكون كلّه، وأنّ كلَّ جنْسٍ ونوع وصنف من الكائنات مؤلف من زوجين اثنين، وقد جعله الخالق كذلك لينفرد بالوحدانية من دون سائر ما خلَقَ في كونه.

ويمكن الاستفادة من المطابقة بين الأسس الرّياضيّة، وظَوَاهِرِ خَلْق الله في الكون، القائمة على هذه الأسس التي هي جزءٌ من عِلْمِهِ المحيط بكلّ شيء.

ويمكن الاستفادة من بعض المناسبات في الأَعْدَاد لبيان أنْ الذّوات المتعدّدات يستحيل عقلاً أن تكون ذاتاً واحدة، فالرّبّ الخالق يجب عقلاً أن يكون واحداً لا شريك له، والإلّه المعبودُ يجبُ أن يكونَ إلّهاً واحداً لا شريك له.

إلى غير ذلك ممّا يحتاج مهارةً فائقةً، وذكاءً لمّاحاً.

٢ ـ وفي عِلمَيّ الكيمياء والفيزياء مناسباتٌ كثيراتٌ تُتَاحُ لحامِلِ الرّسالة، ويستطيعُ أن يَهْتَبِلَها لبيان اتقان الخالِقِ لأنظمته في كونه، ولبيان

التشابه بين أنظمة الكون الماديّ الخاضِع للتّكْوِينِ الجبريّ، وأنظمة الدّين المنظمة لأعمالِ الناس الاختياريَّةِ، إذْ وُضِعُوا في الحياة الدّنيا موضع الابتلاء.

وباستطاعة حامل الرسالة أن يستخرج وجوه تشابُهٍ كثيرة، كالشبه بين السجود الجبريّ في الكائنات غير المختارة، والسجود الاختياريّ في العباد الممتحنين المختارين في حيواتهم، وكالشَّبَه بين صراع الماء النازل من السماء، وزبَدِ الأرض الذي يَطْفُو على السَّيْلِ ثم يكونُ جُفَاءً في نهاية الصراع، وبين صراع الحقّ والباطل والمحقّين والمبطلين، إذ يزهق الباطل في نهاية الصراع.

٣ ـ وفي علوم الأحياء والتشريح والطبّ البشريّ مناسباتٌ كثيراتٌ تُتَاحُ لحامل الرسالة، ويستطيع أن يَهْتَبِلَها لِخِدْمَةِ الفكر الإسلامي، في أصوله وفروعه.

٤ ـ أمّا العلومُ الإنسانيّة فصِلَتُها بمسائل الفروع الإسلاميّة صِلَةٌ صَمِيمَةٌ جدًّا، لاتّحاد كثير من موضوعاتهما، ولأن أحكام الفقه الإسلاميّ تَتَنَاوَل كثيراً مما تتناولُه أحكام هذه العلوم، مُتَعَارضةً مَعَها، أو متفقةً أحياناً، وباحثُها مطالَبٌ بأن يتعرّض خلال بحثه لها لأحكام الشريعة الإسلاميّة ومفهوماتها المتعلّقعةِ بقضاياها.

٥ ـ وأمّا الآدابُ النثريَّةُ والشِّعْرِيَّةُ، وموضوعاتُ الفنونِ الجماليّة المختلفة، فذواتُ ميادين فسيحةٍ جدًّا لعرضِ الفكرِ الإسلاميّ فيها.

فالموضوعات والأفكار الإسلاميّة يمكن تقديمها بحُلَلٍ أدبيّة، والأمثلة والشواهد على الموضوعات الأدبيّة والبلاغيّة والجماليّة، يمكن اقتباسها من النصوص ذواتِ التوجيه الإسلاميّ، والدعوة إلى اللّهِ والنُّصْح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إلى غير ذلك.

- ٣ -

استغلال المفسدين للعلوم والآداب والفنون

كثيراً ما يَدُسُّ المفسدون في الأرض، والمضلِّلون، أفكارهم وآراءهم الاعتقاديّة، وتفسيراتهم الفلسفيّة، ومفاهيمهم التي تخدم أهواءهم وشهواتهم ومصالحهم الخاصّة، ومذاهبَهُمُ الوضعيّة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وتضليلاتهم المتصلة بأنواع السلوك الإنساني، في مختلف العلوم والفنون، حتَّىٰ ما كان مِنْهَا بَحْتاً.

وغرضهم من دسّها في ثنايا العلوم والفنون المختلفة أن تتسلَّلَ إلى الأذهان والنفوس والقلوب بطريقة غير مباشرة، فهي بهذا التسلُّل تستطيعُ أَنْ تتهرَّبَ من المراقبة الفكريّة الناقدة، الّتي تهتَمّ بكَشْفِ الزَّيْفِ، والتحرّي عن الحقائق.

والسّبَبُ في ذلك أنَّ الأفكار والنفوس تكون حينئذٍ واقعةً تحت تأثير مؤثراتٍ صارفات:

(أ) فهي إمَّا أن تكون مشغولةً بمتعةِ الأدب والفنّ عن كشف زيف المضامين الفكريّة، بحيلة أنّ الأدب أو الفنّ إنَّمَا يُهِمُّهُمَا العناية بالجمال الأدبيّ أو الفَنّيّ، لا بصحّةِ المضامينِ الفكريّة.

(ب) وإمّا أن تكون واثقةً من أنَّ البحث علميٌّ متجرّدٌ، يَعْتَمِدُ على البراهين العقليّة، أو التجارب والمشاهدات، وتسجيل النتائج بأمانةٍ وصفيّةٍ صادقة، تَحْكِي مَا هُوَ وَاقِـعٌ فِعْلاً في الطبيعة، استناداً إلى ما قدّمتهُ المشاهدةُ والتجربة.

وبسبب الانشغال بالْمُتْعَة، أو الثّقة بالبحث العلميّ المتجرّد، تدخُلُ المندَسَّاتُ دخولاً مُزَيَّفاً، بطريقةٍ غَيْرِ مباشرة، فلا تُوَاجِهُ النَّقْدَ الفكرِيَّ

المطلوب، فتَعْلَقُ في الأنْفُسِ، دون أن تجِدَ عَقبَاتٍ صَادّاتٍ تَفْحَصُها وتكشف زيْفَها، وقد تُمْسِي بالتكرار مألوفةً، ومع الإلْفِ يخِفُّ الاعتراضُ عليها، ومع طول الزّمن وتوالي الأيّام تَغْدُو مفهوماتٍ تقليديّة غير مرفوضة، كسائر التقاليد الّتِي يتناسَىٰ النّاسُ الاعتراض عَلَيْهَا، مهما كانت باطلةً أو فاسدة، ومَهْمَا كانَتْ من قَبْلِ إيلافِهَا أُمُوراً مُسْتَنْكرَةً ومُسْتَهْجَنَة.

بهذه الحيلة التسلُّليّة دخلَتْ في الآداب والفنون، والعلوم العقلية، والعلوم الوصفيّة، معتقداتٌ فاسِدات، وتفسيراتٌ فلسفيّاتٌ باطلات، ومذاهب سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة، بحسب أهواء كُتَّابها وموجّهيها السياسيِّين أَوْ غيرهم، من دعاة الضلال في الأرض، وشياطين الفتنة والفساد والإفساد.

أمثلة:

١ ـ ففي العلوم العقليّة، والعلوم الطبيعيّة دخَلَ التفسيرُ الماديّ الملْحِدُ مُنْدَسًّا، ودخَلَتِ الفلسفاتُ الوجوديّة الملحدة، مع أنّ هذه التفسيرات غريبةٌ عن طبيعة هذه العلوم، ولا تخضع لوسائلها.

٢ ـ وفي علم النفس دخلت التفسيرات الإلحاديات، والتعليلات المضلّلات الداعيات إلى الإباحيّة، والتحلّل من ضوابط العفّة، ومن مكارم الأخلاق، مع أنّ هذه الأمور لا علاقة لها بالعلوم الوصفيّة التي تَصِفُ الواقع الطبيعي.

٣ ـ وكذلك حصل في علم الأحياء، وعلم الاجتماع، وفي سائر العلوم الإنسانيّة، وفي الآداب والفنون، إذْ دخلت الأفكار والآراء الْمُخْتَلِفَة الداعية إلى الإلحاد والكُفْرِ بالله، وإلى كُلِّ شرٍّ وفسادٍ في الأَرْضِ، وإباحيَّةٍ وتَحَلُّلٍ من فضائل الأخلاق ومكارم السلوك.

ومن أمثلة هذا قِصَص «جان بول سارتر» ومسرحياته، وشِعْرُ بعض

نصارى لبنان وغيرهم، وقصص «إحسان عبد القدوس» وقصص ومسرحيات القوميّين، والاشتراكيّين، والشيوعيّين، والعلمانيين، وشعر ونثر ملاحدة الحداثيين، إلى زيف كثيرٍ انْدَسّ في الموسوعات العلمية الغربيّة، والشرقية المعادية للإسلام.

* * *

المقـولة الثامنـة
من سُبُل التوجيه غير المباشر

الْبَثُّ العرضيُّ المفيدُ عند المناسبات الملائمات

- ١ -
التـعـريـف

الْبَثُّ العرضيّ: هو البيان الكلاميّ الذي يأتي عَفْو الخاطر، دُونَ إعدادٍ سابقٍ، ولا قَصْدٍ مُدَبّر، ولا يَشْعُرُ المخاطَبُ به بأنّ سَوْقَ الكلام مَقْصُودٌ لذاته في أصْلِ الموضوع الّذي يجري الحديثُ حولَه.

وهو في الكلامِ يُشْبه الإلْماحَ في الأجسام، فالإلماحُ هو ما تفعلُه الحسناء من إظهار بعض محاسنها وسَتْرِها بسُرْعةٍ، ليلْمَحها الناظر فيُعْجَبَ بها، وتفْعَلُ هذا بطريقةٍ قد يشْعُرُ الناظر إليها بأنّها حركةٌ غير مقصودة.

ويَنْتَهزُ أهْلُ الفطانة والذكاء اللّماح المتوقد حاضرو الْبَديهةِ أضعفَ المناسباتِ في الأحاديث المتداولة في المجالس ليَبُثُّوا بعضَ ما يريدون بثَّهُ من أفكار بثًّا عَرَضيًّا، دُونَ أنْ يُشْعِروا من يتحدَّثون معهم أنّ هذه الأفكار قد سِيقَتْ ضِمْنَ خطّةٍ مرسومة مُعدَّةٍ سابقاً، بل جاءَتْ عَفْو خواطِرِهِمْ فطرحوها،

دون اهتمام ولا عناية بها، ولا إصرارٍ على توجيهها بغية توصيلها إلى الآخرين، أو إقناعٍ بها.

وقد يكون البثُّ العرضي استطراداً مع سانحة عارضة، أو تعليقاً على فكرة عابرة، أو اشتقاقاً من كلمةٍ أو جُمْلة، أو تفريعاً على قضيّة كليّة، أو نحو ذلك.

ولهذه الوسيلة تأثيرٌ كبير على أفكار بعض الناس، ولا سيما الّذين تلائم الفكرةُ الّتي جاءت في البثّ العرضي ما في نفوسهم من أهواء ورغبات، إذْ يَشْعُرونَ بأنّ قائلها أطْلَقها عَفْواً وعَلَىٰ البديهة دون قَصْدٍ منه، فهي بمثابة صَيْدٍ ثمينٍ جاء بتلقائيَّةٍ غير مقصودة، فَمِنَ المفيدِ الإسراعُ باصطيادِها، والاحتفاظ بها، فمن اصطادها واحتفظ بها صارَ بَعْدَ ذلك من دُعاتها والنّاشرين لها.

- ٢ -
المطلوب من حَملَةِ الرّسالة بالنسبة إلى هذا السبيل

كما سبَقَ البيان حول الوسيلة السابقة فإنّ حامل الرسالة مُطَالَبٌ بأنْ ينتهزَ كلَّ سَانحةٍ، وكلَّ فُرْصَةٍ تَمُرُّ في حياته، يَرَىٰ أنّ باستطاعتِه أن يؤدّي فيها شيئاً من رسالتِه أداءً مرجُوَّ النَّفْع، بطريقة حكيمةٍ مصحوبةٍ بالرِّفْق، وبأُسْلُوبٍ تلقائيٍّ غير منفِّرٍ ولا نابٍ وَلاَ جَافٍ ولا ممجُوج.

وما أكثر المناسبات التي تُتَاحُ في الأحاديثِ الّتي تدور في مجالس الناس، للبثّ العرضي الّذي قد يؤثر أكثر من تأثير أساليب البيان الأخرىٰ، إذْ يتسَلَّلُ إلى داخل نفوس بعض الناس دون أن يصادفَ أيّ عقَبَةٍ صادّة.

والأفكار الإسلاميّة هي أثْرَىٰ الأفكار الّتي يُمْكِنَ أَنْ تُنْتَهَزَ المناسبَاتُ في الأحاديث، لبَثِّها بثًّا عَرَضِيًّا.

- ٣ -
استغلال المفسدين سبيل البث العرضي

وقد عرف المفسدون في الأَرض، ودعاةُ الشرّ والضلال، ما للبثّ العرضيّ من تأثير في نفوس كثير من الناس، فجعلوه أحد سُبُلهم الإفساديّة المضلّلة الكبرىٰ، ويستغلّ أذكياؤهم أضعف المناسباتِ للبثّ العرضيّ دُونَ أن يُشْعِرُوا المخاطبين بأنّ لهم أهدافاً حاضرةً في تصوُّراتهم، وهُمْ يَتَرَصَّدُونَ لها المناسَباتِ الملائماتِ لانتهازها.

أمثلة:

● كأن يكون المجلس مندمجاً في توجيه اللَّوْمِ الشّديد لبعضِ من يُطْلَقُ عليهم اسم «رجال دين» في سلوكه الشخصي، أو طريقته المنفّرة، أو مظهره الّذي تنقصه الأناقة المحبّبَة، أو في استغلال أرباب السياسة أو أصحاب الأموال له.

فيستغلّ بعضُ الجلساء الأخباث هذه الحالة، فيُطْلِقُ مثل عبارة: «هكذا رجال الدين» أو عبارة: «طبيعة المفاهيم الدينيّة تكوين أشخاصٍ من هذا القبيل» أو نحوهما، ثمّ يقفزُ بسرعة عن مناقشة هذه العارضة، مع حِرْصِه على أن يستمرَّ الجلساء في متابعة الكلام حول موضوعهم السابق.

وكمْ يكون لأمثال هذه الكلمات من تأثير في بعض النفوس.

● وكأنْ يستَغِلَّ المدرِّسُ العلماني أو الملحد البثّ العرضيَّ، إذْ ينتهز له أثناء الدرس مناسبة تمرُّ عارضةً، وربّما اصطنع هو المناسبة اصطناعاً لِيَنْتَهِزَها، فيلقي عبارةً فيها تمجيد داروِن وآرائه وتأييد فِكْرَة التطوّر الذاتي، أو عبارة فيها تأييد آراء فرويد في الكبت الجنسيّ وضرورة نشر فكرته الإِباحيّة، أو عبارةً فيها آراء دوركايم في علم الاجتماع.

● وكأن يتحدّث الأسْتَاذُ الصليبي بين تلاميذه المسلمين، عن صفات قساوسة الكنيسة، ورهبانِ الأديرة وراهباتها، ويشنّع عليهم بفحشهم وسَلْبِهِم للأموال، ثمّ يقول: هكذا كلُّ رجالِ الأدْيان يتاجرون بالدّين لتحقيق مآربهم الخاصّة.

ويأخُذُ أبْنَاء المسلمين هذه العبارة ونحوها بسذاجة فيعمّمونها على علماء المسلمين، ويَكْرَهُون الدِّينَ وكلَّ الدعاة له، والناصحين المرشدين، والآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر.

مع أنّ هذا الأستاذ الصليبي متعصّبٌ لِصَلِيبِيَّتِهِ، ويحترم ويعظّم القساوسة، والرهبان، وكلّ رجال الكنيسة النصرانية، ولكنه يُغْرِي بعلماء المسلمين بسبيلُ الْبَثِّ العَرَضيّ من سُبُل التوجيه غير المباشر.

* * *

الفصل الثاني

العقبات الصّادّات للتّوجيه
وأساليب معالجتها

وفيه مقدمة وخمس عشرة مقولة منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول
عقباتٌ تكون أسبابُها من حملة الرسالة وفيه سِتُّ عقبات

المقولة الأولى: ١ ـ عقبة المصلحة الشخصيّة الدنيويّة لدى حامل الرسالة.

المقولة الثانية: ٢ ـ عقبة كبر حامل الرسالة وعُجْبه بنفسه.

المقولة الثالثة: ٣ ـ عقبة القبائح المنفرة للحواسّ.

المقولة الرابعة: ٤ ـ عقبة سوء خلُق حامل الرسالة.

المقولة الخامسة: ٥ ـ عقبة كون حامل الرسالة غير موثوقٍ به ولا محترمٍ من قِبَلِ مَنْ يُؤَدّي بينهم رسالته.

المقولة السادسة: ٦ ـ عقبة كون حامل الرسالة مكروهاً لشخصه أو لمن ينتمي إليهم.

القسم الثاني

عقباتٌ تكونُ أسبابُها ممّن تُوَجَّهُ لهم الرسالة، وفيه ست عقبات

المقولة السابعة: ١ ـ عقبة كِبْرِ من تُوجَّهُ له الرسالة، وعُجْبِه بنفسه.

المقولة الثامنة: ٢ ـ عقبة شعور من تُوجّهُ له الرسالة بالحرمان من حرّيّة التفكير أو حرّية العمل.

المقولة التاسعة: ٣ ـ عقبة سوابق الأفكار والمفهومات والمعتقدات والعادات.

المقولة العاشرة: ٤ ـ عقبة التقليد الأعْمى.

المقولة الحادية عشرة: ٥ ـ عقبة الحسد.

المقولة الثانية عشرة: ٦ ـ عقبة الأهواء والشهوات من متاع الحياة الدنيا.

القسم الثالث

عقباتٌ تكونُ أسبابُها في الوسط بين مُوَجّه الرسالة وبين من تُوجّه له، وفيه ثلاث عقبات

المقولة الثالثة عشرة: ١ ـ عقبة الوساوس والتسويلات الشيطانية.

المقولة الرابعة عشرة: ٢ ـ عقبة أعمال المضلّين وجنود الغزو الفكري المفسدين.

المقولة الخامسة عشرة: ٣ ـ عقبة عدم توافر وسائل الاتّصال الإعلامي المؤثر.

نظـرة عامّـة

تَقُومُ دونَ تقبّلِ ما يُوجِّهُه حَمَلةُ رسالة الهداية، أو رسالة الحماية والإصلاح، عقباتٌ صادّاتٌ، تَقِفُ دون مراكز الاستجابة لدىٰ المقصودين بالتوجيه، فتكون بمثابة حواجزَ تجعلُهُمْ يَرْفُضون أو لا يستقبلون المبادىءَ الّتي يُطْلَبُ منهم فَهْمُها واعتقادُها، والفضائل السلوكيّة النفسيّة والجسديّة الّتي يُطْلَبُ منهم القيام بها في حياتهم العمليّة.

وبالتأمُّل التحليليّ يمكن اكتشاف أنّ العقبات الصادّاتِ تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عقباتٌ تكون أسبابُها من حَمَلةِ الرسالة، ويظهر لنا منها بوضوح ست عقبات:

العقبة الأولى: المصلحة الشخصيّة الدنيويّة لدى حامل الرسالة.

العقبة الثانية: كبْرُ حامل الرسالة وعُجْبُه بنفسه.

العقبة الثالثة: ما في حامل الرسالة من قبائح منفّرةٍ للحواسّ.

العقبة الرابعة: سوءُ خلُقِ حاملِ الرسالة، كالشّح، وسرعة الغضب، والفظاظة، وغلظ القلب، والأنانية المفرطة، والقسوة، والعنف، وحُبّ التسلّط.

العقبة الخامسة: كون حامل الرسالة غير موثوقٍ به، ولا محترمٍ من قِبَلِ من يؤدّي رسالته بينهم.

العقبة السادسة: كون حامل الرسالة مكروهاً من قِبَلِ من يؤدّي رسالته بينهم، لشخصه، أو أسرته، أو قبيلته، أو انتمائه الحزبي، أو غير ذلك.

* * *

القسم الثاني: عقباتٌ تكون أسبابُها ممّن تُوجّه لهم الرسالة، ويظهر لنا منها بوضوحٍ ست عقبات:

العقبة الأولى: عقبة كبرٍ من توجّه له الرسالة وعجبه بنفسه.

العقبة الثانية: عقبة شعورٍ من توجّه له الرسالة بالحرمان من حرّيّة التفكير، أو حرّيّة العمل.

العقبة الثالثة: عقبة سوابق الأفكار والمفهومات والمعتقدات والعادات.

العقبة الرابعة: عقبة التقليد الأعْمَىٰ.

العقبة الخامسة: عقبة الحسد.

العقبة السادسة: عقبة الأهواء والشهوات من مَتاعِ الحياة الدنيا.

* * *

القسم الثالث: عقباتٌ تكون أسبابُها في الوسط بَيْنَ موجّه الرسالة ومَنْ تُوجَّهُ له، ويظهر لنا منها بوضوح ثلاث عقبات:

العقبة الأولى: الوساوس والتسويلات الشيطانية.

العقبة الثانية: أعْمال المضلّينَ وجنود الغزو الفكريّ المفسدين.

العقبة الثالثة: عدم توافر وسائل الاتّصال الإعلامي المؤثر.

وفي المقولات التاليات بعض شرح لعقبات هذه الأقسام الثلاثة:

شرح عقبات القسم الأوّل
العقبات التي تكون أسبابها من حملة الرسالة
وهي ست عقبات

المقولـة الأولـى
من العقبات الصادات

- ١ -
عقبة المصلحة الشخصيّة الدنيويّة لدى حامل الرسالة

من العقبات الصادّة للتوجيه الذي يقوم به حامل الرسالة، أن يكون ذا مصلحة شخصيّة دنيويّة يُرِيدُ تحقيقها لدى من يؤدّي رسالته بينهم، أو يكونون هم وسيلةً لتحقيقها عند غيرهم من الناس.

فاتّهام النَّاسِ حاملَ الرسالةِ بالمصْلَحَة الشخصيّة الدنيويّة، من أدائه رسالَتَه، إذا كان لَهذا الاتّهام أماراتٌ ودلائل توكّد صحَّتَه، يولّد في نفوسهم غالباً عقبةً من رُدُود أفعالها، رفْضُ الاستجابةِ لدعوته، والإعراضُ عن قبول نصائحه وإرشاداته، دون أن يَزِنوا ما يدعوهم إليه أو ينصحهم به، ويرشدهم إليه، بالميزان العقلي المنطقيّ والعِلْمِي، ودون أن يفكّروا في صحّة وسلامة الأعمال التي يدعوهم إلى القيام بها، أو فسادها، ودون أنْ يبحثوا عمّا تجلبُه من خير أو شرّ، ونفع أو ضرّ.

وهذه العقبة تزول حينما يثقون بأنّ حامل الرسالة مُخْلِصٌ في دعوته، ونصحه وإرشاده، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وأنّه ليس ذا غرض شخصيّ دنيويّ من أجله يحاول إقناعهم بصحّة ما يدعوهم إليه، أو ينصحهم به، ويرشدهم إليه، إلاّ ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ، ورجاء ثوابه، والحرص عليهم بدافع الأخوة والرحمة، أو بدافع الغيرة على المصلحة العامة، وسعادة الأمّة الّتي هو منها.

ولا تُوجَد هذه العقبة أصلاً حينما تَتَسَلّل أفكار رسالته تسلُّلاً يتوهَّمُ معه مُتَلَقّيها أنّه هو مبتكرها، وأنّه هو الذي اتجهت إرادته للقيام بالعمل الذي ينصح به حامل الرسالة، ولم يُمْلِه عليه أحدٌ.

ولا توجَدُ هذه العقبةُ أيضاً حينما ترتبط الأفكار أو الأعمال بشهوة من شهوات النفس، أو هوىً من أهوائها، أو مَصْلَحةٍ عاجلةٍ قريبةٍ واضحةٍ من مصالحها، والسَّبَبُ في هذا أنّ حلاوة الاستمتاع بالشهوة، أو حلاوة إرضاء الْهَوىٰ، أو الطّمع بالحصول على المصلحة أو المنفعة العاجلة، من شأنها أن تُخَدِّر في النفس مراكز الحَذَرِ الّتي توجّه شُعَيرات الاتّهام بإحساس مرهف، منذ تتوجّه نحوها واردات خارجية، ويكون ذلك قبل أن تتحرّك أو تتوجّه أجهزةُ البحث العلميّ داخل الإنسان، بغية التَّحَرِّي عن الحقيقة، وقياس الأمر الوارد بمقاييس المنطق السليم، ومختزنات المعرفة السابقة.

ولدُعَاة الضلال والشرّ والفساد والإفساد في الأرض حِيَلٌ كثيرةٌ جدّاً، يُخْفُون بها مصالحهم الشخصيّة، حتّىٰ لا يصطدموا بهذه العقبة، ومن أهمّ هذه الحيل:

استهواء النّاس عن طريق غرائزهم، وأهوائهم، وشهواتهم، ورغباتهم، وما يَرَوْنَ فيه مصالحهم العاجلة من زينة الحياة الدنيا.

موقف التربية الإسلامية:

هذه العقبة قد ذلّلَتْها ووطّأتْهَا جميع الرسالاتُ الرّبَانيّةُ للنّاسِ، بتجريد الرُّسُل من المصالح الشخصيّة الَّتي ترتبط بالّذين يدعونَهُمْ إلَىٰ الله.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ حملةَ رسالاتهم من بعدهم مكلّفون أن يتجَرَّدوا كذلك من المصالح الشخصيّة الدنيويَّة التي ترتبط بالذين يؤدّون رسالاتهم بينهم.

فدعوة الرُّسُل دعْوةٌ إلى الله لا إلى أَنْفُسِهم، وهم لا يسألون النَّاس أجراً على ما يقومون به من أعمال لخير الناس، وما يبذلونه من تضحيَاتٍ لأُمَمِهم، ولِلَّذِينَ يتَّبِعونهم مؤمنين بهم، وما يقدّمونه لهم من هداية ونُصْحٍ، وأَرشادٍ، وتربيةٍ، وحِرْصٍ على نجاتهم، وغَيْرةٍ عليهم.

إنما الباعث لهم ابتغاء رضوان الله عزّ وجلّ، وأرادةُ الخير للناس، بعاطفةِ الرّحمة بهم، والشفقة عليهم، وهم يطلبون ثوابهم من الله الذي أرسلهم.

* * *

المقـولة الثـانية
من العقبات الصادرات

- ٢ -
عقبة كِبْرِ حامل الرسالة وعُجْبِه بنفسه

- ١ -
الكبر والعجب بالنفس من أقبح الصفات المنفّرة

من أقبح الصفات المنفّرة الّتي تَجْعَلُ الناس يُعرِضُون عن تَقَبُّلُ دَعْوة الداعي إلى سبيل ربّه، أو تقبُّلِ نُصْح الناصح، وإرشاد المرشد، وتعليم المعلّم، أو أمرِه ونهيه، اسْتكبارُه، وعُجْبُه بنفسه، وتعاليه على من يُؤدّي بينهم رسالته.

إنّ استكباره وعُجْبَه بنفْسِه وتعاليَهُ على الناس يكْشِفُ عُيُوبَهُ لأعينهم الفاحصةِ المتَتَبِّعَة، فيستَسْخِفُونَهُ ويَسْتَخِفُّونَهُ ويُوجِّهونَ له نظراتِ ازدراءٍ واحتقارٍ، عقوبةً له على تعاليه واستكبارِه وعُجْبِهِ بنَفْسِه، ويَرَوْنَهُ مغْرُوراً يتعالَىٰ بنفسه وهووضيع، ويتعاظم وهو حقير.

فيقع في ورْطَةِ التناقُضِ بَيْنَ ما يُريدُه لنفسه من استعلاء على الناس، وما يَحْمِلُونَهُ له من احتقار وازدراء، فلا يألَفُهُمْ ولا يَألَفُونَه.

إنّ الناس بحسب ما فُطِرُوا عليه من صفات نفسيّة، يكرهون المستكبرين المعجبين بأنفسهم، الذين يتعالَوْنَ عليهم، ويحبُّون ويقدّرون ويُعَظّمون المتواضعين، الْمُوَطَّئِي الأكناف، الّذين يألفون ويؤلفون.

أمّا المتواضعُ فَيَسْتُر له تواضُعُه عيوبَهُ، وقلّما يرى الناس منه إلاّ مَحَاسنه، لذلك فهُمْ يُجِلّونه ويحبّونه ويألفونه، وهو يألفهم إذْ يَجِدُ لديهم تودُّداً له، وتقديراً لخُلُقِه، وثناءً عليه، ورغبةً في مجالسته ومؤانسته والتعامل معه.

- ٢ -
واجب حَمَلةِ الرسالة

فَعَلَىٰ حَمَلَةِ رسالة الدَّعوة إلى الله، أو رسالة النُّصْح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنْ يتحلَّوْ بخُلُق التواضع، ولِينِ الجانب، وخفْضِ الجناحِ لأتباعهم الذين يستمعون لتوجيهاتهم، ونصائحهم وإرشاداتهم، وأنْ يكونوا بتواضعهم قدوة حسنة للناس.

فإذا فعلوا ذلك كانوا أكثر قدرةً على امتلاك نفوس الناس وقلوبهم، وأكثَرَ جاذبيَّة لحضور مجالسهم والأُنْسِ بها، والاستماع إِلَىٰ دَعْوَتِهِم، ونصائحهم وإرشاداتهم، والاستجابة لأوامرهم لهم بالمعروف ونواهيهم لهم عن المنكر.

وليحذَرُوا أشدّ الحذَر من أن تَنْزِعَ فيهم نفوسهم إلى الاستكبار والتعالي على الناس، بفَضْلِ علم، أو عقل وفطنة، أو فَضْلِ تقوىٰ أو برٍّ أَوْ إحْسَانٍ وأعمال صالحاتٍ، أو التعالي بما يتفاخَرُ به الناسُ عادةً من مالٍ أوجاهٍ أو أُسْرَةٍ أَوْ سُلْطان أو غير ذلك.

فهذا الاستكبار والتعالي هو مِنْ نَزْغِ الشيطان الَّذي يُفْسِدُ نُفُوسَهُمْ وقُلوبَهُم، ويُفْسِدُوا أعمالَهُمْ وأنشطتهم، إذْ يقيمُ بينهم وبين الناس عقبةً صادّةً

كريهة، ويجعل ما يحملون للناس من رسالة هداية وإصلاح وتقويم عَدِيم الأثر.

وعلى الدّعاة أن يجعلوا رسول الله ﷺ أسوتَهُمْ الحسنة في تواضعه ولين جانبه ورفقه وخفض جناحه للمؤمنين، فقد كان صلوات الله عليه عظيم التواضع، ليِّنَ الجانب، خافض الجناح لمن اتّبعه من المؤمنين، لا يتعالىٰ على مسكين ولا ضعيفٍ مستضعفٍ بين الناس، ولا يَتَعَاظَم في نفسه على عباد الله، مع ما لَهُ ﷺ من شخصيَّةٍ مَهيبة، فَمَنْ رآهُ بديهَةً هابَهُ، ومَنْ خالطَهُ مَعْرِفَةً وَعَاشَرَهُ أَحَبَّهُ، ولهذا كانَ ذا قُوَّةٍ تأثيريَّةٍ في النّاس مُدْهِشَةٍ، إذْ جَمَعَ في ذاتِهِ صفاتِ العظيم حقًّا، على تَوَاضُعٍ جَمٍّ، وخَفْضِ جناحَ ولينٍ ورِفْقٍ، فرفعه الله بذلك في نفوس الناس وقُلوبهم، فأحبَّهُ المؤمنون حتَّىٰ كان أَحَبَّ إليهم من آبائهم وأُمَّهَاتِم وأولادهم، وأحَبَّ إلىٰ كثيرٍ منهم من أنفسهم.

فممّا ورد في شمائل الرسول ﷺ ما يلي:

١ - روى الطبراني عن ابن عباس بإسناد صحيح قال:

«كان رَسُولُ الله ﷺ يَجْلِسُ عَلَىٰ الأرْضِ، ويَأْكُلُ عَلَىٰ الأَرْضِ، ويَعْتَقِلُ الشَّاةَ، ويُجيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ على خُبْزِ الشَّعِير».

كَانَ يَجْلِسُ على الأرض: أي: كان يجلس على الأرض دون حائل من فراشٍ أو بساطٍ أو نحوهما.

ويأكُلُ على الأرض: أي: من غير مائدة ولا خِوَان. وهذا من تواضعه ﷺ.

ويعتقل الشَّاة: أي: يجعل رجليه بين قوائمها ليحلبها، وهذا من تواضعه ﷺ، ومشاركته في الأعمال التي يقوم بها عامّة الناس.

ويُجِيبُ دعوة المملوك على خبز الشعير: أي: فلا يتعالى ولا يستكبر. وكلُّ ذَلِكَ من تَوَاضُعِه ﷺ.

٢ - وروى الإمام أحمد عن عائشة بإسناد حسن قال:

«كان رسول الله ﷺ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، ويَخْصِفُ نَعْلَهُ، ويَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتهم».

وهذا من تواضُعِهِ ﷺ.

٣ ـ وروى الإمام أحمد عن أنس بإسناد صحيح قال:

«كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَذْبَحُ أُضْحِيَتَهُ بِيَدِهِ».

٤ ـ وروى الحاكم عَنْ أَنَسٍ بإسنادٍ صحيح:

«كان رسول الله ﷺ يُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَضَعُ طَعَامَهُ عَلَى الأَرْضِ، ويُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ، ويَرْكَبُ الْحِمَار».

٥ ـ وروىٰ النَّسَائي عن أنسٍ بإسناد حسن قال:

«كان رسول الله ﷺ يَزُورُ الأنصار، ويُسَلِّمُ عَلَىٰ صِبْيَانِهِمْ، ويَمْسَحُ رُؤوسَهُمْ».

٦ ـ وروى النسائي والحاكم عن ابن أبي أَوْفَى، وروى الحاكم عن أبي سعيد بإسناد صحيح:

«أن رسول الله ﷺ كان يُكْثِرُ الذِّكْرَ، ويُقِلُّ اللَّغْوَ، ويُطِيلُ الصلاة، ويَقْصُرُ الْخُطْبَةَ، وكانَ لَا يَأْنَفُ وَلَا يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ والْمِسْكِينِ والْعَبْدِ حَتَّىٰ يَقْضِيَ لَهُ حَاجَتَهُ».

فهذه شواهد من تواضعه صلوات الله عليه.

ـ ٣ ـ
الترغيب في التواضع والتحذير من الكبر

لدى الباحثين في التعليمات الإسلاميّة أدِلّةٌ وشواهد كثيرة توجب على حَمْلَةِ الرسالة وسائرِ المسلمين أن يتحَلَّوْا بفضيلة التواضُعِ، والتخلّي عن

الكِبْرِ والعُجْبِ في النّفس، وكلِّ مظاهِرِهما في السُّلُوكِ، ومشاعرهما في النفس، ومنها ما يلي:

١ ـ روى مسلم والإمامُ أحمد والترمذيّ عن أبـي هريرة:

«. . . . ومَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ».

أي: وما تواضع أَحَدٌ لأَجْلِ ابتغاء مرضاة الله إلاّ رفعه الله.

وعند مسلم وأحمد عن أبـي هريرة أيضاً:

«مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ».

٢ ـ وروى الإمام أحمد، والبخاريُّ في الأدب المفرد، عن عبد الله بن عُمَر، أَنَّ النبـي ﷺ قالَ:

«مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، واخْتَالَ فِي مَشِيئتهِ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ».

٣ ـ وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:
«لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ».

فقال رجل: إنَّ الرَّجُلَ يُحبُّ أنْ يكون ثَوْبُه حَسَناً، ونَعْلُهُ حسناً.

فقال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ».

بطر الحقّ: تجاوُزُ حدودِ الحقّ، والخروجُ عن منهج الاعتدال، ولَهُ مظاهر كثيرة في الفكر، والقول، والعمل، ومنه التبَخْتُرُ والخيلاء، وشدّة الفرح والإفراط فيه، والاستكبار عن قبول الحقّ، والاسْتِهَانَةُ بالنِّعْمَةِ والطغيان فيها.

وغَمْطُ الناس: أي: احتقارُهم، وازدراؤهم، واستصغارهم، وعدَمُ مقابلة الإحسانِ بالشكر.

٤ ـ وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عُمَر رضي الله عنه قالَ ـ وهو على المنبر ـ: يا أيُّها الناس تواضَعُوا، فإنّي سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقُول:

«مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ، فَهُوَ في نَفْسِهِ صَغِيرٌ، وَفِي أَعْيُنِ النَّاس عَظِيمٌ، ومَنْ تكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ، فَهُوَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرٌ، وَفِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ، حَتَّىٰ لَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ كَلْبٍ أَوْ خِنْزِيرٍ».

٥ ـ وروى الترمذيُّ بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقاً، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ والْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ».

قَالُوا: يا رَسُولَ اللَّهِ قد عَلِمْنَا: الثرثارون والمتشدقون، فَما الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قال: «الْمُتَكَبِّرُونَ».

المتشدِّقُون: هُمُ الذينَ يتكلَّمُونَ بِمِلْءِ أفْوَاههم، ويَتَصنَّعُونَ الْقَوْلَ تَصَنُّعاً، مع التعاظُم به والتّعالي على الناس، فيرجع إلى أنَّهُ مظهر من مظاهر الكِبْرِ في النفس.

٥ ـ وروى مُسْلِمٌ عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالى: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائي، والْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ».

٦ ـ وروىٰ مسلمٌ عن عياضٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أوحَىٰ إليَّ أَنْ تواضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ».

٧ ـ وروى البخاريّ ومُسْلمٌ عن حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ».

الْعُتُلّ: هو الجافي شَدِيدُ الخصومة بالباطل.

الْجَوَّاظُ: الْجَمُوعُ المنوعُ، أَوْ هُوَ الْمُخْتَال المتكبّر، أو هو الفاجر.

٨ ـ وروى الترمذيُّ عن سَلَمَةَ بْنِ الأكوع، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّىٰ يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ، فَيُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُمْ».

أي: لا يَزَالُ يذهَبُ بنَفْسِهِ مستكْبِراً مُنْتَفِخاً متعالياً على خلق الله، متعاظماً في نفسه، حتَّىٰ يَصِلَ به استكبارُه إلى أن يكون من الجبَّارِينَ في الأرض، فيقصمه الله عزّ وجلّ.

٩ ـ وروى الترمذيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عن أبيه عن جَدِّه، عن النبيّ ﷺ قال:

«يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ أَمْثَالَ الذَّرِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكانٍ، يُسَاقُونَ إلى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّىٰ (بَوْلَس) تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَة أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَال».

الأنيار: جمع النار، ونارُ **الأنيار**: أشدُّ لهبها.

الْخَبَالُ: الجُنُونُ وفَسَادُ العقل.

* * *

المقولة الثالثة
من العقبات الصادّات

- ٣ -
عقبة ما في حامل الرسالةِ من قبائح منفّرةٍ للحواسّ

من طبيعة النّاس أن يشمئزُّوا ويَنْفِروا من القبائح الّتي تستنكرها حواسّهم.

● فالمنظر القبيح في الأشياء والأجسام والثياب، والأوساخُ والْقَذارات، والأدناس والأرجاس، يَكْرَهُ الناس بطبيعتهم النظر إليها، فهم إذا مَرُّوا بها أعرضوا عنها، وإذا علموا بوُجُودِها في مكانٍ ما ابتعدوا عنه مُدْبِرِين، وإذا دَعَتْهُم الحاجةُ لمشاهدتها نظروا إليها بِقَرَفٍ واشمئزازٍ وتَقَزُّزٍ، وقَضَوْا حاجَتَهُمْ وأسرعوا مبتعدين نافرين كارهين.

● والرّائحةُ الكريهة إذا انْتَشَرَتْ فِي مكانٍ ما ابتعدوا عَنْهُ مُسْرِعين، يسُدُّون أنُوفهم، أو يسْتُرونَها بما يخفّفُ من نفاذها من أقمشة ومناديل، حتّىٰ يصلوا إلى مكانٍ لاَ تَصِلُ إليه الرائحة الكريهة المنتشرة.

● والصّوْتُ القبيح المنكر إذا انْطَلَقَ في مكان ما أزْعَجَ مَنْ هُمْ فيه يسمعون، فسدّوا آذانهم، وتذمَّرُوا وأعْلَنُوا انْزِعاجهم، وطالَبُوا بإسْكَاتِهِ،

وربّما ابتعدوا عن المكان كلّه وهم كارهون منزعجون تَتَقَزَّزُ أسماعهم، حَتَّىٰ ينأَوا عن المجال الذي يصل إلى آذانهم من الصوت المنكر الكريه شيءٌ.

● وذو الطعم الكريه والمذاق المرّ تَنْفِرُ أذواق الناس منه، ولا يرغبون في وضع شيءٍ منه في أفواههم.

● وذو المَلْمَس المؤذي لـلامسه، يبتعد النّاس عن ملامسته، ويكْرَهُون الاقتراب منه، خشية أن يَلْمَسُوهُ بشيءٍ من أَجْسَامِهِمْ.

المطلوب من حامل الرسالة:

ولمّا كان المطلوبُ من حامل الرسالة إن يتَّخِذَ من الوسائل المباحة ما يَجْذِبُ به حواسَّ الناس، حتَّىٰ يأنَسُوا بمجالسته، ويستمعوا إلى دعوته، أو نصائحه، ووصاياه وأوامره ونواهيه، وحتَّىٰ لَا يَشْمَئِزُّوا منه، ولا يَنْفِروا من مجالسته ومخاطبته لهم، فإنّ عليه أن يَعْتَنِيَ بجمالِ مظهره وحُسْنِ سَمْتِه دُون إسْرَافٍ ولا خُيَلاء، وأن يعتني بنظافة ثيابه، وطيبِ رائحته، ورقّةِ صَوْتِه، ولُطْفِ حديثه، وأنْ لا يُحِسَّ مُجَالِسُهُ بِشَيْءٍ فِيه تَتقزَّزُ مِنْهُ نَفْسُه، وتكرَهُهُ حواسُّه، من منظورٍ، أو مَسْمُوعٍ، أو مشمومٍ، أو ملموس.

وعليه أن يختار من الأمكنة والمجالس ما ترتاح فيه الأجسام، وتأنَسُ إليه النُّفُوس، وتُحِبُّ طُولَ الإقامة فيه.

والمطلوبُ في مكان المجلس أن يكون متجدّد الهواء النقيّ، ملائماً في درجة حرارته لما تَسْتَرِيح له طبائع الأجسام، وأن لا تكون فيه رائحةٌ مستنكرة، والأفضلُ أن يكون عَطِراً بعِطْرٍ يلائمُ مُخْتَلِفُ الطبائع، كنَسَمَاتِ أزْهَار الربيع، فبَعْضُ العطور تُصَدّعُ بِقُوَّتِها بَعْضَ النّاس فينْفرون منها.

وقد كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة في حُسْن سَمْتِه، ودَوام نظافته، وكان كثير العناية بالطِّيب، كثير الوضوء والاغتسال، لطيف المعاشرة، حُلْوَ الحديث، مؤانساً لمن يَجْلِسُ إليه، وكان ذا جاذبيَّةٍ عجيبَةٍ للقلوب والنفوس

والحواس، وكان ذا رَاحَتَيْنِ أَلْيَنَ من الحرير، وكان صَوْتُه المحبَّبُ يَنْفُذ سريعاً إلى أعماق القلوب، وكان من أَضْحَكِ النّاس وأطْيَبِهم نفساً، إلاّ أنه كان لا يَضْحَكُ إلاّ تَبَسُّماً، وكان لا يَرُدُّ الطِّيبَ إذا أُهْدِيَ إليه.

بدعَةُ التَّبَذُّلِ[1] والرَّثَاثَة:

ومن جَهْلِ بَعْضِ حَملَةِ رسَالَةِ النُّصْحِ والإرشاد أنْ يَسْتَهينُوا بِواجِب العنايةِ بلباسِهِمْ ونظافَتِهم وحُسْنِ سَمْتِهِمْ، مع استطاعتهم الماليّة وغيرها، بَيْدَ أنَّ من الواجب عليهم أن يكونَ مظْهَرُهُمْ حَسَناً غير مستنكَرٍ ولا مَمْجُوج ولا مُنَفِّرٍ للناس، إنّم يَحْسَبُونَ ذلك من الزُّهْدِ في الدُّنيا، ويتصوَّرونَ أنّ الْبَذَاذَةَ أمْرٌ مَحْمُودٌ على الرُّغْمِ من أنَّها من المنَفّراتِ الّتي تُبْعِدُ الناس عنهم، وتَجْعَلُهم يشمئزّون مِنْهُمْ.

إنّ التقشُّفَ يكونُ في التّخفيف من العناية بلذّات المآكل والْمَشَارِب وغيرها، ومن رَغَباتِ جَمْعِ الأموال وكنزها، ويكون بالبذل في سبيلَ الله وابتِغَاء مَرْضاته، لا بالْبَذَاذةِ[2] ورَثاثَةِ الثّياب والتبَذُّل، وبعدم العناية بالنظافة والأناقة ووسائل تأليف قلوب الناس من الجماليات.

* * *

(١) التَّبَذُّل: تركُ التزيّن والتجمُّلِ، ولُبْس الْخَلَقِ من الثياب.
(٢) الْبَذَاذَةُ: سُوءُ الحال، ولُبْسُ الثياب البالِيَةِ القبيحة المنظَر.

المقـولة الرابعـة

من العقبات الصادّات

٤ ـ عقبة سوء خُلُق حامل الرسالة

إنّ سوء خُلُقِ الإنسان أيّ إنسانٍ يجْعَلُهُ مكروهاً، معزولاً عن الناس، لا يأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ.

فسُوءُ الخلُقِ من الصّفات الّتي تتنافَىٰ تنافيًا كُليًّا مع المطلوب من حَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى سبيل الله، أو حملة رسالة النصح والإرشاد والإصلاح والأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر.

فمن لا قدرة له على مخالَقَةِ النّاس بخُلُقٍ حسن فلا يَنْبغي له أنْ يؤدّي بينهم رسالته، وهو مخالطٌ لهم، ومُضْطّرٌ لمعاشرتهم، لأنّ سوء خُلُقِهِ يُفْسِدُ أثَرَ دعوته، أو نُصْحِه وإرشاده، ويجعله يُعْطِي أثراً مُضَادًّا لما يدعو إليه أو ينْصَحُ به أو يرشِدُ إليه. وإذا كان لديه قُدْرةٌ بيانيَّةٌ صالحةٌ مؤثّرة، يستطيع أن يؤدّي بها بعْضَ وظائفِ رسالته أداءً حسناً، فلْيكُنْ ذلك دون أن يُعَاشر الناسَ ويخالِطَهُمْ، كأن يخاطب الناس من وراء المذياع في الجهاز النّاقل للصوت، أَوْ فِي الجهاز الناقل للصوت والصورة، أو في جلسةٍ مُحَدّدَةٍ يُؤْتَىٰ به إليها، ثُمَّ يُصْرَفُ عَنْها إلى عُزْلتِهِ عن النّاس، ولا يُتْرَكُ بيْنَ الناس مُدَّةً طويلةً، حتَّىٰ لا ينْكشفَ لهم سُوءُ خُلُقه، ولا تبْدُوَ لهم تصرُّفاتُه المنفّرات الّتي تُعْطِي آثاراً معاكسةً لبيانَاتِهِ القولية.

ولا مجال هنا للتعريف بجملة مساوىء الأخلاق الّتي يجب على حامل الرسالة التَّخَلِّي عنها والتَّبَرُّؤِ من قبائحها، لأنَّ موضوع الأخلاق قد أفردت له مصنفاتٌ كبيرة، فينبغي الرجوعُ إليها[١].

وقد سبق في الباب الثاني «الصفات الّتي يجب أن يتحلَّىٰ بها حمَلَةُ رسالة الهداية أو رسالة الإصلاح» من هذا الكتاب بيانٌ مُفَصَّلٌ للفضائل الخلقيّة الّتي يجب على حامل الرسالة أن يتحلَّىٰ بها، ومنها تُفْهَمُ الأخلاق السّيئة المنافية لها، والّتي يجب على حامل الرسالة أن يتخلَّىٰ عنها ويَتَبرّأَ منها.

* * *

---

(١) يحْسُنُ الرجوع إلى كتاب: «الأخلاق الإسلاميّة وأسسها» للمؤلف وهو يقع في مجلَّدَين كبيرين.

المقـولة الخامسـة
من العقبات الصادّات

٥ ـ عقبَةُ كَوْنِ حاملِ الرِّسَالةِ غَيْر مَوثوقٍ به وغَيْرَ مُحْتَرَمٍ من قِبَلِ مَنْ يُؤَدّي بينهم رسالته

ـ ١ ـ
شـرح العقبـة

ومن العقبات الصَّادّات اللّواتي تجعَلْنَ نفوس الناس ترفُضُ ما يُريدُ حامِلُ الرسالة توجيهه لهم، أنْ يكون غَيْر مَوْثُوقٍ به لديهم، أو غَيْر مُحْتَرَمٍ عنْدهم.

وتشتَدُّ هذه العقبةُ، وتعظُمُ كُلّما ازْدَادَ احتقارُهُ وازدراؤُه في نفوسهم، وكلّما انهارَتْ ثقَتُهُمْ به، في علمه، أو فكره، أو سُلُوكه، أَوْ إخلاصه وصِدْقِهِ في أداء رسالته.

فعلَىٰ الْقَادَةِ المخطِّطِين والمشرفين على إدارة أعمال الدعوة إلى الله وإلى صراطه المستقيم، أو أعمال النُّصح والإرْشاد والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يختاروا المؤهلين لحمل الرسالة، الذين يمكن أن يثق بهم من يُكَلَّفُونَ أداء رسالتهم بينهم، وأن يحترِمُوهم.

وعلى من يُريدُ أَنْ يتصَدَّرَ لحمل الرسالة، أن يُعِدَّ نَفْسه إعداداً حسناً، حتَّىٰ يكتسبَ احترامَ وثِقَةَ الّذين سيُؤَدّي رسالته بينهم.

- ٢ -

الصفات التي تكتسب بها ثقة الناس واحترامهم

ومن أهَمّ الصفات الّتي تُكْتَسَبُ بها ثقَةُ الناس واحترامُهم لحامل الرسالة ما يلي:

الصفة الأولى: التمكُّنُ الْعِلْمِيّ من القضايا التي يدعو إليها، أو ينصح بها، أو يرشد إليها، أو يأمر بها أو ينهىٰ عنها.

والخبرةُ الكافية القائمة على تجارب طويلة في استخدام الوسائل النافعة المؤثرة في الآخرين، دعوةً ونُصْحاً وإرشاداً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وتعليماً.

الصفة الثانية: التَّحلّي بخُلُقِ الصّدْقِ والأمانة والإخلاص في كلِّ تعليم يُعلِّمه أو نُصْحٍ ينصح به، أو إرشادٍ يُرشده، أو عَمَلٍ يُوجّه له، فإذا سُئِلَ عمّا ليس لديه علْمٌ به أو عمّا نسيه، قال: لا أعلم، أو نَسِيتُ حُكْمَ المَسألة.

الصفة الثالثة: القدرات الفكريَّةُ المناسبة الّتي تَدُلُّ على أهليَّتِه للقيام برسالته قياماً حسناً.

الصفة الرابعة: الصَّبْرُ في معالجة من يؤدّي رسالته بينهم، حتَّىٰ يَكْتَسِبَ ثِقَتَهُمْ واحترامَهم.

إنَّ الثقة والاحترام لا يُكْتَسَبانِ إلاّ بَعْدَ امتحانٍ طويل، وتجارِبَ متكَرِّرَة في ظروفٍ مختلفات.

الصفة الخامسة: التزامُ حَامِلِ الرسالة بما يدعو إليه، أو ينصح به، أو يُرشِدُ إليه.

حكمةُ الله في اصطفاء رسُله:

ومن حكمة الله عزّ وجلّ لتحاشي هذه العقبة، أنّه اصطفَىٰ رُسُلَهُ من

ذوي الثّقة والاحترام في أقوامهم، خُلُقاً، وفَطانَةً، ونَسَباً.

فقد كان الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام أكرم أقوامهم نَسَباً، وأحْسَنَهُم خُلُقاً، وأكثرهم فطانَةً وعَقْلاً، مع ما يَتَحلَّوْن به من فصاحة وحُسْنِ منْطقٍ، وقُدْرات محاجَّةٍ وبيان، ومَعَ ما هم فيه من جاذبيّةٍ شخصيّةٍ مؤثرة (جمال وجه - حُسْن قوام - حُلْو ابتسامة - نَظَراتٌ مُؤثّرة نافذة إلى القلوب - كرَمٌ وسماحة وصفح - رحْمَةٌ ومعونة - عِلْمٌ وحكمة - سدادُ رأْيٍ - حِكْمَةٌ إدَاريّة مُحبَّبَةٌ للجماهير - إلى غير ذلك مكارم أخلاق ومحاسن شيم).

وممّا لا شكٌ فيه أنّ من شأن هذه الصفات أن تَفْرِضَ على الناس الاحترام والإكبارَ والثِّقَةَ، وأنْ تفرِضَ على الأتباع الّذين استجابوا الحبَّ الشديد العميق، والاستسلام الكامل.

- ٤ -

المطلوب من حامل الرسالة الذي لم يكتسب بَعْدُ الثقة والاحترام

فعلى حامل الرسالة الذي لم يكْتَسِبْ بعْدُ الثقة والاحترام لدى الذين يؤدّي بينهم رسالته، أن يتّخذ قبل قيامه بأداء رسالته بينهم ما يستطيعُ من الوسائل الناجحة المختلفة التي يكتسبُ بها احترامهم له وثقتهم به.

ولكنّ هذا الأمْرَ قد يتطلَّبُ منه صبراً طويلاً، وأَعْمالاً شاقّة، وحَمْلَ نَفْسِه على التخلّق بفضائل الأخلاق ومحاسِن الشِّيم، حتَّىٰ ينكشف للناس بالاختبار الطويل، وبالتجارب المتكرّرة، أنَّه أهْلٌ للاحترام، وأهْلٌ للثقة به.

فمتَىٰ ثبتَ لهم ذلك وَثِقُوا به، ثمَّ يَرْتَفعُ في نفوسهم شيئاً فشيئاً إلى منزلَةِ مَنْ يحترِمُونَهُم، ويُقَدِّرُونهم ويَرَوْن لهم مكانَةً رفيعة، في علم، أو رأي، أو نصيحة، أو غيرها من الفضائل.

وعندئذٍ لا يجدون أيَّ غَضَاضَةٍ في نفوسهم، إذا أَمَرَهم أو نَهَاهُمْ، أو كلَّفَهُمْ عَمَلاً من الأَعمال ولو كان شاقًّا، أن يستجيبوا له، ويُؤَدُّوا مَا كلَّفَهُمْ إيّاه، مع تَقْديرٍ وحُبٍّ وحِرْصٍ علَىٰ الطَّاعَةِ والاتّباع والامتثال في تَأْدِيَةِ المطلوب على أَحْسَنِ وجه.

* * *

المقـولة السادسـة

من العقبات الصادّات

٦ ـ عقبة كراهيةِ شخص حامل الرسالة

ـ ١ ـ

شرح هذه العقبة

ومن العقبات الصّادّات لما يُوجِّهُهُ حامل الرسالة، أَنْ يكون بالنسبة إلى من يُرِيدُ تَوْجِيهَ عناصرِ رسالَتِه لهم مكروهاً، أو مُبْغَضاً، لسَبَبٍ من الأَسْباب الشخصيَّةِ أو القوميَّةِ أو القَبَلِيَّةِ، أَوْ غيْرِ ذلك ممّا يُوَلّد الْعِداء بين الناس.

فالشخصُ المكْرُوهُ الْمُبْغَضُ لا يَقْبلُ مِنْهُ كثير ممَّن يكرهُونَه ويُبْغضونَه أيَّ توجِيهٍ يُوجِّهه لهم، ولو كان فيه هدايَتُهُمْ ونَفْعُهم وخَيْرُهم، لأنّ الكراهيةَ تقوم في نُفُوسهم بمثابَةِ العقبة الصّادّة التي لا تَسْمَحُ بمرور أيِّ واردٍ من قِبَلِه.

لذلك توجب قواعد التَّرْبية الإسلاميّةِ استخدامَ الوسائل الحكيمة، لتحاشي هذه العقبة أو تَخَطِّيهَا بما يمكن من وسائل مأذون بها شرعاً، حِرْصاً على إيصال مَضْمُون الرسالة الإسلاميّة إلى جميع الناس، المحبّين والكارهين، ورغبةً في نجاتهم من عذاب الله، وظفرِهم بالسعادة الخالدة يوم الدين.

- ٢ -

وسائل معالجة عقبة كراهية شخص حامل الرسالة

إذا أمكن اختيار مَنْ يحمل رسالة الدعوة، أو رسالةَ التعليم والنّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الأشخاص المحبوبين أو غير المكروهين مِنْ قِبَلِ الفردِ أو الجماعة الّذين يؤدّي بينهم مهمّات رسالته، فهو الأمر الحكيم الذي تقتضيه السياسة المؤهلة للنجاح.

ولكن حين تدعو الحاجة الماسّة إلى أن يكون حامل الرسالة مكروهاً من قِبَلِ الّذين يُؤَدِّي بينهم مهمّات رسالته، فعليه قبل أن يُباشر العمل في أداء رسالته أن يمهّد له بما يُزِيلُ من قلوبهم كراهيَتَهُ وبُغْضَه، وبما يهدِمُ به عداواتهم، ويكتَسِبُ به صداقاتهم، ومودّاتّهم، شيئاً فشيئاً، بَدْءاً بِبَعْضِ الأفراد، ثُمَّ توسُّعاً في العلاقات الاجتماعية التَّوَدُّدِيّة، حَتَّىٰ يكون له جمهورٌ فيهم من أهل وُدِّه الّذِين يؤيّدونه ويَنْصُرُونه، وعندئذٍ يؤدّي مهمّاتِ رسالته بصِفةٍ عامّة.

ومن وسائل التودّد لهدم عقبة الكراهية ما يلي:

١ ـ أنواع الإكرام والخدمات الّتي يقدِّمُها حامل الرسالة.

٢ ـ العلاقات الاجتماعيّة الحسنة الّتي من شأنها أن تملك القلوب.

٣ ـ التّلَطُّفُ في المعاشرة، ولين القول، وحسن المعاملة.

٤ ـ تجاهل كراهيتهم له، والتغاضي عمّا يُوَجَّهُ له من إساءات، وإشعارُهُمْ بأَنّه لا يتذكّر أو لا يَعْرِفُ شيئاً عن العداوات السابقات التي كانت السَّبَبَ في كراهيتهم له.

٥ ـ الاعتذار عمّا يُوَجّه ضدّه من تُهَمٍ أو انتقادات كانت سبباً في عداوتهم أو كراهيتهم له، أو بيان أنّه لم يتَسَبَّبْ في شيءٍ منها، وأنّه لا يَحْمِلُ

جَرِيرَةَ غيره، أو الاعترافُ بما هو ثابتٌ منها مع توبته ونَدَمه، واستعداده لترضية خصومه.

ومن الخير في كلّ هذا أن يكون عَرَضاً، ودون تنبيه واضح، ومهما أمكن التَّجاهُل وتَوْجِيهُ الاعتذارات الضمنيّة فهو أولى.

حتى إذا شعر حامل الرسالة بأن العداوة قد زالت أو بدأت تتلاشى، وبأنّه بدأ يكتسب الثقة به، وأخذت محبَّتُهُ تَعْلَقُ في بعض قلوب من يريد أن يُؤَدّي بينهم رسالته، عندئذٍ يقوم بأداء مهمّات رسالته بينهم، بطريقة تدريجيّة رفيقة لا عُنْفَ فيها ولا تسلُّط، ثم يرتقي شيئاً فشيئاً كلّما أحسَّ بتمكّنه، من قلوبهم، ويُوسِّعُ دائرة نَشَاطِه توسيعاً تدريجيًّا.

* * *

شرح عقبات القسم الثاني
العقبات التي تكونُ أسبابُها ممّن
تُوَجَّهُ لهُم الرسالة
وهي ستُّ عقبات

المقولـة السـابعة
من العقبات الصادات

ـ ١ ـ
عقبة كِبْر مَنْ تُوجّه له الرسالة
وعُجْبـه بنفسـه

ـ ١ ـ
مـقـدمـة

إنّ عقبة الكِبْر والعجْب بالنَّفْس من العقبات الخبيثات الصادّات، الّتي تجعل من قامَتْ في نَفْسِه يرْفُضُ التعلُّم على أيدي المعلّمين، ويرفُضُ التوجيه من الموجّهين، والنُّصْح من الناصحين، فضلاً عَنْ رفْضِهِ للأوامِر والنواهي الّتي تُوَجّه لَهُ مِنْ ذوي الأَمْرِ والنَّهْي، مُرَبِّين كانوا أَمْ أصحابَ سلطان.

إنّ موقف حامل الرسالة (المعلّم ـ الموجّه ـ الناصح ـ المربّي ـ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر) قد يُوحي بالنسبة إلى من يتلقّىٰ منه بأنّه موقِفُ

المتفوِّقِ الذي له فضلُ علم، أو خبرةٍ، أو عَقْلٍ، أو مكانةٍ، أو تقوىٰ، أو برٍّ، أَوْ إحْسَانٍ، أو نَحْو هذه الأمور، وهذا أمْرٌ يكرهه المستكبر الْمُعْجَبُ بنفسه، ولا يهضمه.

وبسبب ذلك تتكوّن في نفسه عقبةٌ صادّةٌ كأداءُ، ترفُضُ كلَّ ما يُوَجَّهُ له من هذه الأمور، دون تفكير ولا فَحْصٍ ولاَ تبيُّنٍ، ولو كان فيه نَفْعٌ لَهُ وخَيْرٌ ومصلحةٌ عاجلةٌ أو آجلَةٌ.

إنَّ عقَبَةَ كِبْرِه وعُجْبِه بنفسه تحجُبُ عنه من الرؤية بمقدار عِظَمها وضَخَامَتِها، وقد تنطمسُ بها بصيرَتُه انطماساً كُلّياً، لذلك فَهُو يَرْفُضُ قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ، ورُبَّما لو فكَّرَ لَمَا رَفَضَ، بل تقبَّل وشكر.

- ٢ -
وسائل تفادي عقبة الكبر والْعُجْبِ بالنَّفْس لدَىٰ مَن تُوجَّه له الرسالة

ويمكن تفادي عقبةِ الكبرِ والعجبِ بالنفسِ لدَىٰ مَنْ تُوجَّهُ له الرسالة، والتحايُلُ عليها بالأساليب الحكيمة التالية:

١ ـ مداراة صاحِبِها بالتكريم.

٢ ـ التوجيهُ المتواري المقَنَّع.

٣ ـ النصيحةُ سرّاً.

٤ ـ توجيه النُّصْح أو التعليم أو التربية بشكلٍ عامٍّ لا يَظْهَرُ فيه أنَّ صاحِبَ العقَبةِ هو المقصودُ بالذّات.

٥ ـ التعليم والتوجيه عن طريق الْبَثِّ العرضيّ الذي ليس فيه استعلاءٌ مباشر.

٦ ـ تواضُعُ موجّه النُّصح أو التعليم أو التكْلِيف.

٧ ـ إعطاء صاحب العقبة فُرْصَةً اكتشاف المطلوب منه بنفسه، معرفةً كان أو عملاً.

٨ ـ فتح باب النقاش والمجادلة مع غيره، وبحضوره، حول الموضوع المراد توجيهه له، ليشارك في الاستماع والتفكير، دون أن يشْعُرَ بأنّه هو المقصودُ بذلك.

٩ ـ تذليلُ عقبةِ كبره وعُجْبِهِ بنفسه بإرضاء دافعٍ آخرَ لديه من دوافع نفسه القويّة، كحبِّه للمال، أو للطعام، أو للفخر والثناء.

١٠ ـ وضْعُه في بيئةٍ يتأثَّرُ بِهَا عن طَريقِ المحاكاةِ والتقليد والغيرة، ويندمج فيها، ويَشْعُر معها بالمشاركة العامة.

ولا يخفىٰ ما للمشاركة العامّة من تأثيرٍ قويٍّ في تهديم نوازعِ الكبْرِ الفرديّ، وتخفيف نظراتِ الْعُجْبِ بالنفس.

إنَّ أَعْتَىٰ الْمُسْتَكْبِرين قد يَسْهُلُ عليه أن يشارك الجماعة في تقديم خضوعه وولائه وطاعته لذي قُوَّةٍ أو سُلْطان، لكِنَّهُ لو كانَ وحْدَهُ لرَفَضَ واسْتَكْبَرَ.

١١ ـ ومن الوسائل تسخير مَنْ يُحَطِّمُ له كِبْرَهُ وإعجابَهُ بنفسه، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بمَنْ دبَّر له هذا الأمر، فإذا تكسَّرَتْ عَقَبَةُ كِبْرِهِ وإعجابه بنفسه هناك، هانَ عليه هُنَا أن يَتَلَقَّىٰ التعليمَ، والتوجيه، والنُّصْح والإرشاد، والأوامر والنواهي.

١٢ ـ وضع كتابٍ بين يديه ليقرأه، دون أن يَشْعُر بأن العمل مقصود، أو طرْحُ الفكرةِ أو النُّصح في خطبةٍ أو محاضرةٍ، أو درسٍ عامّ، أو وسيلة أُخْرَىٰ توصلُ مَا يُرادُ توجيهه له، دون أَنْ يَشْعُر بأَنَّهُ هو المقصودُ بالذّات فتنفر

نَفْسُه، وتَصْرِفَهُ عن الحقّ والخير والفضيلة اسْتكْباراً وعُجْباً.

- ٣ -
التربية على فضائل الأخلاق

مع اتخاذ الوسائل المختلفة لتفادي عقبة الكبر والعجب بالنفس، يَحْسُنُ استخدام وسائل التربية الأخلاقية القائمة على القاعدة الإيمانيّة، والإقناعِ، والترغيب والترهيب، وربط الإنسان المؤمن بحُبِّ الله ورسُوله، وابتغاءِ مرضاة الله، وتهوين شأن الدنيا وما فيها، وتحطِيم أوهام الكِبْر والعجب بالنفس، وبيانِ مضارِّهما، وتعظيم قيمَةِ التواضع ومَجْدِ مكارم الأخلاق، وبيان منافعها العاجلة والآجلة، وكشْفِ جوانبِ عَجْزِ الإنْسَان وَجَهْلِه، وأنّ كِبْرَهُ وعُجْبَهُ بنفسه لا يَسْتَنِدَان إلى مَا يُحَسِّنُهما في حقيقة صِفاته، وفي ذات نفسه.

فكم من إنسان هو يحتقرهُ ويَسْتَصْغِرُهُ مع أنَّه أصَحُّ مِنْهُ رأياً، وأكثر منه عِلْماً، وله من الصّفات والخصائص ما يُؤَهِلُهُ لأنْ يكون من عُظماء الرجال.

* * *

- ٢ -
عقبة شعور مَنْ تُوَجَّهُ له الرسالة بالحرمان من حريَّةِ التفكير وحرية العمل

- ١ -
حريَّة الإرادة إحدى عناصر الفطرة الإنسانيّة

الإنسانُ مَفْطُورٌ بطَبْعِهِ على أنّه يَمْلِكُ إرادةً حُرَّةً، يُرِيدُ بها ما يختار لنفسه مِنْ عقيدةٍ يعتقدها، أَوْ عَمَل يَعْمَلُه، في سُلوكه النَّفْسِيّ، أو في سلوكه الْجَسَدِيّ.

فهو بمقتضىٰ فطرته هذه يَنْفِرُ من الإكراه الْقَسْرِيّ، والإلْزَام الْجَبْرِيّ، على أَنْ يَعْتَقِد فكرةً ما، وهو لا يُريدُ أن يعتقدها، وعلى أن يَعْمَلَ عملاً ما، وهو لا يُريدُ أن يعْمَلَه.

وهو بمقتضىٰ فِطْرَته هذه يُحِبُّ أَنْ يُفَكِّرَ بحُريَّة، وأَنْ يَعْمَلَ بحُرّيَّةٍ، دون إلْزامٍ ولا قَسْرٍ وهو كارهٌ، فإذا اقْتَنَعَ بفِكْرَةٍ مَا، ورأىٰ أَنَّ إيمانَه بها يَنْفَعُه ويُحَقِّقُ لَهُ ما يَرْغَبُ فيه أو يهواه، من عاجلِ أمْرِهِ أو آجِلِهِ، آمَنَ بها، ولو لم تَرْقَ هذه الفكرة إلى أن تكون حقيقةً عِلْمِيَّة، وإذا اقْتَنَعَ بأَنَّ عمَلاً ما يُحَقِّقُ له

ما يَرْغَب فيه من عاجل أمْرِهِ أو آجله، ولم تقُمْ في نَفْسِه دَوَافعُ أُخْرَى مُعَارَضَةٌ تَمْنَعُهُ مِنَ القيام بالعمل توجَّهَتْ إرادَتُهُ إلى القيام بِهِ، رغبةً في تحقيق ما يُحِبُّ أو يَشْتَهي أو يَهْوَىٰ، فعَمِلَه، أو مارس من العمل على مقدار ما لديه من قُدْرات تنفيذٍ، وقُوَّةِ دافِعٍ لتحقيق المرجوّ من العمل.

لكِنْ حينَ يشْعُر الإنسانُ بأنّ الأفْكارَ أو مَطَالبَ الأعمال تُمْلَىٰ عَلَيْهِ إملاءً قَسْرِيًّا دُونَ أن يكونَ له اختيارٌ في القَبُولِ أو الرفض، فإنَّه قَدْ يَشْعُر بأنَّ عَقَبةً صادّةً قامَتْ في نفسه، وهذه العَقَبَةُ قد تَجْعَلُه يُحْجِمُ عَنْ تَقَبُّلِ الْفِكْرَة، أو الاستجابة للأمر بِعَمَلٍ ما، والنهي عن عَمَلٍ ما، قَبْل أن يُفكّر في صحّة وسلامة ونَفْعِ ما أُلْزِمَ به، أو فساده وضَرَرِه.

وحِينَ يَشْعُر بأنَّ النُّصْحَ الَّذِي يُوجَّهُ له مَشُوبٌ بالإلْزام والإكراه والإجبار الْقَسْرِي، فإنَّه قد تتولّد في نفْسِهِ مثل هذه العقبة الصادّة.

لكنَّ مثلَ هذه العقبة لا تُوجَدُ أصلاً حينما تتسَلَّلُ الفكرة تَسَلُّلاً يتوَهَّمُ معه الإنسان أنَّه هو صاحبِ الفكرة. وأنَّه هو الذي اتَّجهتْ إرادته لمباشرة العمل، ولم يُلْزِمْهُ به ويُكْرِهْهُ عليه أحَدٌ، أو حين يشْعُرُ بأنَّه حُرٌّ في قبول الفكرة أو رفضها، والاستجابة للقيام بالعمل، أو عدم الاستجابة له.

إنّ الدوافع حينما تكون ذاتيّةً نابعةً من داخل الإنسان، فإنَّه لا يجد تُجَاهَهَا أيّةَ عقَبةٍ نفسيَّةٍ، غير عقبة عدم ثقتهِ بنفسه، إذا كانت لديه هذه العقبة.

ويمكن أن تَزُول عقَبَةُ الشعور بالحرمان من حريّة التفكير أو حرّية العمل، بالثّقة التّامّة بمُوَجّه الفكرة أو الأمْر أوْ النهي، أو بحُبِّهِ الّذي يتولّد عنه حُبُّ ما يُرْضيه، أَوْ بإكباره وإعظامه، أو بالإيمان العميق بأنّ من حَقِّه أنْ يأمُرَ ويَنْهىٰ ويُمْليَ إرادته، أو بشُعُورِ الإنسان بأَنَّ مصلَحَتَهُ تقتضي الاستجابةَ والطاعةَ، مع أنَّه حُرٌّ في القبول أو الرَّفْض، وذلك حين ترتبط مطالب نفسه وحاجاتها ورغائبها العاجلة أو الآجلة باعتناق الفكرة، أو تنفيذ التكليف أمراً أو نَهْياً.

- ٢ -

المنهج الرّبّاني لتحاشي هذه العقبة

إنّ عقبة الشعور بالحرمان من حُرِّيَّة الاختيار في الاعتقاد والعمل، قد تحاشَتْها الرسالاتُ الرّبّانيّة، والتربيةُ الإسلامية، بإعلان أنّ المبدأ العامّ في دين الله للناس هو أنَّهُ لا إكراهَ في الدّين، وأنّ الإنْسَانَ ذو إرادة حُرَّةٍ، يختار بها في حياته التي وضعه الله فيها موضع الابتلاء ما يشاء من عقيدة أو عبادة، فهو حرٌّ في تفكيره، وحرٌّ في أن يَعْتَقِد ما يشاءُ، ويُؤْمن بما يشاء، وحرٌّ في أنْ يَعْبُد ما يشاء، ولكنّ عليه بعد ذلك أن يتحمَّل نتائِـجَ سُوءِ اختيارِه المشقيةَ له، إذا اعتقد غير الحقّ، أو عَبَدَ غَيْرَ من يَسْتَحِقُّ العبادة، كما أنَّ باستطاعته أن يظفر بالنتائج الْمُسْعِدَة له التي هي نتائجُ حُسْنِ اختياره، إذا اعْتَقَد الحقّ وآمن به، واعْتَقَدَ بُطْلانَ الباطل وتجافى عنه، أو عَبَدَ من هو المستحقُّ للعبادة وحْدَهُ لم يُشْرِكْ بعبادته أحداً.

وأعانت التربية الإسلاميـة فِكْرَ الإنسانِ ليَصِلَ إلَىٰ معرفةِ أركانِ الحقّ، التي يَجِبُ عليه أن يؤمن بها في دين الله للناس، بوسائل الإقناع بالطُّرُقِ العقليّة المنطقيّة، والأدلّة العلميّة، لتوليد الدافِـع الذّاتي، الذي يُبَصِّرُ إرادَتَه بما يَخْتَارُ من مبادىءَ يُؤْمِنُ بها.

ويدخُلُ في هذه الوسائل الإقناعيّةِ استخدامُ الطُّرُقُ غير المباشرة، والطُّرُق المباشرة.

ووضَعتِ التَّربية الإسلاميَّةُ فِكْرَ الإنسان ونَفْسَه أمَامَ بيانات الْوَعْدِ والْوَعِيدِ الرَّبَّانِيَّة، فمَنِ اختارَ الإيمانَ بالحقّ الذي جاء به دين الله للناس، وعَبَدَ الله وحْدَهُ، نَالَ ثوابَهُ خُلوداً في جَنَّاتِ النعيم يوم الدّين، ومن اختار الإيمان بالباطل المضادّ لماجاء به دين الله للناس، أوْ عَبَدَ من دون الله شيئاً، كان من أصحاب النار خالداً فيها يوم الدين، ومن اختار الإيمان بالحقّ

الرّباني، ولكن عصَىٰ الله في أوامره أو نواهيه، استحقّ من العقاب بالعدل على مقدار ما اكتسب في حياته من آثام.

فحرِّيَةُ الإرادة هي حُرِّيَة تمكينٍ من الاختيار، وليْسَتْ حُرّيَّة إباحة، إذْ هي حُرّيةٌ مُسْتَتْبَعَةٌ بالمسؤولية والحساب والجزاء، بالثواب أو بالعقاب.

وهذه الحرّية في مسائل الدين مشابهة لحريّة الإنسان في مخالفة قوانين الطبيعة، فالإنسان حُرٌّ مُمَكَّنٌ من أن يُدْخل يَدَهُ في النّار، ولكنَّ عليه أن يَتَحَمَّلَ نتيجة اختياره، في أن تحترقَ يَدُه، بفارق أنّ عُقُوبة مخالفة قوانين الدّين يُوجَدُ بينها وبين العمل المخالف فاصل زَمَنِيٌّ، يُمَكِّنُ الإنسان فيه من التدارُكِ بالتوبة والندم والاستغفار، وبذلك يتفادى العقوبة، أمّا عقوبةُ مخالفة قوانين الطبيعة الكونية فهي في الغالب عقوبَةٌ مُباشرةٌ للفعل المخالف.

- ٣ -
النصوص القرآنية حَوْلَ الحريّة المقترنةِ بالتكليف والمستتبعةِ بالمسؤولية والحساب والجزاء

الحقيقة الدينيَّةُ التي سَبَقَ شرْحُها في الفقرتين السابقتين، قد جاء بيانُها في سبعةَ عشر نَصًّا من نُصُوص القرآن الكريم، ضِمْنَ منْهَجٍ حَرَكيّ تَرْبَوِيٍّ حكيم، جاءَ أوّلُها في ثالث سورةٍ نزلت في المرحلة المكّية من الرسالة المحمّديّة، وجاء آخرها في سورة (الإنسان) وهي سورةٌ من أواسط التنزيل المدَني، وترتيبها بحسب النزول (٩٨)، وأَستعرضها وفق ترتب نزولها بشيءٍ من التَّدَبُّر.

النـصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزّمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

تَذْكِرَة: أي تذكيرٌ بَاقٍ، بما اشتملت عليه نصوصُها من بيانٍ ودعوةٍ إلى الإسلام وموعظةٍ وإرْشاد.

وأصْلُ التذكِرَة في اللّغة: الوسيلةُ المذكِّرة، ولمّا كانت الرسالة الإسلاميّة مشتملة على نصوصٍ قضىٰ الله ببقائها محفوظة، فإنّها تَحْمِل صِفَةَ البيانِ والهداية والموعظةِ والإرشادِ والتذكير دواماً، ولمّا كانَ التَّذْكِيرُ هو الحلقة الأخيرة في هذه السِّلْسِلَةِ، كانَتْ تسمِيَةُ هذه الرسالة بالتَّذْكِرَة مُتَضَمِّنَةً باللّزوم الذّهني الحلقات السابقات للتذكير.

ففي هذه الآية بيان أنّ هذه الرسالة رسالةُ بيانٍ وهدايةٍ وموعظةٍ وإرشادَ وتذكيرٍ دواماً، أي: فهي ليست رسالة إكراهٍ ولا إلزامٍ، فمَنْ شَاءَ بما آتاه اللّهُ من إرادةٍ حُرَّةٍ مُمَكَّنَةٍ بخَلْق اللّهِ من أن تَشَاءَ بحُرِّيةٍ نجاةَ نفسِه وسَعَادَتها اتَّخَذَ إلى مرضاة ربِّه سبيلاً، ومن لم يشأ ذلك استَحقَّ العقابَ والعذاب، فهو الّذي يتحمَّل نتائج رفضه للحق، ورفضه سُلُوكَ سبيل الهداية.

* * *

النـصّ الثانـي:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول) بشأن المعرضين المبتعدين عن الاستماع لدعوة الرسول وبيانات القرآن الّتي هي تَذْكِرَةٌ فكريّة بيانيّة، وليست إكراهاً ولاَ قَسْراً بإجبار:

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾.

كلَّا: كلمةُ زجْرٍ فيها معنى التنديد والتلويم.

إنَّهُ تَذْكِرَة: أي: إنّ القرآن تَذْكِرَةٌ باقيةٌ بما اشتَملَ عليه من بيانٍ وهدايةٍ

وموعظةٍ وإرْشادٍ وترغيبٍ وترهيب، ولمّا كان القرآن مذكّراً بهٰذِه الأمور دواماً أطْلَقَ اللَّهُ عليه اسم «التَّذْكِرَة» وهي في اللُّغة ما يُسْتَذْكَرُ بِه الأمْرُ، كما سبق به البيان.

فما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِين: استفهامٌ إنكاريٌّ تَعْجِيبيٌّ من حالهم.

حُمُرٌ: جمع «حمار» والمرادُ بِها الحُمُرُ الْوَحْشِيَّة.

مُسْتَنْفِرَة: أي: نافِرَةٌ بِشِدَّةٍ إذا أصابَها الذُّعْرُ.

قَسْوَرَة: على صِيغَةِ «فَعْوَلَة» منَ الْقَسْر، وهو الأخذ بإكراه.

القَسْوَرُ والْقَسْوَرَةُ: من أسماء الأسَد، والْقَسْوَرَةُ أيضاً جَمْعُ «الْقَسْوَر» وقَدْ سُمِّي الأسد قَسْوراً لأنّه يفترس صيْدَهُ قسراً.

ويطْلَقُ لفظ «الْقَسْوَر» على الصَّيَّادِ الرّامي، وجَمْعُهُ «قَسْورَة» فالرُّماة الصيّادون الّذين يصيدون الحيوانات البرّية بسهامهم، فيَقْسِرُونها بوسائلهم، ويُكْرِهونها حتى يأسروها يُطْلَقُ عليهم لفظ «قَسْوَرَة».

في هذا النصّ تعجيبٌ من حال الْمُعْرضينَ عن القرآن النافرين من سَطْوَتِهِ الفكريَّة المؤثِّرَة فيهم، بما فيه من بلاغة رفيعة، ودلالات مَنِيعَة، وَحَقَائِقَ لاَ يَأْتِيهَا الباطل من بين يَدَيْها ولاَ مِنْ خَلْفِهَا، وأنوارٍ ساطعَةٍ، وهِدَايةٍ قاسِرَةٍ لِمَنْ اسْتَسْلَمَ إليها، وقد جاء تَمْثِيلُهُمْ في هذا النّصّ بالْحُمُرِ الْوَحْشِيّة الّتي هَجَم عليها أَسَدٌ أَوْ أُسُودٌ لِتَفْتَرِسَها، فأصابَها الذُّعْرُ الشديدُ فَنَفَرَتْ وفَرَّتْ لاَ تَلْوِي علَىٰ شيءٍ.

وظاهِرٌ أنّ الغرض من هذا التمثيل التنفيرُ مِنَ الإعراض عن هداية القرآن، مع تقبيح صُورَةِ الْمُعْرِضين وذَمِّهِمْ، إذْ جاء تمثيلُهُم بالْحُمُرِ الوحْشيَّة، وَكان من الممكن تمثيلُهم بالْبَقَر أو بالظّباء، لكنَّ الْحُمُر هي المعروفة عند الناس بالبلادة والغباء، فالتمثيل بها أكْثَرُ تقبيحاً وَذَمًّا لحالة

النفور من تذكرةٍ فكريّة ليس لها سَطْوَةٌ ماديّةٌ تَقْسِرُ بإكراه.

إنّ الفكرة الّتي سِيقَ لَهَا التَّشْبيهُ في هذا النصّ، هي أنّ بَيَانَ الدَّعْوَة إلى الإسلام، وما جاء في القرآن، دَعْوَةُ تَذْكِرَةٍ بحَقَائِقَ عِلْمِيّةٍ، هيَ فِطْرِيّةٌ في فِكْر الإنسان ووِجْدانه، وبحقائق علميّة مُنَزّلةٍ من لَدُنْ عليم حكيم، يُطْلَبُ من الناس أنْ يعْلَمُوهَا أوّلاً، ثُمَّ يَتَذكَّرُوهَا دَواماً عند المناسبات الداعيات لتذكّرِها، لتكون مُوَجّهَةً لإراداتهم، وأنواعِ سُلُوكهم.

وكُلُّ إنسانٍ هُو حُرٌّ بَعْدَ أَنْ تُعْرَضَ عليه هٰذِه التَّذْكِرة في أن يَسْتَجيب لمضمونها فَيُؤْمِنَ، أو يَرْفُضَهَا فَيَكْفُر، فهِيَ إذَنْ لَيْسَتْ مُطَارَدَةَ مُكْرِهٍ مُجْبِرٍ قَاسِرٍ، يُلَاحِقُ طَرِيدَتَهُ لِيَفْتَرِسَهَا أو يَصيدَها، كما يَفْعَلُ الأسُود، أوْ كما يَفْعَلُ الرُّماةُ الصَّيَّادون.

إنّ الإنسان ذا الْفِكْرِ الْحَصِيف لا يَفِرُّ من عَرْضِ التذكراتِ الفكريّة عليه، بَلْ يَقْبَلُ عَرْضَها، ويَقْبَلُ مُنَاقَشَتَها، ثُمَّ هُو بعْدَ ذلك إمَّا أن يَقْبَلَها، وَإمَّا أَنْ يَرْفُضَهَا.

فدلّ هذا النّص بوضوح تامٌ على أنّ الدعوةَ إلى الإسلام عَرْضٌ تخييريٌّ لمن يُعْرَضُ عليهم من غير المسلمين، وليس إكراهاً ولا إجباراً بالْقَسْر، فمَنْ شاءَ اسْتَجَابَ فأسلم، ووَضَع في ذاكِرَته أَرْكانَ الإيمانِ والإسلامِ وبيانات القرآنِ، لاتباعها، فقال تعالى فيه: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾.

وأبان النصُّ عِلّةَ المعرضين النفسيّة وهي أمران:

الأول: الكِبْرُ عن اتّباع الرسولِ، لأنّ كلّ امْرِىءٍ من هؤلاء يُرِيدُ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِ من عِنْدِ اللّٰه صُحُفٌ مُنَشَّرَةٌ، فقال تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾.

الثاني: جحودُهُمْ للبَعْث والحسابِ والجزاء يوم الدّين، فهم لا يخافُون

عقابَ الله في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

النـصّ الثالـث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) بشأن القرآن المجيد:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

فأبانَ هذا النَّصَّ أنّ القرآنَ ليْس إلاَّ ذِكْراً مُوجّهاً لكُلّ الْعَالَمِين، الموضوعين مَوْضعَ الابتلاء والتكليف. أمّا من يسْتجيب لدعوته ويتدبَّرُه، ويتّخذُه ذِكْراً، وينتفع بما فيه من هداية ودلالة على صراط الله المستقيم، فَهُوَ مَنْ شاءَ مِنَ المخاطبين به بإرادَتِهِ الْحُرَّةِ أنْ يستقيم على صراط الله، ولا يُرِيدُ أن يَعْوَجّ ويكونَ جائراً مُتَنَكّباً عنه، وسَالكاً سُبُل الضلال الّتي تَسْتَدرجُه إليها الشياطينُ والأهواء والشهواتُ الجانحات عن الحقّ والخير والفضيلة وما أَذِنَ الله به لعباده.

* * *

النـصّ الرابـع:

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) في معرض تربية الله لرسوله ﷺ بشأن إعراضه عن الأعمى ابْن أُمِّ مكتوم الذي جاء يسأله عن بعض مسائل الدّين، إذْ أعرض عن إجابتِه لأنّه كان ﷺ مشغولاً بدعوة كُبَراء قومه إلى الإسلام:

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: إنَّ رسالَتَك يا مُحَمَّدُ رسالةُ بيانٍ وهداية وتذكير، ولَيْسَت رسالةَ تَكْليفٍ لكَ أن تُحَوّل الناسَ من الكُفْر إلى الإيمان، حتَّىٰ تُوَجّه اهتمامَكَ الكبير لدعوة الكافرين، وتُعْرِضَ عَن طالِبِ المعرفة الدينيَّةِ راجياً أن يتذكَّرَ أو يخْشَىٰ، فوظيفتُك وظيفَةُ مُذَكِّرٍ، ولَيْسَتْ وظيفَةَ مُكْرِهٍ ولاَ مُغَيّر، فالاستجابة

للدعوة ينبغي أن تكونَ بإرادَةِ المدعوّ الحرّة، واختيارِه الإيمانَ بالحق، وسلوكَ صراط الهداية، لا بالإكراه والإجبار.

* * *

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ بشأن شُعَيْبٍ عليه السلام وشأنِ قَوْمه معه، في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

فجاء في هذا النصّ بيان مَثَلٍ من أمْثِلَةِ إكراه أهْلِ الكُفر لأَهْلِ الإِيمان، على أن يَتْركُوا دينهم الرّبّاني، ويَعُودُوا إلى ما كَانوا عليه قَبْلَ الإيمان، ويكونُوا من الدّاخلين في ملّةِ الْمُكْرِهين، وهذا دَيْدَنُ قادَةِ أهْلِ الكُفْرِ دواماً، فِي كُلِّ عصور التاريخ، إنَّهُمْ يُكْرِهُونَ النَّاسَ على الدُّخُول في مِلَلِهِمْ وأدْيانِهم ومذاهبهم وطرائقِهم في الحياة، وإلاّ أنْزلُوا بهم أنواع الاضطهاد والتعذيب.

على خلاف الرّسالات الرّبّانيّة للنّاس، فإنّها عَرْضٌ وإقناعٌ وهدايَةٌ بتَخْيير، مقرونٌ بإنْذارٍ بالعواقب الوخيمة من الله العزيز القدير، لِمَنْ أَبَىٰ ولم يستَجِبْ، وببشارَةٍ بسعادةٍ أبديّةٍ عند الله الرّحيم الغفور، لمن سَمِعَ وأطاعَ واستجابَ بإرَادَتِه الحرَّة، دون إكراه ولا قَسْرٍ وإجبار.

إنّ قضايا العقائد، واعتناقَ المذاهب الدينيَّة، لا يُعْقَلُ أَنْ تكُونَ مع الكراهِيَةِ والإجبار، وإنّما تكونُ بالرَّغْبَةِ الذّاتيّةِ والاختيار الحرّ.

* * *

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ ﴾ .

لمَّا اشتَدَّ حِرْصُ الرَّسول ﷺ على إيمان قومه، حتَّى أَهَمَّهُ كُفْرُهُمْ، وشَقَّ عليه إعراضُ مَنْ أعْرَضَ مِنهم، وإدْبارُ مَنْ أدْبَرَ، وتَوَلِّي مَنْ تَوَلَّىٰ وكَفَرَ، وجَعَلَتْ رحْمَتُه بهم تُقِضُّ مَضْجِعَهُ، وتوجعُ قَلْبَهُ وتُشْقيه بإيقاعِهِ في الشِّدَّة والْعُسْرِ والألم أنْزَلَ اللَّهُ عليه هذا النصّ، مبيّناً له فيه وظيفة رسالته، بإنزالِ الْقُرْآن عليه، وأنَّه جلَّ جلاله ما أنْزَل عليه القرآنَ، وحمّلَهُ مسؤوليَّةَ تَبْليغِهِ، ليُشْقِيَ نَفْسَهُ بالآلاَمِ من أجْلِ الذين لم يسْتجيبوا لدعوته.

وأَبانَ الله لِرَسوله بأسلوب الحصْرِ، أنّه مَا أنْزَلَ عَلَيْهِ القرآنَ إلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ، أي: فَمَنْ يَخْشَىٰ اللَّهَ ويَخَافُ عقابَهُ فإنَّهُ يَجْعَلُ الْقُرآنَ تَذْكِرَةً له، ثمَّ إنَّ من جعل القرآن تذكرةً له فلا بُدَّ أن تَتَّجهَ نَفْسُه للطَّمَع بثواب الله العظيم يوم الدّين، مع ما يُصِيبُ مِنْ خيراتٍ وطمأنينة قلبٍ في الدنيا.

فالمعنى: ما أنزلنا عليك القرآنَ لتَشْقَىٰ بالحزْنِ والألم من أجل الذين كفروا ولم يَسْتَجيبوا، ما أنزَلْنَاهُ عَلَيْكَ إلاَّ تَذْكِرَةً لمَنْ يَخْشَىٰ.

أي: فلا تَحْمِلْ يا مُحَمَّدُ هَمَّ الّذِينَ اخْتَارُوا لأَنْفُسِهِمُ الكُفْرَ بَعْدَ تَذْكِرَتِهِمْ، وبيان الحق لهم، ولا تُشْقِ نَفْسَكَ من أجلهم.

ونُلاَحِظُ في هذا النّصّ تَوْجِيهاً مباشراً للرَّسول، لتأديبه برِفْقٍ، حوْلَ مُهِمّتِهِ في رسالته، وتوجيهاً لكلّ الدُّعَاةِ إلى الله من أمّتِهِ من بَعْدِهِ.

ونُلاحظُ فيه تعريضاً غيْرَ مباشر للكافرين المعرضين، والمدبرين المتولّين عن الاستجابة لدعوة الحقّ.

* * *

النصّ السابع:

قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

تَدُلُّ هٰذه الآيَةُ بلَوَازم بيانِها على أنّ رحمة الرسول ﷺ بقومه كانت شديدةً جدًّا، وأنّ حِرْصَهُ على إيمانِهم للنَّجَاةِ من عذاب الله، والظفرِ بالنعيم الخالد، قد كانَ حِرْصاً بالغاً، وأنّ توجُّعَ قَلْبِه من أجْلِهِمْ قَدْ كَانَ عظيماً فَلَمْ يَسْتَطِع الضَّغْطَ على عَاطفته، فأنْزَل اللَّهُ عليه هذا النَّصَّ، مُتَضَمِّناً أُسْلُوباً تَرْبَويًّا فِيه الإقناعُ المشوبُ بالعِتَاب.

والمعنى: لو شاء ربُّكَ يا محمَّدُ إكراه الناس على الإيمان، لسَلَبَهُمْ حُرِّيَّاتهم، فجعَلَهُمْ مَجْبُورين، فأكْرَهَهُمْ، فآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كلُّهُمْ جميعاً، أو لاَتَّخَذَ من الوسائل ما يجعلُهُم مُلْجَئين إلى الإيمان إلجاءً.

لكِنَّ هذا يتنافَىٰ مع حِكْمَة الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وحِكْمَةِ تَرْكِ الناسِ لاخْتِيَارِهِمُ الحرّ.

فإذا كان ربُّكَ القادر على جعلهم مجبورين على الإيمان جميعاً لَمْ يَفْعَلْ ذَلك، لأنَّه شاءَ أن يجعلهم مُخيّرين، لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهم، أفأَنْتَ يا مُحَمَّد وياكُلَّ مَنْ يَدْعُو إلى اللَّهِ من أمّتِهِ تُكْرِهُ النّاسَ حتَّىٰ يكونوا مؤمِنِينَ، مع أنّه أمْرٌ لم يخْتَرْهُ اللَّهُ لِنَفْسِه، وهو ذو القدرة التامَّةِ عليه.

* * *

النـص الثامـن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) مُبَيّناً مثلاً من أمْثِلَةِ دَعْوَةِ الرُّسُل السابقينَ لأقوامهم، الّذِي يَنْبَغِي التَّأَسِّي به، وهو مُقْتَطَعٌ من دعوةِ نُوحٍ عليه السلام لقومه:

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

في هذه الآية بيانُ جانِبٍ من حِوارِ نوحٍ لقَوْمِهِ، حَوْلَ حُرِّيَّةِ النّاس في اختيار الإيمانِ والكُفْر، وأنّ الرّسُولَ لاَ يَمْلِكُ إلزامَ الناس بالإيمانِ، بَعْدَ أن مَنَحَهُمُ الله عزّ وجلّ حُرِّيَّةِ الاختيار ليَبْلُوَهم، وحمَّلَهُمْ مسؤوليّةَ اختيارهم، فعليهم أن يتحمَّلُوا عقوبات اختيارهم عند ربّهم إذا اختاروا الكُفْر على الإيمان، والضّلالَةَ على الهدى، والظلمات على النور.

* * *

النـصّ التاسـع:

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمَر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ به كلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أُمَّتِه:

﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾.

في هذا النصّ تعليمٌ من الله لبَعْضِ أساليب الحوار الإقناعيّ للكافرين المشركين، الذين يَعْبُدونَ آلِهةً من دون الله عزّ وجلّ، وهو حوارٌ حَوْلَ موضوعٍ هو من أهَمِّ موضوعاتِ الدّين، وهو موضوعُ العبادة.

فجاء في التعليم تكليفُ الرسول أن يقول للمشركين:

- إنّي أُمِرْتُ أنْ أعْبُد الله مُخْلِصاً له الدّين فلا أشركَ بعبادته أحداً.
- وأُمِرْتُ بالتكاليف الدينيّة التي أَعْبُدُ بها ربِّـي قبْلَ غيري من الناس، من أجل أن أكون أوّل المسلمين المطيعين لأوامر الله ونواهيه.

وجاء في التعليم تكليف الرسول أن يقول للمشركين أيضاً:

● إنّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبّـي فلم أَعْبُدْهُ، أو أشركتُ بعبادته معبوداً من دونه عذابَ يَوْمٍ عظيم، هو عذاب يوم الدين.

وأنْ يقول لهم مُعْلِناً مَنْهَجَهُ في عبادته الذي اختاره لنفسه، ومبيّناً لهم أنهم أحرار في أن يختاروا لأنفسهم ما يشاؤون من معبودات يَعْبُدونها:

● اللَّهَ أَعْبُدُ مخلصاً له ديني، فلا أشرك بعبادته أحداً.

● فاعْبُدوا ما شِئْتُم مِنْ دُونه من آلِهَةٍ، فلَكُمْ أنْ تَخْتَاروا في حياتكم ما تَشَاءُونَ من إيمانٍ أوْ كُفْر، وتوحيدٍ أو شرك، إذْ أنتم في الحياة الدُّنيا في رحلة ابتلاء، مُمَكَّنُون ممّا تشاءُون، وعليكم أن تتحمّلوا نتائج اختياراتكم.

وأن يقول لهم أخيراً محذّراً ومنذراً:

إنّ الخاسِرِينَ الّذِينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُم وأَهْليهم يَوْمَ القيامة، ألا ذلِكَ هُو الْخُسْرانُ المبين.

أي: فمن كفر فعَبَد غير الله أو أشرك في عبادته إلَهاً من دونه، خَسِرَ نفسه وأهليه يوم القيامة، إذْ يكون من أصحاب النار خالداً فيها أبداً، ألاَ ذَلِكَ هو الخسران المبين.

ألاَ: أداةُ تنبيه بِشدَّةٍ، فتعريضُ الإنسان نفسه لهذا الخسران المبين يحتاجُ هذا التنبيه، ليَصْحُوَ من غفلته، أو غفوته.

* * *

النـصّ العاشـر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يُلْحِدُونَ في آيَاتنا: **أَلْحَدَ**: أي: مال عن الحقّ وجَارَ وظَلَم، والمعنَىٰ: يَحيدون ويَميلون عن الدين الحقّ ظُلْماً وجَوْراً، شاكّين في آيَاتِنَا البيانيّة المنزَّلَة، وآياتنا الكونيّة، وآياتنا الإعجازيّة، وآيَاتِنا الجزائيّة.

ففي هذه الآية يتحدّث الله عزّ وجلّ عن الْمُلْحِدين الجائرين المائلين عن دينه الحقّ، الشَّاكّين والمشكِّكِينَ في آياته، بأنَّهُمْ غير خافِين عليه جلّ جلاله، ويُنْذِرُهم بالإلْقاء في النّار يوم القيامة إذا اسْتَمَرُّوا على إلحادهم، ويُبَشِّر المؤمنين بالأَمْن.

وبعد هذا البيان يخاطِبُ الملحدين خطاباً مُباشراً، فيقول لهم:

﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

فيُعطيهم في هذا أَنَّ لهم أن يختاروا ما يَشاءُون من عَمل، ولكنَّهُ لَيْسَ تخيير إباحة، إنّما هو تخيير امتحان، وهو ممزوجٌ بِوَعِيدٍ بالعقاب إذا اختاروا غَيْر المطلوبِ منهم في رحلة امتحانهم.

فقد حمَّلَهم مسؤوليّة مشيئتهم، وأبانَ لهم أن عاقبة إلحادهم وشُرْكِهِمْ عذابٌ أليم يَوْمَ القيامة في نارِ جهنَّم.

* * *

النـص الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ به كُلُّ داعٍ إلى سبيلِ ربّه من أمّته:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

نزل هذا النّصّ بعد رِحْلَةٍ طويلَةٍ في دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ لقومه، أبان لهم خلالها أصول الدين الإيمانيّة والأخلاقيّة، وأُصوله التعبّديّة مبيّناً لهم فيها أَنَّ الْعِبَادة لا يَصِـحُّ أن تكون إلاّ لله وحده، وأقامَ لَهُمُ الْحُجَجَ والبراهينَ الكثيرة،

ولم يَبْقَ عَلَيْهِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ مَنْ تَبَلَّغَهَا من الكافرين غَيْرُ التذكير بها، وإذْ وصَلَ مَعَهُمْ إلى هذه المرحلة، فإنّ وظيفته الآنيّة بالنسبة إليهم إنَّمَا هيَ التذكِيرُ فَقَطْ، أمّا أن يتصَوَّرَ أنّه صَارَ مُكَلّفاً أن يُلْزِمَهُمْ بالإيمانِ والإسلامِ إلزام مُكْرِهٍ مُسْيُطِرٍ، فَهُوَ تَصَوُّرٌ غَيْرُ صَحِيحٍ، لأنَّهُ يَتَنَافَىٰ مع وضْعِهِمْ في الحياة الدنيا موضِعَ الامتحان، فامتحان الإرادة يستلزم تمكينَها من أن تختار مَا تشاء خلالَ مُدَّةِ امتحانها.

فقال الله لرسوله: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي: فوظيفتك بالنسبة إلى هؤلاء هي وظيفة التذكير بما سبَقَ أن بلّغْتَهُمْ إيّاه.

إنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ: أي: ما أنت بالنسبة إلى هؤلاء الذين سبق أن عالجتهم خلال تنزيل (٦٧) سورة منذ بَدْءِ الدّعوة حتى نزول سورة (الغاشية) إلاَّ مُذَكِّرٌ لهم، فقد قَدَّمْتَ لهم البيان الكافي، والشافِيَ لمن شاء منهم أن يُؤْمِن بالحقّ ويستقيم على صراط ربّه.

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ: أي: فَلَسْتَ مُطَالَباً ولا مأذوناً بأَنْ تكونَ مُسَيْطراً عليهم سَيْطَرَةَ مُكْرِهٍ مُجْبِر على الإيمان والإسلام، إذْ هُمْ مُطَالَبُونَ بأن يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا باختيارِهم وإرادتهم الحرّة، بعد بيان الحقّ لهم، بالآيات الجليّات.

ومن رفض أن يستجيب لدعوة الحقّ فعلَيْهِ أن يتحمَّل عِنْدَ ربّه نتيجة مَشيئَتِهِ الّتي شاءَ بها سُبلَ الْغَيّ، مُلْحِداً عن صِراط الرُّشْد، صراطِ الله العزيز الحكيم.

* * *

النص الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) خطاباً لرسوله فكلّ داعٍ إلى سبيلِ رَبّه من أمّته:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ

بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

وَقُلِ الْحَقّ مِنْ رَبِّكُمْ: أي: وقُلْ أيُّها الداعي إلىٰ دين الله وصراطه المستقيم، بهدوءٍ كاملٍ، لا انفعالَ فيه ولا غضبَ ولا مؤكّدات: لمن تُوجِّه لهم دعوتك: الحقُّ الذي أدْعُوكم إلى الإيمان به والعمل بمقتضاه، هو من ربّكُمْ ولَيْسَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِي، فمَا أَنَا إلاَّ مُبَلِّغ.

فَمَنْ شاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ: أي: فمن شاءَ بإرادَتِهِ الحرَّةِ بَعْدَ أن يَتبَلَّغَ الحقَّ الرَّبَّانيَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ فَلْيُؤْمِنْ به، لينالَ أجْرَهُ العظيم عند ربّه، ومن شاءَ بإرادته الحرَّة أنْ يَكْفُرَ بِهِ فَلْيَكْفُرْ به، ولَكِنْ علَيْهِ أن يَتحمَّلَ الْمَصِير الذي أعَدَّهُ اللَّهُ للظالِمين، فقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

سُرَادِقُهَا: السُّرادِقُ: الخيْمَةُ، السُّور، الدُّخان، وهذا هو المناسب هنا.

الْمُهْل: القطران السائل، والمعْدِنُ الذائِب، والقيح، وصديد الموتَىٰ. شُبِّه الماء الذي يشربُ منه أهلُ جهنَّمَ بالْمُهْلِ، إذْ هو حارٌّ فيه كثافةٌ ما، يخرُجُ منه بخَارٌ يَشْوِي وجُوهَ الشاربين.

وسَاءَتْ مُرْتَفَقاً: أي: وساءت النار مكاناً للظالمين، مجلساً يجلِسُونَ فيه، وَمُتَّكأ يَتَّكِئُونَ عَلَيْهِ بمرافِقِهم.

* * *

النـصّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

فدَلَّتْ هذه الآيَةُ مُضِيفَةً في الموضوع علىٰ أَنَّ الإكْراهَ كما أَنَّه لَيْسَ وَسِيلَةً صَحِيحَةً ولا مقبولَةً للدُّخُول في الدين، فهو لا يُخْرِجُ من الدّين من أَعْلَنَ بسببه الكُفْرَ، وقَلْبُه مطمئِنٌّ بالإيمان.

* * *

النـصّ الرابع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصُرُونَ: أي: لا فَائِدَةَ من أنْ أُقْسِمَ لكم بآياتي في كوني الّتي تبصرونها والّتي لا تبصرونها، مع أنّها تَسْتَحِقُّ أن أقسم بها، لأنكم بلغتم من الإصرار على المعاندَة مبلغاً شنيعاً، والمقصود بالخطاب فئة المعاندين من مشركي مكّة.

فما سبق أن نزل من القرآن كافٍ لأنْ يمْحُوَ كُلَّ أَثَرٍ للشَّكِ فيه، ولأنْ تُذْركوا بأنّه ليس بقول شاعر، وليس بقول كاهِنٍ، لكنَّكُمْ قليلاً ما تُؤمِنُونَ بالحقّ الذي يخالفُ أهواءكم وتقاليدكُمُ الْعَمْيَاءَ، وقليلاً ما تَتَّعِظُونَ بالمذكِّراتِ الّتي تُذَكِّرُكُمْ بسُنَنِ الله في عقوبات الجاحدين المكابرين الذين يُصِرُّونَ على الباطل.

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالِمِين: أي: هٰذا القرآن الذي يتْلُوهُ عليكم مُحَمَّدٌ، هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، الَّذِي هو ربُّكُمْ وربّ آبائِكُمْ الأَوّلين، فاعْلَمُوا هذه الحقيقة.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: واعلموا حقيقةً أُخرَىٰ تَدُلُّ على أنّ القرآن تنزيلٌ من رَبِّ الْعَالَمِين، وهي أنّه لَوْ كان يكْذِبُ علينا ببَعْضِ الأقاويل، مع تأييدنا له بالمعجزات، لما تَرَكْنَاهُ على قَيْدِ الحياة، بل لأَخَذْنَا بيمينه جرًّا، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين.

الوتين: عِرْقٌ مُتَعَلِّقٌ بالْقَلْبُ إذا انقطع ماتَ صاحِبُه.

إننا لا نَدَعُ نبيًّا مؤيّداً منّا بالآياتِ يكْذِبُ علينا، بل نُميتُهُ فوراً، فالرَّبُّ لا يكْذِبُ ولا يَقْبَلُ بحالٍ من الأحوال أن يكذبَ عليه نبيٌّ من أنبيائه.

وَإِنَّه لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتّقِينَ: أي: وإنَّ القرآن لَتذْكِرَةٌ يَنْتَفِعُ بها دواماً المتَّقُون الّذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ فآمَنُوا به، وأسْلَمُوا له.

فأبان الله أنّ القرآن تَذْكِرَةٌ، والتذكِرَةُ تُعْطِي مَنْ يَتَبَلَّغُهَا حُرِّيَّة الاختيار.

* * *

النـصّ الخامس عشر:

قول الله عزّ وجلّ عزّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عن يوم الدينِ، يوم الحسابِ والجزاء:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

فأكّدَ الله في هذا النّصّ أنّ للنّاسِ مَشيئاتٍ ذواتِ حُرِّيَّةٍ في اختيار مآبٍ حَسَنٍ لَهُمْ عِنْدَ رَبّهم يوم الدّين، يكونون فيه سُعَداء سالمين، فَهُمْ يَسْلكون للوصول إليه صِرَاط الله المستقيم.

أي: فَمَنْ شاء اتخذ وَسِيلةً إلى الظَّفَرِ بمرضاة ربّه بالإيمانِ والعمل الصالح، فنالَ بذلك مآباً حسناً عنده.

أي: ومن شاءَ لم يَتَّخِذْ ذَلِكَ، فاسْتَحَقَّ العذابَ يَوْمَ الدين، وهو عَذَابٌ قَرِيب، إذْ يَنْعَدِم حِسُّ الزَّمَنِ بين الموت والبعث، ويومئذٍ يتمنَّىٰ الكافِرُ أن يكون تُرَاباً لم يُبْعَثْ، أو يُقَالُ له كما يُقَالُ للبهائم بعد بَعْثِها وإقامة العدل فيما بينها: كوني تراباً.

* * *

النـصّ السادس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وهي أَوَّل سُورةٍ مَدَنيَّة:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذه الآية حقيقةً كليّة عامَّةً شامِلَةً لاَ تَخْصِيصَ فيها ولاَ نَسْخَ وَلاَ تغييرَ ولاَ تَبدِيلَ بالنسبة إلى الذين يُوضَعُونَ في حياتِهِمْ موضِعَ الامتحانِ، هي أنَّ الدّينَ اختيارٌ من الْمُمْتَحَنَ، ولا يُمْكن أن يكون فيه إكراه مَادّيّ، فالقلوبُ التي هي مراكز الإيمان لا يُمْكِنُ إكراهها إلاَّ بالجبْرِ الرَّبَّانيِّ الّذي يَسْلُبُهَا معه حُرِّيَّة إراداتها، وهذا مناقض لوَضْعِها موضع الامتحان، والوسائل الإكراهيّة الماديّة التي يملكُها الناس تَصْنَعُ مُنافقين، لا مُؤْمِنِين، والمنافقون أسْوَأُ حالاً من الكافرين الصرحاء.

* * *

النـصّ السابع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾.

في هذا النّصّ يُقْفِلُ اللَّهُ مَوْضُوعِ حُرّيَّةِ مَشِيَةِ الإنسان في الإيمان والكُفْر، والعملِ الصالحِ والسّيّءِ، بمثل النَّصّ الذين بدأ به هذا الموضوع في سورة (المزمّل) ثالث سورة نزَلَتْ من القرآن المجيد، وهو قوله تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾.

وأُنْزِلت فيما بينهما نُصُوصٌ بلغت (١٥) نصًّا، مَلأً كُلُّ منها فراغَ حَبَّةٍ في عِقْدِ الموضوع، على صُورةٍ تكامليّةٍ في المعاني، مع مراعاةِ المناسبات الداعيات لإيراد كلٌّ منها في السورةِ التي هو منها.

وأطْبَقَ اللَّهُ عزّ وجلّ على هذا القُفْل قولَهُ:

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾.

أي: ولا يكون لكُمْ مشيئة إلاّ إذا منحكم الله جهاز الإرادة الحرّة، الّتي بها تشاءُون طريق نجاتكم وسعادتكم، أو طريق هلاككم وشقائِكُمْ، وإلاّ إذا مَكَّنكُمْ من استعماله عند كُلّ مَشِيئة جزئيّة.

لكِنَّ الله عزّ وجلّ ما وَضَعَكُمْ مَوْضِعَ الامتحان إلاّ بَعْدَ أنْ منحكُمْ هذا الجهاز، وسائر شروط التكليف، فأنْتُمْ مَسْؤُولون مسؤوليّةً تامّةً عن مشيئاتكم وعن أعمالكم، لذلك يُدْخِلُ اللَّهُ منْ يشاءُ في رحمته، وهي جَنَّتُه، ومعلومٌ أنَّ مَشيئتَه تعالى لا تفارق حِكْمَتَه، وأمّا الظّالِمُونَ فقد أعَدَّ اللَّهُ لهم بِعَدْلِهِ عذاباً أليماً في دار العذاب عنده.

وبهذا تكاملَ عِقْدُ الموضوع وأدَّتِ النُّصُوصُ أدْوارَها التربويّة بحسَب مَراحلها الزّمَنيّة، وبحسب الحاجة إلى حركيّة الدَّعْوة، ومُقْتَضَيَاتِها التربويّة.

* * *

المقـولة التـاسعة

من العقبات الصادّات

- ٣ -

عقبة سوابق الأفكار والمفهومات والمعتقدات والعادات

- ١ -

البيـان التحـليلي

ومن العقبات النفسيّة الصادّة عن تقبُّل دَعْوَةِ الداعي وتعليمه وتربيته، وعن تقبُّلِ نُصْحِ النّاصح، وإرشاد المرشد، عقبةُ الانتصار لسوابق الأفكار والمفهومات والمعتقدات والعادات، لدى مَنْ توجَّهُ لَهُ رسالَةُ الدَّعْوَة، أو رسالةُ النّصْح والإرشاد، والهداية إلى الّتي هي أصَحُّ أو أقوم.

السبب النفسيّ لهذه العقبة:

إنّ سوابق أفكار الإنسان ومفهوماته ومعتقداته وعاداته الثابتات تُعْتَبَر في مشاعره الباطنة، حتَّىٰ عُمْقِ وِجْدانِهِ أحياناً، بمثابةِ أجزاءِ من ذَاتِه، وكيانه الذي يفتخر به، ويَحْرِص عليه، ويُدافع عنه ويَنْصُرُه من أيِّ مُخَالِفٍ خارج عنه، ومضادٍّ له، فهو تِلْقَائيًّا يرفُضُ التَّنازل عن شيءٍ من سوابق أفكاره ومفهوماته ومعتقداته وعاداته الثابتات المتأصّلات في كيانه، كما لا يتنازل عن جزءٍ من أساسيّاتِ جسده إلاّ عند الضرورة، كالخوف على باقي أجزاء جسده من الهلاك.

وهذا الشعورُ الباطنيُّ في الإنسان لا يسْتَنِد بوجه عامٍّ إلى برهانٍ عقليّ، أو دليلٍ علميّ، إنما يستند إلى تعميم خاطىء، وتَعَصُّبٍ بدون بصيرة.

فكم من سوابق أفكار ومفهومات ومعتقدات في فكر الإنسان أو في وجدانه هي قضايا باطلة.

وكم من سوابق عادات ثابتات متأصّلاتٍ في سلوكه هي عاداتٌ سيّئات يجب إلغاؤها، أو إصلاحها، أو التعديل فيها.

لكنْ هذا هو حال كثيرٍ جدّاً من النّاس، حتَّىٰ العلماء والمثقفين منهم، ومنابِعهُ في النفس الأنانيّة من وراء الشعور، مع استكبار الإنسان عن أن يتقبَّل الاتّهامَ بأنّه كان ذا مفهوماتٍ خاطئاتٍ، وكان مقتنعاً بها، وعَامِلاً بمقتضاها حِقْبَةً من عُمْره، وإبائِه عن أن يَشْعُرَ بأنَّه كان فاسِدَ الاعتقادِ، أو فاسد السُّلوك، إذْ يَرَىٰ هذا إهانةً لكرامته، وشتيمةً لجزءٍ من ذاته، وهو الجزء الذي كان عليه طَوال حقبةٍ من عُمْرِه.

وهذا أحَدُ الأسباب التي يَتَولَّد عنها مرض التعصُّبِ للذّات، في حدود الأنانيّة الفرديّة، أو الأنانيَّة الجماعية.

ومن الأنانيّة الجماعيّة يظهر ما يلي:

١ ـ التعصُّب المذهبيّ.

٢ ـ التعَصُّب الحِزْبي.

٣ ـ التعصُّبُ القومي والعرقي.

وأشباهها.

ولـذا كـان مـن العسيـر جـداً اقتـلاع سـوابـق الأفكـار والمفهـومـات والمعتقدات والعادات الثابتات لدى كثير من الناس، ولو كانت باطلات أو

فاسدات، أو قبيحات، لتحرير أرضيّة نفوسهم منها، وغرس بدائل من الحقّ، أو الخير، أو الفضيلة، أو الجمال.

فعلى حامل رسالة الدعوة، أو رسالة النُّصْح والإرشاد، أن يوطِّنَ نفسه لمواجهة هذه العقبة، فيمن يُوجّه له رسالته، وأن يَصْبِر صبراً طويلاً لاجتيازها، وتحرير أرضيّة نفسه من السوابق الباطلة أو الفاسدة أو القبيحة، وتهيئتها لتَقَبُّلِ غرس البدائل الصحيحة أو الصالحة النافعة، أو الجميلة الحسنة.

ولا بُدَّ لاجتياز هذه العقبة من اتّخاذ الأساليب الحكيمة النّاجحة، والتحلّي بالصَّبْر الطويل، والتدرّج الكثير البطيء.

- ٢ -

طائفة من أساليب اجتياز هذه العقبة

وأُوَجِّه النّظرَ إلى طَائفةٍ من أهمّ الأساليب الحكيمة الناجحة لاجتياز عقبة سوابق الأفكار والمفهومات والمعقتدات والعادات، فعلى حامل الرسالة أن يختار منها ما يُلائم حالة من يُوجّه له رسالته:

١ ـ الصَّبْر الطويل في اتّخاذ الوسائل الّتي يَكْتَسِبُ بها ثقةَ من يوجِّه له رسالته، بأخلاقه، وعِلْمه، وقوة عقله، وإدراكه لبواطن الأمور، وقوة محاكمته، وقُوَّةِ حُجَّته.

٢ ـ اتّخاذُ الطُّرُق غير المباشرة أو المباشرة اللّطيفة، لهدم ما لديه من سوابق الأفكار والمفهومات والمعتقدات والعادات، بصورة تدريجيّة، ومن الخير البَدْءُ بالجذور الفكرية، ثم التدرّج إلىٰ نواميها الأصليّة، فإلى فروعها، ثمّ إلى لوازمها في العادات وأنواع السلوك.

٣ ـ اتّخاذ أسْلُوب الإقناع العلميّ والمنطقيّ، لكشف بطلان ما يريد اقتلاعه أو التغييرَ والتعديلَ فيه.

ويَحْسُنُ الْتماس بعض الأعذار ممّا يمكن أن يكون السَّبَبَ في الوقوع في الأخطاء والانحرافات، مع بيان أنّه يجب على العاقل الْحَصِيف الْمُنْصِف تصْحِيحُها والرجوع إلى الحقّ، فالحقّ أحَقُّ بأن يُتَّبَع.

وتَسْتَمِرُّ خِطَّةُ اقْتِلاع السوابق الباطلة أو الفاسدة أو القبيحة، حتَّىٰ تتحرَّرَ مِنْها أرضيَّةُ النفس تَحَرُّراً كُلِّيًا أو جزئيًا.

٤ ـ التَّلَطُّفُ في غرس البدائل الّتي يُرادُ غرسها، بدْءاً بالجذور الأساسيّة، ثم الأقْربِ إلَيْها فالأقْرَب.

٥ ـ الاهْتِمَامُ بالتَّرْكِيزِ على مَنْطِق الحقّ، والحجَّة والبرهان، والتجربات العلميّة، وقياس نتائج الأعمال، ووضع الأفكار كُلِّها مَوْضِعَ النَّقْد، وَفْقَ الطريقة القرآنيّة، المبيّنة في قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿... وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

٦ ـ الإقناعُ بضَرُورةِ التَّحَرُّرِ من المؤثراتِ العاطفيَّةِ الَّتي لا صلة لها بإثبات المعارف أو نفيها، ولا صلة لها بتحديد الحقّ والباطل والتمييز بينهما، ككَوْنِ الفكْرَةِ هي ما عليه المذهب، أو ما الْتَزَمَ به الحزب، أو نَصَرَتْهُ الجماعة المعيّنَة، وكَكَوْنِ الفكرة ممّا كان يقول به الآباءُ والأجداد.

ومن أقبح الولاءات للأشخاص غيرِ المعصومين بعصمَةٍ من الله عزّ وجلّ، مقالةٌ جاهليّة تدعو إلى أنَّ الانتصار العرقي أو القَبَلِيَّ أو القوميَّ أو الحزبيَّ أو المذهبيَّ يُلْزِمُ بالأَخْذِ بالفكرة الفلانيّة ولو كانت أمراً باطلاً، لأنّ الولاء للجماعة لا يكون صحيحاً ما لم يلتزم المنتمي إليها بكل أفكارها

ومفاهيمها وعقائدها وأوامر وَنَواهي قادتها وزعمائها، إنّها القبيحة الجاهلية التي جعلَتِ الشاعر الجاهليّ يقول:

وَمَا أَنَا إلاَّ مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

٧ ـ الابتعاد عن إثارة النُّعَرات الأَنانية (الشخصيّة ـ الأسْريَّة ـ الْعِرْقِيَّة ـ الْقَبَلِيَّة ـ القوميَّة ـ العنصريَّة ـ ونحو ذلك).

٨ ـ قد يَحْسُنُ عند العناد الشديد، والإصرار على الباطل، الْهُجُومُ الصَّاعِقُ، لكشف بطلان الأفكار والمفهومات والعقائد والعادات الّتي يَلْتَزِمُ بها مَنْ تُوجّه له الرسالة، ولبيان سفاهة من يستمسك بها، ليُصَاب بالهزيمة الفكرية في ميدان الجدال المنطقيّ بالحجّة والبرهان، والأدلّة العلميّة.

ولكن ينبغي في الأحوال العاديّة التزام المعالجة برفق وحكمة، والابتعاد عمّا يولّد الإصرار والعناد، أو يُثير الانفعالات الغضبيّة، ولا يَحْسُن اتخاذ الخطة الأخيرة إلاّ في أحوال قليلة، وحينما يصير من الحكمة مواجهة المعاند بالتَّسْفِيه، ودمغه بالتحجُّر واتّباع الهوى، والْعمَىٰ على الحقّ، واستحباب الظلمات على النور، والضلال على الهدى.

* * *

المقـولة العاشـرة
من العقبات الصادّات

٤ ـ عقَبَةُ التقليد الأعْمَىٰ

ـ ١ ـ
مرض التعصُّب الذميم يتولّد منه مرضُ التَّقْلِيد الأعمى

١ ـ نشأت الجماعات البشرية القديمة، بعائلاتها، وقبائلها، وأقوامها، وشُعُوبها، ترى أنّ مصالحها لا تتحقّق إلاّ بالتعاون المشترك، وكان من مصالحها غَزْوُ بعضها لبَعْضٍ بالظلم والعدوان، وقتالُ بعضِها لِبَعْضٍ للظّفَر بالحكم والسلطان.

لذلك كانت ترىٰ أن حمايَتَها من عدوان خصومها، ومنافسيها، والطامعين بها، لا تتحقّق ما لم يتناصر أفرادها فيما بينهم ضِدَّ أعدائهم أو خصومهم، أو ضِدَّ مَنْ يَطْمَعُون هُمْ بظُلْمِهم والعدوان عليهم، لسَلْبِهِمْ أموالهم، أو لفرض سلطانهم عليهم.

٢ ـ ونشأت الصراعات الآثمات الظالمات بين القبائل والشعوب، ومُخْتَلِفِ التكتُّلاتِ والجماعات القديمات، وكانت أكثر الدوافع لقيامها الظلْمَ والبغْيَ والغزْوَ العدواني.

٣ ـ ومـن هـذا ظهـرت الـولاءات والانتمـاءات القبليـة، والقـوميّـة

والعرقية، الّتي لا تعتمد على مبادىء الحق والخير والفضيلة، وإنّما تعتمد على مجرّد التكتُّل الجماعي، والتناصر ولو بالظلم والعدوان، وظهرت العصبيات الّتي تبدأ بالعصبيّة للأباء والأجداد، وتتّسعُ حتّىٰ تكونَ عصبيّةً قوميّةً، ثمّ عصبيّةً عرقيّة، فلُغَويّة وإقليميّة.

٤ ـ وبالعصبيّة ينْصُر الأفراد زعيم الجماعة، أو قائدها ورئيسها، وينْصُرون أفكاره ومبادئه ومفاهيمه، ولو كانت باطلة أو ظالمةً آثمة، ولو كانت تجلب شرًّا وضُرًّا للمجتمع البشريّ.

٥ ـ وبالعصبيات تتقاتل الجماعاتُ ذواتُ الولاءات المختلفات بالظلم والعدوان، وتَسْفِكُ الدِّماء، وتُهْلِكُ الحرث والنَّسْلَ وتُفْسِدُ في الأرْض.

٦ ـ ثمّ ظهرت في المجتمعات البشرية ولاءات حزبيّة، وولاءاتٌ مذهبيّة، وظهرت فيها عصبيّاتٌ لمبادىء الأحزاب، وأفكار المذاهب، ولو كانت باطلة، نظير العصبيات القديمة القبليّة، والعرقيّة، والقوميّة.

٧ ـ وتُوجَدُ في النّاس أيضاً ولاءات فِكْرِيَّةٌ لأشخاص وَثِقَ النَّاسُ بعِلْمِهِمْ، أو بِقُدْرَاتهم الفكريّة، أو بحكمتهم في التصرّف، أو نحو ذلك، فهم يُقَلِّدُونَهُمْ تقليداً أعْمَىٰ، ولو كان ما عليه قادَتُهُمْ من فكْرٍ أو عَمَلٍ، باطلاً أو فاسداً أو شرًّا، وجالباً ضُرًّا.

إن تعظيم الأشخاص قد يوقع عند كثيرٍ من الناس في وهم عصمتهم عن الخطأ وهذا باطل.

العصبياتُ كلُّها أمراضٌ خبيثة:

وبالتحليلِ يظْهَرُ لأهل الفكر والإنصاف أنّ الْعَصَبيَّاتِ كُلَّها أمراضٌ خبيثة من الأمراض الاجتماعية، إذْ لا يعتمد الولاء فيها على قواعِدِ الحقّ والخيرِ والفضيلة، بل يعتمد على مبدأ المناصرة ولو بالباطل والظلم والعدوان.

ومرضُ العصبيّة قد يستَشْرِي في نفوس الناس ويستحكم، حتّىٰ نجد بَعْضَ فضلاء أهل العلم يَتَعصَّبُون للباطل المذهبي، ونَجدَ بَعْضَ فُضَلاءِ الْمُثَقَّفِين الدّاعين إلى الحق يتعصَّبُون للباطل الحزبيّ، تعصُّباً مَقيتاً، يجْعَلُهم يرفضون الإصغاء لأيّ بيانٍ يَعْرِضُ الحقَّ المخالِفَ لما تعصَّبُوا له، مهما اقْتَرَنَ بما يُثْبته من حجج وبراهين قاطعة، وسبب رفضهم كونُه مخالفاً لما عليه المذهب، أوْ لما عليه قيادة الحزب.

وكلُّ الذرائع التي يقدّمها الحزبيُّون والمذهبيون المتعصّبُون لجعل التعصُّبِ الحزبيّ أو المذهبيّ مقبولاً، أو أمراً غير مُنْكر، ذرائعُ مرفوضَةٌ في الموازين الإسلاميّة الصحيحة، والله عزّ وجلّ لا يَقْبَلُ منها شيئاً، ولا يَعْذُر من يلتزمُ الباطل تَذَرُّعاً بها، فكلُّ الْمِلَلِ والمذاهبِ الباطلة الَّتي جعل الله الآخذين بها من أصحاب النار الخالدين فيها، ذرائعُهُمْ للأخْذِ بها واتِّباعها هِيَ من ثمرات شجرة التعصب الخبيثة.

التقليد الأعمى ثمرة التعصّب:

إنّ مرض التقليد الأعمى يتولّد تلقائيًا من مَرَضِ التَّعَصُّب، أو نقول: إنّ التقليد الأعمى يَنْبُتُ في أرض العصبيات والولاءات الفردية والجماعيّة الناتجة عن المصالح المتبادلة بين الناس، أو الناتجة عن الثقة التامّة ببعض القادة أو الزعماء أو العلماء أو المفكّرين، فهذه الثقة يتولّد منها التسليمُ المطلق بدون تأمل ولا بحثٍ ولا تفكير.

فمن مظاهر التعصّب القبيح التقليدُ الأعْمَىٰ، بالتزام الأفكار والمفهومات والعقائد والعادات وأنواع السلوك التي تلتزم بها الجماعة الّتي ينتمي إليها المتعصّب لها، أو التي يلتزم بها من يثق به من الناس.

والمتعصّب يُناصِر الأشياء التي يقلّد فيها تقليداً أعْمَىٰ بكلّ ما أوتي من قُوّة، ويُدَافع عنها، ويَحْتَالُ لتأييدها بحجج واهية، وأقاويل زخرفيّة، ولو كانت باطلةٌ تشهد الأدلة القاطعة والحجج البرهانيّة ببطلانها، وبأنّ الحقّ فيما يخالفها أو يضادّها.

وهذه الصفة من أقبح الصفات التي يتصف بها كثيرٌ من الناس، وتزداد قبحاً حينما تكون من صفات أهل العلم المفروض فيهم أن يكونوا مُتَجَرِّدين باحثين عن الحقّ، يتقبّلونه أَيْنَ وجَدُوه، ويَنْصُرونه حيث ظفروا به، ولو كان على نقيض ما عليه جماعة الحزب أو المذهب أو القوم الذين ينتمون إليهم.

وأخطر أنواع التقليدِ الأعمىٰ بدافع التعصُّب الذميم التقليدُ في أشياء مناقضة للحقّ الذي أَمَرَ الله به في الدّين الحقّ عقيدةً أو عملاً.

ولذا جاء في القرآن المجيد التقبيح والتلويم الشديدان، للّذين يقلّدونَ تقليداً أعْمَىٰ آباءهم وأجدادهم فيما كانوا عليه، من عقائد وعبادات وأنواع سلوك مخالف للحقّ والخير والفضيلة، التي أمر بها الله ونهىٰ عن أضدادها.

وحَكَمَ الله عزّ وجلّ على المقلِّدين في الكُفْر أو الْفِسْقِ والفجور بأنّهم كافرون أو فاسقون فاجرون، كقادتهم الّذين اتَّبعُوهم مقلِّدين لهم في عقائدهم ومفهوماتهم وعاداتهم وأعمالهم.

وأبان الله عزّ وجلّ أنّ المقلِّدين تقليداً أعمى لا عُذْرَ لهم في أن يُقلّدوا على غير بصيرة، وأنّ عليهم أن يتحمَّلوا نتائج التعصّبِ بغير حقّ، والتقليدِ في الباطلِ والغيِّ والإثمِ والعدوان، عذاباً أليماً مع قادتهم يَوْمَ الدِّين في نَار جهنّم.

- ٢ -
بيانَاتٌ قرآنية حول التقليد الأعمى

النـصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨ ﴾.

إنّهم يتذرّعون لما يرتكِبُون من فواحش بذريعتين:

الأولى: أنّهم وجَدُوا عليها آباءهم، فهم يُقلِّدُونهم فيها تقليداً أعْمَىٰ، واثقين من أنّ آباءهم لا يفْعَلُون القبائح والشرور والمنكرات.

الثانية: أن الله أمَرَهُمْ بها، وهذه الذريعة ذريعة افترائيَّة كاذبة على الله، فالله لا يأْمُر بالْفَحشاء، وإذا كان الوضّاعون المفترون الذين افْتَرَوا على الله أحكامَ دينِهِمْ، قد زعموا لهم أنّ اللَّهَ هُو الذي أمر بالفحشاء، فعليهم أن يدركوا بعقولهم أنَّ الله لَا يأمر بالفحشاء، لأنّ الأمر بالفحشاء ينافي الحكمة، والله عزّ وجلّ حكيم لا يأمر بشيءٍ ينافي حكمته.

وهذا الادّعاء منهم قولٌ على الله بِغَيْرِ علم، وهم محاسبون عليه عند ربّهم، كما هم محاسبون على ما يفعلون من فَحْشاء.

* * *

النـصّ الثانـي:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن عادٍ قوم الرسول هودٍ عليه السلام، وتَمَسُّكِهِمْ بالشرك الذي كان عليه آباؤهم، وما خاطبُوا به رسولَهُمْ من إصرارِ على شركهم، وتَحدّيهم لرسولهم بأن يأتيهم بما يَعِدُهُمْ به من إهلاك عامٍّ:

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

ولم تنفعهم ذريعَتُهُمْ باتّباعهم لما كان عليه آباؤهم من عبادة الأوثان، فقد أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتيةً فأهلكتهم، وأنجىٰ الله هوداً عليه السلام والذين آمنوا معه برحمةٍ منه، وحقَّتْ كلمةُ العذاب على الذين لا يُؤْمنون بالحقِّ الذي تشهد له الأدلة البيّنة، والحجج البرهانية.

* * *

النـص الثالـث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن قوم إبراهيم عليه السلام، ومناظرته لهم حول أصنامهم الّتي يعبدونها من دون الله:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

فحاجَّهُمْ سَيِّدُنَا إبراهيم عليه السلام بالحجج البرهانيّة، فأصَرُّوا على اتّباع ما كان عليه آباؤُهم بالتقليد الأعْمَىٰ، فلا تَنْفَعُهُمْ مَعَاذِيرُهُمْ التَّعَصُّبيّة التقليديّةُ عند ربّهم.

* * *

النـصّ الرابـع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) بشأن فرعون ومَلَئِه، ورفضهم ما جاءهم به موسى وهارون عليه السلام من الحقّ:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فأعلنوا رَفْضَهُم عن أن يَتَحَوَّلُوا عمَّا كان عليه آباؤهم من شِرْكٍ، وأصَرُّوا على باطلهم بتَعَصُّبٍ وتقليدٍ أعْمَىٰ، فأهلكَهُمُ الله بالإغراق في اليمّ، ولهم يوم الدين عذاب الحريق في جهنّم وبئس المصير.

* * *

النـصّ الخامـس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بشأن ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾.

فرفضوا دعوة رسولهم، وأصَرُّوا على ما كان عليه آباؤهم من الشرك، بتعصُّبٍ وتقليدٍ أعْمَىٰ، فأهلكهم الله بالصيحة، ولم يقبلْ ذرائعهم الباطلة القائمة على التعصُّبِ والتقليد الأعمى.

* * *

النـصّ السـادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بشأن مَدْيَن

قوم الرسول شعيبٍ عليه السلام، وما ردّوا به على دعوته إيّاهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما هم فيه من شِرْك وظُلْم وعدوان على الناس:

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

وكان حالهم ومصيرهم مثل حال الذين أُهْلِكُوا من قَبْلِهم ومثل مَصِيرهم، فلم تنفَعْهُمْ عند الله ذرائعهم الباطلة، القائمة على التعصُّبِ والتقليد الأعْمَىٰ.

* * *

النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) في وصف عذاب الظالمين في الجحيم، دار العذاب يوم الدين، مبيناً أنّ التقليد الأعْمَىٰ قَدْ كان هو السبب في ضلالهم، الّذي أوصلهم إلى الخلود في العذاب الأليم:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

أَلْفَوْا: وجدوا. **يُهْرَعُون**: يُسْرِعُونَ.

وفي هذا البيان تهديد للمشركين وسائر الكافرين بَعْدَ بعثَةِ مُحَمَّد ﷺ، بأنّ ضلالهم بسبب التقليد الأعْمَىٰ سيجعلهم بعدل الله من المعذّبين في الجحيم أبداً.

* * *

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

هذا أَوّل نصٍّ يتعرّض ـ بدون مواجهة صريحة ـ للمشركين الذين دعاهم الرسول محمد ﷺ إلى التوحيد، فرفضوا وقالوا: لا نتبعُك بل نَتَّبِعُ ما وجدْنا عليه آباءَنَا، وكان ما سبقه من النصوص توطئةً وتمهيداً.

وجاء الإقناع بأسلوب الاستفهام التعجيبـي الاستنكاري، المتضمّن التعجيب من أن يلتزموا اتباع ما وجدوا عليه آباءهم من شرك تعصُّباً وتقليداً أَعْمَىٰ، ولو كانَ الشيطان يدعوهم بهذه الذريعة الباطلة إلى عذاب السّعير في جهنم.

* * *

النـصّ التاسـع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) بشأنِ الْمُشْرِكين الذين دعاهم الرسول ﷺ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾.

فتَعَرَّض هذا النَّص لمقولاتِ قادة المشركين الّتي كانُوا يقولونها للّذين يتأثرون بهم من أتباعهم، فاستثاروا تعصُّبَهم وتقليدهم الأعمىٰ بمقولتهم لهم: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾.

وعَلَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ وكُلَّ داعٍ إلى سبيلِ ربِّهِ من أُمَّتِه، بعد ذلك في الآية (٤٦) من السُّورةِ أسلوباً من أساليب معالجتهم بالإقناع الهادىء.

النـصّ العاشـر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٣٦ نزول) بشأنِ مُشْرِكي هٰذِه الأمَّةِ التي وُجِّهَتْ لها دعوة الرسالة الخاتمة:

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

عَلَىٰٓ أُمَّةٍ: أي: على طريقة، وهي الملّة والديانة بالنسبة إليهم.

فعرض هذا النصّ مقالة الكفرة المشركين الذين قَابَلُوا دَعْوَة الرسالة الخاتمة، بالإباء والرَّفْضِ، مُتَذَرِّعِينَ بذريعة التعصُّبِ للآباءِ واتّباع ما كانوا عليه من شِرْكٍ، ومُدَّعِينَ أنّ آباءهم كانوا أهْلَ عقل ورُشدٍ وهُدَىٰ، فهم بالتزام اتّباع آثارهم مهتدون، غيْرُ ضالين، واقتداؤُهم بهم وتقليدُهُم لهم هدايةٌ ورُشْدٌ.

وأَتْبَع مقالةَ هؤلاء المشركين الكفرة بعرض مقالة مشركي الأمم السابقة، الَّذين قابَلُوا دَعْوَةَ رُسُلِ رَبِّهِمْ، بمثل ما قابلَ به المشركون المعاصرون دَعْوةَ الرسول الخاتم، محمد ﷺ، فقال قادَتُهُم المترفون لرُسُلِ ربِّهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ واتَّبَعَهُمْ في هذه المقالة أتباعهم المقلّدون لهم، والْمُتَعَصِّبُونَ في ولائهم لقومهم، من العامّة.

عبارَةُ: ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ في الآية (٢٢) تَدُلُّ باللّزُوم الذهْني على أنّ المشركين المعاصرين قالوا: وَإنّا عَلَى آثارهم مُقْتَدُونَ مُهْتَدُون، فالاهتداء يستلزم الاقتداء.

وعبارَة: ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ في الآية (٢٣) تَدُلُّ بمقتضىٰ التقابل مع الآية (٢٢) على أن المشركين السابقين قالوا أيضاً: وإنّا على آثارهم مقتدون مُهْتَدون.

وأبان النصّ أنّ كُلَّ رسول قوم كانَ يَردُّ على مقالة المشركين منهم بقوله:

﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ تُصِرُّونَ علَىٰ تعصبكم وتقليدكمْ لهم؟!!.

فيرُدُّ المشركون بتعصُّبٍ وتقليدٍ أعْمَىٰ وإصرار على الباطلِ واتّباعِ للهوى: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.

وجاء في خاتمة النصّ بيان أنّ الله انتقم من المشركين الأولين، ولم يقبل منهم ذرائعهم، وفي هذا تهديدٌ للمعاصرين بمثل ما حصل للأوّلين.

* * *

النص الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) يعرض لقطة من قصة إبراهيم عليه السلام وقومه حول آلهتهم الّتي يعبدونها من دون الله:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ويستمرّ عرض القصة حتى الآية (٧٠) من السورة.

وجاء هذا العرض بمثابة مناظرة جدليّة للمشركين المعاصرين لتنزيل القرآن ثم من يأتي بعدهم، وفيه تعليمٌ للرّسول وللدعاة إلى سبيل ربّهم من أمته كيف يُحَاجّون المشركين بشأن آلهتهم من الأوثان، وكيف ينصرون الحقّ ويَثبتُونَ عليه.

وفيه بيان أن الهزيمة الفكرية لاحقةٌ بالمتعصبين المقلدين بالباطل.

وبأنّ النصر في آخر الأمر سيكون للحقّ وللمستمسكين به.

* * *

النصّ الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وهي أوّل سورة نزلت في المدينة بعد الهجرة، بشأن الذين يَتَّخِذون من دون الله أنداداً شركاء لله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾.

فعرض هذا النصّ رَدّ المشركين الْمُتَعَصِّبينَ المقلدين لآبائهم تقليداً أعمىٰ، على دَعْوةِ الْحَقِّ، إذْ يدعوهم الداعي فيقُول لهم: اتّبِعُوا ما أنْزَلَ الله على رسوله، فيقولون، لا نتّبِعُ ما تَدعُونا إليه، لأنّنا لا نؤمن به، بل نتّبعُ ما أَلْفَيْنا (أي: وجَدْنا) عليه آبَاءَنا من عبادَة الأوثان، والإيمان بها، وما وجدنا عليه آباءنا من عادات وتقاليد.

وفي هذا النّصّ يرتقي البيانُ في التَّلْوِيم والتَّثريب والتوبيخ، فيقول الله بشأنِهم معرضاً عن مخاطبتهم:

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: أيُصِرُّون على اتّباع ما وَجَدُوا عليه آباءهم ولو كانَ آبَاؤُهُمُ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً من المعرفَةِ الصحيحة، ولا يَعْقِلُونَ بإراداتهم أَنْفُسَهُمْ عن اتّباع أهوائهم الجانحة، وشهواتهم الجامحة، وعن سُلوك سُبُل الضلال والغيّ. ولاَ يَهْتَدُون إلى صراط نجاةٍ وفلاحٍ في حياتهم.

والمعنى: إنّ من يُصِرُّ مثل هذا الإصرار بتعصُّبٍ وتقليدٍ أعْمَىٰ، لا عقل له يَعْقِل به، ولا بصيرةَ له يُبْصِرُ بها الحقّ، ويهتدي بها إلى نجاته وسعادته، فهو بذلك يُعرّض نفسه ليكون من أصحاب النار خالداً فيها أبداً.

النصّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) وهي من أواخر التنزيل المدني:

﴿... وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

فكان هذا النصّ آخر ما نزل في المراحل البيانيّة حول هذا الموضوع، وهو شبيه بالنصّ الذي نزل في أوائل المرحلة المدنيّة.

إلاّ أنّ هذا النصّ من سورة (المائدة) قد جاء فيه:

● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾.

فجاء فيه إضافة فكرة الدَّعوة إلى اتّباع الرسول، مع اتباع ما أنزل الله.

وجاء فيه عبارة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بَدَلَ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ فتكامل النصّان في أداء المعاني المراد بيانها.

واكتفَىٰ هذا النصّ الأخير بتكرير عبارة التَّلْويم والتثريب والتوبيخ، على الإصرار على التقليد الأعْمَىٰ بتعصُّبٍ ذميم، لا عقل فيه ولا رُشد.

- ٣ -
وسائل علاج التقليد الأعمى

على حامل الرسالة أن يعالج التقليد الأعْمَىٰ فيمن يُوجّه لهم رسالته، بمختلف الوسائل الممكنة، بَدْءاً بأَخفّها وأهونها وأبْعَدِها عن المواجهة المباشرة، ثمّ يرتقي شيئاً فشيئاً من الأخفّ إلى الخفيف، فالشديد فالأشدّ من أساليب التوجيه غير المباشر.

فإذا لم تُجْدِ الوسائل غيْرُ المباشرة انتقل إلى الوسائل المباشرة، متدرجاً فيها من الأخف فما فوقه، ويتَرَقَّىٰ صاعداً شيئاً فشيئاً، ومتى استجاب من يوجّه له رسالته للحقّ توقّف عند الدرجة الّتي استجاب عندها، ولا يزيد عليها.

ومن الواجب دواماً أن يلتزم التلطُّفَ والرفْقَ إلاّ عند الضرورة القصوى، وأن يلتزم التدرّج الارتقائي، وأن يتحلّى بالحلْمِ والصبر وسعة الصدر والتغاضي عمّا يُوَجَّه له من إساءات مع العفو والصفح والتكريم.

هذا ما دلَّتْ عليه منهجيّة النُّصوص القرآنيّة الّتي سبق استعراضها في الفقرة السابقة، وقد لاحظنا فيها التدرُّج الارتقائي الذي دلَّتْ عليه مراحل نجوم التنزيل، ابتداءً من أوائل التنزيل المكيّ، وحتّى أواخر التنزيل المدنيّ، من تاريخ دعوة الرسول ﷺ في قومه.

ومن الوسائل النافعة لعلاج داء التقليد الأعْمَىٰ ما يلي:

الوسيلة الأولى:

الإقناع بأن الإسلام قائم على الحقّ، وهو يدعو إلى الحق حيث كان، فلا يَنْحازُ إلى أيّ عرقٍ أو لونٍ أو قومٍ أو شَعْبٍ أو جماعةٍ خاصة، دون سائر الناس، إذْ هو في أسسه ومبادئه وتعليماته لا يُفرّق بين الشعوب والقبائل والأقوام الأعراق.

والإقناعُ بأنّ التعصُّبَ بغير حقٍّ داءً اجتماعيٌّ يتنافى مع فضائل الأخلاق، الّتي يدعو الإسلام إلى التحلّي بها، والالتزامِ بها.

والإقناع بأنّ الإسلام يُقَرِّر أن كلّ إنسانٍ ذي فكر مسؤول عند الله عن أن يُحِقَّ الحقّ، ويُبْطِل الباطل، ويَنْصُر المظلوم، ويأخُذَ على يَدِ الظالم، ويقيم العدل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

الوسيلـة الثانيـة:

اتخاذ الوسائل لتكوين رأيٍ عامٍّ يتفق على ذمّ داء التَّعصُّبِ بغير حقٍّ، وضرورةِ تخلُّص المجتمعات الإنسانيّة منه، وذمّ ما كانت عليه الأمم البدائية الهمجيّة، التي كانت مُصَابةً بدَاءِ التعصُّبِ بغير حقٍّ، لقبائلها وشعوبها وأقوامها، فأَبْعَدَهَا هذا الداء عن الحقّ وعن سُلوك سبِيل الهدى والرشاد.

الوسيلـة الثالثـة:

الإقناع بأنّ التقليد الأعْمَىٰ أحَدُ المفرزاتِ النَّتِنَةِ لداء التَّعَصُّبِ الذميم، القائم على التناصر ولو بالباطل والظلم والعدوان، والإثم والبغي والطغيان.

الوسيلـة الرابعـة:

عرض قضايا الحقّ التي جاء بها الإسلام مقترنةً بأدلتها وحججها البرهانية.

الوسيلـة الخامسـة:

التطلّفُ بالمقلِّدين تقليداً أعمىٰ، ببيان أنّ مواريث الشعوب تتأصل في النفوس بطريقة غير شعوريّة، إذْ لا تَمُرُّ على محاكمة عقليّة، فلا بُدَّ من مجاهدتها جهاداً طويلاً للتخلُّص منها، ومن يجاهد نفسه حتى يتخلَّص ممّا تأصّل فيها من مواريث باطلة ينال عند ربّه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً، مع المجد الذي يظفر به بين الناس إذا استطاع أن يهجر الباطلَ، ويرتقي إلى مَراتب الحقّ الرفيعة بإرادة قوية حازمة.

الوسيلـة السادسـة:

التزام السياسة الحكيمة التي علَّمنا الله عزّ وجلّ أن نقول فيها للمخالفين الذين هم في ضلالٍ مبين، كما جاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿. . . وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وبهذا الإعلان يضع حامل الرسالة الإسلاميّة مفهومات الإسلام، ومفهومات المخالفين المناقضةَ لها على مائدة البحث، وضعاً متساوياً، مشروطاً بأن يتجرّد كلُّ فريق من سوابق أفكاره، وَبأنْ يَنْظُر في موضوع البحث نظراً مُتَجرّداً من أيّة عوامل خارجة عن ابتغاء الوصول إلى الحق، فما دلّتْ الأدلة الصحيحة أو البراهين القاطعة على أنه هو الحق، كان على كلا الفريقَيْنِ أَنْ يعتَرِفَ بِه ويلتزمه، دون ملاحظة أنّه قد انتصر أو انْهَزَم في مجال البحث، بل الطرفان قد تعاونا في البحث للوصول إلى الحقّ، بغية الاستمساكِ به، فالمستمسكُ بالحقّ هو المنتصر على الباطل والنزعَاتِ النفسيّة، والنزغاتِ الشيطانية الداعية إليه.

وبالتزام الفريقين بالحقّ الذي يُوصِل إليه البحثُ الْمُتَجَرِّدُ النّزيه، يكونان معاً منتصرَيْنِ على ثالثٍ هو الشيطانُ الّذي يَعْمَلُ دواماً على الإغراء بالباطل، والإغواء والإضلال عن الحقّ والخيرِ والرُّشْدِ والهُدَى.

الوسيلة السّابعة:

حين لا تجدي الوسائل الرفيقة السابقة، قد يكون من المفيد استخدام الوسائل الإعلامية، للتشنيع على المتعصبين بالباطل، المقلِّدين تقليداً أعْمٰى، والتشهيرِ بسفاهتهم ونقصان عقولهم واتباعهم لأهواء النفوس، وبيان فسادِ مبادئهم، ومفهوماتهم، وآرائهم، ومعتقداتهم، وتصرّفاتهم، وفساد أدلتهم، ودمغها بالحجج البرهانية، والأدلة العلميّة.

* * *

المقـولة الحـادية عشرة

من العقبات الصادّات

- ٥ -

عقبـة حَسَـدِ من تُوَجَّهُ له الرسالة

- ١ -

تأثير داء الحسد في النفس والسلوك

● كان داء الحسد هو الدّاء الذي صرف اليهود عن اتّباع الرسول محمد ﷺ، مع عِلْمِهِم بأنّه هو الرسولُ الخاتم المبشَّر به في كتُبهم، فقد عرفوه بصفاته المتميّزة المذكورة عندهم كما يَعْرِفُونَ أبناءهم.

قال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وهو من التنزيل المدني المضموم إلى سورة مكيّة:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً في معرض الكلام على بني إسرائيل:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

بَغْياً: أي: حسَداً تجاوزوا به الحدّ، إلى الكُفْر الذي يجعلهم خالدين في عذاب الله.

● وكان داء الحسد مع داءِ الكبرِ هما الدَّاءَيْنِ اللَّذَيْنِ جعلا إبليس لَعَنَهُ الله يعصي بإصرار أمْرَ رَبِّه له بالسجود لآدم عليه السلام، فقد عاند وكابر على الرُّغْم من وضعه موضع المحاسبة والمقاضاة ثلاث مرّات، دلّت عليها فوارِقُ النصوص القرآنية الثلاثة التي عرضت قِصَّةَ مُسَاءَلَةِ الله له عن سبب رفضه طاعةَ أمرِ رَبِّه، وجحدَ حَقَّ إلَهيَّة اللَّهِ، ولم يعترف بذنبه، بل اتّهم ربّه بأنَّهُ لا حقّ له في أن يأمُرَهُ بالسجود لآدم، زاعماً أنّه خَيْرٌ من آدم، إذْ خَلَقَه اللَّهُ من نارٍ وخلَقَ آدم من طين.

● فالحسد داءٌ خطير يصرفُ المصابَ به عن قبول الحقّ والاستجابة لدعوة حامل رسالته، ويجعلُهُ يُصِرُّ على الباطل ويُعَانِدُ ويُكَابِرُ، ويُعَرِّضُ نَفْسَهُ للعذاب الأبديّ في نار جهنّم.

والحسد من عقبات النفوس الكأداء الّتي تُوجَد عند بعض الناس، إنّها عقبةٌ خبيثَةٌ صادّة، تجعل الحاسد يرفُضُ كلّ ما يوجِّهُهُ له المحسود أو بعضه، ولو كان حقًّا وخيراً، وفيه نَفْعٌ عظيم وخيرٌ جسيم للحاسد، وقد أحْسَنَ بعضُ الأدباء الشعراء، إذ وصف داء الحسد في نَفْسِ المصاب به بالنار الّتي تعذّبه وتأكله من داخله.

إنْ عقبة الحسد تشبه عقبة الكبر والعجب بالنفس، إنَّها تُغَشِّي مِنْ بصيرة المصاب بِدَائِها بمقدار كِبَرِها وضخامتها وعظمها، فهو بسببها لا يُحَاوِلُ التفكيرَ فيما يوجّهه له المحسود من دعوةٍ ودلالة على الحقّ والخير، أو بيان وتعليم، أو نُصْحٍ وإرشاد وتربية، أو أمْرٍ بالمعروف أو نَهْيٍ عن المنكر، أو نحو هذه الأمور. إنّه يرفُضُه تلقائيًا دون أن يسمح له بأن يدخل إلى ساحة تفكيره.

- ٢ -

وسائل تخطّي أو تحاشِي عقبة داء الحسد

يستطيع حامل الرسالة الإسلامية الحكيم أن يتخطّىٰ أو يتحاشىٰ عقبة الحسد التي يُلاحِظُها لدى من يوجّه له رسالته، بأساليب ووسائل حكيمة متعدّدة، منها الوسائل التالية:

الوسيلة الأولى: تَرْضِيةُ نفس الحاسد بمحابّها وما ترغب فيه مما أذن الله به، فمن شأن هذه الترضية أنَ تَحُتَّ عقبةَ الحسد في نفسه شيئاً فشيئاً حتّىٰ تهدمها.

الوسيلة الثانية: استخدام أساليب التوجيه غير المباشر.

الوسيلة الثالثة: تكوين رأيٍ عامٍّ حول ما يُرادُ توجيهه للحاسد، فمع الرأي العامّ السائر في اتِّجَاهٍ ما تتهدَّمُ عقباتُ الْحَسَدِ الموجَّهِ ضد شخص حاملِ الرسالة، أو ضدّ أسرته أو قبيلته أو جماعته الخاصَّةِ التي ينتمي إليها.

الوسيلة الرابعة: مداراةُ الحاسد بالتكريمِ والتّوَدُّدِ وتجاهُلِ حَسَدِهِ، والإغضاء عن إساءاته.

الوسيلة الخامسة: إعطاء الحاسد فُرْصَةَ اكتشاف المطلوب منه بنفسه، معرفةً كان أو عملاً.

الوسيلة السادسة: فَتْحُ باب النقاش والمجادلة مع غيره بحضوره، حول الموضوع المراد إقناعه به أو توجيهه له، ليشارك في الاستماع والتفكير، دون أن يَشْعُر بأنه هو المقصود بتوصيل الرسالة إليه.

الوسيلة السابعة: وضْعُه في بيئةٍ يتأثرُ بها عن طريق المحاكاة والتقليد والغيرة، ويندمج فيها، ويَشْعُرُ معها بالمشاركة العامّة، دون أن تشتعل في داخله نار الحسد.

الوسيلة الثامنة: تكليف شخصٍ غيرِ محسودٍ أن يبلّغه الرسالة الَّتي يُرادُ إيصالُهَا إليه.

إلى غير هذه الوسائل ممّا يمكن أنْ تُتَخطَّىٰ بها أو تُتَحَاشَىٰ عقبةُ الحسد.

ولاَ يَعْدَمُ حاملُ الرِّسالةِ الحكيمُ أَنْ يجد وسيلةً مفيدة ذات جدوىٰ، يُوصِلُ بها رسالَتَهُ إلى من يراه حاسداً له، دون أنْ يصطدم بعقبة الحسد الَّتي تَصُدُّ بياناته وبلاغاته ونصائحه عن أن تَصِلَ إلى فِكْرِهِ وَنَفْسِه.

ومن لم تُجْدِ فيه وسيلةٌ من الوسائل الحكيمة الرفيقة ثم العنيفة في آخر مراحل معالجته، فينبغي الإعراض عنه، وعدم إضاعة الوقت والجهد فيه.

* * *

المقـولة الثـانية عشرة

من العقبات الصادّات

ـ ٦ ـ
عقبة الأهواء والشهوات من متاع الحياة الدنيا لدىٰ من تُوجَّهُ له الرّسالة

ـ ١ ـ
شرح هذه العقبة

ومن العقبات الصّادَّات لما يُوجّهُهُ حاملُ الرسالة، أنَّ ما يُوجِّهُهُ لَهُ مُخَالفٌ لأهواءِ وشهواتِ مَنْ يُرِيد تَوْجِيهَ عناصر رسالتَه لهم.

ومن المعلوم في طبائع النفوس أنَّها تقع تحت تأثير أهوائها وشهواتها من متاع الحياة الدنيا، وأنّ كثيراً من أهواء النفوس وشهواتها تدخُلُ في قائمة المحرَّماتِ في الدّين، لما تجلُبُه من شرور ومضارّ فرديّة واجتماعيّة، ولما في الاستجابة لمطالبها من معصية لله عزّ وجلّ، وجَلْبِ لسَخُطِه وغَضَبِه واستحقاق عقوبته.

ومن المعلوم أنّ التحرُّرَ من سُلْطان أهواء النفوس وشهواتها شَدِيدُ الصُّعُوبة على الواقعين تَحْتَ تأثيرها.

ولهذا ينبغي لحامل الرسالة أن يتخذ من الوسائل المأذون بها شرعاً، ما

يَرَاهُ مفيداً لتخطّي هذه العقبة، أو تحاشيها، أو تصغيرها وجَعْلِها قاصرةً على غير ما حرَّمَ الله من مشتهيات النفوس ومطالب أهوائها، في الذين يؤدّي بينهم رسالته.

وفي الفقرة التالية عرض لطائفة من هذه الوسائل.

- ٢ -
وسائل معالجة عقبة الأهواء والشهوات

ومن وسائل معالجة هذه العقبة ما يلي:

١ - اتّخاذُ الوسائل الإقناعيّة، التي تجعلُ من تُوَجَّه له الرسالة يؤمِنُ بأنّ ما يُقَدَّمُ له من دعوةٍ أو تعليم أو نُصْح وإرشاد أَصْلَحُ لَهُ، وأكثرُ سعادةً، وأَمْتَعُ لِنَفْسِهِ عَاجلاً أو آجلاً، ممّا هُوَ مُتَعَلِّقٌ به مما يُرْضِي أهواءه وشهواته، وممّا ثبت واستقَرَّ في سلوكه من عادات محبَّبةٍ إلى نفسه.

٢ - اتّخاذ الوسائل غير المباشرة، كتَقْدِيم نَماذج الْقُدْوة الحسنة، والغمسِ في بيئة ملتزمة في طريقة حياتها بالسلوك الإسلامي، والعرضِ العامّ غير الموجّه توجيهاً خاصًّا، إلى غير هذه الأمور من وسائل التوجيه غير المباشر.

٣ - استرضاء نفس من تُوجَّهُ لَهُ الرّسالة بما يحبُّ ويهوى ممّا أباح الله من متاع الحياة الدُّنْيا، لتكون بدائل لما هو منغمس فيه من شرور.

٤ - تعليق مطامع نَفْسِهِ بالنعيم الخالد الذي أعدّه الله للمتقين، في جنّات النعيم.

٥ - نَقْلُهُ مِنْ بيئَتِهِ الَّتي تجذبه إلى ما كان فيه من انغماس في مطالب

أهوائه وشهواته، إلى مَوْطِنٍ آخر صالح، وبيئة تساعد على نفسه.

٦ ـ تدريبه على طاعة الله حتى يذوق حلاوتها فيتعلق بها.

إلى غيرها من وسائل يكتشف حامل الرسالة أنَّها ذاتُ جدوىٰ في معالجة هذه العقبة.

* * *

شرح عقبات القسم الثالث
عقبات تكون أسبابها في الوسط بين
حامل الرسالة ومَنْ تُوجّه له
وهي ثلاث عقبات

المقـولة الثـالثة عشرة
من العقبات الصادّات

ـ ١ ـ
عقبة الوساوس والتسويلات الشيطانية

ـ ١ ـ
شرح هذه العقبة

وسوسة الشيطان: حديثه الخفيُّ الّذي يُبَاشِرُ مَرْكَز الإدراك في النفس، ولا يشترط أن يأتي عن طريق أداةِ السَّمْع، لأنّ الشيطان يجري من ابْنِ آدم مجرى الدّم.

روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن أنس وصفيّة أنّ الرسول ﷺ قال:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنِ ٱبْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ».

وأَصْلُ الوسوسة الصوت الخفي.

والشيطانُ يُوَسْوِسُ في صَدْرِ الإنسان ليُغْرِيَهُ ويَخْدَعَهُ فَيُغْوِيَه، ويستخدم في إغرائه وخَدْعِهِ إثارة الشبُهَات، وتهييج الأهواء والشهوات.

تسويل الشيطان: إطماعُهُ بالْبَاطل، وتزيينه وتحسينُهُ بالوسوسة ما يدعو الإنسان إليه، وتحبيبُهُ إليه، وإغراؤه به، وتسهيلُه له.

● إنّ إبليس بعد أن طرده الله وحكَمَ عليه بالْغَوَاية حُكْماً مُبْرماً، حقد على آدم وزوْجِه وذُرّياتهما، فسألَ ربّه أن يُنْظِرَهُ في الحياة إلى يوم الدين، فأعطاهُ الله الوعْدَ بأن يُنْظِرَه إلى وقت إهلاك الأحياء، لا إلى وقْتِ البعث، فلَمَّا أخذ الوعد بهذا أعْلَنَ قرارَهُ في أن يعمل في إغواءِ ذُرّيَّاتهما، وأنْ يَحْمِلَ أعْبَاءَ هذا الإغواء.

فمن استجاب له منهم، واتَّبَعَ خُطُواتِهِ قادَهُ أوساقَهُ إلى المعصية والإثم على قَدْرِ نسبَةِ الاستجابة الَّتي قد تُوصِلُ إلى الخلود في عذاب السعير.

ومن لم يستجب له حَمَاهُ اللَّهُ مِنْ تحقيق مراداته فيه، الرَّامِيَةِ إلى غَمْسِهِ في أوحال الشرور، وحَمْأَةِ الموبقاتِ، والعذابِ الأليم.

● واتَّخَذَ إبليس لنفسه خُطَّةَ عَمَلٍ للإضلالِ والإغْوَاءِ، بالوسوسة والتسويل والإغراء، فقال لربِّهِ مُبّيناً خُطَّتَهُ كما أَخْبَرَنا الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

مَذْءُوماً: أي مَذْمُوماً، معيباً، مَخْزِيًّا، مطروداً.

مَدْحُوراً: الدَّحْرُ: الطَّرد والإبعاد المقترن بدفْعٍ عنيفٍ فيه إهانَةٌ وإذْلال.

فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي: أي: فيما حكَمْتَ عليَّ بالْغَواية، وفصَلْتَ الْقَضاء بشأني منذ الآن، وجَعَلْتَني من أهْلِ النَّار.

لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم: أي: لأقْعُدَنَّ لَهُمْ راصِداً صِراطَكَ المستقيم، وهو كلّ ما اشتَمَل عليه الدِّينُ من بيانات تَتَعلَّق بحقائق علميَّة يجب الإيمان بها، وأعمال قلبيّة ونفسيّة وتُروكٍ، وأعمالٍ جسديَّةٍ ظاهرة وتُروكٍ تَجِبُ طاعة الله فيها.

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

أَبَانَ إبليس بهذا خُطَّة حركتِهِ للإغْواءِ، بأنَّه سيَعْمَلُ عَلَىٰ صَرْفِ بَنِي آدم عن الْبَدْءِ بالسَّيْرِ على صِراطِ اللَّهِ من بَيْنِ أَيْدِيهم صَدًّا عنه ودَفْعاً، ومِنْ خَلْفِهِمْ شَدًّا وجَذْباً حتَّىٰ لا يَدْخُلُوهُ، فإذا سَارَ منْهم على صراط الله سائرون فإنّه سيَعْمَل على إخراجهم عنه، من ذات اليمين، انحرافاً إلى السُّبُل المتفرّقَةِ فالمتاهات، ومن ذات الشّمَالِ، انحرافاً أيضاً إلى السُّبُلِ المتفرّقة فالمتاهات.

والشيطان في مَنْعِ الناس عن سلوك صراط الله المستقيم، أوْ إخراجِهِمْ منه، لا يحتَاجُ إلى أنْ يَعْمَلَ من فوقِهِمْ، ولا إلى أَنْ يَعْمل من تحتهم، إنّما يحتاج إلى أن يدفعهم عن سلوكه من بين أيديهم، وإلى أن يجذبهم من خلفهم حتّىٰ لا يسلكوه، فإذا سلكوه فخطَّتُه تَنْحَصِرُ بمنْعِهِم عن مُتَابَعة السّير، والوسيلة إلى ذلك إخراجُهُمْ عنه من ذات اليمين ومن ذات الشمال.

ولا تُوجَدُ سُبُلٌ انحرافيّةٌ إلى الأعْلَىٰ، ولا إلىٰ الأسْفَل، فالْعُلُوّ على سَمْتِ الصراط هو من الصراط، وإنْ وُجِدَ للصراطِ مَسَالِكُ من تحته مُسَامِتَةٌ لَهُ فهي أيضاً من الصراط.

وبهذا نستغني عن آراءٍ اجتهاديّة ذكَرَها بعضُ أهل التأويل بالنسبة إلى جهة الفوق، إذْ لم يَقُلْ إبليس: ومِنْ فوقهم.

وباستطاعة المتفكّر أن يستفيد هذا التحليل الَّذي سبَق بيانُه من حديث صحيح جاء فيه وصْفٌ لصراط الله المستقيم.

فَعَنْ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال:

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً، وعَنْ جَنَبَتَي الصِّرَاطِ سُوران، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا عَلَىٰ الصِّرَاطِ، ولاَ تَعْوَجُّوا، وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو، كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ. قَالَ: وَيْحكَ لاَ تَفْتَحْهُ، فإنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ».

ثُمَّ فَسَّرَهُ فَأَخْبَر.

«أَنَّ الصِّـرَاطَ هُـو الإسْـلاَمُ، وَأَنَّ الأَبْـوَابَ مَحَـارِمُ اللَّـهِ، وأَنَّ السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ حُدُودَ اللَّهِ، وأَنَّ الدّاعِيَ عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ، وَأَنَّ الدّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ»[(١)].

رواه الإمام أحمد ورزين بسَنَدٍ صحيح.

وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ: أي: ولا تَجِدُ بَعْدَ تنفيذ برنامج عَمَلي في الإغواء أكثر بني آدم شاكرين شكراً هو من أدنى درجاتِ الشكر بالإيمان وإعلان الطاعة، بل ستَجِدُ أكثرهم كافرين.

واستثنىٰ إبليس عبادَ اللَّهِ المخلِصِينَ بكسر اللاّم، والْمُخْلَصِين بفتح

(١) انظر شرح هذا الحديث في كتاب «روائع من أقوال الرسول ﷺ» للمؤلف الحديث الحادي والعشرون.

اللاّم، كما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) فقد جاء فيها حكايةً لقول إبليس:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

الْمُخْلِصِينَ: بكسر اللام قراة ابْنِ كثير، وأبـي عَمْرو، ويعقوب، وابْنِ عامر، والمرادُ مَنْ أخْلَصُوا لِلَّه في إيمانهم وإسلامهم.

الْمُخْلَصِين: بفتح اللاّم قراءة باقي القرّاء العشرة، والمرادُ الّذين يصطفيهم الله من عباده فَيَعْصِمُهم من الشياطين كالأنبياء عليهم السلام.

● ووضع إبليسُ في خطّته الّتي رسمها للوسوسة والتسويل والإغراء، بُغْيَة الإضلال والإغواء، أنّ يتّخِذَ الخطواتِ المتَنَازِلَات في الدّركاتِ خطوةً فَخُطْوةً، لَا أُسْلُوبَ الْقَذْفِ من الضدِّ إلى الضدِّ المقابلِ، كالْقَذْفِ منْ أعْلَىٰ الجبل إلى قاعِ الوادي، وهذا الأسْلُوبُ يُمكن التعبير عنه أيضاً بالتَّدْليَةِ[1] شيئاً فشيئاً، فهو يُدَلّي مَنْ يَنْخَدعُ بوساوسه ودسائسه وتسويلاته في آبار المعاصي والآثام، حتَّىٰ أَعْمَاقِ الْفُجُورِ، فَقَاعِ أشدِّ الكُفْر والنّفاق.

والتعبير بالتَّدْلِيةِ جَاءَ بياناً لما فعل إبليس بأبَوَيْنَا آدَمَ وحَوّاء، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ولئلاَّ يقَعَ النَّاسُ فريسةً للشيطان، بسياسة الخطوات المتنازلات الماكرات، حذّرهم الله عزّ وجلّ من اتّباع خطواته، في عِدَّةِ نصوصٍ قرآنيّة تَنَاوَلَتْ موضوعاتٍ مختلفات.

---

(١) دَلَّىٰ الدّلْوَ في البِئر، إذا أنزله شيئاً فشيئاً.

١ ـ ففي مَرْحَلَةِ التنزيلِ المكي، وفي معرِض بيانِ افتراء المشركين على الله بتحريم ما لم يحرِّمْهُ اللَّهُ من الأنْعام، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿... كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

أي: لا تتّبعوا خطوات الشيطان بالافتراء على الله في أحكامٍ تشريعيّة هي من خصائص ربوبيّته وإلٓهيّته.

٢ ـ وفي أوائل مرحلة التنزيل المدني خاطب الله الناس جميعاً بقوله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

فأبَانَ هذا النَّصُّ أنّ من اتّباع خطوات الشيطان ما يلي:

(أ) طاعته فيما يأمُرُ به من فعل السُّوء، والسُّوءُ يبدأ من صغائر الذنوب والمعاصي والمخالفات والآثام، وينحدر إلى أشدّها وكبائرها.

(ب) طاعَتُهُ فيما يأمُرُ به من الفحشاء، والفحْشَاءُ كبائِرُ الذّنوب، الّتي تمتَدُّ بُقْعَةُ انتشارِها وتَعْظُم قَبَاحَتُها، وآثَارُها الفاسدة، والمفْسِدَة.

(جـ) طاعَتُهُ فيما يأمُرُ به من تَقَوُّلٍ على اللَّهِ في دينِه، وتحريفٍ في أحكام شريعته لعباده، سواءٌ أكان ذلك في الحقائق العلمية الاعتقادية، أو في الأحكام السُّلوكيّة الداخليّة أو الخارجيّة.

فالشيطان بخطواته المتنازلات يبدأُ بأهون الذنوب وأصْغرها، ويتنقَّلُ بمَنْ يُغْوِيهم ويخدَعُهُمْ شيئاً فشيئاً إلى المعاصي الأشدّ فالأشدّ حتَّىٰ يُوصِلَهم إلى الشّرك، فما هو أقْبَحُ وأخَسُّ من الشرك. كالإلحاد بإنكار وجود الخالق وكالنفاق.

٣ ـ وخاطب اللَّهُ عزّ وجلّ المؤمنين في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً بقوله تعالى في معرض بيان ما قد يَقَعُ بين المؤمنين من مقتضياتِ للتقاتُل، يكون لفريق منهم اجتهادات تستحثُّه على أنْ يُقاتِلَ مُضَحّياً بنفسه ابتغاء مرضاة الله لإصلاح الفساد الذي انتَشر في المجتمع الإسلاميّ، بسَبَبِ متسلّطين ظَلَمةٍ طُغَاة مفسدين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾.

فدَلّ هذا النّصُّ على وجُوبِ لُجُوءِ جَمِيع الْفُرَقَاءِ من المسلمين المؤمنين إلى السِّلْمِ فيما بينهم، والعمل على إصلاح الفساد بالطُّرُقِ السِّلْمِيّة، فالدَّواعي القائمة ربَّما تَجْعَلُ القِتَالَ لإصلاح الفساد مأذوناً به في أوّلِ الأمر، إلاّ أنّ الشيطان يستَغِلّه، ويَسْتَهْوِي بخطواته الماكراتِ إلَىٰ أنْ يَتَحوَّل التقاتُلُ بيْنَ المسلمين إلى ما هو أشدُّ شرّاً وضُرّاً وَفَسَاداً من الْفَسَادِ الّذي قام المصلحون لمحاربة ناشِريهِ الطُّغاةِ المفسدين.

وقد يقع الذين كانوا في أول الأمر يَبْتَغُون الإصلاح، في الزَّلَلِ انْتِصاراً للنَّفْسِ والهوى، وهؤلاء يُهَدِّدُهم الله بعزّته الغالِبَة، الّتي ينصُرُ فيها بِحِكْمته منْ يَشاءُ، وهذا ما يدلُّ عليه قَوْلُه تعالى في النّصّ:

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾.

٤ ـ وفي مَعْرِض بيانِ حادِثَةِ الإفْكِ وَمَا يَتَّصِلُ بها من عِظَاتٍ وتوصياتٍ وأحكام، خاطبَ الله عزّ وجلّ الذينَ آمَنُوا في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بقوله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾.

إنّ إشاعة الاتّهام بالزّنا مجالٌ واسعٌ يستهوي فيه الشيطان بخطواته الماكرات إلى فسادٍ عريضٍ في المجتمع الإسلامي، فاقتضت الحكمة أنْ يحذّر الله عزّ وجلّ الذين آمنوا من اتّباع خطواته في أثناء الآيات الّتي نزلَتْ بمناسبة حَدِيثِ الإفك على أُمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والّتي نزل القرآن ببراءَتِها، وبيان طهارتها وعفّتها.

● وعرف إبليس عليه لعَنَةُ الله مواطن الضعف لدىٰ بني آدم، ورأىٰ أنّ بابَ الشُّبُهَات قد ينفتح إلى مسَالِكَ كثيرة تستَهْوِي إلى أوْدِيَة الشرك بالله، فما هو أشدُّ من الشرك من أنواع الكُفر، ورأىٰ أنّ بابَ الأهواء والشهواتِ ينفتح إلى مسالك كثيرة جدّاً، تَسْتَهْوِي إلى أوديَةِ المعاصي والآثام فالجرائم الكبائر، فالظلم والعدوان، والبغي والطغيان، فالشرك فما هو أشد منه من أنواع الكفر.

ونظر بجانب ذَلِكَ إلى خُطَّته الّتي رسمها للإضلال والإغواء، فوثِقَ منْ نجاح خُطَّتِه، واطمأَنَّ إلَىٰ أَنَّهُ سَيَمْتَطِي ظُهورَ أكثر بني آدم، وسَيَضَعُ اللُّجُمَ في أفواههم، وَيَشُدُّهم بها من أحناكهم كالدّواب، ويَسُوقُهم بعَصَاهُ إلى دركاتِ العذاب الأليم في جهنّم، فقال إبليس لربّه كما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ

وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ: أي: لأستميلنَّهُمْ وَلأَسْتَوْلِيَنَّ عليهم، ولأسوقَنَّهُمْ من أحناكهم كما تُسَاقُ الدّواب، أو لأقودَنَّهُمْ من أحناكهم.

يقالُ لغة: احتنَكَ الدابّة، إذا وضع في حنكها الأسفل حبلاً يقودُها به.

واستَفْزِزْ: أي: واستخفّ بالمفزعات والمخيفات، واستخْرج، يقال لغة: استفزّهُ، إذا استَخَفّه بالمخيفات والمفزعات واستخرجه، وإذا ختَلَهُ حتّىٰ ألقاه في مهلكة.

وأَجْلِبْ عَلَيْهم: أي: وتَوَعَّدْهُمْ بالشّرّ جامعاً جُمُوعَكَ عليهم، يقال لُغَة: أَجْلَبَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ إِذَا تَوَعَّدَهُ بِشَرٍ، وجَمَعَ الْجَمْعَ عليه، وأَجْلَتَ عليه، إِذَا جَمَعَ الْجَمْعَ ضِدَّهُ.

بِخَيْلِكَ: أي: بجندك الفرسان رُكَّابِ الخيل.

ورَجِلِكَ: أي: وبجندكَ من المشاة، رَجِل: اسم جمع للمشاة، أوْ هو جَمْعٌ لراجلٍ، وهو الماشي خلافُ الراكب على ظهْرٍ.

فأعطى الله عزّ وجلّ التمكين لإبليس بأنْ يَعْمَلَ مَا استطاع في إغواء الناس، بأنْ يستخفّ منهم من يستجيب له بما يلي:

(أ) بالصوت، أي: بالكلام والوساوس، واستخدام الوسائل الصوتية الإعلاميّة.

(ب) وبالتخويف، باستخدامِ التوعُّدِ بالشرِّ وبالمظاهر المثيرة للخوف.

(جـ) وبالمشاركة في الأموال والأولاد إذا لم يَتَحصَّنُوا باسم الله والاستعاذة به، فالشيطان يُشَارِكُ الإنسان في طعامه إذا لم يُسَمّ الله عليه، ويتلاعب بالأولاد من الناس لتنشئتهم تنشئةً فاسدةً متفلتةً، إذا لم يُحَصِّنْهُمْ

أولياؤهم بالاستعاذة بالله من الشياطين، ولم يُحْسِنُوا الإشرافَ على تربيتهم تربيةً إسلاميّةً سليمةً.

(د) بالْوَعْدِ بما يحبُّ النَّاس، لكن الشيطان كاذبٌ في كلّ مواعيده، للناس، ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

وبعد أنْ أعطىٰ الله إبليس التمكينَ من الإغواءِ ضمن هذه الحدود الَّتي أبانها له، أَعْلَمَهُ بأن عبادَهُ المؤمنين لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ سلطان، لأنَّهُمْ يستعيذُون بربّهم، ويتوكَّلُونَ عليه، فيقيهم الله ويحميهم من أنْ تُؤَثِّرَ فيهم إغراءاته، ووساوسه، وتسويلاته، وإيعاداته، ومواعيده، فقال له:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

أي: إنّ عبادي الذين يؤمنون بي ويستعيذون بي ويتوكَّلُون عليّ، لا يكون لكَ عليهم سلطان، لأني أَكْفيهِمْ بِحفْظِي وعزَّتي، وكَفَىٰ بي وكيلاً يحفظ ويحمي.

● ووَجَّهَ اللَّهُ عزّ وجلّ تحذيرَهُ للناس جميعاً، منذ عَهِدَ آدم عليه السلام، ومُتَابَعةً في كلّ رسالاته، حتَّىٰ خاتمتها رسالة مُحمّد، من إبليس وذرّيتهِ وكُلّ جنوده، وأبانَ لهم أنّه لهم عَدُوٌّ مبينٌ.

فمن هذه التحذيرات ما يلي:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ الذي أبان فيه وصيتَهُ لبني آدَمَ الأوّلين، كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ .

- ٢ -

وسائل معالجة مكايد الشيطان للإضلال والإغواء

بتتبُّعِ القرآن والسّنة لاستخراج وسائل معالجة مكايد الشيطان للإضلال والإغواء، تظهر للباحث المتتبّع الوسائل التالية:

١ ـ استخدام وسيلة الإقناع بأسس الإيمان بالله وباليوم الآخر، وبأنّ رحلةَ الحياة الدّنيا رحلَةُ امْتِحانٍ، وبأنّ الدار الآخرة هي دار الْحِسَاب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء الأَمْثَل، وبأنَّ الجزاء يكون بالعدل في نار جهنم لمن أساء، وبالفضل في جنَّات النعيم لمن أحسن.

٢ ـ استخدام وسيلة الإقناع بعداوة الشيطان وذُرِّيَّته لِبني آدم، وبأنّ شيطان كلّ إنسانٍ يجري منه مجرَىٰ الدّم، فهو يوسوس له في داخل نفسه، على صورة خواطر وأفكار، ونزغاتِ أهواءٍ وشهوات ورغباتٍ محرّمات.

مع تكرير التذكير بقصّة إخراجه أبَوَيْنَا آدم وحوّاء من الجنة، باستهوائهما حتّىٰ عصيا أمر الله لهما، إذْ وسوس لهما وسَوَّلَ وأَطْمَعَهُمَا بالباطل، وألْقَىٰ في قلوبهما فاعليّة الأسباب بذاتها من خلال ادّعائه أنّ الشجرة المحرَّمة فيها المادّة الّتي تُكْسِبُ الحيّ الخلود، وهذا فرع من فروع الشرك، فقبلا مقالته التضليليّة، فأكلا من الشجرة عاصيَيْنِ لربّهما، فأخرجَهُما ممّا كانا فيه إلى الدنيا، إذ عاقبهما الله عزّ وجلّ بهذا الإخراج.

٣ ـ التوجيه للاستعاذة بالله السَّميع العليم، من وساوس الشيطان وتسويلاته، كلّما نَزَغَ في داخِلِ النفس نَزْغاً، أو غمزاً أو استَفَزّ شَهوةً أو هوَىً.

٤ ـ التحذير المتتابع من اتّبَاع خطواته المتسفلات، الّتي تُدَلّي بغرور، في آبار المخالفة والإثم والعصيان، إلى قاع الفجور، والكفر.

٥ ـ متابعة عرض البيانات التحذيريّة في نصوص القرآن والسنة بشأن الشيطان وفتنته.

٦ ـ الاهتمام ببيان مسالكِ الشيطان وحبائله، ومداخله إلى النفوس، ومكايده التي يكيدُها كُلَّ طبقات الناس، وكلّ مستوياتهم، وكُلَّ شرائحهم الاجتماعيّة، وكُلَّ تَخصُّصَاتهم، حتَّىٰ الْعُلَماءَ بالدّين، والفقهاء، والصُّلَحاء، والْعُبَّاد والزُّهاد.

فللشيطان إلى نفس كلّ إنسانٍ غير معصوم بعصمة اللَّهِ عزّ وجلّ مَدْخَلٌ أو مداخلُ متعدّدةٌ إلى نفسه، يكيده الشيطان منها. وبعض النَّاسِ لهم نفوسٌ مفتوحة الحدود، لا تُحيطُ بها أسوارٌ ولا سُدُود، فالشياطينُ تتلاعَبُ داخل نفوسهم كما تشاء، فتغريهم وتستهويهم وتجتالهم من كلّ مكان.

ويحسُنُ بحامل الرسالة أن يَسْتَفِيد لدى استخدام هذه الوسيلة من كتاب «إغاثة اللَّهفَان من مصايد الشيطان» لابن قيّم الجوزية، ومن أمثاله من الكتب.

٧ ـ الإقناع بأنّ كَيْدَ الشيطان كَيْدٌ ضعيفٌ ما لم يقترنْ بمساعدٍ قويٍّ من طُغْيانِ أَهْواء النفس، وشهواتها، ورغباتها من الدّنيا، وعوامل انحرافها عن صراط الله المستقيم، كالكبرِ والْحَسَد والعواطف العَمْياء.

والإقناع بأنّ سلطانَ الشّيطان قاصرٌ علىٰ الّذين يَتَولَّوْنَهُ، وعلى الَّذِينَ هُمْ به مُشْرِكُون، مُسْتَدِلاً بالنصوص القرآنية الدالّة على هذا الأمر.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النَّحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً لِكُلّ مؤمنٍ بأسلُوبِ الخطاب الإفراديّ:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

فدلَّ هذا النصّ على انحصار سلطان الشيطان بفريقين من الناس:

الفريق الأول: الّذين يتولّونه، أي: يستنصرون به، ويتآخَوْنَ مَعَهُ، ويلتمسون لديه العون، كالسَّحرَةِ، والكهنة.

الفريق الثاني: الّذين هم بالشيطان مشركون، كالّذين يعبدون الشياطين، وفريقٌ منهم يزعمونهم ملائكة.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) حكايةً لحوار بينه وبين إبليس:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

المُخْلِصِينَ: بِكَسْرِ اللّام قراءة ابن كثير، وأبـي عَمْرو، وابْنِ عَامِرٍ، ويعقوب.

الْمُخْلَصِينَ: بفتح اللاّم قراءة باقي الْقُرَّاء الْعَشْرَة.

وبين القراءتين تكامُلٌ في المعنى، كما سبق بيانه في نصٍ من سورة (ص).

فأضاف إبليس في هذا الحوار إلى تفصيلات خطّته وسيلة التزيين في الأرض، وهو تزيينُ الْمَعَاصي والانحرافاتِ والضلالاتِ الفكريَّةِ والسُّلُوكيَّة.

بِمَا أَغْوَيْتَنِي: أي: بما حَكَمْتَ عَلَيَّ بالْغَوَايَةِ نتيجة محاسبتي والقضاءِ بشأْنِي.

هَـٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيم: يقولُ الله عزّ وجلّ لإبليس هـٰذَا صراطُ ديني الذي اصطفَيْتُه لعبادي، عليَّ بيانُه لهم، وتبليغُهم إيَّاهُ بوساطة رُسُلِي، وهو صراطٌ مستقيم، لا عِوَجَ فيه.

إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ من الْغَاوين: متَّبِعُو الشيطان من الغَاوين هم الفريقان اللّذان جاءَ بيانُهما في النصّ السابق الذي هو من سورة (النحل): «الذين يتولَّونَهُ والذين هم به مشركون».

٨ ـ بيانُ أنّ الشيطان يتبرّأ يوم القيامة من الّذين أضلَّهُمْ في الدُّنيا، مبيّناً أنَّه لم يكُنْ له عليهم سلطانٌ، وأنّه لم يكُنْ منه إلاَّ أَنْ دعاهم إلى سلوك سُبُل الضلالة والْغَيّ فاسْتَجابوا لدعوته، واتَّبَعُوه.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ: أي: ما أنا بمغيثكم لتخليصِكُمْ مِنْ عذاب الله، وما أَنْتُمْ بمُغِيثِيّ لتخليصي من عذاب الله.

يقال لغة: أَصْرَخَهُ، إذا أغاثَه مُسْتَجِيباً لصُرَاخِه.

٩ ـ عَرْضُ قصص الأوّلين الّذين أغراهم الشيطان فَأَغْوَاهُم، فأنزل الله بهم عِقَابَهُ المعجّل في الدنيا، للاتعاظ بها، مثل:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) بشأن مشركي مكّة في غزوة بدْرٍ الكبرىٰ:

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ: أي: رجَعَ القهقرىٰ علَىٰ قفاه هارباً.

روى الطبرانيُّ بسنده عن ابْنِ عبّاس قال: جاء إبليس يوم بدر، في جُنْدٍ من الشياطين مَعَهُ، رايتُهُ في صورة رجُلٍ من بني مُدْلجٍ، في صُورةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِك بْنِ جُعْشُم.

فقال الشيطانُ للمشركين: لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْم من الناس، وإنّي جَارٌ لَكُمْ.

فلمَّا اصْطَفَّ النّاسُ، أَخَذَ رسولُ الله ﷺ قبضَةً مِنَ التُّرَابِ، فرَمَىٰ بِهَا في وُجُوهِ المشركين، فَوَلَّوْا مُدْبِرِين.

وَأَقْبَلَ جبريلُ إلىٰ إبليس، فلمَّا رآهُ، وكانت يَدُهُ في يَدِ رَجُلٍ من المشركين، انْتَزَعَ إبْلِيسُ يَدَهُ، فولّىٰ مُدْبراً هُوَ وَشِيعَتُه.

فقال الرَّجُلُ: يَا سُرَاقَةُ، تَزْعُمُ أنّكَ لَنا جَارٌ؟

قال: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وذَلِكَ حين رأىٰ الملائكة.

وأنزل الله قوله: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ . . . ﴾ الآية.

ـ ٢ ـ
عقبةُ أعْمَالِ المضلّين وجنود الغزو الفكري المفسدين

ـ ١ ـ
شرح هذه العقبة

تداعَتِ الأُمم الكافرة كلُّها على شعوب الأمّة الإسلاميّة لإضلالها وإغوائها وإخراجها عن دينها، وهدم كلّ أبنيتها الفكرية، وتفريق جمعها، وتشتيت شملها، وتوزيق أوصالها، وإقامة الصراعات المادّية والمعنوية فيما بينها، وتفتيتها إلى أجزاءٍ صُغْرَىٰ تفتيتاً ذرّياً، بغية تبديدها تبديداً لا يبقى لها تجمُّعاً متماسكاً قويًّا، ومَحْوِها من الأمم، أو السيطرة عليها سيطرةً كاملةً باستعبادٍ وإذلال وتسخير.

وهذا ما أطلقنا عليه في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر الهجري عنوان «الغزو الفكري».

وجنّد أعداء الإسلام والمسلمين لتحقيق هذه الغاية جنوداً كثيرين، انتشروا في طول الأرض وعرضها، في كلّ بلدان القارّات الخمس، ولا سيما

ضمن بلدان المسلمين، وأقاموا لهم مؤسسات ذوات تنظيم دقيق، وقوىً عظيمة، وأموال طائلة، واستخدموا الأجراء الكثيرين، والمنافقين الكثيرين، المندسين في داخل شعوب الأمّة الإسلاميّة، وتغلغلوا في مراكز قوىٰ المسلمين الفكرية والاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسية وغيرها مسيطرين وموجّهين.

وأقاموا من أنفسهم، ومن أبنيتهم الفكريّة التي شَادُوها في مجالات التعليم والإعلام الْمُخْتَلِفة، ومن أنظمتهم التي استطاعوا أن ينشروها ويفرضوها فرضاً على معظم بلدان العالم الإسلامي، عقباتٍ عُظْمى، تَصُدُّ توجيه حملة رسالة الدعوة إلى الله، ورسالة الحماية والإصلاح والتربية، بالتعليم والنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وانتشر داخل شعوب الأمّة الإسلاميّة الدّعاة الجهنّميّون، الفاسدون المفسدون، الواقفون على أبواب جهنم، يَعْرِضون على الناس سِلَعَ الأهواء والشهوات، مقرونةً بوسائل الإغراء والخداع الفكري، وزُيُوفِ المذاهبِ الفكرية الوافدة من الأمم الكافرة، ويدعون الصغار والكبارَ من ذُرّيّات الأمّة الإسلاميّة العظيمة إليهم، فمن أجَابَهُمْ إليها استهواءً بما تشتهي النفوسُ أوصلوه إلى مواطن ضلاله وشقائه، فكانوا السبب في قذفه في جهنّم.

وقد تحقّق كثيرٌ ممّا أخبر به الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه حذيفة بن اليمان، من أخبار مستقبليّة بشأن هذه الأمّة الإسلاميّة.

روى البخاريّ ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: (كان الناس يسألون رسولَ الله ﷺ عن الخير، وكنْتُ أسأله عن الشرّ مخافة أن يُدْركني.

فقلت: يا رَسُول اللّهِ، إنّا كُنَّا في جاهِليَّةٍ وشرّ، فجاءنا اللّهُ بهذا الخير، فهل بَعْدَ هذا الخير من شرّ؟

قال: «نَعَمْ».

قُلْتُ: وهَلْ بعْدَ ذلك الشرّ مِنْ خير؟

قال: «نَعَمْ، وفيهِ دَخَنٌ»[1].

قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟

قال: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وتُنْكِرُ».

قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذلِكَ الْخَيْرِ من شَرٍّ؟.

قال: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذفوه فيها».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا».

قال: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا[2]، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا».

قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُونِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟.

قَال: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ».

قُلْتُ: فإِنْ لم يَكُنْ لَهُمْ جماعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟.

قال: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّىٰ يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ»).

أقول: لم يصل المسلمون إلى ما تُشِيرُ إليه الفقرة الأخيرة من هذا الحديث، فما زال للمسلمين جماعاتٌ فيها خَيْرٌ مَدْخول بِدَخَنٍ من حُبّ الدنيا، والعمل للحصول عليها.

هذه لمحة عامّةٌ عن عقبة أعمال المضلّين وجنودِ الغزو الفكري

---

(١) **الدَّخَنُ**: فسادٌ في داخل النفوس والقلوب مخالف للظاهر.

(٢) جِلْدَةُ الشيءِ ظاهره، أي: هم في الظاهر مسلمون، وفي الباطن مخالفون.

المفسدين، الظاهرين، والْمُقَنّعِين، أمّا شرح هذه العقبة بتفصيلٍ يتناول مخطّطَاتِ الغزاةِ، وأنشطتَهم، ومَجَالاتِهم، وحِيَلَهُمْ، وأَقْنِعَتَهُمْ، وأَعْمَالَهم، وما غَزَوْا به الأمّة الإسلاميّة، في المجالات الفكريّة والنفسية والسلوكيّة، هدماً للعقائد والأخلاق والعبادات والنّظُم وكلِّ صُور المعرفة والسلوك الإسلامي، فهو أمْرٌ لا يتَّسِعُ له هذا الكتاب.

ولكن باستطاعة حامل الرسالة أن يجد شرحها مفصّلاً تفصيلاً واسعاً دون استقصاء، في سلسلة كتب «أعداء الإسلام» الّتي فتح الله بها عليّ، وهي حتَّىٰ هذا التاريخ سبعة مؤلفات:

١ ـ مكايد يهودية عبر التاريخ.

٢ ـ صراع مع الملاحدة حتّى العظم.

٣ ـ أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها. «دراسة للتبشير والاستشراق والاستعمار».

٤ ـ غزو في الصميم. «دراسة للغزو الفكري في مجال التعليم المنهجي والتثقيف العام».

٥ ـ الكيد الأحمر. «دراسة للشيوعيّة ودولتها العظمى وشرورها».

٦ ـ كواشف زيوف في المذاهب الفكريّة المعاصرة.

٧ ـ ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ.

ـ ٢ ـ
وسائل معالجة هذه العقبة

هذه العقبة الخطيرة ذات الانتشار الواسع، ليس في أيدي حَمَلَة رسالة الدّعوة إلى الله، أو رسالة الحماية والإصلاح بالتعليم والنُّصْحِ والإرشاد

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الوسائل لمعالجتها، إلاّ الوسائل الّتي اتّبعها الرسول ﷺ في المرحلة المكيّة بإرشادٍ من الله وتوجيه حكيم، من تاريخ رسالته، مع الحاجة إلى التطوير في الأساليب والأدوات، متابعةً لما تَطَوَّرَتْ إليه البشرية في أساليبها وأدواتها، ومع الحاجة إلى الكشف المستمرّ لمكايد أعداء الإسلام، وفضح مخطّطاتهم، وتعرية أهدافهم، وإزاحة الأقنعة عن وجوههم الحقيقيّة، وكشف زيوف أفكارهم، ومفهوماتهم، ومذاهبهم، ودعواتهم، ومع استخدام كلّ أساليب البيان، وكلّ وسائل الإعلام المتاحة، التي يستطيع حملة الرسالة الانتفاع بها.

وحمَلَةُ الرسالة مطالبون دواماً بالتحرّي الْفَطِن عمّا وراء الظواهر، وحُسْنِ التَّفَرّسِ في الأُمور، والحكمة والصَّبْرِ، وَسَعَةِ الصَّدْر، وتحمُّلِ الأذىٰ، والمجاهدة بالْقُرآن والسُّنَّةِ مَا اسْتطَاعُوا إلى ذَلِكَ سَبيلاً، والمجاهَدَة أيْضا بالحجج البرهانيّة، والأدلّة العلميّة الثابتة.

ومطالبون أيضاً بطول الأمل، وحُسْنِ الرجاء، وأن لا يَدِبَّ اليأس إلى قلوبهم، مهما كانت ثمرات أعمالهم ضئيلة.

ولْيَعْلَمُوا أنّهم ليسوا مسؤولين عن التحويل والتغيير في الواقع، بَلْ هُمْ مسؤولون عند الله عن القيام بواجبات التبليغ والتعليم والنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو لم يجدوا لمجاهداتهم آثاراً ظاهرة في المجتمع الّذي يجاهدون فيه.

وعليهم أن يتأسَّوْا في مجاهداتهم برسُل الله في أُمَمِهم، فمن الرُّسُلِ من لم يستجب له من قومه إلاّ أفرادٌ معدودون.

* * *

المقولة الخامسة عشرة

من العقبات الصادّات

- ٣ -

عقبة عدم توافر وسائل الاتصال الإعلامي المؤثر

غدت وسائل الاتصال الإعلاميّ المقروءة والمسموعة والمرئيّة في العالم مؤهّلة لتوصيل كل كلمة، وكلّ صَوْتٍ، وكلّ صورة، إلى كُلّ راغب في القراءة أو الاستماع، أو المشاهدة.

إلاّ أنّ النسبة العظمى من وسائل الاتصال الإعلاميّ في العالم تقع تحت سيطرة أهل الدّنيا ومروجّي مصالحهم منها، وتحت سيطرة المضلّين في الأرض، والمهتمّين بالغزو الفكري ضدّ الإسلام وضدّ الأمّة الإسلاميّة في مشارق الأرض ومغاربها.

أمّا حملة الرسالة الإسلاميّة من الدُّعاة والمصلحين فلا يملكون من وسائل الاتّصال العالميّة إلاّ نسبةً قليلةً جدًّا، بجانب ما يملكه منها المضلُّون المفسدون في الأرض.

ومع وجود هذه العقبة أمام حملة الرسالة الإسلاميّة فإنّ عليهم أن يعملوا دواماً بقاعدة: لاَ يَسْقُطُ الميسور بالمعسور.

- فيجب على كل واحدٍ منهم أن يستخدم ما يستطيع استخدامه من

وسائل الاتصال الإعلاميّ المختلفة، باذلاً قصارى جهاده، مخلِصاً في عمله، والله يُبَارك له جهاده، ويُضَاعف ثمراتِ أعماله المباشرة، وآثارها البعيدة.

● ويجب على القادرين من الأمّة الإسلامية أن يعملوا متعاونين متآزرين، حتّى يُهَيِّئوا لحملة الرسالة ما يستطيعون تهيئته لهم من وسائل الاتصال الإعلاميّ المقروءة والمسموعة والمرئيّة، من أجل تبليغ كلمة الله، وتوصيل شرائع الإسلام وأحكامه وتعاليمه وأخلاقه وآدابه وسائر محاسنه، للناس أجمعين، والله يثيبهم على ذلك ثواباً جزيلاً، ويجعلهم بنيّاتهم الصالحات وأعمالهم المبرورة من جيش المجاهدين في سبيل الله لتوصيل دينه للناس.

وباستطاعة حامل الرسالة الحكيم العاقل المخلص الصادق في حَمْلِه الرسالة والذي يبتغي رضوان الله والجنَّة، لا مصالح الدنيا ورغباتِ الْعُلوّ في الأرْضِ، أنْ يكون رفيقاً هيّناً ليّناً حسَنَ التوجيه، حسَنَ النُّصح والإرشاد، حسَنَ الأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يواجه بالعُنْفِ ولا يَصطدمُ مع من يَرَاهم غيْرَ ملتزمين بأحكام الإسلام وشرائعه، لأنّه عاقلٌ رشيدٌ حكيم، شديد الشفقة على الناس، شديد الحرص على هدايتهم.

وباستطاعته أن يُهاجر في سبيل الله داعياً ناصحاً مرشداً، عملاً بقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾[1].

وباستطاعته أن يتّخِذَ منْهجاً تعليميّاً لا يَتَخَوّف منه أحدٌ، على سلامة الأمن أو مصالح النّاس في أيّ موْقعٍ من الأرض، لأنّ رسالته رسالة الأنبياء والمرسلين الّذين كانوا حكماء عقلاء في حَمْلِ رسالاتهم وتبليغها للناس.

---

(١) مُرَاغماً: أي: مُهَاجراً يُهَاجر إليه، ويستطيع فيه أن يكون آمنا طليقاً.

واللهُ عزّ وجلّ يبارك للمخلصين، ويضاعف ثمرات أعمالهم المباشرة، وآثارها البعيدة.

وبقدر الاستطاعة مع الحكمة يؤدّي واجب رسالته الرَّبَانيّة.

وقد سَبَقَ في تاريخ حمَلة الرسالة الإسلاميّة أن تعرَّض فريق منهم للسجن من قِبَل طُغاة السَّلاطين، فلم يتوقَّفوا عن متابعة تأدية رسالاتهم.

● فيوسفُ عليه السلام أدّىٰ دعْوتَه الرّبّانية وهو في السّجن.

● وجاء في ترجمة شمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسي، المتوفّي سنة (٤٨٣هـ) من أهل سرخس في خراسان، وهو من كبار فقهاء الأحناف، أنَّه، أَمْلَىٰ على طلابه كتابه «المبسوط» الذي يقع في ثلاثين جُزْءاً، وهو سجين بالْجُبِّ، في أُوزْجَنْد (بفَرْغَانة) وكان سبَبُ سِجْنه كلمةً نصَحَ بها الخاقان.

● وجاء في ترجمة الشيخ سعيد النورسي، مؤسس جماعة النور في تُرْكيّا، أنّه قد سُجِنَ أكثر من مرّة في عهد «مصطفى كمال أتاتورك» لمقاومته الكفر والعلمانيّة، فكان يكْتُبُ إلى تلاميذه رسائله من تأمُّلاَته وذاكرته، فينْشُرونها مخطوطةً بطُرُقٍ سرّيّة، ويتعلّمُون منها ما يُريد بيانه لهم من أمور الإسلام.

* * *

الفصل الثالث

المنهاج البياني ومسالكه
«الحكمة ـ والموعظة الحسنة ـ
والجدال بالتي هي أحسن»

وفيه خمس فقرات:

الفقرة الأولى: نظرة إجمالية إلى مسالك منهاج الدعوة البيانيّة.

الفقرة الثانية: شرحُ مَسْلك الحكمة في الدعوة وبيانٌ لعناصرها.

الفقرة الثالثة: شَرْحُ مَسْلَك الموعظة الحسنة وبيانٌ لعناصرها.

الفقرة الرابعة: شرح مسلك الجدال بالتي هي أحسن وقواعدِه العامة.

الفقرة الخامسة: نماذج من تعليماتٍ جَدَليَّةٍ قُرْآنيّة.

الفقـرة الأولـى

نظرة إجماليّة إلى مسالك منهاج الدعوة البيانيّة

- ١ -

تعريف عام بالمسالك

رسم الله عزّ وجلّ للدُّعاة - ويُلْحَقُ بهم الناصحون المرشدون والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر - منهاجاً للدّعوة البيانية إلى سبيله له ثلاثة مسالك كبرى، ذوات وسائل متعدّدة:

المسلك الأوّل: الدعوة البيانيّة بالحكمة.

المسلك الثاني: الدعوة البيانيّة بالموعظة الحسنة.

المسلك الثالث: الدعوة البيانيّة بالجدال بالتي هي أحسن.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ . . . ﴿١٢٥﴾ ﴾.

فعلينا أن نكتشف حُدودَ وعَنَاصِرَ هذه المسالك الثلاثة، وكيفيّة السّير فيها.

أمّا سبيل الله عزّ وجلّ فهو دينه الّذي ارتضاهُ لعباده عقيدةً وخُلُقاً

وسلوكاً نفسيًّا باطناً، وسلُوكاً جَسَدِيًّا ظاهراً، وسبيل الله لعباده حكيم، لا عِوَجَ فيه ولا مَعَاثر، بل هو سَبيلٌ مستقيم سَوِيّ واضحٌ مُنِير، يوصل إلى غايات حميدة فيها سعادة الناس.

والباء في ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ تشير إلى المسالك الدعويّة والوسائل الّتي تُسْتَخْدمُ فيها.

وللتَّفْريق بيْنَ المسالك الثلاثة، وبيان حُدودِ كُلٍّ منها نبدأ بتمييز ما هو جَلِيٌّ وواضحٌ مِنْها وهو الجدال، إذْ هو وسيلةٌ ظاهرةُ التميُّز عن وسيلتي الدعوة بالحكمة والدعوة بالموعظة الحسنة، فالجدال حوار بين فريقين، يشتمل على ادّعاء من فريق، واعتراضٍ من فريقٍ آخر، واستدلالٍ للإقناع، وطَعْنٍ في الدّليل، ودفع للطعن، إلى غير ذلك من أصول المناظرات الجدليّة، وقد تُسْتَخْدَم في مراحل الجدال بالّتي هي أحسن وسيلتا الحكمة والموعظة الحسنة، وهذا شيءٌ لا يُؤثر على مفهوم الجدال المتميّز بحدوده.

بقي علينا بيانُ حُدودِ كلٍّ من مَسْلكي الحكمة والموعظة الحسنة، وهنا يظهر لنا أنّ اجتلاء حدود الموعظة الحسنة أيْسَرُ لأنَّها تدور حول الترغيب والترهيب، فمتىٰ عرفنا عناصر الموعظة الحسنة استطعنا أنْ نَفْهَمَ أنّ المساحة الباقية هي المساحة التي تُطْلَبُ فيها الحكمة.

وبالرجوع إلى شرح أهل اللّغة والمفّسرين للموعظة نجد في بيانهم أنّ الموعظة هي النُّصْحُ بالفعل أو بالترك المقرون بما يثير الرغْبَة أو الرهْبَة في النفس، للانتقاع بالنصح، واتّباع ما هَدَىٰ إليه فعلاً أو تركاً. قال ابن سِيدَة من أئمة اللّغة:

«**الوعظ**: تذكيرُكَ للإنسان بما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ من ثوابٍ أو عقاب».

ولكنْ قَيَّدَ اللَّهُ عزّ وجلّ هذه الموعظة بأَنْ تكون حسنةً، أي: حَسَنَةً في أسْلُوب عَرْضِها، وَالْحُسْنُ في أُسْلوبَ الْعَرْض يتَنَافَىٰ مع الفظاظة والغِلْظة والْمُخَاشَنَة في القول والسّباب والشتائم، إلى غَيْرِ ذلك مما تنفر منه الطباع

ولا تتحمّل استماعه ولا تتقبَّلُه.

فإذا فرزنا الموعظة الحسنة، وعرفْنا أنَّها الترغيبُ بالعاقبة الحسنة والسعادة الخالدة لمن اتّبع سبيل ربّه، والترهيب من العاقبة السّيّئة الوخيمة، والشقاوَة والتعاسة لمن أبَىٰ أن يتّبع سبيل ربّه، بشرط عرضها بأسلوب حسَنٍ جميلٍ مقبول لا تنفر منه الطباع، أمكننا أن ننظر إلى المساحة الدعويّة الباقية بتأمُّل وأناةٍ، وأن نكتشف أنّ الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله هي المعالجة الدعويّة الرشيدة المؤثرة بغير أسلوب الترغيب والترهيب، وبغير أسلوب المجادلة.

وهُنَا لا بُدَّ أَنْ ننظر إلى المنهج الرّبّاني للسياسة الحكيمة التي أوصىٰ الله بها رسوله محمّداً ﷺ وكُلَّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمّته، وأوصىٰ بها بعضَ رُسُلِه السابقين، والسياسة الدعويّة الحكيمة الّتي اتّبَعَها الرّسولُ محمّد ﷺ في دعْوَته، واتّبعها الرُّسُل السابقون فيما نَهَضوا به من دعوة إلى دين الله واتّباع صراطه المستقيم في أقْوَامهم.

ولدى النظر الفاحص في التعريف العامّ للحكمة عند أهل اللّغة، وفي جُمْلَةِ أقوالِ الشَّارِحين للحكمة، نَصِلُ إلى التعريف التالي:

الحكمة: وضْعُ كلِّ شيءٍ في موضعه الذي يُوجِبُه العقل، أَوْ تكْشفُه التجربة، وتتحقّق به الغاية المقصودة من الأمر، بأقلّ كلفةٍ وأقصر زمنٍ مُمكِنَيْن.

فإذا تأمَّلْنا في المنهج الرَّبَّانيّ للسياسة الدعويّة الحكيمة، وفي التعريف العامّ للحكمة، أمكننا أنْ نستبعد عن الحكمة ونُخرج من حدّ دائرتها كلَّ ما يُنافيها ولا يأتلف مع صفاتها ومنها ما يلي:

- ٢ -

منافيات الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله

١ ـ السِّباب والشتائم فهي بالبديهة العقليّة من منافيات الحكمة، لأنّها منفّرات تهدم جُسُورَ التواصل بين حامل الرسالة والموجَّهَةِ له.

٢ ـ الفَظاظة والغِلَاظَة في الأقوال والحركات والأعمال فإنّها منفرات.

٣ ـ توجيه الأوامر والنواهي الصارمة التي هي بمثابة قراراتٍ عسكريّةٍ تُوجَّهُ للتَّنْفِيذ دون اعتراض، وإلاّ حلّت العقوبة السلطويّة.

٤ ـ كلّ قول خَشنٍ وكلامٍ قبيح مُنفّر.

٥ ـ مدْحُ حاملِ الرسالَةِ ذاتَه، وإطراؤُه أفعالَه وأقوالَه وصفاته، لأنّه يُشْعِر بنزعة الكبْرِ في نفسه، واسْتِخْدامِه رسالَتَه التي يؤَدِّيها للحصول على زعامةٍ بين الناس.

٦ ـ اهتمام حامل الرسالة بالانتصار لنفسه، وبإظهار قُدْرَته على التأثير والإقناع، والتغلُّبِ على المخالفين، لأنّه يُشْعِر بأنّه مَغْرُورٌ بنفسه، وصاحبُ مصلحةٍ شخصيّة دنيوية.

٧ ـ الإكثارُ من حَشْرِ المعلومات في مجْلسٍ دعَوِيٍّ واحد، لأنّ من تُوجَّهُ له الرسالة متَىٰ كثُرَتْ المعلوماتُ المتواردةُ عليه انصرف ذهنه عن متابعتها، وعَجَزَ عن الإمساك بها لاستذكارها.

٨ ـ التشهيرُ بأسماء العصاة، وذِكْرُ قَبَائِحِهِمْ ومفردات معاصيهم، فهو مخالفٌ لسياسة الرسول ﷺ، ولا يَخْدُم الرسالة التي يحملها.

٩ ـ النُّصْح العَلنيُّ لأشخاصٍ بأعيانهم، إذْ هو من قَبِيلِ الفضيحة لا النصيحة.

١٠ ـ الاستعلاء على من تُوجَّه له الرسالةُ بالْعِلْم أو بالذكاء أو بالمكانة الاجتماعية، وإشْعَارُه بجهلِه أو بقِلَّة ذكائه أو بانحطاط مكانته الاجتماعيّة، لما في كلّ ذلك من إهانَةٍ منفّرة.

١١ ـ اسْتخدام أسلوب الاستهزاء والسخريّة بمن تُوجَّه له الرسالة، فمن شأن هذا الأسلوب أن يستَعْدِيَه ويُبْعِدَهُ، لا أن يُلَيِّنَه ويَسْتَدْرِجَه للاستجابة.

١٢ ـ الاستدلال بالأقوال الكاذبة، والروايات الموضوعة المصنوعة، والقضايا الباطلة، فَنُصْرَةُ الحقّ لا يصحّ أن تكون إلاّ بالحقّ، ومن تُوجَّه له الرسالة متىٰ اكتشف بطلان الدليل أعرض عن أصل القضيّة، ولم يكلّف نفْسَه البحثَ عن صحّتها بدليل صحيح.

١٣ ـ الاستدلال بأشياء خارجة عن موضوع البحث لا تصْلُح للاستدلال بها فيه، وإن كانت صحيحة في ذاتها، لأنّها تدلّ على عدم سلامةِ فكرِ مُقَدِّمها.

١٤ ـ مخاطبةُ من تُوجّه له الرسالة بما هو فَوْقَ إدْراكه من أسلوبٍ كلاميٍّ أو مضمونٍ فكريّ، لأنّه لا يَفْهَمُه فَهُوَ لاَ يَنْتَفِعُ به ولا يَسْتَجيب له.

١٥ ـ مخاطبَةُ منْ تُوجَّه له الرسالة بما هو دُونَ مُسْتَواه الفكري، أو بأسلوب هو دون منزلته الاجتماعيّة، لأنَّ مثل هذه المخاطبة قد يَشُمُّ منها رائحة الاحتقار والازْدِراء له والاستخفافِ به، فيَغْضَبُ ويَنْفِر ويُعْرِض عن الاستجابة لما يُدْعىٰ له وإن كان حقًّا.

١٦ ـ التناقُضُ في أَقْوَال حامل الرسالة في مجلس واحدٍ أو في مجالس متعدِّدة، لأنّه يُشَكِّكُ في صِدْقه، أو في علمه.

١٧ ـ مقابلة السيئة بأسوأ منْها أوْ بمثلِها، فهي مُخالفة لسياسةِ الرسُلِ

عليهم السلام مع أقوامهم، ومخالفة للوصايا الرّبّانيّة.

١٨ ـ الحكايات والقصص الخرافيّة، والأساطير الّتي لم تثبت صحتها، لأنّها تُشْعِر بأنّ القضيّة الّتي يُنْصَحُ بها ليس لها شاهد صحيح يُؤَيِّدها، ولو كانت حقًّا لما احْتاجَتْ تأييداً بالخرافات والأساطير.

١٩ ـ كلُّ كلامٍ رَكيكٍ مُعَقَّدٍ غَيْرِ مفهوم، إذْ هو منافٍ للحكمة بداهة.

٢٠ ـ التركيز على عرض موضوعاتٍ غير ذاتِ قيمَةٍ وغير ذاتِ أهميّة في أسس الإسلام، أو في أحكام الشريعة، ولا سيما حينما يؤدّي رسالته بين الجماهير بوجه عام.

٢١ ـ خُلُوُّ البيانِ ممّا يَجْذِبُ النُّفُوسَ إلى استماعه والإصغاء إليه، كالكلام الجافِّ الّذي ليس فيه تَطْرِيات أدبيّة، ولا زيناتٌ جمالية، ولا مُحَرِّكاتٌ فكريّة أو عاطفيّة.

٢٢ ـ توجيه الاهتمام كلّه لفريقٍ أو أكثر من الذين تُوجَّه لهم الدعوة، وإهمال الآخرين الحاضرين.

ـ ٣ ـ

البيان القرآني بالنسبة إلى هذه المسالك الثلاثة

هذه المسالك الثلاثة: (الدعوة البيانيّة بالحكمة ـ الدعوة البيانيّة بالموعظة الحسنة ـ الدّعوة البيانيّة بالجدال بالتّي هي أحسن) هي المسالك التي سار عليها البيان القرآني الدَّعَوي، يُدْرِكُ هذا كلُّ من يُتَابع آيات القرآن وسُوَرَه بتدبّر سليم، ويدُلُّ عليه أيضاً قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ

﴿لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾.

- فمَسْلَكُ الحكمة دلَّ عليه من هذا النص: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.
- ومسلك الموعظة الحسنة (= الترغيب والترهيب) دلّ عليه سائر النصّ.
- أمّا مسلك الجدال بالّتي هي أحسن فنجده في التعليمات الجدالية الكثيرة التي اشتمل عليها القرآن المجيد.

وقد أمر الله به في قوله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿.. وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۝١٢٥﴾.

ـ ٤ ـ

الأركان الداخليّة للنفس الإنسانية والمؤثرات فيها

لدىٰ تحليل النفس الإنسانية وملاحظة المؤثّرات فيها، نُدْرِكُ أنَّها تتأثر بمؤثّرات تنفذ إلى ثلاثةِ أركانٍ فيها، إذا تأثَّرَ واحدٌ منها التأثُّرَ المرادَ منْهُ، حصَلَ لَدَيْها الاقتناعُ بالقضيّة المَقْصُودِ إقْناعُ الإنسان بها.

الأول ـ الركْنُ العقلي:

لقد وهب الله عزّ وجلّ الإنسانَ قدراتٍ فكريّةً عقليّة يُدْرِكُ بها حقائق الأشياء، إذا أدركها ولم يكن في نفسه مُعَارِضٌ من أهوائه وشهواته لما أدرك اقتنع بها، فعمل بمقتضاها.

ومن إدراك حقائق الأشياء التفريقُ بين الحقّ والباطل، والخيرِ والشرِّ والصالح والفاسِد، والفاضل والمفضول، والأَحْسَنِ من الاحتمالات الممكنة المهيَّأة للاختيار منها، وما دونه تنازُلاً في درجَة الحُسْنِ حتَّىٰ أدنَىٰ الدرجات.

والدخول إلى داخل نفس الإنسان للتأثير فيها عن طريق هذا الركن من

أركانها، يكون بالوسائل العقلية والعلمية المختلفة، وهي تَرْجِعُ إلى ثلاثة أصول:

الأصل الأوّل: الاستدلالُ العقلي الملائِمُ لما فُطِرَت عليه مَدارك الأفكار والعقول، من حقائق وموازين، ويُسَاعد على معرفتها عِلْمُ المنطق[1].

ومن الاستدلال العقلي إدراك الأسباب ذِهْناً، عند مشاهدة المسببات، أو إدراكِها عقلاً، وإدْرَاكُ اللّوازم الفكريّة العقلية من خلال إدْراك ملزوماتها.

الأصل الثاني: الإدراكُ الحسيّ المباشر، والتجربة المؤدّية إليه، سواء أكان الإدراك بالحواس الظاهرة، أمْ بالحواس الباطنة، كمشاعر الحبّ والكراهيّة، واللّذة والألم، والرضا والسخط.

الأصل الثالث: الخبر الصادق، وهو الخبر الّذي تُدْرِكُ العقولُ وجوب التسليم بأنّه خبَرٌ صادق.

ومن الخبرِ الصادِق خَبَرُ الوحْيِ الذي يُبَلّغُه رسولٌ مؤيَّدٌ بالمعجزة الخارقةِ المقرونةِ بالتحدّي[2].

الثاني ـ الركن العاطفي:

وقد وهب الله الإنسانَ في داخل نفسه مركزاً عاطفيًّا قد يتغلغل إلى عُمْقِ قلْبِه، وهذا المركَزُ إذا تأثّرَ بما يَجْذبُهُ انْدَفَعَ الإنسان إليه، وانْعَطَفَ نحوه بمشاعر سعيدة قويّة، قد لا يستطيع تَحْلِيلَها فكريًّا، وإذا تأثّر بما يُنَفّرُهُ، ابْتَعَد الإنسان عنه، وكرِهَهُ مع مشاعر اشمئزَازٍ قويّة، قد لا يسْتَطِيعُ تحليلها فكريًّا.

---

(١) انظر كتاب «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة» للمؤلف.

(٢) ارجع في هذا إلى مقدمات كتاب «العقيدة الإسلامية وأسسها» للمؤلف، وإلى ما جاء في بحث «المعجزات» منه.

والدخول إلى داخل نفس الإنسان للتأثير في هذا الركْن من أركانها، يكون بالوسائل المثيرة للعواطف، كالعاطفة نَحْوَ الأهل والقرابات، والعاطفة نحو القوم، والعواطف نحو الأرض والوطن، والعواطف نحو التقاليد والعادات المستحبَّاتَ المتأصلات في النفوس، ومنها العواطف الدينيّة الإيمانيّة، ولو كانت لدين تقليدي باطل.

الثالث ـ الركن الذي فيه محور الطمع بِمَحَابِّ النفوس والخوف من مكارهها:

وفي تكوين نفس الإنسان داخِلِيًّا جهازٌ يشتمل على مِحْوَرَيْن:

● محور الطمع بما يُحِبُّ الإنسانُ لِذَاتِ نفسه، أو لِمَنْ أَوْ لِمَا يُحِبُّ، في العاجل أو الآجل.

وتدور حول هذا المحور دوائر الأهواء والشهوات واللّذات.

● ومحور الخوف ممّا يكْرَهُ الإنسان لِذَاتِ نفسه، أو لِمَنْ أو لمَا يُحِبُّ، في العاجل أو الآجل.

وتدور حول هذا المحورِ دوائر الآلام والمكاره ومخالفات الأهواء والشهوات واللّذات.

والدخول إلى داخل نفس الإنسان للتأثير في هذا الرُّكْنِ من أركانها، يكون بترغيب الإنسان فيما تُحِبُّ نَفْسُهُ وتَشْتَهِي من لذّاتٍ وزِينَاتٍ ومَجْدٍ، من مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا، أو مُؤَجَّلٍ إلى يَوْمِ الدين. ويكون بترهيب الإنسان وتخويفه ممَّا تكرَهُ نفسه وتنفر منه من آلام، وأنواعِ عذاب، وحرمانٍ من مَحَابّها، من مُعَجَّلٍ في الحياة الدُّنيا، أو مؤجَّلٍ إِلَىٰ يومِ الدّين.

قمـة التأثيـر:

وتكون قمّة التأثير في الإنسان بمحاصَرَتِه عن طريق أركان نفسه الثلاثة،

وهذه المحاضَرَةُ قد اشتملت عليها آياتُ القرآن المجيد، فوصَفَ الله عزّ وجلّ القرآن بأنّه يَهْدِي لِلّتِي هي أَقْوم، وبوسائل هذه الهداية تكونُ محاصرةُ الركْنِ الأول من أركان نَفْسِ الإنسان.

ووصف الله عزّ وجلّ القرآن بأنَّهُ مُبَشِّرٌ ومُنْذِرٌ، وبالمبشّرات والمنذرات تكونُ محاصرة الرُّكن الثالث من أَرْكانِ نَفْسِه، لأنّها تعتمد على التأثير في مِحْوَرَي الطَّمَعِ والْخَوْف.

قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

وجاء في القرآن استثارةُ العاطفة القوميّة عند العرب تُجاه لغتهم، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله بشأن القرآن في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ . . . ﴿٤٤﴾﴾.

أي: وإِنَّ الْقُرْآنَ الّذي أُنْزِلَ عَلَيْكَ باللُّغَة الْعَرَبِيّة لشرفٌ عظيم لَكَ باعتبارك إنساناً عَرَبيًّا، ولَشَرَفٌ عَظِيمٌ لقومك العرب، إذْ أُنْزِلَ بلُغَتِهِمْ الّتي لهم عاطفة قويّةٌ نحوها، فهم يفخَرُونَ به كتاباً عظيماً معجزاً.

وعلّم الله رسوله أن يستَعْطِف نحوه عواطف القرابة الّتي بينه وبين الّذِينَ ناصَبُوه العداءَ الشديدَ في مكّة، إذْ لم يكُنْ بيتٌ من بيوت مكة العريقة إلاّ ولَهُ فيه قرابةٌ قريبة أو بعيدة، فأنزل عليه قوله في سورة (الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿. . قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ . . . ﴿٢٣﴾ . ﴾.

أي: لا أسألكم على هذا الّذي جئتكُم به أيّ أجْرٍ حتَّىٰ تنفِرُوا منّي وتعادُوني، وتحاربُوني، لكِنْ أسَأَلُكُمْ أَنْ تُعامِلُوني بمقتضىٰ عاطفة القرابة الّتي بيني وبينكم، فتكُفُّوا عنّي أذاكُمْ وحَرْبَكُمْ، وتُحوّلي عني عداءكم، وهذا ليس من الأجْرِ في شيءٍ، بل هو مدخل إلى استثارة الركن الثاني من أركان نفوسهم، واستعطافه لكفّ أذاهم وحَرْبهم له.

فحرف الاستثناء في هذا النصّ هو حرف استدراكٍ بمعنىٰ «لكِنْ».

والسورة مكيّة التنزيل، إلاّ أنّ هذا النصّ منها مَدَنيٌّ، والغرضُ من استعطاف مشركي مكّة تحويلُهم عن معاداة الرسولِ وتدبيرِ المكايد له، ومحاربته.

وهذا المعنى في تفسير قول الله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هو المعنى الذي صحّ عن ابن عبّاس فيما رواه البخاريُّ وغيره[١]، وهو المعنى الملائم لما جاء قبله وبعده في السُّورة.

فقد سُئِل ابْنُ عبّاسٍ عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال «سعيد بن جُبَيْر»: قُرْبَـىٰ آلِ مُحَمّد.

فقال ابن عبّاس: عَجلْتَ، إنَّ النبـيَّ ﷺ لم يكن بطْنٌ من قُرَيشٍ إلاّ كانَ لَهُ فيهم قرابة، فقال: إلاّ أنْ تَصِلُوا مَا بيني وبَيْنَكُمْ من القرابة.

- ٥ -
حكمةُ حامل الرسالة في هذا المجال

من الأكمل والأرجَىٰ للتأثير في عُمْقِ الإنْسَانِ محاصَرَتُهُ من أركان نفسه الداخليّة كُلّها، العقليّة، والعاطفيّة، ومِحْوَرَي مطامعه ومخاوفه.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.

والأفضل دواماً إعطاؤه من جرعات التأثير فيه بمقدار ما لَدَيْهِ من استعدادات في أركان نفسه الداخليّة للتأثُّر.

والركْنُ الذي يكونُ هو الأعظم في داخل نفسه يكون هو الأحْرىٰ بتوجيه أعظم العناية له، وعلى مقدار قابليّته للاستجابة.

● فمن الناس عقلانيّون فكريّون، وهؤلاء يناسبُهم تكثيفُ الجهود للتأثير على أفكارهم وعقولهم بالأدلّة الّتِي يُؤْمِنُونَ بها، دون إهمال سائر أركان نفوسهم، بحَسَبِ ما تحتاجُ إليه مِنْ مثيرات ومؤثّراتٍ تَدْعيميّة.

● ومن الناس عاطفيُّون، وهؤلاء يُنَاسِبُهُمْ تكثيف الجهود للتأثير على عواطفهم بما يؤثّر فيها، دون إهمال سائر أركان نفوسهم بحسب ما تحتاجُ إليه من مثيرات ومؤثّراتٍ أساسيّةٍ أوْ تَدْعيميّة.

● ومن الناس أسراءُ مطامعهم ومخاوِفِهم، وهؤلاء يناسبهم تكثيفُ الجهود للتأثير على محْوَرَي الطّمع والخوف داخل نفوسهم، دون إهمال سائر أركان نفوسهم، بحَسَب ما تحتاج إليه من مثيراتٍ ومؤثراتٍ أَسَاسِيَّةٍ أوْ تدعيميّة.

على أنّه يَجِبُ دواماً العنايةُ بتراكمات المفاهيم الفكريّة العقليّة، لأنَّها هي الأَساسُ الراسِخُ الثابتُ لتأسيس العقائد الّتي لا تَتَزَلْزَلُ، ولهذا أولاها القرآنُ المجيدُ العناية العظمىٰ لتأسيس الإيمان، فالهداية للّتي هي أقوم هي أُولَىٰ وظائف القرآن، وإقامَةُ الأدلّة الفكريَّةِ على حقائق الإيمان هي في مقدّمة ما اهْتَم القرآن ببيانه والتوجيه له.

وفي الفقرات التاليات مزيدٌ من الشرح والتفصيل.

* * *

الفقـرة الثانيـة

شرح مَسْلكِ الحكمة في الدعوة وبيانٌ لبعض عناصرها

ممّا سبق نُدْرِك أنّ الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تُوجب حُسْن التصرّف في سياسة مَنْ تُوجَّه له الرسالة لإقناعه بأجمل وسيلة وأيْسَرِها، ولجعله يَقْبَلُ ما يُدَعىٰ إليه، أو يُنْصَحُ به، ويستجيب له طائعاً مُخْتَاراً، لا مُكْرَهاً نافراً من قَلْبِه كارهاً.

عندئذٍ يستطيع حامل الرسالة أنْ يَقْبِض على مِقْودِ نَفْسِه، ويوجِّهَهُ بيُسْرٍ وسهولة ليأخذ ما دعاه إليه أو نصحه به ويلتزمه إيماناً به، ثمّ يتَّبعَ تعليماتِه وتكاليفَه العمليّة في حركة حياته، سواءٌ منها ما يتعلّق بالأعمال النفسيّة الباطنة، أم الأعمال الجسديّة الظّاهرة، مما يُطْلَبُ فعله، أوْ يُطْلَبُ تَرْكُه.

وحُسْنُ التصرُّف في سياسة من تُوجّه له الرسالة لا بُدَّ للوصول إليه من ملاحظة صفاتِه الفكريّة والنفسيّة والخلقيّة والاجتماعيّة، وملاحظةِ حالته التي هو عليها عند توجيه الرسالة له، ثمّ اختيار أحْكَمِ الوسائل وأرجاها لبلوغ المقصود من التأثير المفيد النافع على فكره ونفسه.

وبفرز مسلك الدعوة أو النصح بالحكمة عن مسلك الموعظة الحسنة التي تدور في فَلَكِ الترغيب والترهيب، وعن مسلك الجدال بالتي هي أحسن، نُلاحظ أنّ الحكمة تصرُّفٌ بيانِيٌّ دعَوِيٌّ ونُصْحِيٌّ يَدُورُ في فلَكِ هَدَفُهُ إقناعُ من تُوجَّه له الرسالَةُ إقناعاً فكريًّا بصحّةِ مضمونِ الرسالة التي تُوجَّه له.

والإقناع الفكريّ في الدعوة إلى سبيل الله يكون بعرض حقائق مبادىء الإسلام عرضاً جليًّا واضحاً مُيَسَّراً للتصوُّر والفهم، بدءاً بجذورها، وارتقاءً شيئاً فشيئاً إلى فروعها، مقروناً بالأدِلّة البرهانيّة السديدة، الّتي تشهد لها بأنّها حقٌّ لا ريب فيه، ومُزَيّناً بالأساليب البيانيّة الْجَمَالِيَّةِ، الّتي تَسُرُّ نَفْسَ من يُوجَّه له الإقناع، فتنفتح للنظر التفكريّ، والتأمُّلِ فِي المضامين الفكريّة، وهي منشرحةٌ مستمتعةٌ بجمال الأسلوب الدافع للنظر في صحّةِ المضمون الفكريّ.

إنّه متى انشرحت النفس، وانْفَتَحَتْ أبوابُ النظر التفكّري للاستقبال والفهم، ولم يكن في داخل النفس هوىً معارضٌ للقضيّة المعروضَة للتفكُّر والاستبصار السَّليم والفهم الصحيح، تمكَّنَ مُوَجِّه الرسالة من الدخول برسالته إلى عُمْق النفس، حتَّىٰ مرْكَزِ القلْب فالفؤاد.

* * *

طائفةٌ منْ عناصر الحكمة في البيان الدعويّ:

١ ـ القول اللّيّن:

من أوّليّات شروط البيان الذي تُوجَّه به الرسالة، أن يكون بالقول اللّيّن الرفيق المهذّب، الذي تستمتع به الأسماع، وتنجذب إليه النفوس والقلوب.

فالقولُ اللّيّنُ على سَمْع ونفْس وفِكْر مَنْ تُوَجَّهُ له الرسالة، هو ما أمر الله عزّ وجلّ به موسىٰ وأخاه هارون عليهما السلام، إذْ كلّفهما أن يذهبا إلى فرعون الذي طغى، فيَدْعُوانِه إلى سبيل ربّه، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في حكاية خطابه لهما:

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾.

٢ ـ مراعاة المنزلة الاجتماعية لمنْ تُوجَّه له الرسالة:

ومن شروط هذا البيان الحكيم مراعاة المنزلة الاجتماعية الّتي يحتلُّها

من تُوجَّهُ له الرسالة، فإذا كان ذا رِياسة في قومِه، ومن المعتاد في مخاطبته إطالةُ مقدّمات العرض التكريميّة، قَبْلَ ذكْرِ المقصود بالذّاتِ، فَمِنَ الحكْمَةِ مُراعَاةُ هَـٰذا الأسلوب قَبْل دَعْوَته أو نُصْحِه، وهذا ما أوصَىٰ الله عزّ وجلّ به موسى عليه السلام، فيما علَّمه أن يقوله لفرعون الذي طغَىٰ، قال الله تعالى في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) في حكاية ما خاطب به موسى إذْ ناداه بالوادي المقدّس طُوى:

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ .

نلاحظ في عبارة التعليم أنّها اشتملت على عِدَّةِ كلمات هي من التّلطُّفِ التكريمي قبل عرض المقصود بالذات:

● ﴿هَل﴾ كلمةٌ استفهاميّة فيها معنى العرض التخييري، لا التكليف الإلزامي.

● ﴿لَّكَ﴾ كلمتانِ: الأولى حرف جرّ، والثانية كاف خطاب، وقد كان من الممكن الاستغناء عنهما، لكنّ التلطُّفَ بتطويل مقدّمات العرض التكريمي استدعاهما.

● ﴿إِلَىٰٓ أَن﴾ كلمتان: الأولى حَرْفُ جرٍّ، والثانية حرف ناصب للفعل المضارع، ويؤوَّل مع الفعل المضارع بمصدر، وقد كان من الممكن الاستغنـاءُ عنهمـا، لكـنْ التلطُّـفَ بتطـويـل مُقَـدّمـات العـرض التكـريمـيّ استدعاهما.

● ﴿تَزَكَّىٰ﴾ هنا بدأ عرضُ المقصودِ بالذَّات، ومع ذلك قد حصل فيه اختصارُ وتقليلٌ في اللّفظ، إذْ أصْلُ الفعل «تتزَكّىٰ» فحذفَتْ إحدى التاءَيْنِ اختصاراً.

في حين أن مقدمات العرض قد حصلَتْ الإطالةُ فيها لتكريم المخاطب

مراعاةً لمنزلته في قومه، ومَا يَعْتَاده لدى مُخَاطبته، وقد كان من الممكن توجيهُ الأمر المباشر له، فيقولَ له موسى عليه السلام: «تَزَكّ» أو «هَلْ تتزَكَّىٰ» لكِنْ في مثل هذا الخطاب إغضابٌ له وتنفير، إذْ هو على غير ما يعتاد من مخاطباتٍ له، فهو منافٍ للحكمة.

وكان من الممكن أن يقول له: «هَلْ لَكَ أَنْ تتزَكَّى» لكنّ الأحكم بالنسبة إلى فرعون وأمثالِه تطويلُ مقدّماتِ العرض، حتَّىٰ تكون مناظِرة لما يعتاده من مقدّماتٍ في مخاطبات النّاس له، وأطولُ مُقَدِّمَاتٍ حكيمة تلائم دعوتَه إلى أن يتزكّىٰ، هو ما جاء في التعليم الربّانيّ لموسىٰ: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾.

٣ ـ البيان المقرون بالبرهان أو بالحجّة الصَّحيحَةِ المقبولة:

إذا كانت القضيّة المعروضة في البيان الدّعويّ من قضايا الحقّ، الَّتي يُراد الإقناعُ بها، فمن الحكمة أن يكون هذا البيان مقروناً بالبرهان أو بالحجّة الصحيحة المقبولة الّتي تُقْنع من تُوجَّهُ له الرسالة بصحة وسلامة القضيّة المعروضة فيه.

ونجد في القرآن الحكيم الالتزام بهذا العنصر من عناصر الدعوة بالحكمة، إذْ يَعْرِضُ قَضِيَّةً أو عدّة قضايا من حقائق الإيمان، ثُمّ يُتْبِعُها في ثنايا السورة بالحجج والبراهين الدّالاّت على ثُبُوتها، وأنّها من قضايا الحقّ، وهذا ملاحظٌ في كثيرٍ من سُور القرآن (انظر: سورة الفرقان، وسورة الرعد، وغيرها).

وإذا كانت القضيّة المعروضة في البيان من قضايا الباطل، الّتي يُراد الإقناع ببطلانها وفسادها، فمن الحكمة أن يكون هذا البيان مقروناً بالبرهان أو بالحجّة الصحيحة المقبولة، التي تُقْنعُ من تُوجَّه له الرسالة ببطلان القضيّة الّتي هو آخذٌ بها ومفتونٌ بصحتها، وبأنّه لا يَلِيقُ بذي عقل أن يعتقدها ويَسْتَمْسِك بها.

ونجد في القرآن الحكيم الالتزامَ بهذا العنصر من عناصر الدعوة بالحكمة، إذ يَعْرِضُ عقائد المشركين وسائر الكافرين، ويبيّن بالبراهين والحجج العقليّة وغيرها بطلانها وفسادها، وأنه لا يليق بذي عَقْلٍ سليم أن يعتقدها ويستمسك بها.

٤ ـ البيان المقرون بالدّليل على أفضليّة ما جاء في الدين على غيره من الاحتمالات الممكنة:

إذا قُدِّمَتِ اقتراحات مخالفة لما اصطفاه الله واختارَه لعباده من أحكام الدين، أو طريقة تبليغه للناس، أو غير ذلك من تصاريفه جلّ وعَلا، فمن الحكمة في البيان الدَّعَوِيّ شَرْحُ وتَفْسِيرُ وجْهِ الحكمة من الاختيار الرَّبّاني، للإقناع بأن الاختيار الرَّبّاني هو الأحكم من كلّ الاحتمالات الممكنة التي تتصوَّرُها العقول.

وقد علّمنا القرآن هذا العنصر من عناصر الدعوة إلى سبيل الله، ومن أمثلة هذا أنّ المشركين لَمَّا اعترضوا على نزول القرآن منجّماً، وقالوا كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً . . . ﴿٣٢﴾﴾.

أي: هَلاَّ نُزِّل على محمد القرآن جُمْلَةً واحدةً ولم يُنَزَّلْ مُفرَّقاً.

فأتبع الله عزّ وجلّ اعتراضهم على هذا الاختيار الرّبّاني ببيانِ وجوه الحكمة منه، وأنّها تتلخّص بثلاثة وجوه:

الأول: تثبيت فُؤادِ الرسول.

الثاني: تعليمُهُ المسلمين تعليماً مُرَتَّلاً على مراحل لحفظه وحُسْنِ تدبُّره.

الثالث: الردّ على الأسئلة والاعتراضات التي تُوَجَّه بشأنِ الاختيار الرّبانيّ.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿... كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

٥ ـ البَدْءُ بجذور القضايا والانتقال منها إلى الفروع شيئاً فشيئاً:

من الحكمة للإقناع بقضيّةٍ دَعَوِيّةٍ البدْءُ بأصولها وجذورها الفكرية، وعدمُ الاشتغال بالإقناع بالفروع قبْلَ الإقناع بالأصول، أو عِلْمِ مُوَجِّه الرسالةِ بأَنَّ من يُعَالِجُ إقناعَهُ مُقْتنعٌ فِعْلاً ومُسَلِّمٌ بالأصول والْجُذُور.

وبعد الاطمئنان إلى تَسْلِيم المدعُوِّ بالأصل يَنْتَقِلُ به إلى ما هو متفرّع عنه مباشرةً، ثم إلى ما بَعْدَهُ مِن فروع، وهكذا حتَّىٰ الفروعِ البعيدةِ بأسلوبٍ ارتقائي على سُلَّم القضيّة المقدَّمَةِ للإقناع بها.

فلكلِّ قضيَّةٍ فكريّةٍ من فروع المعرفةِ الصحيحةِ جَذْرٌ ترجِعُ إليه، وترْتَبِطُ به ارتباطَ سَاقِ الشجرة وفروعها بجَذْرِها، إذْ هي مشتقَّةٌ منْهُ ومُتَفَرِّعَةٌ عنه.

ومن السّهل الإقناع بالجذور الفكريّة، لأنّها في الغالب أوّليّاتٌ مُسَلَّمٌ بها لبداهتها، أو قَرِيبةٌ جدًّا من الأوّليات الْبَدَهِيَّة الْمُسَلَّم بِها، فالاستدلال عليها بأدلةٍ هي من البدهيّات الْمُسَلَّمِ بها لا يَسْتَدْعِي أكثر من خُطوةٍ فكريّة، أو خُطْوَتين، أو عدّة خطوات.

أمّا الفروع البعيدة فيكثُرُ الجدَلُ حوْلَها، وقَدْ يَشْتَبه الحقُّ فيها بالباطل، ويكونُ فيها مجالٌ واسعٌ للتهرُّب من الإلزام بالحقِّ.

وحين تكون الجذورُ وبعضُ الأصول سليمةً لدى من تُوَجَّه له الرسالة، ويَظْهَرُ الانحرافُ عن الحقّ في فَرْعٍ من الْفُروع، فالحكمة في الإقناع تقتضي الرجوعَ إلى مواطن الْعِلَلِ التي نجمَ عنها هذا الانحراف، ولا تُجْدِي مُعَالجةُ مكانِ الانحراف عن الحقّ والصواب، دون الرجوع إلى مكانِ العلّة الّتي نجم عنها هذا الانحراف، تَنَازُلاً بالتَّتبُّع الفاحص إلى جهة الأصول والجذور، فالْعِلَلُ يجب أن تُعَالَجَ مِن المواطن التي بدأت منها.

وهنا نلاحظُ أنّ الله عزّ وجلّ عَالَجَ المنافقين الشّاكين في صدْقِ الرسول محمّد ﷺ، إذْ قام في ذِهْنِهم أنّ القرآن الّذي يقول لهم بشأنه: إنّه تنزل من عند الله العزيز الحكيم، هو من وضع محمّد، بإحالتهم على القرآن نَفْسه ليتَدَبَّروهُ، فإذا تَدَبَّرُوه بإمعانٍ تَدَبُّراً باستبصارٍ وَوَعْي وتَدْقِيقٍ فلا بُدَّ أَنْ يَتَوَصَّلُوا إلى أنّه لا يمكن أن يكونَ من عند غير الله، فقال الله عزّ وجلّ في سياقِ الحديث عن طائفة من المنافقين في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

فَحَضَّهُمْ بأُسْلُوبِ الحديثِ عن الغائبِ على أن يتَدَبَّرُوا الْقُرْآن ليعلموا أنّه كلامُ الله، وتنزيلٌ من لَدُنْهُ حَقًّا وصِدْقاً، مع التنبيه على أَنَّ الْقُرْآن لو كان من عند غير اللّه لوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كثيراً، أي: اختلافاً بَيْنَه وبين الواقع والحقّ، واختلافاً بين بَعْضِ نُصُوصِه وبعْضِها الآخر.

وفي هذا الحضّ عَوْدٌ بِهِمْ إلى مكان العلّة من القاعدة الإيمانيّة الّتي لم تكتَمِلْ في قُلُوبهم، فَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ بأَنَّ القرآن كلامٌ مُنَزَّلٌ من عِنْدِ الله، حتّىٰ يُؤْمِنُوا بأَنَّ مُبَلّغَه عن الله هو رسولٌ بَعَثَهُ الله إليهم حقًّا وصِدْقاً.

فقدّم لهم دليلاً بُرْهَانيًّا على أنّ القرآن لا يُمْكن أن يكون إلاَّ مُنَزَّلاً من عند الله عزّ وجلّ، فإذا وضَحَتْ لَدَيهم هذه الحقيقةُ سَهُل لديهم أن يُؤمنوا بأنّ محمّداً رسولُ الله حقًّا وصِدْقاً.

لكِنَّ إدْرَاكَهُمْ لهذا الدليل البرهانيّ يتطلّبُ منهم أنْ يَجْتَهدوا في تَدَبُّرِ الْقُرآن، وتفهُّم دلالاتِه، فإنَّهم إذا فَعَلوا ذلك أدْركوا أنّ القرآن مُطَابِقٌ للحقّ والواقع في كُلّ قضاياه، وادْركُوا أنّ نُزولَهُ منجّماً مُفرَّقاً لم يُؤَثِّرْ على وَحْدَتِهِ وتكامُلِ الحقائقِ فيه، وأدْركوا أنّه لو كان من أوضاع البشر، ومن تأليف الناس وصناعتهم، لوجدوا فيه تناقضاتٍ بيْنَه وبيْنَ الحقّ والْوَاقعِ، ولَوَجَدُوا فيه تناقضاتٍ بين بعض نصوصه المتقدّمةِ نزولاً، وبعضِ نُصُوصه المتأخّرة

نزولاً، ولا سيما الّتي بينها أزْمَانٌ تُقَدَّرُ بسنين.

إنّهم لو تدَبَّروه بإنصافٍ وتجرُّدٍ عن سوابق الرَّفض لوصلوا إلى الاقتناع بأنّه كتابٌ من عند الله، وحِينَ يَصِلُونَ إلى هذه الحقيقة، ينتقلون تِلْقَائِيًّا إلى الاقتناع بأنَّ محمّداً رسولُ الله حقًّا وصِدْقاً.

ثُمَّ إذا كانَتْ لديهم إرادة الاعتراف بالحقّ آمنوا، وصَدَقوا في إسلامهم، وتخلَّصُوا من رجْسِ النِّفَاق، أو من رجْسِ الرَّيْبِ والشَّكّ.

بهذا الأسلوب الإقناعيّ الرّبّانيّ يُعَلِّمُنَا اللَّهُ عزّ وجلّ أَنَّ العلاج ينبغي أن يكون بالرجوع إلى مواطن العلة في الأصول أو الجذور أو غيرها، وأنَّه لا يُجْدِي العلاجُ من الفروع مع فساد ما قبلَها تنازلاً إلى الأصول والجذور.

ومن أمثلة الرجوع إلى موطن العلّة إرْجَاعُ من يشرك بالله في عبادته، إلى إقناعه بأنّ الله لا شريك له في ربوبيته، ومن لا شريك له في رُبوبيّته لا يَصِحُّ عقلاً أن يكون له شريكٌ في إلَهيَّته، لأَنَّ الْعِبَادَةَ في الْوُجودِ حقُّ الرَّبّ وَحْدَهُ، فَلاَ يُعْبَدُ غَيْرُهُ إلاَّ بأمْرٍ منه، أو بإذْنٍ منه، لَكِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَأْذَنْ بعبادَةِ غَيْرِهِ لأحَدٍ، فَمَنْ عَبَدَ مع الله أَحَداً فَقَدْ جعَل لله شَرِيكاً في إلَهيّتِهِ الواحدة، وهذا من الكفر بالله.

والإقناع بأنّ وضع القوانين والأحكام التشريعيّة المخالفة لأحكام الله، دون شعورٍ بمعصية الله في ذلك، هو من مشاركة الله عزّ وجلّ في خصائص إلَهيَّته، أي: في كونه إلَهاً معبوداً لا شريك له، لا بُدَّ فيه من الرجوع إلى معنىٰ الربوبيّة وتوحيدها، ثمّ إلى معنَىٰ الإلَهيَّةِ وتوحيدها، وأنّ من خصائصها طاعة الله فيما أنْزَل لعباده من أحكام تشريعيّة، وأنّ وضْعَ القوانين والأحكام التشريعية المخالفةِ لأحكام الله وشرائعه، إمّا أن يكون مشاركةً لله عزّ وجلّ في خصائص إلَهيته وكفراً به سبحانه، ولا سيما إذ اقترن ذلك باعتقاد أنّ الأحكام الوضعيَّة أفضل وأعدل من أحكام الله، وإمّا

أنْ يكون من أكْبرِ كبائر المعاصي، إذا اقترن وضْعُها أو قبولُها بالشعور بالإثم والعصيان، اتّباعاً للهوى، أو استجابة لشهوات النفس ورغباتها الخاصّة، مع الاعتراف بالذّنبِ وارتكاب معصيةٍ هي من أكبر المعاصي بعد الشرك بالله عزّ وجلّ.

٦ ـ مراعاة المستوى الفكري لدىٰ من تُوجّه له الرسالة:

من المعلوم أنّ الناس ليسوا على مستوىً فكريٍّ واحد، بل هم على مستويات متفاضلات، ودرجاتٍ من قدرات الفهم متفاوتات، فمنهم الذكيّ نادِرُ الذكاء، ومنهم دون ذلك تنازلاً حتّى درجة الأغبياء ضعفاءِ العقلِ والتفكير.

ومن المعلوم أنّ ما يَصْلُح من أفكارٍ وأساليبَ بيانيّةٍ للأذكياء ويكونُ مؤثراً فيهم، ومرجوّاً معه استجابتُهُمْ، قد لا يصْلُح لمتوسطي الذكاء، وهو لا يصْلُح حتماً للأغبياء وضعفاء العقول.

وما يصْلُخ للكبار الناضجين المجرِّبين الّذين ضرّستهم الحياة، لا يصْلُح للفتيان الناشئين الّذين ما زالوا يَحْبُونَ في تجارب الحياة.

فعلَىٰ حامل الرسالة أن يكون لمّاحاً يُدْرِكُ مستَوىٰ ذكاء من يخاطِبُه، فيُقَدِّمُ من قضايا رسالته ما يُلائمه، وبحسب مستواه من الذّكاء وقَدْراتِ الفهم ومقدارِ التَّجْربة.

وأمّا الجماهير الّتي تَجْمَعُ مُسْتَوياتٍ مختلفاتٍ متفاوتات، فينبغي أن يكون خطابُه أو حديثُه لهم متنوعاً، في مستويات مختلفات متفاوتات، حتَّىٰ يأخذَ كلُّ قِسْمٍ منهم من كلامِه ما يُفيدُه ويتأثّر به ويُقْنِعُه.

٧ ـ مراعاةُ المستَوَى العلْمي لدىٰ من تُوجَّه له الرسالة:

القضايا الفكريّة والأساليب البيانيّة الّتي يُخَاطَبُ بها العلماء، تختلف عن القضايا الفكريّة والأساليب البيانيّة التي يُخَاطبُ بها العامّة، فلكل صنف

ما يُلائمه ويؤثّر فيه ويُقْنِعه من قضايا فكريّة وأساليبَ بيانيّة.

فعلَىٰ حامل رسالة الدعوة إلى الله أو رسالة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أن يُحْسِن مخاطبةَ كلِّ ذِي مستوًى علمي بما يُلائمه، وبما يُلائم اختصاصه إن أمكنه، حتّىٰ يَكُونَ لكلامه تأثيرٌ نافع مفيدٌ في فكره ونَفْسِه.

٨ ـ مراعاةُ الجوانب العاطفيّة التي تقتضيها الصِّلاتُ والعلاقات الاجتماعيّة:

علاقات حامل الرسالة بمَنْ يُوَجِّه لهم رسالتَه تختلف اختلافاً كثيراً، وينبغي له أن يستفيد من المؤثّرات العاطفيّة بينه وبين من يُوجِّه له رسالته.

● ففي دعوته لأبيه يستفيد من أسلوب دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه، إذْ كانَ يخاطبُه بتذَلُّل الابن لأبيه: يا أبَتِ..

ومثلُ الأبِ الجدُّ، والأخُ الكبير، والعمُّ والخالُ ونحوهم.

● وفي دَعْوتِه لابْنِه يَسْتَفِيدُ من نُصْح لقمانَ لابنه، إذْ كان يُخَاطبه بشفقة الأبِ ورحمته وحنانه: يَا بُنَيَّ.

ومثلُ الابن الأخُ الأصغر، وابن الأخ، وابن الأخت، ونحوهم.

● وفي دعوته لصاحبه ورفيقِه يَسْتَفِيدُ من دعوة يوسف عليه السلام لصاحبيه في السّجن، في قوله لهما: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ يوسف.

ويَسْتَفِيدُ من قصَّةِ الرَّجُلَين الصاحبين الّذين ضرب الله بهما مثلاً في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

أمّا أحدهما فقد افتخر على صَاحِبه بأنّه أكثر منه مَالاً وأعَزُّ نَفَراً وأَعْلَنَ كُفْره بالساعَة، وكانَ له جنّتَانِ وهوكثير الإعجاب والفتنة بهما والشعور بدوامهما الطويل.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ

رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ
لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ
طَلَبٗا ۝٤١﴾.

- وفي دعوةِ الأهل والعشيرَةِ يستفيد من سياسة الرسول ﷺ مع أهْلِه وعشيرته الأقربين.

- وفي دعوته قومَهُ يستفيد من دعوات الرسل لأقوامهم، إذْ كانوا يقولونَ لَهُم: يا قومنا.

٩ ـ مراعاة الحالة النفسيّة لدىٰ من تُوجَّه له الرسالة:

كُلُّ إنسان له أحوالٌ يختلفُ بعضُها عَنْ بعضٍ، ولكلِّ حالةٍ نَفْسِيَّةٍ من أحوال الإنسان بيانٌ حكيم يلائمها.

- فحالة الإنسان النفسيّة في المرض غيْرُ حالته وهو صحيح سليم.
- وحالته النَّفْسيّة وهو غنيٌّ غير حالته النفسيّة وهو فقير تلحّ عليه الحاجة.
- وحالته النفسيّة وهو في المأْتَم، غير حالته النفسيّة وهو في فَرَح.
- وحالتُه النَّفْسيَّة وهو ذو رياسة وعزّ، غَيْرُ حالته وهو في ضعف وذلَّةٍ ومهانة.
- وحالتُه وهْوَ غَضْبَان، غَيْر حالَتِه وهو راضٍ منْشَرِحُ الصدر.
- وحالَتُه وهو جَادٌّ، غَيْرُ حالَتِهِ وهو هَازِلٌ يضْحَكُ ويَلْعَبُ.

إلى غَيْرِ ذلك من أحوالِ نفسيّة، ولكُلِّ حالةٍ نفسيَّةٍ لدى الإنسان، مع صفاته الأخرى، أسلوبٌ فكريٌّ وبيانيّ يلائمه، وحامِلُ الرسالةِ الحكيمُ يختارُ مِنْ الأَسَاليب الفكريّة والبيانيّة ما يُلائم حالَ من يُوَجِّه له رسالته، وبذلك تكون بلاغته وحكمته.

١٠ ـ التدرُّج في الدعوةِ من الأصول إلى الفروع:

فالْبَدْءُ بفروع القضايا، وبفروع الأحكام الشرعية المتعلّقة بالسلوك، في دعوة غير المسلمين قبل تأسيس الأصولِ منافٍ لحكمة التدرّج الّتي كانت من سُنَّةِ الله في تنزيل نجوم القرآن المجيد، ومنافيةٌ لمَا أوصىٰ الرسول ﷺ به معاذ بن جبل حين بعثه داعياً إلى اليمن.

١١ ـ اختيار الموضوعات التي تلائم الأوضاع الاجتماعيّة والأحداثَ المحليّة والعالميّة، لأنّ النُّفُوسَ تكون مستعدّةً لمتابعتها، والمشاركةِ الفكرية فيها، ثم الاستفادةُ منها في التّوجيه للمقصود الْمُهِمّ الذي يُرِيد الإقْنَاعَ بِهِ من قضايا الإيمان، أَوْ أُسُس الإسلام، أو فروعه الكبرىٰ، أو غير ذلك.

* * *

الفقـرة الثـالثة

شرحُ مَسْلَكِ الموعظة الحسنة وبَيَانٌ لعناصرها

سبق أن عرفنا أنّ الموعظةَ بوجْهٍ عامّ هي النُّصْح بالفعل أو بالترك لِعَمَلٍ نفسيّ أو عملٍ جسديّ، إذا كان مقروناً بما يُثِير الرغبة أو الرهبة في النفس، للانتفاع بالنُّصْح واتّباع ما هَدَىٰ إلَيْهِ فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

فالموعظةُ تَدورُ في فَلَكِ التَّرغيب حَوْل مِحْوَر الطَّمَع في النفس، وتَدُور في فَلَكِ التَّرهيبِ حَوْلَ مِحْورِ الخوف في النفس.

أمّا الموعظة الحسنةُ فَحُسْنُها يكونُ في مضمونها القائم على الحقّ والخير والنُّصح المفيد، وبيانِ العواقبِ بصِدْقٍ، وفي أسلوب عَرْضِها الّذي لا تنفر منه النفوس، والْحُسْنُ في أُسْلوب العرض يتنافى مع الفظَاظة والْغِلاظةِ والْمُخاشَنَةِ في القول، ويتنافىٰ مع السِّباب والشتائم والأقوال الجارحة الْمُهِينة، إلى كثير ممّا سبقَ بيانُهُ في مُنَافِيات الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله، فكلُّ ما تَنْفِرُ منْهُ الطباع، ولا تتَحمَّل اسْتِمَاعه، ولا تَتَقَبَّلُهُ من المواعظ خارجٌ عن دائرة الموعظة الحسنة.

ومن الْحُسْنِ في أُسْلُوبِ الْعَرْض الاهتمامُ بالجماليّاتِ الأدبيّة، الّتي نَبَّهَتْ عليها علوم البلاغة، وأشَادَتْ بِها كُتُبُ الأدب.

أمّا الترغيب من ركني الموعظة الحسنة فيكون ببيان العاقبة الحميدة الّتي تَرْغَبُ فيها النفوس، لمن استجاب لما دَعَتْ إليه الموعظة الحسنة.

والعاقبةُ الحميدة لاتّباع سَبِيل الله هي الظفر بسعادة النفس في الحياة الدُّنيا، ونجاتِها من كثير من الشرور والآلام المشقية المعذّبة لها، والظفر بسعادة الآخرة في الخلود بجنّاتِ النعيم، على ما وَصَفَ الله عزّ وجلّ في كتابه، ممّا لا عينٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ علَىٰ قَلْبِ بشر.

وأمّا الترهيبُ من رُكْنَي الموعظة الحسنة فيكون ببيان العاقبة الوخيمة الّتي تكرهها النفوس وتنفر منها، لمن لم يستجبْ لما دعت إليه الموعظة الحسنة.

والعاقبةُ الوخيمةُ لعدم اتّباع سبيل الله، أو للانحراف عنه، هي تَلَقِّي العقوبات الرَّبَّانية المعجّلة أو المؤجلة الأليمة بحسب البيانات الّتي جاء بها الوعيدُ في كتابِ الله وسنة رسوله ﷺ، وأشدُّها الخلودُ في نار جهنّم بعذابٍ أليم على الكُفْر بالشرك فما هو أشدُّ منه كُفراً، وعلى الجرائم التي يَرْتَكِبُها الطغاة الْبُغاة المجرمون.

بيان تحليليّ لمحاور النفس:

من المناسب أنْ أُقَدِّم بياناً تحليليًا دلّت عليه وسائل التربية القرآنية للنَّفْس الإنسانيّة.

الإنسانُ بمقتضى الفطرة الّتي فطَرَهُ الله عليها لَهُ مُوَجِّهَاتٌ داخليَّةٌ ذاتيَةٌ ثلاثَةٌ، هي العامِلَةُ المؤثرة في توجيه إرادته لاختيار سُلُوكٍ مُعَيَّنٍ مَعَ حركةِ اختياراته في مسيرته في حياته، وهي ما يلي:

الموجّه الأوّل: فِكْرِ الإنسان الواعي، القادرُ على إدْراك حقائقِ الأمور الّتي تُهِمُّه في الحياة، وعلى استبصارها بالتأمُّل والنظرِ والتفكُّر.

وهذا الفكر هو الأداة القادرة على التعلُّم واكتساب المعرفة، وهو الأداة

العظيمة الّتي امتاز بها نوع الإنسان على الأنواع الحيوانيّة الأخرى.

والمسلك الدعويّ الأوّل، وهو مسلَكُ الحكمة، هو المسؤول عن توصيـل الحقيقة الّتـي يُرادُ الإقنـاعُ بها إلـى هذا الموجّه، وهو الفكـر الواعي.

فالدعوة بالحكمة من شأنها أن تدور في فَلَكٍ حول محور الفكر الواعي، لاختيار الوسيلة التي تُؤثّر فيه تأثيراً إيجابيًّا نافعاً، وتُقْنِعُه، ليقومَ بعد ذلك بوظيفته الداخليّة في تَوْجيهِ الإرادة لاختيار السُّلوك الَّذِي يحقّق ما اقتَنَعَ بِحُسْنِهِ وخيره، وفائدتِه العاجلة والآجلة للإنسان.

الموجه الثاني: الطَّمَعُ بما تَرْغَبُ فيه النَّفْس، من مُسْعِداتٍ وسَارّاتٍ ومُفْرِحاتٍ ولذّاتٍ من منافعَ ومكاسبَ وأرباحٍ عاجلاتٍ أوْ آجلات.

وسياسةُ الترغيب الذي هو أحدُ رُكْني الموعظة الحسنة، تَدُور في مِحْوَرٍ حَوْلَ هَـٰذا الموجّه الداخليّ الذّاتي، وهو (الطْمع). وهي المسؤولة عن اختيار الوسيلة الّتي تُؤَثّر فيه تأثيراً إيجابيّاً نافعاً، لإثَارتِه وتَهْيِيجِهِ حتّىٰ يَقُومَ بتوجيه الإرادة لاختيار السلوك المناسب الذي يُوصِل إلى الجهة التي يكون فيها تحقيقُ ما تعلّقَتْ به النفس، راغبةً فِي نَيْلِه أو الظفر به.

الموجّه الثالث: الخوفُ ممّا تكرهه النَّفْسُ، من مشقياتٍ وَمُكَدِّراتٍ ومَحْزِنَاتٍ وآلامٍ وأضرارٍ وخساراتٍ عاجلاتٍ أو آجلات.

وسياسةُ التَّرْهِيب الذي هو أَحَدُ رُكْنَي الموعظة الحسنة، تَدُور في مِحْورٍ حول هذا الموجّه الداخليّ الذاتي، وهو (الخوف). وهي المسؤولة عن اختيار الوسيلة التي تؤثّر فيه تأثيراً إيجابيّاً نافعاً، لإثارته وتهييجه حتى يقوم بتوجيهِ الإرادةِ لاختيار السلوك الذي يَضْبِطُ النفسَ، ويكُفُّها وَيُبْعِدُها عن التوجُّه أو الاقتراب من الموقع الذي يُخْشَىٰ أنْ يكون فيه تحقيقُ ما نَفَرَتْ منه

النفس مما تكْرَهُ، راغبةً في السَّلاَمَةِ من شُرُورِه وآلامه.

وسائل الترغيب والترهيب البيانية:

كلٌّ من الترغيب والترهيب في الدعوة إلى سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكون بالوسائل البيانيّة التي جاءت في القرآن المجيد، ثمّ في السُّنَّةِ الثَّابتة الصحيحة، على أَنْ تُقَدَّم هذه النصوص البيانيّة المشتملة على الترغيب والترهيبِ مقرونةً بشرحٍ يُنَاسِبُ حالَ من تُوَجَّه لهم الرسالة، وهي تتلخّص بالوسائل البيانيّة التالية:

الوسيلةُ الأولى: الوعدُ بمُعَجَّلِ الثواب الجزيل ومؤجّله إلى يوم الدين، والوَعِيدُ المؤكَّد بمعجَّل العقاب الأليم ومُؤَجَّله إلى يوم الدين، ونصوصُ الوَعْدِ والوعيد في القرآن والسنةِ كثيرةٌ جدًّا، وعلى حامل الرسالة أن يَتْلوَها. ويُحْسِنَ تَدَبُّرَها وشرحَها شرحاً مؤثراً.

الوسيلة الثانية: عرض الأَمْثِلة والشواهد التاريخيّة الَّتي جرت فيها سنةُ الله في الثواب والعقاب، من قصص الأمم السّابقة وما جرى لهم أو عليهم، كَقِصَصِ الرُّسُل السابقين وأقوامهم، وما جرى للّذين آمَنُوا بهم من نُصْرَةِ الله لهم، وما جرى على الذين كفروا وكذّبوا رُسُلَ رَبّهم وأجرموا وأَفْسَدُوا في الأرض. من عَذَابٍ مُهْلك لهم، ومن تدميرٍ لمساكنهم وبُلْدانِهم وممتلكاتهم.

وكتابُ الله عزّوجلّ وسنّةُ الرّسول ﷺ، فيهما الجمّ الوفيرُ من قصص الأمم السالفة، وعلى حَامِلِ الرسالة أن يَسْتَفِيدَ منها. ويُحْسِنَ عَرْضَها وتدبُّرَ النصوصِ المشتملة عليها، وأنْ يَسْتَخْرِجَ ما فيها من دقائق وعَظَاتٍ وعِبَرٍ.

الوسيلة الثالثة: عرضُ مشاهِد القيامَةِ، وما في يوم الدين من نعيم للمؤمنين الذين علموا الصالحات في جنات النعيم، وما فيه من عذاب للكافرين في جهنّم، لمرتكبِي الجرائم والظلم والبغي والعدوان والفسقِ والفجور.

وكتابُ الله عزّ وجلّ وسُنّةُ الرّسول ﷺ، فيهما الجمّ الوفير من هٰذِهِ المشاهد، وعلى حامل الرسالة أَنْ يستفيد منها، وأن يُحْسن عَرْضَها، وتَدَبُّر النُّصُوصِ المشتملة عليها، وأن يَسْتَخْرج ما فيها من دقائق ومَفْهُوماتٍ تَأْسِرُ النُّفوسَ وتَمْتَلِكُ مَشاعرها.

فطرةُ النفس الإنسانيّة تُجاه المطامع والمخاوف:

من الملاحظ أن الله عزّ وجلّ فطر النفوس الإنسانيّة على الحرص الشديد على السَّعْي لما تُصيبُ منْه لذَّةً أو منفعة أو رِبْحاً أو شيئاً ممَّا تُحِبُّه وتَهْواه كالجاهِ والمُلْكِ العظيم والنَّعِيم الباذخ، إلى غير ذلك مما يُرْضي دوافع النفس وأهواءها وشهواتها، وعلى الحرص الشديد على الابتعاد عمّا ينالُها منه ألمٌ أو مضرّة أوْ خسارةٌ أو شيءٌ ممّا تكرهه وتَنْفِرُ منه، كالعذابِ والذُّلِّ والمهانةِ والخزْيِ إلى غير ذلك ممّا يُنَاقِضُ أهواءَها وشهواتها. والمطلوبُ إيصَالُ المدعوّ إلى الْوُثُوقِ بِصِدْقِ ما يُقَدَّم له من وَعْدٍ مؤجّل بثوابٍ عظيم جدّاً على سَعْيٍ يتحمَّلُ به مَشَقَّةً حَالِيَّةً أو مخالفةَ شَهْوةٍ أو هوىً، من رغائبها العاجلةِ ذاتِ القيمة القليلة بالنسبة إلى الموعود به، والوثوق بصِدْقِ ما يُنْذَرُ به من وعيدٍ على المعصيةِ ومخالَفَةِ الأوامر والنواهي.

فإذا وَثِق بصِدْق الْوَعْدِ والوعيد، ولم يكن فاقدَ الاعتدال النفسيّ بسببِ ثَوْرَةٍ انفعاليّةٍ غَشَّتْ على بصيرته وأخلَّتْ بتوازُنه، فإنّ من طبيعة دوافعه الفطريّة أن يَتَحرَّك فيه مِحْورُ الطَّمَع، مُوَجِّهاً إرادتَهُ مَعَ دَفعٍ قوِيٍّ للسَّعْي الحثيثِ في السَّبيل الَّذي يُحقّق له المطموعَ به، من الخير العظيم الذي تضمَّنَه الوعْدُ، وأنْ يَتَحرَّك فيه مِحْوَرُ الخوف، مُوَجِّهاً إرادتَهُ بدَفْعٍ قويٍّ للابتعاد بشِدَّةٍ عن السُّبُلِ الّتي تجلُبُ له ما يَكْرَهُ من عذابٍ أليم أو خسارةٍ أو مَضَرَّةٍ مَخُوفٍ منها، مِنْ كُلِّ شَرٍّ تضَمَّنَهُ الوعيدُ على المخالَفَةِ والعصيانِ وسُلوكِ سُبُل الضلالة.

الفقـرة الرابعـة

شرح مسلك الجدال بالتي هي أَحْسَنُ

- ١ -

بيان عام:

قد تدعو الحاجة إلى الإقناع بالحقّ الذي يُبَلِّغه الداعي إلى سبيل ربّه، أن يتخذ وسيلة المجادلة.

وللمجادلة المأذون بها أو المأمور بها في القرآن شروط وقواعد وأصولٌ ينبغي اتّباعُها، صيانةً لها من أن تتحوَّل إلى مُمَاراةٍ بَعِيدَةٍ عن نُشْدَانِ الحقيقة، أو إلى مشاحنات أنانيّة، ومُشاتماتٍ ومُغَالطاتٍ، ونحو ذلك ممّا يُفْسِدُ الْقُلوبَ ويُهَيِّج النُّفُوسَ، ويُورثُ التَّعصُّبَ، ولا يُوصِلُ إلى الحقّ.

الجدال: هو حوارٌ كلاميٌّ يَتَفَهَّمُ فيه كلُّ طرفٍ من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطّرف الآخر، ويَعْرِضُ فيه كلُّ طرَفٍ منْهُما أدلّته الّتي رجَّحَتْ لَدَيْهِ اسْتِمْسَاكَهُ بِوجْهَةِ نظره، ثُمَّ يأخُذُ بتبَصُّر الحقيقة من خلال الانتقادات والاعتراضات الّتي يُوَجِّهُها الطرفُ الآخَرُ على أَدِلّته، أو من خلال الأدِلَّة الّتي يُنير لَهُ بها بعضَ النِّقاط الّتي كانت غامضة عليه.

وهدف الجدال هو في الأَصْل تَعاوُنُ الفريقين المتحاورين على معرفةِ الحقيقة والتوصُّل إليها، بتَبْصِيرِ كُلٍّ منهما صاحِبَهُ بالأماكن المظلمة عليه، والّتي خَفِيت عنْه حينما أخذ ينْظُر باحِثاً عن الحقيقة، وذلك حينما لا يكون أَحَدُهُما واقفاً على الحقيقة البيِّنةِ وقوفاً قطعيًّا غَيْرَ قابلٍ للنَّقْضِ، أمّا في هذه الحالة فإنْ هدفَ الجدال إنّما هو تبصير الواقف على الحقيقة الطّرَفَ الآخر

المجادل له بها، والأَخْذُ بيده في طُرق الاستدلال الصحيح، لإبلاغه برفْقٍ حتى يرىٰ وجْه الحقّ المشرق، وذلك باستخدام الحوار البريءِ من التعصُّب، الخالي من الْعُنْفِ والانفعال، والمتمشّي على مقتضىٰ الاصُول العامّة للحوار، الذي يهدف فيه كلٌّ من الفريقين المتحاورَيْن أنْ يَصِل إلى الحقيقة، كأنّه جاهل بها، خالي الذّهْنِ والنفسِ من أيّ استمساك سَابقٍ بوجهة نَظَرٍ معيَّنَة، مِنْ وجْهاتِ النّظر المختلفة، وذلك للابتعاد عن كلِّ أجْوَاء التعصُّب والأنانيّة، الّتي تَصْرفُ النفوسَ والأفكار عن تَفهُّمِ الحقّ، والتَّسليم به، ولو انكَشَفَ لها واضحاً جَلِيّاً.

- ٢ -

الجدال بالتي هي أحسن هو من وسائل الدعوة إلى سبيل الله

● ولمّا كان الجدال في الواقع الإنسانيّ من الوسائل الّتي تُسْتَخْدمُ لنَشْر الأفكار والإقناع بها، وكان الإنسانُ أكْثَر شيءٍ جدلاً، وكان الجدالُ سِلاَحَهُ للدّفاع عن أفْكاره، فقد أمرَ الله عزّ وجلّ به، للدّفاع عن دينه، ولنَشْره في النّاس، والإقناع به، ولكنْ جَعَلَهُ مُقَيَّداً بأن يكون بالَّتي هي أحْسَن، كما أمَرَ بالقتال لصَدِّ عُدْوانِ الكافِرين، وتأمِينِ إبلاغِ حقائقِ أُصُولِ دينه للنَّاس أجْمَعين، فقال الله عزّ وجلّ لنبيّه فلكلّ داع إلى سبيل ربّه من أُمّتِه في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿... وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ... ﴿١٢٥﴾﴾.

● وخاطب اللّهُ عزَّ وجلّ المؤمنينَ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) بقوله:

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ... ﴿٤٦﴾﴾.

أي: فإن سَلَكَ مجادلوكُمْ مسالك غير مهذّبة القول، فتقيّدوا أَنْتُم بكُلِّ قَولٍ مُهَذَّبٍ، واسْلكوا كلَّ طريقةٍ هي أحْسَنُ وأفضل.

عبارة ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تَشْمَلُ بعمومها الأساليب الفكريّة والقوليّة، وبهذا يتبيَّنُ لنا أنّ المطلوبَ من الداعي المسلم أن يكونَ في مجادلته على حالةٍ أرقىٰ وأحْسَنَ باستمرار من الحالة الّتي يكونُ عليها من يجادله، أدباً وتهذيباً، وقولاً وفكراً.

● لكن استثنى الله حالة الذين ظلموا من أهل الكتاب في مجادلتهم، كأن شَتَموا بصراحَةٍ الذين يُجَادِلُونهم من المؤمنين ظُلْماً وعدواناً، فأجازَ للمؤمنين بأنْ يُقَابلوهم بالْعَدْل، ويُفْهَمُ هذا من النُّصوص الّتي تأذن بمقابلة السيّئة بمثلها، إلاّ أنّ الله عزّ وجلَّ يُرَغّبُ في الْعَفْوِ عن السُّوءِ لأنّه أجْدَىٰ لِتَحْقِيقِ غايةِ الدّاعي وخِدْمَةِ مبادىء الإسلام، ومنها قولُ الله عزّ وجلْ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

● وقد آتى اللَّهُ عزّ وجلّ إبراهيمَ عليه السلامُ قُوَّةَ حُجَّةٍ، وقُدْرَةً على الجدال بالّتي هي أحْسَنُ لِلإلزام بالحق، وهذا ما تكْشِفُه لنا جَدَليَّاتُه الّتي قَصَّ اللَّهُ علينا في كتابه طرفاً منها، وأثنى على قُوَّةِ حُجَّتِه بقوله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

● وآتىٰ الله عزّ وجلّ نوحاً عليه السلام نَفَساً طويلاً في جِدال الكافرين، لإقناعهم بالحقّ الذي جاء به من عند الله، حتّىٰ ضاقوا ذرعاً بقوّة

حجّته وطُولِ نفسه في الجدال، فقالوا له: يا نُوحُ قَدْ جادلْتَنا فأكْثَرْتَ جِدَالنَا، وهذا ما قصّه الله علينا بقوله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

● فالجدال للوقوف على الحقّ أَوْ للإقناع به عملٌ محمود، وقد يكون واجباً لنُصْرَة دين الله وإزهاقِ الباطل كالقتالِ في سبيل الله عزّ وجلّ.

● أمّا الجدالُ انْتِصَاراً للنفس، ورغبةً في الاستعلاء والْغَلَبة، فهو عَمَلٌ مذموم، وقد يكونُ حراماً إذا كان فيه طمْسٌ للحقّ، أو تضليلٌ للطَّرَفِ الآخر المجادل.

- ٣ -
قواعد عامّة للجدال بالّتي هي أحْسَن

يَحْسُنُ بنا بَعْد أن عرفنا معنى الجدال بالّتي هي أحْسَن، وعرفْنَا هدَفَه في المنهج الإسلاميّ، أن ننظر في قواعده العامة الّتي هدى إليها الإسلام في توجيهاته.

وقد أمْكَنَ بالتأملِ في النصوص الإسلاميّة، والتطبيقاتِ الجدليّة القرآنية، والأصول المنطقيّة الْبَدَهيّة، استِنْباطُ القواعد التالية:

القاعـدة الأولى:

على كلٍّ من فريقي المحاورة الجدليّة حول موضوعٍ مُعيّن أن يتخلّىٰ عن التَّعَصُّبِ لِوجهة نظرِه السابقة، وأن يُعْلِن استعداده العامّ للبحث عن الحقّ، والأخْذِ به عند ظهوره، سواءٌ أكان وجهةَ نَظَره السّابقة، أمْ وجْهَةَ نظرِ مَنْ يُحَاوره في الجدال، أمْ وِجْهَةَ نظَرٍ أُخرى غيرِهما.

وقد أرشدنا الله عزّ وجل في كتابه إلى الأخذ بهذِه القاعدة، إذْ علّم الرسول ﷺ، وكلَّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمته، في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) أن يقولوا لمجادليهم من المشركين وسائر المخالفين:

﴿... وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾.

وفي هذا غاية التخلّي عن التَّعصُّبِ لأَمْرٍ سابق، وكَمالُ إعْلان الرغبة في نُشْدانِ الحقّ أنّى كان.

ولمّا كان موضوعُ التعليم الجدليّ الّذي وَرَدَتْ هذه العبارة في صَدَدِه، تَوْحِيدَ الله في ربوبيَّتِه وإلَهيّته، أو الإشراك به، وهما أمران على طرفي نقيض، لا لقاء بينهما بحالٍ من الأحوال، وهما يَدُوران حَوْلَ أصْلٍ عظيم من أصول العقيدة الإسلامية، كان من الأمور الْبَدَهِيَّة أنّ الْهُدَىٰ في أحدهما إذْ هو الحقّ، وأنّ الضّلالَ المبين في الآخر إذ هو الباطل، ومن أجل هذا كانت عبارةُ إعلانِ التخلّي عن التعصُّب لأمرٍ سابقٍ تتضمّن الاعتراف بهذه الحقيقة.

القاعـدة الثانـية:

على كلٍّ من فريقي المحاورة الجدليّة أن يتقيّد بالقول المهذّب، البعيد عن كلّ طَعْنٍ أو تجريحٍ، أو هُزْءٍ أو سُخْرِيَةٍ، أو احتقارٍ لوجْهة النّظر الّتي يدَّعيها أو يدافعُ عنْها منْ يجادلُه.

وقد أَرْشَدنا الله عزَّ وجَلّ إلى التقيُّد بهذه القاعدة في عدّة نصوص من القرآنِ المجيد، منها ما يلي:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿... وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ۝١٢٥﴾.

٢ ـ وقولُ الله عزَّ وجلَّ خطاباً للمؤمنين في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ . . . ﴿٤٦﴾ ﴾.

وظاهرٌ أنَّ التوجيه إلى الطريقة الّتي هي أحسن يَشْمَلُ كُلَّ ما يتعلّق بالجدال ويَرْتَبِطُ به ويُرافقه ويُصَاحبه، من قول وفكر وعمل.

فالمؤمِنُ المسلم مُطَالبٌ بأن يلْتَزِمَ في مجادَلَتِه، لإثبات الحقّ الّذي يُؤمن به، وإقناع الناس به، الطريقَةَ الّتي هي أحْسَنُ من كلِّ طريقَةٍ يتّخِذُها الناسُ في مجادلاتهم.

لذلك كان من أخلاق المسلم وآدابه مَعَ خُصُوم دينه ومخالفي عقيدَته، فضلاً عن إخوانه المؤمنين، أنّه لا يَسْلُك مسالِكَ السّبّ والشّتْم، والطّعْنِ واللّعن، والهَمْزِ واللّمْز، والهُزْءِ والسُّخْرِيَة، والفُحْشِ والبذاءة.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ خطاباً للذين آمنوا في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ . . . ﴿١٠٨﴾ ﴾.

أي: ولا تسبُّوا آلهةَ المشركين فَيَسُبُّوا الله عدواً بغير عِلْم مقابلةً لكم على ما فعلتم، والنهي هنا نَهْيُ تحريم، وتؤخَذُ من هذا النهي في هذه القضية قاعدةُ سَدِّ الذَّرائع، فَمَا هو سبَبٌ لارتكابِ محرَّم هو حَرامٌ أيضاً، وإنْ كانَ في ذاته مباحاً، فَسَبُّ أصنام المشركين بين المؤمنين دُونَ أن يعلَمَ بذلك المشركون غيرُ حرام، لكنّه حرامٌ إذا كان أَحَدُ المشركين حاضراً، لأنّه قد يَدْفَعُ المشركَ إلى أَنْ يُسبَّ الله عزّ وجلّ.

٤ ـ وقول الله عزّوجلّ في سورة (الهمزة / ١٠٤ مصحف / ٣٢ نزول):

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾.

الهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ: الطّعانُ الّذي يعيبُ الناسَ ويشتُمُهم بأقوال أو أعمال إيمائيّة إشاريّة فيها توارٍ واستخفاء، وهي تُدْرَكُ بالذكاء اللّماح.

والويل: هو العذابُ الشديد، ووادٍ في جهنّم.

٥ ـ وروى الترمذيّ والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمان» عن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَيْسَ الْمُؤمِنُ بالطَّعَّانِ، وباللَّعَانِ، وَلاَ الْفَاحِشِ وَلاَ الْبَذِيءِ».

القاعـدة الثالثـة:

الالتزام في الحوار الجدلي بالطرُق المنطقيّة السليمة، وعَدَمُ المراوغةِ والأخذِ بالمغالطاتِ واعتمادِ الأكاذيب والروايات الساقطات، والخرافات والأساطير الّتي لم تثبُتْ صحتُها.

هذه القاعدة الْمُهمّةُ جدًّا يدُلُّ عليها عمومُ الأمر الربّاني بأنْ يكونَ الجدال جدالاً بالّتي هي أحسن.

ومن التزام الطُّرُق المنطقيّة السليمة ما يلي:

أوّلاً: تقديمُ الأدلّة المثبتة أو المرجّحَةِ للقضايا المدَّعَاة.

ثانياً: إثْباتُ صِحّةِ النَّقْلِ للأمور الْمَنْقُولَةِ الْمَرْوِيّة.

ومن هذا أخذ علماء فَنِّ «آداب البحث والمناظرة» قاعدتَهم المشهورة الّتي يقولون فيها: «إنْ كُنْتَ نَاقِلاً فَالصِّحَّة، أو مُدَّعِياً فالدَّلِيل».

وقد علّمَتْنَا الجدليَّاتُ القرآنيَّةٌ اعتمادَ الطُّرُقِ والأصول المنطقيّة لدى مجادلاتنا في الدعوة إلى سبيل الله، ونُصْرَةِ الحقّ الذي جاءَنا عن الله عزّ وجلّ، وفي النصوص التالياتِ دلالاتٌ جليّاتٌ على هذا التَّعْلِيم:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

فبدأ الطريق المنطقيُّ في هَـٰذا التعليم الْجَدَليّ، بطرح السؤال على المشركين حولَ أهَمّ القضايا الّتي تتعلّق بتوحيد الربوبية لله عزّ وجلّ، وهي بَدْءُ الْخَلْقِ وإعادَتُه، ورِزْقُ الناس من السَّماءِ والأرض.

وهذا السؤال من شأنه أن يَسْتَخرج اعترافَ المسؤولين ولو بعد مراحلَ من الحوار الجدليّ بأنّ الله عزّ وجلّ هو الذي يَبْدَؤ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُه، وهو الذي يَرْزقُ الناسَ من السماء والأرض.

فإذا ثبتَتْ هذه الحقيقةُ واعترف المسؤولون بتوحيد الربوبيّة لله عزّ وجلّ، كَانَ منْ لازمها الفكريّ حَتْماً وجوبُ توحيد الإلَهيَّة لله وحْدَه، فلا يجوزُ أَنْ يُعْبَدَ مع اللَّهِ أحَدٌ من دونه، لأنَّ العبادة حقُّ الرّبّ الخالق الرازقِ وحده.

فيبني المجادِلُ على اعتراف المسؤولين بتوحيد الربوبيّة لله عزّ وجلّ، نَقْلَهُمْ بالدليل العقليّ إلَى القضيّة الثانية، وهي توحيدُ الإلَهيَّة لله تعالى، ويُقْنِعُهُم بأنّ العبادةَ لا يَصِحُّ عقلاً أَنْ تكُونَ إلاّ لِمَنْ هو ربٌّ خالقٌ رازقٌ يُحْيِـي ويميتُ، وهُنَا يقول لهم: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ بأسلوب الاستفهام التعجبـيّ من ترك هذه الحقيقة الجليّة الواضحة البرهان.

فإذا قالوا: نَعْبُدُ آلِهَتَنا بأمْرٍ من الله أو بإذنٍ منه، فَعِبَادتُنا لَهَا تُقَرِّبُنَا إلى اللَّهِ زُلْفَىٰ لأنّها عُنصرٌ من عَنَاصِرِ ما يُقرّبُنَا إلَيْهِ مِنْ عَمَلٍ صالح.

كان على المجادل المؤمن الْمُوَحِّد أن يُطالبهم بالبرهان على ما ادّعَوْا، وَفْقَ الأصول المنطقيّة في الجدال بالّتي هي أحْسَنُ، وهُنَا يأتي مَوْقعُ فِقْرَة: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الّتي جاءت في التّعليم المختزل.

إنْ كُنْتُم صادقين: أي: صادقين في ادِّعاء أنّ اللَّهَ أمَرَكُمْ أَوْ أَذِنَ لَكُمْ بعبادةِ آلِهَتِكُمْ من دونه.

ويَشْمَلُ الْبُرْهَانُ في مِثْلِ هذا الادّعاء البُرْهَانَ الْعَقْليّ، والبرهان النَّقْلِيّ الثابتَ عن رسولِ من رُسُلِ الله.

لكنّهم لا يملكون أيّ دليلٍ يُبِيحُ لهم أن يتّخذوا من دون الله إلّهاً يعبدونه، فتَلْزَمُهُم الحجَّةُ وعليهم وفق أصول الجدال أن يعترفوا بالحق.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فجاء في هذا النّصّ التعليمي مطالبةُ المشركين بالبرهان على اتّخاذهم آلهةً من دون الله، وهو يشمل البرهان العقليّ والنقليّ، لكنّ البرهان العقليّ قد سبق بيانُه في آيةِ النمل، ولم يستطيعوا أن يأتُوا ببرهان نقليّ خلال مدّةٍ طويلةٍ مُنْذُ نزولِ سورة (النمل) حتّى نزول سورة (الأنبياء).

ولمّا لَمْ يستطيعوا أن يأتُوا بالْبُرْهانِ النقليِّ كانَ من المنَاسِب أنْ يقول الرسول لهم: إنَّ البرهان النَّقْلِي الذي جَاءني من عند الله في القرآن يُثْبِتُ أَنَّ كُلَّ رُسُلِ اللَّهِ السَّابقين قد قالوا لأقوامهم: اعْبُدوا الله ما لكم من إلّه غيره.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾.

في هذه الآية يأمُر الله رسولَهُ فكلَّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أُمّته بأن يطالبوا الذين يدَّعُونَ أنّه لن يَدْخُلَ الجنَّةَ إلاّ من كانَ من اليهود أو من النصارى بتقديم برهانهم النقليّ على ما يدّعون.

٤ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

وذلك أنّ اليهود أخذوا يعترضون على رسول الله ﷺ في أَكْلِه لحومَ الإبل وشُرْبِهِ أَلْبَانَها، مع إعلانِهِ أنّه على دين إبراهيم عليه السّلام، مدّعين بأنّها كانت محرّمة في مِلّة إبراهيم.

فقال لهم الرسول ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبْراهيم فَنَحْنُ نُحِلُّه، فقال اليهود: إِنَّهَا لَمْ تَزَلْ مُحَرَّمَةً في مِلَّةِ إبراهيم ونوحٍ عليهما السلام، فنزل قول الله يأْمُرُ رسوله بأن يُطالِبَهُم بتقديم الدليل على ما يَدَّعُون من نقل صحيح، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ : فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

القاعـدة الرابعـة:

ألّا يكون المجادِلُ ملتزماً في أَمْرٍ من أُمُورِهِ الفكريَّةِ بضدِّ الدَّعْوىٰ الّتي يُحَاوِلُ أَنْ يُثْبِتَها، فإذا كان ملتزماً بشيءٍ من ذلك، كان بمثابةِ من يَحْكُمُ على نَفْسِه بأنّ دعواه مرفوضة من وجهة نظره.

ومن الأمثلة على سقوط دعوى المجادل بسبب التزامه بضدّ دعواه، وقبوله له: استدلالُ بعض من أنكر رسالة محمد صلوات الله عليه بسبب أنَّه بَشَرٌ، وزعمهم أنّ الاصطفاء بالرسالة لا يكون للبشر، وإنّما يكون للملائكة، أو مشروط بأن يكون مع الرسول من البشر مَلَكٌ يُرَىٰ، وفي اعتراضهم على بشريته قالوا كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ . . مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ . . . ﴿٧﴾ ﴾.

مع أنهم يعتقدون برسالةِ كثيرٍ من الرُّسُل السّابقين كإبراهيم وموسَىٰ

وعيسَىٰ عليهم السلام، وهؤلاء في نظرهم بشرٌ وليسوا بملائكة، ولذلك أسقط الله عزّ وجلّ دعواهم بقوله تعالى في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴿٢٠﴾﴾.

القاعدة الخامسة:

ألّا يكون في الدَّعْوىٰ أوْ في الدليل الذي يُقدِّمه المجادِل تعارضٌ، أي: ألَّا يكون بعضُ كَلامِهِ ينْقُضُ بعضَه الآخر، فإذا كان كذلك كان كلامُهُ ساقطاً بداهةً.

ومن أمثلة ذلك قولُ الكافرين حينما كانوا يَرَوْنَ الآياتِ الباهراتِ تنزل على رسول الله ﷺ: «سِحْرٌ مُسْتمِرّ» إذا كَانَ المرادُ الاستمرارَ الزمني، لَا أنَّه قَوِيٌّ شديد.

ففي ادّعاءِ أنَّهُ سِحْرٌ وأنَّه مُسْتَمِرٌّ اسْتِمْراراً زَمَنيًّا تعارضٌ وتهافُتٌ ظَاهِرٌ لا يستَحِقُّ رَدًّا، وذلك لأنَّ من شأن السِّحْرِ كما يعلمون أن لا يكون دائماً، ومن شأن الأمور الدائمة أَنْ لَا تكون سِحْراً، أمّا أن يكون الشيءُ الواحِدُ سِحْراً ومستمرًّا معاً فَهُوَ جمعٌ عجيبٌ بَيْنَ أمْرَيْن مُتَضَادَّيْن لا يجتمعان.

ونظير ذلك قول فرعون عن موسَىٰ عليه السلام حينما جاءه بسلطان مُبِينٍ من الحجج الدامغة والآيات الباهرات: «سَاحِرٌ أو مجنون».

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الذّاريَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾.

إنّ هٰذيْنِ الأمْرَينِ يكادان يكونان مُتَضَادّين، فمن غير المعقول مَنْطِقيًّا

أن يكون الشخص الواحد ذو الصفات الواحدة، متردّداً بين كوْنه ساحراً وكونه مجنوناً، وذلك لأنّ من شأن الساحر أنْ يكون كَثِيرَ الفطنة والذَّكاء والدّهاء، وهذا أَمْرٌ يتنافَىٰ مع الجنون تنافيًّا كُليًّا، فكيف صحَّ في فكر فرعون هذا الترديد بين كَوْنِ مُوسَىٰ ساحراً وكَوْنِهِ مجنوناً؟.

إنّ في كلامه هذا لتهافتاً ظاهراً يُسْقِطه من الاعتبار لدى المحاورة الجدليّة، فهو لا يستحقّ عليه جواباً، وهو يُشْعر بأنّ فرعون يَتَهرَّبُ من منطق الحقّ، ويُطْلِقُ عبارةً يُغَشِّي بها على الملأ مِنْ حوله، حتّىٰ لا يفتضح أمامهم بانتصار موسىٰ عليه في الحجّة، أو هو ينتقل إلى موضوع جُرْأَةِ موسى في القصر الفرعوني، فيُعلّلها بأنّها صادرةٌ عن ساحرٍ يعتمد على قوّته في السّحر، أو صادِرَةٌ عن مَجْنون لا يُقَدِّرُ عواقبَ الأمور، وهذا أيْضاً تهرُّبٌ من منطق الحجج التي قَدَّمها موسىٰ عليه السلام إلى موضوعٍ آخر هو موضوعُ جُرْأَتِه.

القـاعدة السـادسة:

ألاّ يكُونَ الدليلُ الذي يُقدِّمه المجادِلُ تَرْدِيداً لِأَصْلِ الدعوى، فإذا كان كذلك لم يكن دليلاً، وإنَّما هو إعادةٌ للدَّعْوَىٰ بصيغة ثانية، وسقوط هذا في الجدال أَمْرٌ بَدَهِيٌّ.

ولكن قد يخفىٰ على الفريق الآخر هذا الأمر إذا استخدم المجادل براعته في تغيير الألفاظ وزخرفتها، وتقديم مقدمات لها، وبناءِ فروع عليها يدَّعيها، بيد أنّ الأمر لا يَعْدُو أن يكون حيلةً باطلةً لا يَلْجأُ إليها طُلاَّبُ الحقّ.

القـاعدة السـابعة:

عدمُ الطعن بأدلّة المجادل إلاّ ضمْن الأصول المنطقيّة، أو القواعد الْمُسَلَّم بها لدى الفريقين المتحاوِرَيْن.

القـاعدة الثـامنة:

إعلانُ التسليم بالْقَضَايا والأُمُور الّتي هي من المسلّماتِ الأولى، أو من

الأمور المتَّفَقِ بين الفريقين المتحاورين على التسليم بها.

أمّا الإصرار على إنْكَار الْمُسَلَّمَاتِ فهو مكابَرَةٌ قبيحة، ومماراةٌ منحرفة عن أصول المحاورَةِ والمجادَلَةِ السليمة، وليست من شأن طالبـي الحقّ.

القـاعدة التـاسعة:

قبولُ النتائج الّتي تُوصِلُ إليها الأدلّةُ الْقاطعة أو الأدلّة الراجحة، إذا كان الموضوعُ مما يكفي فيه الدليل الراجح.

وإلاّ كانت المجادلة من العبث الذي لا يليق بالعقلاء أن يمارسوه.

* * *

الفقـرة الخامـسة

نماذجُ من تعليماتٍ جَدَليَّةٍ قرآنيَّة

النمـوذج الأول:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيَةِ تَعْلِيمٌ جَدَلِيٌّ حَوْلَ قَضِيَّةٍ من قَضَايا عَقَائد الْيَهُود والنصارى الباطلة، وترتيبُ خطوات هذا الحوار الجدلي كما يلي:

المدّعي: (من اليهود أو النصارى) يقول: نَحْنُ أبناءُ اللَّهِ وأحبَّاؤُه، أي: فلا يُدْخِلُنَا يَوْمَ القيامة في جَهَنَّم مهما ارتكبنا من ذنوبٍ وخطايا وجرائم في الحياة الدنيا.

المخالف: (من المؤمنين المسلمين) يطرح سؤالاً يتضمّن إبطالَ ادّعاء المدّعي، فيقول: فَلِمَ يُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ بِذُنُوبكُمْ في الحياةِ الدّنْيَا كما هو مُشَاهَدٌ من تَعَرُّضِكُمْ لبَعْضِ العقوبات الدُّنْيَوِيَّة، فلو كُنْتُمْ أبناءَ الله وأحِبَّاءَه لما تَعَرَّضْتُمْ لهَـٰذِه العقوباتِ في الحياة الدنيا.

المدّعي: لا يَجِدُ جَواباً صحيحاً يَدْفَعُ به هذا الاعتراض الذي يُثْبِت نقيضَ مُدَّعَاه، وإذا جَاء بشيءٍ أمكن نقضه.

المخالف: بلْ أنتم بشَرٌ ممَّنْ خَلَقَ الله مِنْ خَلْق، والله عزّ وجلّ يغفر لمن يشاء إذا اقتضت حكمته أن يغفر له وهو لا يغفر لمن مات على كفره، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ إذا اقتضت حكمته أن يُعَذِّبه.

وليس مخلوقٌ في الوجود كُلِّه ابناً لله، بلْ كلُّ ما سوى الله مِلْكٌ له ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أمّا الحياة الدنيا للناس جميعاً فهي رحلةُ امتحانٍ، وبعد الامتحان فيها يكون الحساب والجزاء يوم الدين الذي يُبْعثُ فيه الناس ويَصِيرون فيه إلى ربّهم ليَجْزِيَهُمْ على ما قدّموا في رحلة امتحانهم ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

* * *

النموذج الثاني:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة) أيضاً:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

في هذه الآية تَعلِيمٌ جَدَليٌّ حول قضيّةٍ من قضايا عقائد النصارى في عيسَىٰ عليه السلام، وترتيبُه كما يلي:

المدّعي: يقول: إن الله الّذي خلق السماوات والأرض وما بينهما هو عيسَىٰ بْنُ مَرْيم، تجسَّدَ في شخص عيسَىٰ، ثم تجرّدَ عن التشخص.

المخالف: (المؤمن المسلم) يطْرَحُ سؤالاً يتضمَّن إبطال الادّعاء فيقول: أَلَمْ يكن عيسَىٰ عليه السّلام يأكُلُ ويَشْرَبُ وتجرِي عليه الأحوال الّتي تجري على سائر البشر، ومنها الهلاك بالموت المعتاد أو بغيره.

المدّعي: بلىٰ، فقد كان يأكُل ويَشْرَبُ وتَجْرِي عليه الأحوال الّتي تجري على البشر، ومنها الهلاك بالموت المعتاد أو بغيره.

المخالف: يطرح سؤالاً يتضمَّن تأكيد إبْطال الادّعاء فيقول: هل يُوجَدُ أَحدٌ يَمْلِك دفْعَ مُرادِ الله إنْ أرادَ اللَّهُ أن يُهْلِكَ المسيحَ ابْن مريم بالموْتِ المعتاد أو بغيرِه، وأَنْ يُهْلِك أُمّه وجميع الناس؟ أي: فكيف يكون هو الله وهو عرضةٌ للهلاك كسائر من في الأرض؟.

فإذا قال المدَّعِي: لا أحد يَمْلك ذلك، فقد لزمه أن يُثبت أنّ الله ليس هو المسيح عيسىٰ بْنَ مريم، وتنتهي المجادلة.

وإنْ راوَغَ ولم يعترف فباستطاعة المخالف أن يُلْزِمه ويَحْصِرَهُ حتّىٰ يَنْقطع، فالنّصارى يَدَّعُونَ أَنَّ عيسَىٰ صُلِبَ وماتَ، ثمّ قام من بين الأموات ثم عاد.

* * *

النمـوذج الثالـث:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

في هذه الآية حكايةُ حوارٍ جدَلِيٍّ جرَىٰ بين رسولِ الله إبراهيم عليه السلام، والنمرود ملك العراق القديم في عصره، وفي حكاية هذا الحوار تعليمٌ جدَليٌّ للمسلمين ولا سيّما الدعاة إلى الله منهم.

وقد جرى هذا الْحِوَارُ الجدَلِيُّ وفْقَ الترتيب التالي:

المدّعي: (إبراهيم عليه السلام) دعا النّمرود إلى الإيمان بالله وعبادته

وحده، وذَكَر له أنّه رسُولُ الله ربّه رَبِّ كُلِّ شيء.

المخالف: (النُّمرود): أَلَسْتُ وأنا مَلِكُ البلاد ربَّكَ؟

إبراهيم عليه السلام: أنْتَ لَسْتَ رَبِّي، إنَّمَا أَنْتَ مَلِكُ البلاد وحاكمها.

النُّمرود: فمن رَبُّكَ إِذَنْ؟

إبراهيم: رَبّـي هُو الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ.

النُّمْرُود: أنا أُحْيـي وَأُمِيتُ، واستدلَّ على ادّعائه هذا بأن أَحْضَر رَجُلَيْنِ من السّجْنِ فقتَلَ أَحَدَهُمَا وعَفَا عن الآخر، وأوهم بهذا أنّه يَمْلِكُ هـٰذه الرّبوبيّة ما دَامَ يتّصِفُ بالإحياء والإماتة.

إبراهيم: لَمْ يَشَأْ أن يَدْخُلَ في جدالٍ يكْشِفُ فيه المغالطة الّتي صنعها النمرود، إذْ جعَلَ الْقَتْلَ إمَاتَةً، والْعَفْوَ لمَنْ يَسْتَحِقُّ الموتَ إحياءً، وهما غَيْر مُرَادَيْن في أصلِ دليل إبراهيم عليه السلام، إذْ هو يُرِيدُ خلْقَ الحياةِ في المادّةِ غير الحيّة، وسَلْبَ هـٰذِه الحياة سَلْباً حقيقيًّا، لا سَلْباً عن طريق اتّخاذ الأسباب الّتي جعَلَها اللَّهُ أسْبَاباً لحدُوثِ الموتِ الّذي يَتِمُّ بخلق الله وبقدرته، وهو أمْرٌ متاح للنمرود ولغيره.

لكن إبْراهيم عليه السلام اختار أن ينتقل إلى عَمَلٍ آخَرَ مِنْ أعمالِ الرّبوبيّة لا يستطيعُ النُّمرودُ أنْ يُغَالِطَ فيه، فقال له: فإنّ الله رَبَّ كُلِّ شيءٍ هو الذي يَأْتِي بالشَّمْسِ من المشرق، فَأْتِ بها إنْ كنْتَ رَبًّا خالقاً من الْمَغْرِبِ.

أي: إنّ من صفاتِ الله الخالقِ رَبِّ كلِّ شيءٍ أنَّه جعَل من نظام الكون أن يكون إتيانُ الشمسِ من جهة المشرق، لا من جهة المغرب، ومن له صفة الرُّبُوبيَّة في الكون فلاَ بُدَّ أَنْ يكون قادراً على أَنْ يَجْعَلَها تَأْتِي من المغرب، فإنْ كُنْتَ رَبًّا كما تَدَّعِي فَأْتِ بالشَّمْسِ من المغرب.

النمرود: بُهِتَ، إذْ عجزَ عن تقديم شاهِدٍ عَمَلِيٍّ يُثْبِتُ قُدْرَتَهُ على أن يأتِي بالشمس من المغرب.

بُهِتَ: أي: دُهِشَ وسَكَتَ متحيّراً.

وبهذا انتهت المجادلة القائمة على الحوار بالفكر، والاستدلال بالأدلة المنطقيّة السّليمة.

لكنّ النمرود لجأ بعد ذلك إلى أعمال العنف المادّية لإيقاف إبراهيم عليه السلام عن دَعْوَتِهِ، فأمر بتحريقه بالنّار أمام جماهير قومه، فأَخْزَاهُ الله وأَنْجَىٰ نَبِيَّهُ ورسولَهُ إبراهيم عليه السلام.

* * *

النمـوذج الـرابع:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

في هذه الآية يُعَلِّمُ اللَّهُ عزّ وجلّ رَسُولَه محمّداً ﷺ فكلَّ داعٍ إلى الله من أُمّتِه، كَيْفَ يجادلُ طائفةٌ من اليهود ادّعَوْ أَنَّ الله لَمْ يُنْزِلْ على بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، ليتوصَّلُوا بهذا الادّعاء إلَىٰ أَنَّ القرآنَ لَيْسَ مُنَزَّلاً من عند الله، وترتيبُ هذا الحوار الجدلي يجري كما يلي:

المدّعي: (اليهودي) قال لرفض رسالة محمّد ﷺ ولرفض الإيمان بالقرآن الّذي أُنْزِلَ عليه من الله عزّ وجلّ:

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾.

ادّعاءٌ يلزم من صحته إثبات أنّ القرآن ليس منزلاً من عند الله، وأن محمّداً ليس رسولاً.

المخالف: (المؤمن المسلم الداعي إلى سبيل رَبّه) يطرح سؤالاً تتضمَّنُ الإجابةُ عليه إبطال الادّعاء، فيقول:

مَنْ أَنْزَلَ الكتابَ الذي جاء به مُوسَىٰ عليه السَّلام نوراً وهُدًى للنَّاس، وهو التّوراة، وهو موجودٌ لديكم إذ تكتبُونَه في قراطيس مُتَنَوِّعةٍ ومُقَسَّمَةٍ إلىٰ أقسام، فَتُبْدُونَ بَعْضها، وتُخْفُونَ منها كثيراً لغاياتٍ في أَنْفُسِكُمْ، وعُلِّمْتُمْ بهذا الكتاب من علوم الدِّينِ ما لم تكونوا تَعْلَمُونَ قَبْلَ إنزاله أَنْتُمْ ولاَ آبَاؤُكُمْ.

المدَّعِي: إمّا أَنْ يَعْتَرِفَ بأنّ الكتاب الذي جاء به موسىٰ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ الله، وبهذا تَسْقُطُ دعواه، وإمّا أَنْ يُراوِغ بالباطل وعندئذٍ يستطيع الداعي إلى الله أن يَحْصِرَه حتَّىٰ يَنْقَطِعَ ويَخْرجَ منهزماً من حَلَبَةِ المجادلة مكابراً ساقطاً في نظر المشاهدين.

وهنا يُعْلِنُ المؤمن الداعي إلى سبيل ربّه قائلاً كما أَمَرَ الله في التعليم: الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، وأُنزلَ الكتاب الذي جاء به محمد عليهما السلام، ثُمَّ يَتْرُكُ كفرة اليهود في خوضهم يلعبون.

* * *

النمـوذج الخـامس:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) مُعَلِّماً رسوله فكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أُمّتِهِ:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

في هذا النصّ تعليم جدَليٌّ يُعَلّمُهُ اللَّهُ رسُولَهُ فَكُلَّ داعٍ إلى سبيل ربِّهِ من أُمَّتِه، وهو يشتمل على عدّةِ جَوْلاتٍ من جولات المجادلة للمشركين الَّذِينَ اتَّخَذُوا آلِهَةً من دُونِ الله، يَعْبُدُونَهم رجاء أن تَجْلُبَ لهم المنافع وتدفع عنهم المضارّ في شؤون دنياهم.

وكلُّ جولةٍ من هذه الجولاتِ تعتمد على طرح الأسئلة واستقبال الأجوبة عليها، ثُمَّ تكونُ المتابعةُ بحَسَب الجواب الذي يُقَدّمه المسؤولون المشركون.

الجـولة الأولـى

المدّعون: (المشركون) الذين يَدَّعُونَ أنّ لله شركاء في إلَهيته.

المخالف: (الداعي إلى سبيل الله) يَطْرَحُ سؤالاً يتعلّق بلازم كون الله عزّ وجل هو الرَّبّ الّذي لا شريك له في ربوبيّته في الأرض ومن فيها فيقول:

﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

إنّ لازم ربوبية الله للأرض وَلِمَنْ فيها أن تكون الأرض ومن فيها ملكاً له جلّ جلاله.

أي: لِمَنْ يَرْجِعُ مِلْكُ الأرضِ ومَنْ فيها، فهو يُدَبّرُ مُلْكهُ ويُجْري تصاريفَهُ فيه على وفْقِ حكمته، ومنْها العطاء والمنع، والضُّرُّ والنّفْعُ، والْحَيَاةُ والموت؟

المدّعون: (المشركون): هي للآلهةِ الّتي نُقَدِّمُ لها القرابينَ وندعوها ونَعُوذُ ونَلُوذُ بها.

المخالف: (الداعي إلى سبيل ربّه): كيف تكونُ الأرض ومَنْ فيها للآلِهَةِ الّتي اتخذتموها من دون الله، مع أنكم تُؤمِنُونَ بأنَّ الله هو الذي خَلَقَها، وهو الذي خلقكم، وقد جاء هذا في اعترافاتكم السابقات الّتي سمعناها منكم في مجالس كثيرة؟!

المدّعون المشركون: إنّ الله الخالقَ فوّضَ هذه الآلهة في أُمورِ الأرض ومن فيها، فهي لها بالتفويض.

المخالف: هل عندكم بُرْهانٌ عقليٌّ، أو برهانٌ نَقْلِيٌّ خَبَرِيٌّ عن الله، أَوْ بُرْهانٌ تَجْرِيبيٌّ يُثْبِتُ مَا تَدَّعُونَ؟

إنْ كان لديكم شيءٌ من ذلكم فهَاتُوا بُرْهانكم.

هنا يتوقَّفُ المدَّعُون المشركون، لأنَّهم لا يملكون برهاناً عقليًّا، ولا برهاناً نقليًّا خبريًّا عن الله عزّ وجلّ، ولا بُرْهاناً تَجْرِيبيًّا يُمْكِنُ أَنْ يُثْبِتُوهُ بيقين.

لكن قَدْ يتذَرَّعون بأقاويل عن تجاربَ جرَتْ لبعضهم، هي من قبيل الحكايات الّتي ليس لها أقدامٌ تقف عليها في مواجهة النقد العلمي.

ولا يعجز المخالف الداعي إلى سبيل ربّه عن إسقاط ذرائعهم بالنَّقْدِ والنقض، وتقديم ما يُظْهر عدَمَ صلاحيّتِها لأَنْ تكونَ حُجَجاً يعتمِدُ عليها أهل الفكر.

ثُمَّ يَسْتَطِيعُ الداعي إلى سبيل ربّه في نهاية الجولة الّتي تَطُولُ أوْ تَقْصُر إلزام المشركين، أو انتزاع اعترافهم بأنَّ الأَرْضَ ومن فيها لله وحده، لا شريك له، وهو وحده الذي يُدَبّر مُلْكه، ويتصرَّفِ فيه بمقتضىٰ حكمته المشمولة بعلمه ورحمته الّتي وَسِعَتْ كلَّ شيء.

وفي حالة اعترافهم بالحق يقولون: لله.

لكنّ هذا الاعترافَ لا يكون تلقائيًّا عقب السؤال، وإنّما يأتي بعد حصارٍ فكريّ في مُجَادَلةٍ عقليّة علميّة تعتمد على أدلّة برهانيّة، لهذا قال الله عزّ وجلّ:

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾.

أي: سيقولونَ مستقبلاً بعد المجادلة بالّتي هي أحسن والحصارِ الفكريّ والإقناع: لله الأرضُ ومَنْ فيها، وليسَ لأحَدٍ سواه مِلْكٌ في شيءٍ من ذلك، ولا تصرُّفٌ فيه.

ومتىٰ وصَلُوا إلى هذا الاعتراف وأعْلَنُوهُ، وجَّه الداعي إلى سبيل ربّه لهم موعظتَه، فحضَّهُمْ على أن يَذَكَّرُوا.

أيْ: أن يضعوا في ذاكراتهم دواماً أن الأرض ومن فيها مُلْكاً وتصرُّفاً وتَدبيراً شاملاً، وهيمنةً تامّةً لِلّهِ وحْدَهُ، فإذا وضعوا هذا في ذاكراتهم دواماً وجَدُوا أنفسهم يعبُدُونَ الله وحده، مُسْقطين من أنفسهم آلهتَهُم الّتي لا تَمْلِك من الأمر شيئاً، فجاء في التعليم قول الله تعالى:

﴿ قُلْ: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ ﴾ وفي قراءة جمهور القرّاء ﴿ أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ؟ ﴾.

والاستفهام هنا هو بمعنى الحضّ والحثّ على تذكُّر هذه الحقيقة التي وصَلُوا إلى إدْراكِها، واعْتَرفُوا بها، وهذا التذكير من حينٍ إلى آخر من شأنه أَنْ يَدْفَعَ إلى نَبْذِ الشِّرْكِ دواماً، وعبادةِ اللّهِ وحْدَهُ لا شريك له.

الجـولة الثـانية

المخالف: (الداعي إلى سبيل ربّه) يطرح سؤالاً عن ربّ السماوات السّبع ورَبّ العرش العظيم، فيقولُ للمشركين كما جاء في التعليم الجدليّ القرآنيّ:

﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ؟؟﴾.

أي: مَنِ الَّذي له أَمْرُ مُتَابَعَةِ عَمَلِيّاتِ التَّدْبير والتصريف للمتغيّرات المستمرَّةِ في السماوات السَّبْع وفي العرشِ العظيم؟

هذا ما تَدُلُّ عَلَيْه كَلِمَةُ «رَبّ» لأنّ الرَّبّ في الأصل مصدرٌ كالتربية، والتربيةُ هي إنشاء الشيءِ حالاً فحالاً حتّىٰ إبلاغه حدَّ التمام، ثمَّ استعيرتْ كلمة «ربّ» من المصدريّة إلى اسم الفاعل، أي: «المربّـي» ولمّا كانت التربية الحقيقيّةُ لله عزّ وجلّ، لأنّه هو الذي يَخْلُق الأشياء ويُنْشئها طوراً فطوراً كان الأحقَّ بأنْ يُطْلَقَ عليه أنّه (الرَّبُّ لكلّ شيء) أي: الخالقُ المنشىء الذي يُمِدُّ من يُرَبّيه وما يُربّيه بعطاءاتِ التَّرْبِيَة دواماً، وهو المشرف عليها كلِّها دواماً، والْمُحِيطُ بها عِلْماً وسُلْطاناً وهيمنةً.

فالرَّبُّ لَيْسَ مُجَرَّدَ خالقٍ خلَقَ مَخْلوقاته، ثم ترَكَ تدبير أمورها بَعْدَ الخلْقِ لآلهةٍ غَيْرِه، إنَّمَا الرَّبُّ هو الْمُمِدُّ بالتربيَةِ على الدوام، وهو المهيمن على شؤون مخلوقاته على الدوام، ولَهُ كُلُّ أُمُورِها دون استثناء.

أمّا المشركون فإنّهم يؤمنون بحسب اعترافهم بأنّ الله هو الخالق، لكنَّهُمْ لا يؤمنونَ بأنّ الله هو الرَّبُّ المدبّر المهيمنُ الْمُصَرِّف لأمور ما خَلَق دواماً، وبِيَدِه الأمْرُ كُلُّه.

المدّعون: (المشركون): يتوقفون فلا يعترفون بأنّ الله هو ربُّ السماوات السّبع، ورَبُّ الْعَرْش العظيم، على وفق المعنى الذي سَبَقَ بيانه.

فقد يقولون: إنّ قضيّة تدبير أمور السماوات السّبع وأمُورِ العرش العظيم هي لآلهَةٍ متعدّدين في السّماء، فوّضهم الله بتدبير أمورها، أو هُمْ شركاءُ لله في التدبير والسلطان، فهم الذين يتصرّفون بشؤون الأشياء والأحياء فيها، وبأمرهم وسلطانهم تجري الأحداث.

وعلى مثل ما جاء في الجولة الأولى يُتَابع الداعي إلى الله مجادلته حتى ينتزع من المشركين اعترافهم، بأنَّ تدبير أُمُورِ السماوات السّبْعِ وأمور العرش العظِيم، إنما يكون بأعمال مُرَبٍّ مُتَابعٍ لكلّ صغير وكبير، هو الله وحده لا شريك له في ربوبيّته.

وهذا لا يَصِلُ إليه إلاّ بَعْدَ حِصَارٍ فكريٍّ، ومُجَاهَدَةٍ طويلة، في مجادلةٍ عقليّة علمّية، لذا قال الله عزّ وجلّ في التعليم:

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ ﴾.

فأَبَانَ تَبَارَكَ وَتَعالَىٰ أَنَّ قَوْلَهُمْ هذا لا يكونُ تِلْقَائياً عن عقيدة جاهزَةٍ لدَيْهِمْ، وإِنَّمَا يَقولونَهُ بَعْدَ زَمَنٍ عبَّرتْ عنه السِّينُ التي تدلُّ على المستقبل القريب.

ولا بُدَّ أن يكون بين السُّؤال والاعتراف المستقبِلِيّ مجادلةٌ عقليَّةٌ علميَّةٌ يثيرُها الداعي إلى الله، ويُقَدِّمُ فيها الحجج والبراهين، حتّىٰ يَصِلَ إلى الإقناعِ المرجوّ، وينتزع اعْتِرَافَ المشركين بأنَّ كُلَّ عناصر الرُّبوبيّةِ هي لله وحده لا شريك له.

وحينَ ينتزع منهم هذا الاعتراف يَحْسُنُ أنْ يُوجّهَ لهم بأسلوبِ الاستفهام التحضيضي المشوبِ بالتأنيب قوله لهم: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ ﴾ كما جاء في التعليم.

أي: أفلا يكون لديكم عقْلٌ تَنْبِذُونَ به شركاءكم، وتوحِّدُونَ الله حقًّا، بكلّ عناصر رُبُوبيّته، وكلّ عناصر إِلَهيته، فلاَ تشركوا به شيئاً، ولا تَعْبُدُوا غيره، حتّىٰ تتَّقُوا عذابه.

والاستفهام في عبارة ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ ﴾ فيه معنى التلويم ومعنى الحضّ على التعقُّل بفهم سليم، والتعقُّل بضبط النفس عن اتّباع الهوى، والتقاليد العمياء، بإرادة واعية حازمة، حتَّىٰ يَقُوا أنفسهم من العذاب العظيم الذي أعدّه الرَّبُّ للمشركين.

الجـولة الثـالثة

المخالف: (الداعي إلى سبيل ربّه) يطرح سؤالاً حول مَنْ بِيدِه التصرّف الكامل بكلّ شيءٍ في الوجود وله الأمر والنهي، فيقول للمشركين كما جاء في التعليم الجدَليّ القُرآني:

﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىۡءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ؟؟﴾.

أي: لِمَنْ تَنْسُبُونَ التَّصَرُّفَ بمُلْكٍ شَاملٍ لكُلِّ شَيْءٍ في الكون، فله الْعِزَّةُ والسُّلْطانُ، والعظمةُ والأمْرُ والنهيُ دون مُنَازِعٍ ولا ندٍّ ولا مُنَافسٍ ولا مُشَارِكٍ؟

﴿مَلَكُوتُ﴾ صيغة مبالغة من الْمُلْك الذي هو السلطان والعزّة والقدرة على التصرّف الكامل الشامل، ولصاحبه الأمرُ والنهيُ، نظير: رَهَبُوت من الرَّهْبة، ورَحَمُوت من الرحمة (وهذه صِيغٌ خاصّة فيها معنى المبالغة لإفادة كمال ما تَدُلُّ عليه من المعاني).

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ أي: من استجار به فأَجَارَهُ كَفَاهُ، ودَفَعَ عَنْهُ وحَمَاهُ، أَمَّا مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ سُوءاً فإنَّهُ لا يَجِدُ بَعْدَ الله أحَداً يُجِيرُهُ فيكفيه أو يَحْمِيه أوْ يَدْفع عنه.

المشركون: يتوقّفُون، فَلاَ يَعْتَرِفُون بأنّ اللَّهَ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلّ شَيْءٍ، وهو يُجيرُ ولا يُجَارُ عليه، لأنَّهم يعتقدون أن آلهتهم التي اتَّخَذُوها من دون الله تَمْلِكُ التَّصَرُّفَ في أَحْدَاثِ الكونِ وتَدْبيراته، أو تَمْلِكُ التصرُّفَ في بعضها، ويعتقدون أنّها ذاتُ حُكْمٍ وسُلْطانٍ وأمْرٍ ونَهْيٍ، ومن أجل ذلك يَعْبُدونَها، ويَتَقَرَّبُونَ إليها بالقرابين.

وهنا يجد المخالفُ الداعي إلى اللَّهِ في أقوالِ المشركين ما يُمْسِكُ به، ليُطَالِبَهُمْ بالدّليل على ما يدّعون.

ولا يَجِدُ الْمُشْرِكون أيّ دليلٍ صحيحٍ تَقْبَلُهُ العقولُ لإثباتِ ما يَدَّعُون.

وباستطاعة «الداعي إلى الله» أن يُسْقِط بِسُهُولَةٍ كلَّ ذَرَائِعهم، وأَنْ يُحَاصِرَهُمْ بالأدلّة البرهانيّة.

فمن استطاع من المشركين أن يتخلّص من خرافاته، فإنَّه بَعْدَ مُحَاصَرَتِه العقليّة العلميّة، وبعد الوصول به إلى الاقتناع الكافي بالتوحيد الحقّ، فإنّه يقول كما جاء في التعليم: ﴿لِلَّهِۚ﴾ أي: لِلَّهِ مَلَكُوتُ كلّ شيءٍ وهو الّذي يُجِير وَلاَ يُجَارُ عليه.

وقد جاء في النصّ التعبيرُ عن هذا الاعترافِ في نهاية المطاف بعبارة: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ أنّ اعترافَهُم هذا لا يكونُ تِلْقَائِيّاً عن عقيدةٍ جاهزةٍ لَدَيْهِم، وإنّما يقولُونَه بعْدَ زَمَنٍ عبَّرَت عنه «السّين» الّتي تدلُّ على المستقبل القريب.

وبين السؤال الذي طرحه «الداعي إلى الله» والاعترافِ الذي يأتي مستقبلاً مجادلةٌ بالّتي هي أَحْسَنُ قائمةٌ على أسُسٍ عقلية علميّة يُثِيرها «الداعي إلى الله» العاملُ على إبطال عقيدة المشركين.

وحين يَصِلُ المشركون إِلَىٰ هذا الاعتراف يَحْسُن بالداعي إلى سبيل رَبّه أنْ يُوَجّه لهم بأسلوب الاستفهام التعجُّبِـي فيقول لهم كما جاء في التعليم: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾.

أي: فكيف تَخْضَعُونَ لتأثير سِحْرِ الشياطين لَكُمْ بالأوهام والوساوس وحِيَلِ الأَفْكَارِ الباطلة، فتتّبِعُونَهم، فتعْبُدونَ آلِهةً من دون الله، وتُؤْمِنُون بأنّها شُرَكَاءُ لِلَّهِ في بعض خصائص ربُوبيّته، وحُكْمه وسُلْطَانِه، مع أنَّ اللَّهَ هو وحْدَهُ الّذي بِيَدِه ملكُوتُ كلّ شيءٍ، وهو الذي يُجِيرُ ولاَ يُجارُ عليه؟!.

وبعد أن استكملت هذه المحاورة الجدليّة عناصرها في جولاتها الثلاث، وكان قد سبقها في مراحل التنزيل القرآني عدّة محاورات جدلية، اشتملَتْ علَيْها نجومُ تنزيل القرآن المجيد الّتي نزلت قبل هذا النصّ من سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) قال الله عزّ وجلّ في أواخر التعليم:

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

أي: إنّ الأمْرَ ليس كما يَدَّعي المشركون، بل أتيناهم فيما بعثنا به الرسُولَ محمّداً بالحقّ، وإنَّهُمْ في شِرْكيَّاتِهِمْ وفي ادّعاءاتهم ضدّ الرسول وضدّ القرآن لكاذبون.

لكنّ الْحَقَّ هو:

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

أي:

١ - ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ كَمَا يَزْعم الذين كفروا.

٢ - ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ ﴾ معبودٍ بحَقٍّ ولاَ يكون أبداً كما يزعمُون، ولو كان معه إلَهٌ ما، لَهُ حَقُّ الإلَهيَّة (أي: أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُون الله) لكان لَهُ مُشَاركةٌ للَّهِ في رُبُوبيّته، وسلطانه، وعزّته في الكون، بمقتضىٰ التلازُم العقلي بين الإلَهيّة والرُّبُوبيَّة.

فلو كان لآلهتهم التي يَعْبُدونها من دون الله إلَهيَّةٌ حقيقيَّةٌ، لكانت مشاركةً للَّهِ في رُبوبيّته، ولو كانت مشاركة لِلّهِ في رُبوبيّتِه: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾.

لأنَّ هذا هو الّذي سيَحْدُثُ حَتْماً لو تعدّدَتِ الآلِهَةُ الأرْبَابُ، بما لَهُمْ

من هَيْمَنَةٍ وسلطانٍ وَعِزَّةٍ في الْكَوْنِ، وقُدْرَةٍ عَلَىٰ تَنْفِيذِ مَا يُرِيدون.

لَكِنَّ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ، بل الْكَوْنُ كُلُّه خاضِعٌ لنظامٍ واحدٍ وسلطانٍ واحِدٍ.

إذنْ: فلا رَبَّ إلاَّ الله، ولاَ سُلْطانَ إلاّ لِلّه.

إذن: فلا إلَه بحَقٍّ إلاَّ الله.

وإنّ اتّخاذ آلِهةٍ تُعْبَدُ من دون الله يلْزَمُ منْه اعتقاد أنّ هذه الآلِهَةَ شُرَكاءُ لِلّهِ في رُبوبيّته، وقد تنَزَّهَ اللَّهُ عَنْ ذلك وتعالَىٰ عُلُوًّا كبيراً فقال الله عزّ وجلّ في آخِرِ النّصّ:

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

أي: تنزيهاً للّهِ كتنزيهه لنفسه عمّا يَصِفُ المشركون من شركاء الله عزّ وجلّ، هو عالِمُ الْغَيْبِ والشهادة، فتَعَالَىٰ وتَرَفّع وتسامَىٰ عمّا يُشْرِكُ به المشركون جميعاً.

* * *

خاتمة:

تفيد التعليمات الجدليّة القرآنيّة أَنّ على الداعي إلى سبيل ربّه، أنْ يَبْدأ بِمَعْرِفَةِ المواقع الفكريّة الّتي يكونُ عليها المدعُوُّونَ، وأنْ يُثَبِّتَ مَا يَجِدهُ حقًّا، ثُمَّ يَنْتَقِلَ إلَىٰ غَيْره بالتدرُّج.

وكلّما ظَفرَ بنَقْل المدعُوِّ إلى مَوْقع جديدٍ ثَبّتَهُ فيه، واعتبره موقعاً جديداً لِيَنْتَقل منه إلى غَيْره.

وهكذا حتّىٰ يَصِلَ إلى الإقناع بكلّ عناصر الإيمان، فالْإِسلام.

وكذلك ينبغي أن يكون حال الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، إذ عليه أن يبدأ بالأهمّ فالمهمّ فما دونَهُ خُطْوَةً خطوةً بالتدرّج، وهذا ما توجِبُه السياسة الحكيمة في الدعوة إلى الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* * *

الفهرس

الباب الأول
مقدمات عامّات

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

البـاب الثانـي
الصفات التي يجب أن يتحلَّىٰ بها حَمَلَةُ الرسالة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الباب الثالث

قواعد ووصايا كليّة عامة

وبيان لطائفة من آفات حملة الرسالة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

فِقْهُ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ

و

فِقْهُ النُّصْحِ وَالإرْشَادِ وَالأمْرِ بالمعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ

دراسة استنباطيّة تشتمل على:

بيان وُجوبها، وأُسُسها، ومناهجها، وسُبلها، ووسائلها وآدابها، ونماذج من تطبيقاتها.

الجزء الثاني

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

فِقْهُ
الدَّعْوَةِ إلى اللهِ
وَ
فِقْهُ
النُّصْحِ وَالإرْشَادِ
وَالأَمْرِ بالمعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المنُكَرِ

الطّبْعَة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

تُطلب جميع كتبنا من :
دَار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَار البشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الفصل الرابع

وسائل الأداء البيانيّ

الوسيلة الأولى: الخطبة.

الوسيلة الثانية: الدرس.

الوسيلة الثالثة: المحاضرة.

الوسيلة الرابعة: الحديث والمحادثة.

الوسيلة الخامسة: مجالس السؤال والجواب.

الوسيلة السادسة: الكتاب.

الوسيلة السابعة: المقالة.

الوسيلة الثامنة: الشعر.

الوسيلة التاسعة: القصة.

الوسيلة العاشرة: التمثيل.

الوسيلة الأولى

الخطبة

- ١ -
أهميّة الخطبة

الخطبة إحدىٰ وسائل الأداء البيانيّ في الإسلام، للدّعوة إلى الله، وتبليغ دينِه، والتذكيرِ بأصوله وفروعه، والأمر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، والنُّصْحِ والإرشاد إلى الخيرات والفضائل الفكريّةِ والسُّلوكيّة الباطنة والظاهرة.

وهي في الإسلام عُنْصُرٌ من عناصر بعض العبادات الدوريّة:

● فخطبة الجمعة جُزْءٌ من عبادة صلاة الجمعة التي هي مع خطبتها بدلٌ عن صلاة الظهر في يوم الجمعة، واهتماماً بها قال الله عزّ وجلّ في سورة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ ﴾.

● وخطبةُ عيدَي الفطر والأضْحَىٰ جُزْءٌ تَعَبُّدِيٌّ مُلْحَقٌ بصلاتي عيدَيِ الفطر والأضحىٰ.

● وخطبةُ عرفة عنصرٌ من عناصر عبادَاتِ يوم عرفة في الحجّ.

● وخطبة الاستسقاء عبادة مرتبطةٌ بصلاة الاستسقاء. وتُشْرعُ خُطَبٌ

أُخْرى تستدعيها الْمُلِمَّات، وبعضُ المناسبات، الّتي يَحْسُن فيها الإشهارُ العامّ، والتبليغُ الجماعي، أو استثارة حماسة الجمهور، أو تهييجُ عواطفهم وانفعالاتهم.

كالْخطبةِ بمناسبةِ إجراءِ عَقْد زواج، وكالخطبة قبل المعركة الحربيّة، وكالخطبة للحثّ على الْبَذْل والتضحية، وكالخطبة للتَّنْبيه على أَمْرٍ مُهِمّ، أو الْإعلام بحدَثٍ ذي خَطَر، أو تبليغِ قرارٍ سُلْطاني في أمْرٍ عظيم، أو نحو ذلك.

والخطبةُ هي بمثابة مُحَرِّك ذي حرارةٍ وقُوَّةٍ، يُوجِّه العقول، ويهزُّ النفوس والمشاعر الداخليّة، ليَسْتَثِير ما فيها من طاقات كامناتٍ ساكناتٍ، حتَّىٰ تعْمَلَ على توجيه الإرادات لتطبيق ما تهدي إليه، وتَنْصَحُ به، أَوْ لما تَأْمُرُ به وتنهىٰ عنه.

- ٢ -

تعريف الخطبة

الخطبة: فَنٌّ من فنون الأداء البيانيّ في مخاطبة الجماهير ذاتِ المستوياتِ المختلفات، بطريقةٍ يُسْتَحْسَنُ فيها الاعتماد على مخزون الذاكرة، ومُبْتكراتِ الفكر، أو مَعَ مُسَاعَدةِ مذَكّراتٍ مكتوبةٍ، تُذَكِّر بعناصِرَ مُهِمَّةٍ، وربّما تَقُومُ مقامَها الخطبة المكتوبة.

ويُستخْدَمُ فيها مسلكان:

١ ـ مسلكُ الحكمة للإقناع الفكريّ دون إسراف، أو للتذكير باقناعٍ فكريٍّ سابقٍ.

٢ ـ ومسلكُ الموعظة الحسنة بوَفْرَة، لاستمالة النفس وإثارتها ترغيباً أو ترهيباً إثارةً تخدمُ الأغراض المقصودة من الخطبة.

- ٣ -

وظائـف الخطبـة

للخطبة أربع وظائف كُبْرىٰ مهمَّة:

الوظيفة الأولى: الإقناع الفكريّ المنطقيّ بعناصر الموضوع الذي أراد الخطيب أن يجعله مِحْورَ خطبته، إذا لم يكن لدىٰ الجماهير حوله اقتناع سابق، أو التذكيرُ الفكري بها، إذا كانت عناصره من المسلّمات لديهم.

وينبغي أن لا يكون في أداء هذه الوظيفة إسرافٌ زائد عن الحاجة الّتي يتلقَّفُها المستمعون، حتّىٰ لا يُجْهِدَ الإقناعُ المنطقيُّ الأذهان، ويَصْرِفَها عن الإصغاء، فالجماهيرُ ذاتُ المستويات المتفاوتات من طبيعتها أنّها لا تتحمّل الإْجهادَ الفكريَّ الزائد.

الوظيفة الثانية: التأثير على النفوس من مِحْوَرَيْن:

الأوّل: محور الطمع بمحابّها، فينتقي الخطيب لموضوعه الذي يُريد توجيه الجماهير له مختاراتٍ تُرَغّب في الاستجابة لما يدعوهم إلى الأخذ به، ممّا تحبُّه النفوس، لتَتَوَجَّه بقوّةٍ مستجيبةً لدعوتِه، منقادةً له، مندفعةً للأخذ بما يَحُثُّها عليه.

الثاني: محورُ الخوفِ من مكارهها، فينتقي الخطيب لموضوعه الذي يُرِيدُ إبعاد الجماهير عنه، مختاراتٍ تُنَفِّرُ مما يدعوها لاجتنابه، ممّا تَكْرَهُه النفوس، لتبتعد عنه بقُوةِ نفورٍ شديدةٍ، مستجيبةً لدعوته، مُنْقَادةً له، مندفعةً لاجتناب ما يَحُثُّها على اجتنابه.

الوظيفة الثالثة: تَخْزِينُ خُلَاصَةٍ مُكَثَّفَةٍ في أفكارهم ونفوسهم لما بَسَطه في أثناء خطبته، ويكُونُ هذا التخزين في أواخر خطبته، وأَبْرَعُه ما يأتي سَهْلاً مُنْسَاباً انسياباً يَسْهُل استيعابه وحفْظُه واستذكَارُه، وانشغالُ النَّفْسِ بتَدَبُّره،

والاتّعاظِ والاعتبارِ بما فيه من مواعِظَ وعِبَر، وتَسْهُلُ روايته والحديثُ عنه بتفصيلٍ بعد الخطبة.

الوظيفة الرابعة: اصطيادُ من يُسْتَطاعُ صَيْدُه من الجماهير، لربطهم بعد الخطبة ربْطاً يجعُلُهُمْ يتحقّقُونَ مستقبلاً بما دعاهم إليه أو نَصَحَهُم به.

وهذا الاصطيادُ هو من ذيول وظائف الخطبةِ، لكنّه الأهم من وظائفها، باعتباره الوظيفة التي تُرَبَّىٰ فيها الثمرة، ثُمَّ تُجْتَنَىٰ اجتناءً حسناً.

ولهذه الوظيفةِ دوامٌ مع السّاعات والأيّام، ومن عناصرها الرَّبْطُ بالتَّعلُّم، والمتابعةُ بالعمل.

فالربْط بالتعلُّم يكونُ بإحاطةِ من تَمَّ اصطيادُه بِتَعْلِيمه في دروسٍ يوميّة عُلُومَ الدّين وأدواتِها.

والْمُتَابعةُ بالعمل تكُونُ بتَلْيينه تدريجيًّا لممارسة تطبيقاتٍ عمليّة، على أنواع السلوك الإسلامي، بالوسائل التربويّة النافعة، وعلى سُلَّمِ الأَوْلَوِيَّاتِ ضِمْنَ قاعدة التدرُّج.

فالخطبةُ إذا لم تُلْحَقْ بهذه الوظيفة كانت كَمَنْ يثير البركة ليُهَيِّجَ الأسماك من مكامِنَها، ثم يتركها حتَّىٰ تَهْدأَ وتَعُودَ إلى مكانها ومواطن سكونها أو حركتها الهادئة، دون أنْ يصطاد منها شيئاً.

فإذا اعتاد السَّمَكُ هذه الإثارةَ مرّاتٍ متعدّدات دون أَنْ يُصْطَادَ شيءٌ منها، لم تَجدْ في الإثارات الجديدات ما يدفعها إلى التحرُّك والخروج من مكامنها ومواطن سكونها.

وكذلك يكون حالُ الخطباء الّذين يُكَرِّرُون الإثارات، دون أَنْ يصطادوا للعلم والعمل أحداً من جماهيرهم، ودون أن يُتَابِعُوه بالتعليم، وبالتطبيق العمليّ على السلوك الإسلاميّ.

- ٤ -

مراحـل الخطبـة

من الأفضل دواماً في الْخُطَب الدَّعَوِيّة، وخُطَب النُّصْح والإرشاد والأمْرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر ولا سِيَّما خُطْبةُ الجمعة، أَنْ تكُونَ لها ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: المقدّمة العامّة.

المرحلة الثانية: الْوَسَطُ الشارح.

المرحلة الثالثة: الخاتمة التلخيصيّة.

الـشـرح:

● **أمّا المقدّمة العامّة:** فيحْسُنُ فيها أن تَجْمَع أُسُسَ العناصر التي ستدورُ تفصيلاتُ الْخُطْبةِ في وسَطِها حَوْلَها، بطريقة لا تُشْعِر بأنّ الخطيبَ يُعَدِّدُ عناوينَ العناصر الّتي سيشرحها، فيكفي فيها ذِكْرُ كُلّيّاتٍ عامَّةٍ تشتمل على هذه العناصر، أو عَرْضُ نُصُوصٍ من القرآن الكريم أو السُّنَّة المطهّرة تُلْمِحُ إليها، أو عرضُ مقولاتٍ مشهورات، تحقّق هذه الغاية، ويكون هذا بعد حَمْد الله والثناء عليه بما هو أهله، والصّلاةِ على رسوله محمّد، والسَّلام على عباده الّذين اصطفى.

● **وأمّا الوسَطُ الشارح:** فينبغي أن يشتمل على شرحٍ وتفصيلٍ مقرونٍ بالإقناعِ واستمالة العواطف وإثارتها، لعناصر الموضوع الْمُعَدِّ للخطبة، مع بيان فروعه وأدلّته وشواهده، واستخدام ما يُوَلِّد في الأنفسِ الاستجابةَ للتطبيق العمليّ، من الترغيب والترهيب وضَرْبِ الأَمثال التاريخيّة ذات العِبَر، إلى كلّ ما من شأنه امتلاكُ الألباب والتَأْثيرُ فيها، والقبضُ على نواصي النفوس وتوجيهها وقيادتها.

● **وأمّا الخاتمةُ التلخيصيّة**: فينبغي أن تشتَمِلَ على زُبْدَةٍ مكثّفة لما جاء مبسوطاً في الْوَسَط الشارح، ويُشْتَرطُ فيها أن تكون واضحةً، سهلةَ الحفظِ، والاستذكارِ، والرِّواية والتّحْدِيثِ بها بعد الخطبة.

ومن المفروض في هذه الخاتمة التّلخيصيّة أن تكون صالحةً للامتصاص التخزينيّ في أفكار المستمعين ونفوسهم، مع تحميلهم مسؤوليّة التطبيق والتّبليغ، وقد يحسن في غير خطبة الجمعة أخذ العهد منهم على ذلك.

الاستطراد في أثناء الخطبة:

قد يعرض للخطيب أثناء خُطْبَتِه أفكارٌ استطراديّة مُهِمَّة، جلبتها مناسبةٌ ما، وقَدْ يَرَاها دُونَ سابقِ إعدادٍ وتخطيطٍ أَهَمَّ من أصْلِ موضوعِ خطبته الّتي حضَّرَها ليُؤَدِّي عناصرها.

فإذا رأىٰ أن الجماهير أَحْوَجُ في موقفه إلى ما جرَّهُ إليه الاستطراد فلا مانع من التركيز عليه، ويُمْكِنُه حينئذٍ أن يتحوّلَ تَحَوُّلاً غير مستنكر إلى هذا الموضوع الجديد الّذِي استطرَد إليه، ولكنْ مِثْلُ هذا لا يُحْسِنُه إلاّ نوادِرُ الخطباءِ الموهوبين، ذوي الذكاء اللّماح، والفطنة الممتازة، مع واسع علم وثقافة عامّة، وقدرةٍ على التصرّف الحكيم البليغ، والتأثيرِ في جمهور المستمعين، بيد أنّه يَحْسُنُ أن يُشِيرَ إلى أنّه باستطراده هذا قد خرج عن أَصْلِ الموضوع لأنّه قد رآه أنْفَع وَأجْدىٰ في هذا الموقف من مُتَابعةِ أصل موضوع خطبته.

وربَّما يكون هذا التحوُّلُ بمثابَةِ المفاجأةِ المثيرةِ للانتباه والإعجاب، ورُبّما يكونُ تأثيرُ عناصِر الموضوع الجديدِ أكْثَرَ مِنْ تأثير عناصر الموضوع الذي كان قد أَعَدَّهُ لخطبته.

لكن لا ينبغي أن يَقُومَ بمثل هذا من لا يُحْسِنُه، فإذا تولّاه من لا يُحْسِنُه

تَاهَ في الشتاتِ الفكري، ووقع في فخ الخروج المذموم عن أصل الموضوع، وهذا من العيوب التي تُحْسَبُ على الخطيب بدون شكّ.

- ٥ -

ما يجب الْتِزامُه في الخطبَة

مع ما سبق بيانُه في (الفصل الأوّل - المنهاج البياني ومسالكه) تدعو الحاجة هنا إلى التّنْبيه على وُجُوبِ التزام ما يلي في الخطبة:

١ - أن يكون لسانُ الخطيب بالعربيّة منضبطاً لا لَحْنَ فيه، ولا خطأ في تِلاوةِ نُصوصِ القرآن، وألفاظِ الأحاديث النبويّة الشريفة، وأقوالِ الناس المرويَّة كشِعْرٍ نفيسٍ، وحِكْمةٍ مشهورةٍ، ومَثَلٍ سائر.

٢ - التزام الصّحّة في المرويَّات من النصوص والأخبار، واجتنابُ رواية الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة الّتي لا يَصِحُّ الاستشهادُ بها، والقصصِ المصنوعة، والخرافاتِ والأساطير التي لم تثبت صِحّتها، واجْتِنَابُ الإتيانِ بمعلوماتٍ غَيْرِ صحيحة في مختلف العلوم الدينيّة وأدواتها، والْعُلومِ الكونيّةِ الطبيعيّة والحوادث التّاريخية.

٣ - الابتعادُ عن الإصرار على حُكْمٍ ديني اختلفت فيه اجتهادات المذاهب الفقهية المعتمدة لدىٰ جهور المسلمين.

وحَسْبُ الخطيبِ إذا احتاجَ أن يَذْكُر الحكمَ الّذي يَنْصُر فيه مذهباً مُعَيَّناً، أنْ يُشِير إلى أن هذا هو الأرجَحُ فيما يَرَى بالنظر إلى ما فَهِمَ من الدليل، ويَذْكُر أنَّ بعض فقهاء المذاهب قالوا بخلافه.

فالإصرار على وجْهَةِ نظَرٍ معيّنة في المسائل الخلافيّة أمامَ جمهورٍ من المسلمين لَهُمْ انتماءات مذهبيّةٌ مختلفة، يُولّدُ شقاقاً بين المسلمين لا يَرْضاه اللّهُ ورسوله.

٤ ـ أنْ لاَ تكونَ الخطبةُ دائرةً حول أفكار فلسفيّةٍ صَعْبَةٍ، أو مفاهيم عويصَةٍ، لا تستَوْعِبُهَا أفكار جمهور المستمعين.

وعلى الخطيب أن يتذكّر دواماً وصيّة عليّ بن أبـي طالب رضي الله عنه: «خاطبوا النَّاسَ على قَدْرِ عُقُولِهِم أتُرِيدُنَّ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ ورسُوله»؟!.

٥ ـ أن يَقْرِنَ بكليّاتِ عناصر موضوعه الذي يخطب حوله الأدلة عليها من القرآن والسنة، وأن يفعل ذلك أيضاً في الفروع ما تيسَّر له الأمر.

٦ ـ أنْ لاَ يُوَاجه المخالفين في مذاهبهم وآرائهم، لبعض مبادىء الإسلام وشرائعه وأحكامه من حاضري خطبته، باتّهامهم بالسفاهة والجهالة وقلّة العقل، أو بالتحقير والاستهزاء والسُّخْرِية، أو بسوء الطويّة وفساد الفطرة، ويجب عليه أن يقتصر على عرض الحقّ مقترناً بأدلته، فقد يكون فيهم من هو مَخْدُوعٌ مُغَرَّرٌ به، فإذا سمع شتيمته والسخرية منه نَفَر وأصرّ على باطله، وقابَلَ بالمثل أو بأشدّ منه.

والواجبُ تَلْيينه وتأنيسُهُ واستمالتُه وترقيق قلبه، وإيجادُ العُذْر له فيما مضىٰ بأنّه لم يَجِدْ من يُقْنِعه بالحقّ، فهذا الأسلوب من شأنه أن يُخْرِجَه من ظلمات الباطل، ويُدْخِلَه في أنوار الحقّ.

٧ ـ الابتعاد عن غرائب الألفاظ المعجميّة الّتي لا يفهم جمهور المستمعين معناها، وعن كلّ لفظ فيه تَقَعُّر وتَفَيْهُقٌ.

٨ ـ إذا لم تَدْعُ الحاجة الاجتماعيّة الملحّة لتطويل الخطبة فمن الخير تقصيرها ما بين (٢٠ ـ٣٠) دقيقة والاستعاضة عن طولها بدروسٍ قبل الخطبة أو بعد الخطبة إن أمكن، فمن السنة عدم إطالة الخطبة.

- ٦ -

إعـداد الخطبـة

الخطيبُ الذي يدعو إلى دين الله، أو يتولّى مهمة الوعظ والإرشاد والتذكير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في مناسباتٍ دوريَّةٍ ينبغي له أن يكون على تفكُّر باهتمام ما بين الخطبتين، مع مراقبة مستمرة لتطوّرات الأحداث اليوميّة في مجتمعه وفي العالم، ليُحْسنَ اختيارَ الموضوعِ الّذي يكونُ عِمَادَ خطبته الآتية، الّتي يُعَالج فيها أوْلَوِيَّاتِ الأمور.

فإذا استقرّ على اختيار الموضوع تفكّر في عناصره، وأدلّته وشواهده، والأمثال التي يَضْرِبها فيه إذا كان يناسبه ذلك.

وينبغي له أن يستصحب معه ما يُدَوّن فيه عنوان الموضوع، ومُوجَزَ خواطره حوله، وما يتصيَّد له من أدلةٍ وشواهد وأمثال.

وينبغي لَهُ أن يكون كثير القراءة والاطلاع على الكتُب المعاصرة النافعة، والمقالات والمحاضرات المكتوبة بأقْلام كبار رجال الدَّعْوَة والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذين يحسنون مُتَابَعَة الأوضاع المعاصرة، ومعالجتها بحكمة، مع تَزَوُّدِه المستمرّ من كُتُبِ التراث الموسّعة لعلماء المسلمين الذين لهم نَفَسٌ بيانِيٌّ دعويّ وإرشاديٌّ طويلٌ في تفسير كتاب الله، أو شرح أحاديث رسول الله، وبسط الوصايا والنصائح التوجيهيّة لفضائل الأخلاق ومَحَاسِن السلوك الإسلاميّ، والترغيب في التزام أحكام الدِّين، والترهيب من مخالفتها.

وينبغي له لدى اختياره موضوعه أن يهتمّ بالتركيز على ما هو أولى بالتأسيس أو التثبيت أو الحثّ على التطبيق من أصول الدّين وفروعه، وأن تكون خطبته من واقع الحياة وما يدور فيها، وما يحيط بالناس من ملابسات ومستجدات، وأن يهتم بالبحث عن العلاج النافع من مفاهيم القرآن والسنة.

وليَحْذَرْ أن يَجْعَل موضوعَه كلّه دائراً حول صغيرة من الصغائر، مع أنّ معظم جمهور مستمعيه يحتاجون إلى حثّهم على أداء الفرائض العظمى، واجتنابِ الكبائر، فمراعاةُ التَّدَرُّجِ في سُلَّم الأولويّاتِ أمْرٌ ضروريٌّ للدَّاعِية، وللواعظ المذكّر المرشد الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر.

وينبغي أن يَجْعَل لكل خطبةٍ من خُطَبه موضوعاً مناسباً تدور حوله.

فمن أمثلة موضوعات الدعوة إلى الله: (آيات الله في الكون ـ آياتُ الله في الأنفس ـ دعوةُ جميع رُسُلِ الله إلى التوحيد ـ قصةُ من قصص الأوّلين الّذِين كذّبوا الرسل ـ إعجازُ القرآن ولا سيما ما فيه من إعجازٍ علمي ـ أسُسُ الإسلام الاعتقاديّة ـ أسس الإسلام الأخلاقيّة ـ أحكام الإسلام وشرائعة القائمة على الحقّ والعدل وإنصاف المظلومين ـ تحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ـ اهتمامُ الإسلام بإصلاح المجتمعات البشرية وسعادتها ـ رحمتُه بالناس أجمعين ـ كون رسول الله محمد رحمة للعالمين ـ كونُ رسالته عامّة للناس أجمعين ـ أن الإسلام لا يُكْرِه أحداً على الدخول في الدّين، لكنْ يُنْذِرُ من أبىٰ بعذاب خالد يوم القيامة بعد رحلة الحياة الدنيا في دار العذاب الأليم، ويُبَشّر من آمن واتّبع ما جاء به رسول الله ﷺ بالفوز يوم القيامة بجنَّات النّعيم. . .) إلى أمثال هذه الموضوعات الدعويّة.

ومن أمثلة موضوعات النصح والإرشاد والتذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الإيمان وأركانه ـ الإسلام وأركانه ـ التقوى مفهومُها وعناصرها ـ الكفر والمكَفّرات وعقابُ الكافرين المعجَّل والمؤجّل ـ النفاق وصفات المنافقين وعاقبتهم ـ الصَّلاة وقيمتُها وحكمتُها وكونُها عمادَ الدين ـ الزكاة وأهميتها وحكمتها وعناصرها وعقوبات تاركيها ـ الصّيام وفضائله ومنزلته في الدين وآثارُه في النفس والمجتمع ـ الحجّ وفضائله ومنزلته وحكمته ـ أكل أموال الناس بالباطل وعقوبته المعجلة والمؤجلة ـ الرِّبا

وعقوبة مرتكبيه ـ الزنا ومخاطره وعقوباته ـ عمل قوم لوط ومخاطرُه وعقوبته ـ الصدق ـ الأمانة ـ العفة ـ الجرأة الأدَبيّة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ الجهادُ في سبيل الله بالأنفس وبالأموال ـ الصدقات وفضائلها ـ حُسْنُ تربية البنين والبنات ومسؤوليّات الآباء والأمّهات نحوهم ـ المشاركةُ في أعمال الخير ـ الذكر والدعاء وقيمَتُهُما وفضائلهما ـ حُسنُ المعاشرة بين الزوجين وحقوق كلٍّ منهما وواجباتُه تُجاه الآخر وتجاه ذُرّياتهما وضرورة بناء الأسرة المسلمة. . .) إلى غير ذلك من فيض موضوعات إسلامية في أصول الدين وفروعه الأخلاقيّة والتعبّديّة والتعامليّة مع المسلمين ومع غيرهم من خلق الله.

وينبغي لمن يَحْمِلُ مُهمَّة الخطابة ولكلِّ داع إلى الله أو ناصح مذكّر مرشد آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر من فئة المتخصّصين، أنْ يتخذ لنفسه معجماً مفهرساً، يُدَوّن فيه بالتتابع مع مرور الزمن كُلَّ عنوانٍ لموضوعٍ من الموضوعات الَّتي تخدمه في أداء رسالته، فكلّما قرأ في كتابٍ من الكتب المناسبة لرسالته بحثاً، أو مقالة، أو حديثاً، أو قصة، أو مثلاً أو عِبْرة أو كلاماً منمّقاً نفيساً، أو شعراً جيداً، سجّل في معجمه الخاصّ عنوان هذا الموضوع الذي أعجبه مما يناسب رسالته، في الحرف الذي هو تابع له، ويُدوّن في صحيفة هذا العنوان ما يلي:

١ ـ يُرْجَع للاستفادة إلى كتاب كذا في صفحة كذا فيذكر اسم الكتاب ورقم الصفحة، أو إلى مجلة كذا أو صحيفة كذا، ويذكر رقم العدد ورقم الصفحة، ويحتفظ عنده بنسخة من ذلك.

ثمّ كلّما قرأ بحثاً آخر حوْلَ الموضوع نفسه أضافه إلى صفحة الموضوع برقم جديد كما يلي:

٢ ـ ويُرجع إلى كتاب أو مجلة أو صحيفة. . . في صفحة. . .

وكذلك يفعل في الآيات والأحاديث النبويّة والشواهد التاريخيّة، مشيراً

إلى السورة ورقم الآية، وإلى الحديث ومكان وجوده في كتب الحديث وشروحها[1].

ويَنْبَغِي لمن يُعِدُّ نَفْسَهُ لأن يكون خطيباً مؤثراً في جماهيره، وقادراً على الارتجال وإلقاء خطبته إلقاءً، دون أن يقرأها من ورقة، أن يبدأ رحلته بأن يكتُب خُطْبَتَهُ كاملةً، فإنْ وجد في نفسه الاستطاعة والجرأة على أن يُمْلِيَها ارتجالاً فليفعل على سبيل تدريب نفسه في جمهور يتقبل منه العثرات، ولا يُحَاسبُه أحَدٌ منهم عليها. وإذا لم يتجرّأ على ذلك فلْيَقْرأْها من الورقة، بعد أن يضع عناصرها في ذاكرته، وليكرّر قراءتها في جماهير مختلفة، ثمّ يُدَرّبُ نفسه على إلقائها ارْتجالاً.

ثمّ يكتبُ خطبة أخرى ويكرّر العملية الأولى، ثم خطبة ثالثة، ورابعة، وخامسة، وهكذا حتّى تتجمّع لديّه عشرات الخطب أو مئاتها، وفي كلّ خطبة يدرّبُ نفسه على قراءة الخطبة من الورقة، وإلقائها ارتجالاً من الذاكرة مستعيناً بمذكّرة يسجل فيها عناصر الموضوع، والنصوص التي يستشهد بها، أو مقدمات النصوص إذا كانت محفوظة لديه.

إنّه بعْدَ مُدَّةٍ تطولُ أو تقصر سيجد نفسه قادراً على أَنْ يَرْتَجل خطبة كاملة، مستعيداً فيها ما سبق أن سجّله في أوراقه المكتوبة، فإذا كان من الموهوبين بفطرته أن يكون خطيباً، فإنّه سيكتسب بعون الله ملكة الإلقاء الارتجالي بالتدرج، ولو فوجىء بالدّعوة إلى أن يخطب بين الجماهير خطبة لم يُعِدَّ لها سابقاً.

حتى إذا اكتسب ملكة الارتجال الموفّق فإنّ عليه أن يكون دائم المراجعة والقراءة والاطلاع، والإضافة إلى مخزونات ذاكرته، وإلى معجمه

(١) لو اهتديت إلى هذه الطريقة منذ بداية رحلتي العلميّة لوفّرتُ على نفسي جهداً عظيماً، ولكان من الممكن صرفه في الإنتاج.

المفهرس، وأن يُواظب على كتابة خُطَبِه، ولو لم يقرأها من أوراقه، فإنَّها ستكُون له عوناً وزاداً دائماً يعطيه ثراءً جديداً من المعرفة، ثمّ تكونُ مرجعاً مفيداً له ولغيره من الذين يُعِدُّون أنفسهم ليكُونوا خطباء.

* * *

- ٧ -

هل الخطابة استعداد فطري أمْ ملكة تكتسب؟

اتّفق الباحثون على أنّ الْقُدْرة على الخطابة الارتجالية، هي في الأصْل استعدادٌ فطري، وهذا الاستعداد ينمو بالعلم والممارسة، ولكلّ ذي استعدادٍ نصيبٌ من الارتقاء في سلّم الخطباء الموهوبين بالممارسة والمِران، حتّى يصل إلى الدرجة الّتي يمكن أن يرتقي إليها استعدادُه الفطري، وهنا لا بُدّ أن يتفاوت الخطباء في مراتبهم، كسائر الاستعدادات الفطريّة في الناس.

وبعض الناس ضعيفُ الاستعداد الفطريّ لأن يكون خطيباً مفوّها، ولكن بإمكانه أن يُدَرِّب نفسه، حتى يَصِل إلى درجَةٍ تَصْلُح لجمهور يُناسِبُ ما وصل إليه، فَيُسْتَفادُ منه في حدود هذا الجمهور وأشباهه.

أمّا إذا كان كثير العثرات على الرُّغم من طول الممارسة، فمن الخير له دواماً، أن يعتمد على قراءة خطبته المكتوبة، من إنشائه، أو ممّا نقل من كلام أساطين الخطباء والكُتّاب المعاصرين أو غيرهم.

* * *

- ٨ -

الصفات المفضلة للخطيب عند الخطبة

ينبغي للخطيب أن يتحلّىٰ بالصفات التالية عند خطبته:

١ ـ أن يكون وَقُوراً حَسَنَ الهيئة في زِيٍّ يُشْعِرُ بالمهابة.

٢ ـ أن يخطُب وهو واقف.

٣ ـ أن يختار مكاناً مُشْرِفاً مناسباً يَرَاهُ فيه جميع جمهور المستمعين أو أكثرهم، ولا يُشترطُ أنْ يكون المكان مُشْرفاً بالنسبة إلىٰ خطيب المحافل الّتي لا يوجد فيها مكان مشرف، ويكتفي بالوقوف في مكان مشهود.

٤ ـ أنْ لا يكون جامداً جمود الوثن الذي لا تتحركُ منه إلاّ شفتاه، وأنْ لا تَكُونَ حركاتُه دالَّةً على خِفَّته وطيشه، بل يكون رزيناً رصيناً، مُتدفق الحيوية تدلُّ حركاته الرزينة على كمال عقله وحُسْنِ مخاطبته لجمهوره،

٥ ـ من براعته أن تكون إشاراته في حركات يَدَيْهِ وقَسَمات وجْهِه مشَارِكةً لكلماتِهِ في التعبير عن مراداته، وأن تكون بمثابة وسائل إيضاحٍ تعليميّةٍ لا إسراف فيها، وأن لا يوجد فيها ما لا يَليقُ بوَقار الخطيب ومُهِمَّةِ رسالته.

ومن الإشارات الوقورة البارعة ما جاء في قول الرسول ﷺ، فيما رواه البخاريّ ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد: «بُعِثْتُ أَنَا والسَّاعَة كَهَاتَيْن».

وأشار الرسول بأصبعيه السبّابة والوسْطَىٰ، وفيما رواه البخاري أيضاً عن سهل: «أنَا وكَافِلُ الْيتيم في الْجنَة هَكذا» وأشار بأصبعيه السبّابة والوسطى وفرَّج بينهما. ومنها ما رواه الطبريّ بسنده عن أنس أنّ النبـيّ ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: «هكذا بأصْبَعِه» ووضع النبـي ﷺ أصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر: «فَسَاخ الْجَبَلِ».

فدلّت هذه الإشارة على مقدار التجلّي من الرّبّ جلَّ وعَلا الّذي ساخ به الجبل.

٦ ـ أن يُعْطِيَ من نَظَرَاته وتَوَجُّهه وعنايته كلَّ جُمْهُورِ مستمعيه، ويَحْسُن أن يخُصَّ الشيوخَ الكبارَ والفتيانَ الصَّغارَ بتوجُّهٍ مقصود، ففي توجُّهه لكبار السّن تكريمٌ له أثارٌ حميدة، وفي توجُّهه للفتيان والصغار إيناسٌ يربطهم بالدين ويرغبهم فيه.

- ٩ -

زخرفيات الخطبة بصفة عامّة

الخطبة المؤثّرة الّتي تَسْتَحوذُ على مشاعر المستمعين هي الّتي تجمع طائفةً ذات تأثيرٍ على الأفكار والنفوس من الزخرفيَّاتِ البيانيّة اللّفظيّة والفكريّة المتنوّعة، ومنها ما يلي:

١ ـ سهولَةُ تناولِ أفكار الموضوع وسهولةُ الاقتناع بها.

٢ ـ جمالُ الأسلوب البياني وحلاوتُه في الخطبة، مع اشتمالها على جماليات بلاغيّة غير متكلّفة، ممّا كشفت عنه فنون البلاغة العربية لِيَشْعُر المستمعُ بلذَّةِ الإِصغاء والمتابعة.

٣ ـ التلاؤم بين الكلمات المختارة والأفكار الدالّة عليها.

٤ ـ التلاؤم بين الصَّوتِ ونبراته ونغمته وقُوّتِه وضعفه، ولِينِه وقَسْوتِه، وبين المعنى الذي يؤدّيه القول ويُدلُّ عليه.

فلكلّ صنف من المعاني ما يلائمه من صوت ونبرة، ونغمة، وقوةٍ وضعفٍ، ولينٍ وقسوة، إلى غير ذلك.

ومن أصناف المعاني ما يلي: (التشويق لمحبوب ـ التحزين على عزيز ـ الترغيب في خير ذي فائدة ونفع ـ التخويف من مكروه أو مصيبة أو شرّ فيه خسارةٌ وضُرٌّ ـ التشجيع على بذل وتضحية ـ التحبُّب والتودّد والتأنيس ـ الدُّعاءُ والاستجداء بتذلّل وخضوع . . .) إلى غير ذلك من صنوف المعاني.

ومعلومٌ أنّ إدْراك الفروق ووضعَ كلِّ صنفَ من الأصوات وصفاتها مع ما يُلائمه من المعاني يتطلّب ذَوْقاً سمعيًّا جيداً، وممارسة طويلة يراقب فيها الخطيب بذكاء لمَّاحٍ رُدُود أفعالِ المستمعين، ومدَى تأثُّرِهم واستجاباتهم، أو بُرودِهِمْ وانصرافهم عنه بأجسادهم أو بأفكارهم ونفوسهم.

٥ ـ استجماع الخطبة لمُنْتَقيات من طرائف ودُرَرِ جميلةٍ نفيسةٍ من النوادر والأفكار والأقوال التي تَمْتَلِكُ إعجاب المستمعين، من نثر أو شعر.

٦ ـ الاستشهاد بنماذج مناسبة لموضوع الخطبة من القصص والأخبار الثابتة الّتي تستميل الأفكار والنفوس للإصغاء والتأثُّر.

زائد خرفيات الخطبةِ في موضوع من الموضوعات الدينيّة:

أمّا الخطبة في موضوع من الموضوعات الدينيّة، فلها مع الزخرفيات السابقة زخرفيّاتٌ زائدةٌ خاصةٌ بها، ومنها ما يلي:

٧ ـ تدعيم أفكار الخطبة بنصوص ملائمة من القرآن الكريم، تقع في صلب الموضوع، أو تَلْتقي معه بمناسبةٍ قويّة.

فإذا شُرِحَتْ هذه النصوص شرحاً بارعاً يَكْشِفُ صِلَتها بالموضوع، كان هذا أعظم تأثيراً وامتلاكاً للقلوب والنُفوس.

٨ ـ تدعيمُ الخطبة بمختارات من الحديث النبويّ الشريف، وبصُوَرٍ من السّيرة النبويّة، وقِصَصِ الأنبياء.

٩ ـ التزيينُ بمختاراتٍ من أقوال كبار الصحابة والتابعين ومواعظهم.

١٠ ـ التزيين بمختاراتٍ مُلاَئماتٍ من الحِكَمِ المأثورة، والأمثالِ المشهورة.

١١ ـ التزيين بمُقَلَّدَاتٍ من عُيُونِ شِعْر كِبَارِ الشُّعراء، ممّا يشتمل على حكمة أو موعظة.

١٢ ـ عرض نماذج من سِيَرِ الصحابة، وفضلاء التابعين والعلماء والصُّلَحَاءِ، وأبطال المسلمين، وقادَةِ الفتح الإسلاميّ.

فلمثل هذا العرض تأثيرٌ قويٌّ في النفوس، لما فيه من تقديم صُوَرٍ من

حياة مَنْ هُمُ القدوةُ الحسنةُ لجماهير المسلمين.

١٣ ـ البراعة في إفهام مَسَائلِ الدِّين، ومعاني النصوص، بأسلوبٍ سَهْل مُيَسَّرٍ مُسْتَسَاغ، لا تعقيد فيه ولا غُمُوض، وليس فيه التزام، بمصطلحاتٍ علميّة.

١٤ ـ بَيَانُ الحِكَم التشريعية التي تشتمل عليها تطبيقاتُ أحكام الدين وتعليماته، وما فيها من تحقيقٍ لمصالح العباد وسعادتهم، في الدنيا دار الابتلاء، ثمَّ في الآخرة دار الجزاء.

* * *

ـ ١٠ ـ
عيوب الخطبة

تنقسم عيوب الخطبة إلى عيوبٍ في شكل الأداء، وإلى عيوبٍ في المضمون الفكري:

أوّلاً ـ بيان العيوب الّتي تكونُ في شكل الأداء:

١ ـ كثرة اللّحن في الكلام العربـي الفصيح، والخطأُ في تلاوة أو قراءة النصوصِ من القرآن والسنة وغيرهما.

٢ ـ الركاكةُ وسُوءُ التعبير عن الأفكار، والتلعثُمُ الكثير في الكلام.

٣ ـ التدفُّق السَّريعُ كشلاَّلٍ يَنْحدِرُ من الأعلى بقوّة، فيراه النظَّارة مشهداً مُثِيراً للدهشة، ذا حركات متكررات أو متشابهات، إلاَّ أنّهم لا يستطيعون الاقترابَ منه للشرب المريء، الذي يُروي الظماء، ويملأ البطونَ بعذْبِ الماء، فلا يَروقُهُمْ منه إلاّ المنظر الجميلُ المريح.

٤ ـ البرودُ الذي يُورِثُ نَوْمَ المستمعين، إذْ يكون حالُهُمْ مَعَهُ كحال من

يجلسُ في غرفة باردة رَطْبَةٍ مظلمة تجلُبُ الكَسَلَ فالنوم.

٥ ـ الصياحُ الشديدُ الذي يُؤذِي الأسماع، إذْ يتجاوز الحدَّ المقبول، ولا سيما إذا كان من صوت ذي نكارةٍ بخشونته، أو قَلْقَلَتِهِ وارتجاجه، أو حِدَّتِه الجارحة كالشفرة، أو الواخِزَةِ كالإبْرَة.

٦ ـ الوتيرة الواحدة في الأداء على نمط رَتيبٍ متماثل، يتجَمَّع حَشْداً، ويَتَعَاقَبُ سَرْداً.

٧ ـ اهتمام الخطيب بالتوجّه لبعض الحاضرين، دون إعطاء الباقين حقهم من الاهتمام.

ثانياً ـ بيان العيوب الّتي تكون في المضمون الفكري:

١ ـ الإيجاز الْمُخِلّ، والتطويلُ الْمُمِلّ.

٢ ـ التَّنَوُّع غير المترابط في الأفكار، الّذي لا يسير على وفق نظام الترابط الشجريّ، بل تأتي الأفكار فيه أكواماً غير متناسقة ولا متلائمة، كمنْ يقبضُ من كلّ محلٍّ تجاريٍّ في السوق قبضةً أو قطعةً، ثُمَّ يَنْثُرها على جمهوره نَثْراً عشوائيًا.

٣ ـ أن تُورِثَ الخطبةُ الملَلَ والسَّأم، بِسَبَبِ الْجَهْدِ في فَهْم أفكارها، أو الغموضِ في معانيها لكثرةِ ما فيها من تَوْرِيَاتٍ وإيماءات رمزيّة بعيدة عن الأفهام، أو لغرابة ألفاظها، والتعقيد في تراكيبها، أو لغير ذلك.

٤ ـ اشتمال الخطبة على مثيراتِ مشاعرِ الاشمئزازِ والتقزّزِ والغضب. سَوَاءٌ أكان ذلك من ألفاظها القبيحة المعاني، أمْ من معانيها القاسية الْمُرَّة، الَّتي لم تُغَلَّفْ بما يُطَرِّيها، أَوْ يَجْعَلُها ـ ولو في الظاهر ـ حلوةَ المذاقِ مستساغةً في البَلْع.

٥ ـ اختيار موضُوعٍ غيْرِ ملائم، كاختيار موضوع من الموضوعات الَّتي

ليْسَ لها في الحياة المعاصرةِ صِلَةٌ بالناس، كبحث أحكام الرقيق وعِتْق الأَرِقّاء، وشَغْلِ الخطبة به، في عصر اصطلحت فيه دُوَلُ العالم على إلغاء الرقيق، وكتفصيلِ أحكام زكاة الإبل المقتناة، في جمهورٍ لا يعرفُ اقتناء الإبل.

٦ ـ تَضَمّنُ الخطبةِ ما يَدُلُّ على أنَّ للخطيب مَصَالِحَ خاصّة من خطبته، لشخصه، أو لجماعته، أو للشريحة الاجتماعية التي هو منها.

٧ ـ الإغراقُ في بحثٍ علميٍّ تخصُّصي.

٨ ـ تشعّبُ موضوع الخطبة تشعُّباً يَصْعُبُ على المستمع ربط عناصره بخطوط موضوعه الأساسيّ الذي يُعالَجُ ربط عناصره بخطوط موضوعه الأساسيّ الذي يُعالَجُ فيها.

٩ ـ توجيهُ الاهتمام لصغائر الأمور، وجعلُها محور الموضوع، فصغائر الأمور لا يَحْسُنْ أن تأتي إلاّ عرضاً، وضمن المناسبات الّتي تدعو إلى ذكرها، وبصورة خفيفة لا يَشْتَدُّ التركيزُ عليها.

١٠ ـ التكرار المملّ، والدوران في الأفكار، كالخطّ الذي يدور عائداً إلى بعض الدوائر السابقة فيخترقُهَا ويرجِعُ كلَّما تقدَّمَ خطوةً إلى الأمام.

فبعضُ الخطباءِ والكتّابِ تَراه يتقدَّم في الأفكار إلى الأمام، ثم يرجع فيستأنف من بعض المراحل الفكريَّة التي قطعها من قَبْل، ويكرِّرُها، فإذا وصَلَ إلى ما انتهىٰ إليه زاد بعض الأفكار، ثُمَّ عاد فاستأنف من بعض المراحل السابقة، وهكذا دواليك.

* * *

- ١١ -
الخطيـب وجمهـوره

ينبغي أن لا يكون الخطيبُ مكروهاً لدىٰ جمهور مُسْتَمِعيه، أو غير محترم لديهم، أو غيرَ موثوق به علماً أو خلقاً أو سلوكاً.

فإذا كان كذلك فَعَلَيْهِ أن يُمَهِّد بمختلف الوسائل الممكنة حتَّىٰ يكون مقبولاً لديهم ومحترماً وموثوقاً به، وقد يحتاج هذا إلى مدّة من الزّمن، وقد يُضطر أن يوجّه نشاطه إلى جهة أخرى يُقْبَل لدى أهلها، حتَّىٰ إذا ذاع صيته أمكنه أن يكونَ له انتشار عام.

* * *

- ١٢ -
أمثلة من خُطَب الأسْوَةِ الحسنة

المثـال الأول:

خطبة نبويّة قصيرة دعت إليها مناسبة

(المناسبة)

عن جرير بن عبد الله الْبَجَلي رضي الله عنه قال:

كُنَّا في صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رسول الله ﷺ فجاءَهُ قومٌ عُراةٌ مُجْتَابِـي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ[1]، مُتَقَلِّدِي السُّيُوف، عامَّتُهُمْ من مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَر[2]، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا رَأَىٰ بِهِمْ مِنَ الْفَاقَة[3]، فَدَخل ثُمَّ خَرَجَ، فأمَرَ بلالاً فَأَذَّنَ وأقام فصلَّىٰ ثُمَّ خَطَبَ فقال:

---

(١) مجتابـي النِّمار: أي مُقَطِّعي الثياب. النِّمار: ثياب من صوف يلبسها الأعراب.
(٢) مضر: قبيلة عربية تنسب إلى مُضَر بن نزار بن مَعدّ.
(٣) تَمَعَّرَ: أيْ: تغيَّرَ لَوْنه. الفاقَة: الفقر والحاجة.

(مقدّمة الخطبة)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ .

(النساء/ ٤)

والآية الّتي في الحشر:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾ .

(الحشر/ ٥٩)

(الخطبة الموجزة)

«تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِه، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّىٰ قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

(أثر الخطبة)

قَال: فجاء رجُلٌ من الأنصارِ بصُرَّةٍ كادَتْ كَفُّهُ تعجزُ عنها، بلْ قد عجزَت.

قال: ثُمَّ تتابَعَ النّاسُ حتَّىٰ رأيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعامٍ وثيابٍ، حتَّىٰ رأيْتُ وجْهَ رسول الله ﷺ يَتهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ[١].

(مرحلة المتابعة بعد الخطبة)

فقال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَنَّ فِي الأَسْلَام سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِن غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَام سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

(رواه مسْلِمٌ)

---

(١) يتهلّل: يستنير ويتلألأ. كأنّه مُذْهَبَة: أي: كأنّه فضّة مموّهَةٌ بالذهب.

فاشتملت هذه الخطبةُ على المقدِّمَة، وفي أغلب الظّنّ أنَّ الرَّسُول قد حَمِدَ الله وأثْنَى عليه كما هو عادته، وإنْ لم يأتِ هذا في رواية الحديث، والمقدِّمة هي تلاوة آيَتَين لهما علاقة بموضوع الخطبة، وهو الحث على البذل لهؤلاء الفقراء من الأعراب.

وبعدها جاءت الخطبة موجزة جِدّاً فلم تحتج إلى خاتمة تلخِيصيّة. وكان من أثر الخطبة التطبيق العمليُّ بالبذل.

ثم استفاد الرسولُ من سَبْق السابقين إلى البذل فعلّقَ عليه ببيانِ أصْلٍ من أصول الجزاء، لمن سنّ سُنَّةً حسنةً، ولمن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئة.

المثـال الثـاني:

خطبة نبويّة قصيرة دعَتْ إليها مناسبة

(المناسبة)

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنَّ قُرَيشاً أَهَمَّتْهُمُ الْمَرْأَةُ المخزوميَّةُ الّتي سَرَقَتْ فقالوا: مَنْ يُكَلِّمُ فيها رسُولَ الله ﷺ؟ قالوا: ومَنْ يَجْتَرِىءُ عَلَيْهِ إلاَّ أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟. فكلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقال: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟!

(الخطبةُ الموجزة)

ثُمَّ قَامَ فخطَبَ فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّمَا ضَلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحدّ، وَايْمُ اللَّهِ[1]، لَوْ أَنَّ

---

(١) وايُمُ الله: قسمٌ، أصلُها: أيْمُن الله، همزته في الأصل للقطع، ثم أصبحت بكثرة الاستعمال همزة وصل.

فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَها».

وجاء في رواية: ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ المرأَةِ الّتِي سَرَقَتْ فَقُطِعَتْ يَدُهَا.

المثـال الثـالث:

خطبة الرسول ﷺ يَوْمَ النحر

روى البخاريُّ ومسلم عن أبـي بَكْرَةَ رضي اللَّهُ عنه قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قال:

«إِنَّ الزَّمَانَ قدِ اسْتَدَارَ كهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاَثٌ مُتَوَالِيَاتٌ، ذُو الْقَعْدَةِ، وذُو الْحجَّةِ والْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادىٰ وشَعْبَانَ».

وَقَال: «أَيُّ شَهْرٍ هٰذَا؟».

قُلْنَا: اللَّهُ ورَسَولُهُ أعْلَمُ، فسكَتَ حتَّىٰ ظَنَنَّا أنَّه سَيُسَمّيه بغير اسمه.

فقال: «أَلَيْسَ ذَا الحجّة؟»

قُلْنَا: بَلَىٰ.

قال: «أَيُّ بَلَدٍ هٰذَا؟».

قُلْنَا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتَّىٰ ظننَّا أنه سيُسمّيه بغير اسمه.

قال: «أَلَيْسَ البَلْدَةَ؟».

قلنا: بلىٰ.

قال: «فَأَيُّ يومٍ هذا؟».

قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتَّىٰ ظَنَنَّا أنَّه سَيُسَمّيه بغير اسمه.

قال: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟».

قُلنا: بلى.

قال: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَـٰذَا، في شَهْرِكُمْ هذا.

وسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالاً، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.

أَلَا هَلْ بَلَّغْتَ؟».

قالوا: نعم.

قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغَ أَوْعىٰ مِنْ سَامِعٍ».

هذه خطبة عجيبةٌ بما فيها من طرْح أسئلة حول الشهر والبلد واليوم، لإعداد النفوس إعداداً تَسْتَشعر به عظمة حُرْمَتِها، حتّى إذا تمَّ إعدادها، أبَانَ الرسول ﷺ حُرْمَةَ الدماء والأموال والأعراض، وخوَّفَهُمْ من لقاء الله وسؤاله إيّاهم عن أعمالهم، وبَعْدُ أخذ اعترافهم بأنه قد بلّغ، وبعد ذلك أمَرَهُمْ بالتبليغ.

المثال الرابع:

مقطع من خطبة طويلة للرسول ﷺ

روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم والبيهقيّ عن أبـي سعيد الخدري قال: صلَّىٰ بنا النبـيُّ ﷺ يوماً صلاةَ العصر، ثمّ قام خطيباً، فلم يَدَعْ شيئاً يَكُونُ إِلَىٰ قيام السّاعة إلاّ أخبرَنا به، حفظه مَنْ حفظه، ونَسِيَهُ مَنْ نَسِيَه، وكانَ فيما قال:

«إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

أَلاَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، أَلاَ لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ.

أَلاَ إِنَّهُ يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القيامة بِقَدْرِ غُدْرَتِه، وَلاَ غُدْرَةَ أَعْظَمُ مِنْ غُدْرَةِ إِمَامِ عَامَّةٍ.

أَلاَ إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ حُمْرَةَ عَيْنَيْهِ، وَانْتِفَاخَ أَوْدَاجِهِ، فَمَنْ أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصَقْ بِالأَرْضِ».

فواتح خُطَب الرسول ﷺ:

قال ابن قتيبة[1]: (تَتَبَّعْتُ خُطبَ رسول الله ﷺ فوجدت أوائل أكثرها:

«الْحَمْدُ للَّه: نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، ونُؤْمِنُ به، ونَتَوَكَّلُ عَلَيْه، ونَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، ونَعُوذُ باللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، فَأَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ».

ووجَدْتُ فِي بَعْضِهَا:

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَىٰ اللَّهِ، وأَحُثُّكُمْ علَىٰ طَاعَتِهِ».

ووجدَتُ كُلَّ خُطْبَةٍ مفتاحُها: الحمد، إلاّ خطبة العيد، فإنَّ مفتاحها التكبير، وتكبير الإمام قبل أن ينزل أربع عشرة تكبيرة) اهـ.

المثـال الخـامس:

خطبةٌ لسيد الأنصار سعد بن مُعَاذ قبيل
المعركة في غَزْوَة بدر الكبرى

لمّا علم الرسول ﷺ حينما خرج بالمسلمين لمصادرة قافلة قريش، أنّ أبا سفيان تحوّل بالقافلة عن خطّ سيرها ونَجَا بها، وعَلِمَ أنّ جيش قريشٍ قد

(١) في كتابه «عيون الأخبـار» (٢/ ٢٣١) عن كتاب الخطـابة. اد. محمود عمـارة ص ٢٠١.

خرج مقاتلاً بِعَدَدٍ وَعُدَّةٍ، اسْتَشَارَ أصحابه، فقام أبو بكر فقال وأَحْسَنَ القول، وأعلن الاستعداد لمواجهة العدوّ ومقاتلته، إذا رأى الرسول ﷺ ذلك.

ثم قام عمر فقال وأَحْسَنَ القول. ثم قام المِقْدادُ بْنُ عَمْرٍو، فأَحْسَنَ المقال بشجاعة وصِدْق.

وهؤلاء كلّهم مهاجرون، والرسول ﷺ يريد أن يسمع من الأنصار، فقال: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاس».

فقال له سَعْدُ بْنُ مُعاذٍ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ الله؟ قال: «أَجَلْ» فقام سَعْدٌ فألْقَىٰ خُطْبَةً مُوجَزَةً رَائِعةً:

(قَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَىٰ ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا، عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ، فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بالْحَقِّ، لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَـٰذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَىٰ بِنَا عَدُوَّنَا غَداً.

إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ).

ولسيدنا عليّ بن أبـي طالب رضي الله عنه روائع خُطَبٍ يَحْسُنُ الاطلاعُ عليها، والاستفادة منها.

* * *

المثـال السـادس:

خطبة موجزة للحسن البصري

كان الحسن البصريّ إماماً حكيماً قويّ التأثير في مستمعيه، ومن خطبه الوجيزة في الموعظة الحسنة قوله:

(يَا ابْنَ آدم، طَأْ الأَرْضَ بِقَدَمِكَ، فإِنَّهَا عَمَّا قَلِيلٍ قَبْرُكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ

تَزَلْ فِي هَدْمِ عُمْرِكَ مُذْ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ، فَرَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً نَظَرَ فَتفَكَّرَ، وَتفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، واعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، وَأَبْصَرَ فصَبَرَ)[1].

- ١٣ -

انتكاسة في تاريخ الخطب المنبريّة

مرّ عصرٌ في تاريخ الخطب المنبرية قلَّ فيه العلم، وجَمَدَ فيه خطباء المنابر على نماذج تقليديّة، وصار الخطباءُ المؤهَّلُونَ لأداء خُطْبَةٍ مؤثّرة نافعة نادرين جدًّا، حتَّىٰ كَاد المسلمون لا يَجِدُون لمئة منبر من منابرهم خطيباً صالحاً لأداء خُطْبَةٍ مُؤَثِّرةٍ نافعة، تُحرِّكُ مَشاعِرَهُمْ، وتوجِّههم توجيهاً فاعلاً لأداء الواجبات، وتَرْك المحرّمات، وفعل الخيرات والمبرّات.

وصار أشباهُ الأُمّيين هم خطباءَ الجمعةِ والعيدين، وانصرف علماءُ العلومِ الإسلاميّة عن اكتسابِ مَلكَة الخطابة، إلى حفظِ مسائلِ العلوم من خلال متونٍ مختصرةٍ جدًّا تُبْعِدُ حُفَّاظَها عن التعبير عنها بعباراتٍ مَبْسُوطَةٍ يُنْشِئونَها من عند أنفسهم.

واضطر هؤلاء وهؤلاء إلى الاعتماد على خُطَبٍ مَكْتُوبَةٍ أخذت طريقها إلى المطابع فيما بَعْدُ، وهي بعَدَدِ خُطَبِ الْجُمَعات والعيدين في السنة، وقد راعَىٰ مُنْشِؤُوها في ترتيبها مناسباتها، وأنشؤوها على نظام السَّجْع في جُمَلٍ متكلّفة، لا تشبع حَاجةً فكريّة ولا حاجة نفسيّة، ولا تثير عاطفة.

حتَّىٰ حفظ بعضُ المواظبين على حضور خُطَبِ الجمعات موضوع

---

(١) عن (الخطابة) للدكتور محمود عمارة ص ١٧٧ .

خطبة الأسبوع وبعض عباراتها، وبذلك فقدت الخطب المنبريّة أهدافها، وصار بعضُ خطباء الجمعة والعيدين محلّ سُخْريَةِ الساخرين، وهزء المستهزئين من الأدباء وذوي الفكر.

والسبب في هذا عمومُ الجهل، وعدمُ إعداد من يصلُح لأداء هذه الوظيفة الجليلة من وظائف الأمّة الإسلامية.

أمّا الآن فقد صلح بحمد الله حال كثير من خطباء المنابر على وجه العموم، مع أنه لا يزال بحاجة إلى تحسين وتجويد كثيرين.

* * *

الوسيلـة الثانـية

الـــدّرس

- ١ -

بيـان عـام

الدرس: فنّ من فنون الأداء البياني، للعطاء العلمي المتقاطر، في عمليّة بناء مَعْرِفيٍّ متدرّج، وللتوجيه الإرشاديّ الحكيم والنُّصحِ الهادئِ المتدرج، الذي يسري إلى عمق النفس برفْقٍ، كما يَسْري النسيم العليل بعناصره إلى كلّ خلايا الجسم عن طريق التنفُّس.

والدرس أهمُّ وأخطر وسائل التعليم والتربية، ولا تشترط فيه جلسة خاصة في مَسْجِدٍ أو غيره، بل يُصَاحِبُ الحياةَ، في الإقامة والسفر، والبدو والحضر، وفي المجالس الخاصة، وفي اللّقاءات العابرات، وفي مركبة، وعلى ظهر دابة، وفي السّجن، وعند البيع والشراء، وعنْدَ إجراء أيّ عَقْدٍ بين طرفين، وداخل الأسرة، وفي رحلات النزهة، ورحلات الاطلاع على الآثار وفي كلّ لقاء بين قادر على عطاء تعليميّ أو نُصْحِيٍ أو إرشاديّ، ومستعدٍّ لتقبُّلِ بيانٍ ما حَوْلَ شَيْءٍ من ذلك.

ولقد كانت حياة الرسول محمّد ﷺ وحياة النبيين من قبله في معظمها دروساً تعليميّة وتوجيهيةً إرشاديّةً تربويّة، باستثناء مواقِفِ خُطَبِ الإثارة لأمْرٍ مُهِمٍّ.

فمعظَمُ أَحاديث الرسول ﷺ القوليّة مقتبسةٌ من دروسه، وقد أخذ أئمة علماء المسلمين ومرشديهم ووعّاظهم منهج الرسول ﷺ في دروسه التعليميّة والتوجيهيّة الإرشادية والتربوية.

فلقد كانت الدروس النبويّة دروس تعليم وتوجيه وإرشادٍ وموعظة حسنة، وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر، وكانت على الدوام مصحوبة بتربيَةٍ فكريّةٍ، ونفسيّةٍ، وخُلُقيّةٍ، وسلوكيّةٍ، مع حركة حياة الرسول ﷺ، وحياة أصحابه من حوله.

وعلى هذه السُّنَّةِ درج علماءُ المسلمين ومرشدوهم ووعّاظهم ومربّوهم، وكان لكلٍّ منهُم حظٌّ ما من التزام هذا المنهج النبويّ، فتخرّج على أيديهم أئمّةٌ أعلامٌ كانُوا القُدْوَةَ الحسنة لجماهير المسلمين في معظم بلدان العالَم الإسلاميّ.

وتَسَلْسَلَتْ هذه الطريقَةُ ذَاتُ الأثر العظيم التّعليميّ والتربويّ، حتَّىٰ غزتنا المدرسة الغربيّة بطرائقها التعليميّة المقَنَّنَة، الَّتي كان لها بالنسبة إلى التعليم الدينيّ المصحوب بالتربية الدينيّة المثْلَىٰ أثَرٌ عكْسِيٌّ ضارّ.

فانفصل التعليم الديني عن التَّربية الدينيّة السّويّة أوّلاً، وانفصل عن الحياة ومواقفها، وعن حركة تطبيق أحكامه وشرائعه في السلوك، ثُمّ اقتصر التعليم الديني على نُتَفٍ متناثرة غير مترابطة مِنْ مُجَزَّآتٍ فُتِنَ وَاضِعُوها بما جعلوا له عنوان «التخصّص الدقيق» قبل أن يستكمل الطالب ما هو ضروريٌّ له من قاعدة علميّة عريضةٍ، واجبةِ التحصيل لكل طالبِ علم من طُلاّب العلوم الدينيّة.

ثم اقتصر التعليم الدينيُّ على سَنَوَاتٍ دراسيّةٍ لا يُدَرَّسُ من مناهجها الموضوعة لها إلاّ مقاديرُ يسيرة، ومتى نجح الطالب من فَصْلٍ مِنْ فصولها الدراسيّة، ولو بطريقة كاذبة مزوّرة، انتقل إلى ما فوقه، دون النظر إلى ثبات

معلوماته وتمكُّنِها لَدَيْه، وهي في الغالب من الأحوال تَنْسَفِحُ مُراقَةً مِنْ وِعَاءِ الطالب، أو تتبخَّرُ بعد تفريغها في أوراق الامتحان الكتابـي، إذْ صار العلْمُ تدريباً للذاكرة على الحفظ المؤقّتِ الّذي يُنْسَىٰ عَقِبَ صَبِّهِ في ورقَةِ الامتحان.

فضاع العلم الديني، وصار كثير من المتخرّجين حَمَلَةَ شهاداتٍ ليس لها في مَخْزُونِ ذاكراتهم إلاّ بقايا، كبقايا طعامٍ في إناءٍ، قَدْ صُبَّ ما فيه على كَفِّ عاصفة هوجاء.

وضاعت التربية الدينيّة الإسلاميّة الشاملة، إذْ لم يَبْقَ لها بمقتضىٰ أسلوب التعليم وفق أنظمة المدرسة الغربيّة وجودٌ في واقعِ التدريسِ العمليّ. وغَدَتِ الرابطةُ بين مُدَرّس العلوم الدينيّة وبين طلبته، مثل الرابطة بين مدرّسِ اللّغة الأجنبيّة غيرِ المسلم، وبين تلاميذه المسلمين، باستثناء أفرادٍ قليلين لهم حرصٌ خاصٌّ بدافع إيماني إسلاميّ، مصحوبٍ بهمّةٍ عليّةٍ، ورغبةٍ قويّة، في القيام بواجبه الديني الذي يفرضُ عليه تعليمَ وتربيةَ من يستطيعُ تربيته من طُلّابه على الكمالات الإسلاميّة المختلفة، الفكريّة والنفسيّة والخلقيّة والسلوكيّة.

- ٢ -

مسؤولية حامل الرسالة

وحامل رسالة الدّعوة إلى الله، أو رسالة النُّصْح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مسؤولٌ عن القيام بدروس عطاءٍ علميّ، ودروسِ نُصْحٍ وإرشادٍ وأمْرٍ بالمعروف ونَهْيٍ عن المنكر، مقتدِياً فيها بالدّروسِ النبويّة، الّتي هي الأسوة الحسنة لكلّ المعلّمين، والناصحين، والمرشدين، والآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، وأن تكون هذه الدروس مُسَايرَةً لحياته وحياة من حوله، من الذين ينتظمون في حلقاته، أو

يستجيبون لدعوته، وعطاءاته، ونصائحه، وإرشاداته، وأوامره ونواهيه الدينيّة.

وعليه أن يحرص على ما في المساجد من بركةٍ عظيمةٍ يُمِدُّ بها حَلْقاتِ العلم والنصح والإرشاد والذكر فيها، دون أن يقصّر بواجباته خارج المساجد.

وعليه أن يجعل قُدْوَتَه دواماً الدروسَ النّبويَّة التي هي الأسوة الحسنة، وعليه أن يَتَصَيَّد من يُصْغِي إليه عقب الصلوات، أو بين المغرب والعشاء، أو عقب صلاة الفجر حتَّىٰ طلوع الشمس وامْتِدادها قليلاً، غير الأوقات التي يخصصها لمن ينتظم في درسٍ دوريٍّ من طلاّب العلم.

- ٣ -
الدروس التعليميّة ومنهجيَّتُها المفضَّلة

أمّا الدروس التعليميّة فيجبُ أَنْ يُبْنَىٰ فيها عِلْمُ المتعلّم بناءً تدريجيّاً تكامليًّا ارتقائيًّا، بدْءاً من الأساس لكلّ علم مطلوبٍ في هذا التعليم، وارتقاءً إلى ما فوقه شيئاً فشيئاً، كما تُبْنَىٰ القصورُ في الحسيّاتِ، ولا يَصِحُّ مُطْلقاً الْبَدْءُ من الأعالي والشرفات قبل وضع الأسس، واستكمال بناء القواعد والجدران الّتي يقوم عليها ما فوقها، وفْقَ التَّسلسل الطبيعي للأشياء.

ويجب أن يكون هذا التعليم مصحوباً دواماً بالتربية الفكرية والنَّفْسيّة والخلقيّة والسلوكيّة، على منهج المدرسة النَّبَوِيَّة.

وينبغي أن تُسْتَخْدَمَ فيه الطّرقُ والوسائل التعليميّة المناسبة، مما تُرْشِدُ إليه أحدَثُ وأَحْسَن طرق التدريس ووسائله، وأنْ تُسْتخْدم فيه وسائل تخزين المعارف المكتسبة، وفق أحدث وأحسن وسائل التخزين، مع المراجعة الاستذكارية آناً ثمّ آناً.

وأن تستخدَم فيه أيضاً طُرُقُ تدريبِ فكر المتعلّم على أن يكون باحثاً مُنَقِّباً، ومُسْتَنْبطاً مُنْتِجاً، ومستخرجاً أشياء جديدة، وأن يَقْرِنَ أحكامَهُ في المسائل بأدلّتِها، وأن يتدرَّبَ على الرجوع في كل مسألةٍ إلى مظانّها في الأمّهات من الكتب المراجع حتى يكتسب ملكة البحث والتنقيب.

ولهذا ينبغي أن تكون لدىٰ المتعلِّم مكتبة صُغْرىٰ تساعده، وأن تكون في دائرة عمل الأستاذ المعلّم مكتبة عامّة كبرى، أو مكتبة متوسطة، ملحقة بمؤسسة تعليميّة، أو بمسجد، مع إمكان الرجوع إليها ومراجعة مسائل العلم في كتبها.

ولا يَصِحُّ أنْ يكون العلْم مجرّد حفظ أحكامٍ تُلْقَىٰ على المتعلِّم، لا يَعْرِفُ الطالبُ منها أكثر من نعم أو لا، وأن الحكم كذا، دون أن يكون قادراً على الشرح والبيان والتعليل والاتيان بالدّليل، باستثناء بعض مسائل العلم الّتي لا تقبل الزيادة ولا الاجتهاد، ولا يوجد حولها وجهات نظر مختلفة.

أمّا كتاب الله فينبغي تلقّيه مُجوّداً بالسَّماعِ، والمتابعة بالأداء، لكن ينبغي فهمه بأسلوب التدبُّر السَّلِيمِ، المقرون بالدليل وبالتعليل، مع إعمال الفكر بأناةٍ ورويَّةٍ لاستنباط المفهومات والمعاني الدقيقة.

وكذلك أحاديث الرسول ﷺ ينبغي تَلَقّيها بالضّبط، وحفظ قَدْرٍ مناسب منها، ثمّ فهمها فهماً تدبُّريًّا مقروناً بنظرات شاملات لكلّ ما يتعلّق بالمدروس منها أو له به صلة من قرآن كريم وسنّة مطهَّرة، واجتهادات لأئمة علماء المسلمين، مع معرفة ما يتعلّق بها من مقرّرات العلوم الكونية والطبيعيّة.

إنّ الأحكام التقريريّة المجرّدة عن أدلّتها وحِكَمِها من شَأْنِها أن تُدَرِّب الذاكرة على الحفظ، وأنْ تُعَطِّلَ في الفكر قدرات الْفَهْمِ والاستنباط، والنظر إلى القضايا من جوانبها المختلفة، وأنْ تُعطّل في الفكر القدرة على إدراك الأدلّة، وربطها بالأحكام الّتي دلّت عليها، وأن تُولِّد الجمود التعصّبِـيّ لبعض

الآراء الاجتهاديّة الضيّقة الّتي هي نتاجُ مَذْهبٍ مُعَيّن، أو نظراتُ مجتَهدٍ خاصّ من الأقدمين أو من المعاصرين، على الرُّغْمِ من وجوب احترام الآراء الاجتهادية للأئمة المشهود لهم بالإمامة من جمهور علماء المسلمين، ولكنّ هذا الاحترام لا يَصِحُّ أن يَصِلَ إلى حدِّ التنزيه عن الخطأ، واعتقاد العصمة في الفهم والاستنباط، لأيّ إمامٍ مرموقٍ مُتَّبع، فالعصمة البشريَّةُ في أحكام الدين لَيْسَتْ إلّا لرسول الله ﷺ، لأنَّ الله عزّ وجلّ قد عصمه بالوحي وبمتابعة اجتهاداته المأذونِ بها بالتصويب.

- ٤ -

وصايا للمدرس ينبغي له أن يتعهد مراعاتَها ما أمكنه

الدروس التعليميّة والإرشاديّة والنُّصْحيّة والوعظية وغيرها ينبغي للمدرس أن يتَعهَّد ما استطاع وهو يقوم بمهمّاته فيها ما يلي:

١ ـ اتّخاذ ما يلزم لجذب انتباه المتلقّي خلال الدرس لما يُوجَّه له.

٢ ـ على المدرّس أن يُوجِدَ الدّافع للتعلّم ومتابعته بالوسائل التي تُحَبِّبُ إلَيْه دراسةَ عُلُوم الدّين، والعلومِ المساعدة على دراستها، وعلىٰ حُسْن فهم النصوص الدينيّة، والاستنباط منها.

٣ ـ الإيضاح الكافي للإفهام بقدر حاجة المتلَقِّي دون زائدٍ عليها، فالإيضاح الزائد عن حاجة المتلقّي مُمِلٌّ له، وربّما أضجره.

٤ ـ التأنّي في العطاء لتمكين المتلَقِّي من ابتلاع ما يتلقَّاهُ مَصًّا، لا عَبًّا ولا تَجَرُّعاً، وتمكينه من اختزانه، حتَّىٰ يتمثَّلَه، كَمَا يتمثل الجسمُ السليمُ الغذاءَ الذي يَدْخُل إلى المعدة مَمْضُوغاً هنيئاً مريئاً.

٥ ـ التكرير بمقدار الحاجةِ إلى تثبيتِ المعرفةِ في خزانةِ الذّاكرة، ثم

تمثُّلِها في النفس والسلوك الظاهر والباطن.

٦ ـ العطاء المقترن بحلاواتٍ وجماليّاتٍ ومشهّيَاتٍ فكريّة ولفظيّة، تُحَبّبُ إلى النفس الواردَ الفكريّ إليها، والاحتفاظ به، ثم الانتفاع بما يَهدي إليه.

٧ ـ ضرورة التلاؤم بين مستوى العلم ومستوى قدرات المتعلّم على التعلّم واستيعاب مسائله.

٨ ـ العطاء المقترن بما يُرْضي العواطف الشريفة الهادئة، ويغذّيها بالغذاء الَّذِي يُقَوِّي قُدْرَاتِها الموجهة للعمل المفيد.

ولا يُطْلَبُ في الدرس إثارةُ الانفعالات العاطفيّة الّتي تندفع بقوّةٍ على غير إدراكٍ واعٍ للأمور، ما لم يُقْصَدْ ذلك في بعض الأحوال التي يُرِيدُ المدرسُ أن يَجْعلَ الدرسَ فيها بديلاً للخطبة، بل يُطْلبُ في الدرسِ تقويةُ العواطف الّتي إذا تحرّكتْ تحرّكَتْ بوعيٍ وبصيرة وحكمةٍ وتقدير لعواقب الأمور.

فالعواطف الراسخة العميقةُ الرصينةُ، الفاعلةُ بهدوء ورويّة، هي التي تعمَلُ بدأَبٍ متلاحِقٍ، لبناء الكُبْرَيَاتِ التَّاريخيّة الإنسانيّة، من عِلْمٍ، وظاهرات حضاريّة، وجهادٍ كبير، وبناءِ أُمّة.

٩ ـ العطاء المقترن دواماً بالتوجيه لضرورة تطبيقِ العلْم الدينيّ بالْعَمل، مع الربط بالواقع في حياة الناس.

ومن المفيد تعليقُ بعضِ المسؤوليات الإصلاحيّة في المجتمع، بآحادٍ أو جماعات من المتلقين.

١٠ ـ على مُقَدِّم العطاء أنْ يتَعَرَّفَ دواماً على مقدارِ فهم الْمُتَلَقِّين، ومقدار استجابتهم الفكريّة والنفسيّة، ومقدار استيعابهم للمسائل، ومقدار ما

اختزنوه منها، آناً فآناً، أو آناً ثم آناً، مع استرجاع ما سَبَقَ اختزانُه منذ زمن.

١١ ـ التدرُّج في البناء المعرفيّ، وفي التربية الفكريّة والنفسيّة والجسَدِيّة، كالتدرُّج في بناء المباني الحسّيّة، وكالتدرج في تربية فسائل الأشجار مع نموّها الطبيعيّ المتدرج، وتعهُّدِها حتى تكون مثمرة ذاتَ عطاءٍ وفير، وأُكُلٍ كثير.

١٢ ـ تدريبُ المتلَقّي على أنْ يُعْطِيَ ما تلقَّاهُ، في دروس لمن هم دونَه علماً وتربيَةً، مع ضرورة محافظته على دوام تَلَقِّيه في دُروسِ شيخه ومُرَبِّيه.

١٣ ـ أن يكون المدرّس المربّـي بمثابة الطبيب الذي يبحث عن الْعِلَل وأسبابها، ليكون حَسَنَ المعالجة، فَعِلَلُ النفوس لا بُدَّ أن تكونَ لها عوامل وأسبابٌ إذا أدْرَكها المدرّسُ كان أقدر على معرفة العلاج التربوي الملائم.

١٤ ـ أن يتَّسع صدر المدرّس للسؤال والجواب والمناقشة والاعتراض، وأن يعالج كلّ ذلك بعقل ورُشْد وحكمة.

١٥ ـ عقْدُ التآخي بين المنتظمين في الحلقات، وتكوين جمعيات منهم ذواتُ أنشطة اجتماعيّة، تتعاون على البرّ والتقوى وعمل الخير، والاشتراك معهم في رحلات جماعيّة، تنعقد بينهم فيها روابط أُخُوَّة، ومُشَارَكَاتٌ تَعَاوُنيَّة، كما كان الرسول ﷺ مع أصحابه في أسفاره ورحلاته الجهاديَّة وغيرها كالحج والعمرة، وقد اتبعها أئمة المسلمين من بعده علماء ومربين.

١٦ ـ تشجيعُهُمْ على حفظ القرآن وحفظ مقدارٍ وافرٍ من أحاديث الرسول ﷺ، وتكوين جمعيّاتٍ منهم لتحقيق هذه الغاية. وإعداد مسابقات بينهم لتمييز المتفوقين ومنحهم جوائزَ تشجيعية وامتيازات تقديرية.

١٧ ـ أن يكون المدرّس أُسْوَةً حسنةً في حيَاتِهِ لكُلِّ مَنْ يتلَقَّىٰ عنه، وأن يَعْمَل بوصيّة عليّ بن أبـي طالب رضي الله عنه التي قال فيها كما ذكَرُوا:

(مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ للنَّاس إمَاماً فَلْيَبْدأ بِتَعْلِيم نَفْسِه قَبْلَ تَعْلِيم غَيْرِه، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ. ومُعَلِّمُ نَفْسِهِ ومُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ بِلِسَانِهِ فَحَسْبُ).

وأن يَعْمَلَ بِوَصِيَّةِ أبي الأسود الدُّؤلِيّ التي قال فيها:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَىٰ ... كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ
وَنَرَاكَ تُصْلِحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا ... أَبَداً وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمُ
اِبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُسْمَعُ مَا تَقُولُ وَيُهْتَدَىٰ ... بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ
لاَتَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

١٨ ـ مراعاة طُرُق التدريس النافعة الّتي يذكُرها علماء التربية، بقدر الإمكان، وعلى وفق مقتضيات الأحوال التي يُلْقَىٰ فيها الدرس.

فمنها الدرس الذي يكون في مجلس دوري يعقد في أوقات دوريّة منتظمة، والدرس الذي تستدعيه مواقف عابرة، أو أحوال طارئة في مسرَّاتٍ أو أحزان، أو مناسبة من المناسبات الاجتماعية، إلى غير ذلك.

ومن أمثلة الدُّروس النبويّة التي لم تكن ضمن نظامٍ دوريّ ما يلي:

المثال الأول:

روى الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال:

كُنْتُ خَلْفَ النبيَّ ﷺ يَوْماً، فقال لي:

«يَا غُلَامُ إنّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللَّهِ، وَأَعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ

لَكَ، وإن اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي رواية غير الترمذي:

«اِحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَىٰ اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً»(١).

المثـال الثـاني:

روى البخاريّ في صحيحه عن معاذ بن جَبَلٍ رضي الله عنه قال: كُنْتُ رَدِيفَ النبـيّ ﷺ، ليس بيني وبَيْنَهُ غَيْرُ آخِرَةِ الرَّحْلِ فقال:
«مُعَاذُ».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ.

ثم سار ساعة فقال:

«يَا مُعَاذُ».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُول اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ.

قال: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ علَىٰ عِبَادِهِ؟».

قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قال: «حَقُّ اللَّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثمّ قال:

«يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ».

---

(١) انظر: الأربعين للنووي.

قُلْتُ: لبَّيْكَ يَا رَسُول الله وسَعْديْكَ.

قال: «هَلْ تَدْري مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟».

قلتُ: اللَّهُ ورسولُهُ أعْلَمُ.

قال: «حَقُّ الْعِبَادِ علَىٰ اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ».

* * *

الوسيلة الثالثة

المحاضرة

- ١ -

التعريف

المحاضرة: فنٌّ من فنون الأداء البيانيّ المشتَمِلِ على بَحْثٍ عِلْمِيٍّ هادِيءٍ، مُعَدٌّ بأنَاةٍ وتفكير ورجوعٍ إلى مصادر الموضوع المبحوث فيه، الفكريّة، أو التجريبيّة، أو الاستنباطيّة، أو أقوال وآراء العلماء السابقين، ومُسْتَنَدٌ إلى أَدلَّةٍ تَدْعَمُ المقولاتِ المعروضةَ فيه، والنتائج التي توصّلَ إليها الباحث.

- ٢ -

هدف المحاضرة

وهدف المحاضرة إقناع أهل الفكر والعلم بالمقولات المشتملة عليها، رجاءَ تبنّيها والْعَمل على توسيع دائرة انتشارها، فهي تُعِدُّ القيادات الفكريّة المتعلّمة الواعية، مع ما فيها من نَفْعٍ عامٍّ لكُلّ مستَعِدٍّ لأن يستفيد من مقولاتها وما اشتملت عليه من معارفَ وبحوث.

ـ ٣ ـ

مستويات المحاضرات

وللمحاضرة مستوياتٌ متفاوتاتٌ دقَّةً وعمقاً، وجمعاً واستيعاباً. وحُسْنَ تنظيمٍ مَعْرِفيٍّ شَجَرِيّ، وأسلوباً بيانيًّا.

فمنها ما يُناسبُ طُلاّبَ الجامعات، ومنها ما يناسبُ كبار المثقفين، ومنْها ما يُناسِبُ أساتذة الجامعات، ومنها ما يناسب المتخصّصين الكبار في علْمٍ من العلوم.

والمحاضراتُ العلميّةُ العالية من شأنها أن تشتمل على بحوث متقنة رائدة، أو بحوث مبتكرةٍ في أفكارها، أو في جمعها واستيعابها، أو في تقديمها مفاتيح بحوثٍ جديدةٍ أبكار.

ـ ٤ ـ

كبـرى المهمّـات

ومن كُبْرَىٰ مهمّاتِ المحاضرات العاليات أن يَعْتَنِيَ أصحابُها بتأسيس المعرفة الرصينة الصحيحة، لدى دوائر المثقفين والأساتذة، وكبار طُلَّابَ الجامعاتِ الّذين يُصَدِّرُونَ المعرفة الصحيحة للأجيال من دونهم، ويعلّمونها للجماهير ذواتِ الدوائر الواسعة في المجتمع.

ـ ٥ ـ

إعداد المحاضرة وأداؤها

والمفروضُ في المحاضرة أن تُعَدَّ إعداداً تامًّا، وأن تُكْتَب كتَابَةً مُحَرَّرةً بدقَّةٍ.

والأَصْلُ فيها أن يؤدِّيَها المحاضِرُ جالساً وبأَنَاة مع حَيَوِيَّةٍ لإصغاءِ المتلقِّين ووَعْيِهم.

وقد يؤدّيها واقفاً إذَا وجَدَ الحاجة داعيةً للوقوف، ولا سيما حين استخدام وسائل الإيضاح.

- ٦ -
الأسئلة والمناقشات والاعتراضات

والمفروض في المحاضر أن يتّسع صَدْرُه للأسئلة والإجابة عليها، وللمناقشة البنَّاءَةِ المنصفة، وللاعتراض الذي يحمل وجهة نظرٍ ذاتَ اعتبارٍ ما، وأن يُعالج كُلّ ذلك بعِلْم وهدوءٍ وعَقْلٍ ورُشْدٍ وحكمة، وأنْ يحترمَ السائِلَ والمناقشَ والمعترض، وأنْ لا يُقَابِلَ واحداً منهم باحتقارٍ أو هُزْءٍ وازدراءٍ وسُخْرِيَةٍ، إلاّ إذا تيقّن أنّه مُشاغب يريد أن يُفْسِدَ جوّ المحاضرة لعداوةٍ شخصيَّةٍ، أو خلافٍ حِزْبِيّ، أو مذهبيّ، فَيَحْسُنُ حينئذٍ إحالتُه على جلْسَةٍ خاصَّةٍ تُعْقَدُ لمناقَشَةِ ما طرحه وأنّه مُسْتَعِدٌّ لذلك بحضور نُخْبَةٍ من أهلْ الاختصاص.

- ٧ -
عنوان المحاضرة

المفروض في عنوان المحاضرة أنْ يكون موجزاً جذّاباً في صيغته، مع شموله لكلّيَّاتِ الموضوع الكبرىٰ.

- ٨ -
خُطْبَةٌ في محاضرة

بعض المحاضرين قد يكون له في محاضرتِه هدفٌ خطابيٌّ، فيدمج

محاضرتَه المعدّةَ إعداداً متقناً بأنفاسٍ ومشاعرَ ودَفَقَاتٍ خطابيّة، ويَعْرِضُها أو يَعْرِضُ بعضَ مقاطعها عرضاً خطابيًّا، وهو بهذا يُرِيدُ أنْ يُؤَدِّيَ في مُحَاضَرتِه أَهدافَ محاضرةٍ وأهدافَ خطبةٍ معاً، وهذا قد يكون مقبولاً أحياناً.

- ٩ -
نفع المحاضرة الدينيّة

ويظهر نفع المحاضرة الدينية بأَنَّها وسيلةٌ لإعدادِ القَادَةِ والأئمةِ المبلغين والْمُوجّهين للعامة، الذين يحملون رسالة الدعوة العامّة، والنُّصْح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للجماهير على اختلاف مستوياتهم الثقافية والفكريّة.

* * *

الوسيلة الرابعة

الحديث والمحادثة

- ١ -
التعريف

الحديث: هو الخطابُ الموجَّهُ من متكلّم لشخص أو أكثر في مجلس أو موقف مساوٍ لمجلس أو موقف المتحدِّثِ معه، دون إشعارٍ بأي استعلاءِ بعلْمٍ، أو تجربَةٍ، أوْ مكانةٍ اجتماعية، أو سُلْطَةٍ ما، ولو كان المتكلّم في الواقع متفوِّقاً أو ذا سلطة أمْرٍ ونهي وجزاءٍ بثوابٍ أو عقاب.

والحديث بالمواجهة قد يَجُرُّ إلى المحادَثة، وعلى المحدِّث أن يتَّسِعَ صَدْرُهُ للمحادَثَةِ الجادَّة المفيدة، فما تُفِيدُهُ المشاركة في الحديث قد لا يَحْصُلُ إذا استأثر المحدِّثُ بالكلام، ولم يَتْرُكْ لجليسه فُرْصَةً لِيُعَبِّرَ عن أفكاره وخواطره وما لديه من معلومات.

- ٢ -
القرآن حديث بين الله وبين عباده

ونظراً إلى قيمة تأثير الحديث في النفوس، وإلى أهمِّيَّة تأديَةِ رسالةِ الدعوة إلى الله، أو رسالةِ النُّصْحِ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، بأسلوب الحديثِ الَّذِي قد يفتح مجالاً للمحادثة، وصف الله عزّ وجلّ القرآن بأنّه حديثٌ بينه وبين عباده، على سبيل الحديث مَعَ كُلِّ فردٍ أحياناً، أو على سبيل الحديث مع الجماعة أحياناً أُخرَى، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: ومَنْ يَحْكُمُ اللّهُ عَلَيْهِ بالضَّلاَلَةِ فَلَيْسَ لَهُ بعد الله من يستطيع أن يحكم له بالهداية.

فالقرآن أَحْسَنُ الحديث، ومع اختلاف أساليبه وصيغه البيانيّة فهو مُتَشَابِهٌ مُتَمَاثِلٌ في الْحُسْنِ.

والقرآن مَثَانِي، أي: فيه محاذيف مطويّةٌ بين جُمَلِهِ تَدُلُّ عليها لوازم فكريّة، وإشارات لفظيّة تُفْصِحُ عنها، مثل: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ . . . ﴿٦٠﴾ ﴾ (البقرة/ ٢).

أي: فضَرَبَ مُوسَىٰ بِعَصَاهُ الْحَجَر فانْفَجَرَتْ.

وقال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

فوصفَ الله آياتِ كتابه بأنّها من نوع الحديث، تَلَطُّفاً منه بعباده، وتودّداً لهم وتكريماً، وحتَّىٰ لا يكون في نفوسهم داعٍ للنفور، فربُّهم الذي يُمِدُّهُمْ دَوَاماً بعطاءاته يُحَدِّثُهُمْ بآيات كتابه.

وأمر الله عزّ وجلّ رسُولَهُ محمّداً ﷺ بأن يُحَدِّث بِنِعْمَةِ رَبِّه، وهي نعمةٌ

القرآن، ونِعْمَةُ مَا كَان يَنْزِلُ عَلَيْهِ من غير القرآن، فقال تعالى له في سورة (الضّحىٰ/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول):

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾.

فكان الرسول ﷺ يُوجّه معظم أقواله في دعوته وتعليمه ونصحه وإرشاده بأسلوب الحديثِ لفَرْدٍ أَوْ لأَكْثَر.

- ٣ -

أهمّيّة الحديث

إنّ توجيه الكلام بأسلوب الحديث الهادىء يُعْطي مَنْ يُوجَّهُ له مجالاً لأنْ يتفكّر بنفسه منفرداً، أو مع قرين له يَوَدّه، والتفكيرُ الفرديّ أو مع قرينٍ ذي فكرٍ وَرأْي، يَسْتَخْرِجُ من طاقات النفس كُلَّ قُدْراتِ التفكُّر والتأمُّلِ لدى المتفكّر، ولا سيما إذا كان ذلك خلال أوقاتِ الراحةِ التامّة، والصفاء الذهني، الّتي تستنير فيها البصيرة، وتَتَّضِحُ فيها الرُّؤْيَةَ بجلاء، دُونَ أن تُغَشِّيَ عليها مؤثِّراتٌ جماعيّةٌ، تتدخّلُ فيها عوامل مختلفة تمنع عن فكر الفرد الرؤيةَ السليمة، الخاليةَ من شوائب الأهواء، والتقليد الأعْمَىٰ والضغط الجماعي، والاعتماد على رؤية الآخرين الّذين قد يراهم أعلم منه، أو أكثر فطنةً وَذكاءً، أو يَرَىٰ أنَّ مِنَ المستَبْعَدِ اتفاقَ الْعَدَدِ الكثير من الناسِ على خطأٍ أو باطل.

ولهذا قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

مِنْ جِنَّة: أي: من جُنُون كما اتَّهَمَهُ بعضُكُمْ ظُلْماً وَعُدْوَاناً.

إنّ معظم الناس في إطار التّفكير الجماعيّ، يفقدون من قُوىٰ تفكيرهم مقاديرَ بحسب ما لديهم من رغبة في إلْقَاءِ تَبِعَاتِ التفكير على غَيْرِهِمْ، إمّا لانَّهم لا يُرِيدُون إِجْهادَ أفكارهم، وإمّا لثقتهم بِحُسْنِ الرأي الذي يقدّمه من لهم في العادة تَمَيّزٌ فِكْرِيٌّ بين الجماعة فهم يَتَّبِعُونَهُم تقليداً.

وقد يستخدم الواحد من الْعَشَرَةِ من طاقاته التفكيريّة بنسبة واحِدٍ من عشرة فقط، إنْ لم يُعَطِّلْهَا كُلّياً، وقد يستخدم أكْثَر من ذلك، لكِنْ يَنْدُرُ أنْ يستخدمَ كُلَّ طاقاته التفكيريّة.

حتَّىٰ غدا مُتَدَاوَلاً لدىٰ كثيرٍ من الباحثين الْمُدَقِّقِين في دراسة نفسيَّةِ الجماعة، ولدىٰ كثيرٍ من مراقبـي الجماعاتِ ومجالِسِها، أَنَّ عَقْلَ الجماعة ضمن التفكير الجماعي يُشْبِه عَقْلَ قَطِيعٍ، فَهُوَ تَبَعِيٌّ لمَنْ يَقُودُهُ، ويَتَقَبَّلُ الدّعايات الإعلاميّة الّتي لا تعتمد على حقائق، ويَنْقادُ بِغَيْرِ وعْيٍ وَلاَ رُؤيَةٍ واضحة، لذوي دَهَاءٍ وَمَكرٍ وَمَصْلَحَةٍ يُوَجِّهونَ الحركة الفكريَّةَ في الجماعة لتحقيق مصالحهم.

ومن جَرَّبَ المجالسَ الجماعيّة على اختلاف مستوياتها يُدْرِكُ أن مُوجِّه الفكر فيها شخْصٌ أو اثنان أو أكثر قليلاً اتَّفَقَتْ مصالِحُهم، أمّا الآخرون ففي أكثر الأحوال لا يُشَارِكُونَ في الإجهاد الفكري، والمناقشاتِ الجوهريّة الجادّة ولا يُهِمُّهُمْ أنْ يُجْهِدُوا أَنْفُسَهُمْ، بل تكون مُهِمَّتُهُمّ في المجلس الموافقةَ والتوقيع على المقرّرات الّتي تُطْرَحُ فيه، بَعدَ اسْتِرْضَائِهِم بمنافع ومصالح تُيَسَّرُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ أولي الأمر التنفيذي.

وتَبْدُو أهَميَّةُ الْحَدِيثِ أنّ من طبيعته فتح مجال المشاركة والمحادثة التي تُشْبِـعُ رَغْبَة الجليس في أن يُحَادِثَ ويُقَدِّمَ رأْيَهُ، فهو عندئذٍ يَسْتَدْعِي كُلَّ طاقاته الفكريّة لكَيْ يشارك بحديثٍ ما، وهذا الاستدعاءُ يجعله أكثر استعداداً

لفهم الحديث الّذي يتلقَّاهُ من جليسِه المحدّثِ له.

وإذْ لا يَشْعُر بأنَّ مُحَدِّثَهُ يستَعْلِي عليه بفَضْلِ علمٍ أو ذكاءٍ أو مكانةٍ اجتماعيَّةٍ أو سلطةٍ، فإنّه يفتح كلّ أبواب نفسه وفكره لاستقبال حديث جليسه، ليجد فيه ما يمكنُهُ المشاركة فيه بالمحادثة، وهذا من شأنه أن يجعلَهُ أكثر فهماً لأقوال محدّثه، وأصَحَّ نظراً للقضيّة المطروحة فيها، وأجْلَىٰ بصيرة، فَشَهْوَةُ المشاركة بالكلام والرأي موجودةٌ لدىٰ كثير من الناس.

إنّ معظم قناعات الناس، ومعظم المفاهيم الّتي تنتشر بينهم إنّما تَتِمُّ عَنْ طريق الحديث والمحادثة في مجالس صغرىٰ مؤلَّفَةٍ من اثنين فأكثر.

وبالحديث والمحادثة كان للدّعوة الإسلاميّة انتشار عظيم في شعوب الأرض.

- ٤ -

الأحوال التي يظهر فيها الأثر الأكبر للحديث

ويظهر الأثر الأكبر للحديث في نفس المتحدَّثِ إليه في الأحوال التالية:

١ - أن يكون عرضُ الحديث عرضاً وُدّيًّا، مشعراً بأنّ الدافع إليه مشاعر الإخاءِ والمحبّةِ والصَّفاءِ، وتَبَادُلِ التناصح والتواصي بالحقّ، والتواصِي بما هو خَيْرٌ جالبٌ للسعادة، ودافع للشقاء، وإنْ خالف الهوى وشهوات النفوس، إلاَّ أنَّ الالتزام به قد يحتاج صبراً، لكنّ هذا الصَّبْر يجلبُ سعادةً عظيمة وخيراً كثيراً.

٢ - أن يكون الحديث على مقدارِ ما لدى فكر المتحدَّث إليه من قُدراتِ فهم، ومقدارِ ما في نفسه من استعداد للاستجابة، فقد يكون لدى

الإنسان استعدادٌ للاستجابة لموضوع الحديث بمقدار عشرة في المئة، فلْيَقْتَصِرِ المحدّثُ على التركيز على هذا القدر، فإذا حصلت الاستجابة له، جرَّ وراءَهُ إمْكَانِيَّةَ استجابةٍ لمقدارٍ آخر، وهكذَا حتَّىٰ تَتِمَّ الاستجابَةُ لِكُلِّ عناصر الموضوع، بأسْلُوبِ التَّدَرُّج شيئاً فشيئاً.

٣ ـ أن تستدعي الحديث مُنَاسبةٌ ملائمةٌ في المجلس تُشْعِرُ بأنّه جاء تِلْقَائيًّا، ولم يكن مُعَدّاً للمجلس إعداداً سابقاً لانعقاده.

وإذا كان الحديث مُعَدّاً إعداداً سابقاً، فينبغي أن لا يكون بتوجيه إلْزَامِيّ، بل يُعْرَضُ على سبيل المشاركة في الرأْيِ، أو على سبيل تقديم معلوماتٍ يُؤمن بها المحدّث دون أنْ يُلْزِمَ غيره بها، بل يَعْرِضُها عليه ليتفكَّرَ فيها، وهو حرٌّ في أن يقبلها أو يرفضها.

٤ ـ أنْ يشْتَمل الحديثُ على عرض الدواعي الّتي جعلت المحدّث يُؤْمن بأفكاره التي يُقَدّمها في حديثه.

٥ ـ أن يلْتَزِم المحدِّث الصّدْقَ وتحرّي الحقِّ فيما يَعْرِضُ من أفكار ومفاهيم وأخبار وأقوال وقِصَصٍ وحوادث، وأن يَنْسُبَ المرويّاتِ إلى رُواتها إذا كان يَعْلَمُ مَنْ رَواها، وإلاّ اكْتَفَىٰ بأن يقول: سَمِعْتُ من بعض الناس كذا، إذا كان في الحديث به فائدة، وإلاّ أعرضَ عنه ولم يُحَدِّثْ به.

٦ ـ أن لا يكون المحدِّث كثير اللَّغَطِ مِهْذَاراً يُحَدِّث بكل ما سَمع، فحَسْبُ المَرْءِ كذباً أن يُحَدِّثَ بكُلِّ ما سمع، كما جاء في كلام الرسول ﷺ، وقالوا في الْحِكم: مَنْ كَثُر لَغَطُهُ كَثُر غَلَطُه.

فينبغي للمحدِّث دواماً أنْ ينتقي الصحيح من الأَخبار والمرويّات الّتي يَعْلَمُ صِدْق رُواتها، أو أن تكون من مشاهداته أو خِبراته.

٧ ـ أن يكون المحدِّث كثير الإحساس بأحوال من يتحدَّثُ إليه، فإذا

وجَدَهُ مُصْغياً له مُسْتَمْتِعاً بما يُحَدّثه به تابع حديثه من المسالِكِ الفكريّة الّتي يراه معجباً بها، حتَّى إذا وجَدَهُ قد بدأ يتمَلْمَلُ أو يُعْرِضُ فليَكُفَّ برفْقٍ عن المتابعةِ، ويحْسُنُ أن يستَدِرَّ منه المشاركة بالحديث، ليهتَبِلَ من خلال حـديثه المناسبة الملائمة لما يُريد أن يَعْرضه من أفكار ومفاهيم، في الدعوة إلى الله، أو النُّصْح والإرشاد والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر.

٨ ـ أن يكون المحدِّث حكيماً في اختياره نوعَ الحديث الذي يحدّث به، فيختار لمن يتحدَّث إليه ما يؤثّر فيه اقتناعاً، وأن يتدَرَّج معه بدءاً من الأسس والأصول التي يجعله يُشارِكُ في التحدّثِ بها، فإذا وَجَدَهُ استأنَسَ وانْشَرَحَ صَدْرُه لسلسلة الحديثِ انتقل به إلى الفروع شيئاً فشيئاً، حتَّىٰ يَصِلَ إلى ما يُرِيدُ نُصْحَهُ به، أَوْ إرشاده إليه، فيُحَدِّثُه به استكمالاً لسلسلة حديثه السابق، دون أن يُشْعِرَهُ بأنّه قد ساقه تلك المقدّمات ليَصِلَ إلى نُصْحِه حول ما يَعْلَمُ من عُيُوبه، وسَقَطاته، وزلاّته، أو معاصيه ومخالفاته.

٩ ـ أن لا تتحوّلَ المحادثة الوديّةُ الأخويّةُ إلى مجادلةٍ تَجُرُّ إلى منازعة ومشاتمة.

فإذا بدأت تتحوّل إلى مجادلة فعلى المحدّث الناصح عندئذٍ أنْ يُعْلِن أنّ الحديث قد خرج عن دائرته التبادليّة التلقائيّة، إلى مَجْلِسٍ جَدَليّ، والمجلسُ الجدليُّ لا تُسْمَحُ فيه المشاتَمَةُ والمنازعَةُ الأنانيّة.

فإذا كان المحدِّثُ أهلاً لعقد مجلسِ جَدَلي، فليقترحْهُ، وليشترط على جليسه الذي يَتَبَادَلُ مَعَهُ الحديث أن يخضع الطرفان لأصول المناظرة وقواعِدِها وآدابها.

١٠ ـ أنْ لا يَصُبَّ المحدِّثُ كُلَّ معلوماته حَوْلَ موضوع الحديث الذي يُقَدِّمُه في مجلسٍ واحد، ليَتْرُك لنفسه مجالاً لإضافات جديدة كُلّما أعَادَ

التحدُّثَ حول هذا الموضوع في مَجْلِسٍ آخَرَ، فهذا من أساليب القرآن المجيد البيانيّة التَّربَوِيّة.

١١ ـ من المستحسن أحياناً أنْ يَطْرَحَ المحدِّثُ بِداياتِ حديثِهِ على شكلِ قضيّةٍ أو مُشْكِلةٍ تحتاجُ إلى بيان أو حَلٍّ، لِيَسْتَثِيْرَ ابتداءً اهتمامات من يحدّثهم، فَيَسْتَحِثَّ أفكارَهُم للمشاركة بما عِنْدهم من بيانٍ للقضيّة، أو حلٍّ للمُشْكِلَة التي طرحها عليهم.

حتَّى إذا انْتَهَوْا إلى عَرْضِ ما لديهم من بيانٍ أَوْ حَلٍّ، ثبَّت ما رآه صَواباً وقَرَّرَهُمْ عليه، وأثنىٰ عليهم بما قدَّمُوا، ثُمَّ أضاف من عنده التَّصْوِيباتِ والإِضافات المناسبات الّتي يراها علَىٰ سبيل المشاركة، لا بأسلوب التَّعْليم الْمُشْعِرِ بالتَّفَوُّق.

ومن الخير دواماً تقديمُ الأفكارِ والمفاهيم مُقترنَةً بأَدِلَّتِها.

* * *

الوسيلـة الخامسـة

مجالس السؤال والجواب

ـ ١ ـ

البيـان العـام

من وسائل الأداء البياني مجالسُ السؤال والجواب، ولهذه الوسيلة قيمَةٌ تَأْثيرِيَّةٌ عظيمةٌ، لدى طارحي الأسئلة، الّذين يتلَقَّوْنَ الإجابات على أسئلتهم ممّن وجّهوها لهُم، ولدى المستمعين الآخرين، وذلك لسَبَبٍ أوْ أكثر من الأسباب التالية:

السبب الأوّل: أنّ من طبيعة السائلين أنْ يَطْرَحوا أسئلتهم عادةً على من يحترمونه، ويُقَدِّرونه، ويثقُون بعلمه وأمانته العلميَّة، وبقدرته على فَهْم أسئلتهم فهماً دقيقاً، فإذا كان لديه عِلْمٌ بالأجوبة عليها أجاب، وإلاّ طلَبَ تأجيل الإجابةِ، حتَّىٰ يستوثق من الجواب الصحيح، أو أحال على متخصِّصٍ كُفْءٍ في نوع العلم الّذي يتعلّق السؤال بمَسْأَلَةٍ من مسائله.

فهم إذا تَلَقَّوْا مِنْهُ الجوابَ تَلَقَّفُوهُ تَلَقُّفاً، لأنَّ كُلَّ أبواب أفكارهم ونُفُوسِهِمْ متفتّحةٌ لتلقِّي الإجابة مِنْه.

السبب الثاني: أنّ طارحي الأسئلة، إذا كان دافِعُهم إلى طرح أسئلتهم ما يُعَانُونه من مشاكل فكريّة أو نفسية أو اجتماعيّة في حياتهم، فلا بُدَّ أن يكونوا مُتَلَهِّفين لمعرفَةِ الحلّ الأمثل لها، فيفتحون كلّ أبواب قدراتهم الفكريّة

ومشاعرهم النفسيّة، لتَلَقُّفِ الإجابات عليها، والنظر فيها بإمعان.

وحين تكون الإجابات عليها مقتبسةً من أحكام الدّين باجتهادات سليمات مشرقات واضحات الأدلة، فإنَّها تقعُ من نفوسهم في مواقع الرضا والتسليم والاقتناع، وقد يتفكرون في حكمة الله من أحكام دينه، وهم يستمسكون بالمعرفة الّتي ظفروا بها، وحين تُقدَّمُ لهم الأجوبةُ مُغَلَّفَةً بالحكمة والموعظة الحسنة، فإنّها تكون أرجَىٰ لأنْ يَقْبَلُوا ما فيها من نُصْحٍ وإرشادٍ، وأنْ يأخُذوا ما اشتملت عليه من أحكام بقبولٍ وتسليم تامَّيْن كاملين، مع الاستعداد النفسيّ الصادق للتنفيذ، ابتغاء رضوان الله عزّ وجلّ، ولو خالفَ أهواءَ نفوسِهم وشهواتِها ومطالبَها.

السبب الثالث: أنّ طارحي الأسئلة إذا كانوا لا يُعَانون من مشكلة، ولكن يريدون اكتساب معرفةٍ، حول ما طرحوا من أسئلة، فهم أيضاً في حالة استعدادٍ فكريّ ونفسيٍّ لمعرفة أجوبة أسئلتهم التي طرحوها.

وهذا الاستعدادُ أمْرٌ مُهِمٌّ جدّاً لتَلقُّفِ المعرفة واخْتِزَانِها في الذاكرة، ثم لتطبيقِ إرشاداتها في السلوك.

فيجب على حاملِ الرسالة أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصىٰ حدٍّ ممكن.

السبب الرابع: أنّ حاضري مجالس السؤال والجواب لا بُدَّ أن تثير الأسئلة المطروحة فيها انتباهَهُمْ لمعرفة الأسئلة المطروحة. إذْ يَشْعرُون بأن الدافع إليها في الغالب أمْرٌ مُهِمٌّ في نفوس السائلين، وأن تثير فيهم الرغبة في معرفة الجواب، وقد تنزع نفوسُهُمْ إلى المشاركة في الإجابة عليها كأنهم هم المسؤولون، وفي كلتا الحالتين تتفتّح أذهانُهم لمعرفة الجواب، من المتصدّر للإجابة، العالم بأجوبة المسائل المطروحة.

وعندئذٍ يتلَقَّوْنَ المعرفة باستقبالٍ حَسَنٍ، إذا لم يكن لديهم اعتراضٌ ما

عليها، ويختزنونها برغبة منبعثة من نفوسهم، ولا يجدون في نفوسهم أيَّ عقبةٍ تصرفها عن ذلك .

ثم تدفعهم الرغبة إلى الحديث عمّا ثبت في أذهانهم من الأسئلة والأجوبة عليها في مجالس مختلفة، فَيَرْوُونَهَا كما جرَتْ في مجلس السؤال والجواب .

- ٢ -

مسؤولية حامل الرسالة

فعلى حامل الرسالة الدينيّة، الدعويّة، أو النُّصْحِيَّة والإرشاديّة، أن يعقد مجالس للسؤال والجواب، أو أن يجعل في آخر دَرْسِهِ حصّةً من الزّمن للسؤال والجواب، وأن يستثمر هذه الوسيلة المؤثّرة النافعة من وسائل الأداء البياني، للقيام ببعض واجبات وظيفته الَّتي يضطلع بأعبائها .

وعليه أن يكون حكميا، كثيرَ العلم بما يتصدّر للإجابة عليه، حاضر الذّهن يَقِظاً، حَسَنَ التصرُّف، واسِعَ الصَّدْر حليماً، مُحْتَرِماً لأسئلة السائلين ولو كانت ضَحْلةً وساذَجَة، وفي هذه الحالة يَتَلَطَّفُ بالسائل ولا يُشْعِرُهُ بما يجرح مشاعره، وعليه أن يكون قادراً على البيان المفهم بأسلوب حسن .

وإذا لم تَحْضُرْهُ الإجابة الصحيحة على السؤال، فلا يجوز له أنْ يُجِيب بغير عِلْم، وليَحْذَرْ أشدَّ الحذر من ذلك، فإنْ أجاب بغير علم عرّض نفسه للسقوط من الاعتبار والاحترام والتقدير بين الناس، وعرّض نفسه لسخط الله وغضبه، لدخوله حينئذٍ في فئة من يَضِلُّ ويُضِلُّ، ويكون ممّن اتّخذهم الناس رؤساءَ جُهّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا، كما جاء في أقوال الرسول ﷺ التي سبق الاستشهاد بها .

وإذا كان في مجلسه بعض أهل العلم فيَحْسُنُ أن يُحيل عليهم السؤال،

فلعلّ عند بعضهم علماً بالجواب عليه، فيتولّى منهم من استعدّ للمشاركة وقَبِلَ الإحالة تقديمَ ما لديه من علم. وإلاّ وعَدَ بمراجعة المسألة والإجابة عليها في جلسة لاحقة إنْ شاء الله.

ولا مانع من أن يعترف بواقع حاله بالنسبة إلى هذه المسألة الّتي لم يحضُرْهُ الجوابُ عليها، فيقول: نسيتُ حكم هذه المسألة، أولا أعلم، أو أنا في شكٍّ من الجواب، وسأبْحَثُ الأمر بعون الله ومشيئته.

وليتذكّر في نفسه دواماً أن الإمام مالكاً إمام دار الهجرة، قد سُئِلَ عن مسائل كثيرة فأجاب على بعضها بما يعلم، وقال في بعضها الآخر: لا أعلم، ولم يستحي من جهله بها.

وليذكُرْ في نفسه دواماً قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿. . . وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

وقد كان كثير من الفقهاء لا يُجيبون على ما يُطْرحُ عليهم من المسائل إلاّ إجابات مكتوبة، وبعد مراجعةٍ في المصادر، ولو كانوا يعلمون الإجابة عليها ممّا هو في ذاكراتهم.

وهكذا كان يفعل المفتون في دوائر الفتوى الرسميّة، في معظم بُلْدَان العالم الإسلامي، ومنها جُمِعَتْ كُتُبُ الفتاوىٰ.

ومن المستَحْسن إذا كانت الأسئلة مكتوبة أن يُنَحّيَ المتصدّر للإجابة الأسئلة التي ليس لديه إجابات عليها بعلْمٍ مؤكّد، وأن يجيب على الأسئلة الّتي يملك الإجابة الصحيحة الواضحة عليها، ثمّ يُعْطِي الوعد بالإجابة على الأسئلة الباقية في لقاء آخر إن شاء الله.

ثمَّ يُعِدُّ بأناةٍ الإجابات الملائمات بالرّجوع إلى المراجع، ثُمَّ يجيب

عليها في مجلس لاحق، إذا وجد لذلك سبيلاً.

ـ ٣ ـ

خـــاتـمـــة

إنّ مجالس السؤال والجواب مجالسُ مفيدةٌ ونافعةٌ جدّاً، في نشر المعرفة وتثبيتها، وتناقُلِها بين الناس، بشرط أن تكون الإجاباتُ واضحاتٍ جَليّاتٍ مُفَصَّلاَتٍ لا غموض فيها ولا الْتباس، وبشرط أن يكون المجيب على علم مؤكّد بالجواب الصحيح، وإذا كانت المسألةُ من المسائل الخلافيّة عند الفقهاء المعتمدين لدىٰ جمهور المسلمين، فليس للمجيب أن يقطع جازماً بوجهة نظره، ولكن يقول: في المسألة خلاف بين العلماء، والرّاجح فيما أرى هو ما ذهب إليه فلانٌ من الأئمة، وإذا كان يَحْضُرُهُ الدليلُ فلْيَذْكُرْه.

وإذا كان لَهُ اجتهادٌ خاصٌّ فعليه أن يُبيّنه مع ذكر أدلّته عليه.

* * *

الوسيلة السادسة

الكتاب

- ١ -

الأمّة الإسلاميّة أمّة (اقْرأ)

دلّتنا المفاهيم القرآنيّةُ على أنّ الأمّة الإسلاميّة هي أُمَّةُ (اقْرأ) وذلك بمقتضىٰ أَمْرِ الله عزّ وجلّ لنبيِّه محمّد ﷺ قائدها وأوّل مؤمنيها ومُسْلِميها النبيّ الأمّيّ مُنْذُ بدء الوحي إليه بأن يقْرأ، فقال له في أوّل بيان أُنْزِل عليه: ﴿ٱقْرَأْ﴾ وعَرَضَ جِبْرِيلُ عليه نَمَطاً من ديباجٍ وقال له: اقرأ[١].

وبما أنّ الرسُولَ لم يُؤْمَرْ بَعْدَ ذلك بأن يَتَعلَّمَ القراءة والكتابة، لئلا تَرُوجَ بين العرب فِرْيَةُ أنَّهُ يؤلّف القرآن اقتباساً من كُتُب الأوّلين ومسطوراتهم، فلا بُدّ أنْ نَفْهَم أنّ الأمْرَ بالقراءة الّتي تستلزم الكتابة بالقلم، أَمْرٌ مُوجَّهٌ لعُموم الأمّة الإسلامية، المكلّفة أن تتّبع الرّسُولَ النبيّ الأميّ، فالأمر الذي يُوَجَّهُ لقائد الأمة وإِمَامِها هو أمْرٌ موجَّهٌ لها.

فالأمة الإسلاميّة مُطالبَةٌ بأن تتعلَّم بالْقَلمِ، وتَقْرأ مَا خُطَّ بالقلم،

(١) ذكر ابن حجر في كتابه «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» وقع عند ابن إسحاق في مرسل عبيد بن عمير أنّ النبيّ ﷺ قال: «أتاني جبريل بِنَمَط من ديباجٍ فيه كتاب قال: اقرأ. قُلْتُ: ما أنا بقارىء» انظر (ص ٧١٨ من الجزء الثامن) عند شرح الحديث (٤٩٥٣).

النَّمَط: نوع منسوج كالبساط. **الديباج**: ثوب سداه ولحمته من حرير.

ومطالَبَةٌ بأن تُدَوِّنَ وتُسَجِّل معارفَها المنزّلة عليها من ربّها بالقلم، وتدوّن وتسجّل بالقلم المعارف الّتي تَصِلُ إليها بأي طريق من طُرُق المعرفة، وأيّ وسيلةٍ من وسائلها، وأيِّ أداة من أدواتها، لتكون المسطوراتُ مُثْبَتَاتٍ لعلومها ومعارفها، ومراجع لاستذكارها، ووسائل لنشرها بين الْقُرّاء الّذين يَقْرَؤون المسطورات وكلّ مُخْطُوطٍ بالقلمِ ويُلْحَقُ بالقلم كُلُّ وسيلة تُثْبَتُ بها رموزُ الكلماتِ، أو صُوَر نُطْقِها.

وقد أخذ المسلمون بهذا التوجيه الرّبّاني، فكتبوا القرآن المجيد أوّلاً بأمْرٍ من الرسول ﷺ، ثُمَّ كَتَبُوا ما حفظوه من أحاديث الرسول ﷺ، ثم دوّنوها في مُدَوّناتٍ كبرىٰ، ثم أخذوا يُفَسّرون آياتِ القرآن المجيد، ويشرحون أحاديث الرسول الكريم، ويكتبون ما يستنبطونه من مفاهيم، وما يجمعونه من آثار، وما يكتسبونه من معارف هي من نتاج وسائل المعرفة الإنسانيّة، واهْتَمُّوا بِخِدْمَةِ اللّغة العربيّة خدمات جليلات، مُسْتَنْبِطين قواعدها، وجامعين معاني مفرداتها، لأنّ فهم اللّغة هو المساعد الأوّل على فهم نصوص القرآن والسُّنّة، واهتموا أيضاً بتدوين أحداث سيرة الرسول ﷺ، وسِيَرِ أصحابه الكرام، والتابعين لهم بإحسان، وتَوَسَّعُوا في تدوين التاريخ توسُّعاً كبيراً.

ثُمَّ انطلقوا إلى اقتباس العلوم الّتي توصَّلَتْ إليها الأمم من قبلهم، فألَّفُوا فيها المؤلَّفاتِ، وتوسَّعُوا في البحث العلميّ والتأمُّل والتجربة والابتكار، حتّىٰ كانت لهم مخطوطاتٌ من الكتب لا تدانيها مخطوطات الأمم السابقة لهم مُتَفَرِّقَةً وَلاَ مجتمعة.

وكان للمسلمين بذلك حضارة شاملة رائدة لشعوب الأرض جميعاً.

ثُمَّ أغارت على مخطوطات كتُبهم الكثيرة جدًّا جحافِلُ هَمَجٍ جَهَلةٍ، من شعوب الشرق (المغول والتتار) فأتلفتها، وألْقَتْ عشراتِ الألوف منها في دجلة.

وكذلك فعلَتْ جحافلُ هَمَجِ النصارى، إذْ أغارت على مخطوطات كتُبهم الكثيرةِ في الأندلس، فأحرقَتْها عَلَناً، ولم تستَجِبْ لنداءات عُقَلاء النصارى، ومنهم بابا الفاتكان يومئذٍ.

- ٢ -
الكتـاب قديمـاً

وكان الكتاب قديماً كتاباً مخطوطاً بأيدي المؤلفين، ثمّ بأيدي النُّسّاخ، وكان مرجعَ الدارسين المتخصصين، باستثناء كتاب الله عزّ وجلّ، فقد كان جليسَ كلِّ قارىء وقارئة من المسلمين، الذين يحرصون على اغتنام الحسنات، بقراءته من المصحف، أو بتلاوته من الحفظ، وباستثناء بعض كتب الحديث، أو كتُب السيرة والتاريخ.

أمّا كتبُ العلوم المختلفة عند المسلمين فكان لا يُزاول القراءة فيها إلاّ طلابُ العلوم، الّذين يُتابعون ما يدرسون منها في الكتُب المؤلفة فيها، بيد أنَّ هؤلاء كانوا كثيرين جدًّا، إذا قُورنُوا بمتعلمي الشعوب الأخرى، إذْ كانت الأُمَّة الإسلاميّة هي رائدة العلم والحضارة، قبل الحروب الصليبيّة، وأثناءَها، وبعدها قليلاً.

ثُمَّ تراجعت شعوبُ الأمّة الإسلاميّة تراجُعاً خطيراً إلى الأميَّةِ بعوامل مختلفة، واستمرّت في التراجع عدّة قرون.

ثم بدأت تستعيدُ في العصر الحاضر خطواتها الارتقائيّة، بعوامل داخليّة وخارجيّة مختلفة، فمنها ما كان بتأثير الاقتباس من الحضارة الغربيّة المادّيّة، ومنها ما كان من أثَر الصراع الفكريّ مع الشعوب غير المسلمة الطامعة ببلدان العالم الإسلامي، والطامعة بالاستيلاء على خيراتها واستعباد شعوبها، ومنها ما كان من أثر الرغبة الشديدة في إحياء تراثها العلميّ وتنميته.

- ٣ -

الكتاب بعد انتشار المطابع

لكنْ صار للكتاب أهميّةٌ عظيمةٌ جدًّا بَعْدَ وجود المطابع الآليّة وانتشارها بوفرة، وطباعتها لعشراتِ ومئاتِ الألوف من كُلِّ كتابٍ تخصُّصيٍّ أو غير تخصُّصي، وبَعْدَ أن أخَذَتِ الشعوبُ الغربيَّةُ ثُمَّ الشَّرقيّة غيرُ المسلمة سبيلها إلى الارتقاءِ الحضاريّ الماديّ، لكسب المال، وتحقيق الرفاهية، وصار الكتاب أَحَد أعمدة المعرفة لديهم إذْ قلَّتْ فيهم الأميّة جدًّا إلى أدنى الحدود.

ثم صار للكتاب أهميّةٌ عظيمةٌ لدى شعوب الأمّة الإسلامية بعد أن بدأت تتخلّص من الأميّة العارِضَةِ الخارجةِ عن هُوّيتها شيئاً فشيئاً، وصَارَ للكتاب عندهم نسْبَةٌ ما من القرّاء، إذْ بدؤوا يرتقون في أوائل درجات سلّم الأخذ بوسائل المعرفة بالتدرّج، إلاّ أنّ هذه النّسبة فيهم ما تزال قليلة، ودون المطلوب منها بمقتضىٰ كونها أُمَّةَ (اقرأ) لعدّة أسباب، منها ما يرجع إلىٰ طبيعة تطوّر خلاص الشعوب الإسلاميّة من أعراضها المرضيّة الطارئة على كياناتها، وإلى طبيعة تطور ارتقائها في اتجاه ذروات المعرفة العليا، ومنها ما يرجع إلى مكر الدول العظمى غير المسلمة، لإبقاء شعوب الأمّة الإسلامية متخلّفة عن مُسَايرةِ ركبِ الحضارة الماديّة، ومحجوبةً عن الارتقاء الحضاريّ المعنويّ الفكريّ والخلقيّ والنفسيّ والاجتماعيّ الذي تَمْلِكُ كُلّ أسُسِه وأَسْبابِه دون أُمَم الأرض جميعاً.

ودوافع هذه الدُّول ترجع إلى رغباتِ اسْتثمارِ ما لدى شعوب الأمّة الإسلامية من خيرات كثيراتٍ، بنزعات استعماريّة، وإلى تخوُّفِها من عودة الإسلام إلىٰ الظهور القويّ، بحُلَّةٍ حضاريَّةٍ جديدة، تؤهّله لامتلاكِ عقولِ ونفوسِ الشُّعوبِ غير المسلمة، وللنُّهُوض بالشعوب الإسلاميّة مُسَابِقةً في

مسيرة ركب الحضارة المادّية كلّ الشعوب الأخرى.

- ٤ -

الدعوة إلى القراءة

فعلَىٰ حمَلَة رسالة الرسول محمد ﷺ الدَّعَوِيَّة وغيرها، أن يَبْذُلُوا جَهْداً عظيماً في توجيه شعوب الأمّة الإسلاميّة للتحقُّق بما وجّهها اللَّهُ له، إذْ أرْشدها أن تكون أُمَّةَ (اقْرأ) وأنْ تتخلّص من أُمِّيَّاتها الّتي كانت فيها قبل أن تدخُل في الإسلام.

وعليهم أن يَعْمَلُوا بِجَهْدٍ مُكَثَّفٍ على تدريبِ الأجيال الناشئةِ على قراءة الكتُب النّافعةِ المفيدة، بأمَلِ أن يكون الكتاب النافع المفيد جليسَ كلّ رجل وامرأة من الأمّة الإسلاميّة، وكلِّ ناشيءٍ وناشئة من ذراريهم، بحسب مستوياتهم وإمكاناتهم العلميّة والثقافيّة، وبحسب أعمارهم من الطفولة إلى التمييز إلى الرُّشْد، ثم إلى المستويات الثقافيّة الرفيعة.

على أن يكون كتابُ الله ومستوياتٌ ملائمات من تفسيره، أو تفسير بعض سُوره، وكتُبُ أحاديثِ الرسول ﷺ وبعض ما يتعلّق بها من شروح، بمثابة الْقُوتِ اليوميّ لكلّ فردٍ منهم، وأنْ تكون لهم وجبات يوميّة من الكتُب الشارحة للإسلام، ولسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولِسِيَر أصحابه الكرام، وسِيَرِ الْذِين اتَّبَعُوهم بإحسان، ومن الكتب الّتي تُحذِّرهم من مكايد شياطين الإنس والجنّ، وتُبَصِّرُهم بوسائلهم وحِيَلِهم وأساليبهم، الّتي ينشرون بها في الأرض الفساد، والكتبِ التي تُدَرِّبُهُمْ علىٰ أَن يُصَارعوا بالحقّ الجليّ الجميل، أفكار أعداء الإسلام الباطلة المزخرفة بالأقوال الكاذبة، والمزيّنة بالأصباغ والألوان الخلّبيّة الخادعة. ثم من كتب العلوم النافعة المختلفة، الّتي يعتمد عليها الارتقاء الحضاريُّ الشامل لهذه الأمّة الإسلاميّة المصطفاة،

الَّتي جعَلَها اللَّهُ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ إذا حافظت على هُوّيتها الّتي أوصاها الله ورسوله بأن تحافظ عليها.

- ٥ -

حُسْن اختيار الكتاب الذي ينبغي أن يُوَجَّه لقراءته

وعلى حامل الرسالة أن يتوسع في قراءة الكُتُب، ولا سيما ما يؤلّفه كبار الكتّاب الإسلاميّين الموثوقِ بدينهم، وبأمانتهم العلميّة، وبحُسْن تأليفِ الكتُب وإتقانها، وحُسْنِ عَرْضِ القضايا فيها بأساليب جذّابةٍ مُشْرقةٍ، مُمْتِعةٍ للقرّاء، ومقنعة للأفكار، ومستثيرة للعواطف النبيلة الصادقة.

ثمّ عليه أن يختار لكلّ مستوىً من الراشدين والناشئين والأطفال، الكُتُبَ المناسبة له، ليوجّهه لاقتنائها، ويَنْصَحَه بقراءتها، مع متابعته لمعرفة ما اقتنى وما قرأ منها.

فإذا عَلِم بأنّ أحداً منهم قد قرأ كتاباً، أو قسماً من كتاب، ناقشه فيما قرأ، وصحَّح له المفاهيم الّتي أخطأ فيها، وأقَرَّه على الصواب منها، حتَّىٰ إذا وجده قد استوعب الأفكار، واستقامت في ذهنه، طلب منه تلخيصَ ما قرأ أمام أترابه، وشَرْحَ أهمّ الأفكار، وإيرَادَ أهَمّ الشواهد.

ثم إذا وجَدَهُ قَدْ تمكّنَ من معلوماته الّتي قرأها ووجدها معلومات نافعاتٍ لجمهور من الناس، واستشعر أنّه صار قادراً على أن يُقَدّمَها عطاءً توجيهيًّا، لجمهورٍ من الناس، دعَاهُ إلى إلقاء هذه المعلومات أمامَ جمهورٍ من روّادِ المسجد على شكل خطبَةٍ أو دَرْسٍ، بَعْدَ أن يُقَدِّمه إليهم مُثْنِياً عليه بأنّه قد قرأ الكتاب الفلانيّ واستوعَبَه، ووعىٰ ما فيه من أفكارٍ ومعلوماتٍ، فَمِنَ الخير أنْ يُوفّر علينا الْجَهْدَ، ويُقَدّمَ لنا المعلومات الّتي استفادها من الكتاب بإيجاز.

وبهذا يستطيع حاملُ الرسالة أن يُنْشِيء حركةً علميَّةً ثقافيّة إسلاميّة، فرديّةً وجماعيّة، في مجال نشاطه، وأن يُعِدَّ بالتدريج ذوي استعداد لأنْ يكونوا مستقبلاً خطباء، ومُدَرِّسين، ومعلّمين، وواعظين، وناشرين للإسلام، وداعين إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالّتي هي أحسن، متحلّين بعلمٍ ومهارة وقدرة على مخاطبة الجماهير، ببيان مشرق، وأساليب مُحبّبَةٍ للنفوس.

وحين تدور حركة هذا البرنامج الإصلاحيّ والإعداديّ، ويكثُر الْقُرَّاءُ الّذين تُمْنَحُ لهم فُرَصُ التدرُّبِ على العطاء التعليميّ والتوجيهيّ، فلا بُدَّ أن يَجْرِيَ التنافس بينهم في التدرُّب على حمل الرسالة والقيام بوظائفها بصورة آليّة، ولا سيما إذا وَجَدَ المتفوقون مُشَجِّعَاتٍ وحوافز لِهِمَمِهِمْ.

وعندئذٍ تتّسِعُ حَلْقَةُ الْقُرَّاءِ، وتَكْثُر أعداد ذوي الرغبة في العطاء، الذين لديهم استعدادٌ له، ويتّجهُ الناشئون في مجال نشاط حامل الرسالة إلى النَّهَمِ في القراءة، والاستزادةِ من المعرفة، والرغبةِ في التعليم والتربية والعطاء التوجيهي.

وبهذا يكونُ حاملُ الرسالة قد أَدَّىٰ وظيفتَهُ أداءً حسناً، يُكْسِبُه رِضْوانَ ربِّه، ويرْفَعُ منزلَتَه عنْدَهُ وفي جنّاتِ النعيم.

- ٦ -

صفات الكتاب الجدير بالاعتبار والتقدير

توجد للكتاب الجيّد الجدير بالاعتبار والتقدير، صِفَاتٌ تتعلّقُ بالشَّكْل، وصفات تتعلّقُ بالمضمون:

● **أمَّا الصفات التي تتعلّق بالشّكل:** فتتلخّص بحُسْن الطباعة وأناقتها،

وجَوْدَةِ الورق، ووُضُوحِ الحروف، وإيجادِ الفواصل بين الفقرات التي تَفْصِلُها فروعٌ أَوْ أغْصان، وتَمْييزُ الْجُمَلِ بفواصل مطبوعة، واتّباعُ مصطلحات النقط، والشرطات، والواو المقلوبة، وإشاراتِ الاستفهام والتعجب، وتزويدُ الكتاب بما يحتاج إليه من وسائل إيضاح، كالخرائط، والصُّور، والمشجّراتِ، والجداول، ونحو ذلك.

● **وأمّا الصفات الّتي تتعلّق بالمضمون ففيما يلي بيانُها:**

الكتُبُ الّتي تَصْلُح لأن تُوصفَ بأنّها كُتبٌ جيّدةٌ أو أكثر مِن جيّدة ذواتُ أنواع وأغراضٍ مختلفات، وذواتُ مستويات متفاوتات في إتقانها، وذوات تلاؤمات مع الشرائح الاجتماعيّة مختلفات.

١ ـ فمنها كتبٌ للفكر تبني معرفةً صحيحةً رصينةً، قائمةً علَىٰ أصولٍ ثابتة، وقواعد علميّة منطقيّة.

٢ ـ ومنها كتُبُ مقالاتٍ متناثراتٍ تطوفُ حول محور واحدٍ.

٣ ـ ومنها كتُبٌ للاستمتاع النَّفْسي بآدابها وطرائفها، مع ما فيها من فوائد علميّة وإرشاديّة.

٤ ـ ومنها كتبُ وعْظٍ نافع، وإرشادٍ عامٍّ، وترغيبٍ وترهيب.

٥ ـ ومنها كتبُ تاريخٍ وقِصَصٍ إنسانيّة.

٦ ـ ومنها كتبُ وصْفٍ للطبيعة وقوانينها وأنظمتها.

٧ ـ ومنها كتُبٌ إرشاديّة لمعالجة أسباب العيش من المآكل والمشارب، والمناكح، والمساكن، والبيع والشراء، والإقامة والسفر، ونحو ذلك.

٨ ـ ومنها كتُبٌ للترف الفكريّ العالي، كَبَعْض الريّاضيات العليا،

ومسائل الفلسفة المعقدة الّتي ليس لها جدوىٰ عملية في حياة الناس.

٩ - إلى غير ذلك.

الكتاب الذي يبني معرفة صحيحة مهمّة:

أمّا الكتاب الذي يبني معرفةً مُهِمَّةً صحيحة مؤصَّلةً فالصفات الّتي تجعله جيّداً فما فوق الجيد، بحسب مقدار إتقانه، هي ما يلي:

الصفة الأولى: أن تكون المعارفُ فيه منظّمةً في أصولها وفروعها على وفق النظام الشجريّ في الطبيعة، ضمن روابط منطقيّة:

إنّ لكلّ صنف شجرة من أشجار الطبيعة بزرةً تنفلق في اتّجاهين:

- اتّجاهٍ إلى الْعُمْقِ، إذْ تَتَغَلْغَلُ فيه الجذور بحثاً عن القوت من التراب والماء، وتمتد الجذور متشعبة من ساق فأكثر إلى فروع، فأغصان، فعروق، فَشُعَيرات تَمْتَصُّ الماء مع العناصر المنحلّةِ فيه من التراب.

- واتّجاهٍ إلى الأعْلَىٰ يَشُقُّ الأرض ويذهب نامياً صاعداً في السّماء، بحثاً عن القوت من الرياح والضياء، وهذا يمتدّ متشعّباً إلى ساقٍ فأكثر، فإلىٰ فروع، فأغصان كبرى وصغرىٰ، فأوراق، وثمار إذا كان من الأشجار المثمرة.

وهكذا كُلُّ موضوعٍ عِلْميٍّ من الموضوعاتِ الأصول أو الفروع هو بمثابة شجرةٍ، لها بزرةٌ هي المنطلَقُ، ولها شطران رئيسان: شطرٌ يمتدُّ جذوراً متفرعة في أرضيّة الفكر. وشَطْرٌ يمتدُّ ساقاً أوْ أكْثَر، ففروعاً فأغصاناً في سماء الفكر، وهذا هو الذي يُورِقُ، ويُعْطِي الثمارَ غالباً.

فمن بنىٰ أفكار كتابه بناءً منطقيًّا، ضمن نظامٍ شجريّ، متدرّجٍ، مترابطٍ، متكاملٍ، فقد أجاد البناء، وأحسن الإنشاء.

ومن لم يتّبع البناء المنطقيّ ضمن النظام الشجريّ الطبيعيّ للموضوع

الّذي ألّف فيه كتابه، أو بحثه، فقد أخلّ، وأنزل كتابَهُ عن مستوى الجودة بمقدار عدم التزامه بهذا النظام.

الصفة الثانية: أن تكون جذوره، وسوقه، وفروعهما، وأغصانُهما، وكلُّ الأقسام فيه، واضحاتِ المعالم، ذواتِ عناوين وفواصل مُمَميِّزة، ومُتَميِّزة، كما جعل الله عزّ وجلّ لكلّ قسْمٍ من أقسام الشجرة وأقسام أيّ كائن حيٍّ صفاتٍ خاصّةً به تميّزُه عن غيره.

إنّ للجذر صفاتٍ خاصّةً به. وإنَّ للسَّاقِ صفاتٍ تختصّ به، وإنّ للفروع صفاتٍ تختصّ بها، وإنّ للأغصان صفاتٍ تميّزها، وكذلك الأوراقُ والبَراعمُ والثمار، ولكلّ شيءٍ فيها.

أمّا الكتاب الّذي تَدُورُ شجرةُ أصوله وفروعه وفروع فروعه، مختلطةً ببعضها، فهو شبيهٌ بجهَازٍ مَعِدَةٍ لهَضْم الطّعام، ولا ينسجم مع جهاز الفكر الّذي خلَقَهُ الله متلائماً مع النظام الشجريّ، فإذا وَرَدَتْ إليه هذه المختلطات اضْطُرَّ إلى أن يَبْذُلَ جَهْداً عظيماً حتَّىٰ يفصِلَ بعضَها عن بعض، ويَجْعَل كُلاًّ منها في موضعه ضمن النظام الشجريّ، أو اضطرّ إلى أن يُفْسِدَ فطرته الّتي فَطَرَهُ الله عليها، ويحفظ المختلطات حفظاً كما وردت إليه، فإذا أراد أن يُصَدِّرَها صَدَّرَها مختلطةً أيضاً.

وهكذا نجد كثيراً من العلماء، وكثيراً من المؤلفين يدفعون ما في ذاكراتهم من علومٍ دفعاً مختلطاً.

إنّ الناس بحسب فِطَرهم الّتي فطرهم الله عليها، لا ينسجمون مع مختلطات الأفكار، لأنّها إذا زادت في اختلاطها عن المعتاد في أساليب النّاس صارَتْ في تصوّرهم هذياناً، أو دالَّةً على لَوْثَةٍ ما في فِكْرِ من صدَرَتْ عنه، أو عدم انتظامٍ فكريّ لديه، أو هو مضلّل.

وإذا لم يَنْسَجِم الناسُ مع الكتاب المختلِطِ هجروه، ولم يحتفلوا به،

ولا باقتنائه، مهما أُحيط بترويج دعائي قويّ إبّان ظُهوره، فمعظم الناس غيرُ مستعدِّين لإفساد فطرهم الّتي فطرهم الله عليها، إكراماً للمروّجين الإعلاميين.

ومن أمثلة هذه المختلطاتِ ذاتِ الْهَدَف التضليلي أكداسُ كُتُب الشيوعيّين، الّتي روّجها يوماً ما الإعلامُ الشيوعي، الّذي كان مسَخَّراً للاتّحاد السُّوفييتي واليهوديّة العالمية، في أواسط القرن العشرين الميلادي، قبل سقوط الشيوعيّة ودولتها العظمى.

الصفة الثالثة: أن تكون عباراتُ الكتاب واضحاتِ الدلالاتِ، خفيفاتِ الظلّ، مشرقاتِ الأسلوب، تتخلَّلُها بتلقائيّة ودُونَ تكلُّفٍ صُوَرٌ بيانيّة بديعة، تساعد على فهم الأفكار، ولا تتسبَّبُ في خلخلة المعاني، أو إخراج الكتاب عن جدّيّته العلميّة، وطرائقه وأساليبه الإقناعيّة.

الصفة الرابعة: أن يُمْسِكَ الكتابُ فِكْر قارئه إمساكاً يجعَلُهُ شَغُوفاً بمتابعةِ سلسلةِ أفكاره المترابطة حتّى آخِرِ صفحةٍ منه.

وهذا لا يتحقَّق إلاّ إذا كانت أفكارُ الكتاب سائرةً سيراً طبيعيًّا منطقيًّا ضمن النظام الشجريّ الذي فطر الله العقول عليه، وكانت أقسامُهُ واضحةَ المعالم مع تسلسلها الشجري، وكانت عباراته مشرقة جذّابةً ترضي أذواق النفوسِ الجمالية.

الصفة الخامسة: أن يكون الكتابُ مناسباً لمستوىٰ قارئه فكريًّا وعلميًّا وثقافيًّا، ومناسباً لعمره ومقدارِ خِبْراته في الحياة.

أمّا إذا كان أعلىٰ من مستواه فإنّه لا يَصْبِر على قراءته.

وأمّا إذا كان أدنَىٰ كثيراً من مستواه، فإنَّهُ يراه غير مفيدٍ له، فهو لا يحتَفِلُ به، ولا يكترثُ له.

الصفة السادسة: أن لا يكون الكتاب منحازاً بدافعٍ من هوىً نفسيٍّ، موجّهاً لنصرة جماعَةٍ معيّنة، أو مذهب معيّنٍ من مذاهب أهل السنة والجماعة، أو لنُصْرةِ سياسةٍ زمنيّةٍ معينة، فيها حقٌّ وباطلٌ، وصوابٌ وخطأ، واستقامةٌ واعوجاج.

بينما يجب في الكتاب الإسلاميّ أن يكون دائراً مع الحقِّ حيث دار، وسائراً معه حيثُ سار، غير متحيّزٍ ولا متعصّبٍ لجماعةٍ ذاتِ رأيٍ خاصٍّ، أو مذهب ذي اجتهادٍ خاصٍّ به.

إنّ الكتاب الإسلاميّ الدَّعَوِيّ العامّ، والذي يحمل رسالة النصح والإرشاد لعموم جماعات المسلمين يجب أن يكون جامعاً غير مفرّق، يصل القارىء بكلّ الأمّة الإسلاميّة، على اختلاف جماعاتها ومذاهبها الاجتهاديّة لدى جمهور علماء أهل السُّنَّةِ والجماعة.

أمّا نصرةُ اجتهاد معين فينبغي أن يَقْتَصِرَ ناصره على قوله: هذا ما ترجّح لديّ بالنظر إلى الأدلَّة، إذا كان فعلاً هو الذي ترجّح لديه بالأدلّة الصحيحة.

* * *

الكتاب الموضوع للوعظ والإرشاد:

وأمّا الكتاب الموضوع للوعظ والإرشاد والتوجيه لالتزام الإسلام بوجه عامّ، فلا يشترط فيه اتّباع النظام الشجريّ، وإنْ كان اتّباع هذا النظام فيه ـ ولو بوجهٍ من الوجوه ـ يجعله أكثر إتقاناً وترابطاً وتأثيراً.

ولكن يشترط فيه إشراق العبارة، وخفة الظّلّ، وأن يكون أسلوبُهُ ذا تأثير على مشاعر النفوس، وقُدْرَةٍ على استثارة عواطفها النبيلة، وتوجيهها لفعل الخير وتركِ الشرّ، والتزام الفضيلة واجتناب الرذيلة.

ولا مانع من أن يكون على شكل مقالات أدبيّةٍ متناثرات، تَطُوف حَوْلَ

مِحْورٍ دعَوِيّ أو إرشادي نصحيّ واحد، أو تتناول موضوعات إسلاميّة متفرّقة، في العقيدة والأخلاق والآداب ونظم الإسلام إلى غير ذلك، فمحورُها الإسلامُ بوجه عامّ، ولكن تنزل بهذا قيمة الكتاب، ويغدو بمثابة مجلّةٍ أو صحيفة إسلاميّة.

ولا مانع أيضاً من أن يكون شرحاً لنصوص منتقاة من القرآن المجيد، أو من أحاديث الرسول ﷺ في مختلف الموضوعات الإسلامية.

ويحْسُنُ في هذا النوع من الكتب أن يشتمل على وافرٍ من الشواهد العلميّة المختلفة من كلّ التخصُّصاتِ، والأمثلة التاريخيّة، وأقوال كبار العلماء والحكماء، ونفائس الشعر والأدب.

* * *

الكتاب الموضوع للاستمتاع بالآداب والطرائف:

وأمّا الكتاب الذي يُقْصَدُ به الإمتاع بالآداب والطرائف، فلا يشترط فيه اتّباع النظام الشجري، وإن كان اتّباع هذا النظام فيه يجعله أكثر إتقاناً وجمالاً.

ولكن يشترط فيه إشراق العبارة، وخفّة الظّلّ، وحُسْنُ انتقاء المختارات من الآداب والطرائف والنوادر، وحُسْنُ تقسيمها إلى أشباه ونظائر، ووضْعُها في أصناف بحسب ما فيها من أشباه، أو بحسب المجالات والموضوعات الّتي تنتمي إليها فكريًّا.

ويُمكن أن يستفاد من هذا النوع من الكتب في اختيار آداب وطرائف ونوادر تصلح لرسالة الدعوة، أو لرسالة النصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* * *

كتب السِّيَرِ والتواريخ:

وأمّا كتُبُ السِّيَرِ والتواريخ، فيجب أن تكون معتمدة على الأخبار الصحيحة الموَثَّقَةِ. وأن يستفاد من الأحداث المعروضة فيها للتنبيه على العظات الّتي تشتمل عليها، وعلى سُنَّةِ الله في عباده، كلّما وُجِدَت مناسبةٌ لذلك.

ويشترط فيها أيضاً إشراقُ العبارة، وسلاسَتُها، وانسيابيَّتُها، وخِفَّةُ الظّلّ، وحُسْنُ التقسيم والتفريع، والتلاؤم بين العبارة والموقف العاطفيّ للحدَثِ التاريخيّ، ومراعاةُ تَسَلْسُلِ الأحداث في الواقع، وأن لا يكون في الأخبار تعارض ولا تناقض، وأن لا تكون الأخبار ممّا تحكُمُ العقول السليمَةُ بسقوطها ومنافاتها للأحداث الإنسانية الطبيعيّة، باستثناء المعجزات وخوارق العادات الرّبّانيّة.

* * *

كتاب القصة:

وأمّا كتاب القصّة فقد أوفت الدراسات والبحوث الأدبيّة ما تحتاجه القصة من شروط فنيّة، حتّىٰ تكون جذّابة لقارئها، ومؤثرة فيه.

فينبغي لحامل الرسالة الدعويّة أو الإرشادية، أن يستفيد مما كُتِب في هذا المجال، إذا أراد أن يكتب قصّةً ذاتَ نَفْعٍ في موضوع من موضوعات رسالته الّتي يضطلع بمهماتها، أو إذا أراد أن ينتقي كتاباً صالحاً في هذا المجال ليوجّه لقراءته.

وأمّا الكتب الأخرى فهي تدخل في اهتمامات المختصين بموضوعاتها، ولكن يجبُ تنقيتها وتصفيتها ممّا يتعارض مع الإسلام، وتزويدها بما يخدم أصوله وفروعه، كلّما وُجِدَتْ مناسبةٌ صالحة لذلك.

* * *

الوسيلة السابعة

المقالة

المقالة: هي بمثابة بحثٍ ملخّص، أو فصلٍ منتقى، من كتاب علميّ، أو دَعَويّ، أو إرشاديٍّ نصحي، أو أدبي، أو تاريخيّ، أو قصصي، مع مقدّمة أو خاتمة تعطيانه استقلالاً، وتجعلانه صالحاً لأن يُنْشر مستقلاً، في مجلّةٍ علميّة أو عامة، أو صحيفة دوريّة.

والمقالة قد تنوب مناب خطبة، أو درس، أو كُتَيِّبٍ صغير.

وتبدو أهميَّتُها في أنّ وسيلة توصيلها إلى الْقُرّاءِ أَكْثَر انتشاراً، وأيْسَرُ كُلْفة، فهي محمولةٌ على شواغر قافلة سائرة بها وبدونها، وتَصِلُ إلى مواقع كثيرة لا يَصِلُ إليها الكتاب، وينتفع بها متصيّدها المترقّب، أو عابر سبيل.

غير أنّ القليل من الناس من يفصلها ويصنّفها، بغية أن يرجع إليها للاستذكار، أو الاستشهاد ببعض ما جاء فيها، أو عندما يحتاج إلى أفكارها وما اشتملت عليه من معارف أو توجيهات أوْ آداب، أو غير ذلك.

وليس لها في نفوس القرّاء أو النّقاد والباحثين عادةً ما للكتاب من ثِقلٍ علْميّ موثوق به، بسبب مجاورتها غالباً للأخبار ومقالاتٍ ودعايات ذاتِ طابع إعلاميّ ترويجيّ، لا يعتمد الصِّدْق فيما يُرَوّجه، بل الغاية منها تَحقيقُ أغراض وأهدافٍ نفعيّةٍ خاصةٍ فردية أو جماعيّة.

باستثناء المجلات العلميّة الّتي تهتَمّ بالتوثيق العلميّ، لا بالترويج الإعلاميّ القائم على الدّعاية المصحوبة بالمؤثرات النفسية.

* * *

الوسيلـة الثامنـة

الشــعــر

الشعر: فنٌّ من فنون الأداء البيانيّ الجميل، المؤثر في النفوس المحبّة للفنون الجماليّة، عمادُه الإيقاع الموسيقي الموزون، والمقاطع المتناظرة القوافي، والاستفادةُ من المهارة التصويريّة، والْحِيَلِ الخيالية، واصطيادُ نوادر الأفكار الطائرة السوانحِ والبوارحِ والمحلّقةِ في الأجواء العالية.

وباستطاعة حامل الرسالة ذي المواهب الشعريّة أن يستخدم الشعر في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والنُّصْحِ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وباستطاعة من لم تكن لَدَيْه مَوَاهبُ شعريَّةٌ أن يحفظ نفيس الشّعر مما يخدم رسالته، ويَسْتَشهد بما يراه مناسباً منه للموضوع الذي يتحدّث فيه، لدى أدائه بعض وظائف رسالته، ممّا كتبه الشعراء الموهوبون.

إنَّ الشّعْرَ فنٌّ من فنون الأدب، ومعلومٌ أنّ حملة رسالة الرسول ﷺ مدعُوُّون إلى استخدام الأدب لتأدية رسالتهم بصورة جميلة محبّبة للنفوس، وبوجوه مختلفة ذات تأثير في الذين تُوجَّهُ لهم الرسالة، إذ الأدب أَحَدُ وسائل التأثير الجمالي في النفس الإنسانيّة، وأحد وسائل الإعلام الرفيع، وسلاحٌ بيانيٌّ فعَّالٌ في كثيرٍ من الأحيان.

وقد أنزل الله عزّ وجلّ القرآن المجيد معجزاً في بيانه، مع وجوه إعجازه

الأخرى، وكانَ رسولُ الله ﷺ أفصح العرب الذين كانوا أفصح الناس، وكان ﷺ أعلاهم بياناً، وأقدرهم على التأثير بكلامه البليغ، وكذلك كان معظم الأنبياء والمرسلين في أقوامهم، إذْ كانوا أبلغ أقوامهم كلاماً، وأعلاهم بياناً وحُجَّةً وتأثيراً.

ولمّا كان الشعر فنًّا من فنون البيان الجميل الرفيع، جاء فيما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنّ الرسول ﷺ قال:

«إنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْراً، وَإنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَماً»[1].

وقد كان للرسول ﷺ شعراء ينافحون بالشعر عن دين الله، ويكافحون أعداءَ الرسول والمسلمين، ويذبُّون عن الحقّ، منهم: «حَسَّانُ بْنُ ثابت، وعَبْدُ الله بْنُ رواحة، وكعْبُ بن مالك» رضي الله عنهم، وقد أورد ابن هشام في سيرته لهم شعراً كثيراً.

وجاء في صحيح مسلم أنّ حسّان بن ثابتٍ قال لأبـي هريرة: أنشدُكَ بالله، هل سمعت النبـيّ ﷺ يقول:

«يَا حَسَّانُ أَجِبْ عن رسول الله، اللَّهُمّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»؟ فقال أبو هريرة: نعم.

وعند مسلم أيضاً عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ لحسّان بن ثابت: «اهْجُهم أَوْ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ معك».

وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسّان: «إنَّ رُوحَ الْقُدْسِ لا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نافحت عن الله ورسوله».

---

(١) انظر الحديث (٢٢١٥) من صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني.

وقد كان الشعر عند أكثر الشعراء ومكافئيهم وسيلة إعلاميّة دعائية، إلاّ أنّه يمكن ـ كما صار يستخدم فيما بعد ذلك ـ أن يكون وسيلة نافعة خطيرة، صالحة لأن تستخدم في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي النصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوجيه للخير، والتحذير من الشرّ، وإجراء الحكمة سائرة على ألسنة الناس.

* * *

الوسيلتان التاسعة والعاشرة

القصّــة والتمثيــل

سبَقَ بيانُ ما يتعلّق بهاتين الوسيلتين في الفصل الأول «التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر» باعتبارهما من وسائل التوجيه غير المباشر.

ولهما أيضاً موقعٌ هُنَا باعتبارهما من وسائل الأداءِ البياني، ولكن لا داعي إلى إعادة شرحهما، تخلُّصاً من عيوبِ التكرار دون غَرضٍ يُقْصَدُ عِلْميًّا أو تربويًّا أَوْ بلاغيًّا.

فيحسُن الرجوع إلى ما سبق أن ذكرتُهُ عنهما.

* * *

الفصل الخامس

أَدَواتُ التوصيل الإعلامي
ومسؤولية حملة الرسالة بالنسبة إليها

وفيه أربع فقرات:

١ ـ استعراض تاريخي.

٢ ـ أدوات التوصيل الحديثة.

٣ ـ مسؤولية حملة الرسالة بالنسبة إلى أدوات التوصيل الإعلاميّ المختلفة.

٤ـ الرأي في حكم التصوير بالأدوات المستحدثة.

- ١ -

استعـراض تاريخـي

١ ـ كانت أَدَاةُ التوصيل للإعلام البياني في بدايات التاريخ الإنساني، الإشارةَ بالحركات الجسديّة، وأن يُسْمِعَ الإنسانُ كلامَهُ الدّالّ في المتعارف بين الناس على المعاني الَّتي يُرِيدُها، بصوتِهِ مباشرة، وكان هذا قاصراً على مَدَىٰ ما يَصِلُ إليه الصوتُ عِنْدَ إعطائه غايةَ ارتفاعِه.

٢ ـ ثُمَّ وجَدَ الإنسانُ أنَّه إذَا عَلاَ فوقَ مُرتَفعٍ من الأَرْضِ اسْتَطاع أن يُوصِلَ صَوتَهُ إلى مدىً أبْعَدَ، وأَنْ يُسْمعَ بِهِ مَنْ يَبْلُغُهُمْ صَوْتُهُ، وكذلك الْإشارةُ الدالَّةُ على مَعْنىً مُتَعَارَفٍ علَيْهِ تكونُ في المرتفع أوسَعَ رائينَ، وأبْعَدَ مدىً.

٣ ـ ثم صار أصْحَابُ البيان الذين يَصْعُبُ عليهم إبلاغ كثيرين من الذين يُرِيدُون إبلاغَهُمْ إيّاه، يستخدمون أشخاصاً آخرين يُبَلّغُونَ عنْهُم ما يُريدون توصيله إليهم بأصواتهم، لأنَّ أصواتَهُمْ لا تَصِلُ إليهم، مَهْمَا أَعْطَوْهَا غاية مَدَاها.

وفي المجامع العامّة الَّتي يجتمع فيها جمهور كبير، لاستماع كلام كبيرٍ من كبراء القوم، أو مُعَلّمٍ أَوْ خطيبٍ، كانَ صاحبُ البيان يَضَعُ مُبَلِّغين لكلامه في مَجْلِسه، على مسافاتٍ مُتَنَاظرات، فَيُلْقِي هو بصوتِهِ الجملةَ الّتي يُمْكنُ أن يَلْتَقِطَها الْمُبَلّغُ الأوّل، فيلتقطها هذا المبلغ ويُلْقِيهَا بأَعْلَىٰ صَوْتِهِ، ويَلْتَقطُها مِنْهُ الْمُبلّغ الثاني، ويُلقِيهَا ليَسْمَعَها مَنُ هُمْ أبعد منه مسافة، وهكذا حتّىٰ يسْمَعَها آخر المحتشدين.

ثمّ يلقي صاحبُ البيان جملةً ثانية، وينتظر حتّىٰ يَتِمَّ تَبْلِيغُهَا، وهكذا حتَّىٰ يُنْهِيَ كُلَّ كلامه.

وكان المحدّثُونَ والْوُعَّاظُ في المساجد والجوامع الكبيرة، التي يجتمع عليهم فيها خَلْقٌ كثير، يتّخذون لأنفسهم مُبَلِّغين، يُبَلِّغُونَ ما يتحدّثون به، وكان يُسمَّىٰ هذا المبلِّغُ مُسْتَمْلِياً، ويُخْتَارُ عادةً من نَابهي الطُّلاب، ذوي الصوت العالي، وقد يصلُ المستملون في المجلس الواحد إلى عشرة.

واكتشف المهندسون في أماكن العبادة الكبرى طرائق في بنائها صالحةٍ لتجميع صَدَىٰ الصَّوْتِ، وتوصيلِ صَوْتِ الخطيب المرتفع فيها إلى جميع الذين هم داخل جُدْران البناء.

٤ ـ ومُنْذُ ابتكرَ الناسُ الكتابةَ على الجلودِ والصفائح الْحَجَرِيَّة، وعِظَامِ أكتافِ الحيوانات الذبيحة بعد تنظيفها من آثار اللَّحْم والدُّهن، اتَّخذُوها إحدى أدواتِ تَوْصِيلِ البيان الكلامي الذي يُرادُ الإعْلامُ به.

واستخدم الناس الْبَرِيد، والْحَمامَ الزاجلَ لتوصيل رسائلهم إلى من يُرِيدُون إعلامَهُ ببياناتٍ تُهِمُّهم، إذْ يكون هؤلاء وهؤلاء متباعدين في بلدانٍ نائية عن بعضها.

وتوسَّع الناس في استخدام وسيلةِ الكتابةِ وأدواتها، حين اكتشفُوا صِنَاعَةَ الورق، وكان الصينيّون هم أوّل المبتكرين لهذه الصناعة.

وبدأت الصُّحُفُ والمؤلَّفَاتُ تُدَوَّنُ على قِطَع من الجلود، وكانت الْجُلُود المختارَةُ للكتابة من جُلُودِ الغزلان، لرقتها ومَيْلها إلى البياض، وتُدَوَّن أيضاً على صحائفَ من المصنوعاتِ الورقيّة، ثم تُجْمَعُ علَىٰ شَكْلِ رسائل أو كتب كبيرةٍ ومُجَلَّدَات.

وكان الخطَّاطُون هم الذين يكتُبُون نُسَخَ الكُتُب المؤلّفَةِ ويُوَسّعُونَ بكتابتهم لها انتشارها.

واستمرّ حال الناس عصوراً مديدة مقتصرين على أدوات التوصيل السابقات.

٥ ـ ثُمَّ ابْتُكِرَتِ المطابِـعُ الحجريّة، فكانت أداةً مُهِمَّةً وعظيمة لتوسيع انتشار المؤلفات.

ثم تطوّرتِ المطابِـعُ تَطَوُّراً عظيماً، وصارت المطابع الآليّة تُصَدِّرُ الألوفَ والملايين من الكتُب والرسائل والجرائد والمجلات.

وسَايَرَتْ بُلْدانُ العالم الإسلاميّ مسيرة الحضارة في استخدام المطابع الآليّة، مُتَابِعَةً ما تتطَوَّرُ إليه، وكان لاستخدام هذه الآداة الْمُعَاصِرَةِ نَفْعٌ عظيمٌ في نشر الكتُب الإسلاميَّة، وتوسيع توصيلها إلى كلِّ طالب علم، سواءٌ أراد طالب العلم اقتناء الكتاب لنفسه، أَمْ أراد أن يُطالِعَهُ أَوْ يُراجع بعض مسائل فيه في مكتبة عامّة، فقد انتشَرتْ أيْضاً المكتباتُ العامَّة الكبرىٰ منها، والوسْطَىٰ، والصغرىٰ، وزُوِّدَتْ بَعْضُ المساجد بطائفة من الكتب النافعة الّتي يَرْجع إليها الراغبون في القراءة المفيدة، وإنْ كانت هذه المكتبات العامّة بحاجة إلى انتشارِ أكثر، وإتقانِ أكثر، كما يجب استخدامُ كلِّ أدوات التوصيل المطبوعة غير الكتاب، مثل المجلاّت، والجرائد، والنشرات، والإعلانات، لتوصيل رسالة الهداية ورسالة الإصلاح.

- ٢ -
أدوات التوصيل الحديثة

وبالإضافة إلى أدوات التوصيل التقليديّة وما تطوَّرَتْ إليه ظهر في العصر الحديث أدوات تَوْصيلٍ حديثة مدهشة.

١ - فاكتُشِفَتْ أدوات حفظ الصوت في أسطوانات، واسترجاعه منها في آلةٍ خاصة تكبِّرُ الصوت.

٢ - ثم اكْتُشِفَتِ الوسائلُ لصناعة أدوات تكبير الصوت وتوصيله في المجامع إلى كلّ الحاضرين، مهما كانت أعدادهم وابتعدت أَماكنهم، واستغنى الناس بها عن المبلّغين.

٣ - ثم ظَهَرَتْ في المبتكرات الإذاعةُ اللاّسلكيّة، فاستغنىٰ الناس بها عن الارتحال في البلدان إلى المواطن البعيدة لتبليغ أصواتهم، وما يُرِيدون توصيله للناس بها.

وكانت الإذاعة أداةً خطيرةً جدًّا ومُهِمَّةً جدّاً، لتعميم توصيل الأداء البياني، وتهيَّأت بها إمكاناتُ إبلاغ البيان إلى كلّ من يُرِيدُ سَمَاعَ صَوْتِ صاحِبِ البيانِ كأنّه حاضرٌ في مجلسه.

٤ - ثم ظهرت في المبتكرات أدوات نَقْلِ صَوْتِ المتحدّث مع صُورته، السلكيّة واللاّسلكيّة، فيما يُسمَّىٰ «التليفزيون» فارتقى تأثير توصيل الأداء البياني ارتقاءً مُذهشاً، لأنَّ النُّفُوسَ تميل إلى رؤية صورة شخْصِ مُحَدِّثهم وهو يحدّث.

وظهرت في المبتكرات أدواتُ تسجيل الصوت على أشرطة، مع إمكان استعادة سَمَاعِ الصوت ما لا حَصْرَ له من المرّات، ومع قابليتها لأن يُنْسَخَ عنها ما لا حصر له من الأشرطة.

٥ ـ ثم ظهرت أدواتُ تسجيلِ الصّوْتِ والصورةِ معاً، مع إمكان استعادةِ صُورَةِ الحدث كالأصل تماماً، بواسطة الجهاز المسمَّىٰ «الفيديو» مع «التليفزيون»، ومع إمكان نسخ ما لا حصر له من الأشرطة أخذاً من الشريط الأوّلِ، بواسطة جهاز «الفيديو».

وكانت هذه قَفْزَةً مُدْهشةً في أدواتِ نَقْل صُوَرِ الأحداثِ وأصواتِها، إلى كلّ موقعٍ يُوجَدُ فيه إنسان يَسْمَعُ ويشاهد، وإلى استعادتها وتكرِيرهَا ما لا حصر له من المرّات.

٦ ـ وقد تهيَّأَتْ بهذِهِ الأدوات إمكانات عظيمةٌ جدًّا، لتوصيل الأداءِ البياني الذي يحمل للناس خيراً أو يحمل للناسِ شَرًّا.

فالدعاة إلى الإيمان بالله أو اتّباع صراطه المستقيم، والْهُداةُ الناصِحُون المرشدون، والآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، يجدون في هذه الأدَوات ما يُعِينُهُمْ على تَوْصِيل دَعْوَتِهِمْ وهدايتهم ونُصْحِهم وإرشادهم إلى كلّ ذي سمع وبصر، راغِبٍ في معرفة الحق وطريق الهدى والخير.

ودُعَاة الشرّ المضلّون المفسدون في الأرض الّذين يسترضون أهواء الناس وشهواتهم، يجدون في هذه الأدوات ما يُسَهِّلُ لهم أن ينشروا ضلالاتهم وإفسادهم، في كلّ من هم مستعدون للاستجابة لإغراءاتهم وتزييناتهم، واتّباعهم إذا أمروهم بالمنكر، ونَهوهُمْ عن المعروف.

* * *

- ٣ -

مسؤولية حملة رسالة الهداية والإصلاح

فعلى حَمَلةِ رسالةِ الْهِدَاية بالدَّعْوَةِ إلى الإيمان بالله، أو سلوك سبيله، أو رسالة الإصْلاحِ بالنُّصْحِ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يستفيدوا من كلّ أداة توصيلٍ إعلاميّ يتوصَّل الناس إلى ابتكارها، باكتشاف خصائص الأشياء الَّتي خَلَقَهَا اللَّهُ في كونه، مما يُسَهّلُ لهم صناعتها، بشرط أن لا يكون في الشيء المبتكر شرٌّ لذاته، أو مَعْصِيةٌ للَّهِ والرَّسول.

وعلى جميع المؤمنين المسلمين القادرين، من ذوي المال والأعمال والسلطان، أن يُعِينُوهم في ذلك، ليُؤَدُّوا وظائفهم أداءً حسناً، وليُبَلّغوا رسالة رسول الله ﷺ إلى النّاس أجمعين، وأن لا يَأْلُوا جَهْداً في إعدادها وبَذْلِ الأَمْوال لها، إذْ هو جزء من الجهاد في سبيل الله.

وعَلَيْهِم أن لا يقتصروا على استخدام أدواتِ التوصيل التقليديّة، الّتي سبق أن استخدمها المسلمون في العصور الخالية، لأنّهم مُكَلَّفُونَ أنْ يُبَلِّغُوا دِين اللَّهِ للنّاس أجمعين دانيهم وقاصيهم، وأَنْ يكُونُوا هُداةً ناصحين مرشدين آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

إنّ كُلَّ وسيلةٍ أو أَدَاةٍ غَيْرِ محرّمة لذاتها، يتحقّق بها تبليغُ دين الله، ونَشْرُهُ في الناس، فإعدادُها واستخدامُها وبَذْلُ الأموال في ذلك هو من الجهاد في سبيل الله، ومعلومٌ أنَّ الجهاد بالمال سابق للجهاد بالأَنْفُس،

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

فمن الخير الْمَأْجُور عند الله استخدامُ مكبِّرات الصوتِ في المجامع الكبيرة، بشرط أن لا يكون في استخدامها إزعاجٌ أو تنفيرٌ من الدِّين، وكراهيَةٌ للدّعاة إليه، والهداةِ الناصحين المرشدين، ومن المزْعِجَاتِ المنفّراتِ إيصالُ أصواتها إلى الناس في منازلهم في أوقات رَاحَاتِهم، أو إذا كانت الأصوات تُشَوِّشُ عليهم وهم مُنْهَمِكُونَ في أعمالهم الخاصّة، كقراءةٍ، أو كتابةٍ، أو عبادةٍ، أو غير ذلك من شؤون الحياة.

ومن الخير المأجور عند الله أن يستفيدوا من الإذاعة لتوصيل أصواتهم الحاملة لأدائهم البياني، وكلٌّ من يعينهم على ذلك مأجورٌ عند الله بشرط الإخلاص لله في العمل من الجميع.

وأن يستفيدوا من «التلفزيون» ومن «الفيديو» لتوصيل صُوَرِهِمْ وأصواتهم الحاملة لأدائهم البيانيّ، ما استطاعوا إِلَىٰ ذلك سبيلاً.

وأَنْ يستفيدوا من أشرطة تسجيل الصوت، وأشْرِطَةِ تسجيل الصُّورَةِ والصَّوْتِ معاً، وَأَنْ يُوَسِّعوا دائرة انتشارها.

وأن يستفيدوا من الأقمار الصناعيّة، الّتي يكونُ بها انتشارٌ أَوْسَعُ في الأرض، إذا استطاعوا أن يستخدموها أدواتٍ لتوسيع نشر أدائهم البياني، بكلِّ لغةٍ من لُغَاتِ شُعوب الأرض.

- ٤ -

الرأي في حكم التصوير بالأدوات المستحدثة

والرأيُ الذي انتهىٰ إليه أكثر أهل العلم المعاصرون العارفُون بطبيعة عمل آلات التصوير المستحدثة، أنَّه لا حرجَ في نقل الصور بهذه الآلاتِ التصويرية المستحدثة المختلفة، ومنها التصوير التليفزيوني، لأنَّ هذا النَّقْلَ لَيْسَ مُضَاهَاةً لخلْقِ اللَّهِ، بل هو اكتشافٌ لعناصِرَ هِيَ من خَلْقِ الله. وهو يُشْبِهُ الْمَرايا الّتي تَعْكِسُ الصُّوَرَ، بزيادة صِفَةِ الثَّبَاتِ لهذه الصُّوَر، على أوارقٍ، أو صَفائح، أو أشرطةٍ، حَسَّاسَةٍ للأشعّة، أو نحو ذلك ممّا خلَقَ اللَّهُ في كَوْنه.

إنّما الحرجُ في نوع الشيء الذي يُعْرَضُ للتصوير بهٰذه الأدوات، كتَصْوِير الْعَوْراتِ والفواحِشِ، وما يَدْعُو إلى كُفْرٍ أو معصيةٍ للَّه عزّ وجلّ.

فإذا كان المعروض للتصوير بهذه الأدوات من نَوْع المحرّمات كان النَّقْلُ بها مُحَرَّماً، وإذا لَمْ يَكُنْ من المحرَّمات لم يَكُن النَّقْلُ بِها مُحرَّماً، بل ربّما كان من المندوبات أو الواجباتِ أحياناً.

إنَّ معظم الوسائل المبتكرة في هذه العصور وسائلُ حياديَّةٌ بذاتها، وهيَ قابلَةٌ لأن تُسْتَخْدَمَ في الْخَيْرِ، ولأن تُسْتَخْدَمَ في الشّرِ، حتَّىٰ القنابلُ الذريّة لا تخْـرُجُ عـن كـونهـا أداةَ قَتْـلٍ وتـدميـرٍ مُشَـابِهَـةً بصـورةٍ معظَّمـةٍ جـدّاً،

لأدوات الْقَتْل والتدمير الَّتي كان يَعْرِفُها الناس قديماً، من جهة وظيفتها، فإذا استُعْمِلَتْ في الخير كانت خيراً، وإذا استَعملتْ في الشرّ كانت شرّاً.

أمّا الوسائل المحرَّمة لذاتها فلا يجوز استخدامها للتوصّل بها إلى فعل خير، كالمسكرات، والمخدّرات، والفواحش، والأوْثان ونحوها ممّا فيه مضاهاة لِخَلْقِ الله، وكذلك أشباهُ هذه المحرّمات.

* * *

الفصل السادس

المنهج الرّبانيّ للسياسة الحكيمة
الموجهة للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمته

وفيه مقدمة عامّة وواحدٌ وعشرون تعليماً جاءت في إحدى وعشرين سورة:

التعليم الأول: جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

التعليم الثاني: جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

التعليم الثالث: جاء في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).

التعليم الرابع: جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

التعليم الخامس: جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

التعليم السادس: جاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

التعليم السابع: جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول).

التعليم الثامن: جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

التعليم التاسع: جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

التعليم العاشر: جاء في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

التعليم الحادي عشر: جاء في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول).

التعليم الثاني عشر: جاء في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول).

التعليم الثالث عشر: جاء في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول).

التعليم الرابع عشر: جاء في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول).

التعليم الخامس عشر: جاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول).

التعليم السادس عشر: جاء في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول).

التعليم السابع عشر: جاء في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول).

التعليم الثامن عشر: جاء في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول).

التعليم التاسع عشر: جاء في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول).

التعليم العشرون: جاء في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول).

التعليم الحادي والعشرون: جاء في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول).

التعليم الثاني والعشرون: جاء في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول).

* * *

المقدمة العامّة

لا بُدَّ من أن يُواجِه حاملُ رِسالة الدعوة إلى الله والنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عقباتٍ وصُعُوباتٍ تتطلّب منه مجاهدات ومعالجات حكيمات، ومنها ما يؤذيه أو يُثير غضبه ويؤلمُهُ من هُزْءٍ وسُخْرِية، وهمْزٍ ولَمْزٍ وغَمْزٍ وضَحِكٍ ساخرٍ، وتجريحاتٍ واتِّهَامَات باطلات، قد تَصِلُ أحْياناً إلى اتّهامه بالضّلالة، أو السفاهة أو الجنون، أو اتّهامه بابتغاء مصالح شخصيّة دنيويّة، لدى الذين يؤدّي مُهِمَّاتِ رسالَتِه بينهم، أو اتّهامه بأكثر من ذلك.

وقد يتعرض لمطالبَ تعنُّتِيَّةٍ تعجيزيّة أو استدراجات إلى التنازل عن بعض ما يُؤْمِنُ به، أو بعض ما يدعو إليه، إلى غير ذلك من أمور.

وقد رسم الله عزّ وجلّ لرسوله فيما أنْزَلَ عليه بوصفه إمام الدعاة إلى الله تعليماتٍ ووصايا، تبيّن له السياسة الحكيمة الَّتي ينبغي أن يلتزم بها هو وكلّ داعٍ إلى سبيل ربِّهِ من أمته.

وفيما يلي استعراض للتعليمات والوصايا التي استطعت استخراجها من القرآن الكريم، وأنا أكتب هذا الكتاب لإرشاد الدُّعاةِ إلى الله، وحملةِ رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أولاً ـ أخذاً من سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

الوصية الأولى: ينبغي لحامل الرسالة أن يتحلّىٰ بالصَّبْرِ على ما يقول فيه من يوجّه لهم رسالَتَهُ مما يسوؤُه.

الوصية الثانية: على حامل الرسالة أن يُدَاوي قلبه ونفسه بدواء التسبيح بحمْدِ ربّه في أربعة أوقات:

- قبلَ طلوع الشمس.
- وقبلَ الغروب.
- وأثناء اللّيل.
- وعَقِبَ الصَّلَوَات.

الوصية الثالثة: علَىٰ حامل الرسالة أنْ يَعْلَم أنّه مُبلِّغٌ ومُبَيّن رسالةَ رَبِّه، وأنّه غَيْرُ مُجْبِرٍ وَلا مُكْرِهٍ، وأن يوطِّنَ نفسه لِتَلَقّي رفْضِ استجابة من يُؤدِّي بينهم رسالته، مهما كان الحقّ فيما يدعوهم إليه واضحاً جليًّا.

فالذين يؤدّي بينهم رسالَتَهُ لا يُقْبَلُ منهم أن يَسْتَجِيبُوا بالسَّوْقِ الجبري، بل لا بُدَّ أنْ يَسْتَجِيبُوا باختيارهم الْحُرِّ، فإذا لَم يَسْتَجِيبوا فإنّ عَلَيْهِمْ أن يَتَحمَّلُوا عند ربّهم نتائجَ رفْضِهِم.

الوصية الرابعة: ينبغي لحامل الرسالة أن يُذَكِّرَ بالقرآن بَعْدَ التبليغ والبيان الكافي مَنْ يتحسَّسُ أنَّهُ يخافُ خوفاً ما من وَعِيدِ الله، فمن لَدَيْهِ مقدارٌ ما من الخوف من عذاب الله فاستجابَتُهُ مطموعٌ بها على وجه الإجمال، فيَحْسُنُ تذكيرُهُ حيناً فحيناً طمعاً في استجابته.

ثانياً ـ أخذاً من سورة (**الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول**):

الوصية الخامسة: ينبغي لحامل الرسالة أنْ يأخُذَ العفو، لا أن يريد العقاب والانتقام.

الوصية السادسة: ينبغي لحامل الرسالة أن يأمُرَ أصحاب السَّعَةِ والْقُدْرَةِ بالْعُرْف، وهو البذلُ والعطاء ومساعَدَةُ ذوي الضرورات والحاجات.

الوصية السابعة: ينبغي لحامل الرسالة أنْ يستعيذ بالله السميع العليم كُلَّما نَزَغَ الشيطانَ في نفسه نزغاً ما.

ثالثاً ـ أخذاً من سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

الوصية الثامنة: أن يُعْلِنَ حَاملُ الرسالة أنّه مُكلَّفٌ من ربّه أن يُؤَدِّي وظائِف رسالَتِه، فهو يَعْبُدُهُ وحْدَهُ في أدائه رسالته، ولا يتلَقىٰ الأوامر من غيره جلَّ وعلا، فلَيْسَ لذي سلطان في الأرض أن يَمْنَعَهُ من القيام برسالَةٍ يَعْبُد بها الله وحده ربَّ السماوات والأرض ورَبَّ العالمين جميعاً، لذلك فهو سَيُتَابِـعُ عبادته لربّه في تبليغ دينه، ونَشْرِه بين الناس، مَهْما واجَهَ من عقبات، وتَلَقَّىٰ من ضغوط وأَذِيّات.

الوصية التاسعة: أن يُعْلِنَ حَامِلُ الرّسالة أنَّهُ لا يَمْلِكُ للذين يؤدّي رسالَتَه بَيْنَهُم ما يَضُرُّهُم به إذا رفَضُوا الاستجابة لدعوته، ولا يَمْلِكُ ما يُجبرهم به على الإيمان به واتّباعه إذا اختاروا لأنفسهم سُبُل الضلال، ومُجانَبَةَ صراطِ الهدى والرشاد.

الوصية العاشرة: أنْ يُعلِن حامل الرسالة للذين يؤدّي بينهم رسالة ربّه، أنّه إذا توقف عن أداء رسالته كما أَمَرَهُ الله وقع تحت طائِلَة عِقَاب الله له، الذي لا يُجيرُه ولا يحميه منه أَحَدٌ، فلا نجاةَ له من عذاب الله إلاّ بأن يقوم بأداء رسالته على الوجه المطلوب منه.

الوصية الحادية عشرة: أن يُنْذِر حامل الرسالة الذين يؤدّي بينهم رسالته بعذاب الله في نار جهنم، فيقولَ لهم كما جاء في سورة (الجنّ):

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

والمراد من المعصية في هذه الآية عَدَمُ الاستجابة لدعوة الرَّسُول إلى الإيمان والإسلام.

رابعاً ـ أخذاً من سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

الوصية الثانية عشرة: أن لا يَحْزَنَ حاملُ الرسالة إذا قال فيه الذين يؤدّي بينهم رسالته مقالاتٍ تَسُوؤُه، فالله عزّ وجلّ عليمٌ بما يقولون في سرّهم وفي علانيتهم، وهو يتولّى حامل الرسالة الذي يَبْتَغِي رضوانَه، ومن تولاّه الله كفَاهُ، وأعطاه من الخير مُناه.

خامساً ـ أخذاً من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

الوصية الثالثة عشرة: أن يتَّخِذ حامِلُ رسالَةِ الدعوة إلى الله أُسُلوبَ الإعراض الذي هو وسَطٌ بين المواجهة والإدْبار في توجيه بيانات الدعوة والتذكير بها عمّن تولّى وكَفر، بعْدَ أو وصل إلى حال المكابرة والعناد، ومعاداة الرسول والمؤمنين، والعمل على قَمْع الدعوة بالقوة.

ولكن لم يصل عنادُه وإصرارُهُ إلى حالة مَيْئُوس منها.

الوصية الرابعة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يهتمّ بإقناع الّذين يؤدي بينهم رسالته، بوسائل الإقناع المختلفة ومنها الوسائل التالية:

١ ـ بيان الحقّ وإتْبَاعُهُ بالأدلّة الّتي تُثْبتُ أنّه حقٌّ، كأدلّة إثبات التوحيد.

وبيان الباطل وإتباعُه بالأدلّة التي تكشف أنّه باطل، كأدلّة إبطال الشرك.

٢ ـ الإحالة على دليل الملاحظة والتجربة، كتوجيه الأنظار للتأمُّل في الظّاهرات الكونيّة، بُغْيَةَ ملاحظة الآيات الّتي فيها الدّالاّت على صفات الرّبّ الخالق جلّ جلاله، أو لتجربة ما يُجَرَّبُ منها، وللتنقيب عن خَفَاياها بُغْيَة التوصُّلِ إلى دقائق المعارف، واستنباط الكوامن، وإدْراك ما وراء الظواهر.

٣ ـ الإحالة على سُنَّةِ الله في تاريخ البشريّة.

٤ ـ سؤال المجرّبين أهل الخبرة للتوصّل عن طريق خبراتهم وتجاربهم إلى الحق.

٥ ـ تفسير تراتيب القضاء والقدر بما يكشف وجْهَ الحكمة الرّبّانية.

الوصية الخامسة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يهتم باستخدام وسيلة الترغيب والترهيب، بأساليب مختلفة، تَأَسِّياً بالقرآن. وأن يُوجّه أفكار الذين يؤدّي بينهم رسالته للاعتبار والاتعاظ بما جرى في سالِفِ التاريخ البشريّ من جزاءاتٍ رَبَّانيّة، مع بيان أَنَّهَا من ظواهر سُنَن الله في خلقه التي لا تبديل فيها ولا تحويل.

الوصية السادسة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يهتمّ بعرض نماذج الأسوة الحسنة، مع تمجيدهم والثناء عليهم، رجاء الاقتداء بهم.

الوصية السابعة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يَصْبِر على أنواع الأذىٰ الّتي يتلقَّاها من الَّذين يؤدّي بينهم رسالَته، وأن يَضَعَ في تَصَوُّره دواماً أنَّه مُمْتَحَنٌ بهم.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية الأولى.

الوصية الثامنة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يُطِيع الكافرين، فلا يتأثّر بمقترحاتهم ومزالقهم وما يطرحونه من تشكيكات.

الوصيَّة التاسعة عشرة: على حامل الرسالة أن يجاهد بالقرآن جهاداً كبيراً، بشرح وبيان ما في القرآن من حقائق وأدلة تثبتها، وعرض وشرح وسائل تربيته للناس.

الوصية العشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن يضع في تصوّره دواماً أنّ رسالته رسالة تبليغ وبيان وإقناع وترغيب وترهيب وتربية، وتبشير وإنذار،

وأنه ليس مكلّفاً أن يحوّل الناس من الكفر إلى الإيمان، إذْ عليهم أن يؤمنوا باختيارهم الحرّ.

وهذه الوصية قد جاءت تأكيداً لمضمون الوصية «الثالثة».

الوصية الحادية والعشرون: على حامل الرسالة أن يُعْلِن للجميع أنّه ما يسأل الناس أجراً على ما يُقَدِّمُ لهم من هداية وخير، وما يَبْذُلُه لهم من نُصْحٍ ومجاهدة.

الوصية الثانية والعشرون: على حامل الرسالة أن يَتوكَّل على الحيّ الذي لا يموت في مسيرته ذاتِ الأعباء الشاقّة.

الوصية الثالثة والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُسَبِّحَ بحمد الله آناء الليل وآناء النهار وكلَّما حزبَهُ أمْر.

الوصية الرابعة والعشرون: على حامل الرسالة أن لا يَحْملَ هَمَّ ما يشَاهدُ من ذُنوب عباد الله الكثيرة، وأن يوقن بأن الله خبير بهم، عليم بأحوالهم وكفىٰ بالله خبيراً بذنوب عباده.

الوصية الخامسة والعشرون: على حامل الرسالة أن يُبيّن للكافرين أنّ الله عزّ وجلّ لا يَعْبأُ مِنْ أجْلِ نفسه بإيمانهم والتزامهم صراطه المستقيم، ولا يتأثّر من أجْلِ نَفْسِه بكفرهم ومعاصيهم، إذ هو سبحانه غنيٌّ عن العالمين.

إنّما يعبأ بهم من أجلهم أنْفُسِهِمْ، لهذا فهو يُوَجِّه لهم في كتابه وعن طريق حملة رسالته دُعاءَه، رغبةً في نجاتهم وسعادتهم.

سادساً ـ أخذاً من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

الوصية السادسة والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يحزن على الكافرين المصرّين على كفرهم بعنادٍ، مُعَرِّضين أنفسهم بكفرهم العنادي لعذاب الله الأبدي.

الوصية السابعة والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يكونَ في ضيْقٍ

ممّا يمكُرُ الكافرون ضدّه، وضدَّ الذين آمنوا به، وضدّ الإسلام.

فطبيعة حياة الابتلاء أن يكون فيها هذا المكر، وأن يَقُومَ فيها صراعٌ بين الحقّ والباطل.

على أنَّ الله سيُحْبِط ما يمكر الكافرون، أو يجعل مكرهم يُحيط بهم، إذا صَدَقَ المؤمنون المسلمون، وقاموا بما يجب عليهم أن يقوموا به.

الوصية الثامنة والعشرون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أنّه مأمور بأن يَعْبُد الله وحده في عباداته الخاصّة، وفي قيامه بأداء واجب الدعوة إلى الله، وواجب النُّصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً لما جاء في الوصية «الثامنة».

الوصية التاسعة والعشرون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أنَّه مأمورٌ بأن يكون واحداً من المسلمين، فهو مُلْزَمٌ بكُلِّ أحكام الإسلام وشرائعه، وليس له إعْفَاءٌ خاصٌّ يعفيه من الالتزام بها.

الوصية الثلاثون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أنَّهُ مأمورٌ بأن يَتْلُو القرآن على الناس، وليْسَ مُكَلّفاً أن يلزمهم بالجبر. والإكراه أن يُؤْمنوا به، وأن يتّبعوا ما جاء فيه.

لكن عليه أن يبشّرهم بأنّ من اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه، وأن ينذرهم بأن من اختار لنفسه الضلال فعليه أن يُعِدّ نفسه لتحمُّل عذابِ ربّه.

الوصية الحادية والثلاثون: على حامل الرسالة أن يُبيّن للناس بَعْدَ الثناء على الله بأنّ الحمد كُلَّه له، ثَلاثَ قضايا:

الأولى: أنّ الله عزّ وجلّ سيريهم آياته فيعرفون أنها آيات الله في كونه.

الثانية: أنّ الله عليم بكُلّ ما يفعلون في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

الثالثة: أنّ الله سيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم الإراديّة، وعلى ما اختاروه لأنفسهم في الحياة الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ.

سابعاً ـ أخذاً مما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

الوصية الثانية والثلاثون: على حامل الرسالة أن لا يُحْزِنَه قَوْلُ أَعْدَاءِ رسالته فيه ممّا يَسُوؤُه، فالله عزّ وجلّ سيَنْصُرُه بقوّتِه الغالبة، إذا صَدَقَ وأخلص لله في دعوته.

وعليه أن يكون على ثقةٍ بالله إذا توكَّلَ عليه، فإنَّ العزَّة لله جميعاً، وليسأل الله تأييدَهُ ونَصْرَهُ، فهو السميع العليم الذي ينصُر رُسُله والذين آمنوا.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية «الثانية عشرة».

الوصية الثالثة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يَرُدَّ على مَنْ يتَّهمه بالافتراء على الله، فيقول له: إنّ الَّذِينَ يفترون على اللَّهِ الكذِبَ لا يُفْلِحُونَ.

الوصية الرابعة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يتّبِـعَ بيانات الوحي، فلا يَحيدَ عنها، ولا يَكْتُمَ شيئاً منها، ولا يزيد من عِنْدِه شيئاً عليها.

أمّا المفاهيم الاستنباطيّة والقياسيّة فليست من الزيادة عليها، بل هي من توابعها.

الوصية الخامسة والثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَصْبِرَ على أذىٰ الذين يُؤَدِّي بينهم رسالته، حتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ فيجعل له فرجاً ومخرجاً، واللَّهُ خير الحاكمين.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية السابعة عشرة، وللوصية الأولى.

ثامناً ـ أخذاً ممّا جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

الوصية السادسة والثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَصْفَح صفحاً جميلاً عمّا يَنَالُه من أذًى، من قِبَل الذين يؤدّي بينهم رسالته.

والصَّفْحُ هو الإعراض عن مقابلتهم بمثل أعمالهم السيئة، وعدَمُ الاشتغال بدفع إيذاءاتهم.

والجمالُ في الصَّفْح يكونُ بإبقاء الْوَجْهِ طَلْقاً سَمْحاً لا تظهر عليه علامات الغضب، أو الغيظ والكراهية. ويكون بإبقاء الكلام عادِيًّا لا تظهر فيه أماراتُ الاضطراب أو الإلماحات المستَخْفِيَة. ويكون أيضاً بعدم شَغْلِ القلْب برغبات الانتقام.

الوصية السابعة والثلاثون: على حامل الرسالة أنْ لا يَمُدَّ عيْنَيْهِ إلى ما مَتَّعَ الله به من الدُّنيا أصنافاً من الناس ولو كانوا كُفَّاراً، فللَّه حِكَمٌ في كلِّ تصاريفه بعباده.

الوصية الثامنة والثلاثون: على حامِلِ الرسالة أن لا يَحْزَن على الكافرين بسبب تعريضهم أَنْفُسَهُمْ لعذاب جهنّم خالدين فيها.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية السادسة والعشرين.

الوصية التاسعة والثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يخفض جناحه للمؤمنين، تواضعاً لهم، وحناناً عليهم، ورحمةً بهم، ورعاية وحفظاً لهم.

الوصية الأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُوجّه الإنذار الواضح المبين لأئمة المشركين، بأنَّ اللَّهَ سَيُنْزِلُ بهم عقابه الشديد، إذا أَصَرُّوا على ما هم فيه.

الوصية الحادية والأربعون: على حامِل الرسالة أن يَصْدَعَ بما أَمَرَ الله بتبليغه للناس.

أي: أنْ يَجْهَرَ بتبليغه مَقْرُوناً بالوسائل التي تؤثّر في النفوس القاسية، فَتَصْدَعُها، كما تَنْصدع الحجارة فتحدثُ بها شقوق دون أن تنكسر.

الوصية الثانية والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُعْرِض عن

المشركين الذين بلغوا من دعوته مبلغ العناد والمكابرة، لكنَّهم لم يبلغوا مبلغ إعلان العداء، وإعداد وسائل المقاومة بالعنف المسلّح.

الوصية الثالثة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يداوي ما يحدث له من ضيق صدر يُسَبِّبُه أذى خصوم رسالته بدواءَيْن:

١ ـ أن يُسبّح بحمد ربّه.

٢ ـ أن يكون من الساجدين لله المؤدِّينَ غَايَةَ الخضوع والذلّ له.

الوصية الرابعة والأربعون: على حامل الرسالة أن يُتابع عبادته لربّه، ومنها قيامُهُ بوظائف رسالته ومهمّاتها، حتّىٰ آخر لحظة من عُمْره التي يأتيه فيها يقين الموت.

تاسعاً ـ أخذاً من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

الوصية الخامسة والأربعون: على حامل الرسالة أن لا يستجيب لطلب كبراء قومه طمعاً في إيمانهم إذا طلبوا منه أن يطرد من حوله من فقراء المؤمنين الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه.

عاشراً ـ أخذاً من سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

الوصية السّادسة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُدِير ظَهْرَه لِمَنْ وصل إلى حالة ميئوسٍ مَعَها من استجابته لدعوة الحقّ، وأن يوجّه اهتمامه ومجاهدته لآخرين مطْمُوعٍ باستجابتهم، ولم يَصِلُوا بعْدُ إلى حالة ميئوسٍ منها.

الوصية السابعة والأربعون: على حامل الرسالة ـ مع إدارته ظَهْرَهُ لمن وصل إلى حالة ميئوسٍ منها ـ أن يكون شديد المراقبة له بِبَصَرِه، لئلاَّ يُدَبِّر ضدّه وضدّ الإسلام والمسلمين مكايِدَ، وهو عَنْهُ غافِلٌ لا يشعر بما يُدبّر.

أحد عشر ـ أخذاً من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

الوصية الثامنة والأربعون: على حامل الرسالة أن يتحلّىٰ بالصَّبْر دواماً.

وهذه الوصيّة جاءت تأكيداً للوصيّة «الأولى» والوصيّة «السابعة عشرة» والوصية «الخامسة والثلاثين».

الوصية التاسعة والأربعون: على حامل الرسالة أن يستغفر الله لذنبه، أي: أي يسأل الله دواماً أن يَغْفِرَ له ذنبه.

غَفْرُ الذنب هو سَتْرُه.

الوصية الخمسون: أن يُسَبّح بحمد ربّه بالْعَشِيّ والإبكار.

العشيّ: نصف النهار الثاني إلى الغروب.

الإبكار: من وقت دخول الفجر إلى طلوع الشمس.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً لبعض ما جاء في الوصيّة «الثانية» وتأكيداً للأمر بالتسبيح الذي جاء في الوصيّة «الثالثة والأربعين».

اثنا عشر ـ أخذاً من سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

الوصية الحادية والخمسون: على حامل الرسالة أن يكون قُدوةً حسنة للناس في عَمَله الصالح الظاهر والباطن.

الوصية الثانية والخمسون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أنّه فَرْدٌ من أفراد المسلمين، مسؤول تُجَاهَ ربّه كسائر المسلمين، ومطالبٌ بأن يَعْمَلَ الأعمال التي أمر الله المسلمين أن يعملوها، وبأن يجتنب كلَّ ما أمر الله المسلمين أن يجتنبوه، وبأن ينتهي عن كلّ ما نهىٰ الله المسلمين عن أن يَفْعَلُوه.

وأن يُعْلِنَ أنَّه تُطَبَّقُ عَلَيْهِ جميع شرائع الإسلام، والأحكام التي شرع الله أن تُطبَّق على المسلمين، فلا استثناء له بشيء، ولا إعفاء له عن شيء.

وقد جاءت هذه الوصيّة تأكيداً لما جاء في الوصية «التاسعة والعشرين».

الوصية الثالثة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يدفع كلّ مَا يسوؤه

في مجال أدائه رسالته بالّتي هي أحسن، متحلّياً بالصّبْر، وبمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

الوصية الرابعة والخمسون: على حامل الرسالة أن يفزع إلى الاستعاذة بالله كُلَّما نزغَهُ من الشيطان نَزْغٌ، مستحضراً في تصوّره أنّ الله هو السّميع العليم.

وقد جاءت هذه الوصيّة تأكيداً للوصيّة السابعة وهي التي جاءت في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

ثلاث عشرة ـ أخذاً من سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

الوصية الخامسة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَذَرَ المعاندين المكابرين في خوضهم ولَعِبهم، حتّىٰ يُلاقُوا عقابهم الّذي أُنْذِروا به، في اليوم الذي قضىٰ اللَّهُ أن يُنْهِيَ فيه إمْهالَهُمْ، ويُنْزِل فيه نقمته عليهم.

الوصية السادسة والخمسون: يَنْبَغِي لحامل الرسالة أن يصفح عن إيذاءات الّذين يؤدّي بينهم رسالته، مُعْرِضاً عن معاقبتهم عليها، ومقابلتهم بمثلها، وأن يقول لهم: سلام.

أي: أعطيكم منّي السلام، ولا أقيم بيني وبينكم الآن صراعاً مادّيًا، لأنّ الله لم يأذن لي بذلك.

وهذا الصَّفْح سياسةٌ مرحليّة يلتزم بها حامل الرسالة، ما دام التحرك الإسلامي يسير في طريق جهَادِ الدّعوة فقط.

والتوصية بالصفح جاءت تأكيداً لما جاء في الوصيّة «السادسة والثلاثين».

أربع عشرة ـ أخذاً من سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

الوصية السابعة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يتولّىٰ عن تذكير

المعاندين من أئمة الكفر الذين وصلوا إلى دركة ميئوسٍ منها، فَيُدِيرَ إليهم ظهره، ليوجّه اهتمامه ونشاطاته لآخرين لم يَيْأَسْ بَعْدُ من استجابتهم.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية الخامسة والأربعين، وهي مقرونة بما جاء في الوصية السادسة والأربعين، من لُزُوم شدة مراقبة من يتولّى عن تذكيرهم، حَذَرَ مكايدهم.

الوصية الثامنة والخمسون: على حامل الرسالة أن يتابع تذكير الذين ما زال الطمع باستجابتهم لدعوةِ الحقّ موجوداً، لم ترشَحْ منه قطراته الأخيرات.

خمس عشرة ـ أخذاً من سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

الوصية التاسعة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يدفع السيئة التي يُواجَهُ بها في مجال دعوته بالتي هي أحسن.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية «الثالثة والخمسين» التي جاءت في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) مع إضافة قيد «السيئة» بالنسبة إلى المدفوع.

الوصية السّتون: على حامل الرسالة أن يستعيذ بربّه من هَمَزَاتِ الشياطين، وأن يستعيذ به من أن يحضروا عنده، فيقول: «رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُون».

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية «الرابعة والخمسين» والوصية «السابعة» مع النصّ على العبارة المختارة للاستعاذة.

ست عشرة ـ أخذاً من سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

الوصيّة الحادية والستون: ينبغي لحامل الرسالة أنْ يُعْرِض في دعوته عن مواجهة من بلغ إلى أقصىٰ درجات الإعراض عن بيانات الدعوة التي سبق أن وُجّهَتْ له، لكنّه لم يَتَوَلَّ ولَمْ يَصِلْ إلى حالة ميئوسٍ منها.

ومع الإعراض عن مواجهته ينبغي إسماعه دون مواجهته ومقابلته.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً لما جاء في الوصية «الثانية والأربعين» والوصية «الثالثة عشرة».

الوصية الثانية والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يكون في حالة إعراضه عن مواجهة من بَلَغَ أقصَىٰ درجات الإعراض منتظراً مترقّباً، فإذا شَعَر بحسِّهِ المرهَفِ أنّه قد بدأ يلين ويخفّفُ من شدّة إعراضه، انعطف نحوه بشيءٍ من التَّوَجُّهِ، ليساعده على نفسه، رجاء أن يَلِينَ ويستجيب لدعوة الحقّ.

وهذه سياسة حكيمة في مجال أداء رسالة الدعوة إلى الله، والنُّصْح والإرشاد، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر.

سبع عشرة ـ أخذاً من سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

الوصية الثالثة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يتابع تذكير من لم يَصِلُوا إلى حالة ميئوس معها من استجابتهم لدعوة الحقّ، مهما واجه من بعض قومه من اتّهام له بالكهانة أو بالجنون أو بأنّه شاعر.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصيّة «الثامنة والخمسين».

الوصيّة الرابعة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَرُدَّ على القائلين بشأنه: ننتظره حتى يُدْرِكه الموت فنتخلّص منه ومن دعوته، بأن يقول لهم وهو مطمئنُّ القلب هادىء النفس:

«تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ».

التربُّصُ: الانتظار.

الوصية الخامسة والسّتون: على حامل الرسالة أن يترك من يُلاحظُ أنَّهم يُرِيدُونَ كَيْدهُ، فلا يكشِفَ لهم أنّه قد أدْرَكَ ما يُريدونَ من كَيْدٍ ضِدَّه، واثقاً من أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ ناصِرُهُ، ومنزلٌ بِهِمْ عقابه، إذا التزم هو بتعليمات الله في

أخذ حِذْره، وفي الاستعداد الكافي لإحباط كيدهم.

الوصية السادسة والستون: على حامل الرسالة أن يَصْبِر لحكم ربّه، مُحْضِراً في تصوّره دواماً أنَّ الله عزّ وجلّ لا يختار له إلاّ ما فيه الخير له، إذا صدَق وأخلص لله في أداء رسالته، والتزام تعليماته وبياناته.

والوصية بالصبر قد جاءت في الوصية «الأولى» والوصية «السابعة عشرة» والوصية «الخامسة والثلاثين» والوصية «السابعة والأربعين».

الوصيّة السابعة والستون: على حامل الرسالة أن يُسَبِّح بحمْدِ ربّه في ثلاثة أوقاتٍ من كلّ يومٍ من أيام حياته.

الوقت الأول: حين يقوم من نومه، أو من مجلسه.

الوقت الثاني: أثناء اللّيل.

الوقت الثالث: عند غروب النجوم من آخر اللّيل.

والوصية بالتسبيح بحمد الله قد سبقت في الوصية «الثانية» والوصية «الثالثة والأربعين» والوصية «الخمسين».

لكن في «الثانية» قد جاء التوجيه للتسبيح في أربعة أوقات: «قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وأثناء اللّيل وأدْبار السجود».

وفي «الثالثة والأربعين» قد جاء التوجيه للتسبيح بصفة عامة.

وفي «الخمسين» قد جاء التوجيه للتسبيح في وقتين:

العشي «وهو نصف النهار الثاني إلى الغروب»، والإبكار «وهو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس».

ثماني عشرة ـ أخذاً من سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

الوصية الثامنة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أنْ يتحلَّىٰ بالصَّبْرِ الجميل على تكذيب المكذّبين بيوم الدين.

والصَّبْرُ الجميل هو الذي تُصَاحِبُهُ بشاشة في الوجه، وتلقائيّة في الأقوال والأعمال، دون قلق ولا اضطراب، ولا امتعاضٍ ولا تذمُّر، ولا ضيقٍ في الصّدْر، ولا شكوى.

والوصية بالصبر قد جاءت في الوصايا: «الأولى، والسابعة عشرة، والخامسة والثلاثين، والثامنة والأربعين والسادسة والستين» للأهميّة القصوى، فلا نجاح في أداء رسالةٍ من دون صَبْر.

الوصية التاسعة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَذَرَ الكافرين المصرّين على عنادهم يخوضون في جرائمهم وفسقهم وفجورهم وشركيّاتهم، ويَلْعَبُون كما يَهْوَوْنَ في الحياة الدنيا، حتّىٰ يلاقوا مَصِيرَهُمُ الوخيم، في يومهم الذي يُوعدون، وهو يوم الدين، يومُ الحساب وفصل القضاء والجزاء. «وهذه سياسة مرحلية».

وأن يُجَاهد في الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، موجّهاً رسالته لمَنْ يَطْمَعُ في استجابتهم.

تسع عشرة ـ أخذا من سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

الوصية السبعون: على حامل الرسالة أنْ يَصْبِر فلا يستعجل تحقيقَ وعْدِ الله بالنَّصْر.

وينبغي أن يعمل المسلمون جَميعاً بهذه الوصية.

الوصيّة الحادية والسبعون: على حامل الرسالة أن لا يستخفّه الكافرون للقيام بأعمال توقِعُهُ أو توقع جماعة المسلمين في ورطات لا تُحْمَدُ عواقبها.

عشرون ـ أخذاً من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

الوصيّة الثانية والسبعون: على حامل الرسالة أن لا يطيع الكافرين والمنافقين، في استدراجاتهم ومقترحاتهم ومزالقهم.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية «الثامنة عشرة» مع إضافة المنافقين هنا إلى الكافرين الصرحاء هناك.

الوصية الثالثة والسَّبعون: ينبغي لحامل الرسالة أنْ يدَعَ أذى خُصُوم رسالته وأعدائها فلا يشتغل بدفعه.

الوصية الرابعة والسبعون: على حامل الرسالة أن يتوكّل على الله مع قيامه بالأسباب التي أمر الله بالقيام بها.

وهذه الوصية قد جاءت تأكيداً لما جاء في الوصيّة «الثانية والعشرين».

إحدى وعشرون ـ أخذاً من سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

الوصية الخامسة والسبعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يستخدم أسلوب المجادلة بالّتي هي أحسن، حول أسس العقيدة الإيمانية، مع الاستفادة من صورةٍ تعليميّةٍ لطريقةٍ من طرائق مجادلة المشركين، الذين يجعلون مع الله إلّهاً آخر، كافرين بصفةِ الله الرحمن.

الوصية السادسة والسبعون: على حامل الرسالة أن يكُفَّ عن التطلُّعِ لطلَب المعجزات المادّيّة والخوارق، في تعجيل عقاب أئمة الكفر المعاندين المعلنين عداءهم ومقاومتهم للرسول والذين آمنوا.

فللّه حِكَمٌ جليلةٌ في إمهاله، وفي آجَالِه التي يُحَدِّدُها لتصاريفه. وما على الداعي إلى الله إلاّ البلاغُ المبين، واللّهُ عزّ وجلّ هو الذي عليه الحساب، فلا ينبغي للعباد أن يتَدَخَّلُوا فيما هو من خصائص الله عزّ وجلّ.

ومضمون هذه الوصيّة ينبغي أن يلتزم به كلّ المسلمين إلى أن تقوم الساعة.

الوصية السابعة والسبعون: على حامل الرسالة أن يكون شديد الحذر

من اتّباع أهواء أهل الكتاب، في مطالبهم واستدراجاتهم إلى ترك شيء من دين الله وأحكام شريعته لعباده.

وقد جاءت هذه الوصية مُبَيّنة خُصُوص أهل الكتاب، بينما جاءت الوصية «الثامنة عشرة» تنهىٰ عن طاعة كُلّ الكافرين، وجاءت الوصيّةُ «الثانية والسبعون» تنهىٰ عن طاعة الكافرين والمنافقين.

ومضمون هذه الوصايا ينبغي أن يلتزم به كلّ المسلمين إلى أن تقوم الساعة.

اثنان وعشرون ـ أخذاً من سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

الوصية الثامنة والسبعون: على حامل الرسالة أن يتحلّىٰ بالصَّبْرِ، مع الاستسلام التامّ لحكم الله، وانتظار ما يقضي به.

والوصية بالصبر قد جاءت في الوصايا: «الأولى، والسابعة عشرة، والخامسة والثلاثين، والثامنة والأربعين، والسدسة والستين، والثامنة والستين» لشدة أهمية الصبر لحامل الرسالة.

الوصية التاسعة والسبعون: النهي عن طاعة أيّ آثِمٍ أو كَفُور، في مشورة، أو مقترح، أو غير ذلك، لما في هذه الطاعة من تورُّطٍ في أمور لا تُحْمد عقباها.

وهذه الوصية قد جاءت تأكيداً لما جاء في الوصية (١٨) والوصية (٧٢) مع التركيز هنا على الآثم والكفور.

الوصية الثمانون: على حامل الرسالة أن يشتغل بذكر اسم ربّه بكرة وأصيلاً.

الْبُكْرَة: أوّل النهار إلى طلوع الشمس.

الأصيل: هو الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها.

وينبغي أن تجمع هذه الوصية مع الوصايا بالتسبيح بحمد الله «الثانية، والثالثة والأربعين، والتاسعة والأربعين» للاستفادة من زوائد الأوقات الموجودة في بعضها دون بعضها الآخر.

الوصية الحادية والثمانون: ينبغي لحامل الرسالة أن يعبُد الله بالسجود له في الصلاة أثناء الليل.

فلقيام الليل تأثيرٌ في علاج ذوي الهموم العظيمة، والأعْبَاءِ الجسيمة.

الوصية الثانية والثمانون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُسَبِّح اللَّهَ عزّ وجلّ مُدَّةً طويلة من الليل في صلاة قيام الليل، أو خارج الصلاة.

فلهذا التسبيح أثره العظيم الفعال في النفوس القلقة المضطربة، والمهمومة والمغمومة.

وهذه الوصية تُضَمُّ إلى الوصايا «الثانية، والثالثة والأربعين، والخمسين، والثمانين» فموضوعها واحد، ويُنْظَر إليها نظرةً تكامليّة.

* * *

تفصيل التعليمات من السور:

التعليـم الأول

جاء هذا التعليم في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

وقد تضمّن هذا التعليم أربع وصايا موجهة للداعي إلى الله، وهي:

١ - لزوم التحلّي بالصَّبر على ما يقول المدعوُّون في الدَّاعي ممّا يَسُوؤه.

٢ - على الداعي أن يُداوِيَ قلْبَه ونَفْسَه بدواء التسبيح بحمد ربّه في أربعة أوقات:

- قبل طلوع الشمس.
- وقبل الغروب.
- وآناء الليل.
- وعَقِبَ الصلوات.

٣ - أن يَعْلَم أنَّه مُبَلّغ رسالةَ ربّه غَيْرُ مُجْبِرٍ ولا مُكْرِه، وأنّ على المدعُوِّين أن يستجيبوا باختيارهم الحرّ لا بالسوق الجبري.

٤ - أنْ يُذَكِّرَ بالقُرآن بَعْدَ التّبْلِيغ والْبيان الكافي مَنْ يَتَحسَّسُ أنَّه يخَافُ ولو بمقدار يَسِيرٍ من وَعيدِ الله، فمَنْ لَدَيْهِ مقدارٌ ما من الخوف من عذابِ اللَّهِ، فاستجابَتُهُ لدعوة الإسلام مطموعٌ بها على وَجْهِ الإجمال، فَيَحْسُنُ تَذْكيرُه حيناً فحيناً طمعاً باستجابته.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

كان موقف المشركين إبَّانَ نُزول سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) موقف إنكارٍ ورفضٍ لما جاءهم به الرسول ﷺ، وكان رفْضُهم مستنداً إلى تَعجُّبٍ من أن يُرْسل اللَّهُ إليهم رسولاً بشراً منهم يُنْذِرهم بعذابِ الله إذا لم يستجيبوا لدعوته.

وقد جرَّهُمْ هذا الموقف إلى التكذيب بالحقّ الذي جاءهم به، ولا سيما قضيّة البعث بعد الموت للحساب وفصل القضاء والجزاء.

إلاّ أنّهم لم يكونوا على رأي واحدٍ في شأن الرسول وما جاءهم به، بل كانوا في أمْرٍ مريج، أي: في أمْرٍ مُخْتَلِطٍ، فقد كان لكل فريق منهم قولٌ في الرَّسُول ﷺ، وفي دعوته، وفي القرآن.

دلّ على هذا الموقف قول الله عزّ وجلّ بشأنه في صدر السورة.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾.

وقوله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

واقتضت الحكمة الرَّبّانيّة أن يُوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله فلكُلِّ داعٍ إلى الله من أمّته في أواخر السورة، وَصَايا تربوية تُنَاسِبُ الموقف الذي عليه المشركون في هذا الطور، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾.

وقال تعالى أيضاً فيها:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾.

فاشتمل هذا التوجيه على الوصايا الأرْبَعِ الآنفة الذكر.

● أمّا لُزوم التحلّي بالصَّبْر على ما يقول المدعُوُّن في الدَّاعي مما يسُوؤه. فظاهر من قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: لا تُقَابِلْ أذاهم لك في أقوالهم بأقوالٍ مماثلة، ولا بأقوالٍ دونها، بل تحمَّلْها بصَبْرٍ وسَعَةِ صَدْرٍ.

● وأمّا مُداواةُ القلب والنفس بدواء التسبيح في الأوقات الأربعة التي سَبَقَ ذكرها، فقد دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

إنّ التَّسْبيح لله ذِكْرٌ يتَضَمَّنُ معنَىٰ تَنْزِيهِ الله عزّ وجلّ في مشاعر القلب عمّا لا يليق بجلاله، مع الحركة اللّسانية والفكريّة التلقائيّة، التي تُشْبِه حركة السّابح في الهواء أو في الماء.

ولمّا كان التّسبيح لله قد اختص بجانب التنزيه، أمر الله بأن يكون تسبيحُهُ مقترناً ومُلْتَبساً بحمده جلَّ وعلا، أي: مقترناً بالثناء عليه بصفاته العظيمة، وأسمائه الحسنى، وبكلّ ما يستحقّ أن يُحْمَد عليه ويُثْنَىٰ عليه به.

وإنّ في التسبيح بحمد الله الفوائد الجليلة التالية:

الفائدة الأولى: أنّه عبادةٌ لِلَّهِ ينال بها العابد عند الله أجراً عظيماً، إذْ يشْتَغل بالتسبيح لِسَانُ الذاكر وفِكْرُهُ وقَلْبُه برَبّه.

الفائدة الثانية: أنَّهُ يُذَكِّرُ المسبِّحَ بِحَمْدِ رَبّه على الوجه المطلوب بعناصر القاعدة الإيمانيّة، وهذا التَّذكيرُ مع حُضُور الْقَلْبِ وتوجُّهِهِ للتفكّر بمعاني تنزيه الله، ومعاني الثناء عليه بصفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، يُوجِّهُ الْعَوَاطف نَحْو طاعة الله والتزامِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه، والْعَمَلِ بوصاياه، فيكون

الذاكر المسبّح بحَمْدِ رَبّه أكثر تقيُّداً بمقتضيات مرتبة التقوىٰ، ثُمَّ مُقْتَضَيات مَرْتَبَةِ الْبِرّ، ثُمَّ مُقْتَضَياتِ مرتبةِ الإحسان.

الفائدة الثالثة: أنَّه بمثَابَةِ الْعِلاَج الّذي يُفَرّغ النفسَ من الأحزان والهموم والمخاوف والآلام، ويَصْرِفُ عنها وارداتِها، وبهذا التفريغ تَكْتَسِبُ نَفْسُ المسَبِّح بحمْدِ ربّه عافيتَها، وتَسْتَجْمِعُ قُواها لمواجَهةِ الصِّعَابِ مَهْمَا كانَ شأنُها.

الفائدة الرابعة: أنّه بمثابة السّلْكِ الكهربائيّ الموصل بمصدر الطاقة الحقيقية الكُبْرَىٰ في الوجود، التي تُمِدُّ العباد بأمداد، من الْعَوْنِ والتوفيق والسَّداد والرَّشاد.

أمّا حظُّ المسبّح بحمد ربّه من هذه الفوائد الأربعة فيكون بمقدار حُضُورِ قلبِه ونفسه وفكره مع ربّه في أوقاتِ ذِكْره، إذ تَنْقُصُ من حظه منها الغفَلاتِ، وتنقُصُ منه شوارد الأفكار، وتنقُصُ منه عَوارضُ الأهواء والشهوات، ولو كان اللّسان مشتغلاً بالتسبيح والْحَمْد، ويَتَزَايَدُ النقص حتى يكون الذكر اللّساني حركة آليّةً لا يَتَجَاوَزُ تأثيرُها العضلاتِ والأعصابَ المادّية التي تتحرَّك بألفاظ التسبيح بحمد الله، وكذلك كلُّ أنواع الذّكر وصُوَرِهِ التي يُؤَدِّيها الذاكرون لله عزّ وجلّ.

● وأمّا عِلْمُ الدّاعي بأنّ رسالته تَقْتَصِرُ على التبليغ والبيان الإقناعي، ولا تتعَدّىٰ ذلك إلى الإجبار والإكراه، أي: أَنْ يَضَعَ في تصوُّره دواماً هذه الحقيقة، فوصيّةٌ دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ . . . ﴿٤٥﴾﴾.

أي: أنت مُكلّفُ أنْ تُبَلِّغَهُمْ وتُبيّن وتقدم لهم الحجج والأدلة ووسائل الإقناع والترغيب والترهيب بما عند الله، ولَسْتَ مكلّفاً أن تكون مُسَلّطاً عليهم مُجْبِراً مُكْرِهاً.

فالدّين لا إكراه فيه، والدّاعي إلى دين الله غَيْرُ مأذونٍ بأَنْ يُكْرِهَ النَّاس حتَّىٰ يكونوا مؤمنين مسلمين.

بل الناس هم المسؤُولون عند الله ربّهم عن الاستجابَةِ لدعوة الحقِّ بالاختيار الحرّ، لا بالسَّوْقِ الإكراهيّ الجبْري.

إنّ الإكراه قد يَصْنَعُ منافقين، لكنّه لا يَصْنَعُ مؤمنين، والنفاقُ أخَسُّ وأخْبَثُ من الكُفْرِ الصريح.

● وأمّا مُتَابَعَةُ التَّذْكير بالقرآن بعد التَّبْليغ والبيان الكافي لِمَنْ تَبْدُو عليه مخايِلُ الخوف من عذاب الله المؤجّل والمعجّل ولو بمقدارٍ يسير، فوصيّةٌ دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في خاتمة السورة:

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾.

أي: فذكّر بالقرآن من تَشْعُرُ بأنّه يَخَافُ وعِيدَ اللَّهِ أقَلَّ خوْفٍ، فَهُوَ مَطْمُوع باستجابته لدعوة الحق يوماً ما، فينبغي تذكِيرُه بما سَبَقَ أن تَبَلَّغَهُ وَتَفَهَّمَهُ من بلاغاتِ وبياناتِ القرآن.

* * *

التعليم الثاني

جاء هذا التعليم في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وقد تضمن الوصايا الأربع التالية:

١ ـ أَخْذُ العفو.

٢ ـ الأمر بالعُرْفِ، وهُوَ البذل والعطاء ومساعَدَةُ ذوي الضرورات والحاجات.

٣ ـ الإعراض عن الجاهلين.

٤ ـ الاستعاذة بالله السميع العليم كلَّما نزَغَ الشيطان في داخل النفس نَزْغاً ما.

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة:

قال الله عزّ وجلّ لرسوله فلكُلِّ داعٍ إلى الله من بعده في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وهي سورة مكيّةٌ نزلت في أواسط العهد المكيّ:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

جاء هذا النصُّ بعد عشر آياتٍ عَلَّم الله فيها رسُولَه فَالدُّعَاةَ من أُمّته،

مُنَاظَرَةً جَدَلِيَّةً يُنَاظِرونَ بها المشركين، لإقناعهم بِأَنَّ ما هُمْ فيهِ من شِرْكٍ ظاهرُ البطلان بلا شُبْهةٍ، وَبِأَنَّ توحيد الله في ربُوبيّته وإلـٰهيّتِه هو الحقّ بلا شُبْهَةٍ.

والمتدبّر اللّمّاحُ يُدْرِكُ أنَّ مُنَاظرة مشتملةً على حجج برهانيَّةٍ مقنعةٍ لمن أراد الحقّ، ودامغةٍ لمن أصَرّ على الباطل، كالمناظرة الّتي أرْشَدَتْ إليها الآياتُ السّابقات لهذا النصّ، ستُلْجىء المصرّين على باطلهم أن يتخذوا وسَائِلَ يُغَطُّونَ بِهَا هزيمَتَهُمْ في مجال المناظرة الفكريّة القائمة على الحجج البرهانيّة.

ومن هذه الوسائل اللُّجوءُ إلى السّبَاب والشتائم والتجريحات والاتّهامات الشخصيّة، والشغَب والْغَوْغائيّة، والهروبِ إلى المغالطات، والرّوَغانِ عن ساحَةِ المناظرة، والاشتغال بأطراف بعيدةٍ تختلف حَوْلَها وِجْهاتُ النَّظر، إذا نُظر إليها دُونَ أصُولِها وجُذُورها الحقيقيّة الفكريّة والواقعيّة.

فما هو موقف الداعي إلى سبيل ربّه، المناظرِ بالحقّ والْحُجَج البرهانيَّةِ تُجاهَ هٰذهِ الوسائلِ الْقَذِرةِ، الّتي يلجأُ إلَيْهَا المنهزمونَ في مجال الفكر الحصيفِ، والعلْمِ الحقِّ، والأدلّةِ البرهانيّة؟

أيُتَابِـعُ المبطلين على طريقتهم؟

إنَّهُ إذا فَعَلَ هذا تحوَّلَتْ حَلَبَةُ المناظَرَةِ العلميّة الفكريّة إلى حَظِيرةِ تَشَاتُم وسِبابٍ، تُشْبِهُ حظائر الكلاب، وحينئذٍ يكونُ أغْلَبُ الخصْمَيْن أكثرَهُمْ سفَاهةً وأعْلاهُمْ نُبَاحاً.

أمْ يَعْفُو، ويقْطَعُ ألْسِنَة الشّتَائمِ بالإطْمَاعِ بالعطاء، ويُعْرِضُ عن الجاهلين السُّفهاء؟

إنَّ التوجيه القرآنيَّ يقولُ لمن تعرَّضَ لمثْل هذا الموقف:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

هذه الآيةُ على إيجازها تَحْكِي بالإيماء اللّفظيّ واللّوازم الفكريّة قصّةَ مُعَاناةِ الدّاعي إلَىٰ اللّهِ بالحكمة والموعظة الحسنة، المناظرِ بالمنْطِقِ العَقْلِيّ، والحجج البرهانيّة العلميّة، وما يَلْقاهُ من الذين يُوَجِّهُ لهم دعوتَهُ الحكيمةَ من تَصَلّبٍ على الباطل، وعِنَادٍ وَجَهْلٍ وسَفَاهة، وسِبابٍ وشتائِمَ مختلفة، واتّهاماتٍ بالباطل، وسُخْرِيةٍ واسْتَهْزاء، وغَمْزٍ ولمْزٍ وإيذاء، ونحو ذلك من وسائل السفهاء الأعداء، الّذين لم تُهَذِّبْهم حِكْمَةُ الحكماء، ولم تَعقل أهواءَهُمْ أعِنَّةُ الْعُقَلاء.

إنّها تَقُول للدّاعي إلى سبيل ربّه.

أيُّها الدّاعي بالحكمة والموعظة الحسنة، ستُواجِهُ أذًى وَعِداءً وكيْداً، من الذين تَدْعُوهم إلى دين الله، وتُنَاظرهم ضِمْنَ أُصولِ العقل السَّليم بالحجج البرهانيَّةِ المنطقيَّةِ المقنعة.

إنَّك أمام مواقف السِّباب والشّتائم والإيذاءِ، وألوان الهمْزِ واللّمْزِ والْهُزْءِ والسُّخْرِيَةِ والْعِدَاء، وسائر المزعجات والجارحات:

- إمّا أن تُواجهَ من تَدْعُوهم بمثل أَعْمَالهم، فتخرجَ عنْ منْهج دعوتِكَ الّتي اضطلعت بأَعْبَائها.

- وإمّا أن تعفُو عمَّن يُسِيءُ إليك، وتُبْقِيَ جسور الصِّلة بَيْنَك وَبَيْنَ من تَسْعَىٰ لهدايتهم قائمةً صالحةً للعبور.

- وقد جاء التوجيه القرآنيُّ لضرورة العمل بمقتضىٰ الاحتمال الثاني وهو العفو، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾.

إنّ أكثر الناس وجماهيرهم يكونون في معظم الأحوال أتباعاً لقادتهم

الَّذين يتصدَّوْنَ للمواجهة، ويَقِفُون في طريق دعوة الحقّ عقبات، تُقَارِعُ بالخصومات، وتُثِير العداوات.

فمن قابلهم بمثل طريقتهم أعطاهم فرصةَ التمكُّنِ من أَنْ يكونوا عقبات راسخاتٍ صادّاتٍ، فتمنَعُ الداعي من متابعةِ المسير.

أمّا من عَفَا عمَّنْ أساء إليه وتغاضىٰ، وأبقَىٰ جسور الصِّلَةِ بينه وبيْنَ من يسْعَىٰ لهدايتهم قائمةً صالحةً للعبُور، فإنَّه بطريقته يَحُلُّ عزائم القادة المتصدّين للمواجهة، فلا يمنحهم فرصةَ التمكُّنِ والرُّسُوخِ في مواقعهم الصادّة، وبسبب ذلك يستطيع متابعة مسيرته في الدّعوةِ إلى سبيل ربّه، ليَغْنَم عظيم الثواب لديه، وعسَىٰ أَنْ يظفر بمن يستجيبُ له ويهتدي بدعوته.

والبديع في قول الله عزّ وجلّ للدّاعي: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أَنَّهَا جاءَتْ بأسلوب المطالَبَةِ بأخْذِ الْعَفْو، دون عبارة: «فاعْفُ» أو عبارة: «فالْزَمِ الْعَفْو» أو عبارة: «فالْزَمْ سبيل العفو» أو نحو ذلك.

إنّ جملة: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تُشْعِرُ بأنّ العفو شيءٌ ثَمِينٌ يُؤْخَذُ، ويُغْتَنَمُ، ويُظْفَرُ به، وأمْرٌ يَحْرِص عليه أهل البصيرة الإيمانية.

ولدى التحليل يلاحظ المتدبّر أَنّ العفو له حلاوة في القلوب والنفوس، فمن عفا ذاق حلاوة العفو إذا فعله ابتغاء مرضاة ربّه.

والأشياءُ ذاتُ الحلاوة في المادّيات تؤخَذ، وتستعمل في الوجوه التي تُعْطِي بها حلاوتَها، فجاء التعبير بالأخذ نظراً إلى هذا المعنى.

ولمّا كان مُجَرَّدُ أخذِ العفو يُسَبِّبُ في نفس المؤمن وقلبه مشاعر الحلاوة الإيمانيّة، قال الله تعالى للدّاعي: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾.

ويُلاحِظُ المتدبر أيضاً أنّ الله عزّ وجلّ يُثِيبُ على العفو ثواباً عظيماً جَلِيلاً، وبما أنّ المؤمن شَديدُ الحرصِ على الظفر بهذا الأجر العظيم، كان من فَنّيَّةِ الأداء البيانيّ البديعِ، والأَدَبِ الرفيع، إسنادُ الأَخْذِ إلى السَّبَبِ الذي

بهِ يُؤْخذ الأجر العظيم الجليل عند الله جلّ جلاله.

وجملةُ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تَدُلُّ بلازِمِها الذّهنيّ على النَّهْي عن أخذ التَّشَفِّي، أيْ: ولا تأخُذِ التشفّي لِنَفْسِك بالانتقام، ومقابلة السيّئة بمثلها، ومعاقبة الْمُسيِء من المدعُوِّين، فحلاوةُ العفْوِ ولذَّتُه مع ثواب الله العظيم، خيرٌ لك من لذّةِ التشفّي العابرة، الّتي قد لا تظفر بها، وقد تجلُبْ لك شرًّا كبيراً، مع ما تقيمُ من عقباتٍ وجُدُرٍ في سُبُلِ دعوتك إلى ربّك، ومع ما تُدَمِّرُ مِنْ جسُورِ بينَك وبين من تدعوهم.

إنّ العفو عن إساءاتِ المدعُوِّين وإيذاءاتهم يُعَبِّد للداعي السُّبُل الوعرة، الّتي ينبغي أن يسلُكَهَا في دعوته، ابتغاء مرضاة ربّه، وهذا أمْرٌ يُرْضي الله عزّ وجلّ، لأنّه أكثر تأثيراً في هداية الناس، بما يملك من قلوبهم ونفوسهم وعواطفهم، وبما يُمَهِّدُ من طُرُقٍ إلى استجابتهم، فَيُثيبُ الله عليه ثواباً عظيماً.

● قول الله عزّ وجلّ للداعي: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

أيْ: ولْيَكُنْ من سياستك في الدّعوة إلى سبيل ربّك أَنْ تأمُرَ النَّاسَ بالْعُرْفِ، والعُرْفُ في هٰذهِ المرحلة المكيّة التي نزلت فيها سورة (الأعراف) هو ما يُسَمّيه العرب عُرْفاً، وهو البذلُ والعطاء والمساعدة.

هذا التوجيه يدُلُّ بعُمومه على أنّ الدّاعي إلى الله إذا اهتمَّ في دعوته إلى سبيل ربه بقضايا ذوي الحاجات من الفقراء والمساكين والضعفاء، فدافع عنها، وأمر باصطناع المعروف معهم، وحثّ على العطف عليهم ومساعدتهم، استعطف إلى دعوته قلوبَ ونُفُوسَ الكَثْرَةِ الكاثرة من جماهير الناس، إذ الكثْرَةُ الكاثرةُ منهم في كلِّ عصر وكلّ أمَّةٍ هُمْ ذَوُو الحاجاتِ والضعفاء.

والدّعوة إلَىٰ صُنْعِ المعروف معهم تستعطفهم إلى الداعي، وتجعلُهم

يلْتَفُّونَ حَوْلَه، وبذلك تَتَوجّه أفكارُهم بقوّةٍ لقاعدة الإيمان التي يدعوهم إليها، فيستقبلونها ويتقبّلُونها لما تشتمل عليه من حقٍّ وخير، ثم يستجيبون لها.

ويدُلُّ هذا التوجيه أيضاً بقرينة وُرُودِه عَقِب قول الله تعالى للداعي: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ على التوجيه الإلماحيِّ لقَطْع لِسَانِ من يُسِيءُ إلى الداعي، بأن يأمُرَ الدّاعي إخْوانَهُ وأتباعه وأصحابه وأنصاره بأن يصْنَعُوا الْعُرْفَ معه، ومع ذوي الحاجاتِ من جماعَتِهِ وعُصْبَتِهِ وعَشِيرتِه.

فإذا رأىٰ هذا الْمُسِيء أنّ داعِيَ الله الّذي أسَاءَ هو إليه قد أَمَر إخوانه وأصحابه وأنْصَاره وأتباعه بأن يُقدّموا لَهُ ولعشيرته الْعُرْفَ، ولا سيما بعْدَ أن ثارَتْ فيهم الحميَّة، وهَمُّوا بأن يَنْصُروا داعي الله ويُقَابِلوا الْمُسِيءَ بمثلِ إساءته أوْ بشرٍّ منها، فإنّه لا بُدَّ أَنْ يَتَصَاغَرَ في نفسه، ويتراجَعَ عن مَوْقِفِه، ويحاول التكفير عن إساءته.

وتَحْكِي لنا قِصَصُ شَمَائل الرَّسول ﷺ شيئاً كثيراً ممّا يتضمّن تَطْبيقَ هذا التوجيه الرّبّانيّ.

إنّ هٰذِهِ الجملة: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ على اقْتِضَابها وإيجازها الشَّدِيد تَحْكي قصَّةَ الأُسْلُوب الأَنْجَع للدّاعي إلى سبيل ربّه في دعوته.

إنَّه الأسلوبُ الذي يَجْذِبُ به الجمهور الأوْسَعَ للإيمانِ برسالته، يُدْرِكُ هذا أهلُ التدبُّرِ من العارفين بطبائع الناس، وواقِعِ الشعوب، والعارفين بأساليب استعطاف الجهور الأعظم منهم.

● قول الله عزّ وجلّ للداعي: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

أي: إنّ الّذين يتمادَوْنَ في الْجَهالةِ عليكَ بعْدَ العفْوِ عن إساءاتهم وأذاهم، وبعد أن تَأْمُر بصُنْع الْعُرْفِ لهم، ينبغي أن تقابلهم بمُجَرَّدِ الإعراض

عنهم، وهو إعطاءُ عارِضكَ لهم، والعارضُ هو جانبُ الوجْهِ والْجِسْمِ.

ونفهم من هذا أنَّه لا ينبغي إدارةُ الظهر لهم، والتولّي عنهم، بل ينبغي الاكتفاء بمجرّد الإِعراض إذا تطاولوا في السفاهة.

الإِعراض: هو منزلةٌ بين المواجَهةِ والإِدْبار.

الجاهلون: المرادُ منهم هنا الَّذين يتسافهون على الفضلاء، فيخاطبونهم بالأقوال النّابية القبيحة، أو بالشتائم وأنواع السّباب، وهذا المعنىٰ هو ما عناه الشاعر العربيّ «عَمْرو بن كلثوم التغلبي» بقوله:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَـنَ أَحَـدٌ عَلَيْنَـا   فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

هذه الآية الموجزة بفقراتها الثلاث تُلَخِّصُ ما يمكن أنْ يشرح في فصولٍ ثلاثة، تبيّن بعض عناصر الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتحدّد سياسة الداعي إلى سبيل ربّه مع الذين يدعوهم.

١ ـ خُذِ العفو.

٢ ـ وأْمُرْ بالعُرْفِ.

٣ ـ وأعْرِضْ عن الجاهلين.

هذه الْجُمَلُ المقتضبة الحاملة لوصايا ثلاث، جُمَلٌ مُلْتَقَطَةٌ من ثلاثة فصول، وهي تدلُّ بلوازمها الفكريّة على أُمّهات عناصر فُصولها، وهذا لَوْن من ألوان الأدب الرفيع الذي يُدرِكُه كبار البلغاء، ويعتمدون عليه في بياناتهم.

معالجة نفس الداعي:

بعد الوصايا الرّبانيّة السابقة للدّاعي إلى سبيل ربّه، جاء في النّصّ ما يتضمّن معالجةَ نَفْس الداعي، إذْ تتحرَّكُ فيها الدّوافع للتشفّي ممّن أساء إليه.

فأبان الله له أنّها مِنْ نَزْغِ الشيطان، أي: من تحريكه وتحريضه وإثارَتِه إلى الغضب وفعل الشّرّ انتقاماً للنفس، وعلّمه أن يستعمل الدواء الذي يَصْرِفُ اللَّهُ بِه عنْه هذا النَّزْغ.

هذا الدّواء هو أنْ يستعِيذَ بالله السّميع العليم من الشيطان الرّجيم، فإذا فعل ذلك بعزيمة صادقةٍ، وهمّةٍ نفسيّةٍ واعيَة، سمع الله عزّ وجلّ استعاذته الصادقة الصادرة عن عُمْق فؤاده، وهو يعلَمُ ما حدَثَ في نَفْسِه من انفعالٍ يكاد يستخفُّه للانتقام، فاستجابَ له، وصرَفَ عنه نزغ الشيطان، وبذلك يعودُ إلى حالةِ الهدوء والسكينة والطمأنينة، وكلّما كرَّر الشيطان نَزْغَهُ فعلَىٰ الداعي إلى سبيل ربّه أن يُكَرِّر استعاذته بِرَبّه السميع العليم.

فقال الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

هذه الجملة معطوفةٌ على جُمَل الوصايا في الآية السابقة: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

لفظ ﴿ وَإِمَّا ﴾ مركّبٌ من «إنْ» الشَّرْطيّة، و «مَا» الّتي قد تُضَافُ لتأكيد معنى الشرط وتعضيده، مع ما فيها من تزيينٍ للكلام إذا كان ما بَعْدَ «إنْ» الشرطيّة يَلينُ النُّطْقُ به لدى إضافة حرّف «ما».

النَّزْغ: في الحسيَّاتِ هو النَّخْسُ والغَرْز بإبْرَةٍ أو نَحْوها، بغية الإثارة والدّفع لأمْرٍ ما.

ويستعمَلُ في المعنويّاتِ النَّفْسِيّة للدّلالة على ما يُشبِهُ ذلك من وساوسَ مُثيرَةٍ للغضب، ومُهَيّجة للانتقام.

وجاء تأكيدُ فعل: ﴿ يَنزَغَنَّكَ ﴾ بنُونِ التوكيد الثقيلة للدلالة على أنّ النزغ قد بلَغَ مبْلَغَ بدايات حدوثِ الْغَضَب وتحرُّكِ ثَوْرَتِه.

والاستعاذةُ بالله هي اللُّجوءُ إليه بالدُّعاء في طلب الحماية والْحِفْظِ مِنْ وسَاوس الشيطان ونَزَغاته، وَصَرْفِ تأثيراته الكيْدِيّة.

الْعَوْذُ في اللُّغة: اللُّجُوءُ والاعتصام، يقال لغةً: عَاذَ به يعوذُ عَوْذاً وَعِياذاً، إذا الْتَجَأَ إلَيْهِ واعْتَصَمَ بِهِ، ليحفظَهُ ويَحْمِيَه، والاستعاذةُ هي طلَبُ الْعَوْذ.

ولمّا كان الله عزّ وجلّ هو الّذي بيده مقاليدُ كلِّ شيءٍ وهو على كلِّ شيءٍ قدير، كان من قَامَ بواجباته كما أمره الله واستعاذَ به داخلاً في مَلْجأ الله، وفي دائرة عصمته وحمايته.

وختم الله عزّ وجلّ الآية بقوله في وصْفِ ذاتِه مؤكّداً: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: إنَّه تباركَ وتعالى ذُو سَمْعٍ عظيمٍ يسْمَعُ به كلَّ صَوْتٍ، وذو علم عظيم يعْلَمُ به كلَّ شيْءٍ حتَّىٰ ما تُكنُّه النفوسُ، وتضمره القلوب.

وفي ذكر هٰذينِ الاسْمَيْن من أسماء الله الحسنىٰ إشارةٌ إلى أنّ الاستعاذة بكلامٍ مصحوبٍ بصَوْتٍ مهما كان خافتاً ينبغي أن تكون مقرونةً بنيَّةٍ صادقةٍ من عُمْقِ الفؤاد، حتّىٰ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ دُعاءَ من اسْتَعَاذَ به، فيصرف عَنْهُ نَزَغات الشيطان، فما تَنْوِيه القلوبُ مشمولٌ بصفة العلم، مع عِلْمِه تبارَكَ وتعالى بكلّ شيءٍ.

وفي ذكْر هٰذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ مع سوابق العلْم بأنّ الله عزّ وجلّ يجيب دُعاءَ مَنْ دعاهُ إذا عَلِمَ أَنَّ في دُعائه الّذي دَعَاهُ خيراً له في دُنياه وأخراه، كالاستعاذة به من الشيطان الرجيم دلالة على أنّ الله عزّ وجلّ يعيذُهُ من نَزَغَاتِ الشياطين، ويَصْرِفُ عنه ما يَجِدُ في نفسه من أثَرِها.

لقد جَاءَ وصفُ الله عزّ وجلّ هُنَا في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بأنّه سَمِيعٌ عليم، دُونَ إفادةِ معنى حَصْرِ هٰذيْنِ الوصفين باللّٰهِ عزّ وجلّ.

لكنْ في التعليم الذي جاء في سورة (فُصِّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) التي نزلت بعد (الأعراف) بواحد وعشرين سورة، جاء حَصْرُ هٰذَين الوصفين باللّٰهِ عزّ وجلّ، تأكيداً للدّاعي إلى سبيل ربّه بأنّه لا سَمِيع في الوجود لكل شيءٍ ولا عَلِيمَ بكلّ شيءٍ إلاّ هو تبارك وتعالى، فقال تعالى فيها:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

فدلَّ على الْحَصْرِ تعريف طرفي الإسناد والتأكيد بضمير الفصل «هو» وأداة التعريف «أل» في «السميع» و «العليم» هي للكمال الدّالّة على استغراق كلّ أفرادِ جنس السّمع وجنس العلم، وكلّ مستوياتهما.

وبعد هذا انْتَقل النّصّ من توجيه الدّاعي إلى توجيه كلّ المؤمنين حول قضايا نزغ الشيطانِ ووساوسه وتسويلاته، فأبان الله عزّ وجلّ الوصف الّذي يتحلّىٰ به المتَّقُونَ بأُسلوبِ الْخَبَر، لاَ بأسلوب الأمر والنهي، وهذا من روائع أدب التوجيه التكليفيّ، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾.

- قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾.
- وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوبُ والكسائي: ﴿طَيْفٌ﴾.

وبين القراءتين تكامُلٌ فكري، فالطائف: هو الذي يحمل الوساوس والدَّسائس والتسويلاتِ، فيطوفُ ويقذف بها على فريسته.

والطَّيْفُ: التخيُّلاتُ والرُّؤىٰ النفسيّة.

فدلّت هذه الآية على أنّ المتَّقين لله الحريصين على حِفْظِ أنفسهم وحِمَايَتِها من نزغات الشياطين، إذا مَسَّهُمْ بالوَسَاوس طائفٌ أو طيْفٌ من الشيطان تذَكَّرُوا، أيْ: تذكَّروا ربّهم وسُلطانَهُ على جميع خلقه، فاستعاذوا

به، فأعَاذَهُمْ، فصرف عَنْهم نزَغَات الشيطان، الّتي رُبّما ألْقَتْ غِشاوةً على بصائِرهم، فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ، قَدْ مُسِحَتْ عَنْهُمْ الغِشاوة التي جلّلَتْ بصائرهم من بخار الغضب أو الشهوة أو الهوى، أو دُخانها.

وأمّا إخوانٌ الشياطين المصاحِبُون لهم في المسالك، والمتابعون خطواتهم إلى المهالك، الذين لا يتّقون الله في حركاتهم وسكناتهم، ولا في أعمالهم ونيّاتهم، فَهُمْ لا بُدّ أن يقعوا فريسةً لنزغات الشياطين، فيستدرجونهم، ويَسْحَبُونهم إلى أودية الْغَيّ والضلال، حتّىٰ يقذفوا بهم إلى شقائهم، ويطرحوهم يُعَانُون أنواعاً من المصائب والنكبَات، وتتوالَىٰ عليهم الآلام النفسيّة والآلام الجسدية حتى يكونوا من الهالكين.

وفي شأن هؤلاء قال الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

وإخوانهم: أي: وإخوان الشياطين، وهي أُخُوَّةُ مصاحبةٍ ومتابعة في مسالك الضّلال والغيّ.

وجاء الضمير العائد على الشيطان بصيغة ضمير الجمع تنبيهاً على أنّ لفظ «الشيطان» اسم جنس يَعُمُّ كلّ شياطين الإنْسِ والجنّ.

فإخوان الشياطين هم الّذين يَتَّبِعُونهم ويُصَاحِبُونهم في مسالكهم، ويستجيبون لوساوسهم وتسويلاتهم الّتي يطمعونهم فيها بالباطل.

يَمُدُّونهم: من فعل: «مَدَّهُ ـ يَمُدُّه» إذا أعطاه مدداً، وزاده فيما هو فيه، وأعانه في شأنه، والمدُّ يكون في الماديّاتِ وفي المعنويات.

وهٰذه قراءة جمهور القرّاء العشرة، وقرأ المدنيان: نافع وأبو جعفر: ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ من فِعْلِ: «أَمَدَّهُ ـ يُمِدّه» وهو بمعنى: مدّه لغة.

في الْغَيّ: الْغَيُّ: مصدر «غَوَىٰ» يقال لغة: غَوَىٰ يَغْوِي غَيًّا وَغَوَاية،

وهو ضدّ الرَّشد، فيشْمَلُ كلَّ ضَلالٍ وانحرافٍ وخروجٍ وبُعْدٍ عن الحقّ وصراط الله المستقيم.

ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ: أي: ثُمّ لا يَكُفُّ الشياطين ولا يُمْسِكُونَ عن مُتابعةِ إغوائهم وإضلالهم، حتّىٰ إبلاغهم إلى قَعْرِ شقائهم إن استطاعوا، وقَعْرُ شقائهم هو الدّرْك الأسفل من النار يوم الدّين.

يُقالُ لغة: أَقْصَر عن الشيءِ أو الأَمْرِ أو العمل إذا كفَّ عَنْهُ مع قدرته عليه.

فالشياطين لا يكفّون عن الإغراء والإغواء والإطماع بالباطل والاستدراج إلى أسفل سافلين.

والمعنى أنّ الشياطين مهما غوى تابعهم وأوغل في ضلاله، فإنّهم لا يَتْركُونَه وشأنه يتخبّط بنفسه في الضلال ولو طال الزمن، بل هم لا يُمْسِكُونَ ولا يَكُفُّونَ عن إمداده في الْغَيّ، لأنّ دركات الْغَيّ ذاتُ سحيقٍ بعيد، وهم يحرصُون على أن يوصلوه إلى أسفل سافلين، ولا يكتَفُون بما دون ذلك من دركات، ولهذا جاء التعبير بحرف العطف «ثُمّ» فقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

وحظُّ الدُّعاة من هذا التوجيه التحذير الشديد من الاستجابةِ لنزغات الشياطين، حتّىٰ لا يتحوّلُوا من كونهم دُعاةً إلى سبيلِ ربّهم، إلى كونهم إخوانَ الشياطين، وقد تكون البداية ثورةَ غضب ممّا تلَقَّوهُ من أذىً مِنْ قبل المدعوين دفعتهم إلى الانتقام ومقابلة الشتائم والاتهامات والتجريحات بأمثالها.

* * *

التعليـم الثالـث

جاء هذا التعليم في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) وقد تضمن هذا التعليم أربع وصايا.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

كان موقف المشركين إبّان نزول سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) قد تطوّر إلى أنْ كادُوا يكونون مجتمعين على عداوته ومقاومة دعوته، واضطهاد الّذين آمَنُوا بِهِ واتّبَعُوهُ، اجتماعاً متكاتِفاً مُتَلَبِّداً، كتَلَبُّدِ الصُّوفِ أو الشَّعَرِ، حينَ يتراكَبُ بعضُهُ على بعض دلّ على هذا الطور قولُ الله عزّ وجلّ في هذه السورة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

وهذا الطورُ يستدعي من الرسول ﷺ معالجات تلائمه، وقد جاء في السورة تعليمٌ من الله لرسوله يشتمل على أرْبَعِ وصايا:

الوصيّة الأولى: (أنْ يقولَ لهم إنَّما أَدْعو رَبِي ولاَ أُشْرِكُ به أَحَداً) أي: ما أَعْبُدُ إلاَّ رَبّي في سُلوكي الشخصي، وفي دعوتي إلى سبيله، وفي البلاغات الّتي أَمَرني أنْ أُبَلِّغها لعباده، وأنا لا أشركُ به أحداً، فأنا بهذا أقومُ بما يجب عليَّ من عبادةِ تُجَاهَ رَبِّي الّذي لِا شريكَ له في رُبُوبيّتِهِ، ولاَ في إلَهيَّتِهِ.

ولهذا فأنا لا أَتَلَقّىٰ الأوامر منكم ولا من آلهتكم الباطلة، الّتي تَعْبُدونها من دون الله عزّ وجل، حتّىٰ أتوقّفَ عن عبادتي لربّي في القيام بما يجب عليَّ من دعوةِ إلى سبيله، وفيما يجب عليَّ من تبليغ كتابه الذي يُنْزِلُهُ عليَّ تباعاً نجماً فنجماً.

إنكم تطالبونني بأن أكُفَّ عن تبليغ رسالة ربّـي، وأنا لا أستجيب لمطلبكم هذا، فأنا أعْبُدُ ربّـي الّذي لا شريك له، وهو الذي كلّفني أن أقوم بهذا التبليغ، وأن أدْعُوَ إلى سبيله.

وسأتابع عبادتي لربّـي في تبليغِ دينه، ونشره بين عباده، مَهْمَا جمعتم جموعَكُمْ لِحَرْبـي ومُقَاوَمَةِ دَعْوَتي، ومَهْمَا تلبَّدْتُم عليَّ متواطئين ضدِّي، وضاغطِينَ على صَدْري، لإسكاتِ لساني، وقَطْعِ أنفاسي.

دلَّ على هذه الوصيّة قول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

* * *

الوصيَّـةُ الثانية: (أن يقول لَهُمْ: إنّي لا أمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رشداً).

كان الرسول ﷺ والذين آمنوا معه في المرحلة التي نزلت فيها سورة (الجن) لا يملكون قُوىٰ دفاعٍ تحصِّنُهُمْ من قُوىٰ مشركي مكَّة لو اجْتَمَعُوا عليهم، وأعَدُّوا الْعُدَّة لقَمْعِهم، لكنّ أمْرَهُمْ كان يتفاقم بتكاثر الذين يؤمنون، وهذا يجعل المشركين يتخوَّفُونَ من احتمالات المستقبل، وأنّ عليهم أن يسارعوا بتداركِ الأمر قبل أن يستفحل، ويفْلَتَ زمامُهُ من أيديهم.

فاقتضت السياسة الحكيمة الرّبانية إعطاءَهُمْ جَرْعَاتٍ تَهْدِئةٍ تُخَدِّرُهم، وتُبَرِّدُ لَهِيبَ تَوَجُّسِهِمْ من احتمالات تفاقُم قُوَّةِ الرَّسُول والّذِين آمنوا مَعَه.

فإذا قال لهم: (إنّي لا أمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً) ألْقىٰ في مشاعرهم أنّه بعيدٌ بُعْداً كبيراً عن الاستعداد لمقارعتهم بقوّةٍ دِفاعيّة، فتبرُدُ حماسَتُهُمْ، ويتوقَّفُ ـ ولَوْ إلى حينٍ ـ تجمُّعُهم للقَمْع، ولإعداد القوى القتاليّة لإيقاف مدّ القوّة الإسلامية.

وفي هذا الإعلان سياسة بارعةٌ مُهَدِّئةٌ لقَلَق المشركين، وثوْرَتِهم ضدّه.

وفي بيان أنَّهُ لا يَمْلِكُ لهم رَشداً، إشعارٌ لهم بأنّه لا يَمْلِكُ وسيلةً يُلزِمُهُمْ بها إلزاماً قَهْرِيًّا أن يكونوا راشدين، مسلمين، مُتَّبِعينَ صراط الْهُدىٰ، وهذا البيان يتضمّن أمرين:

الأوّل: أنّه لَنْ يُلْزِمَهُمْ يوماً ما على الإيمان به واتّباعه.

الثاني: أنّه يُحمِّلُهُمْ مسؤوليةَ اختيارهم الحرّ تُجاهِ ربِّهِمْ، الّذي سَيُحاسِبُهم وسَيُجازِيهم يوم الدّين.

دلّ على هذه الوصيّة قولُ الله عزّ وجل لرسوله في السورة: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾.

* * *

الوصية الثالثة: (أن يُبيِّن الرسولُ لَهُمْ أنَّه إذا توقَّف عن أدائه وظائف رسالته وقَعَ تَحْتَ طَائِلة عقاب الله له الّذي لا يجيرُهُ منه أحدا).

رُوِي أنّ كفّار قريشٍ قالوا للنبي ﷺ: إنَّكَ جئتَ بأمْرٍ عظيم، وقَدْ عادَيْتَ الناسَ كُلَّهم فارْجِعْ عَنْ هَذا فَنَحْنُ نُجيرُكَ.

فاقتضىٰ هذا أن يُبيّن لهم أنّه مسؤولٌ تُجاه ربّه عن تبليغ ما يَأْمُرُه بتبليغه للناس، وإنْ لم يَقُمْ بهذا الواجب العظيم فإنّ الله عزّ وجلّ سَيُعاقبُهُ عقاباً شديداً، ولَنْ يُجيرَه فيحميه من عذاب الله أحد.

دلّ على هذه الوصيّة قَوْلُ الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ . . . ﴿٢٣﴾﴾.

لَنْ يُجِيرني: أي: لَنْ يَمْنَعَني ويحميني من عذاب الله أحد إنْ لم أقم بوظائِفِ رسالتي الّتي أرسلني للقيام بها.

مُلْتَحَداً: أي: مَلْجأً ألجأُ إليه رجَاءَ أنْ يحميَني من عذاب ربي. أي:

ولن أجد من دون الله ملجأً يحميني ويعصمني من عقاب الله، إلاّ ملجأً واحداً هو أن أقوم بوَظَائِف رسالتي.

* * *

الوصية الرابعة: (أن يُخَوِّفَهُمْ من عذاب نار جهنم إذا عَصَوُوا الله ورسوله).

دل على هذه الوصية قول الله عزّ وجل في السورة: ﴿. . . وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

والمراد من المعصية هُنَا عدم الاستجابة لدعوة الرسول إلى الإيمان والإسلام.

* * *

التعليم الرابـع

جاء هذا التعليم في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

وقد تضمَّن هذا التعليم وصية واحدة موجهة للداعي إلى الله، وهي:

● أن لا يَحْزن الدّاعي إلى الله إذا قال المدعوُّون فيه مقالات تَسُوؤُه، فالله عزّ وجلَّ عليم بما يقولون في سرِّهم وفي علانيتهم، وهو يتولّى الدّاعي إلى سبيله ابتغاء مرضاته، ومن تولّاه الله كفاه، وأعطاه من الخير مُناه.

التحليل أخْذاً ممّا جاء في السورة:

كـان مـوقـف بعـض أئمـة المشـركيـن إبّـانَ نـزول سـورة (يـس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) اتِّهام الرسول ﷺ بأنّه شاعر، وبأنّ القرآن المجيد الذي يأتي به لَوْنٌ من ألوان الشعر، فهو يؤثّر به على الذين يؤمنون به، دلّ على هذا الموقف قول الله عزّ وجلّ في السورة: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: وَمَا أعطيناهُ موهبةَ صِنَاعَةِ الشعر، وما علّمناهُ ضبط أوزانه، ولا سَوْق كلامه وفق أساليبه وطرائقه، وما ينبغي له أَنْ يكون شاعراً تستهويه أغراض الشعراء فيما يقولون من شِعْر.

أمّا القرآنْ فليس من الشعر الذي تُصْطادُ معانيه من الرؤىٰ الخياليّة الهائمة على غير هُدىً في كلِّ وادٍ مُنْحِدرٍ من أودية أهواء النفوس، وتكثر فيه الادّعاءات الكاذبات.

إنما القرآن كلام مبين يتضمّن حقائق ووصايا هاديات وداعيات إلى الخير، ومُبَشّراتٍ لمن آمَنَ واتّبع هَدْيَه بالعاقبة الحسنى، ومُحَذِّراتٍ ومُنْذِراتٍ لمن كفر ولم يستجب بالعاقِبَةِ الوخيمة، فيجب أن يكون ذِكْراً حاضراً في الذاكرات، للانتفاع به دواماً في حركة حياة الإنسان.

فمن كان حيّ الفؤاد انتفع بهدايته، وبما فيه من إنذارات.

واتّهامُ الرُّسُول بأنّه شاعر، وبأنّ القرآن الّذِي يُبَلِّغه عن رَبّه لَوْنٌ من ألوان الشعر، اتّهامٌ قد كان يُدْخِلُ على نفسه سحاباتٍ من الحزن، فأوصاه الله في السُّورة بقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

إنّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّون وَمَا يُعْلِنُونَ: جُمْلة تَحدَّثَتْ عَنْ شُمُولِ عِلْم الله بما يُسِرُّ الكافرونَ من أقوال ضدّ الرسول ﷺ، وما يُعْلِنُونَ منها.

وهذه الحقيقةُ لا تَخْفَىٰ على الرَّسُول ولا على الدُّعاة إلى الله من أمّته، إلاّ أنّ إيرادَها يُشْعِرُ بأنّ عِلَّة التَّوْصِية بأن لا يُحْزِنَهُ قَولُهُمْ، هو أنَّ الرَّبَّ الجليلَ بعظمته وعِزَّته وقدرته على نُصْرَةِ أوليائه وخَذْلِ أعدائِه وأعداءِ الدّعاة إلى سبيله، عَلِيمٌ بما يُسِرُّون وبما يُعْلِنُون من أقوال وأعمال، والعليمُ الحكيم القدير لا بُدَّ أن يَتَوَلَّىٰ أولياءَهُ، ويَنْتَقِم من المجرمين، متى اقتضت حكمته الانتقام منهم.

* * *

التعليـم الخامـس

وصل موقف المشركين إبّان نزول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) إلى طور اتّهام الرسول ﷺ بأنّه افترى القرآن من عنده ونسبه إلى ربّه، وأعانه عليه قومٌ آخرون، وقال فريق منهم: هو أساطير الأولين اكتتبها فهي تُمْلىٰ عليه بكرةً وأصيلاً.

وشَكّكُوا في رسالة الرسول، لأنّه بشر يأكُل الطعام ويمشي في الأسواق لكسْبِ رزقه. زاعمين أنّ الرسول ينبغي أن يكون مَلَكاً، واقترحوا أن يكون معه مَلَكٌ، أو يُلْقَىٰ إليه كَنْزٌ من السّماء، أو تكونُ له جنَّةٌ يأكُلُ منها.

وقالوا للمسلمين: إنْ تتبعون إلاّ رجُلاً مَسْحُوراً، وطلَبَ بَعْضُهم أَنْ يُنَزِّل الله عليهم ملائكة لتَبْليغِهم رسالات ربّهم، أو أن يَرَوا ربّهم، واعترضوا على تنزيل القرآن مُنَجّماً، وطلَبُوا أنْ ينْزِلَ جُمْلَةً واحدة.

وبدَؤوا يتكتلُون لمقاومة دعوة الرسول ﷺ، وهم يملكون قُوىً قتاليةً لا يَمْلِكُ المسلمونَ من القوىٰ المادّيّة ما يحميهم منها في ذلك الوقت.

وقد جاء في السورة بيانُ كلِّ هذا مع الرّدّ عليه بالحجّة الكافية للاقناع، وجاء فيها عَرْضُ طائفة من أدِلّة توحيد الربوبيّة للّهِ عزّ وجلّ، الّذي يلزم عنه عقلاً توحيد الإلّهيّة له جلّ وعلا.

ونَسْتَفِيد لمنهاج الدعوة ووسائل التربية من سورة (الفرقان) ما يلي:

التوجية الأول:

اتخاذ أسلوب الإعراض الذي هو وسط بين المواجهة والإدبار في تَوجيه بيانات الدعوة وبلاغاتها عمَّنْ تولّىٰ وكفر، بعد أنْ وصل إلى حال المكابرة والعناد، ومعاداة الرسول والمؤمنين، والعمل على قمع الدعوة بالقوة، وهو الموقف الذي وصل إليه كفّار مكّة في مرحلة نزول سورة (الفرقان).

ونفهم هذا الإعراض من أسلوب الحديث عن الغائب في الكلام على أقوال المشركين في السورة، أو تكليف الرسول مخاطبتهم، دون مواجهتهم بالخطاب إلاّ في الإنذار.

❋ ❋ ❋

التوجيه الثاني:

التربية عن طريق الإقناع بوسائله المختلفة، ومنها الوسائل التالية:

الوسيلة الأولى: بيانُ الحقّ، وإتْباعُه بالأدلّة الّتي تثبتُ أنّه حقّ، كأدلّة إثبات التوحيد في السّورة (انظر الآيات من ٤٥ ـ ٤٩ و ٥٣ ـ ٥٤ و ٦١ ـ ٦٢).

وبيان الباطل، وإتْباعُهُ بالأدلة الّتي تكشف أنّه باطل، كأدلّة إبطال الشرك في السورة (انظر الآيتين ٣ و ٥٥).

الوسيلة الثانية: الإحالة على دليل الملاحظة والتجربة، كتوجيه الأنْظار للتأمّل في الظاهرات الكونية بغْيَةَ ملاحظة الأدلّة التي فيها، أو تَجْرِبة ما يُجَرّبُ منها، وللتّنقيب عن خفاياها بُغْيَةَ التوصُّل إلى دقائق المعارف، واستنباط الكوامن، وإدْراك ما وراء الظواهر، «وهَـٰذَا كثيرٌ في السورة».

الوسيلة الثالثة: الإحالةُ على سُنَّة الله في تاريخ البشرية (انظر الآية ٢٠).

الوسيلة الرابعة: سؤال المجّربين أهل الخبرة، للتوصّل عن طريق خبراتهم وتجاربهم إلى الحق (مثل ما جاء في الآية ٥٩ فَأَسْأَلْ بِهِ خَبيراً).

الوسيلـة الخامسـة: تفسير تراتيب القضاء والقدر بما يكشف وجْه الحكمة، كالتفسيرات الّتي كشفت في السورة وجوه الحكمة الربّانية في اختيار رسولٍ من البشر، وعدم إعطائه الخوارق الّتي طَلَبها الّذين كفروا، لأنها مطالب تعنُّتِيّة، لا مطالب باحثٍ عن دليلٍ لإثبات الحق والصدق، وكشفت وُجُوهَ الحكمة من اختيار تنزيل القرآن مفرّقاً.

* * *

التوجيه الثالث:

التربية عن طريق الترغيب والترهيب بأساليب مختلفة، ومنها الوعد بالثواب المؤجل إلى يوم الدين، والمعجل في الدنيا، والوعيد بالعقاب المؤجل والمعجل، وتوجيه الأفكار للاعتبار بما جرى في سالف التاريخ البشريّ من جزاءات رَبَّانيّة، مع الإشارة إلى أنّها من ظواهر سُنَنِ الله في خَلْقِهِ الّتي لا تبديل فيها ولا تحويل. وهذا كثيرٌ في السورة.

* * *

التوجيه الثالث:

تربية الرسول ﷺ والدعاة من أمّته بالأسوة الحسنة، وفي هذه التربية إقناعٌ، وتسلية، وتطييبُ نَفْسٍ (انظر الآية ٢٠ والآية ٣١).

* * *

التوجيه الرابع:

توصية الرسول ﷺ وكلِّ حامِلٍ لرسالته من أمته بالصَّبْر على أنواع الأذى الّتي يتلقّاها من الذين يؤدّي بينهم رسالته، وأنّ عليه أن يضع في تصوّره دواماً أنّه مُمْتَحَنٌ بهم.

دلّ على هذه التوصية في سورة (الفرقان) قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

* * *

التوجيه الخامس:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمّته بأن لا يطيع الكافرين، فلا يتأثّر بمقترحاتهم ومزالقهم وما يطرحونه من تشكيكات.

دلّ على هذه التوصية قول الله عزّ وجلّ في السورة: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ... ﴿٥٢﴾﴾.

* * *

التوجيه السادس:

توصية الرسول ﷺ وكلِّ حاملٍ لرسالته من أُمّته بأن يجاهد الكافرين بالقرآن جهاداً كبيراً، ويكون هذا الجهاد، بشرح وبيان ما في القرآن من حقائق، وأدِلّة تُثْبتُها، وعرضٍ وشرحِ وسائل تربيته للناس الاقناعية والترغيبيّة والترهيبية.

دلّ على هذه التوصية قول الله عزّ وجلّ في السورة: ﴿... وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

* * *

التوجيه السابع:

توصية الله رسوله وكل حاملٍ لرسالته من أمّته بأن يضع في تصوّره دواماً أن رسالته رسالة تبليغ وبيان وإقناع وترغيب وترهيب وتربية، ثم إنذار بعذاب الله لمن كفر وعَصىٰ، وليس مكلّفاً أن يحوِّل الناس من الكفر إلى الإيمان، إذْ عليهم أن يؤمنوا باختيارهم الحرّ.

فما عليه إلاّ أن يكون مبشّراً لمن أطاع واتّبع، ومُنْذِراً لمن أبَـىٰ وأدْبر أو أعرض.

* * *

التوجيـه الثامـن:

توصية الرسول ﷺ ويلحق به كلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يُعْلِنَ للجميع أنّه ما يَسْأل الناس أجراً على ما يقدّم لهم من هِدايَةٍ وخير، وما يَبْذُلُهُ لهم من نُصْحٍ ومجاهدة.

* * *

التوجيـه التاسـع:

توصية الرسول ﷺ وكُلِّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يتوكَّل في مسيرته ذاتِ الأعباء الشّاقة على الحيّ الَّذِي لا يموت.

* * *

التوجيـه العاشـر:

توصية الرسول ﷺ وكلِّ حامل لرسالته من أمته بأن يُسَبِّحَ بحمد الله آناء اللّيل وآناء النهار، وكلّما حَزَبَهُ أمر.

* * *

التوجيه الحادي عشر:

توصية الرسول ﷺ وكلِّ حامل لرسالته من أمته، بأن لا يَحْمِلَ هَمَّ مَا يُشَاهِدُ منْ ذُنوبِ عباد الله الكثيرة، وأنْ يُوقِنَ بأنّ الله خبير بهم، عليم بأحوالهم، وكفىٰ بالله خبيراً بذنوبِ عباده.

* * *

التوجيه الثاني عشر:

توصية الرسول وكلّ حامل لرسالته من أمّته، أن يبيّن للّذين كفروا،

أنَّ الله عزّ وجلّ لاَ يعبأُ من أجل نفسه بإيمانهم، والتزامهم صراطَهُ المستقيم، ولا يتأثّر من أجل نَفْسِهِ بكفرهم ومعاصيهم، إذ هو جلّ جلاله غنيٌّ عن العالمين، فلا ينفعه ولا يزيد في مُلكه شيئاً، لو كانوا على أتقىٰ قلب رَجُلٍ منهم، ولا يَضُرُّه ولا يَنْقُصُ من ملكه شيئاً لو كانوا على أفجر قلب رجلٍ منهم.

إنّما يَعْبأُ بهم من أَجْلِهِمْ أنْفُسِهم، لهذا فهو يُوجِّه لهم دُعاءَه رغبةً في أَنْ يُؤْمِنُوا ويعملوا الصالحات، كي يظفروا بالسعادة الأبديَّة في دار النعيم، وكي يُنْجُوا أنفسهم من العذاب الأليم في الجحيم.

دلّ على هذه التوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله فلكلّ حاملٍ لرسالته من أمته في آخر سورة (الفرقان):

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾ ﴾.

أي: قُلْ ما يَعبأُ بكم رَبِّـي من أَجْل نفسه، لكن يعبأُ بكم من أجلكم أنتم، فَيُوَجِّه لكم بياناته وتذكيراته ونصائحه وإرْشاداته وترغيباته وترهيباته ومعالجاته التربويّة المختلفة.

لكنَّكُمْ بإصراركُمْ على الكفر تكُونُونَ أَنْتُم غير عابئين بنجاتكم من العذاب، وظفركم بالنعيم الأبديّ المقيم، ومعرّضين أنفسكم للخلود في عذاب جهنم، فقد كذبْتُمْ رسول ربكم فسوف يكون العذاب ملازماً لكم لأنّ تكذيبكم ملازم لكم.

* * *

التعليـم السـادس

جاء هذا التعليم في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

وقد تضمّن هذا التعليم ستَّ وصايا:

١ ـ أنّ لا يَحْزَنَ الدّاعي إلى الله على الكافرين المصرّين على كفرهم بعناد، مُعَرِّضين أنفسهم بكفرهم العنادي لعذاب الله الأبدي.

٢ ـ أنْ لَا يكُونَ في ضَيْقٍ ممَّا يَمْكُرُ الكافرون ضدّه وضدّ الذين آمنوا به واتّبعوه، وضدّ القرآن ومبادىء الإسلام وشرائعه وتعليماته، فطبيعةُ حَيَاة الابتلاء أن يكون فيها هذا المكر، وأن يقوم فيها صراعٌ بين الحقّ والباطل، على أنّ الله سيُحْبِط ما يمكُرُ الكافرون، أو يَجْعَلُ مكرهم يُحيطُ بهم، إذا صَدَقَ المؤمِنُون المسلمون، وقاموا بما يجب عليهم أن يقوموا به.

٣ ـ أن يُعْلِنَ الداعي أنّه مأمور بأن يَعْبُدَ الله في عباداته الخاصّة وفي قيامه بأداء واجب الدعوة إلى الله، وواجِب النُّصْح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ ـ أن يُعْلنَ الدّاعي إلى الله أنّه مأمور بأن يكون واحداً من المسلمين، فهو مُلْزَمٌ بكلّ أحكام الإسلام وشرائعه، وليس له إعفاء خاصٌّ يعفيه من الالتزام بها.

٥ ـ أن يبيّن للناس أنَّه مأمور بأن يَتْلُو القرآن عليهم، وليس مكلّفاً أن

يُلْزِمَهُمْ بالجبر والإكراه أن يؤمنوا به، وأن يتّبعوا ما جاء فيه.

لكن عليه أن يُبَشِّرَهم بأنّ من اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه، وأنْ ينذرهم بأن من اختار لنفسه الضلال فعليه أن يُعِدَّ نفسه لتحمّل عذاب ربّه.

٦ - أنّ يُبَيِّنَ للناس بعد الثناء على الله بأنّ الحمدَ كُلَّه له ثَلَاثَ قضايا:

الأولى: أنّ الله سيريهم آياته فيَعْرِفُون أنّها آيات الله في كونه.

الثانية: أنّ الله عليم بكل ما يفعلون في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

الثالثة: أنّ الله سيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم الإرادية، وعلى ما اختاروا لأنفسهم في الحياة الدنيا من خَيْرٍ أو شرّ.

التحليل أخذاً مما جاء في السّورة:

كانت الحكمة العلاجيّة إبّان نزول سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) تَقْتَضِي مجادلة أئمة المشركين بالله، حول قضيّة التوحيد، رغبةً في إقْنَاعِهم بِبُطلانِ الشِّرْك في رُبوبيّة الله، والشِّرْكِ في إلَهيّته، وإقناعهم بأنَّ الله واحدٌ لا شريك له، وبأنَّهُ لا إلَه بحقٍّ إلاَّ هو.

فعلّم الله عزّ وجلّ رسولَهُ ﷺ وكُلَّ داعٍ إلى الله من أُمّتِهِ في السّورة منهجاً جَدَلِيًّا يجادلُ به المشركين، ليقيم لَهُمُ الْبُرْهان القاطِعَ على التوحيد.

والمجادلة لإثبات قضيّة التوحيد تَجُرُّ إلى إثبات قضيَّة الدّينونة عند الله، والجزاء يوم الدين، على الأعمال في الحياة الدّنيا.

وهنا يجد المشركون منكرو البعثِ مَهْرَباً يَنْزَلِقُون منه لرفْضِ الاعتراف بأنّ الآخرة حقٌّ، إذْ يَجِدُون مجالاً لأن يتساءَلُوا عن زمن قيام السّاعة، وجوابُهُمْ يكون ببيان أنّ وقتها من علم الغيب الذي أخفاه الله عزّ وجلّ عن جميع خلقه فلا يَعْلَمُه إلاّ هو.

وقد كان مَوْقِفُهم في هٰذِه المرحلة مَوْقِفَ الإصرار على ما هم فيه من شِرْكٍ وإنكارٍ ليوم الدين، واعتبارِ الخبر عن البعث للحساب وفَصْل الْقضاء والجزاء من أساطير الأوّلين، مع أنّهم لَيْسُوا في حقيقة قُلُوبِهم جازِمين بأنَّه لا بعثَ يوْمَ القيامة ولا حسابَ وَلاَ جَزاء، بل هم في الحقيقة فريقَان: فريق قارب أن يُدركَ الآخرةَ، وفريق أدْركها.

فالفريق الذين قاربوا إدراكها قد وصَلَتْ أفكارهم في موضوع الآخرة إلَىٰ قُرْبِ إدْراك أنَّها حق، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ . . . ﴿٦٦﴾ ﴾.

أي: بَلْ تَقَارَبَ مُتَتَابعاً في طريقِ المراحل الاستدلاليَّةِ إدْراكُهُمُ الْعِلْمِيُّ في شَأن الآخرة إلى الوصول إلى العلم بها، وإدْرَاكِ أنّها حَقٌّ.

ادَّارَكَ: أي: تَدارَك مُتَتَابعاً متلاحقاً في طَرِيق الإدْراك الواضح. وهذه قراءة جمهور القرّاء العشرة.

وقرأ ابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾ وهذه القراءة تفيد أنّ فريقاً آخر منهم قد بَلَغَ بَحْثُهم الفكري إلَىٰ إدْراك أن الآخرة حَقٌّ، وصَارَ هَذا الإدْراك لدَيْهِم علماً.

فهم فريقان إذن:

- فريقٌ ادّارَك في موضوع الآخرة عِلْمُهُمْ، أي: تقاربَ من الجزْمِ.
- وفريق أدْرَكَ في موضوع الآخرة عِلْمُهُمْ بأنّها حَقّ، أي وصل إلى العلم بأن الآخرة حقّ، فهو عالم بها في قَلْبِه، إلاّ أنه يجحدها بلسانه.

والّذين ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ في الآخرة، لم يَبْقَ لديهم في طريق العلم إلاّ شكٌّ ضعيف لا يصِحُّ عقلاً أنْ يصرفهم عن الإيمان بها، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا . . . ﴿٦٦﴾ ﴾ .

والسَّبَبُ في انصرافهم عن إعلان الإيمان بها، وإعلان الإسلام، واتّباع الرسولِ والعملِ بما جاء في القرآن، أنَّهُمْ قَدْ غَشَّتْ عَلَىٰ بصائرهم أَهْواؤُهم وشهواتُهم ورغباتُهُمْ من الحياة الدُّنيا، الّتي يحرصون على الاستمتاع بها غاية الاستمتاع، ولا يريدون ضبط أنفُسِهم عن الانطلاق الفاجر في أوديتها بالإيمان والاتّباع وطاعة الله ورسوله، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

أي: بل هم بَعْدَ قُرْبِ الإدْرَاكِ، أو حُصُول الإدْراك، عَمُونَ عَنْ رُؤْيَةِ ما هو الخير لَهُم في آجل أمرهم حُبًّا بالْعَاجلة، ونُفُوراً من الضوابط الّتي تُلْجِمُهم عن الانطلاق الفاجر إذا آمنوا بالله واليوم الآخر.

وإذْ سَيْطَرَ عليهم عَمَىٰ الأهواء والشهوات، لجؤوا إلى المراوغة والمكر في حِيَلِ الألفاظ والجدَليّاتِ الباطلات الزائفات.

وإزاء موقفهم هذا الذي يَنْزَلِقُ بهم إلى جهنم وبئس الْمَصِير، أخذتْ تَمُرُّ بقَلْبِ الرسولِ الرؤوفِ الرّحيم ساحاباتٌ من الحزن عليهم، إشفاقاً عليهم من المصير الذي هم إليه صائرون بكُفْرهمُ العنادي.

فاقتضت الحكمة الرّبّانيّة أَنْ يُوجّه اللَّهُ عزّ وجلّ في السورة لرسوله وصيّتين حول واقع المشركين هذا:

الوصيّة الأولى: أنْ لا يحْزَنَ عليهم، نظراً إلى أن كفرهم لم يكن عن جَهْلٍ بالحقّ، بل عَنْ عنادٍ وإصرارٍ على الباطل، واتّباعٍ لأهواء نفوسهم وشهواتها، ورغبة في العاجلة وإيثارٍ لها على الآجلة.

دلّ على هذه الوصيّةِ قول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة:

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ . . . ﴿٧٠﴾ ﴾ .

الوصيّـة الثانية: أن لا يَكُونَ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرون بحيل أقوالهم، وتراتِيبِ أعمالهم، لمقاوَمَةِ دعوة الرسول والذين آمنوا معه، وإيقاف امتدادها، والروغان عن بياناتها وحججها القواطع.

دلّ على هذه الوصيّة قول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة:

﴿ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ضَيْقٍ: قراءة جَمْهُورِ القراء العشرة بفتح الضاد وإسكان الياء.

ضِيْقٍ: بكسر الضاد وياء مدّيّة قراءة ابن كثير.

الضَّيْقُ والضِّيق: الكرْبُ في النفس الضاغط عليها، من أمْرٍ غير سارّ، أو مِنْ تخوُّف حدوث مكروه.

وتتضمّن هذه التوصيةُ الطَّمْأَنَةَ من الله، بأنّه سيُحْبِط مكْرَ الكافرين، ويَجْعَلُ مكرَهم السيِّء يَحِيقُ بهم، ويَكُونُ عَلَيْهِمْ لا لَهُمْ.

* * *

واقتضتِ الحكمة التربويّة الرّبانيّة أيْضاً أن يُوجّه الله لرسوله أربع وصايا أخرىٰ جاءَتْ في آخِرِ السورة:

الوصية الأولى: أن يُعْلِن لقومه أنَّه مأمور بأن يَعْبُدَ الله، ومعلومٌ أنّ من أنواع عباداته لربّه أن يؤدّي واجبات رسالته.

دَلَّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ يُعَلّم رسوله أن يقول:

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾.

الوصية الثانية: أن يُعْلِنَ لِقَوْمه أَنَّهُ مَأْمُورٌ أَنْ يَكون واحداً من المسلمين، تَنْطَبِقُ عليه كلُّ شرائع الإسلام وأحكامه.

دلَّ على هذه الوصيّة قول الله عزّ وجلّ يُعَلِّمُ رسُولَه أن يقول:

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

الوصية الثالثة: أن يبيّن لقومه أنّه مأمور بأن يتْلُوَ عليهم ما يُنَزِّلُ اللَّهُ عليه من القرآن، دون أن تكون له صلاحيّة الإجبار القسري على الاستجابة والاتباع.

لكنْ من اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه، لأنّه سيَنَالُ عند ربّه أجراً عظيماً، ونَعيماً مقيماً خالداً، في جنّات النعيم، وما أنا إلاّ مبشرٌ لمن اسْتَجَاب لدعوةِ الله وأطاع، وواحدٌ من الرُسُل المبشّرين.

ومن ضَلَّ باختياره الحرّ فإنّه يَجْني على نفسه، لأنّه سَيَذُوق عند ربّه في جهنّم عذاباً أليماً خالداً فيها، وما أَنَا إلاّ مُنْذِرٌ لِمَنْ ضَلَّ ولم يَسْتَجِبْ لدعوة الله ولم يُطِعْ، وواحدٌ من الرُسُلِ المنذرين.

دَلَّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

الوصية الرابعة: أنْ يقول لقومه كما جاء في الآية الأخيرة من السورة:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

* * *

التعليـم السابـع

جاء هذا التعليم في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول).

وقد تضمّن هذا التعليم أربع وصايا موجهة للرسول ﷺ، ولكل داعٍ إلى الله من أمّته، وهي:

١ ـ أن لا يُحْزِنَ الداعيَ قَوْلُ الكافرين فيه ممّا يسُوؤه، فالله سينصُرهُ بقوَّته الغالبة، إذا صدق وأخلص لله في دعوته، وليكن على ثقة بالله إذا توكّل عليه، فإنَّ العزّة للّهِ جميعاً، وليسأل ربّه تأييدَهُ ونَصْرَه، فهو السميع العليم الَّذي ينصرُ رسُله والذين آمنوا.

٢ ـ أن يَرُدَّ على من يَتَّهِمُه بالافتراء على الله، فيقول له: إنّ الَّذِين يفترون على اللَّهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ.

٣ ـ أَنْ يتَّبِعَ بَيَاناتِ الوحْيِ، فلا يَحِيدَ عنها، ولا يَكْتُم شيئاً مِنْها، ولا يَزِيدَ من عنده شيئاً عليها.

أمّا المفاهيم الاستنباطيّة والقياسية فلَيْستْ من الزيادة عليها، بل هي من توابعها.

٤ ـ أن يَصْبِرَ على أذىٰ المدعوّين، حتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ فيجعل له فَرَجاً ومَخْرجاً، واللَّهُ خَيْرُ الحاكمين.

التحليل أخذاً ممّا جاءَ في السورة:

ظلّ موقف أئمة المشركين موقف المتعجّب من أن يُرْسل الله إليهم رسولاً بشراً منهم، على الرغم من كلِّ ما سبق من إقناعات تكشف أنّ الحكمة تقتضي أن يكون الرسول إلى البشر بشراً منهم.

وإذْ كذَّبوا الرسول مُتَعلِّلين ببشريّته مع ما يَرَوْن من تأثيره على كثيرٍ من عقلائهم ودهمائهم، لم يكن أمامهم إلاّ أن يُوجِّهوا للرسول الاتّهام بأنّه سَاحِرٌ، والاتِّهَامَ بأنّه افترى القرآن من عنده، وزعم بأنّ الله أوحى به إليه، وطالبوه بأن يأتي بقرآن غير القرآن الذي يتلوه عليهم، أو بأن يبدِّله، فإذا استدرجوه لذلك أدانوه بأنه هو الذي يصْنَع القرآن ويفتريه على رَبّه، وطالبوه أيضاً بأنْ يأتيهم بآيةٍ مادّية، وأطْلَقُوا مقالاتٍ تدلّ على أنّهم يَسْخَرُون بما أنذرهم به من عِقابٍ مُعَجَّلٍ يُنْزِلُه الله بهم.

دلَّ على هذا الموقف المتعدِّدِ الظواهر عدَّةَ آيَاتٍ جاءت في السورة:

الآية الأولى: قول الله عزّ وجلّ في أوائل السّورة:

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾.

﴿ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: أَنْذِرِ الّذينَ لم يستجيبوا لِدَعْوَتِكَ، وهم أكثر الناس.

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ ﴾ أي: أَنَّ لهم قدماً ثَابتَةً مَحْمُودةً عِنْدَ ربهم، ومن له قدمٌ محمودَة عِنْدَ ربّه يكون ذا حظٍّ عظيم من الرّضوان والأجر العظيم(١).

---

(١) يصِفُ العربُ بكلمة «صِدْق» ما يُريدُون مَدْحَهُ، فيقولون: رجُلُ صِدْقٍ، وامْرأة صِدْق، أي: رَجُلٌ نِعْمَ هو رجلاً، وامرأة نِعْمَتْ هي امرأةً، ونَحْوُ هذا «مَقْعَدُ صِدْقٍ» =

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنَّ هذا الذي يَدَّعِي أنّه رسولُ اللَّهِ ويُبَلِّغُ عنه قرآناً يتْلُوهُ لسَاحِرٌ واضحٌ في كونه ساحراً.

الآية الثانية: قول الله عزّ وجلّ في أثناء السورة:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

الآية الثالثة: قول الله عزّ وجلّ في أثناء السورة أيضاً:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

فدلت هذه الآية على أنهم اتَّهَمُوا الرسول بأنّه يفتري القرآن على ربّه، أي: يختلقه ويَصْنَعُهُ هو، ثُمَّ يَدَّعِي أَنَّه كلامٌ من عند الله يُوحي به اللَّهُ إليه.

وقد تحدّاهم القرآن تَحَدِّيًا مُعْجزاً بأن يأتُوا بمثل سورة منه، فلم يستطيعوا فسقط بعجزهم الاتّهام بالافتراء على الله.

الآية الرابعة: قولُ الله عزّ وجلّ في أثناء السورة أيضاً:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

يخاطبون بهذا الرسول والذين آمنوا معه، أي: في أيّ وَقْتٍ يتحقَّقُ إِنْذَارُ الرسول لنا بالعقاب، وفي هذا الاستفهام معنىٰ السُّخْرِية بما أنذرهم به، وهذه السخريَةُ ناشئةٌ عن عَدَمِ تصديقهم بما أَنْذَرهم به.

فاقضت جُمْلَةُ ظَواهِرِ مَوْقِفِهم في الطور الذي وصَلُوا إليه إبّانَ نزول

= أي: مقعدٌ نعم هو مقعداً، و «قَدَمُ صِدْقٍ» أي: قَدَمٌ نِعْمَتْ هيَ قدماً ثابتة عند ربها، وذو القدم الثابتة عند ربه يكون محموداً مرضياً عنه.

سورة (يونس) أنْ يُوَجّه الله لرسوله ويُلْحَقُ به كلّ داعٍ إلى الله من أمته الوصايا الأربع التي سبق ذكرها في أوائل بيان هذا التعليم.

● **فالوصيّة الأولى**: دلّ عليها من السورة ما تَضمَّنَهُ قول الله عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾.

أي: ولا يحزُنْكَ ما يقولُهُ الكافرون فيكَ ممّا يسوؤُك، فَنَحْنُ ناصروك بقوتنا الغالبة.

إنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَميعاً: أي: إنَّ الْقُوَّةَ الغالبة كُلَّها لِلَّه وحده لا شريك له فيها، وفي هذا البيان إشعارٌ ضمني بأنّ الله ناصِرُه عليهم.

هو السّميعُ الْعَليمُ: أي: هو جلّ وعَلاَ السّميعُ لما يقولون فيك، والسِّميعُ بدُعائك، والعليم بأحوالهم وأحوالك لا تخفى عليه خافية، وفي هذا البيان إشعارٌ ضِمْنِيٌّ بأنَّ الله حافِظُه من تدبيراتهم ومكايدهم.

● **والوصية الثانية**: دلّ عليها قول الله لرسوله ـ ويُلْحَقُ به كُلُّ داعٍ إلى الله من أمّته ـ في السورة:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

أي: فلَوْ كُنْتُ من الّذينَ يفترونَ على اللَّهِ الكَذِبَ فلا يُمْكن أنْ أُفْلِحَ أبداً، وأنا لا أفعل ذلك لأنّني حريصٌ على الفلاح، والمستقبل كشّافٌ.

● **والوصية الثالثة**: دلّ عليها قولُ الله لرسوله في الآية الأخيرة من السورة:

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ . . . ﴿١٠٩﴾ ﴾.

أي: ولا تفكِّر في الاستجابة لمقترحاتهم ومطالبهم، فهي مزالق فتنة يريدون استدراجك إليها، والتَزِمْ باتّباع ما يُوحَىٰ إليك.

● **والوصية الرابعة**: دلّ عليها قول الله لرسوله في الآية الأخيرة من السورة أيضاً:

﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾.

أي: واصْبِرْ على ما يُؤْذِيك من أَقْوَالِ الكافرين وأعمالهم، حتَّىٰ يَحْكُمَ الله بينكم، وهو خير الحاكمين، فَإِنْ أصَرُّوا على كُفْرِهم وعنادهم فسيُنْزِلُ بهم عِقابه ويَنْصُرُوك وينصُرُ الذين آمنوا معك.

* * *

التعليـم الثـامن

- ١ -

موقف أئمة المشركين إبان نزول سورة (الحجر)

كان موقف أئمة المشركين إبّان نزول سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) في أواسط المرحلة المكيّة من تاريخ دعوة الرسول مواجهة هؤلاء الأئمة للرسول بعنف وصراحة بأذيَّتَيْن:

الأذيّةُ الأُولىٰ: شتيمته بأنَّه لمجنون، وغَرَضُهُمْ صَدُّ جماهيرهم الَّذين يثقون بكمال عقولهم، وصحّة آرائم، عن الاستماع إلى الرسول وعن اتباعه، مع تصوّرهم أنَّ هذه الشتيمة قد تجعل الرسول يخفّف من نشاطه في دعوته، بما يَنْزِل به من حُزْنٍ أو غضب.

دلَّ على هذه الأذيّة قول الله عزّ وجلّ في أوائل السورة.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾.

إنَّهم قد وصلوا في الوقاحة إلى مُواجَهَتِهِ بالشتيمة مؤكّدين فيها أنَّهُ لَمَجْنُون.

الأذيّة الثانية: الاستهزاءُ به عَلَناً في المحامل والمجامع العامّة، بغية صَدّه عن دَعْوَتِهم إلى دين الله الحق، وعن دعوة جماهيرهم الذين يتأثَّرُون

بهم، أو بُغْيَة استثارة غضبه إزعاجاً وإيلاماً، ورُبَّما قابَلَ شتائمهم بمثلها، فتكون هذه المقابلة بمثابة الشاهد على صحّة اتّهامهم له بالجنون، ورُبما كان التشاتم مفتاحاً لصراع جَسَدِي هم حينئذٍ أكثر قدرةً عليه، وأكثر أنصاراً.

مع ما في الاستهزاء من صدٍّ جماهيرهم عن الاستماع إليه وعن اتّباعه، لِما في الاستهزاء العامّ من إيحاءٍ خبيثٍ في نفوس الجماهير يُشْعِرُهُمْ بأن من يُوجَّه ضدَّهُ الاستهزاء جَديرٌ بأنْ يُسْتَهْزَأَ به.

دلّ على أيذائهم له بأنواع الاستهزاء المنكر قولُ الله عزّ وجلّ في أوائل السورة خطاباً لرسوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

ـ ٢ ـ
الوصـايا الرّبّـانيّة

وقد وجّه الله عزّ وجلّ لرسوله في أواخر سورة (الحجر) تِسْعَ وصايا يُعالج بها موقف أئمة المشركين منه ومن دعوته في هذه المرحلة، ويعالجُ بها نفسه التي تؤلِمُهَا شَتِيمَتُهم له، واستهزاؤهم به، وهذهِ الوصايا موجَّهةٌ لكلّ داعٍ إلَىٰ اللّهِ من أُمَّتِه يتعَرَّضُ لمثلِ ما تعَرَّضَ له الرسولُ من قِبَلِ الّذينَ يُؤَدِّي بَيْنَهُمْ رسالتَه.

الوصيّة الأُولى: (الصَّفْحُ الْجَمِيلُ).

وهو الإعراضُ عن مقابلتهم بمثل أعمالهم، وعَدَمُ الاشتغال بدَفعِ إيذاءَاتهم.

وأصْلُ الصَّفْح في اللغة الْجَنْبُ، وصَفْحُ كلّ شيء جانبه، ويقالُ: صفح

فلانٌ عن المذنب، إذا أعرض عن ذنبه، فلم يؤاخذه عليه، ولم يُقابله بمثله، وهذا المعنى مأخوذٌ من أنَّهُ أعطاه جانبه مُعْرِضاً عنه، غير مواجهِ له بالعقاب.

والْجَمالُ في هذا الصَّفْح يكونُ بإبقاء الْوَجْهِ طلْقاً سَمْحاً لا تظهر عليه علاماتُ الغضب أو الغيظ والكراهية، وبإبقاء الكلام عاديًّا لا تظهر فيه أمارات الاضطراب أو الإلماحات المستخفية، ويكون أيضاً بعدم شَغْلِ القلْبِ برغبات الانتقام.

دلّ على هذه الوصيّة قول الله عزّ وجلّ لرسوله في أواخر السورة:

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

* * *

الوصيّـةُ الثانية: (أَنْ لا يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إِلَىٰ مَا مَتَّعَ اللَّهِ به أَصْنَافاً مِنَ النَّاسِ وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَعْدَائِهِ الكُفَّار).

فقد كان الرسول ﷺ هو وأصحابُه في مكّة إبَّان نزول سورة (الحجر) في موقف ضَعْفٍ وحاجَةٍ، وكانَ أئمة المشركين في موقف قُوّةٍ وسُلْطانٍ وثراء، وهذا الأمرُ من شأْنِه أن يُحَرِّكَ في النَّفْسِ الرغبة في أَنْ يكون له وللذين آمنوا معه ما لهؤلاء الأئمة، أو مثْلُه لئلاَّ يكون للكافرين امتياز دنيويٌّ على المؤمنين.

فاقتضت الحكمة التربوِيَّةُ الربَّانيَّةُ أن يُوجّه اللَّهُ لرسوله والغرض التوجيه لكُلِّ مؤمنٍ من أمّته هذه الوصيّة، لأنّ حكمة الامتحان في ظروف الحياة الدنيا تقتضي الإمداد والإمهال للمعرضين عن الدعوة، حتىٰ يأتي وقت عقابهم، وتمحيص المؤمنين بالشدائد حتى يأتي وقت نَصْرِهِمْ، وإمدادهم بما يحبُّون من الحياة الدنيا.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ . . . ﴿٨٨﴾﴾.

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ: أي: لا تنظُرْ نَظَرَ تَشَهٍّ إلىٰ ما أمدَدْنا به أصنافاً من المشركين وسائر الكافرين من متاع الحياة الدنيا، لامتحانهم واختبارهم بها.

أزواجاً منهم: أي: أصنافاً من الناس ولو كانوا كافرين، يُطْلَقُ لفظ الزوج على الصنف من كلّ شيء.

وجاء التعبير بمَدِّ العين بدَلَ النَّظَر، لبيان أَنّ نظَرَ التَّشَهِّي والطَّلَب يختلِفُ عن النظر العاديّ العابر.

فنظر التَّشهّي يقترن بدوافع تمتَدُّ آثَارُها من داخل النفس، وسائرةً على خطوط أشعَّةِ النظر لتَتَنَاوَل الْمُشْتَهَىٰ وتمتلكَهُ حتَّىٰ كأَنَّ الْعَيْنَيْنِ يَدَانِ ممتدَّتان تبتغيانِ أخْذَ ما اشْتَهَتْهُ النفس، لتستوليَ علَيْهِ وتمتلِكَهُ.

وفي هذا معنىٰ الاعتراضِ على حكمة الله في عطائه ومنْعِهِ، وفي التوسعة على بعض عباده، والتَّضْييق على آخرين منهم، ليبلُوَ كُلًّا منهم بما يُلائِمُ فطرَةَ نَفْسِهِ الَّتِي فَطَرَهُ عليها.

* * *

الوصية الثالثة: (أن لَا يَحْزَنَ على الكافرين بسبب تعريضهم أنْفُسَهُمْ لعذاب جهنَّم خالدين فيها).

فقد كان الرسول ﷺ شديد الشفقة على قومه، شديد الرَّحمة بهم، حريصاً على أن يؤمنُوا لينْجُوا من عذاب الله، وليظفروا بالسعادة الخالدة في جنّات النّعيم.

فإصرارهم على ما هم فيه من شِرْكٍ وكُفْرٍ برسالته، وبما جاء به عن ربّه، في مقابل شفقته عليهم، ورحمته بهم، أمْرٌ من شأنِهِ أنْ يُحْزِن، لأَنَّ من يُحْرَمُ ممّا هو شديد الحرص عليه، يَحْزَنُ لِفَوَاته، بمقتضىٰ طبيعتِهِ البشريّة، وهذا الحزن يؤثّر على نفسه، وقد يُثَبِّطُ من نَشَاطه في مجال تأديةِ رسالته،

المأمور بأن يَبْذُل فيها قُصارى مَا يَمْلِك منْ جَهْدٍ ومُجَاهَدَةٍ لتوصيلها للناس. فالْحُزْنُ يَشْغَلُ الْحَزِينَ عن القيام بالأعمال الجهادية الّتي تَتَطَلَّبُ الرَّجاءَ والتفاؤُل.

ومعلومٌ أنّ إرادة اللّهِ الحكيمة قد قضَتْ بأن يَضَعَ الناس في الحياة الدّنيا مَوْضِـع الامتحان، وأنَّ على كُلِّ مُمْتَحَنٍ مُكلَّفٍ أَنْ يختار بنفسه مصيرَهُ، بعد البيان الكافي له.

فمن اختار لنفسه طريق جهنَّم وهو كامل الأهليّة الفكرية والإراديّة، فلا يَنْبَغي أنْ يَحْزَنَ أَحَدٌ من أجْلِه، إنَّه إذا لم يَشْفَقْ هو على نفسه، وهي أَحَبُّ شَيْءٍ إلَيْهِ، أفيسْتَحِقُّ أنْ يَحْزَنَ أَحَدٌ مِنْ أجْلِه.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله في أواخر السورة:

﴿... وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ... (٨٨)﴾.

* * *

الوصية الرابعة: (أَنْ يخفض جَنَاحَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ).

أي: أن يتواضع للمؤمنين، وأن يحيطهم بالحنان والرحمة والرِّعَاية والحفظ. وقد جاء في العبارة استعارة خفض الجناح للدلالة على هذه الأمور، أخذاً من حركة الطائر حينما يخفض جناحه تواضعاً لطائر آخر، وحينما يخفض جَنَاحه ليُحِيطَ به فِراخَهُ الصّغارَ ويضمَّها إلى دفْءِ صَدْرِه، ويجلّلها بريشه، رحمَةً بها، وحناناً عليها، ورعايةً وحمايةً وحِفْظاً.

ومثل هذا التعبير يُسَمَّىٰ عند البلاغِيّين اسْتِعَارةً مكنيَّةً، إذْ حُذِفَ المستعار الّذِي هو في الأصْلِ مشبَّهٌ به، واسْتُخْدِمَ في اللّفظ بعضُ لوازمه:

دلَّ على هذه الوصيّة قول الله عزّ وجلّ في أواخر السورة:

﴿... وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾.

الـوصيّــة الخـامسـة: (أنْ يُـوَجّـهَ الإنْـذَارَ الْـوَاضِــحَ الْمُبِيـنَ لأَئِمـة المشركين).

فأَئِمَّةُ المشركين من قومه الّذين بَلَغُوا مبْلَغَ المكابرة والعناد والمواجهة الصريحة لله بأنّه لمجنون، بعْدَ كُلّ البيانات والمعالجات التي سبقت منذ بدء دعوته حتّىٰ نزول سورة (الحجر) في أواسط المرحلة المكيَّةِ من تاريخ دعوته، يَحْسُ توجيه الإنذارِ المبين الواضح لهم.

دَلّ على هذه الوصيّة قول الله عزّ وجلّ في أواخر السورة:

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: واجِهْهُمْ بهذا الإعلان المؤكّد بشدّة، الذي اجتمعت فيه المؤكدات المتعدّدة المتظاهرة.

المؤكد الأول: «إنَّ».

المؤكد الثاني: الجملة الاسمية.

المؤكد الثالث: ضمير «أنا» فهو إمّا ضمير فصل، أو مبتدأ جملة هي خبر «إنَّ».

المؤكد الرابع: تعريف طرفي الإسناد في الجملة الاسمية.

* * *

الوصية السادسة: (أَنْ يَصْدَعَ بِمَا يُؤمَرُ بِتَبْلِيغِهِ للنَّاسِ).

أي: أنْ يُجَاهر بما يؤمَرُ بتبليغه ويُعْلِنَه إعلاناً عامًّا، ولا يقتصر على الدّعوة الإفراديّة في آذان المدعُوِّين.

وفي الصَّدْع معنى تَوْجيهِ الدّعوة الصريحة العلنية بقوّة تجعل النفوس المتحجِّرَة المتصلِّبَة تَنْصَدِعُ، كما تنصدعُ الأواني الزجاجيَّة، أو كما تَنْصَدِعُ

الحجارة، فتَتَشَقَّقُ متأثرة بقُوَّةِ ما يصْطَدِمُ بها، لكنَّها تَبْقَىٰ مُتَمَاسكَةَ الاتّصالِ فَلاَ تَنْكَسِر.

والصَّدْعُ بهذا المعنىٰ كنايةٌ عن قُوَّةِ الْجَهْرِ بالبيان المقرونِ بالحجَّةِ المأثِّرَةِ في النفوس والقلوب.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في أواخر السورة:

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ . . . ﴿٩٤﴾﴾.

الصّدْع: في اللُّغة أَصْلُه الشَّقُّ في الشيءِ، كالصخرة والزجاج والأرض، ويأتي الصّدْعُ بمعنىٰ الْجَهْرِ والإعْلانِ.

* * *

الوصية السابعة: (أن يُعْرِضَ عَنْ أئِمَّةِ الْمُشْرِكين).

فالأئمة الذين بلغوا من دعوته مبلغ العناد والمكابرة، والمواجهة له بأنه مجنون، وسَلَّطوا عليه أَسْلِحةَ الهزء والسخرية، ينبغي أن لا يقابلهم على شتائمهم واستهزاءاتهم بأمثالها، وأن يُعْرِضَ عن توجيه الدّعوة لهم، ليوجّه اهتمامه لغيرهم، مكتفياً بأَنْ يُسْمِعَهُمْ دون مواجهة، وذلك بإعطائهم عَارِضَهُ وهو جانبه، فالإعراضُ وسَطٌ بَيْنَ الْمُوَاجهة والإدبْار.

واقترنَتْ هذه الوصيَّةُ بطَمأَنَة اللَّهِ لرسوله بأنه كَفَاهُ عِصَابَة المستهزئين الكبار، فأهلكهم.

دلّ على هذه الوصيَّةِ قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في أَواخِرِ السورة:

﴿. . . وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

جاء عند محمد بن إسحاق كما ذكر ابنُ كثير أنّ عظماء المستهزئين كانُوا خمسة نفر، وكانوا ذوي أَسْنَانٍ وشرفٍ في قومهم، وهم:

١ ـ «الأَسْوَدُ بْنُ أبـي زَمْعَة» وهو من بني أَسَدِ بن عبد العزّى بن قُصَيْ.

رُوِيَ أنَّ الرسول ﷺ دَعَا عليه لِمَا كان يبلغُهُ من أَذَاهُ واسْتهزائه، فقال: «اللَّهُمَّ أَعْمِ بَصَرَهُ، وأَثْكِلْهُ وَلَدَهُ».

٢ ـ «الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوث» من بني زُهْرَة.

٣ ـ «الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة» من بني مخزوم، وكانَ رأس المستهزئين، وهو الذي جمعهم.

٤ ـ «الْعَاصُ بْنُ وائل» من بني سَهْم.

٥ ـ «الحارثُ بْنُ الطُّلاطِلَة» من خزاعَة. ورُوِي أنه: «الحارثُ بْنُ قيس» وأنه عيْطَلة، أو عَيْطل.

روى ابن إسحاق عن عُرْوة بن الزبير أو غيرِه من العلماء، أنّ جبريل عليه السلام، أتَىٰ رسول الله ﷺ وهو يطوفُ بالبيت، فَقَامَ وقام رسولُ الله ﷺ إلى جنبه:

● فَمرَّ به «الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوث» فأَشَارَ إِلَىٰ بَطْنِهِ فاسْتَسْقَىٰ[١] بَطْنُه، فمات منه.

● ومَرَّ به «الوليدُ بْنُ المغيرَة» فأشار إلى أثَر جراحٍ بأسْفَلِ كعْبِ رِجْلِه، وكان أصابه قبل ذلك بسنتين، وهو يجُرُّ إزاره، وذلِكَ أَنَّهُ مَرَّ برَجُلٍ من خُزَاعَة يَرِيشُ نَبْلاً له[٢]، فتعلَّق سَهْمٌ من نَبْلِه بإزاره، فَخَدَشَ رِجْلَهُ ذَلِكَ الْخَدْشَ، وليس بشيءٍ، فانْتَقَضَ به فقتَلَهُ.

● ومرَّ به «العاصُ بْنُ وائل» فأشار إلى أَخْمَصِ قَدَمِهِ، فخرجَ على

---

(١) يقال لغة: سَقَىٰ بطنُهُ واستسْقَىٰ، وأسقاه الله، إذا اجتمع فيه ماءٌ أصفر، وهو مرضٌ معروف عند الأطباء، بِدَاء الاستسقاء.

(٢) يريش نبلاً له: أي: يضع له الرّيش.

حمارٍ له يُرِيد الطائف، فَرَبَضَ (أي: الحمار) عَلَىٰ شِبْرِقَةٍ، فدخلَتْ في أخْمَصِ قَدَمِهِ (أي: العاص) فقتلته[1].

● ومرّ به «الحارثُ بْنُ الطلاطلة» فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً، فقتله.

* * *

الوصية الثامنة: أن يداوي ما يَحْدُث له من ضيق صدر تسبّبُه مقالاتُ المشركين فيه من شتائم، واستهزاؤهم به، بدواءٍ ديني يشتمل على أمْرين:

الأمر الأول: أنْ يُسَبِّح بحمد رَبِّه، أي: أن يُرَدِّد في ذكره لربّه، عبارة: سُبْحَانَ اللَّهِ وبِحَمْدِه، وهي اختصار لعبارةِ: أُسَبِّحُ سُبْحَانَ الله، وأحْمَدُ بِحَمْدِهِ، والتسبيحُ، تَنْزِيهٌ لِلَّهِ عمّا لا يليق بجلاله، والْحَمْدُ ثَنَاءٌ على اللَّهِ بصِفَاتِ كمالِه، على وفق المحامد التي يَحْمَدُ الله بها ذاتَهُ وصِفَاتِهِ علَىٰ ما يَعْلَمُ من كمالاته.

الأمر الثاني: أنْ يكون من السّاجدين لله، المؤدّين غاية الخضوع والذُّلّ له.

وباستعمال هذا الدواء التعبُّدِيّ للّهِ يشْرَحُ اللَّهُ له صدْره، ويَصْرِفُ عنه ما يجدُ في نفسه، بسبب إيذاءات المشركين له.

دلّ على هذه الوصيّة قولُ الله عزّ وجلّ له في أواخر السورة:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

* * *

(١) الربوض للدواب كالبروك للإبل، والشِّبْرِقُ: نبت حجازيٌّ يُؤْكَلُ وله شوك، وإذا يَبِس سُمّي الضَّرِيع.

الوصية التاسعة: (أن يُتَابِعَ عِبَادَتَهُ لربِّهِ ومِنْهَا قِيَامُهُ بِوَظائِفِ رسَالَتِه حتَّىٰ آخِرِ لَحْظة مِنْ عُمْرِه).

أي: والواجب عليه أَن يسْتَمِرَّ في عبادته لربّه بمختَلِفِ أنواع العبادات المطلوبَةِ منه، ومنها أن يَسْتَمِرَّ في أدائه وظائف رسالته تبليغاً وتعليماً وتربيَةً ونُصْحاً وإرْشَاداً، وأمْراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ له في آخر آية من آيات السورة:

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

أي: حتّىٰ يأتيك الموتُ الذي هو يقين لا يَشُكُّ به شاكٌّ من عُقلاءِ الأحياء.

* * *

التعليم التاسع

جاء هذا التعليم في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

وقد تضمّن هذا التعليم نهي الرسول ﷺ عن أن يطرد عن مجالسه فقراء المؤمنين الذين يدعون ربَّهُمْ بالغداة والعشي، استجابة لطلب كبراء قومه، طمعاً في إيمانهم.

قال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لرسوله:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

وأنزل الله على رسوله بشأن فقراء المؤمنين الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه قوله في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) وهي مكيّة التنزيل، إلاّ أنّ هذا النصّ منها مدنيّ التنزيل:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا: أي: وجَدْنَا قَلْبَهُ غافلاً عن ذكرنا.

وكان أَمْرُهُ فُرُطاً: أي: وكان أَمْرُهُ في حياته ظلماً واعتداءً وتركاً للحق والخير والواجب.

البيان:

طلب كبراء مشركي مكة من الرسول ﷺ أن يَطْرُدَ عن مجالسه فقراءَ المؤمنين حتّىٰ يتّبعوه، ازدراءً منهم لهؤلاء المؤمنين الفقراء والضعفاء، واستكباراً عن أن يتساوَوْا معهم في المجلس، فأنزل الله على رسوله الآيتين (٥٢ ـ ٥٣) من سورة (الأنعام).

ثم أنزل بشأنهم في العهد المدنيّ الآية (٢٨) من سورة (الكهف) المكية.

فنهى الله عزّ وجلّ رسوله بشدّة عن أن يستجيب لطلب كبراء قومه في أَنْ يطرد عن مجالسه فقراء المؤمنين، حتّىٰ يؤمنوا به ويتبعوه، والغرض نَهْيُ حملة رسالته من بعده عَنْ أن يفتنهم كبراء القوم فيطردوا عن مجالسهم فقراء المؤمنين وضُعَفَاءَهُمْ، بدليل نزول النصّ الثاني في العهد المدني وإضافته إلى سورة مكيّة وهي سورة (الكهف) وذلك لأن العهد المدنيّ لم تَظْهَرْ فيه مشكلة طلب كبراء المشركين طرد فقراء المؤمنين وضعفائهم، فدَلَّ هذا الصنيع على أنّ توجيه الخطاب للرسول قد كان باعتباره إمامَ الدّعاة من أمّته، إلاّ أنّ المقصود منه الدّعاة من أمّته، فقد كان الرسول ﷺ متحقّقاً بمضمون التوجيه في النصّين كليهما.

قول الله عزّ وجلّ في نصّ (الأنعام):

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: ما عليك أيّها الداعي إلى الله من حساب الناس من شيءٍ إذا كفروا

ولم يؤمنوا، بل كلّ واحد منهم يحاسَبُ عن نفسه، فلا تَطْرُدِ الفقراء والضعفاء طمعاً بإيمان الكبراء والأغنياء لتتخلّص من مسؤولية مُحَاسَبَتك على عدم إيمانهم، إذْ لاَ تَحْمِلُ أنت من حسابهم شيئاً، وبما أنّك تقوم بواجب التبليغ فإنَّ عليهم أن يتبلّغوا ويشاركوا في مجالس التبليغ سائر طالبي الهداية.

وأنت مسؤول عن تبليغ دين الله للجميع على سواء، فقراء الناس وأغنيائهم، ضعفاء الناس وساداتهم، فإذا طَرَدْت الفقراء والضعفاء وأبعدتهم عن مجالسك استجابةً لطلب الأغنياء والكبراء، فإنّك تعرّض نفسَك للمحاسبة والمؤاخذة على إبعادهم عن مجالس العلم الدينيّ، الذي أمرك ربُّكَ بتبليغه للناس دون تمييز ولا تخصيص، وإنّ أغنياء المشركين وكبراءهم الذين تُرِيد إرضاءهم والاستجابة لطلبهم ليُسْلِمُوا لاَ يحملون عنك من مسؤولية الحساب شيئاً، بل سَتُدانُ وحْدَك بطرد الفقراء والضعفاء وعَدَمِ تبليغهم دين ربّهم.

وعلى هاتين القاعدتين من قواعد المسؤوليّة والمحاسبة جاء التفريع بقول الله عزّ وجلّ لرسوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

أي: فطرد الفقراء بعد بيان هاتين القاعِدَتيْن ظلمٌ، فلا تستجبْ لطلب الأغنياء والكبراء فتطرُد الفقراء والضعفاءَ فتكونَ بطَرْدهم من الظالمين.

وبعد هذا أبَانَ اللَّهُ أنّ من سنته في الاجتماع البشري امتحانَ الناس بعضهم ببعض، ومنه امتحان الأغنياء والكبراء بالفقراء والضعفاء، وبالعكس، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: وكذلك الامتحان الذي جرىٰ لأغنياء المشركين وكبرائهم تجاهَ فقراء المؤمنين وضُعَفائِهم فتنَّا بعض الناس ببعض، ليقول الأغنياء والكبراء أهؤلاء الفقراء والضعفاء منّ الله عليهم من بيننا؟!! وجاء الجواب الرباني: أليس الله بأعلم بالشاكرين؟!!.

* * *

التعليم العاشر

جاء هذا التعليم في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) وقد تضمّن هذا التعليم وصيّتين:

١ ـ أن يُدِيرُ الداعي ظهره لمن وصل إلى حالة ميئوس من استجابته لدعوة الحقّ معها، ويوّجه اهتمامه ومجاهدته لآخرين مطموع باستجابتهم، ولم يصلوا بعْدُ إلى حالة ميئوس منها.

٢ ـ أنْ يكون الداعي إلى الله ـ مع إدارته ظهره لمن وصل إلى حالة ميئوسٍ منها ـ شَدِيدَ المراقبة له ببصره، لئلا يُدبِّر ضدّه وضدّ الإسلام والمسلمين مَكَايِدَ، وهو عنه غافلٌ لا يَشْعُر بما يُدَبِّر.

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة:

كان معاندو أئمة المشركين إبّان نزول سورة (الصافّات) في موقفِ المواجهة بالسخرية من الرسول وممّا جاء به، وموقف المواجهة بادّعاء أنّ القرآن لَوْنٌ من ألوان السحر بالقول، إذْ يؤثّر به الرسول ﷺ على فريق منهم، فيفرّق به بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والصديق وصديقه، ويفرّق به بين الأقرباء والأرحام، وقد سبق أن استقرّ في أذهانهم أنّ السَّحَرة يفرّقون بين المرء وزوجه.

فلمّا وجدوا أنّ دعوة الرسول بالقرآن تأخذ منهم فريقاً إلى الإسلام، مُنْشَقين عن تقاليد قومهم وعادتهم الشركيّة، وجدوا هذا ذريعة لادّعاء أنّ القرآن وسيلة من وسائل السَّحَرة.

دل على هذا الموقف قول الله عزّ وجلّ في أوائل السورة خطاباً لرسوله:

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي: بل عَجِبْتَ يَا مُحمَّد من تكذيبهم إيَّاك ومن تكذيبهم بالحقّ الذي جئتهم به، والكافرون يسخرون منك ومن دعوتك، ومن ثباتك على دَعْوَتِهم وتَذْكيرِهم تِباعاً بما سَبَق أن دعوتَهُمْ إليه.

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ أي: وإذَا ذُكِّرُوا بما سبَق أن بلَّغْتَهُمْ إيّاهُ، وبيَّنْتَهُ وشرحته لهم، وحاوَلْتَ أن تقنعهم به، لا يَنْتَفِعُون بتذكيرك، ولا يستجيبون لدعوتك، ولا يُلْقُونَ أسْمَاعَهُم لمَا تُذَكِّرُهُمْ به، فهم لا يذكُرونَ، أي: لا يضعون ما تُذَكِّرُهم به في ذاكراتهم للاستفادة منه.

والمعنيّون بهذا القول هم مُعَانِدو أئمة مشركي مكّة.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي: وإذا رأوا آيةً مادّيةً تتَأَثَّرُ بها جماهيرهم يُبَالِغُون في توجيه السُّخْرِية منها، ليوحوا إلى جماهيرهم بأَنّها مُزَيَّفَةٌ، وليست آيةً حقيقيّة، فهي لا تَصْلُح لأن تكون علامةً على صِدْق نُبُوَّته ورسالته.

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: وقالُوا لجماهيرهم: ما هَذَا الذي تُشَاهدونَه مما تَحْسَبُونَهُ آيَةً من آياتِ نُبُوَّته ورسالته، إلاَّ عَمَلٌ من أَعْمال السِّحْر الَّتي يُخَيَّلُ بها للأنظار فترىٰ ما لَيْسَ له حقيقَةٌ ثابتَةٌ في الواقع.

واقتضت الحكمة الرّبّانية أَنْ يُوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله في آخر سورة (الصافات) توجيهاً تَرْبويًّا يناسب الطور الذي وصَلَ إليه معانِدُو أئمة المشركين، فقال الله عزّ وجلّ له فيه:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ

ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ
بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ
رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

اشتمل هذا النّصّ على وعْدٍ للرسول والذين آمَنُوا معه، ووعيد للمعاندين من أئمة المشركين، وعلى وصِيّتَيْن للرسول وللدُّعاة من أمّته.

فالوعْدُ: قد اشتمل على خَبَرٍ بأن الله سيَنْصُر الرسول والجنْدَ المؤمنين الذينَ اتَّبَعُوه، وفي هذا إلماح إلى أَنّ النصر سيكون في معارك تقوم بين الفريقين.

والوعيد: قد اشتمل على تَهْدِيدٍ بما سيحدث حتماً للمشركين من عذاب وخزي وقتلٍ وهزائم منكرة، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

والوصِيَّةُ الأُولى: هي وصِيَّةُ الله لرسوله مرتين بأن يتولّىٰ عن هؤلاء المعاندين من أئمة المشركين، **والتَّوَلّي**: هو إِدَارَةُ الظَّهْرِ لهم، وعَدَمُ الاشتغال بتذكيرهم، لأنهم بَلَغُوا إلى دركةٍ ميئوسٍ منها، دلّ عليهما قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾. ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

والوصيّة الثانية: هي لُزوم مراقبتهم بعناية عن طريق المشاهدة البصريّة، متابعة لما يدبّرون من مكايد،. دلّ عليها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ ـ ﴿وَأَبْصِرْ﴾.

* * *

التعليم الحادي عشر

جاء هذا التعليم في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول).

وقد تَضَمَّنَ هـٰذا التعليمُ ثلاث وصايا مُوجهة للداعي إلى الله، وهي:

١ ـ أن يتحلَّىٰ الداعي إلى اللّهِ بالصَّبْرِ دواماً.

٢ ـ أن يستَغْفِرَ اللَّهَ طالباً أن يغفر له ذنبه، وغَفْر الذنب سَتْرُه.

٣ ـ أَنْ يُسَبِّحَ بحمد ربِّه بالْعَشِيِّ والإبْكار.

العشيّ: هو نصف النهار الثاني إلى الغروب.

الإبْكار: وقْتُ الْبُكْرَة، وهي الْغُدْوَة، ووقتها من دخول وقت الفجر إلى طلوع الشمس. والأصْلُ في الإبكار الدخول في وقْتِ الْبُكْرَة.

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة:

يبدو أنّ بَعْضَ المسلمين استبطؤوا نَصْر الله لهم، واستطالُوا إمْهَالَ الله لمعاندي أئمة مشركي مكّة، واستطالوا تَرْكَ الله عزّ وجلّ لهم يتَقَلَّبُون في البلاد أعزّاء أقوياء يجادلون في آيات الله.

فأنزل الله عزّ وجلّ في أوائل السورة قوله:

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾.

هذا الخطاب موجّه للرسول ﷺ باعتباره إمام أُمّته وقائدهم، وهو مُوَجَّهٌ لكلِّ مؤمِنٍ على سبيل الخطاب الإفراديّ من بعد الرسول القائد.

وأَتْبع الله عزّ وجلّ هذا القول ببيانِ إهلاكه الأمم السابقة الّتي أهْلكَها بَعْدَ طُول إمْهال.

وأنْزَلَ الله عزّ وجلّ في أواسط السورة قوله:

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

فاشْتَملَتْ هَذِه الآيَة على ثلاث وصايا:

الوصية الأولى: أن يتحلّى بالصَّبْر، ولا يستعجل وعْدَ الله بالنصر، فالله حكيم، وعلى العباد أن يَثِقُوا بحكمة الله في إمهاله وفي كلّ تصاريفه.

الوصية الثّانية: أن يشتغل بالاستغفار لذنبه، أي: أن يسأل الله كثيراً في أوقات متكرّرات أن يغفر له ذنبه.

الوصية الثالثة: أن يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ بالعشيّ والإبكار، أي: أن يُنزِّه الله عما لا يليق بجلاله، وأن يجعل هذا التسبيح مقترناً بحَمْدِ الله بما هو له أهل من كلّ كمال.

وأنزل الله عزّ وجلّ فيها أيضاً قوله:

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

فأَكَّدَ الله الوصِيَّة بالصَّبْر في هذه الآية، وإنْ تَوفَّىٰ اللَّهُ الداعي إلى سبيل ربّه قَبْل أنْ يُشَاهِدَ عقاب اللَّهِ للمعاندين المجرمين من أهل الكفر، فسَيُقِرُّ الله عينه بمعاقبتهم يوم الدين.

* * *

التعليم الثاني عشر

جاء هذا التعليم في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) وقد تضمَّنَ هذا التعليم أربع وصايا:

١ ـ أنّ على حامل الرسالة أن يكون قدوة حسنة للناس في عمله الصالح الظاهر والباطن.

٢ ـ أنَّ على حامل الرسالة أنْ يُعْلِنَ أنّه فَرْدٌ من أفراد المسلمين، مسؤولٌ تجاه ربّه كسائر المسلمين، ومطالبٌ بأنْ يعمل الأعمال التي أمر الله المسلمين أن يعملوها، وبأن يجتنب كلّ ما أمر الله المسلمين أن يجتنبوه، وبأن ينتهي عن كلّ ما نهى الله المسلمين عن أن يفعلوه.

وأن يُعْلِنَ أنّه تُطَبَّقُ عليه جميع الشرائع والأحكام التي شرع الله أن تُطبَّق على المسلمين، فلا استثناء له بشيء، ولا إعفاءَ له عن شيء.

٣ ـ ينبغي لحامل الرسالة أنْ يَدْفَع كُلَّ ما يسوؤُه من الناس بالّتي هي أحسن، متحلّياً بالصَّبْر، وبمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

٤ ـ أنّ على حامل الرسالة أن يَفْزَع إلى الاستعاذة بالله كُلَّما نزغه من الشيطان نزغ، مستحضراً في تصوُّره أنّ الله هو وحده السميع العليم.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية التي جاءت في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

هذا التعليم الرّبّاني للدُّعَاة صُدِّر باسْتِفْهَامٍ ترغيبيٍّ يتضمّن الحثّ على القيام بوظيفة الدّعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمقترنةِ بشرطين:

الشرط الأول: أنْ يكون الداعي إلى الله قُدْوةً حسنة للنّاسِ بعمله الصالح، دلّ عليه قوله تعالى في التعليم: ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾.

الشرط الثاني: أن يُعْلِن الداعي إلى الله أنّه فردٌ من أفراد المسلمين مسؤولٌ تجاه ربّه كسائر المسلمين، ومطالبٌ بأن يعمل بكل ما أمر الله المسلمين أن يعملوا به، وبأن يجتنب كلّ ما أمَرَ الله المسلمين بأن يجتنبوه، وبأن يَنْتَهِيَ عن كلّ ما نهى الله المسلمين عن أن يفعلوه، وبأنّه تُطَبّقُ عليه جميع الشرائع والأحكام التي شرع الله أن تُطبّق على سائر المسلمين، فلا اسْتثناء له بشيء، ولا إعفاء له عن شيءٍ، دل على هذا الشرط قول الله تعالى في التعليم: ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

١ ـ قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؟؟!.

جاء في هذه العبارة استفهام ترغيبيٌّ لانتزاع الجواب من أهل الفكر والبصيرة الإيمانية، وهو: لا يُوجَدُ قائل من الناس يقول قولاً في غير الدّعوة إلى الله هو أحْسَنُ من قول من دعا إلى الله، وهذا لا يمنع من تَفَاضُلِ أقوال

الدّعاة إلى اللَّهِ في الْحُسْنِ، فبعضُ أقوالهم أَحْسَنُ من بعض.

فدلّت هذه العبارة على أنّ الدعوة إلى الله التي تكون بوسيلة البيان الكلاميّ هي أَحْسَنُ القول.

إنّه لمّا كان الإيمان بالله وبما جاء من عند الله، والعملُ بما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، أَحْسَنَ غايةٍ يَسْعَىٰ إليها المخلوقُ الممتَحَنُ في هذه الحياة الدّنيا، لأنّها تُحقّق له السعادة في الدنيا، والنجاة من النار والفوز بجنّات النعيم أبد الأبدين يوم الدّين، كان القول الداعي إلى هذا الظفر العظيم أَحْسَنَ كُلّ قولٍ لا محالة.

إنّ الكلام بوصفه أداة تعبيرٍ ودَلالةٍ وسيلةٌ محايدةٌ، يمكن أن تستعمل بحسب مضمونها ودلالتها في الخير وفي الشرّ.

والوسائل المحايدة القابلة للاستعمال في الخير والشرّ تعتبر قيمتها بحسب قيمة ما تُسْتعمل فيه وتوظّفُ له، وبحسب قيمة الغايات منها، خيراً كانت أو شرّاً، حسنةً كانت أو قبيحة.

فما كان منها وسيلة لخير عظيم، كانت قيمتُه مساويةً لذلك الخير العظيم. وما كان منها وسيلةً لشرٍّ أو ضُرٍّ كانت قيمتُهُ مساوية لذلك الشرّ أو الضرّ.

والكلامُ من حيثُ ذاتُهُ وسيلةٌ صالحةٌ لأن تستَعْمَلَ في الخير على مراتبه ودرجاته، بحسَب مضمونه الفكريّ وما يهدي إليه، وسيلةٌ صالحة لأن تُستَعْمل في الشرِّ على مَهَابطه ودركاته، بحَسَب مضمونه الفكريّ وما يقُودُ أو يسوق إليه.

فإذا كان القولُ حقاً وصدقاً، واستعمل في الخير، كانت قيمته مكتسبة من قيمة الخير الذي استعمل لتحقيقه، بحسب مرتبة ذلك الخير ودرجته في مرتبته.

وإذا استعمل القولُ مهما كانت صفته في الشرّ، كانت قيمته مكتسبةً من قيمة الشرّ الذي استُعْمِل لتحقيقه، بحسب مرتبة ذلك الشر، ودرجته في مرتبته.

ورُبّ كَلِمةٍ طيّبةٍ تُنْجي قائلها من النار وتدخله في الجنّة، مع ما تسعده في الحياة الدنيا، وتفتح له أبواب التوفيق والسداد.

وربّ كلمة خبيثة توصل قائلها إلى أسفل سافلين في نار جهنّم، مع ما تشقيه في الحياة الدنيا، وتقفل دونه أبواب التوفيق والسداد.

٢ ـ قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ عطفاً على قوله: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: جمع بين الدعوة إلى الله والعمل الصالح الذي يعمله تطبيقاً في ذاته لما يدعو الناس إليه، ومُعَبِّراً بعمله الصالح عن صدق إيمانه ويقينه بما يدعو إليه.

إنّ الدعوة إلى الله هي دعوة إلى الإيمان بالله وبكلّ ما جاء عن الله على لسان رسول الله، ودعوةٌ إلى العمل الصالح الذي يشتمل عليه صراط الله المستقيم، الّذي أبانه لعباده فيما أنزل على رسوله.

فدلّ الجمع بين الوصْفيْن: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ على أنّه يُشْتَرطُ في الداعي إلى الله أن يعمل صالحاً ليكون قُدْوةً حسنَةً بعمله لمن يدعوهم إلى سبيلِ ربّه، إذْ هو بعمله يُعْطيهم صورةً تطبيقيةً واقعيّة مشهودةً لما يدعو الناس إليه.

أمّا من كانت أَعْمالُهُ مخالفةً لأقواله الحسنةِ الجميلة، فإنّ دعوته تكون غيْرَ ذات تأثير فيمن يدعوهم، لأنّهم بتلقائيّةٍ غَيْرِ واعِيَةٍ يقولون في أنفسهم: لو كان ما يدعُونَا إليه حقًّا وصِدْقاً وذَا أَثَرٍ نافعٍ، وثمراتٍ طيباتٍ، لكان هو

أوّلَ العاملين بما يقول، والملتزمين بما ينصح به غيره.

٣ ـ قول الله عزّ وجل: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عطفاً على الجملتين السابقتين: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

أي: جمع بين الدعوة إلى الله، والعمل الصالح، وإعلان أنّه واحد من المسلمين.

وسبب الإلزام بهذا الإعلان، أنّ قادة المبادىء غير الرّبّانيّة الذين يصدّرون مبادىء إنسانيّة طيبة، إنما يفعلون ذلك لمخادعة الناس، حتّى ينضمُّوا إليهم، وينصروهم، وحتَّىٰ يستغلّوهم لتحقيق غاياتهم الشخصية.

فالاشتراكيون ينادون بالاشتراكية لاستعطاف الفقراء حولهم، ولإثارتهم على الأغنياء وأصحاب الثروات، فإذا وضع القادة أيديهم على أموال ذوي الثروات، عن طريق الثورة الاشتراكية، الّتي يذهب جمهور الكادحين والعمّال والفقراء ضحاياها، ووقوداً لِلَهَبِهَا، استأثروا بالأموال الّتي وضعوا أيديهم عليها، وأخذوا في إذْلال وإبادة ما تبقَّىٰ من جنودهم الذين أوصلوهم إلى مراكز التسلّط على ثروات البلاد والعباد، وأخذوا يستثنون أنفسهم من أيّ تطبيق أو قرار اشتراكي، وتُمْسِي القرارات الاشتراكية قرارات سَلْبٍ ونَهْبٍ، لملء صناديق القادة الاشتراكين، وأخذوا يتستَّرون بالمعاذير الباطلات، ويخفون عن أعين الجماهير إقطاعياتهم التي يُقْطِعونها أنفسهم وأهليهم وذويهم وبعضَ أنصارهم.

وهكذا يفعل الشيوعيون، والرأسماليون المخادعون، وكلُّ الذين ينادون بمبادىء إنسانيّة ترضاها الجماهير العريضة، وتُحَسِّنُ الظنَّ بدُعَاتها، فتندفع مع شعاراتهم الكواذب رجاء أن يحقّقوا لهم غايات إنسانيّة نبيلة.

وهنا نلاحظ أن التعليم الربّاني تضمنّن في فقراته، مَا يَحْمِي به الدّعوة الإسلاميّة، من أن ينحرف فيها الدُّعاة عن منهج الله، فيضَعُوا لأنفسهم

استثناءات تُعْفيهم من أن يُطَبّقُوا على أنفسهم وذويهم شرائع الإسلام وأحكامه، كما تُطَبّقُ على سائر المسلمين.

فكان على الداعي إلى سبيل الله بمقتضىٰ هذه الحماية، أن يُعْلِنَ منذ قيامه بوظيفة الدعوة إلى الله أنّه واحد من المسلمين، ويلازمه هذا الإعلان طَوال حياته، فليس له استثناءات خاصة به أَوْ بِذَويه، وما يُطبَّق على غيره من المسلمين في التكليفات وفي العقوبات، يُطَبَّقُ عليه وعلى أهله وذوي قرابته، وأصحابه وأنصاره، بل رُبما تكون التكليفات التي تجب عليه أشدّ، نظراً إلى أنه مأمور بأن يكون قُدْوةً حسنة في أعماله الصالحة، بخلاف آحاد الناس الآخرين الّذين ربّما خلطوا عملاً صالحاً وآخَرَ سيّئاً، وربّما كانوا مسرفين على أنفسهم بكثرة معاصيهم ومخالفاتهم وارتكابهم كبائر الإثم.

تربية الداعي إلى الله تجاه ما يواجهه من أَذىً وضُرّ:

● إنّ الداعي إلى سبيل ربّه قد يوجِّه له المدعُوُّونَ أو بعضهم ما يَسُوؤُهُ من أذىً وضُرٍّ وشتائم، وأنواع سباب، واتهامات بالباطل، أو بالمصالح الخاصة، كما سبق بيانُه في شرح النص الذي من أواخر سورة (الأعراف).

فما هو الموقف الإسلاميُّ المطلوبُ منه في هذِهِ الحالة؟.

لقد جاء هنا في التعليم إرشاد الداعي إلى سبيل ربّه أن يدفع بالتي هي أحسن، أي: أن يدفع بالخصلة والمعاملة والمقابلة والطريقة والمقالة التي هي أحسن مما واجهه به المدعوون مؤْذِين ومُتَّهِمين.

فإذا واجهوه بالشتائم والمؤذيات والاتهام بالباطل، أعرض عن مقابلتهم بالمثل، فهذا الإعراض أحسنُ خصلةً ومعاملةً ومقابلةً وطريقةً ممّا واجهوه به.

وإذا واجهوه بالمجادلة بالباطل، أخذ بأيديهم إلَىٰ منطق الحجّة والبرهان فجادلهم بالحقّ والرفق.

وإذا واجهوه بعُنْفِ القول والغِلظَة والفَظَاظة، تلطّف بهم، فدَفع بالرفق واللّين وجميل القول وحُسْنِ التكريم.

وإذا رَاوغُوا وانطلقُوا إلى الفروع كلّما عجزوا عن دحض الأصول الفكرية الصحيحة الَّتي يدعوهم إليها، بغية الشغب والتشويش، وتحويل وجهة النظر إلى أمورٍ فرعية قد يَشْتَبه فيها وجه الحق بسبب ابتعادها عن أصولها، كان على الداعي أن يرجع بهم إلى مُنَاقشة الأصول، والاستدلال عليها بالأدلة البرهانيّة، والحجج الصحيحة المقنعة، متذرعاً بالرفق والحكمة الرفيعة.

وإذا شتموه بالضلالة اقتصر على أن يقول لهم: ليس بـي ضلالة، ولكني أدعوكم إلى سبيل ربكم، حرصاً على نجاتكم من عذابه، وظفركم بجنّته، أسوة بما ردّ به نوحٌ عليه السلام على قومه الذين اتّهموه بالضلالة، كما جاء في الآية (٦١) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

وإذا اتّهموه بالسفاهة، أي: بنقصان العقل، اقتصر على أن يقول لهم: ليس بـي سفاهة، ولكنّي أدعوكم إلى سبيل ربكم، حرصاً على نجاتكم من عذابه، وظفركم بجنته، أسوةً بما رَدَّ به هُودُ عليه السلام على قومه الّذين اتهموه فقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧﴾.

وإذا اتّهموه بالكذب اقتصر على أن يقول لهم: إنّني لاَ أكْذِب، ولكّني أبلّغكُم دين ربكم الذي أنزله على رسوله.

دلّ على سياسة الدفعِ بالَّتي هي أحْسَنُ قول الله عزّ وجل في التعليم: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾.

أي: ولا تستوي مفردات جنْسِ الحسنة، لأن هذه المفردات ذواتُ

نِسَبٍ في الْحُسْنِ ودرجات متفاوتات متفاضلات، فمنها ما هو ذو دَرَجَةٍ دُنيا في الْحُسْنِ، ومِنْها ما هو ذو دَرَجةٍ عُلْيَا في الْحُسْن، وبينهما درجاتٌ في الحسن لا تكاد تحصَىٰ، وكلّ ذي حُسْنٍ يحتَلُّ دَرَجَةً من هذه الدرجات، كَنِسَبِ الأنوار شدّةً وَضَعْفاً.

ولا تستوي أيضاً مفردات جنس السيئة، لأنّ هذه المفردات ذوات نسبٍ في القبح، ودركات متفاوتاتٍ متنازلات، فمنها ما هو ذو دركة أُولى في القبح، ومنها ما هو ذو دركة سحيقَةٍ سُفْلَىٰ في القبح، وبينهما دركاتٌ في القبح لا تكاد تُحْصى، وكلّ ذي قُبْحٍ يحتلّ دركةً مِنْها، كَنِسَبِ الظلمات شدّةً وضَعْفاً.

ويُلاحظُ أنّ الاقتران في البيان بين الآية الأولى والآية الثانية في هذا النصّ التعليمي يُشْعِرُ بأنّ الّذين يرفضون دعوة الداعي إلى الله سيقابلون الداعي بالرفض، ثمّ بما يكرهُ في أحيانٍ كثيرة، وتختلف مواجهات المدعوّين الرافضين للاستجابة، فيوجد منها ما يسوءُ الداعي ويؤذيه، وهذه تتفاوت في دركات قبحها.

والمطلوبُ من الداعي في كلّ الأحوال مهما كان ما قُوبِل قبيحاً أو مؤذياً، أنْ يدفع ذلك الّذي كرهه من المدعُوّ، بالمقابلة التي هي أحسن.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

أي: فإذا جادَل المدعوّ الرافض لدعوة الحق بالباطل، دفع الداعي إلى الله بالمجادلة بالحقّ والرّفْقِ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وإذا قابل المدعوُّ بالسّباب والشتائم والاتهامات الباطلات، دفع الداعي إلى الله بالّتي هي أحْسَن، وقَدْ تعلّمنا آنفاً من رَدِّ نوح وهودٍ عليهما السلام أنّ الدفع لا يزيد على مجرّد النّفْي للشتيمة أو الاتهام بالباطل، مثل: ليْسَ بـي ما تقولون، فيكون هذا الرّدّ داخلاً في عموم الدفع بالّتي هي أحسن.

● بعد هذا التعليم الذي تضمّن السياسة الحكيمة في الدعوة أبان الله عزّ وجلّ حكمةَ هذه السياسة الرشيدة بقوله تعالى للداعي:

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: إنّ دفع المواجهاتِ السيّئة من ذي العداوة بالّتي هي أحْسَنُ تجعله يتراجَعُ عن مواقفه السيئة شيئاً فشيئاً، إذْ تَبْرُدُ حرارةُ هجومه، ولا يزال يتراجَعُ باتخاذ مواقف ليِّنَةٍ رَفيقة حسنة، حتّىٰ يغطِّيَ موقفه السّابقَ، الذي جعَلَهُ مُداناً بقبح التصرف، وبالعدوانية الّتي لا مُبَرِّر لها، ولا داعيَ لاتّخاذها.

ولا يزالُ يَتَراجَعُ حتَّىٰ يَتَظاهَرَ بالتودُّد، فيبْدُو كأنَّه وَلِيُّ حَمِيم، أي: كأنّه مناصرٌ ذُو ولاءٍ، وصديقٌ ذو وُدٍّ حقيقيّ.

ودَلَّ التشبيه بعبارة ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ على أنّه قد يتصنَّعُ هذه الظواهر الْوِدِّيّة مداهنةً ورِيَاءً ليُغَطِّيَ ما سبَقَ منه من مواجهةٍ سيئة.

غير أنَّه رُبما تَحوَّلَ بعد ذلك إلى ذي ولاء ووِدٍّ صادقين، كما حصل لكثير من الّذين كانوا أعداءً للرّسولِ ﷺ ولدعوته، إذْ تحوّلُوا إلى الملاينة والمداهنة أوّلاً، ثُمَّ تحوّلُوا بعد ذلك إلى أَتباع ذوي ولاءٍ صادقٍ، وحبٍّ شديدٍ له ولدعوته، ثم قدّموا حياتهم وأموالهم فداءً له وللدّين الذي جاءهم به، والسيرةُ النبويّة فيها أمثلة متعدّدة من هذا.

● ولمّا كانت مقابلة السيئة بالّتي هي أحسن من الأمور الصعبة على النفوس، التي تتطلّبُ من الداعي إلى سبيل ربّه صَبْراً عظيماً، وحظًّا وافراً من فضائل الأخلاق، قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: وما يُلَقَّىٰ هٰذِهِ الخصلة الحميدة، وهي الدفع بالّتي هي أحسنُ إلاّ الذين صَبَرُوا، أي: إلاّ الّذين صبَرُوا على الأذى، ولا يَصْبِرُ على الأذىٰ إلاّ

مَنْ تدرَّب عليه حتّىٰ صارت لديه قدرةٌ علىٰ الصبر، وصار الصبْرُ على الأذى في سبيل الدعوة إلى الله خُلُقاً مكتسباً له، إنْ لَمْ يكُنْ من أصْلِ فطرته وجبِلّته.

والذين صبروا يتحمّلون صدمة الأذىٰ، ويمتصّونها من الذين يحرصون بدعوتهم لهم على نجاتهم من عذاب الله، ويحرصون على أن يفوزوا معهم بجنّات النعيم فوزاً عظيماً، ويزيدون على فضيلة الصّبر فيدفعون بالتي هي أحْسَنُ السّيئة الّتي تلقّوْها.

وما يُلَقّىٰ هذه الخصلةَ الحميدة الجليلة إلاّ ذو حظٍّ عظيم من فضائل الأخلاق، ومحاسن الشّيم، والبصيرة الربّانيّة الوضيئة، وذو حظٍّ عظيم من الأجر عند ربّه.

يقال لغة: لَقّىٰ فلانٌ فلاناً الشّيءَ، إذا جعله يلقاه ويأخُذُهُ منه، فالآخِذُ للشّيءِ يُلَقَّاهُ ممّن لقَّاهُ إيّاه.

ولمّا كانت هذه الخصلة العظيمة إنّما يمنَحُها اللّهُ لمَنْ آمَنَ وصبَرَ ودَرَّب نفسه على فضائل الأخلاق، كانَتْ فضيلةً يُلقَّاها من عطاءات اللّهِ له، فهو يتَلَقَّاهَا، ويتخلّقُ بها، ويتصرّف في دعوته إلى سبيل ربّه بمقتضاها.

وهذا سِرُّ التعبير بقوله تَعالَىٰ: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ بالبناء لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، أيْ: وما يُعطاها عطاءً رَبَّانيًا فهو يتلقَّاهَا من عطاءات ربّه إلاَّ الذي صبَر، وما يُعْطَاها إلاّ ذو حظٍّ عظيم من الفضائل الخلقية، ومن الأجر العظيم عند ربّه.

● وأخيراً أعطى الله عزّ وجلّ الدّاعِيَ الدواءَ الذي يُعالج به نزغ الشيطان الذي يدفعه إلى مقابلة السيئةِ بمثلها أو بأشدّ منها، فقال تعالى:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

هذا الدواء هو الدواء نفسه الذي جاء في النّص الذي سبق تحليله وتدبُّره من سورة (الأعراف) إلاّ أنّ النّصّ هنا الذي هو من سورة (فُصِّلَت) قد

زاد التأكيدَ وإفادةَ الحصر بتعريف طرفي الإسناد وبضمير الفصل على أنّ الله عزّ وجلّ هو وحْدَهُ السّمِيعُ لكلّ صوت والعليم بكلّ شيء، وقد سبق بيان الفرق بين صيغَتي: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ و ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في تدبر نصّ (الأعراف).

* * *

التعليم الثالث عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول).

وقد تضمّن هذا التعليم وصيتين:

١ ـ أن يَذَر الداعي إلى اللّهِ المعاندين المكابرين في خوضهم ولَعِبهم، حتَّىٰ يُلاقوا عقابهم الّذي أُنذروا به، في اليوم الّذي قضىٰ الله أن يُنْهِي فيه إمْهالهم، ويُنْزِل فيه نقمته عليهم.

٢ ـ أَنْ يَصْفح الداعي إلى الله عن إيذاءاتهم له، مُعْرِضاً عن معاقبتهم عليها، ومقابلتهم بمثلها، وأنْ يقول لهم: سلام. أي: أعطيكم منّي السّلام، ولا أقيم بيني وبينكم الآن صراعاً مادّيًا، لأنّ الله لم يأذن لي بذلك.

وهذا الصَّفْحُ سياسةٌ مَرْحَلِيّةٌ يلتزم بها الداعي إلى الله، ما دام التحرُّكُ الإسلامي يسير في طريق جهاد الدّعوة فقط.

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة:

لم يزل الأئمة المعاندون من مشركي مكّة إبّان نزول سورة (الزخرف) يزعمون في دعاياتهم الإعلاميّة أنّ الحق الذي جاء به محمد ﷺ من ربّه سِحْرٌ، ويُعْلِنُونَ أنّهم يكفُرُونَ بأنَّه حقٌّ من عِنْدِ رَبّهم.

ورأوا أَنَّ محمّداً ليس من رجالهم العظماء حتّىٰ يكون مؤهّلاً لأن يُنَزَّلَ عَلَيْهِ من عنْدِ الله كتابٌ يُبَلِّغُه للناس، ولَيْسَ مُؤَهّلاً ليكون نبيًّا رسولاً، بحسب مفهوماتِهم الطبقيّة.

وقالوا: لو كان ما يتلوه مُحمَّد كتاباً مُنَزَّلاً من عند الله، لكان ينبغي أنْ يُنزَّل على رَجُلٍ عظيم من عظماء مكة أو من عظماء الطائف.

والعظيم في تصوّراتهم الطبقيّة هو ذو المال الوفير، والجاه العريض، والمكانة الرّفيعة بين قومه.

دلّ على هذا الطَّوْر من أطوار مواقفهم من الرسول ﷺ ودعوته قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

ولعلّ بعض المؤمنين من أتباع الرسول ﷺ قد حدَّثتْهُمْ أنفسهم بأنّ من الخير أن يُوسِّعَ اللَّهُ على رسوله، فيغْدِقَ عليه المال الوفير، حتّىٰ يكون عظيماً في قومه، وبذلك تَسْكُتُ ألسنة المعترضين على الرسول بأنه غير عظيم في مفهوماتهم الجاهليّة للعظماء.

فاقتضىٰ هذا الحال أَنْ يُبَيِّنَ الله عزّ وجلّ حكْمَتَهُ في قسمة الأرزاق، فجاء في السورة قوله تعالى:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ولعل بعض المؤمنين استبطأ تحقيق وعد الله لرسوله بالنّصر، فكان من الحكمة الإجابةُ على هذا بقول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة:

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم

﴿ مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ ﴾.

ووصل حال المعاندين من أئمة المشركين إلى أن يُعلنوا سُخرِيتهم وضحكهم من عجز الرسول والذين آمنوا معه عن الدّفاع عن أنفسهم، تجاه ما يَلْقَوْن من اضطهاد المشركين لهم.

نفهم هذا من عرض قِصَّةِ فرعون وملئه، وكيف كانوا يضحكون ساخرين من الآيات الّتي كان موسَىٰ عليه السلام يأتيهم بها، متفاخِرين بما يملكون من سلطانٍ في مصر، وثراء سلطانيّ وأسْوِرة من ذهب، وجُنْدٍ قادرين على اضطهاد خصومهم.

فاقتضىٰ هذا الحال أنْ يوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله ولكل داع إلى الله من أمته وصيتين:

الوصية الأولى: أنْ يَذَرَ معاندي أئمة المشركين يخوضونَ في شرورهم ومعاصيهم ووثنياتهم، ويَلْعَبُون كما يَهْوَوْن فيما يشتهون من متاع الحياة الدنيا، حتَّىٰ يَنْتَهِيَ وقتُ إمهالهم، ويلاقُوا يَوْمَهُمُ الّذي يوعَدُون أن يحلّ بهم فيه عقاب الله جلّ وعلا.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله فكلِّ داعٍ إلى الله من أمته في أواخر السورة:

﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

يَخُوضُوا: أصْلُ الْخَوْض المشْيُ في الماء وتحريكه، وبهذا يختلط بالماء ما هو في قاعِه من تراب وطين وغير ذلك من رُسوبات تعكّرُ الماء وتُفْسِدهُ.

ثمّ استعمل في التلبُّسِ بالأمر والتصرف فيه على غير هُدىً، وبما فيه إفساد وتعكيرُ صفاء.

والْخَوْضُ: الكلام المشتمل على الكذب والباطل.

أي: دعْهُمْ فيما هم فيه من أعمال فاسدات، وشِرْكيّات قبيحات، واستمساك بمعتقدات باطلات، ولا تحْمِل هَمَّ ما هُمْ فيه من خوضٍ بالباطِل وجدليّاتٍ زخرفيات مُضَلِّلَات، ولا تَحْمِل هَمَّ ما هم فيه من لَعِبٍ يُحققون به مطالب أهوائهم وشهواتهم، ممّا يحبُّونَ أَنْ يقضُوا حياتهم فيه مستمتعين بمتاعٍ سريع الزوال.

فإمهالُهُمْ فيما هم فيه له أَمَدٌ معلومٌ عند ربّك، ومتى انتهىٰ أَمَدُ إمهالهم فإنّهم سَيُلاقونَ حتماً يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَهُ في البيانات المتتابعات من القرآن.

الوصية الثانية: أن يصْفَح عمّا يُلاقي من أذىً يأتيه من قبلهم، وأنْ يقول لهم: سلامٌ.

ودلّ هذا التوجيه المرحليُّ الذي لم تُحَدَّدْ له في النصّ غاية، مع ما نزل في المرحلة المدنية من إذن بمقاتلة المشركين، ثم تحريض على مقاتلتهم، على أنّ هذا التوجيه له صفة التعليمات المرحلية.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في آخر السورة:

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾.

أي: فأعرض عنهم موقتاً، وقل لهم: بيني وبينكم اليوم سلام فأنا لا أقاوم ولا أقاتل.

لكنَّ الله أنذرهم بأسلوب تطمين رسوله في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾.

* * *

التعليم الرابع عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول).

وقد تضمّن هذا التعليم وصيتين موجهتين للداعي إلى الله، وهما:

١ ـ أن يتولّى الداعي إلى الله عن تذكير مُعَاندي أئمة المشركين الذين وصلوا إلى دركة ميئوسٍ منها، فيديرَ إليهم ظهره، ليوجّه اهتمامه ونشاطاته لآخرين لم ييأسْ بعْدُ من استجابتهم.

٢ ـ أنْ يُتابعَ تذكِيرَ الّذين ما زال الطمعُ باسْتِجابتهم لدعوة الحقّ وإيمانِهم وإسلامِهم مَوْجُوداً، لم تَرْشَحْ منه قَطَرَاتُه الأخيرات.

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة:

استمر موقف معاندي أئمة المشركين إبّان نزول سورة (الذّاريات) في الثلث الأخير من العهد المكيّ على توجيه الاتهام للرسول ﷺ بأنّه ساحرٌ أَوْ مجنون.

دلّ على هذا الموقف العناديّ لفريق من أئمة المشركين، الذي كشف بجلاء أنهم وصلوا إلى حالة ميئوس منها تماماً، قول الله عزّ وجلّ في أواخِرِ السورة:

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ أي: أتواصَوْا بهذا القول الذي قالَهُ كُفّار القُرُون الأولى الّذين أُهْلِكُوا، وقالَهُ المعاندون المصرّون على كُفْرِهِمْ وعنادهم من أئمة مُشْرِكي مكّة، الذين كفَرُوا بالرسول محمد ﷺ، وبالقرآن الذي أُنْزِلَ عليه.

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أي: بل هم جميعاً الأقدمون والمعاصرون لنزول القرآن طاغون، وبسبب ما في نفوسهم من طغيان كَانَ لا بُدَّ أن يتفقوا على مقالة متماثلة، فهي إحدى المظاهر التلقائية الطبيعيّة للطغيان.

وذلك لأنّ الطغيان في النفوس، مع عدم وجود دليلٍ تقبلُه العقول، لرفض دعوة الحق الذي يدعو إليه الرّسُول، يدفع صاحبه إلى اللّجوء إلى ذريعة اتّهام الرسول بأنّه ساحِرٌ أو مجنون، لِصَدِّ من يتَأَثَّر بدَعْوَته عن الإيمان به واتّباعه.

الطغيان: تجاوز الحدّ الطبيعي المقبول، إلى مواقع الضّرر والإفساد، والظلم والجور والبغي والعدوان.

واقتضت الحكمة التربويّة الرّبانيّة تجاه هذا الموقف العنادي الذي أصَرَّ عليه فريق من أئمة مشركي مكّة أَنْ يوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله وصيتين:

الوصية الأولى: أَنْ يَتَوَلَّىٰ عن هؤلاء الأئمة المعاندين، فَيُدِيرَ إليهم ظَهْرَه، في مجال الدعوة، ليوجّه اهتمامه لآخرين لم يَبْلُغُوا إلى الحضيض الميئوس منه، وآخرين ما زالوا في أَوَّلِ مراحل تلَقّي دعوة الرسول أو أوسطها.

فإذا تولّى عن دعوة هؤلاء الأئمة المعاندين مع مراقبة أعمالهم الكيديّة فإنّه غير ملوم عند ربّه.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله فلكلّ داعٍ إلى الله من أمّته عقب البيان السابق:

﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فعل «تولّى»: يأتي بمعنى أدْبر، ويأتي بمعنىٰ نأىٰ.

والمعنى: فانْصَرِفْ عن دعوتهم، ودَعْهُم لكفرهم، فإذا تولَّيْتَ عنهم فما أنت بمَلُوم، لأنَّكَ قد استنفَدْتَ كلّ قطراتِ الرّجاء والطمع باستجابتهم، وقدَّمْتَ لهم كلَّ وُجوه الدّعوة الرشيدة الّتي يتأثَّرُ بها من لَدَيْهِ ذرَّةٌ من خَيْر.

الوصية الثانية: أن يُتَابِعَ الداعي إلى الله تذكير آخرين لم تَصِلُ حالتهم إلى حضيض اليأس من استجابتهم.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ عقب الوصية السابقة:

﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

أي: وذكّر آخرين لم تُؤَكّدِ التجربةُ الطويلة أنّهم قد بلغوا إلىٰ حالةِ ميئوسٍ منها.

﴿ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ **الذِّكْرَىٰ**: اسْمٌ للتذكير، أي: فإنّ التذكير يَنْفَع مَنْ لديهم الاستعداد للإيمان مستقبلاً.

لفظ «المؤمنين» جمعٌ للمؤمِنْ، وهو اسْمُ فاعل يقع هنا على الاستقبال، أي: من سيكون من المؤمنين بسبب ما لديه من استعدادٍ لأن يؤمن بالحقّ، ويقع على الحال، أي: من هو من الذين لديهم إيمانٌ ما بالله ويخشى عقابه.

* * *

التعليم الخامس عشر

جاء هذا التعليم في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

وقد تضمّن هذا التعليم وصيتين موجهتين للرسول ﷺ فلكل حملة رسالته من أمته:

١ ـ أن يدفع السيئة التي يُواجَهُ بها في مجال دعوته بالّتي هي أحسن.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية التي جاءت في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) مع إضافة قيد «السيئة» بالنسبة إلى المدفوع.

٢ ـ أن يستعيذ بربّه من همزات الشياطين، وأن يستعيذ به من أن يحضروا عنده، فيقول:

﴿ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً أيضاً للوصية التي جاءت في سورة (فُصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) وللوصية التي جاءت في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

مع فروق في دلالات النصوص الثلاثة، وإضافة عبارة مختارة للاستعاذة في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

جاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) تعليمٌ من الله عزّ وجل لرسوله فلكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمته مناظرةً جَدَليّةً، يتوسَّلُ بها إلى إقناع المشركين الذين ينكرون البعث للحساب والجزاء يوم الدين.

وبعد هذا التعليم أشعر الله رسوله باقتراب تحقيق الوَعْدِ الذي وعده المشركين، المتضمّنَ نصْرَهُ لرسوله والذين آمنوا معه وهزيمة عدوّهم، وهو الّذي سبقَ أن أنزله الله تبارك وتعالى في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بقوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

وهذا الإشعار باقتراب تحقيق الوعد الربّاني قد جاء بأسلوب تعليم الله رسوله دُعاء يَدْعُو به رَبَّه، فقال الله عزّ وجل في سورة (المؤمنون):

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

أي: رَبِّ إنْ تُكْرِمْني فتجعَلْني أرىٰ ما أكَّدْت لي أن تُريني إيّاه من إنْزال نقمتِك بمَنْ عاداني واضطهد الذين آمَنُوا بـي، وهم مشركو مكة، فأخرجني قبل ذلك من بين مجتمهم، فلا تُنْزِل عقابَكَ عليهم وأنا موجودٌ فيهم.

ونلاحظ في هذا الدعاء الذي علّم الله رسوله أن يقوله إلماحاً إلى أنّ الله عزّ وجلّ سيأذن له بالهجرة من مكّة، حتّى يكون منفصلاً عنهم، غير موجودٍ فيهم.

وبعد هذا بشّره الله إلماحاً بأنَّ وعْدَه لهم سيراه صلوات الله عليه، فقال تعالى له: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: اطمئن، فسترى هزيمتهم وخزْيهم، بنصرك ونصر الذين آمنوا معك عليهم.

وبعد هذا قال تعالى له:

﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ۝٩٨ ﴾.

إنّ المناظرة الجدليّة المفحِمَةَ ذات الحجج البرهانية الّتي تضمّنها التعليم في هذه السورة، من شأنها أن تجعل المعاندين المصرّين على باطلهم في الشرك وإنكار البعث بعد الموت للحساب والجزاء، يَلْجؤون إلى وسائل لا تمتُّ إلَىٰ منطق العقل والحجج الّتي تُقْبَل في مقاييسه بِصِلة، وهذه لا تكون إلاّ من حَضِيض قاذورات السباب والشتائم المماثلة لعُوَاء الكلاب ونباحها، والدّالة على السفاهة الّتي لها ظواهر تكشف نقصان العقل وانعدام الرأي السديد، والفكر الصحيح. أو من حضيض الهزء والْغَمْزِ واللَّمْزِ والضّحِكِ الساخر، مع استكبارٍ وتعالٍ متصَنَّعٍ لتغطية الهزيمة في مجال العلم والفكر السليم، ومع تَسْلِيطِ للغوغائيّين من أتباعهم. أو تسلُّط بالقوّة المادّيّةَ المتفوّقة، والاضطهاد بها.

فجاء في التعليم الرّباني للرسول ﷺ، التوجيهُ لدفع السيئة بالّتي هي أحسن، وهو تعليمٌ عامٌّ وتوجيه لكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه، في كلّ الأحداث المماثلة، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ ﴾.

فأضاف في هذا النصّ على العبارة التي جاءت في التعليم السابق الذي أنزله الله في سورة (فُصّلت) كلمة: ﴿ ٱلسَّيِّئَةَۚ ﴾.

إنّ العبارة التي جاءت في سورة (فُصّلت) هي: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾.

أما العبارة التي أنزلت بعدها بمدّة في سورة (المؤمنون) فهي: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ ﴾.

فاشتملت هذه على التصريح بالمراد المطلوب دفْعُه بالّتي هي أَحْسَنُ، ليُعَلِّمَنَا الله عزّ وجلّ أنَّ ما يُعْلَمُ باللُّزُم الذهْنِيِّ يَصِحُّ أَنْ يُسْتَغْنَىٰ عن التصريح به

في العبارة، ولا سيما في الكلام الرّفيع الوجيز، فالدّفْعُ الذي دلَّتْ عليه جملةُ: ﴿ٱدۡفَعۡ﴾ إنَّما يكُونُ دفْعاً للسيئة باللُّزوم الفكري، والسَّبَبُ في هذا أنَّ الحسنة لا تُدْفَعُ، بَلْ تُسْتَقْبَل بمَسَرَّةٍ وَتُؤْخَذُ، فالدّفْعُ تنحيةٌ وإزالَةٌ بقُوَّةٍ.

● قول الله عزّ وجل: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

أي: نحن أعْلَمُ بما يصفونك به في شتائمهم واتّهاماتهم الباطلات، وفي هذا يُطَمْئِنِ الله عزّ وجلّ رسوله وكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من بعده، إلى أنّه تعالى أعلم منهم بما يصفهم به المدعوّون المعاندون المصرّون على باطلهم، من اتّهاماتٍ يتهمونهم بها، وشتائم يشتمونهم بها، ويلزم ذهناً من علْمِه تعالى بذلك أن يُدبّر بحكمته ما يَلْزَمُ لنصرة أوليائه على أعدائه، وإنْ أمهل الكافرين المعاندين وأملى لهم، فإنّ كَيْدَهُ سبحانه متين، كما دلّتْ على هذا نصوصٌ أخرى، فالبيانات الرّبّانيّة في كتابه متكاملة الدلالات.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ۝٩٨﴾.

في هذا تعليم ربّانيٌ للصيغة المناسبة الّتي ينبغي أنْ يدعو بها المستعيذ بربّه.

إنّ ما جاء في التعليم الذي أنزله الله في سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) قد وجّه للاستعاذة بالله، فقال تعالىٰ:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾.

ثمّ جاء في التعليم الذي أنزله الله في سورة (فصلت/ ٦١ نزول) تأكيد لهذا التوجيه، مع بيان أنّ الله عزّ وجلّ هو وحده السميع العليم، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٦﴾.

ثُمَّ جَاءَ في التعليم الّذِي أنزله الله في سورة (المؤمنون/ ٧٤ نزول) عدم

التصريح بنزع الشيطان لسابق العلم به، والاقتصار علىٰ بيان الصيغة المناسبة الّتي ينبغي أن يدعو بها المستعيذ بربّه، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

سبق بيان معنى الاستعاذة في التعليم الأول.

همذاتُ الشياطين: الهمزُ في اللّغة مثل الْغَمْز والضغط والْعَصْر والنَّخْس باليد أو بأداة ما. ويقال: همَزَ الشيطانُ الإنسانَ همزاً. إذا همَسَ في قَلْبه وسواساً. وهمزاتُ الشيطان خطراته التي يُخْطِرُها بقلب الإنسان.

فالهمزُ في هذا النصّ كالنزغ الذي جاء ذكره في النّصيْنِ الآخرين.

فعلى الداعي متى شعر في باطنه بأيّ ضغطٍ من نزغ أو غَمْزٍ أو هَمْزٍ يدعو إلى مخالفة التعليم الرّبّانيّ الّذي وجّه للدفع بالّتي هي أحْسَنُ، فعلَيْه أنْ يستعيذ بالله قائلاً: رَبّ أعوذُ بك مِنْ همزات الشياطين، وأعوذُ بك رَبّ أنْ يحضُرُونِ، وأن يكون هذا الدعاء بحضور قلبٍ وهمّة نفسيّة صادقة.

أن يَحْضُرُونِ: أي: أنْ يحضُرُوني، وأَنْ يكونوا معي. لأنّ وجودهم يصاحِبُه الهمز والنزغ والوسواس، والله عزّ وجلّ يُعيذُه، فيَصْرِفُ عنه همزاتهم، ويصرفهم عنه كُلّيًا بابْعَادهم عن نفسه ومشاعره الداخليّة.

* * *

التعليـم السادس عشر

جاء هذا التعليم في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) وقد تضمَّن هذا التعليم وصيّتين:

١ ـ أن يعرض حامل الرسالة في دعوته عن مواجهة من بلغ إلى أقصىٰ درجات الإعراض عن بيانات الدعوة التي وُجّهَتْ له، لكنّه لم يتولَّ، ولم يَصِلْ إلى حالة ميئوس منها.

الإعراض: هو إعطاءُ العارض، وهو وسَطٌ بين المواجهة والإدبار، وللإعراض درجاتٌ دنيا وقُصْوَىٰ وما بينهما.

ولا يُفْهَمُ من الإعراض عدَمُ إسْمَاع المدعُوّ ما يرادُ تذكيره به، إذْ يُمْكِنُ إسماعُهُ دون مواجهته ومقابلته.

٢ ـ أنْ يكون الداعي إلى الله في حالة إعراضه عن المدعوّ منتظراً مُتَرَقّباً، فإذا شعر بحسِّهِ المرهَفِ أنّه قد بدأ يَلِين ويُخَفِّفَ من شدّة إعراضه، انعطف نحوه بشيء من التوجُّه، ليساعده على نفسه رجاء أن يلين ويستجيب بدعوة الحقّ.

وهذه سياسة حكيمة في مجال الدعوة إلى الله.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

مع وجود أئمة كفر معاندين يَحْسُ بالداعي إلى الله أن يتولّى عنهم،

مُولّياً ظهره إليهم، وهو غير ملوم على تولّيه كما جاء في سورة (الذاريات) يوجَدُ فريق آخر ممّن لم يستجيبوا بَعْدُ إلى دعوة الحق على الرُّغم ممّا وُجِّه لهم خِلَال عدّة سنين، إلاّ أنّهم لم يَتَوَلَّوْا تولّياً كاملاً، ولم يَصِلوا بَعْدُ إلى حالةِ مَيْئوسٍ منها.

دلّ على وجود هذا الفريق قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ . . . ﴿٢٢﴾ ﴾.

أي: بُلِّغَ آيات ربِّهِ أوّلاً، وبُيِّنت له، وذُكِّرَ بها مَرّاتٍ متكرّرات، في أَزْمَانٍ متفاصلات، وأمْهِلَ رجاء أنْ يتأمّل ويُدْرِكَ الحقّ ويستجيب له، لكنه بعد الفاصل الزّمني الطويل ظلّ معرضاً ومبالغاً في إعراضه، وقد دلّ على التراخي الزمني مع لزومه حالة الإعراض استعمال حرف العطف «ثمّ» فاستعمال هذا الحرف يُشْعِر بأنَّ الرسول قد ذكّره مرّات متعدّدات في أزمانٍ متراخيات، وعلى الرغم من ذلك لازم حالة الإعراض عن آيات ربّه.

واقتضت الحكمة الرّبّانيّة بالنسبة إلى هذا الفريق التوصية بالاكتفاء بالإعراض عنه، مع إسماعه ما يُرادُ تذْكيرُهُ به دون مواجهة.

وقد دلّ على هذه الوصيّة قول الله عزّ وجلّ في الآية الأخيرة من السورة: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ . . . ﴿٣٠﴾ ﴾.

أي: فأعرض عن مواجهتهم مع إسماعهم تذكيرك بما سبَقَ أن بلغته لهم، وأعلمتهم به شرحاً وتفصيلاً ومجادلة بالتي هي أحسن.

واقتضت الحكمة الرّبانية التّوصية بانتظار الفرصة الملائمة لتذكيرهم بإقبال ومواجهة، وهذا الانتظار يستدعي مراقبةً متتابعة لأحوالهم، عسىٰ أَنْ تَدُلَّ الأمارات على أن إعراضهم قد بدأ يخف، وأنّ نفوسهم قد بدأت تلين.

دلّ على هذه التوصية تتمة الآية الأخيرة من السورة وهي قوله تعالى

فيها: ﴿ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

أي: وانتظر انتظار مُترقّبٍ تَبَدُّلَ أحْوالِهم إلى تخفُّفٍ ممَّا هم فيه من إعراض، ولِينٍ لمؤثراتِ الدّعْوة.

﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي: إنّهم في موقف المعرض المنتظر الذي يراقبُ مُقَدِّمَاتِ الفتح (أي: النّصر) الذي وعَدَكَ اللَّهُ به، فإذا شَعَرُوا بوقوع هذه المقدمات، أو بقُرْبِ وقُوعِها فإنّهم قد يتأثّرون، فيعدِّلُون موقفهم، وقد يُؤْمن منهم مؤمنون، وهذه فرصةٌ يَنْبَغي للداعي إلى الله أن يَهْتَبِلها.

وقد دَلّ على أَنَّهُمْ ينتَظِرُون مُقَدّمِات الفتح أو أماراته، ما جاء في الآيتين اللتيْنِ قبلَ الأخيرة من السورة، وهُمَا قَوْلُ الله عزّ وجل:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: يَوْمَ تحقُّق النَّصْرِ في المعركة وسقوط الكافر قتيلاً لا ينفعه إيمانه عند ربّه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

أمّا إذ وقع في الأسر فإنّه لا ينفعه إيمانه عندئذ في إعفائه من الفدية أو الاسترقاق، إذا قرّرت قيادة المسلمين ذلك ولم تَمُنَّ على الأسْرىٰ.

* * *

التعليم السابع عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

وقد تضمَّنَ هذا التعليم خمس وصايا للرسول ﷺ اشْتَملَتْ عليها السورة، وهذه الوصايا يستفيد منها الدّعاة إلى الله من أُمّته:

١ ـ لزوم متابعة تذكير من لم يصلوا إلى حالة ميئوسٍ معها من استجابتهم لدعوة الحقّ، مهما واجه من بعض قومه من اتّهامٍ له بالكهانة أو بالجنون أو بأنّه شاعر.

٢ ـ أن يواجه الرسول القائلين بشأنه ننتظره حتَّى يُدْركه الموت، وعندئذٍ نتلخّص منه، فيقول لهم وهو مطمئن القلب هادىء النفس تَرَبَّصُوا فإنّي مَعَكُمْ من المتربصين.

التَّرَبُّصُ: الانتظار.

٣ ـ أنْ يترُكَ من يُلاحظُ أَنَّهُمْ يُرِيدُون كَيْده، فلا يكْشِفَ لهم أنَّه قد أدْرك ما يريدون تَدْبيرَه من كيد ضدّه، واثقاً من أنَّ الله ناصرُهُ ومُنْزِلٌ بهم عقابه، إذا الْتَزَم بتعليمات الله له في أخذ حِذْرِه، وفي الاستعداد الكافي لإحباط كَيْدهم.

٤ ـ أن يَصْبِرَ لحُكْمِ رَبّه، مُحْضِراً في تصَوُّره دواماً أَنَّه مَحْفُوظٌ بحفظ الله، محاطٌ بأعْيُنِه جلّ جلاله، فلَنْ يَبْلُغُوا منه مرادَهم بمكايدهم التي يكيدونها.

٥ ـ أن يُسَبِّح بحمد ربّه في ثلاثة أوقاتٍ من كلِّ يومٍ من أيّام حياته:

- حين يقوم من نومه، أو من مجلسه.
- أثناء اللّيل.
- عند غروب النجوم من آخر اللّيل.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

استمرَّ حالُ معاندي أئمة المشركين، الذين هم في خوضٍ من الجرائم وكبائر الإثم وإطلاقِ الاتّهامات الإعلاميّة ضدّ الرسول وضدّ القرآن يَلْعَبُون، غير مبالين عقوبةً من الله تنزل عليهم، وأخذوا يَبُثّون بثًّا إعلاميًّا بين الناس ضدّ الرسول الأقوال التالية:

١ ـ كاهنٌ يتلَقَّىٰ عن قُرَنائه من الجنّ كما يتلقَّىٰ الكُهَّان.

٢ ـ مجنون يخالف ما عليه قومه وآباؤهم غير حاذرٍ من انتقام قومه منه.

٣ ـ شاعر يقول كلاماً شبيهاً بأقوال الشعراء، فنحن نتربَّصُ أن ينزل به الموت فنتخلص منه، ومما جاءنا به مخالفاً ملَّة قومه.

فاقتصت الحكمة الرّبانية التربويَّةُ أن يوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله وصيتين:

الوصية الأولى: تتضمَّنُ تثبيته على تذكير الّذين لم يَصلوا بَعْدُ إلى حالة ميئوسٍ منها.

الوصية الثانية: أن يُواجِهَ القائلين بشأنه: شاعرٌ ننتظر موته، فيقول لهم: «تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصينَ» أي: وأنا أنتظر أن ينزل اللَّهُ بكم عقابه عذاباً من لَدُنْه، أو هزيمة وخذلاناً.

دلّ على هذا الموقف الذي كان عليه معاندو أئمة المشركين، وعلى الوصيتين السابقتين الموجهتين للرّسول ﷺ، وينتفع بهما كُلُّ داعٍ إلى الله من أمّته، قول الله عزّ وجلّ في السورة لرسوله:

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ أي: ننتظر أن تَنْزِل به حوادث الدهر المميتة. يُطْلَقُ «الريبُ» في اللُّغَةِ على صروف الدهر وحوادثه. ويُطْلَقُ لفظ «الْمَنُون» على الدّهر، وعلى الموت. فريب المنون حوادث الدهر التي تأتي بالموت.

* * *

وكان لمعاندي أئمة المشركين في هذا الطور من أطوار تحركاتهم العدائية إرادةُ كَيْدٍ يُدَبّرونَه ضدَّ الرسول والذين آمنوا معه، نفهم هذا من قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: إنّ الله يَرُدُّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ فيجعلُهم هُمُ المكيدين.

وفي مقابل إرادة الكيد هذه الّتي كانت من معاندي أئمة المشركين، اقتضت الحكمة التربويّة الربّانيّة أن يوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله ثلاث وصايا:

الوصيّـة الأولى: أن يَذَرَهُمْ فلا يكشف لهم معرفته بأنّهم يريدون تدبير كيد ضدّه وضدّ الإسلام والمسلمين، وأنْ ينتظر حتى يُلاقوا يَوْمَهُم الذي فيه يُصْعَقُون.

دلَّ على هذه الوصيّة قول الله عزّ وجلّ في أواخر السورة:

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يصْعَقون: يَمُوتُون، يقال لغةً: صَعِقَ يَصْعَقُ صَعَقاً وَصَعْقاً إذا مات، فهو صَعِقٌ.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: إنّ لهم عذاباً في الحياة الدّنيا قبل عذاب الآخرة الذي يكون بعد موتهم، وقد نزل بالظالمين عَذَابُ القتل في غزوة بَدْرٍ وغيرها، ونزل ببعضهم عذابٌ بالأوجاع والأمراض وغير ذلك قبل موتَهم.

الوصيّة الثانية: أن يَصْبرَ عَلَىٰ ما لا يَسُرُّهُ من أحداثٍ استسلاماً لِحُكْمِ رَبّه، مُحْضِراً في تصَوُّره دواماً أنَّهُ محفوظٌ بحفظ الله، مُحَاطٌ بأعْيُنِهِ جَلَّ جَلَاله، فلَنْ يبلغ مدبّرو الكيد ضدّه مُرَادهم بمكايدهم الّتي يكيدونها.

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ في أواخر السورة:

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا . . .﴾.

الوصية الثالثة: أن يُسَبِّح بحمد ربّه في ثلاثة أوقاتٍ من كلّ يومٍ من أيّام حياته:

١ ـ حين يقوم من نومه، أو من مجلسٍ من مجالسه.

٢ ـ أثناء اللّيل (ومن الخير أن يكون التسبيح بحمد الله في صلاة).

٣ ـ عند إدْبار النجوم آخر اللّيل (ومن الخير أن يكون التسبيح بحمد الله في صلاة).

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في آخر السورة:

﴿. . . وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

إدْبَارُ النُّجوم: مغيبُها، يُقَال: أدْبَر إذا أدار وجهه وأعْطَىٰ دُبُره،

وانْصَرَف مبتعداً، وهذا بالنسبة إلى النجوم يكون بغيابها، وهو يكون عند آخر اللّيلِ، أو بَعْدَ طلوع الفجر.

وجعل سيدنا عليٌّ رضي الله عنه ركْعَتَي سُنَّة الفجر من التسبيح المطلوب عنْد إدْبار النجوم[١].

* * *

(١) ذكره أبو بكر السجستاني في تفسيره لغريب القرآن تعليقاً على الآية (٤٠) من سورة (ق).

التعليم الثامن عشر

جاء هذا التعليم في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول).

وقد تضمّن هذا التعليم وصيتين موجهتين من الله لرسوله ولكل داعٍ إلى الله من أمّته، وهاتان الوصيتان تؤكّدان بعض الوصايا التي سبق أن أوصىٰ الله بها، مع إضافات بيانيّة:

١ ـ أن يتحلّىٰ الداعي إلى الله بالصَّبْرِ الجميل على تكذيب المكذبين بيوم الدّين.

والصّبْرُ الجميل هو الذي تُصَاحِبُه بشَاشَةٌ في الْوَجْه، وتِلقائية في الأقوال والأعمال، دون قَلَق ولا اضطراب ولا امتعاضٍ ولا تذمّر، ولا ضيق في الصدر.

دلّ على هذه الوصيّة قول الله عزّ وجلّ لرسوله في أوائل السورة ضمن الحديث عن عذاب الكافرين يوم الدين:

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

٢ ـ أن يَذَرَ الكافرين المصرّين على عنادهم يخوضوا في جرائمهم وفسقهم وفجورهم وشركيّاتهم، ويلعبُوا كما يَهْوَوْنَ في الحياة الدنيا، حتّىٰ يُلاقُوا مَصِيرَهم الوخيم، في يومهم الذي يُوعَدُونَ، وهو يوم الدين، يوم الحساب وفصل القضاء والجزاء «وهذه سياسة مرحلية».

مع قيامه بواجب جهاد الدعوة والنصح والإرشاد بين من يطمع في استجابتهم أخذاً من نصوص أخرى.

دلّ على هذه الوصيّة قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله في أواخر السورة:

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ أي: يخرجون من القبور سراعاً إلى المحشر. **الجدثُ**: القَبْرُ، وجمعه أجداث.

﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: كأنهم يُسْرِعون إلى نُصُب..

النُّصُبُ، والنُّصْبُ: شيءٌ يُرْفع علامةً، والنُّصُبُ ما نُصِبَ وعُبِدَ من دون الله.

أي: يُشْبه حالُهم يوم الحشر حالهم في الدّنيا إذْ كانُوا يُسْرِعُونَ إلى تَعْظِيمِ أوثانِهِمْ وعبادتِها من دون الله.

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي: منكسرةً أبصارُهم يَنْظُرُونَ بأعْيُنِهِمْ إلىٰ الأرْض، وهذا من مشاعر ذلّتِهم.

﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي: تَغْشَاهُمْ وتُجلِّلُهُمْ ذلَّةٌ، لعلمهم بمصيرهم الذي هم إليه صائرون.

* * *

التعليم التاسع عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول).

وقد تضمّن هذا التعليم وصيّتين موجهتين للرسول ويستفيد منهما كلُّ داعٍ إلى الله من أمّته:

١ ـ أن يَصْبِرَ فلا يستعجل تحقيق وعد الله له بالنصر.

٢ ـ أن لا يستخفَّهُ الكافرون للقيام بأعمال تُوقِعُهُ أو توقع جماعة المسلمين في ورطاتٍ لا تُحْمَدُ عَواقِبُها.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

وعد الله عزّ وجلّ رسوله والذين آمنوا معه بأن يَنْصُرَهم وينتقم لهم من المجرمين الّذين اضطهدوهم.

دلّ على هذا الوعد ما تضمّنَهُ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم) خطاباً لرسوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وقد قضت حكمة الله بأن يُمْهِل معاندي كُفّار مكة، حتَّىٰ آخِر درجات الإمْهالِ، لقطع كلِّ عُذْرٍ يُمْكِنْ أن يعتذروا به.

غير أنّ هذا الإمهال الرّبانيّ قد يستغلّه بعض المجرمين لإطلاقِ أقوال،

والقيام بأعمال يَسْتَخِفُّون بها المؤمنين للقيام بما لا يعطي نتيجة حسنة، بل قَدْ يَجْلُب لهم ما يكرهون، كالتورّط بأعمال انْدِفاعيّة غَيْرِ رَشيدة، تكون سبباً في أن يُصابُوا بمصائب، أو هزائم وخسائر جَمَّة.

فاقتضىٰ هذا الأمر أن يوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله التوصية بالصَّبْر، وبأن لا يستخفَنّه الكافرون المجرمون الذين لا يُوقنون بوعد الله، وهذه التوصيَةُ موجْهةٌ لعموم المؤمنين، وخوطِبَ بها الرسول باعتباره قَائِدَهم الممثّل لهم، فقال الله عزّ وجلّ له في آخِرِ السّورة:

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي: ولا يَحْمِلَنَّك الكافرون على القيام بأعمالٍ طائشة تتورّط بها فيما لا تُحْمَدُ عقباه.

يقال لغة: اسْتَخَفَّهُ، إذا حَمَلَهُ على أمْرٍ لا يَحْسُنُ أن يقوم به. واستخفّه: إذا اسْتَجْهَلَهُ فاسْتَفَزَّهُ فحملَهُ على اتّباعه في غيه. واستخفّه: إذا وجَدَهُ خفيفاً يستجيب بسُرْعَةٍ لما يُطلبُ منه، أو يُوجَّه للقيام به، أو يُسْتَثار حتى يتورّطَ فيما لا تُحْمَدُ عقباه.

ومن الاستخفاف الإثارات الخادعات الّتي تجعل الإنسان الذي ليس لديه رَزَانَةٌ وَلاَ رَصَانَةٌ يَنْدَفِعُ مُتَوَرِّطاً للقيام بعملٍ يتَصَوَّرُ أنّه من الجهاد المحمود، بينما يَنْتَظِرُهُ في طَرِيقِ انْدِفاعه فَخٌّ يَكُونُ به هَلاكُه.

وقد أَتْقَنَ أعداء الإسلام حيلة الإثارة والكمين، فبالإثارة يَسْتَخِفُّون الأغرار والجهلة وأهل الطيش الذين ليس لديهم رزانَةٌ ولا رصانةٌ ولا خِبْرَةٌ بحيل أهل المكر، وبالكمين يُوقِعُون من استخفوهم في المصايد المهلكة، والورطات الشنيعات.

* * *

التعليـم العشـرون

جاء هذا التعليم في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) وهذا التعليم من التنزيل المدني.

وقد تضمّن هذا التعليم ثلاث وصايا موجهة للرسول ﷺ، ويستفيد منها كل حامل رسالته من أمته، وهي:

١ ـ على حامل الرسالة أن لا يطيع الكافرين والمنافقين.

٢ ـ ينبغي لحامل الرسالة أن يَدَعَ أذى خصوم رسالته وأعدائها فلا يشتغل بدفعه.

٣ ـ على حامل الرسالة أن يتوكّلَ على الله مع قيامه بالأسباب التي أمر الله بالقيام بها.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

قال الله عزّ وجلّ لرسوله فلكلِّ داعٍ إلى الله من أمته في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

ولا تُطعِ الكَافِرِينَ والمُنَافِقينَ: أي: ولا تُطعْ أيّ فريقٍ أو فردٍ من الكافرين والمنافقين، في أيّ مقترحٍ أو أيّ أمْرٍ من الأمور التي تتنافى مع

رسالتك، أو واجباتك تجاه دعوتك، أو تجاه ربّك، أو تجاه أيّ حكم من أحكام الدين، أو شريعة من شرائع الإسلام، أو تجاه أيّة قضيةٍ تُضِرُّ بمصلحة من مصالح المسلمين.

ودَعْ أَذَاهُمْ: أي: ولا تَشْتَغِلْ بمدافعة أذاهم، أو الانتقام مِنْهُم إذا آذوْك باتّهامات أو مطاعن، أو شتائم، أو طرح تشكيكات في غايتك من دعوتك، وشبهات حول تصرّفاتك التي أذن الله لك بها.

وذلك لأنّ الاشتغال بدفع الأذى أو بالانتقام يصرف جَهْدَ حامل الرسالة عن تأديته رسالته، وهذا يُحَقِّق للكافرين والمنافقين بعض ما يريدونه، من إيقاف الدعوة عن مسيرتها، وشغل حامل الرسالة بصراعات شخصيّة، وعندئذٍ تتحوّل الرسالة عن أهدافها وواجباتها، إلى نزاعات حول الأشخاص، ويضيع الْجَهْدُ المبْذُولُ سُدىً، وتظْهَرُ العصبيّات والأنانيّات.

لكنَّ رسُول الدّعوة، وأمّةَ الدعوة، وحملة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس همُّهم أشخاصهم، إنّما همُّهُمُ الأكبر مبادئهم، وتبليغ رسالة ربّهم، والرغبة في هِداية عباد الله إلى دين الله، ودعوة الناس إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وتوجيه المنحرفين إلى التزام صراط الله المستقيم، فجاء في البيان التعليميّ قول الله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أيْ: ودع التفكير في أذاهم الموجّهِ لك وللمسلمين، ودع الاشتغال بدفعه، ودع تدبير الأمور الرامية إلى الانتقام منهم على أذاهم، وتَجمَّلْ بالصَّبْر والصّفْح.

ومن الملاحظ أنّ التعبير بعبارة ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ عن هذه المعاني الّتي فهمناها منه، فيها من الإيجاز والتعميم لكلّ الصور ما لا يُوجَد بأسلوب بيانيٍّ آخر.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: أي: وتَوكَّلْ على الله في التزامك هذه

التَّعليمات، ولا تَخْشَ أن يتّخذوا من إعراضِكَ عن مقابلة أذاهم بأذىً مثله أن يُصَعِّدوا من العدوان علَيْكَ وعلى المسلمين، تَصَوُّراً منهم أنّكَ إنَّما أعْرضتَ عن مقابلة أذاهم بأذىً مثله لأنّك ضعيفٌ أنت ومن معك من المؤمنين، فإنَّ الله سيَتَولّى رَدّ كيدهم والدّفاع عنك وهم لا يشعرون، ويحقِّقُ لك وللمؤمنين مَعَك النتائج التي تحبُّونها، وهو أعظم بكثير ممّا تتصوّرون أن تحقّقُوهُ لو اشتغلتم بمدافعة الأذى، أو الانتقام من الذين يُوَجّهونه ضدّكم، وانصرفتم عن القيام بوظائف رسالتكم.

وهذا التعليم موجّه لكلّ حملة رسالة الرسول في الدعوة، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* * *

التعليم الحادي والعشرون

جاء هذا التعليم في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول).

وهذا التعليم من التنزيل المدني.

وقد تضمن هذا التعليم ثلاث وصايا موجهة للرسول ﷺ، ويستفيد منها كُلّ داعٍ إلى الله من أُمّته، وجميع المؤمنين:

١ ـ استخدام أسلوب المجادلة بالّتي هي أحسن، حول أسس العقيدة الإيمانية، مع الاستفادة من صورة تعليميّة لطريقة من طرائق مجادلة المشركين الّذين يجعلون مع الله إلّهاً آخر، كافرين بصفة الله الرحمن.

٢ ـ الكفّ عن التطلّع لطلب المعجزات الماديّة، والخوارق في تعجيل عقاب أئمة الكفر المعاندين المعلِنِينَ عداءهم ومقاومتهم للرسول والذين آمنوا، فللّه حِكَمٌ جليلة في إمهاله وفي آجاله الّتي يُحَدِّدها لتصاريفه، وما على الداعي إلى الله إلاّ البلاغ، والله هو الذي عليه الحساب، فلا ينبغي للعباد أن يتدخَّلُوا فيما هو من خصائص الله عزّ وجلّ.

ومضمون هذه الوصيّة ينبغي أن يلتزم به كلّ المسلمين إلى أن تقوم الساعة.

٣ ـ التحذير من اتِّباع أهواء أهل الكتاب في مطالبهم واستدراجاتهم

إلى ترك شيء من دين الله وأحكام شريعته لعباده.

ومضمون هذه الوصية ينبغي أن يلتزم به كلّ المسلمين إلى أن تقوم الساعة.

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة:

جاء في سورة (الرعد) النازلة في أواسط المرحلة المدنية من تاريخ دعوة الرسول ﷺ مُعَالجتان:

المعالجة الأولى: تتعلّق بالمشركين الذين ما زالوا يجادلون في قضايا شركيّاتهم.

المعالجة الثانية: تتعلّق بأهل الكتاب اليهود والنصارى، إلاّ أنّ اليهود كان لهم النصيب الأكبر من المعالجة، لأنّهم مثيرو الشبهات والجدليات في المدينة إبّان نزول السورة.

● أمّا المشركون فمن أجل إقناعهم بقضية التوحيد وضع الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ ولكلّ داعٍ إلى الله من أمّته صورة ذات خطوات لمناظرة جدليّة يبدأ بها الداعي إلى الله، ويجادِلُ على وفقها المشركين الّذين يجعلون مع الله إلَهاً آخر.

وأتبع الله عزّ وجلّ هذه الصورة التعليميّة بمثَلٍ يَدُلُّ على أنَّ الصراع بين الحقّ والباطل لا بُدَّ أن ينتهي بانتصار الحقّ، واضمحلال الباطل انظر الآيتين (١٥ ـ ١٦) من السورة.

وجاء في السورة ما يُشْعِرُ بأن معاندي المشركين في مكة ما زالوا يطالبون بآيات مادّيّة من الخوارق، في دوائر دعاياتهم في مكة، مع استخدامهم أسلوب الاستهزاء بالرسول ﷺ، ليصُدُّوا جماهيرهم عن الإيمان به واتّباعه، والهجرة إليه في المدينة، حيْثُ استقرّتْ عاصمةً للدولةِ الإسلاميّة بقيادته صلوات الله عليه وسلاماته.

وربما فعل نظير ذلك يهود المدينة، فطالبوا الرسول بآيَةٍ كَفَلْق البحر لموسى عليه السلام، وجعلوا يستهزئون بالرسول إذْ لم يستجب لطلبهم.

ويظهر أنّ بعض المسلمين كانوا يرغبون في أن يُجْرِيَ الله عزّ وجلّ لرسوله من المعجزات المادّيّة الكبرى ما يكون سبباً في إقناع الذين يطالبون بها، أو أن يُعجّل الله إنزالَ عقابه عليهم ليكونوا عبرةً لسائر العرب، وسائر الناس.

فأبان الله عزّ وجلّ أنّ حكمته تقضي بأن لا يستجيب لطلب المشركين المعجزات المادّيّة الموافقة لتشهّيَاتِهم، وبأنْ لا يُعَجِّل إنزال عقابه بهم قبل استنفاد أجل الإمهال الذي قضت به حكمتُه.

تأمّل في قول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة:

﴿.. وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾.

وفي قول الله عزّ وجلّ له أيضاً:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾.

● وأمّا أهل الكتاب وفي مقدّمتهم يهود المدينة فقد ساءَ بَعْضَهُمْ أن يُوجَدَ في القرآن ما يخالف معتقداتهم المحرّفة، وأهواءهم، وأرادوا استدراج الرسول إلى ترك التعرّض لهم بأنهم كافرون ومحرّفُون في الدّين، ومخالفون لشريعة الله التي أنزلها على موسى وأنبياء بني إسرائيل من بعده.

فقال الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة يعلّمه ماذا يَرُدُّ به عليهم:

﴿... قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: ما أُمِرْتُ من قِبَلِ رَبِّـي وَرَبّكم إلاّ بأنْ أعْبُدَ اللَّهَ وحده، ومن عبادتي له أنْ أقوم بالدَّعوة إلى دينه كما أَمَرني، وأَنْ أُبَلِّغَ عنه كُلَّ ما أمَرَني بأن أبلّغه، دون أن أكتم منه شيئاً، أَوْ أُحَرّفَ فيه أو أُبَدِّل.

فالدّعوة إلى الله وفق مطلوب الله الذي أمر به من أجلّ العبادات، وأنا لا أعْبُد غير الله حتّىٰ أتَلَقَّىٰ توجيهاتي من غيره، ولن تستطيعوا باستدراجاتكم أن تخرجوني عن صراط ربّـي.

فإنْ رضيتم واستجبتم لدعوتي سِرْتُمْ معي على صراط الله المستقيم.

وإن أبيتم وأصررتم على أن تَتَّبِعوا أهواءكم فلَنْ أُسْخِط ربّـي رَغْبَةً في استرضائكم، ولئن اتّبعت أهواءكم عاقبني الله ولم يحمني من عقابه استرضاؤُكم، وإنْ حلّ بـي عقاب ربّـي فَلَنْ يكون لي وليٌّ ينصرني ويمنع عني عقاب الله، ولن يكون لي واقٍ يقيني من عذابه.

* * *

التعليم الثاني والعشرون

جاء هذا التعليم في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) وهي من أواسط التنزيل المدني، فقال الله عزّ وجلّ فيها لرسوله:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

وقد تضمَّن هذا التعليم خمس وصايا موجهة للرسول ﷺ، وينتفع بها كلُّ داعٍ إلى الله من أمّته، وهي:

الوصية الأولى: التحلّي بالصَّبْر مع الاستسلام التامّ لحكم الله، وانتظار ما يقضي به.

دلّ على هذه الوصيّة قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ... ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فاصْبِرْ مستسلماً لحكم ربّك، ومنتظراً ما يقضي به.

الوصيّة الثانية: النهي عن طاعة أيِّ آثمٍ وأيِّ كفورٍ في مشورةٍ، أو مقترحٍ أو غير ذلك، لما في طاعتهما من تورُّطٍ فيما لا تُحْمَدُ عقباه.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾.

الآثم: مرتكب الإثم، وهو الذنب.

الكفور: صيغة مبالغة لكافر، فهو الكافر شديد الكفر.

الوصيّـة الثالثة: الاشتغال بذكر اسم الله بُكْرَةً وأَصِيلاً.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في السورة: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

الْبُكْرَة: أوّلُ النهار إلى طلوع الشمس، وهو وقت صلاة الصبح.

الأصِيل: هو الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها.

الوصية الرابعة: عبادة الله بالسجود له في الصلاة أثناء اللَّيْل. فلقيام اللّيل تأثير في علاج ذوي الهموم العظيمة، والأعباء الجسيمة.

الوصية الخامسة: تسبيح الله مدّةً طويلةً من اللّيل، في صلاة قيام اللّيل، أو خارجها، فلهذا التسبيح تأثيره العظيم الفعّال في النفوس المضطربة القلقة المهمومة أو المغمومة.

دلَّ على هاتين الوصيتين «الرابعة والخامسة» قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

* * *

الفصل السابع

المجتمع الإسلامي والمنكرات حمايةً وتغييراً

وفيه ثماني فقرات:

١ ـ مسؤولية الأمّة الإسلاميّة تجاه المنكرات فيها.

٢ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ تأديب العصاة بالعزل الاجتماعيّ والْهَجْر.

٤ ـ الراعي داخل الأسرة ومسؤولياتُه.

٥ ـ المنكرات من الأحاديث الكفرية في مجالس الكافرين.

٦ ـ المنكراتُ ذاتُ الخطر العامّ.

٧ ـ المنكرات الفرديّة الّتي لا تشكّل خطراً عامًّا على المسلمين.

٨ ـ إنكار المنكر بالقلب واللّسان وضوابط تغييره بالْيَد.

- ١ -
مسؤولية الأمّة الإسلامية تجاه المنكرات فيها

الأمّة الإسلاميّة في أيّ موقع من الأرض صَغيرٍ أو كبير، مكلّفةٌ أن تتخذ الوسائل المختلفة حمايةً ورَدْعاً، وتقويماً وإصلاحاً، حتّىٰ تكون سَلِيمةً صحيحةً بوجْهٍ عامٍّ من الوقوع في المنكرات شرعاً.

وهذا يشمل أفرادها، وأُسَرَها، وجماعاتها، ومؤسساتها، في بيوتها، وأحيائها، وقراها، ومُدُنها.

والمنكرات في الشريعة الإسلاميّة قسمان:

القسم الأول: تَرْكُ الْفرائض والواجبات الإسلاميّة التي لها ممارسات عمليّة ظاهرة، كتركِ الصلاة، وعدم أداء الزكاة، وإهمال فريضة الحجّ مع الاستطاعة، وترك فريضة الصيام في شهر رمضان، وترك الحكم بما أنزل الله، وتعطيل الحدود الشرعيّة.

القسم الثاني: فعل المحرّمات الّتي لها ممارسات عمليّة ظاهرة، كشرب الخمور علَناً، وتعاطي المخدّرات السامّة المهلكة، واستيرادها وبيعها في محلاّت تجاريّة، وكإقامة بيوتٍ خاصّةٍ للزنَىٰ، ومحلاَّتِ رقْصٍ وفحش وخلاعة ترقص فيه الفاجرات، وكخروج النساء المسلمات عارياتٍ سافراتٍ مبدياتٍ من أجسادهنّ ما أمر الله بستره، مما هو مُجْمَعٌ على سَتْرِه عند فقهاء المسلمين وعلمائهم، على اختلاف مذاهبهم، وكممارسة المعاملات الربويّة

وأنواع القمار والميسر، وكانتشار الرشوة، وكاتخاذ الأوثان والأصنام بصورة علنيّة ظاهرة في الطرقات، والسُّبُل، والأسواق، والمواطن العامّة الّتي يرتادها الجميع.

فإذا وقع شيءٌ من ذلك داخل المجتمع الإسلاميّ من المسلمين كان على جماعة المسلمين بدْءاً برئيسهم الأعْلَىٰ فمن دونه أنْ يتّخذوا مختلف الوسائل تدرجاً من الأخف إلى الخفيف فالشديد فالأشدّ لإزالة المنكر وتغييره، وإعادة المجتمع الإسلاميّ إلى سلامته وصحته الدينيّة فيما يظهر من سلوك المسلمين بوجه عام.

وعلى المسلمين دواماً اتّخاذ الوسائل التعليميّة والتربويّة والتذكيريّة، لحماية المجتمع الإسلامي من الوقوع في المنكرات.

ولحمايةِ المجتمع الإسلاميّ من الوقوع في المنكرات، ولتغيير الواقع وإصلاح الفساد بعد وُقوعها أو وقوع شيء منها، وسائل كثيرة، منها الوسائل التالية:

١ ـ دوام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سبيل التذكير المستمرّ، ولو لَمْ يُوجَدْ مُنْكَرٌ ظاهر الوقوع.

٢ ـ إقامة أجهزة المراقبة المستمرّة، والحراسة الدائمة، الّتي تَمْلِكُ القدرة على المنْع والرّدْعِ والْقَمْع، وهو ما يُسَمَّىٰ بنظام «الْحِسْبَة» والموظف في جهاز الحسبة يُسمَّىٰ «الْمُحْتَسِب».

٣ ـ الضّغط الاجتماعي الذي يكون فيه المسلمون بعضُهم على بعضٍ رقباء، إذْ يكون كلُّ مُسْلِم في موقعه خفيراً مراقباً ناقداً داعياً إلى الخير، آمراً بالمعروف إذا وَجَدَه متروكاً، ناهياً عن المنكر إذا وجَدَهُ مفعولاً.

٤ ـ إصدار ذوي السلطة الإداريّة القوانين والمراسيم والقرارات الكفيلة

بحماية المجتمع المسلم من المنكرات.

٥ ـ إقامة الحدود والعقوبات والتعزيرات الشرعيّة بالحقّ والعدل، ضمن أحكامٍ قضائيّة إسلاميّة عادلة.

٦ ـ تأديب الْعُصَاةِ بالْعَزْلِ الاجتماعيّ إذا لم تكن لمعاصيهم حدود أو عقوبات تعزيريَّةٌ مُقَرَّة.

٧ ـ المبادرة إلى إزالة المنكر مع أوائل ظهوره قبل أن يستَقِرَّ أو يتفشّىٰ ويستفحل خطره.

ويكون هذا عن طريق أولياء الأُسَر في البيوت، وعن طريق أهل الحلّ والعقد المأذونين في المواطن الصغرى، وعن طريق أجهزة الدولة المسلمة وقوّاتها المسلّحة، إذا كان الأمر أكْبَرَ من قدرات أهل الحلّ والعقد المحلّيين.

٨ ـ العمل على إزالة المنكر المستفحل بسلطان الدولة المسلمة، وقوّاتها المسلّحة، مع مناصرة جماهير المسلمين، ولا سيما أهل الحلّ والعقد منهم.

وفي الفقرات التاليات نظراتٌ تفصيليّةٌ لبعض هذه الوسائل، ممّا له ارتباط بمهمات رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغيير المنكر الذي يُطْلَبُ من أفراد المسلمين.

* * *

- ٢ -

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من سمات الأمّة الإسلاميّة دواماً وبصورة عامّة أفراداً وجماعات، الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، لحماية المجتمع الإسلاميّ من الانهيار والفساد العام، ولمتابعته بالتقويم والإصلاح.

فإذا تهاونَتِ الأمّةُ الإسلاميةُ بهذا الواجب، ضَعُفَتْ، وأنهارَ بناؤها، وتفرَّقَتْ كَلِمَتُها، وطَمِعَ بها أعداؤُها، وذهبتْ دولَتُها، وتشتت جماعاتها، وصارت أكثرياتها أقليّاتٍ في مواطنها وَبُلْدانها.

وقد أولى الله عزّ وجَلَّ هذا الوصف من أوصاف الأمّة الإسلاميّة عنايةً عظيمة في كتابه المجيد، باعتباره عماداً عظيماً من أعمدة بُنْيان الأمّة الإسلاميّة، وبقاء دولتهم عظيمةً مَجيدةً قويّةً مُتَماسكةً متينة.

● إنّه مُنْذُ أنْ صار للمسلمين في المدينة مجتمعٌ متماسِكٌ ذو قُوّةٍ وَدَوْلَةٍ، وقامَتْ بَيْنَهُمْ وبين عَدُوِّهمُ الأوّلِ وهم كُفّار قريش في مكّة حروبٌ وصراعاتٌ أَهمُّها غزوة بَدْرٍ الكبرىٰ وغَزْوَةُ أُحُد. فأكّدَتْ هذه الحروبُ قيام دَوْلتهم المتماسكة، أنزل اللّهُ عَزّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ـ ثالث سورة مدنية ـ الأمر الموجَّه لهم، بأنْ يكونوا أُمَّةً يدعون إلى الخير، ويَأمُرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر، فقال تعالى فيها:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

يَدْعُونَ إِلَىٰ الخير: أي: يدعون غير المسلمين إلى عموم الخير الّذي تُدْرِكُهُ العقول والنفوس، والبعيدين عن فعل الخير من المسلمين إلحاقاً بغير المسلمين.

ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْروفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرَ: هذه الوظيفة يقومون بها بين المسلمين، لأنّهم الذين تعلّموا من الإسلام ما هو المعروف وما هو المنكر شرعاً، فكلُّ أمْرٍ بفعل واجب شرعاً أمْرٌ بمعروف، وكلّ نهي عن فعلٍ مُحرَّم شرعاً، نهي عن منكر.

وأولَئك هُمُ المفلحون: وأولَئكَ ذوو المنزلة الرفيعة عند الله الذين يقومون بوظيفتي الدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هم المفلحون، أي: الظافرون بما يريدون، والفائزون عنْدَ الله بالنعيم المقيم والسعادة الخالدة.

● وأَتْبَع الله عزّ وجلّ هذا الأَمْرَ التكليفيّ بالثناء على أصحاب محمّد ﷺ، بأنّهُمْ خَيْرُ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للناس تَحْمِلُ رسالة الدعوةِ إلى دين الله الإسلام، والجهادِ في سبيله، وبأنّهم يأمُرُون بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر، وينسحبُ هذا الثناء على كلّ من يحمل هذه الرسالة بصدقٍ مبتغياً رضوان الله والدّار الآخرة، من أمّة مُحمَّدٍ إلى أَنْ تقوم السّاعَة، فقال الله بعد خمس آياتٍ من سورة (آل عمران) نفسها:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... ﴿١١٠﴾﴾.

أي: تُواظبون على تأدية وظيفة الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي، وتُجدِّدُونَ إيمانكم بالله مع كُلِّ عبادة من عباداتكم، ومع كل حركةٍ من حركات حياتكم، ومع كلّ تغييرٍ من تصاريفِ

مقادير الله فيكم مما تُحبُّونَ أو تكرهون.

● ثم وصف الله عزّ وجلّ الأمّة الإسلاميّة الّتي يُؤيّدها بنصرِهِ على أعدائها في معارِكَ قتالية، ليُمَكّنَ لها دَولتَها في الأرض، بأنّها أُمّةٌ تقيم الصلاة، وتُؤتي الزّكاة، وتؤدّي باستمرار وظيفة الأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣) وهي السورة (١٧) من التنزيل المدني:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾.

فدلّ هذا النّص على أنّ شرط بقاء التمكين لدولتهم في الأرض، أنْ يُحافظوا على إقامة الصلاة وإيتاء الزّكاة والقيام بوظيفة الأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا أخلُّوا بهذه الشروط تركهم الله لأنفسهم ووسائلهم، ولم يؤيّدهم بمعونات غيبية تكْفُلُ لهم إعادة دولتهم إذا ذهبت، أو التمكين لها إذا كانت قائمة.

● وأخيراً أنْزَل الله عزّ وجلّ في أواخر العهد المدني آيَةً وصَفَ بها المؤمنين والمؤمنات بأنّ بعضَهُمْ أولياء بعض، أي: يَنْصُر بعضهم بعضاً على أنفسهم، فهم بمقتضىٰ هذه المناصرة يأمر بعضُهُمْ بعضاً بالمعروف، وينهىٰ بعضهم بعضاً عن المنكر مع مواظبتهم على إقامة الصلاة المفروضة، وإيتاء الزّكاة، وطاعة الله ورسوله في أمور حياتهم، فقال اللّهُ عزَّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) آخر سورة نزلت قبل سورة النّصر التي كانت ختام تنزيل السُّور:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

دلّ هذا النّصُّ على الرقابة والمتابعة من المؤمنين بعضهم لبعض، وهي تولّد ضغطاً اجتماعيًّا على كلّ فردٍ في المجتمع الإسلامي يحميه من أن ينزلق إلى ارتكاب المنكرات.

والمؤمنون المحافظون على هذه الأوصاف المذكورة في هذا النصّ هم الذين يظفرون يوم الدّين بمساكن طيّبةٍ في جناتِ عَدْنٍ، ويظفرون برضوان من الله أكبَرَ من كُلّ ما في جنات عَدْنٍ، بسبب السعادة التي يُفْرِغَها الله عليهم إذ يقول لهم: اليوم أُفْرِغُ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

إنّ هذه النصوص دلّت على أنّ وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وظيفةٌ دائمة العمل والعطاء، تذكيراً بالمعروف وأنّ الله قد أمَرَ به، وتذكيراً بالمنكر وأنّ الله قد نهى عنه، ولا يرتبط عملها بترك المعروف حتّىٰ يُوجّه الأَمْرُ لفعله، أو بفعل المنكر حتّى يوجَّهَ النهيُ لتركه.

* * *

- ٣ -
تأديب العصاة بالعزل الاجتماعي والهجر

من الوسائل لتغيير المنكر تأديب العصاة بهَجْرِهم ومقاطعتهم اجتماعيّاً، وعَزْلِهم عن المؤاكلة والمشاربة والمجالسة والمؤانسة بالأحاديث، حينما تكون الكَثْرةُ هي الكثرة الصالحة، الّتي يُؤثِّرُ هجرها وعَزْلُها للعاصي على نفسه، فتجعَلُهُ يتوبُ، ويرجع إلى الرشْدِ والاستقامة حرصاً على رضا الكثرة الاجتماعيّة له، وهرباً من أن يجد نفسه مهجوراً معزولاً منبوذاً.

أمّا إذا كانت الكثْرَةُ في المجتمع هي الكثرَة الفاسدة المرتكبة للمعاصي، فإنّ المسلم المستقيم فيهم هو الذي يعيش بالعزلَةِ عنْهُم، إذا هَجَرهُم وقاطَعَهُمْ، ومن الخير له أن يُخَالطهم ويصْبِرَ على نُصْحِهم وإرشادهم وأمْرِهِمْ بالمعروف ونهيهم عن المنكر، دون أن يَتْرُكَ هذه الوظيفة، فإذا لم يستطع الصَّبْرَ على هذا، ولم يَسْتَجِبْ له الْعُصَاة أو فريقٌ منهم، فمن الخير له أن يَهْجُرَهُمْ ويعتزلهم، لئلا يتأثّر بهم هو أو أهلُهُ السائرون على نَهْجِه المستقيم.

دلّ على هذه الوسيلة ما رواه الترمذيُّ وأبو داود بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَىٰ الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَـٰذَا، اتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ

وَهُوَ عَلَىٰ حَالِهِ، فَلا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ»، ثُمَّ قال[1] :

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾. (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول).

ثمّ قال: «كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَىٰ يَدِ الظَّالِم، ولَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقّ أَطْراً، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْراً، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنْكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»[2].

لتَأْطُرُنّه: أي: لتعطِفُنَّهُ كمَا يُثْنَىٰ الشيءُ حتَّىٰ يصير إطاراً مُدَوّراً.

ولتَقْصُرُنّه على الحقّ: أي: ولتلْزِمَنَّهُ طريقة الحقّ والعمل به.

فدلَّ هذا الحديث على أنَّ من السّياسة الحكيمة للمجتمع الإسلامي، أنْ يضْغَط على العصاة فيه بالهجر والمقاطعة والعزل الاجتماعي.

ودلّ قول الرسول ﷺ فيه: «إنَّ أَوَّل مَا دَخَلَ النَّقْصُ على بَنِي إِسْرَائِيل...» على أنّ هذه الوسيلة تنفع حينما يكون المجتمع بأكثريّتِهِ أكثريةً صالحةً مستقيمة، والمهجورُ المعزول فيه يَجِدُ نَفْسَه مَنْبوذاً من مجتمعه. فيُحَاوِلُ إصلاحَ نفسه، وتَرْكَ معصيته.

---

(١) دلّ استشهاد الرسول ﷺ بهذه الآيات من سورة (المائدة) على أنّه قالَه في أواخر العهد المدني، لأن هذه السورة من أواخر التنزيل القرآني.

(٢) انظر شرح هذا الحديث في كتاب «روائع من أقوال الرسول ﷺ» للمؤلف: الحديث التاسع.

وهذا لا ينطبق على مجتمع تكونُ الاكثريَّةُ فيه هي الأكثريَّة العاصية الفاسدة.

ودلَّ على هذه الوسيلة أمْرُ الرسول ﷺ بمقاطَعَة الثلاثة الّذين خُلّفُوا عن الخروج مع المسلمين لغزوة تبوك، دون أن يكون لهم عُذْرٌ، واعْتَرَفُوا بأنَّهُمْ لم يكُنْ لهم عُذْرٌ في التخلّف إلاّ التباطُؤ والكسَلُ، وأيثار الراحة والظّلّ والماء والثّمر.

واستمرَّتْ مقَاطعتُهُمْ حتَّى أنزل الله عزّ وجلّ تَوْبَتَهُمْ في آيَاتٍ من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

ولَهُمْ قِصَّةٌ مثيرةٌ هي من روائع القِصَصِ[١].

وهذا الهجر والمقاطعة والعزل الاجتماعي قد يكون من أولياء الأسرة لبعض أفرادها المذنبين، بشرط أن لا يدفع بالمذنب إلى اتخاذ رفاقٍ من الأشرار.

وقد يكون داخل جماعة لهم إمامٌ عالمٌ مُلتفُّونُ حَوْلَهُ، ولا سيما إذا كان التقاؤهم دَاخِلَ مدرسةٍ داخليّة، وكان المذنب حريصاً على رضى إخوانه وشيخه.

وقد يكون في منظمة يُهِمُّ كُلَّ فرْدٍ فيها أنْ تكونَ علاقَتُهُ حسنَةً مَعَ رئيسها وسائر أعضائها.

وقد يكون دَاخِلَ قريَةٍ صَغِيرةٍ يُشارُ إلى كُلِّ فَرْدٍ فيها بالْبنَان، ويصْعُبُ على الفرد العاصي فيها أن يكون مهجوراً مَنْبُوذاً.

أمّا في الْمُدُنِ الكُبْرىٰ فمِنَ العسير اتّخاذ هذه الوسيلة، وربّما يَدْفَعُ اتخاذُها المذنب للانضمام إلى فئات العصاة والمجرمين، ويكون السّجْنُ الإصلاحيُّ أفضل منها.

* * *

(١) انظر تفصيلها وشرح نصوصها في كتاب «ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ» ج ٢ من ص ٤٤٦ ـ ٤٥٥ للمؤلف.

- ٤ -

الراعي داخل الأسرة ومسؤوليّاته

لكلّ راعٍ داخلَ أُسْرَتِهِ الخاصَّة وِلايَةٌ تجْعَلُه مسؤولاً فيها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دواماً، ومسؤولاً عن إنكار المنكر الذي يفعلُهُ أحد الداخلين في رعيّته، ومسؤولاً عن تغيير المنْكَرِ ولو بيده، إذا لم يترتَّبْ على تغييره منكر أشدّ وأعظم.

روى البخاريُّ ومسلم وغَيْرُهُما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«كُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُم مَسْؤُولٌ عَنْ رَعيَّتِهِ، فَالْإمَامُ رَاعٍ وهوِ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلِ رَاعٍ في أَهْلِهِ وهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمرأةُ راعِيَةٌ في بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِها، والْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ في مالِ أَبِيهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فكُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

وخاطَبَ الله عز وجلّ المؤمنين المسلمين بأنْ يَقُوا أَنْفُسَهُمْ وأَهْلِيهم عذابَ النّار، ولا تَكُونُ وِقايَتُهُمْ لأهليهم ذَاتَ أَثَرٍ، مَا لَمْ يَكُن لهم عليهم وِلايَةٌ تَسْمَحُ لهم بتغيير المنكر، فَوْقَ الوظيفة العامَّةِ الّتي عليهم أنْ يُؤَدُّوها

بالأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر تعليماً وتنبيهاً وتذْكيراً، فقال الله عزَّوجلّ في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾.

* * *

- ٥ -

المنكرات من الأحاديث الكفريّة في مجالس الكافرين

أمر الله عزّ وجل كلَّ مُؤْمِنٍ أمْراً إفرادياً بأن يُعْرِض عن الذين يخوضون في آيات الله بأحاديثِ كُفْر أو تشكيكٍ أو طَعْنٍ أو تشويهٍ أو نحو ذلك، إذا لم يستَطِعْ أن يُعَارِضَ ويُقَاوِمَ ويُسْكِتُ الخائضين، ويَمْنَعَ مُنْكراتِ أقوالِهِمْ، والمراد من الإعراض مفارقة المجلس وعدم القعود مع الخائضين.

وألزمه بأن يظَلَّ مستَمِرّاً في الإعراض الاستنكاري عنهم، المشعرِ بموقفه الرافضِ لما يقولونَ، ولما يَتحدَّثون به، حتَّىٰ يخُوضُوا في حديثٍ غيره لا يتعلّق بمسائل الدّين وآيات اللّهِ الّتي يكفُرونَ بها تكذيباً للرسول ويستهزِئونَ بما جاء فيها للصدّ عن الإسلام.

فإذا أنْسَاهُ الشيطان أنْ يتّخذ هذا الأسلوب الإعراضيّ الاستنكاريّ وهو عاجزٌ عن المعارضة والمقاوَمَةِ، فاستَمَعَ دُون إنكارٍ ولاَ إعراض بمفارقة مجلس الخائضين، فَعليْه متَىٰ صَحَا وَتَذَكّر مَا يجب عليه أنْ لا يَجْلِسَ مَرَّةً أخْرَىٰ في مَجْلِسٍ يَجْري فيه خَوْضٌ كُفْرِيٌّ أو اسْتِهْزائيٌّ بآيات اللّهِ ابتداءً.

قالَ اللّهُ عَزّ وجَلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وهي من التنزيل المكيّ حينما كان المؤمنون المسلمون مستضعفين في مكة وكان المشركون يخوضون في آيات الله كفراً واستهزاءً بها في مجالسهم؛ خطاباً لكل مؤمن مسلم على سبيل الخطاب الإفراديّ:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

أي: لإثبات الموقف الإيماني الصُّلْب، لعلّ الخائضين في آيات الله يتذكَّرُ مِنْهُمْ مُتَذَكّرون فيتّقُونَ الله فيؤمنون، متأثرين بموقف المؤمن الثابت على إيمانه المناصر لقضيّته الّتي يُؤْمِنُ بها.

ولمّا وُجِدَ في الْعَهْدِ الْمَدنِيّ مُنْتَسِبُونَ إلَىٰ الإسلام مُنَافِقُونَ، يجالسون الكافرين، ويَسْتَمِعُونَ مِنْهُمْ كُفْرِيَّاتٍ واستهزاءاتٍ بآيات الله، وشتائم يوجهونها للرّسول وللكتاب المنزّل عليه، أنزل اللّهُ عزّ وجلّ قوله في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

فجاءَتِ الإحالَةُ في هذا النّص من سورة (النساء) المدنيّة علىٰ النّص السابق من سورة (الأنعام) المكيّة.

وأبانَ ما جاء في النصّ المدنيّ، أنَّ المرادَ بالإعراض من النَّصّ المكّي مفارقةُ المجلس، وعدمُ القعود مع الذين يخوضون في آيات الله كفراً واستهزاءً بها.

* * *

- ٦ -
المنكراتُ ذاتُ الخطر العامّ

حينما تكون المنكرات مما لَهُ خَطَرٌ على المجتمع الإسلاميّ كُلّه في بلَدٍ من البلدان، أو مجتمعٍ من المجتمعات العامّة، كخطر خرقِ السفينة مِنْ قِبَلِ بَعْضِ رُكَّابها على سائر رُكَّابها، إذْ يُعَرِّضُهُمْ للْغرَقِ والهلاك، فإنّ على أهل العقل والرُّشْدِ والاستقامة أن يتكتَّلُوا جميعاً، ويُنْكِرُوا على مرتكِبي المنكر إنكاراً جماعيًّا بالبيان اللِّسانيّ أوّلاً، فإذا أَصَرُّوا أنْكروا عليهم بما هو أشدُّ، فإنْ تهاوَنَ أولوا الأمر الإداريّ ولم يَسْتَجيبوا لهم أخَذُوا على أَيْدِي فاعلي المنكر بالْقُوَّةِ، إذا كانت لديهم القوّة القادرة على ذلك.

وإلاّ جَافَوْهم، وقاطعوهم، وهجروهم، واعتزلوهم معلنين سخطهم، وتَبَرَّؤوا من منكراتهم تُجَاهَ ربّهم، وتُجاه الناس أجمعين.

هذا ما نفهمه من الحديث الذي رواه البخاريّ عَنِ النعمان بْنِ بَشيرٍ رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«مَثَلُ القَائِم عَلىٰ حُدُودِ اللّهِ والْوَاقِع فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَىٰ سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، وبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فكانَ الَّذينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ، فقالوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً

وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فإنْ تَرَكُوْهُمْ وَمَا أرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ، نَجَوْا ونَجَوْا جَمِيعاً».

القائم على حدود الله: الواقف عندها لا يتعدّاها بمخالفة ومعصية.

والواقع فيها: العاصي المتجاوز حدود الله.

اسْتَهَمُوا: اقترعوا على الأمكنة في السفينة.

* * *

- ٧ -
المنكرات الفردية الّتي لا تُشَكّل خطراً عامًّا على المسلمين

حينما تكون المنكرات مما ليس له خَطَر عامٌّ على جماعة المسلمين، بسبب كونها من الحالات الفرديّة الخاصّة، والفلتات الّتي لا تشكّلُ ظاهرةً ذاتَ انتشارٍ وعَدْوَىٰ، فمعالجتُها تكون بما يلي:

١ ـ يُتَخَذُ في معالجتها أوّلاً لإزالتها، وإصلاح حال مرتكبها، الإنكارُ اللّساني، بالنُّصْح والإرشاد في السّرّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الرّفق والتّلطّف.

٢ ـ مُتَابعةُ تكْريرِ النُّصحِ والْإِرشادِ وَالْإِنكارِ مع رَفْع دَرَجةِ التَّوْجيه بشِدَّة، والتخويفِ من عذاب الله، ومن السُّقوط من أَعْيُنِ الناسِ في المجتمع الإسلاميّ.

٣ ـ ثم يُعَالَجُ بالمقاطعة والْهَجْر، كما سبق بيانه في فقرة «تأديب العصاة بالعزل الاجتماعي والهجر».

٤ ـ ومن كان له سلطةُ التغيير بالْيَد، كوليِّ أُسْرَةٍ، ومدير مدرسة، وشيْخِ حَلْقةٍ له سُلْطَتُه واحترامه بين طلابه، وذي وجَاهَة لَهُ احترامُهُ في قَرْيَةٍ صغيرةٍ، أو حيٍّ، أو قبيلةٍ، أو مَعْمَلٍ، وذِي رياسة في مؤسسة؛ فإنّ له بعد اتّخاذ الخطوات السابقات أن يمارس التغيير بيده، وتُقَدّرُ ظروفُ كلِّ حالة

بقدرها، وبحسَبِ حاجتها إلى الْعَجَلة، أو احتمالها التريث والأناة وسعة الصّدْر.

٥ ـ وما لا يتحمل الأناة ولا التريُّثَ كجريمة القتل أو الاغتصاب للزنىٰ، فيجب فيه التدارك السريع واستخدامُ التغيير باليد قبل وقوع الجريمة، بقدر الاستطاعة ممّن يستطيع ذلك.

* * *

- ٨ -

إنكار المنكر بالقلْب واللّسان وضوابطُ التغيير باليد

١ - أهَمُّ ما ورد من النصوص:

● روىٰ مسلم عن أبـي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ رَأىٰ مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبقَلْبه، وذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَان».

أي: فإنْ لم يستطع فلْيُنكِرْ بلسانه، فإن لم يستطع فَلْيُنْكِرْ بقلبه.

هذا الحديثُ يدُلُّ على الحالة القصوى التي قد يصلُ إليها المترقّي في إنكار المنكر.

فمن الطبيعيّ أن يَبْدأ الإنكارُ بالقلْبِ في نَفْسِ المنكرِ له.

وبَعْدَ الإنكار القلبـي يتوجَّهُ المنكِرُ للإنكار باللّسان نُصْحاً وإرشاداً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وهذا ما كان يفعله الرسولُ ﷺ في حياته.

فقد مدَّ يدَهُ إلى صُبْرة طَعَامٍ في السُّوقِ، فأصابت يَدُهُ بَلَلاً، فقال: «مَا هَـٰذَا يا صاحبَ الطعام؟».

قال: أصابتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ الله.

فقال له: «أفلا جعلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّىٰ يَرَاهُ النَّاس؟! مَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنَّا» رواه مُسْلِمٌ عن أبـي هريرة.

فلم يبدأ ﷺ بتغيير المنكر بيده.

وكذلك فعَلَ حينما نزل تحريم الخمر، أمَرَ بلسانه أَنْ تُراقَ الخمور، ثُمَّ بَعَثَ مَنْ يُريق باليَدِ الخمر التي لم يُبَادِرْ أصحابُها إراقَتَها استجابةً لأمر الرسول ﷺ.

فبعد الإنكار باللّسان يمكن أن يرتقي المنكِرُ إلى تغيير المنكر باليد، إذا لم تُجْدِ وَسيلةُ اللّسان.

إنّه لا يَصِحُّ بالبديهة العقليّة الارتقاءُ إلى التغيير باليد، إذا أمْكن التغيير للمنكر بوسيلة اللّسان، وهذه هي سنَّةُ الله في تربية عباده، وكذلك كانت سُنَّةُ الرّسُولِ ﷺ في ممارساته التطبيقيّة لإنكار المنكر.

أمّا إذا لم يَحْصُلِ التغييرُ بوسيلَةِ اللّسان، وأَمْكَنَ تغيير المنكر باليد، دون أن ينجم عن ذلك مُنْكرٌ أشدُّ منه، فالتغيير باليَدِ حينئذٍ وسيلةٌ مشروعة.

● وروى مُسْلِمٌ عن أمّ سلَمةَ أمّ المؤمنين رضي الله عنها، عن النبـيّ ﷺ أنّه قال:

«إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُم أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِىءَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، ولَـٰكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتابَعَ».

قالُوا: يَا رَسُولَ الله، ألاَ نُقَاتِلُهُمْ؟

قال: «لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ».

أي: من كَرِه بقلبه ولم يستَطِعْ إنكاراً بيده ولا بلسانه، فقد بَرِىءَ من الإثم، وأدّىٰ وظيفتَهُ، ومن أنكر بحَسَبِ طاقته فَقَدْ سَلِمَ، ودلّ هذا الحديث

علىٰ أَنَّ السلامة أعلىٰ درجة من مجرّد البراءة، فالْبُرْءُ خلاصٌ من مرض، والسَّلامَةُ حمايَةٌ من الوقوع في المرضِ أصْلاً.

ولكِنْ مَنْ رَضِيَ بفِعْلِهِمْ وتابَعَهُمْ فَهُو العاصي المشاركُ لَهُمْ في آثامهم ومنكراتهم.

* * *

٢ ـ شروط العمل على تغيير المنكر:

من المفهومات الإسلاميّة العامّة الأصول، نستطيع أنْ نستخلص أربعة شروط لتغيير المنكر باليد:

الشرط الأوّل: أنْ يكونَ المنكر محَلَّ اتفاقٍ بين الأئمة المشهود لهم بأهليّة الاجتهاد، على أنّه من المنكرات المحرّمة في الشرع، فعلاً أو تركاً.

ويُلْحَقُ بالمنكر ما كان سبباً حتميًّا لوقوع المنكر، أو إشاعته في المسلمين.

الشرط الثاني: أن يكون فاعل المنكر عالماً بحرمته، مجاهراً به، أمّا الجاهل، فينبغي تعريفه أوّلاً حُكْمَ الشرع به، ثم يُطالَبُ بأن يُغَيِّرَه بنفسه مع الرّفق به، فإنْ لم يستجب وهو من المسلمين، جاز الانتقالُ معه إلى الأشد إذا كانت حالته تتحمّل ذلك.

وينبغي الرّفْقُ الكثيرُ بالّذين يكونُ إسلامُهُمْ حديثاً، وعاداتُهم في ممارسة المنكرات قبل الإسلام متأصّلةٌ في سلوكهم، ومن الصَّعْب عليهم مفارقتُها وتركُها حتّىٰ تَمُرَّ عليهم مدّةٌ يستطيعون خلالَها التخلُّصَ من عادَاتِهِمُ السابقات.

وفي كلِّ الأحْوَال يَجبُ الْبدْءُ بمطالبة فاعل المنكر بأن يُقْلِعَ عنه، ويُغَيِّرَهُ بنَفْسِه، قبل محاولة تغييره بيد الْمُنْكِرِ المصلِح.

الشرط الثالث: أنْ يكون المنكرُ أمراً واقعاً مشهوداً فعلاً، لَا أمْراً مظنوناً، أو أمراً لم يَصِلْ بَعْدُ إلى أن يكون حَدَثاً واقعاً بالفعل، أو أمراً مستوراً بعيداً عن أنظار المراقبين، يَفْعَلُه أصحابه داخل منازلهم وبيوتهم، ولا يُجَاهرون به، ولا يُعلمُون أحداً به.

فقد نهىٰ رسول الله ﷺ عن تتبّع عورات المسلمين الّتي يستترون بها، ونهىٰ عن التحسُّس وعن التجسُّس.

فلا يجوز التجسُّسُ على الناس وهم داخل بيوتهم، باستثناء الأمور العظمىٰ الّتي تُضِرُّ بمصالح المسلمين العامّة، كتآمُرٍ بخيانةٍ مع أعداء الإسلام والمسلمين، وانكشف أمرها بخَبَرٍ صادق، وكتدبير جريمة قتلٍ لا يُتَدارَكُ وقُوعُها إلاّ بمداهَمَةِ المجرمين وهم داخلَ بيوتهم، وانكشَفَ أمْرُها بخبر صادقٍ أو أمارات وعلامات ظاهرات الدلالة.

فيجوز لأولياء الأمور والحالة هذه أن يُداهموا البيوت للقَبْضِ على المجرمين والخائنين، وتدارُك الجرائم قبل وُقُوعها، إذا كان العلم بالتخطيط لها قَدْ بلَغَ مَبْلَغَ اليقين أو القريب من اليقين.

الشرط الرابع: أنْ لا يترتَّبَ على السَّعْي لتغيير المنكر وقُوعُ مُنْكَرٍ مماثلٍ أو أشدّ من المنكر المطلوب إزالَتُهُ وتَغْيِيرُهُ.

* * *

٣ ـ من المسؤول عن تغيير المنكر باليد:

إنّ تغيير المنكر بالْيَد مِنْ وظائفِ ذوي الولايات من المسلمين.

● أمّا الإمامُ العامّ فله أن يغيّر بيده، أو بأيدي جنوده كلّ مُنْكر ظاهر في المجتمع الإسلاميّ، متّىٰ تحقّقت الشروط العامة لممارسة التغيير باليد.

ومثل الإمام نُوابُه ووكلاؤه، فلكلّ واحدٍ منهم أن يغيّر المنكر بنفسه،

أو بأيدي جنوده، ضمن حدود دائرة ولايته.

- وكلُّ من له بإذن الإمام سلطةُ وِلايَة، ضمن حدود دائرةٍ خاصة، كمدير دائرة، أو مدير مدرسة، أو مدير مؤسسة عامة أو خاصة، فله حقّ تغيير المنكر بيده، أو بأيدي أعوانه وأنصاره وجنوده، إذا كان تغيير المنكرات من الصلاحيات الممنوحة له بإذن الإمام.

- وكلُّ ذي رعاية عامّة أو خاصة في أسْرَتِهِ لَهُ حقّ تغيير المنكر بيده، إذا فعله بعض مَنْ لَهُ عليهم حقّ الرعاية شرعاً داخل أسرته.

فإذا جَلَبتِ الزّوجَةُ مثلاً وثناً، ووضَعَتْهُ في بيتها، ورآه الزوج، فإنّه يأمُرُها أوّلاً بإزالته، ويبيّن لها أنّ هذا حرام لا يجوز في الإسلام، وأنّ من حقّه شرعاً أن يزيله بيده، فإنْ لم تَفْعَلْ وأصَرَّتْ على إبقائه كان عليه أن يزيله بيده، رضِيَتْ أم سَخِطَتْ، لأنّ له عليها حقّ الولاية بحكم القوامة الّتي منحها الله للزوج.

والأمُّ إذا شهدتْ بعْضَ أبنائها قد جلب إلى بيتها منكراً من المنكرات، أبانت له أوّلاً أنّ هذا مُنْكَرٌ شرعاً، وأنّ عليه أن يزيلَهُ، فإذا لم يُزِلْهُ وَأصَرَّ على إبقائه أزالَتْهُ هي بيدها، بمقتضىٰ كَونها راعيَةً علَىٰ بَيْتِ زَوْجها وولده.

على أن التغيير باليد في كُلّ الأحوال إنما يكون بعد الإنكار بالقلب وباللّسان.

* * *

٤ ـ إنكار المنكر باللّسان:

دلّ حديث أبي سعيد الخدري على أنّ كلّ مُسْلِمٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ المنكرَ بلسانه، فواجب عليه أنْ يوجّه كلاماً ينْصَحُ به، أو يأمُرُ به وينهىٰ، صغيراً كان أو كبيراً، عظيماً فِي قومه أو ضعيفاً.

فعبارة: «فإنْ لم يستَطِعْ فبِلِسَانِهِ» هي على تقدير فلْيُنْكِرْهُ بلسانه، وليست على تقدير: فلْيُغَيِّرْهُ بلِسَانه، إذ لَيْسَ مِنْ وَظيفة اللِّسَانِ التغيير، وإنّما وظيفَتُهُ الإنكار، وربّما أثَّرَ الإنكارُ فحصَل التَّغْيِيرُ مِنْ قِبَلِ فَاعِلِ المنْكَرِ نَفْسِه.

ومثل هذا التقدير معروفٌ في أُسْلُوب البيان العربيّ، ومنه قول الشاعر:

وَزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ والْعُيونَا

أي: وزَجَّجْنَ الحواجِبَ وكَحَّلْنَ العيون، لأنّ العيون لا تُزَجَّجُ، إنَّمَا تُكَحَّل.

تَزْجيج الحواجب: هو جَعْلَها بأعمال التزيين دقيقة طويلة مُقَوَّسَة.

وضمن واجب إنكار المنكر يستطيع أحاد النّاس أن يُوَجِّه كلاماً فيه رفْقٌ وَتكريمٌ واحترامٌ بموعظةٍ، أو نُصْحٍ، أو أمْرٍ بمعروفٍ، أو نهي عن منكر، لإمام المسلمين، ورئيسهم الأعلى، وليس هو مسؤولاً عن التغيير الفعليّ، وقد يكون كلامُه سبباً في تغيير المنكر.

ولا يُعْذَرُ في هذا إلاّ عاجزٌ عن البيان، أو مستَغْنٍ ببيان غيره مع تأييده هو له، أو خائف من سلطانٍ جائر أن يَسْطُوَ عليه، ويُنْزِلَ به بلاءً وشرًّا إذا نَصَحَهُ، أو أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، مهما تلطَّفَ في مقاله الذي يوجّهُه له.

والإنكار باللّسان ينبغي أنْ يكون مَسْبُوقاً بالإِنكار بالقلب، وإلاّ كان من قبيل التظاهر ومُرَاءات الناس، ليقال: شجاعٌ جرىء في الحقّ.

* * *

٥ ـ إنكار المنكر بالْقَلْب:

أمّا إنكار المنكر بالقلْب، مع مفارقة المكان الذي فيه المنكر إذا كانت

المفارقة مُسْتَطاعَة، فهو واجبُ كلّ مؤمن مُسْلِم، مهما كان إيمانُهُ ضعيف الأثَرِ في السلوك.

وإذا عجز المنكِرُ بقلبه عن مفارقة مجلس المنكر لسبب من الأسباب، فإنَّ عليه أن يشْغَلَ قلْبَه بالاشمئزاز والكراهية، وسُؤَالِ اللَّهِ أن يُعِينَهُ على مفارقة المجلس، وعلى الإنكار بلسانه.

فحركة الإنكار القَلْبِـي المصحوب بالكراهيَة والامتعاض والاشمئزاز وترقُّبِ الفرصَةِ الملائمة لمفارقة المجلس، يَمْلِكُها كُلُّ إنسان.

ولهذا كان الإنكار بالقلب أضعف الإيمان.

وعبارة: «ومَنْ لم يَسْتَطِعْ فبقَلْبه. . .» في الحديثِ، هي عَلَىٰ تَقْدِير: فَلْيُنْكِرِ الْمُنْكرَ بما يَمْلِكُ في قَلْبِهِ من كراهيةٍ واشمئزازٍ، وقولٍ في نفسه: اللَّهُمَّ هَـٰذا مُنْكَرٌ لاَ أَرْضَىٰ به، مع ترقُّب الفرصَةِ لمفارقة المجلس، إذا لم يستَطِعْ أن يُعَبِّرَ بمفارقَتِهِ الفعليّة عنْ إنكارِه.

البَابُ الخامِسُ

نَماذجُ تَطبيقيَّة مِنْ هَدْي الرُّسُلِ عَلَيهِمُ السَّلَام

وَمَن سَارَ على دَرْبِهم

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: صُور من سياسة الرُّسُل في أدائهم رسالات ربّهم.

الفصل الثاني: نماذج دُعاةٍ من غير الرُّسُل عرض القرآن الكريم دعوتهم ونصرتهم لدينه.

الفصل الثالث: نماذج من وصايا الآباء للأبناء.

الفصل الرابع: صُورٌ ونماذج عامّة.

الفصـل الأول

صُورٌ من سياسية الرُّسل عليهم السلام في أدائهم رسالات ربّهم

الصورة الأولى: لقطات من سياسة نوحٍ عليه السلام.

الصورة الثانية: لقطات من سياسة هود عليه السلام.

الصورة الثالثة: لقطات من سياسة صالح عليه السلام.

الصورة الرابعة: لقطات من سياسة إبراهيم عليه السلام.

الصورة الخامسة: لقطات من سياسة شعيب عليه السلام.

الصورة السادسة: لقطات من سياسة موسى عليه السلام.

الصـورة الأولـى
لقطات من سياسة نوحٍ عليه السلام
في أدائه رسالات ربّه

من تتبُّع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة نوح عليه السلام في أدائه رسالات رَبّه، ظهرت لي ستّ فقرات:

الفقرة الأولى: سياسته في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في دفع الاعتراضات الَّتي وُجِّهت له.

الفقرة الثالثة: سياسته في دفع الشتائم التي وجّهت له.

الفقرة الرابعة: سياسته في مجادلته قومه.

الفقرة الخامسة: خطّته في الدعوة والتّذكير على توالي الأيَّام ليلاً ونهاراً.

الفقرة السادسة: سياسيته في مُقابل إيذاء وتهديد قومه له بالإخراج أو بالقتل.

وفيما يلي تفصيلُ هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد حول نوحٍ عليه السلام وقومه:

* * *

الفقـرة الأولـى

سياسة نوح عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرُّجيّ الحكيم على أنّ سياسة نوح عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وتتلخّص بالدّعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، مع التخويف من عذابه الأليم، والإشفاق منه على الذين يُوجِّه لهم دعوته.

دلَّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

العنصر الثاني: ثُمّ ارتقىٰ نوحٌ عليه السلام إلى أسلوب الإنذار المجزوم به، مع إعلان الإشفاق على قومه منه، رحمةً بهم، وحرصاً عليهم.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

العنصر الثالث: ثم ارْتقَىٰ نوح عليه السلام إلى أسلوب التلويم برفق، مستخدماً التعبير بالاستفهام الذي يحمل معنىٰ التلويم، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟! أي: أفَلَا تتقون عذابَ الله الّذي حذّرتكم منه وأنذرتكم به.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

العنصر الرابع: ثم ارتقىٰ نوحٌ عليه السلام إلى تأكيد توجيه التلويم بصيغة الاستفهام الإنكاريّ، مضافاً إليه تأكيد أنّه رسولٌ أمين، ومضافاً إليه أيضاً أَمْرُهم بأن يتّقُوا عذاب الله، وبأن يطيعوه فيما يدعوهم إليه، مع تكرير هٰذين الأمْرَيْن إلحاحاً في الدّعوة، مبيناً لهم أثناء ذلك أنَّه عليه السلام ما يسألُهُمْ من أَجْرٍ عَلَى ما يدعوهم إليه، أي: ليْسَ له عندهم مصالح دنيويّة يرجوها من دعوته لهم، ومُبَيّناً لهم أنَّ أَجْرَهُ علَىٰ ربّ العالمين الذي أرسَلَهُ وكلّفه.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾.

العنصر الخامس: ثم ارتقى نوح عليه السلام إلى أسلوبٍ جَمَعَ فيه الإنذار المؤكَّد المشدَّد، والأمرَ بعبادة الله، وبأن يتقوه، والأمْرَ بأن يطيعوه فيما يدعوهم إليه، وأضافَ إليها الوعد بأنّهم إذا أطاعوه فإن الله يَغْفِرُ لهم

بعض ذنُوبهم، ويؤخّر إهلاكهم إلى آجالهم المقرّرة لكلّ واحدٍ منهم، لكنهم إذا لم يطيعوه فإنّ الله سَيُهْلِكُكُمْ إهلاكاً عامّاً في أَجَلٍ يُحَدِّدُه، فإذا جاء أَجَلُ إهلاكهم فإنَّهُ واقع بهم حينئذٍ حتماً، ولا يُمْكِنُ تأخيرُه.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾.

إنّ التهديد بعذاب أليم وإهلاكٍ شاملٍ للقومِ في الحياة الدنيا يأتي في آخرِ المراحل الدَّعَوِية، فإذا أَصَرَّ القومُ على عنادهم وكُفْرِهِمْ وتَحَدَّوْا رَسُولَ رَبّهم بأن يأتيهم بالعذاب المعجَّل، ووجَّهُوا له التَّهْدِيدَ بالإخراجِ أو بالقتل، لم يكن أَمَامَ الرَّسُول إلاّ أن ينتظر قضاء الله في القوم، وما يكلّفه الله من جهادٍ قتالي إن أمكنه ذلك، أو هِجْرةٍ إلى بلَدٍ آخر، وقومٍ آخرين.

* * *

الفقـرة الثـانية

سياسة نوح عليه السلام في دفع الاعتراضات التي وجهت له

نجد في القرآن المجيد أنّ نوحاً عليه السلام قد وجّه له قَوْمُه خمسة اعتراضات، فدفع كلّ اعتراضٍ منها بما تقتضيه الحكمة.

الاعتراض الأول: اعتراضُهم على أنَّه بَشَرٌ مثْلُهم، زاعمين أنْ رسُولَ الله ينبغي أن يكون مَلَكاً، ولا يَصِحُّ أن يكون بشراً يأكل، ويشرب، ويتزوج، ويعمل الأعمال البشرية، ويحتاج الحاجات البشرية، كسائر الناس.

وكانت سياسة نوح عليه السلام في دفع هذا الاعتراض ببيان أنّ البشريّة لا تمنع من تلَقّي الوحي عن الله، فالله بقدرته وبحكمته وبعلمه بعباده يختصُّ من يشاءُ من عباده، فيوحي إليه، ويكلّفه حمّلَ رسالةٍ يُبلّغها للناس، وليس هذا على الله بمستحيل ولا بمستنكر.

أمّا الاختيار الحكيمُ مِنْ وسائل تبليغ النَّاس دِينَ الله لهم، مع تقديم القدوة الحسنة الّتي يتأسَّوْنَ بها، فهو يقضي بأنْ يُرْسِلَ اللّهُ إلى البشر رسُولاً منهم، يتأسَّونَ به، ويتبعونه، ويَهْتَدون بهديه.

دلَّ على هذا الاعتراض ما يلي:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن قصة نوح مع قومه في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا . . . ﴿٢٧﴾ ﴾ .

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ أيضاً في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في حكاية خطاب ملأ قومه لجماهيرهم:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

ودَلّ على دفْعِ هذا الاعتراض.

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكايةً لما دفع به نوحٌ عليه السلام اعتراضهم:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ . . . ﴿٢٨﴾ ﴾ .

أي: أتحجرون على الله رَبـي الّذي هو ربُّكم وربّ العالمين أن يختصَّنِي بأَنْ يُؤْتيني رَحْمَةً من عِنْدِه، وهي التفضيل بالوحي إليّ، وتكليفي أن أحمل رسالة منه إليكم؟

والمعنى: ما هو المانع العقليُّ من هذا؟ وما هو الأمر المنافي للحكمة في هذا؟

أَرَأَيْتُمْ إنْ كُنْتُ عَلَىٰ بيِّنَةٍ مِنْ رَبِّـي: أي: أفكَّرْتُمْ في احتمال أَنْ أكون عَلَىٰ بيّنَةٍ من رَبِّـي تَشْهَدُ لي بأني صادقٌ فيما أبلّغ عَنْهُ؟ أفتصدّقونني؟ وفي هذا دفْعٌ لاتهامه بالتوهُّم أو الكذب، فالمعجزة حجَّة قاطعةٌ، وآيَةٌ دامغة، وينطوي في هذا البيان إثبات قدرة الله وحكمته في اصطفاء بشرٍ بالوحي إليه.

وآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِندِه: أي: وآتاني رحمةً لكم من عنده، هي الدّين وما فيه من تعليمات ووصايا تتضمن بيان سبيل سعادتكم ونجاتكم، وفي ذلك رحمةٌ عظمى لكم.

والمعنى: أَفَكَّرْتُمْ في مضمون هذه الرسالة التي جئتُكُمْ بها، والّتي هي رحمةٌ عظيمةٌ لكم؟

ويظهر أنَّ دَفْعَ نوح عليه السلام قد كان على مقدار الإشكالات والشبهات الذهنيّة التي كانت لدى قومه، وهذا من السياسة الحكيمة في الدعوة.

ونستفيد من هذا أنّه لاَ يَحْسُنُ في السياسة الدَّعَوِيّة دفْعُ شبهاتٍ وأشكالاتٍ أُخْرَىٰ لَمْ يَطْرَحْها المدعُوُّون في اعتراضاتهم أو جدليَّاتهم، لأنّ الغرض الوصُولُ إلى الإقناع، لا إلى استقصاء الشبهات ودفعها.

* * *

الاعتراض الثاني: اعتراضهم على كون أتباعه قد كانوا أراذِلَ قومه، مع مطالبة ملأِ قومه له بأن يطرُدَهُمْ عنه.

وكانت سياسة نوح عليه السلام في دفع هذا الاعتراض، تتلخّصُ ببيان أنّ هؤلاء الذين تصفونهم بأنّهم قد كانوا أراذل، هم مكلَّفون من قبل ربّهم أنْ يؤمنوا ويعملوا صالحاً، وسيحاسبون عند ربّهم على ما كسبوا في رحلة الحياة الدنيا، وسيجازون إنْ خيراً فخير، وإن شرًّا فشَرٌّ، وإنّي مُطَالبٌ من قِبَلِ رَبِّـي بدعوتهم وتبليغهم كسائر الناس، فما أنا بطاردهم وهم بشرٌ من البشر. وببيَانِ إنّ الإيمانَ يَجُبُّ ما قبله، فإنْ كانوا في سابقِ عهدهم قبل أن يؤمنوا بـي ويتّبعوني أراذل في سلوكهم وقبائح أعمالهم، فقد تحوّلوا عن ذلك بالإيمان والعمل الصالح، وغفر الله لهم ما كان منهم سابقاً، فصاروا الآن طاهرين، ومن ذوي الاستقامة والعمل الصالح، فما تأثير علمي بما كانوا يعملون بعد أن تاب الله عليهم؟ فلا أقول بشأنهم: لن يؤتيهم اللَّهُ خيراً، الله أعلم بما في أنفسهم، إنّي إذاً لمن الظالمين.

دلّ على هذا الاعتراض ودفعه آيات قرآنيةٌ وردت أثناء عرض لقطاتٍ

من قصة نوحٍ عليه السلام مع قومه في سورتين:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

ومَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يعملون: أي: ومَا تأثير علمي بما كانوا يعملون، في دعوةٍ أمرني الله بأن أبلّغها لقومي جميعاً.

إنْ حِسَابُهُمْ إلاَّ على رَبِّـي: أي: ما حِسابُهم إلاّ على ربّـي، فلست أنا الذي أتولّىٰ حسابهم.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) يحكي مقالة قوم نوح له:

﴿ . . . وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ . . . ﴿٢٧﴾ ﴾.

بَادِيَ الرأي: أي: عند بَادي الرأي، وبادي الرأي هو ظاهِرُ الرأي، أي: دون تعمُّقٍ وتبصُّرٍ ببواطن الأمور، من بدا يبدو إذا ظهر.

وقوله تعالى فيها:

﴿ . . . وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

وقوله تعالى فيها أيضاً:

﴿ . . . وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

أي: ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرهم أعينكم لَنْ يؤتيهم الله خيراً إذا آمنوا وعملوا الصالحات.

ويا قوم من ينْصُرني فيحميني ويقيني من عذاب الله إنّ طردتهم مخالفاً ما أوجب الله علي من دعوتهم وإيوائهم والعَطْفِ عليهم.

* * *

الاعتراض الثالث: توهُّم قومِ نوحٍ أنّ طريقة دعوته المقرونة بالإنذار والوعيد فيها معنى الإلزام والإكراه، وهذا التوهُّم يحرّك في نفوسهم اعتراضاً.

ويبدو أنّ هذا الاعتراض لم يُصرّحوا به لأنّ دعوةَ كلِّ رسولٍ دعوةُ تخيير لا دعوةُ إكراه وإجبارٍ بالقوة، ونوحٌ عليه السلام لم يُعِدَّ لإكراه قومِه أيَّ قوّة.

لكنّ نوحاً عليه السلامُ أدركَ أنّهُمْ قد يتوهَّمُونَ من إنذاره ووعيده لهم معنى الإلزام والإكراه، فقال لهم: أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لها كارِهون؟!

أي: فأنا والّذين آمنوا بـي لن نجبِرَكُمْ على الإيمان والإسلام إنْ كنْتُم كارِهينَ ذلك، إنّما نَدْعوكم ونبيِّنُ لكم الحقَّ، ونذكّركم، ونُنْذِرُكُم عذابَ ربكم.

دلّ على هذا الاعتراضِ الذي يبدو أنّهم لم يُصرّحوا به، وعلى دفعه بنفي الإلزام الجبري، قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) يحكي مقالةً قالها نوح عليه السلام لقومه:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ: أي: فَخفِيَتْ عليكم والْتبَسَ أَمْرُها عليكم.

أَنُلْزِمُكُمُوها: أي: أَنُكرِهُكُمْ على الالتزام بها واتّباع ما جاء فيها،

الضمير عائد على الرحمة، والمراد بها الرسالة الّتي يبلّغها عن ربّه.

* * *

الاعتراض الرابع: اعتراض قوم نوح عليه وعلى الذين آمنوا به واتّبعوه بأنهم ليسوا ذوي فضْلٍ بمظاهر الحياة الدنيا على سائر قومهم، حتّى يرشحهم هذا الفضل لأن يستجيبوا لدعوتهم، ويتّبعوهم. وليسوا ذوي فضل بخوارق.

والفضل الذي يراه أهل الكفر فضلاً ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ أموالٌ وكنوزٌ ومُلْكٌ مؤيَّدٌ بقُوىً غيبيّة.

٢ ـ قُدْرَةٌ على معرفة الأمور الغيبيّة الماضية والحاضرة والآتية في المستقبل.

٣ ـ كون مُدَّعِي الرسالة مَلَكاً لا يأكُلُ ولا يَشْرَبُ ولا يتزوّجُ النساء، ولا يَحْتَاجُ إلى ما يحتاج إليه البشر.

وقد دفع نوح عليه السلام هذا الاعتراض بالإشارة إلى أنه اعتراض ساقط، لا يصحُّ إيرادُه أصْلاً، إذْ لا يشترطُ فيمن يوحَىٰ إليه برسالة من ربّه أن يتميَّز عن سائر البشر بهذا الفضل الذي توهَّمُوهُ، فلِلَّهِ أَنْ يصطفي من عباده بحكمته من يشاء، فيوحي إليه، ويكلّفه حمل رسالةٍ لقومه من ربهم، وليس بين حمل رسالة عن الله وبين الأمور التي توهّمُوهَا ارتباط عقلي حتى تكون شرطاً للنبوة والرسالة.

دلّ على هذا الاعتراض مع الإشارة الضمنيَّةِ إلى دفعه، قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول) حكاية لمقالةٍ قالَهَا نوحٌ عليه السلام لقومه:

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ . . . ﴿٣١﴾﴾.

أي: إنني لا أدَّعي شيئاً من ذلك، بل أقول لكم إنَّ رَبِّـي أَوْحَىٰ إليَّ وحياً، وحمَّلني رسالةً إلكيم، هي أن تعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تُسْلِموا له، فإذا لم تستجيبوا فإنّه هو الذي سَيُحَاسِبُكم، وسيعاقبكم لا أنا.

* * *

الفقـرة الثـالثة

سياسة نوحٍ عليه السلام في دفع الشتائم التي وُجِّهَتْ له

تتلخّص سياسة نوح عليه السلام في دفع الشتائم التي وجّهت له بثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنّه دفع عن نفسه ما اتّهمه به قومه من ضلالة بمجرد النفي، مع بيان أنّه رسولٌ من ربّ العالمين، يبلّغ عن ربّه رسالاته، وينصح لقومه، ويبيّن لهم ما جاءه من الْعِلْم الذي لا يعلمونه.

ولم يستخدم عليه السلام أسلوبَ ردّ الشتيمة بمثلها، فلم يَقُلْ للذين اتّهموه بالضلالة: بل أنتم الضّالون، أو نحوها من العبارات.

دل على هذا الأمر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في مَعْرِض بيان لقطات من قصته مع قومه:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

الأمر الثاني: أنَّهُ عليه السلام أعْرَض عن دفع اتّهام قومه له بالجنون، لأنَّ الاتّهام بالجنون يتعلّق بشخصه، ولا يتعلق بمضمون دعوته، فاكتفىٰ بالإعراض، على أنّ اتّهامه بالجنون أمر تسقطه بياناته ومجادلاته لهم، الّتي

تدلُّ على كمال عقله وعظيم فطنته، ولا يعدو أن يكون مجرّد شتيمة ليسوا مُصَدِّقين لها، ولا يَقْبَلُها منهم أحدٌ فلاَ يحْسُنُ منْه أن يدفعها عن نفسه ولو بمجرّد النفي.

إنّ الشتائم التي لا تشتمل على اتِّهامٍ يُمْكن أن يكون مقبولاً في نفوس السّامعين، مَثَلُها كمثَلِ عُواءِ الكلاب، وهَلْ يَلِيقُ بالإنسان العاقل الرّزين الدّرّاكِ لحقائق الأمور أَنْ يَرُدَّ على الْعُواء بمثله؟!

وقد دَلّ عَلَىٰ هذا الأمر قولُ الله عزّ وجلّ بشأنه وشأن مقالة ملأ قومه عنه في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾.

فعلى الدُّعاة أن يقتدوا بهذه السياسة الحكيمة في دفع الشتائم الّتي تُوجَّهُ لهم من الذين يُؤدُّون رسالةَ ربِّهم بينهم، وكذلك حَمَلَةُ رِسَالةِ النُّصْح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك مُعَلِّمُو دينِ الله للناس.

الأمر الثالث: أنّه عليه السلام دفع اتّهام قومه بأنْه يسْعَىٰ بدعوته لتحقيق مصالح شخصيّةٍ دُنيويّة في قومه، كَمَالٍ أَوْ جَاهٍ أو سُلْطانٍ أو مُلْكٍ أو استمتاعٍ بشهواتٍ، بأنّه لم يَسْأَلْهُمْ أجراً، ولا يسألهم أجراً، وَلَنْ يسألهم أجراً، والأجرُ يشمل الأجرَ المادّي والأجرَ المعنوي، ولم يُبَرِّىءْ نفسَه من رغبته في الأجْرِ، إنّما حَصَرَ ما يرغب فيه من أجْرٍ باللّهِ رَبّ العالمين، يتفضّل الله به عليه يوم الدّين، مع ما يَمْنَحُه من ثوابٍ دنيويّ معجّل.

دل على هذا الأمر عدة نُصُوصٍ قرآنية:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في مَعْرِضِ بيان لقطاتٍ من قصة نوح عليه

السلام مع قومه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ . . . ﴿٢٩﴾ ﴾.

فذكر خصوص المال بَعْدَ أن ذكر عُمُوم الأجْرِ الشامل للأجر المالي والأَجْرِ المعنوي.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ أيضاً في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) في عرض لقطات من قصته مع قومه، وقوله لهم في مرحلةٍ متأخّرَةٍ من تاريخ دعوته:

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ . . . ﴿٧٢﴾ ﴾.

* * *

الفقـرة الـرابعة

سياسة نوح عليه السلام في مجادلته لقومه

اعتمدت سياسة نوح عليه السلام في مجادلته لقومه على أمرين:

الأمر الأول: دفع اعتراضاتهم بالحجج العقلية والأدلّة الصحيحة التي ليس لديهم ما يُبْطِلُها، كما سبق بيانه في الفقرة الثانية.

الأمر الثاني: إقامة الأدلة العقليّة والحجج البرهانيّة المفحمة، على صحة ما يدعوهم إليه من توحيد، وفساد ما هم فيه من شرك.

وقد دلّ على هذا الأمْرِ ما جاء في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) حكَايَةً لما قام به من جهادِ قومه في دعوته لهم، وهو يدعو ربّه شاكياً إصرارَ قومه على رفضِ دعوته وفِرَارِهم من الاستجابة له، فقال أثناء عرضه شكواه:

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

فدلّ هذا النّصُّ على أَنَّ مَنْهجَ نُوح عليه السلام في إقَامَةِ الأدلّةِ على توحيد الربوبيّة وتوحيد الإلَهيَّةِ لله عزّ وجلّ، يعتَمِدُ على الاستدلال بالظواهر الكونيّة الدالّة باللّوازم العقليّة البرهانيّة على أَنّ الرّبّ الخالق واحدٌ لا شريك

له، وهذا يدلُّ باللزوم العقليّ على أنّ الإلّه المعبود يجب أنّ يكون هو الرّبّ الخالق وحده لا شريك له، فلا إلّه إلاّ الله.

وهذا هو منهج جميع المرسلين، وهو المنهج المبسوط في سُوَرِ القرآن المجيد.

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً: استفهام إنكاريٌّ تعجّبـيٌّ، والمعنى ما الصّارفُ أو الباعث أو المفسد لكم، حالة كونكم لا تَخْشَوْن ولا تخافون الله الجليل عظمة، فإذا شاء أَهْلككم أو عذّبكم على كفركم عذاباً شديداً.

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أطواراً: أي: والحال أنَّهُ قَدْ خلقكم على أطوار، من ترابٍ، إلى غذاءٍ، إلى نطفة، إلى علقة، إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، إلى جنين، إلى طفل، وهكذا.

ورَدّ قومُ نوح على مجادلته لهم بقولهم له كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُوا يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَـنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وأصَرُّوا على باطلهم، واتّبعتْ جماهيرهم قادتهم ذوي المال والأولاد، ومكروا بنوح عليه السلام وبالذين آمنوا به واتَّبَعُوه مكراً كُبَّاراً، وتنادَوا لملازمة آلهتهم من الأوثان، كما جاء في سورة (نوح) في الآيات من (٢١ ـ ٢٤) في عرض شكوى نوح لربّه.

* * *

الفقـرة الخـامسة

خطة نوح عليه السلام في الدعوة والتذكير على توالي الأيام

تتلخص خُطّة نوح عليه السلام التي اتّبعها في الدعوة والتذكير على توالي الأيام الّتي أقامها في قومه بالعناصر التالية:

العنصر الأول: أنَّه عليه السلام لم يترك فرصةً سانحة له من ليلٍ أو نهار يتمكن فيها من توصيلِ دعوته إلى قومه إلاّ انتهزها، وقام فيها بدعوة قومه إلى الدّين الذي جاءهم به بلاغاً عن ربّه.

العنصر الثاني: أنّه عليه السلام استخدم مختلف الأساليب الدعويّة المتاحة له في زمانه:

- فاستخدم أسلوب الخطابة الجماهيريّة العامّة.

- واستخدم أسلوب الإعلان في الحديث مع الذين يناسبهم الإعلان ولا ينفّرهم، وهو ما يُسمَّىٰ في مصطلحاتنا المعاصرة: «درس ـ محاضرة ـ حديث...».

- واستخدم أسلوب الإسرار في الحديث، مع الذين يلائم حالَهم الإسرار في الحديث ولا يلائم حالهم المواجهة العلنيّة.

- واستخدم أسلوب الإنذار والترهيب من عذاب الله المعجّل والمؤجّل.

● واستخدم أسلوب الترغيب في ثواب الله المعجّل والمؤجل إلى يوم الدين.

● واستخدم أسلوب الإقناع بالحوار وإقامة الحجج الإقناعيّة الصحيحة.

● واستخدم أسلوب المجادلة بالّتي هي أحسن.

العنصر الثالث: أنّه عليه السلام استمسك بخطّة الصَّبْر الطويل المديد، فقد لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، واستمرَّ يدعو قومه إلى دين الله معظم هذه المدّة، ولمّا أيأسه الله عزّ وجلّ منهم، إذْ قال له: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[1] دعا على كفّار قومه بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[2].

دلّ على خطّته هذه ما جاء في القرآن المجيد من قصته مع قومه مما سبق بيانه، ومنهُ ما جاء في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾.

ثُمَّ إِنّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً: الجِهارُ هو رفْعُ الصَّوْت، وهذا يكون عادة في الخطابة الجماهيريّة.

---

(١) كما جاء في الآية (٣٦) من سورة (هود/ ١١).

(٢) كما جاء في الآيتين (٢٦ ـ ٢٧) من سورة (نوح/ ٧١).

ثم إنّي أعْلَنْتُ لهم: أي: خاطبتهم بحديث علَنِي، ويُحْمَلُ هذا على ما يناسبه الحديث العلني.

وأسْرَرْت لهم إسراراً: ويُحْمَل هذا على من يناسبه الحديثُ في السرّ ومنه ما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) ﴾.

* * *

الفقـرة السـادسة

سياسة نوح عليه السلام في مقابل إيذاء قومه وتهديدهم له بالإخراج أو بالقتل

وصل كفّار قوم نوح عليه السلام إلى حالة الضجر من تكرار تذكيره لهم بما جاءهم به عن ربّه، فواجهوه بأنواعٍ من الأذى.

فقابل موقفهم هذا بإعلان توكّله على الله، واستعداده لأن يتحمّل الأذى بصبر.

دلّ على موقفه هذا قول الله عزّ وجلّ بشأن عموم الرُّسُل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ونوح عليه السلام من الرُّسُل الذين أوذوا من أقوامهم فأعلنوا توكلهم على الله، وصَبْرَهم على الأذى.

ثم وصل كفار قوم نوح إلى حالة التذمّر الشديد من تكرار تذكيره ومتابعة دعوته لأجيالهم فهَدَّدُوه بالإخراج من بلادهم.

دلَّ على هذا ما جاء أيضاً بشأن جميع الرُّسُل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ... ﴿١٤﴾﴾.

ونوحٌ عليه السلام من الرُّسُل الذين هُدِّدوا بالإخراج، بمقتضىٰ عُمُوم هذا النصّ، لكنّه لم يستجب لقومه، ولم يَعْبَأْ بتهديدهم.

فاشتدّ غضب قومه منه فهدّدوه بأن يقتلوه رجْماً بالحجارة هو والذين آمنوا معه.

دلّ على هذا التهديد قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

أي: لنَرْجُمَنَّكَ ولنَرجُمَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَك فتكون واحداً منهم.

فقابل نوحٌ عليه السلام هذا التهديد بعدم الاكتراث، وبالتحدي، وقال لهم: أجْمِعُوا أَمْرَكُمْ، واستعينوا بشركائكم، ولا تتردَّدوا ولاَ تتحيّروا ولاَ تَتَستَّروا في أمركم، ثُمَّ اقْضُوا إليَّ مَا دَبَّرْتُمْ من أمْرِ لِقَتْلِي، وَلاَ تُمْهِلُوني، فإنّي توكَّلْتُ عَلَىٰ الله.

دَلَّ على هذا الموقف قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ الله: أي: إنْ كان كَبُرَ عليكم حتّىٰ ثقُلَ وشَقَّ على نُفُوسكم وُجودي ومُكْثِي، قائماً فيكم نبيًّا رسولاً داعياً إلى الله، ومُذَكِّراً أَفرادكُمْ وجماعاتكم بآيات الله الّتي أكرِّرها عليكم، وأذكركم بها، حتى أغضبكم.

فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وشُرَكَاءَكُمْ: أي: فَأَحْكِمُوا كُلَّ أَمْرِكُمْ الّذي تستطيعون تدبيره وإحكامه، وادْعُوا كُلَّ شركائكم من دون الله.

وَلاَ يَكُنْ أَمْرُكم عَلَيْكُمْ غُمَّة: أي: ولا يكُنْ أمركم عليكم أمراً مبهماً، أو كَرْباً ضاغطاً على صدوركم.

ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ: أي: ثُمَّ أَنجِزُوا ما دبَّرْتُمْ من أمْرِ لقتلي.

وَلاَ تُنْظِرُونِ: أي: ولا تُمْهِلُوني لحظة واحدة.

والْتجأ نوحٌ عليه السلام إلى ربّه داعياً، فقال كما حكىٰ الله عزّ وجلّ عنه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

فقضىٰ الله عزّ وجلّ بإغراقِ قومه، ونجاته ونجاة الذين آمَنُوا معه في الفلْك.

قال تعالى في سورة (الشعراء) أيضاً:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

* * *

الصـورة الثـانية

لقطات من سياسة هود عليه السلام

في أدائه رسالات ربّه

من تتبُّع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة هود عليه السلام في أدائه رسالات ربّه، ظهر لي أنّ سياسته مشابهة لسياسة نوح عليه السلام، وهي تتلخص في خمس فقرات:

الفقرة الأولى: سياسته في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في دفع الاعتراضات التي وُجِّهَتْ له.

الفقرة الثالثة: سياسته في دفع الشتائم التي وُجِّهَتْ له.

الفقرة الرابعة: سياسته في مجادلته قومه ونُصْحِه لهم.

الفقرة الخامسة: سياسته في مقابل إيذاء قومه وتهديدهم له بالإخراج أو بالقتل.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد حول هودٍ عليه السلام وقومه.

الفقـرة الأولـى

سياسة هود عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنيّة مع ملاحظة الترتيب التدرُّجيّ الحكيم على أنّ سياسة هود عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدّعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونَبْذِ ما اتّخذه قومه من آلهةٍ غيرِه، مع تخويفهم من عذاب الله الأليم، الذي جعله الله جزاءً لمن أشرك به، والإشفاق عليهم منه.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿ ۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ ﴾.

العنصر الثاني: استخدام الإنْذارِ بأسلوب العرض الْمَشُوب بالتلويم، مع بيان أنّه لقومه رسولٌ أمين، وإتْباع هذا بالدّعوة إلى أن يُطِيعُوهُ ويتَّقُوا الله.

دلّ على هـذا العنصـر قـول الله عـزّ وجـلّ فـي سـورة (الشعـراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

أَلَا تَتَّقُون؟: عَرْضٌ بأُسلوب الاستفهام، وهذا العرض مشوبٌ بالتلويم.

العنصر الثالث: تكرير الدَّعوة إلى التوحيد، مع توجيه التلويم المشدّد، بأسلوب الاستفهام الإنكاري.

دلَّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

نفهم تشديد التّلويم من إضافة «الفاء» العاطفة على عبارة ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟! أي: أأعرضْتُمْ عن دعوتي السابقة لكم بأن تتقوا عذابَ الله فَلاَ تتَّقُونَ؟!!

العنصر الرابع: تكريرُ الدّعْوَةِ إلى التوحيد، مع الهجوم على عقيدتهم الشركيّة، بأَنّهم يفترون فيها على الله، باتّخاذ شركاء له، يخترعونها من عند أنفسهم، ويجعلون لها أسماءً. دون أن تكون لهم أدلّةٌ عقليّةٌ أو تجريبيّة عليها، بل الأدلّة العقليّة والحسيَّة تشهد بأَنّها لاَ تَجلُب نفعاً ولا تدفع ضُرًّا، فليس لها مشاركةٌ لله في ربوبيته، فليس لها مشاركةٌ لله في إلَهيّته، وليس لديهم أدلة خبريَّةٌ عن الله تأمُر بعبادتها، أو تأْذَنُ به، فلم يَبْقَ لهم إلاّ أنهم فيها مُفْتَرون.

دلَّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أي: ما أَنْتُمْ إلاَّ مُفْتَرُون، **الافتراء**: اختلاق الكذب واصطناعه.

العنصر الخامس: استخدام سياسة الترغيب بثواب الله المعجّل في الدّنيا، والمؤجّل إلى يوم الدين، والترهيب من عقاب الله المعجَّل والمؤجّل.

وهذا العنصر هو أحد عناصر سياسة جميع أنبياء الله ورسُله، وسياسة سائر الدعاة إلى الله.

وقد دَلَّ على ترغيب هودٍ عليه السلام في ثواب الله المعجَّل قولُه لقومه كما حكى الله عنه في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ۝٥٢﴾.

ودلَّ على الإنْذارِ بالعقابِ المعجّل قولُ قَوْمِهِ له كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿. . . فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) بشأنهم:

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٥﴾.

وأمَّا الترغيب والترهيب بما عند الله يوم الدّين فَهُمَا من القواعد الأولى التي تقوم عليها الرسالات الرّبّانيةُ كُلُّها.

وكُلُّ أَمْرٍ بتقوىٰ الله يشتمل على التحذير من عقابه يوم الدين، ويتضمّن لزوماً فكريًّا الترغيب في ثوابه بجنات النعيم.

* * *

الفقـرة الثـانية

سياسة هود عليه السلام في
دفع الاعتراضات التي وجهت له

الاعتراض الأول: اعتراضهم على بشريته، وادِّعاؤهم أن الله لو شاء أن يُرْسِل رُسُلاً لأنْزَل ملائكة.

دلّ على اعتراضهم هذا ما جاء في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) بشأن عادٍ وثمودَ خطاباً للرسول محمد ﷺ بمعرض الحديث عن مشركي مكة:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤)﴾.

وقد دفع هودٌ عليه السلام هذا الاعتراض بقياس نفسه على نوحٍ عليه السلام، الّذي كانوا على علمٍ به وبرسالته وبإهلاك قومه الذين كانوا مشركين، فقد كان نوحٌ بشراً، ولم يكن مَلكاً، واستنكر عليهم أن يتعَجَّبُوا من كَوْن الرسولِ بشراً، فيجحدوا رسالته لهذه العلّة، مع أنهم سلالة الذين آمنوا بنوحٍ ونَجَوْا معه في السفينة، وهم من ذرّيته.

دلّ على هذا الدفع الذي دفع به اعتراضهم، قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكايةً لمقالته لهم:

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

الاعتراض الثاني: اعتراضهم عليه بأنّه يُريد مصالح دنيويّة لدَيهم، ويتخذ الدعوة الدينيّة ستارة لتحقيق أغراضه ومصالحه في قومه، كمالٍ أو سلطان.

وقد ردّ على هذا الاعتراض بمثل ما ردّ به سائر المرسلين، وهو أنّه لا يسألهم أجراً، ولا يريد منهم أجراً مادّياً ولا معنوياً، كجَاهٍ وسُلْطانٍ ومُلْك.

ودَلَّ على هذا الرّدّ قوله لهم كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

وكما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

الاعتراض الثالث: اعتراضهم عليه بأنَّه لَمْ يأْتِهِمْ بِبَيّنةٍ خَارِقةٍ (آية معجزة) ممّا اقترحوا عليه.

دلَّ على اعتراضهم هذا قولُهم له كما جَاءَ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ . . . ﴿٥٤﴾ ﴾.

أمّا ادّعاؤهم أنّه لم يأْتِهِم ببيّنة مطلقاً فهو ادّعاءٌ كاذِبٌ منهم وجحود.

فقذ قال الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) حكاية لقول موسىٰ عليه السلام لقومه بني إسرائيل:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) في معرض الحديث عن المنافقين والكافرين:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٠﴾.

وقد روى البخاريّ عن أبي هريرة قال: قالَ النبيُّ ﷺ:

«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إلاَّ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْياً أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(الحديث ٤٩٨١ و ٧٢٧٤).

المؤتفكات: قرى قوم لوط، أي: قوم القرى المؤتفكات، أي: المنقلبات.

وأمّا ادّعاؤهم أنّه لم يأتهم بما اقترحوا هُمْ عليه من خوارق، فهذا ادّعاءٌ مقْبُولٌ، وقد يكونُ هو المراد، ومن المعلوم من سِنّة الله في الأمم أنَّهُ لا يستجيب للمقترحات الخاصة الّتي تقترحها الأقوام بشأن المعجزات التي يؤيّد

بها رُسُلَه، وإذا استجاب إليها بناءً على طلبهم كما فعل بشأن ناقة الرسول صالح عليه السلام، فإنّهم إذا أصَرُّوا على كُفْرهم بَعْدَها معاندين، فإنّ الله لا يُمْهلهم، بل يُعَجِّل لهم الإهلاك العامّ الشامل، أو يُعَجّلُ بإهلاك مَنْ طَلَبَها من القوم إذا كانوا أفراداً معدودين، ولم يكن توجيهُ الطلب من كُلّ القوم، أو معظمهم بصورةٍ عامّة.

* * *

الفقـرة الثـالثة

سياسة هود عليه السلام في دفع الشتائم التي وُجّهتْ له

تتلخّص سياسة هود عليه السلام في دفع الشتائم التي وجّهتْ له بما يلي:

الأمر الأول: الدفع بالنفي المجرّد لشتيمتهم له بأنَّه منغمس في سفاهة، أي: في نقص عقل ينتج عنه سوء تصرُّف، ومنه ادّعاؤه النبوّة والرّسالة، ودعوته لقومه بأن يَذَروا آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، ويعبدوا الله وحده لا يُشركون بعبادته أحداً، وشتيمَتُهم له بأنهم يظنُّونَهُ كاذِباً من الكاذبين.

دلّ على هذا الأمر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

الأمر الثاني: الأعراضُ عن شتيمتِهِمْ له بأَنَّهُ مصابٌ في عَقْلِهِ أو نفسه، من قِبَلِ بَعْضِ آلهتهم الّتي تمرّد على عبادتها، مخالفاً ما عليه قومُهُ وآباؤهم وأجدادهم.

وإذا اكتفىٰ بالإعراض عن دفع هذه الشتيمة رأىٰ أَنْ يُعْلِنَ لهم أنّه يُشْهِدُ الله ويُشْهدُهم علىٰ أنّه بريء مما يُشْرِكونَ، ليثبت لهم بأسلوبٍ غير مباشر كمالَ عقله، وثباتَ خصائصه النفسية وتوازنها، وأنّ آلهتهم لم تمسَّه بسوء، ولا تَستطِيعُ أن تَمَسَّهُ بسوء على الرُّغم من إعلانه تبرُّأَهُ منها.

دلّ على هذا الأمر قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ . . . ﴾.

* * *

الفقـرة الـرابعة

سياسة هود عليه السلام في مجادلته قومه ونُصْحه لهم

تتفق سياسته في مجادلته قومه مع سياسة نوح عليه السلام في مجادلته قومه، وهي تتلخص بأمرين:

الأمر الأول: دفع اعتراضات القوم بالحجج العقلية والأدلة الصحيحة التي ليس لديهم ما يُبْطلها، كما سبق بيانه في الفقرة الثانية.

الأمر الثاني: إقامة الأدلة العقلية والحجج البرهانية المفحِمة على صحة ما يدعوهم إليه من توحيد، وفساد ما هم فيه من شرك.

فاستدلّ على التوحيد بأنّ الله هو وحدَهُ فَاطِرُ السماوات والأرض، وهذا أَمْرٌ ظاهر الأدلّة في الظواهر الكونيّة، فليس فيه شكٌّ لدى العقلاء، ومن كان هو الخالق فلا بُدَّ أن يكون هو وحده الإلَه المعبود.

دلّ على هذا ما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في حكاية ما قاله موسى عليه السلام لقومه بني إسرائيل بشأن ما قالَهُ رُسُل قوم نوح وعادٍ وثمود والذين من بعدهم لأقوامهم:

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

واستدلّ على نفي استحقاق آلهتهم لأنْ تكون معبودة من دون الله بأنها لا تَعْدُوا أن تكون أسماءً هُمْ سمَّوْهَا، فليس لها من حقيقة الرُّبوبيّة أو الإلّهيَّة شيء، ولم يأتِ من عند الله أمْرٌ وَلاَ إِذْنٌ بعبادَتِها.

فحين قالوا له متعجبين من دعوته كما جَاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا . . . ﴿٧٠﴾ ﴾؟!!

أجابهم كما جاء فيها أيضاً:

﴿ . . . أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ . . . ﴿٧١﴾ ﴾

الأمر الثالث: توجيه النُّصح لهم في عدّة قضايا:

الأولى: أنْ يتركوا أعمال الْعَبَث الّتي يُنْفِقُون فيها أوقاتاً وأموالاً وطاقاتٍ، لمجرّد التفاخر والمباهات بقدراتهم البنائيّة والفنيّة، المشعِرَة بعظمتهم وتفوّق بلادهم على غيرها، دون أن تكون لها فائدة في الحياة، وأن يوجهوا جهودهم لما فيه فائدة ونفع، فجماهيرهم أحوج إلى ذلك منهم إلى مظاهر التكبُّر والتعاظم، فقد كانوا يفعلون نظير ما فعل الفراعنة من بَعْدِهم إذ بَنَوا الأهرامات، ونحتوا أعمدة المسلّات ونصبوها علامات، وكانت وسيلتهم إلى ذلك سوق الناس بالجبر والإكراه والإذلال، كالجِمَال والحمير والبغال.

دلّ على نصيحته لهم في هذه القضيّة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة هود لقومه:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾؟!!.

استفهامٌ فيه معنى النُّصْح والتلويم على العبث.

الرِّيع: يُطْلَقُ لغةً على السبيل سُلِكَ أو لم يُسْلَكْ، وعلى الطريق

المنفرج بين الجبل، وعلى الطريق عامّة.

آية: أي: علامة، والمرادُ هنا أنَّها علامة على عظمة قوم عادٍ في قُدْراتهم البنائية، ودلَّ على أنَّها لمجرَّد التباهي والتفاخر والتكبّر على الناس قول هود عليه السلام لهم: **تعبثون** أي: دون أن تكون لهذه الآيات التي تبنونها منفعة تقصد، كأن تكون علاماتٍ يهتدي السالكون بها، أمّا العلامات التفاخريّة فهي كالأصنام التي تُصْنَع للحكّامِ وذوي السُّلطانِ الجبّارين، الّتي ليس فيها للناس نفع.

وقد نصحهم هودٌ عليه السلام بترك هذه العادة التفاخريّة التي تُبذلُ فيها أموالٌ وطاقات بغير نفع، فهي من مظاهر الإسراف والتبذير وتضييع الثروات بالعبث.

الثانية: أن يضَعُوا نُصْبَ أعينهم وفي ذاكراتهم دواماً الدار الآخرة، ويتفكّروا بالموت وبما بعد الموت، وبالحساب والجزاء يوم الدّين، وأنْ يُوجِّهوا كلّ اهتمامهم للدنيا راجين الخلود فيها، فإنّ هذا يَصْرِفُهُمْ عن العمل للآخرة، والسَّعْي لسعادتهم الخالدة فيها، ومن توجيه كلّ اهتمامهم للدّنيا دون أن يعطوا من سَعْيهم شيئاً للآخرة، تكْثِيفُ كلِّ جهودهم لاتّخاذ الأبنية والقصور والحصون وتزويدِها بخزّانات المياه، كأنّ الدّنيا دارُ خلود للناس على تتابع الأجيال، وليْسَ بعد هذه الدار والحياة فيها دار أُخْرَى وحياة أخرى هي دار الحساب وفصل القضاء والجزاء والخلود الأبديّ.

دلّ على نصيحته لقومه في هذه القضية قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة هود لقومه:

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

مَصَانع: جمع «مَصْنَعة» و «مَصْنَع». المصانع تُطْلَقُ في اللغة على ما يُصْنَعُ من أبنية وقصور وحصون وأحواض مياه.

قال الأصمعيُّ: العرب تُسَمِّي القرىٰ مصانع، واحدتها مصنعة.

إنَّ هوداً عليه السلام لم ينكر عليهم اتّخاذ المصانع من أبنية وقصورٍ وحصونٍ وأحواض مياهٍ وقرىٰ، إنَّما أنكر عليهم انصرافهم الكامل لشؤون الدنيا يرجون خلود قومِ عادٍ في العزّةِ والمجد والقوة والسلطان ورفاهية العيش، والمساكن والقصور والحصون الحصينة، وذلك لأن من قطع نظره عن الآخرة وتعلّق بالدّنيا قامَ في تصوُّره أن الدنيا خالدة، وإذا لم يكن هو خالداً بشخصه لأنّه على يقين بأنّ الموت آتيه لا محالة، فهو يرجو لذرّيته وسلالات قومه الخلود، وعلى هذا المعنى يُحْمَلُ قولُهُ لهم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

الثالثة: أنْ لا يستكبروا في الأرض على عباد الله، ويتخذوا الوسائل التي يذلّون بها الأقوام الأخرىٰ، بما آتاهم الله مِنْ قُوَّة، ومن مظاهر استكبارهم على غيرهم من الأقوام أنّهم كانوا إذا بَطَشُوا في حروبهم بطَشُوا جبَّارِينَ ظالمين مُعْتَدِين، لمجرّد إظهار تفوّقهم وجبروتهم وإذلال غيرهم بغير حق، وكذلك إذا بطشوا في غير الحرب فيمن يريدون السطو عليه بطشُوا جبّارين.

دلّ على نصيحة هود عليه السلام لقومه في هذه القضية، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالته لقومه:

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

البطش: يُطْلَق في اللغة على التناول بشدّة وعُنْف عند الصولة، وعلى الأخذ الشديد بقوّة في كلّ شيء، وعلى السَّطْو في سُرعة.

أي: وإذا أردتم الاستعلاء والاستكبارَ سَطَوْتُمْ بقوَّةٍ وعنف على فريستكم من البشر، جبّارين ظُلْماً وعدواناً دُونَ شفقةٍ ولا رحمة ولا مراعاةٍ لحقوق خَلْقِ الله في الحياة، والكرامة، والممتلكات، فتقتلون بشدة وعنف بغير حقّ.

الجبّارُ من الناس: العاتي الظالم القتالُ بغير حقّ الذي يَقْهَرُ بقوّتِه وسلطانه.

ويُطْلَقُ الجبارُ على الْمُكْرِهِ المجبرِ بسلطانه، ولو كان جَبْرُه بحقّ، وهذا المعنى يصلح لشرح اسم الله «الجبّار».

ودَلّ على استكبارهم في الأرض بغير الحقّ، وتفاخُرهم بتفوّقهم في القوة على أقوام زمانهم، قولُ الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً . . ﴿١٥﴾ ﴾؟!.

وجاء التعليق الرّبّانيّ على هذا التفاخُر والاستكبار بقوله تعالىٰ عقب حكاية قولهم:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

الرابعة: نصيحته بأن يتقوا الله الذي أَمَدَّهم بنعمه الكثيرة، واتّقاؤهم عذاب الله عزّ وجلّ يكون بأن يطيعوا رسول ربهم فيما يدعوهم إليه من إيمان وإسلام وعمل صالح.

دلّ على هذه القضيّة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

فأبان لهم أنّه يُشْفِقُ عليهم من عذاب الله يوم الدين.

وكان رَدُّ قومه على نصائحه لهم في هذه القضايا الأربع، بإعلان عدم استجابتهم لها، وبأنْ لا يُتْعِبَ نفسه في توجيه نصائحه لهم، فَنُصْحُه لهُمْ وعَدَمُ نُصْحه مستويان بالنسبة إليهم، دلّ على هذا الردّ قول الله عزّ وجلّ عقب النصّ السابق:

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

إنْ هَـٰذا إلاَّ خُلُقُ الأَوَّلينَ: أي: ما هٰذا الذي تَسْتَنْكِرُهُ عَلَيْنَا وتَعِظُنَا بتركه إلاّ سُلُوكٌ كان يفعله آبائنا وأجدادُنا الأولون، وهو أثَرٌ من آثار أخلاقهم، ونحن على آثارهم مقتدون.

وقُرِىء: ﴿إنّ هَذَا إلاَّ خَلْقُ الأَوّلِينَ﴾ بفتح الخاء وإسكان اللاّم، والمعنى: ما هذا الذي تُنْذِرنا به يوم الدّين إلاّ افتراء واختلاق مدعي البعث بعد الموت من الأوّلين، فتكاملت القراءتان.

* * *

الفقـرة الخـامسة

سياسة هود عليه السلام في مقابل إيذاء قومه وتهديدهم له بالإخراج وبالقتل

وصل كفّار قوم هود عليه السلام إلى شبه ما وصل إليه كفار قوم نوح عليه السلام، وتعرّض لأذى قومه، وقَابَلَ أذاهم بالصبر كما جاء في الآيتين (١١ ـ ١٢) من سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) وفيهما الحديث عن عموم الرُّسُل، وقد سبق الاستشهاد بهما في الفقرة السادسة من سياسة نوح عليه السلام.

وأخيراً أَعْلَنُوا إصرارهم على تكذيبه، وأعلنوا تحدِّيهم لَهُ بأنْ يأتيهم بالعذاب المعجّل الذي ما زال يَعِدُهم به، فأجابَهم بأنّ أمر إهلاكهم هو بيد الله لا بيده، وأنّ العِلْم بوقت إهلاكهم هو عند الله.

وهدَّدُوه بأنْ يقتلوه، فتحدّاهم بأن يفعلوا ما يشاؤون، وأعْلَنَ تَوَكُّلَهُ علىٰ الله.

ولمّا وصلوا بحكمة الله إلى حالةٍ ميئوسٍ منها أهلكهم الله عزّ وجلّ.

دلّ على هذه الأمور قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في معرض الحديث عن هود عليه السلام وقومه:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ

أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/٤٦ مصحف/٦٦ نزول) أيضاً:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

لِتَأۡفِكَنَا: أي: لتصرفنا.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول) في معرض الحديث عنه وعن قومه:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول) حكاية لجواب هود عليه السلام إذْ أحسَّ بتهديدهم له بالقتل:

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾﴾.

وجاء التعقيبُ الرَّبَّانِيُّ على هذا في السورة بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾﴾.

* * *

الصـورة الثـالثة
لقطات من سياسة صالحٍ عليه السلام
في أدائه رسالةً ربّه

من تتبُّع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة صالح عليه السلام في أدائه رسالة ربّه، ظهر لي أنّ سياسته مشابهة لسياسة نوح وهود عليهما السلام، وهي تتلخص في ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: سياسة صالحٍ عليه السلام في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في دفع اعتراضات قومه وشتائمهم وتطيُّرهم وجدلياتهم.

الفقرة الثالثة: سياسته في تحدّي قومه له باستعجال العقاب.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد حول صالحٍ عليه السلام وقومه.

الفقـرة الأولـى

سياسة صالحٍ عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرّجي الحكيم على أنّ سياسة صالح عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والدعوة إلى نبذ ما اتّخذه قومُه من آلهة غيره.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ . . . ﴿٧٣﴾ ﴾.

العنصر الثاني: إنْذارُهم بعقاب اللّهِ المعجّل في الدنيا والمؤجَّلِ إلى يوم الدين، فكذَّبُوا بهذه النُّذُر، وزعموا أنّ صالحاً يكْذِبُ عليهم بها.

دلّ على هذا العنصر قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

النُّذُر: مفرده النذير، وهو يطلق على المنْذِر، وهو أيضاً اسم للإنْذَار.

العنصر الثالث: استخدام أسلوب العرض المشوب بالتَّلْويم، لأنَّهُمْ لم يتَّقُوا ما خوّفَهُمْ منه، وكرَّر صالحٌ عليه السلام دعوة قومه إلى عبادة الله وحده ونَبْذ الشِّرك، ونَصَحَهُمْ بأن يتَّقُوا الله.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

العنصر الرابع: تذكيرهم بما أنْزَل اللَّهُ عزّ وجلّ على عادٍ إذْ أهلكهم بسبب كفرهم وطغيانهم، وتذكيرهم بأنّ الله قد جعلهم خلفاء لهم، ومكَّنَ لهم في الأرض، فجعلهم يتَّخِذُون من سهولها قُصوراً وينحتونَ الجبالَ بيوتاً، ووعظهم بأن يذكروا نعم الله عليهم ويشكروها، وبِأَنْ لا يَعْثَوْا فِي الأَرْض مُفْسِدين.

دلّ على هذا العنصر قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لبعض ما قاله صالح عليه السلام لقومه ثمود:

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

العنصر الخامس: تَنْبيهُهُمْ وتَحْذيرُهُمْ من أَنَّ الله لَنْ يَتْركَهُمْ فِي ديارهم آمِنِين وهم يشركون به ويكفرون بِرَسُوله وبما جاءهم به عن رَبّه، بل لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُنْزِلَ بهمْ عُقُوبَتَهُ إذَا أَصَرُّوا على ما هم فيه من شرْك وإفْسادٍ في الأَرْض، وحذَّر جَماهيرهم من طاعة قادتهم المسرفين الذين يُفْسِدُون في الأرض ولا يصلحون.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لبعض ما قاله صالح عليه السلام لقومه ثمود:

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

طَلْعُهَا هضيم: أي: ثمرها ناعم لطيف مريء ليّن، سهل الهضم.

العنصر السادس: استجابَتُه بإذنِ من اللّهِ للمعجزة الخارقة الَّتِي طَلَبُوها، وهي أن يُخرِجَ لهم من صخرة عيّنوها، نَاقَةً حدَّدُوا أوصَافها، فدعا رَبَّهُ فَأَخْرَجَ لهم آيَةَ الناقَةِ التي طلبوها، وحذَّرَهُمْ مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لها بِسُوءٍ، فإذا فَعَلُوا ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ عَذاباً أَليماً، وأَهْلَكَهُمْ.

دَلَّ على هٰذَا العنصر قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لبعض ما قاله صالح لقومه:

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

بيِّنَةٌ: أي: آيةٌ خارقةٌ معجزة تُبَيِّنُ لكم صدق رسولكم فيما يخبركم به عن ربكم.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكايةً لبعض ما قالت ثمود لرسولهم صالح عليه السلام:

﴿ . . . فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

فأجابهم كما جاء فيها عقب هذه الآية وأبان لهم المطلوب منهم في امتحانهم في آية الناقة.

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥٦ ﴾.

الشِّرْبُ: الحظُّ من الماء في وقت خاص.

لكِنَّ أكثرهم لم يُؤْمِنُوا على الرُّغْم من أَنَّ الله استجاب لهم في آيَةِ النَّاقةِ، ثم ضَاقُوا ذَرْعاً بوجودِهَا بَيْنَهُم على وفْقِ الشروطِ الَّتي وضَعَها الله عزّ وجلّ وبلَّغَهُم إيّاها رسولهم صالح عليه السلام، وكانت هذه لامتحانهم بها، فإذا أخَلُّوا بها أنْزَلَ اللَّهُ بهم الْعَذَابَ الْمُهْلِكَ الْمُذِلّ.

فاتّفَقَ كُفَّارُهُمْ على التخلُّص من النَّاقة، ورَضُوا بأنْ يَتَولَّىٰ أَمْرَ عَقْرِها أشقاهم، فعقَرَها فأهلَكَهُمْ الله.

دَلَّ علَىٰ هذا قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول):

﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ۝١٥ ﴾.

فَدَمْدَم عليهِمْ ربهم: أي: أطبق عليهم وسائل التعذيب، وأهلكهم، فدفنهم، وسوّىٰ الأرض فوقهم.

وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بياناً لما خاطب به صالحاً عليه السلام بشأن الناقة:

﴿ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ۝٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ۝٢٨ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ۝٣١ ﴾.

فتنة لهم: أي امتحاناً واختباراً لهم. **الهشيم**: ما يَبِسَ من النبات وتكسر

وتحطم. **المحتظر**: صاحب الحظيرة.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن ثمود وعقرهم الناقة:

﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

وفي استجابة الله عزّ وجلّ لثمود مقترحَهم بشأن الآية الخارقة تَقْديمُ برهانٍ تجريبيّ للناس على أنّ الاستجابة لمطالبهم التعنتية في الآيات الخارقات لا ينفع في تخفيف عنادهم وإصرارهم على الباطل، ولا يُضيف إلى استيقان قلوبهم إضافة تجعلهم يؤمنون بالحق، ولهذا قال تعالى في سورة (الإسراء/ ٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

مُبصرة: أي: واضحة، أو تُبَصِّرُهُمْ وتُبيّن لهم.

* * *

الفقـرة الثـانية

سياسة صالحٍ عليه السلام في دفع اعتراضات قومه وشتائمهم وتطيُّرهم وجدليّاتهم

لم يكن من ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام إلاّ الاعتراضُ على كَوْنه بشراً واحداً منهُمْ، وبأنّ الله لو شاء لأنزل ملائكة، واتهامُه بأنّ له مصلحةً شخصيّةً دنيويةً لدى قومه من دعوته، والتطيُّر به وبمن معه من الذين آمَنُوا به لمَّا أنزل الله بهم ما يَسُوؤُهم من المصائب، الّتي امتحنهم الله بها، وجعلَها تنبيهاً وتذكيراً بعقوباته الكبرى.

وشتموه بأنّه كذّابٌ أشِرٌ، أي: مستكبر، وبأنّه من الْمُسَحَّرِين.

● وقد اكتفىٰ عليه السلام في دفع اعتراضهم على كونه بشراً واحداً منهم بتذكيرهم بأنّ اللَّهَ جعلهم خلفاء من بعد عادٍ، وهم يعلمون قِصَّتهم ويعلمون أنّ رسولهم كان هوداً عليه السلام، وأنّه كان بشراً واحداً من قومه، وبما أجاب اتّهامهم له بأنّ له مصلحة شخصيّة دنيوية لديهم، بقوله لهم كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

وهذا الدفع هو ما دفع به نوح وهود عليهما السلام من قبل صالح عليه السلام.

● ودَفَعَ تَطَيُّرَهُمْ به وبمن معه من المؤمنين ببيانِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الّذي أنزل

بهم ما ساءهم من المكاره، ليمتحنهم وليذيقهم بعض العذاب ليُذَكرهم.

دلّ على هذا ما جاء بشأنهم في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

تُفْتَنُونَ: أي: تُمْتَحنُونَ وتُختبَرون وتُعَذَّبُونَ ببعض العذاب لعلكم تتذَكَّرُون وتتَّعِظون.

● وأعرض عن شتيمتهم له بأنَّهُ كَذَّابٌ أشر، وبأنَّه مِنَ المسحَّرين، لكنّ الله عزّ وجلّ أبان له بأنَّهم سيعلَمُون مستقبلاً من الكذّابُ الأشر.

وقد دلَّ على أقوالهم فيه ما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴿١٥٤﴾ ﴾.

ومَا جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وسُعُر: أي: وجنون.

أشِرٌ: أي: مُسْتَكبِرٌ، طالبُ سلطانٍ ومُلْك.

الجدليـات:

ولم تُواجه ثمودُ رسولَهُمْ صالحاً بجدليّات خاصة، وإنّما واجه كبراؤهم ضعفاء من آمن به بأسئلَةٍ استدارجيَّة، بغية فِتْنَتِهِم، فلمَّا أجابُوهم بأنّهم قد آمنوا بما أُرْسِلَ به، قابَلَهُم كبراءُ قومهم بإعلان أنَّهم كافرون بما آمن به هؤلاء الضعفاء.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

فقد كانت المعركة الجدليّة بيْنَ الذين آمنوا به والّذين كَفرُوا به، وكان معظم الذين آمنوا به من المستضعَفِين من قومهم.

وقد دلّ على هذا قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

لكنّهم قَالُوا له: إنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إليه مُرِيب.

فقال لهم كما جَاءَ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) بشأن عموم الرُّسُل السابقين:

﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ... ﴿١٠﴾﴾.

انظر الآيات من (٩ ـ ١٢) من سورة إبراهيم.

* * *

الفقـرة الثـالثة

سياسة صالح عليه السلام في تحدي
قومه له باستعجال العقاب

لم يَلْجأْ قوم صالحٍ عليه السلام إلى الأساليب الجدليّة، ولا إلىٰ وسائل الضغوط الاضطهاديّة، فقد كان له في قومه أولياء ذوو قُوَّةٍ فيهم يحمونه بالعصبيَّةِ.

وإنّما لجؤوا إلى إعلان كفرهم بما جاءهم به، وإلَىٰ تَحَدِّيه بأَنْ يأتيهم بعذاب الله المعجّل في الدّنيا، وهو ما كان يُنْذِرُهم به إذا أَصَرُّوا على كفرهم وعنادهم وإفسادهم في الأرض، واستحبوا العمىٰ على الهدى.

وقد دلّ على تحدّيهم هذا ما جاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: لِمَ تسْتَعجِلُونَ بإنْزَال ما حذّرْتكم منه من عقاب الله لكم على كفركم، وعنادكم وإفسادكم في الأرض، قَبْل استيفاء ما قَسَمَ الله لكم من حَسَنةٍ في الحياة الدنيا، وهي المعاش الطيب الّذي هم فيه.

ووعظهم بقوله: هلا تستغفرون الله ليرحمكم فيغفر لكم من ذنوبكم، والاستغفار إنما يكون بعد الإيمان والتوبة وإعلان الطاعة.

ويظهر أنَّ صالحاً عليه السلام لم يَدْعُ رَبَّهُ بأن يعجّل عقابه لهم، بل أمهلهم رجاء أن يؤمن منهم فريق آخر غير الذين سبق أن آمنوا به واتّبعوه.

ثمّ لجأتْ ثمودُ إلى عَقْرِ النَّاقة التي حذَّرَهُمْ رسولهم من أن يمسُّوها بسوء، فعقروها ليَتَخلَّصُوا من المتاعب الّتي سبَّبَتْها لهم، إذْ كان لها يوْمٌ خاصٌّ في مائهم تشرب منه ولا يشربون، وكانَ وضْعُهَا مخيفاً ومُنَفّراً لأنعامهم، وكانت تَرْعَىٰ رَعْياً كثيراً، وتُدرُّ لهم لبناً غزيراً.

دلَّ على عقْرِهمْ لها ما جاء في الآية (١٤) من سورة (الشمس).

ودَلَّ على عَقْرِهِم لها وتحدّيهم بأنْ يأتيهم بما كان قَدْ تَوَعَّدَهم به قولُ الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

وكانَ في مدينتهم تسعةُ رهط يُفْسِدُونَ في الأرض ولا يُصْلِحون فتقاسَمُوا فيما بَيْنَهُمْ أن يغتالوه وأهله معه في ليلةٍ من اللّيالي يُبَيّتُونَهُمْ بها، دون أن يكتشف أَحَدٌ ما بيَّتُوا، فإذا سُئِلوا عن الحادثة قالوا: مَا شَهِدْنا مَهْلِكَ أهله.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بشأنهم:

﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ودلَّ على أنَّ الله عزّ وجلّ عاقب ثموداً على عقرهم ناقة الله، وعلى تحديهم لرسولهم صالح عليه السلام بأن يأتيهم بما يَعِدُهُمْ به، وعلى تدبير مُفْسِديهم أن يقتلوا رسولهم وأهله النَّصُّ السّابق من سورة (النمل).

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾.

إلى غيرها من نُصُوصٍ عَامَّة.

* * *

الصــورة الرابعـة
لقطات من سياسة إبراهيم عليه السلام
في أدائه رسالة ربّه

من تتبع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة إبراهيم عليه السلام في أدائه رسالات ربّه، ظهرت لي ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: سياسته في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في حُجَجِهِ ومجادلته لقومه.

الفقرة الثالثة: صفات إبراهيم عليه السلام في ذاته وفي سياسته الدعوية.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد حول إبراهيم عليه السلام وقومه.

الفقـرة الأولـى

سياسة إبراهيم عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنيّة مع ملاحظة الترتيب التدرُّجيّ الحكيم علىٰ أنَّ سياسة إبراهيم عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والدعوة إلى نَبْذِ ما اتَّخَذَهُ قومُه من آلهة غيره.

دلَّ عَلَى هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ونلاحظ في هذا أنّ إبراهيمَ قدّم لقومه دعوتَه مقرونةً بالحجَّةِ البرهانيّة على أنَّ أوثانهم التي يعبدونها من دون الله آلهةٌ يخترعونها من عند أنفسهم افتراءً على الحقيقة، وهي في أدْنَىٰ المطلوب منها وهو الرزق عاجزةٌ عن تَهْيئَتِهِ لعابديها، وأنَّ عليهم أن يبتغوا عند الله الرّب الخالق الرزق، وأنْ يَعْبُدوهُ وحده، وأنْ يَشْكُرُوا له، وأن يَعْمَلُوا صَالحاً لِيَنَالُوا عند الله جزاءهم

لأنّهم إليه سَيُرْجَعُون بعد الموت، إذ يَبْعَثُهُم الله إلى الحياة الأخرى للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

العنصر الثاني: البدْءُ بدعوة أقرب الناس إليه، قبل دَعْوَة غيرهم، واهتماماً بالتركيز على هذا العنصر ألحَّ على أبيه في الدَّعوة، ونَوَّعَ له أساليب الإقناع، وقدّم له الحجج والبراهين، واستعطَفَهُ واستلانه، وتخضَّعَ له، وترفَّقَ به، وعاشره بالمعروف، ولم يقابله بما يَكْرَهُ، وحين طلب منه أَبُوه أنْ يَهْجُرَهُ إلى حِينٍ استجاب لطلبه ووعده بأن يستغفر له رَبَّهُ، قبْلَ أنْ يَعْلَم أنهُ مُصِرٌّ على أن يكون عدوّاً لله، فلمَّا عَلِمَ أنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تبَرَّأَ مِنْهُ.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

وقول الله عزّ وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾.

لقد أضجر إبراهيم عليه السلام أَباه في دَعْوتِهِ له وإِقَامَةِ الحجج البرهانية المقنعة، رجاءَ أن يستجيبَ له فيكون من المؤمنين الناجين من عذاب الله في نار جهنّم، ووصَل الضّجَرُ بالأب أنْ يُهَدِّدَ ابْنَهُ الناصِحَ لَهُ الْمُلحَّ عليه بالنصيحة وإقامة البراهين المقنعة بالرَّجم فقال له: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾. ويظهر أنّ

هذا التَّهْدِيدَ صَدَرَ مِنْهُ وهو في حالةِ ضِيقِ صَدْرٍ، إذْ لم يستطعْ أنْ يُجيبَ على حُجَج ابْنِه البرهانيّة، وضِيقُ الصَّدْرِ يُولّد غضباً، ومع الْغَضَب تَصْدُرُ عِبَاراتُ التّهديد الّتي قَدْ تَصِلُ إلى التّهديد بالقتل.

ويَظْهَرُ أنَّه لما سَكَتَ غَضَبُه تراجَعَ عن التهديد بالرَّجم، وطَلَبَ من ابْنِهِ أنْ يَهْجُرَهُ مُدَّةً طويلةً من الزَّمَن، فقال له: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾.

الْمَلِيُّ: الْمُدَّةُ الطويلةُ من الزَّمَن.

ويظهر أنّ إبراهيم عليه السلام استشعر من عبارة ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ وعْداً ضِمْنيًّا بأن يراجع نفسه، ويتَّخِذَ تدابيرَ يتخلَّصُ بها من ضغط بيئته الإجتماعية، فوعده بأنَّه سيستغفر له ربّه، وقال له: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي: إنَّ رَبّي كان بـي لطيفاً مُكْرِماً يستجيب لي إذا دعوته.

العنصر الثالث: أنّه كان حين يَدْعُو قومه، ويُقيم لهم الحجج والبراهين، كانَ يُوَجِّه خطابَهُ لأبيه وقومه معاً، على الرُّغم من أنّه سبَقَ أَنْ دَعَا أباه وحاجَّهُ بصورة مُنْفَردة.

دلّ على هذا ما جاء بشأن مجادلته لأبيه وقومه معاً في سورة (الشعراء/ ٢٦)، (انظر الآية ٧٠) وما جاء أيضاً في سورة (الأنبياء/ ٢١)، (انظر الآية ٥٢) وما جاء في سورة (الصافات/ ٣٧)، (انظر الآية ٨٥) ففيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾.

* * *

الفقـرة الثانيـة

سياسة إبراهيم عليه السلام في حُجَجه ومجادلته لقومه

لقد أثنى اللَّهُ عزّ وجلّ على إبراهيم عليه السلام بأنّه آتاه الحجَّةَ الرَّبَّانيّة الدامغة المستندةَ إلى بُرْهَانِ الحق، فقال تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

وقد جاء في القرآن المجيد موجَزٌ مُخْتَزل مِنْ مُجادَلاته لِقَوْمه في سورة (الأنعام/ ٦) وسورة (الشعراء/ ٢٦) وسورة (البقرة/ ٢) وسورة (الصافات/ ٣٧) وسورة (الأنبياء/ ٢١) وسورة (العنكبوت/ ٢٩).

واستعرض هذه النصوص بشيءٍ من التّدبُّر لاكتشاف مواقفه الفكريّة البرهانيّة، وسياسته الجدليّة المفحمة الدامغة المقرونة بالحكمة والموعظة الحسنة.

النص الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا

ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾
وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي
شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم
مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾.

مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ والأَرضِ: مَلَكُوت: صيغةٌ مشتقَّة مِنَ الْمُلْكِ للدَّلاَلَةِ عَلَى الْمُلْكِ الفخم العظيم، والْمُلْكُ هو السلطان والعزّة والْقُدْرَةُ على التَّصرُّفِ الشّامل.

ورؤيةُ إبراهيم ملكوتَ السّماواتِ والأَرْض هي رؤيتُهُ ظواهرَ مُلْكِ اللَّهِ الْفَخْم العظيم في الكَوْنِ، الدّالّة على صفاتِهِ العظيمة الجليلة، وأسمائِه الحُسْنَىٰ، نظراً إلى أنّ هذه الظواهر هي من آثارها.

ورؤيَتُهُ لها هي رؤيَةٌ فكريَّةٌ عقليّة، مستندة إلى إدْراكاتٍ حِسّيّة.

وبهذه الرُّؤيةِ الفكريَّةِ يُدْرِكُ صِفاتِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، وبها يكونُ مِنَ الْمُوقِنِينَ به، وَبِأَنَّهُ لَيْسَ شيئاً مِنْ هٰذِهِ الظَّوَاهِرِ الدَّاخِلَةِ في مَلَكُوتِ السَّمَاواتِ والأَرْضِ، الْخَاضِعَةِ لِسُلْطَانِ رَبّ خالقٍ لا يُمْكِنُ أنْ يكونَ جُزْءاً منها، فقال تَعَالَىٰ: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أي: من الموقنين بأنّ لملكُوتِ السَّمَاوات والأَرْضِ رَبًّا خالقاً يتصَرَّفُ فِيهِ عَلَىٰ ما يشاءَ بإحْكامٍ وإبْداعٍ وإتقان.

ومِنْ ثمراتِ رؤية إبراهيم عليه السلام مَلَكُوتَ السَّمَاوات والأَرْضِ، رؤيَةً دقيقةً عَمِيقَةً، تَنْتَقِلُ مِن الظواهِرِ الْكَوْنيَّةِ المشهودة إلىٰ ما وراءَها من عالم الغيب، أنّه اسْتَطَاعَ أَنْ يختارَ مِنْ ظَواهِرِ الكَوْنِ في تقديم حُجَجِهِ

الْإيمانيَّة، مَا لِقَوْمِهِ عَقِيدةٌ فِيهِ، بأنَّها أرْبَابٌ أولها تَأْثِيراتُ رُبُوبِيَّة، وهي أجرامُ السَّمَاءِ المضيئة.

ذكر المؤرخون أنّ قوم إبراهيم عليه السلام وهم الكلدانيون كانوا يَعْبُدونَ الكواكب السبعة بأقوالٍ وَأفعالٍ توارثوها، ويَعْتَقدون أَنّ لها تأثيراتٍ رُبوبيّة، ويتّخِذُونَ لها هَيَاكِلَ وتماثيل، وكَانُوا يعبدون هٰذه الهياكل والتماثيل الّتي يصنعونها بأيديهم، رُمُوزاً لأرْبَابِهِمْ الّتي هي آلهتهم، ويقدّمون لها القرابين، ويقيمونَ لها أَعْياداً.

فتدرَّجَ مع قومه بأسلوب باحِثٍ عَنْ رَبِّه، في الأجرام المضيئة في السَّماء، وهي السَّاحةُ الَّتي يُؤْمن قومُهُ بأنَّ أَرْبَابَهُمْ التي لديها نَفْعُهم وضَرُّهم بعضٌ مِنْها.

فتحينَ عليه السلام مُنَاسبَةً مِنَ المناسبات الصالحة لتقديم حُجَجه لقومه، مسايراً لهم في مفاهيمهم الاعتقاديّة، فترقَّب حتَّىٰ جَنَّ عَلَيْهِ اللّيل.

جنَّ عَلَيْه اللّيل: أي: سَتَرَه بِظُلمته، أو جعل عليه من الظلمة غطاءً ساتراً.

فجعل يَبْحَثُ عَنْ رَبِّه على طريقةِ قومِه في نُجُومِ السَّماءِ، إذْ ظَهَرت له في اللّيل المظلم واضحةً، ويظهرُ أنَّه اختار ليلاً من أواخر الشهر ليس فيه قَمَرٌ بَازغ.

وبعد البحث انتقىٰ من الكواكب أكبرها وأوْضَحها في نَظَر الْعَيْن، فقال لقومه الّذين اختارهم لإجراء تجربته معهم في البحث للوصولِ إلى الحقيقة، على سبيل الطَّرْح الاحتماليّ الافتراضيّ بغية الدراسة التأمُّليَّة: «هَذَا رَبِّيّ» أي: هذا أكبر هذه الكواكب الظاهرة في السّماء، فَلأَفْتَرِضْ أنّه هُوَ الأَحَقُّ مِنْها جميعاً بأَنْ يكونَ رَبِّي الّذِي يُمِدُّني دواماً بعطاءاتِ رُبُوبيّته الدائمة في الحياة، ومنها الرزق والصحّة والمعونةُ والعزّةُ والنصرُ والأمن.

وانتظر يراقبُ هذا الكوكب المحتمل افتراضاً أن يكون هو الربَّ، لكنّه وجده في آخر اللّيل ومع ظهور الفجر قد بدأتْ أنوار الصباحِ تغْلِبُهُ حتَىٰ أخفته فأفَلَ «أي: غاب».

فلمَّا أفَلَ، قال للذين يتدرّج معهم في البحث مسايراً طريقتهم بشأن تعظيم الأجرام السماويّة إلى مستوىٰ الربوبيَّة: لو كان هذا الكوكب هو الرّبّ الذي نبحث عنه، لما استطاع ضَوْءُ النهار أَنْ يغْلِبَهُ حتَّىٰ يجعلَهُ آفلاً، فَرَبُّ الكون لا يمكن أن يُغْلَبَ مِنْ ذي قُوَّةٍ أعْظَمَ مِنْ قُوَّتِهِ ولَوْ بوجْهٍ من الوجوه.

إذنْ: فأعظم هذه الكواكب لا يستحقُّ أن يكون هو الربّ الذي يُعْبَد، ويُرجَىٰ نفعُه، ويُخْشَىٰ ضُرُّهُ، وأَنَا لا أُحبُّ أَنْ أتّخِذَ لِنَفْسِي رَبًّا لاَ يَحْمِلُ في ذَاتِهِ صفاتِ الرُّبُوبيّةِ المنزَّهَةِ عن النقص.

وإذا كان أعظم هذه الكواكب هكذا فالكواكب الأخرى الّتي هي دونَه أولى منه بأن لا يكون شيءٌ منها رَبّاً باللُّزومِ العقلي.

ثُمَّ تَرَقَّبَ حَتَّىٰ بَلَغَ القَمَرُ ذِرْوته في منتصف الشهر، فجمع الّذين سبق أن حاول معهم التدرُّج في البحث عن الكائن العظيم الصالح لأن يكون هو رَبّ هذا الكون، فلمَّا رَأىٰ الْقَمَرَ بَازغاً «أي: طالعاً منيراً» يَعُمُّ نورُهُ الأَرْض، قال لهم على سبيلِ الطّرح الاحتماليّ الافتراضيّ: لنفترض أنّ هذا القمر البازغ الذي يملأُ نُورُهُ الأرضَ هُو الرَّبّ. وسَمَر مع الّذين اختارهم للبحث من قومه في ضوء القمر، يتحدّث معهم عن صفات الرَّبّ وخصائصه، بغية الوصول إلى الحقيقة، فإذا كان القمر صالحاً لأن يكون رّباً اتَّخَذَهُ رَبَّهُ دواماً، ووَجّه وجْهَهُ له في العبادة والدّعاء.

لكن حصل في آخر اللّيل للقمر مثل الّذي حصل سابقاً للكوكب الكبير الذي كان قد اختاره من دون سائر الكواكب، فغاب القمر آفلاً، فقال للذين اختارهم من قومه لمشاركته في التأمُّلِ والبحث: لو كان هذا القمر هو الرّبّ

لما استطاع ضوء النهار أن يغلبه، ولما اسْتَطاعَ شيءٌ من الكون أن يحجُبَه بعْدَ ظهوره.

إذَنْ: فالقمر لا يستحقُّ أَنْ يكون هو الرّبّ، وأن لا أُحِبُّ أن اتّخِذَ لِنَفْسِي رَبًّا لا يَحْمِلُ في ذاتِهِ صفات الرّبوبيّة المنزّهة عن النقص.

وأعلن إبراهيم عليه السلام رفضه لأن يكون القمر هو رَبَّ الكون وقال: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ وهو بهذا يَدْعو ربَّه ضِمناً أن يهديه إلى الحقّ.

بَعْدَ ذلك ترك الليل وما يظهر فيه من أجرام سماويّة، وقال لمرافقي تأمُّلاته: ليس شيءٌ ممّا يظهر في السماء ليلاً صالحاً لأن يكون هو الربّ المتصرّف في الكون، فلنتحوّل إلى النهار، بحثاً في السماء أيضاً، ومعلومٌ أنَّ السَّماء لا يظهر فيها نهاراً إلاّ الشمس، فلمَّا رأىٰ الشمس بازغةً قال لهم على سبيل الطرح الاحتماليّ الافتراضي: لنفترض أنّ هذه الشمس المشرقة هي الربّ: فهي أكبر من أكبر كوكب سماويّ ظهر لأعْيُنِنَا، وهي أكبر من الْقَمر، وظَلَّ يُراقب الشَّمْسَ ويتحدَّث عن حركتها وعن آثارها وصفاتها، فلمَّا غَرَبتْ آفِلَةً آخر النهار أبانَ لهم أنّها لا تَغْرُبُ إلاَّ بسبب شيءٍ قد حَجَبَها عن أَعْيُنِنا، والحاجب القادر على أن يَسْتُرَ ضياء المحجوب المؤهّل بذاته للظهور للأعين، لا بُدَّ أن تكونَ فيه قُدْرةٌ تَغْلِبُ ضوءَهُ، وَرَبُّ الكون لا يمكن أن تغلبَهُ قدرة هي من خلقه، وأنا لاَ أحِبُّ أنْ اتّخذ لنفسي رَبًّا لا يحمل في ذاته صفات الربوبيّة المبرّأة من النقص، أمّا عدم رؤيتنا له فيرجع إلى عجزنا نحنُ عن رؤيته.

وبهٰذه الرّحلة البحثيّة القائمة على طرح الاحتمالات الافتراضيّة أسقط إبراهيم عليه السلام كُلَّ أوهام قومه الّتي ساقتهم إلى جعل طائفة من الكواكب السماويّة أرباباً وآلهةً لهم من دون الله، وبأسلوبه الإقناعي ذي النَّفَس الطويل

أبان لهم أنّه لا يَصْلُح شيءٌ من الظواهر الكونيّة المشهودة لأن يكون هو الربّ الخالق المدبّر للكون، والمتصرّف بكلّ ما فيه.

ثمّ أعلَنَ لقومه براءته من كلّ ما يُشْرِكون، وأنّه وجَّه وجْهَهُ للخالق الرّبّ غَيْرِ المدرك بالحواسّ، والذي فطر السَّمَاوات بكلّ ما فيها، وفطَرَ الأرض بكلٍّ ما فيها، وأعلَنَ لهم أنّه قد وجّه وجهه لهذا الفاطر الغيبيّ مؤمناً به، يعبده ويدعوه ويرجوه ويتوكَّل عليه.

دلّ على موقفه النهائي هذا بعد رحلة البحث التأملي قول الله عزّ وجلّ في النصّ.

﴿... قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وبعد أن وصل في رحلته التأمليّة إلى هذا القرار الجازم، مسايراً قومه في طريقة تفكيرهم في أجرام السماء، بحثاً عن الرّبّ الخالق الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، بدؤوا بمحاجّته ومُجادلته بالباطل، دون أن يقدّموا حُجَّةً تُصَحِّح مقولاتهم في أربابهم.

ويظهر أنّهم قالوا له: كيف توجّه وجْهَك في عبادتك لِرَبٍّ لَا تراه؟!

والجواب على هذا سَهْلٌ يسير، إذْ يكفي أن يقول لهم: إنَّنِي عَلِمْتُ من ظاهرات خلقه، وظاهراتِ رُبُوبيّته أنَّه كامل في ذاته، وكامل في صفاته، وأنّه الموجود الأعظم الأكبر المنزّه عن كلّ نقْصٍ في ذاته وفي صفاته، وهو الواحد الذّي لا شريك له.

فإذا قالوا له: لكنّك لا تراه.

فجوابه: أليس هو يراني، ويَعْلَمُ أنني أعْبُده، وأوجّه له وجْهِي في عبادتي له، وقد هداني إلى معرفة وجوده، ومعرفة صفاته، معرفةً عقليّة

فكريّة، من ظاهرات خلقه وتصاريفه، في كونه، وآثارِ ربوبيوته الدائمة لكلّ شيء.

واكتفىٰ النصّ القرآنيّ بالإشارة إلى هذه الفقرة من فقرات الإجابة فقال تعالى في هذا:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ. . . ﴿٨٠﴾ ﴾.

وهنا تحوَّلَ قومه إلى تخويفه بأربابهم، فقالوا له: ألا تخافُ أنْ تُصِيبَكَ آلِهَتُنَا بسوء، وقد عبدها آباؤنا وأجدادنا من قَبْلُ؟!

فأجابهم: بأنّه لا يخاف أربابَهم الّتي جعلوها شركاءَ لله، لأنّها لاَ تستطيع أن تُنْزل به سوءاً إلاّ أن يشاء رَبُّه فاطر السماوات والأرض شيئاً من ذلك، وأبان لهم بأنّ رَبّه الخالق لكل شيء، والذي هو ربّ كلّ شيء، قَدْ وَسِع كُلَّ شيءٍ علماً، لذلك فهو يخافهُ وحده، ويتوكَّلُ عليه وحده.

دلَّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النصّ حكايةً لما أجابهم به:

﴿. . . وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ. . . ﴿٨٠﴾ ﴾.

وبَعْدَ هذا ذَكَّرَهُمْ بدليله البرهاني الذي سبق أَنْ أَبَانَ لهم فيه أَنّ آلهتهم لا تستحق أن تكون أرباباً من دون الله حتى تكون آلهة تُعْبد، وأبان لهم فيه أنّ الرّب الخالق للكون والمتصرّفَ فهي، هو ربٌّ لا تُدْرِكه الأبصار، وهو غيبٌ عن كلّ الحواس، لكن تُدْرِكُ العقول والأفكار وجودَهُ وصِفَاته الجليلة، وَإِذْ ذَكَّرَهُمْ بدليله البرهاني وجّه لهم اللّوم على عدم تذكُّرِهم، فقال لهم: أتُصِرُّونَ على باطِلِكُمْ فلا تتذكّرون، دَلّ على هذا قوله لهم كما جاء في النّصّ:

﴿. . . أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾؟!.

وبعد هذا أبان لهم أنّهم هم الأحقُّ بأن يخافوا عذاب انخالق الرّب، إذْ

أَشْرَكُوا به ما لم يُنَزِّل به عليهم سُلْطاناً من حُجَجٍ بُرْهَانيّة، حتّىٰ يكون لهم بهذا السلطان عُذْرٌ يَعْتَذِرُونَ به عنده.

أمّا تَرْكُهُ هُو عبادة آلهتهم، فهو تَرْكٌ مقترن بدليل برهاني، يوجب عليه أنْ يجتنب عبادتها، لأنّها ليست شريكة لله في رُبُوبيّته، فهي لا تملك أن تَضُرَّه بشيءٍ حتّىٰ يخافها، والحجَّةُ لَهُ عند ربّه أنّه لم يأمُرْهُ بعبادتها، ولم يأْذَنْ له بعبادتها، وإذا عَبَدها من دونه عرّضَ نفسه لعذاب الله الشديد، فهو إذاً بإيمانه بربّه وبعبادته له وحده لا شريك له يكون آمِناً مطمئناً، لا يخاف إلا الله وحده.

وبَعْدَ هذه الأدلّة البرهانية العقليّة، الّتي كشفت أنّ طريقته هي الحق، وأنّ سلوكه هو السلوك الواجب في حياة الإنسان، وأنّ طريقتهم طريقة باطلة، وأنّ عبادتهم لآلهة من دون الله ظلم وعدوان على حقّ الرّبّ الواحد الأحد الذي لا شريك له، وجّه لهم سؤالاً عن الأحقّ بالأمن من الفريقين، فقال لهم كما جاء في النص:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وبعد أن عرض النصّ عنوانات طريقة إبراهيم عليه السلام الاستدلالية الحكيمة، الملائمة لأسلوب تفكير قومه، وعرض حججه في مجادلته لهم، أثنى الله عليه بقوله:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: فبحكمته وعِلْمِه يمُنُّ على من يشاء من عباده بفَضْل العلم والحكمة.

النـص الثـاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

أبانَ هذا النصُّ مُنَاظَرة جداليّة إقناعيّة جَادَلَ بها إبراهيم عليه السلام مُشْرِكي قومه بادِئاً بِأَبيه أَقْرَبِ النّاسِ إِلَيْهِ مِنْهُمْ.

وقد بدأَتْ مُنَاظرتُه لهم بأسلوب طرح الأسئلة عليهم حول الشيء الذي يعبدونه بالدّعاء، وبالعكوف عليه وملازمة التوجُّه له، فقال لهم مجتمعين:

﴿ ... مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾؟!.

أيَّ شيءٍ تَعْبُدُونَ؟

كلمة «ما» هنا استفهاميّة، وما الاستفهامية يُسْتَفهم بها عن غير العاقل لبيان جنسه أو نوعه أو شخصه، ويستفهم بها عن حقيقة الشيء، أو عن صفاته وخواصّه الّتي تميّزه، أو عن المراد باللّفظ إذا كان غير معلوم المراد، وهي هنا مستعملة للاستفهام عن جنس ما يَعْبدون في مَعْبَدهم أو عن نوعه، أو عن شخصه، فدلَّ هذا على أنّه لم يكُنْ من الّذين يدخلون معْبَدَهُمْ ليعْلَم ما يَعْبُدُون وما يفعلون في عبادتهم لها، ورُبّما كان يَعْلم ولكنّه تجاهَل لِيُجَادلهم في شأن معبوداتهم، وليكشف لهم ما هم عليه من باطل.

﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

فَنَظَلُّ لَهَا: أي: فَنُدَاوِمُ طَوَالَ النَّهار لأجل عبادتها، يقال لغةً: ظَلَّ نهاره يفْعَلُ كذا، لا يقالُ مثل هذا إلاّ لِعَمَل النهار.

عَاكِفِينَ: أي: مُلازمين عبادتَها، يقال لغة: عَكَفَ على الشيء يَعْكُف ويَعْكِفُ عَكْفاً وَعُكُوفاً، إذا أقبل عليه ملازماً له، لا يَصْرِفُ توجُّه نفسه عنه، كأنّه حابسٌ نَفْسَهُ عليه، وهذا لَوْنٌ من ألوان عبادة العاكِفِ للمعكُوف عليه.

فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ: أيْ: فنداوم طوال النهار لأجل عبادَتها عاكفين عليها، ملازمين لها ملازمة المقيم الذي أعْطىٰ توجُّه نفسه وحواسّه لما هو عاكفٌ عليه.

فأغْضَىٰ إبراهيم عليه السلام عن رَوَغانهم وتهرُّبهم في الإجابة، وانتقل إلى محاصرتهم بسؤال صريح واضح لا يستطيعون المراوغة في الإجابة عليه:

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

كلمة «هل» يستفهم بها عن وجود الشيء أو عن وجود وصف له.

فوجّه إبراهيم عليه السلام سؤالاً لهم بكلمة «هل» مستفهماً عن وجود صفة السَّمع في هذه الأصنام، إذْ يدعونها في عبادتهم لها، وعن وجود نفع يمكن أن يأتي من قِبَلِها حتَّىٰ يَدْعُوها فتستجيبَ لهم فتنفعهم، أو وجود ضُرّ يمكن أنْ يأتي من قِبلها حتَّىٰ يَدْفعوه عن أنفسهم بدُعائها وعبادتها.

لكنّهم لم يستطيعوا في الإجابة على استفهامه أن يَدَّعُوا بأنَّهم يحقّقُون لأنفسهم بعبادتها جلب نفع أو دفع ضرّ.

إنّما أجابوا بالنفي أو بعدم العِلْم، وأبانوا أنَّهُمْ بعبادتهم لها يُقلِّدُونَ آباءهم، فهم يفعلون بالتقليد ما كان آباؤهم من قبلهم يفعلون من دعائها والعكوف عليها، وهذا يتضمن ادّعاء أنّ آباءهم لو لم يجدوا نفعاً لهم من عبادتها ما عَبَدُوها.

﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

أي: نحن لا نَرَىٰ أنّ عبادتها تجلُب لنا نفعاً أو تدفَعُ عَنَّا ضُرًّا، بل وجَدْنَا آباءَنَا يعبدونها فَنَحْنُ نقلّدهم في دُعائها والعكوف عليها، ونحن نثق بأنّ آباءنا لم يكونوا يفعلون إلاّ ما فيه جَلْب نَفْع لهم، أو دفع ضُرٍّ عنهم.

حرف «بل» في عبارة ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يَعْطِفُ على مَحْذُوف مَنْفِيّ، وهو نحو ما سبق تقديره.

هنا وجَدَ إبراهيم عليه السلام أنّه مَلَكَ ضِدَّهم الحجَّة الدامغة، إذا اعْتَرَفُوا بأنّهم لا يَرَوْن أنّ عبادتها تجلُبُ نفعاً أو تدفَع ضرّاً، إنّما يُقَلِّدون في عبادتها آباءَهم، فأبان لهم أنّ التقليد الأعْمَىٰ لا يُغْني من الحق شيئاً:

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

والمعنى: أتّبَعْتُمْ آباءكم بالتقليد الأعْمَىٰ على غير عِلْم ولا بَصِيرَة، أَوَ تَعْبدون أصناماً لا تَرَوْنَ أنّها تَجْلُبُ لكم نفعاً أو تدفع عنكم ضرًّا، لمجرّدِ أنكم وَجَدْتم آباءكم يَعْبُدونها، أَفَرَأَيْتُمْ مَا كنتم تَعْبُدونَ أنتم وآباؤكم الأَقْدَمُونَ فإنّهم عَدُوٌّ لي إلاّ رَبَّ العالمين.

«الفاء» في عبارة ﴿ أَفَرَءَيْتُم ﴾ فاء فصيحة، تعطف على محذوف ظهر لي بالتأمُّل أنّه يَتَضَمَّنُ تلويماً لهم على تقليدهم الأعمى لآبائهم، كما ذكرت آنفاً في البيان التدَبُّريّ.

وبما أنّهم مشركون يعبدون أصنامهم، ورُبَّما كانوا كُلُّهم أو بعضهم يَعْبُدونَ أيضاً الله رَبّ العالمين في بعض أحوالهم، استثنى إبراهيم عليه السلام

من معبوداتهم رَبّ العالمين، مبيّناً من صفاته الجليلة ما يدُلُّ على أنه هُوَ الإلّه الواحد، الذي تجب عبادته وحده، إذْ لا يستحقُّ غيرُه أن يُعْبَدَ مَعه، ولا أنْ يُعْبَدَ من دونه.

إنَّ رَبَّ العالمين هو الذي بيده النفع والضرّ، والحياة، والموت، والبعث، والحساب، وفصل القضاء، والجزاء يوم الدين.

فذكر عليه السّلام من صفات ربّ العالمين ذَات الآثار في عباده، أنّه هو الذي خلقه، فهو يهديه إلى سُبُل معاشه ومعاده، وأنَّه هو الذي يُطْعِمُه ويسقيه، بما هيّأ في كونه من أسباب طعام وشراب، وأنّه هو الذي يشفيه إذا عَرَضَ له المرض، وتأدّبَ عليه السلامُ مع رَبّه، فلم ينْسُبْ إليه الإمْراضَ، فلم يَقُلْ: وَإِذَا أَمْرَضَني فهو يشفين، بل قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

وذكر من صفاته أنّه هو الذي يميته إذا جاء أجَلُه، ثم يُحْييه لِيَوْمِ الحساب والجزاء، وأنه هو الذي يطمع أن يغفر له كلّ خطيئاته يوم الدين، فألقى عليه السلام في آذانهم عقيدة الدينونة والجزاء في اليوم الآخر، وفتح لهم باب الرجاء بالعفو والغفران إذا آمنوا وتابُوا إلى بارئهم، من خلال تعبيره عن نفسه وعَنْ عقيدته الإيمانيّة.

النـص الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ: أي: أَلَمْ تَرَ رؤيةً تفكرِيَّةً ناظراً بها نظر متعجِّب إلى الذي...

حاجّ إبراهيمَ: أي: جادَله فأَدلىٰ كُلٌّ منهما بحُجَجِه.

فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ: أي: اسْتَولَتْ عليه حُجَّةُ إبراهيم وغَلَبَتْهُ، فانْقَطَعَ وسَكَتَ مُتَحيِّراً مُنْدَهِشاً، يقال لغة: بَهِتَ يَبْهَتُ، وبُهِتَ يُبْهَت، إذا أُخِذَ بالحجّة فشَحَبَ لونُه، وانقطع وسكت متحيّراً مُنْدَهشاً.

تحليـل النـص:

الاستفهام في عبارة: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا يتضمّن دعوةً للتفكر الواضح المشابه للرُّؤية البصريّة، في نَظَر فِكْرِيّ يستثير الْعَجَبَ من أمْرِ الملك الجبَّار الذي جادل إبراهيم عليه السلام في ربّه، مجادلةً بالباطِلِ جعلَتْهُ يُبْهَتُ أمام حُجَّة إبراهيم مُنْقَطِعاً متحيّراً مندهشاً.

قالوا: كان الملك الذي حاج إبراهيم عليه السلام «نمرود» ملك بابل الجبّار الذي كان في عهد إبراهيم عليه السلام.

وقد دلَّ النَّصُّ على أنّه جادَل إبراهيم في رَبّه، أي: في وجود رَبّه، أو في صفاته، ويظهر أنّه كانَ يدعي لنفسه أو لآلهة قومه التي يعبدونها صفاتِ الرُّبوبيّة، وقد اتّخذوا لآلهتهم الّتي هي أربابُهم أوثاناً يَدْعُونَها ويتقرَّبون لها بالقرابين، ويظلُّونَ لها عاكفين.

والنّصّ هُنَا يَعْرِضُ لقْطَةً مِنْ أواسط الْمُجَادَلَةِ حتَّىٰ آخِرِها، التي انتهت بانقطاع «نمرود» وتحيُّرِه ودَهِشته.

ويظهر أن سيدنا إبراهيم قد بدأ حديثه مع «نمرود» بدعوته ودعوة من حوله إلى نبذ ما يعبدون من دون الله، وترك عبادتها، وإلى عبادة الرَّبِّ الخالق الذي بيده الرزق والمعونة والعافية والحياة والْمَوْت، وبيده البعث إلى الحياة بعد الموت للحساب والجزاء على ما يَعْمَلُ الناسُ في الحياة الدنيا حياة الابتلاء.

فتجاهل «نمرود» بكِبْرِهِ الرّبّ الذي دعاه إبراهيم إلى عبادته وحْدَهُ لاَ شريكَ له، لقد استكبر بسبب أن آتاه الله عزّ وجلّ نِعْمَةَ الْمُلْكِ، فجعل يُجادل في وجود ربّه أو في صفاته السنيّة، التي تظهر آثارها في تصاريفه في كلّ شيءٍ في الكون، ونستطيع أن نكتشف المحذوف من الحوار الْجَدَليِّ بالتأمّل، ثمّ نصله بالمذكور في النص:

قال «نمرود» لإبراهيم: من هذا الرّبُّ الذي تدعو إلى عبادته وحده، ونبذ سائر الأرباب والآلهة، هل هو مما تراه العيون؟

قال «إبراهيم»: ليس شيءٌ ممّا تراه العيون يصْلُح لأنْ يكون رَبًّا أو إلَهاً، وقد سبق أن أثبت لقومه أنَّ الكواكب الّتي اتَّخَذَها قومُه أرباباً لا يصحُّ عقلاً أنّ تكون أرباباً أو تكون لها بعْضُ صِفاتِ الرُّبوبيَّة، من خِلالِ تَأَمُّلاَتِهِ في النجوم كما جاء في النصّ الأول الذي اشتملت عليه سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

ويظهر أنّ إبراهيم عليه السلام قد أبانَ لنمرود أنّ رَبّه لَيْسَ شيئاً ممّا يمكن أن يُدْرَكَ بالأبصار.

بعد هذا نرىٰ أن طبيعة المحاجّة لا بُدَّ أنْ تنتقل إلى السؤال عن صفات الربِّ، ذات الآثار في الظواهر الكونيّة.

ويظهر أنّ «نمرود» سأل إبراهيم عليه السلام قائلاً: ما هي إذن صفاتُ ربِّك الذي تتحدثُ عنه، وتدعونا إلى الإيمان به، وإلى عبادته وحده؟

قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

فلفت إبراهيم عليه السّلام نظر «نُمْرود» ومن حوله إلى ظاهرتي الإحياء والإماتة في الكون، بوصفهما ظاهرتَيْن تكشفان عَجْزَ الأحياء الكونيّة عن أن يكون شيء منها أزلياً، أو خالداً أبديًّا، فلا شيء منها يَصْلُح لأن يكون ربًّا،

وأمّا الكائنات غير الحيَّةِ فهي دون الأحياء في الرُّتبة فلا يصْلُحُ شيءٌ منها لأن يكون ربًّا.

إنّ ظاهرتي الحياة والموت ظاهرتان شاملتان لكلّ الأحياء المشهودة في الكون، وإنّ المتأمِّل في ظاهرة الحياة يرَىٰ أنَّها من أعجب الظواهر التي تَدُلُّ على الرَّبّ الخالق، إذْ ما من أحدٍ غير الرّبّ الخالق الذي لا تُدْركه الحواس يستطيع أن يوجد حياةً في مادّةٍ غير حيّة، وما من حيٍّ يستطيعُ أن يُحَافظ على حياته بوسيلة ما من الوسائل، فيَمْنَعَ عنها الموت الذي قضاه الرَّبُّ على كلّ الكائنات الحيّة دون استثناء فيما نشاهد من أحياء.

وكان لإبراهيم عليه السّلام في عرض هاتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْنِ تَأَمُّلاتُه الفلسفيّة، القائمة على التفكير العميق في سِرِّ ظهور الحياة في مادّة لم تكُنْ حيَّةً، وسرِّ انتهاء الحياة بالموت حتماً، إذ الموتُ غايَةُ كُلِّ حَيٍّ لَمْ يَكُنْ حيًّا ثُمَّ كَانَ في نظام هذا الكون.

ورأىٰ إبراهيم عليه السلام أنّ أفكار المفكّرين عاجزةٌ عن إدراك سِرِّ الحياة، وعاجزةٌ عن التوصُّل إلى إيجادها في المادّة الجامدة، وأنَّ الحياة لا تَظْهَرُ إلاَّ اشتقاقاً من الأحياء بالتناسل، ضمن نظام الخالق الرّبّ جلّ جلاله، وبالوسائل التي حدّدها لنظام التناسل.

ورأى أنّ الموت لا يمكن دفعه متى جاء الأجل المقدَّر المجهولُ للأحياء ممهما اتّخذوا من وسائل لإبقاء الحياة.

وهنا وجد «نمرود» الملك الجبَّار أنَّ بإمكانِه تجاهل النظرة الفلسفيّة العميقة الّتي نَبَّهَهُ عليها إبراهيم عليه السلام، ورأىٰ أن بإمكانه أن يُغَالِطَ ويتلاعَبَ في موضوع الحياة والموت، وأنْ يُقَدِّم صورةً قد يسمِّيها الناسُ في مجازات العباراتِ إحياءً، وصورةً قد يُسمّيها الناس في مجازات العبارات إماتَةً، كأن يعفو عن محكومٍ عليه بالموت فيسقط حكم الموت عنه، فيكون

بذلك قد أحياه، وكأن يأتي ببريء لا ذنب له فيأمر بقطع رأسه فيُميتَه، أو أن يتخذ أسباباً تتناسل بها مواليد، وأسباباً تموتُ بها أحياء.

وغرض «نمرود» أن يثبت لإبراهيم بحُجَّةٍ خُلَّبيَّةٍ وهميّة أنّ الإحياء والإماتة ظاهرتان ليْستَا مِنْ خصائص الربّ، بَلْ يشاركُه فيهما غيره.

وفَطِنَ إبراهيم عليه السلام أنّ «نمرود» قد يستطيع بهذه الحيلةِ الْمُغَالَطِيّةِ القائمةِ على التلاعب بالألفاظ والمراوغة أن يُطيلَ الأخْذَ والرّدّ في محاجّته الجدليّة، وقد يؤثر بها على عقول من حوله من ملأ قومه وعامّتهم، ويَخْدَعُهُم بالتلاعُب في مفاهيم الألْفَاظ، فأسْعَفَتْهُ حكمتُه وفطنَتُه أن يُعْرِضَ عن المحاجّة في ظاهرتَي الحياة والموت، ويتحوّل إلى عَرْضِ ظاهرةٍ أُخْرىٰ لا يَسْتَطيع «نمرود» أن يُغالط فيها، فذكَرَ ظاهِرَةَ شُروق الشّمْس وغُروبها.

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ . ﴿٢٥٨﴾﴾.

أي: إنَّ من ظواهر رُبوبيّة اللَّهِ الرَّبِّ الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له، أنَّه يأتي بالشَّمْسِ من المشرق، فإنْ كُنْتَ تَرىٰ لغير الله ربُوبيّةً في الكوْنِ فاعْمَلْ بشَخْصِك وبجنُودِك، أو ادْعُ أربابك من دون الله، حتَّىٰ يأتُوا بالشَّمْسِ من المغرب على عكس نظامها اليوميّ، فالرَّبُّ الذي يجعل الشمس تأتي من المشرق صباحاً لا بُدَّ أن يكون قادراً على أن يأتي بها صباحاً من المغرب.

وبما أنّ «نمرود» قد اتّخذ في الإجابة الأولى حيلة المغالطة القائمة على التلاعب في مفاهيم الألفاظ لإسقاط حُجَّة إبراهيم عليه السلام، فإنّه لم يستطع أنْ يُقَدِّم بالنسبة إلى ظاهرة الشمس مغالطة مماثلة، وهو يَعْلَمُ أنّ نظام الشمس ثابت، وأنّ أرباب قومه التي يعبدونها من دون الله لا تستجيب له في جعلها تُشْرِقُ من المغرب، ولم يكن أمامه إلاّ أن يحتار وينقطع ويبهت مدهوشاً.

قال الله عزّ وجلّ مُبَيّناً حالته هذه:

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾.

قد يُقالُ: كان باستطاعة «نمرود» أنْ يقول لإبراهيم عليه السلام: فلْيَأْتِ رَبُّكَ بالشمس من المغرب، ويَرُدَّ عليه سؤال التحدّي.

وأقول: يظهر أنّ «نمرود» فطن إلىٰ أنّه لو عكس على إبراهيم سؤال التحدّي، لاستطاع إبراهيم أن يسأل ربّه فيأتي بالشمس من المغرب، فإذا فعل ذلك أفسد عليه شَعْبَه، وجعلهم يؤمنون بما يدعوهم إليه إبراهيم، وبهذا يفقد مُلكه في قومه، فآثر أن ينقطع في المحاجّة، ويَتَّخِذَ وسائل أخرى تتناسب مع سلطانه وجبروته في بلاده، والله أعلم.

* * *

النصوص الرابع والخامس والسادس

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) عطفاً على الكلام على نوح عليه السلام:

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى
ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا
لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا
تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ
كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾.

وإنَّ مِنْ شيعَتِهِ لإِبْراهيم: أي: كان إبراهيم على ملّة نوح عايه السلام

التي بقيت أصولٌ اعتقادية منها معروفة عند بعض قومه، فأخذ بها واتّبعها، ثم نبأه الله وبعثه رسولاً.

أئفكاً آلهة: الإفْكُ الكذب، أي: أآلهة تصنعونها أنتم وتكذبون بجعلها آلهة.

فراغ إلى: أي: فمَالَ سِرّاً إلى. **فراغَ عليهم**: أي: فمال سرّاً بحركة روغان خفيفة سريعة وأقبل عليهم ضرباً. **يَزِفُّون**: أي: يُسْرِعون المشي.

٢ ـ وقول الله عزَّ وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) عطفاً على الكلام على موسَىٰ وهارون عليهما السلام:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

جُذَاذاً: الجذاذ ما تكسّر من الشيء الصُّلْب.

ثم نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ: أي: انقلبوا إلى الباطل بعد أن أدركوا أنّهم الظالمون.

وأرادوا به كيداً: الكيد تدبير أمْرٍ فيه مكروه لمن دُبّر ضدّه.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) عطفاً على عرض لقطةٍ من قصة نوح عليه السلام وقومه:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

وبعد فاصلٍ تضمّن كلاماً يَتعلّقُ بالمشركين إبّان نُزُول سورة (العنكبوت) عادَ النّصُّ فتابَع كلاماً يتعلّقُ بإبراهيم عليه السلام وقومِه، فقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

وتَخْلُقُونَ إِفْكاً: أي: وتَفْتَرون بأصنامكم كَذِباً على الحقيقة إذْ تَجْعَلُونها آلهة تُعْبَد، مع أنّه لا إلَه يُعْبَدُ بحقٍ وصِدْقٍ إلاّ الله لأنّه هو الربُّ وحده.

مَوَدَّة بَيْنِكُمْ: أي: إنّما جعلتم الإيمان بالأوثان وعبادتها وتعظيمَها رَابطة مَوَدَّة اجتماعية واصلةٍ بين أفرادكم. الْبَيْنُ: من الأضداد فيكون بمعنىٰ الفصل والانقطاع، ويكون بمعنى الوصل والاجتماع، والمعنى في النصّ هنا على الوصل والاجتماع فيما يظهر بالتأمّل.

فالوحدة الاعتقادية ولو كانت على عقيدة باطلة تمثّل رابطةً من روابط المودّة الاجتماعيّة.

نظرة عامة إجمالية:

هذه النصوص الثلاثة من (الصافات، والأنبياء، والعنكبوت) مع النصّ الذي سبق شرحه من سورة (الشعراء) نُصُوصٌ متكاملة فيما بينها، وهي تعبّر عن دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه، ومجادلته لهم، واتّخاذ وسيلة عمليّة لإقناعهم بأنّ أوثانهم الّتي يعبدونها ملاحظين ما تَرْمُزُ إليه من أشياء، لا تستطيع أنْ تَنْصُر نفسها ممّن يكسِّرها ويُحَطّمها ويَجْعَلُها جُذاذاً، فقد فعل بها إبراهيم عليه السَّلامُ ذلك عنْد خروج النّاس إلى عيدٍ لهم، إذْ أسْرَعَ بخِفَّةٍ وخُفْيةٍ إلىٰ معبدهم فجعل يُكَسِّرها ويحطّمها بأداةٍ أمسكها بيمينه حتَّىٰ جَعَلَها جُذاذاً قِطَعاً مُكَسَّرَة، إلاَّ صنماً كبيراً بينها، فقد تركه قائماً سالماً، ورُبَّما علّق عليه الأداة الحديديّة التي كسّر الأصنام بها، ليُلْقي عليه في أُسْلوب إقناعه الجدَلي تُهْمَةَ أنَّهُ هُوَ الذي حَطَّم الأصنام انتصاراً لكبريائه، ثم قدّم لقومه عند محاكمته صورة جدالٍ تَهَكُّمِيٍّ بعقولهم وبمفهوماتهم الباطلاتِ.

وتُبَيِّن هذه النصوص أنّ القوم قد غضبوا من عمل إبراهيم عليه السلام بأوثانهم، وأرادوا أن ينصروا أوثانهم المحطّمَةَ بقَتْلِه أوْ حَرْقه.

ثم استقرّ رأيُهم على تَحْريقه داخل بناء يبنونه لهذه الغاية، يجعلونه بمثابة فُرْنٍ كبير يملؤونه حطباً، ويوقدونه حتَّىٰ يكون جمْراً ولهباً، وقد فعلوا، وساقوا إبراهيم عليه السلام مقيّداً، ووضعوه على آلة أو حَمَلوهُ بأيديهم وقَذَفُوه من مكانٍ مُرْتفع في البناء الذي صنعوه وأوقدوه.

وقال الله عزّ وجلّ للنّار كوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم، فكانت كما أمرها الله العزيز الجبار الّذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول لَهُ: كُنْ فيكون.

وخرج إبراهيم عليه السلام من النار طليقاً لم تمَسَّهُ النار بأذىً، وأمّا

الذين أرادوا تحريقه فكانوا هم الأخسرين والأَسْفَلين.

وتابع إبراهيم عليه السلام دعوته في قومه، ومجادلته لهم زمناً يسيراً، لعلَّ آيَةَ إنقاذه من الناس قد أقنعتهم بأنَّهم مُبْطلون وأنَّهُ رَسُولٌ من عند الله يدعوهم إلى الحقّ، ويُنَبِّهم بما هو حقّ، ولمّا رأىٰ أنَّهم قومٌ مَيْئُوسٌ من استجابتهم لدعوة الحقّ وأَذِنَ اللَّهُ له بالهجرة من أرضهم، أَعْلَنَ أنَّه سَيُهاجرُ، وأنّ الله سَيَهْديه إلى مَهْجَرٍ مُبَارك، وقد آمن به من أهله ابْنُ أخيه لوطٌ عليه السلام، فخرج مهاجراً معه، ضِمْنَ من اتَّبَعه من أهله بالهجرة، وانتهت به رِحْلَةُ الهجرة إلى الأرض المقدّسة في بلاد الشام آخر الأمر.

نظرة تفصيليّة من خلال فقرات النّصوص:

دلّت النصوص على أنّ إبراهيم عليه السّلام تَدَرَّج مع قومه في أسئلته لهم عن معبوداتهم، فقد كانُوا يعبدون آلهة كثيرة، وينحتون لها تماثيل.

وعند المؤرّخين أنّ نشأته مع أبيه وإخوته كانت فيما بين النهرين، في «أُورالكلدانين» والنهران هما دجْلة والفرات، وجاء عند المؤرخين من أسماء آلهتهم: «بيل ـ نبو ـ مردوخ» وأنّهم صنعوا لها أصناماً عديدة، وأنّهم شادوا لها هياكل (أي: بيوتاً كبيرة) كالمعابد الكبيرة المعروفة عند كلّ الأمم.

فسأل إبراهيم عليه السلام قومه بادئاً بأبيه فقال لهم كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦): ﴿ . . . مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠﴾؟.

أي: أيّ شيءٍ تَعْبُدونَ؟ وقد سبق بيان هذا لدى شرح النص.

وقال لهم كما جاء في سورة (الصافات/ ٣٧): ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥﴾؟.

فأعاد الاستفهام بصيغة مؤكّدة، دلَّ عليها إضافة «ذا» إلى «ما» الاستفهامية، لتأكيد الاستفهام قاصداً معرفة الأشياء الّتي تَرْمُزُ إليها الأصنام الّتي يَعْبُدونها.

ثم لمّا شاهد بصُحْبتهم الأصنامَ التي يعبدونها في الهيكل الذي بَنوهُ لعبادتها، قال لهم كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١): ﴿. . . مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾؟.

فاسم الإشارة «هذه» دلّ على أنَّه صحبهم إلى معبدهم، فرأىٰ أصنامهم وعكوفهم عليها، والاستفهام هنا موجّه للسؤال عن حقيقتها، أو عن صفاتها التي تُؤهّلها لأن تكون معبودة.

وسألهم عن أصنامهم الأسئلة الّتي جاء بيانها في سورة (الشعراء/ ٢٦):

﴿. . . هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾؟.

فكان جَوَابُهُم التلقائي أَخْذاً ممّا جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦):

﴿قَالُواْ: بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: لا يسمعون دعاءنا ولا ينفعوننا ولا يضرُّوننا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون.

وعابَ عليهم إبراهيم عليه السلام دعاءهم لها، وعكوفهم عليها، وأبان لهم أنّ هذا العمل هو عبادةٌ لها من دون الله، وأنّ العبادة لا تكون إلاّ لله عزّ وجلّ، فأجابوه بقولهم كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

فاعترفوا بأنّ أفعالهم الّتي يَفْعَلُونها بأوثانهم هي عبادة لها، وأشاروا ضمناً إلى أنّ وَلاءهم لآبائهم يُلْزِمُهم بأن يَعْبُدُوا ما كان آباؤهم يَعْبُدون.

فقال لهم إبراهيم عليه السلام كما جاء في سورة (الصافات/ ٣٧):

﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: أتُرِيدونَ آلِهةً تُدَّعَىٰ لها الإلَهيّةُ بالكذب، دون الله الحقّ الذي لا إلَه إلاّ هو.

فما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ العالمين، الخالق للكون، والممدِّ له بعطاءات ربوبيّته دواماً؟. أي: هلْ يمكن أن يكون شيئاً من هذا الكون الخاضِع لسلطانِ رُبوبيّته، فابحثُوا بأفكاركم، فهلْ تَصِلُونَ إلى ظنٍّ بأنّ رَبّ العالمين يمكن أن يكون شيئاً من الكون، أو أن يُمَثَّلَ بشَيْءٍ من الكون؟!

وقال لهم كما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ونفهم من المطويّات في النصّ أنّهم قالوا له: كيفَ تَعيبُ علينا عبادتنا لأوثاننا ونحن نُقَلِّد بعبادتنا لها آباءنا؟! أفكان آباؤنا من قَبْلِنا على ضلالٍ وكُلُّ عاداتنا مأخوذة عنهم؟!

فأجابهم بما جاء بيانُه في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

وبما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦) مشيراً إلى آبائهم الأقْدَمين:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

ويظهر أنّ قومه قَدْ كبُر عليهم أنْ يتّهمهم ويتّهم آباءهم القريبين

والأقْدَمين بأنّهم في ضلالٍ مبين، وأن يُعْلِنَ عداوته لآلهتهم، فقالوا له كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

فأبان لهم أنَّه قد جاءهم بالْحَقِّ، وأنّه ليس من اللاّعبين، وأبان لهم أنه ليس شيءٌ من آلهتهم رَبًّا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدُ، بل رَبُّهم هو رَبُّ السّماوات والأرض، وهو الذي فَطَرَهُنَّ، دل على هذا ما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

«بل» حرف عطف قد يعطف به على منفيّ محذوف وهو هنا ما سبق بيانه، أي: بل ربكم الذي يجب أن تدعُوهُ وتعبُدوهُ وحْدَهُ هو الذّي يُهَيْمِن على السماوات والأرض بربوبيته دواماً، وهو الذي خلقهُنَّ ابتداءً، فلا يكون بحالٍ من الأحوال شيئاً من السّماوات والأرض، بل يجب أنْ يكون كائناً عظيماً غيرهما حتماً، وهذا ما تدلُّ عليه براهين العقل، وأنَا على ذلك كُلّه من الشاهدين شهوداً فكريًّا علميّاً، كيف لا يكون من الشاهدين وقد نوّر الله بَصيرَته فأراهُ بها ملكوت السماوات والأرض، فعلم أنّ كلَّ شيءٍ في السماوات والأرض هو مخلوق لله عزّ وجلّ وخاشع لسلطان ربُوبيّته دواماً.

وهدَّدَهُ قومُه بانتقام آلهَتِهمْ منه، كما أشعر النصّ الذي في سورة (الأنعام/ ٦) وقال لهم كما جاء فيه:

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا... ﴿٨٠﴾﴾.

وقال في نفسه كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

إنّه أقسم هذا القسم بينَه وبين نفسه دون أن يُسْمَعهم ما عزم عليه،

بدليل أنّه لم يَشْهَدْ عليه بهذا القول أحَدٌ عنْدَ سؤالهم له عمَّن حطَّم أصنامهم.

ثمّ إن إبراهيم عليه السلام ترَقَّبَ يَوْمَ عيدٍ لقومه يخرجون فيه إلى خارج المدينة، فدعَوْهُ إلى الخروج معهم يوم عيدهم كَعَادَةِ سَائرِ القوم، وكان قَوْمُه نَجَّامِينَ، ينظرون في النجوم، ويستخرجون من النظر إلى ظهور بعضها، واختفاء بعضها، واقترانِ بَعْضِها ببعض، وافتراق بعضها عن بعضٍ، تنبُّؤَاتٍ غيبيّة مستقبلِيَّةً ستحدث في الأرض أو في بعض سكانها، فأوهمهم أنّه على طريقتهم في التنجيم، ليعتذر عن الخروج معهم إلى عيدهم، فنظر أمام جمع منهم ليلاً في النجوم، فأخبرهم عقب هذه النظرة الإيهاميّة أنه سيكون في يوم عيدهم سقيماً، لذلك هو لا يستطيع أن يخرج معهم إلى عيدهم، دلّ على هذا ما جاء في سورة (الصافات/ ٣٧):

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾.

فخرَجَ القوم إلى عيدهم، وفرغت المدينة من أهلها، كما قال تعالى في سورة (الصافات/ ٣٧):

﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

وفي يوم العيد انْطَلَقَ إبراهيم عليه السلام بخُفْيَةٍ وخِفّة حركة، إِلَىٰ مَعْبَدهم حيْثُ وضَعُوا خيرة أصنامهم التي يَعْبُدونها، الصغارَ منها والكبار.

وكان قومه قد وضَعُوا بين يدي صنامهم في الهيكل طعاماً، زاعمين أن الأصنام تنتفع بشيء ما منها كالرائحة، قال تعالى في سورة (الصفات/ ٣٧) يصف ما فعل إبراهيم عليه السلام:

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

فلمّا رآها لا تأكلُ ولا تنطق، أخَذَ بيمنه أداةَ تحطِيمٍ وتكسيرٍ تتكَسَّر بها الأصنام، فأقبل عليها بخُفْيَةٍ وخِفَّةٍ ونشاطٍ وسرعة حركة، وجعل يضربُها

بِيَمِينه حتى جعَلها جميعاً مكَسَّرَة محطَّمةً إلاَّ صنماً كبيراً منها، كما قال تعالى في سورة (الصافات/ ٣٧):

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾

وكما قال في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

فلما رجعوا من عيدهم، ودخل بعضهم إلى المعبد رأوا أصنامهم مُكَسَّرَةً مُحَطَّمَةً، إلاَّ صنماً كبيراً فيها، فتساءلوا فيما بينهم كما جاء في سورة (الأنبياء / ٢١):

﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

فجاء الجواب الظَّنِّي من الذين كانوا قد سمعوا من إبراهيم عليه السلام في الأصنام أنَّها إفْكٌ، وأنَّها لا تَنْفَعُ ولا تَضُرَ، وأنَّها لا تستحقُّ أن تُعْبَد، وأنّ العبادة لا تكون إلاّ لربّ السماوات والأرض الواحد الأحد، كما قال تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: يذكر أصنامهم التي يعبدونها بسوء، ويدعو إلى نبذ عبادتها، وإلى عبادة الله وحده لا شريك له.

فطلب ملؤهم إحضارَهُ، كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

فانْطَلَقَ فريق منهم لإحضاره مُسْرِعين، كما جاء في سورة (الصافات/ ٣٧):

﴿ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

فقبضُوا عليه، وأحضروه أمام جَمْعٍ حاشدٍ في معبد أصنامهم، لمساءلته ومحاكمته، وقالوا له كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾.

فَجَحد عليه السلام أنّه هو الفاعل جحوداً ظاهراً، ليلزمهم بالحجَّةِ العمليّة، ويُظهر أنّ أصنامهم لا تستطيع أن تنتصر لأنفسها، فضلاً عن أن تنصرهم، وتنفعهم بنافعة إذا دَعَوْها أو عَبَدُوها، وأجابهم بما جاء بيانه في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

أي: لم أفعله أنا بل فَعَلَه كبيرهم هذا، وهذا جوابٌ صورتُه صورة الكذب، وحقيقَتُهُ تَهَكُّمٌ بهم، واعترافٌ ضِمْنِيٌّ بأنه هو الذي حطَّم أصنامهم.

فلمّا أجابهم بهذا الجواب أيقظ فيهم فكراً ووجداناً كانا نَائمين تحت تأثير التقاليد العمياء، وكان منهم كمَا جَاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ .. ﴾ يقولُ بعضُهُمْ لبعضٍ: ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: إنكم أنتم الظالمون بعبادة هذه الأوثان، القابلة للتكسير والتحطيم دون أن تستطيع الدفاع عن أنفسها.

لكنّهم لم يلبثوا بعْدَ هذه الصَّحْوة أن ضربت على رؤوسهم ونفوسهم الحميّة الجاهليّة القائمة على الولاء للآباء والأجداد، وحرَّكَتْهم الشياطين بِرَغْبَةِ الانتقام من إبراهيم عليه السلام، كما قالَ تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ وقالوا لإبراهيم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

أي: كيف تَطْلُبُ منّا أن نَسْأَلَهُمْ عمَّنْ حَطَّمَهُمْ؟!

وهنا استغلّ إبراهيم عليه السلام الموقف، واستفاد من اعتراف قومه بأنّ آلهتهم لا ينطقون، فجادلهم بما جاء في سورة (الصافات/ ٣٧):

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

أي: وخلق أصنامكم الّتي تَعْمَلُونها.

وبما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

وقام في جماهيرهم يؤكّد دعوته لهم إلى الدّين الحقّ بخطبة جاء بيانُ مُلَخَّصِها في سورة (العنكبوت/ ٢٩) في قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾.

وانقطع قومه في معركة المناظرة الفكريّة، ولم يَجِدُوا أجوبةً يحاجُّونه بها، فتشاوروا فيما بينهم فرأوا أن يتخلّصوا منه بالقتل، فإمّا أن يقتلوه بوسيلة غير التحريق في النار، أو بوسيلة التحريق فيها، وقال بعضهم لبعضٍ وهو حاضرٌ محاكمتهم له: اقْتُلُوهُ أوحَرِّقوه، كما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ... ﴿٢٤﴾ ﴾.

واستقرّ رأيُ ذوي السلطان فيهم على أن يُحرِّقوه، كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

وتَداولُوا الرأْيَ فيما بينهم، لبيان الطريقة التي يُحَرِّقونه بها تحريقاً رادعاً، تَظْهَرُ فيها هيبةُ السلطة الحاكمة، أمام الجماهير الّتي تجتمع لمشاهدة العقاب، فقدّم بعضهم اقتراحاً ببناء بنيانٍ في منخفض من الوادي، يوقدون فيه ناراً عظيمة ذاتَ جَمْرٍ ولهب، ثم يَقْذِفونه فيها، كما جاء في سورة (الصّافّات/ ٣٧):

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾.

الْجَحيم: كُلُّ نَارٍ فِي مَهْوَاةٍ شَدِيدَةِ التَّأَجُّجِ.

واتّفَقُوا على هذا الرَّأْي، وأَتَمُّوا إعداد أَسْبَاب مكيدتهم، وأَلْقَوهُ في النار التي أجّجُوها في البناء الذي بَنَوْه لهذا الغرض.

عندئذٍ تَدَخَّلَتْ القدرة الرَّبّانيّة لحمايته كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١) قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

فكانت النار برداً وسلاماً عليه، فلم تؤْذه، ورُبّما أحرقت قيوده فقط لتُحرِّرَهُ منها، دون أن تمسّه بأذىً.

لقد أرادوا به كيداً يقطع دابر دعوته، فارْتَدَّ كيدُهُمْ عليهم، فكان بنصرة الله له ناجياً، كما قال عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿ . . . فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وكان الذين أرادوا به كيداً هُمُ الأخْسَرِين، وهم الأسْفَلِين، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

وكما قال تعالى في سورة (الصَّافات/ ٣٧).

﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

وتابَع إبراهيم عليه السلام بعد أن أنجاه الله من جحيم قومه وأخْرَجَهُ سالماً يدعو قومه، بأسلوبٍ فيه شِدّةٌ على قومه وإنذار لهم بعذاب الله في النار يوم الدين، كما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ولمَّا يئِسَ إبراهيم عليه السلام من استجابة قومه له، وأَذِنَ له ربُّه بالهجرة، أعلم قومه بأنّه سيعتزلهم وما يدعون من دون الله كما جاء في الآية (٤٨) من سورة (مريم/ ١٩) وبأنّه سيهاجر من أرضهم، وسيهديه الله إلى أرضٍ مباركة يصل إليها، وقد آمن بما دعاهم إليه ابن أخيه لوط، واتَّبَعَهُ مسلماً له القيادة، وأخذ معه في الهجرة بعض أهله وانْطَلَق مُهاجراً.

قال الله عزّ وجلّ بشأنه في سورة (الصافات/ ٣٧):

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

ونَجّاهُ الله ولوطاً من كيد قومهم وأبلغهم بالهجرة إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وهي أرض الشام، كما قال تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

الفقـرة الثـالثة

صفات إبراهيم عليه السلام في ذَاتِهِ وفي سياسته الدعويّة

١ ـ وصف الله عزّ وجلّ إبراهيم عليه السَّلامُ بأنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً أي: كان كاملاً في صِفَة الصّدق وفي التَّصْدِيق بالحق، وفي مطابقة قوله لعمله، قال الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾.

ومن مظاهر كونه صِدِّيقاً تصديقُه الرُّؤيا التي أمره الله فيها بذَبح ولده إسماعيل.

٢ ـ ووصفه الله عزّ وجلّ بأنَّ قلْبَهُ مشغولٌ دواماً بتذكّر الدار الآخرة والعمل لها، قال الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾.

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ: أي: إنَّا صَفَّيْنَاهم ونَقَّيْنَاهم من الشوائب.

بِخَالِصَةٍ: أي: بسبب صِفةٍ خَالِصَةٍ فيهم من المؤثرات الدنيويّة التي تخرج عن مراضي الله والعملِ للدرجات الرفيعة في جنّاتِ النعيم.

ذِكْرَىٰ الدار: أي: هذه الصفة الخالصة فيهم هي ذِكْرَى الدار الآخرة

دواماً، وذكرى الدار الآخرة دواماً تجعل الإنسان يسْعَىٰ لها سَعْيَها، ويكتفي من الدنيا بالنصيب المباح الّذي لا يشغله عن العمل للآخرة ودرجاتها الرفيعات.

٣ ـ ووصفه الله عزّ وجلّ بأنّه حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيب، قال الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾.

لحليمٌ: أي: لَصَبُورٌ كثير الأناة، ومن مظاهر حِلْمه أنّه سأل الله أَنْ يؤخّر عذاب قوم لوطٍ لعلهم يَتُوبُون، وصبرَ على قومه فلم يسأل الله أن يُنْزِلَ بهم عقاباً بل اكتفى باعتزالهم والهجرة عنهم.

أوّاهُ: أي: كثير الْحُزْن، وقيل: كثير الدُّعاء، وقيل: الرحيم الرقيق، وقيل: المسبّح، وقيل: المتأوّه شفقاً أو فرقاً، وقيل: المتضرّع الموقن بالإجابة الملازم للطاعة.

مُنِيب: الإنابة إلى الله هي الرجوع إليه بالتوبة والطاعة الكاملة، واسم الفاعل من أناب هو «مُنِيب».

٤ ـ وكان عليه السلام جواداً كثير الإكرام لضيوفه، وكان يخدمهم ويُقدِّم لهم الطعام بنفسه، وقد يُعِدُّهُ هُوَلهم، قال الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾.

حنيذ: أي: مَشْوِيّ.

والآيات (٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧) من سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول).

٥ ـ ومن صفاته أنَّه كان شجاعاً في الحقّ لا يخشىٰ في الله أحداً، ولا يخشىٰ في الله لومةَ لائم قال الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

٦ ـ أنَّ الله عزّ وجلّ ابتلاه بكلماتٍ تكليفيَّة فأتمَّهَا على وفْقِ ما طلبَ منه، ووفَّىٰ بما عاهد الله عليه في إسلامه له.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ... ﴿١٢٤﴾﴾.

٧ ـ أنّه كان قويّ الحجَّة، يجادل بالحقّ، وبالأسلوب الحكيم، وبالموعظة الحسنة، كما ظهر لنا في جدلياته الّتي سبق بيانها، وفي قول الله بشأنه في سورة (الأنعام/ ٦):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

* * *

الصورة الخامسة
لقطات من سياسة شعيب عليه السلام
في أدائه رسالات ربّه

من تتبع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة شعيب عليه السلام في أدائه رسالات ربّه ظهرت لي ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: سياسته في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في دفع اعتراضات قومه عليه وجدلياتهم له واتهاماتهم وشتائمهم.

الفقرة الثالثة: سياسته في معالجة اضطهاد قومه له وللذين آمنوا به منهم.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد حول شعيب عليه السلام وقومه.

الفقـرة الأولـي

سياسة شعيب عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرُّجيُّ الحكيم على أنّ سياسة شعيب عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدّعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وهي الدّعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونَبْذِ ما اتّخذه قومه من آلِهةٍ غيره.

دلّ علىٰ هـذا العنصـر قـول الله عـزّ وجـلّ فـي سـورة (هـود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ... ﴿٨٤﴾ ﴾.

العنصر الثاني: تأكيد الدّعوة إلى عبادة اللّهِ وحده مقرونَةً بالتخويف مما في اليوم الآخر من عذاب للمشركين، والإطماع بما فيه من نعيم خالدٍ للمؤمنين.

دلَّ علَىٰ هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ... ﴿٣٦﴾ ﴾.

وأرْجُو الْيَوْمَ الآخِرَ: أي: وارقبوا ما في اليوم الآخِرِ من ثوابٍ تطمعون فيه، وعقابٍ تخافون منه.

العنصر الثالث: تأكيد الدّعوة إلى عبادة الله وحده مقرونة ببيان أنَّه قد جاءَتْهُمْ بينة من ربِّهِمْ تُثْبتُ لهم صِحَّةَ أَنَّهُ رسُولٌ من اللَّهِ إليهم.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ . . . ﴿٨٥﴾﴾.

العنصر الرابع: استخدام الإنذار بأسلوب العرض المشوب بالتلويم، مع بيان أنّه لقومه رسولٌ أمين، وإتْباع هذا بدعوتهم إلى أن يتّقوا الله، وإلى أن يطيعوه فيما دعاهم إليه.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

أَلَا تَتَّقُون؟: عرضٌ بأسلوب الاستفهام، وهذا العرضُ مشوبٌ بالتلويم.

العنصر الخامس: اهتمامُ شعيب عليه السلام بعد دعوةِ قومه إلى عبادة الله وحده، بما هم عليه من قبائح اجتماعية وإفساد في الأرض، فأَمَرَهُمْ بأنْ يوفُوا الكيل والميزان، وبأن لا يبخَسُوا الناس أشياءهم، وبأَنْ لا يُفْسِدُوا في الأرض بعد إصلاحها، ووعظهم ونصحهم، وأمرهم بأن يتَّقُوا عذاب الله يوم الدّين، وحذّرهم من أن يُنْزل الله بهم عقابه المعجَّل في الحياة الدنيا.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾.

فرغبهم في هذا النصّ بأنّ ما يبقيه الله لهم من بركة الأرزاق خير لهم من الظلم الذي هم فيه.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكايةً لبعضِ مقالات شعيب لقومه:

﴿ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾.

وَلاَ تَعْثَوا: العثُوُّ أشَدُّ الفساد.

الجِبِلَّة: الأُمَّة من الخلق والجماعةُ من الناس.

فحذّرهم في هذا النصّ من عقاب الله لهم على ظلمهم للناس بالتطفيف في مكاييلهم وموازينهم، وبالبخس، وهو تنقيص قيم الأشياء، وعلى إفسادهم في الأرض.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ

أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ . . . ﴿٨٦﴾﴾.

فزاد شعيب عليه السلام لقومه في هذه المقولة، نَهْيَهُمْ عن شرٍّ يمارِسُونَه ضدّ مجتازي بلادهم، إذْ كانوا يقطعون الطريق، ويفرضون على النّاس المظالم، ونهيَهُمْ عن صَدِّ الذين يؤمنون عن سبيل الله.

العنصر السادس:

استخدام أسلوب تَذْكير قومه بنعمة اللَّهِ عليهم، إذّ كانوا قليلين فكثَّرَهم، واسْلُوبِ توجيه أنظارهم إلى عقاب الله للمفسدين قبلهم وتحذيرهم من أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بهم مثل ما أنْزَلَ بالسابقين، مشيراً إلى ما فعل الله عزّ وجلّ بقوم لوط عليه السلام.

دلَّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لبعض مقالاته لقومه:

﴿ . . . وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

* * *

الفقـرة الثـانية

سياسة شعيب عليه السلام في دفع اعتراضات قومه عليه وجدلياتهم له واتهاماتهم وشتائمهم

١ ـ اعترض قومه على كونه بشراً مثلهم، ولم يكُنْ مَلَكاً، دل على هذا الاعتراض قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

فكانت سياسته أن يُعْرِض عن إجابتهم لأَنَّهُمْ قريبو عهد بإبراهيم ولوطٍ عليهما السلام، وهم يعلمون أنهما رسولان، وأنهما كانا بشرين من البشر، وأعرض عن شتيمتهم له بأنّهم يظنونه من الكاذبين، مع أنهم لم يعهدوا عليه في تاريخه مع قومه إلاّ الصدق.

٢ ـ اتَّهَمَهُ قَوْمُه بأنَّه مَسْحُورٌ سحراً قويًّا، وبسبب ذلك خالف طريقتهم، ووجَّه انتقاداته ونصائحه لهم، دلّ على هذا الاتهام ما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦) أيضاً بياناً لبعض أقوالهم له:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

وكانت سياسته أن يُغْضي عن اتّهامهم له بهذا، فَحَالُ مُحَاجَّتِه لهم، وسلوكُهُ في حياته يُكَذِّبُهُمْ في هذا الاتّهام.

٣ ـ وجادله قومُه بأسلوب الاستفهام التَّعجُّبـيّ التَّهكُّمِيّ قائلين له كما

جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

وكانت سياسة شعيب عليه السلام بالنسبة إلى هذا الأمر المتعلّق بمضمون دعوته له، أن يجادلهم بالحجج الدامغة.

دلَّ على مجادلته لهم بالحجج الدامغة، ما تضمنه من إشارات ولوازم فكرية قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١) أيضاً:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي.. ﴿٨٨﴾﴾؟!.

وهُنا لا بُدَّ من أن يكونوا قد سألوه عن البيّنة التي جاءته من ربّه، ولاَ بُدَّ أَنْ يكون قد أجابهم عنها، وهذه العبارة تشير إلى معركة جدليّةٍ قامَتْ بَيْنَهُمْ وبَيْنه، وفي هذه المعركة لا بُدَّ أَنْ ينتصر الحقّ الّذي دعاهم إليه.

أمّا بالنسبة إلى نصيحته لهم بأنْ يوفوا الكيل والميزان ولا ينقصوهما، وبأن لا يبْخَسُوا النّاس أشياءهم، فيظهر أنّهم قالوا له: كيْفَ اكتَسَبْتَ الأموال التي جمعتها؟. ألَمْ تَجْمَعْها علَىٰ طريقتنا التي تعيبها علينا؟ فأجابهم بأنّ الله رزقه رزقاً حسناً لم يظلم فيه أحداً من الناس، وأنّه ليس من شأنه أنْ ينهاهم عن عمل قبيح، ثم ينصرف عنهم ليعمل بما نهاهم عنه.

ويظهر أنهم سألوه: أتُريد أن تكون سلطاناً علينا تفرضُ علينا بالقوّة ما تأمُرنا به وتَنْهانا عنه؟ فأجابهم بأنّه لا يريد إلاّ الإصلاح على قدر استطاعته، واستطاعته قاصرة على الدعوة والنُّصْح والإرشاد، وأبان لهم أنّه لا توفيق له في أداء رسالته إلا بمعونة الله، لذلك فهو عَلَيْهِ وحده يتوكّل، وإلَيْهِ وَحْدَهُ يَرْجِـعُ في أَمْرِهِ كُلّه.

دلّ على فُروع هذه المحاجات والجدليّات لقطاتٌ عُنوانيّة جاءت في

سورة (هود/ ١١) أيضاً:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾.

أن أخالِفَكُمْ إلى ما: يقال لغة: خالفَكَ إلى الأمر، إذا قَصَدَهُ وأَنْتَ منصرف عنه.

فوقف قومُه مِنْه مَوْقِفَ المشاقَّة والعِدَاء ومحاولة الْقَمْعِ، فحذَّرهُمْ مِنْ أن يَنْزل بهم من عقاب الله مثل الذي نزل بقوم نوح أو قومِ هود، أو قوم صالح، أو قوم لوط، وهم يعرفون قِصَص هؤلاء الأقوام.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١) أيضاً حكاية لبعض مقالات شعيب لقومه:

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾.

ودعاهم بعد ذلك إلى أن يستغفروا رَبّهم، ثُمّ يتوبوا إليه، وأطعمهم بأنَّه رَحِيمٌ وَدُود، كما جاء بعد القول السابق:

﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾.

فكان رَدُّهم عليه بأنّهم لا يَفْقَهُونَ كثيراً ممّا يَقُولُهُ لهم، في حججه وبراهينه، ونصائحه ومواعظه، كما جاء عقب الآية السابقة:

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ... ﴿٩١﴾ ﴾.

أي: هم قد أقفلوا المنافذ الّتي تنفذ منها أقواله إلى قلوبهم، لأنهم لا يريدون الاستجابة لدعوته، ولا قبول نصائحه، وإرشاداته، ومواعظه، وتحذيراته، وإنذاراته.

* * *

الفقـرة الثالثـة

سياسة شعيب عليه السلام في معالجة اضطهاد قومه له وللذين آمنوا به منهم

١ ـ آمن بشعيب عليه السلام طائفةٌ من قومه، فغضب الملأ الذين استكبروا منهم، فاتّخذوا ضدّ الّذين آمنوا به أعمالاً اضطهاديّة، فكانت سياسَتُه ضدّ هذا الاضطهاد مناظرتَهم بالحجّة المنطقية، ومحاولةَ معالجتهم بالحكمة، وبالتحاكم إلى العقل، ودعوتهم إلىٰ الصَّبْر حتَّىٰ يحكم الله بحكمته بينهم وبين الذين آمنوا به.

دلَّ على هذه السياسة قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لبعض ما قالَه شعيب عليه السلام لقومه:

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

فطلب منهم برفْق أن يَصْبِروا إذْ لا داعي للغضب والانتقام، فالذين آمنوا به هم طائفةٌ مِنْهم، فلماذا يضطهدونهم لمجرّد مخالفتهم لهم في الدين.

٢ ـ فلم يكُن من الملأ الّذين استكبروا من قومه إلاّ أن يوجّهوا تهديدهم لشعيب والذين آمنوا معَهُ، بأنهم سَيَطْردُونهم من بلداتهم إذا لم يتركوا دينهم الجديد الّذي آمنوا به، ويَعودُوا إلى مِلّة قومهم الشركية.

فكانت سياسةُ شُعيب عليه السلام تَعْتَمِد على طرح سؤالٍ على الملأ

الذين استبكروا من قومه، وهو: هل قضيّة الانتماء إلى الدّين إلزامٌ وإجبار، أم انتماءٌ إراديٌّ واختيار؟.

دلّ على التهديد والإجابة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهين: أي: أَتُجْبِرُوننا على أَنْ نَعُود عَنْ ملّتنا الّتي آمنّا بها، ونَدْخُل في مِلَّتكُمْ، ولَوْ كُنَّا كَارِهين لهذا؟! إنّ الانتماء إلى الدّين انتماءٌ اعتقاديٌّ قلبيٌّ لا يُمْكن أن يكون بالإكراه والإجبار، ونحن حينما دعوناكم إلى دين الله الحق دعوناكم لأن تدخُلُوا فيه باختياركم الحرّ، ولم نجْبِرْكُمْ، فَكَيْفَ تُجْبِرُوننا أنتم على أن نعود في ملتكم؟!

على أننا إذا عُدْنا مُرْتدِّين عن ديننا ودخلنا في ملتكم بعد إذْ نجانا الله منها بالإيمان بالحقّ، فإننا نكُونُ قد افترينا على الله كذباً إذْ نجعل لله شركاء في ربوبيته، أو في إلهيّته، وإذْ نستبيح ما حرَّم من التطفيف، وبَخْس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، وقطعِ طريق الناس ظلماً وعدواناً، وصَدِّ النّاس عن سبيل الله.

وأعلن شعيبٌ لقومه أنه لن يترك دينه ويعود عنه ويدخل في ملّتهم إلاّ أن يشاء الله ذلك، وهو يعلم أنّ الله لَنْ يشاء ذلك.

وأعلن لَهُمْ أيضاً أَنَّهُمْ إذا أصرّوا على تهديدهم له وللذين آمنوا معه فإنّهم سَيَصْبرون على الأذىٰ، ويتوكَّلُونَ على الله.

وأخيراً توجَّه لربّه داعياً فقال: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفاتِحِينَ».

٣ ـ وَأَنْذَرَ شعيب عليه السلام كُفَّارَ قَوْمِهِ بأَنَّهم إذا أَصرُّوا على ما هم عليه من كُفرٍ وعنادٍ واضطهادٍ له وللّذِين آمنوا معه فَإِنّ من سُنَّةِ اللَّهِ أنْ يُنْزِلَ بهم عقابه كما أنزله على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما جاء في الآية (٨٩) من سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) فتَحَدَّوْه أن يُسْقِطَ عليهم كِسَفاً من السَّمَاءِ إنْ كان من الصّادِقِين، وهم بهذا التحدّي يؤكّدون أنّه كاذب وليس رسولاً مبعوثاً من عند الله عزّ وجل، فقالوا له كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

كِسَفاً من السَّماء: أي: قِطعاً مُهْلِكَةً لنا من السّماء.

فأجابهم بأنّه ليس هو الذي يعاقبهم، ولكن الله هو الذي يعاقبهم إذا اقتضَتْ حكمتُه معاقبتهم، استناداً إلى ما يَعْلَمُ من أعمالهم المقتضية لعقابهم، إذا وصَلُوا فيها إلى حالة ميئوسٍ منها.

دلَّ على هذا الجواب قوله لهم كما جاء بعد النصّ السابق:

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

هذه الجملة هي آخر المقولة الطويلة الّتي قالها لهم، والتي سبق بيانُ معناها.

٤ ـ وزادوا في تهديدهم له، وقالوا له كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

أي: نَحْنُ لا نَرْجُمك إكراماً لرهطك الذين هم على ملّتنا، أمَّا أنْتَ فليس لك كرامةٌ عندنا.

فواجههم بنضالٍ بيانيٍّ قويٍّ، وبشجاعةٍ عظيمة، كما جاء في سورة (هود/ ١١) أيضاً:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: اعملوا على المكان الاعتقادي الذي اخترتموه لأنفسكم، إني عامل على المكان الاعتقادي الذي اخترته.

٥ ـ ويظهر أنّ قومه خافوا أن يَمسُّوهُ بأذىً من أجْلِ رَهْطه، مع احتمال أن يكون رسولاً حقاً، فيُنْزل الله بهم مثل ما أنزل بالأمم الذين أُهْلِكُوا مِن قبلهم، فتوجَّهوا يُهدِّدُونَ الّذين آمَنُوا مَعَهُ بأنْ يُنْزِلُوا بهم ما يكرهون من عذابٍ.

دل على هذا قول الله عزّ وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

٦ ـ وأخيراً استحقوا بحكمة الله إنْزَال العقاب المهلك لهم، فأرْسَل الله عليهم الرجفة، فزلزل بهم ديارهم، وأرسل عليهم سحابةً في يوم شديد الحرّ، فأظلّتهم، وأَرْسَلَتْ عليهم ناراً، وأرسل عليهم الصّيحة، فأهلكهم، ونَجَّىٰ شُعَيباً والّذين آمنوا معه برحمة منه.

دلَّ على هذه الخاتمة التعيسة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾.

الظُّلَّةُ: سَحَابَةٌ نَارِيَّة حارّة ظلَّلَتْ دِيَارَهُمْ يوم إهلاكهم.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

كأنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها: أي: كأن لم يُقيموا في ديارهم، يقال لغة، غَنِيَ بالمكان إذا أقام به فهو غَانٍ.

فكيف آسَىٰ: أي: فكيف أحْزَنُ.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

ويظهر أنّه قد جاءتْهُمْ الظُّلَّةُ الحارَّةُ أوّلاً طَوَال يَوْم أصابهم فيه عذابٌ حارٌّ منها، وَكان يوماً عظيماً عليهم، ثُمَّ أَخذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَدَمَّرَتْ عليهم دِيارَهم، فتبعتها الصيحةُ فأهلكتْهُمْ جميعاً فَلَمْ تُبْقِ منهم أحداً.

* * *

الصــورة السادســة

لقطات من سياسة موسى عليه السلام

في أدائه رسالات ربّه

من تتبع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة موسَىٰ عليه السلام في أدائه رسالات رَبّه ظهرت لي أربع فقرات:

الفقرة الأولى: كيف تلَقَّىٰ مُوس عليه السلام نبوّته ورسالته.

الفقرة الثانية: كيف تلَقَّىٰ تكْلِيفَه أن يبلّغ رسالات ربّه إلى فرعون وقومه.

الفقرة الثالثة: تعليم الله عزّ وجلّ موسى وهارون كيف يدعوان فرعون.

الفقرة الرابعة: سياسة موسى عليه السلام في أدائه رسالته وفي مواقفه الجدلية، وفي معالجته الاضطهاد.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد حول موسى عليه السلام وقومه في مصر.

الفقـرة الأولى

كيف تَلَقَّى موسى عليه السلام نُبوّته ورسالته

١ ـ أعَدّ الله عزّ وجلّ موسىٰ عليه السلام إعداداً خاصّاً للمهمة العظيمة التي قضاها وقدّرها له، وهي دعوة فرعون وملئه والمصريين من ورائهما إلى دين الله، وقيادة بني إسرائيل العسيرين غلاظ الرقبة، الناشئين تحت سلطان الجبروت الفرعوني لحمل دين الله وتطبيقة ودعوة الناس إليه مجاهدين في سبيل الله.

فجعل نشأته في قصر فرعون، وألْقَىٰ عليه محبّةً مِنْه، وصنعه على عينه جلّ جلاله، كما جاء في الآية (٣٩) من سورة (طَه/ ٢٠).

٢ ـ ولمّا اكتمل عقلاً ورجولةً وظهر منه العطفُ على الإسرائيليين المضطهدين في مصر، ودَفَعَ أحد المصريّين دفعاً قويّاً عن إسرائيليٍّ استنصر به فسقط قتيلاً دون أن يقْصِدَ قَتْلَه، ثم جاء من نصحَه بأنْ يخرج مهاجراً لأنَّ أمره افتضح، ووصل نبأ قتله للمصريّ إلى القصر، وأن ملأ القصر الفرعوني يأتمرون به ليقتلوه، فخرج من مصر خائفاً يترقّب.

٣ ـ وساقه الله إلى مدين، وزَوّجه إحدى ابنتي الرّجل الصالح فيها، ولبث في مدين عشر سنين، وصنَعه الله فيها لِتَلَقّي النبوّة وحمل الرسالة، ويظهر أنّ قضيّة قَتْلِه للمصريّ قد سقطت بمرور المدّة حسب القانون الفرعوني، وصار باستطاعة موسى أن يعود إلى مصر، دون أن يخشىٰ مُتابعةً قضائيّةً على ما كان منه.

٤ ـ فسار بأهله متجهاً إلى مصر، ولمّا وصل إلى قريب من جبل الطور آنس من جانب الطور ناراً، وكان أهله معه بحاجة إلى قبس من نار، قال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

جَذْوَة: أي: جَمْرة ملتهبة. **تَصْطَلُون**: أي تستدفئون.

وكانت هذه النار وسيلة ربّانية لجلبه إليها، حتى يكلّمه الله، ويصطفيه بالنبوة، ويُحَمِّلَه أَعْباء رسالة عظمى.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

وقال الله عزّ وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾.

وأبان الله له أصول الدين الأولىٰ فقال له كما جاء عقب النصّ السابق:

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

فتَردَىٰ: أي: فَتَسْقُطَ في مهاوي الضلال والشّرّ والعذاب.

وقال تعالى كما جاء في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠ ﴾.

٥ ـ وَقَبْل أن يُكَلِّفَهُ الله عزّ وجلَّ حَمْلَ الرِّسالة إلى فرعون وملئه وقومه، أجرى له آيات نُبُوّته ورسالته، بتجربة عمليّة، ليكون على استعداد لإجرائها عند الحاجة إليها إذا واجه فرعون وملأه.

قال الله عز وجلّ في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في بيان تدريبه على إجراء آيتي العصا واليد:

﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ۝٢٠ ﴾.

فلما ألقاها ورآها قد انقلبت حيَّةً تَسْعَىٰ خاف منها، وولَّىٰ مُدْبراً ولم يَرْجِعْ فناداه الله وقال له: لا تخف.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) حكاية لما خاطب به موسى:

﴿ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠ ﴾.

وقال تعالى في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ۝٣١ ﴾.

كأنَّهَا جَانٌّ: لفظ «جَانّ» يُطْلَقُ على حيّةٍ بيضاء وزرقاء، وهو نوع من الحيّات سريع الحركة والاهتزاز.

وقال الله عزّ وجل لموسىٰ كما جاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

سِيرَتها الأولى: السِّيرة: «الهيئة ـ السُّنّة ـ الطريقة» أي: سنعيدها إلى هيئتها الأولى التي كانت عليها حين كانت عصاً. «سيرتَها» لفظ منصوب بنزع الخافض.

وبعد آية العصا دَرّبهُ الله عَزَّ وجَلّ على آية الْيَد، وهي أنْ يُدْخِلَ يَدَهُ في جَيْبه، وهو الشّقُّ الذي في ثوبه من مكان صدره، فإذا أخْرَجها بعد أن يُدْخلها فيه خرجت يَدُهُ بيضاء مُتَلألِئَةً مضيئة من غير سوء، أي: من غير علّة مرضيّة كالبرص، وكانت تُضيء كشُعاعِ الشمس.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (طَـهَ/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾.

واضمم يدك: أي: يدك اليمنىٰ.

إلى جناحِك: أي: إلى إبطِكَ الأيْسر، بإدْخال يدك في جيبك ووضع كفِّك تَحْتَ إبطك.

وقال تعالى في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

اسْلُك: أي: أدخل. **واضمم إلَيْكَ جَنَاحَك من الرهب**: أي: وإذا شعرت أنّ مشاهديك رهبوا أعِذْ ضمّ يدك إليك لترجع إلى طبيعتها.

هذه النصوص الواردة حول قضيّة واحدة في ـ ثلاث سُور متكاملة الدلالات فيما بينها، وإبراز التكامل فيما بينها يحتاج إلى شرح لا يتسعُ له هذا الكتاب.

وهكذا تلَقّىٰ مُوسىٰ عليه السّلام النبوّة والرّسالة وآيات ربّه الدالاّت على صدق نبوته ورسالته، يجريها الله له عند الحاجة إلى إجرائها.

* * *

الفقـرة الثانيـة

كيف تَلَقَّىٰ مُوسَىٰ عليه السلام
تكليفه أن يبلغ رسالات ربه إلى فرعون وقومه

١ ـ بدأ توجيه الله عزّ وجلّ موسَىٰ لمهمّته بقولِه لَهُ بعد أنْ أجرى له آيتي العصا واليد، كما جاء في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ . . . فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

فعرف موسى عليه السلام أَنَّ مهمته مهمَّةٌ جليلةٌ عظيمةٌ مَحْفُوفَةٌ بالمخاطر، فقد سبق أَنْ قتَلَ من المصريين رَجُلاً، فلهم عليه ذنْبٌ فكيف يواجههم بدعوة تنسف كلَّ عقائدهم وعباداتهم نسفاً.

فوجّه الله له الأمر الجازم بأن يذهب إلى فرعون، وأبان له أنّه طَغَىٰ، وجعل هذا الأمر مسبوقاً بنداءٍ مع أنّه يخاطِبُهُ من قُرْب، دلّ علَىٰ هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾.

فعرض موسى مشكلته صراحة بعد أن كانت تختلج في نفسه، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

فأعَادَ لَهُ الأَمْرَ الجازم دون نداء، أخذاً ممّا جاء في سورة (طَه/ ٢٠):

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾.

فأعْلَن مُوسىٰ عليه السلام انصياعه للتكليف، ودعا الله ادْعِيَةً رأىٰ أنَّها تساعده على أداء رسالته:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

وأضاف موسَىٰ تأكيداً حول ترشيحه أخاه هارون ليشاركه في أمره، ما أبانه الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فاسْتَجَابَ اللَّهُ عزّ وجلّ دُعاءَهُ كما جاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾.

وذكّره بما امتن به عليه وهو طفل صغير، وكيف أنجاه من القتل وجعل أهل القصر الفرعوني يربُّونه.

وطمْأنَهُ بما جاء بيانُهُ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وبعد هذه الطَّمْأَنَةِ قَالَ الله لموسَىٰ كَمَا جَاءَ فِي سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۝٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ ﴾ .

وَلاَ تَنِيَا: أي: ولاَ تَضْعُفَا ولاَ تكِلاَّ.

وأوحى الله إلى هارون وجعله مع أخيه موسىٰ نبيًّا ورسولاً.

ودخل موسى عليه السلام وأهله معه إلى مصر، واجتمع بأخيه هارون، وتشاوروا في الوسيلة الّتي يدخلان بها على فرعون وعنده حاشية القصر ووُزَراؤه ومَلَؤُه، وهما يعلمان ما لفرعون ورجال دولته من جبروت وسلطان في مصر مخيف، ولا سيما بالنسبة إلى بني إسرائيل المضطهدين، فعرضا هذه المشكلة على رَبّهما، كما جاء في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ ﴾ .

أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا: أي: أن يسبقنا بالقول فيقطع علينا طريق المخاطبة، ولا يسمح لنا بها مهما تلَطَّفْنَا بالخطاب وَواجهنَاهُ بلين القول. يقال لغة: فَرَطَ فلانٌ على فُلاَنٍ في القول، إذا أَسْرَفَ وَتقدّمه، ولم يَدَعْ لَهُ مَجَالاً ليقول ما يريد.

أو أن يَطْغَىٰ: أي: أو أن يتجاوز الحدّ فَيَطْرُدَنَا أو يُنْزِلَ بنا العقاب، إذا تجرّأْنا على مخاطبته بما يكره من دعوة إلى الحقّ الذي يخالف ما عليه هو وقومه.

فأجابهما الله عزّ وجلّ بما جاء في سورة (طٰه/ ٢٠) أيضاً:

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ ﴾ .

فحملا الرّسالة بقُوَّةٍ وثباتٍ وجُرْأة.

* * *

الفقـرة الثالـثة

تعليم الله عزّ وجلّ موسىٰ وهارون كيف يدعوان فرعون

بعد أن عرف موسىٰ وهارون أنهما نبيّان ورسولان، وأنّهما مأموران بأن يتوجَّها إلى فرعون ملِكِ مصر المستبدّ المستكبر، وبأن يدعواه إلى عبادة الله وحده، ونَبْذِ ما هُوَ وقومُه عليه من شِرْكٍ، والإذنِ لهما بأن يخرجا ببني إسرائيل من مصر، أَبانَ الله لهما الأسلوب الحكيم الَّذي ينبغي أن يخاطبا بِهِ فِرْعَونَ، فقال عزّ وجلّ لهما كما جاء في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وأبانَ اللَّهُ لمُوسَىٰ أَنَّهُ هُو المسؤولُ الأول عن توجيه الخطاب لفرعون، باعتبار أَنَّه الرسولُ الرئيس، وهارون الرسولُ الوزير، فعلّمه العبارة الَّتي تَتَضَمَّنُ القوْلَ اللَّيِّن، فقال له كما جاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

عبارةٌ فيها غايةُ الرِّفقه واللّين، فمع بيان الله عزّ وجلّ عن فرعون بأنَّهُ طَغَىٰ، لم يأذَن في دَعْوَتِه إلى دين الله بأن يخاطَبَ بجفاء وغلظةٍ وعُنْفٍ، لما في هذا من التنفير، مع أنّ المطلوب في الدّعوة الإيناس والتّرفّق واتّخاذ الوسائل المحبَّبَة الجذَّابة للقلوب.

ولدى تحليل عبارة: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ نُلاحظُ أنَّها تَشْتَمِل عَلَىٰ مُقَدّمَةٍ طَوِيلَةٍ فيها عَرْضٌ غايةٌ في الرّفق، بأسلوب الاستفهام، لا بأُسْلوب الأَمْر.

كان من الممكن أن يقول له: تَزَكَّ، بصيغة أَمْرٍ دون مُقَدّمة. أو هَلْ تتزكَّىٰ، على طريقة العرض بالاستفهام. أو هَلْ لَكَ أَنْ تتزكَّىٰ، بإضافة عبارة «لك».

لكن العبارة جاءت مشتملة على مقدّمة هي أطول ما يمكن من مقدمات في أسلوب عِبَارَةٍ عربية، قبل الوصول إلى المطلوب في العرض، فلفظ «هل» كلمة. ولفظ «لَكَ» كلمتان. ولفظ «إلَىٰ» كلمة. ولفظ «أن» كلمة، والمطلوب جاء بصيغة الفعل المضارع، لا بصيغة فعْل الأمر، لأنّ الكلام مبني على الْعَرْض التخييريّ بأسلوب الاستفهام.

هذا النموذج التعليمي يُشْعِرُنا بما يجب أن يُخَاطِبَ به الداعي إلى سبيل رَبِّهِ، ذَوِي السُّلْطان أو المكانات الرفيعة في أقوامهم.

ويُخْطِىءُ كثير من الدُّعَاةِ إلى اللّهِ حِينَ يُواجِهُونَ المدعُوّينَ بما يجعلهم ينفرون من الأمر والنَّهي، ومن الأساليب الجافية والخشنة، الّتي لا لِينَ فيها ولا رِفْق.

ويجب أن يتَّخذ الناصحون والوعاظ والمرشدون أسلوب الرفق واللّين، ولو كانوا يُخاطبون عصاةَ المسلمين، لأنّ هذا الأسلوب هو الأسلوب الأصلح لبلوغ المقصود، من العنف والغلظة والمخاشنة في الخطاب.

وأبان الله عزّ وجلّ تفصيلاً عناصر مطلوبهما من فرعون، قالَ تعالى في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

فجاء في هذا البيان الدّعوة إلى الإيمان بالرَّبّ وتوحيدِه، والإيمان بالدينونة والجزاء يوم الدين على سلوك الإنسان في رحلة الحياة الدنيا، رِحْلةِ الابتلاء، والإيمان بالنُّبوة والرسالة، بمقتضىٰ ما معهما من آيَةٍ رَبَّانيّة خارقة، فما جاءا به قد تلقيّاه وحْياً من عند الله رَبّ العالمين.

* * *

الفقـرة الرابعـة

سياسة موسى عليه السلام في أدائه رسالته
وفي مواقفه الجدليّة وفي معالجته الاضطهاد

ذهب موسى وهارون وتلطّفا في الدخول على فرعون وَأَدّيَا رسالتهما برفق ولينٍ كما أمرهما الله عزّ وجلّ وَعلَّمَهُمَا.

لقد يَسَّرَ الله لهما الدخول إلَىٰ مجلس فرعون، وبدأ موسىٰ علَيْه السّلام مخاطبة فرعون بقولٍ ليّن كما علّمه الله، وقال له: إنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ.

ويظهر أنّه لم يعترف بأنّ له رَبًّا فاستنكر ذلك، فقَال له موسى عليه السلام كما جاء في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿ . . . فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وقال له كما جاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

وطلب منه مع ذلك أن يُرْسِلَ معهما بني إسرائيل ويعودا بهم إلى فلسطين.

أجابه فرعون بما جاء بيانُه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: من الجاحِدينَ للنعمة الّتي أنْعَمْنا بها عَلَيْك.

فأجابه موسى عليه السلام:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: من الجاهلين الذين لا علم عندهم ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى﴾ أي: ربُّ العالمين ﴿حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: إنّ الّذي ألجأ أُمِّي إلَىٰ أن تضَعَنِي وأنا مولود جديد في صندوق وتَرْمِيَ بِي في النَّهْر، هو أنَّكَ جَعَلْتَ بَنِي إسْرائيلَ الأحرار عبيداً لَكَ، فجعَلْتَ تَقْتُلُ الأبناء من المواليد، وتَسْتَحْيِي البنات فلا تقتُلُهن لتسخِّرَهُنَّ في الخدمة متَىٰ صِرْنَ نساءً قَادِرَاتٍ على الخدمة، ولولاَ رَغْبَةُ أهْلِكَ في أن أنفعهم أو أن يتخذوني ولداً لهم لذبحتموني مع سائر من ذبحتم من مواليد بني إسرائيل، أفهذه تَصْلُحُ لأنْ تكونَ نِعْمَةً تَمُنُّهَا عليّ؟!!.

وأعادَ مُوسى عليه تأكيد أنّه رسولٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ، فَقَالَ له كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ...﴾.

حَقِيقٌ: أي: إنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ حَقِيقٌ، بمعنىٰ مُصَدَّقٍ ومُؤَيَّدٍ ومُثَبَّتٍ مِنْ قِبَلِهِ، فأنا رسولُ حقّ وَصِدْق على أن لا أَقُولَ عَلَىٰ اللّهِ إلاَّ الْحَقّ.

وهُنَا لا بُدَّ أَنْ يَسْأَل فرعون مُوسَىٰ عن ربّهما فسألهما كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

أجابه عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أي: رَبّنَا الذي خلَقَ كلّ شيءٍ في هذا الكون، ومن بديع خَلْقِه أنّه أعْطَىٰ كُلَّ شيءٍ صفاتِ خَلْقِه في ذرّاته الأولى، وغرسها في فطرته، ثم هداه للسير في حركات وجوده على مقتضاها بدقَّةٍ مُتَناهية، مع إمداده دواماً بما يتطلبه بقاء وجوده.

ثم سأله عمّا حذّره منه، وهي الدينونة والجزاء بعد الموت والبعث إلى يوم الحساب والجزاء، فسأله عن أحوال أهل القرون الأولى، الذين ماتوا وتعرّضوا للفناء، واختلطت أجسادهم في تراب الأرض:

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾.

فَأَجَابَهُ مُوسَىٰ عليه السلام بأنَّ اللَّهَ عليمٌ بها علماً تامًّا شاملاً، وأنَّ علمه سبحانه مدوّنٌ في كتابٍ، وذكر له أنَّ الله لا يَضِلُّ وَلاَ يَنْسَىٰ، وأبان له من ظواهر علم الله وقدرته في خلقه ما يثبت أَنّ إحياء الأجساد مرّةً أُخرى بعدما فنيَتْ أَمْرٌ هَيّنٌ عليه جلّ جلاله:

﴿ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾.

وأبان موسى عليه السلام لفرعون أيضاً مَضْمونَ قول الله عزّ وجلّ التالي من سورة (طَه):

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

بعدئذٍ سأل فرعونُ موسى عن رَبّ العالمين، الذي يُحَدّثُه عنه، فطرح عليه ما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: وما معنى رَبّ العالمين؟ أو: وما حقيقة رَبّ العالمين؟ هٰذان احتمالان يمكن أن نُفَسّر بهما أو بأحدهما النص.

● فعلى الاحتمال الأول وهو: ما معنى «رب العالمين»؟ يكون فرعون قد سأل موسىٰ عليه السلام عن شرح هذا اللفظ المركب من كلمتين.

إنّ فرعون لا يجهل معنى كلمة «ربّ» ولا معنى كلمة «العالمين» لكنّه سأل عن اللّفظ المركب منهما.

فشرح له موسى عليه السلام بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾.

فاتَّهَمَهُ فرعون بالجنون، لأنّه ذكر أنّ السماوات والأرض وما بينهما خاضعةٌ لسلطان ربّ واحد، وهو يتصوَّرُ أنّ الكائنات يتحكّم بها أربابٌ مُتَعَدِّدُون، وهو ربّ إقليم مصر.

فتنزَّل موسىٰ عليه السلام إلى مستوىٰ إدْراك فرعون، فقال له ولِمَلَئِهِ: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ومَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ.

أي: هو المتصرّف بعَمَلِيَّات الْخَلْقِ والتدبير في هٰذِه الأرض من مَشْرِقِها إلى مغْرِبها، ومن ذلك حدود سلطانك في مصر يا فرعون.

عندئذٍ استكْبَرَ فرعونُ حينَ فَهِم مُرادَ موسَىٰ عليه السلام، فقال له:

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: لَئِنْ اتَّخَذْت معبُوداً غَيْري.

● وعلى الاحتمال الثاني وهو: ما حقيقة رَبِّ العالمين؟ نلاحظ أنّ موسى عليه السلام قد أجاب فرعون ببيان أظهر فيه ربوبيته في خلقه، ولم يُجِبْه عن حقيقة ذاته.

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: هو خالق السماوات والأرض وما بينهما، ومُمِدُّهَا بعطاءات ربوبيته دواماً، والمتصرّف فيها.

فَالْتَفَتَ فرعونُ مخاطِباً مَنْ حَوْلَهُ:

﴿ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

استفهام تَعَجُّبِـي، أي: أنا أسأله عن حقيقة رَبّ العالَمِينَ الَّذِي يدّعيه، فيجيبنِـي بتفصيـلاتِ لعبـارة: «رَبّ العـالميـن» لا ببيـان حقيقـة ذَاتِ رَبّ العالمين.

فتابع موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

لقد أَعْرَضَ موسىٰ عليه السلام عن بيان حقيقة ذَاتِ رَبّ العالمين، لأنّ ذاتَه لَا تُدْرَك، ولأنّ حقيقة ذاتِه تعجز العقول عن معرفتها وتصوُّرِها، فَيَجِبُ التوقُّف عند إدراك آثارها، وهذا أَمرٌ يَكْفِي العقلاء.

فاستَغَلَّ فرعونُ عدم إجابة مُوسىٰ عن حقيقة ذاتِ ربّ العالمين، مُؤثراً الاكتفاء ببيان آثاره في خلقه، فاتّهم موسى بالجنون:

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ ﴾.

تعبيرٌ سَخِرَ به من موسىٰ عليه السلام ومن رسالته، وأشعر فرعون بها مَنْ حوله بأنّ هذا الذي يَدّعِي أنّه رسول من ربّ العالمين إنسانٌ مجنون.

فتابع مُوسَىٰ عليه السلام ذكر تفصيلات أُخْرى مشيراً إلى أنّ العقلاء يكْتَفُونَ لإثبات الذّاتِ بآثارها المشهودة، ولو كانت الذّات غير مشهودة، ولا معروفة الحقيقة:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

هُنَا وجَّهَ فرعونُ أَمْرَهُ السُّلْطَانِيّ الجازم :

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

عندئذٍ جاء الوقت المناسب ليعرِّفَ موسَىٰ عليه السلام فرعون وملأه بما لديه من آياتٍ بُرْهَانيَّة تُثْبِتُ أنَّه رُسولٌ صادقٌ مبعوثٌ مِنْ رَبّ العالمين :

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ .

فلم يكن من فرعَوْن إلاّ أن يَطْلُبَ من موسَىٰ أنْ يأتي ببرهان صدق كَوْنِه رسولَ ربِّ العالمين :

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ .

وكما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً :

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ .

عِنْدَئِذٍ جَاءَ دَوْرُ إظْهَارِ الآيَتَيْنِ الخارقَتَيْنِ اللّتينِ آتاهما الله له :

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ .

فأصِيبَ فِرْعَوْنُ ومَلَؤُهُ بالدَّهْشَة، وأسْرع فِرْعَوْنُ ليتدارك الموقف، وتَحَدَّث بما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) :

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ . . . ﴿٣٥﴾﴾ .

ورَدَّدَ الملأُ في مجلس فرعون مقالَتَهُ كَمَا ألْقاهَا، قال تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) :

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ . . . ﴿١١٠﴾﴾ .

قال فرعون كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لملئه:

﴿... فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

وكذلك في الآية (٣٥) من سورة (الشعراء/ ٢٦).

أي: اقترحوا عَلَيَّ مَاذَا نَفْعَلُ.

وبعد أنْ تداول أهل مجلس فرعون الرأي بينهم قالوا لسيِّدهم فرعون كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وكما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

وقُرِىء «سَحَّار» كما في الشعراء.

وبين القراءتين والنَّصَّيْن تكامل، أي: ينبغي حشر كلّ سحَّارٍ وساحر.

أَرْجِه: أي: أرجئه بمعنى أخّره وأَنْظِرْه، حتَّىٰ نُعِدَّ لَهُ السَّحَرة المنافسين له في سحره.

حَاشِرِين: أي: جنوداً جامعين، يجمعون السّحرة من مدائن مصر.

فلمّا استقرّ الرأي على إجراء مباراةٍ بينه وبين سحرة مصر، توجّه فرعون لموسى، فقال له كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾.

مكاناً سُوىً: أي: مكاناً متوسطاً يَسْتَوِي فيه موقفكَ وموقف سَحَرَتِنا.

فأجابه موسَىٰ عليه السلام:

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾.

يوم الزينة: قد كان يوم عيدٍ لهم يتزينون فيه ويجتمعون.

وجمع جنود فرعون له السَّحرة من كلّ مدائن مصر، ولمّا حَضَروا إلى العاصمة الفرعونية، وعرفوا المهمة الّتي حُشِروا مِنْ أجلها كان من أمرهم ما جاء بيانُهُ في سُورَة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

وعلم مُوسَىٰ عليه السلام بحضور السَّحرةِ استعداداً ليوم المباراة، ورأىٰ من واجبه أن يَدْعُوَهُمْ إلى دين الله ويحذّرهم من عذاب الله قبل أَنْ يَتصدَّوا لمباراةِ آيَتِه الرّبانيّة بسحرهم الذي لم يَكُنْ أكثر من وسائل تُخَيِّل للأبصار مشاهِدَ لاَ حقيقة لها في الواقع، فقَدِمَ إليهم ودعاهم ونَصَحَهُمْ، وقال لهم ضمن ما حدّثهم به ما جاء بيانُه في سُورَة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾.

فَيُسْحِتَكُمْ بعذاب: أي: فيستأصِلكم بعذابٍ متلاحقٍ.

فاختلف السّحرة فيما بينهم بعد أن وَجَّه موسىٰ عليه السلام لهم عبارات النُّصح والتحذير من عذاب الله، وبعد التنازع في مجلس سِرِّي جرىٰ بينهم انتصر الرأي القائل: إنّ موسىٰ وهارون ساحران يريدان أنْ يُخْرِجَا المصريِّين من أرضهم، ليكون بنو إسرائيل هم أصحاب الحكم والسلطان فيها، واتفقوا

على أن يكون عملهم مجتمعاً غير مفكّك، قال تعالى في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ۝٦٤ ﴾.

وجرت المباراة بين سَحَرة فرعون وبين موسى عليه السلام، في الموعد المحدد، كما وصف الله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ۝١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ۝١١٦ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ ﴾.

وكما وصف اللَّهُ في سُورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالُواْ: يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩ ﴾.

هذان النصّان متكاملان فيما بَيْنَهُمَا وفق منهج القرآن في عرض أحداث القصة الواحدة، بتنزُّلاَتٍ متعدداتٍ وأزْمَانٍ متباعدات، الأمر الذي يعجز البشر عن ضبطه ومنع الاختلاف عنه، مع ما في كلّ تنزّلٍ من فنّيَّةٍ إبداعيّة تعتمد على الحذف ومراعاة المناسبة.

وبعضُ المحذوفات قد يستطيع المتدبّر إدْراكها باللّوازم الفكرية.

ولمّا ابتلعت آية موسىٰ ابتلاعاً حقيقيًّا كُلَّ أَدوات سحرهم، رجَعَ

السّحرة إلىٰ أنفسهم، وتَذكّروا كلماتِ موسَىٰ الدّعويّة، الّتي دعاهم بها إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وحذّرَهم بها من أن يُسْحِتَهم الله بعذاب، جزاء افترائهم على الله، ومناصرتهم باطلَ فرعون، فكان من أمرهم جميعاً بلا استثناء، ما ذكر الله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

ونظيره ما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾.

هذا التحوُّل المفاجىءُ في موقف السَّحَرَةِ مِنْ عَدُوٍّ مُنَافِسٍ، إلى مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ مُتَابعٍ لموسىٰ وهارون، أَغْضَبَ فرعون غضباً شديداً، فقد انقلبَ سِلاَحُهُ عَلَيْه، فَبَدَلَ أن يكون في يَدِهِ ضِدَّ موسى، صار في يَدِ مُوسَىٰ ضدَّه، وأَسْعَفَتْه حيلَتُه أن يتدارك الموقف أمام جماهير قومه بأنْ يتّهم السَّحَرَةَ بأنّهم تلاميذُ موسىٰ في السّحر، وأنّه هو كبيرهم، وقد تواطَؤوا معه على أن يفتعلوا هذه الهزيمة ليكونوا شركاء معه في حكم مصر، بعد طرد فرعون وآله وجنوده منها، فكان من أمره ما أبانه الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

وما أبانه الله في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) مع التكامل في المعنىٰ بين النصّين:

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾.

آمَنْتُمْ لَهُ: أي: آمَنْتُمْ بِهِ وأسْلمتم له.

ولأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جِذُوعِ النَّخل: أي: ولأُصَلِّبَنَّكُمْ مُثْبتاً أجسادكم بمسامير تدخل في جُذوع النخل.

لكن إيمان السَّحَرَة قد كان إيماناً قويًّا مُتَغَلْغِلاً في عمق أفئدتهم، وقد شعشعت في أعماقهم أنواره، بعد أن رأوا أَنّ آية موسَىٰ آيةٌ حقيقيّةٌ رَبّانيّة، وليست خداعاً بصريًّا، فلم يكترثوا لما سيُنْزل فرعون بهم من عذاب، طمعاً في أن يحميهم الله من عذاب جهنّم يوم الدين، ويجعلَهم في جنّاتِ النعيم خالدين، فكان رَدُّهم جميعاً على فرعون ما أبانه الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

وما أبانه الله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مع التكامل في المعنى بين النصّين:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

ونفّذ فرعون في السّحَرة ما تَوَعّدَهُم به، ليُبْقي لنفسه المهابة في مصر، ويَظْهَرُ أنّه خاف في قرارة نفسه أَنْ يمسّ موسَىٰ بُسوءٍ، فيبطش به رَبُّه فيُهلكه.

قال تعالى في سورة (الأعراف):

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

وصَبَر موسىٰ عليه السلام سنين يدعو إلى دين الله في مصر، فما آمن به

إلاّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ بني إسرائيل، وأجرى الله له آيات الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدّم آياتٍ مفصلات فاسْتَكْبَرَ فرعون وقومه وَكانوا قوماً مجرمين.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥٩ نزول) بشأن موسى عليه السلام:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾.

فأجابهم موسى عليه السلام كما جاء فيها:

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

أي: أتقولون للحقّ لمّا جَاءَكُمْ هُوَ سِحْرٌ، وأشار إلى ما جاءهم به من آياتٍ خوارق عُظمىٰ فقال لهم: أَسِحْرٌ هٰذا. وبعد ذلك حاول إقناعهم بحقيقة مُجَرَّبَةٍ، وهي أنّ السّاحرين لا يفلحون، فقال لهم: ولاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُون.

فاتّهموه بأنّ هدفه من دعوته أَنْ يكون له ولأخيه الْعَظَمَةُ والسلطان في مصر، كما جاء فيها أيضاً:

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فأعرض عن اتّهامه هذا لأنّه يطالب بالإذن لبني إسرائيل بأن يخرجوا معه من مصر، ويتركوا لهم أرضهم.

وواجهه فرعون في إحدى المرّات بقوله له كما جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ . . . إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ .

فرَدَّ عليه موسَىٰ عليه السلام بجرأة وثقةٍ بالله، مبيناً له أنّه عالم في قرارة قلبه أنّ ما جاءه به إنّمَا هو آياتٌ من ربّه، وردّ عليه اتّهامه له بأنه مسحور بتهديدٍ له بأسلوب الظنّ بأنّه مثبور، أي: هالك.

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

وتولّى فرعون بركنه في قصره وقال عن موسى: ساحر أو مجنون، أي: ساحرٌ في آياته الخارقات، ومجنون في تجرّئه على سلطان فرعون، كما جاء في الآية (٣٩) من سورة (الذاريات/ ٥١).

ومع طول الزمن وإمهال الله عزّ وجلّ لفرعون وجنوده، نَما شُعُورُ العظمة والكبرياء في نفس فرعون فنادىٰ في مَلَئِه أَنَّهُ هو إِلَٰهُ الشّعب المصريّ في الأرض، وسَيَتّخِذُ الوسائل ليطَّلِع إلى إلَٰه موسَىٰ في السماء، على أنه يظنُّهُ من الكاذبين.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

ونظيره جاء في الآيتين (٣٦ ـ ٣٧) من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) وفي هذا تحايُلٌ من فرعون على شعبه ليظهر نفسه بصورة الباحث عن الحقيقة.

وزاد إمهالُ الله له وزَادَ تنكيلَه ببني إسرائيل وإذْلالُه لهم، لكنّه كان يَخْشَى أن يمسَّ موسى وهارون بسُوء، لئَلَّا يَبْطِشَ به إلَٰهُهُما الذي في

السَّماء، وازْدَادَ شُعُورُ العظمة والكبرياء في نفسه، فحَشَرَ جماهير المصريين في يوم جامع، ونادَىٰ فيهم: أنا رَبُّكُمْ الأَعْلَىٰ.

لم يكتف بمقولته الأولى التي زعم فيها أَنَّهُ الإلّه المعبود في مصر، بل ضرب في رأسه جُنُونُ العظمة فزعم أنه رَبُّهُمْ الأعلى، وقال لملئه: ذروني أقتل موسىٰ ولْيَدْعُ رَبَّه، كما جاء في الآية (٢٦) من سورة (غافر).

فأهلكه الله هو وجنوده غرقاً في الْبَحْر الذي عَبَرَهُ مُوسَىٰ وقومه بمعجزة خارِقَةٍ فَرَق الله له فيها البحر، وجعل له في داخله طريقاً يَبَساً.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) بشأن فرعون:

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦ ﴾.

الآخرة: هي قوله: «أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ».

والأُولىٰ: هي قوله: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْري» كما جاء في الآية (٣٨ من سورة القصص/ ٢٨).

نكال الآخرة والأُولى: النّكال، العقاب الشديد الرادع، إمّا للمنكَّلِ به، وإمّا لغيره من الذين يَعْتَبِرون به.

خـــاتمـــة:

أمّا الاضطهاد الذي تعرّض له من آمن به من قومه، من بني إسرائيل، من قبل فرعون وجنوده فقد عالجه موسى عليه السلام بوسيلتين:

الوسيلة الأولى: توصيتُهُمْ بالصَّبْر وتحمّل الأذى، واحتساب الأَجْر عند الله، مع الاستعانة بالله.

الوسيلة الثانية: وعدهم بأنّ الله عزّ وجلّ سَيَسْتَخْلِفُهُمْ في الأرض،

فيكونون فيها ذوي قوة وحكم وسلطان.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

* * *

الفصل الثاني

نماذج دعاةٍ من غير الرُّسُل
عرض القرآن الكريم دعوتهم ونصرتهم لدينه

وفيه مقدمة وسبعة نماذج:

النموذج الأول: دعوة مؤمن آل فرعون لقومه انتصاراً لموسى عليه السلام ولدعوته.

النموذج الثاني: دعوة مؤمن أصحاب القرية التي جاءها مرسلون ثلاثة، وانتصاره لهم ولدعوتهم.

النموذج الثالث: دعوة النفر من الجنّ الّذين عرضت قصَّتهُمْ سورة (الجنّ).

النموذج الرابع: دعوة النفر من الجنّ الّذين عرضت قصّتهم سورة (الأحقاف).

النموذج الخامس: صورة من دعـوة الوالدين المؤمنين لولدهما الكافر.

النموذج السادس: قصّة قارون والدعاة من بني إسرائيل، وفيها صورتان:

١ ـ صورة دعوة دعاة بني إسرائيل لقارون الذي بغىٰ على قومه.

٢ ـ صورة دعوة علماء بني إسرائيل للجاهلين منهم الذين فتنتهم مظاهر الحياة الدنيا الّتي آتاها الله لقارون.

النموذج السابع: قصةُ الرجلين المتحاورين صاحب الجنتين المستكبر بهما وبولده المنكر ليوم الدين، والآخر المؤمن الذي لم يُؤْتَ سعَةً من المال والولد.

* * *

مـقـدمــة

جاء في القرآن المجيد عرضُ نماذجَ من دَعْوَةِ دُعاةٍ مؤمنين، دَعَوْا إلى دين الله، ونَاصَرُوا رُسُله، وهؤلاء الدُّعاة ليسوا بمرسلين ولا أنبياء.

وقد جاء في بيان قِصَص هَؤلاء ذِكرُ دعوتهم وحوارهم للمدعوّين من قِبَلِهِمْ، وبالتأمّل الّذي يَقُومُ على الاستعانة بالله وفَتْحه، يُدْرِك المتدبّرُ أنّ الحكمة من ذكر قِصَصِ دعْوَتِهم في القرآن المجيد المحفوظ بحفظ الله، والّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تحقيقُ عِدّة أهداف:

الهدف الأول: تسجيلُ الثناء عليهم في آيات تُتْلَىٰ في القرآن المجيد، ويُتَعبَّدُ بتلاوتها.

الهدف الثاني: توجيه أنظار المؤمنين للاقتداء بهم في جهاد الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

الهدف الثالث: إقرار طرائقهم في الدعوة والحوار، إذْ جاء عَرْضُها في مَعْرض الثناء، دون إشارة إلى ما هو أَحْسَنُ أو أفضل منها.

وفيما يلي ذكرٌ للنُّصوص الّتي اشتملت على هذه النماذج، مع نظراتٍ تدبُّرِيّةٍ تحليليّة، واستنباطاتٍ لما يَحْسُن اتّباعُه في مناهج وطرائقِ وأساليب الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

* * *

النموذج الأول

دَعْوَة مؤمن آل فرعون لقومه انتصاراً لموسى عليه السلام ولدعوته:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ
الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ
فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي
الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ
رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا
يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ
الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ
إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ
يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ
وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا
جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ
مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا
عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ

يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

- ١ -

نظرة إجمالية عامّة

جاء في هذا النصّ عرضٌ لدعوةٍ إلى الله قام بها مؤمن من آل فرعون، آمَنَ بموسى وهارون عليهما السلام، وكتم إيمانه مدّةً من الزّمن، إذْ كان مُعَاصِراً لهما، مع ما كان لديه من علْمٍ مَوْرُوثٍ عن رسول الله يوسف عليه السلام.

ويظهر أنّه قد كان واحداً من أعضاء المجلس الاستشاري في القصر الفرعوني يومئذٍ، فقد وصفه الله بأنّه من آل فرعون، والآل من الأسرة هم أشرافها وأعيانها وكبراؤها.

وظلّ هذا الرجل المؤمن يكتُم إيمانه حتّىٰ تأزّمُ الأمْرُ ضدّ موسى

عليه السلام إلى الحدّ الأقصى، إذْ قال فرعون زَمَانِه لمَلَئِه، وهم وزراؤُه وأعضاءُ مجلسه الاستشاري مِنْ عِلْيَةِ أُسْرَتِه: ﴿. . . ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: أن يُحَرِّك الإسرائيليين في مصر بثورةٍ ضدّ الأسرة الحاكمة، ومعهم من يستجيب لدعوة موسَىٰ من القبط المصريين.

عندئذٍ قدّم هذا الرَّجُلُ المؤمن الذي كان يكْتُم إيمانَه مشورته ناصحاً، ضمن مجلس المستشارين بأنّه ليس من الحكمة ولا من العدل ولا من حُسْنِ السِّيَاسَة قَتْلُ رجُلٍ يقول: ربّـي الله، وقد جاء بالبيّنات من ربّكُمْ، وهي بيناتٌ فكريَّةٌ لا اعتراض عليها قدّمها بمقاله في دعوته، مقرونة بآيات إعجازيّة شهدتموها.

وكان نُصْحُ هذا الرّجُل المؤمن في مشورته يعتمد على الاستدلال الفكريِّ الراجحِ، والمنْطقِ العقليِّ السديد، فقال لهم: لا يخلو أن يكون موسىٰ كاذباً أو صادقاً، فهذان احتمالان لا ثالث لهما.

● **أمّا على الاحتمال الأوّل**: وهو أن يكون موسَىٰ كاذباً، فإنّ إبقاءهُ حيًّا وعدَمَ التعرّض لقتله لا يضرُّكُمْ بشيْءٍ، إذْ أَنْتُمْ أصحاب القوة والسّلطان في مصر، وهو وقومه عاجزون عن التصدّي لكم، ثم إنَّه لا يستطيع أن يَنْشُرَ دينَهُ في مصر، لأنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي من هو مسرفٌ في ادّعائه أنه رسول الله، كاذبٌ فيما يخبر به عن ربّه، فإن كان كاذباً في ادّعاءاته فلا بُدَّ أنْ يَخِيبَ في مسعاه، ولا ينجح في مقاصده.

● **وأمّا على الاحتمال الثاني**: وهو أن يكون صادقاً، وأن يكون رَسُولاً مَبْعُوثاً من ربّكم حقًّا، فأقلُّ ما يتوقَّعُ مستقبلاً أن يُصِيبكمْ بعضُ الذي يَتَوَعَّدُكُمْ بِهِ، إذا تعرّضْتُمْ لقتله.

وهنا أراد فرعون أن يَحْسِمَ الأَمْرَ ولا يدع مجالاً للرجل من آله أن يزيد

من بياناته في مجلسه، فقال لأعضاء المجلس: ما أُريكُمْ من الرأي إلاّ ما أراه لنفسي صالحاً، وما أَهْدِيكم في عرضي عليكم أن أقتل موسى إلاّ سبيل الرّشاد، لحمايتكم وحماية مُلكِكُمْ مما يحدثه هذا الرجل من فتْنَة.

لكنَّ الرجل المؤمن من آل فرعون قد شعر بأن الفرصة متاحةٌ له بعد تقديم مشورته التي نصح بها فرعونَ ومَجْلِسَ وزرائه ومستشاريه، إذْ أصغوا لاستماعها، وتوقَّفَ أعضاءُ المجلس عن إصدار القرار بقتل موسى، وشعر بأنّهم أحسّوا بإيمانه، فتحوّل داعياً إلى الله، مُنْذِراً من عقوبة الله، ومحذّراً قومَهُ من أن يَنْزِل بهم عقابٌ من الله مثلُ العقاب الّذي نزل بقوم نوح وعادٍ وثمود والَّذين من بعدهم بسبب كُفْرهم برسُل ربّهم، وكانت قصص هؤلاء مُتَدَاولةً بين المصريين.

بعد هذا انْتَقَل إلى تحذيرهم من عذاب الله يَوْمَ الدّين، ويظهر من هذا أنّ عقيدة البعث بعد الموْتِ للحساب والجزاء كانت من العقائد الموروثة لَدَيْهِم، وأنّ الله هو الذي له الحكم بين العباد يومئذٍ، فَمَنْ يحكم الله عليه بالضلالة فلَنْ يجد من يحكُمُ له بالهداية.

وهُنَا ذكّرهُمْ برسالة يوسف عليه السلام ـ الّذي توفّي منذ أقلَّ من قرن على ما يذكر المؤرخون ـ وأنّ الأسرة الفرعونيّة في عهده ـ وهم قوم هذا الرجل الدّاعيَةِ ـ ما زالوا يشكّون في أنّه رسولٌ منْ ربّه، حتَّىٰ إذَا ماتَ تحقَّقُوا من أنّه رسول من الله، ولكن قالوا: لَنْ يَبْعَثَ الله من بعده رسولاً يمنَعُهُمْ ممّا يشتهون ويَهْوَوْن من أنْواع آثامٍ وتَسَلُّط وطغيانٍ في الأرض، إذْ كان يوسف عليه السلام هو الوزير الأوّل بعد فرعون في عهده.

ولمّا كشَفَ عن هوّيته الإِيمانية بدأ فرعون وملؤه يجادلونه بالباطل، إذْ منعهم عن الاستجابة له ما في نفوسهم من كِبْرٍ، وما لَهُم من سلطانٍ قويٍّ في مِصْر، وهذا ما جعلهم طغاةً جبَّارين.

وخشِيَ فرعون أن يتأثَّر بعْضُ مَلَئِه بمجادلته، فعلَّق بدهائه الأمر على اتّخاذ وسيلة من وسائل البحث، للتأكُّد من صحة كون موسى رسولاً من ربّه، وأعرض عن فكرة قَتْله، وتنازل عن القطع بأنّه كاذب، مكتفياً ببيان أنَّه يظنّهُ كاذباً.

وقد طَرَحَ وسيلةً يطول أمَد تحْقيقها، فقال لوزيره الأوّل: يا هامان ابنِ لي صرْحاً (أي: قصراً عالياً) لعلّي أبلُغُ إلى أسباب عُلْوِيّة، أَصِلُ بوساطتها إلى السماوات، فأطّلِعُ هُنَاكَ إلىٰ إلّه موسَىٰ، فاعْرِفُ منه هل موسى رسولُه حقًّا أمْ لا؟! وقذف القضيّة بهذه الحيلة الشيطانيّة، وعلّقها على أمر خرافيّ متعذِّر التحقيق، وهو يَشْعُر بأنَّ قومه: إمّا سُذَّجٌ يَرَوْنَ أنَّ لفرعون قُدْراتٍ تمكِّنُهُ إذا بنىٰ الصرح العالي من اتّخاذ أسباب توصله إلى السماء، وهنالك يطَّلِعُ إلى إلّه موسى. وإمّا شياطينُ مِثْلُه يُواطِئُونه على ضلاله، ويعرفون حَيَلَه وأكاذيبه، فهم شركاؤه في الملك والسلطان والمنافع.

وبهذا قطع بحث قضيّة موسىٰ داخل البلاط الفرعوني، بانتظار بناء الصرح واتّخاذ الأسباب إلى السماء.

عندئذٍ رأى الرجل المؤمن من آل فرعون وقد انكشف أَمْرُهُ، أن ينْطَلِق داعياً إلى سبيل ربّه، ودينه الذي جاء به موسى وهارون، بين الشعب المصريّ، بعد أن وجَدَ أنَّ دعْوَتَه داخل القصر قد أبعدها فرعون إلىٰ أَجَلٍ لَنْ يأتي.

فنادىٰ في قومه قائلاً كلاماً خلاصته:

- يا قَوْمِ اتَّبعوني أهدكم سبيل الرَّشاد.
- يا قوم إنّما هٰذهِ الحياة الدنيا متاع، وإنّ الآخرة هي دار القرار.
- من عَمِلَ سيّئةً فلا يُجْزىٰ إلاّ مِثْلَها، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة يرزقون فيها بغير حساب.

فجادله قومه بالباطل، وجعلوا يدعونه إلى ترك الدين الّذي فارق به دين آبائه وقومه، وإلى العودة إلى دين الشرك الذي هم عليه، فقال لهم:

● يا قوم، مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونَنِي إلى النار؟!

● يا قوم، إنكم تدعونني لأكفر بالله الحقّ، وأُشْرِكَ بِهِ ما ليس لي به عِلْم، فليس له حقيقة في الوجود، وأنا أدعوكم إلى العزيز ذي القوة الغالبة القادرة على كلّ شيء، الْغَفَّار الذي يغفر ذنوبكم إذا آمنتم به واستغفرتموه، فلا يُعَذِّبكم عليها.

● يا قوم، ممّا لا ريب فيه أنْ ما تدعونني إليه ليس له دعوةٌ حقيقيةٌ ذاتُ أثرٍ في الدنيا ولا في الآخرة، إنّما هي أسماءٌ لأشياء وهميَّةٍ لا حقيقة لها، ولا قُدْرَةَ لها على شيء.

● يا قوم، إنَّ مَرَدّنا جميعاً إلى الله، إذْ يَبْعَثُنا من الموت إلَىٰ حياة الحساب وفصل القضاء وتطبيق الجزاء.

● يَا قَوْم إنَّ الْمُسْرِفين على أنفسهم بالكُفْرِ والعصيان هُمْ أصحابُ النار، الدّار التي يُجَازَوْنَ فيها على كفرهم وعصيانهم.

● يا قوم، ستذكرون يَوْمَ نُزُول العذاب بكم ما أقولُه اليوم لكم، وستَتَحَسَّرون وتَنْدَمُون على أنكم لم تسْتَجِيبوا لي، ولم تَقْبَلُوا دعوتي.

ولمّا وجَدَ قومَهُ متحجّرين معاندين، ورأىٰ أنَّ القصر الفرعوني يُدَبّر للتخلّص منه ومن دعوته قال لقومه:

● لقد قَدَّمْتُ لكم غَايَةَ ما عندي من نصح، فأبيتم، وأنتم تدبّرون التدابير للتخلُّص مني، فلا مسؤولية عَليَّ عند رَبِّي تُجَاهكُمْ فقد قُمْتُ بواجبي نَحْوكُمْ، وَأفوِّضُ أَمْرِي بشأن ما تُدَبِّرونَ ضِدّي إلىٰ الله، إنّ الله بصيرٌ بالعباد، فهو الذي يقيني ويحميني.

لقد كان هذا الرَّجُلُ مجاهداً حقًّا، جهادَ دعْوةٍ ببيان قويّ، وحُجَج دامغة، وصَبْرٍ ومُصَابَرةٍ ومُتابعة، دون خوف من قتل أو تعذيب، وكان مع كلّ ذلك متوكّلاً على الله، ومُفَوّضاً أمره إليه بصدق نِيّةٍ وهِمّةٍ وعزيمةٍ وعَمَلٍ، فاستَحَقّ أَنْ يُنْزِلَ الله في خاتمة كُتُبِهِ عَرْضاً لقصته ينْضَحُ بتمجيده والثناء عليه.

وقد مكر به آلُهُ، وعزموا على أن يُوقِعُوا بِهِ سيّئاتٍ متعدّداتٍ من سِجْنٍ، أو تعذيبٍ، أو مصادرةِ ممتلكاتٍ، أو طردٍ من الأسرة، أو قتلٍ، أو كلِّ ذلك، إذ أعلن خروجه عن مِلّتِهم، ومتابعته لدين الله الحقّ، والتزامَهُ بالحقّ الّذي آمن به، ونُصْرَتَهُ، والدّعوةَ له بين شَعْب قومه نصحاً وجِدالاً بالّتي هي أَحْسَنُ، إلاّ أَنَّ الله عزّ وجلّ وَقَاهُ سَيِّئَاتِ ما مَكروا، وأَنْزَلَ بفرعون وآلِهِ سُوءَ العذاب، فأَغْرَقَهُمْ في اليمّ، وهذا يَدُلُّ على أنّ الحادثةَ قد كانت قُرْبَ مُلاَحقَةِ فرعَوْنَ لموسَىٰ وبني إسرائيل لمّا خَرَجوا من مصر في اتّجاه سيناء، إذ انتهت هذه الملاحقة بغرق فرعون وآله وجنوده، وأنجىٰ الله مؤمن آل فرعون من مَكْرِهم.

وهذه سُنَّةُ اللَّهِ في مُعْظَمِ الدّعاةِ الصادقين الحكماء إلى سبيل رَبِّهم، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (غافر) نفسها بعد عَرْضِ قصة مؤمِنِ آل فرعون ولواحِقِها:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾.

- ٢ -
منهج مؤمن آل فرعون في الدعوة إلى الله

ممّا سبق بيانه في النظرة الإجمالية العامّة، يتبيّن لنا أَنّ منهج مؤمن آل فرعون في دعوته لكفّار قومه إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، كما عرضها القرآن مُقِرّا لها، ومشعراً بالثناء عليها وعلى القائم بها، يتلخَّصُ بما يلي:

أولاً:

البذءُ بنُصْحِ قومه نُصْحاً عامًّا، على اعتبار أنّه واحدٌ منْهُمْ يضُرُّهُ ما يضُرُّهم، وينفَعُهُ ما ينفعُهم، وذلك بتقديم مشُورَةٍ منطقيّةٍ فكريّةٍ، قائمةٍ على التَّحْلِيلِ والحصْرِ العقلي، بطرح الاحتمالات الممكنَةِ، وبيانِ آثار كلٍّ منها، وتحديدِ ما هو الأصلَحُ في الإدارة والسِّياسة، مستغلاًّ حدَثاً مُنَاسِباً، ومشعراً بميله إلى الحقّ.

ثـانيـاً:

الانتقال التدريجي إلى تَبَنِّي قضيَّةِ الإيمان بالله وبالرُّسُلِ، عن طريق تحذير قومه من أن يَنْزِل بهم مِثْلُ عقوبات الأوّلين (قوم نوح، وعاد، وثمود، والّذين من بعدهم) التي يعرفون أخبارها، ولا يجهلونها، ولذلك عرضها عليهم باعتبار أنّها مُسَلَّمَاتٌ لديهم.

ثـالثـاً:

الانتقال من التحذير من الجزاء المعجّل في الدنيا، إلى التحذير من الجزاء المؤجل إلى يوم الدنيا، إذْ هما مترابطان وفَرْعَان لقضيّةٍ إيمانيّة واحدة، هي قضيّة الدّينونَةِ والجزاء، فحذّرهم من عذاب الله يوم الدين، وهذه أيضاً من القضايا الّتي لديهم حولها اعتقادٌ مَوْرُوثٌ عمّا تلقَّوْهُ من يوسُفَ عليه السلام، الّذي كان ذا سلطان في القصر الفرعونيّ منذ أقلّ من قَرْنٍ، على ما يذكر المؤرخون.

رابـعـاً:

الانتقال إلى تذكيرهم برسالة يوسف عليه السلام، التي كان المصريّون في شكٍّ منها وهو بينهم، فلمَّا ماتَ عرفوا أنَّه رسولٌ من عند الله ربِّهمْ، والهدفُ من هذا التأكيدُ على قضيّة النبوّة والرّسالةِ الّتي هي إحدىٰ قضايا الإيمان الكبرى.

وحين قوبل بالمجادلة بالباطل جادلهم بالّتي هي أحْسَنُ، فواجههم بالحجج الدامغة، وهنا احْتَالَ فرعون بدهائه، فقطع المناظرة مدّعياً أنّه يريد أن يتحقّق من صحَّةِ ادّعاء موسَىٰ أنّه رسولٌ من الله، فأمر باتّخاذ وسيلة خرافية يواطئه عليها الشياطين المشاركون له في الحكم والسلطان والطغيان والجبروت، وينخدع بها السذّج من عامّة قومه الذين يرون فيه قدراتٍ فائقات قد يستطيع بها معرفة الحقائق السماويّة، وهي من الوسائل التي لا تتحقّق مقدّماتها إلاّ بأمد طويل، تغرق في بحره القضيّة الّتي قامَتْ من أجلها المناظرة.

خامساً:

عندئذٍ انتقل المؤمن الداعيَة إلى داعٍ عامّ بين علية القوم وبين جمهور الشعب المصري، فنادى بين الشعب المصري يبشّر بأسس الإيمان، ويؤكّد على قضية الدينونة والجزاء، والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حسابٍ وجزاء.

سادساً:

جادلَهُ كبراء قومه بالباطل، ليثنوه عن نشاطه في دعوته، وليعيدوه إلى ملّتهم. فجادلهم بالحقّ وسلطانٍ مبين، وأبان لهم أنّه يدعوهم إلَىٰ الخير والنجاة، وأنّهم يدعونه إلى الشّرّ وعذاب النار.

وأبان لهم أنّ الشرك الذي يدعونه إليه شركٌ لا تُثْبِتُه أدلّة علمية، فالشركاء التي يدعونه إلى الإيمان بها ليس له بها علْمٌ قائمٌ على أدلَّةٍ صحيحة، تثبت أنَّها شريكةٌ للرّبّ الخالق في ربوبيّته ولا في إلَٰهِيَّتِهِ، فكيف يؤمن بها، وكيف يعبُدُها من دون الله؟!. وكيف يَتْرُكُ الحقيقة العلميّة ذات الأدلّة البرهانيّة الّتي تَفْرِضُ عليه أن يؤمن بالله الواحد الأحد الذي لا شريك

له، وهو عزيزٌ، أي: قويٌّ غالبٌ لا يُغْلَبُ، وهو غفَّارٌ، أي: يغفر لمن تابَ وآمن به واتَّبَعَ هُداه.

هذه خلاصة منهجه الدَّعَوِيّ، ولدى التأمّل في هذا المنهج نلاحظ أنّه منهج رُسُلِ الله في دعوتهم إلى دين الله الحقّ، حين كانوا يدعون أهل الكفر والشرك بالله.

وهو منهجٌ يعتمد على البدء الرفيق بالإقناع الهادىء، لاكتساب الثقة، ثمّ الاعتماد على المسلّمات المشتركة، الّتي هي من الأسس الفكرية العامة، والاهتمام الأعظم بقضايا الإيمان الأولى، والانتقال شيئاً فشيئاً إلى مواطن الخلاف، وتقديم الحجج الصحيحة التي تفيد إقناع ذوي الفكر.

- ٣ -

التدبّر التحليليّ للنصّ

١ - قول الله عزّ وجلّ مبيّناً تأزّم الموقف ضدّ موسى والذين آمنوا به واتبعوه:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بآيَاتِنَا: أي: بآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ الّتي فِيهَا تَعْلِيماتُ الدّين وأحكام الشريعة، وآياتِنَا الإعجازية، وهي الآياتُ التِّسْعُ الّتي أجراها الله على يد موسىٰ، لإثبات أنّه مُرْسَلٌ من ربّه، أوَّلُهَا آيةُ العصا الّتي كانت تنقلب له بإذن الله ثعباناً مبيناً، وآيَةُ الْيَدِ، إذْ كان يُدْخِلُ يَدَه في جيبه فتخرج بيضاءَ متلألئةً مِنْ غير سوء.

وسُلْطَانٍ مُبِينٍ: يُطْلَق السلطان في اللغة على القوة والقهر، وعلى الحجّة الغالبة والبرهان الدامغ، وعلى الملك والولاية على الناس.

والمعنى الملائم هنا الحجّة الغالبة والبرهان الدّامغ، فقد كان موسى عليه السّلام ذا حجّة برهانيّةٍ دامغة، على أنَّ الآيات الإعجازيّة التي جاء بها هي من البراهين الدامغة، فهي علامات برهانيّة.

إلى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ: أي: وإلى أقوامهم، ففرعون ووزيره الأوّل هامان هُما الرّأسان الكبيران للقبط في مصر، والإرْسال إليهما يفيد باللّوازم الفكريّة الإرسال إلى كلّ القِبْط قومهما، إذْ خطابُ القوم يبدأ بخطاب ملوكهم ورؤسائهم وقادتهم، فيُكَنَّىٰ عن القوم بهم.

أمّا قارون فكان رئيساً في بني إسرائيل، وكان ابن عَمٍّ موسى، وكان ذا ولاء كامل للقصر الفرعوني من بني إسرائيل، فأثْرىٰ بذلك ثراءً فاحشاً، ولمّا جمَعَ مُوسَىٰ بني إسرائيل علىٰ دين آبائهم وقَادَهُمْ قيادةً دينيّة، كان قارون من حزب فرعون وهامان قائلاً معهما عن موسىٰ عليه السلام: ساحرٌ كذّاب، وأخذ يتعالَىٰ ويسْتَكْبِرُ بتأييدِ من القصر الفرعوني، ويتفاخر على قومه بأمواله وعبيده، ومظاهر الزّينة والعظمة الّتي جعلها لنفسه، حينما يسير في مواكبه في أحياء بني إسرائيل، وشارك آل فرعون في البَغْي على قومه، فخسف الله بِهِ وبداره الأرضَ فابتلعَتْهُ، وكان عِبْرةً للمعتبِرين.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا: أي: فلمّا جاءهم موسىٰ بالآيات الحقِّ من عند ربّه، إذْ أرسل الله عليهم آيَاتِ التذكير والإنْذار في أزمان متراخيات، وهي آيات الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدّم.

قالُوا: اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ واسْتَحْيُوا نِسَاءهم: أي: قال فرعون وهامان الرأسان الآمران في القصر الفرعوني، وقال معهما أيضاً قارونُ بَاغياً على قومه ومناصراً لفرعون، لجنود التنفيذ: اقتلوا أبناء الذينَ آمَنُوا مع

موسَىٰ، واستبقوا المواليد من البنات اللّواتي سيَكُنَّ نساءً صالحات للخدمة والتسخير أحياء.

ومَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إلاَّ فِي ضَلاَلٍ: الكيد: هو التدبير لأمور مكروهة للمكيدين، والكافرون لاَ يكيدون كيداً إلاّ مَغْموساً في أَوْحَالِ ضَلاَلٍ عن الحقّ والرُّشْد والْهُدىٰ.

ودلَّ هذا على أنّ قارون قد كان كافراً مثل كُفْر فرعون وهامان، لأنّ الظاهر من الضمير في: ﴿قَالُوا۟﴾ يعود على الثلاثة فرعون وهامان وقارون، وهذا ينفي أن يكون قارون قد آمن بموسى ثمّ ارتَدَّ عليه، أو كان متابعاً لموسىٰ نفاقاً، فالنصّ يُشْعِر بأنَّه أَحَدُ المشاركين في صُنْع قرار قَتْلِ المواليد الذكور الذين يُولدون لمن آمن مع موسَىٰ عليه السلام، ولعلّ قارون كان مستشاراً في القصر الفرعوني للشؤون المتعلّقة ببني إسرائيل في مصر، وصَدَر القرار عامًّا يشمل كُلَّ أبناء الّذين آمنوا مع موسَىٰ ولو لم يكونوا من بني إسرائيل لإرهاب القبط أيضاً حتى لا يؤمنوا به ويتبعوه.

* * *

٢ ـ قول الله عزّ وجلّ مبيّناً اقتراح فرعون على أعضاء مجلس مستشاريه بأن يقتل موسىٰ وكان هذا في جلسة ابتدائيّة:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

وفي قراءة المدنيّيْنِ والبصري: ﴿وَأَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

مثل هذا العرض الذي جاء في هذه الآية يكون غالباً خلال إحدى المجالس الّتي تُعْقَد لتبادل الرأي في إدارة شؤون الدّولة، بين الملك أو رئيس الدولة ووزارة ومجلس المستشارين.

وقد عرض فِرعونُ على مجلسه فكرة إصدار قرار بقتل موسىٰ بَعْدَ أن

تفاقم أَمْرُ مُوسَىٰ وأمْرُ بني إسرائيل في مصر، وخشي فرعونُ أن يهتزَّ عرشه، وتذهبَ ذرائع هيمنته على البلاد، واستعباده للشعب، باعتباره وارث الملك والسُّلطة الدينيّة عن آبائه وأجداده، وفق عقائدهم الوثنية.

وأبَانَ لأعضاء مجلسه أنَّه إذا قَتَله قَطَعَ بقَتْلِه قُدْرَتَه على أن يَدْعُو رَبَّه، كَمَا كان يفْعَلُ في أحداث آياتِ الطوفانِ والجرادِ والْقَمّلِ والضفادِعِ والدَّمّ، ويَظْهَرُ أنَّه أراد قَتْلَه بصُورةٍ سِرّيَّةٍ دُونَ إعْلانٍ بمنْشُورٍ عامّ، حتَّىٰ لا يَعْلَم موسَىٰ فيَدْعُو رَبَّه.

فقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: بعْدَ التخلُّصِ منه بقَتْلِه وفَصْلِ ما بينَهُ وبين ربّه من صِلَةٍ، سببُها ما له من قُوّةٍ نَفْسِيَّةٍ ورُوحيَّةٍ ما دام على قَيْدِ الحياة، فإذا مات انقطعت هذه الصِّلة، وهذه فِكْرَةٌ تُراودُ كُلَّ الَّذِينَ يرَوْنَ أنّ لبعض النّاس طاقاتٍ وقدراتٍ غيبيَّةً، وهذه تنتهي بموتهم.

وعلَّلَ فِرعَونُ ما اقترح على مجلس مُسْتَشاريه من قتل موسى بإحدىٰ عِلّتَيْنِ أو كليهما، أخذاً من القراءتين:

﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ و ﴿وَأَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

العلّة الأُولى: الْخَوْفُ مِنْ أَنْ يُبَدِّلَ بدَعْوَتِهِ دينَ الْقوم الّذي تَعْتَمِدُ عليه الأسرة الفرعونية المالكة في مصر، والمهيمنَةُ على الشعب به.

العلّةُ الثانية: الْخَوفُ من أَنْ يُثِيرَ الّذين آمنوا به واتَّبَعُوه ضِدّ السُّلْطَةِ الحاكَمة، فيُظْهِرَ في الأرْضِ الْفَسَاد.

ويظهر أنّ فرعونَ تركهم يفكّرون في الأمر، ولم يَطْلُبْ في هذه الجلسة أن يُعْطوا رأيهم الجازم، وانفضّ المجلس، ولم يكن فرعونُ يَعْلَمُ أَنَّ أحداً من حاضري مجلسه يمكن أنْ يُوصِلَ هذا العزم منه لموسىٰ عليه السلام، فكلُّهم من آلِه، ولا يُظَنُّ بواحدٍ منهم أنْ يكونَ قد آمن بموسى واتّبعه سِرًّا.

لكن قد كان فيهم رجلٌ مؤمِنٌ يكتُمُ إيمانه، ويظهر أنّه أوصَلَ الخبر سرًّا لموسَىٰ عليه السلام.

* * *

٣ - قول الله عزّ وجلّ مبيّناً عِلْمَ موسىٰ عليه السلام بما اقترحه فرعون واستعاذته بربّه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

عَلِمَ مُوسَىٰ عليه السّلام نَبأَ اسْتِشَارةِ فرْعَونَ مَجْلِسَ وزرائه ومستشاريه في أن يقتله، ويظهر أنّه جمَعَ رُؤسَاء قومِهِ من بني إسرائيل وأبْلَغَهُمُ النّبأ، فقالُوا له: ماذَا أنْتَ صانع؟.

قال: إنّي عُذْتُ بِرَبّـي وَرَبِّكُمْ مِنْ كلّ متكبّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْم الحساب.

عُذْتُ بِرَبّـي وَرَبّكم: أي: الْتجأْتُ إليه واعْتَصَمْتُ به، فَهُو سَيَحْمِيني من مكر فرعون، ومكر كلِّ كافرٍ متكبّر لا يؤمن بيَوْمِ الحساب.

هذا دعاءٌ مقرونٌ بالتوكُّلِ التّامّ على الله، إذْ ليس لديه وسيلة متاحة غير الدّعاء والتوكُّل، وقد أعاذَهُ الله وعصمه بألطافه الخفيّة.

* * *

٤ - قول الله عزّ وجلّ مبيّناً قصّة مؤمن آل فرعون ومَا كانَ منه في جلسة ملكيّة لاحقة:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؟!!.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

نُلاَحظُ من هذا العرض القرآنيّ أنّ فرعون عقد جلسة لاحقة للجلسة الابتدائيّة، جمع فيها وزراءَهُ ومستشاريه من آلِه ليأخذ قراراً مستنداً إلى مشورتهم بالتفويض له بأن يقتل موسى.

وقد دلَّ على هذه الجلسة اللاّحقة وجُودُ الفاصل الذي أبان الله فيه أنّ موسَىٰ عليه السلام قد بلغه نبأ اقتراح فرعون بقتله، وأنّ موسى دعا ربّه أنْ يُعِيذَهُ مِنْ كلِّ مُتكبّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْم الحساب.

وفي هذه الجلسة اللاّحقة يظهر أنّ فرعون قال لأعضاء مَجْلِس وزرائه ومستشاريه: ما رأيُكم فيما عَرَضْتُ عَلَيْكُمْ من قَتْلِ مُوسىٰ؟ وترك الأمر لمشورتهم، مع إشعارهم برغبته في أن يتخذوا قراراً بذلك.

وكَشَأْنِ كُلّ المجالس الشوريّة الّتي تُعْرَضُ فيها استشارات حقيقيّةٌ خطيرة، كقَتْلِ رئيسِ قَوْمٍ يُؤمِنون به نبيًّا رسولاً من ربّهم، لا بُدَّ أنْ تظهر فيها وجْهاتُ نَظرٍ مختلفة مؤيّدة، ومعارضه، ومتريثة، كأن يقول بعضهم: الرأي رأيُكَ أيُّها الملك، وأن يقول بعضهم: يَحْسُنُ أن نتريّث حتَّىٰ نتدبّر الأمر، فقد ظهر من الرجُل عجائب عظيمة في أرض مصر كلّها، وقد يفاجئنا بما لا قِبَلَ لنا به.

عندئذٍ وجَدَ الرجُلُ المؤمن من آل فرعون ـ وهو أحد أعضاء المجلس الاستشاري ـ فرصةً مناسبة لأنّ يُقَدّم مَشورته ناصحاً، ويَنْصُر موسَىٰ ودينَه ومَا يؤمِنُ به، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فقدّم خطبةً رائعةً اشتملت على رصانة وحكمة ورشْدٍ وحُجَج دامغات، وقد جاء في النصّ بيان هذه الخطبة الحكيمة معطوفاً على المقالات المطويّاتِ اللآئي قالها بعضُ أعضاء المجلس خلال تبادُل الآراء، فهي هنا «واو» فصيحة[1] نظير الفاء الفصيحة الّتي ذكرها النحاة والمفسرون، في نحو قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ . . . ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: فضرب فانفجرت.

ولولا إرادة عطف قول الرجل المؤمن على مطويٍّ محذوف لكان المناسب حذف الواو على وفق أسلوب الحوار من ترك العطف.

---

(١) من خلال تدبّري للقرآن رأيت أن العطف على مطويّ في النص يمكن إدْراكُهُ ذهناً، لا يقتصر على الفاء التي سمّاها النحويّون فاءً فصيحة، بل يمكن أن يكون في حروف عطف أخرى، منها: الواو، وبل، وثم، وتحليل النصوص وإبراز المطويات فيها هو الذي يكشف ذلك.

لقد قال هذا الرجلُ المؤمن من آل فرعون، الذي ما زال يكتم إيمانه منذ مُدّة، عدّة مقالاتٍ في خطبته، بدأها بالتلطف في النصيحة ثم ترقّى فكان داعيةً إلى دين الله.

المقالة الأولى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؟!!.

أي: أتقتلونه لأجْلِ مقالته التي يَقُولُها بتكرار وهي: رَبِّـي الله، في حَال أنّه قد جاءَكُمْ بِمَا يُثْبِتُ صِحَّةَ مقالَتِهِ مِن حُجَجٍ وبَراهِينَ بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٍ، وبما يُثْبتُ صِحَّةَ بَلاَغِهِ عن ربِّهِ، وَأَنَّهُ رَسُولٌ مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حقًّا، من آيَاتٍ ومُعْجزات بيِّناتٍ شَهِدْتُموهَا طَوال سِنِينَ أقامَ فِيها يُبَشِّرُ بِدِينِ رَبِّه.

المقالة الثانية: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

أي: لا يَخْلُو أَمْرُ مُوسَىٰ من أَحَدِ احْتِمَالَيْنِ: إمَّا أَنْ يكونَ كَاذِباً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ صَادِقاً.

● فإنْ كانَ كاذِباً لَمْ يَسْتَطِـعْ أَنْ يَضُرَّكُمْ بشيءٍ، فَالْكَاذِبُ لاَ بُدَّ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيْهِ كذِبُه، فيوقعَهُ في الخيبة وسُوءِ المصير، لأنّه يكذبُ على ربّه في ادّعاء أنّه رسُولُ الله، والله لا يَدعُ إنساناً يكذبُ عليه دون أن يُنْزِل به عقابه، ويُخيّب مساعيَه.

وهذا يدلُّ على أنّ القوْمَ مُشْركون، فهم يؤمنون بالله الرّبّ الخالق، ولكنّهم يجعلونَ له شُركاءَ آلهةً من البشر، تستمدُّ من الرّبّ الأعلى خصائص ربوبيّة وإلَهيّة، وآلهتهم من الأوثان ثلاثة، وهذا الرجل المؤمن يخاطِبُهُم من قاعدة مشتركة هي الإيمان بالله الرّبّ الخالق.

● وإنْ كان صادقاً أنّه رَسُولٌ مبعوثٌ من عند الله ربّكم، فَلاَ بُدَّ على

أَقَلِّ التّقديراتِ أن يُصيبكُمْ بَعْضُ الّذي يُنْذِرُكُمْ به، من عقاب اللّهِ العاجلِ في الدّنيا، والآجل يوم الدّين، ومن المعروف أنّ من عقائدهم عقيدةَ البعث إلى الحياة للدّينونَةِ والجزاء، لكنّها كانت مشوّهة، ولذلك كان الفراعنة يبنون مدافنهم العظيمة السرّيّة، ويجعلونَ مع مُحَنَّطات أجسادهم فيها كنُوزهم، ويخفون هذه المدافن حتّىٰ لا تصل إليها أيدي اللّصوص، زعماً منهم أنهم إذا بُعِثُوا إلى الحياة الأخرى وجدوا الكنوز الّتي دفنوها معهم، فاستفادوا منها بعد البعث.

المقالة الثالثة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

بدأ الرّجلُ المؤمن من آل فرعون بهذه المقالة التي قدّمها في معرض الحديث عن موسى يُشْعِرُ أعضاء المجلس الفرعوني بِرِفْقٍ أنّ موسىٰ صادقٌ في أنّه رسولُ الله، لأنّ الله أَيّدهُ بالآيات الخوارق الّتي شهدتموها، وهذا التأييد حكم من الله له بأنّه على هُدىً، وليس على ضلالة، أي: ليس مُسْرفاً في ادّعائه أنّه رسُول الله، وليس كذّاباً فيما يُبَلّغ عنه، ولو كان مُسْرِفاً في ادّعائه وكذّاباً في بلاغاته لما هداه الله فأيّده، لأنّ الله لا يَهْدِي مَنْ هو مُسْرفٌ كذّابٌ.

لقد كان مشيراً ناصحاً، وبدأ يتحوّل ليكون مدافعاً عن موسىٰ ومناصراً له، ومبيّناً أنّه صادق في ادّعائه، وفي بلاغاته عن ربّه، بالحجّة البرهانية.

المقالة الرابعة: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾.

هُنَا كَشَفَ عَنْ هُوِيَّةِ إيمانه بموسَىٰ، وبدأ يدعُو فرعَوْن وأعضاءَ مجلِسِ وُزرائهِ ومُسْتَشاريه إلى دين الله.

فاستعطفهم أولاً بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أي: أنتم قَوْمي، فأنا أَحْرِصُ على بقاء مُلْككم ونجاتكم من بأسِ الله، فَمُوسَىٰ بالدليل البرهاني رسولٌ صادقٌ بعثَهُ الله لهدايتكم، فآمنوا به، ولا تتعرّضوا له بسوء، وارْعَوْا نعمةَ الله عليكم،

فقد آتاكمُ الملكَ في مصر، وجعلكم ظاهرين في الأرض بما آتاكم من سلطان وأموالٍ وجنود، فإذا أصررنا على معاداةِ رسولِ الله ومقاومة دعوته، ورفْضِ ما دعانا إليه من إيمان، فلا بُدَّ أخيراً من أن ينصُرَه الله، فيُنْزِلَ بنا بأسَهُ، فإنْ تمادينا فيما نحن فيه فأنْزَل بنا بأسَه، فَمَنْ يَنْصُرُنَا فيُنْجِينا من بأس الله إن جاءَنَا؟!! أنَمْلِكُ دَفْعَ بأسِ الله عنّا؟!!

ورأى فرعون أنّ هذا الرجُلَ من آلِهِ قَدْ أثَّرَ بمقالاَتِهِ على بَعْض أعضاء مجلسه، فأراد أَنْ يُنْهي الجلسةَ ويَقْطَعَ الحوار بكَلِمةٍ حازمةٍ، يَقُولُها بوصفه مَلِكاً آمراً، لا بوصفه مستشيراً محاوراً، فوجّه لَهُمْ ما أبانه الله بقوله:

● ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: إنّي رَأيتُ أَنَّ السّياسة الحكيمة تقتضي أَنْ أَقْتُلَ موسَىٰ، لأَنِّي أخَافُ من أن يُبَدّلَ دِينكم أو أَنْ يُظْهِرَ في الأرض الفساد، وهذا الذي رأيتُه مقتَنِعاً به، هو الّذي أردْتُ أن تَرَوْه، وأن توافقوني عليه، حتىٰ يكون قرارُ قَتْلِهِ مُعْتَمِداً على مشورتكم، فأنتم آلِي، وأركان دولتي.

ويظهر أنّ بعض أعضاء المجلس نَصَر رأي فرعون، لكن توقّف وَتَردَّد آخَرُونَ، ومُرَادُ فرعون أَنْ يأخُذَ منهم قراراً إجماعيًّا أو أغْلَبيًّا، بَيْدَ أَنَّ هذا لم يَبْدُ على وجوه الأعضاء ولم يظهر في أقوالهم.

وهنا تابع الرَّجُلُ المؤمن مقالاته ونصائحه بجرأة، ولعلَّه وجد في الأعضاء من تأثّر ببيَانَاته، فألحق بها المقالات التاليات، وقد عرضها القرآن بصيغة تُشْعِرُ بهذا الإلحاق، إذ قال الله عزّ وجلّ بأسلوب عطف أقوال على أقوال:

● ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

فالمقالة الخامسة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾.

بَعْدَ أنْ حذّرهم من بأس اللّهِ في المقالة الرابعة، عرض عليهم في هذه المقالة الخامسة أمثلةً تاريخيّةً معروفةً لَدَيْهِم، وهي قصص إهلاك الله لقوم نوحٍ عليه السلام، ولقبيلةِ عادٍ، ولقبيلةِ ثمود، وللّذين من بعدهم كقوم لوطَ عليه السلام، وأهل مدين قوم شعيبٍ عليه السلام.

وأبان لهم أنَّ سببَ إهلاكهم هو كُفْرهم برُسُلِ ربّهم، ومحاولاتهم التخلُّص منهم بالقتل ونَشْرُهُمُ الظلْمَ والطغيان والفساد في الأرض. وقال لهم: لا تتصوَّرُوا أنَّ إهلاكَ الله لهؤلاء الأقوام قد كان لأنّه شاءَ أنْ يُهْلِكهم ويأتِي بغيرهم مشيئةً غير قائمة على العدل، بل أهلكهم بذُنوبهم الّتي اقتضت إهلاكهم، فما يُعاقبُ اللّهُ إلاّ بالعدْلِ، ومَا الله يُرِيد ظُلْماً للعباد.

وأطلق على هؤلاء كلمة (الأحزاب) لأنّهم تحزَّبُوا مجتمعين مُشاقِّين رُسُل ربّهم، مُعْتَزِّين بقواهم الماديّة، يُرِيدُون القضاء عليهم وعلى الذين آمنوا بهم.

أخافُ عليكم مِثْلَ يَوْمِ الأحزاب: فعل «خاف» يتعدّى بنفسه وبحرْف «من» فيقالُ: خافَهُ، وخافَ منه، على نفسه، أو على غيره.

و يَوْمَ الأحزاب: أي: أيّام الأحزاب، إذ المفرد المضاف إلى الجمع الذي يتطلّبه كلّ فرد من أفراد الجمع هو بمثابة الجمع، مثل: «كُلُوا في بعض بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا».

وأيّامُ الأحزاب هي الأيّامُ التي أُهْلكُوا فِيها.

مِثْلَ دَأْبِ قوم نُوحٍ. . .: أي: مِثْلَ عَادَةِ اللَّهِ وسُنَّتِهِ الَّتي تكرّرَتْ في هؤلاَءِ الأقوام، وهي سُنَّةُ إهْلاك مُكَذِّبي الرُّسُل الذين يُدَبِّرون التدابير للتخلّص منهم.

المقالة السادسة: ﴿وَيَـٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾﴾.

في المقالةِ الخامسة حذَّرهم من عقاب الله المعجَّل بالإهلاك الشامل، وفي هذه المقالة السادسة حذّرهم من عقاب الله المؤجّل إلى يوم الدّين، يَوْمِ التَّنادِي، وأطْلَقَ عَلَيْهِ عبارة «يوم التنادي» إشارةً إلىٰ أنّهم لا يملكون يومئذٍ إلاّ أَنْ يُنَادي بعضُهُمْ بعضاً بالويْلِ والثبور، والشكوىٰ والنّدم والتحسُّر ممَّا نزل بهم من عظائم الأمور.

وأبان لهم أنّهم يومئذٍ يحاولون الفرار مُوَلّين الأدْبارَ، من أسباب التعذيب الهاجمة عليهم لعلّهم يَجِدُون ملجأً يَعْصِمُهُمْ من عذاب الله، لكنّهم لا يجدون، وقال لهم مؤكّداً: ما لَكُمْ من الله من عَاصِمٍ، أي: ما لكم من الله من حافظ ولا واقٍ ولا مانع يومئذٍ، فهو يوم الحساب وفصل القضاء والجزاء.

وأبان لهم أنّ الْحُكْم يومئذٍ للَّهِ وحدَهُ، فَمَنْ يَحْكُم اللَّهُ علَيْهِ يومئذٍ بالضَّلاَلَةِ بناءً على ما سلَفَ منه في الحياة الدّنيا، فَمَا لَهُ مِن حاكمٍ يحكمُ له بالهداية، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

المقالة السابعة: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾.

لمّا كان المخاطَبُونَ من أُسْرَته على طريقة أسلافهم الَّذِين عاصروا يوسف عليه السلام منذ أقلَّ مِنْ قَرْنٍ من الزّمان، وكَانُوا عالمين بالبيّناتِ الدّينيَّةِ الَّتي جاء بها، ودعا قومه للإيمان وللعمل بها، وعلى الرغم من ذلك بقُوا محافظين على شركهم ومعاصيهم وظُلْمهم وطغيانهم، رأىٰ أَنْ يُخَاطبهم معتبراً إيّاهم أنّهم امتدادٌ لأسلافهم، فخطابُ أَسْلافِهم وخطابُهُمْ واحد.

فَقَالَ لهم: لقد جاء يوسفُ من قَبْلُ بالبيّناتِ الدينيّة المؤيدة بالحجج البرهانيَّة، وبالآياتِ الدّالّات على صدق أنَّه رسولٌ من رَبّه، فَلَمْ تُؤْمِنُوا بما جاءكم به، وما زلْتُمْ منْها في شَكٍّ.

كان ضمناً يلُومُهُمْ أَوْ يُؤَنِّبُهُمْ على أَنَّهم يَرْفُضُونَ الْبَيّنَاتِ مِنَ المبادىء والمفاهيم لمجرّدِ إيرادِ شُكُوكٍ حولها، فالشَّكُّ قَدْ يَحْدُثُ حَوْلَ أيَّةِ حقيقَةٍ، بطَرْحِ احْتِمَالٍ ضَعِيفٍ حَوْلَها، ولو كان احتمالاً وهْمِيًّا، في حينِ أَنَّهُمْ يلْتَزِمُونَ بالباطل التقليدي الذي لهم به هوىً، ولو كان واضح البطلان، لمُجَرَّدِ وُجُودِ احْتِمالٍ وهْمِيّ خُرَافي قد يُولّد شَكًّا ضعيفاً بأنّه صحيح.

وهذا دأبُ المبطلين الضالّين في كلّ عصر، يَرْفُضون الحقّ البيّنَ المكروه للنفوس استناداً إلى طرح احتمال ضعيفٍ حولَهُ قد يُوَلّد في النفس شكًّا لا قيمة له في موازين المعرفة بأنّه يمكن أن يكون باطلاً، ويستمسكون بالباطل البيّن البطلان، إذا كان باطلاً تقليديًّا، أو موافقاً للأهواء والشهوات والرغبات، استناداً إلى طرح احتمالٍ ضعيفٍ حولَه قد يولّدُ في النفس شكًّا لا قيمة له في موازين المعرفة، بأنّه يمكن أن يكون حقًّا.

والمعنى: فما زلْتُمْ في شَكٍّ ممّا جاءكم به، مَانِـعٍ لكم من الإيمان به وتَرْكِ طريقتكم الباطلة.

حتَّىٰ إذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً: أي: ما زلْتُمْ غير مؤمنين به استناداً إلى الشَّكِّ، وهوُ يُلِـحُّ عليكُمْ بأنْ تُؤْمِنُوا، وبأن تَتَّبِعُوا مِنْهَاجَ

الله، وتعليمات الدين الذي اصطفاه لعباده، وتُدارونه مداراةً ظاهرة لما له من سلطانٍ قويٍّ في مصر، حتَّىٰ جاء زمَنُ موته، عندئذٍ تخلَّصْتُمْ من إلحاحه عليكم بدعوته، واسترحْتُمْ من مداراته لسلطانه، وقُلْتُمْ ذَهَبَ يوسُفُ الّذي كان يُتْعبُنَا بدعوته وعدْلِه وإنصافه واتّباعه الحقَّ في سلطانه، وعدم تمكينه لنا من أن نرتع في الدولة على أهوائنا، ولَنْ يبعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً يكُفُّنَا عمّا نُريد.

وهذا دَيْدَنُ كُلِّ مُسْرِفٍ في تحقيقِ أهوائه وشهواته ورغباته في الحياة، لا يُحِبُّ الالتزامَ بالحقّ، ويُورِدُ عليه التشكيكات الضعيفاتِ للإيهام بأنّه باطلٌ، ولئلاّ يَشْعُر بأنّه مُلْزَمٌ بعقْل نفسه عمّا يهوَىٰ ويشتهي عَمَلاً بما يُؤْمِنُ به، لذلك فهو يَقع في الضلالَ، ويلتزم به، ويُتَابِعُ سُبُلَه ومتاهاته في حياته.

هذه الظاهرة إحدى ظواهر فطرة الله التي فَطَر عليها النفوس الإنسانية، فمن اختار لنفسه الإسراف في اتّباع الأهواء والشهوات والتمتع بزينة الحياة الدنيا دون ضابط، واختار لنفسه الاعتماد على الشُّكُوكِ الضعيفة التي ليس لها قِيَمٌ في موازين المعرفة، أمَدَّهُ الله بالوسائل التي يُتَابِع بها ضلاله في المسالك والمتاهات، ضمن قوانين التسخير العامّ الّذي سخّر الله بِهِ الأشياء في الكون لِمَا يشاءُ الناسُ من أعمالِ خَيْرٍ أو شرّ، ضمْن ظروف امتحانهم في هذه الحياة الدنيا، نفهم هذا من قول الله تعالى في الآية:

﴿. . . كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: كذلِكَ الَّذي حصل لآل فرعون في عدم استجابتهم لدعوة يوسُف فمكّنَهُمُ اللَّهُ مِنْ أنْ يَضِلُّوا، يُمَكّنُ بقانون التسخير القدريّ العامّ كُل مُسْرِفٍ في اتّباع أهوائه وشهواته ومُخْتَلِفِ زينات الحياة الدّنيا، من أن يَضِلَّ في مسالك الحياة ومتاهاتها.

ويظهر لي أنَّ هٰـذه العبارة تعليقٌ رَبّاني بياني على المقالة السابعة التي

قالها مؤمن آل فرعون ضمن خطبتِه في الجلسة الاستشارية التي عقدها فرعون، للحصول على قرار شُوري بقتل موسى عليه السلام، ويتْبع هذا التعليق قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في الآية التالية من النصّ:

● ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ ﴾.

فيه بيان للمسرفين المرتابين، الذين يعتمدون على الشكوك والرِّيب فيما ينفون ويَرْفُضُون، وفيما يُثْبِتُونَ ويقبلون.

إنّ اسم الموصول «مَنْ» في عبارة: ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴾ من صِيَغِ العموم، فالعبارةُ بقوة: يُضل الله كُلَّ مَنْ هو مسرفٌ مُرْتاب، فجاء وصف هؤلاء المسرفين المرتابين بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ ﴾.

السلطان: الحجّة والبرهان.

آياتُ اللَّـهِ: تَشْمَـلُ الآيـاتِ البيـانيَّـة، والآيـاتِ الكـونِيَّـة، والآيـاتِ الإعجازيّة، والآياتِ الجزائيّة.

وجدَلُ المسرفين المرتابين يتناوَلُ كُلَّ صِنْفٍ من هذه الآيات بتشكيكات خاصّة، لا تعتمد على حجج صحيحة مقبولة في موازين المعارف العلميّة، التي فطر الله العقول عليها فيما آتاها من موازين.

- فالآيات البيانيّة المنزّلة على الرسول، يطرحون حولَهَا شكًّا في صحة كونها من عند الله، وشكًّا في صحة كوْنِ ما فيها من بيانات وتعليماتٍ موافقاً للحق، أو موافقاً للحكمة ومصالح الناس. إلى غير ذلك من تشكيكات كثيرات.

- والآيات الكونية يطرحون حولها شكًّا باحتمال كَوْنِهَا أزليّة، وكون

تغييراتها تَتِمُّ بالتَّطَوُّرِ الذاتي، إلى غير ذلك من احتمالات باطلاتٍ تعتمد على الشكوك والتخيّلات التوهميَّةِ الَّتي لا تؤيِّدها أَدلَّةٌ فكريَّةٌ صحيحة.

ـ والأياتُ الإعجازيّة يطرحون حولَها شكًّا باحتمال كونها من قبيل السّحر والحركات التخييليّة الّتي لا حقيقة لها، ونحو ذلك.

ـ والآياتُ الجزائيّة يطرحون حولها شكًّا باحتمال كونها ظواهر طبيعيَّة لا بُدَّ أنْ تقَعَ، وقد صادف أنّها وقَعَتْ على أَقْوامٍ جاءهم من ادّعُوا أنّهم رُسُل الله، فاستغلَّها الرُّسُل لدعوتهم.

بينما يعبدون أصنامهم توهُّماً منهم أنّها قد تنفعهم، أو تشفع لهم عند الله، ويُصدِّقون كهنتهم وهم كاذبون دجّالون مُخَرِّفُون فاسقون، إلى غير ذلك من توهُّمات باطلات في موازين العقول.

قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

المقْتُ: أشَدُّ الْبُغْضِ.

أي: جِدَالُ المسرفين المرتابين في آياتِ الله بالشكوك التوهميَّةِ دُون الاستناد إلىٰ حُجَج بُرْهَانِيَّةٍ فَطَرَ اللَّهُ العقولَ على قبولها، جِدَالٌ يَمْقُتُهُ اللَّهَ والذين آمَنُوا مَقْتاً كبيراً، إذِ الغرضُ منه جَعْلُ الحقّ باطلاً في تصوُّرِ النَّاس له، وجعل الباطلِ حقّاً في تصَوُّرِ الناس له، والإيهام بأنَّ الْمُحِقّين مبطلون، وأنّ المبطلين مُحِقُّون.

قول الله عزّ وجل: ﴿... كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُجَادِلُونَ في آياتِ الله بغَيْرِ سُلْطَانٍ أتَاهم، قد أقْفَلَ اللَّهُ قُلوبهم عن قبول الحقّ، وطبَعَ على أقفالها بالأخْتَام، وهذا كناية عن انحجابها انحجاباً كاملاً عن أنوار الهداية، وهذا الطَّبْعُ قد كان نتيجةً لما

اختاروه لأنفسهم من كفر وفُجُور وعصيان، واستعلاءٍ في الأرض وطغيان، بسبب ما شَحنوا في صدورهم من كِبْرٍ، وشَحَنُوا في نفوسهم من رغبات تجبُّرٍ على خَلْقِ الله.

فالطَّبْعُ على الْقَلْب ظاهرةٌ من ظواهر القوانين القدريّة العامّة، الَّتي تَحْدُثُ بأسباب مَا يَخْتَارُ الناسُ لأنْفُسِهم بإراداتِهِمُ الحرّة، فَهُمُ المسؤولونَ عَنْهُ، كمن يصنع يدَهُ في النار فَيُحْرِقُها اللَّهُ له بقانونه القدريّ العامّ، ضمن أنظمته وسننه الدائمة في كونه.

ودلّت العبارة على أنّ الطبع على قلب المتكبّر الجبّار يكُونُ على كلّ منافذ قلْبِهِ الَّتي يمكن أنْ تَنفُذ منها أنوار هداية إلى حقٍّ أو خَيْرٍ، إذْ جاء فيها بيَانُ أنْ الطَّبْعَ يكُونُ على كُلِّ قَلْبِهِ، لا على بَعْضِ قلْبِه، والسببُ في ذلك كونه متكبّراً جبّاراً، وهذا لا يُرجَىٰ منه خير، بخلاف من يُطْبَعُ على بعض قلبه بسبب الأهواء والشهوات والرّغبات التي ليست من حضيض الكبر والتجبُّر، فإنّه قد يُرْجَىٰ منه خَيْر.

وبعد هذا الفاصل التعليقيّ الّذي هو بيانٌ من الله وليس حكاية لمقالٍ قالَهُ مؤمِنُ آل فرعون، والذي هو بمثابة معترضة بيانيّة، عند مفْصلٍ ينبغي الاستفادة منه لهذا البيان، عادَ النصّ القرآني لمتابعة حكاية ما جرىٰ في الملجس الفرعوني الاستشاري فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا . . . ﴿٣٧﴾﴾.

هامانُ: هو وزير فرعون الأول، ويَدُهُ اليمنىٰ.

صَرْحاً: أي: قَصْراً عالياً شامخاً.

فأَطَّلِعَ إلَىٰ: أي: فأصْعَد إلى أعْلاَهُ وأنْظُرَ إلى إلَه مُوسَىٰ الّذي يُمِدُّهُ بالقوىٰ العجيبة والخوارق، أي: لأسأله هل موسى رسولُه حقاً.

يُفْهم من هذا أنّ فرعون رأىٰ تأثيرَ بيان الرجُل من آله في نفوس مجْلِس مستشاريه، فأسْرَع إلى تعليق الأَمْرِ على بحثٍ سيقوم به هو شخصيًّا بطريقة ينفرد بها، وبوسيلة يَطُولُ أَمَدُ تحقيقها جدًّا، وحينما تَتَحقَّق يستطيع أن يدّعِيَ ما يشاءُ من دعاوىٰ يُحيلها على مشاهداته الشخصيّة، ومحادثاته الخاصة مع إلّه موسى.

فأمَرَ وزيره الأوّل هامَان، والعالِمَ بخبايا مكايده أنْ يبني له صرحاً عالياً شامخاً، حتَّىٰ يصعد إلى أعلاه، وينظر إلى إلّه موسىٰ ويُحَادِثه، ويعلَمَ منه الحقيقة، أليس هو من سلالة الآلهة، وفيه مواريثُ من قواها القادرة على الاتصالِ بالرّبّ الأعلى، والاتصال بآلهة السماء؟!

لَعَلّي أَبْلُغُ الأسباب أَسْبَابَ السَّمَاوات: أي: أرجو أنْ أبلُغَ الأسْبابَ العلويَّة، أسبابَ السّماوات الّتي أَتَّخِذُها بما لديّ من قوىً خاصة، فأصل بها إلى السماوات العاليات، وهنالك اتصل بإلّه موسى وأحادثه وأعرف منه الحقيقة.

وكانَ هذا التعليقُ مكراً منه أوحىٰ إليه به دهاؤُه، إذْ يَعْلَم أنَّ مَنْ يخاطبهم على أقسام:

- قسم مشارك له في السلطان، عَلِيمٌ بخبائثه وأكاذيبه ومكايده، فهو يؤيّده ويُواطِئُه على دعاواه، ويحاول الإقناع بصحّتها.

- وقسم مخدوع ساذج، يُوضَعُ عادةً في المجالس الاستشاريّة الْعُلْيَا، لاستغلاله في ترجيح الرّأي الّذي يريده كبيرهم، إذْ يُعْلِنُ أفرادُه موافقتهم على اقتراحه الّذي قَدَّمه.

- وقسْم ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء، ولكن أعداد أفراده لا يكفون لترجيح الرأي المخالف.

وهكذا استبْعَد فرعون إعادة بحث الموضوع، وكفَّ عن الإلزام بإصدار قرار شوريّ بقتل موسىٰ، وتنازل عن الجزم بأنّه ساحرٌ كذّاب، واكْتفىٰ بقوله: وإنّي لأَظُنُّهُ كاذِباً، مؤكّداً ظنَّه لا جازماً بكذبِهِ، فقد رأى من آلِهِ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ به.

وجاء التعليقُ القرآنيّ على هذا الموقف الأخير لفرعون، بقول الله عزّ وجل:

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وصُدَّ: بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، أي: وصُرِفَ ومُنِعَ.

عن السّبيل: أي عن السبيل الحقّ، وهو سبيل الله المستقيم.

وباستطاعتنا أنْ نُدْرِكَ أنَّ الَّذِي صدّه عن اتباع السبيل ما في نَفْسِهِ من تكبّر وتَجَبُّرٍ في الأرض، أخذاً ممّا جاء في قول الله تعالى الذي سبق تدبّره آنفاً: ﴿... كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ مع مساعدة وساوس شياطين الإنس والجنّ وتسويلاتهم.

كَيْدُ فِرْعَوْن: أي: تدبيرُه أمورَهُ لقمع الحقّ ودُعاته.

في تَبَابٍ: أي: في خسران وخيبة وهلاك.

والمعنى: وكذلك التزيين الّذي زُيّنَ لِفِرْعَوْن من قِبَلِ عوامل نفسه المستكبرة الطاغية الفاجرة، ووسَاوسِ شياطينه من الإنس والجن، إذْ أحال قضيّة التثبّت من صحة رسالة موسىٰ وصحة ما جاء به، على بناء صَرْح شامخ أمَرَ وزيره هامان به، كي يَصْعَد إلى أعلاهُ برجاء أن يبلُغَ أسباب السماء، فيتخذها وسيلة موصلة إلى السماوات، وهنالك يتّصل بإلّه موسى ويَعْلَمُ منه الحقيقة، زُيِّنَ لَهُ أيضاً سُوءُ عمله في أمور أخرىٰ كثيرة، وتابع قيامه بسُوء عمله الذي زُيّن له.

لقد كاد الرُجلَ المؤمنَ من آلِهِ ليتخلّص منه ومن دعوته، وليسكت لسانه، لكن ما كان كيدُه الذي كاده ضدّه وضدّ موسى وبني إسرائيل إلاّ في خسران وخيبة مسعى، ثم انتهىٰ به إلى هلاكه وهلاك آله الذين اتّبعوه، وهلاكِ جنده.

فظهر أنّ كيده الذي كاده قد كان غارقاً في تبابٍ، أي: في سعْيٍ غايتُهُ خسرانٌ وهلاك.

* * *

٥ ـ قول الله عزّ وجلْ مبيّناً دعوة مؤمِن آلِ فرعون في جماهير قومه من القبط:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

يبدو أنْ مؤمن آل فرعون لمّا انكشف أمره في مجلس شورى القصر الفرعوني، وأنّه من الذين آمنوا بموسىٰ واتبعو دينه الذي جاء به، رأى فرعَوْنُ ووزراؤه وفريقٌ من أعضاء المجلس الاستشاري إصدار قرار بطرده من مجلس المستشارين لخروجه عن دينهم الوثني، ودعوته إلى دين موسَىٰ الذي آمن به معظم بني إسرائيل، وإبعاده عن القصر الفرعوني، فأصدر فرعون قراراً بذلك، ولا يَبْعُد أنّه أصدر أيضاً قراراً بطرده من عِلْيَةِ آل فرعون، لأنّه صار بَيْنَهُمْ داعيَةً إلى دينه المخالف لدينهم.

عندئذٍ انطلق الرَّجُلُ يَدْعُو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، بين جماهير القبط من قومه، وتعرّض في دعوته لجدليّاتٍ من قومه، فناظرهم وجادَلَهُمْ بالّتي هي أَحْسَنُ.

وقد لخَّصَ النّصُّ الذي نتدبَّرهُ من سورة (غافر) أهَمَّ مقالاته في دعوته الرّشيدة، وجدلياته الحكيمة، ويمكن تقسيمها إلى ثماني مقالات:

المقالة الأولى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ نداؤه لهم بعبارة: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ فيه استعطافٌ لهم، وإشعارٌ بحرصه على خيرهم وسعادتهم واهتدائهم إلى سبيل الرّشاد الذي يكون به فوزُهم العظيم، وخيرهم الجسيم، في الدنيا وفي الآخرة يوم الدّين، ولا سيما أنه من آل فرعون، وكان من أعضاء مجلس مستشاريه في القصر.

أَهْدِكُمْ: أي أبيّنْ لكم.

سبيل الرَّشاد: هو سبيل الله، وصراطه المستقيم، والرّشاد هو السُّلوك الموافق للحقّ والصواب، أو لما هو الأفضل والأحسن والأكثر نفعاً، والأبعد عن الضّرر، فكريًّا واعتقاديًّا ونفسيًّا وخلقيًّا وعمليًّا.

وطبيعي أن يكون مثل هذا النداء المتضمن الدعوة إلى الاتباع بعد الاستماع إلى مضمون الدعوة، الخطوة الأولى في دعوة الداعي إلى سبيل ربّه، بعد أن عرفوا أنّه يدعو إلى دين الله الحقّ الّذي آمن هو به واتّبعه.

المقالة الثانية: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

مَتَاع: أي: شيْء يُنْتَفَعُ به انتفاعاً مؤقّتاً قصير الأجل، والفناء يأتي عليه.

دار القرار: أي: دار الاستقرار الأبديّ الذي لا نهاية له.

إنّ أعظم خطوات الداعي إلى سبيل ربّه بعد تأسيس الإيمان بالله، بناءُ قاعدةِ الإيمان بالحياة الآخرة والدار الآخرة الّتي هي دار البقاء الخالد، والتي يكون فيها الحساب على ما قدّم الممتحنون في الحياة الدنيا لآخرتهم من خير أو شرّ، ويكون فيها فَصْلُ القضاء، ثُمَّ الجزاء بالثواب على ما قدّموا من خير، أو بالعقاب على ما قدّمُوا من شرّ.

وإذْ كان القوم من المؤمنين بالله الرّبّ العليّ الأعلى، كَانَ من الحكمة أن يدعوهم إلى الإيمان بأنّ الحياة الدنيا متاعٌ زَائل، وأنّ الآخرة هي دار البقاء الدائم، وأن يبيّن لهم هذا الركن من أركان الإيمان.

ثم إنّ إثبات أنّ هٰذِهِ الحياة هي حياةٌ دُنيا، وأنّ حياة أخرى خالدة لا بُدّ أن تأتي بعدها، يستدعي سؤالاً عن الغايةِ من إيجاد حياتين يفْصِلُ بينهما موتٌ وفناء؟.

والجوابُ الْبَدَهِيُّ هو أنّ الحياة الأولى هي حياةُ امتحان واختبار بالإيمان والعمل الصالح، أو ضدِّهما، وأنّ الحياة الأخرى هي حياة الجزاء، وأنّ الجزاء إنّما يكون بعد الحساب وفصل القضاء.

فجاءت المقالة الثالثة كاشفة لهذه الحقيقة بشيء من التفصيل.

المقالة الثالثة: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: إنّ الحياة الأخرى قَدْ أُعِدَّتْ فِي خطَّةِ الوجود الرّبّانيّة للجزاء، وقاعدة الجزاء الرّبّانيّ قائمة على العدل والفضل:

● فمن عَمِلَ سيّئةً فجزاؤه بالعدْلِ سيّئةٌ مِثْلُها، ولا يَظْلِمُ الله أحداً مثقال ذرّة، سواءٌ أكان ذكراً أو أنثَىٰ.

● ومَنْ عَمِلَ في الحياة الدُّنيا صالحاً وهو مؤمن صَحِيحُ الإيمانِ بالله وبما جاء من عند الله ممَّا بلَّغَهُ رسول الله، فجزاؤه بالفضل الرّبّاني، وهو أن يدخل الجنة دار النعيم الخالد، وهو في الجنة يرزَقُ أبداً بغير حسابٍ ولا تقدير، بل يجد رزق الله فيها فيضاً.

وهنا تعرّضَ الرَّجُل المؤمنُ من آل فرعون لجدالِ المجادلين، وقد يكون بعضهم مدفوعاً من حاشية القصر الفرعوني.

والجدال في هذه المرحلة من مراحل دعوته لا بُدَّ أن يكون حول شركائهم من دون الله، وما لهؤلاء الشركاء من سلطان في مُلْكِ الله، وحول عقائدهم التقليديّة الموروثة، والأعمال والعبادات المستندة إلى هذه العقائد، ولا بُدَّ أنْ يواجِه دُعاةً مدفوعين من السلطة الحاكمة لإعادة الرّجل إلى دين آبائه وأجداده القائم على الشرك والوثنيّة.

فجاءت المقالة الرابعة دالّةً على ما تعرّض له من جدال بالباطل، ودعوةٍ إلى أن يَرْجع إلى دين الشرك والوثنيّة.

والواجب يقضي بأنْ يجادلهم بالتي هي أحسنُ، إذا جادلوه بالباطل، أو بما يؤذي وبما يسوء ويقبُح.

المقالة الرابعة: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١﴾.

أي: وَيَا قَوْمِ، عجبٌ عظيمٌ لي يملأُ نفسي، من هذا التناقض بيني وبينكم، فأنَا أدعوكم إلى النجاة من عذاب اللّهِ في الآخرة، بالنار دار عذاب المجرمين الكفّار، وأنتم تدعونني لأكون من المعذّبين في النار.

وهنا يظهر أنّهم قالوا له: كيف نَدْعوك إلى النار، ونحن بدعوتك إلى العودة إلى دين آبائك وأجدادك نفتح لك أبواب المجد، حتَّىٰ تعودَ إلى

مكانتك الرفيعة في القصر الفرعوني؟!.

فأجابهم بما جاء في المقالة الخامسة:

المقالة الخامسة: ﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: إنّكُم تدعُونني لأكْفُر بما جاء عن الله على لسان رسوله الذي أيّده بالمعجزات الباهرات، وتدعُونني لأشرك بِهِ ما تَعْبُدونَ من شركائكم التي صنعتم لها أوثاناً ثلاثة، وهؤلاء الشركاء الّتي تزعمونها شركاء للّهِ لا أملك بشأنِهَا عِلْماً قائماً على حُجَّةٍ يَقْبَلُها العقل، تثبت أنّ لها شيئاً من ربوبيّة أو إلَهيَّة، حتّىٰ أُومن بها وأتقرّب إليها بعبادة، وكلٌّ من الكُفْرِ بما جاء عن الله من حقّ، والأخذ بمذهب الشرك الذي تدعونني إليه، عاقبته العذاب في النار.

إذنْ فأنتم تدعونني إلى النار.

أمّا أنا فإنني أدعوكم إلى الإيمان بربكم، وإلى الإيمان بما جاء به رسولُ ربّكم، أدعوكم إلى ربّكم العزيز الّذي له القوة الغالبة في الوجود كلّه، في الدنيا، وفي الآخرة، فهو القدير على معاقبة المذنبين الكفار في النار، فلا يحميكم من عذابه شركاؤكم ولا غيرهم. وأدعوكم إلى ربّكم الغفار الّذي إذا تُبْتُمْ إليه وهجرتم كفركم وشرككم، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم.

وهنا يظهر أنّهم قالوا له: كيف تُنْكِرُ أن يكون لشركائنا تأثيرٌ ونَحْنُ وآباؤنا ندعوها ونتقرَّبُ إليها فتَتَحقَّقَ لنَا بِدُعائها المصالح والمنافع الّتي نَرْجُوها؟!! وكيف تزعُمُ أنَّ الآخرة تكونُ للجزاء؟!.

فأجابهم بما جاء في المقالة السّادسة:

المقالة السّادسة: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

لا جَرَمَ: صيغة يستعملها العرب لتأكيد الكلام وتوثيقه، وقد تحمل معنى القسم فتأتي بعدها اللام التي تقع في جواب القسم. فهي بمنزلة: «حَقًّا» أو ـ لا بُدّ ـ لا محالة ـ لا شك ـ ونحو هذه العبارات. وأصْلُ معنى «الْجَرْم» الْقَطْعُ، ويأتي بمعنى اكتساب الذنب، أقول: فكأنّ أصل المعنى عند بدء التداوُل: لا جَرَمَ جارمٌ ما أقول، برأي مخالف له مُذْنب به، ثم حصل الاكتفاء بعبارة «لا جَرَم» على عادة العرب في الاختصار والاكتفاء ببعض الكلام.

ليس له دَعْوَةٌ في الدنيا ولا في الآخرة: أي: لا توجَدُ له في الواقع والحقيقة دعوةٌ ما، لا هادية ولا مضلّة، فأمرها ساقطٌ دون بحث ولا جدال.

وذلك لأنّ الدُّعَاةَ قِسْمان: قسْمٌ يَدْعُو إلى سلوك السبيل الموصل إلى الجنّة، فدَعْوَتُه دعوةُ هداية. وقسمٌ يدعو إلَىٰ سلوك السُّبُلِ الموصلة إلى النار، فدعوته دعوة ضلالة.

لكن أوثان المشركين ليست لها دعوةٌ ما، لا هاديةٌ ولا مُضِلَّة، وعبّادُها المؤمنون بها يتبعون أسماءً هم سمّوها، وأوهاماً صنعتها لهم تخيُّلاتُهم الّتي لا تطابقُ واقعاً ذا حقيقة.

فمؤمن آل فرعون قال لهم: ممّا لا شكَّ فيه لدى كلّ ذي فكرٍ سليم وعِلْمٍ مستندٍ إلى أدِلّةٍ صحيحةٍ، أنّ ما تدعونني إليهِ وهي أَوثانُكُمْ ليس لَهَا دَعْوَةٌ، لا هاديةٌ ولا مُضِلَّة، لأنّها أحجارٌ جوامد، فإنْ كان لديكُمْ مَا يثبتُ أنّ لها دعوةً ما، فهاتُوا برهانكم، أو حُجَجَكُمْ الضعيفَة لفحصها، والمحاورة حولها.

وبعد هذا أكّد لهم أنّ الرجعة إلى الحياة بعد الموت ليست رجعةً إلى الحياة الدنيا كما هُمْ يعتقدون، إنّما المرَدُّ إلى الله، للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، بمقتضىٰ نظام حياةٍ أخرى مؤهلة للخلود غير معرّضة للموت والفناء.

وأكّدَ لهم أنّ المُسْرِفِين بسبب كفرهم وإصرارهم على الباطل، أو إشراكهم بالله ما ليس لهم به عِلْمٌ، هُمْ أصْحَابُ النار، الملازمون لها دواماً في خلودٍ أبديّ.

وَأَنّ مَرَدَّنا: أي: وأنَّ مَرْجِعَنَا، بمعنى رُجوعنا، فالمرَدُّ مصدرٌ ميمي لفعل «رَدَّه» بمعنى أرْجعه.

ويظهر أنّ حجّة قومه قد انقطعت، ولم يَبْقَ لديهم ما يراوغون به، إلاّ أنّهم واجَهُوهُ بالمعاندة والإصرار على عقائدهم التقليدية، وعاداتهم الموروثة، كدَأْب كلّ الذين يُقَلّدونَ تقليداً أعْمَىٰ يقولون: إنّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا علىٰ أُمَّةٍ وإنَّا عَلَىٰ آثارِهِمْ مقْتَدونَ، أي: فلا تُتْعبْ نفسك بإقناعنا لتحويلنا عمّا نحن ملتزمون به، ومعتادون له.

عندئذٍ وجَدَ الرّجُلُ المؤمن من آل فرعون أنه لم يَبْقَ لَدَيْهِ إلاَّ أَنْ يقول لهم المقالة السابعة:

المقالة السابعة: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾.

أي: قالُوا له مقالاتِ الرّفْض القاطع لدعوته، فقال لهم: سَتَذْكُرُونَ مَا اقُولُ لَكُمْ، أي: ما أقوله لَكُمْ بتكرار بغية إقناعكُمْ وأنتم تَرْفُضُونَ ولا تستجيبون.

إنّهم سيذكرونَ حَتْماً أقوالَهُ التي دعاهم فيها إلى سبيل ربّه، حينما يتعَرَّضُونَ للمهلكاتِ، كحالَةِ التخبُّط في اليمّ المتلاطم يَوْمَ أغرقهم الله، وحينما ينزل بهم عقابُ الله في نار جهنّم يوم الدّين، وقبل ذلك يوم الحساب.

ولمّا يئسَ فرعونُ وآلُه من عودة رجلهم إلى دينهم الشركيّ الوثني، دبّرُوا لَهُ مكيدةً يتخلّصون بها منه، كي يُسْكِتُوا لسانه عمّا يَقُومُ به من دعوة إلى دين موسى بين جماهير القبط.

وبلَغَ الرَّجُلَ أَنَّهُمْ دَبَّروا له مكيدةَ قتل أو غيره، فقال مقالتهُ الثامنة:

المقالة الثامنة: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: إنّي أعوذُ باللَّهِ من مكرهم، وأتوكَّلُ عليه، وأفوّضُ أمْرِي إليه، فهو البصير بـي وبهم.

وبهذا انتهت قصة دعوة مؤمن آل فرعون.

* * *

٦ ـ قول الله عزّ وجلّ مبيّناً عاقبة مؤمن آل فرعون، وعاقبة آلِ فرعون بعد مكرهم به:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا: أي: فجعلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّيّئَاتِ الّتِي مَكَرُوها ضِدَّه وِقايَةً حَمَتْهُ وحفظَتْه فَلَمْ يُصِبْهُ منها شيءٌ.

ويظهر أنَّ هذا الْحَدَث قد كان قُرْبَ خروج موسىٰ ببني إسرائيل من مصر، في اتّجاه سيناء، وملاحقة فرعون وآله وجنوده لهم، وانتهىٰ الأمر بغرق فرعون وآله وجنوده، وقد دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾.

حَاقَ: أي: أحاط ونَزَل.

سُوءُ العذاب: أي: العذابُ السوء، فسوء العذاب من إضافة الصفة إلى الموصوف، أو هي إضافة على تقدير «من» أي: سُوءٌ من العذاب.

وسُوء العذاب الذي أحاط بهم وأصابهم قد كان في الدُّنيا عذاب

الإغراق، أمّا زمن البرزخ فدَلَّ على عذابهم فيه، قوله تعالى:

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾.

وأمّا الآخرة فدَلَّ على سوء عذابهم فيها قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

أي: يقولُ الله لملائكة التعذيب يوم الدّين: أَدْخِلُوا آل فِرْعَوْنَ أشَدَّ العذاب في نار جَهَنَّمَ.

أمّا فرعون فيكون في مقدّمتهم إمَاماً إلى جهنّم. كما كان يَقْدُمُهُمْ إلى الشرِّ والفساد والعصيان، والكفر والبغي والطغيان، في الدنيا دار الامتحان، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

* * *

النمـوذج الثانـي

دعوة مؤمن أصحاب القرية
التي جاءها المرسلون وانتصاره لهم ولدعوتهم

قال الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ (١٣) إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ (١٤) قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ
ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ (١٥) قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا
ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (١٧) قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٞ (١٨) قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ (١٩) وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا
ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٢٠) ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم
مُّهۡتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ
ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٢٤)
إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي
رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (٢٧) ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا
مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ (٢٩) يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن
رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٠)﴾.

- ١ -

نظرة إجمالية عامّة

اشتمل هذا النصّ على تعليمٍ من الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ، أنْ يوجّه علاجاً لقومه، بأنْ يُقَدّمَ لهم صورة من صور الإقناع الذي يحمل عصا الإنذار بالعقاب المعجّل للذين لم يؤمنوا به رسولاً، ولم يؤمنوا بما جاء به عن ربّه، من كُفَّارِ مكّة إبّان نزول سورة (يسٓ) في مراحل الدعوة.

وهذه الصورة هي ضرب مثَلٍ لمَا هُمْ فيه من عنادٍ وإصرارٍ على الكفر، بما كان عليه أصحابُ قرية وثنيّةٍ جاءها مُرْسَلُون من غير أهلها، فدعَوْهُمْ إلَىٰ الإيمانِ الحقّ، وإلى تَرْكِ ما هُمْ فيه من وثنيّةٍ باطلة، فكذّبوهم في كونهم رُسُلَ ربّهم، فأكّدُوا لَهُمْ أنَّهُمْ صادقون مُرْسَلُونَ حَقًّا، وأنّهم لَيْسُوا مطالَبين من رَبِّهِم إلاّ بالبلاغ المبين الْمُوَضِّح لقضايا الإيمان الحقّ، ولشرائع الله وأحكامه لعباده بالحكمة والموعظة الحسنة، وأنّهم لَيْسُوا مكلَّفِينَ أَنْ يُلزِموا القوم بأن يُؤمنوا بهم ويتَّبعوهُمْ إلْزاماً جَبْريًّا، وهم كارهون غير راغبين، فالاستجابة لدعوة الرُّسُل ينبغي أن تكون استجابةً اختياريّةً إراديّةً طوْعيّة، لا استجابة جَبْرِيَّةً، أو إكراهيّةً على خلاف رغْبَةِ المستجيب واختياره الحرّ.

فأصَرَّ أصحابُ القريةِ على تكذيب رُسُل ربّهم، وهدّدُوهم بالقتل رجْماً بالحجارة، وبإنْزَالِ عذابٍ أليم فيهم.

ونصَرَ المرسَلِينَ الثلاثةَ رجُلٌ من أصحاب القريَة جاء من أقْصَىٰ المدينة يَسْعَىٰ، وكان هذا في آخر موقف من مواقف دعوة المرسلين الثلاثة لهم.

فدعاهم هذا الرّجُلُ منْهم إلى الإيمان برُسُل ربّهم إليهم، وإلى اتّباعهم، وحاورهم وناظرهم، وأخيراً رفع عَقِيرتَهُ معلناً إيمانَه بربّهمُ الحقّ، وهذا يتضمَّن إعْلانَ كُفْرِه بوثنيّتِهم، وكُفْرِه بآلِهَتِهِمُ الّتي يَعبُدونها من دون الله.

عندئذٍ الْتَهَبتْ نيرانُ غيظِهِمْ منه، وثاروا علَيْهِ ثورَةَ انتقامٍ بغضبٍ هائجٍ، فقتلوه، فوجَدَ عنْد ربِّه مغفرةً وإكْراماً عظيماً، فتَمنَّىٰ أَنْ يَعْلَم قومُهُ بما نالَ من كرامةٍ عنْدَ رَبِّه، فيُؤْمنوا برُسُلِ رَبِّهم ويتَّبِعُوهم.

ولم يُنْظِر الله عزّ وجلّ أصحاب القرية بعْدَ أن قتَلُوا رجُلَهُمْ الّذي نصَحَهم وتمَنَّىٰ لهُمُ الْخَيْرَ حتَّىٰ بعْدَ موتِهِ لما نال عند ربّه من كرامة، بل عاجَلَهم الله بالإهلاك الشامل بصيحة واحدةٍ جعلتهم خامدين، كنارٍ ثائرةٍ هائجةٍ انطفأت وخَمَدت فَجْأَةً بلحظَةٍ واحدة، قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

فدلَّ التعبيرُ بالخمود على اقتران إهلاكهم بلَهِيبِ ثَوْرَتِهِم على رجُلِهِم الّذِي قَتَلُوه، وهذا إنّما يكون عقب قتلهم له، ويظهر أنّ الرُّسل الثلاثة انسحبوا لمّا وجَدُوا الرَّجُلَ ينصح قومه ويُنَاظِرهم.

وجاء التعقيب على قصّة أصحاب هذه القرية بعبارة تتضمَّنُ التحسُّرَ على العباد الذين يُهلكون أنفسهم في العاجلة، ويُعَرّضونها للخلود في عذاب النار يوم الدين، بكفرهم وعنادهم، وتكذيبهم رسُل ربّهم، واستهزائهم بهم.

والتحسّر هو أثَرٌ من آثار الرحمة الّتي تكون بعد حُلول المصيبة ووقع المحذور منه، ولا تعارض بين إنزال العقاب والتحسّر على المعاقب الذي جنىٰ على نفسه، فالحاكم العادل يوقع العقاب الشديد بمن يستحقُّهُ بالعدْلِ، ويتحسّر عليه إذْ جنىٰ على نفسه باختياره الحرّ.

- ٢ -

منهج مؤمن أصحاب القرية في الدعوة إلى الله

يبدو للمتأمّل فيما جاء في قصة دعوة مؤمن أصحاب القرية، إذْ نصر

الرُّسُلَ الثلاثَة الّذِين جاءوا إليها من غير أهلها، كما عرضها القرآن، مقرًّا لها، ومشعراً بالثناء على جهاده في سبيل ربّه، وعلى منهجه في دعوته، ليتّخِذَهُ الدعاة الراشدون أسوةً حسنة لهم في دعواتهم إلى دين الله، أنّ منهجَهُ يتلخّص بما يلي:

أوّلاً:

بدأ باستعطاف من يدعوهم إليه، فناداهم بقوله: ﴿يَـٰقَوۡمِ﴾ باعتباره واحداً منهم، والمنتمي إلى قومٍ تكون عاطفته القوميّة ذات حرصٍ على خَيْرِهم، وشفقةٍ عليهم، ورغبةٍ صادقة في نجاتهم وسعادتهم، وجلْب كلِّ نفع لهم، ودفع كلّ ضُرٍّ عنهم.

ثانياً:

وجّه نصيحته لهم بأن يتَّبعوا المرسلين، الّذين لم يأتوا ليأخذوا منهم أجراً، ولا ليحصّلوا عندهم منافع دنيويّة، بل جاءوا ليبلغوهم رسالة ربّهم، وليهدوهم إلى صراطه المستقيم، رغبةً في نجاتهم من عذاب الله، وفوزهم بجنّاتِ النعيم يوم الدين.

فقرَنَ النصيحة بالدليل على صحتها، من خلال بيان سلامَةِ الرُّسُل الدُّعاة من المصالح الشخصيّة الدنيوية لدىٰ المدعوّين.

ثالثاً:

أكّدَ لقومه صِدْقَ دعوة رُسُل ربهم الثلاثة، مستدلاً على صدقهم بأنّهم في أنفسهم رجالٌ مهتدون، في أقوالهم، وفي أعمالهم، فهم مطبّقون لما يدعون إليه من إيمانٍ وعَمَلٍ صالح، إذْ لا تُؤْخَذُ عليهم مآخذُ تعيبُهم، وتُشَكِّك في نواياهُمْ، وتَتَّهِمُهم بسلوكٍ شائن، حتَّىٰ يكونَ ذلك سبباً لرفض دعوتهم الرشيدة، وعدمِ الاستجابة لها، أو عدمِ الإصغاء إلى بياناتهم الهاديات التي تدعو إلى الحقّ والرّشاد والصراط المستقيم.

رابعـاً:

تعرض لمحاجّة قومه له، فسألوه: هل أَنْتَ مؤمِنٌ بصِدْقِ دعوتهم، وتعبُد الله وحده كما يقولون، وتنبُذ عبادة آلهتنا التقليدية؟؟.

فأجابهم إجابةً صريحةً بأنّه قد آمَنَ فعلاً بما يدعونَ إليه، وأخذ يقيم لهم الحجج البرهانيّة على الذي آمن به.

فأبان لهم أنّه يجب عقلاً عليه أن يؤمن بالله رَبًّا واحداً لا شريك له في ربوبيّته، وإلَهاً واحداً لا شريك له في إلَهيّته، وأنّه لا يصحّ عقلاً أن يَتّخذ من دون الله آلهةً أُخرى.

والدليلُ على ذلك أنّ كلَّ ما يُعْبَدُ من دون الله الرّبّ الخالق، معبوداتٌ باطلة، لا تدفَع ضرًّا، ولا تَجلُبُ نفعاً، ولا تُقْبَل لَهَا شفاعةٌ عند الله، فمن استحقّ عذابَ الله بسبب كفره وشركه وعصيانه لم تستطع أن تنقذه منه.

وأبان لهم أنّه إن اتّخذَ آلهةً من دون الله فإنّه يكون منغمساً في ضلالٍ مبين، بعد وضوح الأدلّة البرهانية على أنّه لا إلَه إلا الله وحده.

خامساً:

لمّا غضب قومُهُ منه، بسبب خروجه عن ملّتهم واتباعه المرسلين، هدَّدوه بالقتل إذا لم يَعُد إلى ملّتهم.

هنا أصَرَّ الرجل بشجاعة على موقفه، ورأى أن يبقىٰ معلناً إسلامه مجاهداً في سبيل ربه، ونادى في القوم بأعلى صوته أمام جمهور قومه:

﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ ﴾.

عندئذٍ ثارت ثورة غضبهم منه، فقتلوه، فغفر الله له وجعله من المكرمين، فلما شهد ما حباه الله من كرامة، وما تفضل به عليه من غفران، وروحه عند ربّه قال:

﴿. . . يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾.

وأرسَلَ الله الصيحة على أصحاب القرية فأهلكتهم وأخْمَدَتْ نيران ثورتهم الغضبيّة، فإذا هُمْ ميّتُون.

- ٣ -

التدبّر التحليلي للنّص المبيّن قصة الرسل الثلاثة

قول الله عزّ وجلّ مبيّناً قصة الرُّسُل الثلاثة مع أصحاب القرية خطاباً لرسوله:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾.

● قول الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾ الخطابُ موجه للرسول محمد ﷺ، ويُوَجّهُ بَعْدَ الرَّسُول لكلّ داعٍ إلى اللّهِ من بَعْدِه.

والضمير في ﴿لَهُم﴾ يُقْصَدُ به مُشْركو مكّة إبّانَ تنزيل سورة (يسٓ) فقد نزلت في أواسط العهد المكيّ من دعوة الرسول، والسورة تتضمَّن معالجتهم وبيان أحوالهم التي وصلوا إليها في هذه المرحلة من مراحل دعوته في مكة، إذْ أكثَرُ كُبَرائها قد وصلوا إلى حضيض:

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

كما جاء في أوائل السورة.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾ أصلُ الضرب توجيه شيء لشيء آخر بقُوَّةٍ حتّى يصطدم به ويؤثّر فيه أثراً ما.

ولمّا كانت صناعة الدّراهم والدّنانير تَتِمُّ عن طريق ضرب صفائح الفضّة والذهب بقوالبَ حديديَّةٍ صُلْبَةٍ حُفِرَتْ فيها أمثلتها، أو ضمن قوالب يَدْخُلُ بعضها في بعض، قَالُوا: ضربَ فُلانُ الدراهم أو الدنانير، إذا طبَعَ عَلَىٰ مَعْدِنهما المثالَ المحفور في القالب.

ثُمَّ حصل توسُّعٌ في معنى الضَّرْب فقالوا: ضَرَبَ مثلاً، أي ذكَرَ أو صَنَع مثلاً.

والأصْلُ في المثل أنّه تشبيهُ شيء بشيءٍ لوُجود عُنْصُر أو أكثر من التشابه أو التماثُلِ بينهما.

وأصْحَابُ القرية الذين عرض النصّ قصّتهم وعاقبة إهلاكهم، مثَلٌ تاريخيٌّ واقعيٌّ يُشْبِهُهُ واقعُ حال مشركي مكة مع الرسول ﷺ إلى ما قَبْلَ إهْلاَكِ الله لأهل القرية.

وعرضُ المثل يتضمَّن طريقةً من طُرُقِ الإقْنَاعِ بإحدى سُنَن الله في عباده، ويتضمّن إنذاراً بأنَّ مُشْرِكي مكَّة إذا اسْتَمَرُّوا على إصرارهم على الكفر والعناد ومعاداة الرَّسُول، وتطاولوا إلى محاولات القتل، فَمِنَ الْمُرْتَقَبِ أَنْ يُهْلِكَهُمْ اللَّهُ كما أَهْلَكَ أصْحَابَ الْقَرْيَةِ إذا اقْتَضَتْ حكمتُه ذلك.

وجاء في المراد من هذه القرية روايات ضعيفة الأسانيد عن ابن عبّاس وغيره أنّها مدينة أنطاكية، وهذا الاسم يُطْلَق على مدينتين أسَّسَهُمَا أحَدُ قُوَّادِ جَيْشِ الإسكندر الأكبر.

ومن الخير التوقف عن تحديد المراد من هذه القرية.

﴿ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أي: اضربْ لهم مثلاً قصة أصحاب القرية في وقت مجيء المرسَلين إليها.

● ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

فعزَّزْنا: أي: فقوَّيْنا.

لقد أرسل الله عزّ وجلّ إلى أهل هذه القرية في المرحلة الأولى رسُولَيْن، فكذّبوهما في رسالتهما وفيما قدّما من تبليغٍ لدين الله الحق، فقواهُما الله برسولٍ ثالث، فقالوا لهم مؤكِّدينَ: إنّا إلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ.

فاعترض عليهم أهل القرية باعتراضين، وبنوا عليهما تكذيبهم.

● ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

الاعتراض الأول: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي: وليْسَ من شأن البشرِ أَنْ يكونُوا صالحين للتلقّي عن الله خالِقِ السماوات والأرض، ولأن يكونوا رسُلاً له.

وهذا الاعتراضُ قد اعترضت به كلُّ الأمم التي كذّبت رُسُلَ ربّها، وهو قائم على توهُّم أنّ رُسُلَ اللّهِ إلى عامّة البشر لا بُدَّ أنْ يكونوا من الملائكة لا يَأْكلون ولا يشربون ولا ينكحون ولا يَمْشون في الأسواق لكسب أرزاقهم كما يفعل الناس.

مع أنّ الحكمة تقتضي أن يكون الرُّسُل إلى البشر من البشر أنفسهم ليكونوا حجّةً عليهم في إيمانهم، وفي استقامتهم على العمل الصالح.

الاعتراض الثاني: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾ وهو اعتراضٌ ادّعائيٌّ افْتَرَوْه من عند أنفسهم، وجَحَدوا به بلاغات الرُّسُلِ من عهد نوح إلى إبراهيم، إلى مُوسَى والرّسُل من بعدهم عليهم السلام. فليس له قيمة فكريّة.

الاستنتاج: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾: لا قيمة لهذا الاستنتاج بعد سقوط الاعتراضين اللّذين استندوا إليهما، فهو محضُ اتّهام بالباطل، وشتيمة من شتائم السفهاء.

فأَجابَهُمْ الرُّسُلُ الثلاثةُ بتأكيد أَنَّهم مُرْسلُون إليهم مُقْسِمِينَ بعِلْم الله بذلك، وبأنّهم لم يُكلَّفُوا إلاَّ أن يُبلِّغوهم بلاغاً مُبِيناً، ثم لهم الحريّة في أن يستجيبوا وأن يرفضوا.

● ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾.

ردّوا على الشتيمة القائمة على محض الاتّهام بالباطل بتأكيد أَنَّهم رُسُل ربّهم الذي يعلَمُ ذلك، ويؤيِّدهم بمؤيّداتٍ من عنده.

وأَبَانُوا لهم أنّهم قد جاءوهم مبلّغينَ، لا مُكْرهين ولا مجبرين، فإن شاؤوا اتّبعوا، وإنّ شاؤوا رفضوا، والتَّبْليغُ البيانيّ تعريفٌ علميٌّ ليس من شأن العقلاء أن يرفضوه، فهو مجرّدُ كلام يَطْرُق الآذان.

وخلال مدّة بقاء الرُّسُل الثلاثة بين أصحاب القريةِ يُبَلّغونَ، تعرَّضُوا لبعض النوازل الرّبانيّة، كانقطاع نزول المطر، أو آفات نزلت بزروعهم وثمارهم، أو أمراضٍ أصيبوا بها، فأحالُوا سبب ذلك على وجود الرُّسل بينهم، تطيُّراً وتشاؤماً، فواجهوا الرُّسُلَ بتطيُّرهم منهم، وأَمَرُوهم بالكفّ عن متابعة دعوتهم، وإلاَّ قتلوهم رَجْماً بالحجارَةِ وأنزلُوا بهم عذاباً أليماً.

● ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

التطَيُّرُ: التشاؤم بالأشياء، أو بالأشخاص، أو بالأحداث.

وجّه أصحابُ القرية بمقتضى دلالة هذه الآية مقولتين:

المقولة الأولى: دلّ عليها ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي: إنَّ ما نزل بنا ممّا

نكره من نقص في الأموال والأنفس والثمرات، قد كان بسبب وجودكم بيننا، وبسبب دعوتكم التي جئتمونا بها.

والمعنى: فكفُّوا عن دعوتكم، حتّىٰ يذهب عنّا ما نزل بنا من مكروه.

المقولة الثانية: مقولة تهديد وإنذار، دلّ عليها: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

فأجابهم الرُّسُل جواباً يتضمَّن ثلاث مقولات:

● ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

المقولة الأولى: دلَّت عليها عبارة ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

يُطْلَقُ الطَّائِرُ في اللُّغَةِ على مَا يَحْصُل به التَّشَاؤم.

والمعنى: إنكُم توهَّمْتُمْ أنّ دعوتنا هي السبب فيما حلَّ بكم من مصائب ربّانيّة، فتطيّرتُم بنا تطيُّرَ تشاؤم، مع أنَّ السَّبَب في الحقيقة هو شركُكُمْ وكُفْركم وتكذيبكم لرُسُل رَبّكُمْ، وهذا السبب هو الذي جلب بعض المصائب لكم، وأنْزَل بكم بعض العقوبات الرَّبَّانية.

وهذا السَّبب موجودٌ معكم لا مَعَنا، فما هو فكيم ومعَكُمْ ممّا لا تريدون التخلُّصَ منْه هو طائِركُمْ، وهو الذي يجب أن تتشاءموا منه، لا أنّ تتشاءَمُوا من رُسُل رَبّكُمْ، وهو الذي يجب أن تُبْعِدُوه وترجموه رجْمَ طَرْدٍ أبديّ، ومَا كان يصحُّ أن تُهَدِّدُونا بالعذاب الأليم، وبالرجْمِ حتى الموت.

المقولة الثانية: دلّت عليها عبارة: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾؟!!.

والمعنى: أإنْ ذُكِّرْتُمْ من قِبَل رَبّكُمْ بالمصائب التي تنزل بكم لعلكم تتذكَّرونَ، فتَتُوبُونَ إلى بارِئكم، قبل أن يُنزل بكم هلاكاً شامِلاً، جعَلْتُمْ هذا التذكير الرَّبَّاني لكُمْ سبباً للتطيُّر بنا وبدعوتنا، فوجهتم تهديدكم لنا بالعذاب الأليم وبالرَّجْم حتّىٰ الموت.

الاستفهام هنا استفهام إنكاريٌّ تعجبيّ.

المقولة الثالثة: دلّت عليها عبارة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

هذه المقولة تشعر بأنّ أصحاب القرية أو أصحاب الجاه والسُّلطانِ فيهم قالوا: لسنا الوحيدين بين أهل المدن الأخرىٰ في انتشار ما تلومونا عليه من ظلم وعدوانٍ وفِسْقٍ وبغيٍ في الأرض.

فقال لهم رُسُلُهم الثلاثة: بلْ أنتم قوم مُسْرِفون في ارتكاب هذه القبائح، فليست النسبة فيكم مماثلةً للنسبة في غيركم من أهل المُدُنِ والقُرَىٰ، لقد زادت فيكم زيادةً فاحشة إلى مستوى الإسراف الّذي يستدعي أن يُنزل الله بكم هلاكاً عاماً شاملاً، كما أنزل بالأقوام الَّذين أسْرَفُوا من قبلكم.

عندئذٍ جاءَ رجلٌ مؤمنٌ من أهل المدينة ينصُرُ الرُّسل ببيانه، وكان ساكناً في أقصاها، وضَحَّىٰ بنفسه دِفاعاً عن الرُّسُل الثلاثة، وعن دين الله الحقّ الذي دَعوا القومَ إلى الإيمان به، ونَبْذِ ما هم فيه من شركٍ ووثنيّة.

- ٤ -

التدبّر التحليلي للنّص المبيّن قصة مؤمن أهل القرية

قال الله عزّ وجلّ مبيّناً قصة مؤمن أهل القرية في نصرته للرّسُل وفي دعوته إلى سبيل ربّه:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن
لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا
لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن

جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

● قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾.

أقصَىٰ المدينة: أبْعَدُ المواضع عن وسطها وعن مركز الحكم فيها وسلطة التنفيذ.

لقد دلَّ هذا القول على مبلغ إيمان هذا الرجل، وتضحيته بنفسه فهو من سُكَّانِ أقصى المدينة، وقد أقبل يسْعَىٰ بهمّة وعزيمة صادقة من محلّ إقامته البعيد عن وسط المدينة محلّ تجمع القوم على الرُّسُل لمحاكمتهم.

فسعيُه وإقباله من أقصىٰ المدينة دلاً على أنه رجُلٌ مجاهد، أقْبَل في حالةِ رَوِيَّة وتصميم، لينْصُرَ المرسلين الوافدين إلى قومه من قومٍ آخرين، وعلى أنَّه لم يكن حاضراً في مجتمع القوم فتحمَّسَ بانفعالٍ طارىءٍ فنصر الرُّسُل، بل جاء من أقْصَىٰ المدينة لمّا بلغه أمر اجتماع قومه على الرّسُل لمحاكمتهم ومعاقبتهم على ما يقومون به من دعوة إلى دين الله.

ولمَّا وصَلَ الرَّجُلُ المؤمِنُ اخترقَ الجموعَ حتَّىٰ وصَلَ إلى مِنَصَّةِ الحاكم والملأ من حوله، عندئذٍ بدأ قومه بدعوتهم إلى اتباع الرُّسُل:

● ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

تضمَّنتْ حكاية قوله في هذا النص ثلاثة عناوين لثلاثة موضوعات:

الموضـوع الأول:

دعوةُ قومه إلى الإيمان بهؤلاء الرُّسُلِ الثلاثة، مثبتاً لهم أنّهم رُسُلٌ صادقون ليسوا بكاذبين، ودعوتُهم إلى اتباعهم فيما جاؤوا به من شرائع الدين وأحكامه.

دلَّ على هذا الموضوع قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

الاتباع في اللغة: سَيْرُ التابع على أثر المتبوع، وتقليدُ المقتدي إمَامَه في أقواله وأعماله، وطاعتُه في أوامره ونواهيه، والاستجابةُ له في دعوته، والاجتهادُ في تطبيق وصاياه.

ومعلومٌ أنّ إثبات صدق دعوة الرُّسل لا بُدَّ أن يكون قد تضمَّنَ التّنبيه على معجزاتهم، ويتضمَّن أيضاً إثباتَ أنّ مضمون رسالتهم التي جاؤوا بها حقٌّ وصِدْق.

الموضـوع الثـاني:

تأكيد الاستدلال على صدق هؤلاءِ الرسُل الثلاثة، بأنهم ليسوا أصحاب مصالح شخصيّة دنيويّة لدى قومه من دعوتهم إياهم إلى الإيمان، ونَفْيِ الوثنية، ونبْذِ الشرك بالله، ونبذ سائر خرافاته.

فهم لا يسألون القوم أجراً على دعوتهم لهم إلى الإيمان الحقّ، والإسلام الحقّ لله عزّ وجلّ وحْدَهُ لا شريك له، إنّهم لا يسألون أجراً مالياً، ولا أجراً من سُلْطانٍ يطلبُونه، ومُلْكٍ يسْعَوْن للوصول إليه، أو غير ذلك.

فهم غير متَّهمين في دعوتهم إلى الحق، وقد جاء هذا البيان لدفع أنَّهم يتخذون الدعوة إلى الحق وسيلةً للوصول إلى مصالح شخصيَّةٍ دُنيويّةَ من دعوتهم عنْد القوم.

بينما يُلاحظ أنّ كثيرا من الناس يدعون إلى الحقّ بحجج بُرْهانيّة، لكنّهم يتخذون ذَلِكَ غطاءً لمصالح دنيويَّةَ يريدون الوصُول إليها، حتَّى إذا وصَلُوا إلى مراداتهم من الدنيا تخلَّوْا عن الحقّ، وعن الدعوة إليه ونصرته، وتكشّفَتْ عيوبُهم، وظهر عدم التزامهم بما كانوا يدعون إليه.

دلّ على هذا الموضوع قولُ الرجل المؤمن الداعية المجاهد لقومه:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾ وهذا هو خلق سائر المرسلين، ومنهجُهم في دعواتهم إلى سبيل ربّهم.

الموضـوع الثـالث:

تأكيد صدق هؤلاء الرُّسُلِ في دعوتهم، بأنّهم في ذواتهم مهتدون على صراطٍ مستقيم، في أخلاقهم، ومعاملاتهم، وعباداتهم، والتزامهم بالحقّ والصّدق والعَدْل والعفة والزهد فيما في أيدي الناس، والأمانة والشجاعة والجود إلى غير ذلك من كلّ ما يدعو الدين والعقل السليم إلى التحلّي به، والتزام فضائله، فلا شيء يَجْرَحُ سلوكهم، حتّىٰ يكونوا متّهمين في دعوتهم، بل هم أُسْوَةٌ حسنة لكل من أراد أن يتأسّىٰ بذوي الفضائل المثلى.

دلّ على هذا الموضوع قولُه لقومه: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.

فأقام هذا الرَّجلُ المؤمن الداعيَةُ لقومه الحجَّة البيّنَة على صِدْق الرُّسُل الثلاثة، وأنّه يجب عليهم أن يؤمنوا بهم ويتبعُوهم.

ويظهر أن القوم قد فُوجِئوا بمداهمة رجُلٍ منهم جَمْعَهُمْ الحافلَ بُغْيَةَ أنْ يَنْصُر الرُّسُل الثلاثة الذين لم ينتهوا عن دعوتهم، إلى محاورة الرجُلِ الداعية منهم الَّذي آمن بالرُّسل، وإلى محاكمته، إذْ أَقْبَلَ من أقصىٰ المدينة لنصرة الرُّسُل ببياناته وحُجَجِه، ولإقناع قومه بصدْق الدَّعوة التي جاؤوا بها.

ويظهر للمتدبّر من إيحاءات النّص والمطويّاتِ فيه، أنّ ملأ أصحاب القرية قالوا لرجلهم:

إذنْ: فقد أمنتَ بهؤلاء الرُّسُلِ، وتركْتَ دِين قَوْمِكَ؟

قال: نعم، وأَتْبَعَ هذا الاعتراف بإقامة الحجّة العقليّة البرهانية على صحة ما آمن به، فقال لهم:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

هذا البيان القرآني الذي حكىٰ إجابة الرَّجل لقومه قد اشتمل على عدّة قضايا ناظر بها الرَّجُلُ المؤمن الداعيةُ ملأَ قَوْمِهِ أصحابِ القرية. ويظهر للمتدبّر من إيحاءات النّص والمطويات فيه أن القوم قالوا له: كيف تَعْبُدُ الرَّحْمـٰنَ وحْدَهُ، ولا تعبُد آلهة قَوْمِكَ، آلهة آبائك وأجدادك؟!

● فقال لهم: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ومَالِي؟ اسْتِفْهَامٌ فيه معنى التعجّب والإنكار على اعتراض قومه عليه. أي: ومَا هُوَ الشيء الذي لي يحميني من عذاب ربّي الّذي فطرني، كحجَّةٍ مقبولةٍ أحْتَجُّ بها عنده، أو نصير يَنْصرُني حالة كوني لا أعْبُد الذي فطرني وحده، إذا أنَا لَمْ أعْبُدْه، وعبَدْتُ آلهتكُمْ من دُونه، أو جعلْتُهُمْ شُرَكاء له، دون أن يكون لي في ذلك بُرْهَانٌ من الله؟!

وهنا يظهر للمتدبّر للنصّ من المطويّات فيه، أنّ القوم قالوا له: لَقَدْ عبَدَ آبَاؤنا وأَجْدادُنَا من قبلنا آلِهَتَنا، ولم ينْزِلْ بهم عذابُ الله كما تزعُمُ.

والجواب المناسبُ الّذي أجابهم به قد اعتمد على الإيمان باليوم الآخر، وأنَّ مَرْجِعَ الناس جميعاً إلى يوم الدّين، فبعد أن يبعثهم اللَّهُ إلى الحياة الأخرى يحاسبهم، ويقضي فيما بينهم، ويعذّب المشركين في النار دار عذاب الكُفّار، ويُدْخل المتقين المؤمنين جنات النعيم.

وهذا يستَتْبع أنّهم قالوا له: أتخشىٰ أن تَرْجِع إلى حياة أُخْرى بعْدَ الموت للْحِسَاب وفصل القضاء والجزاء من قِبَلِ رَبّك؟

والجواب: نعم، أنا إليه أرجع، وأنتم إليه تُرْجَعون.

وقد طويت في العبارة القرآنية هذه القطعة من الحوار، اكتفاءً بعبارة:

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الّتي تَقَعُ في آخرها، إذْ هي كافية في ذهن المتدبّر المتعمّق للدّلالة على المطويّ في النصّ.

وهنا يظهر للمتدبّر أنّهم دافعوا عن عقيدتهم الباطلة في آلهتهم، ودفاعُهم عنها يتلخَّص بأنّ عبادة هذه الآلهة تنفع عند الرحْمَنِ، فإذا عَبَدْتَها كانت شفيعةً لك عنده.

والجواب الذي اختاره الرّجل هو ما دَلَّ عليه من النّص قول الله تعالى يحكي قول الرجل المؤمن:

● ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

دلَّ هذا القول على أنّ الرجُلَ المؤمن قد وضع قومه أصحابَ القرية أمام بُرْهانٍ مَسْبُوق بتجاربَ، وهذا البرهان يدعم إيمانه ويسقط مفاهيمهم الشركيّة.

فهذا القول يوحي بأنّه قال لهم:

لقد جرَّبْتُ آلهتكم فيما نزَل بِـي من ضُرٍّ فيما مضى فدعوتُهم، وعَبَدْتُهم، واستشفعت بهم، فلَمْ تُغْنِ عبادتي ودُعائي لهم عَنِّي شيئاً، لأنّ ما نزل بـي قد كان من الله لا منهم، فإنْ كان لهم شفاعةٌ عند الله كما تزعمون، وكانُوا يمنحون شفاعتهم لمن يدعوهم ويعبُدُهم، فقد جرّبتُهم في هذا، فلم تنفَعْني شفاعَتُهُمْ بشيء.

إذَنْ: فلماذا اسْتَمِرُّ على عبادتهم، وحالي معهم بين يَدَي الرحمن هو: إنْ يُرِدْن الرَّحْمٰـنُ مستقبلاً بَضُرٍّ ودَعَوْتُهُمْ وعَبَدْتُهُمْ، مستشْفعاً بهم، لا تُغْنِ عنّي شفاعَتُهُمْ شَيئاً عند الرحمن، ولا هم ينقذونني بوسائِلَ أخرى غير الشفاعة من عذابه، أو من الضُّرّ الذي يُريدُ أن يُنْزلَهُ بـي إنْ شاء ذلك.

ومعلومٌ أنّ الدليل التجريبي من أقوى الأدلّة لقياس المستقبل عليه.

وقد آثر الرجلُ أن يُعَبِّر بكملة «الرَّحْمٰن» من أسماء اللّهِ الحسنىٰ في هذا المقام ليُشْعِرَ القوم بإيمانه بأنّ ما يُنْزِلُهُ الله به من ضُرٍّ فإنَّهُ مظهرٌ من مظاهر رحمته، لا من مظاهر غضبه ونقمته، وقَوْمُه يؤمنون بأن من صفات الرَّب الخالق أنّه الرّحمٰنُ بعباده، ويعتقدون أنَّ آلهتهم التي يعبدونها يشفَعُون لعابديها عنده.

وبعد أن وضع الرجُلُ المؤمن قومَهُ أَمام هذا البرهان التجريبيّ الذي جرّبه بنفسه، أعلمهم بأنّه إذا استمرّ على الباطل الذي كان عليه، فإنّه يكون إذاً لفي ضلال مبينٍ واضح، فقال لهم:

﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: في ضياع واضحٍ، ومُجَافاةٍ ظاهرةٍ لطريق الحق والهدى.

وهنا ظهرت حجَّةُ الرَّجُلِ قويَّةً واضحةً برهانيَّةً، وانْقَطَعَتْ حُجَج القوم وأُفْحِمُوا، فلَمْ يجدوا أمامهم إلاّ أنْ ينتَصِروا لأنفسهم بقتْلِه، فقدَّمُوهُ للقَتْل.

وقبْلَ تنفيذ قتله توجَّه الرجُل المؤمن للجماهير فنادى بأعلى صوته متحدّياً داعياً لهم إلى سبيل الله:

● ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

فقتلوُهُ ولفظ روحه شهيداً.

هنا أبان الله عزّ وجل أنَّهُ بَعْد استشهاد الرجُل المؤمن وانطلاق روحه إلى بارئها، قيل له: ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

● قال اللّهُ عز وجلّ: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾: أي: أمْر الله ملائكة الرحمة بأن تقول له: ادْخُل الجنّة، فنفَّذتِ الملائكة الأمر الرّباني، وقد أعطاه الله هذه الكرامة عنده لأنّه لفظ روحه شهيداً في سبيل الله، مجاهداً بأفضل أنواع الجهاد.

وقد صحّ عن النبي ﷺ أنّ أرواحَ الشهداء تدخُل في أجواف طيور خُضرٍ، ولَهَا قنادِيلُ معلّقة تحت العرش، تَسْرَحُ من الجنّةِ حيثُ شاءت، وتأكُلُ من ثمارها.

روى مسلمٌ والترمذيُّ عن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ أَرْواحَ الشهداءِ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْر، لَهَا قناديلُ معلَّقَةٌ تحْتَ الْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إلَىٰ تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطّلاَعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئاً؟. قَالُوا: أيَّ شَيْءٍ نَشْتَهي، ونَحْنُ نَسْرَحُ من الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟. فَيُفْعَلُ ذلك بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَمْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا ربُّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ إِلَيْنَا أَرْواحَنَا في أَجْسَادِنَا، حَتَّىٰ نَرْجِعَ إلَىٰ الدُّنْيا، فَنُقْتَلَ في سَبيلِكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَلَمَّا رَأَىٰ أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا».

وعلى هذا المعنى يُفَسَّرُ ما جاء في القرآنِ من كَوْنِ الّذينَ قُتِلُوا في سبيلِ اللّهِ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقونَ.

وبعد أنْ قيل لمؤمن أصحاب القرية ادْخُل الجنّة، وشَهِد ما شَهِدَ من كرامة، ونعيم عظيم عند ربّه، نَادَىٰ وهو في عالَم الحياة البرزخيّة الّتي لا يَسْمَعُها البشَرُ، مُتَمَنّياً أنْ يَعْلَمَ قومُهُ الّذين قتلوه وفرحوا بقتله انتقاماً منه، بأمْرِ ثوابَيْنِ عظيمين ظفِرَ بهما عند ربّه:

ـ غُفْران ذنْبِه.

ـ وجَعْله من الْمُكْرَمين:

● ﴿ قَالَ: يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

رُوِي عن ابن عبّاسٍ أنّه قال بشأنه: نَصَحَ قَومَهُ في حياته، وبَعْدَ مَمَاته.

* * *

ولم يُمْهِلِ اللَّهُ قومَهُ بعْدَ قَتْلِهم له، بل أهلكهم بصيحة واحدة، فإذا هُمْ خامِدون، فقال الله عزّوجل:

● ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

الصيحة: صوتٌ عظيم يقتل بالصَّدْمَةِ الصوتية الشديدةِ.

ودلّت عبارة: ﴿ فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ عَلَىٰ أنَّ إهْلاَكَهُمْ بالصيحة كان عقب قتلهم رجُلَهُم المؤمن، دون فاصل زَمَنِيّ كبير، وذلك لأن الخمود يُسْتَعْمَلُ لانطفاء النار وتحوُّلها فحماً أو رَماداً، ودلّ استعمال لفظ الخمود على أنّ لهيب غضبهم لم ينطفىء بقتلهم له. وإنّما خَمَد باهلاكهم.

* * *

وختم الله عزّ وجلّ قصّة إهلاك القوم بقوله:

﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

أي: ممّا يستثير الْحَسْرة ـ أي: الحزن ـ على العباد أنَّهم ما يأتيهم من رسُولٍ من رُسُل الله، إلاّ كذَّبُوه، وجَحَدوا ما جاءهم به من عند ربّهم، وقابلوه بالاستهزاء، لأنّهم لا يملكون حججاً عقليّة برهانيّة، ولا حججاً مقبولة في موازين العقول تجعلهم معْذُورين في تكذيبهم.

* * *

النموذج الثالث

دعوة النفر من الجنّ الذين عرضت قصتهم سورة (الجنّ)

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾.

- ١ -
نظرة إجماليّةٌ عامّة

أَعْلَمَ الله عزّ وجلّ في سورة (الجنّ) رسولَهُ بقصة نَفَرٍ من الجنّ استمعوا القرآن منه، دُونَ أن يكون قد علم بحضورهم واستماعهم لتلاوته آياتٍ من

القرآن المجيد، مما نزل منه قبل سورة (الجن).

وبعد أن استمعوا ما استمعوه من القرآن آمنوا وأسلموا. وبعد إيمانهم وإسلامهم عادوا إلى أقوامهم وقبائلهم من الجنّ داعين إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

فوجَّهوا في دعوتهم للإيمان بالقرآن واتّباع ما جاء فيه، ووجّهوا للإسلام إلى الله ورسوله، وبَشَّروا مَنْ يؤمن ويُسْلم بالسّعادة الخالدة في جنّاتِ النعيم يوم الدّين، وأنذروا من يكفُر وحذّروه مِنْ عذاب الله الخالد في نار جهنّم.

وأمر الله رسوله محمّداً ﷺ بأنْ يُحَدِّث بقصّة هؤلاء النفر من الجنّ، فقال الله له: ﴿قُلْ: أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟... ۝١﴾.

ونفهم من هذا الأمر قضيَّتَيْن.

القضيّـة الأولى: إيجادُ الحافز لدى بعض المشركين من الناس لكي يُؤْمنوا ويسلموا، إذْ قد آمن وأسلم نفر من الجنّ بمجرّد استماع القرآن.

القضية الثانية: تحريض المؤمنين على اتّخاذ هؤلاء النّفر من الجنّ أسوةً حسنة لهم، في الدّعوة إلى الله بين النّاس، وأن يستفيدوا من منهجهم الحكيم في الدّعوة، حينما يقومون هداةً دُعَاةً إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

- ٢ -
المنهج الدّعوي الّذي اتّخذه النفر من الجنّ الّذين أخبر الله عنهم في سورة الجنّ

تدلُّ النظرة التدبُّريّة إلى ما جاء في سورة (الجنّ) بشأن النفر من الجنّ الّذين استعموا القرآن من الرّسول محمد ﷺ، فآمَنُوا وأسلموا، وتوجّهوا

لأقوامهم وقبائلهم دعاةً إلى سبيل ربّهم، عَلَىٰ أنَّ منهجهم قد كان قائماً على حكاية قِصَّةِ إيمانهم وإسلامهم، وما كانوا عليه قَبْلَ استماع القرآن هم وأقوامُهُمْ من الجن وما صاروا إليه بعد استماع القرآن، وكيف هداهم التفكير السَّلِيم إلى صحة ما جاء في القرآن الّذي استمعوا إليه من الرسول ﷺ، وانتقلوا إلىٰ الترغيب بالإيمان كما آمنوا والإسلام كما أسلموا، مُبَيِّنين أنّ من آمن بالله وكتابه ورسوله وعمل صالحاً اطمأنَّ يوم الجزاء عند ربّه وأَمِنَ، فهو لا يخاف الحرمان الكلّيَّ أو الْجُزْئِيّ من ثواب إيمانه وصالح عمله، ولا يخافُ عقاباً على كُفْرٍ أوْ عصيانٍ يَتَحمّل به شقَاءَ ومتاعبَ وعذاباً أليماً.

ومن هذا نُدْرِكُ أنَّ مِنْ مناهج الدعوة إلى الله وأساليبها الناجحة، أَنْ يحكي الداعي إلى سبيل ربّه قصة إيمانه وإسلامه وهدايته إلى الحقّ، بعد أنْ كان في الضلال، مبيّناً البواعث الفكريّة والنفسيَّة، والوجدانيّة، التي جعلته يُؤْمن ويُسْلم ويتبع صراط الله المستقيم.

ويقاس على هذه الوسيلة عَرْضُ الداعي قِصَصَ إيمان وإسلام الّذين دخلوا في الإسلام، متضمّنةً بَيَانَ البواعثِ الفكريّة، والنفسيّة والوجدانيَّة الَّتي جعلتهم يؤمنون ويُسْلِمُون، ويهجرون ما كانوا عليه قبل ذلك.

والسبب في تأثير هذه الوسيلة أنَّ النفوس البشرية تنقسم إلى أصنافٍ ذواتِ نماذج طبعيّة متشابهة، فما يكون من الأسباب مؤثراً في بعض النماذج، يكونُ مؤثراً على نظائرها وأشباهها بصفَةٍ تلقائيّة.

يضاف إلى هذا أنّ الناس من طبيعتهم أن يتأثّروا تلقائيّا بما يتأثّر به آخرون منهم، تأثّراً تقليديّا، أو تأثُّراً قائماً على اقتناعٍ فكري، فقناعة فريق من الناس بفكرة من الأفكار تجْعَلُ من يحترمهم ويحترم آراءَهم يفتح منافذ فكرِهِ ونَفْسِه للاقتناع بالحقّ، فيسْهُل إقْناعه، وتكون استجابته لدعوة الداعي خاليَةً

من كثيرٍ من العقبات التي تمنع عادة من الاستجابة.

وبذلك يختصر الداعي على نفسه جَهْداً كبيراً لدَىٰ معالجة من يوجّه دعوته لهم، واستغلالُ هذا أمْرٌ مهمٌّ في مناهج الدَّعْوَةِ وأساليبها.

- ٣ -

التدبّر التحليلي للنّصّ

قول الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ... ۝١﴾.

اسْتَمَعَ: أي: قصد السّماع مع إصغاء وإنصات.

نَفَرٌ: النفر: الرّجال من ثلاثة إلى عشرة.

الجنّ: خلْقٌ من خلقِ الله لا نَرَىٰ أَجسامهم بأعيُننا لأنّها غير ذات كثافة، وهم قابلون للتشكّل بالأشكال الجسمانية التي يمكن أنْ نراها، ومخلوقون من نار، ولهم صفات فكريّةٌ ونفسيّة تؤهلهم لأن يوضعوا موضع الامتحان في الحياة الدنيا كالإنس، إذْ لهم إرادات حرّة يمكن أن يُطيعوا بها وأن يعصوا، ولهم أهواء وشهوات تنزع فيهم للمعصية كالإنس، ولهم إدراكات فكريّة يعرفون بها الحقّ والباطل، والخير والشرّ من الأعمال، ويفهمون بها التكاليف.

وقد أمَر الله رسوله بأن يقول: أوحي إليّ أنّه استمع... إلى آخر قصّة هؤلاء النفر من الجن، لِيُحرِّض المؤمنين على أن ينْتَشِروا دُعاةً إلى دين الله أُسْوَةً بهم، وليُبيّن للمشركين أنَّ دَعْوة الإسلام امتدت إلى الجنّ، فآمَنَ منهم نفَرٌ بمجرّدِ استماعهم القرآن، وأسلموا وحَمَلُوا رسالةَ الدعوة إليه بين أقوامهم وقبائلهم من الجنّ، وأنّه لا بُدَّ أن يَجِدَ دُعَاةً من الإنْس ينشرونه بين الناس في طول الأرض وعرضها، ويَبُوءَ المشركون المصرُّون على كفرهم وعنادهم بالخيبة والخسران والهزائم.

وعَقِبَ هذه المقدّمة بدأ النّصّ القرآنيّ في السورة يعرض بإيجازٍ منهاجَ دَعْوَةِ الجنّ إلى الإسلام بين أقوامهم وقبائلهم، وسياستَهم فيها، ليستفيد منها الدعاة إلى سبيل الله من الإنس في دعوتهم بين أقوامهم وقبائلهم وجماعاتهم، إذ كانت دعوة حكيمة وسياسة رشيدة.

وهي سياسة قائمة على عرض قصة إسلامهم، وعرض البواعث الفكرية والنفسية والوجدانيّة التي جعلتهم يؤمنون ويسلمون، وينتشرون دعاةً إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد اشتمل عرض قصّتهم بين أقوامهم وقبائلهم من الجنّ على عِدّة قضايَا، جاء تلخيصها في سورة (الجن) بما يشبه عناوين موضوعاتٍ ذواتِ شُروحاتٍ مستفيضات.

القضية الأولى: دَلّ عليها: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾.

أي: إنّا سَمِعْنا كلاماً يُقْرأ قُرآناً مُؤثِّراً يُشْعِرُ بأنّه من عند الله، فهو جديرٌ بالاستماع إليه، وتدبُّرِ دَلاَلاته، إذْ هو عَجَبٌ في مبانيه وفي معانيه.

ودلَّ وصفُ القرآن بأنّه عجَبٌ على أنّه مُعْجِزٌ متفرِّدٌ متميّزٌ، عن كلّ كلامٍ آخر، وهذا يَدُلُّ على أنّه كلامٌ مُنَزَّلٌ من ربّ العالمين. أدرك هؤلاء النفر من الجنّ بعض ما في القرآن من عناصر إعجازٍ فوصفوه بأنّه عَجَبٌ، وهذا وصفٌ بالمصدر مُشْعِرٌ بأنّه عيْنُ العجب لكثرة ما فيه من عجائب.

القضية الثانية: دلّ عليها: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ وصفاً لما سَمِعُوا من القرآن، من تلاوة الرّسُولِ ﷺ.

يَهْدِي: أي: يَدُلُّ ويُبيِّن ويعلّم، يقالُ لغة: هداهُ الطريق، وهداه له، وهداه إليه، إذا عرّفه به وبيّنَه له.

الرُّشْد: يُطْلق على كلّ سُلوكٍ فكريٍّ أو نفسيٍّ أو عَمَلِيٍّ موافق للحقّ

والصواب، أو لما هو الأفضل والأحسن، والأكثر نفعاً، والأبعد عن الضرر.

فوصْفُ القرآنِ بأنّه يهدي إلى الرُّشْد وصفٌ يجمع كلّ ما اشتمل عليه القرآنُ من دعْوةٍ إلى الحقّ والخير، وإلى ما هو الأحسن والأفضل والأنفع والأبعد عن الضرر من الوجوه المحتملة، حالاً ومستقبلاً قريباً، ومستقبلاً بعيداً، حتى يوم الدين، يوم الحساب وفصل القضاء، وتنفيذِ الجزاء، في دار النعيم، أو في دار العذاب الأليم.

القضية الثالثة: إعلانُهم أنَّهم آمنوا بالقرآنِ، إذْ قالوا: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ ومن لوازم إيمانهم بالقرآن إيمانُهم بسائر أركان الإيمان، ومنها إيمانُهم بالرَّسُول الذي استمعوا إلى القرآن من تلاوته له، وإيمانهم بالله العزيز الحكيم منزِّل القرآن، وإيمانهم بسائر القضايا الدينيَّة الّتي اشتملت عليها آياتُ القرآن.

والإيمان: هو التّصْدِيقُ الإراديُّ القلبـي المقترن بالاعتراف والتسليم الذي تظهر له آثار في السلوك.

القضيّة الرابعة: بيانُ عَزْمِهِمْ الإراديّ الجازم على أن لاَ يُشْرِكُوا في مستقبلِ حياتِهم بربّهم أحداً، دلّ عليها قولهم: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

وهذا منهم وعْدٌ بِعَهْدٍ جازمٍ قطعوه على أنفسهم، ودلَّ إلزامُ أنفسهم بهذا العهد على أنّ ما استمعوه من القرآن قد تضمَّن فيما تَضمَّن التحذيرَ من الشرّك في رُبوبيّة الله، وفي إلَهيَّته، مَهْما كان نوع الشّرْك جُزْئيًا وهيّناً، كشرك الّذين يَعْبُدونَ غير الله لِيُقَرّبُوهم إلى الله زُلْفَىٰ. ودلَّ أيضاً على أنّهم قد كانت لهم شركيّات تخلَّوْا عنها، ولَنْ يَعُودوا إلَيْها ولا إلى مِثْلِها.

وإذْ تخلَّوْا عن الشّرك، فإنّهم عن أنواع الكفر التي هي أشدّ من الشّركِ أكثر تَبَرِّيًا وابْتعاداً، وأشدّ التزاماً بأن لا يقربوا شيئاً منها.

القضية الخامسة: توجيه الإقناع لأقوامهم من الجنّ بتعالي الله عزّ وجلّ في صفاته السَّنِيَّة عن أنْ يتخذ صاحبةً أو ولداً، فاتِّخاذ الزّوجات من صفاتِ

النقص في المخلوقاتِ الحادثة، وإنجابُ الله الأولاد يقتضي أن يكون مَنْ أنجبَهُ الله مُشَاركاً لله في خصائص ذاتِه الأزلية الأبدية، والرَّبُّ الخالق مُنَزَّهُ عن كلِّ ذلِك، واتّخاذُهُ الأولاد بالتَّبَنِّي افتراءٌ على الحقيقة، فالعبْدُ المخلوق لا يكون ابْناً لخالقه الرّبّ الأزليّ، سبحانه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيراً، فالله لا يُمْكِنُ أنْ يكون له ولدٌ، ولاَ يُمْكن أن يتّخذَ ولداً بالتبنّي.

دلَّ على هذه القضيّة قولُهُمْ كما حكىٰ النّصّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾.

تَعَالَىٰ: تناهى في العلوّ مرتفعاً عن كلّ الصفات الّتي لا تليق بجلاله وأزَليّتِه وأبديته ووحدانيته، وتنزُّهِهِ عن الحاجة لذاته أو لصفاته.

جَدُّ رَبِّنا: الجدُّ في اللّغة الحظُّ والْغِنَى، وجَدُّ الرَّبّ حظُّه من كمال الصّفات الذّاتية التي يتّصف بها، وغِنَاه سبحانه بذاته وصفاته عن كلّ شيءٍ سواه، لذلك فهو لا يتّخِذُ صاحبة ولا يُنْجِبُ ولداً، ولا يَتَّخِذُهُ بالتَّبَنِّي.

ويظهر أنَّهم قد خاطبوا بهذا من يعتقدون من الجنّ أنَّ لله صاحبةً ولداً.

وعبارة ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ هي بمثابة الدّليل العقليّ الذي يدلُّ على أنّه سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فَتَقْدِيمُهَا أُسلوبٌ بارع لإعلان تبرّيه تعالى عن اتّخاذ الصاحبة والولد، وهو من أساليب تقديم الدَّليلِ قبل تقرير الدعوىٰ.

وتقديم الدّليل قبل تقرير الدّعوىٰ من أساليب مناهج الدعوة الحكيمة، التي تدخل تحت عموم قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾.

القضية السادسة: بيانُهم في أقوامهم أَنَّ سفيههم إبليس وكُلَّ من استجابَ له واتّبع كُفْرَه بربّه كان يقول على الله قولاً شَطَطاً، أي: بعيداً عن الحقّ جائراً.

الشّطَطُ في اللغة: الْبُعْدُ وتجاوز الحدِّ وَالجورُ، وكُلُّ مَا بَعُدَ عن الحقّ وجارَ فهو كَذِبٌ وباطل.

وكلُّ قولٍ باطلٍ أو كَذِب يُنْسَبُ إلى الله هو كُفْرٌ بذاته، أو بصفاته، أو بَحَقِّ رُبوبيّتِه أَوْ إلَهيّته.

دلَّ على هذه القضيّة قولُهُمْ كما حَكَىٰ النّصّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾.

السفيه في اللغة: ناقصُ العقل الذي لا يُحْكِمُ أمْرَهُ بِرُشْد، فيجانب الحقّ والصّواب وسبيلَ الْهُدَىٰ.

وإبليس إمامُ سُفهاءِ الْجِنِّ، فقد عرَّضَ نفسه للطّرد من رحمة الله، وللعذَاب الأبَدِيّ والشقاءِ الدائم، إذْ رَفَضَ أن يُطيع أَمْرَ ربّه له بِأَنْ يَسْجُد لآدم، وجَحَد حقّ الله على عباده في طاعَته بما يشاء، وهذا من فرط سَفَاهَته وقلّة عقله الإراديّ، إذْ لَمْ تَقْوَ إرادته على ضَبْط جِماحِ هواهُ في الكبر والْحَسَد، مع وفْرَةِ ذَكائه العلميّ وواسع حِيلَتِه.

ويتْبَعُ إبليسَ في السفاهة كُلُّ كَفَرَةِ الجنِّ الّذين اتَّبَعوا سبيله، وعبارةُ: ﴿سَفِيهُنَا﴾ تعمُّهُم.

القضية السابعة: بيانُهم في أقوامِهِم أنهم كانوا مَخْدوعين بِأَقْوَالٍ كانُوا يَسْمَعُونها من الإنْسِ والجنّ، وفيها كِذْبٌ على الله، فيقبلونها، ظَانِّينَ ظنًّا تَوهُّمِيًّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإنْسُ والجنُّ علَىٰ اللَّهِ كَذِباً، فلمّا استَمَعُوا القرآن من الرسول محمد ﷺ تبيَّنَ لَهُمْ أنّ ما كانوا يَسْمَعونه من أقوال على الله، ومنها أقوالُ اليهود والنصارى، وأقوالُ الوثنِيِّينَ هي أقوال كاذبة باطلة، فمن اعتقدها وآمَنَ بها كَفَرَ برَبّه.

دلَّ على هذه القضيَّة قولُهم كما حكَىٰ النّص: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

فَدَلَّتْ هٰذِهِ العبارةُ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ استماع القرآن والإيمان به

مَخْدُوعين بأقوالٍ كُفْرِيَّةٍ كاذبة كانوا يسمَعُونها من الإنْسِ ومن الجنّ، أمّا الآن فقد كَفَرُوا بها، وآمَنُوا بما جاء في القرآن.

القضية الثامنة: بيانُهم في دعوتهم إلى الإسلام بين أقوامهم، أنّ رجالاً من الإنس الّذين هم أحْسَنُ تقويماً من الجنّ، وأكثر علماً وتحْليلاً واستنباطاً، كانوا يلْجَؤون إلى رجال من الجنّ يستعيذون بهم ليعينوهم ويُعيذوهم ممّا يخافون، وذلك من فساد مفاهيمهم وتصوُّراتهم عن عالَمِ الجنّ، وكان الرجال من الجنّ يزيدون المستعيذين بهم من الإنس سَفَهاً وحماقة وجهلاً وإثماً وعَنَاءً بتكاليف ثقيلة، ويزيدونهم من ركوب الشرّ، وغشيان المآثم والمعاصي والشِّرْكيّات.

دلّ على هذه القضيّة قولُهُمْ كما حكىٰ النصّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

يَعُوذُون: أي: يلتجئون ويعتصمون ويلازمون الالتصاق بهم.

زَادُوهُمْ رَهَقاً: الرَّهَقُ في اللّغة السَّفَهُ، والحماقة، والجهلُ، والإثم، ورُكُوبُ الشَّرّ والظلم، وغشيانُ المحارم وكبائر الآثام، ويَدْخُلُ في هذا ممارسة الشركيّات وسائر الكفريّات.

ويأتي الرَّهَقُ اسماً من الإرهاق، وهو تحميلُ المأمورِ بالطاعة ما لا يُطيق.

القضيّـة التاسعة: بيانُهم في دعوتهم إلى الإسلام بين أقوامهم من الجنّ أنَّ الإنْسَ الذين يقولون على الله كذباً، قَدْ ظنّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَنْ لن يبعثَ اللَّهُ يوم القيامة أحداً، فلا حسابَ يومَ الدّين، ولا فَصْلَ قضاءٍ ولا جزاء.

ومعلومٌ أنّ من شأن هذا الظّنّ الباطل الّذي لا دليل يدعَمُه، ولا شُبْهَةَ تُرَجّحه، أَنْ يجعل صاحبه عاصياً لله مجرماً، منطلقاً في ارتكاب الآثام فاجراً،

وأن يُزَيِّن له الشركيّات التي قد يستفيد منها في الحياة بعضَ خدَمَاتٍ تُقَدِّمُهَا لها الشياطين.

فالإيمان بالبعث يوْمَ الدّين للحساب والجزاء هو الرادع الأكبر للمخلوق المدرك الموضوع موضع الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا.

ونُلاحظ هنا أنّ دُعاة الجنّ إلى الإسلام بين أقوامهم قد اهتموا ببيان ركن الإيمان بالبعث إلى يوم الدِّين للحساب والجزاء، لإيمانهم بأن الجنّ مبعوثون ومُحَاسَبُون ومجازون كحال الإنس، ولإدراكهم أنّ الإيمان بهذا الركن من أركان الإيمان هو الرادعُ الأكبر عن الكفر والفسوق والعصيان، والفجور والظلم والطغيان.

دلّ على هذه القضيّة قولُهُمْ عن الإنس كما حكى النّصّ: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾.

الظّنّ هنا مستَعْمَلٌ في الظّنّ الضعيف الّذي لا يقوىٰ على إثبات قضيَّة، وهو الظّنّ التوهُّمي.

القضية العاشرة: بَيَانُهُمْ بين أقوامهم من الجنّ، أنَّهم لَمَسُوا السَّماءَ فوجدوها مُلِئَتْ حَرَساً شدِيداً وشُهباً.

إنّ هؤلاءِ النَّفَر من الجنّ كانوا من صنف الجنّ الطيّارين الذين يستطيعون الصعود في اتّجاه السماء، وأنّهم كانوا يَصْعَدون لاسْتراق السَّمْعِ من الملائكة، ونقل بعض الأخبار إلى قُرنائهم من الإنس.

وبعد بعثة الرسول محمد ﷺ ملأ الله السماء حرساً شديداً وَشُهُباً تلاحق مُسْتَرِقي السّمع وتُحْرِقُهم.

وقد لاحظ هؤلاء النفر هذه الظاهرة الجديدة وبَحَثُوا عن سَبَبِها، حتَّىٰ توصَّلُوا إلَىٰ أنَّ سَبَبَها بَعْثَةُ الرسول الخاتم.

دلَّ على هذه القضيّة قولُهُم كما حكى النّص: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾.

لَمَسْنَا السماء: أي: وصَلْنا إلى سَطْح حدودِها، فلَمَّا ابتغَيْنَا الدخول والجلوسَ في مقاعِدَ منها لاستراق السَّمْع وجدناها محروسةَ المنافذ كلّها دون استثناء.

وشُهُباً: الشُّهُب جمع شهاب وهو شعلة ناريّة تنطلقُ في الجوّ بسرعَةٍ عظيمةٍ، ومن وظائف هذه الشهب إحراق الجنّ الذين يسترقون السمع.

القضية الحادية عشرة: بَيَانُهم بين أقوامهم من الجنّ عن أنفسهم أنّهم كانوا من قبلُ يصْعَدون طيَّارين في اتّجاه السماء، فيسترقون السّمع من الملائكة، ممّا يتعلّق بالأحداث الّتي تحدُثُ في الأرض بأمر الله، فيلتقطون منهم ما يستطيعون التقاطه، ويَفِرُّون به من مواطن يحاولون الاستفادة من ثُغراتها حتّى لا تصيبَهُمْ الرُّجُمُ من الشُّهب.

وهذه الأخبار الّتي يسترقونها قد يلْقُونها إلى أوليائهم من الإنس، مع أكاذيب كثيرة من عند أنفسهم يضيفونها إليها، أمّا الآن فقد مُنِعُوا من استراق السمع بالحرس والشهب.

دلّ على هذه القضية قولهم كما حكىٰ النصّ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾.

الآن: أي: بدءاً من زمن بعثَةِ الرَّسُول محمد ﷺ فما يأتي من أزمانٍ لاحقات.

شِهَاباً رَصَداً: أي: شهاباً راصداً مَنْ يَسْتَمِـع من جهته، وُصِف الشهاب بالمصدر، وهو كلمة «رَصَد» لإرادة المبالغة بالرَّصْدِ الشديد. يُقال لغة: رَصَدَ يَرْصُدُ رَصْداً ورَصَداً، إذا أقام مترقّباً.

القضية الثانية عشرة: بيانُهم أنَّهم تَحَيَّرُوا في تفسير هذا الحدث الجديد في السماء، أهو لِشَرٍّ أُرِيدَ بمن في الأرض حتَّىٰ يُبَاغَتُوا به وهم غافلون، كإهلاكٍ شامل، أم أراد بهم ربّهم أمراً رشداً يمنع عنهم به كهانةَ الكُهَّان، وما تُوحي إليهم به الشياطين من بعض أخبار السماء.

لقد أخبروا أنّهم قد تحيَّرُوا هذا التحيُّر قبل أن يطوفوا الأرض باحثين عن السبب، وقبل أن يستمعوا القرآن العجب من تلاوة الرسول محمد ﷺ.

لكنّهم بعد أن استمعوا القرآن عرفوا السَّبب، وذهب عنهم التّحيّر، وعَلِموا أنّ الله عزّ وجلّ قد أراد بأهل الأرض أمراً رشَداً.

دلَّ على هذه القضيّة قولهم كما حكىٰ النّصّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾.

أي: لكن دَرَينا بعد أَنِ استمعنا القرآن فآمَنَّا بِه، وعاهَدْنا على أن لا نُشرك بربّنا أحداً.

القضيّة الثالثة عشرة: بَيَانُهم عن حال عُمُوم الجنّ في واقعهم السابق والحاليّ عند دعوتهم إلى الإسلام ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأوّل: الصالحون، وهم على مراتب ودَرَجات، وفق المفهوم الذي أُطْلِق عليه لفظ «الصالحين» في القرآن.

القسم الثاني: الّذين هم دون الصالحين، ويدخُل فيهم الفاسدون بالمعاصي والمخالفات الكثيرات، من غير التوّابين إلى ربهم. ويدخل فيهم الكافرون والمنافقون على دَرَكاتهم المتنازلات، واختلافِ مذاهبهم.

دلّ على هذه القضية قولُهم كما حكىٰ النّصّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾.

أي: كنّا على مَذَاهِبَ وعقائدَ وَأَدْيَانٍ مختلفة متقطّعة، لا جامعة تجمع بينها.

طَرائق: جمع طريقة، وهي تُطْلَقُ في اللّغة على السّيرة والمذهب، والحال، والْفِرْقَة.

قِدَداً: أي: قِطعاً متفرّقة، وفرقاً مُتَبَايَنَةَ الأَهْوَاءِ والمذاهب، واحدها **قِدَّةٌ**، **القِدَّة**: القطعَةُ من الشيء، والفِرْقَةَ المتميّزة بهوىً أو مذهب من الناس ونحوهم.

القضيّة الرابعة عشرة: بيانهم عن حالهم قبل استماع القرآن، وقبل معرفة سبب امتلاء السماء بالحرس الشديد والشهب، أنّهم حين طرحوا احتمال أن يكون قد أراد الله بأهل الأرض إهلاكاً شاملاً، لإنْسِهم وجنّهم، قالوا في أنفسهم، هل نستطيع أن نَفِرَّ في اتجاه السماء أو أن نغوصَ في الأرض لنحمي أنفسنا من نوازل الهلاك؟ لكنْ قُلْنَا في أنفسنا على سبيل الظنّ إذا أراد الله إهلاكنا فَلَنْ نُعْجزه في الأرض، ولن نعجزه فراراً في اتّجاه السماء، وكان هذا ظنّاً منّا لأننّا لم نكن قد آمنا بَعْدُ، وهذا ما دفعنا إلى البحث في أرجاء الأرض عن سبب منْعِنا من استراق السمع.

دلّ على هذه القضيّةِ قولُهم كمَا حَكَىٰ النّصُّ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

القضية الخامسة عشرة: بَيَانُهم في دعوتهم لأقوامهم وجماعاتهم من الجنّ أنّهم لَمَّا سَمِعُوا القرآن الْعَجَب، بَعْدَ كُلّ ما سَبَقَ لهم من دراسةِ الظاهرة الجديدة في السّماء، والتأمُّلِ الفكريّ العميق، والبحث تطوافاً في الأرض لبحث سَبَبِها، وأدركوا الحقيقة الرَّبَّانية، آمَنُوا بالْهُدَىٰ الَّذي اشتمل عليه.

دلّ على هذه القضيّة قولُهم كما حَكَىٰ النّصُّ: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ... ﴿١٣﴾﴾.

وهُنَا أدرَكُوا أنّه آنَ لَهُمْ أن يَتَلطَّفُوا بالبدء بدعوة أقْوامهم وجماعاتهم

إلى الإيمان بالرَّب وحْدَهُ لاَ شريكَ له، فعرضوا دَعوتهم كما جاء في القضية التالية:

القضيّة السادسة عشرة: بيانُهُمْ في دعوتهم أنّ مَنْ يؤمِنُ بربّه إيماناً صحيحاً على ما أُنزل في القرآن على رسوله محمّدٍ فإنّه يكون آمناً، لا يخَافُ نقصاً من ثوابه عنده، ولا ظُلْماً، ولا يَخَافُ أن يُحَمِّلَهُ الله ما لا يُطِيق.

دلّ على هذه القضية قولهم كما حكى النّصّ: ﴿... فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ١٣﴾.

البخسُ في اللّغة: النقصانُ والظلم، يقال: بخَسَ فُلاَنٌ فلاناً، إذَا ظلمه بنقصانٍ من حقٍّ هو له.

فلا يخافُ بَخْساً: أي: فإنّ الله يُوَفّيه أجْرَه على إيمانه، دون نقصانٍ، فهو لا يخاف نقصاناً، لأنَّ اللّهَ كريمٌ لا يُخْلِف الميعاد.

والرهَقُ: يأتي لمعانٍ مختلفة سبق بيانها، وأنْسَبُها هنا، تحميل المكلّف ما لا يُطِيق، قال الأزهري في هذه الآية: الرَّهَقُ اسْمٌ من الإرهاق، وهو أَنْ يُحَمَّلَ عليه ما لا يطيق.

أي: إنّ الإيمان بالله الرَّبِّ جلّ جلاله على ما أنزل في كتابه يستلزم أن يتحمّل المؤمن تكاليف، لكنَّ هذه التكاليف في الإسلام تقع ضمن حدود الطاقة والاستطاعة، إذْ لا يُكَلِّفُ اللّهُ نفساً إلاّ وُسْعَها، فَمَنْ يُؤْمِنْ بربّه فهو لا يَخَاف رَهَقاً من تكاليف لا يطيقُها، كما أنّه لا يخاف بَخْساً: نقصاً ولا ظلماً.

وكان هذا الدّخول إلى الدّعوة إلى الإسلام بعد المقدمات التي جاء بيانُها في خمس عشرة قضيّة، وصفوا فيها البواعث الفكرية والنفسيّة والوجدانية التي جعلتهم يؤمنون بالْهُدَى لمَّا سمعوه، من أروع المقدمات التَّمْهِيديّة الحكيمة لدعوة رَشيدة.

ومنهاج دعوتهم هذا يُقَدِّم نموذجاً حسناً يُقْتدىٰ به في الدعوة إلى الله، وهو يَدْخُل تحت عموم قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

وانطلق هؤلاء النفر من الجنّ دعاةً بين أقوامهم وجماعاتهم إلى الإسلام وفق المنهج الدَّعَوِيّ الذي جاء بيان عناوينه في القضايا السابقة.

فدخل في الإسلام من الجنّ بدعوتهم من استجاب لهم، وبقي آخرون جائرين عن صراط الْهُدَىٰ.

عندئذٍ أضافُوا إلى قضاياهم السابقة في بياناتهم الدعوية قضيّةً جديدة، وهي القضية التالية:

القضيّة السابعة عشرة: بيانُهم أنَّه قد صار فريقٌ من الجنّ مُسْلِمين، وبقي آخرون جائرين، أمّا المسلمون فقَصَدُوا الأَمْرَ الرَّشَدَ وتوجَّهُوا له، واجتهدوا في طلبِهِ، ليظفروا بالنجاة من عذاب الله، وبالسعادة في جنّات النعيم، وأمّا الجائرونَ فاتَّبَعُوا الْغَيَّ، استجابةً لأهوائهم وشهواتهم، ولم يُسْلِمُوا فهم سَيُعذبُونَ في نار جهنّم يوم الدّين، ويكونون بمثابَةِ حَطَبٍ من حطبها.

دلَّ على هذه القضيَّةِ الأَخيرة من بياناتهم الدّعوية قولُهُمْ كما حكىٰ النّصّ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

القاسِطُ في اللّغة: الجائر الّذي يَعْدِلُ عن الْحَقِّ وعن الصراط المستقيم(١).

---

(١) القاسط في اللغة ضدّ المقسط، فالمقسط العادل، والقاسط الجائر.

تَحَرَّوْا: أي: قَصَدُوا وتَوَخَّوْا، واجْتَهَدُوا في الطلب مع التدقيق والعناية.

الرَّشَدُ والرُّشْدُ والرَّشَادُ: الاهتداءُ إلى الْحَقِّ والصواب والأفضل.

والمعنى: فمن أَسْلَمَ واتَّبَعَ صِرَاط الله المستقيم، فأولَئك أصْحابُ منازل رفيعة فضلاء، قصدوا مجتهدين مدقّقين بعناية أن يهتدوا إلى الحقّ والصواب، وإلى أفضل ما يُخْتارُ من سلوك، فلهم السعادة في جناتِ النعيم.

وأمّا القاسطون الجائرون عن صراط الله المستقيم، إيماناً وعَملاً، فأولَئكَ المنحطون في الدركات السافلات، إذِ اتَّبَعُوا مَسَالِكَ الْغَيّ استجابةً لأهوائهم وشهواتهم، فكانُوا بما اختاروه لأنفسهم لجهنّم يوم الدّين كالحطَب الذي يُعَدُّ لتوقَدَ به النَّارُ، أو ليزيدَ به وَقودُها، إذْ هم سَيُطْرحُونَ ويُكَبُّونَ في جَهَنَّم كَمَا يُطْرَحُ وَيُكَبُّ الْحَطَبُ في النار[1].

وهكذا كان منهج هؤلاء النفر الدّعاة إلى سبيل ربّهم من الجنّ، إنّه منهجٌ يُحْتَذَىٰ، بوصفه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله.

* * *

(١) في النصّ هنا حذف من الأوائل لدلالة الأواخر، وحذف من الأواخر لدلالة الأوائل، وهذا ما يُسَمّى عند البلاغيين الاحتباك. إذْ حُذِف من جملة: ﴿فَمَن أسلم. .﴾ ثوابُهم في الجنة، وحُذِف من جملة: ﴿وَأَمّا القاسطون. .﴾ بيانُ أنّهم اختاروا مسالك الْغَيّ، وفيه محاذيف أخرى أشرت إليها لدى تحليل معنى النصّ، إذ يَدُلُّ عليها التقابل.

النمـوذج الرابـع

دعوة النفر من الجنّ الذين عرضت قصَّتَهُمْ سورة (الأحقاف)

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/٤٦ مصحف/٦٦ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

- ١ -

نظرةٌ إجماليّة عامّة

● النفر من الجنّ الّذينَ عرضت قصتهم سورة (الجنّ) قد كانت حادثتهم في أواسط المرحلة المكيّة، لأنَّ هذهِ السورة قد نزلت في هذه الأواسط، إذ ترتيب نزولها أربعون.

● أمّا النفر من الجنّ الذين عرضت قصتَهُمْ سورة (الأحقاف) فقد كانت حادثتهم في الثلث الأخير من المرحلة المكيّة، إذ ترتيب نزولها ستة وستون.

● فهما إذن وفدان مختلفان، وبعضُ مُتَتَبِّعي الروايات الواردات بشأن وفادات الجنّ إلى الرسول ﷺ، أوصلها إلى ستّ وفادات، منها هاتان الوفادتان، ومنها الوفد الّذين خرج الرسول ﷺ إليهم، بناءً على موعد سابق، ولقاؤه إيَّاهم في مكّة عند الْحَجُون، وفيه الآن مسجدٌ يسمَّىٰ مَسْجد الجنّ، وقَد استصحبَ الرسولُ ﷺ معه حين أراد الخروج إليهم عبد الله بن مسعود، وأجلسه في مكانٍ، وخطَّ عليه خطًّا في الأرضِ، وقال له: «لاَ تُجاوِزْهُ» ثُمَّ مضَىٰ للقاء الجنّ، وابْنُ مسعودٍ يَنْظُر، ويظهر أَنَّ هذا اللّقاء كان بعد اللّقاءَيْنِ السابقين.

● ووفد الجنّ الّذين عرضت سورة (الأحقاف) قصّة وفادتهم، لَمْ يأتِ في النّصّ ما يَدُلُّ على أَنَّ الرسول لم يعلم بحضورهم، ولا ما يدلُّ على علمه به، بخلاف الوفد الذين عرضت سورة (الجنّ) قصّة وفادتهم، فقد دلَّ على أَنّ الرسول لم يكن يعلم بحضورهم، حتّىٰ أوحىٰ الله إليه بذلك، لكن جاء في بعض الروايات أنَّ الرسول ﷺ عَلِم بمقدمهم، وجاء في بعضها أنّ الرسول جعلهم رسُلاً إلى قومهم، والله أعلم.

● والنصّ الذي جاء في سورة (الأحقاف) يُشْعِرُ بأنّ وفد الجنّ الذين عرضت السورة قصتهم هم من المؤمنين بموسَىٰ عليه السلام، والكتاب الذي أنزل عليه، وليس فيه إشارة إلى أنّهم يؤمنون بعيسى عليه السلام.

أمّا النّصُّ الذي جاء في سورة (الجنّ) ففيه ما يُشْعِرُ بأنّ مذهبهم كان قبل إيمانهم بالقرآن كان على مذهب مثلّثي النصارىٰ، في أنَّ لله صاحبةً وولداً، هم شركاء لله في ربوبيّته وإلَهيّته.

● ويلاحظ أنّ البيان في سورة (الأحقاف) اقتصر على أن وفد الجنّ استمعوا القرآن من الرسول منصتين، فآمنوا، فلمّا قضى الرسول ﷺ تلاوته وَلَّوْا إلى قومهم منذرين، وأنّ دعوتهم بين قومهم اقتصرت على كبريات

القضايا دون مقدّمات كثيرة، ولا تمهيداتٍ طويلة، ويظهر أنّ مقتضىٰ حال قومهم كان لا يحتاج أكثر من هذا، فذكرها القرآن باعتبارها نموذجاً مقبولاً إذا كان ملائماً لمقتضىٰ حال المدعوّين.

- ٢ -

المنهج الدّعويّ الّذي اتّخذه النفر من الجنّ الذين أخبر الله عنهم في سورة (الأحقاف)

يتلخّص منهج هذا النفر في دعوتهم إلى الإسلام بين قومهم من الجنّ على العناصر التالية:

العنصر الأول: بيانُ أنّ الله عزّ وجلّ أنزل كتاباً من بعد كتاب التوراة الذي أنزله على موسى، وأنَّهم استمعوا إليه مُعجبين به.

العنصر الثاني: أنّ هذا الكتاب مصدّقٌ لما سبقه من كتب ربّانية أنزلت على الرسُل السابقين.

العنصر الثالث: أنّ هذا الكتاب يهدي إلى أمرين عظيمين:

١ ـ أنّه يهدي إلى الحقّ، والهداية إلى الحقّ تكون في العلميّات الّتي يُطلبُ الإيمانُ بها.

٢ ـ أنه يهدي إلى صراط مستقيم، والهداية إلى الصّراط المستقيم تكون بالنسبة إلى أنواع السلوك في الحياة، ذات المسالك المتشعبة، أمّا الصراط المستقيم فهو واحد منها، فمن تنكّبَهُ ضلّ أو جانب الرُّشْد في حياته.

العنصر الرابع: تلطفهم مع قومهم بنداء الاستعطاف، إذْ دعَوْهُمْ إلى إجابة داعي الله والإيمان به، وداعي الله هو رسولُهُ الخاتم، وكتابه المنزّل عليه.

العنصر الخامس: ترغيبهم قومهم بأنّهم إذا استجابوا وآمَنُوا وسلكوا الصراط المستقيم غفر الله لهم ذنوبَهُمْ وَأجارهم من عذاب أليم، وإذا غفر الله ذنوبهم جعلهم من السعداء في جنّاتِ النعيم.

العنصر السادس: ترهيبهم من لم يجب داعي الله بأن يترقَّبَ عذابَ الله الذي سينزل به حتماً، إذْ لا يستطيع أن يَعْصِم نفسه، ولا أن يفرّ من عذابه، مهما اتّخذ من وسائل، ومهما كانت قدراته وحِيَلَه عظيمة، ولن يجد من ينصره فيحميه من عذاب الله، إذْ لاَ يُوجَدُ من دون الله أولياء يحمون من عذاب الله من شاء الله أن يُعَذّبه.

العنصر السابع: بيان أنّ من لا يجيب داعي الله فَسَيَظَلُّ منغمساً في ضلالٍ مُبِينٍ واضح لكل ذي فكرٍ سليم.

ويلاحظ في هذا المنهج الدعوي أنَّه يشتمل على بيان الحقّ بالحكمة، إذْ هو قائم على الإقناع بأنّ القرآن مُصَدِّقٌ لما جاء قبله من كتب رَبَّانيّة، فالمؤمن بكتاب رَبَّانيّ سابق لا يَجِد في القرآن ما يُعارضُ أُسُسَ إيمانه.

وقائم على الإقناع بأنّ القرآن يهدي إلى الحقّ، ومعلومٌ أنَّ الحقّ لا بُدَّ أن تُؤَيّده البراهين والحجج الصحيحة.

وقائم على الإقناع بأنّ القرآن يهدي إلى طريق مستقيم في مختلف أنواع السلوك الّتي يدعو إليها، من العبادات والمعاملات والأخلاق والفضائل، والطريق المستقيم الواضح فيه أَدِلّةُ استقامته لمن أراد أنْ يبحث عنها ويكْتَشِفَها.

ويلاحظ أيضاً أنَّ هذا المنهج الدَّعوي يشتمل على الموعظة الحسنة، إذْ هو قائم على الترغيب والترهيب، وهما المحوران اللّذان تدور عليهما حركات النفوس الإرادية الموجهة للأعمال الباطنة والظاهرة.

إذن: فمنهج هذا النفر في دعوتهم إلى سبيل ربّهم منهج صالح لأن يُحْتَذَىٰ بِهِ في دعوة بَعْضِ أهل الكفر، إذْ هو يدخُلُ تحت عموم قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾.

- ٣ -

التدبّـر التحليلي للنّـص

● **قول الله عزّ وجلّ لرسوله:**

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ... ﴿٢٩﴾ ﴾.

وإذْ صَرفنا: أي: وَرَدِّدْ هَـٰذا الْحَدَثَ في ذَاكِرَتِكَ عِنْد المناسبات الداعيات، واذْكُرْهُ بلسانك في بياناتك الّتي تَدْعُو بها إلى سبيل ربّك، لإعلام الإنْس بحال بعض الذين آمنوا بالله ورسوله من الجنّ، ووَلَّوْا بعْدَ ذلك إلى قومهم داعين إلى دين الله مبشرين ومنذرين.

ومعنى: ﴿ صَرَفْنَآ ﴾ بنون المتكلم العظيم: حَوَّلْنَاهم عن اتجاهاتهم الّتي كانوا عليها، ووجَّهْنَاهم إليك ليستمعوا منك القرآن.

واستعمال حرف: «إلىٰ» يُشْعِر بأنّهم حضروا من مكان بعيد، إذْ لو كان مكاناً قريباً لكان المناسب استعمال اللاّم الجارّة.

نفراً: النفر هم الرجال من ثلاثة إلى عشرة، وفي كونهم نفراً دليلٌ على أنّهم لا يقلّون عن ثلاثة، ولا يزيدون على عشرة.

جاء في بعض الرّوايات أنّ هؤلاء النفر كانوا تسعة، وجاء في روايات أخرى أنّهم كانوا سبعة، وأنّهم كانوا من أشراف جِنِّ «نَصِيبين» كما رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وجاء في رواية أنّ رسول الله ﷺ جعلَهُمْ رُسُلاً إلى قومهم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فَلَمَّا حَضَرُوهُ: أي: فلمَّا حَضَروا القُرآنَ الَّذِي كُنْتَ تَتْلُوهُ والحضور هو الشهود بإحدى الحواس.

قالُوا انْصِتُوا: أي: صار بعضهم يقول لبعضٍ: اسكتوا حتَّى نُحْسِن الاستماع.

يقال لغة: أَنْصَتَ فُلانٌ فلاناً إذا طلب منه أن يَسْكُتَ، لِيَصْفُوَ الاستماع من اللَّغَط والمشوّشات.

فلَمَّا قُضِي: أي: فَلَمَّا أُنْهِيَ القرآن الذي كان يتلوه الرسول ﷺ في ذلك الوقت، والمرادُ ما قرأ الرسُول حينئذٍ من القرآن.

وَلَّوْا إِلَىٰ قَومِهِمْ مُنْذِرين: أي: أداروا ظهورهم وانطلَقُوا إلى الجهة أو الجهاتِ التي قدموا منها، حتى وصَلُوا إلى قومهم، فأخذوا مُباشرةً يدعون بين قومهم من الجنِّ إلى الإسلام، واتّباع الرسول محمّد ﷺ مُبَشِّرِينَ ومنذرين.

وجاء في النّصّ الاكتفاء بعبارة ﴿مُنذِرِينَ﴾ لأنَّ مَنْ قَبِل الإسلام فقد أخذ بشارته وانتهىٰ، وبقى إنْذارُ مَنْ أَبىٰ ولم يستجبْ للدّعوة.

أمّا دعوة هؤلاء النفر بين قومهم من الجنّ، فقد اشتملت على ثلاث مقالات:

المقالة الأولى: جاء التعبير عنها بقول الله عزّ وجلّ:

﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

الكتاب الذي استمعوا آياتٍ منه هو القرآن، بدليل ما جاء في الآية الأولى من النصّ.

أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ: هذه العبارة تَدُلُّ على أَنَّهم هم وقومهم من يهود الجنّ.

مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيه: عبارة تدلُّ على أنّهم عرفوا ممّا سمعوا من آيات القرآن أنّه يُصَدِّق بكلّ الكُتُب الرَّبَّانيّة الّتي أُنْزِلَتْ مِنْ قَبْله، ومنها ما أُنْزِلَ على موسَىٰ عليه السلام.

يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ: أي: يشتمل على بياناتٍ تُعرِّفُ بالحقّ في العقائد، والأخبار الصحيحة الثابتة، والعلوم المطابقة للواقع.

وإلى صراط مُسْتَقِيم: أي: ويشتمل على التعليمات الرّبّانية الّتي ترسُم الطريق المستقيم الذي يضمن الوصول إلى الغايات السّعيدة. في السلوك الظاهر، وفي السلوك الباطن، دون انحراف ولا اعوجاجٍ ولا متاهاتٍ ولاَ ضَيَاع.

المقالة الثانية: جاء التعبير عنها بقول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

أَجِيبُوا دَاعِيَ الله: أي: اقْبَلُوا دَعْوَةَ دَاعِي الله، فآمِنُوا بما يدعوكم إلى الإيمان به، واتَّبِعُوا تَعاليمه.

داعي الله وصفٌ ينطبق على القرآن، وعلى الرسول محمّد ﷺ، وإجابة أحدهما تَسْتَلْزِمُ حتماً إجابة الآخر.

وآمِنوا به: تأكيدٌ لمَا دَلّت عليه عبارة: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ وتصريح بالمطلوب الأعظم في الإجابة.

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ: أي: يَغْفِرْ لَكُمْ بَعْضَ ذُنُوبكم، وهي حقوقُ اللّهِ علكيم، ويبقَىٰ عليكم حقوقُ العباد، فَهذِهِ إمّا أَنْ تُؤَدُّوها، أو تؤدّوا تعويضاً عنها، أَوْ يُسَامِحكُمْ بِها أصْحَابُها.

ويُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أليم: أي: ويَحْمِكُمْ بالإجابة والإيمان من عذاب أليم في نار جهنّم، أمّا المعاصي من دون الكفر فقد سكتوا عنها، لأنّ أمرها إلى الله، إنْ شاء غفرها، وإن شاء عاقب عليها على مقاديرها.

المقالة الثالثة: جاء التعبير عَنْهَا بقول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ الله: أي: ومَنْ كَذَّبَ الرَّسُولَ وكذّبَ بالقرآن الذي جاء به كافراً بهما، غَيْرَ مُسْتَجيب لدعوتهما. هذا شرط وجوابه ما جاء بَعْدَ فاء الجواب.

فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرض: أي: فَلَيْس بِمُعْجِزٍ رَبَّهُ في الأرضِ مَهْما كانت لهُ فيها قوةٌ وجنودٌ كإبليس، إذَا أَرَادَ الله إنْزَالَ نقمته فيه.

وإذا كان غير معجزٍ في الأرض حيْثُ مراكز قوته وجنوده، فلَنْ يكُونَ معجزاً في السماء، ولَيْسَ له فيها قوةٌ ولا جنود.

ولَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِه أَوْلَيَاءُ: أي: وليس له من دون الله أولياء يستطيعون حمايته من عذاب الله، أو يستطيعون نصره إذا استنصر بهم. **الأولياء**: همُ النُّصراء والأعوان المؤيِّدُون المتابعون.

أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ: أي: أولَئِكَ البعداء عن رحمة الله الذين لا يجيبون داعيَ الله مُنْغَمِسُونَ فِي ضَلالٍ واضحٍ ظاهر يُدْرِكه كلُّ ذي فكرٍ سليم، وفهم مستقيم.

هذه خلاصة المقالات الدَّعَويَّة التي شرحها وفصّلها هؤلاء النَّفَرُ الدُّعاة إلى الإسلام من مؤمِني الجنّ، الذين تحدَّثت عنهم سورة الأحقاف.

* * *

النمـوذج الخـامس

صورة من دعوة الوالدين المؤمنين لولدهما الكافر

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

- ١ -

فكـرة هذا النـص

يكشف هذا النّصّ صورةً من صُور الدّعوة إلى الله الّتي يقوم بها والدان عاقلان مؤمنان رحيمان مُشْفقان، لولدهما الكافر المعاند العاقّ المنكر للبعث والجزاء.

ويكشف الأسلوب التّلقائي الذي يتّخذانه في دعوتهما وَلَدَهما إلى الإيمان والعمل الصالح، بغية نجاته من عذاب الله، وظفره بجنّات النعيم.

ونفهم من هذا النموذج أنّ دعوة الأصول إلى الفروع ينبغي أن تكون مغموسة بفيض من العاطفة الجيّاشة، والرحمة المشفقة، والحنان الجمّ، وإن أساء الفرع وكان منه عقوق.

- ٢ -

شرح بعض الألفاظ

أُفٍّ لَكُمَا: كلمة «أُفّ» اسم فعل مضارع بمعنى أتضجّر، وهو مبنيٌّ.

وقَدْ خَلت الْقُرونُ مِنْ قَبْلِي: **خَلَت**: أي: سلفت ومضت.

القُرون: جمع «قَرْنٍ» وهم أهل زمانٍ واحد، ويُطْلَق أساساً على مئة سنة.

يستغيثان الله: أي: يطلبان من الله العون والنصرة لإصلاح ولدهما حتَّى يكون من أهل الإيمان والعمل الصالح، أو لإعانتهما على التأثير عليه حتّىٰ يؤمنِ، وهذا تصرُّفٌ تلقائي يكون عادةً من الوالدين الّذين تتدفَّقُ بهما الرحمة القويّة لنجاة ولدهما.

وَيْلَكَ: أي: عذاباً لَكَ، بمعنىٰ أنَّ كُفْرَكَ وجحودكَ وإنكاركَ للبعث والجزاء ستجلُبُ لك عذاب الله الخالد.

آمِنْ: أي: آمِنْ بما يطْلُبُ الله منك أن تؤمن به، ومنه البعث للحياة الأخرى، وما فيها من دار عذاب ودار نعيم.

إنّ وَعْدَ الله حقّ: أي: إن الله قَدْ وَعَدَ أنْ يبعث الناس إلى الحياة الأخرى، وَوَعَدَ أن يُحاسبهم ويفصِلُ القضاء بينهم، ثمّ يجازيهم بحسب أعمالهم، فالكافرون هم أصحاب النار الخالدون في عذابها، والمؤمنون المتقون هم أصحاب الجنّة الخالدون في نعيمها، ووعد الله حقٌّ.

أساطير الأوّلين: أي: مكتوباتُ الأوّلين الخرافية التي لا صحة لها، وما هي إلاّ من صُنْع أوهامهم.

- ٣ -

التدبّر التحليلي

يبيّن هذا النصّ نموذجاً يتكرّر في الناس، وهو يشتمل على بيان دعوة والِدَيْن مؤمنين عاقلين رحيمين مشفقين لولدهما الكافر الفاجر العاقّ، المنكر للبعث، الخارج عمّا عليه أبواه من إيمان وعَمَلٍ صالح.

فالوالدان يقولان لولدهما: يا بُنَيَّ إنّ هذه الحياة الدُّنيا حياة امتحان، وهي تنتهي بالموت كما تَعْلَمُ، لكِنَّ الله عزّ وجلّ لا بدّ أن تتِمَّ حِكْمتُه ببعث الأمواتِ إلى الحياة الأخرى كما خلقهم في الحياة الأولى، ليحاسبَهُمْ على ما قدَّموا في الحياة الدنيا من إيمانٍ وعَمَلٍ، وقد وَعَد بهذا البعث وعداً جازماً قاطعاً فيما أنزل على رُسُلِه من كُتُب، وفي خاتمتها القرآن.

فمن آمن بما أمر الله بالإيمان به وأَسْلم لله على وفق مطلوبه منه في أعماله الإراديّة نجا من عذابه، واستحقّ الخلود في جنّاتِ النعيم.

ومن كفر بما أمر الله بالإيمان به، ولم يُسْلِمْ لله على وفق مطلوبه منه في أعماله الإراديّة، أدخله الله في نارِ جهنّم يوم الدّين خالداً فيها أبداً.

لكِنَّ الولد العاقَّ الفاجر الكافر الخارج عن دِينِ والديه أظْهَر تضجُّرَهُ من دعوتهما له إلى الإيمان والعمل الصالح، ومن إلحاحهما عليه بذلك من فرط شفقتهما عليه ورحمتهما به، فقال لهما متضجّراً مجادلاً: أُفٍّ لَكُمَا، أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرجَ إلى الحياة مرَّةً أخرىٰ بعد الموت والبِلَىٰ والفناء، والحالُ قَدْ خلَتِ الْقُرونُ من الناس من قبلي، وتحوّلَتْ أجسادُهُمْ إلى تُرابٍ دون أَنْ يرجِعَ أحدٌ منهم إلى الحياة.

إنَّ الولد العاقّ يُطْلِق مقولتَهُ هذه بسفاهة وتفكير قاصرٍ محدودٍ بحدودِ ما تَشْهَدُ الحواسُ الظاهرة في مسافةٍ مكانيّة محدودة، وفي زمن قصير

محدود، مُلْغِياً الدَّلاَلاتِ الفكرية العقليّة الاستنتاجيَّة، التي تتجاوز حدود المدركات الحسيّة، ومتشبّثاً بالحسِّيّات الّتي ليست من الوجود الكبير الواسع إلاّ بمثابة قطرات معدودات من بحور ماء لا سواحل لها.

ويُغْمِض عينيه عن عوالم الغيب الّتي قد تُدْرِكُ حواسُّه منها بعضَ آثارٍ ظاهرةٍ محدودة، وتختفي عنها أبعادٌ شاسعةٌ تكادُ تكونُ غير متناهية.

وتتفجّر شفقة الوالدين على ولدهما، خشية عليه أن يكون من المعذبين في نار جهنم الخالدين فيها، على الرّغم من عقوقه وإساءته الأدب معهما بالتأفف من إلحاحهما عليه، معبّراً عن تضجّره من دعوتهما الملحّة له، فيستغيثان بالله أن يَقْضِيَ له بالهداية، لكنَّ الله عزّ وجلّ لا يجبر أحداً على الهداية ولا يحكم لضالّ بالهداية كما لا يجبر أحداً على الضلالة، ولا يحكُمُ على مُهْتَدٍ بالضلالة، بل أَعْطَىٰ كلَّ إنسانٍ مكلّف إرادةً حُرَّةً ليبلُوَهُ، وكلَّفَهُ أنْ يُؤْمِن وأَنْ يَعْمَل صالحاً باختياره الحرّ، وتركَهُ لنفسه يختار ما يشاء، ليحاسبه يوم الدّين على ما اختار لنفسه من اعتقاد وعَمَل.

وبعد أن يستغيث الوالدان بالله دَاعِيَيْنِ أن يهديَ ولَدَهُمَا استغاثَةً غَيْرَ مُجَابَةٍ، لأنَّ الله عزّ وجلّ سَبَقَ أن قضَىٰ بالتَّخْيير، فلا يَنْقُضُ قضاءَهُ بالجبر، إذْ قضاءُ الله الْمُبْرَمُ لا رجعة فيه ولا استئناف له، بعد ذلك يُوجِّه الوالدان الخطاب لولَدَيْهِما قائلَيْن له:

﴿ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾.

أي: إنَّ وَعْدَ الله بالبعث للحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء حقٌّ لا ريب فيه، غير أنّ تحقيق هذا الوعد إنّما يكون بعد إنهاء ظروف هذه الحياة الدنيا كلّها كما أخبر الله جلَّ جلاله، فلا يكون البعثُ إلى الحياةِ ما دام نظامُ هذه الحياة الفانية قائماً، والبعث يكون في زمن يَعْلَمُه الله وحْدَه، ويكون إلى حياة أخرى ذات نظامٍ بَاقٍ خالدٍ.

ولا بُدَّ أن يكون الوالدان قد قالاَ لولدهما: أيُّهَا الولد لا تخلط بين

الحياتين، ولا تكُنْ في شكٍّ من وعْدِ الله الّذي خلقك وخلق الخلق أجمعين، ووعد الله قد جاء في كتابِهِ على لسانِ رسولِهِ المؤيّد بالمعجزات الباهرات.

وهنا يَرُدّ الولد الفاجر الكافر الجاحد لربّه، والمكذّب لرُسُله: ما هذا الذي تنقلونه عمّا تسمُّونه كتابَ الله إلاّ أساطير الأولين، وهي مكتوباتٌ كتبوها من صُنْع أوهامهم وخيالاتهم، فهي خرافات لا أساس لها من الصحة.

وبالتأمل نُدْرِك أنّ الدافع له الذي دفعه إلى أقواله الجدلية الباطلة المنكرة للبعث رَغبتُه العارمة في أن ينطلق في حياته فاجراً جبّاراً آثماً، دُون أَنْ يَشْعُر بأنّه سيحاسَبُ وسَيُجازىٰ على كُفْرِه وسَيّئَاتِ عمله.

وهُنَا يأتي في النّصّ القرآني بيانُ القضاء الرّبّاني الجازم، الصادِرِ بِشأْنِ كُلّ الكافرين الجاحدين الفاجرين، المجادلين بالباطل في قضيّة البعث للدينونة بالحساب وفصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، مبيّناً أنّهم قد حقّ عليهم القولُ الْمُبْرَمُ السابق بأنّهم سيُعَذَّبُونَ في نار جهنّم، بسبب ما اختاروه أو يختارونه لأنفسهم، مع كافرين قبْلَهُمْ قد خَلَوْا في القرون الأولى من الجنّ والإنْسِ، إذْ مَاتُوا على كُفْرِهم، فكانوا بسبب ذلك خاسرين أنفسهم، بقذفها إلى العذاب والشقاء الأبدي، وهو قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾.

* * *

النمـوذج السـادس
قصة قارون والدُّعاة من بني إسرائيل

وفيها صورتان:

١ ـ صورة دعوة دعاة بني إسرائيل لقارون الذي بغى على قومه.

٢ ـ صورة دعوة علماء بني إسرائيل للجاهلين منهم الذين فتنتهم مظاهر الحياة الدنيا التي آتاها الله لقارون.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ
لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ
ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ
إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ
أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا
يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ
أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ
لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا
كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ
مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ

﴿ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

- ١ -

بيان حول قارون

قارونُ رجُلٌ كان ذا ثراء عظيم من بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، حتى كانت كنوزُه الّتي يملكها ذات مفاتيح كثيرة يَثْقُلُ حَمْلها على عُصْبَةٍ مِنَ الرِّجال ذوي قُوّة، وقد بَغَىٰ على قومه معيناً أعداءهم عليهم، وكان يخرج بين قومه في مَوْكبٍ ذي زينَةٍ كما كان يخرُجُ الأمراءُ وذووا السلطان الفرعوني مُتَبَاهياً مُتَفَاخراً على بني إسرائيل، ونصحه قومه فلم يستجب لنصائحهم.

وقد خرج في زينتِهِ الكبيرة وموكبه المتباهي به إحدَىٰ المرّات، ومَرَّ بين أحياءِ قومِهِ بنِي إسرائيل، فانْدَهَشَ عامَّتُهُم بذلك، وتمنَّوا أَنْ يكون الله قَدْ آتاهُمْ من الْمَال ومظاهِرِ الزينة والعظمة مثل الذي آتاه الله لقارون، فنصحهم أهل العلم من بني إسرائيل، قائلين لهم: وَيْلَكُمْ، أي: هذا التمنّي يجلُبُ لكم عذاباً فَلا تَتَمنَّوه، إنَّ هذا الّذي تَروْنه لقارون من زينة الحياة الدّنيا هو الأَمْرُ الذي أفسد نفسه، وجَعَلَهُ باغياً عليكم، ومعيناً لأعدائكم، وسَيُنْزِل الله به عقاباً شديداً.

ولم يلبث طويلاً حتَّىٰ خسف الله به وبداره وأمواله الأرض فكان من الهالكين بسبب بَغْيه وكِبْرِه وإجرامه[1].

---

(١) جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر «العدد» قصّةُ رجُلٍ اسْمُهُ «قُورح» من بني لاوي، وانضم إليه: «دَاثان وأبيرَام، وأُون» من رأُبين. وأرادوا مقاومَة موسى =

- ٢ -

التدبر التحليلي للمقطع الأول من النّص

قول الله تعالى: ﴿ ۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾.

هذا البيان يدُلُّ على أنّ قارونَ كان مِنْ بني إسرائيل، فبنو إسرائيل هم قوم موسى عليه السّلام من الجهة العرقيّة النسبيَّة، ويحتمل أنّه كان أيضاً ممّن انتَمَىٰ إلى الدِّين الذي دعا إليه موسى عليه السَّلام مع الّذين آمنوا بِهِ واتَّبَعُوهُ

= وهارون، معترضين على تفرّدهما برئاسة شعب بني إسرائيل، واستطاعوا أن يجمعوا معهم مائتين وخمسين رجلاً من رؤساء أسباطهم، وواجهوا موسى وهارون عليهما السلام بهذه المعارضة، وكان هذا في صحراء سيناء بعد خروجهم من مصر، وقد سخط الله على هؤلاء الخارجين البغاة، أمّا قورح ودَاثان وأبيرام وأُون، فانشقّت الأرض الّتي تحتهم وابتلعتهم هم وخيامهم وأموالهم وانضمّت عليهم، وأمّا المئتان والخمسون الذين نصروهم فأخرج الرّبّ ناراً فأكلتهم. ولا نَجِدُ في كتب العهد القديم ذكراً لرجلٍ اسمه «قارون» ورأى الشيخ محمد الطّاهر بن عاشور، في تفسيره «التحرير والتنوير» تطبيق قصة قارون التي جاءت في القرآن على «قُورح» والذين نصروه، ورأىٰ أن لفظ قارون تصرّف عربـيٌّ للفظ قُورح. لكنّي أرى أن قصّة قارون في القرآن مختلفة عن قصة قورح؛ فقارون كان ذا دار، وأنّه كان صاحب كنوز ذات مفاتيح كثيرة، وأنه خرج على قومه في زينته، وهذه أمور لا تليق إلا بساكني المدن المستقرّين فيها، يضاف إلى هذا أنّه تُوجد في الفيُّوم من مصر بركة ماء كبيرة يسميها المصريّون بركة قارون، ويتناقَلُونَ أنّ مَكانَ البركة هو المكان الذي كانت فيه دار قارون، وحصل فيها الخسف الذي ابْتَلَعَهُ وأمواله ومن معه، وذكر لنا بعض المصريين أنّ بعض كنوزه قد اكتشفت في منطقة الفيّوم، فإنّ صحّ هذا فحادثة قارون قد كانت قبل خروج بني إسرائيل من مصر، وبهذا يكون قارون شخصاً آخر غير قورح، وإنْ تشابهت القصتانِ في بغي الرَّجل، وخسف الأرض به.

وبناء على هذا فينبغي تدبّر النّصّ القرآنيّ منفصلاً تماماً عمّا جاء في سفر العدد بشأن قُورح، وأرى أنّ قارون كان من أنصار فرعون وآله، وأنّه لم يتبع موسى وهارون عليهما السلام، وإنْ كان من بني إسرائيل، وأنَّ بغيه على قومه قد كان بكفره وانحيازه إلى السلطة الباغية في مصر.

مِنْ بَني إسرائيل، إلاَّ أنّ قصّتَه تدلُّ على أنَّه كان في باطنه كافراً، فهو على هذا منافق في انتمائه، إنْ كان في واقع حاله قد تظاهر بالإيمان بموسى واتّباعه، والأظهر عندي أنّه كان متابعاً لآل فرعون في ملّتهم.

قول الله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

الْبَغْيُ: تجاوز الحدّ، والكِبْرُ، والظُّلْم، والإفسادُ في الأرض. والمعنى أنَّ قارون قَدِ استكبر على بني إسرائيل الذينَ آمنوا بموسى عليه السلام واتّبعوه، وظَلَمَهُمْ، وشَارَكَ في اضطهادِهِمْ، وأَفْسَدَ في الأرض لقَمْع تَحَرُّكَاتِهِم الدّينيَّة.

أمّا نوع البغي الَّذي كان من قارون فلم يأتِ في قصّتِهِ تفصيل عنه، لكِنْ يَسْتَطِيعُ المتفكّر في حال بني إسرائيل يومئذٍ، وما تعرَّضوا له من اضطهادٍ وظُلْمٍ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ وآلِهِ وجُنُوده أن يُدْرِك أنَّ قارون قد كان مِنَ الّذِينَ أَعْطَوْا فِرْعَوْنَ وآلَه كُلَّ وَلائِهم، وَجَنَّدُوا أَنْفُسَهُمْ في خِدْمَتِهِمْ لتحصيل المنافع والثروات، وهَـٰذا يكشفُ لَنَا أَنَّ قارون اسْتَغَلَّ وَلاَءَهُ الكامل لِلْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِي، ومساعَدَتَهُ للسُّلْطَةِ الحاكمة الظالمة الباغيَةِ عَلَىٰ اضطهاد بني إسرائيل في مصر، ومقاومة دَعْوةِ مُوسَىٰ وهارون عليهما السّلام لتحصيل الثروة العظيمة التي جَمَعَها، واكتنزها في كُنُوزِهِ الكثيرة.

قول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

أي: وآتيناهُ مِنَ الأَمْوالِ الّتي اكْتَنَزها في بيوتٍ مَحْفوظَةٍ محميَّةٍ مُقْفلةٍ بِأَبْوابٍ عظيمةٍ ذَاتِ مفَاتِح، قدْراً كبيراً جَعَلَ مَفَاتِحَ أبوابِ هذه الكنوز ذَاتَ وَزْنٍ ثقيلٍ لكثرتِها، حتَّىٰ لَوْ أَنَّ عُصْبَةً مِنَ النَّاسِ (أي: جماعة منهم) أُولي قُوَّةٍ إِذَا أرادوا حَمْلَها معاً لَثَقُلَ عَلَيْهِمْ حَمْلُهَا، فأَمَالَهُمْ وأَحْنَىٰ ظُهُورَهم.

فإذا كانَ حالُ مفاتيح كُنُوزِهِ كَذَلِك، فكم تكونُ مقادير الأموال الّتي تحتوي عليها كُنُوزُه؟!.

هذه العبارة من الكنايات الجميلة التي لا يبعُد إدْراكُ المراد بها.

يقالُ لغة: ناءَ الْحِمْلُ بحامِلِهِ، إذا ثَقُلَ عليه حتَّىٰ أمالَهُ، أو حتَّى أقْعَدَهُ فعَجَزَ عَنِ الْقِيامِ به.

ويقال لغة: مفاتِح، ومفاتيح.

قول الله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: اذْكُرْ يَا أيُّها الْمُؤْمِنُ المهتم بأمْرِ دينك والدَّعْوةِ إليه، قصّةَ دَعْوةِ دُعَاةِ بني إسرائيل في عَهْدِ موسى بمصر، لقارون الذي هو منهم سلالةً ونسباً، إذْ دَعَوْهُ إلَىٰ الهُدَىٰ والرَّشاد.

ودَلَّ التعبير بعبارة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ عَلَى أنّ الدُّعَاةَ النَّاصِحِينَ لَهُ قَدْ كَانُوا جماعةً من مجموع قومه الإسرائيليين، ففيهم العلماءُ الفقهاء في الدين، وفيهم العامَّة الّذِينَ يَعْرِفونَ من مسائل الدّين المعلومات الأساسيّة، الّتي لا يليق بمؤمن مُسْلم أن يكون جاهلاً بها، ومنها ما دَعَوْهُ إليه في مقالاتهم الّتي لخَّصَها النَّصُّ في فقراته.

ومن المناسب أن نعتبرها داخلَةً تَحْتَ عُنْوانِ الدَّعْوَةِ، لا تحت عنوانِ الأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، لأَنَّ قَارُونَ في واقع حاله كان كافراً أو جَاهلاً بها، أو هو بمنزلة الجاهل لِمَا يُوجَدُ على بصيرته من غِشاوةٍ كثيفةٍ مِنْ حُبِّ الدُّنيا طَمَسَتْ مَعْرِفَتَهُ بالحقِّ وبأمُورِ الآخِرَة.

ودلّ على أنَّ الدُّعاةَ النّاصحين له كانُوا من العلماء والْعَامَّةِ عبارةُ:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ هُنَا، والْقَومُ بمجموعهم يكون فيهم علماءُ وعامّة، مع عبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ في الْمَقْطَع الثّانِي من قِصَّةِ قَارُونَ، وذلك لأنّ الّذِين فُتِنُوا بما أوتي قَارُونُ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الّذِينَ أوتوا الْعِلْم بحقيقة حكمة الله في بسط الرزْق وتَقْدِيره، فهم من العامّة.

أمّا المقالاتُ الّتي وجّهَها دُعاةُ بني إسرائيل من علمائهم وعامّتِهم لقارون فهي أرْبَعُ مقالاَتٍ فيها هَدْيٌ ونُصْحٌ:

المقالة الأولى: دلّ عليها قول الله تعالىٰ: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

الفرح: نقيض الحزن، ويأتي بمعنى الْبَطَرِ والأَشَر، أي: بمعنى الاستكبار والتفاخر والتّعالي على الناس، ومن فَرِحَ بكَثْرَةِ أموالِه طغَىٰ فَرَحُه على بصيرته فصار يتصرَّفُ تصَرُّفَ الطُّغَاةِ الْبُغَاة، وهذا المعنى الثاني هو المقصودُ في التعبير هنا والله أعلم، أي: فلا تَفْرَحْ فَرَحاً مُبْطِراً إِنَّ الله لا يُحِبُّ الفرحين الْبَطِرين المستكبرينَ الطغاة، الذين يَغْمِطُون الناس ويظلمونهم ويعتدون عليهم، ومَنْ لا يحبُّه الله بسبب ما يَصْدُرُ عنه من عَمَل يُعَاقبُه، وقَدْ يَسْلُبُه ما أَنْعَمَ بِه عَلَيْهِ.

المقالة الثانية: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾.

أي: واطْلُبْ في تَصَرُّفِكَ فيما آتاكَ اللّهُ مِنْ مالٍ وغيره قاصداً ثواب الدار الآخرة الّذي أعَدَّهُ اللّهُ عزّ وجلّ للمؤمنين المتقين، فابْذُلْ في طاعة الله ومراضيه ما أمرَكَ اللّهُ ببذله، ليمنَحَكَ من فضله يوم الدّين الثوابَ العظيم في جنّاتِ النعيم.

ولا تَنْسَ مهملاً تَارِكاً حظَّكَ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، فقد أباح الله لك أن تَبْتَغِي في بعض ما آتاك حظوظَكَ من الدُّنيا مِنْ مَآكل ومشارب، ومساكن

وزوجاتٍ بغير معصيَةٍ ولا طغيان.

فنحن لا نقولُ لك: ابذل كلّ ما آتاك الله في وجوه الخير، تاركاً حظوظ نَفْسكَ ممّا أباح الله لَكَ من متاعِ الحياة الدنيا، ومهملاً لها، فحظوظُك المباحة من الدّنيا هي ممّا يُمْكن أنْ تبتغي به ثواب الآخرة، إذْ لا يقتصر ابتغاءُ ثواب الآخرة على ما تبذُلُ لغيرك من خير، بل يدخُلُ فيه ما تبذله لنفسك وحظوظك من دنياك، إذا التزمْتَ بما أباح الله لك، وقصَدْت بِه التَّقَوِّي على طاعةِ ربّك، وإعْفافَ نفسك عمّا حرّم الله عليك.

المقالة الثالثة: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ﴾.

أي: وزِدْ في بذلِكَ مِنْ مَالِكَ ومِنْ نَفْسِك فوقَ حُدود ما أوجب الله عليك، ارتقاءً في درجاتِ البرّ، حتّىٰ مرتبة الإحسان الّتي يكون العابدُ فيها لربِّهِ كأنَّهُ يراه أمامه رؤيا عين، وقابِلْ إحْسَان الله إِلَيْكَ بإحسانٍ منْك، تقرُّباً إليه بمراضيه، وشكراً له على ما أولاك من إحسانٍ زائد على حاجاتك ومطالبك في حياتك.

المقالة الرابعة: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

يظهر أنّ بني إسرائيل قوم قارون أحَسُّوا أنّه ينْصُرُ آل فرعون ضِدَّهم، إذْ يفسدون في أرض مصر، مضطهدين بني إسرائيل ظُلْماً وعدواناً، وأَحَسُّوا أنّه يَنْقُلُ إليهم أخبار قومه، إذْ كانوا يقتلُون مواليدهم من الذكور، ويُسَخِّرُونهم في الأعمال الشّاقة بالإكراه، ويُتابعون تحرّكاتهم، وتجمُّعاتهم، ونشاطاتهم الدّينيّة، فقالوا له: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ﴾ أي: متابعاً لسادَتِك فرعونَ وآله الّذين تُصِيبُ بخدمتك ونصرتك لهم ضدّ قومكَ ما تُصِيبُ من ثراء فاحش، وقالوا له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: ومن لا يُحبُّه الله بسبب ما يقترف

من إفسادٍ في الأرض، فلا بُدَّ أن ينزل به نقمتَهُ وعقابه الشّدِيد.

وأحسّ قارون أنّ قومه يتهمونه بالخيانة ضدّهم، وأنّه يأخذ ثمن خيانته أموالاً كثيرة وتيسير مصالح من فرعون وآله، فردَّ عليهم بادّعاء أنَّ ما يَمْلِكُ من أموالٍ وكنوزٍ كثيرة، وما يَمْلِك من مكانةٍ اجتماعيّة، إنّما كان بسبب عِلْمِه بوسائل اكتساب الأموال الوفيرة، وطُرُق الوصولِ إلى المكانة الاجتماعيّة الرفيعة، مع جحوده في ظاهر الرّدّ نعمةَ الله عليه، وأنّ الله هو الّذي آتاه ما آتاه لِيَبْلُوه في ظروف الحياة الدّنيا أيشْكُرُ ربّه أمْ يكْفُرُهُ؟ فقال لهم كما أبان الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.

أي: ما هٰذِهِ الاتهامات الباطلات الّتي تتهمونني بها؟! وما هذه الخرافات الدينيّة الّتي تزعمون بها أَنّ الله هو الذي آتاني ما أمْلِكُ من أموال ومكانة اجتماعيّة رفيعة، وأنّ الله هو الذي أحْسَن إليّ به، إنّما أوتيتُ ما أُوتيتُ من قِبَلِ فرعَوْنَ وآله، مقابل عِلْمِ عِنْدِي، قدّمْتُ لهم به خدماتٍ جليلات، ومنَافع عظيمة، لسلطانهم، ولثرواتهم، ورفض ما وجَّهَهُ له قومُه من دعْوةٍ ونُصْحٍ، ولم يكترِثْ لمقالاتهم.

وهنا يأتي التعليقُ الرّبّاني ببيان أنّ الذي يمنح الأموال، ويمنح المكانة الاجتماعيّة بقضائه وقدره بَعْضَ عباده ليبلُوَهُمْ فيما آتاهم، هو القادر على أن يسلُبَهم ما آتاهم، وهو القادر على أن يُهْلِكَهُمْ، وقارون واحدٌ منهم، وقد سبق في التاريخ قَبْلَ قارونَ أنّ الله قد أهلك من أهل القرون الأولى مَنْ هو أكثر منه قُوّةً وَأكثرُ منهُ جمعاً للأموال، فسلَبَهُمْ بذلِكَ كُلَّ مَا آتاهم حتّىٰ أنْفُسَهُم، فأخرجَهُمْ من الحياة الدنيا دَارِ الابتلاء، وأماتَهُمْ لِيَلْقَوْا جزاء أعمالهم الّتي قدّمُوها في الحياة الدنيا، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ

﴿جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾.

أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ: استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لقد عَلِمَ قارون بما تَلَقَّىٰ مِنْ أخبار الأوّلين أنّ الله قد أهْلَكَ من قَبْله من الأمم السابقة من هو أشدّ مِنْهُ قُوَّةً وأكثر جمعاً بسبب ذنوبهم الكثيرة الّتي كانوا بها مجرمين، والّتي جعلَتْهم يستكبرونَ في الأرض بغير الحقّ، ويبغون الفساد فيها، ويجحدون نعمة الله عليهم، ويتصوّرُون أنّ ما أصابوه من دُنيا قد كان بسبب ما لديهم من علم وذكاءٍ وحُسْنِ تصرُّفٍ في استثمار الأموال والأعمال، فلمّا انْحطُّوا إلى دركة الإجرام الذي يقتضي عقوبة الإهلاك الماحق أهلكهم ربُّهم، وسلَبَهُمْ كُلَّ شيءٍ، وحينَ أنزل بهم المهلكات في الحياة الدنيا لَمْ يسألْهُمْ عن ذنوبهم، ولم يُقِمْ لهم قبل إهلاكهم محكمةً عَدْليّة، لأنَّ محكمة العدل الرَّبّانيَّة إنّما تكونُ يوم الدّين، يوم الجزاء الأكبر، أمّا الجزاءاتُ والعقوبات الدنيويّة المعجّلة فَسُنَّةُ الله عزّ وجلّ فيها أَنْ يُجْرِيها دون محاكمات، لأنّ ظروف الحياة الدنيا ذاتُ أنظمة في العطاء والمنع والسَّلْبِ والجزاء تعتمد على الحكمة الرّبانيّة الّتي تقتضيها هذه الظروف، فقال الله تعالى:

﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

أي: لا يُسْأَلُونَ عن ذُنوبهم عند تنفيذِ إهلاكهم في الحياة الدنيا عقوبةً لهم على ما قَدَّمُوا من جرائم.

أمّا يوم الدين فلا يكون فيه الجزاء في النار للعباد على ما قدّموا من جرائم في الحياة الدّنيا إلا بعد سؤال وحسابٍ وفَصْلِ قضاء.

هذا التعليق القرآنيُّ على ما كان من قارون قد تضَمَّن موعظةً مُوجَّهَةً لكلّ من يُؤْتيه الله مالاً أو مكانة اجتماعيّة في الحياة الدنيا، وتنزع به نوازع نفسه أن يَجْحَدَ نعمة الله عليه كما جحد قارون، وأن يستكبر على عباد الله كما استكْبَرَ قارون، وأن يَبْغي الفساد في الأرض كما بغَىٰ قارون.

ويُلاحظ في دعوة دعاة بني إسرائيل من علمائهم وعامّتهم لقارون، اهتِمامُهُم في دعوتهم له بالأساسيّات الدينيّة، من الفكريّات الّتي تولَّدَ عَنْ غِيَابها عن قناعاته انحرافاتٌ خطيراتٌ في مفهوماته وأنواع سلوكه الاستكباريّ الإجراميّ الباغي.

فنَهَوْه عن الفرَحِ الْمُطْغي بما أُوتي من أموالٍ ومكانة، إذْ ولَّد لدَيْهِ استكباراً وطغياناً. وأمروه بأنْ يبتغي فيما آتاهُ الله الدار الآخرة مع أخْذ حظّهِ منه لحياته في الدُّنيا. ونَصَحُوهُ بأنْ يُحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إليه. وحذّروه من أن يَبْتَغِيَ الْفَسَادَ في الأرض.

وفي ذكر قصّةِ دعوتهم له في القرآن إشادةٌ بها، وتوجيهٌ لاتّخاذهم فيها أُسْوَةً حَسَنَةً، في المواقف المشابهة لمواقِفِهِمْ تُجاهَ قارون.

- ٣ -

التدبّر التحليلي للمقطع الثاني من النصّ

قول الله عزّ وجلّ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾.

يَدُلُّ على أنّ قارون لم يستجب لنصائح دعاة قومه له، بل أَصَرَّ على قناعاته الخاصة وأنواع سلوكه، وأتْبَعَ ذَلك بأنْ رَتَّبَ لِنَفْسِه مَوْكباً كبيراً ذَا زينَةٍ وَمظَاهرِ عظمة، وركب مركبه الْفَارِهَ، وخرج على قومه بني إسرائيل بهذا الموكب الفخم، مظهراً تعالِيَه واستكبارَهُ بماله من مراكب فارهةٍ وخَدَمٍ وعَبِيد وأنصار، وبما لديه من أموالٍ كثيرة وفيرة، ليقول لهم بلسان حالِ موكبه: إنّ ما اختاره لنفسه هو الأفضل والأحْسَنُ ممّا دَعوْهُ إليه.

ومع مرور هذا الموكب الكبير الّذي اصطنعه قارون لنفسه ليتعالىٰ به على قومه انقسم بنوا إسرائيل إلى قسمين:

القسم الأول: من خدعتهم ظواهر الحياة الدنيا وزينتها، وهم لا يملكون علماً صحيحاً راسخاً يحميهم من أن ينخدعوا، فاشرأبّتْ نفوسهم للتعلّق بالحياة الدنيا ومفاتنها.

القسم الثاني: من لَدَيْهم علْمٌ راسخٌ بحقائق أمور الحياة الدنيا، فلم تخدعهم الظواهر.

أمّا القسم الأول فلمّا رأَوْا قارونَ خارجاً على قومه في موكبه الْفَارِه وزينَتِهِ العظيمة، تَمَنَّوا أنْ يكون لهم مثل ما أُوتِي قارون، ورأَوْا أنَّهُ ذو حظّ عظيم من متاع الحياة الدنيا.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلَّ بشأنهم في النّص:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

لم يقتصروا على مُجَرّدِ التَّمَنّي بكلمة: «لَيْتَ» بل أضافوا إليها نداءَ تَلهُّفٍ وطلبَ بِشدَّةٍ، فقالوا: ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا ﴾ وأكَّدُوا أنّه ذُو حظٌّ عظيم بمؤكّدات ثلاث: (إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة).

هنا رأىٰ العلماءُ من بني إسرائيل أن يُوجّهوا دعوتهم الناصحة لطُلاَّب الحياة الدنيا منهم، فبيَّنُوا لهم أنّ الحياة الدنيا قصيرة الأجل فانية، لا تستحقُّ أن يتعلّق بها أهل العقل والرشد، وأنَّ ثواب الله يوم الدِّين خيرٌ وأعظَمُ لمَنْ آمَنَ وعَمِل صالحاً، وأنّ هٰذِهِ القناعاتِ والعملَ بمقتضاها لاَ يُمْنَحُها فيتَلَقَّاهَا إلاَّ الصَّابِرُونَ.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

لقد كانت غيرةُ الّذين أُوتُوا الْعِلْم من بني إسرائيل على العامّة الجاهلين بحقائق أمور الدنيا والآخرة غَيْرَةً عظيمة، وكان حِرصُهُمْ عليهم حرصاً شديداً، كحِرْصِ الوالِدَيْنِ الرؤوفَيْنِ على ولَدِهِمَا في دعوتهما له إلى الإيمان.

لذلك خاطب العلماءُ ذوي الجهالة بقولهم لَهُمْ: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي: نخافُ عليكم من أن يُنْزِلَ اللَّهُ بكُمْ عَذَاباً أليماً، بسبب إرادتكم الحياة الدّنيا، وعدم تعلّقكُم بثواب اللَّهِ الّذِي أَعَدَّهُ للمؤمنين المتّقين، يظفرون به يوم الدّين.

وأتبعوا هذا التعبير الدَّالَّ على حرصهم عليهم، وشدّةِ خوفِهِم من أنْ يَنْزِل بهم عذاب الله بقولهم لهم كما جاء في النّص: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

أي: ثوابُ اللَّهِ في الآخرة خَيْرٌ وأعظم وأجلُّ من كلّ ما في الحياة الدُّنيا من أموالٍ وزينةٍ ومتاع، ولكنَّ هذا الثواب لا يكون إلاّ لمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالحاً.

وأبانوا لهم أنّ عَلَيْهم أنْ يَصْبِرُوا على كَبْحِ جماح أهوائهم وشهواتهم وتَطَلُّعَاتِهِم إلى زينةِ الحياة الدنيا، فإنَّهُ لا يستطيع الالتزام الصَّادق بالإيمان والعمل الصالح إلاّ الصابرُون الذين يصبرون على أنواع امتحانات الله لهم بما يخالف رغباتهم وأهواءهم في الحياة الدنيا.

فكانت دعوة علماء بني إسرائيل للمفتونين من عامّتِهِمْ بما أتَىٰ الله قارون مُوَجَّهةً للعنصُر الخاصّ الّذي جَهِلُوه من مفهومات حكمة الله في عطائه ومنْعِهِ، ومسبوقة بما يدلّ على حبّهم لَهُمْ، وخوفهم عليهم من أنْ ينزل بهم عذابُ الله المعبَّر عنه بعبارة: ﴿وَيْلَكُمْ﴾.

وفي ذكر قصّة هذه الدّعوة إشادةٌ بها، وتوجيه للْعُلَماءِ من المسلمين أن

يكونوا حريصين على إرشاد العامّة إلى ما فيه خيْرُهم عند ربِّهم، وأنّ يستفيدوا من قصّة هذه الدعوة نموذجاً يتأسَّوْنَ بِهِ في مناهج دعوتهم للجاهلين، وذَلكَ بأنْ يجعلوا دعوتَهُمْ مغلّفَةً ومَسْبُوقَةً بما يُشْعِرُ المدعوّين بُحُبِّ الدُّعاة لهم، وحرصهم عليهم، وخوفهم الشديد مِنْ أن يصيبهم عذابٌ من الله.

* * *

فماذا كانت عاقبة قارون بعد استكباره على قومه، وتفاخره بموكبه الفخم وزينته التي خدَعَ بها الذين يريدون الحياة الدنيا، وادّعائه أنّ مَا أُوتِيَهُ من آل فرعون قد كان ثواباً على علم عنده ضمن نظام تبادل المنافع، وجُحُودِهِ نِعْمَةَ اللَّهِ عليه؟؟

لقد أبان الله عزّ وجلّ عاقِبَتَه الّتي فاجأتْهُ بسُرْعَةٍ عَقِبَ يَوْمِ تفاخُرِهِ بموكبِهِ وزينته، بقوله تعالىٰ في النّص:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾.

لَقَدْ رَجَعَ قَارُونُ إلَىٰ دَارِهِ بَعْدَ أنْ خرجَ على قَوْمِهِ في موكبه الاستعراضي مستكبراً متفاخراً مُتَعَالِياً، وحطّ رِحَاله، وأَوَىٰ إلَىٰ أهْلِهِ فَرِحاً مُبْتَهِجاً بما استعْلَىٰ به علَىٰ قومِهِ، وتَمَدَّدَ على سَرِيرِهِ واحْتَضَنَ مَا احْتَضَنَ لينام هانئاً سعيداً، غَيْرَ مُتَرَقِّب مُفَاجَآتِ عقاب الله له، لكن الله عزَّ وجَلَّ لَمْ يُمْهِلْهُ، إذْ شَاءَ أنْ يجعله عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرَ، فَخَسَفَ بِهِ وبدارِهِ الأَرْضَ لَيْلاً، أَوْ عِنْدَ الْفَجْرِ، فابْتَلعته الأَرْضُ فكانَ هُوَ ومن مَعَهُ من الهالكينَ.

وحين نزلَتْ به الْمُهْلِكَاتُ الْخَاسِفَاتُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَدْنَىٰ فِئَةٍ من أعوانه وعبيده وخدَمِه وأنصاره، يَنْصُرُونَهُ فيحمونه من عذاب الله، أوْ ينقذونه، ولم يَسْتَطِعْ أَنْ يجدَ وسيلةً يفرُّ باستخدامها من قَبْضَةِ الْمُهْلِكَاتِ الرَّبَّانِيّة، بل تغَلْغَلَ

في الأرض هالكاً مُحَاطاً بأَسْبَاب العذاب.

فماذا كان موقف الجاهلين من عامّة بني إسرائيل الّذين سَبَق أن تَمَنَّوا أنْ يُؤْتَوْا مِثْلَ مَا أُوتِي قَارون؟؟

لقد أبان الله عزّ وجلّ موقفهم بقوله تعالىٰ في النّص:

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

لقد أَصْبَحَ النَّاسُ في صَباحِ لَيْلَةِ الخسْفِ يتَحَدَّثُونَ أَنَّ الأَرْضَ تَحْتَ دار قارونَ قَدِ انخسفَتْ، فابتلَعَتْهُ ودَارَهُ وما فيها، بَعْد أَنْ كانَ بالأَمْسِ الدَّابر يَسْتكْبِرُ على قَوْمِهِ بموكبه وزينتِه، ويتفاخَرُ بما لديه مِنْ مالٍ وَمكانَةٍ اجتماعيَّة.

ومع إشراق الصباح ذُهِلَ الجاهلون من عامّة بني إسرائيل بما فعل الله عزّو جَلَّ بقارونَ من مُعَاجَلَةٍ سَريعةٍ بالإهْلاَكِ بوسلية الْخَسْف، فأصبَحوا يقولون وفداً بَعْد وَفْد وهم يشْهَدُونَ الْخسْفَ أَوْ يَسْمَعُونَ خَبَرَهُ: وَيْكأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عبادِه ويَقْدِرُ. لَوْلاَ أنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لخَسفَ بنَا. وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونِ.

«وَيْكأَنَّ» تَعْبيرٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ كلِمَةِ «وَيْ» الّتي تُسْتَعْمَل بتلقائيَّةٍ سَرِيعةٍ عِنْدَ التَّعجُّب الشّدِيدِ البالغ حدَّ الدَّهْشَةِ مِنْ أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ مُرْتَقباً وَلاَ مُتوَقَّعاً في نَفْس الْمتَعَجّب المندهش، وكلمة «كَأَنَّ» الّتي قد تُضمُّ إلى «وَيْ» مُقَدِّمَةً للجملة الّتي استخرجت من العبرة الّتي دَلَّ عليها الحدث المدهش المثير للتعجّب.

والجملةُ المستخرجَةُ من العبرة هي: أنّ اللَّهَ يَبْسَطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ من عباده ويَقْدِر، أي: يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده اختباراً لهم، ويَقْدِرُ لمن يشاء من عباده الرّزقَ اختباراً لهم، فهو لا يبسُطُ إكراماً، ولا يَقْدِرُ إهانَةً.

واستفادوا من عِبْرَة الحدث قضيَّةً أُخْرَىٰ، وهي أنَّ الله عزّ وجلّ قد منّ

عليهم، إذْ لم يوسِّعْ عليهم في أرزاقهم كما وسَّع على قارون، ولو أنَّهُ بَسَط لهم الرزق كما بسط لقارون لفتنوا بالأموال كما فُتِنَ قارون، ولجحدوا نعمة الله عليهم كما جحد قارون، ولاستحقّوا أنْ يخسف اللَّهُ بهم الأرض كما خسف بقارون، فقالوا كما أبان الله عزّ وجلّ:

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾.

وهكذا انكشف لهُمْ أنَّ مِنْ مِنَّة اللَّهِ عليهم أنَّه لَمْ يَبْسُطْ لهم الرّزق، أذْ لَوْ بَسَطَهُ لَهُمْ لأفْسَدَهُمْ كما فَسَدَ قارونُ ببسط الرزق، إذ كانت نفوسهم مفتونة بالحياة الدنيا.

واستفادوا من عِبْرَةِ الحدَث قضيَّةً ثالثَةً كانَتْ غائِبَةً عَنْ أذْهانِهِمْ مع عِلْمِهِم بها وهي أنَّ الكافِرينَ لاَ يُفْلِحُونَ، فقالوا كما أبان اللَّهُ عزّ وجلّ في النّص مُتَعَجِّبين مِنْ غَفْلَتِهِمْ عن هذه الحقيقة:

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وَيْ: أي: عجباً لنا كيف غَابَ عنَّا أنَّهُ لاَ يُفْلحُ الْكَافِرُونَ؟!.

الفلاح: الظفر والنجاح ببلوغ غاية المراد، والمعنى أن الكافرين لا يبلغون غايات مراداتهم، وإنْ أمَدَّ اللَّهُ لهم، وآتاهم بعض ما يشتهون.

وفي هذه العبارة إشارة إلى أنَّ قَارون كانَ من الكافرين بالدَّار الآخرة، وبنعمة الله عليهم، فأنْزَلَ الله به عقاب الخسف به وبداره.

* * *

وجاء التعليق القرآنيُّ على قصّةِ إهلاك قارون بقول الله عزّ وجلّ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

فأَبَانَ اللّهُ عزَّ جلَّ أنّ الدّار الآخِرَةَ الّتي هي دار السُّعَداء يوم الدّين، وهي جنّاتُ النعيم، يَجْعلُها تبارك وَتَعالَىٰ للمتقين الّذين يؤمنون ويعملون الصالحات، وهُمُ الّذين لا يُريدون عُلُوّاً في الأَرْضِ استكباراً على عباد الله، ولا يريدون فساداً في الأرض لتحقيق أهوائهم وشهوائهم واستعلائهم بغير حق ومن الفساد في الأرض نشْرُ الكُفر باللّهِ والفسوق والعصيان، والظُّلْم والبغي والعدوان.

أمّا قانُون الجزاء يَوْمَ الدّين فالثوابُ فيه يعتمد على فَضْلِ الله بمضاعَفَةِ الأجْر، والعقابُ فيه يعتمد على عَدْلِ الله، فَمَنْ جاء بالسيِّئة فلا يُجْزَىٰ إلاّ بِمِثْلِها.

* * *

النموذج السابع

قصة الرجلين المتحاورين

- صاحب الجنتين المستكبر بهما وبأولاده.
- والآخر المؤمن الذي لم يُؤتَ سعةً من المال والولد والأنصار.

قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُۥ
ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا (٣٥) وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ
مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا (٣٧) لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن
يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ
مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا
كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾.

- قرأ جمهورُ القراء العشرة: ﴿أُكُلَهَا﴾ بضم الكاف.

وقرأ نافع، وابن كثير وأبو عَمْرو: ﴿أُكْلَهَا﴾ باسْكان الكاف.

وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ﴾ بضم الثاء والميم جمع ثِمَار.

وقرأ عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ بفتح الثاء والميم اسم جنس جمعي.

وقرأ أبو عَمْرو: ﴿وَكَانَ لَهُ ثُمْرٌ﴾ بضم الثاء وبإسكان الميم تخفيفاً لثُمُر.

ونظيرها: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ إلاّ أن رُويساً عن يعقوب يقرأ هنا بضم الثاء والميم.

● وقرأ نافع وأبو جعفر: ﴿أَنَا أَكْثَرُ﴾ بإثبات ألف «أنا» وصْلاً ووقفاً. وقرأ جمهور القرّاء العشرة بحذف هذه الألف وصلاً وإثباتها وقفاً.

● وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾ بإفراد هاء الضمير.

وقرأ نافع، وابْنُ كثير، وابن عامر: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا منهما﴾ بتثنية هاء الضمير.

فدلت القراءتان على أن الجنتين المفصولتين بنَهرٍ، يجمعهما جامع عامٌّ واحد، فهما شطرا جنَّةٍ واحدة.

● وقرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ﴾ بإثبات ألف «أنَا» وصلاً. وقرأ جمهور القراء بحذف هذه الألف وصلاً وإثباتها وقفاً.

● وقرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر أبو عمرو بفتح ياء المتكلم من: ﴿هُوَ الله رَبِّيَ﴾ ومن ﴿وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّيَ﴾ ومِنْ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيَ أَن﴾.

وقرأ باقي القراء العشرة بإسكان هذه الياء منها.

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿إِن تَرَنِ﴾ بحذف ياء المتكلّم. وأثبت هذه الياء في الوصل قالون، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأثبتها

في الوصل والوقف معاً ابن كثير ويعقوب.

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ﴾ بحذف ياء المتكلم من ﴿يُؤۡتِيَنِ﴾ وصلاً ووقفاً، وقرأ بإثباتها وصلاً نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأثبتها ابْنُ كثير، ويعْقوب وصلاً ووقفاً.

● وقرأ جمهور القراء العشرة ﴿فِئَةٌ﴾ بالْهمْز، وقرأ أبو جعفر ﴿فِيَةٌ﴾ بقلب الهمزة ياءً، وكذلك قرأ حمزة عند الوقف فقط.

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ بفتح الواو، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿الْوِلاَيَةُ﴾ بكسر الواو، الفتح والضمُّ لغتان للكملة.

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿عُقُبًا﴾ بضمّ القاف، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿عُقْبًا﴾ بإسكان القاف.

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ بكسر القاف على أن اللفظ وصف للفظ الجلالة في ﴿لِلَّهِ﴾. وقرأ أبو عمرو، والكسائي: ﴿الْحَقُّ﴾ بضم القاف على أن اللفظ وصف للولاية.

* * *

- ٢ -

تحليل النصّ وبيان ما اشتمل عليه من حوار

يعرض الله عزّ وجلّ في هذا النصّ قصة حِوارٍ دينيّ جرَىٰ بين رجليْنِ جَمَعتْ بينهما صُحْبَةُ حِوَارٍ حول قضيَّتَيْن:

القضية الأولى: قضيّة الإيمان بالله الخالق الرّبّ الّذي لا شريك لَهُ في ربوبيّته، فلا شريك لَهُ في إلَهيّته.

ومن الإشراك بالله في ربوبيته اعتقادُ أنَّ الأسباب تفعل بذاتها، لا أنها بمثابة قنوات تَسْتُر جَرَيانَ أفعال الله في الخلق بمقتضىٰ قضائه وقَدَرِه.

القضيّـة الثّانيّـة: قضيّة الإيمان باليوم الآخر الذي يُحَاسِبُ اللَّهُ عزّ وجلّ الناسَ فيه على ما قدَّمُوا وأخَّرُوا في رحلة الحياة الدنيا رحلة الامتحان، وبعد الحساب يَفْصِلُ القضاء بينهم، ثمَّ يجازيهم في جنّاتِ النعيم، أو في النار بعذاب أليم.

أمّا أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ فهو كافِرٌ بهاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْن بتأثير الغرور بزينة الحياة الدنيا وفتنتها، كُفْراً لم يَصِلْ إلى حالةِ ميئوسٍ منْها، إذْ هو ذُو ثَرَاءٍ وَسَعَةٍ من الْعَيْشِ وَزِينةٍ من الحياة الدنيا تَوَصَّل إليها بما اسْتَخْدَمَ من أسْبابٍ هيَّأهَا اللَّهُ له، وذُو قُوَّةٍ بأنْصاره من أولاده وغيرهم. وممّا يَمْلِكُ جنَّةٌ كبيرةٌ، هي بُستَانٌ كبيرٌ، يفْصِلُه من وَسَطِهِ نَهَرٌ جارٍ يتَدَفَّقُ بلا انقطاع، فصار بمثابة جنتَيْنِ، إحداهُما عن يمين النهر، والأخرى عن شماله.

لَقَدْ أنساه ما هو فيه من نعمة أن الله عزّ وجلَّ هو الذي جعل له بتيسير الأسباب كُلَّ ما تَحتَ يَدِه من أموالٍ وقُوَّةٍ يعتزُّ بها.

وأمّا الآخر فهو رجُلٌ مؤمنٌ داعيَةٌ إلى دين الله، حريصٌ على هداية الضالين، وإرشادهم إلى صراط الله المستقيم، عقيدة وعملاً، إلاّ أنّه لم يُؤْتَ سَعَةً من المال، ولا كثرةً من الأولاد والأنصار.

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿ ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ ﴾.

الخطاب للرسول ﷺ فلِكُلِّ داعٍ إلَىٰ اللَّهِ من أمَّتِه، والمعنى: واضرب لمشركي مَكَّةَ المعتزّين المتفاخِرينَ بكَثْرَةِ أمْوَالهم، وقُوَّةِ رِجالِهِمُ الَّذِينَ

ينصُرُونَهُمْ ضِدَّ الرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوا معه، قِصَّةَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذِين عَرَضَ النُّصُ مَا كان بينهما، وما جَرَىٰ للمتفاخر منهما مِنْ عقابٍ تأديبيٍّ رَبَّانِيّ بعد ذلك.

فقد نَزَلَ هذا النصّ قُبَيْل أواخر العهد المكيّ، حينما كان مشركو مكّة في أَوْجِ تفاخرهم، واعْتزازهم بما لديهم من أموالٍ وأنصار، واضطهادٍ للمؤمنين الملسمين.

وفي هاتين الآيتين وصْفٌ كلامِيٌّ يشتمل على تَحْدِيدٍ لخريطة جنتي الرجُلِ الثرِيّ، وما فيهما من أشجارٍ وزُرُوعٍ باستثناء المساحة والعدد.

فالجنتان مَزْرُوعتَانِ بأشجارِ العنب، ذوات العروق والفروع الممتَدَّة، وأفضل بساتين العنب ما كانت فروعُ أشجارِهِ ممدّدة على عُروشٍ من الأخشاب المرتفعة عن الأرض بأعمدة، لكنْ لم يأتِ في هاتين ذكر العروش، إنما جاء في أواخِرِ النّصِّ ذِكْرُها، بعبارة ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ عند بيان إهلاكِ ثَمَر الجنّتين.

والجنّتان محفوفتان بأشجار النخيل الشاهقة لتَحْمِيَ أشجار العنب من الرياح الباردة، ومن لفحات الصقيع التي تأتي بها، المتْلفَةِ للثمار والأزهار.

وحففْنَاهما بِنَخْل: أي: وأحطناهما بأشجار نَخْل، حفَّ الشيءَ بالشيء، إذا جعله محيطاً به، ومستديراً حوله.

وفي المساحات الفارغات بين الأشجار زروع أرضيّة نافعة لأكل الإنسان والأنعام.

وقد وصَلَت الأشجارُ إلى كمال نُضْجِهَا، فآتَتْ فيما سَبَقَ أكُلَها، أي: ثمراتها التي تؤكل منها، دون أن تَتعرَّضَ لنقصان، فلم تَظْلِمْ من أُكُلِها شيئاً، أي: لم تنقُصْ منه شيئاً.

الأُكُلْ: بضمّ الكاف وإسكانها ما يُؤْكَلُ، وأُكُلُ الشجرة جناها الذي يؤكل.

وقد فَجَّرَ الله لَهُ خلال الجنَتَيْنِ نهراً، أي: شقّ له عيْنَ ماءٍ تنبعث منها المياه بقوَّةٍ وتدفّق، وشقَّ لَهُ نهراً يجري فيه الماء لسُقْيا الجنّتين.

وسواءٌ حصل هذا بأسبابٍ اتَّخذها الرجل، أو دون أسباب منه، فالأمر قد تمَّ بقضاء الله وقَدَرِه، فالأسباب الإنسانيّةُ إنّما تَتِمُّ بإقدار الله وإلْهَامِه، وتوفيقه، فهي في الحقيقة آثار فعل الله عزّ وجلّ، ويمكن تقسيم قصتهما إلى فصولٍ، ثلاثة وخاتمة:

- ١ -
الفصـل الأول

يظهر أنّ الرجل المؤمن الداعية إلى دين الله والتزام صراطه المستقيم، وقد بدأ ينصَحُ مَالِكَ الجنتَيْنِ ذا القوة بأمواله وأنصاره، المفتونَ بما آتاه الله من زينة الحياة الدنيا، فيدعوه إلى الإيمان الكامل الصحيح بالله الخالق الرّبّ، الذي بيده مقاليد كلّ شيءٍ في الوجود، والذي لا شريك له في ربوبيته، حتَّىٰ الأسباب فإنّها تُؤَثّر بقضائِه وقَدَرِه وخلْقِه وقُدْرته، والّذِي لا شريكَ له في إلَهِيّته، أي: في استحقاقه العبادة وحده، دون شيءٍ سواه في الوجود، وأَخَذَ يُقدِّم له الأَدِلة على التوحيد، ويُبيِّنُ له أنّ الله عزّ وجلّ خلَقَ الناسَ في هذه الحياة الدنيا ليبلوهم أيُّهُمْ أحْسَنُ عملاً، وأنَّ هذه الحياة الدنيا كُلَّها ستنتهي بقيام الساعة، ثمّ يَبْعَثُ اللَّهُ الناس إلى يوم الدّين، يومِ الحساب وفَصْل القضاء، ثمّ تنفيذ الجزاء، بالثواب في جَنَّةِ النّعيم، أو بالعقاب في دار العذاب الأليم.

فَرَدَّ عليه ذو المال الواسع المعتزُّ بكثرةِ أولاده ونَفَرِه، بأنّ إيمانه بربِّه وطاعَتَهُ له لم تجلُبْ له مالاً كثيراً، ولا قُوَّةً ومَنَعَةً بأولاده وأنصاره بين الناس، فلو كان ما يدعو إليه صحيحاً، لكان اللَّهُ قَدْ وَسَّعَ عليه ومنَحَهُ القوّة.

أمّا هو فقد استخدم وسَائله وذكاءَهُ وعِلْمَهُ، فصار أكثر من المؤمن بالله واليومِ الآخر الذي يعمل الصالحات مالاً، وأعَزَّ نَفَراً، وهذا دليلٌ على أنّ الأمر لا يتجاوز ظُروفَ هذه الحياة وأسبابها.

ولا بُدَّ أنْ يكون المؤمن قد حاوره حول دليله هذا فأبانَ لَهُ أنَّ ظروف الحياة الدنيا ظُروفُ امتحان، والامتحان يكون بالغنىٰ والقوَّةِ أحياناً ولبعض الناس، وليس هذا تكريماً من الله لهم، ويكون بالتضييق وعَدَمِ القوّة أحياناً ولبعض الناس، وليس هذا إهانة لهم، بَلْ كُلٌّ من الأمرَيْنِ للابتلاء والامْتِحَان.

إلاّ أنّ ذا الْغِنَىٰ المعتزّ بأمواله وأولاده ونفَرِه، والمتفاخِرَ بكلّ ذلك، لم يَعْبَأْ بجواب الرجل المؤمن القائم على الدليل النظريّ الفكريّ العلميّ، المستند إلى أدلّة الإيمان بالله واليوم الآخر، وحكمتِهِ من خَلْق الناس في هذه الحياة الدنيا، لأنّه مفتونٌ بما يَمْلِكُ من زينتها، محجوبُ البصيرة عن إدْراك الحقيقة، إذْ أكْسَبَهُ افتتانُهُ طغياناً في نفسه.

وفي موسم من مواسم قَطْفِ الثمار، كانَتْ جَنَّتُهُ ذَاتَ ثَمَرٍ بَهِيج، وكان قد دَنَا قِطَافُهُ، فتحرّكت نفسه برغبةِ الافتخار على صاحِبِهِ المؤمن الداعية الَّذِي لم يؤتِهِ الله مثل ما آتاه، فأَخَذَ بِيَدِهِ، واستَصْحَبَهُ، لِيُطْلِعَهُ على بُسْتَانِهِ، المفتونِ بإنْشَائه وإعماره وإتقانه، ذي الجناحَيْن من ذاتِ اليمين، ومن ذات الشمال، وذي النّهر الفاصل بَيْنَهما، والذي يتفَجَّرُ جارياً مُتَدَفّقاً بيْنَهما، فكانا بمثابة بُسْتَانَيْنِ مُنْفَصِلَيْن، لكِنْ يجْمَعُهما سُورٌ عامٌّ واحد، فهما جنَّتانِ متفاصلتان، في جَنَّةٍ عامّةٍ وَاحِدَةٍ ذاتِ سُورٍ عام واحد، وقصد من استصحابه التفاخُر عليه، وإقناعَهُ بأنّ نظام الحياة نظامُ أسبابٍ ومُسَبَّبَاتٍ:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ

جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

وأعَزُّ: أي: أَقْوَىٰ وأغْلَبُ، قالوا: مَنْ عَزَّ بَزّ، أي: من غَلَبَ سَلَبَ.

نَفَراً: النَّفَرُ الرّجالُ من ثلاثة إلى عشرة، وكانوا أولاده وخدَمَه.

ودَخَلَ جَنَّتَهُ: جعلها النصّ جَنّةً واحدة نظراً إلى السور الواحد الذي يجمع الجنتين المنفصلَتَيْن بنهر يجري بينهما.

وهو ظَالِمٌ لِنَفْسِه: أي: ظالم لنفسه بشِرْكِه إذْ جَعَلَ الأسباب هي الفاعِلَ الحقيقيّ، جاحداً أنَّ الله هو الّذِي يَخْلُقُ من خِلاَلِها، وبإنكاره ليوم الدّين، إذْ قال: ما أظُنُّ أَنْ تبيد هذه إبداً، وما أَظُنّ السَّاعَة قائمةً كما يَذْكر الْمُرسَلُون.

إنّه لمَّا وصَلَ هو وصاحِبُهُ المؤمنُ الداعية إلى باب بستانه المفتون به، دخله وهو ظالم لنفسه بكفره، وافتتانه بما يملك من زينة الحياة الدنيا، واقتناعه بأنّ الأسباب التي اتَّخذها هي الَّتي أوصلَتْهُ إلى ما هو فيه من ثراء وقوّة.

وبما أنّه اسْتَبْعَدَ من تَصَوُّره أنّ الحياة هذه حياة ابتلاء، وأنَّ وراءها حياةً أُخرَىٰ هي دار الحساب وفَصْلِ القضاء والجزاء، تصَوَّرَ أنّ الوجود كُلَّهُ مُنْحصرٌ في ظروف هذه الحياة، وأنّ هذا النظام مستمرٌّ فيها من الأزَلِ إلى الأَبَدِ، على مذهب الدَّهْريين، وأنّ أحداثها التي تجري فيها خاضعة لنظام الأسباب والمسبَّبات، فما دام الإنسانُ يتَّخِذُ أسباب الإنشاء والتعمير والتربية والتنمية، فإنّ الأسباب مستمرّةُ العطاء، في نظامٍ أبديّ لا انقطاع له، وبما أنّه فكَّرَ وقَدَّرَ، واتَّخَذَ الاسّبَابَ الصحيحةَ السليمةَ الكاملة، لإنشاء بُسْتَانِهِ ذي الجناحَيْن، إنشاءً كامل الصفات والشروط التنمويّة والوقائيّة، فلا بُدَّ أنْ يُعْطِي عطاءَهُ دواماً وافراً غَيْرَ مَنْقُوص، وهذا الأَمْرُ قد امْتَحَنَهُ وأخْضَعَهُ للتجربة خلال سنواتِ حياته السابقات.

لذلك فهو لا يَظُنُّ أَنّ تبيدَ جنّتُهُ أبداً، ما دامَتْ أسبابُ إمدادها بالبقاء والتجديدِ والتحسين والحماية مستمرّة، وتَصوَّرَ أنّ هذا هو قانون الوجود الذي لا يتعرَّضُ لما يُلْغِيه مِنْ قُوَّة رَبَّانِيَّةٍ خارقَة، فقال:

﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

أي: ما دامَتْ أسْبَابُ الإمْداد والإصلاح والتعمير مُهَيّأةً لها بلا نقصان، ونفيُ الظَّنِّ كُلِّهِ قَوِيِّهِ وضعِيفة عَنِ النقيضِ يتضَمَّنُ إثبات النقيضِ الآخَرِ بلا شَكّ، أي: فهي دائمةٌ بلا انقطاع، ولا يلزم من هذا أنَّهُ يُؤْمِنُ بخلود نفسه، إلاّ أنّ وهمه جعله يؤمن بخلود نظام الكوْنِ، ونظامِ تعاقُبِ صُورِ الحياةِ في الأَرْض.

وإذْ سيْطَرَتْ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِكْرَةُ خُلُودِ هذا النظام الكَوْنيّ بغير انقطاع، فمِنْ لوازم هذه الفكرة أنْ لا يَظُنَّ أنّ الساعةَ الّتي حَدَّثَ الرُّسُلُ عنها، وأثبتَتْها الكتُبُ السماويّة، ساعةٌ قائمةٌ، لا سَاعَةَ الإفْناءِ، ولا ساعَةَ الْبَعْثَ، فقال:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

وهذا النفْيُ يتَضَمَّنُ أيْضاً إثبات النَّقِيضِ بلا شَكّ، وهو أنّ السَّاعَة لَنْ تقوم.

لكنَّهُ لَمْ يجزمْ جزماً قاطعاً بأنّه لَنْ يَرْجع إلى الحياة بعد الموت، فقال:

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

أي: ولَئِنْ رُدِدْتُ إلَىٰ رَبِّـي علىٰ سبيل الاحتمال الضعيف في نظامٍ غَيْرِ هذا النظام المشهودِ للْكَوْنِ، لأجِدَنَّ خيراً من هذِه الجنَّةِ مُنْقَلَباً أَنْقَلِبُ إليه، فعِلْمِي وَقُدْرَاتي التي جعلتْنِي في هذه الحياة أجْمَعُ ما جَمَعْتُ، وأُأَسِّسُ ما أَسَّسْتُ، وأنْشِىءُ ما أنْشَأْتُ، سَتُمَكِّنُنِي من أن أكْتَسِبَ أمْثَالَها.

فاشْتَمَلَ كلامُهُ على ثلاث قضايا:

القضيّةُ الأولى: تفاخُرُهُ بوسائله الّتي اتّخذها في الإنشاء والتعمير والإمداد والرّعاية والحماية والصيانة، فقال: ما أظنُّ أن تبيد جَنّتي هذه أبداً، ما دامت وسائل حمايتها ورعايتها وإمدادها وصيانتها موجودةً بالتتابع، فنظامُ الكونِ نظامٌ ثابتٌ على هذا الوضع من الأزل إلَىٰ الأَبد.

القضية الثانية: مَبْنيّة على القضيّة الأولى، وهي قولُه ما دام نظام الكون نظاماً مستمرّاً على ما هو عليه، فما أَظُنُّ السَّاعة قائمة، الشاملة لساعة إنهاء ظروف هذه الحياة، ولساعةِ البعث إلى حياةٍ أخرى.

القضيّة الثالثة: وهي قضيّةٌ أوردها على سبيلِ الافتراض الاحتماليِّ الضّعيف، وقد قال فيها: ولَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّـي بَعْدَ الموت، وحَيِيتُ مرّةً أخْرَىٰ، فلأَجِدَنَّ عِنْدَهُ خيراً من هذه الجنَّةِ مُنْقَلَباً أَنْقَلِبُ إليه، فلقد مكّنَنِي في هذه الحياة من اتّخاذ هذه الجنة، ومن المؤكّدِ أنَّهُ سَيُمكّنُنِي في الحياة الأخرى من اتّخَاذِ خَيْرٍ منْها، إنْ كان لهذه الحياة الأخرىٰ وجُودٌ، وكانَتْ أحوالُها أحْسَنَ مِنْ أحوال هذه الحياة.

لكنَّنِي لا أرىٰ كُلَّ ذَلِكَ، فمزاعم الحياة الأُخرى مَزَاعِمُ لا دليل عليها فيما نشاهد من مقابر أهل القرون الأولى.

- ٢ -

الفصـل الثـاني

هنا حاول صاحبه المؤمن في محاورته له إعادته إلى المنطلق الأوّل للفكر الإيماني، وهو الإيمان بالخالق الرّبّ المنشيء من التُّراب، وسألَهُ على سبيل الاستفهام الإنكاري عن نظرته إلى النظام السببـيّ الذي تجري بمقتضاه أحداثُ الكون وأطوارُه، هل هو يؤمن بالأسباب منقطعةً عن الرّبّ الذي يخْلُق كُلَّ ما في أحداث كونه ضمن قنواتها؟

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾.

أي: إنَّ وُجُودَكَ بِخَلْقِ الله قد كان خاضعاً لنظام الأسْباب، فالله عزّ وجلّ قد أجرَىٰ أسباب خلقك بَدْأً من التُّراب إلى النبات إلى الغذاء إلى الدّماءِ ثُمَّ إلى النُّطْفة، وتَتَابَعَتْ سلسلة الأسباب حتَّىٰ صِرْتَ جنيناً، ثم دبَّتْ فيك الرُّوحُ بخلْق الله وأمره، ثُمَّ يَسَّرَ اللَّهُ أسْبابَ ولادَتِكَ، وتَتَابَعَتْ أسباب إمدادك بالبقاء حتّىٰ صيَّرَك اللَّهُ طِفْلاً، ثُمَّ سَوَّاك رَجُلاً مكتملاً، تتعاطَىٰ الأَسبابَ، وتَتِمُّ المُسَبَّبَاتُ بخَلْقِ اللَّهِ من خلال قَنَواتها.

فاللَّهُ الرَّبُّ المتابِعُ بربوبيَّتِهِ من بواطن الظواهر السببيَّة أعمالَ الْخَلْق هو الذي يَخْلُق الْمُسَبَّبات، كما هو خالقٌ للأسباب، ولولا خَلْقُهُ لم يُوجَدْ شيءٌ منها، والأفْعالُ لا تَفْعَلُ بذاتها شيئاً، لأنَّها أشياءُ لا مشيئة لها ولا عِلْمَ ولا حكمة ولا غاية، بينما نُشاهِدُ أنّ كلَّ أحداثِ الكون وتطوُّراتِهِ مقْترِنَةٌ بحكمةٍ وغاية، وهما لا تكونان إلاّ بِعِلْمٍ ومشيئة، وهذه صفاتُ رَبٍّ عليمٍ حكيمٍ قديرٍ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ويختار.

فَهَلْ أَنْتَ نَظَرْتَ إلى أطوار وُجُودِكَ على أنَّها أسبابٌ فاعلة بذاتها، غَيْرُ مُسَيَّرَةٍ بِخَلْقِ رَبٍّ خالق؟

ويظْهَرُ أنّ المفتون بأسبابه أخذ يُرَاوِغُ ويطرحُ الاحتمالات النظريّة، ومنها أنّ الأسبابَ مشهودةٌ لنا فنؤمن بها، وكون الله هو الربّ الخالق من بَوَاطِنِ الظواهرِ السببيّة أمْرٌ غير مشهود، وجعَلَ يَتَهَرَّبُ من الإذْعان للحقّ.

ويظهر أنّه يُؤْمِنُ بوجودِ خالقٍ أعْلَىٰ، لا تأثير له في تتابع أحداثِ

الكون، ويَجْعل له شركاء من دونه، ويظهر أنّ شِرْكَهُ مِنْ نوع شِرْكِ فاعليّةِ الأسباب بذاتها، فهو في هذه القضيّةِ على مذهبٍ شبيهٍ بمذهب الدَّهْرِيّين.

فلمّا علم صاحبه المؤمن الداعية ما هو عليه من اعتقادٍ فاسدٍ، وكُفْرِ بربّه، وكُفْرٍ بالدَّيْنُونَة والجزاء والحياة الأخرىٰ، قال له كما جاء في النصّ:

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾﴾.

لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّـي: أصْلُهَا لَكِنْ أَنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّـي، لكِنْ حَرْف استدراك، يَسْتَدْرِكُ به على اعتقاد المفتون بأسبابه وبما لديه من مال وأنصار، فيُبيِّن له أنّه يخالفه، ويؤمن بالله رَبِّه.

ضمير ﴿أَنَا۠﴾ في محل رفع مبتدأ. و ﴿هُوَ﴾ ضميرُ الشأن العظيم مبتدأ، وخبرُهُ جملة: ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾ وجُمْلَةُ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ خبَرُ: ﴿أَنَا۠﴾.

فأبان الرجل اعتقاده بجملة على إيجازها فيها أربع مؤكّدات: ﴿أَنَا۠﴾ و ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، و ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾ وهي جملة اسمية معرّفة الطرفين تفيد القصر، وكونُ الجملة كلِّها جملة اسميّة.

وَلَوْلاَ: أي: وهَلاَّ، فهي هنا حرف تحضيض.

مَا شَاءَ اللَّهُ: أي: هذا الذي أشاهده في جنّتي مُعْجِباً لي شيءٌ شاءَهُ الله. فلفظ «ما» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا، والعائد على «ما» محذوف تقديره «شاءَهُ».

فالعبارة مختزلة، وهي عبارةُ تَحْصِينٍ للأشياء المعجبة ممّا قد يصيبُها من سوء، وهي تَدُلُّ علىٰ أنَّ اللَّهُ هو الذي شاءَ ويَسَّرَ الأسباب وأجرى أعمال

خلقه من بواطنها، وهكذا ينبغي للمؤمن أن يُعَبّر عن إيمانه بِرَبّه عند كلّ حَدَثٍ يرتَبِطُ بعُنْصُرٍ مِنْ عناصِرِ صفات الله عزّ وجلّ.

لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ: أي: لا قُوَّة لأحَدٍ في الوجود، ولاَ قُوَّةَ لشيء، إلاَّ بامْدَادٍ له من الله عزّ وجلّ بالقوّة الّتي يُسَخِّرُها له ويُمَكّنُهُ من استخدامها.

وبهذه العبارة يتَبَرَأُ المؤمن من أن تكونَ له من ذاته قُوَّةٌ ما مادّيَةٌ أو معنويّة، ويُحِيلُ ما لديه من قُوَّةٍ على أنَّها من عطاء الله وإمداده وخلقه.

إنْ تَرِنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلداً: «إن» حَرْفُ شرطٍ جازم «تَرَنِ» أَصْلُهُ تَرَنِي، حُذِفَتْ ياء المتكلم إيجازاً، وحذْفُها كثير في لسان العرب، وأمثالُهُ في القرآن كثيرة، والفعل مجزوم بحرف الشرط، وعلامة جزمه حذف آخره لأنه معتل الآخرِ بالألف. «أنا» تأكيد لضمير المتكلم المحذوف لفظاً، والملاحظِ ذهناً. «أَقَلَّ» مفعول به ثانٍ للفعل المجزوم بحرف الشرط.

فَعَسَىٰ: «عسَىٰ» فعْلٌ ناقصٌ يعمل عمل «كان» فيرفع الاسم وينصبُ الخبر، ولا يكون خبر «عَسَىٰ» إلاّ فعلاً مستقبلاً مقترناً بحرف «أن» الذي ينصبُ الفعل المضارع.

وأصل معنى «عَسَىٰ» يدُلُّ على الأمْرِ المحتَمِل المرتقب مثل: لَعَلَّ، وكثيراً ما يُسْتَعْمل للدلالة على الأمْرِ المرجوّ الوقوع بقُرْبٍ، واستعمالُ «عسَىٰ» بمعنىٰ الترجّي هو الأكثر في القرآن، ولهذا يقول علماء العربيّة إنَّها كلمة للتّرَجّي، لكنّها قد تستعمل لمطلَقِ الاحتمال المتوقع كما هي هنا، إذ ليس من خلُق المؤمن أن يَرْجُو زوال نعمة الله على عبْدٍ من عباده ولو كان كافراً، فحكمةُ الله في عبادِه لا يُعارضُها من المؤمن رَجاءٌ يُشْعِرُ بحَسَدٍ أو اعتراضٍ على مقادير الله.

فَعَسَىٰ رَبِّـي أَنْ يُؤْتينِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ: أي: فمن الممكن احتمالاً بالنظر

إلى التقلُّبَاتِ الّتي يُجْرِيها الله في عباده، أنْ يُبَدِّلَ اللَّهُ فَقْرِي، فَيُغْنِيني، فَيُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ.

ويُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً من السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً: الحسبان في الأصل مَصْدَرٌ كالْحِسَاب، يقالُ: حَسَبَ يَحْسُبُ حساباً وحُسْباناً، وبما أنَّ كُلَّ شَيْءٍ عنْدَ اللَّهِ بمقدارٍ، فكُلُّ شيءٍ عنده سبحانه بحساب، لأنّ مقادير الأشياء إنما تُضْبَطُ بالحساب.

وعقوبات اللَّهِ وأنواعُ عذابه ومُهْلِكاتِهِ إنّما يُنْزِلُها بحُسْبَانٍ دقيق، لا شَطَطَ فيه ولا وكْسَ.

وعلى طريقة الوصف بالمصدر، والاكتفاء بالوصْفِ عن ذِكْرِ الموصوف، جاء إطْلاقُ الْحُسبَانِ هنا مُراداً به النَّوازلُ المهلكةُ والْمُتْلِفَةُ الّتي يُرْسِلُهَا اللَّهُ على بعضِ عِبَادِهِ أو بَعْضِ مُمْتَلَكَاتِهم وأشيائهم بحسابٍ دقيقٍ، تأديباً لهم، أو عقوبة معجّلَةً قبل عقوباته المؤجّلةِ إلى يوم الدين.

ولهذا قالوا في معنَىٰ الْحُسْبَانِ هُنَا: هو كُلُّ عذابٍ، أو كُلُّ شرٍّ وبلاء، وبمعنىٰ مصيبة.

صَعِيداً زَلَقاً: أي: أرضاً خالية من أيِّ شجَرٍ أو زرع، وطيناً رَغوِيًّا مُزْلِقاً لاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الأَقْدام.

الصَّعِيدُ: وجْهُ الأرض، ومعلوم أنَّه لاَ يظهر كُلُّ وجْهِ الأرض إلاّ إذا زالَ كُلُّ ما فيها من شجر ونبات.

الزَّلَقُ: الْمَكَانُ الْمَزْلَقَةُ الّذي لا تَثْبُتُ عليه قدمٌ، بسبب ما فيه من طينٍ رَغويٍّ.

أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُها غَوْراً: غَوْرُ كُلِّ شيءٍ عُمْقُه، ويُقَالُ: مَاءٌ غَوْرٌ، أيْ:

غائر، على طريقة الوصف بالمصدر، والماءُ الغائِرُ في عُمْقِ الأرْضِ قد لا يستطيع الناس استخراجه.

دلّت هذه الآيات على أنّ الرجل المؤمِنَ الداعية قد نصح صاحبه المفتونَ بما لديه من أموال وأولاد ينصرونه نَصِيحَتَيْن كبْرَيَيْن تشتملان على عدّة نصائح:

النصيحة الأولى: قَالَ له فيها: هلاَّ إذْ دخَلْتَ جنَّتَكَ ذَاتَ الجناحَيْنِ على شاطِئَي النهر الذي يجري وسطها، قُلْتَ: مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ، أي: هذا الذي أرَاهُ في جنّتِي هو شيءٌ قد شاءه الله، فهو الذي هيّأ لي الأسباب، وأمَدَّني بالقوة لاتّخاذها، فقوّتي الّتِي اتَّخذتُ بها أسبابـي لم تكُنْ لي إلاّ بخَلْقِ اللَّهِ ومعونته وتوفيقه.

النصيحة الثانية: قال له فيها: إنّ تفاخُرَكَ عليّ بكَثْرَةِ أمْوَالِكَ وأوْلادِكَ، تفاخُرٌ بأمْرٍ غَيْرِ مضمُونِ الثّبَاتِ والدّوام، فَمِنْ سُنَّةِ الله عزّ وجلّ في عباده أنَّهُ يُعْطِي ويَمْنَعُ، ليَمْتَحِنَ كُلاًّ بما آتاه بالشكر أو بالصَّبْرِ والرّضا، ومَنْ أعْطَاهُ في حينٍ من الدَّهْرِ رُبّما سَلَبَه مَا كان أعطاهُ إيَّاهُ في حينٍ آخَرَ، ومَنْ ضَيَّقَ عَلَيْهِ في حينٍ من الدَّهْرِ رُبما وسَّعَ عَلَيْهِ في حينٍ آخر، فَلاَ يَغُرَّنَّكَ مَا أنْتَ فيه الآنَ، إنَّهُ صُورةٌ من صُورِ امتحانِك، ومِنَ المُمْكِنِ الّذي قد يَحْصُل، أَنْ يشاءَ اللَّهُ فَيُعْطِيَنِي خيراً من جَنَّتِكَ، ومن الممكن أيضاً أَنْ يَسْلُبَكَ جنَّتَكَ بسببٍ من الأسباب الكونيّة، الَّتي نُشَاهِدُ في صروف الدّهر أمثالَها.

كأَنْ يُرْسِلَ على جَنَّتِكَ نَوازِلَ من السّماء مُهْلِكَةً متلفةً متبّرةً، مُقَدَّرَةً بِحُسْبَانٍ دَقيقٍ لاَ تُصِيبُ غَيْرَ جنّتك، كلفحات صقيع، أو لفحاتِ سَمُوم مُحْرقة، أو صواعق محرقة، أو بَرَدٍ مُحَطّم، لا يُبْقي من الجنَّةِ شيئاً، فتغدُو صَعِيداً، أرضاً خالية من أيّ شجر أو نباتٍ، قد اختلط ترابُها ونباتُها بما نزل عليها من بَرَدٍ وثَلْجٍ، فتصير زَلَقاً لا تثبُتُ عليها الأقدام، كما يحدُثُ أحياناً في

بعض البساتين والغاباتِ الّتي تنزل عليها مُهْلِكاتٌ من السَّمَاء، وهذا أَمْرٌ مُشاهَدٌ.

ومن الممكن أيضاً أن يُصْبِحَ الماءُ الجاري الذي تُسْقَىٰ منه جنَّتُكَ ماءً غَوْراً، أي: غائراً في أعماق الأَرْضِ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ له طَلَباً، وإذا غَارَ الماء في أعماق الأرض يَبِسَ كُلُّ ما في بستانك الذي تُفَاخر فيه، وتَزْعُم أنَّه لن يبيدَ أبداً، فكَمْ من ماءٍ كان نهراً جاريًا فغارَ في أعماق الأرض، فيبسَتِ الأشجار والزُّروع الّتي كان يَسْقيها.

أَلَيْسَ هذا احتمالاً قائماً؟!.

موقف المغرور من هاتين النّصيحتين:

لكنّ الرَّجُلَ المفتونَ الْمُعْتَمِدَ على أسبابه ظلَّ مغروراً بنفسه، وبما يَمْلِك من أسباب، مخدوعاً بالظواهر، غيرَ مؤمِنٍ بأنَّ مَا هُوَ فيه قد كان بعطاء اللَّهِ له، ليمتحِنَهُ في ظروف الحياة الدنيا.

- ٣ -

الفصـل الثالـث

وشاء الله أن يُعَاقب المغرورَ المفتون بأسبابه عقابَ تأديب ليَرُدَّهُ إلى صَوابه، ويوقظه من غفواته، ويُقَدِّمَ له ما يُقْنِعُهُ بالجزاءِ المؤجّل إلى يَوْمِ الدين، فأرسَلَ على جَنَّتِهِ حُسْباناً من المتلفاتِ أحاطَتْ بكُلِّ ثَمَرِهِ فأَتْلَفَتْهُ، كلَفْحَةٍ من الرّيح الشديدة البرودة، الّتي تُحوِّلُ الثمراتِ وأوراقَ الأشجار والنبات إلى جليدٍ مُتْلِفٍ مُهْلِك، فمن المعروف أنّ الصَّقِيعَ يُتْلِفُ الثّمَرَ وأوراق الشَّجر.

وحين أَتْلَفَ الله له ثمارَ جنّتِهِ لَمْ تكن له فئة من دون الله يَنْصُرُونَه فيحْمُونَ جنّتَهُ من إتْلافِ ثمارِهَا، وما كان هو بقُوَّته منْتَصراً على مقادير الله الْعِقَابيّة.

وذهب الرجُلُ المغرور المفتون إلى جنَّتِه صباحاً كعادته، فوجد كلَّ ثمارها وأوراقها متفحّمةً بالصَّقِيع، فَصَارَ يُقلّبُ كفّيْهِ حَسْرَةً على ما أنْفَق من أموال في جنّتِه لاستثمارها، ورآها خاويَةً من الثمار، مُتساقِطَةَ الأَغْصَانِ والْعُرُوقِ على عُرُوشِها، فقد كانت ثمارُها من العنب، في موسم قِطافه، ومن الجيّد في أشجار العنب أن تُمَدَّدَ أغْصَانُها على عروش، أي عَلَىٰ أخشَابٍ متفرّقة بينها مساحات فارغات، وهي مرفوعة عن الأرض، حتّىٰ تتدلّىٰ عناقيد العنب من الأغصان، وتأخُذَ الأغصانُ حظَّها الّذي تحتاج إليه، من الشمس والهواء، وتكون مَحْمُولَةً على العروش.

ومن عادة الرَّجُل العاقل الرزين، الذي يتحسّر على ما فقد من أموال أن يضرب كفّ اليد الْيُمْنَىٰ على كَفّ اليد الْيُسْرىٰ، فكَفَّ الْيَد الْيُسْرَىٰ على كَفّ الْيَدِ الْيُمْنَىٰ بعد قَلْبِهما، وهكذا بالتتابع، يُقَلّبُهُما وَيَضْرِبُ العليا منهما على السُّفلىٰ تَحَسُّراً وندماً.

أمّا غير العاقل الرَّزِين، فربما بكى وصاح وضرب رأس نفسه بيده، أو بشيءٍ يراه قريباً منه.

واتَّعَظَ الرَّجُلُ بما جَرىٰ له من عِقَابٍ تأديبيّ، فصار يقولُ مُكرّراً، يا ليتني لم أشرِكْ بِرَبِّـي أحداً، كما يُكرّر حركة تحسُّرِهِ بتقْلِيبِ كفَّيْه.

وكانت هذه العقوبَةُ الرّبّانيّةُ التَّأْدِيبيّة سَبَبَ تخلُّصِه من الشِّرْك، واسْتِمْسَاكه بالإيمان الصحيح الكامل، ورَجْعَتِه إلى ربّه تائباً مُنِيباً.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ: جَاءَ الفعل على صيغة الْمَبْنِيّ لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه،

إيجازاً، لِلْعِلْمِ من السِّباقِ بأَنَّ اللَّهَ هو الذي عَاقبَهُ عقابَ التَّأْديب، فأرسَلَ على جَنَّتِهِ ما يُحِيطُ بثَمَرِهِ مِنَ الْمُتْلِفاتِ المهلكاتِ، فأتْلَفَتْهُ لَهُ.

يُقَلِّبُ كفَّيْهِ: جاء هذا التعبير كِنَايةً عن الحالة الّتي سبَقَ بيانُها، من ضرب كفِّ اليد اليمنىٰ على كفّ اليد اليسْرَىٰ، وبالعكس، مع التكرار، عند التحسُّرِ والنّدم.

وهِيَ خاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِها: أي: وحَالُ جَنَّتِهِ أنّها خاوِيَةٌ مِنْ ثِمَارِها، مُتَسَاقِطَةُ الأَغْصَانِ والفروعِ على عُرُوشِها، بِسَبَبِ ما أصابها من الصقيع الذي أتْلَفَها فأفْقَدَهَا ما فيها من حياةٍ تنهضُ بها متساميَةً في السماء.

فعبارةُ: «على عُرُوشِها» معمولٌ لاسم فاعلٍ محذوف تَدُلُّ عليه القرائِنُ، والتقدير، مُتَسَاقِطَةُ الأَغْصَانِ علَىٰ عُرُوشها.

الْعُرُوشُ: هي لأشجار العنب، أَخْشَابٌ تُوضَعُ بشَكلٍ أفُقِيّ متفاصلة عن بعضها، على جُسُورٍ تُرْفَعُ، وتُوضَعُ فَوْقَ أَعْمِدَة تُنْصَبُ عَمُودِيّة واقفة، فتتمَدَّدُ علَيْها أغْصَانُ شجرات العنب وفروعها، وتتدلّىٰ العناقيد محمولةً بالأغصان المحمولة بالعروش.

يَا لَيْتَنِي: الّذي ترجَّحَ لَدَيَّ أَنَّ «يا» في مثل هذا التعبير هي يَاءُ النُّدْبَة، فَهُوَ يَنْدُبُ أمْنِيَّةً فَاتَهُ تَدَاركها، وهي أُمْنِيّة التوبة قبْلَ نُزولِ العقاب.

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً: أي: حينما نزل به العقاب التأديبي، لم يَنْفَعْهُ أولادُه الذين كان يفتخر بكثرتهم على صاحبه المؤمن الناصح له، ولم تَكُنْ له فئةٌ تَحْمِيهِ من نُزُولِ عقاب الله في ثمراته، لأنّ الناسَ مهما بلغت قُواهم لا يحمون أنفسهم ولا غَيْرَهُمْ من مقادير الله، ولم يَكُنْ هُوَ مُنْتَصِراً لِنَفْسِهِ بوسائله وأسْبابه، فمقادير الله لاَ تُعَانَدُ، وعُقُوباتُهُ لاَ تُرَدُّ.

- ٤ -

التعليـق الختامـيّ

وتعليقاً على الظواهر السببيّة الّتي رَتَّبَهَا الله في كونه لنظام الحياة الدنيا، ومنها أن يكون للإنسان فيها أعوانٌ وأنصارٌ يَنْصُرُونه، أبانَ اللَّهُ عزّ وجلّ أنّ هذا النظام السببـيّ القائم في الحياة الدنيا، لَنْ يكون له وُجُودٌ يوم الدّين في الحياة الأخرىٰ، بَلْ سَتَكُونُ هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ كُلُّها ظاهراً وباطناً لِلَّهِ الْحقِّ، وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ظاهراً ولا باطناً، وهُوَ خَيْرٌ ثَواباً لِمَنْ قَدَّمَ إيماناً صحيحاً صَادِقاً، وعَملاً صالحاً، وخَيْرٌ عاقبةً لِمَنْ علَّقَ عاقبتَهُ بِهِ مؤمِناً به وبما جاءَ من عنده، ومُتَّبِعاً وصاياهُ، وسالكاً صراطه المستقيم.

فقال الله عزّ وجلّ في خاتمة النّصّ:

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

الْوَلاَيَة: بفَتْحِ الْوَاوِ وَكَسْرِها هنا بمَعْنَىٰ: النُّصْرَة والْمُلْكُ التّامُّ الّذِي لاَ تَسْتُرُهُ ظواهرُ سَببيّة.

وخَيْرٌ عُقْباً: أي: وخَيْرٌ عَاقِبَةً، الْعُقْبُ والْعُقُب، بإسكان القاف وضمّها، العاقبة.

* * *

الفصـل الثالـث

نماذج من وصايا الآباء للأبناء

بما أنّ الوصايا تدخل ضمن أساليب تبليغ دين الله والنصح والإرشاد والموعظة الحسنة، وبما أنّ الآباء أحرص الناس على سعادة الأبناء، كان من الخير في هذا الكتاب أن أُدَوِّن فيه نماذج من وصايا الآباء للأبناء.

الوصية الأولى: وصيّة كلٍّ من إبراهيم ويعقوب لبنيه.

الوصية الثانية: وصيّة لقمان الحكيم لابنه.

الوصيـة الأولـى

وصيّة كُلٍّ من إبراهيم ويعقوب لبنيه

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيم: أي: ومن يُعْرِض عن ملة إبراهيم ويتركها. يقال لغة: رَغِبَ في الشيء إذا أراده وأقبل عليه، وإذا كان ممّا يُؤخذ أو يُسْتَمْسَكُ به أخذه أو استمسك به. ويقال: رَغِبَ عنه أذا أعرض عنه وتركه غيْرَ مُرِيد له.

إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَه: أي: إلاّ مَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ على السَّفَهِ.

السَّفَهُ: نقصان العقل، والخفَّةُ والطيش.

وقيل: «سَفِهَ نفسَه» هو بمعنى: خَسِرَ نفسه، أقول: هذا على تضمين فعل «سَفِهَ» معنى فعل «خَسِرَ» والتقدير: سَفِهَ خاسراً نفسه.

اصْطَفَيْنَاهُ في الدُّنْيَا: أي: وجَدْنَا صَفْوَةً، فخصَصْناه ومَنَنَّا عليه بالنبوّة والرّسالة.

إذْ قَالَ له رَبُّهُ: أسْلم: هٰذِهِ إحدىٰ كلماتِ الله لإبراهيم عليه السلام التي ابتلاه رَبُّهُ بِها، فَأَتَمَهُنَّ كما طلب منه، طاعةً وامتثالاً لأوامره ونواهيه.

قَالَ: أسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين: أي: فقال مستجيباً للتكليف الرّبّاني: أسْلَمْتُ لِرَبِّـي الذي هو رَبُّ العالمين.

هذا التكليف الرّبّانيُّ الّذِي وَجَّهَهُ الله عزّ وجلّ لإبراهيم عليه السلام، وهو الإسلام والاستسلامُ الكامل لربّ العالمين، قد وَصَّىٰ به إبراهيمُ بنيه إسماعيلَ وإسْحَاقَ وَيعقوب.

وكذلِكَ وَصَّىٰ به يعقوبُ بنيه، وكان له اثنا عشر ولَداً، أحدهم يوسف عليه السلام.

وكُلٌّ من إبراهيم ويعقوب عليهما السلام قال لبَنِيه في وصيَّتِهِ لهم:

﴿ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

أي: إنّ الله اصطفى لكم عقائد الدِّين وشرائعه وأحكامَه فاختارَ لَكُمْ أحْسَنَها، وكلّفكُمْ أنْ تأخُذُوا بها وتَعْمَلُوا في حياتكم بمقتضاها، وأمركُمْ أن تكونوا مُسْلِمِي قيادتكم في مَسِيرة حياتكم إليه جل جلاله، تطيعونه فيما أمركم به فَتُؤَدُّونه، وتُطيعُونه فيما نهاكُمْ عنه فتجتنِبُونه.

فالْتَزِمُوا بإسلامِكُمْ لَهُ كُلَّ أزْمانِ حياتكم، حتَّىٰ إذا جاءكم الموتُ الذي لا تعلمون وقْتَ نُزُوله بكم، عند انتهاء آجالكم في هذه الحياة الدنيا الّتي أنتم فيها ممتحنون، جاءكم وأنْتُم مسلمون مستسلمون منقادون مطيعون رَبّكم، فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه، لِتَلْقَوْا ربّكُمْ صالحين، مؤدّين ما طلبه منكم

في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا، وتكونوا من الناجين والفائزين بالمنازل الرفيعة في جنَّاتِ النعيم.

أمّا يعقوبُ عليه السلام فمع وصيّته لبنيه بأن لا يموتُوا إلاَّ وهم مسلمون، قد كانت لَهُ وصِيَّةٌ لهم عندما حضره الموت، وقد أخذ عليهم العهد بما وصّاهم به حينئذٍ.

قال لهم: ما تَعْبُدونَ مِنْ بَعْدِي؟.

قالوا له: نَعْبُدُ إلَهَكَ وَإلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ إلَهاً وَاحِداً ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

فَأَدْخَلُوا عَمَّهُ إسماعيل ضِمْن آبائه، لأنّ الأعمام لهم مِثْلُ مَنْزلة الآباء، ويدخُلونَ في عموم الآباء عند إطلاق لفظ الآباء في معتاد الناس.

وذكروا هنا لفظ الإلَه بمعنى: «المعبود» ومعلوم أنّ إلَه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق هو رَبُّ العالمين الواحد الأحد، فَهُو إذاً إلَهٌ واحدٌ لاَ شريكَ له.

* * *

الوصيّة الثانية

وصيّة لقمان الحكيم لابنه

قال الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ
اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي
صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ
وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ
خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾.

وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ: أي: ضَعْفاً علَىٰ ضَعْفٍ.

وَفِصَالُهُ: أي: وفِطَامُهُ.

ولاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ: أي: ولاَ تُمِلْه كبراً على عباد الله، وهو كناية عن كلّ كبرْ.

وَلاَ تَمْشي في الأَرْضِ مَرَحاً: المرَحُ في المشي الاختيال والتبختر،

وهذا يفعَلُه بعض الناس حينما يفرحون بما هُمْ فيه من قُوَّةٍ أو شيءٍ من زينة الحياة الدنيا ومتاعها.

واقْصِدْ في مَشْيِكَ: القَصْدُ في المشي هو المشيُ المستوي، مع التوسُّطِ بين التكاسُلِ والضعف، وبين الإفراط في السّرعة، الدالّ على الخفّة والطيْش.

واغْضُضْ من صَوْتِكْ: أي: وانْقُصْ منْهُ حتّىٰ يكون بقدر حاجة المستمعين لَكَ.

اشتمل هذا النّصّ علَىٰ وصايا وجَّهَها لُقْمانُ الحكيم لابْنه، وأَدْخَلَ الله عزّ وجلّ ضِمْنَ وصَايا لقمانَ لابنه، وصيَّتَهُ للإنسانِ بوالديه، في الآيَتيْنِ (١٤ ـ ١٥) للإشعار بأنّ وصايا لقمان لابْنِهِ هِيَ من الوصايا الّتي أنزلها اللَّهُ في رسالاته قبل لُقْمان، واستفادها لقمانُ منها.

فجميع هذه الوصايا سواءٌ مَا جاء منها حكايةً عن لقمان، أم مَا جاءَ بياناً مباشراً عن الله عزّ وجلّ، هي من وصايا الله للناسِ في رسالاته السابقات.

ولعل لقمان عليه السلام قد ذكر لابنه في ضمن وصاياه، النَّصَّ الذي حفظه ممّا أنْزَلَ الله في الكُتُب الأُولَىٰ، وهو قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

قولُهُ تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ يُشْعِرُ بأنّ هٰذِهِ الوصِيَّةَ ممّا أَنْزَلَهُ اللَّهُ على آدمَ الإنْسانِ الأَوّلِ لِيُبَلِّغَهُ إلى ذُرِّيَتِه، فَكُلُّ إنْسَانٍ مُنْذُ بَدْءِ وجود الناس في الأرض، قَدْ وُجِّهَتْ لَهُ هٰذِه الوصِيَّةُ الرَّبَّانِيَّة.

البيـان التحليـلي:

اشتملت هذه الوصيَّة اللُّقمانيّة على أربع عشرة قضيَّة:

القضيّة الأولى: النَّهْيُ عَنِ الإشْراكِ بالله، فالشّركُ باللَّهِ ظُلْمٌ عظيم، وهو يشْمَلُ الإشراك بربُوبيّة الله، وهذا ظُلْمٌ عظيم في حَقِّ الله عزّ وجلّ، إذْ لاَ ربَّ في الوجود غَيْره، ويَشْمَلُ الإشراك في إلَهيَّةِ الله عزّ وجلّ، وهذا أيضاً ظُلْمٌ عظيم، فالإلَهيَّةُ وهيَ اسْتِحقَاقُ العبادة لا تكون إلاّ للرَّبّ الممدّ بعطاءات الربوبيّة، وبما أنّه لاَ رَبّ إلاّ الله في الوجود فلا مُسْتَحِقَّ للعبادة في الوجود غيرُه، فعبادة غيره معه إشراك به فيما هو من حَقِّهِ وَحْدَهُ لا إلَه إلاّ هو، ومعنى: «لا إلَه إلاّ الله»، لا معبودَ بحَقٍّ سواه.

وعلى الرُّغم من أنّ الإشراكَ في إلَهيّة الله عزّ وجلّ أخَفُّ من الإشراك في ربوبيّته، فإنّ الله عزّ وجلّ لا يغفر لمن مات عليه.

وأخفُّ أنواع الإشراكِ في إلَهيَّة الله عبادة الَّذِين يقولُون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وهٰذا أوّل دَرَكاتِ الكفر.

وكَوْنُ الشّرْكِ ظُلْماً عَظيماً لاَ يُفيد أنّه أعظم الظُّلْم، فجُحودُ الرّبّ الخالق جحوداً كُلّيّا أشَدُّ وأعْظَم ظُلْماً، وأكْثَرُ بغياً وعُدْواناً على حقّ الله عزّ وجلّ.

دل على هذه القضية:

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

القضيّة الثانية: الأمْرُ بالشكر لله عزّ وجلّ على نِعَمِه الّتي لا يُحْصيها العباد، ففي الشكر معنى مقابلة الفعل الجميل بِفِعْل جميل.

ويدخُلُ في الشكر لله عزّ وجلّ عبادتُه بما شرعَ لعباده من عبادات، والتَّقَرُّبُ إليه بمراضيه، وحَمْدُهُ والثناء عليه والتوجُّه له بالدعاء وحده.

وفي الشكر معنى مقابلةِ المنَّة الحسنة بما يُرْضِي مُوليها.

أمّا الحمدُ فهو أعَمُّ من الشكر لأنَّه مطْلَقُ الثناء على المحمود بصفاته الحسنة، ولو لم يكن لَهُ على الحامِدِ مِنَّةٌ ما.

دلّ على هذه القضية:

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي. . .﴾.

القضيّة الثالثة: الأمر بالشكر للوالدين على ما تحمَّلا وما قَدَّمَا في تنشئتهما وتَرْبيتهما من عطاءاتٍ ومِنَنٍ لولدهما.

وقد تكرّر في القرآن المجيد الأمر بالشُّكر لله وللوالدين معاً، ودَلّ هذا النّصّ كما ذكرتُ آنفاً على أنّ هٰذهِ الوصيّة ممّا أوصَىٰ الله به الإنسانَ بوَجْه عام، فهي من الوصايا الّتي تلَقَّاها آدم عليه السلام من ربّه، وبلّغها آدم عن ربّه لأولاده، واسْتَمرَّ تنزيل هذه الوصيّة الرّبّانيّة في الرسالات الرّبّانيّة كلّها.

ومع الوصية بالشكر لله وللوالدين التنبيهُ على الجزاء يوم الدين، بإشارة قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: وإذا كان إليه وحده الْمَصِير فهو جلّ وعلا يثيب علَىٰ الشكر، ويُعَاقِبُ على الجحود والكفر.

دلّ على هذه القضيّة:

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

القضيّة الرابعة: النهيُ عن طاعة الوالدين الكافرين إذا جاهدا الولد على أن يشرِكَ باللّٰهِ شَيْئاً، ويُلْحَقُ به كُلُّ ما فيه معصيةٌ لله عزّ وجلّ.

ولكن على الولد أن يصاحب والديه الكافرين في الدنيا مصاحبةً حسنةً، وأن يُقدِّم لهما معروفاً.

دلَّ على هذه القضية:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا . . . ﴿١٥﴾ ﴾.

إنّ أيّ مشركٍ بالله لا يَمْلِكُ دَليلاً علميًا، ولكِنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ إذْ حمَّلَ الإنسانَ مسؤوليَّةَ اعْتِقَادِ ما يَثْبُتُ لديه بعلم صحيح، ومسؤولية العمل به، فقد تَرَكَ له في هذا النّصّ حرّيّة التزام ما يَثْبُتُ لديه بعِلْمٍ صحيح في موضوع الشرك، مع أنّ قضيّة الإشراك بالله يستحيل إثباتُها بدليلٍ عِلْمِيّ، وفي هذا تمجيد للعلم، والعمل بمقتضاه.

وقوله تعالى: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ أي: وصاحبهما في الدنيا مصاحبَةً حسنةً وَقَدِّمْ لهما معروفاً، كمالٍ وتكريم وخدمة، فعل: «صاحِبْ» ضُمِّنَ مَعْنَىٰ فِعْل «قَدِّمْ» فَنَصَبَ لفظ «معروفاً» على أنه مفعول به، أي: وقَدِّمْ لهما مَعْرُوفاً في مصاحبتك لهما.

أو نقول: التقدير: وصاحبهما في الدنيا اصطحاباً معرُوفاً، فيكون لفظ معروفاً صفة لمفعول مطلق محذوف، فهو نائب مفعول مطلق.

القضية الخامسة: أمْرُهُ بأنْ يَتَّبعَ سبيل من أناب إلى الله، أي: سبيل من رجع إلى الله عزّ وجلّ بالإيمان والطاعة وسُلُوكِ الصراط المستقيم.

والذين أنابوا إلى الله في حياتهم هم الرُّسُل والنبيُّون والصّديقُونَ ومن اتّبَعَهُمْ بإحسانٍ من المؤمنين.

دلّ على هذه القضيّة:

﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ . . ﴾.

وقد تكرّر في القرآنِ وجوب اتّباع سبيل جماعة المؤمنين، لأنّ الجماعة العامّة للمؤمنين يكونُ سبيلُها العامُّ الّذِي أجْمَعُوا عليه سبيلاً صالحاً مُنْجياً

عند الله عزّ وجلّ، نظراً إلىٰ أنَّ جماعة المؤمنين قد عصمهم الله عزّ وجلّ من أن يتّفقوا اتفاقاً عامًّا على ضلالة.

القضية السادسة: الوصيّة بملاحظة اليوم الآخر يوم الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، مع كلّ فعل أو ترك في رحلة الحياة الدنيا.

دلّ عليها من النصّ:

﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

القضية السابعة: بيان شمول علم الله لكلّ شيءٍ مهما كان دقيقاً وصغيراً، وشمول قدرة الله على خَلْق ما يُريد، وإحضار أيّ شيءٍ يُريد من أقْصَىٰ شيءٍ في الكون، ومن باطن أيِّ شيءٍ في الكون، وهو جلَّ وعلا لا يضلُّ عنه شيءٌ مهما صَغُر واختفَىٰ، ولا يُعْجِزُه شيءٌ من الممكنات العقلية.

دل على هذه القضيّة قول لقمان لابنه:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

القضيَّةُ الثامنة: الأَمْرُ بإقامة الصلاة.

دلّ على هذه القضيّة قول لقمان لابنه:

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

إنّ الصَّلاَة فَرِيضة فَرَضَهَا الله على عباده في كلّ رسالاته للناس.

القضيّة التاسعة: توصية لقمان لابنه بأن يأمُرَ بالمعروف وبأن يَنْهَىٰ عَنِ المنكر.

فدَلّ هذا على أنّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من التكاليف الّتي اشتملت عليها الرسالات الرّبّانيّة السابقة للإسلام.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه:

﴿. . وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ . . ﴾.

القضيّة العاشرة: توصيةُ لقمان لابنه بأن يَصْبِر على كلّ مَكْرُوه أصابه، سواءٌ أكان من المصائب الّتي تنزل من عند الله بالأنفس أو الأموال أو الأهل أو الأولاد، أو من المصائب التي يواجهها من الناس حامل رسالة الهداية والتذكير والإصلاح والحماية، في مجال أَمْرِه بالمعروف ونَهْيِهِ عن المنكر، ودعوته إلى دين ربّه، أو غير ذلك من مجالات الخير.

وأبانَ له أنَّ الصَّبْر على المصائب من عَزْمِ الأُمور، أي: من الأمور التي تحتاج إرادةً قويَّةً من مُسْتَوى العزم.

دلّ على هذه القضية قولُ لقمان لابنه:

﴿. . . وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾.

القضيّة الحادية عشرة: توصية لقمان لابنه بأن لا يُصَعِّرَ خدّه للناس، أي: بأن لا يستكبر عليهم بأيَّةِ حركةٍ تَدُلُّ على كبْرِه وتعاليه على الناس، أو بأيّ قول.

يقال لغة: صَعَّر خَدَّهُ، إذا أمالَهُ كِبْراً.

فتصعير الخدِّ كنايَةٌ عن الكبر على عباد الله، لأن عادة المستكبرين أن يُمِيلوا رُؤُوسهم إلى جانب، فيظهر أَحَدُ الخدَّيْنِ مائلاً.

دلّ على هذه الوصيّة قول لقمان لابنه:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ . . . ﴾.

القضيّة الثانية عشرة: توصية لقمان لابنه بأن لا يَمْشِيَ في الأرض مَرَحاً، أي: بأن لا يمشي في الأرض مشي الفرحين المستكبرين باختيال وتبخْتُر.

الْمَرَحُ في المشي: الاختيال والتبختر، وأَصْلُ المرح شدّةُ الفرح

والنشاط، وتجاوزُ الحدّ في الحركات عمّا يتحلّىٰ به الناس عادة من سَمْتٍ واعتدال، ويكون هذا التجاوز عن فَرَحٍ أخرج النفس عن اعتدالها، وسَوَائها، وبسبب ذلك يتكَبَّرُ ويتبخْتَرُ الْفَرِحُ المتجاوز الحدّ.

دلّ على هذه القضية قولُ لقمان لابنه:

﴿ . . . وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

القضيّة الثالثة عشرة: توصية لقمان لابنه بأن يَقْصِدَ في مَشْيه، أي: بأن يكون مشْيُهُ قَصْداً مستوياً متوسّطاً بين التكاسل والتضاعف، وبين الإفراط في السّرعة.

فالتَّباطُؤُ والتضاعف كَسَلٌ مذموم، والسُّرعة الزائدة خِفَّةٌ وطَيْش.

أمّا الاستواء والاعتدال مع التوسُّط بين التّباطُؤ والسّرعة فهو الذي يدلُّ على الرزانة والعقل وسلامة النفس.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه:

﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ . . . ﴾.

القضيّة الرابعة عشرة: توصية لقمان لابنه بأن يَغُضّ من صَوْته، أي: بأن يخفضه ويكتفي منه بقدر حاجة المستمعين، وهذا من آداب استخدام الصوت للحاجات.

وأبان له أن رفع الصوت من غير حاجة أَمْرٌ مستنكر مستهجن، وضَرَبَ له مثلاً صوت الحمير، مبيّناً له أنّه أنْكرُ الأصوات.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه:

﴿ . . . وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

أصل الغضّ النقص من الشيء.

الفصل الرابع

صور ونماذج عامة

وفيه خمسة عشرة صورة:

١ ـ الدعوة إلى الدخول في الإسلام المصحوبة بالإنذار (دعوة الرسول لليهود).

٢ ـ إقامة الحجة على المخالف المراوغ من نصوص ما يؤمن به (حوار الرسول لبعض أحبار اليهود).

٣ ـ حُسْن الاستقبال والحوار بانتزاع الاعتراف بالمقدمات (قصة إسلام عديّ بن حاتم).

٤ ـ تكريم الأسير وإطلاقه الحكيم من الأسر وأثرهما (قصة إسلام ثمامة بْنِ أُثَال).

٥ ـ تنزيل الناس منازلهم تأليفاً لقلوبهم (قصة إسلام وائل بْنِ حُجْر).

٦ ـ امتلاك القلوب بمكارم الأخلاق (قصة إسلام الحبر اليهودي زيد بن سعنة).

٧ ـ الدعوة والنصح بتوجيه الكتب والرسائل.

(رسالة الرسول إلى كسرى).

(رسالة الرسول إلى هرقل).

(رسالة الرسول إلى المقوقس).

(رسالة الرسول إلى النجاشي).

٨ ـ رسائل الأقربين إلى الأقربين وأثرها (رسالة الوليد بن الوليد لأخيه خالد بن الوليد).

٩ ـ الجرأة في الحقّ (جرأة الصحابـي عائذ بن عمْرو بن هلال عند الأمير عبيدالله بن زياد).

١٠ ـ من طلب الموعظة فتح أبواب نفسه لتقبلها.

(ابن السمّاك وهارون الرشيد).

(الحسن البصري وعُمر بن عبد العزيز).

(والد عبد العزيز بن أبـي حازم وعمر بن عبد العزيز).

(الأوزاعي والخليفة العباسي المنصور).

(عائشة أم المؤمنين ومعاوية بن أبـي سفيان).

١١ ـ الشجاعة الأدبية في إنكار المنكر (العزّ بن عبد السلام وسلطان مصر نجم الدين أيوب).

١٢ ـ زهد العلماء بما في أيدي الأمراء يمنحهم الجرأة في الحق (سفيان الثوري وأبو جعفر المنصور).

١٣ ـ قوة تأثير الموعظة (صالح بن بشير المرّي والخليفة المهدي).

١٤ ـ شجاعة العالم الرّباني في أخطر المواقف (الإمام ابن تيمية وقازان طاغية التتر).

١٥ ـ ذكاء ودهاء العالم الداعية (مناظرات الباقلّاني ودهاؤه في بلاد الروم).

الصـورة الأولـى

الدعوة إلى الدخول في الإسلام المصحوبة بالإنذار
بعد سبق تبليغ أركان الإيمان وأركان الإسلام بما يكفي للبلاغ والعلم

دعوة الرسول ﷺ لليهود:

روى البخاريّ عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال:

(بَيْنَا نَحْنُ في الْمَسْجِد خرَجَ رسول الله ﷺ فقال: «انْطَلِقُوا إِلَىٰ يَهُودَ» فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّىٰ جِئْنَا بَيْتَ المِدْرَاسِ[1]، فقام النبـيّ ﷺ فقال: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا».

فقالوا: بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ أُرِيدُ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا».

فقالوا: قَدْ بَلَّغْتَ يا أبا القاسم.

فقال لهم: «ذَلِكَ أُرِيدُ» ثُمَّ قَالَها الثالِثة، فقال:

«اعْلَمُوا أَنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ وَرَسُولِه، وَإِنّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ مِن هَـٰذِهِ الأَرْضِ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئاً فَلْيَبِعْهُ، وَإِلاَّ فَاعْلَمُوا أَنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ).

انظر فتح الباري الحديث رقم ٧٣٤٨

---

(١) المِدْراس: الموضع الذي يُدْرسُ فيه كتاب الله، ومنه مدراس اليهود الذي يدرسون فيه التوراة والكتب الدينيّة المنزلّة على أنبياء بني إسرائيل.

هذه الحادثة تدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَدْ تَبَلَّغُوا الدَّعْوَة إلى الإسلام، وَعَلِمُوا أَرْكَانَ الإيمان وأركان الإسلام عِلْماً كافِياً، وأنّ الرسول ﷺ أراد أن يُبَلِّغَهُمْ عن طريق تبليغ رجالِ أكْبَر مؤسَّسةٍ دينيّة لهم في المدينة هي بيت الْمِدْراس، البلاَغَ الأخير المؤكَّد المصحوب بالإنْذار، بأنَّهُمْ إذا لم يُسْلِمُوا لَمْ يَسْلَمُوا عند الله عزّ وجلّ في الآخرة، ولم يَسْلَمُوا أيضاً في الدنيا عند رسوله ومن معه من المؤمنين، وصارحهم بخطَّتِهِ المستقبليّة، وأبان لهم أنه يريد إجلاءَهم من هذه الأرض مشيراً إلى المدينة وما حولها، وربما كان يَقْصِدُ جزيرةَ العرب كلَّها، ومنحهم الفرصة ليتأهبوا لهذا الإجلاء، إذا لم يستجيبوا للدخول في الإسلام، وذلك ببيع ممتلكاتهم الّتي لا يستطيعون نَقْلَها، لأنَّه إذا جاء وقْتُ الإجلاء طُرِدُوا دون أن يستطيعوا حمل شيء من ممتلكاتهم الّتي لا يمكنُهُمْ نَقْلُها.

وقد أكّدَ الرسول ﷺ لهم عبارة: أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا. ففي الأولى قالوا له: بلَّغْتَ يَا أَبا القاسم. وفي الثانية والثالثة أضافُوا إلى عبارتهم حرف «قَدْ» الدّالّ على التأكيد، فقالوا له: قَدْ بلَّغْتَ يا أبا القاسم، أي: قَدْ قُمْتَ بما يجب عَلَيْكَ مِنْ تَبْلِيغ، لكنَّنَا لاَ نُرِيدُ أَنْ نَسْتَجِيبَ لدَعْوَتِكَ.

* * *

الصـورة الثـانية

إقامة الحجّة على المخالف المراوغ من نصوص ما يؤمن به

حوار الرسول ﷺ لبعض أحبار اليهود في حكم الرجم:

روى أبو داود بسننه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

(أَتَىٰ نَفَرٌ مِنْ يَهُودَ، فَدَعَوْا رَسُولَ الله ﷺ إِلَىٰ الْقُفِّ[1]، فأَتَاهُمْ فِي بَيْتِ الْمِدْراسِ، فقالوا: يا أَبا الْقَاسِمِ، إِنَّ رَجُلاً مِنَّا زَنَىٰ بِامْرَأَةٍ، فاحْكُمْ، فوضَعُوا لرسول الله ﷺ وِسادةً فجَلَسَ عليها ثم قال:

«ائْتُونِي بالتوْرَاةِ».

فَأُتِيَ بِهَا، فَنَزَعَ الْوِسَادَةَ مِنْ تَحْتِهِ، وَوَضَعَ التَّوْراةَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «آمَنْتُ بِكِ وَبِمَنْ أَنْزَلَكِ» ثُمَّ قال: «ائْتُونِي بِأَعْلَمِكُمْ» فَأُتِيَ بِشَابٍّ، فقال لَهُمْ رسول الله ﷺ: «ما تَجِدُونَ في التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الزِّنَا؟» فقالوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ، فقال عبدُ الله بْنُ سَلَام[2]: كذَبْتُمْ، إِنَّ فِيهَا آيَةَ الرَّجْمِ، فَنَشَرُوا التَّوْرَاةَ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ علَىٰ آيَةِ الرَّجْمِ، ثُمَّ جَعَلَ يَقْرَأُ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَها، فقالَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ سَلامٍ: ارْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَها، فَإِذَا فيها آيَةُ الرَّجْم، فقالُوا:

---

(١) القُفّ: اسم وادٍ في المدينة.

(٢) من فضلاء من أسلم من اليهود.

صَدَقَ يا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بهما رسولُ الله ﷺ فَرُجِمَا.

قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَجْنَأُ[1] عَلَىٰ الْمَرْأَة يَقِيها الْحِجَارَة).

فأقام الرسول ﷺ الحجّةَ عليهم ممّا يؤمنون به في كتابهم.

* * *

(١) يَجْنَأ على المرأة: أي: يُكِبُّ عَلَيْهَا ليَحْمِيَها.

الصـورة الثـالثة

حُسْنُ الاستقبال والحوارُ بانتزاع الاعتراف بالمقدمات التي تستلزم النتائج الّتي يُرادُ الإلزام بها مع استعطاف النفس بما تحبُّ

قصة إسلام عديّ بن حاتم[1]:

ذكر ابن كثير في تفسيره قال: روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طُرُقٍ، عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه، أنّه لما بلغته دعوة الرسول ﷺ فرّ إلى الشّام، وكان قد تنصّر في الجاهلية، فَأُسِرَتْ أخْتُه وجماعَةٌ مِنْ قومه، ثُمّ مَنَّ رسول الله ﷺ على أُخْتِه وأعطاها، فرجَعَتْ إلى أخِيها، فرَغَّبَتْهُ في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فتقدَّمَ عَدِيٌّ إلى المدينة وكان رَئيساً في قومه طيّىء، وأبوه حاتم الطّائي المشهور بالكرم.

فتحدّث النّاس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عُنُقِ عَدِيٍّ صليبٌ منْ فضّةٍ، وهُوَ (أي: الرسول) يقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قال عَدِيٌّ: فقُلْتُ: إنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدوهُمْ.

فقـال: «بَلَـىٰ، إنَّهُـمْ حَـرَّمُـوا عَلَيْهِـمْ الْحَـلاَلَ، وأَحَلُّـوا لَهُـمْ الْحَـرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبادَتُهُمْ لَهُمْ».

---

(١) انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ آية ٣١ من التوبة.

وقال رسول الله ﷺ: «يَا عَدِيُّ، مَا تَقُولُ؟ أَيَضُرُّكَ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئاً أَكْبَرَ مِنَ الله؟ ما يَضُرُّكَ؟ أَيَضُرُّكَ أنْ يُقَالَ: لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ إِلَهاً غَيْرَ الله؟».

ثم دَعاهُ إِلَىٰ الإِسْلاَمِ فَأَسْلَمَ وشَهِدَ شَهَادَةَ الحق.

قال عديٌّ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَر، ثُمَّ قالَ: «إنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، والنَّصَارَىٰ ضَالُّونَ».

وجاء عند ابن إسحاق كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن عديّ بن حاتم أنّه كان يقول: ما رجُلٌ من العرب كان أشدَّ كراهةً لرسول الله ﷺ حِينَ سَمِع به مِنّي، أمَّا أنَا فكُنْتُ امرأً شَرِيفاً، وكُنْتُ نَصْرَانِيًّا، وكنتُ أَسِيرُ في قَوْمِي بالْمِرْباعِ[1]، وكنْتُ في نَفْسِي على دينٍ، وكنْتُ مَلِكاً في قومي، لِمَا كان يصنع بـي.

فلمَّا سمِعْتُ برسول الله ﷺ، كرهته، فقلْتُ لغلامٍ كان لي عربـيّ، وكان راعِياً لإبِلِي: لاَ أبا لك، أَعْدِدْ لي من إِبِلِي أجمالاً ذُلُلاً سمانًا، فاحْتَبِسْها قَرِيباً مِنّي، فإذا سَمِعْتَ بجَيْشٍ لمحمَّدٍ وَقَدْ وَطِىءَ هٰذِهِ البلادَ فَآذِنّي، فَفَعَلَ.

ثُمَّ إنَّهُ أتاني ذَاتَ غَدَاةٍ، فَقَالَ: يَا عَدِيُّ، ما كُنْتَ صَانِعاً إِذَا غَشِيَتْكَ خَيْلُ مُحَمَّدٍ فاصْنَعْهُ الآن، فإنّي قَدْ رَأَيْتُ راياتٍ فسأَلْتُ عنها، فقالوا: هذه جُيُوشُ مُحَمَّد.

قال عديّ: قُلْتُ: فقَرِّبْ إِلَيَّ أَجْمَالِي، فَقَرَّبَها، فاحْتَمَلْتُ بِأَهْلِي وَوَلَدِي، ثُمَّ قُلْتُ الْحَقْ بأهْلِ ديني من النصارى بالشَّام، فَسَلَكْتُ الْجَوْشِيَّة[2]، وخَلَّفْتُ

---

(١) المرباع: رُبْعُ الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.

(٢) الْجَوْشِيَّة: جبل للضباب. قُرْب صرية، من أرض نجد.

بِنْتاً لحَاتِمٍ في الحاضر، فَلَمَّا قَدِمْتُ أقَمْتُ بها، فَتُخَالِفُنِي خَيْلُ رَسُولِ الله ﷺ، فَتُصِيبُ ابنة حَاتِمٍ فِيمَنْ أصَابَتْ، فَقُدِمَ بها عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ في سَبَايَا من طَيِّىء، وقَدْ بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَرَبِي إلَىٰ الشّام.

قال عديّ: فجُعِلَتِ ابْنَةُ حاتمٍ في حظيرةٍ بباب المسجد كانت السَّبايا تُحْبَسُ بها، فَمَرَّ بها رَسُولُ الله ﷺ، فقامَتْ إلَيْه، وكانَتِ امرأةً جزْلَةً[1]، فقالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَ الوالِدُ، وَغَابَ الْوَافِدُ[2]، فَامْنُنْ عَلَيَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ،

قال: «وَمَنْ وَافِدُكِ»؟

قالت: عَدِيُّ بن حاتم.

قال: «الفارُّ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ».

قالت: ثُمَّ مَضَىٰ وَتَرَكَنِي، حَتَّىٰ إذا كان الْغَدُ مَرَّ بـي، فقلْتُ له مِثْلَ ذلِكَ وَقَال لي مثل ما قال بالأمْس.

قالَتْ: حتّىٰ إذا كان بعد الغد مَرَّ بِـي، وقد يئسْتُ، فَأَشَارَ إلَيَّ رَجُلٌ خَلْفَهُ أنْ قُومِي فكَلِّميه، فقمْتُ إليه فقلْتُ: يا رسولَ اللَّهِ هَلَكَ الْوَالِدُ وغَابَ الوافِدُ، فامْنُنْ عَلَيَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ.

فقال ﷺ: «قَدْ فَعَلْتُ، فَلاَ تَعْجَلِي بِخُرُوجٍ حتَّىٰ تَجدِي مِنْ قَوْمِكِ مَنْ يكونُ لكِ ثِقةً، حتَّىٰ يُبَلِّغَكِ إلى بلادك، ثُمَّ آذِنِينِي، فسَأَلْتُ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي أشار إليّ أنْ كَلِّميه، فقيل لي: عَلِيُّ بْنُ أبـي طالب.

قالت: فقمتُ حتّىٰ قَدِم رَكْبٌ مِنْ بَلِيٍّ أَوْ قُضَاعَة.

قالت: وإنَّمَا أُرِيدُ أنْ آتِي أخي بالشّام، فجئتُ رسول الله ﷺ، فقُلْتُ:

---

(١) جزْلَة: أي: ضخمة الجسم.

(٢) الوافدُ: أي: الذي يفد عليَّ من حين لآخر.

يا رسُولَ الله، قَدْ قَدِمَ رَهْطٌ من قومِي، لي فيهم ثِقَةٌ وبَلاَغٌ.

قَالَتْ: فَكَسَاني رسولُ اللَّهِ ﷺ، وحَمَلَنِي، وأَعْطَاني نَفَقةً، فَخَرَجْتُ معهم حتَّىٰ أتيتُ الشام.

قال عديٌّ: فواللَّهِ إنّي لقاعِدٌ في أهلي، إذْ نَظَرْتُ إلى ظعينة[1]، تُصَوِّبُ إليَّ تَؤُمُّنَا، فَقُلْتُ: ابْنَةُ حَاتم، فإذا هِيَ هِي، فَلَمَّا وقفَتْ عَلَيَّ انْسَحَلَتْ[2] تقول: القاطع الظالم، احْتَمَلْتَ بأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ، وتَرَكْتَ بَقِيَّةَ وَالِدِكَ عَوْرَتَكَ؟!

قال عديّ: قُلْتُ: أيْ أُخَيَّةْ لا تَقُولي إلاَّ خَيْراً، فوالله ما لي مِنْ عُذْرٍ، لَقَدْ صَنَعْتُ ما ذَكَرْتِ.

قال: ثُمَّ نزلَتْ فأقامَتْ عِندي، فَقُلْتُ لها، وكانت امرأةً حازمة: ماذا تَرَيْنَ في أمْر هذا الرجُل؟

قالت: أَرَى واللَّهِ أن تَلْحَقَ به سَريعاً، فإن يكن الرجلُ نبِيًّا، فللسَّابِقِ إليه فَضْلُه، وإنْ يكُنْ مَلِكاً فلَنْ تَذِلَّ في عزِّ اليمن، وأنت أنْتَ.

قال عديّ: قُلْتُ: واللَّهِ إنَّ هذا الرأيُ. فخرجْتُ حتَّىٰ أقْدَمَ على رسول الله ﷺ المدينة، فدخَلْتُ عليه، وهو في مَسْجِدِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْه، فقال: «مَنِ الرَّجُلُ؟» فقُلْتُ: عَدِيُّ بن حاتِمٍ، فقال رسولُ الله ﷺ فانْطَلَقَ بِي إلى بَيْتِهِ، فواللَّهِ إنَّهُ لعامِدٌ بي إليه، إذْ لقِيَتْهُ امرأةٌ ضعيفَةٌ كبيرة، فاسْتَوْقَفَتْهُ، فوقَفَ لها طويلاً تُكَلِّمُهُ في حاجتها.

قال: قُلْتُ في نفسي: واللَّهِ ما هذا بمَلِك. قال: ثُمَّ مَضَىٰ بي رسولُ الله ﷺ، حتَّىٰ إذا دخَلَ بي بَيْتَه، تناول وِسَادَةً من أدمٍ مَحْشُوَّةً لِيفاً،

(١) الظعينة: المرأة في هودجها.
(٢) انسَحَلت: أي: أخذت في اللّوم الشديد.

فَقَذَفَها إليَّ، فقال: «اجْلِسْ على هذه» فقلتُ: بَلْ أنْتَ فاجْلِسْ عليها. فقال: «بَلْ أنْتَ» فجَلَسْتُ عليها، وجَلَسَ رسولُ الله ﷺ بالأرض. فقُلْتُ في نَفْسِي: والله ما هذا بأمْرِ مَلِكٍ.

قال عَدِيٌّ: ثُمَّ قال: «إيهِ يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ، أَلَمْ تَكُ رَكُوسِيًّا[1]؟». قُلْتُ: بَلَىٰ. قال: «أَوَلَمْ تَكُنْ تَسِيرُ في قَوْمِكَ بالْمِرْبَاعِ؟». قُلْتُ: بلَىٰ. قال: «فإنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ». قُلْتُ: أجَلْ واللَّهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ يَعْلَمُ مَا يُجْهَلُ. ثُمَّ قال: «لَعَلَّكَ يَا عَدِيُّ إنَّما يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولٍ في هَـٰذا الدِّين، ما تَرَىٰ مِنْ حَاجَتِهِمْ، فوَاللَّهِ لَيُوشِكَنَّ الْمَالُ أَنْ يَفِيضَ فِيهِمْ، حَتَّىٰ لاَ يُوجَدَ مَنْ يَأْخُذُهُ، وَلَعَلَّكَ إنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولٍ فيهِ، ما تَرَىٰ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ، وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ، فَوَاللَّهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْمَرْأَةِ تَخْرُجُ مِنَ الْقَادِسِيَّةِ عَلىٰ بَعِيرِهَا حَتَّىٰ تَزُورَ هَـٰذَا الْبَيْتَ، لاَ تَخَافُ، وَلَعَلَّكَ إنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولٍ فِيهِ، أَنَّكَ تَرَىٰ أَنَّ الْمُلْكَ والسُّلْطَانَ فِي غَيْرِهِمْ، وايْمُ اللَّهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بالْقُصُورِ الْبِيضِ مِنْ أَرْضِ بَابلٍ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ».

وجاء في رواية: «ولَتُفْتَحَنَّ كنُوزُ كِسْرَىٰ بْنِ هرمز، ولَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حتَّىٰ لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ».

قال عديٌّ: فأسْلَمْتُ.

وكان عَدِيٌّ يقول: قَدْ مَضَتِ اثنتان وبقيتِ الثالثة، واللَّهِ لَتكُونَنَّ، قَدْ رَأَيْتُ الْقُصُورَ الْبِيضَ من أرْضِ بابل قَدْ فُتِحَت، وَقَدْ رأيْتُ المرأةَ تَخْرُجُ من القادسيَّة على بَعِيرها لا تخافُ، حتَّىٰ تحُجَّ هذا البيتَ، وايْمُ اللَّهِ لتكونَنَّ الثالِثَةُ، ليَفِيضَنَّ المالُ حتَّىٰ لاَ يوجَدَ مَنْ يَأْخُذُهُ.

وجاء في رواية، أنَّ الرسول ﷺ قال لعديّ:

---

(١) الركوسيّة: قوم لهم دين بين دين النصارىٰ والصابئين.

«يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ مَا أَفَرَّكَ؟ أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله؟ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ؟ مَا أَفَرَّكَ؟ أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ شَيْءٌ هُو أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟».

قال عديٌّ: فأسْلَمْتُ، فرأيتُ وَجهَهُ اسْتَبْشَرَ، وَقَالَ: «إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ الْيَهُودُ، وَإِنَّ الضَّالِينَ النَّصَارَىٰ».

* * *

الصـورة الـرابعة

تكريمُ الأسير وإطلاقُه الحكيمُ من الأسْرِ وأثَرُهما

قصة إسلام ثُمامةَ بْنِ أثال:

قصَّةُ إسلام «ثُمَامَةَ بْنِ أُثَال» من بني حَنِيفة، أَحَدِ مَلِكَي الْيَمَامة، وقد كان عَدُوًّا محارباً للإسلام ولرسول الله ﷺ.

بعث رسول الله ﷺ خَيْلاً قِبَلَ نَجْدٍ فأسَرُوا ثُمَامَة بْنَ أُثَالٍ وهم لَا يَعْرِفُونَ مَنْ هُوَ، حَتَّىٰ أَتَوْا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقال: «أَتَدْرُونَ مَنْ أَخَذْتُمْ؟ هَـٰذَا ثُمَامَةُ بنُ أُثَالٍ الْحَنَفِيُّ، أَحْسِنُوا إِسَارَهُ».

فَرَبَطُوهُ بساريَةٍ من سواري المسجد، ورجع رسول الله ﷺ إلى أَهْلِهِ، فقال: «اجْمَعُوا مَا كَان عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ فابْعَثُوا بِهِ إليه» وأَمَرَ بلقحته (أي: بناقته الحلوبِ ذات اللّبن) أن يُغْدَىٰ علَيْهِ بِهَا ويُرَاحَ، لِتُحْلَبَ لَهُ، ويُسْقَىٰ مِنْ لَبَنِها.

فَخرج إليه النبيّ ﷺ فقال له: «ما عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟».

فقال: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمْ، وإنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ، وإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فتركه الرَّسُولُ ﷺ، حتَّىٰ كانَ الْغَدُ فَمَرَّ به، فقال له: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟».

فقال: ما قُلْتُ لَكَ، إنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وإنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فتركَهُ الرَّسُولُ ﷺ، حتَّىٰ كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَمَرَّ بِه، فقالَ له: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟».

فقال: مَا قُلْتُ لَكَ، إنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وإنْ تُنْعَمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فقال رسول الله ﷺ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» فأطْلَقُوهُ.

فَانْطَلَقَ إلَىٰ نَخْلٍ قَرِيبٍ من المسجد فيه ماءٌ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فقال: أشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَٰهَ إلاَّ الله، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رسول الله، واللَّهِ يا مُحَمَّدُ مَا كان على الأرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إليَّ مِنْ وَجْهِكَ، فقد أَصْبَحَ وجْهَكَ أحَبَّ الوجوهِ إليَّ، واللَّهِ مَا كان مِنْ دينٍ أبغض إليَّ مِنْ دينِكِ، فأصْبَحَ دينُكَ أحبَّ الدِّين إليَّ، واللَّهِ مَا كَانَ من بَلَدٍ أبْغَضَ إلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فأصْبَحَ بَلَدُكَ أحَبَّ الْبِلاَدِ إليَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي، وأنَا أُرِيدُ الْعُمْرَة، فَمَاذَا تَرَىٰ؟

فَبشَّرَهُ رَسُول اللَّهِ ﷺ، وأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمرَ.

فلمَّا قدِمَ مكةَ قال له قائل: أَصَبَوْتَ؟ فقال: لا ولكنّي أسلمتُ مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّةُ حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ[١].

* * *

(١) عن ابن كثير في البداية والنهاية، وعن الإمام مسلم في صحيحه.

الصـورة الخـامسة

تنزيل الناس منازلهم تأليفاً لقلوبهم

قصة إسلام وائل بن حُجْر:

كان وائل بن حُجْرٍ أحَدَ أقيالِ حضرموت، وكان أبوه من ملوكهم، وكان له صنَمٌ من العقيق الأحمر، يعبُدُهُ، ويُحبّهُ، حبّاً شديداً، ويكثر السُّجُود له، ويعقر عنده العقائر.

وبينما هو نائمٌ في الظهيرة، إذْ أيقظه صوتٌ منكَرٌ من المخدع الذي فيه الصنم، فقام من مضجعه وأتاه، فسَجَدَ بين يديه، وإذا قائل يقول له: لو كنت عاقلاً لأطَعْتَ أمْرِي.

قال وائل: فرفعتُ رأسي، واستويت جالساً، ثم قُلْتُ: قَدْ سَمِعْتُ أيُّها الناصح، فماذا تأمُرُني؟

قال: اذهب سريعاً إلى المدينة.

قال وائل: ثمّ خرّ الصنم إلى وجهه، وانكَسَرَ أنْفُه، واندقّت عنقه، فقمت إليه فجعلْتُه رفاتاً، ثُمَّ سِرْتُ مُغِذاً، حتَّىٰ أتيت المدينة، وأتيت المسجد، فلما رآني رسول الله ﷺ أدناني، وبَسَط لي رِدَاءَهُ، فجلَسْتُ عليه، ثمّ صَعَدَ المنبر، وأقامني دونه، ثمّ قال:

«أيّها الناس: هذا وائلُ بْنُ حُجْر» أتاكم من أرضٍ بعيدة، من حضرموت، راغباً في الإسلام».

قال وائل: يا رسول الله، بلغني ظُهُورُكَ، وأنا في مُلْكٍ عظيم، فَمَنَّ اللَّهُ عليَّ أنْ رَفَضْتُ ذلِكَ كُلَّه، وآثَرْتُ دين الله.

قال: «صَدَقْتَ، اللَّهُمَّ بارِكْ في وائلٍ وَوَلَدِهِ، وَوَلَدِ وَلَدِه».

فما لقيني أَحَدٌ من أصحابه إلاّ قالَ لي: بشَّرَنَا بكَ رسولُ اللَّهِ ﷺ قبل قُدومِكَ بثلاث[1].

(١) عن كتاب «من الذي يغير المنكر وكيف» للدكتور: محمود محمد عمارة عن كتاب خير البشر.

الصـورة السادسة

امتلاك القلوب بمكارم الأخلاق

قصَّة إسلام الْحِبْر اليهودي «زَيْدِ بْن سَعْنَة»:

روى الطبراني وابن ماجه وابن حبّان والحاكم وغيرهم أنّ زيْدَ بن سعْنَةَ قال:

ما من علامات النُّبُوَّةِ شيْءٌ إلاَّ وقَد عرَفْتُهُ في وَجْهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حينَ نظرتُ إليه، إلاَّ اثْنَتَيْنِ لم أَخْبُرْهُما هُما منه:

- أنه يَسْبقُ حِلْمُه جَهْلَهُ.
- ولا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ إلاَّ حِلْماً.

حتَّىٰ جاء رجلٌ إليه فقال له يا رسول الله، لي نَفَرٌ في قَرْيَةٍ بني فُلان، حدَّثْتُهُمْ إنْ أَسْلَمُوا أتاهُمُ الرِّزْقُ رَغداً، فأسْلَمُوا.

وقَدْ أصابتْهُمْ سَنَةٌ (أي: سنة قَحْطٍ) وأخْشَىٰ أَنْ يَخْرُجوا من الإسْلام طمعاً كما دَخلُوهُ طمعاً، فإنْ رَأَيْتَ أنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِم بشيءٍ فَعَلْت.

فنظر الرسول ﷺ إلى رجُلٍ إلى جانِبِه، أُرَاهُ عليًّا، فقال: يا رسول الله، ما بَقِيَ منْهُ شيءٌ.

قال زيْدُ بنُ سعْنَة، فدنَوْتُ مِنْهُ، وقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ، هل لَكَ أنْ تَبيعني

تمْراً مَعْلُوماً إِلَىٰ أجَلٍ مَعْلُومٍ؟ فباعَنِي، فأعطيتُهُ ثمانِينَ مِثْقَالاً منْ ذَهَبٍ في تَمْرٍ مَعْلُومٍ، إِلَىٰ أجَلٍ كذا وكذا.

فأخَذَ هَـٰذَا الذَّهَبَ، وأعطاهُ للرَّجُلِ، وقال له: اعْدِلْ علَيْهِمْ وأَغِثْهِمْ.

قال زَيْدُ بن سَعْنَة: فلمَّا كان قَبْلَ مَحِلِّ الأَجَلِ بيومَيْنِ أَوْ ثلاثة، خَرَجَ رسول الله ﷺ ومعه أبو بكْرٍ وعُمَرُ وعثمانُ رضي الله عنهم في نَفَر من أصحابه.

فلَمَّا صَلَّى علىٰ الجنازة، ودَنَا إلى الجِدار ليجْلِسَ إليه، أتيتُهُ فَأَخَذْتُه بمجامع قَميصِهِ وَرِدائه، ونَظَرْتُ إلَيْهِ بوجْهٍ غليظٍ، وقُلْتُ له: يَا مُحمَّدُ، ألاَ تَقْضِيني حَقّي؟ فواللَّهِ ما علمتُ بني عَبْدِ المطَّلِب إلاَّ مُطُلاً، ولَقَدْ كنْتُ لي بمخالطتكُمْ عِلْم.

قال زَيْدُ بن سعنة: ونظرْتُ إلى عُمَر وعَيْنَاهُ تَدُورَانِ في وجْهِه كالْفَلَكِ المستدير، ثمّ رمَانِي ببَصَرِه، وقالَ: يا عَدُوَّ الله، أتقولُ لرسولِ الله ﷺ ما أسْمَع، وتصْنَعُ بِهِ مَا أَرَىٰ؟ فوالذي نفسي بيَدِهِ، لولا ما أُحَاذِر فَوْتَهُ لضَرَبْتُ بسَيْفي رَأْسَكَ، ورسولُ الله ﷺ ينْظُرُ إليَّ في سُكُونٍ وَتُؤَدَة، فقال:

«يَا عُمَرُ، أنَا وهُوَ كُنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَى غَيْرِ هٰذا، أنْ تَأْمُرَنِي بِحُسِنَ الأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ الطَّلَبِ، إذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فأَعْطِهِ وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعاً مِن تَمْرٍ مَكَانَ مَا رَوَّعْتَه».

قال زَيْدُ بنُ سعْنَة: فذهَبَ بِي عُمَرُ فَأَعْطَانِي حَقِّي، وزادني عِشْرِينَ صاعاً من تَمْرٍ.

فقلتُ: ما هذه الزيادةُ يا عُمَر؟

قال: أمَرَني رسول الله ﷺ أنْ أزيدَكَ مَكَانَ مَا روَّعْتُكَ.

فقلت: أوتَعْرِفُنِي يا عُمَر؟

قال: لا.

قلتُ: أنا زَيْدُ بْنُ سَعْنَة.

قال: الحَبْرُ؟

قلتُ: الحبْرُ، وقَدْ خَبَرْتُ فِيهِ علامتَيْن وَوَجَدْتُهُما، فأُشْهِدُكَ يَا عُمَر أني رضيتُ باللَّهِ رَبًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّدٍ نبيًّا، وأشْهِدُكَ أنّ شطْرَ مَالي صَدَقةٌ علىٰ بَعْضِ أُمَّةِ مُحمَّد.

فرجع عُمَرُ وزيدٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إلَه إلاّ الله وأنّ محمّداً عبْدُهُ ورسُولَهُ.

* * *

الصـورة السابعـة

الدعوة والنصح بتوجيه الكتب والرسائل

من وسائل الرسول الدعوية الحكيمة ﷺ توجيهُهُ الكتب والرسائل إلى الملوك وكُبَراء أقوامهم، بعد أن عَلِمَت الملوك بشأنه، وأنّه صارَ لَهُ سلطانٌ في جزيرة العرب وجيشٌ، فمنها ما يلي:

١ ـ رسالته ﷺ إلى كسرىٰ مَلِكَ فارس، كما روى البخاري في كتاب المغازي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، مِنْ مُحمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَىٰ كِسْرَىٰ عَظِيم فَارسٍ، سَلاَمٌ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ، وَآمَنَ باللَّهِ ورَسُولِهِ، وشَهِدَ أَنْ لا إِلَه إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وأنَّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرسُولُه.

أَدْعُوك بِدِعايَةِ اللَّهِ، فإِنَّنِي أَنَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَىٰ النَّاسِ كافَّةً، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، ويَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ.

أَسْلِمْ تَسْلَمْ، فإنْ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمجُوسِ»،

٢ ـ رسالتُهُ ﷺ إلَىٰ هِرَقْل عظيم الروم، كما روى البخاري في كتاب الجهاد:

«بسم الله الرحمن الرحيم، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّوم، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ.

أمَّا بَعْدُ، فَإِنّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإسْلام، أَسْلِم تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَريسيّين.

وَيَا أَهْلَ الكِتَاب تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ الله، وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مَنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا: اشْهَدُوا بأَنَّا مُسْلِمُونَ».

٣ ـ رسالَتُهُ ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من مُحَمَّدٍ عبْدِ اللَّهِ ورَسُولِهِ، إلى الْمِقَوْقِسِ عَظِيمِ القِبْطِ سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِم تَسْلَمْ، وأَسْلِمْ يُؤْتك اللَّهُ أجْرَك مَرَّتَيْنِ، فأنْ تَوَلَّيْتَ فإنّ عَلَيْكَ إثْمَ الْقِبط.

يَا أَهْلَ الكِتَاب تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُون اللَّهِ، فإنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا: أشْهَدُوا بأَنَّا مُسْلِمُونَ».

٤ ـ رسالتُه إلى النجاشي مَلِك الْحَبَشة كما جاءت عند مسلم في كتاب الجهاد: «بسم اللَّهِ الرحمن الرحيم. مِنْ مُحَمَّدٍ رسُولِ اللَّهِ إلىٰ النَّجَاشِي مَلِك الحبشَةِ، أسْلِمْ أنتَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ الَّذي لاَ إِلَه إلاَّ هو الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمنُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسىٰ ابنَ مَرْيمَ رُوحُ اللَّهِ، وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَىٰ مَرْيَمَ الْبَتُول الطَّيِّبَةِ الْحصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بِعِيسَىٰ، فَخلَقَهُ اللَّهُ مِنْ رُوحِهِ وَنَفْخِهِ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ.

وَإِنّي أَدْعُوكَ إِلَىٰ اللَّهِ وَحْدَهُ لاَ شرِيكَ لَهُ، والْمُوالاةِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وأَنْ تَتَّبِعَنِي، وَتُؤمِنَ بِالَّذِي جاءَنِي، فَإِنّي رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ.

وَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْتُ، فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي، والسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ».

يلاحظ في كِتَابِ الرسول ﷺ إلى النّجاشيّ، أنّه زَادَهُ عمّا بَعَثَ إلى الملوك الآخرين زياداتٍ تتناسَبُ مع ما يَعْلَمُ الرَّسولُ من حالِهِ تُجَاهَ الإسلام، وأنَّ ما جاء الإسلام به موافقٌ لما يؤمنُ هو به في شأنِ عيسىٰ عليه السلام، فهو في اعتقاده عبد الله ورسولُه وكلمتُهُ أَلْقَاهَا إلىٰ مَرْيمَ، ورُوحٌ مِنْهُ، لِذَلِكَ طَلَبَ منه الرسول ﷺ أنْ يُواليَ طاعَتَهُ لربِّه، باتّبَاعِهِ دَعْوَةَ الدّينِ الجديد، فَيُؤمِنَ بِمَحَمَّدٍ وبالّذي جاء به.

* * *

الصـورة الثـامنـة

رسائل الأقربين للأقربين وأثرها

رسالة الوليد بن الوليد لأخيه خالد بن الوليد:

ذكر ابْنُ كثير في البداية والنهاية[١] عن الواقدي عن خالد بن الوليد يحدّثُ عن إسلامه.

فمما ذكر خالدٌ رضي الله عنه عن نفسه أنّه قال:

وكانَ أخي الوليدُ بْنُ الوليد قد دَخَلَ مَعَ النبـيّ ﷺ في عُمْرَةِ القضاء، فطلبـني فَلَمْ يَجِدْني، فَكَتَبَ إِلَيَّ كتاباً فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم أَمَّا بَعْدُ، فَإِنّي لَمْ أَرَ أَعْجَبَ مِنْ ذَهَاب رَأْيِكَ عَنِ الإِسْلَامِ، وعَقْلُكَ عَقْلُـكَ! وَمِثْلُ الإِسْلَامِ جَهِلَهُ أَحَدٌ؟ وَقَدْ سَأَلَنِي رسولُ الله ﷺ عَنْكَ، وَقَـالَ: «أَيْنَ خَالِدٌ؟» فَقُـلْتُ: يـأتِي اللّهُ بِهِ فَقَالَ: «مِثْلُهُ جَهلَ الإِسْلَامَ؟ وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ وَجِدَّهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ خَيْراً لَهُ، ولَقَدَّمْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِه».

فَاسْتَدْرِكْ يَا أَخِي مَا فَاتَكَ مِنْ مَوَاطِنَ صَالِحة».

قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: فلمَّا جاءني كتَابُهُ نَشِطْتُ للخُرُوج، وزادني رغبةً في الإسلام، وسرَّني سُؤَالُ رَسُولِ الله ﷺ عَنّي.

---

(١) انظر الجزء الرابع ص ٢٣٩.

ثم انْطَلَقَ خالِدٌ رضي الله عنه مهاجراً إلى المدينة، واستقبله الرسول ﷺ ببِشْرٍ ووجْهٍ طَلْقٍ، وأدناه إليه، ثمّ قال له: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَىٰ لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أنْ لاَ يُسْلِمَكَ إلاّ إلَىٰ خَيْر».

وأسْلَمَ مَعَهُ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَة، وعَمْرو بن الْعَاص، كانا قَدْ خَرَجا معه إلى المدينة ليُسْلِما.

* * *

الصــورة التاسعــة

الجرأة فــي الحقّ

دخَلَ الصحابـي «عائذ بن عمْرو بن هلال» على «عبيد الله بن زياد» وكان أميراً على العراق أيّام يزيد بن عبد الملك، فقال له:

أيْ بُنَيّ، إنّي سَمِعْتُ رسُولَ اللّهِ ﷺ يقول: «إنَّ شَرَّ الرِّعَاء الْحُطَمَة» فإيّاكَ أن تَكُونَ مِنْهُمْ.

فقال له: اجلسْ، فإنّما أنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أصحاب مُحمّد ﷺ.

فقال: وَهَلْ كانَتْ لهم نُخَالَة؟ إنَّمَا كَانَتِ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ، وفي غيرهم[1].

الْحُطَمَة: هُو الذي يَسُوقُ الإبِلَ سوقاً عنيفاً حتّىٰ يَحْطِمَ بَعْضُهُمْ بعضاً.

* * *

---

(١) انظر أسد الغابة ج/ ٢ ص ١٤٧/ ١٤٨.

الصـورة العاشـرة

مَنْ طَلَبَ الموعظة فتح أبواب نَفْسه لتقبُّلِهَا

١ ـ معاوية وعائشة رضي الله عنهما:

عن معاوية أنَّهُ كتب إلى عائشة: أن اكتبي إليَّ كتاباً توصينَنِي فيه ولاَ تكثرِي، فَكَتَبَتْ:

سلامٌ عَلَيْكَ، أمّا بَعْدُ، فَإِنّي سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول:

«مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاس، كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مؤونَةَ النَّاس، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخطِ اللَّهِ، وَكَلَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ إلى النَّاس».

والسلام عليك

٢ ـ عُمَرُ بْنُ عبد العزيز وطلبَه الموعظة:

● كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحَسنِ البصري: عظني وأوْجِز. فكتب إليه الْحَسَنُ:

«أمَّا بَعْدُ: فإنَّ رَأْسَ مَا هُوَ مُصْلِحُكَ ويُصْلحَ الله بِهِ عَلَىٰ يَدَيْكَ الزُّهْدُ في الدُّنْيا.

وإنَّما الزُّهْدُ بِالْيَقِينِ، واليقينُ بالتَّفكُّر، والتفكُّر بالاعْتبَار، فإذَا أنْتَ فَكَّرْتَ في الدنيا لم تَجِدْهَا أهْلاً لأنْ تَبِيعَ بِها نَفْسَكَ، وَوَجَدْتَ نَفْسَكَ أهْلاً لأن تُكرِّمَها بِهَوانِ الدُّنْيا، فإنّما الدّنْيَا دَارُ بَلاَءٍ، ومنْزِلُ غَفْلة».

● ورَوَىٰ عبد العزيز بْنُ أَبِـي حَازِمٍ عَنْ أبِيهِ قال: قال لِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: عِظْنِي، فقلت له:

«اضْطَجِعْ، ثُمَّ اجْعَلِ الْمَوْتَ عِنْدَ رَأْسِكَ، ثُمَّ انْظُرْ مَا تُحِبُّ أنْ يَكُونَ فِيكَ تِلْكَ السَّاعَة، فَخُذْ فِيهِ الآنَ، ومَا تَكْرَهُ أنْ يكُونَ فِيكَ تِلْكَ السَّاعَةَ، فَدَعهُ الآنَ».

٣ ـ الخليفة العباسي (المنصور) وطلبَه الموعظة:

دخل الإمامُ الأوزاعيّ على الخليفة العباسي «المنصور» فقال له: عظني.

قال الأوزاعي: «يا أمير المؤمنين، إنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ، وَمَنْ كرِهَ الْحَقَّ فَقَدْ كَرِهَ الله.

يَا أميرَ المؤمنين، إنَّ الْمُلْكَ لاَ يَدُومُ لأحَدٍ، وإنَّما الْمُلْكُ للَّهِ وحْدَهُ، ولَوْ دَامَ لأحدٍ مَا وَصَلَ إلَيْكَ، واعْلَمْ أنَّ أعَزَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ التُّقَاة، فَمَنْ طَلَبَ الْعِزَّ بطاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، رفَعَهُ اللَّهُ وأعزَّهُ، ومَنْ طَلَبَهُ بمَعْصيَتِهِ وضَعَهُ اللَّهُ وأَذَلَّهُ».

فلما انتهىٰ الأوزاعي من موعظته أمَر له المنصور بمال، فاعتذر عن قبوله، وقال: يا أمير المؤمنين، ما كُنْتُ لأبيعَ نصيحتي بِعَرَضِ الدُّنْيا فَأُحْرَمَ ثَوَابَهَا، وأُقَلِّلَ من نَفْعِها، وما دامَ أمير المؤمنين قائماً فينا بالعدْل، فَنَحْنُ في خَيْرِ اللَّهِ ثُمَّ في خَيْرِكَ[١].

٤ ـ هارون الرشيد وطلبه الموعظة:

أورد ابْنُ كثير في البداية والنهاية[٢] في أخبار هارون الرشيد، قال:

---

(١) عن كتاب «من الذي يغير المنكر وكيف؟» للدكتور محمود محمد عمارة.

(٢) انظر الجزء (١٠) ص ٢٢٤.

ودخل علَيْهِ ابْنُ السَّمَّاك[1] يوماً، فاسْتَقَىٰ الرشيد، فأُتِي بِقُلَّةٍ فيها ماءٌ مُبَرَّدٌ، فقال لابْنِ السَّمَّاك عِظْنِي.

فقال: يا أمير المؤمنين، بِكَمْ كُنْتَ مُشْتَرِياً هٰـذِهِ الشَّرْبَةَ لَوْ مُنِعْتَها؟

فقال الرّشيد: بنصف مُلْكِي.

فقال: اشربْ هنيئاً، فلمَّا شَرِبَ قال: أرأيْتَ لَوْ مُنِعْتَ خُروجَها من بَدَنِكَ بِكَمْ كُنْتَ تَشْتَرِي ذِلِكَ؟

قال: بِنِصْفِ ملكي الآخر.

قال ابْنُ السَّمَّاك: إنَّ مُلْكاً قيمة نصْفِهِ شَرْبَةُ ماء، ونِصْفُهُ الآخر قِيمَةُ بَوْلَة، لَخَلِيقٌ أَنْ لا يُتَنَافَسَ فِيهِ.

فبكىٰ هارونُ الرشيد.

* * *

(١) أحد الوعّاظ العبّاد.

الصـورة الحادية عشرة

الشجاعة الأدبيّـة في إنكار المنكر

العزُّ بن عبد السلام وسلطان مصر نجم الدين أيوب:

قال الباجي: طلَع شيخنا عزُّ الدّين مرّةً إلى السلطان نجم الدين أيُّوب، في يوم عيدٍ بالقلعة، فشاهَدَ العسكر مصطفّين بيْنَ يَدَيْه، وقَدْ خَرَج على قومِه في زينتِه على عادة سلاطين الدِّيار المصريّة.

فالتفت إليه الشيخ وناداه: يا أيُّوبُ، ما حُجَّتُكَ عِنْدَ الله إذَا قال لَكَ: أَلَمْ أَبَوِّىءْ لَكَ مُلْكَ مِصْر، ثُمَّ تبيحُ الخمور؟!

فقال السلطان: هل جَرَىٰ ذلك؟!

فقال الشيخ: نعم، الحانة الفلانيّة تباح فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنْتَ تتقلّبُ في نعمة هذه المملكة.

يناديه بأعْلَىٰ صوتِه، والعساكِرُ واقفون.

قال السلطان: يا سَيِّدي، هذا أنَا ما عَمِلْتُهُ، هذا من زَمان أبـي.

قال الشيخ: أنْتَ من الذين يَقُولون: «وَجَدْنا آبَاءَنا عَلَىٰ أُمَّة»؟!.

فأصْدَر السلطان مرسوماً بإبطال تِلْكَ الحانة.

قال الباجي: سألتُ الشيخ لمّا جاءَ من عنْدِ السُّلْطان وقد شاعَ هذا الخبر، يَا سَيّدي كيف الحال؟. فقال: يا بنيَّ رأيتُهُ في تِلْكَ العظمة، فأَرَدْتُ أنْ أُهِينَهُ لئلاَّ تَكْبُرَ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَتُؤْذِيه، فقلت: يا سَيّدِي، أَمَا خِفْتَهُ؟ فقال: واللّهِ يا بُنَيَّ اسْتَحْضَرْتُ هيبَةَ اللّهِ تَعَالَىٰ، فَصَارَ السُّلْطَانُ قُدَّامِي كالْقِطّ[1].

* * *

(١) بتصرّف عن كتاب «من الذي يغير المنكر»، عن كتاب من أخلاق العلماء ص ١٧٤.

الصـورة الثانية عشرة

زهْدُ العلماء بما في أيدي الأمراء يمنحهم الجرأة في الحقّ

سُفْيانُ الثوري، وأبو جعفر المنصور:

لَقِيَ «أبو جعفر المنصور» أمير المؤمنين «سُفيَانَ الثوري» العالم الزاهد، في الطواف، و «سفيان» لا يعرفُه.

فضَرَبَ «أبو جعفر المنصور» على عاتقه، وقال: له: أتَعْرِفُنِي؟

قال: لاَ، ولكِنَّكَ قَبَضْتَ عليَّ قَبْضَة جَبَّارٍ.

قال أبو جعفر: عِظْني أبا عبد الله.

قال سفيان: وَمَا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ فَأَعِظَكَ فيمَا جَهِلْتَ؟!

قال أبو جعفر: فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تأتِينَا؟

قال سفيان: إنَّ اللَّهَ نَهَىٰ عنكم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾(1).

فَمَسحَ أبو جعفرٍ يَدَهُ به. ثُمَّ الْتَفَتَ إلى أصحابه، فقال: أَلْقَيْنَا الْحَبَّ إلَىٰ الْعُلَماءِ فَلَقَطوا، إلاَّ مَا كانَ من سُفْيانَ، فإنَّهُ أعْيَانَا فِراراً.

أقول: هذا من أثَرِ عِفَّة «سُفيان الثوري» وزهده في الدّنيا، وترفُّعِه عن أنْ يَشْتَرِي الدُّنيا بما آتاه اللَّهُ من علوم الدّين، ومن مَبْلَغِ تقواه وورعه، وطلبه لرضوان الله والجنّة.

---

(1) الآية ١١٣ من سورة (هود/ ١١).

الصورة الثالثة عشرة

قُوَّةُ تأثير الموعظة الّتي تنفذ إلى أعماق القلب

صالحُ بْنُ بَشِير الْمُرّي، والخليفة المهدي:

جاء في البداية والنهاية لابن كثير[1]، أنّ صالح بن بشير المرّي الواعظ العابد الزاهد، جلس يوماً في مجلس الخليفة المهدي، فوعظه موعظة بليغة حتّىٰ أبكاه، قال له فيها:

(اعْلَمْ أنّ رسول الله ﷺ خَصْمُ مَنْ خالَفَهُ مِنْ أُمَّتِهِ، ومَنْ كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ خَصْمَهُ كانَ اللّٰهُ عزّ وجلّ خصْمَه، فأعِدَّ لمُخَاصَمَةِ اللّٰهِ ورَسُولِهِ حُجَجاً تَضْمَنُ لَكَ النجاة، وَإلاَّ فاسْتَسْلِمْ لِلْهَلَكَةِ.

واعْلَمْ أنّ أبطأ الصَّرْعَىٰ نَهْضَةً صَرِيعُ هَوَىٰ بدْعَتِهِ، واعْلَمْ أنَّ الله قاهِرٌ فَوْقَ عبادِه، وأنَّ أَثْبَتَ النَّاسِ قَدَماً، آخَذُهُمْ بِكِتَابِ اللّٰهِ وَسُنَّةِ رسُولِه).

واسْتَمَرَّ يَعِظُ الخليفة حتَّىٰ بكَىٰ بكاءً شدِيداً، وأمَرَ بتَدْوينِ موعِظَتِهِ في دواوينه.

* * *

(١) انظر ج ١٠ ص ١٧٠.

الصورة الرابعة عشرة

شجاعة العالم الرّبّاني في أخطر المواقف

الإمام ابْنُ تيمية، وقازان طاغية التتر:

لمّا قَدِمَ التتر بقيادة طاغيتهم قازان باتّجاه دمَشْق، بعد أن استباح العراق وفارس وحكمهما، وذُعِرَ أهل دمَشْقَ من مَقْدَمِهِمْ، اجتمع الإمام أحْمَدُ بْنُ تيميّة بأعيانهم للتفكير والتشاور في المصيبَةِ القادمة، فاتَّفَقُوا على المسير إلى قازان، في وفْدٍ من العلماء والأعْيَان، بغيةَ أخْذِ الأمان لأَهْلِ دمشق.

وانطلقوا للاجتماع به في بلدة «النَّبْك» وهي بلدة تَقَعُ بين دمشق وحمص.

وفي يوم الاثنين الثالث من ربيع الآخر من سنة ٦٩٩ هجرية التقَىٰ الوفد الدمشقيُّ بقازان طاغية التّتر، وكان الإمام ابن تيمية هو السفير المتحدّث بلسان القوم.

قال الشيخ كمال الدّين بن الأنجا، وكان قد شهد اللّقاء مع الوفد:

«كُنْتُ حاضراً مع الشيخ فجعل يُحَدِّثُ السُّلْطان بقول اللَّهِ ورسوله في الْعَدْل وغيْره، ويرفع صوْتَه على السلطان ويَقْرُبُ منه في أثناء حديثه، حتَّىٰ قَرُبَ أَنْ تُلاَصِقَ رُكْبَتُهُ رِكْبَةَ السُّلْطانِ، والسُّلْطانُ مَعَ ذلِكَ مُقْبِلٌ علَيْهِ مُصْغٍ لما يقول، شاخِصٌ إِلَيْهِ لاَ يُعْرِضُ عَنْه.

وإِنَّ السُّلْطانَ مِنْ شِدَّةِ مَا أَوْقَعَ اللَّهُ في قلْبِهِ من المحبَّةِ والْهَيْبَةِ له،

سألَ: مَنِ الشَّيْخُ؟ فإنّي لَمْ أَرَ مِثْلَهُ، ولا أثْبَتَ قَلْباً مِنهُ، ولاَ أَوْقَعَ منْ حديثِهِ في قَلْبِي، ولاَ رأيْتنِي أعْظَمَ انقياداً لإِحَدٍ منه.

فأُخْبِرَ بحالِهِ، وَما هُوَ عليه من الْعِلْم والْعَمَل.

فقال الشيخ للترجمان: قُلْ للقازان:

«أَنْتَ تَزْعُمُ أنَّكَ مُسْلِمٌ، ومعَكَ قَاضٍ، وإمامٌ، وشيخٌ، ومؤذِّنُونَ علَىٰ ما بَلَغَنا، فَغَزَوْتَنَا.

وأبُوكَ وجَدُّكَ كَانَا كافِرَيْنِ، ومَا عَمِلاَ الَّذِي عَمِلْتَ، عَاهَدَا فَوَفَيَا، وَأنْتَ عاهَدْتَ فغَدَرْتَ، وَقُلْتَ فمَا وَفَّيْتَ، وَجُرْتَ».

وخرج الإمام ابن تيميَّة من عند الطاغية «قازان» معزَّزاً مُكَرّماً، بما وهبَهُ الله من صِدْقٍ وشجاعةٍ وتضحيَةٍ بنفسه من أجل حَقْنِ دماء المسلمين، وقد حقَّقَ الله له كثيراً مِمَّا جاهد لبلوغه، فكان سبباً في فَكّ إسَارِ مُعْظَمِ أسْرىٰ المسلمين لدى جيش قازان.

وذكر قاضي القضاة «أبو العبّاس» أنَّهم لمَّا حضَرُوا مجلس قازان، قُدِّمَ لَهُمْ طَعَامٌ فأكَلُوا مِنْهُ إلاَّ ابْنَ تيميَّة.

فقيل له: لِمَ لاَ تَأْكُلُ.

فقال لهم: كيْفَ آكُلُ منْ طعامكم، وكُلُّهُ ممَّا نَهَبْتُمْ منْ أغْنَامِ الناس، وطبختُمُوهُ بما قطعْتُمْ مِنْ أشجار الناس.

ثم إنَّ قازان طلبَ منْهُ الدُّعاء.

فقال الشيخ: اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّهُ إنَّما قَاتَلَ لتكونَ كلمة اللَّهِ هي العليا، وجَاهَدَ في سبيلكَ، فأيِّدْهُ وانْصُرْهُ، وَإنْ كانَ للْمُلْكِ والدّنْيا والتَّكاثرِ فأسألُكَ أَنْ تَفْعَل بِهِ وتصْنَعَ، وكان يدعو عليه، وقازانُ يؤمِّنُ على دعائه، ونَحْنُ نجمع ثيابنا خوفاً أن يُقْتَل فتقَع دماؤُه عليها.

قال قاضي القضاة: ثمّ لما خَرَجْنَا قُلْتُ له: كِدْتَ تُهْلِكُنَا مَعَكَ، ونَحْنُ مَا نَصْحَبُكَ من هُنَا.

فقال: وأنا لاَ أصاحِبُكُمْ.

فانْطَلَقْنَا عُصْبَةً، وتأَخَّرَ هُو، فتَسَامَعَتْ به الخانات والأمراء، فأَتَوْهُ من كُلّ فجٍّ عَمِيقٍ، وصاروا يتلاحقون به ليتبَرَّكُوا بِرُؤْيَتِه، فما وصَلَ إلاَّ في نَحْوِ ثلاث مائةِ فَارِسٍ في رِكَابِه.

وأمَّا نَحْنُ فَخَرَجَ علَيْنَا جَمَاعَةٌ من قُطَّاعِ الطُّرُقِ فَسَلَبُونا[1].

وكان للشيخ مَواقِفُ أُخْرَىٰ جِهَاديَّة ضدَّ أمراء قازان ونُوّابِه تَدُلُّ على بطولته النادرة ثقةً بالله واعتماداً عليه.

وفي بعض الأعمال الجهاديَّة الّتِي كان يقومُ بها ضِدَّ الْغُزَاةِ الطُّغَاةِ كان الشيخ ابن تيميّة يَدُورُ كلَّ ليلَةٍ على أسوار دمشق يُحَرّضُ الناسَ على الصَّبْرِ والقتال، ويتْلُو عليهم آياتِ الجهاد، ويذكِّرُهم بأحاديث فضل المرابطة في سبيل الله.

واشترك رحمه الله رحمةً واسعة في عدّة معارك قتاليّة ضدّ الغزاة المفسدين، وكان يقود طائفة من تلاميذه ومريديه المجاهدين في سبيل الله، ويُحَرِّضُ السلاطين والأمراء والقادة والأجناد والعامّة على القتال في سبيل الله، وهو يجاهد ويقاتل ضمن المقاتلين حاملي رايات الجهاد في سبيل الله.

* * *

---

(١) نقل هذه الحادثة الشيخ أبو الحسن على الحسني الندوي في ترجمته لابن تيمية عن الكواكب الدرّية ص ٢٥ ـ ٢٦ وقد تصرّفتُ في بعض العبارات.

الصورة الخامسة عشرة

ذَكَاءُ ودَهَاءُ العالم الداعيَة
مناظرات الباقلاّني ودهاؤه في بلاد الروم وأساليبه البارعة

التعريـف بـه:

هو أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمّد المشهور بالباقلاّني، عاش ما بين سنة (٣٣٨ ـ ٤٠٣ هجرية).

عراقي وُلِد في البصرة، وتلقّىٰ العلم على كبار علمائها في عصره، واتّصل بعضُدِ الدولة البُوَيْهِي الذي كانت السلطة العظمىٰ في يده بعهد الخليفة العبّاسي «الطائع لله» فعظمت لديه منزلته، فأسند إليه القضاء.

اختياره رسولاً إلى ملك الروم:

وجّه عضُد الدولة القاضي أبا بكر الباقلاّني إلى ملك الروم لإجراء معاهدة بين الرّوم وبين المسلمين في المشرق يومئذٍ، وليكون الناطق الدينيّ الكاشف لحقائق الإسلام، والكاشف لما في النصرانيّة من باطلٍ وخلَلٍ.

فاستجاب القاضي أبو بكر الباقلاّني للأمر، وخرج قاصداً بلاد الروم، حتى وصل القسطنطينية[١]، حيث يقيم ملك الروم، ولمّا علم ملك الروم بقدوم وفد عضد الدولة، أرسل إليهم من يستقبلهم ويدخلهم على الملك،

(١) هي اسطنبول اليوم.

وقال لهم رسولُ الملك لا تدخلوا عليه حتَّىٰ تخلعوا عمائمكم ونعالكم(١).

فأبىٰ القاضي الباقلّاني، وقال لرسول الملك: لا أدخُل إلاّ على ما أنا عليه من الزّيّ واللّباس، فإنْ أبيتُمْ فخذوا الكتُبَ فاقرؤوها، وتُرْسلون لي جوابَها، وأعودُ بها.

فأرسلَ مَلِكُ الرّوم رسولاً يسأل القاضي عن سبب هذا الامتناع، مع أنّ المراسيم الملكيّة عنده تقضي بذلك مع رُسُل كلّ الملوك.

قال القاضي أبو بكر: أنا رجُلٌ من عُلَماء المسلمين، وما تحبّونه منّا ذُلٌّ وصَغار، والله تعالى قد رَفَعَنا بالإسلام، وأعزّنا بنبيّنا محمَّد عليه الصلاةُ والسلام، ومن شأن الملوك إذا بعثوا رسُلَهُمْ إلى مَلِكٍ آخَر أنْ يرفَعُوا أَقْدارهم، ولا يقصدوا إذلالهم، ولا سيّما إذا كان الرسول من أهلِ العلم، فإذَا وُضِعَ قَدْرُه انْهَدَم جاهُهُ عند الله وعند المسلمين، ولو أَنّني فعلْتُ ما تقضي به مراسيمُكُمْ عيَّرَني المسلمون، وطعنوا في ديني، وسقطتُ من أعينهم.

فإنْ أرادني ملككم دخلْتُ عليه كما أدخُل على خليفة المسلمين، وإنْ كرِهَ هذا فليَقْرأ كتابنا، ولْيَرُدَّ إلينا الجواب، ولا حاجة لَنَا في اللّقاء.

فقال ملك الروم: دعوه يدخُلُ هو ومن معه كما يشتهون، وأدْركَ الملك مكانة هذا الرسول.

حيلةُ القاضي تَغْلِب حيلة الملك:

علم ملك الرّوم أنّ رسول المسلمين إليه لا يسجد له علَىٰ عادة رعيّته إذا دخلوا عليه، فوضع سريره وراء باب قصير لا يدخل الداخل منه إلاّ راكعاً، ودُعي القاضي الباقلاّني ليدخل منه، فلمّا رآه باباً قصيراً فَطِن إلى أنّ

(١) تنظيم رَسَمُوهُ لتعظيم ملوكهم.

في الأمر حيلة يراد بها إدْخالُه على الملك وهو على هيئة راكعٍ له، فأدار ظهره وحناه ودخَل يمشي إلى خلفه مستقبلاً الملك بِدُبُره، حتى دنا منه، ثم رفع رأسه، ونصَبَ ظهره، وأدار وجهه إلى الملك.

فعجب الملكُ من فطنته وهابه، وقد دخل بنفيس ثيابه، وعمامته وطيلسانه.

براعته في إجابته:

لمّا وقع بصر ملك الروم عليه أدناه منه، ورفعه فوق جميع الحاضرين، وسأله عن إصراره على الدخول عليه وهو بكامل كسوته.

قال القاضي الباقلّاني: بهذا الزّيّ ندخُلُ على ملكنا الأعظم جلّ جلاله، وندخُلُ على سلطاننا الأكرم، الّذي أمرنا الله ورسوله بطاعته، فلماذا تنكرون عليّ هذا، وأنا رجُلٌ من عُلَماء المسلمين، إنّني إن دخَلْتُ عليكَ بغير هيئتي أَهَنْتُ العلْمَ ونَفْسِي، وذهَبَ جاهي عنْدَ المسلمين.

فقال ملك الروم لترجمانه: قل له: قد قبلنا عُذْرَك، ورفعنا قدرك.

وسلّم القاضي كتاب عضد الدولة للملك، وكان في الكتاب عبارة:

«وإنّي أرسَلْتُ لِسَانَ أهْلِ الملّة تعظيماً لكَ وتكريماً».

فسأل الملك عن المراد بعبارة «لسان أهل الملّة».

فأبان له القاضي ما حباه الله من علم يستطيع به أن يرُدَّ على أهل الملل والنّحل المخالفة لمبادىء الإسلام وعقائده وشرائعه.

وأنزلهم الملك في منزل ضيافةٍ أعَدَّهُ لهم.

حيلة عجيبة يحفظ بها القاضي رزانته:

أراد ملك الروم أن يستخفّ القاضي الباقلّاني بالطّرَب، فأحضره في مجلس موسيقي، وفيه آلة طربٍ ما سمعها سامع إلاّ طرِبَ واستخفّتْه.

فلمّا سمعها الباقلاّني خاف على نفسه من أن تظهر عليه حركةٌ فيها خفّة بحضرة ملك الروم، فاجتهد في معالجة رجله، حتّىٰ أحدث بها جرحاً خرج منه دمٌ كثير، فشغله الألم عن الطّرَب، فلَمْ تظهَرْ عليه حركة ما تشعر بأنّ السَّماعَ قد استخفّه.

فعجب ملك الروم من رزانته، ثم لمّا اكتشف حيلته تحقّق من أنّ الرَّجُل وافر الهمّة عالي العزيمة.

دعوتُه إلى مائدة الملك:

ولمّا كان يوم الأحد بعث إليه ملك الروم، وطلب حضوره إلى مائدته، وقال له رسول الملك، من شأن الرسول أن يحضُرَ مائدة الملك، ويجيب إلى طعامه، ولا ينقص شيئاً من الرسوم المتّبعة.

فاعتذر القاضي عن اتّباع رسوم مائدة الملك، وعن تلبية الطلب، وقال: أخشىٰ أن يكون على مائدة الملك لحوم الخنازير، أو شيءٌ ممّا حرّمه الله ورسولُه على المسلمين.

فعاد رسولُ الملك يبلغه بأنّ الملك يقول له: ليس على مائدتي ولا في طعامي شيءٌ تكرهه، وما أنت عندنا كسائر الرُّسُل بل أعظم.

وحضر القاضي المائدة، وأوهم أنّه يأكُلُ إلاّ أنّه لم يأكُلْ شيئاً، ولمّا انتهىٰ مجلس المائدة نشر الخدم البخور والعطور.

حوار مع الملك في مجلس أوّل:

بعد استكمال مراسيم المائدة، واستقرار المدعوّين في مجالسهم، قال ملك الروم للقاضي سائلاً:

هذا الّذي تدّعونه من معجزات نبيّكُمْ من انشقاق الْقَمر، كَيْفَ هو عندكم؟.

قال القاضي: هو صحيح عندنا، وقد انشقَّ الْقَمر على عهد محمّد رسول الله ﷺ، حتّىٰ رأىٰ النّاس ذلك، وإنّما رآه الحاضرون ومن اتّفَق نظرُهُ إليه في تلْك الحال.

قال الملك: وكيف تثبتُ انشقاقَه مع أنّ الناس في غير بلادكم لم يَرَوْه؟!.

قال القاضي: لأنَّهم لم يكونوا على أُهْبَةٍ ووعْدٍ لانشقاقه حتى يتوجّهوا لمشاهدته.

قال ملك الروم متهكّماً: هل بينكم وبين القمر نسبةٌ أو قرابة؟!. لأيِّ شيءٍ لم تعرفِ الرُّوم وسائرُ الناس انشقاقه، وإنّما رأيتموهُ أنتم خاصة، مع أنه في السماء وهو غير مختصٌ بكم؟!.

قال القاضي: هل بينكم وبين المائدة الّتي أنْزلَها الله لعيسَىٰ من السماء استجابةً لطلَب الحواريين نسبةٌ أَوْ قَرابة؟!.

فأنتم وحدكم الذين رأيتموها دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد، حتّىٰ اليونان جيرانكم، فإنَّهم جميعاً يُنْكِرُونَها، فَهَلْ أنتم وحدَكُمْ رأيتموها دون غيركم؟!.

فلم يجد الملك جواباً بل انقطع متحيّراً.

حوارُه مع أحد القساوسة:

وأمر الملك بإحضار أحد قساوسته ليحاور القاضي الباقلاّني حول الموضوع نفسه.

قال القاضي: فجاءوا برجل كالذئب، أشقر الشعر مُسْبَلِه، فقعد للمحاورة، وحكَيْتُ له قصة الحوار مع الملك.

قال القسّيس: الذي قاله القاضي لازم، وهو الحقّ، ولا أعرف جواباً إلاّ ما ذكره.

وقال القاضي للقسيس: ألستَ تَرىٰ أنَّ الأرْض كرويّة؟.

قال القسّيس: بلىٰ، هي كرويّة.

قال له القاضي: أفتنكر أن يُرَىٰ في هذا الإقليم ما لا يُرَىٰ في إقليم آخرَ، كالكسوف يُرَى في موضع دون موضع، وكذلك كواكب السّماء تُرىٰ في موضع دون غيره، أم تقول: إنّ الكسوف إذا وقع رآه أهل الأرض كلُّهم؟!.

قال القسّيس: بل لا يراهُ إلاّ من كان في محاذاته.

قال القاضي: فما الداعي لإنكار انشقاق القمر إذا كان في ناحيَةٍ لا يَراهُ فيها إلاّ أهْلُ تلك الناحية، ومن تأهَّبَ للنظر إليه، أمّا من أعرض، أو كان في أمكنة لا يُرىٰ القمر منها فإنه لا يَراه.

قال القسيس: هو كما قُلْتَ، إنَّما الكلام في الرُّواة الّذين نقلوا الخبر.

قال الملك: وكيْفَ يُطْعَنُ في الرُّواةِ.

قال القسّيس: مثل هذه الآيات إذا صحّت وجبَ أن ينقُلَهُ الجمُّ الغفير، حتّى يتَّصِل بنا العلمُ به، ولو كان كذلك لوقَعَ عندنا العلم الضروريُّ به، فلمَّا لم يقَعْ لنا العلم الضروريُّ به دَلَّ على أنّ الخبر مفتَعَلٌ وباطل.

فالتفت الملك إلى القاضي الباقلاّني وقال له: هاتِ الجوابَ.

قال القاضي: يلزمه في نزول المائدة من السماء ما لزمني من انشقاق القمر، فيُقَال له: لو كان نزول المائدة صحيحاً لوجب أن ينقُلَه العدد الكثير، فلا يبقى يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ولا وثنيٌّ إلاّ وهو يعْلَم هذا بالضرورة، ولمّا لم يَعْلَمُوا ذلك بالضرورة، دلّ علىٰ أنّ الخبر كذب.

فبهت القسّيس والملك، ومن ضمَّهُمْ المجلس، وانتهى المجلس على هذا.

حوار مع الملك في مجلس آخر:

ودعا ملك الروم القاضي الباقلاني إلى مجلس آخر.

فقال الملك: ما تقولون في المسيح عيسى ابن مريم؟

قال القاضي: هو روح الله، وكلمتُه، وعبْدُهُ، ونبيُّهُ، ورسُولُه، كمثل آدم خَلَقَهُ من تراب، ثم قال له: كنْ فيكُون، وتلا قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾.

قال الملك: تقولون: المسيح عبْدٌ؟

قال القاضي: نعم، كذا نقولُ، وبه نَدِين.

قال الملك: ولا تقولون: إنَّه ابْنُ الله؟

قال القاضي: معاذ الله، وتلا قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

وقال القاضي: إنكم لتقولون قولاً عظيماً، فإذا جعلْتُم المسيحَ ابنَ الله، فمن كانَ جَدُّهُ وأخوهُ وعَمُّه وخالُه وسائر الأقارب؟!

فتحيّر الملك.

قال الملك: الْعَبْدُ يَخْلُق ويُحْيِي ويميتُ، ويُبْرِىء الأَكْمَه والأبْرَص؟

قال القاضي: لا يَقْدِرُ العبدُ على ذلك، وإنّما ذلك كلُّه من فعل الله تعالى.

قال الملك: كيف يكون المسيح عبداً لله، وخلْقاً من خلْقِه، وقد أتَىٰ بهذه الآيات، وفعلَ ذلِكَ كُلَّه؟!

قال القاضي: معاذ الله، ما أحيا المسيحُ الموتى، ولا أبرأ الأكْمَه والأبرص.

فتحيّر الملك وقلَّ صبْرهُ، وقال: أتُنْكِرُ ذا مع اشتهاره في الخلق، وأخْذِ الناس له بالقبول؟

قال القاضي: ما قال أحَدٌ من أهل الفقه والمعرفة: إنَّ الأنبياء يفعلون المعجزات من ذاتهم، وإنما هو شيءٌ يفعله الله تعالَىٰ على أيديهم تصْديقاً لهم، وهو يَجْرِي مَجْرَىٰ الشهادة لهم بأنَّهُمْ صادقون.

قال الملك: إنّ آيات عيسَىٰ موجودةٌ عندكم في كتابكم.

قال القاضي: أيها الملك، في كتابنا أنَّ ذلك كلّه كان بإذْن الله تعالى، وتَلا عليه قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

وتلا عليه قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ

ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

وقال القاضي للملك: إنّما فعل المسيحُ ذَلِكَ كُلَّهُ بإذْنِ اللَّهِ وحْدَهُ لاَ شريكَ له، لا مِنْ ذَاتِ المسيح، ولو كان المسيح يُحْيِـي الموتَىٰ ويبرِىءُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ من ذاته وقوّته لجاز أنْ يُقَال: إنَّ موسَىٰ فَلَقَ الْبَحْرَ وأخْرَجَ يَدَهُ بيضاء من غَيْرِ سُوءٍ منْ ذاته.

إنّ معجزاتِ الأنبياء عليهم السّلام ليسَتْ من أفعالهم دُونَ إرادة الخالق فلمَّا لم يَجُزْ هذا لَمْ يَجُزْ أَنْ تُسْنَدَ المعجزاتُ التي ظهرت على يَدِ المسيحِ إلَيْهِ.

قال الملك: كلُّ الأنبياء من آدم إلى مَنْ بَعْدَهُ كَانُوا يتضَرَّعُونَ للمسيح حتَّىٰ يفْعَلَ لَهُمْ ما يَطْلُبُون.

قال القاضي: هذه دعوى يستطيع أن يدّعيَ مثْلها كُلُّ أتباع الرُّسُل، أفي لسان اليهود عظم حتَّىٰ لا يَقْدِرُوا أن يقولوا: إنَّ المسيح كان يتضَرَّعُ لموسَىٰ، وكذلك أتباعُ كلّ رسولٍ، يستطيعون أن يقولوا: إنَّ عيسَىٰ كان يتضرّعُ لرسولهم.

قال أَحَدُ أساقفة الملك: ما فَعَلَتْ زَوْجَةُ نبيِّكُمْ؟ وما كَانَ مِنْ أَمْرِهَا فيما رُمِيَتْ به؟

قال القاضي الباقلاني: هُمَا أمرأتانِ ذُكِرَتَا بِسُوءٍ، مريم وعائشة، فبرَّأَهُمَا اللَّهُ عزّ وجلّ، وكانَتْ عائشة ذاتَ زوْجٍ ولَمْ تأتِ بوَلَد، وأَتَتْ مَرْيَمُ بوَلَدٍ، ولم يَكُنْ لها زوْج.

فَبُهِتَ مَنْ فِي مَجْلِس الْمَلِك.

حوارٌ مع الملك في مجلس ثالث:

قال القاضي للملك لِمَ اتَّحَدَ اللاهوتُ بالنّاسُوت؟! (أي: لِمَ اتّحَدَتِ الطبيعَةُ الرَّبَّانيَّة بالطبيعَةِ البشريَّة).

قال الملك: أراد اللَّهُ أنْ ينجّي الناسَ من الهلاك.

قال القاضي: وهَلْ دَرَىٰ اللَّهُ بأنَّهُ سَيُقْتَلُ ويُصْلَبُ ويُفْعَلُ به ذلك؟. فإنْ قُلْتَ: إنّه لم يَدْرِ ما كان اليهود يريدون به بطَلَ أنْ يكون إلَهاً، وإذا بطل أن يكونَ إلَهاً بطل أن يكون ابناً لِلَّهِ، وإنْ قُلْتَ: إنَّهُ دَرَىٰ، ودخَلَ في هذا الأَمْرِ وهو عالِمٌ به، فهو ليس بحكيمٍ، لأنّ الحكمةَ تَمْنَعُ من التَّعَرُّضِ للبلاء.

فلم يجد الملك ما يجيب به.

إفحامُه للملك وكبير بطاركته ومن معه من رؤساء ملّتِهم في مجلس رابع:

وفي مجلس رابع بمحفل من محافل النصارى دعا ملك الرُّوم القاضي الباقلاّني لحضوره، ليُرِيَه المظاهرَ الباهرة الّتي يتخذونها احتفاءً بدينهم، وبرؤساءِ ملّتهم، عسَىٰ أن يتأثر بهذه المظاهر المدهشة الّتي لا نظير لها عند المسلمين.

وفي اليوم المحدّد الموعود حضر الباقلاّني هذا المجمع الحافل، الذي بالَغُوا في زيناته.

فأدناه الملك ولاطفه، وأجْلَسَهُ على كرسِيٍّ دون سريره بقليل، والملِكُ في أُبَّهَتِهِ وخاصّته، وعليه التاج والألبسة الدُّرّيَّة، ورجال مملكتِه على مراتِبهم.

وبينما هم على ذلك، إذْ جاء في آخِرِ النَّاسِ بَطْرَكُهُمْ الأعظم، وهُوَ قَيِّمُ دِيانتهم، وكان قد أوعز إليه الملِكُ بالتحفُّظِ من قاضي المسلمين الباقلاّني، وأبان له أنّه داهية، وعسَىٰ أنْ يتعلَّق منه بسقطة، أو يَعْثرَ منْه على زَلَّةٍ.

وأقْبَلَ كبير البطاركة محفوفاً بأتباعِه في زِيٍّ حَسَنٍ يتْلُونَ الأناجيل، ويَنْشُرون البخّور.

فلمّا توسَّطَ المجلس قامَ الملك ورجالُه تعظيماً له، فقضَوْا حقَّهُ من الاحترام والتعظيم، وتَمَسَّحُوا بأطرافه، وأجْلَسَهُ الملك إلى جَنْبه، وأقبَلَ الملك على القاضي الباقلاّني، وقَالَ له: يا فقيه، هذا البطرك، قيِّمُ الدّيانة، ووليُّ النِّحْلَة.

فسَلَّمَ القاضي عليه أحفل سلام، وسأله: كيف الأهْلُ والأولاد؟.

فعظُمَ قولُهُ هذا على البطرك، وعلىٰ جميع القوم، وتغيَّرُوا له، وأنكَرُوا على أبـي بكر الباقلاّني قوله.

قال القاضي: وَمَاذا أنكرتُمْ من كلامي؟.

قال الملك: إنَّنا نُنَزِّهُ هؤلاء عن الزوجة والولد.

قال القاضي: يا هؤلاء، تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الزوجة والولد، وتَرْبَؤُون به عنْ ذلك، ولا تستعظمونه لربكم عزَّ وجْهُهُ، فتُضِيفُون ذلك إليه.

سَوْأَةً لهذا الرأي ما أبْيَنَ غلَطه.

فَسُقِطوا في أيديهم، وبُهتُوا، وانْكَسَرُوا، ولم يُحِيرُوا جواباً، وتداخلتْهم هيْبَةٌ عظيمة له.

خاتمة أحداث سفارة القاضي الباقلاني:

ثم قال ملك الروم لبطركه: ما ترى في أمْرِ هذا الشيطان؟.

قال البطرك: تقضي حاجته، وتُلاطفُ صاحبَه، وتبعث بالهدايا إليه،

وتُخْرِج هذا العراقيّ من بَلَدِكَ من يومك هذا، وإلاّ لم آمَنِ الفتنة به على النصرانية.

ففعل الملك ذلك، وأحْسَنَ جواب عَضُدِ الدّولة، وأحْسَنَ هداياه، وعجّل بتسريح القاضي أبي بكر الباقلاّني، وبعث معه عدداً من أسارى المسلمين، والمصاحف التي كانوا قد استولوا عليها، ووكَّلَ بالقاضي من جِنْدِهِ من يحفظه، حتّىٰ يَصِل إلى مأْمَنِه.

* * *

خاتمة الكتاب

هذا ما فتح الله به عليّ في موضوع هذا السّفر المتعلّق بفقه الدعوة إلى الله، وفقه النُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنّهْي عن المنكر.

وقد دوّنت معظم بحوثه استخراجاً من كتاب الله المجيد، ومن سيرة الرسول ﷺ الشريفة، وسنته المطهّرة، بطريقة مباشرة، ثم من النظر في سِيَر طائفة من دعاة الإسلام الموفقين وعلمائهم وفقهائهم ووعاظهم المؤثرين، ولم أهمل الاطّلاع على معظم ما كُتِبَ في هذا الموضوع قديماً وحديثاً، مستفيداً منها عناصر أفكار، ومفاتيح بحوث، وأمثلةً وشواهد.

وكان لي في هذا السّفر منهجي العلمي الخاصّ الذي تمرّسْتُ بالتزامه في كلّ ما كتَبْتُ من كُتُبٍ فتح الله بها عليّ، وقد حاوْلتُ استقصاء كلّ النصوص القرآنيّة الّتي ظهر لي أنّها مشتملة على عناصر فكريّة تتّصل بموضوعه، ودرسْتُها دراسة تدبُّر، لأستخرج منها عناصر وأحكام ووصايا فقه الدعوة إلى الله، وفقه النُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأُنبّه عليها في أبْوابها وفصولها حسب مقتضيات التصنيف العلميّ، الملتزم بروابط النظام الشجريّ ذي الجذور والفروع وفروع الفروع، حتى الأوراق والثمرات.

وأرجو أن يسير حمَلَةُ الرسالة على منهاجها العامّ، وأنْ يستفيدوا من التحرّك في مسالكها بحسب مقتضيات الأحوال.

وقد استفدت لدى كتابتي هذا السفر من مخزونات المعرفة الّتي تراكمت لديّ، من علوم عقليّة وفلسفيّة واجتماعية، ولا سيما علوم التربية والنفس والاجتماع والإعلام، وكان لهذا المخزون الذي كنت أستعيد مراجعته أحياناً تأثيرٌ في التصنيف وبناء أفكار البحوث بناءً شجريًّا، وفي كثير من الأفكار الصحيحة أو الراجحة القابلة للأخذ بها، أو الانتفاع منها.

وقد فتح الله عليّ باستخراج قواعد عامّة ينبغي لحامل الرسالة أن يستذكرها دواماً، حتّىٰ تكون هادية له في مسيرته وهو يؤدّي رسالته.

ولا أزعم أنّني استوفيتُ بهذا السّفر كلّ ما يتعلّق بموضوعه استخراجاً واستنباطاً واستنتاجاً، لكنّ الله قد فتح عليّ فيه كثيراً ممّا لم أجِدْهُ لدىٰ مَنْ كتَب في موضوعه قبلي، وكان هذا الفتح ببركة رجوعي رجوعاً مباشراً إلىٰ تدبُّر ما في كتاب الله عزّ وجلّ تدبُّراً بتعمُّق وأناة.

ولا يفوتني أن أثني على الباحثين قبلي في هذا الموضوع، فطبيعة الدراسات الإنسانية أن تعتمد في المجتمع البشريّ علىٰ التراكم والتكامل، واستفادة اللّاحق من السابق.

وأرجو أن يأتي بعدي باحثون يضيفون أو يعدّلُون، أو يجمعون بين الإضافة والتعديل.

وأنا مدركٌ تماماً أنّ كثيراً من بحوث هذا السفر قابلة للاختصار، إلاّ أنّ الاستخراج المباشر من النّصوص القرآنيّة، مع التأمُّلاتِ التدبّريّة، أُمورٌ تلجىء الباحث إلى البسط، للإقناع بما أوصله إليه تدبُّره.

وأسأل الله الجليل المنّان، أنْ ينفع بهذا السّفر وبما احتوى من قواعد ومناهج ومسالك ووسائل ونصائح ووصايا، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

مكة المكرمة

في يوم السبت ٧ ربيع الثاني/ ١٤١٦هـ

الموافق لـ ٢/ ٩/ ١٩٩٥م

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني

فهرس المجلد الأول

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الباب الثاني

الصفات التي يجب أن يتحلّىٰ بها حَمَلَةُ الرسالة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

البـاب الثالـث
قواعد ووصايا كليّة عامة
وبيان لطائفة من آفات حملة الرسالة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع
مناهج توصيل الرسالة وسبُلها ووسائلها وأدواتها

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

فهرس المجلّد الثّاني

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
ثامناً: أخذاً ممّا جاء في سورة (الحجر)	١٠٤
تاسعاً: أخذاً من سورة (الأنعام)	١٠٦
عاشراً: أخذاً من سورة (الصافات)	١٠٦
أحد عشر: أخذاً من سورة (غافر)	١٠٦
اثنا عشر: أخذاً من سورة (فُصّلت)	١٠٧
ثلاث عشرة: أخذاً من سورة (الزخرف)	١٠٨
أربع عشرة: أخذاً من سورة (الذاريات)	١٠٨
خمس عشرة: أخذاً من سورة (المؤمنون)	١٠٩
ست عشرة: أخذاً من سورة (السجدة)	١٠٩
سبع عشرة: أخذاً من سورة (الطور)	١١٠
ثماني عشرة: أخذاً من سورة (المعارج)	١١١
تسع عشرة: أخذاً من سورة (الروم)	١١٢
عشرون: أخذاً من سورة (الأحزاب)	١١٢
إحدى وعشرون: أخذاً من سورة (الرعد)	١١٣
اثنان وعشرون: أخذاً من سورة (الإنسان)	١١٤
تفصيل التعليمات من السّور	١١٦
١ - شرح التعليم الأول من سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا	١١٦
٢ - شرح التعليم الثاني من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا	١٢١
٣ - شرح التعليم الثالث من سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا	١٣٣
٤ - شرح التعليم الرابع من سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) وقد اشتمل على وصيّة واحدة	١٣٧

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
النموذج الأول: دعوة مؤمن آل فرعون لقومه انتصاراً لموسى عليه السلام ولدعوته	٣٨٧
١ ـ نظرة إجمالية عامّة	٣٨٨
٢ ـ منهج مؤمن آل فرعون في الدعوة إلى الله	٣٩٣
٣ ـ التدبّر التحليلي للنص	٣٩٦
النموذج الثاني: دعوة مؤمن أصحاب القرية التي جاءها المرسلون وانتصاره لهم ولدعوتهم	٤٢٤
١ ـ نظرة إجمالية عامّة	٤٢٥
٢ ـ منهج مؤمن أصحاب القرية في الدعوة إلى الله	٤٢٦
٣ ـ التدبّر التحليلي للنصّ المبين قصة الرسُل الثلاثة	٤٢٩
٤ ـ التدبّر التحليلي للنّصّ المبيّن قصّة مؤمن أهل القرية	٤٣٤
النموذج الثالث: دعوة النفر من الجنّ الذين عرضت قصتهم سورة (الجنّ)	٤٤٣
١ ـ نظرة إجمالية عامّة	٤٤٣
٢ ـ المنهج الدعويّ الذي اتخذه النفر من الجنّ الذين أخبر الله عنهم في سورة (الجنّ)	٤٤٤
٣ ـ التدبّر التحليلي للنصّ	٤٤٦
النموذج الرابع: دعوة النفر من الجنّ الذين عرضت قصتهم سورة (الأحقاف)	٤٥٩
١ ـ نظرة إجمالية عامّة	٤٥٩
٢ ـ المنهج الدّعوي الذي اتخذه النفر من الجنّ الذين أخبر الله عنهم في سورة (الأحقاف)	٤٦١
٣ ـ التدبّر التحليليّ للنصّ	٤٦٣

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

آثار المؤلف

أوّلاً: في سلسلة أعداء الإسلام

١ ـ مكايد يهودية عبر التاريخ	٤٤٠ صفحة
٢ ـ صراع مع الملاحدة حتى العظم	٥٠٠ صفحة
٣ ـ أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها «التبشير والاستشراق والاستعمار»	٦٨٠ صفحة
٤ ـ الكيد الأحمر «دراسة واعية للشيوعية»	٤٠٠ صفحة
٥ ـ غزو في الصميم «دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي في مجالات التعليم المنهجي والتثقيف العامّ»	٣٣٤ صفحة
٦ ـ كواشف زيوف في المذاهب الفكريّة المعاصرة	٧٥٠ صفحة
٧ ـ ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، مع دراسة شاملة للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين	مجلدان ١٤٠٠ صفحة
٨ ـ أجوبة الأسئلة التشكيكية الموجهة من قبل إحدى المؤسسات التبشيرية العاملة تحت تنظيم الآباء البيض	١١٨ صفحة

ثانياً: في طريق الإسلام

١ ـ العقيدة الإسلامية وأُسُسُها	٨٠٠ صفحة
٢ ـ الأخلاق الإسلامية وأسسها	مجلدان ١٥٠٠ صفحة

٣ ـ براهين وأدلّة إيمانية (مع ديوان، آمنت بالله) ٥٠٠ صفحة

٤ ـ الصيام ورمضان في السنة والقرآن

«دراسة في طريق بحوث فقه الكتاب والسنة» ٤٨٠ صفحة

٥ ـ أسس الحضارة الإسلاميّة ووسائلها ٤١٢ صفحة

٦ ـ روائع من أقوال الرسول ﷺ

«دراسة لغوية وفكرية وأدبيّة ٥٧٥ صفحة.

٧ ـ الأمة الرّبانية الواحدة ١٢٢ صفحة.

٨ ـ ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة ٤١٦ صفحة

٩ ـ تيسير فقه فريضة الزكاة

«تبيين وتقنين وترجيح» ٨٢ صفحة

١٠ ـ فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجلدان ١٢٥٠ صفحة

ثالثاً: دراسات قرآنية

١ ـ قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ ٨٠٠ صفحة

٢ ـ تدبر سورة (الفرقان) في وحدة موضوع ٤٥٠ صفحة

٣ ـ تفسير سورة (الرعد) في وحدة موضوع ٢٩٠ صفحة

٤ ـ أمثال القرآن وصُوَرٌ من أدبه الرفيع ٤٠٠ صفحة

٥ ـ نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد

«دراسة في طريق التفسير الموضوعي» ٣٧٢ صفحة

رابعاً: سلسلة من أدب الدعوة الإسلامية

١ ـ مبادىء في الأدب والدعوة ١٧٧ صفحة

٢ ـ ديوان «آمنت بالله» شعر ٨٠ صفحة

٣ ـ ديوان «ترنيمات إسلاميّة» شعر للنشيد ١٢٥ صفحة

٤ ـ ديوان «أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدّعاة» ٢٥٥ صفحة

٥ ـ البلاغة العربية

«أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها»

بهيكل جديد من طريف وتليد مجلدان ١٢٠٠ صفحة

خامساً: كتب متنوعة

١ ـ ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ٤٧٠ صفحة

٢ ـ بصائر للمسلم المعاصر ٤٥٥ صفحة

وغير ما ذكر من متفرّقات

* * *

اقــرأ للمؤلــف

في آخر ما أخرج للناس من كتب

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَقَوْمُهُ

في القُرْآن المجِيدِ

دِرَاسَة

في طَرِيقِ التَّفْسِيرِ المَوْضُوعِي

قواعد

التدبر الأمثل

لكتاب الله عز وجل

تأملات

طبعة ثانية مزيدة زيادات واسعة

دار القلم
دمشق

تدبر سورة الفرقان

في وحدة موضوع

وهي السورة الثانية والأربعون بحسب ترتيب النزول

تدبر بمنهج كتاب

قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل

دار القلم

دمشق